د.عبد الوهاب المسيرى

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

الموسوعة
الموجـزة
فى جزأين

المجلـد
الأولـ

مركز زايد للتنسيق والمتابعة
Zayed Centre for Coordination & Follow-up

دار الشروق

موسوعة
اليهود
واليهودية
والصهيونية

د. عبد الوهاب المسيرى
الموسوعة الموجزة

الطبعة الأولى ٢٠٠٣
الطبعة الثانية ٢٠٠٥
الطبعة الثالثة ٢٠٠٦
الطبعة الرابعة ٢٠٠٨
الطبعة الخامسة ٢٠٠٩

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

عبد الوهاب المسيرى

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

الموسوعة الموجزة فى جزأين

المجلد الأول

دار الشروق

إهــــــداء

إلى المفكــر والأديـب والصــحفى

الأســـتاذ محمــد حســنين هيكل

الصديق والمعلم،،،،

عبدالوهاب المسيرى

تنويـــه

● تنقسم هذا الموسوعة الموجزة إلى مجلدين، يحتوي كلٌّ منهما على ثلاثة أجزاء على النحو التالي:

المجلد الأول:

الجزء الأول: إشكاليات تتصل بالنظرة إلى الجماعات اليهودية.

الجزء الثاني: ثقافات الجماعات اليهودية.

الجزء الثالث: تواريخ الجماعات اليهودية.

المجلد الثاني:

الجزء الأول: اليهودية ـ المفاهيم والفرق.

الجزء الثاني: الصهيونية.

الجزء الثالث: إسرائيل.

● يوجد في بداية كل مجلد فهرس موضوعي بالأجزاء والملفات والمداخل. ومواد المجلدين مرتبة ترتيباً منطقيا بحيث يمكن قراءة الموسوعة ككتاب.

● يضم كل جزء عدة ملفات، ويضم كل ملف بدوره عدداً من المداخل تدور حول موضوع محدد. فالجزء الأول من المجلد الثاني، على سبيل المثال، يضم واحداً وثلاثين ملفا، الخامس منها عنوانه "الكتب المقدسة والدينية" ويضم المداخل التالية: الكتب المقدسة والدينية ـ أسفار موسى الخمسة ـ الوصايا العشر ـ تفسير العهد القديم ـ نقد العهد القديم ـ الأنبياء والنبوة ـ أنبياء اليهود.

● يوجد فهرس ألفبائي بكل مداخل الموسوعة في نهاية المجلد الثاني.

● يوجد في بداية المجلد الأول ثبتٌ بالمفاهيم والمصطلحات الأساسية مرتبة موضوعيا حسب تسلسلها المنطقي. وهذا الثبت يشكل الإطار النظري لكل مداخل الموسوعة. ولذا، فإننا ندعو القارئ إلى أن يقرأه بعناية قبل البدء في قراءة الموسوعة أو استخدامها.

● أوردنا قبل الثبت الموضوعي ثبتاً ألفبائيا بكل المفاهيم والمصطلحات، وأوردنا بعد كل مفهوم أو مصطلح الرقم الخاص به، بحيث يَسهُل على القارئ الرجَوع إلى المصطلح أو المفهوم اعتماداً على الرقم. فإذا كان القارئ يبحث، على سبيل المثال، عن معنى مصطلح «الطبيعة/ المادة» فإنه سيجده تحت حرف الطاء في الثبت الألفبائي، وبجواره رقم (١٣)، فيذهب إلى المدخل رقم (١٣) في الثبت الموضوعي.

الفهرس الموضوعي

المجلد الأول

الجزء الثالث: تواريخ الجماعات اليهودية

مقدمة

تصدر هذه النسخة من الموسوعة لتخاطب شريحة من القرّاء ربما وجدت ما يمنع تواصلها مع النص الكامل الذي صدر منذ أعوام في ثمانية مجلدات. ورغم أن هذه النسخة تصدر في مجلدين فقط، فإنها تتناول كل القضايا النظرية والمفاهيم الفكرية التي تم بلورتها في الموسوعة في الطبعة الموسعة. وقد اختُصر المجلد الأول الذي كان يضم الإطار النظري في النسخة الموسعة في بداية هذه النسخة، حيث يجد القارئ ثبتاً بالمفاهيم والمصطلحات التي يقوم عليها النموذج التفسيري الجديد الذي يشكل صلب رؤيتي الفكرية.

وربما كان من الضروري لقارئ هذه الموسوعة أن يبدأ بقراءة المصطلحات والمفاهيم لأنها تشكل مفاتيح النسق الفكري الذي بُني عليه هذا العمل. وقد تم تقسيم الموسوعة إلى مجلدين يضم الأول منهما، إلى جانب المصطلحات والمفاهيم، جزءاً يتناول الإشكاليات النظرية التي تتصل برؤية الجماعات اليهودية، كبشر، واليهودية، كدين. إلى جانب جزء عن ثقافات الجماعات اليهودية، وثالث عن تواريخها. أما المجلد الثاني فيضم جزءاً موضوعه المفاهيم والفرق اليهودية، وآخر موضوعه الصهيونية فكراً وتاريخاً، وثالثا موضوعه الدولة الصهيونية (إسرائيل).

وقد شارك في إنجاز هذه النسخة المختصرة عدد من الباحثين والمحررين كان لهم الفضل في خروجها في هذه الصورة التي نراها مرضية وقادرة على توسيع دائرة انتشار هذا العمل بين دوائر قد لا تتمكن لأسباب عديدة من قراءة النسخة الموسعة.

وأود أن أتقدم بالشكر أولاً إلى زوجتي الدكتورة هدى حجازي، الأستاذ المتفرغ بجامعة عين شمس، التي تشاركني هذه الرحلة الفكرية بصبر وتعاون شديدين. كما أود أن أتقدم بالشكر للدكتور محمد هشام (المدرس بجامعة حلوان) لإشرافه على إنجاز هذا العمل. كما أشكر الدكتورة ماجدة أنور (المدرسة بجامعة المنوفية)، والدكتورة هبة غازي، والدكتورة يارا سمير (بكلية الطب)، والدكتورة جيهان فاروق (المدرس بكلية البنات جامعة عين شمس)، والأستاذة سوزان حرفي (بالإعلام)، والأستاذة ماريا الأتاسي (سكرتيرة تحرير **موسوعة إسرائيل**)، فقد قرأوا الموسوعة قبل نشرها وأدخلوا بعض التعديلات المهمة.

وأتقدم بشكر خاص للسادة الذين اشتركوا في تحرير هذه الموسوعة:

١ ـ الأستاذ ممدوح الشيخ، الكاتب والشاعر (مداخل المجلد الأول).
٢ ـ الأستاذ أحمد تهامي عبد الحي، المركز القومي للبحوث (معظم مداخل المجلد الثاني).
٣ ـ الأستاذ جلال الدين عز الدين، إسلام أون لاين (بعض مداخل الجزء الأول من المجلد الأول).

ولا يفوتني أن أشكر الأستاذ سيد طه (وزارة الموارد المائية والري) الذي أنجز الصف التصويري على الحاسب الآلي بجهد جدير بالتحية.

ولما كان هذا العمل قد تأسَّس على سابقه (النسخة الموسعة) فإنني أتقدم بالشكر لكل من ساهم في إنجازها (الأسماء مرتبة ألفبائياً، حسب اسم العائلة بدون أداة التعريف) وهم:

جلال أمين ـ نظام بركات ـ عزمي بشارة ـ خالد الحسن ـ سعيد الحسن ـ عادل حسين ـ جمال حمدان ـ أحمد صدقي الدجاني ـ حامد ربيع ـ يوسف زيدان ـ سمير فريد ـ فهمي هويدي ـ الأستاذ محمد حسنين هيكل ـ عبد القادر ياسين.

كما ساهم السادة التالية أسماؤهم:

د. هدى حجازي (الأستاذ بجامعة عين شمس) ـ د. أحمد حماد (الأستاذ بجامعة عين شمس) ـ نادية رفعت (باحثة كاتبة) ـ أحمد تهامي عبد الحي (باحث في حقل السياسة) ـ ياسر علوي (باحث في حقل السياسة) ـ إبراهيم محمد فريد (مدرس مساعد بجامعة عين شمس) ـ وسام محمد فؤاد (باحث في حقل السياسة) ـ د. أسامة القفاش (مفكر وناقد سينمائي) ـ محمد هشام (مدرس بجامعة حلوان) ـ كارم يحيى (صحفي بالأهرام).

وقدَّم مركز " **زايد للتنسيق والمتابعة** " بدولة الإمارات العربية المتحدة مساهمة مالية كريمة في تكلفة إصدار هذه الموسوعة الميسَّرة، وهي مبادرة تستحق الثناء، أملاً في أن تكون مستقبلاً سُنَّةً يستمر المركز في العمل بها فيدعم الأعمال الفكرية الجادة ليتيسر إخراجها للنور في صورة لائقة بحيث تتوافر لها مساحة انتشار أوسع.

والله من وراء القصد..

عبد الوهاب محمد المسيري
دمنهور ـ القاهرة
إبريل ٢٠٠٣

علامات الترقيم

يتسم استخدام علامات الترقيم في اللغة العربية بشيء من التراخي، إذ ينسى الكثيرون أن علامة الترقيم هي جزء أساسي من عملية الكتابة. ومما يجعل المشكلة تتفاقم أن الكتب الإرشادية التي تتناول قضية تحرير الكتب لم تتفق على القواعد الأساسية الخاصة بعملية الترقيم. وقد حاولنا في هذه الموسوعة أن نحدِّد بعض هذه القواعد ونلتزم بها.

ونظام الترقيم في هذه الموسوعة يدور بين نقطتين متطرفتين: النقطة والتي تعني الانفصال التام بين جملة وأخرى، والفصلة والتي تعني أقل أشكال الفصل بين عنصرين داخل الجملة، بل يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال الوصل. وما بينهما تقع أشكال الفصل والوصل الأخرى:

١ ـ النقطة (.): تُستخدَم للفصل بين جملتين، كل جملة تحتوي على فكرة مستقلة عن الأخرى.

٢ ـ المقطوعة: مجموعة من الجُمل التي تدور حول فكرة رئيسية وتنتهي المقطوعة بانتهائها. وحين تبدأ مقطوعة جديدة يُترك فراغ في أول سطر.

٣ ـ الفصلة (،): أهم علامات التنقيط في هذه الموسوعة وأكثرها شيوعاً، وتُستخدَم على النحو التالي:

(أ) لتقسيم الجملة لعدة عناصر: "في عام ١٩٧٥، قام كيسنجر. . . ".

(ب) للفصل بين عناصر مختلفة متوازية مع وجود حرف العطف: "ظهرت مشاكل عديدة لم يألفوها من قبل مثل تزايُد معدَّلات الاندماج، وتصاعُد نسبة الزواج المختلَط، وخطر الانصهار الكامل".

(جـ) تأتي الفصلة دائماً قبل كلمة «أي» حينما تدل على أن ما يأتي بعدها يُفسِّر ما قبلها.

(د) الجُمل الاعتراضية التي تربطها بالنص علاقة قوية، وفي هذه الحالة نستخدم فصلتين بدلاً من واحدة: "كان صمويل، باعتباره يهوديا مندمجاً، يرى. . . ".

٤ ـ الفصلة المنقوطة (؛): تقع الفصلة المنقوطة في قوتها بين النقطة والفصلة، وعادةً ما تحل محل حرف العطف «الواو» عند حذفه: "فتصبح الدنيا مرجعية ذاتها؛ مكتفية بذاتها؛ تستمد معياريتها من ذاتها".

٥ ـ النقطتان (:): تُستخدَمان على النحو التالي:

(أ) ما يأتي بعدهما قائمة بعناصر مختلفة مترابطة.

(ب) في عناوين المداخل والأبواب، ما يأتي بعدهما هو تعريف نطاق المدخل («الصهيونية: تعريف»).

(جـ) تفصل النقطتان بين رقم المجلد ورقم الصفحة في فهرس الأبواب والمداخل الألفبائي.

٦ ـ ثلاث نقاط (. . .): تعني أنه تم حذف بعض الكلمات أو الجُمل من مقطوعة مقتبسة.

٧ ـ علامتا التنصيص العاليتان (" "): تُستخدَمان في الأحوال التالية:

(أ) عناوين المقالات والأفلام والوثائق.

(ب) الاقتباسات.

(جـ) التحفظ: حين نضطر إلى استخدام مصطلح صهيوني ولا نوافق على مدلولاته على النحو التالي: "إن «عبقرية» إسبينوزا اليهودية".

ويُلاحَظ أننا لا نضع علامتي التنصيص للتحفظ إلا نادراً لأن الموسوعة بأسرها هي محاولة لتفكيك المصطلح الصهيوني وطرح مصطلحات جديدة ذات مقدرة تفسيرية عالية. ولذا فكثير من المداخل هي مناقشة للمصطلحات الصهيونية، ومن ثَمَّ لم تعد هناك حاجة لعلامتي التنصيص.

٨ ـ علامتا التنصيص المنخفضتان (« »): للإشارة إلى الكلمة باعتبارها كلمة: "إن كلمة «صهيونية» لها دلالات كثيرة".

٩ ـ القوسان ( ): يُستخدمان فيما يلي:

(أ) حين نأتي بترجمة لكلمة أو عبارة أعجمية أو بترجمة أعجمية لعبارة أو كلمة على النحو التالي: "إن عملية التفكيك (بالإنجليزية: ديكونستراكشن deconstruction) هي عملية شاملة". كما يمكن أن تأتي على النحو التالي: "تهشُّم الأوعية (شيفرات هكليم)".

(ب) الإحالات لمداخل أخرى، على النحو التالي: (انظر: «الصهيونية السياسية»).

(جـ) لفصل جُمل اعتراضية، علاقتها بالجملة الأصلية واهية.

١٠ ـ الأقواس المستطيلة [ ]: تُستخدَم الأقواس المستطيلة على النحو التالي:

(أ) إن أدخلنا عبارات من وضعنا على اقتباس على النحو التالي: "إرتس يسرائيل [في مصطلحنا «فلسطين المحتلة»] هي وطن الشعب اليهودي".

(ب) أقواس داخل أقواس: "(إن عملية التفكيك [بالإنجليزية: ديكونستراكشن deconstruction] هي عملية شاملة)".

١١ ـ الشرطتان (ـ ـ): تُستخدَم الشرطتان للدلالة على وجود جُملة اعتراضية، ولكن معنى الجملة لا يكتمل دونها.

١٢ ـ الشرطة الواحدة (ـ): تُستخدَم للفصل بين عناصر مختلفة في قائمة ترد بعد كلمة «مثل» وبدون واو العطف: "ثمة عناصر عديدة مكوِّنة للصهيونية مثل: الحلولية ـ الداروينية ـ البرجماتية".

١٣ ـ علامة الاستفهام (؟): تُستخدَم للاستفهام.

١٤ ـ أداة التعجب (!): تُستخدَم للتعجب.

١٥ ـ الشرطة المائلة (/): تُستخدَم لتكوين كلمة مركَّبة كأن نقول «الطبيعة/ المادة» أو «ديني/ قومي» أو «المدينة/ الدولة». وهي تعادل الشرطة القصيرة (بالإنجليزية: هايفن hyphen) في اللغات الأوربية.

وقد اضطررنا لاستخدام الشرطة المائلة بدلاً من الشرطة المستقيمة في قائمة عناوين المداخل التي تأتي في أول الباب لتمييزها عن الشرطة المستقيمة التي تفصل بين عناوين المداخل.

١٦ ـ بنط غامق: يُستخدَم على النحو التالي:

(أ) تُكتب عناوين الكتب والصحف ببنط غامق ولا ينطبق هذا على الكتب المقدَّسة (الإنجيل ـ العهد القديم). أما عناوين المقالات والأفلام والوثائق فتوضع بين علامات التنصيص.

(ب) عناوين الأبواب وأرقام المجلدات في الفهرس الألفبائي والإنجليزي.

١٧ ـ كل التواريخ في الموسوعة ميلادية، إلا إذا كان التاريخ الهجري له أهمية خاصة، ولم نحدِّد ما إذا كان التاريخ قبل الميلاد أو بعده إلا في حالة احتمال الالتباس، وعدم وضوح السياق.

١٨ ـ حاولنا قدر استطاعتنا أن نورد بالحروف العربية منطوق الكلمات المكتوبة بحروف أعجمية على النحو التالي: جوري Jewry. والهدف من هذا أن تصبح الكلمة أكثر أُلفة لدى القارئ العربي. كما أنها بمنزلة دعوة لمجمع اللغة العربية أن يضع قواعد ما يسمَّى «ترانسليتيريشن transliteration»، أي كتابة كلمات لغة بحروف لغة أخرى.

ثبت ألفبائي بالمصطلحات والمفاهيم الأساسية

ثبت موضوعي بالمصطلحات والمفاهيم الأساسية

١ ـ نموذج (إدراكي وتفسيري)

عندما يتجه الإنسان نحو ظاهرة ما مستهدفاً تفسيرها، فإنه يقوم بعدة خطوات حتى يصل إلى هذا التفسير، وحينما يرى الإنسان ظاهرة ما، فعليه التعامل مع عدد كبير من العلاقات والتفاصيل والحقائق والوقائع، وعندئذ يقوم العقل باستبعاد بعضها لأنه يعتقد أنها لا دلالة لها (من وجهة نظره)، ويستبقي البعض الآخر (وهذا هو التجريد). وتأتي بعد ذلك خطوة الربط بين العلاقات والوقائع والحقائق التي أبقاها، فينسقها تنسيقاً خاصا بحيث تصبح حسب تصوُّره مماثلة للواقع، أي أن تكون قادرة على تقديم صورة معبرة بشكل صحيح عن الواقع. وما ينتج عن عملية التجريد وتصوُّر العلاقات بين عناصر الظاهرة يسمَّى «النموذج»، فهو بناء يماثل الواقع، لكنه افتراضي، أي مُتخيَّل، ومع هذا تشبه العلاقات بين عناصره العلاقات الموجودة بين عناصر الواقع.

ومعنى هذا أن عقل الإنسان ليس آلة صماء محايدة تسجل الواقع بشكل فوتوغرافي، بل له دور فاعل في عملية الإدراك. إذ تنطوي عملية الإدراك على إعادة صياغة الواقع من خلال «النماذج». فكل عملية من عمليات الإدراك مهما بدت بسيطة تتم من خلال نموذج ما حتى ولو لم ينتبه المدرك لذلك. واستخدام النماذج أمر حتمي في كل من عمليات الإدراك والتفسير. فإن قلت "فلان دمنهوري" استدعيت للذهن صورة ذهنية مجردة للدمنهوري، أي نموذجاً إدراكيا تحاول من خلاله تفسير سلوك الشخص الماثل أمامك.

ولنضرب مثلاً، يدخل الطالب الجامعي المدرج عدة مرات إلى أن يكوِّن صورة ذهنية عن المحاضرة، وهي تكون على النحو التالي: أستاذ وطلبة يجلسون في مواجهته في المدرج. وهم ينصتون لأستاذهم الذي يلقي المحاضرة. هذه الصورة الذهنية مكوَّنة من عناصر (أستاذ ـ طلبة ـ مدرج) وعلاقات (الأستاذ يتحدث والطلبة جالسون في مواجهته ينصتون له). وقد استبعدت الصورة الذهنية عدة تفاصيل: ماذا يرتدي الأستاذ ـ عمره ـ عدد الطلبة . . . إلخ، هذه الصورة الذهنية هي «النموذج الإدراكي». إن دخل شخص مدرجاً بعد ذلك يحمل في ذهنه هذا النموذج الإدراكي ورأى طلبة يجلسون في مواجهة أستاذهم وينصتون له، فهو سيفسر ذلك من خلال نموذجه الإدراكي، الذي يمكن تسميته حينئذ «نموذج تفسيري».

٢ ـ أكثر تفسيرية وأقل تفسيرية

الهدف الأساسي من بناء النموذج استخدامه لتصنيف الظواهر وتفسيرها، وإذا تمكَّن النموذج من تفسير عدد من الظواهر أكثر من غيره من النماذج فهو أكثر تفسيرية منها، وإن كان عددها أقل فهو «أقل تفسيرية». ونحن نفضِّل استخدام هاتين العبارتين بدلاً من «ذاتي» و«موضوعي» لأنهما أكثر دقة. فالذاتية يُقصد بها كل ميول الباحث واتجاهاته الشخصية واقتناعاته الفكرية. أما الموضوعية فيُقصد بها كل ما له صلة بالظاهرة "موضوع" البحث، وعلى سبيل المثال فإن **الموسوعة البريطانية** تُعرِّف الصهيونية بأنها حركة "عودة اليهود لوطنهم القومي أو أرض أجدادهم أو الأرض التي وعدهم الإله إياها"، ونقل هذا التعريف كما هو لا يمكن اعتباره حياداً علميا أو موضوعية متجردة، فهو يعني أن فلسطين ليست أرض العرب، وأن اليهود شعب واحد. كما أن هذا التعريف غير قادر على تفسير سلوك الصهاينة الذين يفضلون الإقامة خارج الدولة التي أنشأتها الحركة الصهيونية، وبالتالي فهو مفهوم متحيز قدرته على تفسير الظاهرة محدودة.

كما أن مصطلحي «أكثر تفسيرية» و«أقل تفسيرية» لا يستبعدان دور العقل في عملية رصد الواقع (على عكس مصطلح «موضوعي»). فكل باحث يجتهد لتفسير ظاهرة يقدم تفسيره ويقول بكل تواضع "هذا هو اجتهادي وأعتقد أنه أكثر قدرة على التفسير، وأرجو أن تختبروا صحة ما توصلت إليه". أما عندما يقول "هذه هي الرؤية الموضوعية" فإنه بذلك يجعل تفسيره نهائيا ويرفض وجود اجتهادات أخرى.

٣ ـ التفكيك والتركيب

عبارة «فكَّ الشيء» تعني «فصَّله وفرَّق أجزاءه بعضها عن بعض»، وعكسها «ركَّب الشيء» أي «جعل بعضه فوق بعض». ولتفسير أية ظاهرة يقوم العقل بعمليتي تفكيك وتركيب، فيقوم أولاً بفصل أجزاء الظاهرة التي يدرسها بعضها عن بعض، ثم يقوم بإعادة ترتيبها وربطها بعضها بالبعض مكوِّناً صورة جديدة للظاهرة على أسس جديدة.

وأحياناً نستخدم كلمة «تفكيك» بمعنى آخر هو تفسير الظواهر الإنسانية تفسيرات مادية، أي أن يَردَّ الباحث كل الظواهر إلى ما

يسميه «أساسها المادي». والتفكيك بهذا المعنى يقوم به البعض لاقتناعه بأن الإنسان مجرد مادة مثله مثل أي حجر أو حشرة. وعملية التفكيك هنا يمكن اعتبارها عملية «تقويض» (هدم) لأنها تهدم إنسانية الإنسان وتنفي عنه تكريم الإله ووجود الروح. وعملية التفكيك هذه لا تتبعها عملية تركيب، وهو ما قامت به العلمانية الشاملة عندما فسرت الوجود الإنساني كله على أسس مادية (اقتصادية أو جنسية)، وهذا ما يفعله أيضاً أتباع المدرسة التفكيكية، وهي إحدى المدارس النقدية المعاصرة.

٤ـ نموذج اختزالي

«النموذج الاختزالي» هو النموذج الذي يختزل الواقع إلى عناصر بسيطة، وعادةً ما تكون عناصر مادية (اقتصادية أو جنسية).

٥ـ نموذج مركب

هو النموذج الذي لا يختزل الواقع وإنما يفسره على أساس مركَّب من العناصر المادية والمعنوية.

٦ـ نموذج معرفي

«النموذج المعرفي» هو النموذج الذي يحاول أن يصل إلى صيغ الوجود الإنساني الكلية. وبشيء من التبسيط نقول إن النماذج المعرفية كلها تدور حول ثلاثة عناصر أساسية: الإله ـ الطبيعة ـ الإنسان. ونحن نركِّز على الإنسان بوصفه الموضوع الأساسي للعلوم الإنسانية، وإذا أردنا دراسة صورة الإنسان في أي نموذج معرفي فيمكن أن نطرح عدة أسئلة:

هل الإنسان مجرد كائن مادي (دم ولحم) تجري عليه قوانين الطبيعة كأنه جزء منها لا ينفصل عنها كالجماد والنبات والحيوان؟ أم أنه كائن مادي وغير مادي في آن واحد يتميَّز عن غيره من الكائنات بالعقل وحرية الإرادة، وبأن له هدفاً وغاية ومعايير أخلاقية يحكم من خلالها على نفسه وعلى غيره؟

وهناك نوعان من التحليل مختلفان: التحليل السياسي والاقتصادي، وهو يكتفي برصد الظواهر السياسية والاقتصادية ويهمِّش العناصر الأخرى التي تحدد علاقة الإنسان بالكون والإله. النوع الثاني هو التحليل المعرفي، فكل خطاب سياسي أو اقتصادي مهما كان سطحياً يتأسس على نموذج معرفي سواء كان هذا النموذج ظاهراً أو كامناً. فإن قلنا إن قوانين السوق جوهر حركة المجتمع فإننا نكون قد قمنا بتفسير ظاهرة الإنسان بشكل اقتصادي سياسي، وإذا أخضعنا هذه العبارة نفسها للبحث لتوصلنا إلى أن صورة الإنسان هنا هي صورة إنسان مادي خاضع لقوانين الحركة خارجه، وبذلك نكون قد تجاوزنا المستوى السياسي والاقتصادي وصولاً إلى رؤية الكون (الله ـ الإنسان ـ الطبيعة)، وهذا هو المستوى المعرفي.

٧ـ بنية

عندما يلاحظ الإنسان ظاهرةً ما فإنه لا يراها باعتبارها مجموعة من العناصر المنفصلة وإنما باعتبارها مجموعة من العناصر التي تربطها شبكة من العلاقات. والظاهرة تشبه مبنى بُني هيكله من الأعمدة الخرسانية ثم بُنيت حوائطه وأضيفت له السلالم وأعمال الكهرباء والطلاء... إلخ. فشبكة العلاقات هي الهيكل الخرساني وهو ما نطلق عليه كلمة «بنية» أما ما عدا ذلك فهو العناصر المكوِّنة للبناء.

والبنية نوعان: «سطحية» و«عميقة»، البنية السطحية ظاهرة وتُدرك بالحواس الخمسة. أما البنية العميقة فإدراكها صعب يحتاج، إلى جانب استخدام الحواس، إلى إعمال العقل وإخضاع بعض الافتراضات للاختبار. وعادةً يعيش كل مجتمع داخل بنية (اجتماعية، تاريخية، ثقافية) تؤثر في سلوك أفراده دون وعي منهم.

وفي هذه الموسوعة عندما نقول "إن هذا الشيء لصيق ببنية المجتمع" فإننا نعني أنه جزء أساسي منه وليس مجرد شيء عرضي أو هامشي، حتى لو لم يدرك أعضاء المجتمع هذه الحقيقة. وعبارة مثل "معاداة اليهود البنيوية" تعني أن بنية العلاقات في مجتمع ما، بعد أن استقرت، تؤدي بالضرورة إلى معاداة اليهود، حتى لو لم يكن أعضاء المجتمع يكنون كراهية لليهود.

وثمة فارق بين كلٍّ من: بنية الشيء، وتاريخه، ووظيفته. فتاريخ الشيء هو أصول نشأته وعوامل تكوينه عبر الزمن. أما وظيفته فيُقصد بها دوره في المجتمع وتأثيره في غيره من عناصر الواقع عند احتكاكه بها.

أما البنية فهي تركيب الشيء في لحظة محددة. والفارق بين النموذج والبنية أن البنية شبكة العلاقات بين عناصر الظاهرة فهي واقع، أما النموذج فهو صورة شبكة العلاقات في العقل، فهو افتراضي.

٨ـ الصورة المجازية (الآلية والعضوية)

نستخدم عبارة «صورة مجازية» لنشير إلى تلك الصور التي تتواتر في فترة تاريخية ما وتُعبِّر عن رؤية الكون والنموذج المعرفي الحاكم فيها. وعادةً ما تُوجَد صورة مجازية تفسيرية أو إدراكية أساسية داخل كل نموذج معرفي. ونحن نرى ـ على سبيل المثال ـ أن الحضارة الغربية الحديثة تتأرجح أساساً بين صورتين مجازيتين أساسيتين: الصورة المجازية الآلية، التي ترى أن العالم يشبه الآلة؛ والصورة المجازية العضوية، التي ترى أن العالم يشبه النبات أو الحيوان. أما في عصر

ما بعد الحداثة فإن الصور المجازية المهيمنة تفيد التفتُّت وغياب المركز وضمور الإنسان وتهميشه.

٩ـ المبدأ الواحد

«المبدأ الواحد» مصدر وحدة الكون وتماسكه، وهو القوة الدافعة له التي تضبط وجوده، وهو قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء ولا يعلو عليها أحد، وهذه القوة هي النظام الضروري والكلي للأشياء الذي يمكن تفسير كل شيء من خلاله. وتختلف المذاهب الفلسفية والدينية والفكرية في رؤيتها لطبيعة المبدإ الواحد وعلاقته بالعالم (الطبيعة والإنسان)، إذ ترى بعض المذاهب أنه قوة روحية خالصة (الإله) تتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ منزَّهة عنها، مفارقة لها، بينما يراه البعض الآخر باعتباره قوة مادية خالصة (قوانين الحركة) كامنة (حالة) في المادة، جزء عضوي لا يتجزأ منها ولا وجود له خارجها. كما تراه بعض المذاهب باعتباره قوة روحية اسماً وشكلاً ومادية فعلاً (روح الشعب ـ إرادة الجماهير ـ العقل المطلق ـ الحتمية التاريخية) كما هو الحال في المنظومات الهيجلية (وضمنها الماركسية). ونحن نذهب إلى أن المبدأ الواحد من منظور العلمانية الشاملة هو الطبيعة/ المادة أو بعض التنويعات عليها.

١٠ـ المطلق والنسبي

«المطلق» هو التام الكامل الذي يتجاوز الزمان والمكان ولا يطرأ عليه تغيُّر فلا يزيد ولا ينقص ولا يختلف من مكان لمكان أو من زمان لآخر، ولذا فهو يتصف بالثبات والعالمية. والأخلاق لابد أن تستند إلى مطلق مثل "ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق". أما «النسبي» فهو ما يُنسب إلى غيره ويستمد منه وجوده ولا يُعرف بدونه، وهو ناقص متغيِّر يختلف باختلاف الزمان والمكان، وكل ما هو نسبي لا ينطبق على كل البشر ولا يعتبر ثابتاً ولا عالميا. كأن يحب الإنسان نوعاً معيناً من المأكل أو الملبس، فهذا أمر مرتبط بالزمان والمكان والمزاج ولا يمكن أن يكون ملزماً لكل البشر في كل زمان ومكان.

١١ـ القداسة

«الشيء المقدَّس» يتم فصله عما حوله ويحاط بطقوس تفرض ألا يتصل به أحد إلا بعد طقوس تمهيدية يتطهر فيها ليصبح مؤهلاً للاتصال به. وفي المنظومات التوحيدية الشيء المقدس يشير إلى موجود غير مادي هو الإله المتجاوز للزمان والمكان، أما في المنظومات الحلولية القائمة على أن الوجود كله (الإله ـ الطبيعة ـ الإنسان) واحد حيث يحل الإله في الطبيعة والإنسان، تنتقل القداسة إلى الشيء المقدس بمعنى حقيقي لا مجازي، ولذا تورَّث القداسة من الآباء للأبناء. وقد تركَّز القداسة في عنصر واحد كما هو الحال في فكرة «ولي الله» أو «الشعب المختار». وعادةً يصبح العنصر الذي يحل فيه الإله متألهاً يستبيح كل العناصر الأخرى، لأنها مدنَّسة.

ولكل مجتمع، مهما كانت درجة علمانيته، مقدساته ومطلقاته، ولا يوجد مجتمع إنساني بغير مقدسات. فلا يوجد مجتمع إنساني واحد حتى الآن يسمح بقتل الإنسان للتسلية، ولا مجتمع يسمح لإنسان بأن يذهب إلى دار القضاء عارياً لأن للقضاء حرمته، ولا أن يذهب إلى الجامعة عارياً لأن لها حرمتها، فهناك "حرم جامعي" وهكذا. ولا يوجد مجتمع لا يستند إلى عقد اجتماعي، ويُقصد به مجموعة من المبادئ المتفق عليها بين أعضائه، ومعظمها قيم لا يتم الاتفاق عليها حسب رأي الأغلبية ولا حسب مصالح شخص أو فئة، بل هي مبادئ تسبق عملية التفكير نفسها، ولا يتم إخضاعها للاختبار لمعرفة مدى صحتها، كحرمة القتل والسرقة والخيانة وغيرها.

١٢ـ «التجاوز والتعالي» في مقابل «الحلول والكمون»

«التجاوز والتعالي» هو أن يتعالى الشيء ويرقى حتى يجاوز كل حد معلوم أو مقام معروف إلى أن يصل إلى قمة التجاوز فيصبح منزَّهاً عن الزمان والمكان وعالم الطبيعة/ المادة ويصبح مطلقاً متجاوزاً للنسبي.

والإيمان بموجود متعال متجاوز للطبيعة والإنسان والتاريخ سمة المنظومة التوحيدية، إذ تتأسس على وجوده (الإله) وأنه فوق مخلوقاته جميعاً. ومركز الكون في المنظومات التوحيدية التي تقوم على أن مركز الكون ليس ماديا طبيعيا بل يتجاوز المادة ولا يحل فيها.

أما المنظومات الحلولية فتقوم على أن المركز ليس مفارقاً بل حالٌّ إما في الطبيعة أو في الإنسان (حلول في فرد أو شعب)، وإما حالٌّ فيها جميعاً، حيث يمل الحلول الطبيعية وضمنها الإنسان. وهو إذ يحل في الطبيعة لا يستطيع أن يتجاوزها.

١٣ـ الطبيعة/المادة

«الطبيعة/ المادة» مُصطَلح نستخدمه بدلاً من مصطلح «الطبيعة» لأن مصطلح الطبيعة تعبير مضلل، فهو يحل محل كلمة «المادة» في الخطاب الفلسفي الغربي والعربي. ومفهوم الطبيعة أساسي في الخطاب الفلسفي الغربي، وسماتها كما يلي:

١ ـ الطبيعة قديمة، أي غير مخلوقة، واحدة لا فَرق فيها بين كائن حي وجماد ولا بين كائن حي وآخر، وهي شاملة تشمل الكون كله، فكل الوجود مادة حيث لا يوجد كائن أرقى من كائن ولا روح تميِّز الإنسان عن الحجر أو الشجر.

٢ ـ الطبيعة تخضع لقوانين مادية صارمة كأنها آلة ضخمة بلا قلب ولا وعي، وقوانينها كامنة فيها لم تأت إليها من إله خالق، وحركتها ذاتية لا محرِّك لها، ولا تتحرك نحو هدف خارجها، سواء كان هدفاً ماديا أو روحيا.

٣ ـ الطبيعة في حالة تغيُّر مستمر لا ثبات فيه.

٤ ـ الطبيعة تشمل الإنسان، فهو ليس استثناء منها ولا يميزه أصل رباني ولا روح إلهية، وهي تتحرك بشكل دائم لا يتأثر بمشاعر الإنسان أو اقتناعاته، فهو ليس مختلفاً عنها على الإطلاق. وكل الظواهر الإنسانية يمكن تفسيرها من خلال القوانين التي تفسر الظواهر الطبيعية.

٥ ـ الطبيعة علة ذاتها، أي أنها ليست من خلق إله، ولا يوجد شيء يعلو عليها، ولذا فإن الوجود الإنساني نفسه مجرد ظاهرة مادية لا تفسرها أسباب دينية أو فلسفية أخرى، وسلوكه محكوم بقوانين الطبيعة.

ولهذا فإننا نشير إلى الطبيعة بوصفها «الطبيعة/ المادة»، وإلى «القانون الطبيعي» بوصفه «القانون الطبيعي/ المادي». فالمقصود بالطبيعة بالمعنى الفلسفي أن الكون كله مادة لا مكان فيه لظواهر غير مادية (دينية أو فلسفية) في نشأته واستمرار وجوده وحركته.

١٤ ـ الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني

تفرَّعت عن الإنسان الطبيعي أنماط إنسانية أخرى قد تختلف عن الإنسان الطبيعي أو عن بعضها البعض، لكنها واحدة في بنيتها، إذ تختصر الإنسان في بُعد واحد وتنفي عنه تميزه عن الكائنات المادية الأخرى، إذ تعرِّفه كوجود مادي. وأهم هذه الأنماط الإنسان الاقتصادي، وهو إنسان لا يهتم بالقيم الإنسانية كالتراحم والحب، دوافعه دائماً اقتصادية، فهو باحث عن الربح المادي بشكل دائم وأفعالها حتمية تفرضها قوانين الاقتصاد.

وهناك نمطٌ آخر هو الإنسان الجسماني (الجنسي) الذي لا يحكمه إلا نوعٌ واحد من الدوافع هي دوافع غرائزية، فهو خاضع للحتميات الغريزية لا يكبتها ولا يخضعها للاعتبارات الأخلاقية، والإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني كلاهما لا يضبط سلوكهما إلا القوانين المادية.

١٥ ـ الترشيد المادي

«الترشيد المادي» إعادة صياغة الواقع المادي والإنساني، أي واقع الطبيعة وواقع الجنس البشري في إطار نموذج الطبيعة/ المادة مع استبعاد كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية حتى يتحول الإنسان، في النهاية، إلى كائن ذي بُعد واحد تحركه غرائزه المادية وحسب. بل يتحول الإنسان نفسه إلى مجرد (مادة خام) يمكن استعمالها لتحقيق أهداف مادية دون تفرقة بينه وبين غيره من الموجودات المادية.

والترشيد المادي ينكر أن الإنسان كائن مختلف عن الطبيعة/ المادة، وبالتالي فهو يتحرك وفق قوانين حتمية لا إرادة له ولا اختيار، وأقصى ما تطمح إليه هذه النظرية التحكم التام في الإنسان ظاهراً وباطناً، وهي بالتالي شكل من أشكال العلمنة.

١٦ ـ الحَوْسَلة

«الحَوْسَلة» اختصار لعبارة «تحويل كذا إلى وسيلة». والعلمنة الشاملة والترشيد المادي يرميان إلى تحويل الطبيعة والإنسان إلى وسيلة، بحيث لا تحكم التعامل معها أية اعتبارات مبدئية (أخلاقية أو فلسفية)، ويصبح المعيار الوحيد في التعامل معها النفع المادي. حوسلة الإنسان تنزع عنه القداسة وتعامله كما تعامل البشر والحجر، أما حوسلة الطبيعة فتؤدي إلى العدوان على الطبيعة واستنزافها دون مراعاة الاعتبارات الأخلاقية أو حتى التوازنات التي تضمن استمرارها.

١٧ ـ العولمة

«العولمة» نسبة إلى «العالم». ودعاة الترشيد يرون أن عمليات الترشيد المادي تأخذ شكل مراحل يفترضون أنها حتمية تمر بها كل المجتمعات البشرية. وتصاعُد عمليات الترشيد ووصولها إلى مرحلة التحكم التام في الإنسان يعني تحوُّل الجنس البشري كله إلى مادة يمكن استعمالها لتحقيق منافع مادية دون نظر إلى اقتناعاتها ورغباتها ومشاعرها. ويأخذ ذلك شكل سوق ضخمة كل البشر فيها يتصرفون استجابةً لدوافع مادية وغرائزية (الطعام ـ الشراب ـ الجنس ـ المال).

وعندما تختفي الاختلافات بين المجتمعات البشرية وتصبح كلها خاضعة لقانون واحد حتمي يصبح العالم كله متشابهات، ما يحدث في مكان منه يحدث في كل مكان وتختفي الثقافات وكل أشكال التميُّز التي تفرِّق مجتمعاً عن آخر.

١٨ ـ الواحدية الكونية

«الواحدية الكونية» هي النظرية التي تعتبر الكون كله (الإله والإنسان والطبيعة) وحدة واحدة لا تتجزأ، وأن الكون ليس وراءه قوة أعلى منه (الله) بل مركزه موجود فيه. وحسب النظرية الواحدية الكونية الإنسان والإله جزء من دورات الطبيعة لا يستطيعان الإفلات منها لأن قوانينها حتمية شاملة لا يستثنى منها لا الإله ولا الإنسان. وهذه الرؤية هي الإطار المعرفي للعبادات الوثنية القديمة. وفي

الديانات السماوية الله "ليس كمثله شيء" فهو ليس جزءاً من الطبيعة ولا كامناً فيها، والإنسان منفصل عن الطبيعة متميِّز عنها بالعقل وحرية الاختيار وأمانة التكليف.

١٩ـ الواحدية المادية

«الواحدية المادية» هي نفسها الواحدية الكونية، فهي تفترض أن الإنسان والكون كلٌّ واحد، وتستبعد الإله تماماً لأنه لا يخضع لقوانين المادة. وهذه الرؤية هي الإطار المعرفي لكل الأيديولوجيات العلمانية الشاملة الحديثة، وهي لا تختلف كثيراً عن الواحدية الكونية القديمة في الديانات الوثنية، فكلاهما ينفي أن الإنسان كائن مختلف عن الطبيعة المادية.

وعالم الواحدية المادية يستبعد الإله والقيم الأخلاقية، فكل ما ليس ماديا محسوساً غير موجود، وينظر للعالم من خلال قانون طبيعي مادي واحد يسري على الإنسان كما يسري على الحجر والشجر، وكل المقدَّسات الدينية والأهداف السامية مستبعدة منها لأنها مفاهيم غير مادية لا تخضع لقوانين المادة.

٢٠ـ الحلولية الكمونية الواحدية

«الحلولية الكَمونية الواَحدية» مذهب يقوم على أن الكون كله وما فيه (الإله والإنسان والطبيعة) وحدة واحدة، فلا يوجد "هذا العالم" و"عالم الآخرة" ولا "عالم المادة" و"عالم الروح". فعالم المادة هو ذاته عالم الروح، فالعالم مكوَّن من جوهر واحد مكتف بذاته.

٢١ـ وحدة الوجود الروحية والمادية

تترجم الحلولية الكمونية الواحدية نفسها إلى «وحدة وجود»، أي وجود مكوَّن من جوهر واحد. هذا الجوهر يمكن أن يسميه البعض الإله، وهذه هي وحدة الوجود الروحية، ولكن أيضاً يمكن تسميته الطبيعة/ المادة أو قوانين الحركة، وهذه هي وحدة الوجود المادية. وكلاهما يتسم بالواحدية والاختلاف هو في تسمية الجوهر الواحد المكوِّن للكون.

٢٢ـ التوحيد

«التوحيد» هو الإيمان بوجود مبدإ واحد هو مصدر وحدة العالم، وهو "الإله". وهذا الإله خلق الإنسان والطبيعة والتاريخ، وهو الذي يحركهم ويحدد أهداف الوجود الإنساني على الأرض والقيم الأخلاقية التي يجب على الإنسان الالتزام بها. وهذا الإله ليس جزءاً من الطبيعة ولا من مادتها، فهو "ليس كمثله شيء"، وهو كذلك ليس حالا في الإنسان والطبيعة بل يتجاوزهما. ولهذا فإن النظم التوحيدية تؤدي إلى وجود ثنائية أساسية هي ثنائية الخالق والمخلوق، وبناءً على هذه الثنائية وعلى هدي ما يرسله الخالق من رسالات تنشأ ثنائية أخرى هي ثنائية الإنسان والطبيعة، فهو ليس جزءاً منها ولا تجري عليه قوانينها، ولذا فهو يتمتع بحرية الاختيار. وبالتالي فإن العقائد التوحيدية لا تسقط في الواحدية، فالعالم ـ وفقاً لها ـ يوجد فيه ما هو ماديٌ وما تجاوز المادة. فالإنسان بما منحه الله من حرية إرادة، وما أرسل إليه من هداية في الرسل السماوية مفطور على القدرة على الاختيار، ويختار ما يفعل وما يترك بناءً على اعتبارات عديدة بعضها نفعي هدفه تحقيق منافع مباشرة غالباً مادية، كما أن بعضها اعتبارات لامادية (إيمانية أو أخلاقية) هدفها تحقيق إشباع روحي ونيل رضاء الخالق. وبالتالي فهو ظاهرة مركَّبة فيها بُعد غير مادي، وهو أوضح برهان على وجود هذا البُعد في الكون.

٢٣ـ الماشيَّح والمشيحانية

«الماشيَّح» هو المسيح المخلِّص اليهودي. وقد فضَّلنا استخدام المصطلح العبري حتى نفصل بين العقيدتين اليهودية والمسيحية، فرؤية اليهودية للمسيح تختلف تماماً عن رؤية المسيحية له، والمشيحانية هي الإيمان بأن الماشيَّح سيصل في نهاية الزمان والتاريخ ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً، ويؤسِّس مملكته التي تدوم ألف عام. والعقيدة المشيحانية في اليهودية ذات طابع حلولي كموني قومي، فالماشيَّح ملك من نسل داود، وهي الأسرة التي حكم ملوكها المملكة العبرانية القديمة، وهذا الماشيَّح سيؤسس مملكة صهيون في فلسطين ويبطش بأعداء اليهود ويناصر اليهود ويجعلهم يحكمون العالم.

وهذه العقيدة تجعل الخلاص مرهوناً بالانتماء إلى بني إسرائيل ولا تجعله مرهوناً بفعل الخير، فكل من انحدر من نسل بني إسرائيل ـ حسب زعمهم ـ سيكون له نصيب في الخلاص، وهو خلاف جوهري بين مفهوم الخلاص المسيحي الذي يجعل كل من آمن بالمسيح مستحقا للنجاة من العذاب بغض النظر عن جنسه أو أصله العرْقي. واقتصار الخلاص على اليهود وحدهم يعني أنهم وحدهم المقَدسون دون كل البشر وأن الإله يحل فيهم. والصهيونية صيغة علمانية مشيحانية، فهي تجعل الحركة الصهيونية تقوم بدور الماشيَّح من خلال تأسيس الكيان الصهيوني بدلاً من مملكة الماشيَّح.

٢٤ـ المرجعية المتجاوزة والمرجعية الكامنة

«المرجعية» هي مجموعة من القيم والمفاهيم النهائية والكلية التي تستند إليها رؤية ما. وفي إطار النظم الحلولية الكمونية، تختفي

المرجعية المتجاوزة للعالم وتظهر المرجعية الكامنة فيه، أي في الطبيعة/ المادة، ولذا يمكن الإشارة لها باعتبارها «المرجعية الكامنة المادية».

٢٥- شعب عضوي (فولك)

«الشعب العضوي» هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابُط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد وتربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه. ويُشار إلى الفكر القومي، الذي يَصدُر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوي المتماسك، بعبارة «الفكر القومي العضوي»، ويُقال له أيضاً «القومية العضوية». وعادةً ما تُوضَع الوحدة العضوية في مقابل الترابط الآلي.

والقومية العضوية مفهوم حتمي يُفرض على كل من وُلد على أرض كيان سياسي ما انتماءً محدَّداً لا مكان فيه للتعاقد أو الاختيار، وقد يفترض الفكر القومي العضوي رابطة بين جماعات بشرية لا يجمعها الميلاد في وطن مشترك بل يجمعها أصل عرْقي (مفترض) كما هو الحال في الصهيونية التي تدَّعي أن ثمة رابطةً عضوية بين كل اليهود و«أرض إسرائيل». ويتسم الترابط العضوي بنبذ كل الأقليات وحرمانها من حقوقها باعتبار أنها ليست جزءاً من الشعب العضوي، وهو ما تبنته النازية واتخذته ذريعة لإبادة الغجر واليهود وغيرهم.

٢٦- شعب عضوي منبوذ

«شعب عضوي منبوذ» مُصطلَح نستخدمه لنصف موقف الحضارة الغربية من أعضاء الجماعات اليهودية. فالجماعات اليهودية كانت تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية متماسكة عضويا (مكتفية بذاتها) ولكنها فقدت وظيفتها فتم نبذها، فأصبحت شعباً عضويا منبوذاً. وهذا المفهوم يشكل حجر الزاوية في التفاهم بين الصهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعاً يرون أن اليهود شعب عضوي واحد، لا ينتمي إلى الغرب أو إلى أي وطن، لأنه يرتبط عضويا بإرتس يسرائيل. والشعب العضوي، سواء كان منبوذاً أو غير منبوذ، يكون مكتفياً بذاته، ومرجعية ذاته، مقدَّساً مطلقاً، تنبع قداسته وإطلاقه من داخله، فهو موضع الحلول والكمون.

٢٧- الجماعة الإثنية

«الجماعة الإثنية» هي الجماعة ذات التراث التاريخي والحضاري المشترك، ويُقصد بذلك التاريخ المشترك واللغة المشتركة وعادات الطعام والملبس المشتركة. وهذه الأشياء المشتركة يتوارثها أعضاء الجماعة جيلاً بعد جيل إلى أن تصبح جزءاً من وجودهم، فهي تميزهم عن الآخرين ومنها تنبع خصوصيتهم القومية (الإثنية).

والكلمة مشتقة من كلمة «إثنوس» ذات الأصل اللاتيني، وتعني «شعب» أو «قوم».

والرابطة بين أعضاء الجماعة الإثنية من ناحية، والعلاقة بينها كجماعة وبين الأرض التي يعيشون عليها كعلاقة أعضاء الجسد الواحد ببعضها البعض، ولذا تسمَّى علاقة عضوية، فهي حتمية لا يمكن فصلها ولا الفكاك منها، وهي فوق إرادة الأفراد، لأنهم لا يملكون اختيار الجماعة التي ينتمون إليها بالميلاد، فلا يستطيع فرد أن يغيِّر انتماءه الإثني.

وقد حلَّت النظرية الإثنية محل النظرية العرْقية التي كانت تعتبر الانتماء إلى جنس معيَّن رابطة أبدية لا تنحلَ، وكل جنس (عرْق) يشكل أعضاؤه وحدة عضوية لا تسمح لأحد من أي عرْقَ آخر بالانتماء إليه. وفي الخطاب الحضاري الغربي أصبحت أساس الهوية وأساس عملية تعريف "الآخر" أي أن العرْق يحدد لنا مَنْ "نحن" كما يحدد مَنْ "هم". كما استخدمت لتبرير عمليات الغزو والهيمنة التي قام بها الغرب ضد "الآخر" في آسيا وأفريقيا والأمريكتين، فهذا الآخر الذي لا ينتمي إلى الهوية الإثنية نفسها مستباح باعتبار أن كل جماعة إثنية هي مرجعية ذاتها، فلا يتم تقييم سلوكها وفق معايير أخلاقية أو دينية عامة تحدد الخير والشر والمسموح والممنوع، فما تعتقد أنه حق لها، فهو حق مطلق لا يجوز النقاش بشأنه، فالإثنوس مثل العرْق مفهوم حلولي.

٢٨- نهاية التاريخ

«نهاية التاريخ» عبارة تصف اللحظة التاريخية التي تسود فيها الواحدية (الروحية أو المادية) في بساطتها واختزاليتها التي تحوِّل الإنسان إلى شيء طبيعي/ مادي، فلا يبقى سوى المبدإ الواحد، الذي يستوعب الإنسان تماماً فتختفي كل الثنائيات كالإنسان والطبيعة، والخير والشر، ويختفي الزمان والتدافع ويختفي معها الإنسان المركب، بل الحيز الإنساني نفسه. وبما أن ما يسود في العصر الحديث هو الواحدية المادية، فإن عبارة «نهاية التاريخ» تعني، في واقع الأمر، نهاية التاريخ الإنساني وبداية التاريخ الطبيعي، أي أن تصبح الظاهرة الإنسانية ظاهرة طبيعية/ مادية خاضعة لحتميات الطبيعة. وفي العصر الحديث ترتبط فكرة نهاية التاريخ باليوتوبيا التكنولوجية والتكنوقراطية وبالفردوس الأرضي وبفكرة العودة إلى صهيون.

٢٩- العلمانية الجزئية

«العلمانية الجزئية» رؤية للواقع مقصورة على عالم السياسة والاقتصاد، ويُقصد بها فصل الدين عن الدولة، أي فصل العمليات السياسية والاقتصادية عن الاعتبارات الدينية وقطع كل صلة بين

المؤسسات الدينية عموماً والدولة. والبعض يوسِّع هذا التعريف ليعني فصل الدين عن كل نشاط عام يشترك كل الناس فيه، ونحن نسمي هذه الصيغة «علمانية جزئية» لسببين:

الأول: أن المقصود بالدولة في هذا التعريف الدول الأوربية في القرن التاسع عشر، وكانت آنذاك دولاً صغيرة لم تكن قد سيطرت على حياة الأفراد العامة والخاصة سيطرة تامة من خلال مؤسساتها التربوية والأمنية والإعلامية المختلفة التي تتحكَّم في حياة الإنسان من الميلاد إلى الموت كما هو حادث الآن. ولذا فإن فصل الدين عن الدولة لم يكن معناه علمنة حياة الإنسان كلها، فهناك مساحة واسعة كانت تشمل معظم الحياة الاجتماعية وكل الحياة الخاصة، كان بإمكان الفرد أن يديرها ويتصرف فيها وفق اقتناعاته الدينية.

الثاني: أن العلمانية الجزئية لا تعلن موقفاً محدَّداً من المبادئ الأخلاقية والأهداف السامية لحركة المجتمع والفرد في حياته الخاصة وكثير من جوانب حياته العامة، إذ كان بوسعه أن يجد متسعاً لقيم مثل التراحم والمودة وغيرها من القيم في سلوكه اليومي.

وبهذا المعنى فإن العلمانية الجزئية تترك حيزاً واسعاً للقيم الإنسانية السامية والقيم الأخلاقية المطلقة، وكذلك للقيم الدينية طالما كانت هذه القيم لا تتدخل في عالم السياسة، فهي صيغة لا تحوِّل كل الأفكار والأشياء إلى ظواهر نسبية ولا تعتبر أن الوجود الإنساني خال من القيم. وهذه الصيغة هي الشائعة بين عامة الناس في الشرق والغرب، بل بين كثير من المفكرين العلمانيين. وهناك بعض المفكرين الإسلاميين يرون أن هذه العلمانية الجزئية لا تتناقض مع الإسلام ويمكنهما التعايش معاً.

٣٠ـ العلمانية الشاملة

«العلمانية الشاملة» ويمكن أن تسمَّى أيضاً «العلمانية الطبيعية/ المادية» رؤية شاملة للكون، ويُقصد بالرؤية الشاملة أن تقدم تعريفاً خاصاً للكون والإنسان وتحدد طريقة معينة للتوصل للقيم الأخلاقية والدينية وتحدد موقفاً من الدين والإله نفسه. والعلمانية الشاملة تقوم على فصل كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ثم توسِّع دائرة الفصل لتشمل الحياة الشخصية للفرد، فهي تجعل رؤيته لكل شيء منفصلة عن اقتناعاته الدينية والأخلاقية ثم تفصل سلوكه أيضاً عن هذه القيم، فهي تنزع كل قداسة عن العالم، أي عن الإنسان والطبيعة معاً.

والعلمانية الشاملة مثل الحلولية الكمونية المادية كلاهما يؤمن بأن العالم مكتف بنفسه. وهو عالم متماسك لا ينفصل فيه الإله عن الإنسان والطبيعة، فهم معاً كلٌ واحد متصل متماسك يخضع لقانون واحد حتمي لا مكان فيه لإرادة أو حرية الاختيار، والمبدأ الواحد الذي يبدأ منه الكون وإليه ينتهي ليس إلهاً مفارقاً "ليس كمثله شيء"، بل يحلُّ في كل الموجودات، أي في الإنسان والطبيعة على السواء.

وهذه الواحدية تعني أن كل الأشياء متساوية ونسبية ومعرفتها جميعاً تتم بالحواس الخمس، ويمكن التحكُّم فيها بمعرفة المزيد عن قوانين حركتها. وتُعدُّ نظرية الداروينية خير مثال لها، فهي نظرية تقوم على أن الكائنات في حالة صراع للبقاء لا ماكن فيه لأية قيم أو أخلاقيات.

٣١ـ الإمبريالية (الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية)

«الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية» هي النتيجة الحتمية للعلمانية الشاملة التي تنزع القداسة عن العالم وتفصله عن كل القيم الأخلاقية والإنسانية، وتُحوسل الطبيعة والإنسان وتحاول التحكُّم فيهما والهيمنة عليهما لصالح الأقوى (السوبرمان) أو لصالح أي مطلق علماني (الدولة ـ العرْق الأرقى . . . إلخ). وقد قامت المنظومة العلمانية الشاملة (فَي الغرب) بترشيد الداخل الغربي في الإطار المادي ودجَّنته وحوَّلته إلى مادة استعمالية، ثم جيَّشت الجيوش وهيمنت على العالم بأسره (الطبيعة والإنسان ـ المصادر الطبيعية والبشرية) وحوَّلته هو الآخر إلى مادة استعمالية لصالح الإنسان الغربي وحده (باعتباره العنصر الأرقى والأقوى). فالعلمانية الشاملة والإمبريالية وجهان لعُملة واحدة.

٣٢ـ الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة

يتم الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة من خلال سلسلة طويلة من التطورات تأخذ شكل متتالية تاريخية متعددة الحلقات بعضها ظاهر واضح وبعضها خفي يصعُب إدراكه. وجوهر هذه العملية أن تنفصل مجالات النشاط الإنساني واحداً بعد الآخر فيصبح كل منها مرجعية نفسه، الفن للفن، العلم للعلم، الأدب للأدب، وهكذا. وتصبح مرجعية كل نشاط منها داخله، فمعايير الاقتصاد اقتصادية ومعايير السياسة سياسية وهكذا. وبهذا تختفي المرجعية الدينية والأخلاقية فلا يجوز التساؤل عندئذ عن مشروعية الفعل دينيا وأخلاقيا بل يصبح السؤال كيف نفعله، وما جدواه المادية المباشرة؟ ويتواكب مع هذا التطوُّر تغوُّل الدولة ووسائل الإعلام.

وهكذا تتفتت حياة الإنسان ويتطور كل مجال منها بشكل ذاتي مغلق على نفسه فلا يكون هناك مجال للتساؤل عن هدف ديني أو

إنساني ليتحقق من وراء أي مجال فالاقتصاد هدفه الربح والربح وحده، والفن هدفه المتعة الجمالية وحسب وهكذا. وعندئذ يصبح كل شيء نسبيا وتختفي الحدود الفاصلة بين الخير والشر والجمال والقُبح.

٣٣ ـ التحديث والحداثة وما بعد الحداثة

«التحديث والحداثة وما بعد الحداثة» مراحل ثلاثة في متتالية العلمانية. فالعلمانية ليست جوهراً ثابتاً يتبدّى كله في عالم التاريخ دفعة واحدة وإنما متتالية تتحقق حلقاتها تدريجيا عَبْر الزمان، فمن عالم الاقتصاد إلى عالم السياسة إلى عالم الوجدان والأحلام ثم أخيراً عالم السلوك في الحياة العامة والخاصة. وحينما تسري قوانين العلمانية الشاملة على مجال من مجالات النشاط الإنساني، فإن هذا المجال ينفصل عن المعيارية والغائية الدينية والأخلاقية والإنسانية فتختفي منه المرجعية الإنسانية ويصبح مرجعية ذاته ويستمد معياريته من شيئيته. فتصبح المعايير في المجال الاقتصادي اقتصادية، وفي المجال السياسي سياسية، وفي المجال الجمالي جمالية، وهذا ما يُسمَّى «التحييد» الذي يتصاعد إلى أن يصبح العالم بأسره مجالات محايدة لا يربطها رابط وتختفي أية معيارية إنسانية عامة، وتتآكل كل القيم والمفاهيم الكلية وتسود النسبية التي تنكر على الإنسان المقدرة على تجاوز صيرورة عالم المادة والحركة فيسقط في قبضتها تماماً وتسقط فكرة الحقيقة والحق والخير والجمال والكل، بل فكرة الطبيعة (البشرية ثم المادية) (أي تسقط كل المنظومات المعرفية والأخلاقية والجمالية) فهي عملية تفكيك كاملة.

وهذا الانتقال من عالم متماسك فيه معيارية (حتى لو كانت مادية)، إلى عالم مفكَّك بلا معيارية، هو الانتقال من عصر التحديث (والحداثة) إلى عصر ما بعد الحداثة.

٣٤ ـ الجماعات الوظيفية

«الجماعات الوظيفية» مجموعات بشرية صغيرة يقوم المجتمع التقليدي بإسناد وظائف شتى إليها يرى أعضاء هذا المجتمع أنهم لا يمكنهم الاضطلاع بها لأسباب مختلفة. قد تكون هذه الوظائف مشينة في نظر المجتمع ولا تحظى بالاحترام في سُلَّم القيم السائدة (التنجيم ـ البغاء ـ الربا)، وقد تكون متميِّزة ومهمة (الطب، وخصوصاً أطباء النخبة الحاكمة ـ القتال)، وقد يتطلب الاضطلاع بها قدراً عالياً من الحياد والتعاقدية لأن المجتمع يريد الحفاظ على قداسته وتراحُمه ومثالياته (التجارة والربا). وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى (الحاجة لمستوطنين جدد لتوظيفهم في المناطق النائية ـ خبرات غير متوافرة ـ الحاجة إلى رأس مال). كما أن المجتمع يقوم بإسناد الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك ـ طبيبه ـ السفراء ـ الجواسيس) إلى أعضاء الجماعات الوظيفية. ويمكن أن تكون الوظيفة التي تُسنَد إلى أعضاء الجماعة الوظيفية مشينة ومتميِّزة وحساسة في آن واحد (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم). كما أن المهاجرين عادةً ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد) لأن الوظائف الأساسية عادةً ما تكون قد شُغلَت من قبَل أعضاء المجتمع المضيف. ويحاول الاستعمار دائماً أن يحوِّل أعضاء الأقليات إلى جماعات وظيفية تضطلع بوظائف يسندها إليها وتتمتع بمزايا تُقدِّمها لها حتى تدين له بالولاء.

ويتوارث أعضاء الجماعة الوظيفية الخبرات في مجال تَخصُّصهم الوظيفي عبر الأجيال ويحتكرونها بل يتوحَّدون معها، وفي نهاية الأمر، يكتسبون هويتهم ورؤيتهم لأنفسهم منها. وهي عملية يساعد عليها مجتمع الأغلبية لأنه يُعرِّف عضو الجماعة الوظيفية من خلال وظيفته وحسب (لا من خلال إنسانيته المتكاملة) وبذلك يصبح عضو الجماعة الوظيفية إنساناً ذا بُعد واحد، يمكن اختزال إنسانيته إلى هذا البُعد و المبدإ الواحد وهو وظيفته.

وبعد أن يتم استيراد أو تجنيد العنصر الوظيفي يحدث ما يلي:

(أ) العلاقة التعاقدية النفعية:

يدخل أعضاء المجتمع المضيف، مع أعضاء الجماعة الوظيفية، في علاقة تعاقدية نفعية محايدة رشيدة واضحة لا تركيب فيها ولا إبهام، ويقوم كل طرف في العلاقة بحوسَلة الطرف الآخر (أي يحوله إلى وسيلة) والنظر إليه باعتباره وسيلة لا غاية، وباعتباره مادة نافعة يتم التعامل معها بمقدار نفعها.

(ب) العزلة والغربة والعجز:

يحتفظ أعضاء المجتمع المضيف وأعضاء الجماعة الوظيفية بمسافة بينهما. فيقوم المجتمع المضيف بعزل أعضاء الجماعة الوظيفية ويمارسون هم إحساساً عميقاً بالغربة. وفي جميع الأحوال كان أعضاء الجماعة الوظيفية يصبحون قريبين من النخبة الحاكمة يمارسون إحساساً بالولاء العميق تجاهها، فهي التي تستوردهم كأداة لقمع جماهير المجتمع ولامتصاص ما قد يتراكم من ثروات وفوائض لديهم، وهي التي تضمن بقاءهم واستمرارهم. ولكنها في الوقت نفسه لا تشركهم في السلطة، فهم بلا قاعدة بين الجماهير وبلا أساس للقوة، في حالة خوف دائم منها، ومن ثَمَّ لا يطمحون إلى المشاركة في السلطة بسبب وضعهم هذا. وقد يتعمق ولاء أعضاء الجماعة

الوظيفية للنخبة الحاكمة حتى تصبح في كثير من الأحيان جماعة وظيفية عميلة.

(جـ) الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية الوهمية:

ينتج عن هذا الوضع انفصال أعضاء الجماعات الوظيفية عن الزمان والمكان الذين يعيشون فيهما، ومن ثم غالباً ما يرتبط أعضاء الجماعة الوظيفية عاطفيا بوطن أصلي (صهيون ـ الصين ـ القبيلة ـ العائلة) يصبح موضع ولائهم وحبهم وعاطفتهم المشبوبة ويتصورون أنهم جزء من تاريخه وتراثه، فيتعمق شعورهم بالغربة نحو المجتمع المضيف، ويعيشون فيه دون أن يكونوا منه، ويتطور لديهم إحساس عميق بهويتهم المستقلة (مركب الشعب المختار المنفي أو الشعب العضوي المنبوذ). ولكن الجماعة الوظيفية (والوظيفة نفسها) هي، في واقع الأمر، موضع الولاء الفعلي والمباشر لعضو الجماعة الوظيفية، فهي أساس وجوده وهويته. إلا أن المعجم الحضاري لأعضاء الجماعة الوظيفية لا يختلف في واقع الأمر عن معجم مجتمع الأغلبية إلا في بعض التفاصيل الخاصة، فهم آلة لا وطن لها اسماً، ولكنهم يعيشون فعلاً في المجتمع المضيف، يؤدون وظيفتهم فيه بشكل يومي، ومن ثَمَّ فهويتهم هوية وهمية.

(د) ازدواجية المعايير والنسبية الأخلاقية:

يُطوِّر طرفا العلاقة (أعضاء الجماعة الوظيفية والمجتمع المضيف) رؤية أخلاقية ثنائية، فما يسري على الواحد من قيم أخلاقية مطلقة لا يسري على الآخر، باعتبار أن الآخر في هذه العلاقة يقع خارج نطاق الحرمات والمطلقات الأخلاقية وباعتبار أن الجماعة الوظيفية شعب مختار، ويحاول كل طرف تعظيم منفعته ولذته مستخدماً الآخر.

(هـ) الحركية:

لكل هذا، يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحركية البالغة، وهذا أمر مرتبط بكونهم عنصراً نافعاً وآلة يمكن نقلها من مكان إلى آخر.

(و) التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع:

ينجم عن هذا الوضع تَأرجُح شديد بين تَمَركُز حول الذات (الوظيفة باعتبارها الذات والهوية، فمنها يستمد عضو الجماعة اليهودية تعريفه وكينونته) وتَمَركُز حول الموضوع (الوظيفة باعتبارها خدمة تؤدى للمجتمع، حيث يصبح استمرار الوظيفة النافعة بالنسبة للمجتمع مبرراً لاستمرار الجماعة الوظيفية في أداء دورها، فإذا أصبحت الوظيفة غير نافعة تحولّت إلى جماعة وظيفية منبوذة). فعضو الجماعة الوظيفية قد يكون عضواً في شعب مختار ولكنه أيضاً أداة في يد المجتمع (التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع)، وتظهر عقدة الاختيار، الذي يواكبه شعور عميق بالحتمية.

وتوجد جماعات وظيفية في معظم المجتمعات التقليدية، ولكن لاحظنا أن الحضارة الغربية تميل نحو حوسلة البشر، ومن ثم تتضح ظاهرة الجماعات الوظيفية بشكل متبلور فيها. وقد أدَّى أعضاء الجماعات اليهودية فيها دور الجماعات الوظيفية، بحيث أصبح اليهودي هو الإنسان الوظيفي، وهذا هو أساس العداء لليهود واليهودية. وقد تفاقم الوضع مع عصر النهضة في الغرب حينما بدأت الجماعات الوظيفية اليهودية تفقد دورها الوظيفي.

٣٥ ـ الدولة الوظيفية

يرتبط بمفهوم الجماعة الوظيفية مفهوم الدولة الوظيفية، والدولة الوظيفية هي الدولة التي تؤسَّس أو يُعاد صياغة توجُّهها أو توجُّه نخبتها الحاكمة لتضطلع بوظيفة معينة ويصبح جوهرها هو هذه الوظيفة. فالدولة الوظيفية هي الدولة التي تشكل إعادة إنتاج لدور الجماعة الوظيفية في العصر الحديث.

ونحن نذهب إلى أن الدولة العصرية الحديثة بعد تَغوُّلها، وبعد تَصاعُد قوة مؤسساتها الأمنية وقطاع اللذة، تُحوسل كل المواطنين، بحيث يصبحون شيئاً يشبه أعضاء الجماعة الوظيفية، وظيفة تُؤدَّى ودوراً يُلعَب بدلاً من أن يكونوا بشراً متعددي الأبعاد، يؤمنون بمنظومة أخلاقية ويشعرون بالحرية والمسئولية. ويمكن القول بأن الجماعة الوظيفية تشكل دائماً شعباً عضوياً منبوذاً، يوجد في المجتمع ولكنه ليس منه.

٣٦ ـ الدولة الصهيونية الوظيفية

«الدولة الصهيونية الوظيفية» دولة تتسم بكل سمات الجماعة الوظيفية، فهي تدخل في علاقات تعاقدية نفعية مع الغرب (خدمة المصالح الغربية نظير أن يقوم الغرب بحمايتها)، وهي دولة جيتو/ قلعة منعزلة عن محيطها الحضاري ذات رؤية حلولية كمونية، فهي تتصوَّر أنها منفصلة عن الزمان والمكان، ولديها إحساس عميق بتفوُّقها، ورسالتها المقدَّسة، تتبنَّى أخلاقيات مزدوجة في علاقتها مع الذات ومع الآخر.

٣٧ ـ التاريخ اليهودي وتواريخ الجماعات اليهودية

«التاريخ اليهودي» مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودي مستقل يتحرك أعضاء الجماعات اليهودية داخل إطاره ولا يُفهم سلوكهم إلا بفهم آلياته وحركياته المستقلة عن تاريخ الشعوب الأخرى. وتطوُّر أعضاء الجماعات اليهودية ـ حسب هذا التصوُّر ـ محكوم بمراحل هذا التاريخ. ومفهوم التاريخ اليهودي (العام والعالمي) ليس له قيمة تفسيرية كبيرة، فالأحداث الأساسية في تاريخ يهود إنجلترا هي الثورة الصناعية والتوسع الإمبريالي

البريطاني والحروب الغربية «العالمية» الأولى والثانية. أما أهم أحداث تاريخ يهود بولندا فهو ظهور بوجدان شميلنكي، زعيم القوزاق، ثم تقسيم بولندا. وكل هذه الأحداث ليست جزءاً مما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»، وإنما هي جزء من تاريخ المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها ولا يمكن فهم هذه الظواهر التاريخية إلا بفهم هذه التواريخ. ولذا نحن نفضل الحديث عن «تواريخ الجماعات اليهودية»، فتاريخ كل جماعة يهودية قد يكون له استقلاله النسبي عن تاريخ المجتمع، ولكنه لا علاقة له بتاريخ يهودي عالمي عام.

٣٨ ـ الشخصية (والهوية) اليهودية

«الشخصية (والهوية) اليهودية» مصطلح يفترض وجود شخصية يهودية لها سماتها المحددة وهوية يهودية تختلف عن هوية المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها، وهي مصطلحات ليست لها قيمة تفسيرية. فيهود الفلاشاه يختلفون بشكل جوهري عن يهود الولايات المتحدة: فيهود الفلاشاه يتحدثون الأمهرية ـ يتعبدون بالجعزية (لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية) ولا يعرفون العبرية ـ لا يوجد لديهم حاخامات وإنما قساوسة ورهبان وراهبات يشغلون مركزاً قياديا في الجماعة ـ لا يعرفون التلمود أو القبَّالاه ويضم كتابهم المقدَّس العهد القديم وبعض أجزاء من العهد الجديد ـ لا توجد لديهم انقسامات دينية ـ يتعبدون في مكان للعبادة يسمونه «المسجد» (حيث يخلعون أحذيتهم ويجلسون على الأرض) وهو يشكل مركز حياتهم ـ يرتدون الأزياء الإثيوبية ـ فلكلورهم هو نفسه فلكلور القبائل التي يعيشون بين ظهرانيها وعاداتهم هي عادات هذه القبائل ـ بشرتهم سوداء داكنة. أما يهود الولايات المتحدة فيتحدثون الإنجليزية وأقلية صغيرة منهم لا تزال تعرف اليديشية وبعضهم يدرس العبرية ـ معظمهم لا يتعبد وإن تعبدوا فهم يتعبدون بالإنجليزية وقلة تتعبد بالعبرية ـ المتدين منهم يتبع أبراشية يرأسها حاخام، يخضع لقرارات أعضاء الأبراشية في العادة (فهم الذين يعينونه ويدفعون راتبه) ـ معظمهم فَقَد علاقاته بالكتب المقدَّسة اليهودية، فهم لا يعرفون التلمود، وإن كان المتدينون يعرفون العهد القديم والتلمود والقبَّالاه ـ ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى إصلاحيين ومحافظين وأرثوذكس ولا يعترف الحاخامات الأرثوذكس بالحاخامات الإصلاحيين والمحافظين ـ إن تعبدوا يتعبدون في الكنيس الذي يزوره معظمهم مرة واحدة في السنة أو في الأعياد ـ يرتدون الأزياء الأمريكية والمتدين منهم يرتدي الطاليت وغيرها من الملابس الدينية ـ لا يوجد لديهم فلكلور وخطابهم الحضاري هو الخطاب الحضاري الأمريكي ـ معظمهم من أصل ألماني أو روسي، وتوجد أقلية من أصل سفاردي، وبشرة معظمهم بيضاء.

لكل هذا لا يمكن القول إن ثمة هُوية أو شخصية يهودية واحدة تجمع بين يهود الفلاشاه ويهود الولايات المتحدة، وإن وُجدت عناصر يهودية مشتركة فهي ليست لها قيمة تفسيرية عالية. فكل من الشخصية الإثيوبية اليهودية والشخصية الأمريكية اليهودية تشكَّل في محيطه الحضاري بمعزل عن الشخصيات والهويات اليهودية الأخرى.

٣٩ ـ الرأسمالية اليهودية والطبقة العاملة اليهودية

كما أننا نرى أن لا يوجد «تاريخ يهودي» مستقل، فإننا نذهب إلى أنه لا توجد «رأسمالية يهودية» مستقلة، فالرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية ينتمي حضاريا إلى مجتمعه وطبقيا إلى الطبقة الرأسمالية في هذا المجتمع. ولا شك في أن موروث هذا الرأسمالي الاقتصادي، باعتباره مهاجراً وعضواً سابقاً في جماعة يهودية وظيفية، تترك أثرها في مكانته وموقعه، ولكنها مع هذا لا تحوِّله إلى رأسمالي يهودي. والقول نفسه ينطبق على اليهودي عضو الطبقة العاملة.

٤٠ ـ الفن اليهودي والفلسفة اليهودية

«الفن اليهودي» و«الفلسفة اليهودية» مصطلحات تفترض استقلال «الفنان اليهودي» و«الفيلسوف اليهودي» عن التراث الفني والفلسفي في المجتمع الذي يعيش فيه. وهو أمر يتنافى مع الواقع. فهناك «فنان يهودي» مثل بيسارو أو موديلياني لا يُفهَم فنهما إلا من خلال دراسة الفن الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفلسفة فيلون وإسبينوزا ليست جزءاً من تاريخ الفلسفة اليهودية وإنما هي جزء لا يتجزأ من تاريخ الفلسفة الغربية، ولذا فهؤلاء ليسوا «فنانين أو فلاسفة يهوداً» وإنما «فنانون وفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية».

٤١ ـ جماعات يهودية

«جماعات يهودية» هو مصطلح نستخدمه بدلاً من اصطلاح «يهود» انطلاقاً من إدراكنا أن الهويات اليهودية ذات طبيعة جيولوجية تراكمية غير متجانسة، ومن أن الهويات اليهودية تَشكَّلت من خلال المحيط الحضاري المحيط بها وليس رغماً عنه. ومصطلح «جماعات يهودية» يؤكد غياب التجانس (جماعات) رغم وجود عنصر تشابه ووحدة بينها (يهودية). ولكن عناصر غياب التجانس لها قيمة تفسيرية أعلى. ومع هذا، فنحن نرى أن معظم الجماعات اليهودية

في الغرب تحولت إلى جماعات وظيفية، وإن كان ثمة عنصر تجانُس أساسي فهو وظيفية الجماعات اليهودية.

٤٢ـ يهود اليديشية

«يهود اليديشية» هم يهود بولندا الذين كانوا يتحدثون اليديشية (رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية وعبرية). ثم ضمت روسيا قطاعات منهم حين ضمت أجزاء من بولندا في أواخر القرن الثامن عشر. وقد حدث بينهم انفجار سكاني فأصبحوا أكبر جماعة يهودية في العالم (وعبر التاريخ) وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها من بلاد العالم الغربي. وثمة نظرية تذهب إلى أن معظم (إن لم يكن كل) يهود العالم الغربي في العصر الحديث هم من نسل يهود اليديشية (باعتبار أن اليهود الأصليين في إنجلترا وفرنسا تم دمجهم وصهرهم في مجتمعاتهم).

والتجربة الأساسية في تاريخ يهود اليديشية هي تجربة الإقطاع الاستيطاني في أوكرانيا، حين قام الوكلاء اليهود (أرنداتور) باعتبارهم جماعة وظيفية، بإدارة ضياع النبلاء البولنديين (شلاختا) واعتصار الفلاحين الأوكرانيين لحساب هؤلاء النبلاء تحميهم القوة العسكرية البولندية. ونحن نذهب إلى أن هذه العلاقة الثلاثية: نبلاء بولنديون ـ وكلاء يهود ـ فلاحون أوكرانيون لا تختلف عن علاقة ثلاثية أخرى: التشكيل الإمبريالي الغربي ـ الدولة الوظيفية الصهيونية ـ الشعب الفلسطيني. وقد حلت الدولة الوظيفية الصهيونية محل كل من الوكلاء اليهود والقوة العسكرية البولندية.

٤٣ـ التركيب الجيولوجي التراكمي

«التركيب الجيولوجي التراكمي» عبارة نستخدمها لنصف عُمْق غياب التجانس الذي تتسم به العقيدة/ العقائد، والهوية/ الهويات اليهودية، ولنُشير إلى أن نقاط الاختلاف بين هذه العقائد والهويات أهم من نقاط التشابه بينهما وإلى أن التركيز على الاختلاف له قيمة تفسيرية أعلى. ويتسم التركيب الجيولوجي بأنه يتكون من طبقات جامدة مستقلة، تراكمت الواحدة فوق الأخرى ولم تُلغ أية طبقة جديدة ما قبلها. ويعود هذا الوضع إلى أن اليهودية لم يَعُد لها مركز ديني أو حتى دنيوي يُحدِّد المعيارية اليهودية في فترة مبكرة من تاريخها وقبل أن تتبلور عقائدها الأساسية، ومن ثَمَّ تطوَّرت الاتجاهات والفرق الدينية اليهودية المختلفة كلٌّ على حدة، بمعزل عن أي مركز، ولذا لم يَعُد هناك أي قاسم مشترك، وأصبحت هذه الاتجاهات والفرق مثل الطبقات المختلفة داخل التركيب الجيولوجي الواحد، فهي تتزامن وتتجاور ولكنها لا تتمازج ولا تتفاعل ولا تُلغي الواحدة الأخرى.

ورغم تعدُّد الطبقات الجيولوجية داخل العقيدة اليهودية، إلا أننا نرى أن أهم الطبقات على الإطلاق هي الطبقة الحلولية الكمونية التي كانت روحية حتى عصر النهضة في الغرب (مع هيمنة القبَّالاه) ثم أصبحت حلولية كمونية مادية (أي علمانية شاملة) ابتداءً من ذلك التاريخ.

٤٤ـ شخصيات توراتية

حينما نتناول القصص التوراتي، نشير إلى «إبراهيم» أو «يعقوب» أو «موسى» دون أية إضافات (مثل سيدنا...)، لأن الأسماء تشير إلى شخصيات وردت في السياق القصصي التوراتي، وهي مختلفة في رؤيتها وسلوكها عن الشخصيات التي تحمل الأسماء نفسها في القرآن. ونحن نهدف هنا إلى فصل السياق القرآني عن السياق التوراتي. كما يُلاحَظ أننا نفضِّل القصص التوراتي ووقائع التاريخ المقدَّس عن وقائع التاريخ الإنساني والزمني.

٤٥ـ إسرائيل/يسرائيل

نستخدم كلمة «إسرائيل» لنشير إلى الدولة الصهيونية، والإسرائيليون هم سكانها. أما كلمة «يسرائيل» فنستخدمها للإشارة إلى المعنى الديني الأصلي. واليسرائيليون هم العبرانيون القدامى باعتبارهم جماعة دينية.

٤٦ـ يهودي/صهيوني

نفرِّق بطبيعة الحال في هذه الموسوعة بين «اليهودي» و«الصهيوني». فاليهودي هو مَنْ يؤمن بالعقيدة اليهودية، أما الصهيوني فهو مَنْ يؤمن بعقيدة سياسية هي الصهيونية. ومن ثَمَّ فهناك يهود غير صهاينة (مثل أعضاء جماعة ناطوري كارتا)، وهناك صهاينة غير يهود (مثل اللورد بلفور).

٤٧ـ اليهودي الملحد واليهودي الإثني

«اليهودي الملحد» هو اليهودي الذي يستمر في تسمية نفسه يهوديا رغم أنه لا يؤمن بالإله، ولا بالعقيدة اليهودية، التي يرى أنها مجرد فلكلور وجزء من تراثه الإثني. وبما أنه يزعم أنه يستمد هويته من هذا التراث فهو من ثَمَّ «يهودي إثني». وتقبل الشريعة اليهودية اليهودي الملحد باعتباره يهوديا، فاليهودي مَنْ وُلد لأم يهودية ومن

يؤمن باليهودية. وقد تسبَّب هذا الازدواج في أساس التعريف (العرْق والعقيدة) إلى ظهور مشكلة من هو اليهودي؟

٤٨ ـ الصهيونية والإمبريالية والعلمانية الشاملة

تستند الصهيونية إلى رؤية علمانية إمبريالية شاملة تعتبر اليهود والفلسطينيين (الإنسان) وفلسطين (الطبيعة) مادة استعمالية يمكن توظيفها وحوسلتها. فاليهود مادة بشرية تأخذ شكل شعب عضوي متماسك. ولكن هذه المادة لا نفع لها في العالم الغربي بل تشكل عبئاً عليه لأنها لا تنتمي إليه (فهو شعب عضوي منبوذ)، ولذا لابد أن يُخلِّص الغرب منهم وأن يُخلِّصوا هم منه.

والصهيونية، في وصفها وضع اليهود، تتفق تماماً مع الرؤية المعادية لليهود، ولكنها تختلف عن هذه الرؤية في طبيعة الحل المطروح، إذ يذهب الصهاينة إلى أن التخلص من اليهود (المادة البشرية غير النافعة) لا يتم عن طريق الإبادة أو الطرد (بشكل عشوائي)، وإنما يجب أن يتم بشكل علميٍّ ومنهجيٍّ عن طريق نقلهم (ترانسفير) خارج العالم الغربي فيتحولوا من مادة غير نافعة إلى مستوطنين يُشكِّلون دولة وظيفية تخدم مصالح الغرب، على أن يقوم هو بالدفاع عنها وضمان بقائها واستمرارها، وبذلك يصبحون مادة نافعة، أي أن اليهود الذين فشلوا في الاندماج في الغرب عن طريق التشكيل الحضاري الغربي، سيحققون هذا الاندماج عن طريق التشكيل الإمبريالي الغربي. وبعد أن كانوا سبمن في الحضارة الغربية (إنسان أداتي) فإنهم يصبحون سوبرمن في الشرق (إنسان إمبريالي).

٤٩ ـ الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة

في محاولتنا تعريف الصهيونية توصلنا إلى ما سميناه «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» التي تحتوي على العناصر الأساسية المكوِّنة لتعريف الصهيونية بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات المستخدمة، وتشكل هذه الصيغة الأساس الكامن للإجماع الصهيوني. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

(أ) اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع، يجب نقله خارج أوربا ليتحوَّل إلى شعب عضوي نافع.

(ب) يُنقل هذا الشعب إلى أي بقعة خارج أوربا [استقر الرأي، في نهاية الأمر، على فلسطين بسبب أهميتها الإستراتيجية للحضارة الغربية] ليُوطَّن فيها وليحل محل سكانها الأصليين، الذين لابد أن يتم إبادتهم أو طردهم على الأقل [كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة].

(جـ) يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعمه وضمان بقائه واستمراره، داخل إطار الدولة الوظيفية في فلسطين.

وهذه الصيغة الشاملة لم يُفصح عنها أحد بشكل مباشر، إلا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة. ولكن عدم الإفصاح عنها لا يعني غيابها، فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها.

ويُلاحَظ أن كثيراً من الأُسس التي تستند إليها الصيغة الشاملة قد اختفى بفعل التطورات التاريخية. فيهود العالم الغربي تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه كامل في مجتمعاتهم، ولم يعد هناك مجال للحديث عن "عدَم نفعهم". كما أن عملية نقل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها إلى حدٍّ كبير، خصوصاً وأنه بعد تأسيس الدولة أصبح الترانسفير عملية هجرة تتم في ظلال قانون العودة. وما تبقَّى من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هو دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي، وهذا ما يُشكِّل أساس الإجماع الصهيوني.

وعلى كلٍّ فإن ما يتم الإفصاح عنه هو الصياغة المهوَّدة للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، فهي أكثر صقلاً، وتبدو أكثر إنسانية، ولذا فهي تحقق القبول الذي لا يمكن أن تحققه الصيغة غير المهودة بسبب إمبرياليتها وماديتها الشاملة.

٥٠ ـ العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية

«العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية» هو تفاهم غير مكتوب بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية يتم بمقتضاه تنفيذ الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وتحويلها إلى واقع.

٥١ ـ الترانسفير

«الترانسفير» كلمة إنجليزية (transfer) تعني «النقل»، وفي المصطلح الصهيوني تعني «نقل السكان». والمشروع الصهيوني ينطوي على عمليتي ترانسفير: نَقْل الشعب اليهودي من المنفى إلى فلسطين، ونَقْل الشعب الفلسطيني من فلسطين إلى المنفى. ونحن نذهب إلى أن الحضارة الغربية، بماديتها الصارمة وديناميتها الهائلة التي لا تعرف الحدود، قد جعلت الترانسفير القيمة الأساسية والهدف النهائي.

٥٢ ـ بنية استيطانية إحلالية

«بنية استيطانية إحلالية» عبارة نستخدمها لنصف بنية الدولة الصهيونية. والاستعمار الصهيوني استعمار استيطاني إحلالي (مثل

استعمار الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية). فهو لم يأت لفلسطين للاستيلاء على الأرض واستغلال سكانها (كما هو الحال مع الاستعمار الاستيطاني في الجزائر) وإنما جاء ليستغل الأرض دون سكانها ويحل محلهم (فهي أرض بلا شعب حسب زعمه). وقد كان الاستعمار الصهيوني مجرد مشروع في بداية الأمر ولكنه تحوَّل إلى بنية (دولة وظيفية - مزارع جماعية - شبكة علاقات دولية - جماعات - مصالح). هذه البنية قانونها الأساسي الاستيطان الإحلالي، بكل ما يترتب على ذلك من مفاهيم أمنية وترتيبات إستراتيجية وتحالفات حزبية.

٥٣ - الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة

«الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة» هي «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» بعد أن اكتسبت ديباجات ومسوغات يهودية جعلت بإمكان المادة البشرية المستهدفة استبطانها. فالصيغة الشاملة تُعلمن اليهود تماماً وتُحوسلهم إلى أقصى حد وتجعلهم عنصراً نافعاً، وهي أيضاً تُعلمن الهدف من نقلهم والأرض التي سيُنقلون إليها. وليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن يُنقل كما لو كان شيئاً (لا قيمة له) من وطنه إلى أرض أخرى (أي أرض). ولذا، نجد أن المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة، إذ إنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل براني، وأن يقبلوا أن يتحركوا من أوطانهم إلى أماكن أخرى لخدمة الحضارة الغربية التي تنبذهم وتناصبهم العداء، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال.

وقد طوَّر هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة التي غطت، بسبب كثافتها، على الصيغة الأساسية الشاملة وأخفت إطارها المادي النفعي حتى حلَّت، بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب بل بالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي، محل الصيغة الأساسية الشاملة.

وقد تم إنجاز هذا بأن قامت الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من مادة نافعة إلى كيان إنساني له هدف وغاية ووسيلة ورسالة. وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية نبيلة. لكل هذا أصبح من السهل على المادة البشرية أن تستبطن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وأصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين: الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية، تظل الثوابت كما هي، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي.

٥٤ - الديباجات الصهيونية المختلفة

ترى الصيغة المُهوَّدة أن العالم هو «المنفى» وأن اليهود يشكلون «شعباً عضويا واحداً» لابد أن يُنقل من المنفى (فهو شعب عضوي منبوذ) إلى فلسطين «أرض الميعاد». ورغم هذا الاتفاق المبدئي إلا أن الديباجات تختلف، فالشعب العضوي المنبوذ لا يُنبَذ بسبب أنه جماعة وظيفية فقدت دورها أو لأنه قاتل المسيح، وإنما لعدد من الأسباب تتغيَّر بتغيُّر صاحب الديباجة منها أنه شعب مقدَّس مكروه من الأغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الإثنية الدينية) أو بسبب تركيبه الطبقي غير السوي (الصهيونية العمالية) أو لأن هويته الإثنية العضوية لا يمكن أن تتحقق إلا في أرضه (الصهيونية الإثنية العلمانية [الثقافية]) أو لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب، خصوصاً الشعوب الغربية (الصهيونية السياسة). ومهما اختلفت الأسباب، فإن هذا الشعب ينظر إلى نفسه فيرى كياناً عضويا مطلقاً له قيمة إيجابية ذاتية (بل يجد أنه المطلق وموضع الحلول والكمون).

أما الهدف من النقل فليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب وإنما إصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مُثُل الاشتراكية (الصهيونية العمالية) أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية) أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعنى العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الإثنية العلمانية) أو تحقيق مُثُل الحرية وتأسيس دولة ديمقراطية غربية (الصهيونية السياسية). كما اكتسب المكان الذي سيُنقل إليه الشعب معنى داخليا إذ تصبح الأرض هي الأرض الوحيدة التي تصلح للخلاص (المشيحاني أو الاشتراكي أو الليبرالي)، فهي «أرض الميعاد» الإثنية الدينية أو العلمانية، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض، وهو نفسه مشيئة الإله.

وآليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي أو العنف والإرهاب وإنما هي "القانون الدولي العام" متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية السياسية) أو "تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله" (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية). كما أن النتيجة النهائية واحدة هي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى

مهاجرين. وعلى هذا، فإن عملية نقل اليهود من المنفى إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفى).

ويُلاحَظ أن الصهيونية التصحيحية أكثر التيارات الصهيونية صراحة، فهي تُفصح عن الارتباط بالاستعمار ووظيفية الدولة وضرورة اللجوء للعنف، فهي تقترب من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ولا تختفي إلا وراء الحد الأدنى من الديباجات.

وقد اتجهت الصيغة المُهوَّدة لقضية يهود الغرب الذين اندمجوا في مجتمعاتهم ولا ينوون (لعدة أسباب خاصة بهم) الانتقال إلى أرض الميعاد الاشتراكية أو الرأسمالية أو اليهودية. فقَبلت قرارهم هذا نظير تلقِّي دعمهم والتفافهم حولها على أن تلزمَ الحركة الصهيونية الصمت تجاه فضيحة الصهاينة الذين لا يهاجرون.

٥٥- الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية

«الصهيونية الاستيطانية» هي صهيونية اليهودي الذي يقبل الصيغة الصهيونية الأساسية فيستوطن في فلسطين (ويحل محل سكانها الأصليين)، وهذه هي الصهيونية الحقيقية. ولكن بعد أن قبلت الصيغة المُهوَّدة قرار يهود الغرب البقاء في بلادهم، تم توسيع نطاق كلمة «صهيوني» بحيث أصبحت تضم كل من يستوطن في فلسطين ومن يظل في بلده. وتم تقسيم العمل الصهيوني بحيث تصبح الدولة الصهيونية الاستيطانية بمنزلة مركز يهود العالم الديني والثقافي الذي يمدهم بالهوية والإحساس بالانتماء واحترام الذات (أي أنهم يشاركون في الحلول اليهودي) ويمدونها هم بالدعم المادي والسياسي والمعنوي، وضمن ذلك قبولهم أن توظفهم الدولة الصهيونية لصالحها ولصالح الراعي الإمبريالي، فهم قد "لا يستوطنون" في فلسطين ولكنهم يساعدون في "توطين" الآخرين، فصهيونيتهم من ثَمَّ «صهيونية توطينية».

٥٦- التيارات الصهيونية

«التيارات الصهيونية» مصطلح نستخدمه للإشارة إلى الاتجاهات الصهيونية المختلفة بدلاً من «مدارس» أو «أحزاب» باعتبار أن الصيغة الصهيونية الشاملة المُهوَّدة تشكِّل الإطار الذي يقبله كل الصهاينة، ومن ثَمَّ فالاختلافات بينها اختلافات واهية ليس لها قيمة تفسيرية عالية.

٥٧- الصهيونية الإثنية العلمانية والدينية

«الصهيونية الإثنية العلمانية» (التي يُقال لها «الصهيونية الثقافية» أو «الصهيونية الروحية») هي الصهيونية التي ترى اليهود باعتبارهم جماعة إثنية، لا يربط أعضاءها رباط العقيدة وإنما الصفات الإثنية، مثل حنينهم الأزلي إلى فلسطين وإحساسهم أنها وطنهم القومي. كما يشير الصهاينة إلى بعض الصفات الإثنية الأخرى التي يدَّعون أنها يهودية بشكل عالمي (مع أنها صفات يهود شرق أوربا من يهود اليديشية). في هذا الإطار تصبح كتب اليهود المقدَّسة غير ملزمة أخلاقيا بالنسبة لليهود، فهي مجرد كتب فلكلور. والعقيدة اليهودية في التصوُّر الصهيوني الإثني العلماني، إن هي إلا إحدى مكونات القومية اليهودية.

وتختلف الصهيونية الإثنية الدينية (التي يُقال لها «الصهيونية الدينية») عن العلمانية في أنها لا تزال تؤمن بأن ما يجمع اليهود رباط العقيدة وليس الانتماء الإثني بل يرون أن الدين اليهودي أساس القومية اليهودية، أو كما عبَّر أحدهم عن الموقف: "الدين كقومية، والقومية كدين".

ولكن رغم هذا الاختلاف إلا أن كلا التيارين يؤمن بأن اليهود شعب عضوي له حقوق مطلقة في فلسطين، فهو مرجعية ذاته ومكتف بذاته. يفسر الدينيون هذا الوضع على أساس الوعد الإلهي ويفسر العلمانيون الظاهرة نفسها على أساس الوعي الإثني. وغني عن القول أن كلا التيارين يقبل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة.

الجـــزء الأول

إشكاليات تتصل بالنظرة إلى الجماعات اليهوديـة

١ ـ إشكالية الجوهر اليهودي

الجوهر اليهودي

«الجوهر» مجموعة الخصائص الثابتة في ظاهرة أو ما لا يتغيَّر بتَغيُّر المكان أو الزمان. وفكرة الجوهر اليهودي الخالص (الثابت) فكرة كامنة وراء عديد من المفاهيم والمُصطلَحات والنماذج التفسيرية المُستخدَمة في دراسة الجماعات والعقائد اليهودية، مثل: «التاريخ اليهودي»، و«الشخصية اليهودية»، و«العبقرية اليهودية»، و«الجريمة اليهودية»، و«الشعب اليهودي»، و«العرْق اليهودي»، و«الإثنية اليهودية». فكل هذه المُصطلَحات تفترض وجود هذا الجوهر اليهودي الخالص الثابت الذي يجعل يهودية اليهودي النقطة المرجعية الأساسية لتفسير سلوكه. أما العناصر غير اليهودية، مثل السياق الحضاري الإنساني الذي يوجد فيه أعضاء الجماعات اليهودية، أو حركيات المجتمعات التي ينتمون إليها، أو تفاعلهم مع أعضاء الأغلبية، بل العناصر الإنسانية المشتركة مع بقية البشر، فهي عناصر يُفترَض فيها أنها عرضية تنتمي إلى السطح ولا تفيد كثيراً في تفسير الظواهر اليهودية.

وهذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود الجوهر اليهودي، نموذج صهيوني بشكل واعٍ أو غير واعٍ حيث إن كلاً من الصهاينة والمعادين لليهود يُسقطونَ عنَ اليهود إنسانيتهم ولا يرونهم بشراً يتسمون بالقدر نفسه من الخير والشر الذي تتسم به بقية البشر. فمفهوم الجوهر اليهودي تعبير عن نموذج اختزالي عنصري، مقدرته التفسيرية منخفضة جدا، إذ يستبعد كثيراً من تفاصيل الواقع ومستوياته وبنيته.

وقد يكون هناك بعض الأنماط المتكررة والسمات المشتركة التي تسم وجود كثير من الجماعات اليهودية. لكن هذه السمات ليست أساسية، وبالتالي فإن مقدرتها التفسيرية ضعيفة. وهذه السمات مرتبطة بعشرات التفاصيل والسمات الأخرى النابعة من البيئات المختلفة التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية.

طبيعة اليهود

«طبيعة اليهود» عبارة تتواتر في كثير من الدراسات التي تُكتَب عن الجماعات والعقائد اليهودية، وتفترض أن ثمة جوهراً يهوديا كامناً في أي يهودي يُعبِّر عن نفسه من خلال «طبيعة يهودية» ويتجلى في العقائد اليهودية ويحدِّد رؤية اليهود للواقع وسلوكهم. ولذا، فإن أعضاء الجماعة اليهودية ـ حسب هذا المفهوم ـ يعملون بالتجارة والربا والأمور المالية بسبب طبيعتهم، وهم يعيشون في عزلة ويرفضون الاندماج للسبب نفسه. وغني عن القول أن هذا المفهوم يُفسِّر الواقع كله بصيغة واحدة بسيطة جاهزة، ومن ثَمَّ فهو يتجاهل واقع أعضاء الجماعات اليهودية المُركَّب غير المتجانس، وهو واقع لا يخضع لقانون عام ولا ينضوي تحت نمط متكرر واحد.

الأخلاقيات اليهودية

«الأخلاقيات اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة أنماطاً سلوكية يهودية متكررة تُعبِّر عن جوهر يهودي وطبيعة يهودية وشخصية يهودية تنعكس في رؤية أخلاقية محددة. وهي أنماط متكررة باعتبار أن هذه الأخلاقيات ثابتة لا تتغيَّر، وأينما وُجد يهود في أي زمان ومكان فإن المتوقع أن يسلكوا السلوك اللاأخلاقي نفسه الذي ينم عن الرغبة في تحطيم الآخرين والتآمر ضدهم. وبسبب هذه الأخلاقيات اليهودية المزعومة، يتسم سلوك اليهود بحب العزلة عن الآخرين وعدم الولاء للدولة والانحلال الجنسي، كما أنهم لهذا السبب ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية وينضمون إلى صفوف دعاة العلمانية الشاملة، كما أنهم عادةً ما يعملون بالتجارة والربا والأعمال المالية. ومصدر هذه الأخلاقيات، حسب هذه الرؤية، كتب اليهود المقدَّسة كالعهد القديم والتلمود، ويُضاف إليها الآن **بروتوكولات حكماء صهيون**، وهي كتب تعبِّر عن طبيعتهم وجوهرهم. لكن هذا النموذج التفسيري متهافت تماماً، فسلوك اليهود يختلف باختلاف الزمان والمكان. ومن هنا يجري حديثنا عنهم، لا باعتبارهم أعضاء شعب يهودي، وإنما باعتبارهم أعضاء جماعات يهودية.

ومن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يعزلوا أنفسهم في بابل ولا في الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولا في إسبانيا الإسلامية، بل اندمجوا إلى حدٍّ كبير في محيطهم الحضاري. أما في آشور والصين، فقد انصهروا تماماً. وكان العبرانيون القدامى بدواً رُحلاً،

وعملوا بالزراعة (وليس بالتجارة أو الربا) حين استقروا في كنعان. وكذلك، فإن ولاء يهود ألمانيا في القرن التاسع عشر لدولتهم كان كاملاً إلى درجة أن نسبة مئوية ضخمة منهم تَنصَّرت حتى إنهم أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الشعب الألماني. كما أن ولاء الأمريكيين اليهود للولايات المتحدة من القوة بحيث إنهم يموتون من أجلها. أما عداء اليهود للأغيار فإنه ليس مطلقاً، فقد ساعدوا المسلمين في الفتح الإسلامي، سواء في فلسطين أو في إسبانيا. كما أن انحلالهم الجنسي غير مطلق أيضاً، فظاهرة الطفل اليهودي غير الشرعي أو البَغْي اليهودية كانا غير معروفتين تقريباً في أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر. وأما الماسونية والعلمانية، فإن اليهودية الأرثوذكسية تعاديهما بشراسة، وهكذا. ولا يصعب على أي دارس مُتحيِّز أن ينتقي مجموعة من التفاصيل والقرائن منتزعة من سياقها الزمني والمكاني للبرهنة على أية مقولة عامة، كأن يأخذ قرينة من المدينة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخرى من إسبانيا أثناء الغزو المسيحي، وثالثة من روسيا في القرن التاسع عشر، ثم يستخدمها جميعاً لإثبات مقولة ما مثل "عدم ولاء اليهود" متجاهلاً كل القرائن الأخرى، كتلك التي ذكرناها.

ومصدر هذه الصورة السلبية للأخلاقيات اليهودية هو يهود اليديشية في مرحلة ضعفهم وتَفسُّخهم في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين، إذ تركَّزت نسبة كبيرة منهم في تجارة البغاء حتى أصبحت شخصية القواد اليهودي والبَغْي اليهودية أمراً شائعاً. كما أن نسبة المهاجرين منهم كانت مرتفعة جداً. والمهاجر في كثير من الأحيان، شخصية غير منتمية لا ولاء لها، كما أن معدلات العلمنة بين المهاجرين مرتفعة جداً. وهكذا، فإن الصورة العنصرية النمطية السائدة عن الأخلاقيات اليهودية قد يكون لها أساس واقعي، ولكنها تنتمي إلى زمان ومكان محدَّدين، كما أنها فقدت كثيراً من فعاليتها إذ اختفى يهود اليديشية تقريباً وظهرت أنماط سلوكية جديدة بين أعضاء الجماعات.

المادية اليهودية

لمصطلَح «المادية» معنيان:

١ ـ المعنى الفلسفي: الإيمان بأن العالم كله مادة تتحرك وأن كل ما يبدو وكأنه ليس مادة (العقل والروح والنفس والفكر والوعي) إنما هو في واقع الأمر مادة ويمكن تفسيره من خلال مقولات مادية، وأن كل الظواهر الإنسانية العقلية والروحية ما هي إلا جزء من بنية اجتماعية (بناء فوقي) يمكن أن يُرَد في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى عوامل مادية (البناء التحتي). وأن كل شيء في الكون يمكن تفسيره تفسيراً ماديا لأن كل التغيرات لها سبب مادي. ولذا، فإن التفسيرات المادية هي التفسيرات الوحيدة الممكنة، كما أن العقل الإنساني ليست له أية فعالية سببية ولا علاقة له بحركة الكون الذي يتحرك بذاته، والكون لا يوجد فيه غرض ولا سبب ولا هدف ولامعنى ولا يوجد إله ولا غيب (وراء الطبيعة)، فالمادة وحركتها أزليتان ولا يوجد سبب أو محرِّك أوَّل. وقد تتغير أشكال الظواهر المادية وقد تتبدل تجلياتها ولكن المادة لا تُخلَق ولا تُستحدَث من العدم، ولا توجد حياة أزلية سوى المادة.

٢ ـ المعنى الدارج: وهو حب النقود (التي يشار إليها على أنها «مادة»). فيقال «فلان مادي» بمعنى أنه يحب المال حبا جما.

والمدلولان قد يغطيان رقعة مشتركة، فالإنسان المادي (بالمعنى الفلسفي) قد يكون محبا للمال، والمحب للمال قد يكون ماديا بالمعنى الفلسفي، ولكنهما على أية حال مختلفان، فالمادية بالمعنى الفلسفي رؤية شاملة للكون تغطي علاقة الإنسان والطبيعة والإله، أما المادية بالمعنى الدارج فتنصرف إلى جانب واحد في الطبيعة البشرية وهو حب المال.

وإذا نظرنا إلى عبارة «المادية اليهودية» بالمعنى الفلسفي، فإننا سنواجه صعوبات بالغة، فاليهودية عقيدة دينية يؤمن كثير من أتباعها بالإله واليوم الآخر والملائكة والشياطين والثواب والعقاب، ومن ثَمَّ لا يمكن الحديث عن المادية اليهودية بهذا المعنى.

ويمكننا الآن تَناوُل عبارة «المادية اليهودية» بالمعنى الدارج. وهنا أيضاً، لا يمكننا أن نتحدث عن أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة في كل زمان ومكان باعتبار أنهم محبون للمال حبا جما، ومَنْ يدرس تواريخ الجماعات اليهودية سيكتشف أن حب اليهود للمال لا يختلف في معدله كثيراً عن حب أعضاء الأغلبية له. فيهود الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يتصفون بصفات الكرم والسخاء (إلى درجة التبذير)، شأنهم في هذا شأن العرب في عصرهم، بينما نجد أن يهود الولايات المتحدة يتصفون بأنهم أكثر حرصاً وتقتيراً، وهذا جزء من ميراثهم الذي يشكل المذهب البروتستانتي والطبيعة التعاقدية أهم ملامحه، فهو يؤكد قيم التقشُّف الذي يؤدي إلى التراكم المالي (المادي).

ومع هذا، يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يميلون، أكثر من غيرهم، إلى جمع المال ومراكمته. ولكن هذا لا تُفسِّره يهوديتهم وإنما يُفسِّره أنهم أعضاء في جماعات وظيفية لابد أن تقوم بمراكمة الخبرات والأموال وأن تمارس قدراً عالياً من

ضبط النفس في عمليات الاستهلاك (وشيلوك مثل جيد على ذلك).
ومَنْ يدرس الجماعات الوظيفية (خصوصاً الوسيطة)، سيجد أن أعضاءها (يهوداً كانوا أو باكستانيين أو صينيين) يتسمون بالصفات نفسها تقريباً. والصينيون في وطنهم غير معروفين بالبخل أو الحرص الشديدين، ولكنهم حينما تحولوا إلى جماعات وظيفية، أصبحوا «ماديين» يحبون المال حبا جما. والباكستانيون مشهورون بكرمهم الزائد في بلدهم، بينما نجد أن البريطانيين (المعروفين بحرصهم البالغ) يتهمون الباكستانيين المقيمين في بلادهم بأنهم بخلاء.

العرْق اليهودي

«العرْق» جملة السمات البيولوجية (مثل حجم الجمجمة ولون الجلد أو العيون أو الشعر . . . إلخ) التي يُفترَض وجودها في جماعة بشرية وتَميُّزها بشكل حتمي (بيولوجي) عن غيرها من الجماعات. وكلمة «عرْق» ترادف أحياناً كلمة «سلالة» أو «جنس» أو «دم». وهناك تقسيمات عدّة للسلالات أو الأعراق أو الأجناس البشرية المختلفة أو الدماء التي تجري في عروقها.

وهناك اتجاه صهيوني يؤمن بأن ثمة عرْقاً يهوديا مستقلا، وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرْقي. ولعل المفكر الصهيوني موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥) مؤسِّس الفكرة الصهيونية (في ديباجتها الاشتراكية) أول من طرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي أو عنصري حين ذكر أن العرْق اليهودي من الأعراق الرئيسة في الجنس البشري، وأن هذا العرْق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه، فحافظت اليهودية على نقاوتها عبر العصور. وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون أهم الصراعات، وأسهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الآري والسامي، وهو التمييز الذي قُدِّر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية التي تبناها منظرو الفكر العنصري الأوربي. وقد داعبت هرتزل فكرة الهوية العرْقية فترة من الزمن على الأقل، فاستخدم عبارات مثل «الجنس اليهودي» أو «النهوض بالجنس اليهودي»، كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي. وعندما قام هرتزل بأول زيارة له إلى معبد يهودي في باريس، كان أكثر ما أثار دهشته التشابه العرْقي الذي تصورَّ وجوده بين يهود ڤيينا ويهود باريس: "الأنوف المعقوفة المُشوَّهة، والعيون الماكرة التي تسترق النظر". كما يقول ماكس نوردو الذي يُعَدُّ واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تحوُّله إلى الصهيونية)، في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام، "إن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرْق وحسب".

وقد تم العدول عن استخدام كلمة «عرْق». وبدلاً من ذلك، بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني، أي على أساس التراث والثقافة المشتركة، ومن ثَمَّ حلَّت الإثنية محلَّ العرْقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية. لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرْقي، فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق (العرْقية أو الإثنية) تعطي صاحب الهوية العرْقية أو الإثنية مزايا معَينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر. (انظر القسم المعنون: «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية [تعريف وإشكالية]»).

الجنس (بمعنى عرْق)

انظر: «العرْق اليهودي».

السلالة اليهودية

انظر: «العرْق اليهودي».

٢ ـ إشكالية الوحدة اليهودية والنفوذ اليهودي

الوحدة اليهودية

«الوحدة اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة وحدة تربط أعضاء الجماعات اليهودية كافة في كل زمان ومكان، وأن هذه الوحدة تتمثل في وحدة الهوية والشخصية والسلوك، وفي أشكال مختلفة من التضامن، وفي نهاية الأمر في القومية اليهودية والشعب اليهودي الواحد ذي الهوية الواحدة المستمرة وكذلك في التاريخ اليهودي الواحد. ويذهب البعض إلى القول بوجود عرْق يهودي واحد. وينتهي هذا الافتراض إلى أن اليهود حافظوا على هذه الوحدة منذ خروجهم من مصر الفرعونية حتى يومنا هذا. وقد فُسِّر مصدر هذه الوحدة تفسيرات عدة، فالصهاينة الدينيون يرون أن مصدر الوحدة حلول الروح الإلهية وكمونها في الشعب اليهودي، فهي تَقطُن وسطهم، وهي التي تُحوِّلهم إلى شعب من الكهنة والقديسين، بينما يرى الصهاينة اللادينيون أن مصدر وحدة اليهود الجوهر اليهودي الكامن في كل اليهود، أو نزعة معاداة اليهود في مجتمعات الأغيار، أو تَميُّز اليهود وظيفيا واضطرارهم إلى الاضطلاع بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة وبالأعمال التجارية والربوية. ويميل الخطاب الصهيوني في الوقت الحاضر إلى تأكيد أن هذه الوحدة تعبير عن تَطلُّع قومي في حالة اللادينيين، وعن تَطلُّع قومي ديني في حالة الدينيين.

ولكن النموذج الصهيوني الاختزالي يختلف عن الواقع التاريخي المُركَّب المتعيِّن لأعضاء الجماعات اليهودية، وهو واقع لا يتسم بالوحدة. فمن الناحية الدينية، تأخذ اليهودية شكل تكوين جيولوجي تراكمي غير متجانس تتعايش فيه العناصر المختلفة جنباً إلى جنب أحياناً وتتفجر أحياناً أخرى. وقد حدثت تَفجُّرات وانقسامات كثيرة من البداية، من أهمها ما كان يحدث داخل المملكتين العبرانيتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) من صراع بين عبادة يهوه وعبادة بعل، وصراع بين عبادة مملكة الشمال وعبادة مملكة الجنوب. وعند عودة بعض اليهود من بابل إلى فلسطين، حدث انقسام حاد بينهم وبين اليهود المقيمين الذين جاء منهم فريق السامريين. وقد انقسم اليهود دينيا بعد ذلك إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين، ثم ظهر الاحتجاج القرائي على اليهودية الحاخامية، كما ظهرت الحركات المشيحانية المختلفة (وآخرها الحركة الحسيدية)، وهي حركات احتجاج ضد المؤسسة الحاخامية تنفي مفهوم الوحدة تماماً. كما انفصلت بعض الجماعات اليهودية مثل الفلاشاه ويهود الهند عن اليهودية الحاخامية، وأصبح لها صيغ يهودية مختلفة جوهريا عن الصيغة الحاخامية. وفي العصر الحديث، انقسمت اليهودية إلى فرق: اليهودية الإصلاحية، واليهودية المحافظة، واليهودية التجديدية، واليهودية الأرثوذكسية، واليهودية الأرثوذكسية الجديدة. وهناك، بطبيعة الحال، الانقسام بين الإشكناز والسفارد على المستوى الديني. وكثير من هذه الفرق قد تُكفِّر بعضها البعض، وقد تجد أن الانقسام من الحدة بحيث تُقاطع الواحدة منها الأخرى، وهو ما يجعل الحديث عن الوحدة اليهودية أمراً صعباً. ومما زاد هذا التفتت عمقاً، غياب سلطة مركزية يهودية جماعية، دينية أو دنيوية، تُحدِّد المعايير لأعضاء الجماعات اليهودية.

وقد تمتع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، منذ العصور الوسطى، بشكل من أشكال الوحدة، وذلك من خلال علاقاتهم كجماعات وظيفية وسيطة تشكِّل ما يشبه النظام الائتماني العالمي وكان من مصلحتهم الحفاظ على هذه العلاقات. ورغم أنها بدت كما لو كانت وحدة قومية، فقد كانت علاقات مالية فحسب، إذ إن كل جماعة وظيفية يهودية كانت مرتبطة، في نهاية الأمر، بالمجتمع الذي تنتمي إليه وتتفاعل معه وتستمد هويتها منه. ولكن الصهاينة يؤكدون، مع هذا، أن هناك وحدة أزلية تجمع اليهود، ويَخلُصون من هذا إلى أن الدولة الصهيونية في فلسطين أمر منطقي بل حتمي.

الاستقلال اليهودي

«الاستقلال اليهودي» عبارة تفترض أن لليهود شخصيتهم اليهودية المستقلة وتاريخهم اليهودي المستقل عن تواريخ الأغيار. وتشير الأدبيات الصهيونية إلى مؤسسات الإدارة الذاتية، مثل القهال ومجلس البلاد الأربعة، باعتبارها مؤسسات الحكم الذاتي، كما تشير إلى اللهجات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارها لغات اليهود. وتستند كل من العقيدة الصهيونية ونزعة معاداة اليهود إلى المفهوم الواحد نفسه، فيتحدث أعداء اليهود عن حب اليهود العزلة ورفضهم الاندماج وتفضيلهم الجيتو على الحياة مع الأغيار، بل يتحدثون عن سمات جوهرية داخل الطبيعة البشرية اليهودية تجعلهم مستقلين عن باقي البشر ومختلفين عنهم. ومن المفارقات أن القبَّالاه اللوريانية تذهب إلى درجة من التطرف حيث تطرح تصوراً لليهود باعتبارهم قد خُلقوا من عجينة مغايرة لتلك التي خُلق منها الأغيار، وهذا يتناقض مع قصة الخلق في العهد القديم.

وغني عن القول أنه لا يوجد استقلال يهودي، إذ تدل القرائن التاريخية على أن أعضاء الجماعات اليهودية اندمجوا وانصهروا في مجتمعاتهم، وأن ما يتمتع به أعضاء الجماعات اليهودية من استقلال أو انفصال نسبي عن مجتمع الأغلبية لا يختلف بأية حال عما يتمتع به أعضاء أية أقلية دينية أو إثنية في أي مجتمع، خصوصاً في المجتمعات التقليدية. ويعود شيوع مفهوم، مثل مفهوم استقلال اليهود، إلى اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات، خصوصاً في العالم الغربي، بوظيفة الجماعة الوظيفية التي يعيش أعضاؤها في عزلة عن بقية أعضاء المجتمع.

ونحن نرى أن استخدام مُصطلَح كمُصطلَح «اليهود»، يؤكد على مثل هذا الاستقلال، وقد يشي بدرجة من الوحدة والتجانس لم يتمتع بهما اليهود قط. ولذا، فإننا نؤثر استخدام مُصطلَح مثل «الجماعات اليهودية» لأنه يؤكد التنوُّع وغياب التجانس والانفصال، ولا ينفي في الوقت نفسه قدراً من الوحدة.

الوعي اليهودي

«الوعي اليهودي» عبارة تفترض أن ثمة هوية يهودية محدَّدة وشخصية يهودية لها خصوصية يهودية وتاريخ وتراث مستقلين عن تاريخ وتراث الشعوب، بل تفترض أن ثمة جوهراً يهوديا وطبيعة يهودية. ويرى المعادون لأعضاء الجماعات اليهودية أن اليهود يتمتعون بوعي عميق لخصائصهم اليهودية هذه، وأن هذا الوعي ينعكس في الدفاع عن مصالحهم اليهودية، وفي الانعزال داخل

الجيتو، وفي نهاية الأمر في المؤامرة اليهودية الكبرى (وهي المؤامرة التي يقول البعض إن اليهود يحيكونها ضد الأغيار في كل زمان ومكان). ومثل هذه النظرة تتجاهل افتقار الجماعات اليهودية للتجانس، وخاصيتها الأساسية كتركيبة جيولوجية، وانفصالها الواحدة عن الأخرى عبر التاريخ. كما تتجاهل الصراعات الحادة التي نشبت بين هذه الجماعات، لا بسبب اختلاف المصالح وحسب، وإنما بسبب اختلاف الهوية والرؤية. وفي الحقيقة، فإن الصراع بين السفارد والإشكناز، ذلك الصراع الممتد منذ القرن السابع عشر حتى الوقت الحاضر، تعبير عن هذا الاختلاف الذي يجعل مقولة الوعي اليهودي الواحد أمراً محالاً.

لكن الصهيونية تؤمن بأن اليهود شعب واحد، ومن ثَمَّ فلابد أن يُقوَّى الوعي اليهودي للمحافظة على وحدة هذا الشعب وعلى هويته. ومن المفارقات أنه، بعد إنشاء الدولة الصهيونية، اتضح تهافت ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» وانقسامها إلى عشرات الهويات، كما اتضح أن أبناء المستوطنين الصهاينة من جيل الصابرا لهم هوية جديدة مختلفة عن هوية أعضاء الجماعات الموجودين في العالم، بل يُكن الكثير منهم الاحتقار ليهود المنفى، أي معظم يهود العالم. ومن ثَمَّ، فقد أدخلت مادة الوعي اليهودي في مقررات الدراسة في المدارس الإسرائيلية.

ويؤكد المقرر الجوانب الإيجابية لوجود اليهود على هيئة جماعات منتشرة في العالم، ويمجد إنجازاتهم الحضارية، وهو ما يعطي صورة إيجابية لحياتهم في المنفى، أي في أنحاء العالم خارج فلسطين. ولكن هذا التمجيد يتنافى مع العقيدة الصهيونية التي تصدر عن الإيمان بأن حياة اليهود خارج فلسطين إن هي إلا انحراف عما يُسمَّى «التاريخ اليهودي». ومن ثَمَّ، فإن مثل هذه الرؤية لا تزيد الوعي اليهودي الأحادي البتة. ولكن، إن تم التركيز على الجوانب السلبية وحدها، وصُوِّر تاريخ الجماعات على أنه تاريخ هجمات ومذابح، كما تفعل بعض كتب التاريخ الصهيونية (وهو ما سميناه «التأريخ من خلال الكوارث»)، فإن هذا سيقلِّل احترام الأجيال الصاعدة ليهود العالم، وبالتالي سيقوض دعائم الوعي اليهودي. ولذا، فإن هناك اتجاهاً الآن لتأكيد عنصر المقاومة بين يهود المنفى. واليهود، حسب هذه الرؤية، كانوا دائماً معرضين للاندماج، ولكنهم تصدوا له فأبدعوا وأبقوا على جوهرهم اليهودي. وعندما تعرضوا للمذابح، ثاروا ضد من قاموا بذبحهم، ومن هنا تأكيد أهمية التمرد الحشموني والأحداث المماثلة في التاريخ اليهودي، مثل: التمرد اليهودي الأول والتمرد اليهودي الثاني ضد الرومان، وتمرد جيتو وارسو. بل يصبح تاريخ الصهيونية تاريخ هذا الوعي اليهودي وتاريخ تلك المقاومة المستمرة. ويشكو اليهود السفارد والشرقيون من أن مادة الوعي اليهودي تركز على إسهامات اليهود الإشكناز وحدهم ولا تهتم بإسهاماتهم الحضارية.

عدم الانتماء اليهودي

«عدم الانتماء اليهودي» عبارة تفترض وجود انتماء يهودي مستقل للجماعة اليهودية يتبدَّى في شكل ولاء كامل للشعب اليهودي وعدم انتماء للشعوب أو الأوطان الأخرى. ونحن نرى أنه إن كان ثمة انتماء يهودي فهو انتماء إلى العقيدة أو العقائد اليهودية، إذ لا يوجد تراث أو ماض يهودي مشترك، فماضي أو تاريخ كل جماعة يهودية هو ماضي أو تاريخ المجتمع الذي توجد فيه.

ومن الإشكاليات الأساسية التي تثار في الأدبيات الغربية (اليهودية وغير اليهودية)، إشكالية الانتماء اليهودي. وقد طُرح السؤال منذ البداية كما يلي: هل ينتمي اليهودي إلى الجنس البشري ككل أم إلى الشعب اليهودي المختار أو (المقدَّس)؟ وهل الخالق هو إله اليهود وحدهم (كما يتصور بعض اليهود) أم إله العالمين؟ والإجابة القاطعة عن هذا السؤال داخل النسق الديني اليهودي غير ممكنة؛ فهناك من القرائن ما يؤيد النزعة العالمية والانتماء إلى الجنس البشري، وهناك من القرائن ما يساند الرأي المناقض. ففي تراث القبَّالاه، أصبح التمييز بين الشعب اليهودي والأغيار حادا إلى أقصى درجة، حتى أن القبَّاليين ذهبوا إلى أن اليهود خُلقوا من طينة مختلفة عن تلك التي خُلق منها بقية البشر وإلى أن الأغيار خُلقوا على شكل الإنسان حتى يمكنهم القيام بخدمة اليهود. وفي فكر الاستنارة، وفي اليهودية الإصلاحية، بل في التلمود نفسه، ما يناقض هذا الموقف، وذلك بتأكيد الانتماء الإنساني العالمي لليهود.

ولكن الانتماء اليهودي قضية ترتبط بالدور الذي لعبته الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات، خصوصاً المجتمعات الغربية، كجماعة وظيفية وسيطة. بيد أن أية جماعة وظيفية وسيطة داخل أي مجتمع لا تنتمي إليه، وإنما تنتمي عاطفيا إلى الوطن الأصلي (الوهمي أو الفعلي)، كما تنتمي فعليا إلى الطبقة الحاكمة فهي أداتها وسوط العذاب في يدها. وقد نَجَم عن ذلك الوضع ابتعاد الجماعة اليهودية عن الجماهير الشعبية وهامشيتها بالنسبة إلى الحركات الجماهيرية الكبرى.

والواقع أن قضية الانتماء طُرحت بحدة مع ظهور الدولة القومية المركزية التي حاولت توحيد السوق وتوحيد الأمة حسب

نموذج ثقافي أحادي موحَّد يستبعد الجيوب القومية الإثنية الأخرى، ويتطلب انتماءً كاملاً من المواطن. وقد نجح كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في تحديد انتمائهم القومي بالاندماج في محيطهم الثقافي. ويرى الدارسون أن تَصاعُد معدلات العلمنة في العالم الغربي سيؤدي إلى ضعف الانتماء الديني للجماعات اليهودية، وهو أمر تساهم الصهيونية في خلقه طارحةً نفسها كعقيدة علمانية تحل محل العقيدة الدينية.

وقد أكد الصهاينة والنازيون أن أعضاء الجماعات اليهودية لا ينتمون إلى التشكيلات الحضارية أو القومية التي يوجدون فيها مفترضين أن ثمة انتماءً يهوديا خالصاً. وأكد البرنامج السياسي الصهيوني وجود مثل هذا الانتماء. لكن السلوك الفعلي ليهود أمريكا، على سبيل المثال، يبين أنهم ينتمون إلى وطنهم الأمريكي، ومن ثَمَّ لا يهاجر منهم إلى إسرائيل إلا نسبة ضئيلة جداً. وكذلك، فإن انتماء يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان انتماءً إلى مصالحهم الاقتصادية أو السياسية. ولذلك، فإنهم يحاولون الهجرة إلى الولايات المتحدة ولا يتوجهون إلى إسرائيل إلا عند الاضطرار. كما أن تَفجُّر قضية الهوية داخل إسرائيل يبين أن لليهود انتماءات مختلفة وليس انتماءً يهوديا واحداً. وترتبط بقضية الانتماء اليهودي قضية ازدواج الولاء، إذ إن من يؤمن بأن اليهود لا انتماء لهم لابد أن ينظر إليهم بعين الشك ويرى أن ولاءهم لأوطانهم أمر مستحيل، أو يرى على الأقل حتمية ازدواج هذا الولاء، باعتبار أن ولاءهم اليهودي شيء راسخ متأصل.

ويحاول الصهاينة في الوقت الحاضر أن يُعرِّفوا انتماء اليهود تعريفاً جديداً يتفق مع واقعهم كجماعات تعيش خارج فلسطين وترفض الهجرة. ومن ثَمَّ، أصبح الانتماء السياسي والاقتصادي لليهودي إلى وطنه الفعلي، أما انتماؤه الديني والثقافي فلوطنه المثالي أو الوهمي، أي الدولة الصهيونية. وبهذا لا تصبح الترجمة العملية للبرنامج الصهيوني الهجرة إلى فلسطين المحتلة وإنما تعميق الأبعاد اليهودية الإثنية للهوية، وهو ما يُسمَّى «صهيونية الدياسبورا» أو «الصهيونية الإثنية».

الولاء اليهودي المزدوج

«الولاء اليهودي المزدوج» مُصطلَح يستخدمه المعادون لليهود والصهاينة الذين ينطلقون من الإيمان بأن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لوطنهم القومي ومصالحهم اليهودية، لأنهم لا جذور لهم في مجتمعاتهم ولا ينتمون إليها انتماءً حقيقيا، فاليهود شعب عضوي مرتبط بأرضه. لذلك فهم دائماً موزَّعو الولاء، يمارسون إحساساً عميقاً بازدواج الولاء.

ولا يمكن الحديث عن ولاء يهودي محدد ومطلق، كما لا يمكن تحديد كيفية تصرف أعضاء الجماعات اليهودية مسبقاً، وكأنهم كائنات بسيطة تعيش بمعزل عن التاريخ الإنساني. وتدل تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية على أن ازدواج الولاء ليس سمة أساسية أو لصيقة بهم، وعلى أنهم في كثير من الأحيان أخلصوا لأوطانهم (التي يعيشون في كنفها) وانتموا إليها انتماءً كاملاً واندمجوا فيها، وتمثَّلوا قيمها واستبطنوها تماماً. ومنذ أيام التهجير البابلي، حيث ظهرت أول جماعة يهودية خارج فلسطين، طوَّرت الشريعة اليهودية مفهوم «شريعة الدولة هي الشريعة»، الأمر الذي يحدد ولاء أعضاء الجماعة بشكل صارم باعتبارهم جماعة بشرية لا تدين بالولاء إلا لقوانين الدولة التي يعيشون في كنفها. وقد التزم معظم أعضاء الجماعات اليهودية بهذا المفهوم عبر التاريخ الإنساني، شأنهم في هذا شأن كثير من البشر من أعضاء الأقليات والأغلبية. وعلى كل حال، لم يكن هناك احتمال لازدواج الولاء لعدم وجود حكومة أو دولة يهودية يدين لها اليهودي بالولاء. وبتحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة داخل التشكيل الحضاري الغربي، منذ العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية، توجَّه ولاء اليهودي إلى جماعته أساساً، ثم إلى الطبقة الحاكمة التي تحمي هذه الجماعة وتضمن بقاءها. وهذه سمة أساسية تسم مثل هذه الجماعات وليست مقصورة على الجماعات الوظيفية اليهودية، فنجد أن الصينيين في الفلبين، والعرب في بعض البلاد الأفريقية وإندونيسيا، يندرجون تحت هذا النمط. وعلى كلٍّ، لم تكن مفاهيم الوطن (والولاء القومي له) واضحة أو متبلورة حتى نهايات القرن الثامن عشر وظهور الفكر القومي.

وقد طُرحت قضية الولاء في عصر التنوير في أوربا، حينما وُصف اليهود بأنهم "دولة داخل دولة" بسبب خصوصيتهم وانعزاليتهم الحقيقية أو الوهمية، وقد طُلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية، وكذلك إلى الأقليات الإثنية والدينية كافة، أن يدينوا بالولاء للدولة القومية وحدها وأن يرفضوا أية ولاءات أخرى. وبالفعل، كان اليهود من أكثر العناصر ترحيباً بهذه الدعوة، فاندمجوا في مجتمعاتهم بنسبة عالية كلما سنحت لهم الفرصة. ولم يُعرقِل هذه العملية سوى تَعثُّر التحديث سواء في روسيا أو في ألمانيا، وهي المجتمعات التي طرحت تصوراً عضويا لفكرة الولاء.

وفي العصر الحديث، يشعر يهود الولايات المتحدة بالولاء

العميق لبلدهم أمريكا، فهم ينتمون إليها انتماءً كاملاً ويحاربون ويموتون دفاعاً عنها، ومصيرهم مرتبط بمصيرها. وحينما يشكِّك الدعاة الصهاينة في هذا الولاء، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يثورون. ويتضح ولاؤهم أيضاً في رفضهم الهجرة إلى إسرائيل وفي اندماجهم في مجتمعاتهم.

ويَصدُر الصهاينة عن فكرة ازدواج الولاء، شأنهم في هذا شأن النازيين والمعادين لليهود، وينطلق برنامجهم السياسي منها. فيتحدث المفكرون الصهاينة، عما يسمُّونه «الولاء القومي اليهودي». وبالتالي، فإن اليهودي الذي يعيش في بلد غير الدولة اليهودية لن يشعر تجاهه بأي ولاء، أو سيكون ولاؤه له ضعيفاً إذ سيكون موزعاً بين وطنه الفعلي الذي يقيم فيه ووطنه القومي الصهيوني، وهو ما يُطلق عليه «ازدواج الولاء». وقد كان هرتزل يتفاوض مع السلطات الإمبريالية المختلفة في إطار تصور أنه قادر - حسب قوله - على تحويل كل يهود العالم إلى عملاء يدينون بالولاء لا لأوطانهم وإنما لأية دولة تساند الفكرة الصهيونية. والعميل إما شخص عديم الولاء أو شخص ذو ولاء مزدوج.

وتنطلق الدولة الصهيونية من الإيمان بازدواج الولاء لدى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. ولذلك، فهي تحاول دائماً تجنيدهم لخدمة مصالحها ومآربها، بل إن بن جوريون صرح بأن السفير الإسرائيلي في كل عاصمة هو الممثل الحقيقي للجماعة اليهودية فيها.

وثمة قوانين في الكيان الصهيوني لتكريس هذا الاتجاه، مثل قانون العودة وقانون الجنسية. والصهيونية - بوصفها حركة سياسية ودولة استيطانية - تحاول ترجمة فكرة الولاء اليهودي، أي ازدواج الولاء، إلى واقع عملي. وقد اكتشفت الدولة الصهيونية (بعد إعلانها) أنها لن تستطيع الوصول بسهولة ويُسر إلى جميع أعضاء الشعب اليهودي، نظراً لضآلة سلطتها خارج حدودها. ولذا، حوَّلت المنظمة الصهيونية نفسها إلى أداة موظفة في يد الدولة الصهيونية، تصل عن طريقها إلى أعضاء الجماعات اليهودية.

المصالح اليهودية

«المصالح اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة مصالح يهودية محددة متفقٌ عليها بين «اليهود» (أعضاء الجماعات اليهودية)، وأنهم يدافعون عنها علناً أو سرا متى وأينما سنحت لهم الفرصة، وهو افتراض شائع في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود. وتذهب الكتابات التي تتبنى مثل هذا النموذج التفسيري إلى أن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لما يُسمَّى «المصالح اليهودية»، وبالتالي فهم لا يعملون إلا من أجلها.

ولكن من الثابت تاريخيا أنه لم تكن هناك مصالح يهودية واحدة، بل إن الصراعات بين الجماعات اليهودية المختلفة حقيقة تاريخية. وكثيراً ما كانت تستعدي جماعة ما السلطات على جماعة أخرى وتطالب بطردها. ويظهر الصراع في حق حظر الاستيطان، أي حق أية جماعة يهودية في أن ترفض إيواء أي يهودي من جماعة أخرى، وهو حق كانت الجماعات اليهودية في أوربا في العصور الوسطى تسعى للحصول عليه. ولعل أهم الصراعات عبر التاريخ هو الصراع بين الإشكناز والسفارد في العالم الغربي، ولا تزال أصداؤه في إسرائيل حتى الآن. وكذلك، فإن مصالح الدولة الصهيونية تتعارض في كثير من الأحيان مع مصالح الجماعات اليهودية كما اتضح في حادثة بولارد على سبيل المثال، أو في تَورُّط الإسرائيليين في تجارة المخدرات في كولومبيا. وقد فجرت الانتفاضة هذه القضية وبحدة، إذ إن منظر الجنود الإسرائيليين (ممثلي الدولة اليهودية) وهم يكسرون أذرع الشباب الفلسطيني، لم يُحسِّن الصورة الإعلامية ليهود العالم، ولم يخدم مصالحهم، مع أنه يخدم مصلحة الدولة التي يُقال إنها «يهودية»!

ونحن نرى أن أعضاء الجماعات اليهودية لهم مصالح مختلفة باختلاف الزمان والمكان، ولتفسير سلوكهم لابد من العودة إلى سياقهم الحضاري والتاريخي والإنساني العريض، لأن النموذج التفسيري الذي يُركِّز على المصالح اليهودية والمرجعية اليهودية سيعجز عن تفسير كثير من جوانب هذا السلوك.

بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤-١٨٨١)

سياسي ورجل دولة بريطاني شهير. لعب، بوصفه رئيس وزراء بريطانيا، دوراً مهما في رسم سياستها الخارجية والاستعمارية وترسيخ مصالحها في الشرق الأوسط، وهو الدور الذي تحدَّد على أساسه فيما بعد مصير مصر وفلسطين، وقد حظيت مهارته بمكانة بارزة في تاريخ السياسة البريطانية الاستعمارية. ومما له دلالته أن هذا الإمبريالي القح الذي وسَّع نطاق الإمبريالية الإنجليزية في الخارج، قام في الوقت نفسه بتوسيع نطاق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية في الداخل.

وُلد دزرائيلي لعائلة بريطانية يهودية ذات أصول إيطالية سفارديَّة (مارانية). وقد خرج والده على اليهودية، إذ اختلف مع مجلس الماهاماد، الذي كان يتولى قيادة الجماعة اليهودية السفاردية

في لندن، حول مقدار الضرائب المقررة عليه، فاستقال منه واعتنق المسيحية. وكان بنيامين في الثالثة عشرة من عمره، فعُمِّد ونُشِّئ تنشئة مسيحية.

وقد دخل دزرائيلي مجال السياسة وانتُخب عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين عام ١٨٣٧. ومن الجدير بالذكر أن دزرائيلي كان قد تدعَّم وضعه الاجتماعي والاقتصادي بعد زواجه من أرملة مسيحية ثرية تكبره بنحو اثنى عشر عاماً وأصبح من ملاك الأراضي الأثرياء.

وفي عام ١٨٥٢، أصبح دزرائيلي رئيساً لمجلس العموم. وفي عام ١٨٦٨، أصبح رئيساً للوزراء، وهو منصب تقلَّده مرة أخرى في الفترة بين عامي ١٨٧٤ و١٨٨٠. وقد حقق دزرائيلي أهم إنجازاته في مجال السياسة الخارجية، إذ كان وراء الصفقة التي اشترت بريطانيا بمقتضاها نصيب مصر من أسهم قناة السويس في عام ١٨٧٥، وذلك بمساعدة مالية من عائلة روتشيلد (اليهودية). وتُعتبَر هذه الصفقة من أهم خدماته للإمبراطورية البريطانية حيث حققت لها السيطرة الإستراتيجية على أهم الممرات المؤدية إلى الشرق. كما أعطت هذه الصفقة أهمية خاصة لمصر بالنسبة لبريطانيا التي احتلتها في آخر الأمر. وقد أعقب كل هذا موافقة البرلمان الإنجليزي على منح الملكة لقب «إمبراطورة الهند». كما مُنح دزرائيلي لقب «إيرل أوف بيكونزفيلد» تقديراً لخدماته.

وقد تَبنَّى دزرائيلي سياسةً تهدف إلى الحفاظ على الدولة العثمانية وإلى تأييدها في صراعها مع روسيا. وجاءت سياسته هذه في الواقع تعبيراً عن صراع القوى الأوربية الكبرى في تلك الفترة، ومن بينها بريطانيا وروسيا، للحصول على أكبر نصيب ممكن من تركة الإمبراطورية العثمانية. وبالتالي، جاء دعم بريطانيا لتركيا بهدف صد التوسع الروسي باتجاه الجنوب، إذ كان يشكل تهديداً للممرات الحيوية المؤدية إلى الهند. وقد نجح دزرائيلي في مؤتمر برلين (عام ١٨٧٨) في عدم المساس بوضع الدولة العثمانية، وحصَل لبريطانيا على قبرص التي كانت تُعتبَر البوابة لآسيا الصغرى. كما حصَل للجماعات اليهودية في دول البلقان على بعض الحقوق والامتيازات. واعتبر دزرائيلي هذا المؤتمر تتويجاً لحياته السياسية. وقيل إنه قدَّم - في هذا المؤتمر - مذكرةً غير موقعة حول المسألة اليهودية تدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين. وتبيَّن، فيما بعد، أن من قدمها شخص آخر.

لم تكن مسألة توطين اليهود في فلسطين غائبة عن ذهن دزرائيلي كما لم تكن غائبة عن أذهان الساسة البريطانيين المعاصرين له، وقد كانت أهمية فلسطين لبريطانيا تزداد مع تزايد مصالحها الإمبريالية وأطماعها في ثروات الشرق، ففلسطين كانت تشكل حلقة وصل برية بين الشرق والغرب، وبين آسيا وأفريقيا. وقد زاد ذلك من الأطماع البريطانية فيها، ومن ثَمَّ التوجه الصهيوني للسياسة البريطانية الخارجية، حتى قبل ظهور الحركة الصهيونية بين أعضاء الجماعات اليهودية.

كتب دزرائيلي عدة روايات ومؤلفات ليست لها أهمية أدبية كبيرة، ولم يتعرض في معظمها للموضوع اليهودي. أما هُوية دزرائيلي اليهودية، فمن المعروف أن بعض معاصريه وجهوا له بعض الانتقادات حول سياسته الخاصة بمصير الدولة العثمانية إذ اتهموه بأنه يحدد هذه السياسة (وسياسة بريطانيا الخارجية بشكل عام) في ضوء موقفها من الجماعات اليهودية. وقد ساعد دزرائيلي بنفسه على ترسيخ صورته اليهودية، إذ كان يتباهى بأصله اليهودي العرْقي. ومع هذا، يمكن أن نشير إلى ما يلي:

١ - كان دزرائيلي مبتعداً تماماً عن العقيدة اليهودية وشعائرها ورموزها، كما هو الحال مع بقية أعضاء الجماعات اليهودية في إنجلترا، خصوصاً السفارد منهم.

٢ - وكان دزرائيلي يرى اليهود شعباً عضويا متماسكاً، له شخصيته المستقلة وتفوقه (التجاري في العادة) وارتباطه الأزلي بفلسطين، وهذا الخطاب الصهيوني لم يكن خاصا بدزرائيلي وإنما كان جزءاً لا يتجزأ من الخطاب الغربي بشأن اليهود.

٣ - ولم تكن سياسة دزرائيلي تجاه الدولة العثمانية إلا تعبيراً عن المصالح الإمبريالية ودفاعاً ذكيا عنها. وبالتالي فإن هُوية من قام بتنفيذ هذه السياسة ليس أمراً مهما على الإطلاق.

لكل هذا، ورغم اتهام أعدائه له بتحيزه اليهودي، إلا أن سلوك دزرائيلي لا يمكن تفسيره على أساس يهوديته. ولعل أدق وصف لدزرائيلي هو وصفه لنفسه بأنه يشبه الصفحة البيضاء التي تفصل العهد القديم عن العهد الجديد، أي أنه فَقَد هُويته اليهودية ولم يكتسب الهوية المسيحية رغم تَنصُّره. وهو في هذا لا يختلف عن كثير من يهود المارانو (السفارد).

ومما له دلالته أن **الموسوعة البريطانية (ماكروبيديا)** أفردت مدخلاً كاملاً طويلاً تناول حياة دزرائيلي الخاصة والعامة، ولم يُشر إلا بشكل عابر في بداية المدخل لأصوله اليهودية، ثم أهملتها تماماً بعد ذلك، لأنها ليست ذات قيمة تفسيرية تُذكَر.

هنري كيسنجر (١٩٢٣-)

عالم سياسة أمريكي، أول أمريكي يهودي يتولى منصب وزير الخارجية الأمريكية، وكذلك أول أمريكي غير أمريكي المولد يتولى هذا المنصب. وُلد في مقاطعة بافاريا في ألمانيا، وقضى صباه في ظل الحكم النازي حيث طُرد مع أخيه من المدارس الحكومية، كما طُرد والده من وظيفته كمعلم. وفي عام ١٩٣٨، رحل كيسنجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة حيث استقروا في نيويورك. وجُنِّد في الجيش الأمريكي عام ١٩٤٣ ثم عمل في المخابرات حتى عام ١٩٤٦، وخدم في ألمانيا كمترجم وكمدرس في المدرسة الأوربية لقيادة المخابرات.

وبعد الحرب درس في هارفارد ثم انضم إلى هيئة التدريس وتدرَّج في السلم الأكاديمي حتى حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٦٢. واكتسب كيسنجر مكانةً مهمةً كمفكر مختص في شئون الدفاع والأمن القومي، وكتب عدة كتب مهمة في هذا المجال. وعمل كيسنجر مستشاراً لعدة رؤساء أمريكيين (أيزنهاور، وكنيدي، وجونسون). وفي عام ١٩٦٨، عمل بصفة دائمة في شئون الرئاسة الأمريكية. وحين عمل مستشاراً للرئيس نيكسون للأمن القومي، اتسمت علاقتهما بقدر كبير من التفاهم وأتاح نيكسون لكيسنجر مساحة كبيرة من حرية العَمل. وقد اكتسب كيسنجر سمعة عالمية من خلال تمهيده للزيارتين التاريخيتين اللتين قام بهما الرئيس الأمريكي نيكسون إلى الصين وإلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢، وتدشينه سياسة الوفاق الدولي مع الاتحاد السوفيتي وتَوصُّله لمعاهدة الحد من الأسلحة الإستراتيجية الأولى (سولت) عام ١٩٧٢.

ومع انتهاء حرب فيتنام، وجَّه كيسنجر اهتمامه نحو الشرق الأوسط حيث كانت الإدارة الأمريكية تسعى إلى الحد من النفوذ السوفيتي في المنطقة وتقليصه في نهاية الأمر من خلال خلق وجود أمريكي متزايد في العالم العربي لضمان استمرار تدفق النفط العربي إلى الغرب. وبالفعل لعب كيسنجر دوراً بارزاً في ترتيب وقف إطلاق النار في أثناء حرب ١٩٧٣، ثم في عقد مفاوضات بين الجانبين العربي والإسرائيلي، وأخيراً في إعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر، الأمر الذي مهَّد بالفعل لتزايد الوجود الأمريكي بالمنطقة وتزايد دور أمريكا في قضية الشرق الأوسط وما انتهى إليه من معاهدة صلح بين مصر وإسرائيل.

وقد مُنح كيسنجر عام ١٩٧٣ جائزة نوبل للسلام، كما عُيِّن في العام نفسه وزيراً للخارجية الأمريكية. ومع مجيء الرئيس كارتر إلى الحكم، انتهى عمله بهذا المنصب. وقد تولى كيسنجر بعد ذلك، مواقع مرموقة في المؤسسات الأكاديمية والمالية والتجارية الأمريكية.

وفي عام ١٩٨٣ اختاره الرئيس الأمريكي ريجان لرئاسة اللجنة الخاصة بشئون أمريكا اللاتينية المنوط بها مهمة تقييم السياسة الخارجية الأمريكية في هذه المنطقة.

ويتمحور فكر كيسنجر الإستراتيجي حول مفهوم النظام الدولي الشرعي المستقر. فالاستقرار يصنع السلام (وليس العكس) وهو لا يتحقق إلا بوجود شرعية دولية تقبلها الأطراف الرئيسة في النظام الدولي. والشرعية والاستقرار لا يتحققان إلا من خلال أداتين لا انفصال بينهما هما الدبلوماسية والقوة المسلحة. وهذا النظام لا ينفي الصراع تماماً بل يخفضه إلى نوع من التنافس والتوتر المحكوم بإطار مقبول من الترتيبات والقواعد حول السلوك والأهداف والوسائل المسموح بها. والمعضلة الرئيسية بالنسبة لكيسنجر هي كيفية الحفاظ على النظام الشرعي المستقر في ظل عصر الأسلحة النووية وفي مواجهة النظم الثورية التي ترفض الإطار القائم وتشكل مصدراً للصراعات التي تعيق (في نظره) التطور، ومن هنا كان اقتراحه القائل بتَبنِّي إستراتيجية تعتمد على المزاوجة بين الدبلوماسية والمفاوضات من جهة، والحرب المحدودة من جهة أخرى.

ويرى كيسنجر أن حركات التحرر الوطني والنظم الثورية الوطنية في العالم الثالث تشكل تحدياً آخر للولايات المتحدة والمعسكر الغربي؛ فهي تنزع نحو فرض نظام عالمي جديد يتسم بقدر أكبر من المساواة، وترى القوة الأمريكية المالية نوعاً من الاستعمار الجديد ومن ثَمَّ كان اقترابها أكثر من الاتحاد السوفيتي وتأثير ذلك في العلاقات والتوازن بين القوتين العظميين. وهو يرى إمكانية احتواء هذه النظم الثورية بالغواية والتخويف وكذلك ضربها بالحروب المحدودة حتى بغير اشتراك الولايات المتحدة. وعلى الولايات المتحدة أن تتأكد من أنه يوجد لها في كل منطقة من العالم الثالث سوط مستعد في كل لحظة لأن يهوي على أي ظهر يحاول أن يرفع رأسه بعد حد معيَّن.

ومحاولة اكتشاف البُعد اليهودي في تفكير كيسنجر أمر لا طائل من ورائه، فطريقة تفكيره وأولوياته وإدراكه لمصالح العالم الغربي وإدارته للأزمات الدولية (سواء في الشرق الأوسط أو غيرها من المناطق) جزء لا يتجزأ من التفكير الإستراتيجي العام في الغرب بمنطلقاته الصراعية الداروينية التي تعود إلى عصر النهضة، وفلسفة الدولة. وهو تفكير يسعى إلى حماية أمن الغرب والدفاع عن مصالحه من خلال استخدام كل أشكال القوة (من ضغط سياسي إلى نشاط استخباري إلى انقلابات عسكرية مُدبَّرة إلى استخدام القوة العسكرية بشكل مباشر). وفي داخل هذا الإطار يرى كيسنجر أن الولايات المتحدة زعيم العالم الغربي ويرى أن لمصالحها أسبقية على

مصالح الدول الأخرى وضمن ذلك الدول الغربية واليابان. ومن هنا اهتمامه بالبترول العربي فهو أداة ضغط أساسية على الدول «الحليفة» التي تعتمد على البترول المستورَد. وما يُحدِّد موقف كيسنجر من إسرائيل ليس يهوديته أو رغبته في الدفاع عن المصالح اليهودية أو زيادة النفوذ اليهودي أو حماية الدولة اليهودية، وإنما حرصه على أن تكون إسرائيل حليفاً إستراتيجيا للولايات المتحدة وسوطاً رادعاً في يدها. ومن ثَمَّ لا يمكن تفسير مواقف كيسنجر السياسية على أساس يهوديته، كما يفعل بعض المحللين العرب.

المال اليهودي

«المال اليهودي» عبارة تتواتر في الأدبيات المُتداولة عن أعضاء الجماعات اليهودية، وهي عبارة تفترض وجود ثروة (ضخمة) يمتلكها اليهود ويوظفونها بالطريقة التي تروق لهم.

ويذهب البعض إلى أن هذا المال اليهودي سر قوة اليهود، فهم يوظفونه في شراء النفوذ وممارسة السلطة وتخريب الضمائر وإفساد العباد. وهذه أيضاً تهمة لها جذورها، فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يشترون المواثيق والحماية والمزايا من الملك أو الأمير، كما أنهم تركزوا في كثير من القطاعات المشينة في المجتمعات الحديثة (البغاء - المجلات الإباحية).

وكما هو واضح، فإن ثمة أساسا موضوعيا أو مادياً لكل التهم، ومع ذلك يظل الواقع أكثر تركيباً من التهم الاختزالية البسيطة ومن الواقع المادي المباشر. فالمال اليهودي في المجتمع الإقطاعي كان بالفعل في قبضة أعضاء الجماعات اليهودية، ولكنهم هم أنفسهم كانوا في قبضة الأمير الإقطاعي، وكانت المواثيق الممنوحة لهم تتحدث عن تبعيتهم للأمير تبعية المملوك للمالك. وكانت بعض المواثيق تشير إلى هذا بشكل مجازي، بينما كان البعض الآخر يشير إليه بشكل حرفي.

والمال اليهودي في العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن المال اليهودي في العصور الوسطى في الغرب. فرأس المال اليهودي يتحرك حسب حركة رأس المال المحلي الذي يتحرك بدوره حسب حركة رأس المال العالمي. ولعله بعد عمليات التدويل المختلفة التي خاضها العالم، وظهور النظام العالمي الجديد والشركات متعدِّدة الجنسيات، زادت تبعية المال اليهودي وتناقصت مقدرة الرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية على التحكُّم في رأسماله.

وكل هذا لا ينفي ما يلي:

١ - أن هناك رقعة من الحرية لرأس المال اليهودي يتحرك فيها، خصوصاً إذا تماثلت الظروف.

٢ - أن كثيراً من القرارات السياسية التي اتخذها غير اليهود كانت تَصدُر عن الإيمان بوجود هذا المال اليهودي، ومن ثَمَّ أخذه صانع القرار في الحسبان وهو يتخذ قراره، أي أن المال اليهودي (في هذه الحالة) عنصر مؤثر تأثيراً لا يتناسب بتاتاً مع قوته الفعلية.

النفوذ اليهودي والصهيوني

انظر: «اللوبي اليهودي والصهيوني (أو جماعات الضغط الصهيونية)» - «الصوت اليهودي».

٣ - إشكالية العبقرية والجريمة اليهودية

العبقرية اليهودية

كلمة «عبقرية» تعني مجموعة من السمات الخاصة لا تفترض بالضرورة تَميُّزاً أو علوا مثلما نقول «عبقرية المكان»، حيث لكل مكان عبقريته الخاصة أو «عبقرية اللغة الإنجليزية»، حيث لكل لغة عبقريتها الخاصة. وحينما تُستخدَم العبارة بهذا المعنى في الكتابات الصهيونية (أو غيرها) كأن يُقال «العبقرية اليهودية»، فهي تشير عادةً إلى «الخصوصية اليهودية» (انظر: «الخصوصية اليهودية»). ولكن هذا الاستعمال نادر، والاستعمال الشائع أن تشير كلمة «عبقرية» إلى درجة من درجات التميُّز إلى جانب الخصوصية. وعبارة «العبقرية اليهودية» تفترض وجود عبقرية يهودية مستقلة، وأن العباقرة اليهود يتمتعون باستقلال عما حولهم، وأن وجودهم مؤشر على تَميُّز اليهود ككل، ولذا نجد حديثاً مستفيضاً عن فضل العباقرة اليهود على الحضارة الإنسانية وعن زيادة عددهم بالنسبة للعباقرة من الشعوب والأقليات الأخرى.

ولو نظرنا إلى العباقرة اليهود، بعد أن نضعهم في سياقهم التاريخي المتعيِّن، سنكتشف على الفور أن مقولة «العبقرية اليهودية» لا تملك مقدرة تفسيرية عالية. وسيظهر قصورها التفسيري حينما نسأل عن السمات اليهودية المشتركة بين عباقرة مثل فيلون (الفيلسوف الذي عاش في العصر الهيليني)، وشعراء العرب اليهود (في الجاهلية)، وموسى بن ميمون (المفكر الديني اليهودي الذي عاش في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر)، وفرويد (المفكر النمساوي اليهودي الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر)، وشاجال (الفنان التشكيلي الذي عاش معظم حياته في النصف الأول

من القرن العشرين)، وبرنارد مالامود (الروائي الأمريكي الذي عاش في النصف الثاني من القرن العشرين). والإجابة الوحيدة أن مثل هذه السمات المشتركة غير موجودة. وإن اكتشف أحد عناصر يهودية مشتركة بين كل هؤلاء العباقرة، فإن تصنيفهم على أنهم يهود بالدرجة الأولى لا يفيد كثيراً في فَهْم فكرهم أو طبيعة مساهمتهم في التراث الإنساني. فيهوديتهم المشتركة ليست ذات مقدرة تفسيرية أو تصنيفية عالية، ولابد لنا أن نعود إلى التقاليد الحضارية والظروف التاريخية التي شكلت فكر ووجدان كل واحد منهم حتى يتسنى لنا الإحاطة بها.

ويُلاحَظ أن نسبة المتعلمين والمخترعين بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي مرتفعة. ولكن هذا أمر طبيعي وينطبق على كل أعضاء الأقليات في أي مكان حينما تتاح أمامهم الفرصة. لكن أعضاء الأقلية يخضعون، مع ذلك، في معظم الأحيان - إن لم يكن كلها - لدرجة تَقدُّم وتَخلُّف المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه، فإن تَقدَّم تَقدَّموا وإن تخلَّف صاروا متخلفين. ولذا لم يكن هناك عباقرة يهود بين العرب إبان فترات الانحلال في الحضارة العربية حين أُغلقَت الحلقات الفقهية والمدارس التلمودية العليا في العراق بسبب انتكاس الحضارة العربية، بينما ازدهر الفكر العربي اليهودي في الأندلس بسبب ازدهارها.

ونحن لا نسمع عن العباقرة اليهود إلا مع بدايات ظهور الرأسمالية والعلمانية. وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن إسبينوزا، أول فيلسوف يهودي غربي في العصر الحديث، ظهر في هولندا مهد الرأسمالية الحديثة. ومما له دلالة بالمثل ظهور إسبينوزا من بين اليهود السفارد المتمتعين بمستوى حضاري مرتفع بسبب احتكاكهم بالحضارة الإسلامية، على عكس اليهود الإشكناز الذين تَدنَّى وضْعُهم الحضاري داخل الحضارة المسيحية. وقد كان إسبينوزا أيضاً من أوائل المفكرين العلمانيين الذين طرحوا انتماءهم اليهودي جانباً، فلم يكن إبداعه وبروزه نتيجة انتمائه اليهودي، وإنما تم هذا الإبداع وذلك البروز رغم هذا الانتماء وبسبب رفضه.

العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية

ظل العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية يساهمون في بناء الحضارة الأوربية باعتبارهم أوربيين علمانيين أولاً وأخيراً، أي أن يهودية العبقري لم تكن العنصر الأساسي في إسهامه. وقد زادت هذه المساهمة بازدياد انتشار القيم الليبرالية ثم الثورية في الغرب والشرق، إذ إن هذه القيم فتحت المجال أمام أعضاء الجماعات اليهودية.

ونحن لا نُنكر أثر البُعد اليهودي في تكوين العبقري اليهودي، فأثر القبَّالاه اللوريانية واضح تماماً في تفكير إسبينوزا وفرويد وجاك دريدا فيلسوف التفكيكية. ولكن يجب أن نشير إلى أن البُعد اليهودي نفسه نتاج تفاعل اليهود مع ما حولهم من حضارات. كما أن العبقري اليهودي قد يكون لديه استعداد كامن لاكتشاف شيء ما، لكن هذا الشيء سيظل جزءاً من تشكيل حضاري غير يهودي، بمعنى أن الحركيات النهائية هي حركيات الحضارة التي يعيش فيها اليهودي. فمهما كان علم فرويد مثلاً بتراث القبَّالاه، لا يمكن تَخيُّل أن بوسعه التوصل إلى نظرياته وهو في اليمن (التي يعرف حاخاماتها القبَّالاه اللوريانية بطريقة تفوق فرويد وحاخامات أوربا في عصره). ففرويد نتاج مجتمع فيينا في أواخر القرن التاسع عشر بكل ما كان يحويه من إبداع وانحلال وتركيب وتَخثُّر.

وفيما يتصل بالعبقريات التي تنتجها إسرائيل، فإن الأمر يتوقف على جنسية العبقري، فإن كان هذا العبقري إسرائيليا فهو تعبير عن العبقرية الإسرائيلية، أما إذا كان من أصل روسي أو ألماني فهو عبقري روسي أو ألماني. أي أن العبقرية اليهودية تظل مقولة مجردة لا وجود لها إلا بين صفحات الكتب الصهيونية أو المعادية لليهود. وبدلاً من ذلك، يتعيَّن علينا أن نتحدث عن «عباقرة يؤمنون بالدين اليهودي»، أو عن «عباقرة ذوي بُعد إثنيٍّ يهودي»، وينتمون إلى الحضارات الإنسانية المختلفة في مختلفَ الأماكن والأزمان.

ومن الأمور الجديرة بالدراسة نسبة العباقرة بين الإسرائيليين ومدى اختلافها عن مثيلتها بين الدول التي حقَّقت معدلات التحديث والتصنيع والتقدم التكنولوجي والعلمي نفسها. وكل المؤشرات تدل على أنها غير مختلفة على الإطلاق، وإن كان الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

بروز اليهود وتميُّزهم

جاء في المعاجم العربية «تَميَّز الشيء» بمعنى «بدا فضله وانفصل عن غيره»، و«برز بروزاً» بمعنى «فاق الآخرين في فضل أو علم»، و«برَّز الشيء» معناها «أظهره وبيَّنه». ومن الموضوعات الأساسية التي تتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود، موضوع «بروز أعضاء الجماعات اليهودية وتَميُّزهم» في كثير من مجالات النشاط والمعرفة الإنسانية بنسبة تفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان في المجتمعات التي يعيشون في كنفها. ودارس تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية سيجد قرائن على كلٍّ من البروز الإيجابي والتميُّز في الخير والإبداع، والبروز المشين والتميز في الشر والهدم والإجرام.

ويذهب كثير من الدراسين إلى أن بروز بعض أعضاء الجماعات اليهودية من أهم الأسباب التي تجلب عليهم عداء أعضاء الأغلبية من غير اليهود؛ وهو تعميم متعسف. ففي إسبانيا الإسلامية أو أمريكا العلمانية، لم يؤد البروز والتميُّز إلى أي عنف أو تمييز ضد أعضاء الجماعة اليهودية. أما في بولندا، خصوصاً في أوكرانيا التي ضمت أهم الجماعات اليهودية عبر التاريخ، فإن بروزهم أدَّى دون شك إلى استجلاب السخط عليهم لا بسبب البروز في حد ذاته، وإنما بسبب طبيعته.

وقد يتشابك التَميُّز المشين مع التَميُّز الإيجابي، فمع نهاية القرن التاسع عشر حقَّق يهود البلاد الغربية صعوداً طبقيا ومكانة اجتماعية عالية وهو ما يعني تَميُّزاً يهوديا إيجابيا. ثم وصل يهود اليديشية، وكانوا متخلفين وفقراء تتفشى بينهم الأمراض الاجتماعية المختلفة كما تَفشَّى التعصب الديني، وكان هذا يعني تَميُّزاً يهوديا مشيناً، وحدث تَشابُك بين الجماعتين أدَّى إلى إحساس المجموعة الأولى بالحرج ثم إلى فَزَعها. ومن هنا فقد كان من أهداف الصهيونية أن تُبقي ليهود الغرب تميزهم الإيجابي، وأن تُريحهم من يهود اليديشية بتَميُّزهم المشين؛ عن طريق توطينهم في فلسطين.

ويحاول الصهاينة تفسير بروز وتميُّز بعض أعضاء الجماعات اليهودية على أساس طبيعة اليهود والخصوصية اليهودية والجوهر اليهودي والعبقرية اليهودية، وهو منطق خطر جدا لأن البروز والتميُّز اليهودي الإيجابي إن فُسِّر على أساس الطبيعة اليهودية، فلابد من تفسير البروز والتميُّز المشين على الأساس نفسه أيضاً. وهذا ما لا يحجم عنه أعداء اليهود بل وبعض الصهاينة.

وربما إذا أُخضعت الظاهرة للدراسة الإحصائية المتأنية لاكتشفنا أن بروز اليهود في الخير والشر خاضع لآليات اجتماعية ليسوا مسئولين عنها، وأن نسبة المتطرفين بينهم، في الخير والشر، قد لا تختلف كثيراً عن النسبة السائدة في المجتمع، أو عن النسبة السائدة بين أعضاء الأقليات على وجه العموم في أي مجتمع.

كما أن الحضارة الغربية، بسبب هيمنتها على معظم أرجاء العالم، تنسب لنفسها صفة العالمية وتسلط عليها الأضواء. والمفكرون البارزون من أعضاء الجماعات اليهودية يتمتعون بهذه المزايا. ولعل ظاهرة العرب من أصل مصري أو لبناني أو فلسطيني وغيرهم (فاروق الباز - إدوارد سعيد) ممن يُحقِّقون بروزاً في الحضارة الغربية تُلقي بعض الضوء على الظاهرة نفسها بين أعضاء الجماعات اليهودية. فلو قُدِّر لهؤلاء البقاء في بلادهم فلربما أُجْهِضَت إمكاناتهم بسبب الحدود المادية. وربما حتى لو تحققت إمكاناتهم لما وُصفت بالعالمية ولما سُلِّطت عليها الأضواء.

الجريمة اليهودية

«الجريمة اليهودية» مُصطلَح يفترض وجود جرائم ذات خصوصية يهودية (أي جرائم مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وتتبع نمطاً بعينه وتأخذ أشكالاً بعينها). ومن ثَمَّ، فإن يهودية اليهودي هي النموذج الذي يمكن من خلاله تفسير وتصنيف السلوك الإجرامي لبعض أعضاء الجماعات اليهودية. وحيث إننا لم نعثر على مثل هذا النموذج، فإننا نؤثر استخدام مُصطلَح «المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية» باعتبار أن النموذج الكامن وراءه ذا مقدرة تفسيرية وتصنيفية أعلى، كما أنه ينطوي على دعوة إلى أن يدرس الباحث كل حالة إجرامية من أعضاء الجماعات اليهودية على حدة، داخل مُلابَساتها الخاصة وإطارها الحضاري.

ولا يمكننا التحدث عن «الجريمة اليهودية» أو «خصوصية الإجرام اليهودي» تماماً كما لا يمكننا الحديث عن «الجوهر اليهودي» أو عن «التاريخ اليهودي» أو عن «العبقرية اليهودية»، إذ إن الجماعات اليهودية في العالم لا تعيش تحت ظروف خاصة بها مقصورة عليها. ولذا، فإننا نجد أن معدلات الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية لا تختلف بشكل جوهري عن المعدل السائد في المجتمع أو بين الأقليات الأخرى في المجتمع. ولذا، فنحن نتحدث عن «المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية».

المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية

من المعروف أن النسق الأخلاقي الذي تطرحه العقيدة اليهودية يشبه، في كثير من الوجوه، الأنساق الأخلاقية التي تطرحها الديانتان السماويتان الأخريان. فالقتل والزنى والسرقة والشذوذ الجنسي والجماع مع المحارم، كلها أمور مُحرَّمة يعاقب عليها القانون الديني. ولتفسير السلوك الإجرامي لأحد أعضاء الجماعات اليهودية، لابد من العودة لحركيات وقيم المجتمع الذي يعيش فيه هذا اليهودي، ولابد من دراسة القوانين الاجتماعية والجنائية والظروف الاقتصادية والعناصر الأخرى كافة.

وثمة تباين واضح بين معدل الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية ومعدلها بين أعضاء مجتمع الأغلبية الذي يعيشون في كنفه، فمعدلات الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية كانت منخفضة قبل منتصف القرن التاسع عشر ثم أخذت في التزايد بعده إلى أن وصلت إلى معدلات ضخمة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ثم أصبحت معدلات الجريمة بينهم لا تختلف كثيراً عن المعدلات السائدة في المجتمع. ولتفسير هذا التباين، يمكن القول إن

أعضاء الأقلية يتمتعون عادةً بدرجة أعلى من التماسك العائلي والتضامن الاجتماعي، وأن هناك مؤسسات دينية واجتماعية (وهي عادةً مقصورة عليهم) تقوم بعملية الرقابة الداخلية والضبط الاجتماعي والأخلاقي. كما أن أعضاء الأقليات يخضعون دائماً لرقابة شديدة من أعضاء الأغلبية، خصوصاً في فترات التعصب والتمييز العنصري. وهذه الرقابة الخارجية الصارمة من شأنها أن تجعل عضو الأقلية حذراً يراقب سلوكه ولا يُقبل على ارتكاب الجريمة أو التفكير فيها إلا في أضيق الحدود وللضرورة القصوى. ولا شك في أن تَميُّز اليهود مهنيا ووظيفيا كان له دور في ذلك، وكان هذا يعني المزيد من البروز ومن ثَمَّ المزيد من الرقابة.

لكل ما تقدَّم، نجد أن تَزايُد انعتاق أعضاء الجماعات اليهودية واندماجهم يؤدي إلى تَزايُد معدل الجريمة بينهم، وهذه مفارقة لاحظها أيضاً دارسو وضع المرأة. فكلما ازدادت مساواة المرأة بالرجل، في الحقوق والواجبات، زاد معدل الإجرام بين النساء، فكأن تحرير المرأة يعني أن تصبح مثل الرجل في الخير والشر، وأن تُتاح أمامها فرص متساوية للخير والشر على حدٍّ سواء. وقد لُوحظ أن معدل الجريمة بين يهود المجر في أوائل القرن العشرين مرتفع عنه بين يهود روسيا مثلاً. ولا يمكن تفسير هذا إلا على أساس أن يهود المجر كانوا أكثر الجماعات اليهودية انعتاقاً واندماجاً. وقد لوحظ أيضاً أن معدل الجريمة بين يهود ألمانيا (الذي كان منخفضاً) تَساوَى تقريباً مع النسبة العامة في المجتمع في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٠، وذلك مع تَزايُد اندماج اليهود وازدياد معدل التعليم بينهم وتَحسُّن وضعهم الاقتصادي. وقد لاحَظ ليتشنسكي أن معدل الأحكام الصادرة ضد يهود النمسا من المتعلمين كان يزيد بواقع ٥٠٪ مقارناً بمعدل الأحكام الصادرة ضد يهود جاليشيا الفقراء الجهلاء. أما في هولندا، فكان معدل الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية أقل من المعدل على المستوى القومي في عام ١٩٠٢. ومع تَزايُد انعتاقهم واندماجهم، أصبح المعدلان متساويين. أما في البلاد العربية، فيُلاحَظ أن معدل الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية قَلَّ بعد إعلان دولة إسرائيل، ربما بسبب زيادة الرقابة وتشديد القبضة عليهم.

ومع هذا، توجد ظاهرة عكسية، هي أن معدل الجريمة بين العناصر المهاجرة في قطاعات حرفية أو طبقية معينة قد يكون أعلى من نظيره بين أعضاء المجتمع المضيف. كما أن الجماعات المهاجرة تتخصص في أنواع من الجريمة غير معروفة في المجتمع أو كانت موجودة فيه بشكل جنيني وحسب. ويعود هذا إلى أن العناصر المهاجرة دائماً عناصر رائدة، وأعضاء الأقلية المهاجرة الباحثون عن الحراك الاجتماعي لا يلتزمون بقيم خلقية ولا يشعرون بالولاء نحو المجتمع الجديد، كما أنهم في العادة شخصيات حركية قادرة على إدراك الثغرات في المجتمع وعلى التسلل منها. وبالفعل، نجد أن جماعات من المهاجرين اليهود كوَّنوا في الثلاثينيات عصابات جريمة منظمة (مافيا) في نيويورك تمارس نشاطات المافيا المختلفة من ابتزاز وتهريب مخدرات واغتيال نظير أجر والبغاء، واستمرت في ذلك حتى الخمسينيات. (وقد كُشف النقاب أخيرا عن أن عصابات الجريمة المنظمة اليهودية دعَّمت الحركة الصهيونية ماليا وسياسيا، واشتركت في جمع التبرعات لها، بل استخدمت نفوذها مع بعض حكام أمريكا اللاتينية المتعاونين مع عصابات الجريمة المنظمة لتهريب السلاح للمستوطنين الصهاينة).

وقد ظهرت الجريمة المنظمة أيضاً بين المهاجرين اليهود السوفييت والإسرائيليين في الولايات المتحدة، وتُعَدُّ لوس أنجلوس من أهم مراكزها. ولعل تَفشِّي الجريمة بين المهاجرين السوفييت أحد الأسباب التي دعت أمريكا لإغلاق أبوابها أمام المزيد من المهاجرين السوفييت. ومن الطريف أن أعضاء هذه العصابات اليهودية تخصَّصوا في ابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب ممارسة النشاطات الإجرامية العادية. ويبدو أن هذه العصابات بدأت تمارس نشاطها في إسرائيل وفي بعض دول الشرق الأوسط. ومن الظواهر التي يجب تسجيلها أيضاً أن أفراد عصابات المافيا في الولايات المتحدة (وهم من أصل إيطالي في العادة) يستعينون في الغالب بمحامين من بين أعضاء الجماعة اليهودية للدفاع عنهم في جرائمهم ولإدارة أعمالهم المشينة.

وقد فوجئ الصهاينة بأن المهاجرين اليهود قادرون على ارتكاب جميع الجرائم الخطيرة مثل القتل والاغتصاب والسرقة في بلدهم. ولكن هذا يعود دون شك إلى إحساس المستوطنين بأنهم مواطنون يتمتعون بكل الحقوق السياسية والضمانات القانونية، ومن ثَمَّ تخف عمليات الرقابة الخارجية التي كانوا يخضعون لها كأعضاء أقلية. ومما لا شك فيه أن العقيدة الصهيونية التي تشجع على العنف والاغتصاب تلعب دوراً في استثارة الاستعداد الكامن أو القابلية لدى المستوطنين الصهاينة لارتكاب الجرائم بمعدل يفوق نظيره في المجتمعات الأخرى التي تعيش تحت الظروف نفسها.

وداخل هذه الأنماط العامة، يمكننا أن نكتشف نمطاً آخر هو أن وضع أعضاء الأقليات قد يزيد قابليتهم لارتكاب جرائم دون أخرى. فعلى سبيل المثال، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية

يرتكبون الجرائم ضد الملكية وكذلك جرائم القتل بمعدل أقل من المعدل القومي. وربما يعود هذا إلى مستواهم التعليمي المرتفع وقلة استهلاكهم للمواد الكحولية، وإلى عملية الضبط الاجتماعي التي تمارسها الجماعة مع أعضائها ويمارسها المجتمع مع الجماعة ككل. وعلى أية حال، فالملاحَظ أن معدل الجرائم التي يرتكبها أعضاء الجماعة يرتفع مع تزايد معدلات الاندماج والعلمنة.

ولكن يُلاحَظ أن ثمة جرائم يزيد معدل ارتكابها بين أعضاء الجماعات اليهودية عن المعدل العام السائد في المجتمع، وهي الجرائم التي يتم فيها انتهاك الحرمات والتي تتطلب من صاحبها التخطيط وإعمال العقل وتحقق لمرتكبها عائداً سريعاً (أي تتطلب المهارات نفسها التي يتطلبها الاضطلاع بوظائف الجماعة الوظيفية). ومن هذه الجرائم ما يُسمَّى «جرائم الآداب». ففي تونس، كان أعضاء الجماعة اليهودية يمثلون ٧,١٪ من مجموع السكان، ومع ذلك كانت نسبة النساء اليهوديات المسجلات في جرائم الآداب تفوق هذه النسبة كثيراً. وكانت نسبة الأحكام الصادرة ضد أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا لارتكاب أعمال غير أخلاقية تفوق كثيراً (مرتان ونصف) نسبة الأحكام الصادرة ضد أعضاء الأغلبية.

ومن الجرائم المماثلة، جرائم التزييف والغش التجاري. ومن المعروف أن هذه الجرائم انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر في الغرب إلى درجة اضطرت معها الحكومات إلى استصدار تشريعات خاصة. ويبدو أن تَرَكُّز أعضاء الجماعات اليهودية في القطاع التجاري من المجتمع التقليدي ساعد على ذلك، فهو قطاع لم يكن يعرف نظام الضرائب ولم يكن يرتبط بشبكات الرأسمالية الرشيدة من مصارف ووسائل نقل أو غيرها. ولذا، كان التهرب من الضرائب، وكذلك تهريب البضائع، جزءاً عضويا من مثل هذا النشاط التجاري، كما أن تَرَكُّز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في المناطق الحدودية والمدن شجع على هذا الاتجاه. وقد استمر هذا النمط حتى الوقت الحاضر. ويبدو أن لأعضاء الجماعات اليهودية دور ملحوظ في ترويج المخدرات في الولايات المتحدة، كما يوجد عدد لا بأس به من الجواسيس من بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الغربية.

وتوجد الآن مافيا إسرائيلية قوية مركزها لوس أنجلوس، ولكنها منتشرة في كل أرجاء الولايات المتحدة. وقد بدأت هذه العصابات نشاطها بفرض إتاوات على فقراء اليهود (عادةً من بقايا يهود معسكرات الإبادة)، ثم دخلت عالم المخدرات وجرائم الغش التجاري. ويبلغ عدد أعضاء قيادة المافيا الإسرائيلية نحو ١٠٠ عضو. وتعقد سلطات الأمن الأمريكية مؤتمراً قومياً كل عام لمناقشة نشاط المافيا الإسرائيلية.

عباقرة ومجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية

في محاولة تفسير عبقرية العباقرة وإجرام المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية، لابد أن يبتعد الدارس عن نموذج الخصوصية اليهودية العالمية. وبدلاً من ذلك يمكن أن يضبط مستوى التعميم والتخصيص ليصل إلى النموذج التفسيري الملائم. ومثل هذا النموذج لابد أن تتم صياغته من خلال دراسة السياق الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والديني الذي يوجد فيه العبقري أو المجرم من أعضاء الجماعات اليهودية.

يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٢)

كاتب عربي مصري يهودي، أحد رواد المسرح المصري والصحافة المصرية الساخرة. كان يعقوب الابن الوحيد لوالديه اللذين فقدا أربعة أولاد بعد ولادتهم، وحينما حملت به أمه نصحتها إحدى صديقاتها المسلمات (كما هو الحال في البيئة المصرية الصميمة في ذلك الوقت) أن تطلب بركة إمام المسجد الشعراني الذي كان يكتب التمائم والتعاويذ والأحجبة. ويَذكُر يعقوب صنوع أن الشيخ قال للأم: "إن ربنا سيبارك ثمرة أحشائك وسترُزَقين بولد" ثم أكمل نبوءته: "وإن نذرته للدفاع عن الإسلام فلسوف يعيش، إكسيه من حسنات المؤمنين ليكون متواضعاً، ولسوف يجد ما يريد بفضل بركة خالقه". وأطاعت المرأة ما أمرها به الشيخ، وأقرها زوجها على أن يَهَب ابنه للإسلام والمسلمين، غير أنه اعترض في أول الأمر على فكرة كساء الطفل المرتقب من حسنات المحسنين، واعتبر ذلك مهانة لا تليق به، وهو يتمتع بالحظوة لدى البلاط ويستشيره الأمراء في مسائلهم الخاصة (أي أن المكانة الاجتماعية داخل المجتمع المصري عنده كانت أكثر أهمية من الانتماء الديني). غير أن الزوجة أصرت على أن تلبي نصيحة شيخ الضريح بحذافيرها لتضمن سلامة وليدها حين يرى النور!

يذكر أبو نظارة أنه حين كبر حفظ القرآن وعاهد والدته على أن يُوفِّي نذرها وأن يُجنِّد نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين وأنه جعل رسالته "مكافحة الأباطيل التي تُفرِّق بين المسلمين والمسيحيين، بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل، وهكذا تسنى لي الملاءمة بين قلوب الفريقين". ويقول كاتب سيرة يعقوب صنوع الدكتور إبراهيم عبده "إنه لم يشر قط في تاريخه إلى أنه وُلِد لأبوين يهوديين". فإذا

أضفنا إلى هذا موقف والده من الانتماء الديني، فإن هذا يعني أن أسرة صنوع كانت مندمجة حضاريا تماماً في المجتمع المصري وأن البُعد اليهودي (حتى من الناحية الدينية الشكلية) كان قد شارف على الاختفاء. وحينما بلغ يعقوب صنوع الثانية عشرة من عمره كان يقرأ التوراة بالعبرية والإنجيل بالإنجليزية والقرآن بالعربية. كما كان قد أجاد بجانب تلك اللغات الثلاث عدداً من اللغات منها: التركية والفرنسية والإيطالية والإسبانية.

قدَّم يعقوب صنوع مسرحية كوميدية قصيرة تتخللها أشعار مُلحَّنة تلحيناً شعبيا في القصر أمام باشوات وبكوات البلاط الخديوي الذين ضحكوا للتمثيلية من أعماق قلوبهم. وشجعوه على عرض مسرحياته في حديقة الأزبكية. فألَّف فرقة مسرحية من تلاميذه وكان هو مدير المسرح ومؤلف التمثيليات، كما كان يقوم أحياناً بدور الملقن. وكان يُقدِّم تمثيليات مُترجَمة عن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. وقد أعجب به الخديوي في أول الأمر وخلع عليه لقب «موليير مصر» (ولكنه قام بتعنيفه حينما كتب مسرحية عن تَعدُّد الزوجات).

ولكن يعقوب صنوع لم يكن يتحرك داخل دائرة البلاط الملكي والمسرح وحسب، إذ بدأ يحتك بالدائرة الفكرية التي تَحلَّقت حول جمال الدين الأفغاني، الذي شجعه هو والشيخ محمد عبده على الكتابة في الصحف، بل على إنشاء صحيفة عربية تُكتَب بالعامية.

وقد أدَّى تَوجُّه مجلة **أبو نظارة** الوطني إلى مصادرتها المستمرة. كما قام يعقوب صنوع بتأسيس جمعيتين علميتين أدبيتين أطلق على أولاهما اسم «محفل التقدم»، وعلى الثانية اسم «محفل محبي العلم» وترأسهما بنفسه. وفي هاتين الجمعيتين كانت تُلقَى المحاضرات عن تَقدُّم الآداب والعلوم في أوربا مع الاهتمام بالتاريخ والسياسة والأدب والممارسات التعليمية والإشارة بوجه خاص إلى ما حققته فرنسا وإيطاليا في هذا المضمار. وأشار يعقوب صنوع إلى أنه كان يَحضُر اجتماعات كل من الجمعيتين المسلمون والمسيحيون واليهود، وأن الجمعيتين لقيتا الإقبال من طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش، كما ذهب إلى أنهما هما اللتان وفَّرتا الإطار فيما بعد لظهور الحزب الوطني (القديم).

وقد أُغلقت الجمعيتان ونُفي يعقوب صنوع خارج البلاد عام ١٨٧٨ فاستقر في باريس إلى آخر حياته. وهناك التقى بأديب إسحاق والأفغاني ومحمد عبده وإبراهيم المويلحي وخليل غانم ثم مصطفى كامل وغيرهم، وواصل دعايته للقضية الوطنية بعد الاحتلال البريطاني، فأصدر العديد من الصحف بالعربية والفرنسية. وأخذ يتنقل في أوربا للدفاع عن وطنه واشترك في الحملات التي شنَّت على الخديوي إسماعيل والاحتلال البريطاني، وراسل عرابي في منفاه في سيلان، وعبَّر عن ابتهاجه بانتصار اليابانيين على قوة غربية بيضاء مثل روسيا القيصرية.

وقد ظل يعقوب صنوع شأنه شأن كثير من رواد الحركة الوطنية في مصر يتصور أن بعض القوى الغربية (فرنسا على وجه التحديد) يمكنها أن تساعد المصريين ضد الاحتلال الإنجليزي، ولكن خابت آماله عام ١٩٠٤ بعد توقيع صفقة الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا التي تم بمقتضاها حسم التناقضات بين القوتين الاستعماريتين. كما ظل يعقوب صنوع يُعبِّر عن إعجابه بالسلطان عبد الحميد طيلة عشرين عاماً نتيجة مقاومته الأطماع الأوربية (وكان السلطان يبادله الإعجاب). ومع هذا رحَّب يعقوب صنوع بدستور ١٩٠٨ ظنا منه أنه بداية حقيقية للإصلاح وللتصدي للنهم الاستعماري الغربي.

وتتبدَّى عبقرية يعقوب صنوع بشكل واضح متبلور في استخدامه روح الفكاهة المصرية ويُعبِّر عن الشخصية المصرية، كما في مقاله الفكاهي عن الخديوي إسماعيل الذي يتحدث فيه عن "مناقبه" فقال: "وكفاك أنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر مُنكَراً. ولا يُوجَد في وقت الصلاة إلا جُنباً. وفي رمضان إلا مُفطراً. نعم يصوم ولكن عن الخيرات. ويستقبل الفجور متلطخاً بنجاسة الفحشاء. فاجر يقتات بالكبائر. ويتَفكَّه بالصغائر. ويروح من مولاه شاكياً ولشيطانه شاكراً، فكأنه عاهد إبليس فلم يَخُن له عهداً، ووعده أن يجد عنده كل معصية فلم يُخلف له وعداً". ورغم أن المقال مكتوب بالفصحى إلا أنه كُتب على طريقة كُتَّاب هذه المرحلة، كما أنه يتلاعب بالألفاظ وبترابطها بطريقة تُصعِّد حدة السخرية والفكاهة.

والآن، هل يمكن ليهودي خالص، صاحب عبقرية يهودية خالصة أن يأخذ مثل هذه المواقف الفكرية والسياسية، وأن يستخدم الفصحى والعامية بهذه الطريقة، وأن يترجم مواقفه السياسية اللاذعة المعارضة إلى مجموعة من النكت اللاذعة؟ السؤال بطبيعة الحال خطابي غير حقيقي، فلا يمكن أن يفعل هذا إلا مصري عاش في صميم المجتمع المصري (لا في مسامه).

ويثير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية، إذ تصنفه المراجع الصهيونية باعتباره "مثقفاً يهوديا" وهو تصنيف لا يُفسِّر أيا من الجوانب المهمة من حياته، أدبية كانت أم سياسية، وهي حياة لا تُفهَم في كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصري وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطني في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥)

عالم طبيعة، مكتشف النظرية النسبية، حائز على جائزة نوبل. وُلد في ألمانيا ونشأ وتعلّم فيها، وعمل بعد تخرُّجه في مكتب براءات الاختراع بمدينة برن في سويسرا وأصبح مواطناً سويسريا. تمكّن أثناء هذه الفترة من إنجاز عدة أبحاث. وفي عام ١٩٠٥، نشر دراسات عن: **النظرية الخاصة بالنسبية وعلم البصريات**، وعُيِّن أستاذاً إثر ذلك في عدة جامعات بألمانيا. وفي عام ١٩٢٠، نشر دراسته عن: **النسبية العامة والنسبية الخاصة**، حيث بيّن أن مبدأ النسبية ينطبق على الحركة وشرح فكرة البُعد الرابع وانثناء الفراغ.

ويُعَدُّ ألبرت أينشتاين أحد رواد الفيزياء الحديثة، فهو صاحب النظرية النسبية الخاصة التي نجحت في التوصل إلى أساس لعلاج التناقضات بين نظرية نيوتن للحركة ونظرية ماكسويل للحركة الكهرومغناطيسية. وكان من أهم نتائج النسبية الخاصة مفهوم تَداخُل الزمان والمكان وتَرادُف الطاقة والكتلة. وقد تبع ذلك بالنظرية النسبية العامة التي تُعتبَر تعميماً للنسبية الخاصة حيث تتضمن حركة الأجسام تحت تأثير الجاذبية. وبالإضافة إلى النظرية النسبية، ساهم أينشتاين في تطوير النظرية الكمِّية من خلال تفسير التأثير الكهروضوئي. وترتكز النظرية الكمية على مبدإ ازدواجية المادة، وهو أن الجسيم يأخذ أحياناً شكل الموجة وأن الموجة تأخذ أحياناً شكل الجسيم.

وفي عام ١٩٣٣، اضطر أينشتاين إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة بعد أن استولى هتلر على السلطة. وأصبح أينشتاين مواطناً أمريكيا، واستمر في بحوثه العلمية. ولكنه كان قد بدأ يدرك أن العلم أصبح مثل حدِّ شفرة في يد طفل في الثالثة من عمره، إذ أدّى امتلاك وسائل الإنتاج العجيبة في تَصوُّره، إلى تزايد القلق والجوع بدلاً من الحرية.

وقد لعب أينشتاين دوراً مهما في تطوير القنبلة الذرية أثناء الحرب، ولكنه عارض استخدامها بل طالب بتحريم القنابل الذرية والهيدروجينية. وأثناء الحقبة المكارثية (الإرهابية) طالب أينشتاين العلماء بألا يدلوا بشهادتهم أمام لجان التحقيق. وقد استمر أينشتاين في أبحاثه العلمية حتى وفاته.

وموقف أينشتاين من الإله والدين يستحق بعض التأمل، وهو موقف يشبه موقف كثير من المفكرين العلمانيين الذين فَقَدوا الإيمان الديني، ولنبدأ بموقفه من الإنسان. لقد أدرك أينشتاين أن الإنسان كيان غريب مليء بالأسرار، فصرح ذات مرة أن "قانون الجاذبية غير مسئول عن الحب"، أي أن القانون الطبيعي لا يُفسِّر الوجود الإنساني، ولكنه اتجه في بعض تصريحاته إلى ما يمكن تسميته «الديانة الإنسانية» فعبَّر عن إعجابه بمقدرة الإنسان على فهم ما حوله، ورأى أن هذه المقدرة شكل من أشكال التفوق اللانهائي على الطبيعة، ومن هنا فإن الإنسان يقع عليه عبء أخلاقي، ولكن مسئوليته الأخلاقية تكون تجاه نفسه وليس تجاه أي إله.

بيد أن هذه ليست نهاية القصة، إذ يستمر تأرجحه دون تَوقُّف فيصرح بأن الإله لا يلعب بالعالم، أي أن العالم يتبع نظاماً واضحاً يتجلى من خلال الإرادة الإلهية. ولكن هذا الإله يشبه من بعض النواحي إله إسبينوزا. فهو ليس إلهاً ذا إرادة يحب البشر ويعطف عليهم، يُثيب الناس ويعاقبهم، وإنما مبدأ آلي عام. ولكن العَالم الكبير، صاحب النظرية النسبية، يجد أن هذا الموقف لا يُعبِّر عن الحقيقة كلها، ويؤكد أن العلم الحديث ألقى ظلال من الشك على السببية الآلية التي تشكل إطار الرؤية الإسبينوزية الساذجة.

ولم يكن موقف أينشتاين، في بداية حياته على الأقل، رافضاً الصهيونية. فقد نشأ وتعلّم في ألمانيا. ولذا، فإننا نجد أنه كان يؤمن بفكرة الشعب العضوي، وبأن السمات القومية سمات بيولوجية تُورَّث وليست سمات ثقافية مكتسبة. وقد صرح أينشتاين بأن اليهودي يظل يهوديا حتى لو تخلى عن دينه، وهذه مقولة أساسية في معاداة اليهود على أساس عرْقي. وليوضح فكرته، شبَّه أينشتاين مثل ذلك اليهودي بالحلزون الذي يظل حلزوناً حتى بعد أن يُسقط محارته. وموقفه من معاداة اليهود، في هذه المرحلة، لا يختلف كثيراً عن موقف الصهيوني، فقد كان يرى أن معاداة اليهود مسألة ستظل موجودة مادام هناك احتكاك بين اليهود والأغيار، بل أضاف أن اليهود مدينون لأعدائهم بأنهم استمروا عرْقاً مستقلا.

وقد أدلى أينشتاين بتصريح ذي مضمون صهيوني عرْقي، إذ صرح (قبل ظهور النازيين) بأنه ليس مواطناً ألمانيا، ولا حتى مواطناً ألمانيا من أتباع العقيدة اليهودية، وإنما يهودي ويسعده أن يظل يهوديا. وقد عبَّر أينشتاين في عدة مناسبات عن حماسته للمشروع الصهيوني وتأييده له، بل اشترك في عدة نشاطات صهيونية.

ولكن موقف أينشتاين هذا لم يكن نهائيا، وربما كان تعبيراً عن عدم نضج سياسي، إذ عَدَل عن هذه المواقف فيما بعد، فقد صرح بأن القومية مرض طفولي، وبأن الطبيعة الأصلية لليهودية تتعارض مع فكرة إنشاء دولة يهودية ذات حدود وجيش وسلطة دنيوية. وأعرب عن مخاوفه من الضرر الداخلي الذي ستتكبده اليهودية، إذا تم تنفيذ البرنامج الصهيوني، فقال: "إن اليهود الحاليين ليسوا اليهود الذين عاشوا في فترة الحشمونيين"، وفي هذا رَفْض للفكر

الصهيوني ولفكرة التاريخ اليهودي الواحد. ثم أشار إلى أن "العودة إلى فكرة الأمة، بالمعنى السياسي لهذه الكلمة، تَحوَّل عن الرسالة الحقيقية للرسل والأنبياء". ولهذا السبب، وفي العام نفسه، فسَّر انتماءاته الصهيونية وفقاً لأسس ثقافية، فصرح بأن قيمة الصهيونية بالنسبة إليه تكمن أساساً في "تأثيرها التعليمي والتوحيدي على اليهود في مختلف الدول". وهذا تصريح ينطوي على الإيمان بضرورة الحفاظ على الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم وعلى تراثها، كما يشير إلى إمكانية التعايش بين اليهود وغير اليهود في كل أرجاء العالم. وفي عام ١٩٤٦، مَثُل أمام اللجنة الأنجلو أمريكية وأعرب عن عدم رضاه عن فكرة الدولة اليهودية، وأضاف قائلاً: "كنت ضد هذه الفكرة دائماً". وهذه مُبالَغة من جانبه حيث إنه، كما أشرنا من قبل، أدلى بتصريحات تحمل معنى التأييد الكامل لفكرة القومية اليهودية على أساس عرْقي.

والشيء الذي أزعج أينشتاين وأقلقه أكثر من غيره هو مشكلة العرب. ففي رسالة بعث بها إلى وايزمان عام ١٩٢٠، حذَّر أينشتاين من تجاهل المشكلة العربية، ونصح الصهاينة بأن يتجنبوا "الاعتماد بدرجة كبيرة على الإنجليز"، وأن يسعوا إلى التعاون مع العرب وإلى عَقْد مواثيق شرف معهم. وقد نبه أينشتاين إلى الخطر الكامن في الهجرة الصهيونية. ولم تتضاءل جهود أينشتاين أو اهتمامه بالعرب على مر السنين. ففي خطاب بتاريخ أبريل سنة ١٩٤٨، أيَّد هو والحاخام ليو بايك موقف الحاخام يهودا ماجنيس الذي كان يروج فكرة إقامة دولة مشتركة (عربية - يهودية)، مضيفاً أنه كان يتحدث باسم المبادئ التي هي أهم إسهام قدَّمه الشعب اليهودي إلى البشرية. ومن المعروف أن أينشتاين رَفَض قبول منصب رئيس الدولة الصهيونية حينما عُرض عليه.

وإسهامات أينشتاين في علم الطبيعة لا يمكن تفسيرها إلا باعتباره جزءاً من المنظومة العلمية الغربية. وقد يكون ليهوديته دور في تَوجُّهه نحو النسبية، ولكن المنظومة العلمية الغربية ككل تظل العنصر المحدد النهائي.

مائير لانسكي (١٩٠٢ - ١٩٨٣)

مجرم أمريكي يهودي اسمه الأصلي ماير سوشو لانسكي. وُلد في بولندا وهاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة عام ١٩١١. وقد بدأ حياته الإجرامية بسرقة السيارات ثم قام بتهريب الخمور والقتل بالأجر. انتقل بعد ذلك إلى ممارسة نشاطه في عالم القمار، وأصبح من كبار زعماء الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة. وقد كوَّن عصابة مع المجرم الأمريكي اليهودي بنجامين سيجل "بجزي" لحماية الملاهي الليلية نظير إتاوة منتظمة. وفي عام ١٩٣٤، ساهم لانسكي في تأسيس الاتحاد القومي للجريمة الذي جمع في إطاره جميع العصابات وزعماء الإجرام في البلاد، وترأس مجلس إدارة هذا الاتحاد الذي عمل تحت قيادته على تحويل الجريمة في الولايات المتحدة إلى نشاط يتسم بقدر كبير من التنظيم والتنسيق والإدارة العلمية والترشيد، وأصبح يشرف على جملة من الأنشطة الإجرامية مثل القمار والدعارة والمخدرات والابتزاز والرشوة والفساد السياسي. وحينما حاولت السلطات الأمريكية القبض عليه بتهمة التَهرُّب الضريبي في عام ١٩٧٠، تَمحَّك في أصله اليهودي وفرَّ إلى إسرائيل. ثم حاول الحصول على الجنسية بمقتضى قانون العودة، لكن طلبه رُفض. ومما يذكر، أن لانسكي كان من كبار المساهمين في المنظمات اليهودية، خصوصاً النداء اليهودي الموحَّد. وقد عاد إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ حيث حوكم، ولكن تمت تبرئته من جميع التُّهم التي وُجِّهت إليه.

ولا يمكن اكتشاف أية خصوصية يهودية في عبقرية لانسكي الإجرامية. فبروزه وتَميُّزه مرتبط بتَضخُّم قطاع اللذة في المجتمع مع تَصاعُد معدلات العلمنة فيه وانتشار الدعارة والقمار والمخدرات. وقد ظهرت أخيرا دراسة تذهب إلى أن لانسكي لم يلعب هذا الدور المحوري والمركزي في الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة. وترى هذه الدراسة أنه في حين أن لانسكي كان بالفعل مجرماً وزعيم عصابة ذات صلة وثيقة بأهم رموز الإجرام في الولايات المتحدة وأخطرها، إلا أنه لم يَظْهر أبداً أي دليل يُثبت أو يؤكد بشكل قاطع أن لانسكي كيان العقل المدبر والمحرك الرئيسي وراء الجريمة المنظمة، وأن هذه الادعاءات ليست سوى جزء من الأسطورة التي نُسجت حوله.

روبرت ماكسويل (١٩٢٣ - ١٩٩١)

ناشر بريطاني، وُلد في تشيكوسلوفاكيا، وكان اسمه الحقيقي يان لودفيج هوخ. وُلد لعائلة يهودية ريفية يُقال إنه قُضي على معظم أعضائها خلال الحرب العالمية الثانية، وانضم إلى الجيش التشيكي عام ١٩٣٩، ثم فرَّ إلى بريطانيا مع الاحتلال النازي، حيث انضم إلى صفوف الجيش البريطاني. وحاز عام ١٩٤٥ على ميدالية الصليب العسكرية. وقد بدَّل اسمه عدة مرات، ثم استقر عام ١٩٤٥ على الاسم الإسكتلندي الحالي إيان روبرت ماكسويل. عمل ماكسويل لحساب الاستخبارات البريطانية، وترأس القسم الصحفي

للقوات البريطانية المتمركزة في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧. وخلال وجوده في ألمانيا، التقى بناشر ألماني كان تحت يده عدد ضخم من الوثائق والنشرات العلمية التي خَلَّفها الحكم النازي، وبالتالي لاحت أمام ماكسويل فرصة ذهبية للعمل في مجال النشر العلمي. وبالفعل، أسَّس عام ١٩٤٩ شركة برجامون برس التي جعلها من أكبر دور النشر المتخصِّصة في المطبوعات العلمية، وشملت أعمالها برنامجاً واسعاً لترجمة الكتب والمجلات العلمية السوفيتية. وقد كانت دار نشر برجامون اللبنة الأساسية في إمبراطوريته الصحفية والإعلامية التي احتلت المرتبة التاسعة أو العاشرة في العالم على حد تقدير ماكسويل نفسه. وكانت إمبراطورية ماكسويل تضم عدداً كبيراً من الشركات القابضة والمؤسسات العائلية والهيئات الخيرية التي توزَّعت مقارها الرئيسية في بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل وأوربا الشرقية وجبل طارق وليختنشتاين.

وقد امتلك ماكسويل حصصاً متفاوتة في عدد كبير من الصحف في ثلاث عشرة دولة. فمجموعة ميرورنيوز (التي امتلكها ماكسويل عام ١٩٨٤) تنشر عدداً من الصحف البريطانية المهمة مثل **ديلي ميرور** و **صاندي ميرور**. كما امتلك ماكسويل نسبة ستة في المائة من أسهم صحيفة **ذي إندبندنت** اليومية البريطانية. كما سيطر عام ١٩٩١ على صحيفة **ديلي نيوز** الصادرة في نيويورك. وفي المجر، امتلك حصة كبيرة في صحيفة **ماجيار هيرلاب** اليومية. وفي عام ١٩٨٦، أصدر صحيفة الصين اليومية **تشاينا ديلي** التي كانت تَصدُر بالإنجليزية في بكين ولندن، إلا أنه تَوَقَّف عن نشرها بعد أحداث الصين عام ١٩٨٩. كما أصدر عام ١٩٨٨ الصحيفة الأوربية الأسبوعية **ذي يوروبيان**. واشترى ماكسويل في العام نفسه دارين للنشر في الولايات المتحدة هما: دار ماكميلان التي كانت ثاني أكبر دار نشر أمريكية، والدار التي تَنشُر الدليل الرسمي لشركات الطيران. وقد وضعت هذه الممتلكات الجديدة عبئاً كبيراً من الديون على كاهل ماكسويل تجاوزت عند وفاته ثلاثة مليارات جنيه إسترليني، الأمر الذي دفعه إلى بيع بعض ممتلكاته، ومن أهمها دار نشر برجامون لسداد ديونه. كما كان ماكسويل يمتلك، منذ عام ١٩٨١، شركة للاتصالات هي ماكسويل كوميونيكيشن كوربوريشن.

وقد كان لماكسويل اهتمام خاص بأوربا الشرقية، وكانت له علاقات مع عدد من رؤساء الكتلة الشرقية. وقد أسَّس عام ١٩٩٠، بالتعاون مع مؤسسة مريل لينش، شركة للاستثمار في أوربا الشرقية رأسمالها ٢٥٠ مليون دولار. وكان ماكسويل قد أسَّس قبل ذلك ببضع سنوات شركة للاستثمار في الصين بالمشاركة مع وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، لكن أعمال الشركة توقفت بعد أحداث عام ١٩٨٩. كما دخل ماكسويل حلبة السياسة البريطانية حيث تولى منصب نائب في البرلمان عن حزب العمال البريطاني في الفترة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٠.

ومن جهة أخرى كان لماكسويل اهتمام كبير وارتباط خاص بإسرائيل. ومما يُذكَر أنه لم يكن يعلن عن أصله اليهودي في البداية، كما كان يذهب إلى الكنيسة مع زوجته الفرنسية البروتستانتية (أي أنه كان يهوديا متخفياً مثل عشرات الألوف الآخرين). ولكنه حين عُرِف أصله، لم يستمر في إنكاره. وفي السنوات الأخيرة، أصبح واحداً من أهم المستثمرين الكبار في إسرائيل وأحد كبار مؤيديها.

وفي نهاية عام ١٩٨٨، أصبح ماكسويل رئيس شركة سندات إسرائيل في بريطانيا، إذ اشترى سندات بملايين الجنيهات الإسترلينية أصبح بعدها أكبر مشترٍ للسندات الإسرائيلية في بريطانيا. وكانت الشركة تأمل في أن يساهم تعيين رئيس للشركة ذي شهرة واسعة في جذب أعداد كبيرة من المستثمرين لشراء السندات الإسرائيلية.

وقد كان ماكسويل من مؤيدي سياسات حكومة الليكود الإسرائيلية، وصرح قبل وفاته ببضعة أسابيع بأن آراءه تتطابق تماماً مع آراء رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير. وأيَّد ماكسويل مبدأ إبعاد الفلسطينيين عن أرضهم وتوطينهم في البلدان العربية، كما كان يصرح دائماً بأن الأردن هي الدولة الفلسطينية (كما يفعل الإسرائيليون والصهاينة). وفي عام ١٩٨٩، وبَّخ ماكسويل رئيس تحرير جريدة **معاريف** لنشره مقالاً عرض فيه تقرير الاستخبارات الإسرائيلية ومؤداه أنه ليس هناك بديل عن الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية. كما بيَّن ماكسويل أن الدافع وراء محاولته الفاشلة شراء صحيفة **جيروساليم بوست** في عام ١٩٨٩ كان وقف النقد الذي كانت توجهه الصحيفة للحكومة الإسرائيلية.

وقد تَورَّط ماكسويل قبل وفاته بقليل في قضية تَجسُّس وتجارة سلاح. فقد ذكر الصحفي الأمريكي سيمور هيرش في كتابه **الخيار شمشون** أن لماكسويل علاقات بالمخابرات الإسرائيلية (الموساد)، وأنه

تَورَّط مع محرر الشئون الخارجية لجريدته **الديلي ميرور** في تسهيل عقد صفقات سلاح سرية لإسرائيل وفي تسهيل اختطاف موردخاي فانونو، وهو أحد العاملين في مفاعل ديمونة، والذي كشف عن وجود مائتي قنبلة نووية لدى إسرائيل. كما ادعى ضابط في المخابرات الإسرائيلية، وهو آرييه منَسَّى، أن ماكسويل كان متورطاً في مبيعات الأسلحة إلى إيران (أثناء حربها مع العراق) وهي مبيعات تمت بموافقة رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير ونائب الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش، فكان ماكسويل يتلقى عمولات عن هذه الصفقات ثم يُجري عملية «غسل» لهذه الأموال المتحصلة بهذه الطريقة غير النظيفة لتبدو كما لو كانت نظيفة وشرعية (وتتم عملية الغسل هذه بطرق عديدة مثل وضع النقود في المصارف من خلال منافذ عديدة أو استثمارها في مشاريع تجارية خاسرة ثم إعلان أنها حققت أرباحاً خيالية، وتُودَع الأموال في المصارف بعد ذلك).

وقد نفى ماكسويل أية علاقة له بالموساد أو بصفقات السلاح، وأقام دعوى ضد هيرش يُوجِّه فيها إليه تهمة السب العلني. وبعد أقل من شهر من إثارته هذه الفضيحة، لقي ماكسويل حتفه، وقيل أنه سقط ميتاً وهو على ظهر يخته في البحر قرب جزر الكناري. وتراوحت الآراء حول ظروف موته بين التلميح إلى اتهام الموساد بقتله، أو ترجيح انتحاره بسبب متاعبه المالية الكبيرة أو اتهامه بالعمالة لإسرائيل، أو القول بأن موته كان مجرد حادث عادي. وقد دُفن ماكسويل في إسرائيل وفقاً لرغبته.

وقد تفجرت فضيحة مالية كبرى في أعقاب وفاة ماكسويل، حيث تبيَّن أنه حوَّل أكثر من ٧٠٠ مليون جنيه إسترليني (١,٢٧ مليار دولار) من صناديق المعاش في مجموعة الشركات العامة ميرور جروب التي كان يديرها، وذلك لتغطية خسائر شركاته الخاصة ولمساعدة إمبراطوريته الإعلامية التي كانت تنوء تحت ثقل الديون. وتبيَّن أيضاً أنه احتال على مؤسسة مالية سويسرية للحصول على قرض قيمته ١٠٠ مليون دولار، وأنه استخدم الأصول نفسها لضمان أكثر من قرض. وكان ماكسويل قد تَعرَّض من قبل للمساءلة حول سلامة ممارساته، حيث أجرى مجلس التجارة البريطاني تحقيقاً عام ١٩٦٩ حول أوضاع شركة برجامون برس وكشف بالفعل عن بعض المخالفات. وقد تَضمَّن التقرير الذي انتهى إليه المجلس أن ماكسويل "شخص لا يُعوَّل عليه في إدارة شركة مساهمة عامة". وقد عمل ماكسويل منذ ذلك الحين على إسكات منتقديه وردعهم عن طريق مقاضاتهم وتوجيه تهمة التشهير به إليهم. وقد وُصف ماكسويل عقب تَفجُّر هذه الفضيحة بأنه "محتال القرن"، الأمر الذي زاد التكهنات القائلة بأنه مات منتحراً. كما قُبض على ابنيه، اللذين توليا أمور بعض شركات والدهما بعد وفاته، بتهمة التورط في الغش التجاري. ولكنهما لم يثبت ضدهما أي شيء، فحُكم ببراءتهما.

ومن الواضح أن ماكسويل عبقرية حقيقية بالمعنى المحايد (أو النيتشوي) للكلمة، أي أنه عبقرية لا تهتم كثيراً بالمعايير الأخلاقية أو الإنسانية، فهو مثل الإنسان الأعظم (السوبرمان) يُسخِّر الآخرين لحسابه، ولذا كان عبقريا في عمليات التنظيم الإداري وتحقيق الأرباح وتعظيمها وعقد الصفقات الرابحة، ولكنه كان عبقريا أيضاً في نهب الآخرين والتجسُّس واستخدام النفوذ. وتحدثت كثير من الصحف عن ماكسويل باعتباره يهوديا مع أن هذه مسألة خلافية، فقد أخفى يهوديته بعض الوقت، وحين اكتُشفت اعترف بها بل وظَّفها، ولكن توظيفه مسألة هويته اليهودية لا يجعله يهوديا، ولا يمكن تفسير عبقريته في إطار يهوديته، وإنما في إطار النيتشوية الداروينية، التي يشترك فيها مع مئات المموِّلين والمستثمرين الآخرين في القرن العشرين.

٤ ـ إشكالية العزلة اليهودية والخصوصية اليهودية

العزلة اليهودية

«الانعزالية اليهودية» عبارة تفترض أن اليهود يعيشون حالة عزلة عن الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها. وتُفسَّر هذه الانعزالية في الأدبيات الصهيونية على أساس أنها فُرضت فرضاً على اليهود وأنهم غير مسئولين عنها. كما تُفسَّر أيضاً بأن اليهود لا يمكنهم الاندماج في مجتمعات الأغيار بسبب هويتهم أو شخصيتهم أو طبيعتهم أو تاريخهم أو جوهرهم اليهودي. ولا يختلف تفسير معادي اليهود لهذه الظاهرة عن تفسير الصهاينة، فاليهود حسب تصوُّرهم يعزلون أنفسهم عن الأغيار لأن هذه طبيعتهم وشخصيتهم وهويتهم، وتنعكس هذه السمة في سلوكهم وتاريخهم. يتفق الصهاينة والمعادون لليهود، إذن، على أن الانعزالية سمة أساسية وأنها لا علاقة لها بالحركيات الاجتماعية التي يوجد فيها اليهود، وإنما يُسبِّبها شيء ما داخلهم.

ولا يمكن، بطبيعة الحال، إنكار أهمية بعض جوانب النسق الديني اليهودي مثل عقيدة الشعب المختار، وكذلك كثرة الشعائر الدينية، في تشجيع اليهود على العزلة. وقد وصل هذا الاتجاه في

النسق الديني اليهودي إلى ذروته في القبَّالاه اللوريانية الدينية، حيث تُطرح فكرة أن اليهود خُلقوا من طينة مغايرة للطينة التي خُلق منها البشر. ولكن علاقة الأفكار الدينية، وأية أفكار، بسلوك الإنسان ليست علاقة سببية بسيطة. فالأفكار لا تحدد سلوك الإنسان أبداً ولكنها تخلق لديه استعداداً كامناً أو قابلية ليسلك سلوكاً معيَّناً ويبتعد عن أنماط معينة من السلوك. كما أن من الصعب بمكان تحديد ما إذا كانت فكرة مثل فكرة الشعب المختار هي التي أدَّت إلى عزلة اليهود أم أن الفكرة نتيجة هذه العزلة، أو أن العلاقة علاقة تأثير وتأثر، وما مدى التأثير وما عمق التأثر.

وعلى أية حال، لا يكمن الخلل الأساسي في النموذج التفسيري الصهيوني والمعادي لليهود في سببيته البسيطة وحسب، وإنما في مستواه التعميمي المرتفع وفي تجريديته الزائدة، إذ إن كلا الفريقين يتحدث عن "اليهود ككل" وبشكلٍ عام ويُفسِّر الظاهرة داخل هذا الإطار. ولو أننا تحركنا في إطار الجماعات اليهودية لأمكننا اكتشاف التنوع وانعدام التجانس، وأن أعضاء الجماعات اليهودية انعزلوا عن بعض المجتمعات واندمجوا في البعض الآخر، وأنهم انصهروا في بعض المجتمعات وطُردوا من البعض الآخر، وأن هذه الظواهر يمكن تفسيرها من خلال مُركَّب من الأسباب الحضارية والاقتصادية الخارجية التي تختص بمجتمع الأغلبية، والأسباب الداخلية التي تختص بأعضاء الجماعة. ومن أهم هذه الأسباب، في تَصوُّرنا، اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة في كثير من المجتمعات، خصوصاً المجتمع الأوربي ابتداءً من العصور الوسطى. والجماعة الوظيفية الوسيطة لا يمكنها أن تقوم بدورها إلا في حالة عزلة، إذ إنها تضطلع بوظائف مشينة أو بوظائف تتطلب الحياد والموضوعية مثل البغاء أو التجارة.

ومن أشهر حالات عزلة اليهود، وجودهم داخل الجيتوات القسرية في أوربا ابتداءً من أواخر عصر النهضة، وهي أحياء خاصة كانوا يسكنونها وحدهم منعزلين عن المجتمع. ولكن العزلة وصلت قمتها في أوكرانيا، حيث كان اليهود يشكِّلون جماعة وسيطة تمثل طبقة النبلاء (شلاختا) الحاكمة في بولندا. وكانت عزلة اليهود على عدة مستويات:

١ ـ طبقية: جماعة تجارية مالية تمثل النخبة الحاكمة في وسط زراعي فلاحي وتساندها القوة العسكرية البولندية.

٢ ـ لغوية: جماعة تتحدث اليديشية في وسط يتحدث الأوكرانية.

٣ـ ثقافية: جماعة ترتدي أزياءً وتأكل طعاماً يختلفان عن أزياء وطعام الفلاحين.

٤ ـ دينية: جماعة يهودية تمثل النبلاء الكاثوليك في وسط أرثوذكسي.

وحينما تصبح العزلة على كل هذه المستويات، فإنها عادةً ما تكون متطرفة، إذ إن العزلة على مستوى ما تدعم العزلة على مستوى آخر. ولكن، ورغم هذه العزلة، فإن من المعروف أن الجماعات اليهودية تأثرت بوسطها الفلاحي السلافي، وظهر هذا التأثر في انتشار الحسيدية التي نبعت من الفلكلور الديني المسيحي السلافي، أي أنه لا يمكن أن تُوجَد عزلة مطلقة إلا في كتابات العنصريين الاختزاليين من الصهاينة والمعادين لليهود.

اليهودي الخالص

«اليهودي الخالص» عبارة تفترض وجود هوية يهودية خالصة لا تشوبها أية شوائب حضارية، فهذه الهوية تتمتع بنقاء عرْقي وحضاري إثني. لكن هذا المُصطلَح لا يرد إلا نادراً في الكتابات الصهيونية، مثل إشارة المفكر الصهيوني كلاتزكين إلى "النمط القومي الخالص" وإشارة بن جوريون إلى "اليهودي الذي هو يهودي مائة في المائة". ومع هذا، فإن هذا المفهوم كامن في كل الكتابات الصهيونية، بل يمكن القول بأن اليهودي الخالص هو اليهودي المثالي الذي يحاول المشروع الصهيوني تحقيقه، فباسم هذا «اليهودي الخالص» ترفض الصهيونية الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات بل ترفض وجودهم ذاته، وباسمه تحاول تأسيس الدولة اليهودية حتى يتحقق هذا الجوهر. واليهودي الخالص، بكل ما فيه من حيوية وإبداع وولاء يهودي مطلق، هو نقيض اليهودي المنفي بكل ما فيه من هامشية وتَمزُّق وازدواج في الولاء. ويحاول الصهاينة تطبيع يهود المنفى لإعادة صياغتهم في صورة «اليهودي الخالص».

نقاء اليهود عرْقيا

«نقاء اليهود عرْقيا» عبارة تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية حافظوا، عبر التاريخ وفي كل زمان ومكان، على نقائهم العرْقي، فلم يختلطوا بالأجناس والشعوب الأخرى، وهذه فكرة يروِّج لها المعادون لليهود ويسوقونها دليلاً على رغبة اليهود في عزل أنفسهم وعلى خطورة العرْق اليهودي. فهوستون تشامبرلين يزعم أن ذلك النقاء العرْقي سر قوة اليهود، وأنه هو أيضاً ما يجعلهم «غرباء بين الأمم».

وكان الصهاينة كذلك يروجون هذه الفكرة ويؤسسون عليها ادعاءهم حتمية إنشاء دولة يهودية مستقلة تكون يهودية مثلما أن

إنجلترا إنجليزية وفرنسا فرنسية؛ دولة يعيش فيها الشعب اليهودي المنفصل عرْقيا عن بقية شعوب الأرض من الأغيار. ولذا، بذل كثير من "العلماء" الصهاينة العديد من المحاولات التي ترمي إلى إثبات نقاء اليهود عرْقياً. ومن أهم المحاولات في هذا المضمار محاولات عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين في كتابه **اليهود في الوقت الحاضر** حيث أورد أسماء كثير من المراجع في الموضوع من بينها اسم إغناتز زولتشان (١٨٧٧ ـ ١٩٤٤) الذي وصف اليهود بأنهم "أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخلقي الناجمة عن عدم النقاء". وقد أكد زولتشان أن "حظر الزواج المُختلَط في اليهودية أدَّى إلى عدم اختلاط اليهود بأجناس لم تحافظ على نقائها بالدرجة نفسها". وقد قدَّم روبين نفسه تعريفاً عرْقياً لليهود فبيَّن أنهم "استوعبوا عناصر عرْقية أجنبية بدرجة محدودة، ولكنهم في أغلبيتهم يمثلون جنساً متميِّزاً، على خلاف الحال في دول وسط أوربا". وأضاف أن من الواجب الحفاظ بشكل واع على الاستمرار العرْقي اليهودي الذي تحقق بشكل تلقائي عبر التاريخ، وأكد أن أي جنس راق يتدهور بسرعة إذا ما تزاوج بجنس أقل رقياً، ذلك لأن التزاوج بالأجناس الأخرى يضرُّ بمحاولات المحافظة على الصفات الممتازة للجنس، ومن ثَمَّ فـ "لابد من محاولة منع التزاوج للمحافظة على انفصالية اليهود".

ومن الواضح أن روبين وزولتشان حينما يتحدثان عن اليهود فهما يتحدثان عن اليهود الإشكناز وحسب أو يهود العالم الغربي ويستبعدان أعضاء الجماعات اليهودية الأخرى ويُروِّج المعادون لليهود المقولة نفسها. وما يُسمَّى «الصفات العرْقية الشائعة عن اليهود» هي في واقع الأمر «الصفات العرْقية الشائعة عن اليهود الإشكناز أو يهود العالم الغربي». وفي كتاب المفكر المصري الدكتور جمال حمدان **اليهود** دراسة مستفيضة لبعض هذه الصفات مثل قصر القامة وضيق الصدر والسمنة والأنف المعقوف وشكل الرأس. ويشير الدكتور جمال حمدان إلى أن الدراسات المترية تُظهر اليهودي في أغلب الحالات أقصر من غيره بضع بوصات. ولكنه يبيِّن أن طول القامة لا يمكن اعتباره صفة جسمية أصيلة، فمن الثابت علميا أنها صفة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، كما يُعَدُّ ضيق الصدر من هذه الصفات الشائعة، الأمر الذي تؤكده الأدلة العلمية، فمحيط صدر اليهودي (الإشكنازي) أقل كثيراً منه عند "الأغيار". ولكن هذه الصفة ـ كما يبيِّن الدكتور جمال حمدان ـ نتيجة طبيعية للبيئة والحرفة، فالحرف التقليدية لليهود الإشكناز (خياطة ـ صباغة ـ صناعة أحذية) ترتبط بتلك الظاهرة. وتُعَدُّ صفة "السحنة" اليهودية أكثر هذه الصفات شيوعاً، والمُحقَّق علميا أنها لا تُوجَد عند كل اليهود ولا تكاد تُعرَف في إشكناز أمريكا كما أنها معروفة بين غير اليهود. وسحنة الوجه تعبير اجتماعي مُكتسَب من البيئة أكثر من كونها صفة جسمية، حتى سماها البعض «تعبير الجيتو»، فهي من فعل الانتخاب الصناعي لا الوراثة.

أما مسألة الأنف المعقوف، كصفة مميِّزة لليهودي في المخيلة الشعبية، فهي أسطورة أخرى. فلقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية أن هذه الصفة غير موجودة إطلاقاً بين أنقى عنصر سامي وهم البدو، ولكنها صفة غالبة بين القبائل القوقازية المختلفة، وكذلك في آسيا الصغرى، وتشمل العناصر المحلية في المنطقة مثل الأرمن والجورجيين. ونجده بين شعوب البحر المتوسط أكثر مما نجده بين يهود أوربا الشرقية، ويكثُر انتشارها بين الهنود الحمر في أمريكا الشمالية!

فالحديث عن الوحدة العرْقية بين اليهود (كما بيَّن الدكتور جمال حمدان وغيره من العلماء) لا محل له من حقيقة أو علم على الإطلاق. واليهود لا يعرفون الوحدة العرْقية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية، وثمة اتفاق بين الدارسين في الوقت الحاضر على أن نقط التشابه بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين أبناء المجتمعات التي يعيشون فيها يفوق كثيراً أي تَشابُه قد يُوجَد بين أية جماعة يهودية وأية جماعة يهودية أخرى في مجتمع آخر.

وهذا أمر مُتوقَّع تماماً، ورغم التشريعات اليهودية الخاصة بتحريم الزواج المختلط، فمن المعروف أن اليهود تزاوجوا بغيرهم من الشعوب. بل كان من الصعب عليهم أن يفعلوا غير ذلك لأنهم كانوا شعباً من البدو الرحل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر. لقد جاء الآباء، أسلاف العبرانيين، من بابل، فهم إذن من أصل سامي عربي. وحينما وصلوا إلى كنعان، تزاوجوا مع الحيثيين الذين هم من أصل أرمني. ولا شك في أن العبرانيين تأثروا حضاريا وعرْقيا بالمصريين أثناء إقامتهم في مصر بعد هجرة يوسف ويعقوب. وقد خرجوا من مصر ومعهم "اللفيف العرْقي" الذي يشير إليه العهد القديم. وقد تزوج موسى أثناء الخروج أو الهجرة من مصر من امرأة مدينيَّة (من مدين) ثم من كوشية. وتزاوج العبرانيون بالكنعانيين بعد تسللهم إلى أرض كنعان وبغيرهم من الأقوام السامية التي كانت تقيم هناك. ومن الطريف أن أم داود (الذي سيأتي من نسله الماشيح ملك اليهود) لم تكن، حسبما ورد، يهودية. أي أنه هو نفسه مشكوك في انتمائه إلى الشعب اليهودي. وفي العصر الهيليني، كانت نسبة التزاوج بالأجانب مرتفعة إلى حدٍّ كبير.

ورغم أن اليهودية ليست ديانة تبشيرية، فإن كثيراً من الشعوب تَهوَّدت. فقد فرض الحشمونيون اليهودية قسراً على بعض الشعوب المجاورة لهم، مثل الأدوميين والإيطوريين. كما تَهوَّدت قبائل الخزر (أو نخبتها القائدة) في ظروف لا تزال غامضة. ويُلاحَظ أن الكنيسة، في العصور الوسطى، كانت تكرِّر من آونة لأخرى تحريم الزواج بين اليهود والمسيحيين، وهو أمر يدل على استمرار الظاهرة. أما في العصر الحديث، فإن معدلات الزواج المُختلَط في ألمانيا في الثلاثينيات، وفي روسيا السوفيتية (سابقاً) وفي الولايات المتحدة وفي معظم البلاد التي تزايدت فيها معدلات العلمنة، تصل إلى نحو ٥٠٪ في كثير من الأحيان. وكانت نتيجة الزواج المختلط انتفاء النقاء العرْقي.

وقد اتضحت الخلافات العرْقية بين اليهود في الدولة اليهودية بشكل مثير لا يمكن الجدل بشأنه: فاليهود الإشكناز الشقر ويهود الفلاشاه السود ويهود بني إسرائيل الداكنو اللون (الذين جاءوا من الهند) لا يمكن أن ينتموا إلى عرْق واحد مهما بلغت الادعاءات العنصرية (الصهيونية أو المعادية لليهود) من حنكة وموضوعية!

ولو كانت هناك سمات يهودية عرْقية واضحة لما ادعى بعض اليهود (أيام هيمنة النازية) أنهم ينتمون للجنس النوردي وأنهم لا علاقة لهم بالجنس السامي، ولما طلب النازيون من أعضاء الجماعات اليهودية أن يُعلِّقوا نجمة داود، حتى يستطيع الآريون التعرُّف عليهم. لكن التفكير العنصري الاختزالي يمكنه التعايش ببساطة مع مثل هذه التناقضات، فهو لا يشعر بالأمن أو الاستقرار إلا في عالم واحدي مادي كل الأمور فيه بسيطة ويمكن ردها لعنصر مادي واحد يُدرك بالحواس الخمس، مثل العرْق وشكل الأنف وحجم الرأس.

نقاء اليهود حضاريا (إثنيا)

«نقاء اليهود حضاريا (إثنيا)» عبارة تعني أن ثمة شعبا يهوديا ذا تقاليد حضارية يهودية خالصة، احتفظت باستقلالها ووحدتها ونقائها. والنقاء الحضاري هو المفهوم الأساسي الكامن في الكتابات الصهيونية عن اليهود. ومن ثَمَّ، فهم يتحدثون عن «الخصوصية اليهودية» أو «التراث اليهودي» أو «الثقافة اليهودية» وعن «التاريخ اليهودي» وكأن هناك بنية تاريخية مستقلة يدور اليهود في إطارها بمعزل عن الأغيار، وذلك برغم انتشارهم في كل أنحاء الأرض، بل يتحدثون عن «النظام السياسي اليهودي» و«الاقتصاد اليهودي»، وهكذا، باعتبار أنها ناتجة عن هذا النقاء الحضاري اليهودي، وباعتبارها الأطر التي احتفظ اليهود من خلالها بنقائهم.

ويُلاحَظ أن النقاء الثقافي غير منفصل عن النقاء العرْقي، فاستناداً إلى فكرة الشعب العضوي (فولك)، ترتبط حضارة أي شعب بالدماء التي تجري في عروقه. ومن ثَمَّ، فإن هناك وحدة لا تنفصم عُراها بين الحضارة والعرْق. وقد سادت هذه الفكرة أوربا في القرن التاسع عشر، وكانت مَن أكثر الأفكار شيوعاً، وأثرت في الفكر القومي الغربي وفي الفكر النازي والصهيوني وفي النظرية الإمبريالية الغربية.

ونحن نذهب إلى أن هناك ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيلات الحضارية التي يوجد داخلها اليهود. ومن هنا عدم نقاء الظواهر الحضارية اليهودية ابتداءً باللغة العبرية نفسها، وانتهاءً بالنشيد الوطني الإسرائيلي «الهاتيكفاه» (أي الأمل).

والواقع أن الامتزاج مع الحضارات والشعوب الأخرى ليس أمراً معيباً أو مشيناً، فهو قانون الوجود الإنساني. ولكن الصهاينة، شأنهم شأن المعادين لليهود، يحاولون خلع صفة النقاء الحضاري وأحياناً العرْقي على اليهود، وفي هذا إنكار لإنسانيتهم لأنهم حين ينتزعون اليهود من سياقهم التاريخي المتعيِّن إنما ينتزعونهم من سياقهم الإنساني الوحيد.

الخصوصية اليهودية

«الخصوصية اليهودية» تعبير ينطلق من أن هناك سمات وخصائص ثابتة يُفترَض أنها مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية ومن ثَمَّ تمنحهم خصوصيتهم. وهذه الفكرة كامنة في جميع الأدبيات الصهيونية والأدبيات المعادية لليهود، إذ إن كلا منهما يرى أن ثمة طبيعة بشرية يهودية أو تاريخاً يهوديا خاصا مقصوراً على اليهود. ولكن دارس الجماعات اليهودية في العالم سيرى أن مفهوم الخصوصية اليهودية ليس له ما يسانده في الواقع، إذ يتسم أعضاء الجماعات اليهودية، بل النسق اليهودي الديني نفسه، بانعدام التجانس. ولذا، قد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، وهي خصوصيات أدَّت العناصر التالية إلى ظهورها:

١ ـ اضطلعت أعداد كبيرة من الجماعات اليهودية بدور الجماعات الوظيفية الأمر الذي أدَّى إلى عزلها عن المجتمع، ومن ثَمَّ كان لهذه الجماعات لون خاص بها وشخصية شبه مستقلة. لكن هذه الخصوصية وظيفية أكثر منها حضارية، أي أنها مرتبطة بالوظيفة لا بالتراث المشترك.

٢ ـ ما يضفي على أعضاء الجماعات اليهودية (في معظم الأحوال)

طابع الاستقلال النسبي الإثني ميراثهم من تشكيل حضاري سابق كانوا يتواجدون فيه، وحملوا بعض عناصره وسماته معهم إلى التشكيل الحضاري الجديد الذي انتقلوا إليه، وتمسكوا بها وحافظوا عليها دون أن تكون هذه العناصر والسمات يهودية بالضرورة.

٣- الخصوصية اليهودية التي تتمتع بها الجماعات اليهودية الوظيفية أقرب إلى الحالة الذهنية الافتراضية منها إلى الحالة الواقعية الفعلية، فرغم العزلة التي يفرضها المجتمع على الجماعة الوظيفية فإن أعضاء الجماعة اليهودية يكتسبون كثيراً من خصائص هذا المجتمع ويندمجون فيه.

لكل هذا، لا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مُستمَدة من معجم حضاري واحد، بل يمكننا أن نقول إن هناك خصوصيات يهودية شتى اكتسبها أعضاء الجماعات اليهودية لا من تراث يهودي عالمي أو من خلال حركيات حضارية يهودية عامة، وإنما من خلال التفاعل مع عدة تشكيلات حضارية، ومن خلال التكيف معها بطرق مختلفة، ومن خلال الاندماج فيها في نهاية الأمر. ومن ثَمَّ أصبح أعضاء الجماعة اليهودية في الصين يهوداً صينيين (أو صينيين يهوداً) تحددت خصوصيتهم داخل التشكيل الحضاري الصيني وبسببه، لا خارجه وبالرغم منه. ولذا، انضمت قيادة الجماعة اليهودية في الصين إلى طبقة كبار الموظفين العلماء (ماندرين)، وتطبَّع أعضاء الجماعة اليهودية بطبائع الصينيين في كثير من النواحي. ويُقال الشيء نفسه عن يهود الهند ويهود إثيوبيا ويهود العالم العربي. بل نجد، داخل التشكيل الحضاري الواحد - كالتشكيل الحضاري العربي - أن يهود العراق يختلفون عن يهود اليمن بمقدار اختلاف العراق عن اليمن. وفي اليمن، يختلف يهود صنعاء عن يهود الجبال (صعدا وغيرها) بمقدار اختلاف أهل صنعاء عن أهل الجبال.

وتختلف الأزياء التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية باختلاف التشكيل الحضاري الذي ينتمون إليه. فالبنطلون الجينز أو الميني جيب (زي الفتاة اليهودية الأمريكية الحديثة) يختلف عن زي الفتاة الأمريكية في الجنوب الأمريكي قبل الحرب الأهلية حيث كانت تلبس أزياء الأرستقراطية الإنجليزية. وزي كلتيهما لا علاقة له بالزي الذي ترتديه الفتاة اليهودية من قبائل البربر في المغرب وتونس. وكل هذه الأزياء لا علاقة لها بما ترتديه الفتاة اليهودية المحجبة في بخارى أو نساء السفارد الأرستقراطيات في شبه جزيرة أيبريا اللائي كن يرتدين ملابس الأرستقراطية الإسبانية (أو العربية). ويُقال الشيء نفسه عن فلكلور المجتمعات اليهودية الذي هو في واقع الأمر فلكلورات الجماعات المختلفة التي ينتمون إليها، "فطاسة الخضة" التي يستخدمها يهود مصر أمر غير معروف ليهود بولندا الذين تأثروا بالتراث الشعبي السلافي، وكلاهما سيُصدَم حينما يعرف بعض العادات التي يمارسها يهود إثيوبيا مثل ختان الإناث وعزل المرأة في كوخ مستقل أثناء الحيض. والشيء نفسه ينطبق على الفنون الجميلة، فرسوم شاجال تختلف اختلافاً جوهريا عن الزخارف الهندسية التي تظهر على النحاسيات المملوكية التي لا يزال الحرفيون اليهود يصنعونها في دمشق، وكلاهما يختلف عن الحلي الفضية التي يصنعها الصاغة اليهود في اليمن أو تونس.

وقد يُقال إن اللغة العبرية تشكل عنصراً مشتركاً بين أعضاء الجماعات اليهودية، لكن من المعروف أن العبرية ظلت في معظم الأحيان لغة الصلاة التي كُتبت بها بعض الكتابات الفقهية، ولم يكن يجيدها سوى أعضاء الأرستقراطية الدينية. وبعبارة أخرى، كانت اللغة العبرية، كعنصر مشترك مستمر، مقصورة على فئة صغيرة من الجماعات اليهودية، ولا تمتد إلى كل النشاطات الإنسانية. أما الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية، فكانوا يتحدثون لغات ولهجات استقوها من الحضارات والمجتمعات التي وُجدوا فيها، وهذه اللغات تحدِّد ولا شك جانباً كبيراً من رؤيتهم للعالم.

والواقع أن مصدر الاختلاف بين اللغات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية، والأزياء التي يرتدونها، والفنون التي يعجبون بها أو ينتجونها، هو دائماً اختلاف التشكيلات الحضارية التي انتمى إليها أعضاء الجماعات اليهودية في الماضي، أو التي ينتمون إليها في الوقت الحاضر.

وقد يُقال إن ثمة رابطة دينية قوية بين أعضاء الجماعات اليهودية، وإن الخصوصية اليهودية تكمن في هذه العقيدة الفذة. ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن العقيدة اليهودية لا تختلف كثيراً عن الإثنية اليهودية، فالعقيدة اليهودية نفسها تأخذ شكل تركيب جيولوجي غير متجانس تتراكم داخله أنساق دينية مختلفة، بعضها توحيدي وبعضها الآخر حلولي. والرؤية اليهودية في الصين اكتسبت مضموناً صينيا صريحاً، وانغمس اليهود تحت تأثير الكونفوشيوسية في عبادة الأسلاف وكانوا يطلقون على الإله اسم «تاين» أي السماء، أو «تاو»، أي الطريق، وكانوا يعبدونه في معبد يهودي يقف بجواره معبد آخر خُصِّص لعبادة الأسلاف. وكان بعضهم يأكل لحم الخنزير (مثل الصينيين) ولكنهم كانوا لا يضحون به لأسلافهم بل كانوا يقدمون لهم لحم الضأن وحسب. والأسلاف هنا، بالمناسبة، هم إبراهيم ويعقوب وإسحق. وفي الهند تأثرت

اليهودية بنظام الطوائف المغلقة وبالعديد من الشعائر الخاصة بالنجاسة، تحت تأثير الهندوكية. أما في إثيوبيا، فتأثرت اليهودية بكل من الإسلام والمسيحية، فيهود الفلاشاه يخلعون نعالهم ويصلون في مسجد، ولكنهم يتلون صلواتهم بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية، كما أن يهوديتهم دخلتها عناصر وثنية عديدة. وفي المحيط الإسلامي، قام موسى بن ميمون بتطوير عناصر التوحيد في اليهودية وأكدها، بل حاول ابنه من بعده إضفاء الطابع الإسلامي على اليهودية. كما تأثرت اليهودية في المحيط السلافي الفلاحي بالمسيحيين الأرثوذكس، وبحركات المتصوفة التي ظهرت بينهم، وكانت هذه العناصر من بين الأسباب المهمة التي أدَّت إلى ظهور الحسيدية. أما في ألمانيا، والولايات المتحدة فيما بعد، فقد تأثرت اليهودية بالمحيط البروتستانتي وظهرت اليهودية الإصلاحية في بلد لوثر. أما في البلاد الكاثوليكية، خصوصاً في أمريكا اللاتينية، فتأثرت اليهودية بالعقيدة الكاثوليكية في كثير من جوانبها، ولذلك لا توجد يهودية إصلاحية في أمريكا اللاتينية. وقد حدا هذا ببعض الدارسين إلى الحديث عن «يهودية كاثوليكية»، و«يهودية بروتستانتية»، و«يهودية إسلامية»، ويمكن أن نضيف «يهودية كونفوشيوسية» وأخرى «هندوكية» وثالثة «أفريقية»، فهذه كلها يهوديات تستمد خصوصياتها من محيطها الديني.

وهذا الأمر طبيعي وإنساني إلى أقصى حد. فالبشر، شاءوا أم أبوا، يتأثرون بمحيطهم الحضاري ويؤثرون فيه. كما أن أعضاء الأقليات عادةً يتأثرون بمحيطهم الحضاري أكثر مما يؤثرون فيه، إلا إذا كانوا من الغزاة، ففي هذه الحالة يصبح الغزاة نخبة عسكرية حاكمة يتقرب منها أعضاء المجتمع ويتعلمون لغتها ويتشبهون بها إلى أن يفقدوا لغتهم وهويتهم الأصليتين. وعلى أية حال، لم يكن العبرانيون ولا أعضاء الجماعات اليهودية في مثل هذا الوضع في يوم من الأيام، باستثناء فترة احتلال فلسطين على يد المستوطنين الصهاينة (وهم، على أية حال، جماعة غير متجانسة حضاريا، كما أن الفلسطينيين العرب جماعة واعية ومتماسكة حضاريا إلى أقصى حد).

هذا إذن أمرٌ طبيعي وإنساني، لكن المشكلة تنشأ حينما يصرُّ المؤرخون الصهاينة وغيرهم على استخدام كلمة «يهود» للإشارة إلى أعضاء الجماعات اليهودية كافة، كما لو كانوا كلا واحداً متماسكاً متجانساً، ومن ثَمَّ فإنهم يتحدثون عن «فن يهودي» و«أزياء يهودية» بل «لغات يهودية» تجسِّد كلها خصوصية يهودية مطلقة لا علاقة لها بالتشكيلات الحضارية المختلفة. والواقع أن حديث الصهاينة عن «الخصوصية اليهودية» ناجم عن ملاحظة أن الجماعات اليهودية منفصلة عما حولها من ظواهر مماثلة. فمما لا شك فيه أن كثيراً من الجماعات اليهودية، خصوصاً في الغرب، كانت معزولة عن محيطها الحضاري إلى حدٍّ ما، وقد تركت هذه العزلة أثرها في أعضاء الجماعات اليهودية على شكل تَميُّز وخصوصية. ولكن معظم الجماعات الوظيفية، يهودية كانت أم غير يهودية، تُضرَب عليها العزلة أيضاً وتكتسب خصوصية ما مرتبطة بوضعها الاجتماعي الحضاري المحدَّد. وكما أشرنا من قبل، فإن هذه الخصوصية ليست خصوصية واحدة ولا عالمية، بل خصوصيات مختلفة مُستمَدة من تشكيلات حضارية مختلفة وغير يهودية.

كما أن حديث الصهاينة متأثر بتجربة يهود شرق أوربا من يهود اليديشية، الذين كانوا كتلة بشرية ضخمة (تشكل ٨٠٪ من يهود العالم) تتميَّز بشكل مباشر عن محيطها الحضاري. ولكن من الواضح أن هذا التميُّز ناجم عن عناصر حضارية حملها يهود اليديشية من الحضارات السابقة التي عاشوا في كنفها، وأدخلوا عليها عناصر تبنوها من الحضارة التي انتقلوا إليها. فاليديشية (أهم مظاهر خصوصيتهم) هي ألمانية العصور الوسطى التي كانوا يتحدثون بها قبل هجرتهم بعد أن دخلت عليها بضع كلمات سلافية وعبرية، ورداؤهم الكفتان (القفطان) رداء الأرستقراطية البولندية، وهو من أصل تتري تركي. كما أنهم تأثروا بمحيطهم السلافي في معتقداتهم الدينية، فالحسيدية نتاج الفكر الصوفي الفلاحي السلافي وعقائد المنشقين على الكنيسة الأرثوذكسية، وقبعتهم المعروفة بالستريميل المزينة بالفرو ذات أصل سلافي. ويمكن القول بأن خصوصية يهود اليديشية تكمن في عدة عناصر مستمدة من عدة حضارات، وأن وجودها مجتمعة فيهم هو ما قد يشكل خصوصيتهم. وقد كوَّن يهود اليديشية كتلة بشرية ضخمة مترابطة متميِّزة عن محيطها الحضاري مع تأثرها العميق به، ولذا فإنها تُعدُّ أقلية قومية مثل كثير من الأقليات القومية الأخرى التي كانت توجد داخل الإمبراطورية القيصرية، فهي لا تشكل شعباً يهوديا وإنما أقلية قومية شرق أوربية. وقد انطلق أعضاء حزب البوند من هذا المفهوم، وطلبوا حل مشكلة الجماعة اليهودية في شرق أوربا باعتبارها أقلية قومية يهودية شرق أوربية لا شعباً يهودياً عالمياً.

ولكن هذه الخصوصية اليهودية اليديشية وغيرها من الخصوصيات اليهودية، تم اكتساحها مع الثورة العلمانية الكبرى في الغرب وعصر العقل والاستنارة. فالفكر العلماني والعقلاني ينظر إلى الكون في إطار فكرة القانون العام والطبيعة البشرية العامة

والإنسان الطبيعي. وقد ظهر هذا الفكر قبل تَطوُّر الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التي أدَّت إلى تَراجُع فكرة الإنسان الطبيعي والإنسانية العامة، حيث حل محلها إدراك أعمق للطبيعة البشرية ولتَداخُل العناصر التاريخية والحضارية الخاصة مع بنية الطبيعة البشرية نفسها. وقد طالب عصر العقل أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشراً بالمعنى العام للكلمة. وكان يُنظَر إلى اليهود الذين يُؤثرون الإبقاء على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية على أنهم «دولة داخل دولة». وشن الفكر العقلاني هجوماً شرساً على جميع الأقليات العرْقية واللغوية والدينية في المجتمع الغربي وضمن ذلك الجماعاتَ اليهودية، ودعاهم إلى التخلي عن انعزاليتهم وإلى إصلاح وتحديث هويتهم، أي تطبيعها وتخليصها من أية خصوصية علقت بها.

وقد استجاب اليهود لهذه الدعوة بسرعة غير عادية لأسباب عدة، من بينها عدم وجود خصوصية يهودية عالمية كما أسلفنا، وعدم وجود سلطة مركزية يهودية تحدد الخصوصية اليهودية وتحدد معاييرها. ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية، بسبب غياب هذه السلطة، كانوا قد تشربوا قدراً كبيراً من الثقافة المحيطة بهم، عن وعي أو عن غير وعي، ولذا فلم يكن من الصعب إنجاز عملية التخلص من أية علامات على الخصوصية. كما ظهرت بين اليهود حركات إصلاح ديني وتنوير أسهمت في تخليص اليهود من أية خصوصية دينية أو غير دينية. ومع هذا، يجب ملاحظة أن أشكال العلمنة ومعدلاتها كانت تختلف من بلد إلى آخر حسب الخصوصية الدينية والحضارية لهذا البلد أو ذاك.

وأكبر دليل على اختفاء الخصوصية السريع ما حدث للكتلة البشرية الشرق أوربية الضخمة من يهود اليديشية، التي كانت تشكل ٨٠٪ من يهود العالم. فقد اختفت اليديشية، أهم مظاهر هذه الخصوصية بسرعة غير عادية، ولم يعد هناك سوى بضعة جيوب وأفراد يتحدثونها. وتُعَدُّ تجربة المهاجرين اليهود في الولايات المتحدة من أهم التجارب في التخلص من الخصوصية، إذ كان أعضاء الجماعة اليهودية أسرع أقلية تمت أمركتها رغم كثرة الحديث عن انعزالهم وتطلعاتهم القومية، وذلك لأن المجتمع الأمريكي هو المجتمع العلماني النموذجي. وفي الوقت الحاضر، تدل الصورة العامة للخصوصيات اليهودية في العالم على تآكلها، وعلى تزايد معدلات اندماج اليهود في مجتمعاتهم.

وبطبيعة الحال، لا يمكن الحديث في الوقت الحاضر عن أية خصوصية إسرائيلية. ولكن، حتى إن ظهرت مثل هذه الخصوصية، فإنها لن تكون خصوصية يهودية عالمية وإنما خصوصية التجمع البشري الاستيطاني في الشرق الأوسط، ذلك المجتمع الذي يتحدث سكانه اللغة العبرية مع أنهم جاءوا من تشكيلات حضارية شتى وأحضروا معهم خصوصياتهم الحضارية المختلفة. والنزاع القائم بين الأرثوذكس وغير الأرثوذكس، وبين الدينيين واللادينيين، وبين السفارد والإشكناز، أكبر دليل على غياب الخصوصية اليهودية العالمية أو العامة.

الاندماج

«الاندماج» تَبنِّي أعضاء الأقليات عادات الشعوب التي يعيشون في كنفها، وكذلك تراثها الحضاري من مأكل وملبس وطرق تفكير ولغة، بحيث لا يختلفون في كثير من الوجوه عن بقية أعضاء المجتمع. والاندماج عكس الانعزال، وهو مختلف عن الانصهار (أي الذوبان الكامل في المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية واختفاء أي شكل من أشكال الخصوصية). وأعضاء الجماعات اليهودية، باندماجهم في محيطهم الحضاري وانصهارهم أحياناً أو بانعزالهم عنه أحياناً أخرى، لا يختلفون عن بقية أعضاء الأقليات والجماعات الإثنية، أو عن بقية البشر.

ولا يوجد قانون واحد يحكم ظاهرة اندماج أعضاء الجماعات اليهودية وانصهارهم أو انعزالهم، وبالتالي لا يمكن القول بأن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الانعزال عمن حولهم. كما لا يمكن الأخذ بعكس ذلك، كأن نقول إن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الاندماج فيمن حولهم، وهكذا. ففي غياب حركيات تاريخية اجتماعية يهودية مستقلة، لابد من العودة إلى أُطر مرجعية مختلفة، ومن ثَمَّ فإن من الضروري دراسة كل حالة على حدة بالإشارة إلى مرجعيتها التاريخية والثقافية غير اليهودية. ومع هذا، سنحاول أن نصل في المداخل التالية إلى بعض التعميمات الفضفاضة بمقارنة الحالات المختلفة ومقارنة أوضاع الجماعات اليهودية بجماعات وأقليات أخرى.

اندماج الجماعات اليهودية (تاريخ)

ظواهر الاندماج والانصهار أو الانعزال بين اليهود قديمة قدم ظهور العبرانيين في التاريخ. فمن الواضح أن العبرانيين، أثناء وجودهم في مصر، تبنَّوا معظم مكونات الثقافة المصرية إن لم يكن كلها، وربما كانوا يتحدثون لغة المصريين القدماء، وفي فلسطين تبنوا لسان كنعان. أما العبادة اليسرائيلية، وهي عقيدة العبرانيين قبل تبلور

اليهودية (كنسق ديني)، فقد تأثَّرت بالتراث الديني الكنعاني تأثُّراً عميقاً، واندمج العبرانيون في المحيط الكنعاني وفي عبادة بعل، ومن هنا سخط الأنبياء عليهم. وانصهر العبرانيون، الذين هجَّرهم الآشوريون من فلسطين، في محيطهم الثقافي إلى أن اختفوا تماماً، في حين اندمج هؤلاء الذين هجَّرهم البابليون. ولذا، حينما أصدر قورش الأخميني مرسومه الخاص بعودة اليهود، رفضت أغلبيتهم التمتع بهذا الامتياز. ويُعَدُّ انتشار النزعة الهيلينية بين اليهود، سواء في فلسطين أو في مصر، تعبيراً آخر عن ظاهرة الأندماج. وبعد انحلال الدولة الرومانية، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في التشكيلين الحضاريين الإسلامي والمسيحي. وقد تَحدَّث يهود العالم العربي الإسلامي اللغة العربية، واشتغلوا بمعظم المهن والحرف، وتأثر تراثهم الديني بالفكر الديني الإسلامي. أما في العالم الغربي، فكان وضع اليهود متميزًا، إذ شكَّل اليهود فيه جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف لا يقوم بها أعضاء الأغلبية وتحتفظ بعزلتها لضمان قيامها بهذه المهن. وانعكس هذا الوضع على التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية للجماعات اليهودية، مثل القهال والجيتو (في شرق أوربا أساساً)، وهي تنظيمات كانت تهدف إلى الحفاظ على عزلة اليهود. وقد ازدادت عزلة اليهود في بولندا التي احتفظوا فيها برطانتهم الألمانية اليديشية التي هاجرت معهم.

ولم تكن عزلة أعضاء الجماعات اليهودية مسألة مقصورة عليهم. فالمجتمعات التقليدية كانت قائمة على الفصل بين الطبقات والأقليات والجماعات لتسهيل عملية إدارة المجتمع في غياب مؤسسات الدولة المركزية القومية. ولكنه بتَفسُّخ النظام الإقطاعي في أواخر القرن الثامن عشر، ظهرت الدولة العلمانية القومية المركزية، وهي دولة تستمد شرعيتها من التاريخ المشترك ومن مقدرتها على إدارة المجتمع بكفاءة. كما أن هذه الشرعية تستند أيضاً إلى مدى تعبيرها عن روح الشعب وإرادته. وقد كانت الدولة القومية العلمانية دولة رأسمالية، في العادة، تحاول أن تخلق السوق القومية الموحدة التي لم تَعُد بحاجة إلى الجماعات الوظيفية الوسيطة، إذ تضطلع بمعظم مهامها. ولكل هذا، تساقط النظام القائم على الفصل بين طبقات الشعب وفئاته، وحل محله نظام يعمل على دمج كل المواطنين الذين يدينون له وحــده بالولاء، على عكس النظام الإقطاعي حيث تستند الدولة إلى شرعية دينية أو شرعية تقليدية، ولذا يدين الفرد بالولاء إما للكنيسة أو للنبيل أو للملك، وهكذا.

وتكتسب الدولة القومية العلمانية قدراً كبيراً من شرعيتها من التاريخ والتراث المشترك (الحقيقي أو الوهمي) لمجموعة البشر التي تعيش داخل حدودها، ولذا طالبت الثورة الليبرالية البورجوازية، والدولة القومية، أعضاء الجماعات اليهودية، وغيرهم من الجماعات، بأن يتخلوا عن خصوصيتهم الإقطاعية شبه القومية وأن يكتسبوا هوية عصرية متجانسة تعبِّر عن هذا التراث المشترك بين أعضاء المجتمع. وتم إعتاق أعضاء الجماعات اليهودية في معظم أنحاء أوربا، وبدأت عملية تحديثهم بحيث تم القضاء على تميُّزهم وتمايزهم الوظيفي والاقتصادي. واستجاب أعضاء الجماعات اليهودية لهذا النداء الذي شكَّل تياراً تاريخياً أفرز تحولاته الاجتماعية، وخصوصاً أن اليهودية الحاخامية (وهي الإطار الفكري ليهود أوربا) كانت في حالة أزمة حادة منذ دعوة شبتاي تسفي المشيحانية وظهور الحسيدية، فقامت بينهم حركة التنوير اليهودية الداعية إلى الاندماج. كما ظهرت اليهودية الإصلاحية التي حاولت تخليص اليهودية من الجوانب القومية فيها، وهي الجوانب التي تدعم ما يُسمَّى «الخصوصية اليهودية»، وتأكيد الجوانب الدينية الروحية حتى يتحقق للمواطن اليهودي الانتماء القومي الكامل والاندماج السوي. وحقق أعضاء الجماعات اليهودية بالفعل قسطاً كبيراً من الاندماج في فرنسا وإنجلترا.

وقد اتسمت محاولات الاندماج في بلدان شرق أوربا ووسطها بالبطء والتعثر بسبب ظهور القوميات العضوية فيها وبسبب سرعة معدل تَطوُّر الرأسمالية المحلية، الأمر الذي لم يتح لأعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يلعبون دور الجماعة الوظيفية الوسيطة فرصة للتأقلُم والتكيُّف.

وإلى جانب هذا، كان يهود شرق أوربا من أكثر القطاعات الإنسانية تَخلُّفاً، كما أن قيادتهم لم تُدرك أبعاد التحدي القومي العلماني الجديد ومدى جاذبيته بالنسبة لجماهيرهم، الأمر الذي أعاق أعضاء الجماعة اليهودية عن الاستجابة الخلاقة للوضع الجديد في معظم الأحيان. ومن المفارقات أن هذا التخلف نفسه أدَّى إلى نتائج عكسية تماماً بالنسبة للشباب، إذ كانوا يهرعون إلى عالم الأغيار وينصهرون فيه، هرباً من الجو الخانق للجيتو.

ويركز الصهاينة على تَعثُّر محاولات التحديث والاندماج لتأكيد حتمية المشروع الصهيوني. ورغم كل الادعاءات عن فشل الاندماج، فإن الوضع الثقافي لليهود يثبت أن هذا الواقع هو الحقيقة الأساسية في حياة معظم الجماعات اليهودية إن لم يكن الحقيقة الأساسية في حياتها جميعاً. فنسبة الزواج المُختلَط في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (سابقاً)، اللذين يضمان أغلبية اليهود في العالم، مرتفع جدا (تبلغ في المتوسط ٥٠٪ وتصل في بعض المناطق

إلى حوالي ٨٠٪). والاندماج وحده هو الذي يفسر سلوك أعضاء الجماعات اليهودية المتعيِّن، فهم يرفضون الهجرة إلى إسرائيل رغم تلويح الحركة الصهيونية لهم بخطر معاداة اليهود بل بالإبادة. وفضلاً عن ذلك، فإنهم يرفضون زيارة الدولة الصهيونية للسياحة حيث لم يزرها سوى ١٥٪ من يهود أمريكا الذين يفضلون قضاء إجازاتهم في جزر الكاريبي.

وفي نهاية الأمر، لا تزال الغالبية العظمى من يهود العالم (٧٥٪) منتشرة في أنحاء العالم فيما يُسمَّى «المَهْجَر» أو «المَنْفَى» أو «الشتات»، وهو في واقع الأمر ليس بمَهْجَر ولا مَنْفَى ولا شتات، فهم موجودون في أوطانهم بشكل دائم لا مؤقت، وهم يعيشون هناك بحُرِّ إرادتهم دون قسر أو إكراه. والأغلبية الساحقة من أبنائهم (٩٠٪) لا تتلقى أي تعليم يهودي ولا علاقة لها بما يُسمَّى «الثقافة اليهودية». وهذا الوضع ينهض دليلاً على اندماجهم وتقبُّلهم مجتمعاتهم بكل محاسنها ومثالبها وتَبنِّيهم قيمها الحضارية والأخلاقية بشكل كامل. ويذهب بعض الدارسين إلى أن الدولة العلمانية (القومية الرأسمالية أو الأممية الاشتراكية) دولة تُعبِّر عن قوانين العقل، ومن ثَمَّ فهي لا تتعامل إلا مع الإنسان العام (الطبيعي أو العقلاني أو الأممي). ولذا، لابد من القضاء على أية خصوصية. والواقع أن اندماج يهود العالم الغربي، هذا الاندماج الكامل في مجتمعاتهم المتقدمة، تعبير عن هذا الاتجاه.

الانصهار أو الذوبان

«الانصهار» أو «الذوبان» تَزايُد معدلات الاندماج إلى درجة أن أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هويتهم الدينية أو الإثنية الخاصة فيذوبون أو ينصهرون تماماً في الأغلبية بمرور الزمن. ويمكننا تخيُّل ذلك على شكل متَّصل يُشكِّل أحد طرفيه الانعزال الكامل، وهي حالة نادرة وتكاد تكون مستحيلة، وفي الطرف الآخر الانصهار، وهي حالة ليست متكررة وإن لم تكن محالة. فثمة أمثلة عديدة، عبر تواريخ الجماعات اليهودية، للانصهار الكامل. فلا يمكن تفسير اختفاء أسباط يسرائيل العشرة الذين هجَّرهم الآشوريون إلا على أساس أنهم انصهروا في الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها. والحالة الكلاسيكية للانصهار الكامل هي حالة يهود الصين (في مدينة كايفنج) حيث انخرطوا في السلك الوظيفي الإمبراطوري فتَفرَّق أعضاء الجماعة، خصوصاً النخبة، واكتسبوا سمات وخصائص صينية بشكل متزايد وتزاوجوا مع الصينيين. ومع حلول القرن التاسع عشر، لم يكن قد بقي منهم سوى عدة أفراد لا يزيدون على أصابع اليدين.

ومن حالات الانصهار الأخرى، حالة اليهود السفارد في الولايات المتحدة الذين استوطنوا بعد المستوطنين البيوريتانيين ثم انصهروا تماماً في فترة وجيزة. ويُلاحَظ أن ثمة أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية كانت تنصهر دون أن تنصهر الجماعة نفسها، فتستمر الجماعة دون أن يتزايد عدد أعضائها، وهذا يُفسِّر قلة عدد اليهود في العالم. وكان عددهم في القرن الأول الميلادي قد وصل (حسب بعض التقديرات) ما بين خمسة وسبعة بل عشرة ملايين. ولعل هذا يُفسِّر مقولة «موت الشعب اليهودي»، فمن أهم أسباب موته (أي تَناقُص عدده بشكل ملحوظ) انصهار أعداد كبيرة منه.

ويبدو أن قطاعات كبيرة من يهود ألمانيا، في القرن التاسع عشر، كانت تنصهر تماماً في المجتمع المسيحي وتتخلى عن أي شكل من أشكال الهوية الدينية اليهودية. ويمكن أن نصنف أمركة يهود الولايات المتحدة باعتبار أنها قبيل الأشكال الحادة من الاندماج الذي يقترب من الانصهار، ومن هنا يُشار إليهم بأنهم «الهيلينيون الجدد». وتشكل أمريكا اللاتينية مثلاً فذا يتخطى تعميمنا الذي يفترض أن الاندماج يزداد تدريجيا إلى أن يصبح انصهاراً. ومع هذا نلاحظ أنه لا توجد معدلات عالية من الاندماج في كثير من بلاد أمَريكا اللاتينية، وفي الوقت نفسه أظهرت هذه القارة مقدرة فائقة على صهر اليهود وهضمهم مباشرة دون عملية دمج تدريجية.

وعادةً ما تساوي الصهيونية بين الانصهار والاندماج برغم اختلافهما. فالجماعات الدينية العرْقية يمكنها أن تندمج في المجتمع دون أن تفقد قسماتها الخاصة. ويمكن ضرب أمثلة عديدة من تواريخ الجماعات اليهودية في العالم على الاندماج الذي لم يؤد بالضرورة إلى الانصهار كما حدث مع يهود الأندلس في الماضي، وكما يحدث مع يهود الولايات المتحدة في الوقت الحالي. وإن كانت هناك مؤشرات وقرائن عديدة تدل على أن أعضاء الجماعة اليهودية سيأخذون في الاختفاء من خلال الانصهار مع تَعاظُم معدلات العلمنة في المجتمع الأمريكي.

دمج اليهود

«دمج اليهود» جزء من عملية تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وتحويلهم من جماعة وظيفية وسيطة إلى جزء لا يتجزأ من طبقات المجتمع الحديث، الذي ظهر بعد الانقلاب الصناعي الرأسمالي في الغرب. وهي عملية تَحوُّل اجتماعي ضخمة لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية هم المسئولين عنها، ولم يكونوا الوحيدين الذين خاضوها، ويُشار إليها أحياناً بأنها «عملية تحويل اليهود إلى قطاع منتج».

وفي معظم الأحوال، كانت عملية الدمج تأخذ شكل القسر. والواقع أن عملية الدمج تتضمن نوعاً من الجهد الواعي والمُخطَّط، وهي بهذا المعنى مختلفة عن عملية الاندماج أو الانصهار التي تتم عادةً من خلال حركيات المجتمع وآلياته الكامنة التي ربما لا يدركها لا أعضاء الجماعة اليهودية ولا أعضاء مجتمع الأغلبية. ومع هذا، فإن عملية الدمج، بعد المراحل الأولى القسرية الواعية، تتحول عادةً إلى اندماج تلقائي غير واع. كما حدث في كثير من بلاد أوربا، ذلك لأن أعضاء الجماعات اليهودية عادةً ما يستبطنون المُثُل المفروضة عليهم، والتي تضبط سلوكهم من الداخل، وما كان قسريا يُفرض على الجماعة من الخارج - أي من المجتمع - يصبح تلقائيا ينبع من داخل أفرادها دون حاجة إلى قسر.

الاندماج: الموقف الصهيوني

يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على رفض الاندماج قولاً وفعلاً. أما المعادون لليهود، فيرون اليهودي شخصية عضوية لا يمكن استيعابها في المجتمع، ولو تم استيعابها فإنها تصبح مثل البكتريا التي تسبِّب تَآكُله وتَخثُّره. واليهود الذين يدَّعون أنهم اندمجوا في المجتمع هم، بحسب هذه النظرة، أخطر العناصر اليهودية، لأنهم يصبحون اسميا جزءاً من المجتمع يستقرون داخله، ولكنهم فعليا (عن وعي أو عن غير وعي) يظلون جسماً غريباً عنه يشبه الخلية السرطانية التي تسبب انحلاله وتآكُله. ولذا، فإن الحل الوحيد للمسألة اليهودية، وفقاً لهذه الرؤية، هو الحل الصهيوني، أي استبعاد اليهود إلى رقعة خاصة بهم.

والموقف الصهيوني من الاندماج لا يختلف عن ذلك كثيراً، فالصهاينة يرون أن الاندماج أمر مستحيل لأن الهُوية اليهودية العضوية لا يمكنها أن تحقق ذاتها إلا في تربة يهودية وفي وطن قومي يهودي. وبالتالي، فاليهودي الذي يدَّعي أنه اندمج شخصية كاذبة مريضة نفسيا، منقسمة على نفسها، كارهة لها، مثله مثل المتسول الباحث عن انتماء قومي. واليهودي المندمج يعاني ازدواج الولاء، إذ ليس بإمكانه أن يَدين بالولاء إلا لوطنه اليهودي الذي تربطه به وشائج عضوية قوية. ويُشار إلى اليهود المندمجين في الأدبيات الصهيونية بوصفهم عبدة بعل إله الأغيار أو محبي بابل (أي المنفى).

ويسوي الصهاينة بين الاندماج والذوبان الكامل، أي الانصهار، إذ يرون أن كلا منهما يؤدي بالضرورة إلى الآخر. رغم أن الاندماج هو أن يصبح الإنسان جزءاً من كل دون أن يفقد بالضرورة بعض صفاته الخاصة، أما الانصهار والذوبان فيفترضان فقدان الجزء لقسماته الخاصة. ولذا، يُشار إلى الاندماج في الأدبيات الصهيونية بأنه خطر يتهدَّد الحياة اليهودية، وجريمة وخطيئة وعار يحط من كرامة اليهود، ووصمة في جبينهم. ويتم الربط بين الاندماج والإبادة إذ يُشار إلى الاندماج باعتباره الإبادة الصامتة، مع أن الإبادة هنا روحية نفسية، وليست جسدية فعلية. ومع هذا، فإن الإبادة تؤدي في نهاية الأمر إلى اختفاء اليهودي المندمج فعليا في مجتمع الأغيار، وهي الوظيفة نفسها التي تؤديها أفران الغاز. وأخيرا صرح يوسي بيلين (نائب وزير خارجية إسرائيل) بأن الاندماج (والزواج المُختلَط) يهددان يهود أمريكا أكثر من تهديد العرب ليهود إسرائيل.

ومع هذا، تظهر فكرة الاندماج في الفكر الصهيوني نفسه بشكل آخر، إذ يطالب الصهاينة بتطبيع الشخصية اليهودية، أي جعلها طبيعية مثل الشخصية غير اليهودية، وفي هذا تَقبُّل لمعايير مجتمعات الأغيار. كما أن الصهيونية تطمح إلى خلق دولة يهودية تندمج في المجتمع الدولي حتى يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب. لكن الاندماج، كما يظهر في الفكر الصهيوني، تُفترَض إمكانية تَحقُّقه على المستوى القومي وحسب، واستحالته في الوقت نفسه على المستوى الفردي. وقد أثبت الواقع التاريخي أن كلا الافتراضين خاطئ. فأعضاء الأقليات آخذون في الاندماج، ولا تزال الدولة اليهودية مرفوضة من العرب.

ومن المفارقات التي يشير إليها دارسو الصهيونية أنها بدأت باعتبارها حركة تهدف إلى الحفاظ على الهُوية اليهودية والخصوصية اليهودية، ولكنها في نهاية الأمر أدَّت إلى زيادة معدلات الاندماج. فقد ساهمت الصهيونية، ابتداءً، في زيادة معدلات العلمنة بين اليهود حين طرحت تعريفاً قوميا أو عرْقيا لليهودي ليحل محل التعريف الديني الإثني، وحين جعلت التزام اليهودي ينصبُّ على إثنيته أساسا، بينما جعلت الالتزام الديني مسألة ثانوية مكملة للانتماء الإثني أو يُمثل تجلياً له. وقد أدَّى هذا بكثير من اليهود إلى التخلي عن عقيدتهم وعن كثير من شعائرها التي كانت مصدراً أساسياً لخصوصيتهم. وقد تساءل الحاخام موريتز جوديمان، كبير حاخامات فيينا، في رده على تيودور هرتزل وعلى الدعوة القومية فقال: "من أكثر ذوباناً وانصهاراً: اليهودي القومي الذي يتجاهل الشعائر الخاصة بيوم السبت وبالطعام، أم اليهودي المؤمن الذي يؤدي الشعائر الدينية ويكون في الوقت نفسه مواطناً كاملاً مخلصاً لبلاده؟". وتبلغ معدلات العلمنة ذروتها بين أعضاء الجماعات اليهودية الذين توجد أغلبيتهم الساحقة في مجتمعات علمانية، وهي

تؤدي إلى مزيد من الاندماج والزواج المُختلَط، وفي نهاية الأمر إلى الانصهار.

وقد ذكر أحد المفكرين اليهود أن الصهيونية وإسرائيل تريان أن بإمكان يهود فرنسا أن يصبحوا أكثر فرنسية (أي أكثر اندماجاً في مجتمعهم). وهو يفسر عبارته هذه فيقول إن اليهودي بدأ بعد تحطيم الهيكل الثاني يحمل معه ما سماه فرويد «المبنى غير المنظور»، وهو عبء الشك والإحساس بالنقص وانعدام الانتماء، فأينما ذهب اليهود وعملوا، مثلهم مثل بقية البشر، كانوا يشعرون بأن ثمة شيئاً ما ينقصهم. فجميع الشعوب الأخرى لها أرضها وقراها وشرطتها وجيشها، أما اليهود فكانوا يعيشون دائماً في شك. ولأن ثمة مبنى جديداً منظوراً يراه الجميع وهو إسرائيل، فقد اختفى الشك والإحساس بالنقص، ومن ثَمَّ يستطيع كل اليهود الآن أن يشعروا بالهدوء ويمكنهم الاندماج في مجتمعاتهم. ورغم عدم اتفاقنا مع مقدمات الكاتب، فيُلاحَظ من الناحية الفعلية أن انتشار الصهيونية غطاء براق يخفي معدلات الاندماج العالية. بل إن الصهيونية أصبحت الوسيلة التي يريح بها اليهودي المندمج ضميره، إذ يمكنه أن يُجزل العطاء للدولة اليهودية ويحقق بذلك إحساساً زائفاً ومتضخماً بالهُوية والانتماء ثم ينصرف بعد ذلك لحياته العلمانية الأمريكية اللذيذة بكل جوارحه. وقد لاحظ بن جوريون هذه الظاهرة وحَذَّر منها.

ويُعَدُّ الاندماج من أهم الأسباب التي تؤدي إلى ما يُسمَّى في علم الاجتماع في الغرب ظاهرة «موت الشعب اليهودي»، أي تَناقُص أعداد اليهود بشكل ملحوظ الأمر الذي يؤدي إلى اختفاء بعض الجماعات اليهودية. وقد شُكِّلت في إسرائيل لجنة صهيونية تهدف إلى مكافحة الاندماج بين أعضاء الجماعات اليهودية.

الزواج المختلط

تُحرِّم اليهودية الزواج بين اليهود وغير اليهود، وهي في هذا لا تختلف عن كثير من الأديان. ولكن هذا الحظر في شكله المتطرف يُعبِّر عن الطبقة الحلولية الكمونية التي تفصل الشعب المقدَّس عن الآخرين الذين لا يتمتعون بالقداسة نفسها. ورغم هذا الحظر، فإن أنبياء اليهود وزعماءهم كانوا يتزوجون غير اليهوديات. وقد ورد في العهد القديم أن تحريم الزواج مرده أن اليهودي قد يعبد آلهة آخرين. وبعد العودة من بابل، طبق نحميا وعزرا قوانين تحريم الزواج المُختلَط تطبيقاً صارماً وحرفيا، وطالبا اليهود الذين تزوجوا أجنبيات بأن يطلِّقوا زوجاتهم. ورغم أن التحريم كان يتجه أساساً، كما يبدو، نحو الأقوام الكنعانية السبعة (الوثنية)، فإن الفقهاء اليهود وسعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على كل الأغيار دون تمييز، بل امتد الأمر ليشمل القرائين والسامريين.

وعلى هذا النحو، كان زواج اليهودي من غير اليهودية يُعتبَر فجوراً وزنى مستمرين، والأولاد الذين يُولَدون من هذه المعاشرة المرذولة يُعتبَرون أبناء زنى. وقد كان يُعَدُّ يهوديا من يُولَد لأم يهودية وأب غير يهودي. أما من يُولَد لأب يهودي وأم غير يهودية فلا يُعتبَر يهوديا. وقد حاول فقهاء اليهود تبرير هذا الحظر الديني. فحاول موسى بن ميمون تفسيره تفسيراً عقليا. أما راشي، فاكتفى بتأكيد أنه بلا سبب. وتحريم الزواج المُختلَط، حسب تَصوُّره، أمر مَلَكي (باعتبار أن الإله هو الملك: ملك اليهود)، ولذا يجب عدم التساؤل عن سببه كما يجب عدم التساؤل بشأن فكرة الشعب المختار. ومع هذا، فقد استمر الزواج المُختلَط بين اليهود وغيرهم، واختفى يهود الصين، على سبيل المثال، بسبب زواجهم بالمسلمين وبغيرهم.

وقد تزايدت معدلات الزواج المُختلَط بشكل ملحوظ في العصر الحديث بسبب تَزايُد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات التي يعيشون فيها مما يؤدي بدوره إلى ازدياد معدلات الزواج المُختلَط، إذ تتاح لهم الفرص الاقتصادية والحراك السياسي والاجتماعي، ويبدأ أسلوب حياتهم في الاقتراب من أسلوب حياة أعضاء الأغلبية ويتساقط كثير من المحظورات.

ولكن السبب الأساسي والحاسم في تَصاعُد معدلات الزواج المُختلَط في المجتمعات الغربية، بدرجات ليس لها مثيل في تجارب أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخية، هو تصاعد معدلات العلمنة في هذه المجتمعات. ومن المعروف أن المجتمعات العلمانية يسود فيها قدر كبير من التسامح. ولكن التسامح العلماني لا يعني (في تَصوُّرنا) التعايش بين الانتماءات الدينية المختلفة، وإنما يعني، في واقع الأمر، التعايش بين أعضاء المجتمع بعد أن يُهمِّش كل منهم انتماءه الديني أو الإثني ويتجاوزه بحيث يتعايش الجميع فيما يُسمَّى «رقعة الحياة العامة» التي تتحكم فيها القيم العلمانية مثل المنفعة وتعظيم الإنتاج واللذة. وعادةً ما تختفي في مثل هذه المجتمعات الرموز الدينية المقصورة على الجماعة الدينية ويحل محلها رموز المجتمع ككل (نشيد وطني ـ تاريخ مشترك ـ الانتماء لأرض الأجداد) أو رموز ذات مضمون اجتماعي طبقي (منازل من نوع خاص ـ رداء من نوع خاص ـ سيارات . . إلخ). وهذه الرموز تُسقط الخصوصيات الدينية والإثنية. كما تسود هذه المجتمعات قيم ثقافية مشتركة من حب للموسيقى الشعبية أو فنان بعينه وهكذا.

ومما يساعد على تَصاعُد معدلات الزواج المُختلَط أن معظم اليهود لا يعارضونه في الوقت الحاضر (٢٢٪ من اليهود الذين وُلدوا يهوداً ويعتبرون أنفسهم يهوداً، و٤٤٪ من اليهود العلمانيين) كما يوجد عدد لا بأس به من الحاخامات الإصلاحيين ممن تَقبَّلوا عقد الزيجات المُختلَطة، ولذا فإن مَنْ يتزوج غير يهودي لن يجد نفسه خارج الجماعة اليهودية.

ونسبة الزيجات المُختلَطة في العصر الحديث آخذة في التصاعد بشكل يثير قلق القيادات اليهودية (ويسمونه «الهولوكوست الصامت»). فقد وصلت نسبة الزيجات المُختلَطة في كوبنهاجن (بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٥) إلى ٦٨٪ من جملة الزيجات. ووصلت في ألمانيا (عام ١٩٣٢) إلى نحو ستين زيجة مُختلَطة بين كل مائة زيجة يهودية، وفي أمستردام ٧٠٪ (عام ١٩٣٠). وفي الولايات المتحدة تصل النسبة في الوقت الحاضر إلى أعلى من هذا في بعض المناطق، ولكن النسبة العامة بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٠ هي ٥٢٪ من كل الزيجات اليهودية التي تمت في هذه الفترة. وتصل النسبة في بعض المناطق إلى ٨٠٪. وفي روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء لا يختلف الوضع عن هذا كثيراً.

ولا تعترف اليهودية الأرثوذكسية بالزيجات المُختلَطة. أما اليهودية المحافظة، فتشترط على الطرف غير اليهودي أن يَتهوَّد. ومع هذا، فهي لا تَطرُد من الأبرشية من يتزوج من خارج وسط اليهود، بل تسمح له بعض المعابد المحافظة بحضور الصلوات على شرط أن يوافق على أن يكون ثمرة الزواج يهوداً. أما اليهودية الإصلاحية، فتوافق على الزيجات المُختلَطة (وتترك الأمر لكل حاخام لكي يقرر ما يراه مناسباً)، وتشجع الطرف غير اليهودي على التهود ولكنها لا تشترطه، وتعتبر أن اليهودي وزوجته غير اليهودية أعضاء في الأبرشية، أي أنها تُقرُّ حق الطرف غير اليهودي في حضور الصلوات.

أما بالنسبة للموقف من أبناء هذه الزيجات، فإن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف إلا بمَنْ وُلد منهم لأم يهودية، أما مَنْ وُلد لأب يهودي فليس يهوديا (على عكس موقف اليهودية الإصلاحية). ومن المشكلات الأخرى التي يثيرها أبناء الزواج المُختلَط انضمامهم للمدارس اليهودية، فبعض الأطفال غير يهود ومع هذا يسجلهم آباؤهم في مثل هذه المدارس ليُعرِّفوهم الجذور الإثنية أو الدينية للطرف اليهودي في الأسرة أو ليطرحوا أمامهم البدائل الدينية المختلفة (ومن بينها البديل اليهودي) حتى يختار الطفل بنفسه فيما بعد. ويخلق هذا مشكلات لا حصر لها لهذه المدارس، التي تُعَدُّ المقررات التي تلائم الدارسين اليهود وحسب.

والصهيونية تعتبر الزواج المُختلَط أكبر خطر يتهدد اليهود واليهودية. ومن المستحيل عقد مثل هذا الزواج في إسرائيل حيث تسيطر المؤسسة الأرثوذكسية. ويواجه الممازير، أي أبناء الزيجات المُختلَطة، مشاكل وتعقيدات كثيرة لأنهم أطفال غير شرعيين. وقد ازدادت المشكلة تفاقماً بعد هجرة اليهود السوفييت، حيث إن معدلات الزواج المُختلَط بينهم مرتفعة بشكل ملحوظ.

الشعب العضوي (فولك)

تعبير «الشعب العضوي» هو ترجمتنا للكلمة الألمانية «فولك Volk» التي تُستخدَم بمنطوقها الألماني في كثير من اللغات الأوربية. والشعب العضوي هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه. ويُشار إلى الفكر القومي، الذي يَصدُر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوي المتماسك، بعبارة «الفكر القومي العضوي» كما يُقال «القومية العضوية».

القومية العضوية

«القومية العضوية» شكل القومية التي يُعبِّر الشعب من خلالها عن نفسه ككيان عضوي متماسك، يحوي داخله مركزه، فهو مرجعية ذاته، أي أنه يدور في إطار المرجعية الكامنة، والنموذج الكامن وراء هذه الفكرة نموذج عضوي مادي واحد. والشعب العضوي والقومية العضوية هما البديل والمقابل العلماني والحلولي الكموني الواحدي لفكرة الجماعة الدينية أو الأمة بالمفهوم الديني. ومفهوم القومية العضوية يُلغي إرادة الإنسان الفرد وحريته. وقد ظهرت فكرة القومية العضوية في الغرب، خصوصاً في ألمانيا في القرن التاسع عشر، تحت تأثير الفكر المعادي للاستنارة. والقومية العضوية تدور في إطار الأفكار التالية:

١ - الشعب كلٌّ عضوي متماسك يشبه علاقة أعضائه، الواحد بالآخر وبمجموع الشعب، علاقة أجزاء الكائن الحي بعضه بالبعض الآخر، ومن ثَمَّ فإن الشعب الحقيقي لا يقبل التفتيت ولا يمكن فصل أحد أعضائه عنه. وإذا غيَّر أحد أعضاء الفولك مكانه وانتقل من ألمانيا إلى روسيا مثلاً فهو يظل ألمانيا.

٢ - الانتماء القومي لهذا الشعب ليس مسألة اختيار أو دعاية وإنما رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها (إن لم تكن كذلك بالفعل) تربط بين الفرد والجماعة التي يتبعها، ولذا فإن الانتماء لشعب معيَّن مسألة تُورَّث ولا تُكتسَب.

٣ـ لا تقتصر الرابطة العضوية على العلاقة بين الفرد والشعب وإنما تمتد لتربط بين الشعب ككل والأرض التي يعيش عليها وبها. فالشعب العضوي يستمد الحياة من أرضه وتربته، وهي أيضاً تستمد منه الحياة، فهو وحده القادر على تعميرها.

٤ ـ تمتد العلاقة العضوية لتشمل أيضاً الأشكال الثقافية والاجتماعية التي تسود بين أعضاء هذا الشعب العضوي التي أبدعها أعضاؤه على مر التاريخ. فهذه الأشكال تُعبِّر عن عبقرية هذا الشعب وروحه، ولهذا السبب فإن الآخر الغريب لا يمكنه أن يمتلك ناصية الخطاب الحضاري لهذا الشعب مهما بذل من جهد، فثقافة الشعب العضوي مسألة موروثة تجري في الدم تقريباً ولا يمكن اكتسابها مهما بلغ الآخر من ذكاء ومهارة.

٥ ـ والشعب العضوي يحوي داخله (وداخل أرضه وتراثه) عناصر قوته وانحلاله وتَطوُّره ورُقيِّه، كما أن قوانين حركته التي ينمو على أساسها كامنة فيه أيضاً، أي أنه يدور في إطار المرجعية المادية الكامنة. ويُلاحَظ اختفاء كل المسافات بين الشعب ومصادر قوته وأرضه وتراثه، فالجميع يُكوِّنون كُلا متماسكاً مستمرا عضويا لا ثغرات فيه ولا انقطاع.

٦ ـ أفرزت فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية مجموعة شعارات ومفردات ذات طابع عضوي حلولي كموني واحدي (شبه صوفي) عنصري، مثل: «أمتنا فوق الجميع»، و«الأمة ذات الرسالة الخالدة»، «المصير القومي الواحد المحتوم»، «المجال الحيوي للشعب».

٧ـ مفهوم الشعب العضوي مفهوم استبعادي، نسق مغلق لا يسمح بأي شكل من أشكال غياب التجانس ويفصل بحدة بين أعضاء الشعب العضوي والشعوب الأخرى. كما أن أعضاء الأقليات الذين يعيشون بين أعضاء هذا الشعب يصبحون بالمثل شعباً عضويا، ولكنهم شعب عضوي منبوذ.

٨ـ فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية تُترجم عادةً إلى فكر عرْقي يؤكد التفاوت بين الناس والأعراق، فينسب التَميُّز للأنا الجماعية العضوية والتدني للآخر. فالأنا هي تَجسُّد المركز الكامن في العالم، والآخر مجرد مادة وحسب، والأنا هي المرجعية النهائية والمقدَّس، والآخر هو التابع المباح. ويشكل الفكر العضوي الاستبعادي الأرضية الفلسفية للرؤية العنصرية داخل أوربا والرؤية الإمبريالية خارجها. وقد حقَّق المفهوم شيوعاً كبيراً في أوربا ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر. وكانت الكتب العنصرية أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في تلك الفترة. ومن هنا، فإن الفكر الإمبريالي، والفكر النازي والصهيوني، وكذلك فكر أعداء اليهود، فكر عضوي.

٩ ـ يُعبِّر الشعب العضوي عن إرادته من خلال الدولة القومية المطلقة التي تكون مرجعية ذاتها، ويُعبِّر عن هذه الإرادة في حالة النُظُم الشمولية من خلال إرادة الزعيم.

الشعب العضوي المنبوذ

«الشعب العضوي المنبوذ» عبارة قمنا بصياغتها للتعبير عن نموذج تفسيري كامن في معظم الكتابات الصهيونية أو تلك المعادية لليهود. ويعود هذا النموذج إلى الفكر الألماني الرومانسي الذي طرح فكرة الشعب العضوي، التي ترى أن الانتماء القومي ليس مسألة اختيار أو إيمان، وإنما رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها بين الفرد والجماعة التي يتبعها والتربة (الأرض) التي تتواجد عليها هذه الجماعة، ومن هنا الحديث عن التربة والدم. وحسب هذا النموذج، تتسم الأشكال الثقافية والاجتماعية المختلفة التي تسود بين أعضاء هذه الجماعة بأنها هي الأخرى مترابطة ترابطاً عضويا لا تنفصم عراه، وبأنها فريدة تُعبِّر عن عبقرية الجماعة. ويؤكد نموذج الشعب العضوي الاختلافات بين الجماعات البشرية المختلفة على حساب المساواة بين أعضاء الجنس البشري. ولهذا نجد أنه أفرز مجموعة شعارات ذات طابع عضوي عنصري شبه صوفي، مثل: روح الشعب ـ أمة واحدة ذات رسالة خالدة ـ المصير القومي الواحد الحتمي والأمة فوق الجميع ـ المجال الحيوي للشعب. وقد استُخدم هذا النموذج لتبرير التوسع ولاستبعاد الآخرين بل إبادتهم. كما تَحكَّم في إدراك الإنسان الغربي لكل المجموعات البشرية وضمنهم اليهود، بحيث أصبح هناك شعب عضوي ألماني وشعب عضوي إنجليزي وشعب عضوي يهودي، كل منها مترابط ترابطاً عضويا ويضرب بجذوره في تربته. وقد تَبنَّى الفكر الصهيوني هذا النموذج التفسيري الذي عبَّر عنه مارتن بوبر في كتاباته حيث يجعل الشعب العضوي ركيزة أساسية لرؤية العالم.

ومن مفارقات الأمور أن إحدى خصائص الشعوب العضوية أنها تَنبُذ العناصر الغريبة عنها التي تُوجَد بين ظهرانيها مثل اليهود. ولهذا كان النموذج الذي أسبغ على اليهود هوية عضوية فريدة، وحوَّلهم من مجرد أقلية دينية أو جماعة دينية إلى كيان مستقل، يأخذ شكل شعب عضوي له صفات ثابتة محددة يضرب بجذوره في فلسطين، هو نفسه الذي جعلهم مادة بشرية غريبة لم تُشكِّل قط جزءاً من تاريخ الغرب الحقيقي وإنما وقفت دائماً على هامشه. بل إن

وجودهم داخل الحضارة الغربية لم يكن دائماً أمراً إيجابياً، ومن ثَمَّ فلا مكان لهم في هذه الحضارة، أي أن «الشعب العضوي» تَحوَّل إلى «شعب عضوي منبوذ». وقد أدَّى هذا النموذج إلى الهجوم على خصوصية الشعب العضوي اليهودي وإظهار مدى قبحها وضرورة القضاء عليها، فظهرت الدعاوى المعادية لليهود، كما ظهرت الدعوات إلى دمجهم في المجتمعات الغربية بعد إصلاحهم وتطبيعهم، أي بعد أن يتخلصوا من خصوصيتهم وسماتهم السلبية، بأن يتخلوا عن يهوديتهم، وهذا هو فكر عصر الاستنارة والتنوير.

ويمكن القول بأن نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو الحلقة التي تربط بين العداء لليهودية والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. وتنطلق صهيونية غير اليهود من فكرة أن الفولك أو «الشعب العضوي اليهودي» لا مكان له حقا في العالم الغربي (وهذه هي نفسها دعوى أعداء اليهود) ولكن يمكن الاستفادة منه كأداة يمكن توظيفها لصالح الغرب في مشروعاته المختلفة التي أصبح من أهمها، مع مرور الوقت، المشروع الاستيطاني في فلسطين. ويستند نموذج الشعب العضوي المنبوذ إلى عنصرين أساسيين في الحضارة الغربية :

١ ـ موقف الحضارة الغربية المسيحية من اليهود. ويمكن القول بأن نموذج الشعب العضوي يعود إلى فكرة الشعب الشاهد، أي اليهود بوصفهم أقلية دينية رفضت المسيح وتقف في ذُلّها وخضوعها وتَدَنّيها شاهداً على صدق العقيدة المسيحية وعلى عظمة الكنيسة. ولذا، دافعت الكنيسة الكاثوليكية عن بقاء اليهود كجماعة مستقلة وحمتهم ضد الهجمات الشعبية حتى يقوموا بدورهم في الشهادة. ثم تحولت هذه الفكرة إلى العقيدة الاسترجاعية أو الألفية في الفكر البروتستانتي، وهي عقيدة تُحوّل اليهود إلى أداة من أدوات الخلاص إذ لا يمكن أن يتم الخلاص النهائي إلا بعودة اليهود.

٢ ـ الأمر الآخر الذي يعود إليه نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو الدور الذي لعبه اليهود في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا والنشاطات المالية.

ويُلاحَظ أن كلا الأمرين يضع اليهود على هامش التاريخ الغربي لا في صميمه، كما يجعلهم مجرد أداة إما للخلاص النهائي أو للربح. ويمكن القول أيضاً بأن نموذج الشعب العضوي المنبوذ تعبير علماني عن فكرة الشعب المختار والشعب المقدَّس (الدينية)، فالشعب المختار شعب مقدَّس، والقداسة تعني الانفصال عن كل الشعوب، فهو شعب عضوي، ولكن إحدى علامات اختياره أن كل الشعوب ترفضه، فهو شعب عضوي مقدَّس منبوذ.

وقد تداخل العنصران الديني والدنيوي لبعض الوقت. ومع تَزايُد علمنة الحضارة الغربية، فَقدَ النموذج كثيراً من ديباجاته الدينية ليصبح نموذجاً دنيويا محضاً. ومن هذا المنظور، تم الهجوم على اليهود لا باعتبارهم قتلة المسيح وإنما باعتبارهم شعباً عضويا بالمعنى العرْقي. كما أن استخدام اليهود كوسيلة أخذ يفقد ديباجاته الدينية تدريجيا، حيث أصبح اليهودي غير مُثقَل بأية قيمة وتَحوَّل إلى أداة محضة.

وقد أصبح نموذج الشعب العضوي المنبوذ نموذجاً تفسيريا أساسيا في الوجدان العقلي والعاطفي في الغرب بما يؤدي إليه من حلول صهيونية واضحة أو كامنة. وقد أصبح هذا النموذج، مع بداية القرن التاسع عشر، بُعداً أساسيا في الفكر السياسي الغربي تجاه اليهود والشرق. كما تمت مزاوجة المسألة اليهودية (الشعب المنبوذ) بالمسألة الشرقية (الدولة العثمانية وتقسيمها) بحيث يمكن حل المسألة الأولى، أي التخلُّص من اليهود، عن طريق استخدامهم كمادة بشرية في المسألة الثانية.

وقد اختفى نموذج الشعب العضوي المنبوذ إلى حدٍّ كبير من كتابات الصهاينة والمفكرين الغربيين بعد الحرب العالمية الثانية، ولكنه لا يزال النموذج الفعال الكامن في كل الكتابات والمشاريع الصهيونية. وقد ظهرت في الآونة الأخيرة فكرة الشعب المقدَّس بين أعضاء جماعة جوش إيمونيم. وعندهم، كذلك، أن هذا الشعب يعيش وحده ولا يُحسَب بين الأمم، فهو شعب مقدَّس عضوي منبوذ. وتَنبُع أهمية فكرة الشعب العضوي المنبوذ من أنها تُبيِّن العلاقة العضوية الكامنة بين الصهاينة وأعداء اليهود.

٥ ـ منفى وعودة أم هجرة وانتشار؟

إحساس اليهودي الدائم بالنفي الأزلي ورغبته الثابتة في العودة

«إحساس اليهودي الدائم بالنفي ورغبته في العودة» عبارة تُبلوِر النموذج الكامن وراء كثير من الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية في العالم، إذ يتم رصد أعضاء الجماعات اليهودية وتحركاتهم وكأن عندهم إحساساً بالنفي الأزلي ورغبة دائمة في العودة، وكأن هذا الإحساس وهذه الرغبة معاً جزء من جوهر يهودي ثابت ومن المكونات الأساسية لطبيعة اليهود البشرية.

واليهودي حسب هذا النموذج التفسيري غريب ينتقل من مكان لآخر (ومن هنا صورة اليهودي المتجول)، الذي يحس بأنه في المَنْفَى، ومن ثَمَّ فعنده رغبة عارمة دائمة في إنهاء حالة النفي هذه والعودة إلى "وطنه الأصلي" فلسطين. ولذا أصبحت عبارات مثل

«المَنْفَى» و«الشّتات» و«الدياسبورا» و«العودة» كلمات متواترة مألوفة في الأدبيات الخاصة باليهود واليهودية (الصهيونية والمعادية لليهود وغيرها)، وتم تطبيعها تماماً، وكأنها مجرد وصف موضوعي ومحايد لأعضاء الجماعات اليهودية ولسلوكهم.

وفي المداخل القادمة سنقوم بتفكيك هذه المفاهيم وإعادة تركيبها في ضوء دراستنا للتواريخ المتعينة لأعضاء الجماعات اليهودية حتى نبيِّن ضعف المقدرة التفسيرية لمثل هذه المفاهيم. ونقترح اصطلاح «الانتشار» بديلاً عن «النفي والعودة» باعتباره أكثر تفسيرية.

المنفى والعودة

تشير كلمة «جالوت»، أو «جولا» إلى المَنْفَى، والمَنْفَى القهري بالذات خارج إرتس يسرائيل أي فلسطين (مقابل المَنْفَى الطوعي أي «تيفوتسوت»)، ولذا فهي تُترجَم عادةً إلى العربية بكلمة «المَنْفَى». كما تُستخدَم كلمة «دياسبورا» أي «الشّتات» للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي تعيش مشتتة بين الشعوب الأخرى. وأحياناً تُستخدَم كلمة «دياسبورا» بشكل محايد بحيث تعني «الانتشار» بوصفه ظاهرة إنسانية عادية طبيعية. ويستخدم اليهود الإصلاحيون والاندماجيون المُصطلَح بهذا المعنى. وفي اللغة العربية، تُستخدَم كلمتا «الشّتات» و«المَهْجَر» للإشارة إلى المكان الذي هاجر إليه اليهود أو هُجِّروا إليه. وتعني الكلمات السابقة («المَنْفَى» و«الدياسبورا» و«الشّتات» و«المَهْجَر») وجود أعضاء الجماعات اليهودية المؤقت خارج إرتس يسرائيل (أي فلسطين) حتى تتحقق لهم الحالة الأصلية العادية والطبيعية بعودتهم إليها. أما العودة فيُشار إليها في المُصطلَح الديني بكلمة «تشوفاه» (بمعنى التوبة أيضاً، على عكس «حزره» وهي عودة بالمعنى الدنيوي)، كما تُوجَد عبارة «كيبوتس جاليوت» أي «تجميع المنفيين».

وتشكل عقيدة المَنْفَى والعودة إحدى النقاط المحورية في الرؤية اليهودية إلى التاريخ والكون، وترتبط، مثل كل العقائد الدينية اليهودية، بعقائد أخرى مثل عقيدة الماشيَّح والشعب المختار. وحسب هذه العقيدة، فإن إله اليهود حكَم على شعبه المختار بالنفي والتشتت في بقاع الأرض لسبب يختلف الحاخامات اليهود في تحديده. وستستمر حالة المَنْفَى هذه إلى أن يعود الماشيَّح المخلِّص. وكالمعتاد، أحاط بهذه العقيدة ضرب من القداسة والخصوصية، فنجد أن الشعور بالنفي ليس نتيجة حتمية للنفي نفسه وإنما إحساس مقصور على اليهود حينما يبتعدون عن أرض الميعاد، وذلك بسبب ارتباطهم الحلولي أو العضوي بها، أي أنهم يجعلون المَنْفَى سمة أساسية وخاصية مقصورة على ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»، ويصبح الإحساس بالغربة أمراً ينفرد به اليهود وحدهم. أما الفلسطينيون، فليس من حقهم ممارسة هذه الأحساسيس السامية إن نُفُوا من أرض فلسطين أو ابتعدوا عنها، وذلك لانتفاء الصلة الحلولية أو العضوية بالأرض المقدَّسة. ونجد أيضاً أن «الشخيناه» (التجسيد الأنثوي للإله) نُفيَت مع الشعب خارج الأرض المقدَّسة، ولم يبق منها إلا جزء في حائط المبكى يذرف الدموع كل عام في ذكرى خراب أو هدم الهيكل.

وقد حار المفسرون اليهود في تفسير عقيدة وظاهرة النفي هذه التي لا تتفق مع كونهم الشعب المختار. ولذلك، فُسِّر النفي بأنه إحدى علامات التميُّز والاختيار. فاليهود الذين تقطن الشخيناه في وسطهم، ويقطنون بدورهم وسط الأغيار، لا يحملون أوزارهم وحدهم وإنما يحملون أيضاً أوزار الأمم كافة. ولذلك، فإنهم بمنزلة المشحاء (جمع «ماشيَّح») المصلوبين من أجل البشر، وهم بمنزلة الروح التي تُوجَد في المادة. وبالتالي، فإن نفيهم تمهيد لخلاص البشر. وهكذا يصبح النفي عقوبةً على الذنوب وعلامةً من علامات التميُّز في آن واحد. وحينما يَحلُّ اليوم الموعود، سيأتي الماشيَّح ويقود شعبه ويعود به إلى الأرض المقدَّسة. ولكن بعض الحاخامات ذهبوا إلى أن المَنْفَى والشّتات عقاب حَلَّ على اليهود بسبب تَركهم طُرُق الرب و بسبب تأغرقهم. ويذهب المسيحيون إلى أن الشتات عقاب لليهود على إنكارهم المسيح عيسى بن مريم.

وقد تركت عقيدة النفي أثرها العميق على الوجدان اليهودي، إذ أضعفت إحساس اليهود بالزمان والمكان، وأضفت طابعاً مؤقتاً على كل شيء. وربما ساعد اضطلاع اليهود بدور الجماعة الوظيفية واشتغالهم المستمر بالتجارة والأعمال المالية والربا، وانتقالهم من مكان إلى مكان دون الانتماء الكامل لأي مكان (فالجماعة الوظيفية تُوجَد في المجتمع لكنها لا تصبح منه) ربما ساعد كل هذا على استمرار عقيدة المَنْفَى والعودة، وعلى اكتسابها هذه المركزية.

ولكن الموقف الديني التقليدي من المَنْفَى والعودة ليس واضحاً ولا قاطعاً. فعلى سبيل المثال، أكد الحاخامات أن محاولة العودة الفردية والفعلية، دون انتظار مقدم الماشيَّح، هي من قبيل التجديف والهرطقة، ومن قبيل «التعجيل بالنهاية»، أو من قبيل تَحدِّي الإرادة الإلهية. وقد عارض بعض اليهود الأرثوذكس الحركة الصهيونية بالفعل لأنها عودة مشيحانية دون ماشيَّح.

وعلى وجه العموم، يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية

قَبلوا وجودهم في الأوطان التي كانوا يعيشون فيها، وأن الحديث عن المَنْفَى أصبح جزءاً من الخطاب الديني، وأصبحت العودة تَطلُّعاً دينيا وتعبيراً عن حب صهيون، أي تعبيراً عن التَعلُّق الديني بالأرض المقدَّسة وهو تَعلُّق ذو طبيعة مجازية، لا يترجم نفسه إلى عودة حرفية إلى فلسطين، حتى وإن خلق استعداداً كامناً لذلك. ولكن، مع بدايات العصر الحديث والحركة الإمبريالية، وظهور الفكر الوضعي والتجريبي والنماذج المادية العلمانية المعرفية وتفسيرات العهد القديم الحلولية والحرفية، بدأ ظهور فكر استرجاعي قوي في صفوف المسيحيين البروتستانت تَرَك أثراً عميقاً في الجماعات اليهودية في أوربا، وظهرت حركات مشيحانية تهدف إلى تحويل فكرة العودة من تَطلُّع ديني مجازي إلى عودة فعلية، أي إلى استيطان. وقد تدعَّمت الفكرة مع بدايات الفكر القومي الغربي والتعريفات العرْقية للإنسان. ومع تَصاعُد الحركة الإمبريالية، بدأت الأفكار الصهيونية تتغلغل بين اليهود، وخصوصاً أن هذا تَزامَن مع ضعف اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية التي تَقبَّلت المَنْفَى كحالة نهائية. وأخيراً، ظهرت الصهيونية بين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأخذت من التراث الديني اليهودي ما يتفق وأهواءها السياسية، واستولت على الخطاب الديني، وحوَّلت كل المفاهيم الدينية المجازية إلى مفاهيم قومية حرفية.

وطرحت الصهيونية رؤية للتاريخ تَصدُر عن تَصوُّر أن اليهود في حالة نفي قسرية فعلية منذ هَدْم الهيكل، وأنهم لو تُركوا وشأنهم لعادوا إلى فلسطين دون تَردُّد. بل إن التواريخ الصهيونية ترى أن ثمة نمطاً متكرراً فيما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»: نفي من فلسطين ثم عودة إليها، ونفي إلى مصر ثم عودة إلى فلسطين، ونفي إلى بابل ثم عودة إلى فلسطين، وأخيراً نفي إلى أرجاء العالم بأسره ثم عودة نهائية إلى إسرائيل، أي فلسطين.

وإحدى مقولات الصهيونية الأساسية هي أن وجود اليهود على هيئة جماعات في أنحاء العالم حالة مؤقتة، وأن هذا الوجود إن هو إلا جسر يَعبُر عليه الشعب اليهودي إلى فلسطين. ومن دعاة هذا الرأي بن جوريون وممثلو الصهيونية الاستيطانية. ولكن ليس كل الصهاينة على هذا الرأي. فالصهيونية الإثنية، على سبيل المثال، ترى أن وجود الجماعات اليهودية خارج فلسطين ليس أمراً مؤقتاً وإنما حقيقة ثابتة، وأن هذه الجماعات لا تحتاج إلى إسرائيل موطناً، وإنما تحتاج إليها كمركز روحي لا كبلد يهاجر إليه جميع اليهود، فالنفي هنا حالة ثقافية ومن ثم يتم علاجه بطرق ثقافية أيضاً!

وبعد إنشاء إسرائيل، لم يهرْع اليهود إلى أرض الميعاد، ولم يتم تجميع المَنْفيين كما كان يتوقع الصهاينة، وهو ما اضطر بن جوريون إلى ابتداع مُصطلَح «منفيِّو الروح» ليصف اليهود الذين يحيون حياة جسدية مريحة في المَنْفَى، ولكنهم بلا شك معذبو الروح. وهو بهذا يتبنَّى الصيغة الصهيونية الثقافية. ولكن المُلاحَظ أن منفيِّي الروح هم الأغلبية العظمى بين يهود العالم، أي أن اليهودية حتى بعد إنشاء الدولة الصهيونية لا تزال يهودية الدياسبورا. ولذلك فالجالوت، أو «المَنْفَى القسري» أصبح يُسمَّى «تيفوتسوت»، أو «المَنْفَى الاختياري»، وهذا تَناقُض عميق في المُصطلَح. ويبدو أن الولايات المتحدة تشكل تحدياً عميقاً لفكرة المَنْفَى، إذ تشكل نقطة جذب هائلة للغالبية الساحقة من يهود العالم. وقد اتجهت لها الكتلة البشرية اليهودية من شرق أوربا (يهود اليديشية) وغيرها من أنحاء العالم. ولم تتجه سوى أقلية صغيرة إلى فلسطين، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت مُوصَدة دونها. وقد بدأ يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل لا باعتبارها وطناً قوميا، وإنما باعتبارها «الوطن الأصلي» أو «مسقط الرأس»، تماماً كما ينظر الأمريكيون من أصل أيرلندي إلى أيرلندا. ولكن هذه النظرة تفترض أن الولايات المتحدة ليست بمَنْفَى وإنما البلد التي يهاجر إليها أعضاء الجماعات اليهودية بمحض إرادتهم، بحثاً عن فرص جديدة. وإن كانت الولايات المتحدة ليست أرض الميعاد التي تُحقِّق أحلامهم الدينية ـ وهي أحلام أصابها الضمور على أية حال ـ فهي على الأقل "جولدن مدينا" أي البلد الذهبي التي حقَّقت لهم معظم أحلامهم الدنيوية. وهذه الرؤية تعني أن يهود الولايات المتحدة لا يعتبرون بلدهم الجديد مَنْفَى. بل إن من الطريف أن الحاخام مناحم شنيرسون وحاخامات جماعة الناطوري كارتا (المعادية للصهيونية) يعتبرون دولة إسرائيل جزءاً من المَنْفَى.

أما في إسرائيل، فقد ظهر جيل جديد من الصابرا لا يفهم سيكولوجيا يهود المَنْفَى، وإن فهمها فهو لا يُكن لها احتراماً كبيراً. وهذا الانقسام بين يهود العالم ويهود إسرائيل من الصابرا وغيرهم يمثل مشكلة ضخمة تواجه الفكر الصهيوني. بل يبدو أن الولايات المتحدة بجاذبيتها تُهدِّد المستوطن الصهيوني نفسه، إذ إن أعداداً كبيرة من المستوطنين، وضمن ذلك الصابرا يهاجرون إلى الولايات المتحدة فيتركون الوطن إلى المَنْفَى! ويُطلَق على المهاجرين الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة الدياسبورا الإسرائيلية.

وينطلق الصهاينة من افتراض وحدة الشعب اليهودي وضرورة تجميع المَنْفيين وصَهْرهم ومَزْجهم في شخصية نمطية واحدة (برغم

تعدُّد خلفياتهم الثقافية والحضارية) حتى يُشْفَوا من كل أمراض المنفى. ولكن، كلما تم مَزْج أو صَهْر مجموعة من المهاجرين، تأتي مجموعة جديدة من المَنْفَى فيستعيد من انصهر كثيراً من السمات الحضارية التي كان قد فقدها إما من خلال الالتحام بالمهاجرين الجدد، إن كانوا من بني جلدتهم، أو من خلال مجابهتهم إن كانوا من تَجمُّع قومي آخر، أي أن تجميع المَنْفيين يتعارض بشكل حادٍّ مع مَزْجهم وصَهْرهم. وتظهر هذه المشكلة في موقف جماعات السفارد واليهود الشرقيين من المهاجرين الإشكناز واليهود الغربيين وخصوصاً السوفييت.

ونحن لا نستخدم كلمات ذات طابع عاطفي عقائدي مُتحيِّز، مثل «المَنْفَى» أو «الشتات»، إلا إذا تَطلَّب السياق ذلك، ونستخدم بدلاً من ذلك مُصطلَحات محايدة فنقول: الجماعات اليهودية في العالم وانتشارها فيه.

العودة

تشير كلمة «العودة» في الأدبيات اليهودية والصهيونية إلى عودة اليهود إلى فلسطين، أي «إرتس يسرائيل» أو «صهيون» أو «أرض الميعاد» بعد نفيهم منها.

وقد تكون العودة تحت قيادة الماشيَّح، وقد يقوم بها اليهودي بإرادته، دون انتظار مشيئة الإله. انظر: «المَنْفَى والعودة».

الشتات

«الشتات» مُصطلَح يُستخدَم أحياناً للإشارة إلى «المَنْفَى» أو «الدياسبورا».

الدياسبورا

«دياسبورا» كلمة يونانية تعني «الشتات» أو «الانتشار». وقد كانت الدياسبورا نمطاً شائعاً في العالم الهيليني الروماني، فلم يكن مقصوراً على اليهود بل كانت هناك جماعات من التجار اليونانيين الذين يؤسسون جماعاتهم ومجتمعاتهم الصغيرة في المدن التي يستقرون فيها، فكانوا يبنون فيها معابدهم ويعبدون آلهتهم، وينخرطون في جميع مؤسسات حياتهم الهيلينية الأخرى مثل الجيمنازيوم. كما أن المدن اليونانية المختلفة خارج بلاد اليونان، بسكانها من المستوطنين اليونانيين، كانت تشكل دياسبورا. وبرغم أن الكلمة محايدة إلى حدٍّ كبير، لأن الانتشار تم بإرادة المنتشرين، إلا أنها في نهاية الأمر تعني تَشتُّتاً من مركز ما، والمركز في العقل الإنساني أفضل من الأطراف. أما في الكتابات اليهودية والصهيونية، فتحمل معنى سلبياً أكيداً، باعتبار أن اليهودي الموجود خارج فلسطين أو «إرتس يسرائيل» أو «صهيون» (في المُصطلَح الديني) أو «الوطن القومي» (في المُصطلَح السياسي) موجود خارج وطنه رغم أنفه، وبالتالي فهو في المَنْفَى. وتُميِّز هذه الكتابات بين المَنْفَى الاختياري والمَنْفَى القسري. ويتجلى ذلك في العبرية على وجه الخصوص إذ توجد كلمة «جولا» بمعنى المَنْفَى القسري، كما حدث ليهود المملكة الجنوبية حينما هُجِّروا إلى بابل. وتوجد كلمة «تيفوتسوت» بمعنى «المَنْفَى الاختياري أو الطوعي»، وهي تشير إلى اليهودي الذي يترك فلسطين بمحض إرادته ليستوطن بلداً آخر، وإلى الجماعات اليهودية التي ترفض العودة إلى فلسطين رغم وجود سلطة سياسية يهودية مستقلة أو سلطة شبه مستقلة، كما حدث ليهود بابل أيضاً بعد عودة نحميا وعزرا، وكما هو حادث ليهود العالم الغربي بل يهود العالم بأسره الآن.

وقد ظهر استخدام جديد لكلمة «دياسبورا». فكثير من يهود الولايات المتحدة يرفضون استخدام الكلمة بمعنى «المَنْفَى المؤقت»، فالولايات المتحدة أو كندا وطنهم النهائي لا المؤقت. ولذا، ففي كتاب هوارد ساخار الأخير **الدياسبورا** (عام ١٩٨٥) لا توجد أية إشارة إلى الجماعات اليهودية في إسرائيل أو أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة أو كندا) باعتبار أنهما لا يشكلان «مَنْفَى»، وبالتالي لا يمكن الحديث عنهما باعتبارهما دياسبورا. فكأن كلمة «دياسبورا» تستبعد كلا من فلسطين والولايات المتحدة وكندا!

ونحن نُفضِّل في هذه **الموسوعة** أن نشير إلى «الجماعات اليهودية في العالم وانتشارها فيه» باعتبار أن استخدام كلمة «مَنْفَى»، أو حتى كلمة «دياسبورا»، يفترض علاقة قومية ما بين أعضاء هذه الجماعات وفلسطين، وهو ما تدحضه قراءة سلوكهم وأحداث التاريخ قراءة متأنية.

والواقع أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم قد يرتبطون عاطفياً أو دينياً بإسرائيل (فلسطين)، ولكن حياتهم ككل تكون في العادة أكثر تركيباً، ومحاولة تفسير جميع تجاربهم التاريخية (المتنوعة غير المتجانسة) في ضوء عنصر واحد، أمر تعسفي يَسقُط في الأحادية ويتجاهل منحنى الظواهر الخاص ويختزلها كلها داخل نمط واحد. وقد نحت آرثر كوستلر مُصطلَح «الدياسبورا الخزرية»، كما ظهر مؤخراً مُصطلَح «الدياسبورا الإسرائيلية». وقد استُخدم من قبل مُصطلَح «الدياسبورا السامرية».

المنفى القسري (الجالوت أو الجولا)

«المَنْفَى القسري» ترجمة للكلمة العبرية «الجالوت» أو «الجولا»، وهي مقابل كلمة «تيفوتسوت» أو «المَنْفَى الطوعي». وكلمة «الجالوت» ترجمة عبرية غير دقيقة لكلمة «دياسبورا» ذات المعنى المحايد إلى حدٍّ ما، فهي تعني كلا من التشتت والانتشار. والانتشار يمكن أن يكون تلقائيا ويمكن كذلك أن يكون إراديا، أما «الجالوت» فليس كذلك بل حالة يخضع لها الإنسان وتُفرَض عليه فرضاً.

المنفى الطوعي (تيفوتسوت)

«المَنْفَى الطوعي» ترجمة للكلمة العبرية «تيفوتسوت»، وهي مقابل كلمة «جالوت»، أي «المَنْفَى القسري»، وهما المقابل العبري غير الدقيق لكلمة «دياسبورا» اليونانية. فكلمة «دياسبورا» محايدة نوعاً، وتصف واقعاً قائماً، أي انتشار بعض الجماعات اليونانية خارج اليونان في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو انتشار لم يتم قسراً. أما «تيفوتسوت» و«الجالوت» فيُدخلان في الاعتبار عنصر الإرادة والحالة العقلية. وعلى أية حال، فإن كلمة «تيفوتسوت» أقرب في المعنى إلى كلمة «دياسبورا».

شريعة الدولة هي الشريعة

«شريعة الدولة هي الشريعة» هي الترجمة العربية للعبارة الرامية الآرامية: «دينا دي ملكوتا دينا». وهي من أهم المبادئ في تاريخ الشريعة اليهودية. وقد ظهر المفهوم، أول ما ظهر، خارج فلسطين في صفوف الجماعة اليهودية في بابل أثناء حكم الأسرة الساسانية الفارسية، إذ تَطلَّب وضع الجماعة اليهودية توضيح قضية نطاق الشريعة اليهودية مقابل نطاق قانون أو شريعة الدولة. والعبارة في نهاية الأمر محاولة لحل قضية الولاء وازدواجه. وعبارة «شريعة الدولة هي الشريعة» قَلَّصت نطاق تطبيق شريعة التوراة، إذ تتضمن اعترافاً بالقانون المدني غير اليهودي، كما تعترف بأنه يَحلُّ محل الشريعة الدينية في الأمور الدنيوية، وهو ما يعني وجوب اتباع شريعة الدولة حتى لو تناقضت مع الشريعة اليهودية. ولم يكن هذا المبدأ ينطبق بطبيعة الحال على الطقوس والشعائر الدينية. وينم تَبنِّي هذا المبدإ عن مقدرة أعضاء الجماعات اليهودية على التكيف مع محيطهم الحضاري والاندماج فيه، وهو الأمر الذي هيأ البقاء لليهود والاستمرار لليهودية. وهذه المقولة استُخدمت أحياناً لتقويض دعائم الشريعة اليهودية، كما حدث مع دعاة التنوير الذين آمنوا بالنظرية السياسية الغربية التي حوَّلت الدولة إلى مُطلَق، فاستخدموا هذه المقولة لهدم سلطة الدين. ومعنى هذا أنهم ولَّدوا الفكر العلماني الإلحادي من داخل النسق الديني نفسه.

تجميع المنفيين

«تجميع المنفيين» ترجمة للعبارة العبرية «كيبوتس جاليوت». وهو مُصطلَح ديني تبنته الصهيونية يشير إلى فكرة عودة كل أعضاء الجماعات اليهودية المنفيين أو المنتشرين في أنحاء العالم إلى فلسطين وتجميعهم هناك. لكن تجميع المنفيين (حسب التصور اليهودي الأرثوذكسي التقليدي) مَثَل أعلى ديني لا يتحقق إلا بعد عودة الماشيَّح كما لا يتحقق إلا بإرادة الإله، وعلى المؤمن أن ينتظر بصبر وأناة إلى أن يأذن الإله بذلك. ولكن الصهيونية، كعادتها، فهمت الفكرة فهماً حرفيا وجعلتها أساساً لعقيدتها السياسية، وجعلت من واجب اليهودي ألا ينتظر الإرادة الإلهية بل يعمل من أجل هذا الهدف بنفسه، وهو ما يُسمَّى «التعجيل بالنهاية». وأصبحت العبارة تعني استيطان اليهود في فلسطين (إسرائيل). ورغم كل المحاولات الصهيونية الدائبة، لم يتحقق هذا الهدف حتى الآن، إذ تظل الغالبية ممن يُقال لهم المنفيون من أعضاء الشعب اليهودي لا تَشعُر بحالة النفي الافتراضية. ومن ثم، فإنهم يؤثرون البقاء في أوطانهم على العودة إلى أرض الميعاد.

التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس)

«التعجيل بالنهاية» ترجمة للعبارة العبرية «دحيكات هاكتس»، ومعناها «الضغط على الإله لإجبار الماشيَّح على المجيء»، ويُشار إلى المُعجِّلين بالنهاية على أنهم «دوحاكي هاكتس». فاليهودية الحاخامية، في أحد جوانبها، تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الإله وبالطريقة التي يقررها، وأن العودة ليست فعلاً يحدث بمشيئة البشر. وقد جاء في التلمود (سفر الكتبوت): "لا تعودوا ولا تحاولوا أن تُرغموا الإله".

وقد اتهم الحاخامات الصهيونية بأنها تسعى إلى التعجيل بالنهاية وتَحدِّي مشيئة الإله. والصهيونية نفسها واعية بأن موقفها من العودة مختلف عن الموقف الديني التقليدي الذي انتقده بن جوريون ووصفه بالسلبية والاتكالية.

الدياسبورا الإسرائيلية

«الدياسبورا الإسرائيلية» عبارة تُستخدَم للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة الذين ينزحون عن إسرائيل ويستوطنون

خارجها، في الولايات المتحدة عادةً. وهذا المُصطلَح ينطوي على تَناقُض عميق. فكلمة «دياسبورا» تشير عادةً إلى اليهود الموجودين خارج فلسطين برغم إرادتهم، ولذا فهم «مَنْفيون». ولكن أن تكون الدياسبورا إسرائيلية، أي مجموعة بشرية يهودية كانت تقطن في أرض الميعاد نفسها، في ظل الكومنولث اليهودي الثالث أي الدولة الصهيونية، وتقرر بكامل إرادتها أن تهاجر (بحثاً عن الرزق والحراك الاجتماعي غالباً)، فهذا أمر صعب، إذ كيف يمكن الحديث عن «دياسبورا» أو عن «مَنْفَى» إذا لم يكن هناك قسر؟ ويمكن أن نقول (لذلك) إن كلمة «دياسبورا» مُستخدَمة هنا بمعناها المحايد أي مجرد الانتشار.

والواقع أن الدياسبورا الإسرائيلية تتحدى نظامنا التصنيفي، فالمهاجرون الإسرائيليون ليسوا صهاينة استيطانيين بطبيعة الحال، إذ تخلَّوا عن المشروع الصهيوني. كما أنهم ليسوا صهاينة توطينيين، إذ ليس من المُحتَمل أن يقوموا بتشجيع الآخرين على الاستيطان. ومجرد وجودهم في البلد الذهبي (جولدن مدينا)، أي الولايات المتحدة، يقف دليلاً على افتقار الدولة الصهيونية للجاذبية. وهم يسببون كثيراً من الحرج ليهود الولايات المتحدة وللصهاينة التوطينيين حين يُطرَح هذا السؤال: هل من الواجب إغاثة هؤلاء اللاجئين باعتبارهم "يهوداً" أم يجب مقاطعتهم باعتبارهم مرتدين أو هابطين تركوا أرض الميعاد ونكصوا على أعقابهم؟

ويبلغ عدد أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة حوالي ٥٠٠ ألف حسب التقديرات الرسمية. وحسب التقديرات غير الرسمية، يبلغ العدد ٧٥٠ ألفاً، ولكنه يبلغ مليوناً إن حسبنا أبناء المهاجرين. وقد أشارت إحدى الصحف الإسرائيلية إلى هذه الظاهرة باعتبارها «خروج صهيون». كما ذكرت صحيفة أخرى للإسرائيليين أن عدد سكان الدولة الصهيونية (عند إنشائها في عام ١٩٤٨) كان لا يتجاوز ٧٠٠ ألف، أي أقل من عدد المهاجرين منها، وهو ما يُفقدها كثيراً من الشرعية.

انتشار الجماعات اليهودية

نحاول في هذه **الموسوعة** أن نستخدم الكلمة المحايدة «انتشار» (وأحياناً «هجرة» أو «تهجير») بدلاً من العبارات الشائعة مثل «المَنْفَى» و«الدياسبورا» و«الشتات» و«المَهْجَر»، فهي جميعاً مُصطلَحات وعبارات إما مُشتقَّة مباشرةً من المُعجم الديني اليهودي أو متأثرة به، فمقدرتها التفسيرية والتصنيفية والوصفية ضعيفة.

٦ ـ هجرات وانتشار أعضاء الجماعات اليهودية

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية (مقدمة عامة)

يُلاحَظ أننا في هذه الموسوعة لا نستخدم مُصطلَح «الهجرة اليهودية» قدر استطاعتنا وإنما نستخدم بدلاً من ذلك مُصطلَح «هجرة أعضاء الجماعات اليهودية»، فالمُصطلَح الأول يعني أن ثمة حركيات مستقلة ذات طابع يهودي هي التي تحكم عملية الهجرة وتدفعها. ونحن نذهب إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة خاضعون لحركيات جذب وطرد لا تختلف كثيراً عما يخضع له سائر أعضاء المجتمع الذي ينتمون إليه. كما أننا نستخدم مُصطلَح «انتشار» لنَصف ظاهرة هجرة أعضاء الجماعات واستقرارهم في أرجاء المعمورة. ويُلاحَظ أننا نميِّز بين الاستقرار والاستيطان، فالأول لا ينطوي على أي عنف أو اغتصاب أرض، أما الثاني فهو على عكس ذلك.

الاستقرار

«الاستقرار» أن يهاجر شخص من بلده نتيجة ظروف موضوعية (عوامل طَرد في الوطن الأصلي) أو ذاتية (رغبة في الحراك الاجتماعي) فيحمل متاعه ويذهب إلى بلد آخر يوافق على هجرته أو يرحب به. ويتم ذلك عادةً في إطار قانوني. ومن ثَمَّ، فإن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية من أوربا إلى الولايات المتحدة عملية استقرار في الوطن الجديد. و«الاستقرار»، بطبيعة الحال، غير «الاستيطان». وفي اللغة الإنجليزية لا يُوجَد سوى كلمة واحدة «ستلمنت settlement» للتعبير عن المعنيين المختلفين.

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية حتى العصر الحديث

ينتقل بعض أعضاء الجماعات اليهودية من وطن إلى آخر بحثاً عن الرزق ولتحسين المستوى المعيشي بصفة عامة، أو لأسباب أخرى مثل التهجير والطرد أو الاضطهاد أحياناً. وإن قبلنا الرأي القائل بأن الخابيرو الذين ورد اسمهم في لوحات تل العمارنة هم العبرانيون، فإن أول إشارة إليهم كانت باعتبارهم شعباً متجولاً. وقد اتسمت حياة العبرانيين في عصر الآباء (منذ عام ٢٠٠٠ ق. م) بالتنقل كبدو من بلد إلى آخر والبقاء على حواف المدن أو على طُرُق التجارة. وفي هذه المرحلة، استوطنت بعض العناصر العبرانية أرض كنعان وفي مصر دون أن تضرب جذوراً في أي منهما. وقد خرج العبرانيون من مصر أو هاجروا منها (عام ١٦٤٥ ق. م) ليبدأوا فترة أخرى من التجوال في سيناء انتهت بالتغلغل العبراني في كنعان (عام ١١٨٩ ق. م) الذي أعقبته فترة من

الاستقرار النسبي بعد قيام اتحاد القبائل العبرانية في شكل المملكة العبرانية المتحدة ثم المملكتين العبرانيتين: المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية. وقد انتهت هذه المرحلة بالتهجير الآشوري ثم التهجير البابلي.

وبعد هذه المرحلة، ينتهي التهجير ليبدأ اليهود في الانتشار في بقاع الأرض بوصفهم جماعات يهودية لا يربطها رابط سوى الانتماء إلى العقيدة الدينية الإثنية نفسها. وتبدأ هذه المرحلة حين فضلت أعداد كبيرة من اليهود الاستمرار في بابل مُكوِّنةً بذلك نواة أول جماعة يهودية تستقر خارج فلسطين بعد مرحلة التهجير البابلي. ومن الممكن أيضاً الإشارة إلي الجماعة الصغيرة في جزيرة إلفنتاين التي كانت تشكل حامية عسكرية تحمي حدود مصر الجنوبية.

ثم قامت الإمبراطورية اليونانية بفرض هيمنتها على أجزاء كبيرة من البحر الأبيض والشرق الأدنى القديم (٣٣٢ ق. م)، وهو ما يسَّر عملية انتقال اليهود وانتشارهم، فاستقرت أعداد كبيرة منهم (كجماعات وظيفية استيطانية وقتالية ومالية) في مصر، وفي الإسكندرية على وجه الخصوص. كما استقروا في برقة وقبرص وآسيا الصغرى. وقد بدأ الانتشار في أوربا الغربية في تلك المرحلة أيضاً.

وحين قضى الرومان على فلسطين كإحدى نقاط تَجمُّع الجماعات اليهودية وأحد مراكزها، وحتى حين هدم تيتوس الهيكل (عام ٧٠م)، لم يؤثر ذلك كثيراً في حركة تَدفُّق اليهود أو في شكلها، إذ بدأت على أية حال قبل ذلك التاريخ، حيث استمر تَدفُّق اليهود خارج فلسطين إلى مختلف البلدان، خصوصاً إلى أوربا وحوض البحر الأبيض المتوسط. ويُقال إن هجرة اليهود إلى الجزيرة العربية تعود إلى هذه الفترة أو بعدها، وقد تم طَرْد اليهود منها مع ظهور الإسلام، ولكن يبدو أن أعداداً كبيرة لم تغادرها. كما أن الجماعة اليهودية في اليمن لم تتأثر بقرار الطرد، فبقيت أعداد منها واستمر وجودها حتى العصر الحديث. وفي أوائل القرن العشرين قام المستوطنون الصهاينة بتوطين عدد من يهود اليمن في فلسطين لسد حاجتهم إلى العمالة، ثم هاجرت أغلبيتهم عام ١٩٤٨ إلى فلسطين، ولا تزال توجد بقايا من هذه الأقلية في صعدا وغيرها من المناطق.

وقد شهدت بداية العصور الوسطى في الغرب (القرن الرابع الميلادي) شيئاً من الاستقرار النسبي بالنسبة إلى الجماعات اليهودية في الغرب المسيحي ثم في الشرق الإسلامي بسبب استقرار الأحوال السياسية والاقتصادية فيها. وبدأ نمط الهجرة في هذه الفترة يتضح، أي الهجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة؛ وكانت أوربا من أكثر المناطق تخلفاً في العالم آنذاك. وكانت توجد ثلاثة خطوط أساسية للهجرة إلى أوربا: من فلسطين إلى جنوب إيطاليا ومنها عَبْر جبال الألب إلى فرنسا وألمانيا، ومن الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) عَبْر وادي الدانوب إلى وسط أوربا، ومن العراق ومصر عَبْر المغرب إلى إسبانيا. وهكذا انتقلت الكثافة السكانية اليهودية (بين عامي ٥٠٠ ق. م -١٠٠٠م) من الشرق الأوسط إلى أوربا.

ورغم أن نمط الهجرة إلى البلاد الأكثر تخلفاً هو النمط السائد؛ إلا أنه ليس النمط الوحيد، فمع تدهور الخلافة العباسية في القرن العاشر، هاجرت كذلك أعداد من اليهود المقيمين في العراق إلى الهند والصين. ولذا، قد يكون من الأفضل أن نقول إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تتجه حيث توجد فرص أكبر لممارسة نشاطهم الاقتصادي، وأحياناً تتيح البلاد المتخلفة هذه الفرصة لهم أكثر من البلاد المتقدمة، خصوصاً حين تبدأ هذه البلاد في التآكُل والانهيار ويصبح غياب الاستقرار سمة أساسية فيها.

ومع إرهاصات التحول التجاري الرأسمالي في المجتمع الغربي في القرن الحادي عشر، ومع ظهور طبقات من التجار والمموِّلين المسيحيين، تم طَرْد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩٠ (ويُقال إن عددهم كان لا يتجاوز أربعة آلاف)، كما طُردوا من فرنسا عامي ١٣٠٦ و١٣٩٤، فاستقروا في بادئ الأمر في ألمانيا وإيطاليا وشبه جزيرة أيبريا، ولكنهم طُردوا أيضاً من إسبانيا عام ١٤٩٢ ثم من البرتغال، فهاجروا أساساً إلى شمال أفريقيا وإيطاليا وصقلية. كما هاجرت أعداد كبيرة (نصفهم كما يُقال) إلى الإمبراطورية العثمانية التي كانت تشجع اليهود على الهجرة إليها لتنشيط التجارة. ولقد تدخلت الدول الغربية لمنع هجرة اليهود منها خشية أن يؤدي ذلك إلى انهيار النظام المصرفي والمالي والتجاري، الذي كان اليهود يلعبون فيه دوراً أساسياً. وشهدت هذه الفترة سقوط مملكة الخزر اليهودية في القرن العاشر حيث هاجر سكانها إلى المجر ثم بولندا.

ومع أواخر العصور الوسطى، بدأت الإمارات الألمانية في طرد أعضاء الجماعات اليهودية. وقد ساهمت حملات الفرنجة، وهي تعبير عن إرهاصات التحول التجاري الرأسمالي، في اجتثاث جذور أعضاء الجماعات في وادي الراين وغيره من المناطق، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى بولندا. ومعنى هذا، أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع نهايات العصور الوسطى (ابتداءً من القرن الرابع عشر) تأخذ مرة أخرى شكل هجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة نسبياً؛ من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا إلى ألمانيا ومنها إلى بولندا، أي أنها هجرة إلى الماضي. وكان شرق أوربا الجهة الأخيرة تقريباً بالنسبة إلى أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يُطردون من البلاد المتقدمة نتيجة ظهور طبقات تجار محليين مسيحيين، إذ لم تَعُد هناك جيوب متخلفة أخرى يستطيع اليهود التقهقر إليها في الغرب.

وتجب الإشارة إلى أن الهجرة كانت تتم في هذه المرحلة بالتدريج وببطء شديد نتيجة عدم وجود وسائل مواصلات سريعة وطرق ميسرة كما هو الحال في العصر الحديث. وكثيراً ما كان اليهود المحليون يتصدون لليهود الوافدين لأنهم يشكلون خطورة اقتصادية عليهم، فكانوا يمارسون حق حظر الاستيطان، كما كان يهود البلاط يمنعون هجرة أي يهودي إلى المنطقة التي يتولون قيادتها.

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث

تغيَّر اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة في أوربا لثلاثة أسباب هي: اهتزاز الأساس الاقتصادي والسياسي لليهود الإشكناز في بولندا، وفَتْح أبواب الهجرة إلى أوربا الغربية، ودخول الدولة العثمانية طور الجمود، فظهور النمط الحديث للهجرة، أي هجرة اليهود من البلاد المتخلفة في شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة في وسطها وغربها وإلى العالم الجديد. والهجرة اليهودية في العصر الحديث هي أساساً جزء من حركة الاستعمار الاستيطاني التي بدأت في القرن السادس عشر، خصوصاً التشكيل الأنجلو ساكسوني (بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الإسباني ثم الهولندي). وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام. ومع هذا، ظلت الولايات المتحدة نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن.

ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما: شرق أوربا (روسيا/ بولندا) كقوة طاردة ومُصدِّر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كقوة جاذبة. وقد كان النمط الأساسي القديم للهجرة اليهودية هو تَحرُّك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبراطوريات الكبرى (الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية)، أما في القرن العشرين فكانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية، وتَطوَّر الأمر بعض الشيء بعد ذلك في منتصف القرن العشرين.

ويمكن تقسيم هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث إلى المراحل التالية:

أ) المرحلة الأولى: ابتداءً من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر.

وهي مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية في أوربا. وهي الفترة التي شهدت توطين السفارد من يهود المارانو في هولندا وفرنسا وإنجلترا، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية إلى العالم الجديد. وكانت الهجرة تتبع النمط التالي: تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد (عادةً من كبار المموِّلين وعائلاتهم) ثم يلحق بهم أعداد ضخمة من الإشكناز، كما حدث في أمستردام بعد استقلالها عن إسبانيا، وكما حدث في إنجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا. وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في أمستردام من ٢٠٠ سفاردي عام ١٦٩٠ إلى ٢٤٠٠ سفاردي و٢١ ألف إشكنازي عام ١٧٩٥. أما لندن، فكان يوجد فيها عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفارديا و٢٠٣ من الإشكناز. ومع حلول عام ١٧٢٠، زاد عدد الإشكناز عن عدد السفارد. وفي عام ١٨٠٠، كان يوجد ألفا سفاردي وحسب بين العشرين ألف يهودي. ولم يستوطن فلسطين أي عدد يذكر من اليهود في تلك المرحلة.

ب) المرحلة الثانية: من بداية القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠.

وهي المرحلة التي وقعت فيها الحروب النابليونية والاضطرابات السياسية التي أعقبتها، الأمر الذي تَسبَّب في هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها. ولم يزد عدد المهاجرين اليهود إلى خارج القارة الأوربية على ٢٠٠,٠٠٠. ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب، من بينها أن الانفجار السكاني الذي حدث بين يهود اليديشية في شرق أوربا، وأدَّى إلى تَزايُد أعدادهم بين عامي ١٨٠٠ و١٩٣٣ بنحو ستة أضعاف، لم يكن قد ظهر أثره بعد، كما أنه وصل إلى ذروته بعد عام ١٨٨٠. وفضلاً عن ذلك، كان معظم يهود العالم مُركَّزين في شرق أوربا وروسيا وبولندا التي كان قد تم ضمها إلى روسيا. ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد، الأمر الذي كان يعني أنهم لا يزالون جماعة متماسكة تَصعُب الحركة على أعضائها، كما كان كثير من اليهود لا يزالون يلعبون دورهم الاقتصادي التقليدي كجماعة وظيفية. وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة في روسيا، وتركت تلك العملية أثرها في الجماعة اليهودية التي بدأت تفقد شيئاً من تماسكها وبدأ يختفي كثير من مؤسساتها التقليدية التي تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين، فإن هذا لم يتسبب في أية هجرة خارج أوربا إذ لم تكن محاولات التحديث في الإمبراطورية الروسية قد تعثرت بعد، وكان الاقتصاد الروسي قادراً على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية. ولذا، فكانت هجرة اليهود داخلية؛ من المناطق الكثيفة سكانيا في منطقة الاستيطان إلى روسيا الجديدة على شواطئ البحر الأسود. كما هاجرت أعداد صغيرة إلى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة.

جـ) المرحلة الثالثة: من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩.

وهي مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية، وبدأت عام ١٨٨١ مع تَعثُّر التحديث في روسيا وتزايُد العنصرية في كل أوربا، وانتهت عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤ التي حدَّت من هجرة يهود شرق أوربا، ثم الكساد الاقتصادي وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماماً.

ووفقاً لإحصاءات **الموسوعة اليهودية**، بلغ عدد المهاجرين في هذه الفترة أربعة ملايين، في حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك. كما شارك اليهود في حركة الهجرة من القرية إلى المدينة، فزاد عدد يهود فيينا (بلدة تيودور هرتزل مؤسِّس الحركة الصهيونية)، على سبيل المثال، من ستة آلاف في عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفاً في عام ١٨٩٠، وإلى ١٧٥ ألفاً عام ١٩١٠، وهي زيادة تمت أساساً عن طريق الهجرة حيث إن معدلات الزيادة الطبيعية كانت آخذة آنذاك في التناقص.

وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة في هذه الفترة تَعثُّر محاولات التحديث في روسيا ثم تَوقُّفها تقريباً، وهو ما انعكس في شكل الاضطهاد الروسي القيصري ضد جميع الأقليات في الإمبراطورية. ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثاً عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعي، وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية. وكانت الأغلبية العظمى من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية، ويهود روسيا على وجه الخصوص، حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠٪ و٨٠٪ من جملة يهود العالم، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين، وهو ما يعني أن نصفهم تقريباً، كان في حالة حركة وهجرة وانتقال في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين. وهذه نسبة عالية جدا ولا شك في أنها أسهمت في تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر.

وإذا كانت روسيا نقطة الطرد الكبرى، فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدُّمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه. وفي هذه الفترة، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية في أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة التي لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية. وقد استوعبت الولايات المتحدة نحو ٨٥٪ من المهاجرين اليهود بل استوعبت النسبة نفسها تقريباً من جملة المهاجرين في العالم. ولا توجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداءً من عام ١٨٩٩.

وقد هاجر من روسيا خلال ستة عشر عاماً (١٨٩٩ ـ ١٩١٤) نحو مليون ونصف المليون يهودي. ويُعَدُّ عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة. ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنويا ٩٣ ألفاً، وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين في الولايات المتحدة بشكل دائم، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨٪ مقابل ٣٠,٧٦٪ من بقية الجماعات المهاجرة. ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضاً. وقد توقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن أبوابها فُتحت مرة أخرى عام ١٩١٤. وكان عدد المهاجرين في البداية ضئيلاً ثم أخذ في الازدياد إلى أن وصل إلى الذروة في عام ١٩٢١ ثم انخفض في أعوام ١٩٢٢ و١٩٢٣ و١٩٢٤ بسبب نظام النصاب.

ولنا أن نُلاحظ أن هذه الفترة الثانية هي فترة ظهور الصهيونية ونشاطها أيضاً. ولابد أن ندرك أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق للدول الغربية، لخوفها على أمنها الداخلي؛ وليهود الغرب المندمجين الذين كان وصول يهود الشرق يهدِّد مكانتهم الاجتماعية.

ونُلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان في بداية الفترة ١,٨٠٦، وبلغ ٨,١٧٥ عام ١٩٢٣، أي بعد فتح أبواب الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية، ثم قفز العدد إلى ١٣,٨٩٢ عام ١٩٢٤. وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية، وهو ما أدَّى إلى خوف كثير من الدول من الأيدي العاملة المهاجرة لأنها قد تؤدي إلى تفاقم ظروف البطالة فيها، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بالقدر الذي تسمح به مقدرتها الاستيعابية، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا وأستراليا. وقد أدَّى تَصاعُد المقاومة العربية في فلسطين إلى الحد من الهجرة الاستيطانية، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة. ولعل أكبر مَثَل على محاولة الدول الغربية الحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التي أصدرت أولاً قانون النصاب عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون عام ١٩٢٤، حيث لم يكن يُسمَح ـ بحسب هذا القانون ـ إلا بهجرة ما يساوي نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش في الولايات المتحدة وَفْقَ إحصاء عام ١٨٩٠. وقد عُرِّفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الانتماء الديني أو الإثني. وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠,٣٤١ مقابل نحو ٥٠ ألفاً عام ١٩٢٤ و١٥٣,٧٤٨ عام ١٩٠٦.

وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من جملة المهاجرين اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤، انخفضت النسبة إلى ٢٥٪ في الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠، وأغلق كثير من البلاد أبوابه. وكما يقول روبين، أصبحت معظم البلاد مُغلَقة أمام المهاجرين عام ١٩٣٣، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المُستعمَرة)، بمعنى أن الدول الغربية أوجدت صهيونية بنيوية أي بنية قانونية وظروفاً موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا. وبالفعل، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ عام ١٩٣١ إلى ١٢,٥٥٣ عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧,٣٣٧ عام ١٩٣٣. ولذا، يمكننا القول بأن عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذي حدَّد مسار الهجرة. ومع هذا، يُلاحَظ أن الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحاً، هاجر إليها ٧٢,٣٨٧ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ١٧٢,٩٠٨ (أي ٤٢٪) ولم يهاجر في الفترة نفسها سوى ١٠,١٧٩ إلى فلسطين.

ورغم تَبَاكي الدول الغربية على مصير اليهود، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم. كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقاً من العقيدة الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود في فلسطين وفلسطين فقط. ومن هنا، كانت جهود الصهاينة المكثفة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورَفْض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخَلْق ما سميناه «الصهيونية البنيوية». وفي الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨، وهي الفترة التي يمكن أن تُسمَّى المرحلة النازية، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا النازية والبلاد التي يهيمن عليها النازيون، والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفاً، بخلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجَّرهم الاتحاد السوفيتي إبان الحرب لإنقاذهم، وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفيتي فراراً من النازي. وقد هاجر ٢٥٠ ألفاً (أي ٤٦٪) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفاً إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١١٠ آلاف (أي ٢٠٪). وهاجر في الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودي، منهم ١٢٠ ألفاً (أي ٤٠٪) إلى فلسطين. والباقون، وهم ١٨٠ ألفاً (أي ٦٠٪)، هاجروا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١٢٥ ألفاً (أي ٤٢٪). وهكذا أصبحت الولايات المتحدة، مرة أخرى، بلد الجذب الأكثر، حتى أثناء سني الحرب والإبادة النازية. ويمكننا أن نقول إن المُستوطَن الصهيوني لم يشكل ملجأً ليهود أوربا، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفيتي) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٣٧٠ ألفاً. أي أن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين رغم شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها.

وكل هذه الإحصاءات تبيِّن أن فلسطين ليست نقطة الجذب لليهود كما تدَّعي الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تُحرز نجاحاً فيما كانت تهدف إليه. ويُلاحَظ أن جميع البلاد التي يهاجر إليها اليهود هي بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض. ومن ثَمَّ، فإن الهجرة اليهودية ليست ظاهرة يهودية بمقدار ما هي جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية.

د) المرحلة الرابعة: منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر.

وبانتهاء الأربعينيات، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى موجودة في الولايات المتحدة، مع وجود كتلة أخرى في أوربا آخذة في التناقص، ومع وجود أقليات متناثرة في أنحاء العالم. وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية في فلسطين، فأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين)، وكلاهما بلد استيطاني يستطيع المهاجر اليهودي أن يحقق فيه الحراك الاجتماعي الذي فشل في تحقيقه في بلده. ومع هذا، تشكل دول أخرى مثل أستراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة لبعض المهاجرين اليهود.

ويمكن أن نضيف بُعداً آخر يساعد على اتجاه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين)، ألا وهو ميراث الجماعات اليهودية الاقتصادي كجماعة وظيفية تَركَّز أعضاؤها في قطاعات المال والتجارة. والواقع أن هذا يعني تأثرهم السلبي بالثورات القومية أو الاشتراكية التي تستولي على هذه القطاعات فتؤممها، أو تحاول صبغها بصبغة قومية، أو تتدخل فيها بما يُقلِّل فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية. ويمكننا في واقع الأمر أن نفسِّر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين (الحراك الاجتماعي وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسي من بلاد الاقتصاد الاشتراكي والفقر والثورات القومية الاشتراكية.

فمثلاً يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتي على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتي بالنظام الاشتراكي الذي يضيِّق الخناق على القطاع التجاري. وفي الإطار نفسه يمكن تفسير الظاهرة

التي تُسمَّى في المُصطلَح الصهيوني «التَّساقُط»، أي خروج اليهود من الاتحاد السوفيتي بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد آخر هو الولايات المتحدة في العادة. فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعي، في حين لا تشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة إليهم. وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسطاً من الحراك الاجتماعي، خصوصاً وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية، بينما نجد أن نسبة التَساقُط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠٪ لأن مستواهم المعيشي مرتفع.

وبعد الانتفاضة الفلسطينية، التي بدَّدت الاستقرار السياسي، وصلت نسبة التساقُط بين اليهود السوفييت إلى ٩٠٪ من جملة المهاجرين. ومع هذا، أدَّى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتي واستيطانهم في فلسطين. ولكنهم، على أية حال، يذهبون إلى إسرائيل بنيَّة التوجه إلى بلد آخر يحقق لهم طموحهم في الحراك الاجتماعي، وذلك عندما تسنح الفرصة.

وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية في الخمسينيات إلى مركب من الأسباب؛ منها قيام الدولة الصهيونية وما خلقته من مشاكل لليهود العرب، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية. ومما لا شك فيه أن التحول البنيوي الذي خاضته بعض المجتمعات العربية، مثل المجتمعين المصري والسوري، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة، ساهما بشكل عميق في عملية خروج اليهود، التي لا يمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم. وإلى جانب هذا، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطاً من الحراك الاجتماعي باعتبار أن المستوى المعيشي في البلاد العربية أقل منه في إسرائيل. كما أن يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة في الولايات المتحدة. ويُلاحَظ أن عدداً كبيراً من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشي المرتفع الذي يفوق نظيره في إسرائيل التي تتميَّز باقتصاد متقدم ومن ثَمَّ تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم. ومن ناحية أخرى، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة، فهاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب.

ويُلاحَظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لا يهاجرون إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيري، وإن كان يُلاحَظ أن يهود إنجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة، ربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية في إنجلترا، فهي بلد ذات مستقبل اقتصادي مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة.

بل يُلاحَظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة، شكلت ما يُسمَّى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها في بعض الإحصاءات نصف مليون منهم عدد كبير من جيل الصابرا.

ويمكن القول إن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية آخذة في النضوب، فأعضاء أكبر جماعة يهودية في العالم (في الولايات المتحدة) لا يهاجرون، ويهود العالم الغربي إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة. ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم النمط نفسه. وقد تمت تصفية يهود العالم الشرقي والإسلامي، فلم يبق سوى أفراد قلائل. وتُساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط، وكذلك عزوف اليهود عن الإنجاب، في تَناقُص عدد اليهود الكلي، وبالتالي تَناقُص عدد المهاجرين المحتمل، وهو ما يعني أن الوقود البشري للكيان الصهيوني لم يَعُد متوافراً بالكثافة نفسها. ولم يبق سوى الاحتياطي البشري الوحيد للكيان الصهيوني في الاتحاد السوفيتي. إلا أن خروج اليهود السوفييت وتَوجُّههم إلى إسرائيل يخضع للنمط نفسه الذي اقترحناه: شرق أوربا مصدر المادة البشرية، والولايات المتحدة مستورد لها. ولكن، كما أسلفنا، أدَّى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية، وإغلاق باب الهجرة إلى أمريكا، إلى تحويل هذه الأعداد إلى إسرائيل.

ولابد من التفرقة بين الهجرة والتهجير؛ فالهجرة طوعية أما التهجير فهو قسري. ويمكن رؤية الحركة الصهيونية باعتبارها حركة تقف في وجه الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة وتحاول تهجير اليهود من كل أنحاء العالم إلى إسرائيل.

انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وعلاقتهم بفلسطين

يدَّعي الصهاينة أن فلسطين التي يُطلقون عليها مُصطلَح «إرتس يسرائيل» أو «أرض الميعاد»، أو ما شابه ذلك من مُصطلَحات دينية أخرى، مركز الوجدان اليهودي، وأنها النقطة التي يتجه إليها اليهود معنويا حينما يعجزون عن الاستيطان فيها، وهي الأرض التي «يعودون» إليها فعليا وبمحض إرادتهم من «المَنْفَى» أو «الشتات»

حينما تُفتَح أبوابها لهم. ويحاول الصهاينة أن يجدوا تبريراً دينيا أو عرْقيا أو إثنيا لرؤيتهم هذه. كما يقدِّمون رؤية للتاريخ تساند هذه الرؤية، ولذلك فإنهم يجتزئون من الوقائع والحقائق ما يدعم رؤيتهم ويستبعدون ما عدا ذلك.

وإذا نظرنا إلى الرؤية الصهيونية من الناحية الدينية، لوجدنا أنها تتعارض مع واحد من أهم التيارات داخل اليهودية الحاخامية، التي تُحرِّم على اليهودي أن يعود إلى صهيون (فلسطين)، إذ إن عليه الانتظار حتى يأذن الرب له بذلك، وأية محاولة للعودة هي بمنزلة الهرطقة والتعجيل بالنهاية. ولذلك، فلا يوجد في يهودية العصور الوسطى، أي في معظم التاريخ الديني لليهودية، أي حديث عن العودة إلا باعتبارها حدثاً دينيا يتم بمشيئة الرب. ومع هذا، يجب أن نشير إلى أن اليهودية، بوصفها تركيباً جيولوجيا، تحوي تياراً حلوليا قويا يشجع على العودة الفعلية. وإذا كانت هناك نزعة صهيونية في النسق الديني اليهودي، فهي نزعة كامنة مع عديد من النزعات الأخرى.

هذا من الناحية الدينية. أما من الناحية التاريخية، فالأمر أكثر تحدُّداً وتعيُّناً، إذ يدل تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية على أن المسرح الذي دارت فيه أحداث هذه التواريخ لم يكن فلسطين، باستثناء فترة قصيرة جداً. وحتى حينما كان يوجد في فلسطين حكم يهودي مستقل، لم تكن فلسطين دائماً مركزهم وإطارهم المرجعي، إذ كان لكل جماعة حركياتها المستقلة وتوجهاتها التي يُحتِّمها عليها وضعها الاجتماعي والثقافي المرتبط بوضع البلد الذي توجد فيه. ولذا، يمكن أن نقول إن الحقيقة الأساسية في تواريخ الجماعات اليهودية هي انتشارها في كل أنحاء الأرض وليس تَمركُزها في فلسطين. والقراءة الصهيونية لتواريخ الجماعات اليهودية، التي ترى أن اليهود تم تشتيتهم قسراً من فلسطين، وأنهم لو تُركوا وشأنهم لعادوا تلقائيا وبشكل طوعي إليها، قراءة متحيِّزة ومغلوطة. فتاريخ العبرانيين في بداياته السديمية يبدأ بهجرة إبراهيم من أور إلى أرض كنعان ومنها إلى مصر. كما هاجر يعقوب ويوسف فيما بعد إلى مصر أيضاً. والهجرة من مكان إلى آخر نمط أساسي في حياة العبرانيين في فترة الآباء (٢٠٠٠ ق. م) التي تنتهي بالـ «خروج»، أي هجرة موسى وقومه من مصر. وقد آثر بعضهم، بحسب الرواية التوراتية، الاستمرار في الحياة بمصر، فخرج مع موسى «اللفيف»، أي مجموعات عرْقية أخرى غير عبرية وغير متجانسة. وبعد التسلل العبراني إلى أرض كنعان، وبعد اتحاد القبائل العبرانية فيما يعرف باسم «المملكة العبرانية المتحدة» التي انقسمت إلى المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية، تم تهجير أعداد كبيرة من العبرانيين إلى آشور (٧٢٠ ق. م) ثم إلى بابل (٥٨٠ ق. م). ولكن أغلبيتهم العظمى آثرت البقاء خارج فلسطين، حتى بعد أن أصدر قورش الأخميني مرسومه الذي سمح بعودة اليهود إلى فلسطين، ولكن يبدو أن الفقراء فقط هم الذين عادوا. كما كانت هناك فرقة المرتزقة اليهود في جزيرة إلفنتاين التي استمرت في وجودها على حدود مصر الجنوبية.

ورغم إعادة بناء الهيكل وقيام السلطة الكهنوتية في فلسطين، تحت رعاية الفرس أول الأمر ثم اليونانيين بعد ذلك، حدثت هجرة يهودية طوعية كبيرة من فلسطين في عهد البطالمة، وقد استعان هؤلاء بالجنود اليهود المرتزقة الذين استقروا في مصر مع أُسَرهم. كما هاجرت إلى مصر أعداد أخرى من اليهود لأسباب اقتصادية، فكان منهم الفقراء والأغنياء والفلاحون والرعاة والجنود المرتزقة والقادة العسكريون. وقد أسَّس البطالمة مستعمرات في برقة كان يوجد فيها يهود. كما ظهرت جماعات من اليهود في مدن آسيا الصغرى بعد أن استولى السلوقيون على فلسطين بعد عام ٢٠٠ ق. م، فقام أنطيوخوس الثالث بنقل عدة آلاف من الجنود اليهود (هم وأُسَرهم) من بابل إلى آسيا الصغرى. وكانت توجد جماعات يهودية في اليونان ومقدونيا على شواطئ البحر الأسود والبلقان وبلغاريا وأرمينيا وقبرص وقرطاجة وبرقة. ويُلاحَظ أن قيام الأسرة الحشمونية اليهودية في فلسطين، التي تمتعت بقدر من الاستقلال السياسي في بعض مراحلها، لم يُغيِّر هذه الصورة العامة لانتشار أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين.

وحينما ظهرت روما بوصفها قوة عظمى وفرضت إطاراً سياسيا مُوحَّداً على منطقة البحر الأبيض المتوسط، يسَّر ذلك انتشار اليهود فظهروا أولاً عبيداً في العاصمة، ثم هاجرت أعداد منهم وأصبحت مدن جنوب إيطاليا مراكز يهودية مهمة. وكانت توجد جماعات يهودية في الغال (فرنسا)، وفي المدن الرومانية العسكرية على نهر الراين.

وكانت الإسكندرية تضم جماعة يهودية كبيرة (في العصر الهيليني ثم الروماني) تتحدث أغلبية أعضائها اليونانية أو اللاتينية. كما كانت أسماؤهم والنقوش التي على قبورهم يونانية ولاتينية في الغالب، عبرية في النادر. أما وثائق الزواج والدفن الخاصة بهم، فلم تكن تختلف عن الوثائق الخاصة ببقية المواطنين. وكان ليهود مصر هيكلهم الخاص في لينتوبوليس، حيث كانت جماعتهم الدينية والفكرية مستقلة إلى حدٍّ كبير عن هيكل فلسطين، ولذا استمرت

هذه الجماعات اليهودية في حياتها الدينية والثقافية المستقلة بعد هدم هذا الهيكل. وربما كان أكبر دليل على أن الإسكندرية كانت مركز جذب أقوى من فلسطين ذاتها أنه حينما وقعت فيها بعض الاشتباكات بين اليهود والمواطنين الهيلينيين، أصدر الإمبراطور الروماني قراراً يحذر فيه اليهود من تشجيع هجرة إخوانهم من فلسطين.

واستمر انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم بعد ضمور واختفاء المركز الديني في فلسطين. وكان لهذا الانتشار أعمق الأثر في تمايز اليهود وظيفيا واقتصاديا وتَحوُّلهم إلى جماعة أو جماعات وظيفية تضطلع بوظائف التجارة والربا. ويمكننا أن نضيف أن علاقة الانتشار بعملية تَحوُّل اليهود إلى جماعات وظيفية علاقة سبب ونتيجة في آن واحد. فالانتشار ساهم ـ ولا شك ـ في تَحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات تجارية ومالية وسيطة، ذلك أن الوظائف التجارية والمالية وظائف يضطلع بها الوافدون الجدد دائماً. وقد كوَّنت الجماعات اليهودية الوظيفية شبكة تجارية عالمية ضخمة في العالمين الإسلامي والمسيحي، وكانت لهم مراكز في الغرب (في إسبانيا وغيرها من الدول)، وفي معظم ربوع العالم الإسلامي. ولكن تَحوُّلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة زاد بدوره عملية الانتشار ودعمها وكرَّسها ووسع نطاقها.

ومثلما اتجهت الجماعات اليهودية إلى أنحاء العالم كافةً، اتجهت بعض جماعات من اليهود إلى الهند والصين واستقرت فيها. وظل هذا الوضع من الانتشار قائماً خلال العصور الوسطى في الغرب، فلا نسمع عن أية محاولات يهودية للعودة إلى فلسطين. ومع طَرْد اليهود من إسبانيا، وجد يهود المارانو ملجأ لهم في الإمبراطورية العثمانية، وفي بعض الدول الأوربية مثل هولندا. وكان اليهود من رعايا السلطان العثماني يتمتعون بحرية الهجرة إلى فلسطين أو منها، إلا أن اللاجئين الأوربيين والرعايا اليهود كانوا ينجذبون إلى إستنبول والقاهرة ودمشق وغير ذلك من حواضر الإمبراطورية التي كانت تتمتع بأوضاع أفضل اقتصاديا وسياسيا بالمقارنة مع فلسطين. أما بالنسبة ليهود الخزر، فاتجهوا نحو شرق أوربا (إلى المجر فبولندا)، وذلك بعد تحطيم إمبراطوريتهم الصغيرة على يد الروس أولاً ثم المغول في القرن الثاني عشر، ولا نعرف أية جماعة منهم اتجهت إلى فلسطين.

ومع عصر النهضة والاكتشافات والاستعمار الغربي والإصلاح الديني، بدأت في أوربا المسيحية إرهاصات الفكر الاسترجاعي؛ أي إعادة توطين اليهود في فلسطين باعتبار أن عودتهم تمهيد لعودة المسيح. ولكن هذا الفكر لم يؤثر في الجماعات اليهودية في بادئ الأمر، سواء في الشرق أو في الغرب، بل ظل تفكيراً مسيحيا بروتستانتيا بالدرجة الأولى. ولا نسمع عن دعوات يهودية للعودة إلى فلسطين والاستيطان فيها إلا مع الانفجارات المشيحانية مثل حركة الماشيِّح اليهودي الدجال شبتاي تسفي في القرن السابع عشر، وانفجارات وقف ضدها حاخامات اليهود. ويظهر الفكر الصهيوني اليهودي لأول مرة، في منتصف القرن التاسع عشر، مع انتشار الفكر القومي والعنصري والإمبريالي. ولكن، حتى بعد أن ظهرت الحركة الصهيونية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر، عارضتها جميع المنظمات اليهودية المعروفة في ذلك الوقت، ولم تتمكن من عقد مؤتمرها في ميونيخ حيث وُجدت واحدة من أكبر الجماعات اليهودية وبسبب احتجاج حاخاماتها، اضطرت إلى نقله إلى بازل حيث كانت هناك جماعة صغيرة بلا أهمية تُذكَر.

لكل ما تَقدَّم، يصبح من العسير الحديث عن «نفي» اليهود أو عن تَطلُّعهم الدائم للهجرة إلى فلسطين، فحركة انتشارهم في العالم لا يمكن تفسيرها في إطار مركز جذب صهيوني في فلسطين، مقابل أطراف هامشية في كل أنحاء العالم. ولمحاولة فهمها بعيداً عن التحيزات الصهيونية العميقة المسبقة، سنحاول أن نرصد بعض الآليات التي تشجع على الانتشار وتساهم فيه وتُيسِّره. ويمكننا أن نقول أولاً إن انتشار أعضاء الجماعات اليهودية مرتبط أساساً بالإمبراطوريات العظمى التي توفر شبكة المواصلات والإطار القانوني الموحَّد، وهما تعبير عن رغبة الإمبراطورية في تشجيع التجارة. وقد تأسَّست الجماعة اليهودية في بابل في إطار الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية، واتسعت دائرة الانتشار مع الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية. وحدث الشيء نفسه مع الدولة الإسلامية ثم العثمانية. وقد كانت بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط الساحة الأساسية لانتشار الجماعات اليهودية، وظلت مراكز اليهود الأساسية فيه هي: روما وإسبانيا والمغرب والدولة العثمانية وسالونيكا وإيطاليا وفرنسا. أما الجماعات التي وجدت في الصين والهند وإثيوبيا والجزيرة العربية، فهي جماعات صغيرة ليست ذات أهمية كبيرة.

وقد ظل هذا النمط الأساسي إلى أن استقر اليهود في شرق أوربا وحدث الانفجار السكاني بين يهود اليديشية في القرن التاسع عشر، بحيث أصبحت أغلبية يهود العالم توجد داخل إطار الإمبراطورية الروسية التي كانت إمبراطورية تعاني تَعثُّر التحديث. ومن ثَمَّ فإنها لم تحقق لأعضاء الجماعات اليهودية وغيرها من

الجماعات ما كانوا يطمحون إليه من حراك اجتماعي، كما أنها لم تكن تشجع المواطنين على الحركة. وكان الاستثناء الوحيد تشجيع اليهود على الاستيطان في روسيا الجديدة على ساحل البحر الأسود. ومن هنا كانت أكبر حركات انتشار اليهود في التاريخ انتقال الكتلة البشرية اليهودية (بأكملها تقريباً) من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد. وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من حركة المواصلات ومن وجود بنية قانونية دولية. كما استفادوا من الحركة الإمبريالية الغربية، خصوصاً الجانب الاستيطاني منها (والتشكيل الأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص). ومما يجدر ذكره، أن الحضارة الغربية كانت تنظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية، ولذا فإن الانتشار اليهودي الحديث يتبع حركة الاستيطان الغربي بمعنى أنها حركة داخل إطار الإمبراطورية الإمبريالية الجديدة، ولا تختلف كثيراً عن حركة الجماعات اليهودية داخل الإمبراطوريات القديمة. وقد بدأ الاستيطان اليهودي في دول أمريكا اللاتينية، ثم اتجه بعد ذلك إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا. ولكن الولايات المتحدة، أهم التجارب الاستيطانية الغربية على الإطلاق، كانت مركز الجاذبية الأكبر، والجماهير اليهودية اتجهت إليها أساساً حتى أصبحت تضم أكبر التجمُّعات اليهودية وأكثرها قوة. ويمكن القول بأن معظم الدول التي انتشر فيها اليهود هي دول ساد فيها الاقتصاد الحر والوفرة الاقتصادية وتُحقِّق نوعاً من الحراك الاجتماعي للوافدين إليها.

وتُعَدُّ فلسطين آخر بلد للاستيطان اليهودي في العصر الحديث وأقلها جاذبية، ربما لأنها لا تقع في وسط العالم الغربي الذي يتجه إليه معظم يهود العالم في العصر الحديث وإنما تقع على أطرافه، أي أن نمط الهجرة من منظور المركز الفلسطيني لا يختلف في القرن الأول من الألف الأول الميلادي عنه في القرن الأخير من الألف الثاني، فهي هجرة لا تتجه إليه وإنما هجرة تتجه بعيداً عنه.

يُلاحَظ أنه من مجموع ٣,٩١٧,٣٨٨ من المهاجرين، لم يتجه سوى ٣٧٨,٩٥٦ إلى فلسطين في فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢، وذلك رغم كل النشاط الاستعماري والصهيوني المكثف. ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريباً لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية في الفترة نفسها، (٣٧٦,٢٢٧) بفارق ٢,٦٢٩ يهودياً. ويُلاحَظ أن الولايات المتحدة استوعبت نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودي من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢,٦٥٠,٠٠٠ الذين أتوا أساساً من أوربا الشرقية ثم الوسطى، أي أنها استوعبت حوالي ٨٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود. وقد استقر نحو ٣٥٠ ألف مهاجر يهودي في أوربا الغربية، ونحو ٣٠٠ ألف في باقي بلدان العالم، واستوعبت كندا نحو ٤٪ والأرجنتين ٥٪ وجنوب أفريقيا ٢٪. ولم يستوطن فلسطين سوى ٥٠ ألفاً، أي حوالي ٢٪ من مجموع المهاجرين. واستمر الوضع على ذلك في الفترة بين ١٩١٥ ـ ١٩٣١، أي قبل ظهور هتلر. ولم يحدث أي تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى في أوربا وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا.

وقد بلغ الاستيطان اليهودي في فلسطين ذروته في الفترة بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٩، حيث استوطن فلسطين حوالي ٤٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفاً، ولم يستوطن الولايات المتحدة سوى ٢٠٪. وبلغ عدد المستوطنين الصهاينة في الفترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٥، أي خلال أربعة أعوام، حوالي ١٤٧,٥٠٢ (١٦٥,٧٠٤ بحسب تقديرات **الموسوعة اليهودية**) وهو عدد يساوي عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل الذين كانوا قد استوطنوا فلسطين خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠. وفي الفترة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩، هاجر ٧٥,٥١٠ (تَذكُر **الموسوعة اليهودية** هذا الرقم على أنه ٨٦,٠٩٤). وشهدت الفترة بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٨ تَحوُّلاً طفيفاً في نمط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودي من مجموع ٣٠٠ ألف، أي ٤٢٪ من مجموع المهاجرين، إلى الولايات المتحدة، واتجه إلى فلسطين ١٢٠ ألفاً أي ٤٠٪ فقط. وأدَّى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية في فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر إلى الحكم، فكأن الفوهرر نجح خلال ثمانية أعوام، عن طريق خَلْق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوربا، في إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمي في إنجازه خلال نصف قرن (١٨٨٢-١٩٣١)، أي أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من الصهيونية العقائدية. فخلال تلك الفترة هاجر نحو ثلاثة ملايين يهودي من وطنهم الأصلي ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين. ومع هذا، لا يمكن إنكار دور الصهيونية والاستعمار في خلق هذا الموقف الصهيوني البنيوي. والواقع أن الدول الغربية، ومنها الولايات المتحدة، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادي. أما الصهاينة، فأبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التي ساهمت في توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين. وسمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم.

ويمكننا أن نَخلُص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثِّل نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب عوامل الطرد الحادة في أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها.

ولعل الاستثناء الأساسي الآخر من النمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين. وفي الفترة نفسها، أدَّى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجَهْل بعض الحكومات العربية، إلى خَلْق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فلسطين. وعلى أية حال، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين أيضاً بوصفها حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد. والهدف ليس خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعي. فالعرب اليهود لم تُمكِّنهم ظروفهم الحضارية والاقتصادية، ولا خبراتهم، من الهجرة إلى أوربا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعي الذي فشلوا في تحقيقه بالدرجة التي يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية. ويُلاحَظ أن عدداً كبيراً من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك.

وبعد القضاء على هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده، أي يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التي أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل. ومن ثَمَّ، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي تواجه مشاكل عميقة - من المنظور الصهيوني - لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم في النمسا أو أية محطات انتقالية أخرى، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين. وحينما هاجر يهود الجزائر عام ١٩٦٥، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن، ثم يهود إيران، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة. ويُلاحَظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضاً إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا، ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط.

ويبلغ أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألفاً، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان.

ويدل تَدفُّق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيداً عن «أرض الميعاد»، على أن حركيات التاريخ وتركيبية النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح في طريقها كثيراً من التحيزات العقائدية الاختزالية. ولتزويد الكيان الصهيوني بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاعه بدوره القتالي، أغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية. كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكي لا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفييت الذين يقرعون أبوابها. كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد. وعلى كل حال، فبعد تَدفُّق نصف مليون يهودي روسي على إسرائيل (وليس الملايين التي تَحدَّث عنها الإعلام العالمي، أي الغربي، والعربي) على مدار عشرة أعوام تقريباً، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية اليهودية في شرق أوربا، خصوصاً العناصر الشابة الراغبة في الهجرة والقادرة عليها. وسيعود النمط القديم ليؤكد نفسه، أي تَدفُّق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية، أو أي أرض ميعاد أخرى تُحقِّق لهم الحراك الاجتماعي.

وبدلاً من تسمية الظواهر بأسمائها، تشير الأدبيات الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة».

٧ ـ الجماعات اليهودية الأساسية

سفارد وإشكناز كمرادفين لمصطلحي يهود شرقيين ويهود غربيين

السفارد

«سفارد» مصطلح مأخوذ من الأصل العبري «سفارديم»، استخدم ابتداءً من القرن الثامن الميلادي للإشارة إلى إسبانيا، ويستخدم في الوقت الراهن للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال، ثم انتشروا، بعد طردهم منها نتيجة الغزو الروماني لإسبانيا، في بلدان العالم الإسلامي، وبخاصة سالونيك التركية وشمال أفريقيا، حتى أصبح المصطلح يعني اليهود الشرقيين أو يهود العالم الإسلامي، وذلك تمييزاً لهم عن اليهود الإشكناز الذين بدورهم يمثلون اليهود الغربيين. (انظر بالتفصيل: «اليهود المتخفون»).

وقد ظهر في صفوف السفارد عددٌ كبير من المفكرين والفلاسفة والمنظرين رجال الدين والمتنبئين، حتى إن كل التطورات التي حدثت بين الجماعات اليهودية في هذه الفترة كانت ذات أصول سفاردية. وقد امتدت أعمال هذه النخبة إلى الإشكناز الذين كان السفارد ينظرون إليهم نظرة متدنية، وحافظوا على مسافة فيما بينهم، فكانت لهم مؤسساتهم التعليمية والدينية المستقلة، وحرَّموا الزواج المختلط من الإشكناز. وحيث كانت توجد جماعات سفاردية وإشكنازية كانت الجماعات السفاردية تبسط هيمنتها اللغوية والثقافية والدينية على غيرها.

وفي العصر الحديث، شكَّل السفارد أنوية متقدمة في المجتمعات الغربية، امتلكت الخبرة ورؤوس الأموال والاتصالات الدولية، ثم التفت من حولها الجماهير الإشكنازية، ولذا لعب السفارد الذين شغلوا قمة الهرم في معظم الأحيان دراً مهماً في تطور الرأسمالية الغربية، وبروز النظام الاقتصادي الحديث، واتساع حركة الاكتشافات الجغرافية، في حين كان الإشكناز أكثر ارتباطاً بالنظام الربوي والاقتصاد التقليدي. ولذا كانت المسألة اليهودية والمسألة الصهيونية أيضاً مسألتين إشكنازيتين بالدرجة الأولى نتيجة عجز الإشكناز عن الاندماج في حركة الحداثة الغربية، وارتباط مشروعهم بحركة الاستعمار الغربي.

بيد أن وضع السفارد تغيَّر منذ نهاية القرن السابع عشر، بفعل تطورات عديدة في أوربا أثرت في مركزهم، وأهمها: الانفجار الإشكنازي، الذي أدى إلى تراجُع نسبة اليهود السفارد (والشرقيين) من ٥٠٪ خلال القرن الثامن عشر إلى ١٠٪ حالياً. وتزايُد حجم التجارة الدولية بصورة لم يستطع رأس المال السفاردي استيعابها، وظهور برجوازيات محلية، فضلاً عن الحروب والثورات التي قطعت شبكة العلاقات بين المجموعات السفاردية.

ومن الناحية الثقافية، يُلاحَظ أن لغة السفارد العبرية مختلفة عن عبرية الإشكناز، وذلك لأنهم كانوا يستخدمون اللغة العربية في حين اقتصر استخدام العبرية على الكتابات الدينية المتخصصة، ولذا ازدادت لغتهم فصاحة، وظلت عبريتهم هي السائدة حتى الآن في إسرائيل حيث تُعتبر اللغة الرسمية للمسرح والتعليم والإعلام. أما خارج إسرائيل فيتحدث السفارد لغات البلدان التي يعيشون فيها.

ومن الناحية العقدية، ورغم اتفاق السفارد والإشكناز في جوهر العقيدة والعبادات، ظهرت اختلافات في بعض المظاهر والمصطلحات وذلك بسبب معايشتهم لعرب والمسلمين. ولذا اكتسب مصطلح سفارد دلالة دينية متميِّزة إضافة إلى دلالته الإثنية، وأصبح يُطلَق على اليهود الذين يتبعون الطريقة السفاردية في العبادة سواء كانت أصولهم من أيبريا أم غيرها.

الإشكناز

تختلف المصادر الدينية والتاريخية واللغوية في تحديد أصل كلمة الإشكناز ومعناها، إلا أنها تعني في الاستخدام الحالي اليهود الغربيين، وبخاصة ذوي الأصول الفرنسية والألمانية والبولندية، الذين انتشروا في أوربا خلال القرن السابع عشر، وهاجرت ملايين منهم إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وأستراليا ونيوزيلندا في القرن التاسع عشر بعد الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفهم، وتوجَّه بعضهم إلى آسيا وأفريقيا مع حركة التوسع الاستعماريالأوربي. ويُعتبر يهود اليديشية (لغة اليهود في أوربا الشرقية) أهم المجموعات اليهودية الغربية، وإن كانت اللغة اليديشية قد اختفت وحلت محلها لغات البلدان التي يعيشون فيها، وهي اللغة العبرية بالنسبة لسكان إسرائيل، والإنجليزية بالنسبة لمعظم يهود العالم الغربي. ويشكل اليهود الغربيون نحو ٩٠٪ من اليهود في العالم حالياً.

وقد تنازع الإشكناز والسفارد على السيادة الثقافية والدينية، حيث سادت عبرية السفارد وفكرهم الديني في البداية، ثم انقلب الميزان لصالح الإشكناز بعد ذلك، وأصبح معظم الحركات والمدارس الدينية إشكنازية كالمذهب الإصلاحي والمحافظ والأرثوذكسي والتجديدي. كما أصبح معظم مشاهير اليهود في العالم الآن من اليهود الغربيين نتيجة تواجدهم في المراكز الغربية، ولم يبق من هيمنة السفارد سوى اللغة العبرية السفاردية.

ونظراً إلى وقوع الهيكل الوظيفي والمهني للإشكناز على هامش الاقتصاد الغربي - خلافاً للسفارد - فقد كانوا دائماً أقل اندماجاً وأكثر انغلاقاً، ولذا ارتبطت المسألتان اليهودية والصهيونية بالإشكناز، وانصب تفكير المشروع الصهيوني منذ بداياته عليهم، في حين كان السفارد أسهل اندماجاً في المجتمعات الغربية، ولم يواجهوا مشكلة ازدواج الولاء.

ونتيجةً لذلك كان الاستيطان الصهيوني في فلسطين إشكنازياً في معظمه، وكانت الصبغة الإشكنازية غالبة على المؤتمرات الصهيونية، وعلى المؤسسات الإسرائيلية بعد إقامة الدولة الإسرائيلية، وكان مصطلح يهودي يعني إشكنازي بالدرجة الأولى في الأدبيات الصهيونية.

ومع ذلك قلبت الهجرات الجماعية لليهود الشرقيين إلى

إسرائيل في منتصف القرن العشرين التوازن بين الطرفين لصالح اليهود الشرقيين، ولم تستطع الصهيونية صهر الجميع في بوتقة واحدة، حيث ظهر الانقسام بينهما في التنظيم الحزبي، وازدادت الفجوة بين الطرفين حتى بلغت أشدها في الثمانينيات مع ظهور أحزاب إثنية يهودية شرقية أهمها شاس، ومواجهة الدولة الإشكنازية ذلك المد الشرقي بموجة جديدة من المهاجرين السوفيت.

اليهود الغربيون

«اليهود الغربيون» مصطلح يستخدم للإشارة إلى اليهود الذين هاجروا من العالم الغربي إلى إسرائيل. ويستخدمه البعض كمرادف لمصطلح الإشكناز ولكنه يشمل في الحقيقة الإشكناز (يهود بولندا وألمانيا) وغيرهم من الأوربيين الذين يرجع بعضهم إلى أصول سفاردية أو يمارسون العبادات اليهودية على الطريقة السفاردية كبعض يهود هولندا.

ويشغل اليهود الغربيون في إسرائيل قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي، ويتحكمون في معظم مؤسسات الدولة، وتوجُّهها الحضاري العام، باعتبارها ثمرة المشروع الصهيوني الغربي.

اليهود الشرقيون

«اليهود الشرقيون» مصطلح يُطلَق على اليهود غير الغربيين، ويستخدمه البعض كمرادف لمصطلح سفارد لأن معظم اليهود الشرقيين، وبخاصة في البلدان العربية، يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة، ولكنه في الحقيقة أشمل من مصطلح السفارد لأنه يضم يهوداً غير سفارد مثل يهود الفلاشاه والهند وغيرهم. وهو أبعد دلالة في تصنيف اليهود على أُسس سياسية وحضارية وطبقية من مصطلح السفارد الذي يلتبس بأبعاد دينية غير محددة، ويخلط قسماً من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين.

وقد كان مصطلح «الشعب اليهودي» الذي روجته الصهيونية يستبعد اليهود الشرقيين من حسبانه، ولكن مع الوقت ونظراً لحاجة الدولة الصهيونية إلى الأيدي العاملة التي تملأ قاعدة الهرم الاقتصادي - الاجتماعي، وإلى المزيد من المادة القتالية في المعارك مع الفلسطينيين والدول العربية، تم السماح بهجرة الملايين منهم إلى إسرائيل حتى شكَّلوا أغلبية سكانها خلال الثمانينيات، إلا أن نسبتهم تراجعت في التسعينيات بسبب هجرة يهود الاتحاد السوفيتي السابق. وحينما هاجروا إلى إسرائيل تعاملت معهم الأغلبية الغربية المسيطرة كأبناء طوائف وجاليات مغربية ومصرية ويمنية . . . إلخ، وليس كجزء من «الشعب اليهودي» الواحد.

ونظراً إلى كونهم جزءاً من النسيج الحضاري للمنطقة العربية التي تقع فيها إسرائيل كمشروع غربي، فهم يمثلون مصدر تهديد دائم لهوية الدولة الغربية، إذا اندمجوا في هذه المنطقة، من شأنه أن يحولّ الجماعة اليهودية الغربية في فلسطين إلى أقلية معزولة. ولذا يفسر البعض الحروب التي تشنها إسرائيل من حين إلى آخر برغبة قادتها في إذكاء حدة التناقض بين هؤلاء اليهود الشرقيين وبقية محيطهم الحضاري العربي والإسلامي.

وقد أحدثت هجرة اليهود الشرقيين إلى إسرائيل تحولات عميقة في الدولة، وبخاصة منذ الثمانينيات حينما انفصلوا عن الحزبين الصهيونيين: العمل والليكود، وكوَّنوا أطراً سياسية خاصة بهم، بسبب نقمتهم على اليمين واليسار الغربيين معاً، وكان ذلك سبباً ونتيجة لسقوط الصهيونية داخل إسرائيل.

اليهود المستعربة

«اليهود المستعربة» هم يهود البلدان العربية الذين اكتسبوا خصائص البلدان العربية فأصبحوا عرباً، ويشكلون معظم يهود العالم العربي. ويُطلق عليهم البعض اسم السفارد، لأنهم يتبعون المنهاج السفاردي فِي العبادة، ولكن ذلك لا يجعلهم سفارديين بالمعنى الإثني الذي لا ينطبق إلا على اليهود الذين هاجروا من إسبانيا. ولذا يفضَّل تسميتهم «اليهود الشرقيين» أو «يهود الشرق والعالم الإسلامي».

الصابرا (أو جيل ما بعد ١٩٦٧)

يشير مصطلح «الصابرا» إلى اليهود المولودين في فلسطين، وهو مفهوم سياسي بالدرجة الأولى، تحاول من خلاله إسرائيل التغطية على التمايزات الواسعة بين اليهود المولودين في فلسطين، رغم اختلاف أصولهم وانعكاس هذا الاختلاف في تنشئة أبنائهم، من خلال النظر إلى الأجيال المولودة في إسرائيل على أنها كتلة واحدة.

و«صابرا» كلمة عبرية مشتقة من العربية، وتعني «الصبار أو التين الشوكي»، وتردَّد المصطلح بمعناه الاجتماعي لأول مرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حيث أطلق في مدرسة هرتزيليا الثانوية في تل أبيب على التلاميذ اليهود من مواليد فلسطين الذين كانوا يشعرون بالنقص تجاه أقرانهم من الأوربيين الأكثر تفوقاً في

الدراسة، وحاولوا التغلب على هذا الشعور من خلال القيام بعمل خشن هو الإمساك بثمار التين الشوكي وتقشيرها باليد العارية. ثم استخدم المصطلح للإشارة بوجه عام إلى اليهود من مواليد فلسطين، وبخاصة ذوي الأصول الإشكنازية. واكتسب المصطلح دلالات أخرى مثل الجرأة الزائدة، والسخرية من المشكلات، والمباشرة، وتفضيل العمل المباشر على التفكير والنظريات.

ويعبِّر استخدام هذا المصطلح عن رغبة المستوطنين اليهود في فلسطين في تطبيع الشخصية اليهودية، ونفي الشتات والسمات السلبية التي ارتبطت به حسب تصورهم، من خلال التعامل المباشر مع الواقع، والتغلب على عقباته بالعمل الخشن. ويتسم الصابرا بالولاء المطلق للدولة، والوعي الجماعي، والعلمانية، لأنه مرتبط بالدولة والأرض لا بالقيم الدينية، وهو علاوة على هذا شخصية منتجة، تتحكم في مصيرها بيدها، وتقرره بالعمل العسكري الخشن، ولذا نجد أن ذروة هذه الشخصية تتحق في الكيبوتسنيك أي عضو الكيبوتس الذي لا ينتمي إلى أسرة محددة، ويعيش في مجتمع شبه زراعي عسكري في بيئة مختلفة تماماً عن الجيتو.

وقد وصف البعض أفراد هذا النموذج بأنهم أغيار يتحدثون العبرية، لأنهم يتسمون بمختلف سمات الأغيار، ومنها معاداة يهود المنفى والتعالي عليهم، ووصف البعض الآخر هذا النموذج بالطرزان اليهودي الذي يعيش حياة الغابة الداروينية، ووصفه البعض بأنه السوبرمان اليهودي.

وهذه الرؤية المختلة للذات تحوي تناقضات داخلية عديدة، وهي:

١ - تسطيح صورة اليهود خارج إسرائيل، الذين يطلقون عليهم يهود المنفى، وتصويرها بشكل ساذج، ووسمهم بالسلبية في مواجهة الأخطار المحدقة، وأهمها النازية، رغم أن معظم إنجازات الجماعات اليهودية التي تفتخر بها الصهيونية كانت من قبل هؤلاء اليهود.

٢ - نفي الماضي الحقيقي الوحيد الذي ينتمي إليه المستوطنون اليهود في فلسطين، ومعاداته، ولذا يوصف هذا الجيل بأنه جيل يتيم لا أب له، غير قادر على النضوج لأنه لا يتفاعل مع ماضيه، ولا يستفيد من خبراته.

٣ - أنه يؤسس شرعية وجوده في فلسطين وطرد الفلسطينيين منها على أسس يهودية افتراضية إثنية ودينية في الوقت الذي يعادي فيه اليهودية ويرفضها.

وقد كانت هذه التناقضات عاملاً في رفض الصابرا الصهيونية نفسها في النهاية، حيث يعتبرونها نظرية لتعامل يهود الشتات مع الأغيار في الخارج، وهو أمر لا يخصهم، ولذا أصبح أبناء هذا الجيل يتزعون إلى العملية والعلمية في التعامل مع واقعهم بدون ديباجات أيديولوجية أو موجهات دينية أو تاريخية، وكان من المنطقي أن يذوبوا تماماً في النموذج الأمريكي البرجماتي الذي يركز على التعامل الكفء مع الواقع لحظة بلحظة، دون أي امتداد تاريخي أو إيمان بمطلقات أو نظريات. وأصبحت الاستهلاكية واللذة والمنفعة المطلقات الوحيدة في عالمهم. وبعد أن كان الخروج من الدولة الصهيونية بمنزلة خيانة قومية، أصبحوا لا يرون مانعاً من ذلك إذا كانت اللذة والمنفعة في مكان آخر. وهو ما أدى إلى ظاهرة الدياسبورا الإسرائيلية، أو الهجرة المضادة من إسرائيل إلى الخارج، التي بلغت نحو مليون شخص من جيل الصابرا. وبعد أن كانوا يحتقرون المنفى، أصبحت الولايات المتحدة في نظرهم وطناً قوميا ثانياً، لأنها تجسد النموذج الاستهلاكي في أجلى صوره.

وقد انتبهت القيادات الثقافية في إسرائيل إلى خطورة هذا التحلُّل، وفرضت في المدارس مادة تسمَّى «الوعي اليهودي»، حتى لا يبتعد الصابريم عن الجذور اليهودية، ويفقدوا هويتهم، وكان من ثمار تدريس هذه المادة تغيير صورة يهود "المنفى" في أعين هذا الجيل، والنظر إليهم بإيجابية، وتعظيم قيم التماسك والتضامن والهوية المحددة لكل من الجماعات اليهودية في العالم، وكلها سمات يفتقر إليها التجمُّع الصهيوني في فلسطين، وبدءوا يتفهمون الإبادة النازية ليهود ألمانيا باعتبارها عملاً لم يكن بمقدورهم مقاومته، وعزز ذلك التوجه نجاح يهود "المنفى" وبخاصة في الولايات المتحدة في تحقيق إنجازات ثقافية واقتصادية واندماجهم بثقة بالنفس في المجتمعات الغربية، واعتماد إسرائيل عليهم في نهاية المطاف بعد أن كانت تنظر إليهم باحتقار وترغب في تصفيتهم.

ولذا أخذ تيار كبير من جيل الصابرا يعتنق رموزاً يهودية لا صهيونية، ويحاول العودة إلى التراث اليهودي الأرثوذكسي في أوربا الشرقية ويتحدث باليديشية، وبدلاً من رفض النفي، أكدوا أن النفي حالة لا نهائية، ولا تنتهي إلا بالخلاص الديني، ومن ثَم بدءوا يعادون الدولة.

وتزداد أهمية جيل الصابرا من حيث تزايُد نسبتهم إلى جملة السكان في إسرائيل مع الوقت، حيث كانت نسبتهم ٣٤٪ عام ١٩٦٢، ثم ارتفعت مع الوقت إلى ٦٤٪ عام ١٩٨٩، ثم انخفضت قليلاً عام ١٩٩١ بسبب هجرة يهود الاتحاد السوفيتي السابق، وبلغت ٦٠٪. وترتَّب على ذلك أمران مهمان، هما: من جهة، ظهور "الوطنية الإسرائيلية" مقابل "القومية اليهودية"، بمعنى أن معظم سكان إسرائيل لا يعرفون وطناً آخر لهم، ومن ثَمَّ فهم لا يشعرون

بالذنب تجاه الفلسطينيين، ومن جهة ثانية، ارتفاع نسبة الشباب في هذا الجيل، وارتباط ذلك بشيوع النزوع إلى المخاطرة والتوسع والسيطرة، وكراهية العرب.

٨ ـ الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

هي تلك الجماعات اليهودية التي تنتمي إلى أيٍّ من الجماعات الأساسية الثلاث: الإشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي. وهي تختلف عن هذه الجماعات الأساسية بكونها اندثرت تماماً أو توشك أن تندثر. ولا تشكل في مجموعها أكثر من ٣٪ من يهود العالم. ومعظم هذه الجماعات انفصلت عن الجماعات الأساسية، وعن اليهودية الحاخامية، واستوعبت عناصر إثنية ودينية من محيطها الحضاري، بمعزل عن المعايير اليهودية الأصلية. وتكمن أهمية دراستها في كونها تمثِّل تحدياً للتصنيف الصهيوني والمعادي لليهود الذي يقوم على التعميم والاختزال في وصف اليهود، كما تبرز أن اليهود ـ على العكس من ذلك ـ لا يشكلون كلا عضويا متماسكاً، أو متعالياً على المحيط الحضاري الذي يعيشون فيه.

وأهم هذه الجماعات هي: اليهود المتخفون، ويهود الهند، ويهود القوقاز، ويهود الخزر، ويهود الصين، واليهود السود.

اليهود المتخفون

هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية، بسبب الظروف المختلفة، ويظلون على دينهم في الواقع. وقد لاحظ بعض الدارسين أن هذه الظاهرة لم تظهر إلا داخل التشكيل الحضاري الإسلامي بسبب اختلاط اليهود السفارد بالمسلمين وأخذهم عنهم مبدأ التقية، أي إظهار غير الحقيقة حفاظاً على الحياة، وذلك بخلاف اليهود الإشكناز الذين فضلوا الاستشهاد تقديساً لعقيدتهم على الارتداد، ولو ظاهريا. ويشار إلى اليهود المتخفين باسم أنوسيم، وهي كلمة عبرية تعني المُكرهين. وأهم جماعاتهم المارانوا.

وقد أطلقت كلمة مارانو على اليهود المتخفين، في إسبانيا والبرتغال، الذين تراجعوا ظاهريا عن اليهودية، وادعوا اعتناق الكاثوليكية حتى يتمكَّنوا من البقاء في شبه جزيرة أيبريا مع تراجُع الحكم الإسلامي، وبعد طرد يهود البرتغال عام ١٤٨٠، وطرد يهود إسبانيا عام ١٤٩٢.

وقد تنصَّر كثير من اليهود الإسبان والبرتغاليين، إما تنصَّروا حقيقيا، وإما ادعاء بسبب الظروف التالية: المظاهرات والاضطرابات التي عمت إسبانيا خلال القرن الرابع عشر، وفرضت عليهم الصلب أو الموت، في وقت تأثر فيه اليهود الإسبان بالثقافة العقلانية، وانكسرت روحهم العنوية، فذابوا أو تخفَّوا. كما كان لكثير من النخب اليهودية مصالح مالية متشابكة مع المجتمع المسيحي، حاولوا الحفاظ عليها من خلال التنصُّر الظاهري أو الفعلي.

وبعد سقوط غرناطة، واجهت الدولة الجديدة مشكلة سكانية، هي أن معظم سكان شبه الجزيرة الأيبيرية كانوا إما مسلمين أو يهوداً، أو من أصول يهودية أو مسلمة. وقد قامت بحل هذه المعضلة من خلال طرد العناصر غير المسيحية، لخلق توازن سكاني لصالح المسيحيين، فعُرض على اليهود التنصُّر أو مغادرة البلاد، فتنصَّرت أعداد كبيرة منهم، وانضموا إلى الأعداد التي تنصَّرت قبل ذلك.

أما العناصر اليهودية الصلبة ففضلت اللجوء إلى البرتغال التي منحتهم هذا الحق مقابل ضريبة يدفعونها، للانتفاع بهم كجماعة وظيفية تجارية.

وعندما اعتلى مانويل الأول عرش البرتغال عام ١٤٩٥، حاول توحيد شبه جزيرة أيبريا تحت ملكه، من خلال مصاهرة ملكي إسبانيا، اللذين وافقا على ذلك بشرط طرد اليهود من بلاده، فلم يجد حلاً لهذه المشكلة إلا بتنصير اليهود قسريا. ولكنه مع ذلك منحهم حرية دينية وحصانة ضد محاكم التفتيش مدة عشرة أعوام. وقد اندمج المتنصرون في مجتمع الأغلبية، وإن ظلت عناصر منهم تمارس اليهودية سرا.

وفي عام ١٥٣٦ بدأت محاكم التفتيش نشاطها بشكل رسمي، ثم مارست نشاطها بشكل فعَّال في منتصف القرن السادس عشر، وأخذت تتعقب اليهود المتخفين الذين كانوا قد اندمجوا حضاريا، إن لم يكن دينيا أيضاً، على مدى أكثر من قرن ونصف. وزاد الأمور تعقيداً صدور القرار الخاص بنقاء الدم عام ١٥٦٦، الذي جعل الأصول العرْقية (لا الإيمان الديني) معياراً للتمييز، ومن ثَم أصبح مصطَلح المارانوا لا يشير إلى اليهود المتخفين وحسب، ولكن أيضاً إلى ذوي الأصول اليهودية، حتى لو صاروا مسيحيين أتقياء!

وتؤكد هذه التطورات أن محاكم التفتيش لم تكن تستند إلى معايير دينية محض، ولكنها كانت أداة لتحقيق أهداف، منها: وقف الحراك الاجتماعي للمسيحيين الجدد، الذين شكَّلوا كتلة شبه متماسكة استطاعت أن تحقِّق حراكاً اجتماعيا عاليا، وتسهيل عقد

التحالفات بين إسبانيا والدول الأوربية من خلال الديباجات الدينية، رغم التوجه الدنيوي لهذه الدول. كما يؤكد ذلك أيضاً رفض المؤسسات الدينية اليهودية اعتبار كثير من المارانو يهوداً، لأنهم تنصَّروا بإرادتهم، ورفض المارانو، من جهة أخرى، اعتناق اليهودية بعد طردهم من شبه جزيرة أيبريا، واتجاه أغلبيتهم إلى العالم المسيحي وليس إلى الدولة العثمانية، وذلك لكونهم مسيحيين بالفعل.

وقد أثَّر طول فترة التخفي (قرن ونصف) بأشكال عميقة في يهودية اليهود المتخفين، وبقيت هذه الآثار حتى بعد أن سُمح لهم بإظهار يهوديتهم، ونبعت من ذلك اختلافات دينية بينهم وبين اليهود الحاخاميين، ومن ذلك الإيمان بأن التنصر القسري جزء من العقاب الإلهي الذي حاق باليهود ـ مثل النفي لدى الحاخاميين ـ واتباع طقوس لنفي آثار التعميد المسيحي، واختفاء شعائر يهودية مثل الختان والذبح الشرعي واستخدام شال الصلاة، وتضخُّم عقيدة الخلاص لديهم، حتى انتهى الحال إلى اتباع شعائر صوفية كاثوليكية محضة، مثل الصوم من أجل إحياء الموتى، واتباع أنماط سلوكية مثل أكل لحم الخنزير، كما اختفت اللغة العبرية من صلواتهم، وهو ما يؤكد تشكُّل الجماعات اليهودية في العالم وفقاً للظروف الحضارية التي مروا بها.

ويرى البعض أن المارانو فَقَدوا كلا من اليهودية والمسيحية، وأنهم كانوا في الحقيقة ملحدين. ويرى آخرون أنهم جمعوا عناصر مختلفة من اليهودية والمسيحية والإسلام، في مزيج ديني شعبي. وأيا ما تكون الحقيقة، فقد أثروا كثيراً في المجتمعات التي توجهوا إليها بعد طردهم من البرتغال وإسبانيا، إذ لعبوا دوراً تحديثيا ضمنيا، بوصفهم غرباء مهمشين، لا هم من الجماعات اليهودية التي رفضت الاعتراف بيهوديتهم، ولا من الجماعات المسيحية، ولا المسلمة، واستطاعوا من ثَم القيام بأدوار وظيفية داخل هذه المجتمعات وفيما بينها.

وقد انتشر المارانو في كل أنحاء العالم بعد طردهم، واستوطنت جماعة كبيرة منهم في مدينة سالونيكا، في الدولة العثمانية، وتوجَّه بعضهم إلى الآستانة، وإلى القاهرة. وانتشر كثير منهم في البلدان البروتستانتية الناقمة على محاكم التفتيش، مثل إنجلترا وأمستردام وهامبورج، وذهب بعضهم إلى بلدان كاثوليكية في فرنسا والمستعمرات البرتغالية في العالم الجديد. والجدير بالذكر أن هذه الجماعات شكلت نخباً سفاردية متقدمة لحقت بها الجماعات اليهودية الإشكنازية، إلى أن زادت الهجرات اليهودية الإشكنازية من شرق أوربا إلى غربها، وأصبحت تشكل الأغلبية.

أما الدول التي استقبلتهم فتفاوتت أساليب تعاملها معهم، فبعضها، كهولندا، كانت تعترف بهم كيهود فور وصولهم، وبعضها، كإنجلترا، كانت تتسامح في وجودهم وحسب، وتلجأ في ذلك إلى حيل قانونية أو غير قانونية، فكانت تغض النظر عن هويتهم الحقيقية، فيظلون مسيحيين اسماً، ويمارسون عقيدتهم اليهودية سرا أو علناً، ولكن دون اعتراف رسمي حتى لا تتعرض لضغوط شعبية أو إدارية أو دولية. ولذا كانت إنجلترا تسميهم البرتغاليين، إشارة إلى البلاد التي هاجروا منها، بصرف النظر عن تعريفهم الديني.

وقد اختفى المارانو من إسبانيا، ولكنهم ظلوا يشكلون جماعات متفرقة في البرتغال حتى القرن العشرين. ورغم إعلان البرتغال حرية العبادة عام ١٩١٠، فلم يستفد المارانو من ذلك، وظلوا على ممارساتهم. وقد حاولت المؤسسات الصهيونية إقناعهم بالتهود والهجرة إلى إسرائيل، فهاجر معظمهم إليها، لما يحققه ذلك من حراك اجتماعي لهم بسبب فقرهم.

يهود الهند

يبلغ عدد يهود الهند حوالي ٣٩,٥ ألف نسمة، منهم ١٤,٦ ألف نسمة في الهند نفسها و٢٣ ألفاً في إسرائيل، حسب إحصاءات ١٩٦١.

ويعيش معظم اليهود الهنود الذين هاجروا إلى إسرائيل في مدن التطوير التي يسكنها اليهود الشرقيون والفقراء، وبخاصة المناطق الجنوبية والنقب، ويعيش بعضهم في المدن الكبرى الثلاث: تل أبيب والقدس وحيفا، ويعيش قليل منهم في الكيبوتسات والموشافات. وقد ظهرت قائمة خاصة بهم في انتخابات ١٩٨٤، شأن عديد من الإثنيات الأخرى التي أخذت تعبِّر عن نفسها بعد سقوط الأيديولوجية الصهيونية وانفجار الهويات المكبوتة، وبخاصة لدى جماعات اليهود الشرقيين والعرب ثم الروس.

ولم تقتصر المشكلة على التمييز من قبل اليهود الغربيين، ولكنهم ووجهوا بممارسات عنصرية من اليهود الشرقيين الآخرين أيضاً، على خلفية دينية، حيث أصدر حاخام اليهود الشرقيين عام ١٩٦١ قراراً بالتحقق من يهودية يهود بني إسرائيل الذين يطالبون بالزواج من خارج طائفتهم، للتأكد من اتباع أجدادهم قوانين الزواج والطلاق والالتزام بالتحريمات الخاصة بالزواج المختلط، حتى يمكن التأكد من أن أولادهم شرعيون. وثارت المشكلة مجدداً عام ١٩٩٤ حينما أعدت وزارة الشئون الدينية في إسرائيل ـ التي تناوب عليها آنذاك حزبا شاس اليهودي الشرقي والمفدال اليهودي الصهيوني ـ

قائمة تضم نحو أربعة آلاف اسم وبعض العائلات بكاملها، يمنع على اليهود الاقتران بهم رغم أن بعضهم مُعترف بيهوديتهم، وذلك لأن أجدادهم منذ عام ٥٨٠ ق.م، خالفوا الشرائع الدينية بالزواج من مطلقات، فحرَّم على ذويهم الزواج من مطلق أو مطلقة.

أما اليهود المقيمون في الهند، فيكن تقسيمهم إلى جماعات مختلفة أهمها: بنو إسرائيل، ويهود كوشين، ومانيبور، واليهود البغداديون.

أما جماعة بني إسرائيل فكانت تقطن أساساً في منطقة كونكان، ولكنها ابتداءً من القرن الثامن عشر، انتقلت إلى بومباي، حيث أسَّست أول معبد يهودي عام ١٧٦٩، ومع حلول عام ١٨٣٣ كان ثُلثا يهود بني إسرائيل يعيشون في بومباي. وقد انفصلوا عن اليهودية الحاخامية لعدة قرون، وتشربوا الثقافة الهندية في أسمائهم وعاداتهم، وحتى شرائعهم الدينية، إذ لم يكونوا يعرفون التلمود، ولم يُترجَم العهد القديم إلى اللغة التي يتحدثون بها (لغة الماراثي الشائعة في مناطقهم) إلا في بداية القرن التاسع عشر. كما اخترقت الهندوكية دياناتهم، فأصبحوا لا يتزوجون من الأرامل، ويعتقدون أن التوراة تحرِّم أكل لحم البقر. بيد أنه مع احتكاكهم باليهودية الحاخامية وبناء معابد يهودية أخذوا يعودون تدريجيا إلى اليهودية الحاخامية.

وقد تأثر يهود بني إسرائيل ـ كبقية يهود الهند ـ بنظام الطوائف المغلقة من ناحيتين مختلفتين، فمن جهة، ساعد هذا النظام على تماسك أعضاء الجماعات اليهودية، ومنعهم من الذوبان والاندماج، حيث تشكَّل الطائفة وحدة التصنيف في الهند، وذلك على خلاف المجتمعات الأخرى التي أدى عدم اضطهاد اليهود فيها إلى ذوبانهم. ومن جهة أخرى ورث الهنود اليهود أنفسهم العنصرية الهندية، من خلال التمييز بين جماعتين على أساس اللون، وهما الجورا إسرائيل من اليهود البيض، الذين يعتبرون أنفسهم أنقياء الدم، والكالا إسرائيل من المتهودين وأبناء الزيجات المختلطة وذوي البشرة الداكنة. ويمتنع الجورا عن الزواج من الكالا أو لمس أدواتهم، ويعتبرونهم أدنى منهم.

وكان يهود بني إسرائيل يعملون بالزراعة واستخراج الزيت وبعض الحرف اليدوية، حتى تم الاحتلال البريطاني للهند، فالتحقوا بالفرق العسكرية البريطانية، وعملوا بالمهن التجارية والمالية، وشكلوا طبقة وظيفية في خدمة الاستعمار. ويشار إليهم الآن بوصفهم طائفة الكتبة المغلقة، نظرا لعمل أغلبهم في المكاتب الحكومية والخاصة.

وقد بلغ عدد يهود بني إسرائيل عام ١٩٤٧ نحو ١٧,٥ ألف نسمة، ثم تناقصوا بسبب الهجرة إلى إسرائيل، وبلغ عددهم عام ١٩٦٠ نحو ١٥ ألفاً، ثم ١٣ ألفاً عام ١٩٦٨، وفي عام ١٩٨١ بلغ عددهم نحو أربعة آلاف نسمة فقط، بسبب الهجرة إلى بريطانيا وكندا وأستراليا.

أما يهود كوشين، فتعود أصولهم إلى عصور قديمة، ويقال إنهم من قبيلة منسَّى، وأنهم وصلوا منطقة كوشين على ساحل مالابار جنوب غربي الهند بعد هدم الهيكل، وفي حوزتهم لوحات نحاسية منحها الراجا الهندي لهم، وتثبت أنهم ينتمون إلى طبقة النبلاء.

وكان يهود كوشين يساعدون الراجا في حروبه ضد الإمارات المجاورة. وانضمت إليهم عناصر يهودية جديدة من هولندا وإسبانيا وحلب، في القرن السادس عشر مع وصول الاستعمار الغربي، وتحوَّل بعضهم إلى وسطاء تجاريين في ظل الحقب الاستعمارية المختلفة، وبخاصة الحقبتان الهولندية والإنجليزية.

وقد اندمج يهود كوشين في المجتمع الهندي، وتأثروا بعمق بنظام الطوائف المغلقة، شأن يهود بني إسرائيل، وتكونت منهم عدة طبقات مغلقة على نفسها، هي اليهود البيض أو "ميوحاسيم"، وهم من نسل يهود أوربا الذين وفدوا إلى الهند مع الاستعمار وتزوجوا من الأثرياء المحليين. واليهود السود أو "ميسواريم"، ويشكل هؤلاء الأغلبية، واليهود المعتقين (المحرَّرين) أو "ميشوحراريم"، وهم نتاج تزاوج البيض والسود، إضافة إلى أبناء المحظيات والجواري.

ويتحدث يهود كوشين لغة المالايالام الهندية، ويتحدث البيض منهم الإنجليزية إلى جانب هذه اللغة. ويرتدون الأزياء الهندية، ويستخدمون العبرية في صلواتهم، وتختلط في شعائرهم الممارسات اليهودية الشرقية واليهودية الغربية بسبب الهجرات المختلطة.

وقد بلغ عدد يهود كوشين عام ١٩٤٨ حوالي ٢٥٠٠ شخص، منهم مائة يهودي أبيض. وفي عام ١٩٦٨ هاجر اليهود السود ولم يهاجر البيض لأن الحكومة الهندية لم تسمح لهم بأخذ أموالهم معهم. ويقال إن عددهم أربعة آلاف، وقد وُضعوا تحت الحجر الصحي بسبب انتشار مرض الفيل بينهم. وثارت الخلافات حول الاعتراف بيهوديتهم.

ـ أما يهود مانيبور فيُنسبون إلى منطقة على الحدود بين الهند وبورما، ويبلغ عددهم نحو مائة شخص، ويرون أن أصولهم تعود إلى يهود كايفنج في الصين، حيث فروا من الغزو المغولي منذ ثمانمائة عام، واستوطنوا الكهوف في الهند الصينية، حتى وصلوا إلى مانيبور في القرن الثامن عشر.

وقد نسي أعضاء الجماعة تراثهم الديني، وهم لا يمارسون معظم الشعائر اليهودية كالختان، ولا يعرفون التلمود، ولم يكتشفوا التوراة إلا مع احتكاكهم بالإرساليات التبشيرية المسيحية! وتختلط في شعائرهم اليهودية والمسيحية والوثنية. ولا يعترف يهود الهند الآخرون بيهوديتهم.

ـ أما اليهود البغدادية، فهم جماعة من اليهود السفارد هاجرت من بغداد إلى الهند في القرن التاسع عشر، وتمتعت بمستوى راق ثقافيا وماليا، وأسَّسوا كثيراً من الصناعات، ولذا أقاموا سياجاً من العزلة بينهم وبين يهود الهند الآخرين، رغم ترحيب هؤلاء بهم لحاجتهم إلى كاهن يقوم بالطقوس الدينية، وادعى البغداديون أن الدماء اليهودية الخالصة لا تسري إلا في عروقهم. وأصبح لهم مؤسساتهم الدينية والاجتماعية المستقلة ومدارسهم التي يتم التدريس فيها بالإنجليزية.

وقد بلغ عددهم ٦٥٠٠ نسمة عام ١٩٤٧، إلا أن هذا العدد تناقص كثيراً بسبب الهجرة، وأصبح لا يزيد على الألف. وهاجر معظمهم إلى الغرب وليس إلى إسرائيل بسبب ارتفاع مستواهم الثقافي والمالي.

يهود القوقاز

يبلغ عدد سكان القوقاز اثنى عشر مليوناً، يشملون ما لا يقل عن ثلاثين قومية أساسية. وقد أثَّر ذلك التنوُّع في اليهود القوقازيين، الذين بلغ عددهم ٧٢,٧ ألف نسمة تقريباً، حسب إحصاءات ١٩٨٩، وينقسمون بدورهم إلى جماعات متباينة، أهمها يهود جورجيا، ويهود بخارى، ويهود داغستان.

ـ أما يهود جورجيا، فبلغ عددهم حسب إحصاء ١٩٨٩ نحو ١٦ ألف نسمة، وهم يعتقدن أنهم من نسل قبائل إسرائيل العشرة المفقودة. وقد أقاموا صلات تاريخية مع يهود الخزر، وتحوَّل بعضهم بعد الغزو المغولي إلى أقنان، عمل بعضهم بالزراعة والحرف اليدوية والتجارة في ضياع أسيادهم، بمعزل عن يهود العالم، الأمر الذي أدى إلى ضمور هويتهم وانتمائهم الديني. وكانوا ينقسمون إلى أقنان الملك، وأقنان الإقطاعيين، وأقنان الكنيسة. ومع ضم جورجيا إلى روسيا عام ١٨٠١، تحوَّل أقنان الملك إلى أقنان الخزانة، إذ كان عليهم دفع ضريبة للخزانة. اعترفت الحكومة القيصرية بحقوق يهود جورجيا وألغت نظام القنانة في جورجيا في الفترة بين عامي ١٨٦٤ ـ ١٨٧١.

وبعد اندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧، قامت في جورجيا حركة استقلالية قوية، ساهمت فيها عناصر يهودية معادية للصهيونية، إلا أن الدولة السوفيتية استطاعت دمج جورجيا، ولكنها لم تتدخل في الشئون الدينية ليهودها، ففتحت المعابد اليهودية، وسمحت الحكومة بالأنشطة الصهيونية لبعض الوقت، وحاولت دمجهم في الحياة العامة من خلال فتح المصانع والمزارع أمامهم، وفي منتصف الثلاثينيات حاولت تحطيم انغلاقهم الإثني من خلال السياسة الديمقراطية المعروفة، وخلطهم بعناصر يهودية وأرمنية، وتكوين ثقافة سوفيتية لديهم، إلا أن المحاولة توقفت بعد فترة وجيزة.

ويعمل يهود جورجيا بالتجارة أساساً، بالمهن الحرة، ويعيشون مناخاً حضاريا تعدديا متسامحاً، ولا يتسم تاريخهم بالطرد أو المذابح. ولذا فَقَدَ يهود جورجيا مع الوقت علاقتهم باليهودية الحاخامية، واندمجوا مع جيرانهم المسيحيين، وأصبحوا لا يحافظون على كثير من الشعائر اليهودية، كما يُلاحَظ تزايُد نسبة الزواج المختلط بينهم وبين جيرانهم منذ الستينيات بشكل واضح. ويتحدث معظمهم اللغة الجورجية، ويتحدث قليل منهم اللغة اليديشية أو الروسية.

وقد هاجر نحو نصفهم إلى إسرائيل رغم ما كانوا يتمتعون به من مساواة وتسامح في وطنهم، وذلك بسبب عدة عوامل، أهمها عداء الجورجيين للعناصر الروسية في الدولة السوفيتية، ولذا عندما ساندت الدولة السوفيتية، التي يغلب عليها العنصر الروسي، العرب بعد حرب ١٩٦٧، نزع يهود جورجيا إلى مساندة إسرائيل في المقابل، ونما بينهم شعور معاد للعروبة وللإسلام. ومن ناحية أخرى عندما تولى شيفرنادزه سكرتارية الحزب الشيوعي الجورجي، حارب الفساد وشبكات الاقتصاد غير الشرعي الجورجية، التي كان يرتبط بها كثير من اليهود، فكان ذلك عاملاً لهجرتهم من جورجيا إلى إسرائيل. ويضاف إلى ذلك ما توفره لهم الهجرة من فرص حياة أفضل لم تكن متاحة في بلادهم. وعندما هاجر قسم منهم إلى إسرائيل في أعقاب حرب ١٩٦٧ جذبوا أعداداً كثيرة أخرى، بفعل التضامن الشبكي بينهم الذي اعتادوه في جورجيا بمعزل عن الدولة السوفيتية. ولذا يمكن القول بأن هجرتهم كانت ذات دوافع محلية اجتماعية ـ اقتصادية، ولم تكن أيديولوجية.

وقد تسبَّبت هجرتهم إلى إسرائيل في مشكلات مزدوجة للذين هاجروا والذين لم يهاجروا، فمن ناحية يُعامَل يهود جورجيا في إسرائيل معاملة سيئة، وقد أضحوا مصدراً من مصادر الجريمة المنظمة وتزييف النقود. أما الذين لم يهاجروا فحجبت عنهم الوظائف

الإستراتيجية تحسباً لأنهم سيتركون بلادهم ويهاجرون إلى إسرائيل. ومع هجرة كثير من المتدينين الجورجيين، يمكن القول بأن البقية الباقية (نحو ١٦ ألفاً) سيذوبون ويندمجون في العلمنة، وبخاصة في ظل استقلال جورجيا بعد تفكُّك الاتحاد السوفيتي.

- وأما يهود بخارى فبلغوا عام ١٩٨٩ نحو ٣٦,٥٦ ألف نسمة، ترجع أصولهم إلى عصور قديمة، ويرون أنهم من أسباط إسرائيل العشرة المفقودة. وهم مندمجون في وسطهم الحضاري، ويتحدثون اللغة الطاجيكية، وهي لهجة فارسية.

وكان يهود بخارى يعملون بالتجارة والصباغة، وازدهرت أحوالهم مع ضم الإمارات الإسلامية لروسيا، حتى اندلعت الثورة البلشفية، فتدهور وضع التجارة العامة، وبدأت الحكومة السوفيتية في إنشاء مزارع جماعية لهم، لكن التجربة فشلت.

وقد انفصل يهود بخارى عن ديانتهم اليهودية الحاخامية، واختلطت ممارساتهم الاجتماعية والثقافية الإسلامية إلى حدٍّ بعيد.

- أما يهود داغستان، فترجع أصولهم إلى هجرة عناصر إيرانية وبيزنطية لأذربيجان خلال الفترة الممتدة من القرن السابع مع الفتح الإسلامي للمنطقة، وحتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر. وقد اختلطوا بالقبائل المعزولة في الجبال، التي تتحدث لغة التات، وأصبحت لغتهم، ولذا يسمون أيضاً يهود التات، ويهود الجبال. ويبلغ عددهم حسب إحصاء ١٩٨٩ نحو ٢٠ ألفاً، بعد أن هاجر نحو ١٢ ألفاً منهم إلى إسرائيل بين عامي ١٩٧٤ - ١٩٨٥.

وقد اختلطت ثقافتهم بثقافة محيطهم القوقازي، التي جمعت عناصر يهودية وإسلامية ومجوسية ووثنية، فاكتسبوا - إلى جانب لغة التات - عادات وقيماً قَبَلية جبلية، مثل الشجاعة والثأر، وتنتشر بينهم الخرافات، ويعيشون في بيوت طينية منخفضة تعلق على حوائطها أسلحتهم المصقولة، ويسمون أبناءهم أسماء توراتية يضيفون إليها لاحقة أوف الروسية، وتشبه معابدهم المساجد، ويجلسون فيها على الأرض ويحفظون التوراة على طريقة الكتاتيب، وتنتشر بينهم عادات مجوسية مثل القسَم بالنار، وإشعالها بجوار المرضى، وكانوا يمارسون تعدُّد الزوجات.

وقد تدهورت أحوالهم كثيراً مع تحوُّل منطقتهم إلى ساحة صراع بين روسيا وتركيا وإيران، إضافة إلى صراعاتهم المحلية، وضمتها روسيا عام ١٨١٣، وعندئذ طالبوا السلطات الروسية بحمايتهم، وانتقلت نسبة كبيرة منهم (٤١٪) إلى المدن، حيث عملوا بالحرف الزراعية، وأعمال الصيد، والصباغة، والدباغة. وبعد الثورة البلشفية، تحالفوا مع السلطات السوفيتية أيضاً ضد بقية السكان، وساندوها ضد الحركة الانفصالية، الأمر الذي جلب لهم كراهية الجماهير.

وقد أدت حركة التصنيع في الاتحاد السوفيتي، والخطط الخمسية المتتالية إلى تفكيك الروابط القبلية بين يهود داغستان، فتحوَّل كثير منهم من الجبال إلى المصانع، إلا أنهم لا يزالون يحافظون على تقاليد عائلية وقبلية.

يهود الخَزَر

الخزر قبيلة من أصل تركي عاشت في منخفض الفولجا جنوبي روسيا، ووصلت إلى الفولجا من أقصى الشرق حوالي منتصف القرن الخامس على بعض الأقوال، وقام أفرادها بقهر القبائل التركية الأخرى وصهرها واستيعابها، ثم هزموا البلغار في نهاية الأمر، واضطروهم إلى الهجرة. وكانوا يشكّلون جزءاً من أتراك التركستان، حتى استقلت مملكتهم في شكل اتحاد من القبائل تخضع لحاكم واحد يُدعى الخاقان.

وكانت مملكة الخزر تقع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وأوقفت هجمات قبائل الإستبس والغجر البلغارية والمجرية على الدولة البيزنطية، كما أوقفت التقدم الإسلامي. ودارت بينهم وبين المسلمين معارك عديدة انتهت بهزيمة الخزر عام ٧٣٧ على يد مروان ابن محمد (مروان الثاني)، وأسلم بعدها خاقان الخزر، ولكنه ارتد إلى اليهودية، إذ إن الانتصار لم يدم طويلاً للدولة الأموية بسبب نزاعاتها الداخلية.

وظلت ملكة الخزر قوية وفي منزلة جسم مانع بين أوربا الشرقية وآسيا، تصد الهجمات الأوربية الشرقية والإسلامية، واستمرت مهيمنة في منطقتها حوالي قرن ونصف، بسبب الفراغ الإستراتيجي المحيط بها، حتى تدهورت في القرن العاشر بسبب تنامي قوة قبائل البيشنج في الشمال والغرب، والروس في إمارة كييف. وفي القرن العاشر قام حاكم كييف بتدمير عاصمتهم والقضاء على دولتهم عام ٩٦٥. وانتهت الإمبراطورية الخزرية تماماً باعتناق الأمير الروسي فلاديمير المسيحية، وتكوين تحالف مسيحي يضم بيزنطة في الغرب وروسيا في الشمال، ملأ الفراغ الإستراتيجي القائم، وسقطت الدولة الخزرية في مستهل القرن الحادي عشر، لكن الخزريين بقوا جماعة مؤثرة.

وفي عام ١٢٤٧ أجهز الغزو التتري على ما تبقَّى من الخزريين في وادي الفولجا، واختفوا تماماً كجماعة مستقلة.

وكان نظام مملكة الخزر يقوم على الملكية المزدوجة، حيث كانت

تخضع لسلطة الخاقان المطلقة، إلا أن هذا الخاقان كان يظهر للناس مرة كل أربعة أشهر، ولا يتحدث إلا إلى فئات محدودة، فيما كان نائبه البك يدير الشئون اليومية للمملكة.

وكانت التجارة المصدر المالي الأساسي للمملكة الخزرية، إذ كانت تتحكم في الطرق التجارية الواصلة بين الشرق الأقصى والإمبراطورية البيزنطية، وكذلك في الطرق الواصلة بين العرب والبلدان السلافية. وكانت تفرض الضرائب على البضائع المارة من خلالها. كما كانت تجبي الخراج من الدول الخاضعة لسيطرتها.

أما ديانتهم فكانت شامانية، تقوم على الاعتقاد بقدرة الشامان، أو الساحر، على شفاء الأمراض، والسيطرة على الأرواح الشريرة، إلا أنهم اعتنقوا اليهودية كديانة رسمية في عهد الملك بولان (٨٧٦-٨٠٩) الذي شهد أوج قوة المملكة وتحضُّرها. ويذكر أن ديانتهم كانت قرَّائية بسبب انتشار المدرسة القرَّائية العراقية آنذاك، ثم تحولت إلى الحاخامية، ولكن مع ذلك بقيت فيها آثار شامانية وثنية.

ونظراً لوجودهم بين قوتين عظميين في حالة صراع وانقطاع، فقد لعبوا دور الجماعة الوظيفية الوسيطة تجاريا، إضافة إلى دورهم كجسم مانع عسكريا. ويقال إن النخب الخزرية تهودت للحفاظ على هذه الطبيعة الاستقلالية بين الدولتين ذواتي الديانتين الكبريين: الإسلام والمسيحية، حتى لا تذوب في أي منهما، وحتى تربط بين نخب الدولتين.

ويرى كثير من المؤرخين أن أصول يهود أوربا الإشكناز ترجع إلى يهود الخزر وليس إلى فلسطين. وهم الذين كوَّنوا مملكة المجر في شرق أوربا من خلال تولية خاقان الخزر ملكاً عليهم، ثم انتشر الخزر والمجريون وشعوب أوربية أخرى بعد ذلك في أوربا شرقاً وغرباً، وكوَّنوا أنوية للجماعات اليهودية في أوربا الوسطى والشرقية، وذلك على خلاف ما تدَّعيه الصهيونية من أن أصل معظم اليهود فلسطين.

يهود الصين (يهود كايفنج)

يعود تاريخ يهود الصين إلى القرنين التاسع والعاشر حيث هاجرت مجموعة من يهود إيران - وربما الهند - إلى مدينة كايفنج عاصمة مقاطعة هونان الواقعة على النهر الأصفر، وإليها يُنسبون. وكانوا يتحدثون الفارسية. وكان لهم معبد يسمَّى معبد الطهر، وتُحفظ فيه الكتب المقدسة المكتوبة بالعبرية. وكان نائب الإمبراطور الصيني يزورهم مرة كل عام باسم الإمبراطور ويحرق البخور عند المذبح.

وقد اندمج يهود كايفنج بالتدريج وتزاوجوا مع الصينيين وبخاصة المسلمين، وفي مرحلة من المراحل كانوا يُصنَّفون كمسلمين، حتى اختفى أثرهم تقريباً. ويرجع ذوبانهم إلى أنهم عملوا بالتجارة وصناعة المنسوجات القطنية وصبغها، نظراً إلى حاجة الصين آنذاك لهذه الصناعة.

كما ساهمت في ذوبانهم الديانة الكونفوشيوسية، التي تسمح بالتعددية الدينية بما لا يهدد النظام القائم، حيث اشترطت على أية جماعة دينية أخرى فقط الاعتراف بعبادة الأسلاف والمكانة الدينية للإمبراطور، ولم تكن هناك أفكار دينية أو قومية تساعد على عزل اليهود أو غيرهم من الجماعات الدينية. وساعد على ذلك أيضاً سكنى اليهود في مركز الإمبراطورية الصينية حيث تزداد الحضارة وتقل الهمجية التي تميز الهوامش، وساعد النظام المركزي، وتكوُّن المجتمع الصيني من أسر ممتدة وعشائر، في تقليل التوترات بين الجماعات المختلفة وإدارة صراعاتها عن طريق الاحتكام إلى مؤسسات الدولة.

ومن الناحية الطبقية، كان يهود الصين في الوسط بين طبقة الفلاحين وطبقة الموظفين/ العلماء وكان طموحهم إلى الطبقة العليا، حيث التحرر من السخرة الجسدية، وحيازة المكانة والثروة.

وفي وقت لاحق، أعيد تنظيم طبقة الموظفين/ العلماء على نحو أكثر انفتاحاً منٍ خلال نظام الامتحانات الإمبراطورية، وكان ذلك عاملاً أساسيا في ذوبان اليهود لأن نظام الامتحانات كان يشترط للتعيين في طبقة الموظفين/ العلماء المعرفة بالكلاسيكيات الصينية والتفقه فيها واستبطان الثقافة الكونفوشيوسية. فارتبط بذلك التعيين في الوظيفة بتغيير شخصية الإنسان ومنظوره الفلسفي والديني. (قارن بسياسة الاستيعاب الفرنسية).

كما كان نظام التعيين في طبقة الموظفين/ العلماء يفرض على الشخص الذي يتم تعيينه ترك مدينته حتى لا تسود المحسوبية، فكان ذلك من العوامل التي زادت تفرُّق أبناء الطبقة اليهودية وانصهارهم.

وصاحب انتقال اليهود من طبقة الصُّناع إلى طبقة الموظفين/ العلماء انفتاح الطبقة العليا أمامهم للزواج المختلط والتشبه بتقاليد هذه الطبقة، فساعد ذلك على ذوبانهم.

وترافق كل ما سبق مع حدوث تمازج بين الديانة اليهودية والكونفوشيوسية، إلى أن طغت الثانية على الأولى وأصبح اليهود يتعبدون بالكونفوشيوسية، ثم اعتنقوها، ونشأت إلى جانب معابدهم صالات الأسلاف التي كانت تضم الآباء العبرانيين وأولاد يعقوب وموسى وهارون.. ومشاهير اليهود! وتبنوا طقوساً

كونفوشيوسية للاحتفال بالمناسبات الدينية اليهودية. ومع الوقت نسوا اللغة العبرية.

وفي عام ١٩٠٠ قامت مجموعة من اليهود الإنجليز في شنغهاي بتأسيس جماعة "إنقاذ يهود الصين" التي حاولت إحياء اليهودية في كايفنج دون جدوى، ولا يزال هناك ٢٥٠ يهودياً صينياً لكنهم لا يعرفون من اليهودية أكثر من كونهم يهوداً.

اليهود السود

يتضمن اليهود السود عدة مجموعات من اليهود من أصل أفريقي، أهمها العبرانيون السود، والفلاشاه، والفلاشاه مورا.

العبرانيون السود

العبرانيون السود فريق من الأمريكيين السود، يدَّعون أنهم السلالة الوحيدة الحقيقية الباقية من قبائل إسرائيل العشر المفقودة، ويتشددون أكثر من البيض في تطبيق الشريعة اليهودية، ويؤمنون بأن أنبياء إسرائيل كانوا من اليهود السود، وأن قناة السويس ما هي إلا ثغرة صنعها البيض للفصل بين إسرائيل وأفريقيا السوداء، ويطالبون برئاسة الدولة الصهيونية، كما يدعون الدول الأفريقية إلى استعادة مُلكها في إسرائيل الذي سرقه البيض.

وقد بدأوا في التدفق على إسرائيل عام ١٩٦٩، وبلغ عددهم ١٥٠٠ مهاجر، توزَّعوا بين عدة مستوطنات منعزلة، جميعها في النقب. ويمارس العبرانيون السود في إسرائيل ممارسات مخالفة للقانون والعادات الإسرائيلية، فلا يحملون مثلاً بطاقات هوية، ولا يسجلون زيجاتهم ومواليدهم ووفياتهم رسمياً، ويمارسون تعدُّد الزوجات، ويوفرون لأنفسهم كل الخدمات اللازمة بمعزل عن بقية السكان.

ولهذه الأسباب قوبل وجودهم في إسرائيل بانزعاج، وتشكلت لجنة قومية لطردهم منها، كما لم تعترف الحاخامية الرئيسية بيهوديتهم. وفي ١٩٧١ هاجرت مجموعة أخرى منهم إلى إسرائيل ولكنها منعت من الدخول وأعيدت إلى الولايات المتحدة.

الفلاشاه

الفلاشاه كلمة أمهرية تعني المنفيين أو غريبي الأطوار، ويعود أصل الكلمة إلى الجذر "فلاشا" أي يهاجر أو يهيم على وجهه، ويستخدم أهل إثيوبيا الكلمة للإشارة إلى جماعة إثنية أفريقية تدين بشكل من أشكال اليهودية. وحسب تقديرات عام ١٩٧٦ بلغ عددهم ٢٨ ألفاً. ويتركز الفلاشاه في شمال إثيوبيا، ويعيشون في قرى منعزلة مقصورة عليهم، غالباً ما تكون على قمم التلال، ويخصصون أحد الأكواخ كمعبد، وكوخين آخرين لعزل النساء وقت الطمث وبعد الإنجاب، وعدا ذلك لا تختلف أنماط معيشتهم عن بقية الإثيوبيين.

يعمل الفلاشاه أساساً بالزراعة كعمال أُجراء، كما يعملون في بعض الحرف الأخرى كصناعة الفخار، والسلاسل، والغزل والنسيج، والحدادة، والصباغة، والخياطة، ويعمل كثير منهم الآن عُمال بناء.

ويتحدث الفلاشاه الأمهرية في الغالب، ويتحدث سكان المناطق الإريترية منهم اللغة التيجرية، ويتحدث سكان المناطق الشمالية لغة أجاو. أما أدبهم فمكتوب كله بالجعزية اللغة الإثيوبية التقليدية، وهي أيضاً لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ولا يعرفون شيئاً عن العبرية. ويضم فلكلورهم أغاني ورقصات عديدة. أما تراثهم الديني فيمتلئ بكثير من الأساطير التي تمزج بين مكونات يهودية وإسلامية ومسيحية إلى جانب المعتقدات المحلية الوثنية. ولذا يخلع عنهم الكثيرون صفة اليهودية، ويرون أنهم مسيحيون تبنوا، لسبب أو آخر العهد القديم، بدلاً من العهد الجديد، كتاباً مقدَّساً.

وقد رفضت الوكالة اليهودية تهجيرهم إلى إسرائيل في أوائل الخمسينيات باعتبار أنهم ليسوا يهوداً، ونصحتهم بالتنصر لحل مشكلاتهم، إلا أن الموقف الصهيوني تغيَّر ابتداءً من عام ١٩٧٣، حيث اعتبر الحاخام شلومو غورن أنهم يهود حقيقيون من أحفاد قبيلة دان (تغليب العنصر الإثني في تعريف اليهودية)، وطبق عليهم قانون العودة الإسرائيلي، وبدأ تهجيرهم في عمليات متفرقة غلبت عليها السرية بدايةً من عام ١٩٧٧، بمساعدة من الولايات المتحدة.

ويرجع هذا التحول في الموقف الصهيوني من تهجيرهم إلى عدة أسباب أهمها:

- الحاجة الإسرائيلية إلى المادة البشرية اللازمة للحفاظ على الاستعمار الاستيطاني ومواجهة سكان المنطقة العربية الشرعيين.
- احتراف كثير من الفلاشاه الزراعة، والحاجة إلى أيديهم العاملة في هذا المجال، وخصوصاً بعد أن أصبح المستوطنون اليهود يعزفون عن زراعة الأراضي التي استولوا عليها، ويؤثرون حياة الدعة، ويستأجرون عمالاً عرباً لزراعتها.
- المردود المالي والإعلامي لتهجير الفلاشاه من إثيوبيا، حيث تنتشر المجاعات والحروب، إلى إسرائيل، وإظهار ذلك كعمل إغاثي وإنساني.

ولقد تعرَّض الفلاشاه بعد استقرارهم في إسرائيل، لكثير من مظاهر التمييز الديني والعرقي، فمن جهة، اعترفت الحاخامية الرئيسية في إسرائيل بيهوديتهم، إلا أنها اعتبرت أن يهوديتهم ناقصة، وأنه يجب عليهم لاستكمالها الاختتان والتطهر الطقوسي، ولم تمنحهم بطاقات هوية إلا بعد استكمال هذه الإجراءات. ومن الجهة الأخرى، رفض سكان المدن اليهودية إسكانهم إلى جانبهم أو إرسال أبنائهم إلى المدارس التي يذهب إليها أبناء الفلاشاه، وامتنعت بنوك الدم عن استخدام الدماء التي يتبرع بها الفلاشاه، ووصفتهم الصحافة الإسرائيلية تارةً بالمسلمين والسنيين وتارةً أخرى بالمسيحيين، وشاعت بين الفلاشاه حالات الانتحار والتهديد بالانتحار الجماعي احتجاجاً على سوء المعاملة. ويعيش أغلبهم في المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧، وتكونت لهم جمعية المهاجرين الإثيوبيين، ثم حزب "الأمل" برئاسة إفرايم يونا، الذي تشكَّل قبيل انتخابات ١٩٩٩ ولم يجتز نسبة الحسم اللازمة لدخول الكنيست، وتحالفت الطائفة الإثيوبية في إسرائيل مع حزب شعب واحد برئاسة رئيس الهستدروت عمير بيرتس.

وإذا كان نجاح المنظمة الصهيونية العالمية وإسرائيل في تهجير الفلاشاه يعتبر مظهر فاعلية وإنجاز، فقد عزز، في المقابل، الأزمة الهيكلية في البناء الاجتماعي السياسي لإسرائيل، ومن ذلك إثارة التساؤل حول من هو اليهودي، وشكَّك في مقولة الصهيونية الأساسية، وهي وحدة الشعب اليهودي، كما شكَّك في مقولة إسرائيل الأساسية في تعريفها نفسها بأنها دولة يهودية ديمقراطية.

الفلاشاه مورا

«الفلاشاه مورا» جماعة قبلية إثيوبية يقال لها أيضاً «فلاش مورا» وكلمة «فلاشا» تعني «منفيين» أو «غرباء» أما كلمة «مورا» فتعني «الأغيار». وتطلق عليهم هذه الإضافة ـ تمييزاً عن الفلاشاه ـ لأنهم تنصَّروا على يد المبشرين المسيحيين. وقد تنصَّر بعضهم منذ قرنين من الزمان والبعض الآخر تنصَّر قبل ثلاثين عاماً فقط.

ويبلغ عدد الفلاشاه مورا ٧٥ ألفاً، منهم ١٥ ألفاً تنصَّروا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة فلاشية متنصرة، والباقون (٦٠ ألفاً) اندمجوا في المجتمع الإثيوبي المسيحي. وقد حاول ثلاثة آلاف منهم الهجرة إلى إسرائيل مع الفلاشاه، ولكن إسرائيل اعترضت على ذلك ومنعتهم.

وإذا كان اليهود الفلاشاه لا يعتبرون الفلاشاه مورا يهوداً، ويفرضون على من يريد العودة إلى اليهودية منهم مراسم التهود كغير اليهود، فإن الحاخامية الإسرائيلية أيضاً رفضت تهجيرهم إلى إسرائيل باعتبار أنهم غير يهود، وأنهم لم يتنصَّروا عنوة، ولكنهم تنصَّروا باختيارهم، من أجل الحصول على المنافع الاقتصادية والاجتماعي في المجتمع الإثيوبي، وأنهم يودون الهجرة إلى إسرائيل للأسباب نفسها، ومن ثَمَّ فإن دوافعهم نفعية وليست أيديولوجية ولا دينية.

ومع ذلك فإن المرجح أن كلا من المؤسستين الحاكمة والحاخامية في إسرائيل ستجدان المبرر للتراجع عن هذا الموقف والسماح بتهجيرهم بسبب التعطش إلى المادة البشرية اللازمة لشغل الوظائف الدنيا في البناء الاقتصادي التي بدأ العرب في ملئها، بحيث أصبح المستوطَن اليهودي معتمداً عليهم، ولمواجهة السكان الشرعيين، بصرف المنظر عن مدى يهودية هذه المادة.

٩ ـ إشكالية الهوية اليهودية

من هو اليهودي؟

تزعم الصهيونية أن اليهود يمثلون شعباً واحداً، وتزعم إسرائيل أنها الوطن القومي لليهود، وتمنح أي يهودي في العالم جنسيتها بمجرد وصوله إليها. ومع ذلك فلا يوجد اتفاق على تحديد من هو هذا اليهودي الذي تتوجه إليه الصهيونية وتعتبره إسرائيل مواطناً. وهذه المعضلة يُشار إليها بسؤال تقليدي هو: من هو اليهودي؟ وهو سؤال يكشف بعمق أزمة شرعية وجود إسرائيل وضعف الأسس الصهيونية التي قامت عليها.

ويثير هذا السؤال الشائع في الكتابات اليهودية والإسرائيلية ـ على وجه الخصوص ـ ما يسمَّى أزمة «الهوية اليهودية» أو «الشخصية اليهودية»، بمعنى تحديد مجموعة الصفات الجامعة المانعة التي تشكَّلت كلٌّ منها حسب ظروفها التاريخية.

وهكذا لا يمكن الحديث عن هوية يهودية أو شخصية يهودية بشكل عام، لا يمكن، من ثَمَّ، الحديث عن مشترك عام يهودي من قبيل «الجريمة اليهودية»، «العبقرية اليهودية»، «التاريخ اليهودي»، أو عن سمات يهودية؛ سلبية، أو إيجابية، تتجاوز التفاوت، على غرار ما يشيع في الخطاب الصهيوني، وفي الخطاب المعادي لليهود على السواء.

ويلاحظ أن كلمة «يهودي»، بشكل عام هكذا، وبالمثل «الشخصية اليهودية»، كانت تعني، بالنسبة للصهاينة الأوائل، فقط اليهود الإشكناز في شرق أوربا، ولم تكن تشمل اليهود الشرقيين،

وكانت «المسألة اليهودية» تعني مسألة عدم اندماج يهود شرق أوربا في عملية التحديث التي شهدتها هذه المنطقة خلال القرن التاسع عشر. ثم انتشر هذا التعميم كنوع من الدعاية الصهيونية لدعم المشروع الصهيوني في فلسطين من خلال إظهار المسألة اليهودية الشرق أوربية على أنها مسألة عالمية يعانيها اليهود أينما كانوا، وتتجاوز السياقات التاريخية للجماعات اليهودية المختلفة.

كما يلاحظ أن إنشاء إسرائيل، وضمها مجموعات يهودية متنوعة الخلفيات التاريخية والحضارية، أكد، على عكس ما زعمت الصهيونية، أنه لا توجد شخصية يهودية واحدة، ولكن توجد شخصيات يهودية متعددة، حتى داخل الدولة الصهيونية التي كان يفترض، حسب الادعاء الصهيوني، أن تنتج «شخصية يهودية» حقيقية مبدعة لا تشوبها شوائب النفي والشتات. ويقر علماء الاجتماع الإسرائيليون بأن الانقسامات بين الجماعات اليهودية، حتى داخل إسرائيل، أمر واقع، لا يمكن تجاوزه.

الهويات اليهودية

تعترض الحديث عن الهوية أو الهويات اليهودية عقبات كثيرة، أهمها:

- أنه لا يوجد معيار متفق عليه بين اليهود حول أساس الانتماء اليهودي، هل هو ديني أم قومي أم ديني/ قومي؟ حتى إن البعض ذهب إلى معيار خارجي تماماً عندما قال: إن اليهودي هو من يعتبره الآخرون كذلك!
- أن رؤية الإنسان لهويته لا تتفق بالضرورة مع ممارساته وأفعاله، ولكنها تعبِّر عن مثل أعلى أو مجموعة من الرغبات. كما أنها لا تتفق بالضرورة مع رؤية الآخرين الذين تشملهم هذه الهوية، بل تتناقض مع بعضها البعض.
- أن الهوية ليست العنصر الوحيد ولا المركزي الذي يحكم سلوك الإنسان وتصرفاته.
- أن الهويات اليهودية تم تشكيلها في غياب سلطة مركزية دينية أو دنيوية، وعبر الاحتكاك مع عشرات الخبرات التاريخية والحضارية، وهو ما نتج عنه تنوُّع هائل بين الجماعات اليهودية.

ولهذا ظهرت الهويات اليهودية في شكل تركيب جيولوجي تراكمي يشمل طبقات متمايزة غير متفاعلة، الأمر الذي يفرض الانطلاق في دراسة الجماعات اليهودية في العالم من خلال معرفة ظروف تشكُّل كل منها، وخصائص السياق الحضاري الذي تعيش فيه، وليس من خلال النصوص اليهودية المقدَّسة وشبه المقدَّسة، التي لا تستطيع في معظم الأحيان أن تفسر سلوك طرف يهودي معيَّن، ولا التناقض بين الأطراف اليهودية المختلفة في تعاملها مع الموقف الواحد.

ولا يعني هذا أننا ننفي أهمية هذا المشترك الديني الذي يشكل مكوِّناً مهماً من مكوِّنات الهُويات اليهودية جميعاً، ولكننا نعتبر أنه مكوِّن يقع ضمن مكوِّنات عديدة، تبدو أكثر قدرة منه على تفسير واقع الجماعات اليهودية، بحيث يتضح أن هذا المكوِّن الديني للهُويات اليهودية ليس ذا مركزية تفسيرية.

وقد ظل الفكر الصهيوني والفكر المعادي لليهود ينظران إلى التنويعات اليهودية على أنها «الشعب اليهودي» أو «اليهود» وحسب، ويطلقان عليها أوصافاً إيجابية أو سلبية عامة، دون أن يختبر أحد مدى صدق هذا التعميم. ولكن التباين بين هذه التنويعات اليهودية ظهر بجلاء مع تأسيس الدولة الصهيونية وتفجَّر السؤال: من هو اليهودي؟ فإذا كانت الصهيونية تختزل التباينات اليهودية، وتتحدث عن يهود المنفى أو الشعب اليهودي، ككل يتجاوز الزمان والمكان، فإن هذه التباينات الواقعية لا تلبث أن تتفجَّر عندما يهاجر هؤلاء اليهود إلى إسرائيل، ويكتشف الجميع أنهم ليسوا يهوداً وحسب، ولكنهم يعودون مرةً أخرى ليصبحوا يهوداً مغاربة، ويهوداً روساً، ويهوداً فلاشاه، وتتحدَّد مكانتهم الاجتماعية ونظرة المجتمع والدولة إليهم وتعاملها معهم، أمنيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا، بناءً على الاعتبارات الحضارية المتنوعة المحيطة بتاريخ كل منهم، وهو ما يفجِّر قضية الهوية.

وبالنظر إلى التاريخ، نلاحظ أن التنوُّع وتعدُّد أسس تعريف اليهودي كانا سمتين غالبتين على الهويات اليهودية منذ العبرانيين، الذين كانوا يمثلون جماعة دينية وقومية، وكانت جماعات فرعية من المتهودين، وأبناء الزيجات المختلطة. ولذا كانت هذه الهوية العبرانية مرنة ومنفتحة، إلى حد أنها، رغم استنادها إلى أساس ديني متماسك تضمنت عناصر دينية كنعانية داخل هذا النسق الديني.

كما أن انقسام المملكة اليهودية، وارتباط كل من المملكتين الشمالية والجنوبية بتحالفات، قامت في بعض الأحيان على تزاوج الملوك من أميرات أجنبيات وثنيات، زاد الانفصال والتباين بين العبرانيين، وأدخل عناصر جديدة في الهوية العبرانية، لغويا ودينيا، وربط كلا منهم بأطراف خارجية متباينة.

وزاد هذا التنوُّع والتباين مع انتشار الجماعات اليهودية خارج فلسطين، واكتساب كل جماعة سمات من الحضارات التي تفاعلت معها. وفي وقت من الأوقات أصبح عدد اليهود خارج فلسطين

يفوق عدد اليهود فيها، وفي مرحلة ما لم تعد فلسطين مركزاً ليهود العالم.

ومن هذه الجماعات اليهودية التي انتشرت خارج فلسطين الحامية العبرانية في جزيرة إلفنتاين في أسوان، التي كوَّنها الفراعنة كجماعة وظيفية استيطانية قتالية لحماية الحدود الجنوبية، وانفصلوا من ثَمَّ عن فلسطين، ودخلت ديانتهم عناصر وثنية.

وبالمثل الجماعة اليهودية البابلية التي رفض معظمها العودة إلى فلسطين، وفضلوا المنفى البابلي، واشتغلوا بالتجارة والربا وتركوا الزراعة ونسوا العبرية. وكان لهذا التجمع علماؤه ومدارسه وتوجُّهه الثقافي الذي نما حتى أصبح، في مرحلة من المراحل، مركز اليهودية الأول في العالم. وزادت عزلتها عن فلسطين بسبب وقوعها في فلك الإمبراطورية الفارسية، في الوقت الذي خضعت فيه فلسطين للإمبراطورية اليونانية ثم الرومانية.

وفي هذه المرحلة سادت قاعدة أن شريعة الدولة هي الشريعة التي يجب أن يتبعها اليهودي في حياته العامة، أي أن الدين اليهودي تقلَّص كمحدد لهوية اليهودية، ليقتصر على المجال الشخصي أو مجال الجماعة اليهودية الداخلي، كما أضحت القومية اليهودية مجرد تطلعات ورموز انتماءات إثنية تضمن فقط عزلة الجماعة الوظيفية اليهودية عن محيطها الاجتماعي، لتضمن لها الاستمرار في أداء وظيفتها القتالية أو التجارية . . . إلخ.

وواكب تعدُّد الهويات اليهودية خارج فلسطين تفتت الهوية اليهودية داخل فلسطين أيضاً واضمحلالها، حيث اندمج كثير من اليهود العبرانيين في الحضارة الهيلينية التي كانت تعترف بأي يهودي على أنه هيليني متى أجاد اللغة اليونانية ومارس أسلوب الحياة اليونانية. وأثر الاحتكاك بهذه الحضارة في تعدُّد الفرق اليهودية، وظهور الانقسام بين الصدوقيين والأسينيين والفريسيين وغيرهم. كما انتقلت إلى فلسطين جماعات عديدة غير يهودية، تم فرض اليهودية عليها بالقوة من قِبَل الحشمونيين، وهو ما زاد تنوُّع اليهود، وتكوين هويات يهودية جديدة. وكانت ذروة ذلك التفتت عندما حدث تمرُّد من قِبَل بعض الجماعات اليهودية داخل فلسطين وخارجها، فالتزمت الجماعة اليهودية في بابل الحياد، وقف بعض الجماعات اليهودية في فلسطين إلى جانب الرومان وحاربوا معهم.

وانتهت هذه المرحلة بتحطُّم الهيكل وتأسيس المدرسة اليهودية المعيارية، أو اليهودية الحاخامية التي نعرفها الآن، وانفصلت عن العبادة القربانية. أما الأسينية فاندمجت في المسيحية، واختفى الصدوقيون وغيرهم. وعند هذه النقطة اختفت الهوية العبرانية الدينية والقومية، وظهرت مراكز يهودية عديدة في الإسكندرية وبابل، وأصبح من الممكن الحديث عن هويات يهودية عديدة بناءً على معيارين: ديني، يتميَّز فيه السامريون عن بقية الفرق كالصدوقيون والفريسيين، وإثني يتمايز فيه كل من يهود فلسطين المتأغرقين، ويهود فلسطين الساميين، ويهود فلسطين المتهودين من الإيطوريين والأدوميين، ويهود مصر المتأغرقين وغير المتأغرقين، ويهود إلفنتاين، ويهود روما ويهود بابل، وجماعات يهودية صغيرة أخرى انتشرت في آسيا الوسطى وشمال أفريقيا. ومما زاد التباين بين هذه الجماعات غياب أية سلطة دينية أو قضائية في فلسطين أو غيرها، بحيث تطورت كل جماعة على حدة، دينيا وقوميا.

وظلت هذه الفسيفساء قائمة إلى أن انحلت الإمبراطورية الرومانية، وانتشرت المسيحية في الغرب، وانتشر الإسلام في الشرق، فظهرت فسيفساء جديدة احتفظت بعناصر من الفسيفساء القديمة، بحيث أصبح من الممكن التمييز بين جماعتين رئيسيتين هما: يهود العالم الإسلامي، ويهود العالم المسيحي. وازدادت اليهودية توحيدية وعقلانية داخل العالم المسيحي. وزادت الفجوة بين الجانبين، فيهود الأندلس كانوا يكتبون ويتحدثون بالعربية، ويهود فرنسا كانوا يتحدثون الفرنسية ويكتبون بالعبرية، ثم ظهرت اليديشية في شرق أوربا، واللادينو في حوض المتوسط، وظهرت هويات يهودية أخرى مختلفة مع انتشار اليهود في العالم. ويمكن القول بأن ظهور العلمانية كان بمنزلة الطبقة الجيولوجية الأخيرة التي أعادت تشكيل الفسيفساء للمرة الثالثة، وهدَّدت اليهودية الحاخامية، وعمَّقت غياب التجانس بين الجماعات اليهودية في العالم.

التعريف الديني للهويات اليهودية

في العصور القديمة كانت اليهودية ديانة توحيدية في محيط وثني، وكانت تكتسب هويتها من هذا التعارض الواضح والبسيط، بيد أن الأمر اختلف كليا في العصور الوسطى الغربية وفي العالم الإسلامي، حيث وجد اليهود في محيط توحيدي إسلامي ومسيحي، ولذا حاول علماء اليهود أن يفصلوا بين اليهود وأتباع الديانتين التوحيديتين الأخريين، وكان التلمود ثمرة هذه المحاولة. وخلال هذه الفترة ظهر التعريف الحاخامي لليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو مَنْ تهوَّد، وهو التعريف الذي ساد حتى القرن التاسع عشر، واستمر كمرجع للتعريفات اليهودية وما يرتبط بها من إشكاليات حتى الآن. ومن أهم هذه الإشكاليات ما يلي:

- أنه تعريف ديني إثني مغلق، وكان متحرراً من فكرة الارتباط

بالهيكل، ولذا وقف الحاخامات موقف المعارضة من فكرة العودة، والماشيَّح الدجال مثل شبتاي تسفي، باعتبار أن العودة لا يمكن أن تتحق إلا بأمر إلهي سيأتي في آخر الزمان. أي أن العنصر القومي تم تسكينه وتحويله إلى تطلُّع ديني، ولكنه ظل كامناً، وتفجَّر مع تأسيس إسرائيل، وموقف القوى اليهودية الأرثوذكسية من الدولة.

- أنه يمنح الصفة اليهودية بشكل إثني لمن يولد لأم يهودية، حتى لمَ لَمْ يمارس التعاليم اليهودية، في حين يمنح الصفة اليهودية لمتهود بشكل ديني. وهذه الإشكالية أسَّست وعمَّقت الصراع العلماني/ الديني بين اليهود حتى تفجَّر كأوضح ما يكون في الوقت الراهن.

- في القرن الثامن ظهرت حركة إصلاح ديني يهودية، على أيدي القرَّائين الذين تأثَّروا بالنزعة العقلانية الإسلامية وعلم الكلام، ورفضوا الشريعة الشفوية (الحاخامية) التي جُمع معظمها في التلمود، ونادوا بأنه لا قداسة إلا للتوراة، أما الشريعة الشفوية فهي مجرد تفسيرات واجتهادات غير ملزمة، وهو موقف متناقض مع الشريعة الحاخامية، لدرجة أن الفقه اليهودي كان يواجه مشكلة: هل يعتبر القرَّاءون يهوداً أم لا؟ وهل يعتبر الزواج منهم زواجاً مختلطاً؟

- كما ظهرت مشكلة اليهود المارانوا في جزيرة أيبريا، الذي تظاهروا باعتناق المسيحية بعد استرداد المسيحيين هذه الجزيرة، وقد أفتى الفقه اليهودي بأن اليهودي الذي يُجبر على ترك دينه يظل يهوديا، ويجب عليه العودة إلى دينه متى سنحت الفرصة، ولكن هؤلاء اعتنقوا المسيحية باختيارهم للمحافظة على أملاكهم، وحينما سنحت لهم الفرصة لم يفروا من جزيرة أيبريا، بل إن انتماءهم الديني اليهودي ضعف مع الوقت، وأصبح من العسير عليهم التلاؤم مع اليهودية الحاخامية. ويرى البعض أنهم كانوا مسيحيين صادقين، وأن المسيحيين هم الذين أطلقوا عليهم وصف اليهود المتخفين حتى يحدوا من فرصهم في الحراك الاجتماعي في أوربا آنذاك. ولم يجد الفقه اليهودي حلا لمشكلتهم.

- كما ظهرت مشكلة يهود الدونمه من أتباع شبتاي تسفي الذين اعتنقوا الإسلام علناً، وأبقوا على انتمائهم اليهودي سرا، دون أن يرغمهم أحد على ذلك، وحينما ادعى شبتاي أن الماشيَّح عارضه اليهود الحاخاميون، ولم يجد الفقه اليهودي حلا لمشكلة الدونمه: هل هم يهود أم لا؟

ورغم انتشار اليهود واتساع التباينات بينهم ثقافيا ودينيا، كان التعريف الحاخامي الأرثوذكسي معياراً مقبولاً للتمييز بين اليهود وغيرهم، إلا أنه مع بروز العلمانية، أخذت اليهودية في الغرب تتجه تدريجيا نحو الأزمة، وبخاصة مع ظهور حركة "التنوير"، ثم «اليهودية الإصلاحية»، ومن بعدها «اليهودية المحافظة»، و«اليهودية التجديدية»، وجميعها فرق لا تعترف بها الحاخامية الأرثوذكسية، ناهيك عن انتشار نزعات الإلحاد والشك الديني بين اليهود، وظهور ما يسمَّى «اليهودية الإثنية» في الولايات المتحدة وكومنولث الدول الإسلامية، وروسيا وأوكرانيا، وهي يهودية فولكلورية قومية، وظهور «اليهودية الإنسانية» التي تؤسس الانتماء إلى اليهودية على القيم الإنسانية وليس الدين، إلى جانب ظهور فرق يهودية متأثرة بالمسيحية مثل "جماعات العلماء اليهود" الذين يعتبرون أن الطب الحديث لا طائل من ورائه، وأن الشفاء يكمن في العهد القديم، و"جماعة اليهود من أجل المسيح" التي اعتبرت أن المسيح بن مريم هو الماشيَّح اليهودي، ولكنها لم تعتبر أنه ابن الله.

وقد أصر كل هؤلاء، رغم إلحادهم الكامل، أو إنكارهم معظم مقولات الشريعة اليهودية، على أن يسموا أنفسهم يهوداً، الأمر الذي ولَّد موقفاً شاذا، هو أن معظم يهود العالم لا يلتزمون بالشريعة اليهودية، ولا ينطبق عليهم التعريف الحاخامي، الذي تؤمن به أقلية صغيرة تحتكر لنفسها صفة اليهودية، وحق إطلاق هذه الصفة على غيرها.

الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر

يمكن القول بأن مصطلح «يهودي» كان يشير منذ نهاية القرن التاسع عشر، حتى عشية ظهور الدولة الصهيونية، إلى عشرات الهويات والانتماءات الدينية والوثنية والطبقية على النحو التالي:

١ - يهود اليديشية (يهود شرق أوربا أو الإشكناز)، وهم أكبر القطاعات اليهودية في العالم، وكانوا ينقسمون إلى قسمين: متدينين يعرِّفون هويتهم على أساس ديني، وعلمانيين يعرِّفون هويتهم اليهودية على أساس إثني.

٢ - يهود العالم الغربي المندمجون، وكانوا يتحدثون لغات بلدانهم، وكانوا ينقسمون بدورهم إلى متدينين (إصلاحيين، ومحافظين، وتجديديين، وأرثوذكس) واللادينيين. وأكبر تجمُّع لهم في الولايات المتحدة، وقد تزايد عددهم بهجرة يهود اليديشية وهجرة العناصر السفاردية إلى الغرب، واندماجهم جميعاً في البلدان الغربية لغويا وثقافيا.

٣ - يهود أمريكا اللاتينية، الذين كانوا يتحدثون البرتغالية والإسبانية، وانضم إليهم آلاف اليهود الشرقيين والغربيين، واحتفظت كل جماعة بهويتها الفرعية داخل الإطار اللاتيني، لأن الإطار اللاتيني

المسيحي الكاثوليكي كان أيضاً منغلقاً، وحينما سادت العلمنة هذا المجتمع وفَقَدَ هويته، فَقَدَت تلك الجماعات اليهودية هوياتها أيضاً، وتعلمنت، واندمجت في المحيط اللاتيني.

٤ ـ يهود الشرق والعالم الإسلامي والعربي، وقد ضموا جماعات عربية وسفاردية ويديشية وغربية، وحصل كثير منهم على جنسيات أوربية.

٥ ـ الجماعات اليهودية المتفرقة، كالفلاشاه، وبني إسرائيل، ويهود الصين . . . إلخ.

ونحن نرى أن كل التقسيمات السابقة آخذة في الاختفاء، وأن هناك ثلاثة تقسيمات أساسية لليهود في العالم الآن هي:

١ ـ خارج فلسطين، هناك الهوية اليهودية الجديدة، التي تشمل يهود المجمعات الغربية الحديثة، وهي يهودية إثنية أو دينية (معظمها غير أرثوذكسي)، والمكون اليهودي فيها هامشي، وتتحكم فيها ثقافة الاستهلاك الغربية.

٢ ـ يهود الصابرا في المستوطن اليهودي في فلسطين، الذين يتحدثون العبرية، ولا تربطهم بيهود العالم سوى روابط واهية. ومعظمهم إثنيون ولادينيون.

٣ ـ اليهود الأرثوذكس، وهم أقلية صغيرة خارج إسرائيل وأقلية كبيرة داخلها.

وهذه الأقسام تشمل هويات لا حصر لها، دينيا، ولغويا، وحضاريا، ولا وجود لأيٍّ منها خارج سياقها الحضاري، وحتى إذا وُجدت هوية يهودي واحدة متماسكة ومستقلة نسبيا عن محيطها الحضاري، فإن ذلك لا يعني وجود هوية يهودية عالمية، إذ إن الناقض بين الهويات اليهودية هو السمة الغالبة.

يهودي غير يهودي ويهودي بشكل ما

«اليهودي غير اليهودي» عنوان أحد الكتب للمؤرخ والمفكر التروتسكي إسحق دويتشر، ويذهب إلى أن ثمة مكوناً عالميا في اليهودية تبدى في الفكر الثوري العالمي للمفكرين اليهود أمثال إسبينوزا وماركس، ودفعهم إلى أن يطوروا أنساقاً فكرية ثورية عالمية تجاوزت حدود اليهودية، خلال القرون الثلاثة الأخيرة.

وهؤلاء المثقفون ـ شأنهم شأن المسيحيين غير المسيحيين ـ أناس فَقَدوا علاقتهم بعقيدتهم وانتفت خصوصياتهم الدينية والقومية والحضارية، ولم يعودوا يؤمنون بشيء سوى أمور شديدة العمومية، مثل الشيوعية أو حماية البيئة، وغيرهما، وهو ما يسعى إليه النموذج العلماني في النهاية، ليصبح البشر جميعاً متشابهين، يسري عليهم القانون المادي العام، فيتحولوا إلى مادة قابلة للتوظيف غير متميزة عن الطبيعة.

وقد حفلت الحركة الشيوعية بكثير من اليهود غير اليهود، لدرجة أن الثورة البلشفية أُطلق عليها «الثورة اليهودية»، رغم أن هؤلاء اليهود غير اليهود كانوا معادين لليهود واليهودية، وانصرف جُلُّ همهم إلى تصفية الجيوب اليهودية اليديشية، تحت شعار دمج اليهود في مجتمعاتهم، وحل المسألة اليهودية من خلال الطرح الثوري. وكان منهم ماركس، وفرديناند لاسال، وروزا لوكسمبورج، وغيرهم.

ومن جهتها، فإن شعوب شرق أوربا ظلت تكره اليهود، حتى بعد اختفائهم من أوربا الشرقية، وذلك بسبب الدور الذي لعبته الجماعات اليهودية هناك، كجماعة وظيفية، في المجتمع التقليدي وفي العهد الثوري، لصالح النخب الحاكمة القيصرية ثم الشيوعية.

ويمكن أن نوسِّع مصطلح «اليهودي غير اليهودي» ليشمل أي مواطن من أصل يهودي تآكل انتماؤه اليهودي، سواء الإثني أو الديني، أو اختفى تماماً، واندمج في النمط العلماني العام، مثل اليهود الجدد، ورغم كل ذلك يصنف كيهودي، إما من قِبَل ذاته على سبيل الادعاء، وإما من قِبَل الآخرين على سبيل القسر، دون أن يرتبط ذلك بسلوكه واتجاهاته.

أعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية

ما يقال له «المسألة اليهودية» هو، في جانب أساسي منه، مشكلة «الهوية اليهودية» في التشكيل الحضاري الغربي، وتعود هذه المسألة إلى العصور الوسطى في الغرب، حيث لعب أعضاء الجماعات اليهودة دور الجماعة الوظيفية، كتجار ومرابين، فانعزلوا عن المجتمع، وزاد هذه العزلة تلاقي مصالح هذه الجماعات مع أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية المماثلة في العالم الإسلامي والغربي، بحيث تم النظر إليهم كقومية واحدة، رغم أنهم انتموا، حقيقةً، إلى تشكيلات حضارية متباينة، وكوَّنوا ما يشبه النظام المصرفي العالمي آنذاك، أو ما أطلق عليه البعض «الأمة/ الطبقة»، ما زاد هذه العزلة كذلك التصور المسيحي المحيط بهم، باعتبارهم قتلة المسيح، والشعب الشاهد ببؤسه وذلته على عظمة الكنيسة وصدقها، وتبدى كل ذلك في عزل اليهود في الجيتو.

وقد استمر هذا الوضع، بدرجات متفاوتة، حتى القرن التاسع عشر، حين ظهرت برجوازيات محلية مسيحية، ثم دول مطلقة، فدول قومية اضطلعت بأعمال الجماعات الوظيفية اليهودية، وهو ما

أدى إلى الاستغناء عنها وتفكيكها، وأصبح على اليهود فيها إعادة تعريف هويتهم، بحيث يصبحون مواطنين كاملي الولاء لدولة، دون أية خصوصية دينية أو وظيفية، ويندمجون، من ثَمَّ، في الطبقة الوسطى أو أية طبقة أخرى.

وخلال القرن التاسع عشر، كانت قد تبلورت، في ضوء نتائج عملية التحديث هذه، هويتان يهوديتان أساسيتان:

- الأولى هوية يهود غرب أوربا الذين اندمجوا في مجتمعاتهم، اقتصاديا وثقافيا ولغويا، وفي هذا الإطار، ظهرت اليهودية الإصلاحية التي فصلت الدين عن القومية والإثنية، وعرَّفت اليهودية تعريفاً دينيا خالصاً، كما فعلت ذلك أيضاً اليهودية الأرثوذكسية، وبذلك أصبح الجانب القومي من اليهودية مرتبطاً بالإرادة الإلهية.

إلا أنه مع تزايُد معدلات العلمنة في هذه المجتمعات، تراجع البُعد الديني في اليهودية تدريجيا لصالح البُعد الإثني، وإن كان هذا البُعد اليهودي الإثني ظل هامشيا أيضاً بالمقارنة بالانتماء الوطني الغربي. ولذلك أخذت التطلعات اليهودية الدفينة لليهود في الغرب تأخذ شكل الحنين الروحي للعودة إلى صهيون إذا كان اليهودي متديناً، أو الحماسة لمساندة الصهيونية توطين اليهود الراغبين في ذلك في فلسطين إذا كان اليهودي علمانيا. ولا يمكن فصل ذلك عن المصالح اليهودية في غرب أوربا التي كانت تنصرف آنذاك إلى تحويل اتجاه هجرة يهود شرق أوربا من غرب أوربا إلى أي مكان آخر، حتى لا يهدِّدوا مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية التي حصلوا عليها من خلال الاندماج.

- والهوية الثانية هوية يهود شرق أوربا، الذين شكَّلوا آنذاك معظم يهود العالم، ومرت عملية التحديث في مجتمعاتهم، التي دخلت هذه العملية متأخرة نسبيا عن الدول الأوروبية الغربية، بفترة تعثُّر طويلة ابتداءً من عام ١٨٨٢، وكانوا يتحدثون اليديشية في مجتمع سلافي، ويدينون باليهودية في مجتمع مسيحي أرثوذكسي وشكَّلوا مجتمعاً له لغته وثقافته الخاصة، شأن عديد من القوميات التي تكوَّنت منها الإمبراطورية الروسية. وقد حاولت الدولة الروسية صبغهم بالصبغة الروسية، لكنها فشلت مع تعثُّر عملية التحديث.

وفي ضوء فشل الحل الاندماجي، ساد تصوران للتعامل مع المسألة اليهودية في شرق أوربا، هما، من ناحية، ما سُمِّي «قومية الدياسبورا»، وهي قومية تستند إلى الميراث الثقافي والقيمي لكل جماعة يهودية على حدة، ولا ترتبط بمكان محدَّد، ولا لغة محدَّدة، ومن ثَمَّ يمكن تسميتها «الهوية اليهودية ليهود شرق أوربا» وليست قومية الدياسبورا، وقد اعترف الاتحاد السوفيتي بهذه الهوية في إطار الاتحاد، لغويا وثقافيا، خلال الثلاثينيات، وبرز ذلك في مقاطعة بيروبيجان التي سمح لها باتخاذ اليديشة لغة رسمية، وكان يمكن أن تتحول إلى جمهورية من الجمهوريات السوفيتية لو هاجر إليها عددٌ كاف من اليهود. ومع الوقت انصهرت هذه الهوية في الاتحاد السوفيتي، من خلال العلمنة والتحديث والإبادة النازية، حتى اندثرت تماماً.

أما التصوُّر الآخر فهو التصوُّر الصهيوني الذي أعلى الجانب "القومي" في اليهودية، ولم يحفل بالجانب الديني إلا بمقدار ما يعزز ما يسمَّى «القومية اليهودية»، ومع ذلك ظهر اتجاه بين الصهاينة اعتبر أن القومية والدين اليهوديين هما شيء واحد، وأن الهوية اليهودية قومية دينية، الأمر الذي زاد حدة الانشقاقات والتناقضات داخل الكيان الصهيوني.

التعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

حاولت الصهيونية طرح تعريف جديد لليهودية يتفق مع وضع اليهود الجدد في أوربا بعد ظهور الدولة العلمانية، يقوم على علمنة الأفكار القومية الكامنة في التراث الديني اليهودي، ويستند في هذا إلى مصدرين خارجيين: أولهما معاداة الآخرين لليهود، باعتبار أنهم مثَّلوا أجساماً غريبة في المجتمعات التي عاشوا فيها، والآخر وضع اليهود الطبقي المتميز في المجتمعات الغربية، كجماعات وظيفية. وقد أخذ بهذا الطرح معظم الصهاينة الأوائل.

بيد أن معظم الاتجاهات الصهيونية المعاصرة أصبحت تتبنى طرحاً آخر مستمدا من حركيات ما يقال له «التاريخ اليهودي»، تجعل اليهود كلا يتجاوز الزمان والمكان، لا يمكن أن يحقق ذاته إلا في فلسطين (إرتس يسرائيل في الخطاب الديني) مثلما حدث تحت حكم المملكة العبرانية المتحدة (الكومنولث الأول)، والدولة الحمونية (الكومنولث الثاني)، إلى أن تم هدم الهيكل.

ولذا يرى الصهاينة أن هويات يهود "المنفى" هويات مريضة وغير سوية، ولا يمكن تطبيعها إلا من خلال "العودة" إلى فلسطين (إرتس يسرائيل وأرض الميعاد . . .)، من خلال تأسيس وطن قومي لليهود (الكومنولث الثالث) يحققون فيه شخصيتهم الحقيقية، ويصيرون شعباً مثل بقية الشعوب.

وقد حاول أنصار هذا الطرح تأسيس الهوية اليهودية على أُسس متعدِّدة، أولها العِرْق، حيث اعتبر فريق منهم أن اليهود جنس متميز، ولكن هذه النظرية سقطت في الغرب، وبخاصة بعد ظهور آثارها المدمرة متمثلة في النازية. ورأى فريق آخر أن أساس الهوية

اليهودية إثني تراثي أو ثقافي، مستمد من رموز الديانة اليهودية والتراث اليهودي التي حافظت على الرابطة اليهودية على مدى أربعة آلاف سنة. ورأى فريق ثالث أن الديانة اليهودية مصدر القومية اليهودية، وأنه لا يمكن التفرقة بين القومية والعقيدة اليهودية، فاليهود أمة مقدسة وقداستهم مصدر عزلتهم وتميزهم.

وإذا كان التعريف العرْقي قد اندثر، وتوارى التعريف الثقافي مع تأسيس الكيان الصهيوني وهزيمة الصهيونية الثقافية، فقد ساد التعريفان العلماني الإثني، والديني الإثني في إسرائيل، وهما يتصارعان ويفجران، من خلال تفاصيل الحياة القومية، أزمة الهوية اليهودية وسؤال: من هو اليهودي؟

ويمكن القول إن التعريف الصهيوني لليهودية هو الأساس النظري للممارسات العنصرية والعنف الإسرائيلي ضد العرب باعتبار أن الدولة دولة اليهود، أو حتى إضفاء القداسة على اليهود، وعلى ما يقومون به من أعمال في هذه الدولة، وأهمها مصادرة الأرض وتهويدها.

الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية

كان التيار العلماني التيار الغالب في الصهيونية، وهو يعتبر اليهود قومية، أو شعباً واحداً، وكان التيار الديني هامشيا يتحين الفرصة لفرض تعريفه الأرثوذكسي الإثني/ الديني لليهودية. وقد أنشئت إسرائيل عام ١٩٤٨، وعرَّفت نفسها بأنها دولة الشعب اليهودي في العالم، واستمدت شرعيتها من هذا الادعاء.

وقد أصدرت الدولة الصهيونية عدة قوانين تعطي حقوقاً لأصحاب الهويات اليهودية، أولها قانون العودة الذي يتيح لأي يهودي الهجرة إلى إسرائيل والاستيطان فيها، ثم صدر عام ١٩٥٣ قانون تكميلي هو قانون المواطنة، الذي يمنح الجنسية الإسرائيلية لكل المهاجرين اليهود. ولكن أيا من هذه القوانين لم يُعرِّف من هو اليهودي؟! وفي قانون المواطنين يوجد بند الجنسية (إسرائيل)، والديانة (يهودي أو مسلم أو مسيحي)، والقومية (عربي أو يهودي)، حيث تمزج الصهيونية بين الدين والقومية في تعريفها الهوية اليهودية. أما في أمور الزواج والطلاق فتمارس الحاخامية الأرثوذكسية سلطاتها بناءً على تعريفها الأرثوذكسي وحسب.

وتثير التجربة الإسرائيلية في التعامل مع مشكلة الهوية اليهودية عديداً من التناقضات التي تكشف هشاشة الأسس والادعاءات الصهيونية بشأن اليهود، التي أقيمت عليها إسرائيل. ومن ذلك:

١ ـ التناقض بين الدينيين واللادينيين:

إذا كان التعريف الحاخامي الأرثوذكسي أمراً معروفاً ومحدداً، ويمكن الحكم عليه بمقاييس موضوعية خارجية (الولادة من أم يهودية أو التهوُّد على يد حاخام أرثوذكسي)، فإن التعريف العلماني لليهودية أمر ذاتي داخلي تماماً، ويستحيل قياسه، لأنه يعتمد على اعتبار اليهودي أنه يهوديا، بناءً على ما يشعر به في قرارة نفسه، وبصرف النظر عن مدى التشابه والاختلاف بين ما يشعر به كل يهودي في العالم، ويعتبر نفسه، بناءً عليه، يهوديا. أي أنه لا يوجد بالفعل مقياس حقيقي يمكن تعريف اليهودي العلماني بناءً عليه. وقد أثارت حالات كثيرة هذا الجدل بشأن يهودية اليهودي العلماني، منها، على سبيل المثال، حالة بعض أعضاء الجماعات اليهودية الأرجنتينية الذين احترفوا الدعارة، وكوَّنوا مؤسسات اقتصادية واجتماعية، بل دينية، خاصة بهم، وكانوا يصرون على تعريف أنفسهم بأنهم يهود، وليسوا مجرد جماعة تمارس نشاطاً معيناً، وتنظم نفسها على هذا الأساس، كما هو سائد في النظم العلمانية. وقد تسبَّب ذلك في كثير من الحرج لأعضاء الجماعة اليهودية التي كافحت هذا الجيب حتى قضت عليه تماماً.

٢ ـ التناقض بين السفارد والإشكناز:

الصهيونية، منذ بدايتها، عرَّفت اليهودي على أنه اليهودي الأبيض، وكانت المسألة اليهودية في شرق أوربا هي نفسها المسألة الصهيونية، ولذا كان على اليهودي أن يثبت بياض بشرته حتى يتسنى له أن يشارك في المشروع الصهيوني ويستفيد من امتيازاته. وهناك العديد من الجهود التي بذلها علماء اجتماع وسياسيون، استهدفت إثبات أن اليهودي هو فقط اليهودي الأبيض. وهذا يتعارض مع موقف الصهيونية وإسرائيل الذي يزعم أنه يعبِّر عن يهود العالم.

والملاحَظ أن الصهيونية تعتبر اليهود الشرقيين يهوداً وحسب في أوطانهم. أما حينما يهاجرون إلى إسرائيل فيعتبرون يهوداً شرقيين، ويبدأ التعامل معهم على أنهم مادة بشرية قادرة على حل أزمة المصادر البشرية، وشغل قاعدة الهرم الإنتاجي حتى لا يُترك للعرب، وبهذا تشتبك مشكلة الهُوية مع مشكلة الإنتاجية، خصوصاً وأن الصهاينة يعتبرون أن اليهودي الجديد شخصية منتجة، على خلاف يهودي المنفى.

٣ ـ التناقض بين التعاريف الدينية المختلفة:

توجد تناقضات عديدة بين اليهود الأرثوذكس وغيرهم من الإصلاحيين والمحافظين، تتعلق بكيفية التهوُّد، حيث لا يعترف الأرثوذكس بالتهوُّد إلا على يد حاخام أرثوذكسي، ويتطلب ذلك ختان الذكور، وأخذ الإناث حماماً طقوسيا أمام ثلاثة حاخامات، وهو ما يتسبب في كثير من الحرج للمتهودات، كما يتطلب الالتزام

بالأوامر والنواهي الشرعية، وفي المقابل يكفي للتهود لدى الإصلاحيين حضور محاضرة عن التاريخ اليهودي، أو قراءة مقطوعة من العهد القديم. ويضيف الإصلاحيون أن اليهودي من وُلد لأم يهودية، أو أب يهودي، وليس فقط من وُلد لأم يهودية، وهو أمر لا توافق عليه الحاخامية الأرثوذكسية. كما تنكر الأرثوذكسية على اليهود المحافظين التزامهم بالشريعة.

٤ ـ تناقضات أخرى:

هناك تناقضات ذات طبيعة مختلطة، دينية وإثنية، كالتناقض الديني الإثني بين السفارديم والإشكناز، حيث يوجد على رأس المجتمعين المتدينين الأروذكسيين السفاردي والإشكنازي حاخاميتان؛ واحدة للشرقيين، والأخرى للغربيين، وتوجد بينهما اختلافات مذهبية عديدة. والتناقضات بينهم لا تنفصل عن البنية الاجتماعية والطبقية لكلا المجتمعين داخل إسرائيل. كما توجد اختلافات أخرى بين القرّائين والسامريين بشأن التزاوج بين هاتين الطائفتين، وإذا ما كان كل منهما يهوديا حقيقيا.

والمهم، في هذا السياق، أن كلا من هذه الاتجاهات يتعايش في الواقع الإسرائيلي جنباً إلى جنب، ويحاول كل منها فرض تعريفه الخاص لليهودية، من خلال استصدار القوانين التي تحدد من هو اليهودي، الأمر الذي يثير أزمات ائتلافية وسياسية متكررة، بين الأحزاب والقوى المختلفة التي تعبِّر عن هذه الاتجاهات.

كما يُلاحَظ أن الكيان الصهيوني مستمر في جذب المهاجرين الذين لا يرتبطون باليهودية بأية صلة، وقد بلغت نسبة غير اليهود في الهجرات الحديثة من دول الاتحاد السوفيتي السابق ٦٠٪ من المهاجرين، وأثار وجودهم التناقضات السالفة، ولكن مع ذلك بدأت تتكرس معايير خاصة لتعريف اليهودي، من قبيل أن اليهودي من يربط نفسه بمصير الشعب اليهودي، وهي معايير تكشف عن أن الدافع الأساسي لاستقبال هؤلاء المهاجرين هو الحاجة الدائمة إلى مادة بشرية قادرة على خدمة المشروع الصهيوني في فلسطين، بصرف النظر عن يهودية هذه المادة، وهو ما يكشف بجلاء أزمة شرعية وجود الدولة الصهيونية، ويكشف عن وجهها الاستعماري القح.

وأخيراً، فقد سقط الإجماع الإسرائيلي بشأن كثير من الأمور وليس فقط اليهودية، فأصبحت تثور تساؤلات من قبيل: من هو الصهيوني؟ هل هو الذي يهاجر إلى فلسطين، أم من يدعم إسرائيل من الخارج؟ وخلال العقدين الأخيرين شاع السؤال حول من هو الإسرائيلي؟ وذلك في ظل اتهام اليمين لليسار بالخيانة وتهديد بقاء الدولة من خلال التنازل عن الأراضي المحتلة، وهو ما انتهى باغتيال رابين، وكذلك بشأن الأقلية العربية في إسرائيل وعدم تمتعها بالحقوق نفسها التي يتمتع بها اليهود رغم كونهم مواطنين في الدولة نفسها إضافة إلى امتناع تيار من المتدينين عن الخدمة العسكرية. وهو ما يؤكد تشظي المجتمع الإسرائيلي، وازدياد النزعة الفردية في الحكم على الأمور.

استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

هناك تناقضات مركبة بين الطرح الصهيوني للهوية اليهودية، وبين الجماعات اليهودية خارج إسرائيل. فالصهيونية تهدف إلى ما يسمَّى تطبيع الشخصية اليهودية، من خلال "نفي الدياسبورا" أو الشتات اليهودي، وتخليص هذه الشخصية من سلبيات المنفى، من خلال تصفية الأقليات اليهودية وتحويلها إلى فلسطين، لتكون وقوداً بشريا للمشروع الصهيوني فيها، وقد قَبل الصهاينة الدينيون المشروع الصهيوني، واندمجوا فيه، على أمل أن تَسنح لهم الفرصة، فيما بعد، لفرض رؤيتهم لهوية اليهودية حسب المفهوم الأرثوذكسي. ومن ثَمَّ أصبحت هناك عدة تناقضات أساسية بين المشروع الصهيوني وإسرائيل من جهة، وبين أعضاء الجماعات اليهودية في الخارج في المقابل:

١ ـ أن يهود الخارج، على خلاف الطرح الصهيوني، كانوا يريدون الهجرة إلى فلسطين، ولا يعتبرون شخصياتهم شخصيات مريضة يجب تصفيتها أو تطبيعها من خلال الهجرة. وحتى الذين تصهينوا منهم، فإنهم فعلوا ذلك حسب شروطهم، وأولها الاكتفاء بدعم إسرائيل من الخارج وعدم الهجرة إليها.

٢ ـ أن معظم يهود العالم خارج المستوطَن الصهيوني لا يتبعون المذهب الأرثوذكسي الذي يهيمن على المجالات الدينية والاجتماعية في إسرائيل، فهم إما علمانيون، وإما متدينون على مذاهب أخرى. وكلتا المجموعتين تتصادم مع الحياة في إسرائيل. فالعلمانيون يجدون أنفسهم في تناقض مع المؤسسة الدينية والاجتماعية التي تفرض رؤيتها في مجالات كالزواج والطلاق داخل إسرائيل، وبحسب تأثيرها في الكنيست الذي يتنامى في هذه المرحلة في ظل سقوط الصهيونية في إسرائيل. والمتدينون لا يجدون في إسرائيل تلك الدولة اليهودية، بل يجدون فيها أكثر دول العالم استهلاكية وإباحية. ورغم أن ذلك أمر معتاد في الغرب، فإن اليهودي الغربي المتدين، حينما يقرر الهجرة إلى إسرائيل، فإنه يبحث عن شيء روحاني فيها، بعيداً عن العلمانية والاستهلاكية السائدة في الغرب، وهو ما لا يجده في إسرائيل. وإن أصر على هذه الحياة الدينية فإنه

يصطدم بالأرثوذكسية التي لا يتحملها لأنه يتبع في الغرب مذاهب مخففة جدا من اليهودية، ومن جهتها لا تعترف به المؤسسات الأرثوذكسية كيهودي.

وحتى يتم قبول المهاجر إلى إسرائيل على أنه يهودي فإنه إما أن يتم تهويده مرةً أخرى حسب المذهب الأرثوذكسي، وذلك بالنسبة إلى اليهودي القادم من جماعات هامشية كالفلاشاه، وإما أن يعيش في مرتبة متدنية بعد الأرثوذكس في الهرم الديني، ويعاني كثيراً من المشكلات في المجال الاجتماعي، وذلك بالنسبة إلى اليهودي القادم من جماعات رئيسية كيهود الولايات المتحدة وروسيا.

٣- وحتى من الناحية الأخلاقية التي تمثل الحد الأدنى من "اليهودية"، لا يجد المتدين القيم اليهودية التي يحلم بها في السلوك اليومي الإسرائيلي سواء في التعامل مع الانتفاضة، أو حتى في التعامل مع المهاجرين الجدد، الذين يعتبرهم المستوطنون القدماء منافسين لهم في الوظائف والمزايا المختلفة، إلى حد أن بعض المفكرين من تيار ما بعد الصهيونية، يفضل إلغاء قانون العودة، بالنظر إلى الزحام الذي أحدثته هجرة اليهود الروس أخيرا، وضيق موارد البلد.

٤- يشكو اليهود المتدينون من أن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية صادر الرموز والمصطلحات الدينية، بحيث يتصور كثير من اليهود الآن أن اليهودية والصهيونية مترادفتان، وأن المرء يمكنه أن يحقق هويته اليهودية من خلال التبرع للدولة الصهيونية.

٥- أن الدولة الصهيونية تتصرف مع يهود الخارج حسب مصالحها، ولا تراعي مصالحهم وهويتهم المستمدة من البلدان التي يعيشون فيها، وتبرهن حالة الجاسوس الأمريكي اليهودي جوناثان بولارد، الذي تجسَّس على الولايات المتحدة لصالح إسرائيل، على ذلك، حيث تعكس تصورين للهوية: أولهما صهيوني يهودي، والثاني أمريكي يهودي.

١٠ـ اليهود والجماعات اليهودية: إشكالية التعريف

اليهود

كلمة «يهود» على إطلاقها تثير إشكاليات كثيرة، لأنها تخلط بين جماعات بشرية شديدة التباين من حيث الأصل والميراث الحضاري والمذاهب الدينية، ويرجع هذا الخلط إلى التراث الإنجيلي الذي يتحدث عن اليهود باعتبارهم كلا متماسكاً، أو بوصفهم الشعب اليهودي.

وتفترض هذه الكلمة «اليهود» على إطلاقها أن هناك علاقة عضوية بين يهود العالم، وأنهم يخضعون لحركيات تاريخية واحدة تجبُّ الانتماءات المتنوعة والتناقضات الكامنة والظاهرة بين أبناء الجماعات اليهودية المختلفة في العالم، ويحبِّذ الصهاينة استخدام مثل هذه المصطلحات التي تظهر اليهود كشعب واحد أو كل متماسك لأنها تعبِّر عن نموذجهم التفسيري، وتخدم أهدافهم.

ولهذا، تستخدم هذه الموسوعة مصطلحاً آخر هو «الجماعات اليهودية»، باعتباره أكثر دلالة على التمايزات الموجودة بالفعل بين يهود العالم، رغم وجود مشترك شديد العمومية يتعلق بالهوية والدين. ويربط هذا المصطلح كل جماعة بظروفها التاريخية المتعينة التي ميَّزتها عن غيرها من الجماعات، منذ انتشار اليهود في أنحاء العالم المختلفة بعد التهجير البابلي، وتأثُّر كل جماعة منهم بظروف الحضارة والبيئة التي عاشت فيها. فمثلاً خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، أصبحت الجماعات اليهودية في أوربا أقنان بلاط وتجاراً ومرابين داخل النظام الإقطاعي، وبدأوا يواجهون مشكلة ظهور طبقات مالية وتجارية محلية، في الوقت الذي لم يتسم يهود العالم الإسلامي في المقابل بتميز وظيفي حاد، بل شاركوا في الثورة التجارية التي حدثت آنذاك، وكانوا جزءاً من محيطهم الحضاري الإسلامي كما هو واضح في العصر الذهبي لليهود في الأندلس. ومن جهة أخرى، كان يهود بلاد فارس قد بدأوا يستقرون في الصين ويكتسبون سمات الحضارة الصينية الكونفوشيوسية، وكان يهود الخزر قد بدأوا يتنصَّرون ويندمجون في المجر أثناء تأسيسها، وكان يهود الفلاشاه قد اندمجوا في التشكيل الحضاري الأفريقي وكوَّنوا مملكتهم وانخرطوا في الحروب القبلية المختلفة. وهكذا لم يعد من الممكن تفسير كل هذه الظواهر في إطار واحد يقع خارج التطور التاريخي والبيئة الواقعية، استناداً إلى مفهوم الشعب اليهودي، وأصبح من اللازم تفسيرها في السياق الحضاري الخاص لكل جماعة، والقوانين الحاكمة لحركة كل منها.

وقد أثَّرت هذه التمايزات الحضارية تأثيراً عميقاً في كل جماعة يهودية من النواحي العقيدية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، حتى إن كثيراً منها اختفى بالتنصُّر أو الإسلام أو الوثنية أو العلمانية، أو لم يبق لكثير منهم من اليهودية غير الاسم، وحتى أولئك الذين ثبتوا على يهوديتهم بفضل الظروف المواتية لذلك في بيئاتهم الحضارية، فقد انقسموا إلى مذاهب أرثوذكسية ومحافظة وتجديدية أو إصلاحية، بل الاختلاف بينها حد تكفير بعضها بعضاً.

وكان من الطبيعي أن تتباين مشكلات كل جماعة بحسب

السياق الحضاري الذي تعايشه، فمشكلات يهود الفلاشاه مثلاً هي المجاعات المنتشرة في إثيوبيا والتميز العنصري ضدهم في إسرائيل، في حين يعاني يهود اليمن مثلاً الافتقار إلى المعلمين الدينيين، والكتب الدينية بسبب انقطاع صلاتهم بمراكز الدراسات الحاخامية في الغرب، وأن دولتهم في حالة عداء مع الدولة الصهيونية، أما يهود الولايات المتحدة فمشكلاتهم نابعة من البيئة الأمريكية، حيث يواجهون خطر الإبادة الصامتة نتيجة تزايُد معدلات علمنتهم واندماجهم في الحياة الأمريكية، ويعانون مشكلات مع الأمريكيين السود بسبب وجود هؤلاء في المناطق الفقيرة التي كان اليهود يعيشون فيها، وتحقيق اليهود حراكاً اجتماعياً أعلى منهم. ويعاني يهود هولندا الانقسام بين السفارد (المنحدرين من أصول إسبانية وبرتغالية) والإشكناز (ذوي الأصول البولندية والألمانية)، ويعاني يهود فرنسا الانقسام بين اليهود المهاجرين من شمال أفريقيا ويهودها الأصليين.

وإذا كان هذا التفاوت بين الجماعات اليهودية يرجع إلى اختلاف أماكن تواجد اليهود ومعيشتهم، فإن العامل الزماني أيضاً يؤثر كثيراً في النظر إلى تطور الجماعات اليهودية حتى داخل البلد الواحد، وخصوصاً في البلدان التي تعرضت لتحولات تاريخية عميقة، فلا يمكن الحديث مثلاً عن يهود مصر ككل متماسك، ولكن تختلف الجماعات اليهودية في مصر باختلاف العصور وطبيعة كل مرحلة، حيث كان اليهود العبرانيون في مصر عبيداً وكانوا يتحدثون المصرية القديمة، ثم اكتسبوا اللسان الكنعاني بعد تسللهم إلى فلسطين، ثم تحدَّثوا العبرانية والآرامية في وقت من الأوقات وعبدوا آلهة وثنية متنوعة، ثم تأغرقوا وتحدثوا الهلينيّة واتخذت عبادتهم أبعاداً هلينية، وبعد الفتح الإسلامي لمصر تحدَّثوا العربية واتخذت ديانتهم طابعاً توحيديا، وفي العصر الحديث تغربوا واندمجوا في العلمانية. وهكذا لا يمكن التعامل معهم بوصفهم يهود مصر وحسب، كما لو أنهم يمثلون كلا يتجاوز السياق التاريخي والحضاري الذي عاشوا فيه.

ومصطلح «الجماعة اليهودية» لا يعني أن اليهود يشكلون جماعة واحدة في كل دولة، فقد توجد جماعة واحدة داخل دولة ما، وقد توجد عدة جماعات يهودية في الدولة الواحدة كما في بريطانيا والولايات المتحدة، ودول أمريكا اللاتينية، حيث توجد في كل من هذه الدول جماعة يهودية رئيسية وعدة جماعات يهودية صغيرة لها هويات متمايزة.

ويعتبر مصطلح «الجماعة» أفضل من مصطلح «الطائفة» الذي يكتسب دلالات دينية، في حين أن الانقسام بين الجماعات اليهودية لا يحدث على أساس ديني فقط، وأفضل كذلك من مصطلح «أقلية»، لأنه لا يعتمد على الكم.

يهودي

تتكون كلمة «يهودي» من قسمين: «يهوه» وتعني «الرب»، و«ودي» وتعني في الأصل السامي «الاعتراف والإقرار والجزاء»، ومنها أيضاً كلمة «دية» عند العرب. وهكذا تعني الكلمة «شكر الإله»، أو الاعتراف بنعمته. وقد اشتقت ليئة زوجة يعقوب هذا الاسم لابنها الرابع من هذا المعنى حسب سفر التكوين، فأسمته «إيهودا»، وإليه ينتسب اليهود باعتبارهم قبيلة من قبائل العبرانيين الاثنتى عشرة.

وقد أُطلقت الكلمة على مملكة يهودا؛ المملكة الجنوبية، ثم اتسعت دلالتها بعد التهجير الآشوري واختفاء سكان مملكة يسرائيل من مسرح التاريخ واستمرار مملكة يهودا قرنين من الزمان، فأصبحت تُطلَق على كل من يعتنق الديانة اليهودية في أي زمان ومكان بصرف النظر عن انتمائه العرْقي أو الجغرافي.

ولكن المسألةَ ليست بهذه البساطة، حيث استخدمت الكلمة لدلالة على مسميات مختلفة عبر التاريخ، فكانت تعني في الحضارتين الهلينية والرومانية أبناء القوم اليهودي، حيث كانت العقيدة مسألة ثانوية، واستخدمت كلمة «يهودي» بعد ذلك للدلالة على الدور الذي يقوم به أبناء الجماعة اليهودية في أوربا خلال العصور الوسطى كجماعة وظيفية، فحتى القرن الحادي عشر الميلادي استخدمت الكلمة بمعنى «تاجر»، ثم أصبحت مرادفة لكلمة «مرابي»، ولذلك كانت كلمة «يهودي» تحمل في الحضارة الغربية مضامين سلبية مثل «بخيل»، و«غير شريف»، و«عبد المال»، ولذا اعتبرت الماركسية أن الرأسمالية هي «تهويد المجتمع». وارتبطت الكلمة في الإنجليزية باسم يهوذا الإسخريوطي الذي باع المسيح بحفنة من القطع الفضية.

وشهد القرن التاسع عشر اتجاهين متناقضين، فمن ناحية أسقط بعض اليهود كلمة «يهودي»، واستخدموا كلمة «عبراني»، و«إسرائيلي»، و«موسوي» [على غرار مسيحي]، للتخلص من المضامين السلبية لكلمة يهودي في محيطهم الحضاري المعادي لليهود، ومن ناحية أخرى بدأ ترويج أسطورة اليهودي التائه، وإضفاء شيء من القداسة على صفة اليهودي. وبدأت كلمة «يهودي» تعود وتَجُبُّ كلمتي «عبراني» و«موسوي»، وتوقَّف الحديث عن المضامين السلبية لكلمة «يهودي» في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد صاحب حركة التنوير وضعف اليهودية الحاخامية تَرْك كثير من اليهود عقيدتهم، وإن استمروا في تسمية أنفسهم يهوداً، وهكذا ظهر «اليهودي غير اليهودي»، الملحد والعلماني والإثني، وهو فيما يمكن تسميته «اليهود الجدد»، ولم يعد مصطلح «يهودي» يشير إلى الإيمان باليهودية كعقيدة كما كان الحال قديماً. ومن هنا بدأت مشكلة تعريف اليهودي، حتى بين اليهود أنفسهم، حيث يوجد تعريفان متضاربان أحدهما ديني يعتمد الشريعة معياراً للتصنيف ويؤمن به ١٨٪ فقط من يهود العالم، والآخر علماني يأخذ به ٦١٪ من يهود العالم، والباقون (٢١٪) مترددون، فإن شعر أحدهم في قرارة نفسه بأنه يهودي يمكن اعتباره كذلك. بل ذهب البعض إلى أن اليهودي هو من يعتبره الآخرون كذلك.

ويُعدُّ الخلاف على تحديد «من هو اليهودي» من أهم الأمور التي تقوِّض شرعية الوجود الإسرائيلية، حيث تعتبر إسرائيل نفسها دولة اليهود، وتعتبر الصهيونية نفسها مشروعاً لإنقاذ اليهود وتجميعهم في فلسطين، كتعبير عن تطلعاتهم القومية، دون أن يكون هناك اتفاق بين اليهود أو الصهاينة على من هو ذلك اليهودي.

عبري

كلمة «عبري» أقدم التسميات التي أُطلقت على أعضاء الجماعات اليهودية، وتختلف المصادر في تحديد أصلها، فيرى البعض أنها مشتقة من كلمة «عبيرو» التي تَرِد في المدوَّنات المصرية القديمة، أو «خابيرو» التي ترد في المدونات الأكادية، ويرى آخرون أنها مشتقة من العبور، وبالتحديد عبور نهر الفرات للإشارة إلى عبور يعقوب الفرات هارباً من أصهاره، ويرى آخرون أن التسمية ترجع إلى «عابر» حفيد سام الذي تُنسب إليه مجموعة كبيرة من الأنساب. وكان أول شخص يُشار إليه بأنه عبري إبراهيم عليه السلام، وكانت الكلمة تعني الغريب الذي لا حقوق له، ويؤكد البعض هذا المعنى بالإشارة إلى أن العبرانيين كانوا في مصر غرباء بلا حقوق فترة طويلة، وارتبطت بهم هذه التسمية، وتحولت مع الوقت إلى تسمية إثنية واجتماعية. ووردت الكلمة في سفري الخروج والتكوين كمرادف لكلمة «يهودي» ولكلمة «يسرائيلي». ويفضِّل بعض الصهاينة العلمانيين استخدام كلمة «عبري» أو «عبراني» على استخدام كلمة «يهودي» أو «يسرائيلي» باعتبار أن الكلمة تشير إلى العبرانيين كجماعة إثنية قبل اعتناقهم اليهودية، فيركزون على الجانب العرْقي للكلمة، وليس الجانب الديني. ويقال في إسرائيل: اللغة العبرِية والأدب العبري، [وانتشر اسم «عبري» أو «عفري» بين كثير من اليهود]. كما ظهرت خارج إسرائيل كلية الاتحاد العبري، والجمعية العبرية لمساندة المهاجرين (هياس).

يسرائيل

«يسرائيل» كلمة عبرية قديمة غامضة المعنى، تتكون من قسمين: «يسرا»، ومعناها الذي يحارب أو يصارع، و«إيل»، ومعناها الإله. والكلمة تعني حرفياً: «الذي يصارع الإله»، أو «جندي الإله إيل». وهي في كل التفسيرات تحمل معنيين محدَّدين هما الصراع والقداسة.

وتروي الأساطير الأكادية أن الكلمة أصبحت اسماً ليعقوب عليه السلام بعد أن صارع الإله، وأجبره على أن يباركه، وهي أسطورة تتشابه مع الأساطير اليونانية القديمة التي يتصارع فيها البطل مع الإله، فيكتسب سمات مقدَّسة تجعله فوق البشر، وقدرة على الانتصار في علاقاته مع الآخرين. ثم أُطلقت الكلمة على نسل يعقوب، وأصبحت تشير إلى المملكة الشمالية قبل التهجير الآشوري، ثم استُخدمت للإشارة إلى المملكة الجنوبية كذلك وهي مملكة يهودا، بعد سقوط مملكة يسرائيل، إلى أن حلَّت كلمة يهودي محلها.

وللكلمة في دلالتها الاصطلاحية معنيان أساسيان: فهي تعني اليهود بوصفهم شعباً مقدَّساً، وتعني فلسطين بوصفها أرضاً مقدَّسة. وترد مضافاً إليها كلمات أخرى مثل «عام يسرائيل» أي «شعب إسرائيل»، و«بيت يسرائيل» أي «بيت إسرائيل»، و«كنيست يسرائيل» أي «مجمع إسرائيل»، و«مدينة يسرائيل» أي «دولة إسرائيل».

صهيوني

«صهيوني» من يؤمن بالأيديولوجية الصهيونية سواء من خلال القيام بالاستيطان في فلسطين، أو من خلال دعم الاستيطان فيها بأي شكل من الأشكال. وهو يتميَّز عن اليهودي بكونه ليس يهوديا بالضرورة، فهناك الصهيوني المسيحي، والصهيوني اللاديني مثلاً، كما أنه في المقابل ليس كل يهودي صهيونيا بالضرورة.

إسرائيلي

«الإسرائيلي» تعبير قانوني يشير إلى مواطن دولة إسرائيل، وهو يختلف عن اليسرائيلي القديم الذي يشير إلى العبرانيين كجماعة دينية. كما أن الإسرائيلي يختلف عن الصهيوني، فليس كل

الإسرائيليين صهاينة، وليس كل الصهاينة إسرائيليين، والإسرائيلي يختلف أيضاً عن اليهودي، فليس كل الإسرائيليين يهوداً، وليس كل اليهود إسرائيليين.

ونظراً للاختلاط والتضليل الذي تحمله المصطلحات السابقة، فإننا نفضِّل استخدام كلمة «عبراني» للإشارة إلى اليهود القدامى من حيث هم تجمُّع بشري له خصائص مميَّزة، ونقصر لفظ «عبري» على الناحيتين اللغوية والأدبية. كما نستخدم كلمة «يسرائيلي» للتعبير عن العبرانيين القدامى من حيث هم تجمُّع ديني، تمييزاً لهم عن الصهاينة المستوطنين في فلسطين الذين لا يجتمعون على أساس ديني [ولا تربطهم بالعبرانيين القدامى صلة قومية أو دينية]، ونستخدم كلمة «الإسرائيليين» للإشارة إلى مواطني الدولة الصهيونية، على أن تظل كلمة «يهودي» مصطلحاً يشير إلى معتنقي الديانة اليهودية بصرف النظر عن انتمائهم العرْقي أو الإثني، أو الحضاري، أو وجودهم في فلسطين أو خارجها، ويشير إلى كل من يُطلق على نفسه هذه الصفة.

١١ - إشكالية التعداد

أعداد الجماعات اليهودية وتوزُّعها في العالم حتى الوقت الحاضر

١ - بلغ تعداد العبرانيين عام ١٠٠٠ ق.م، حسب بعض التقديرات التخمينية، نحو ١,٨٠٠,٠٠ نسمة، منهم ٤٥٠,٠٠٠ في المملكة الجنوبية، ١,٣٥٠,٠٠ في المملكة الشمالية. ويرى البعض أن هذا الرقم مُبالغ فيه كثيراً بالنظر إلى إمكانات فلسطين الطبيعية والاقتصادية آنذاك. وقد تناقص العدد كثيراً بسبب تدهور الأوضاع في المملكتين، حتى بلغ عام ٧٠١ ق.م نحو ١,١٠٠٠,٠٠٠ نسمة، منهم ٣٠٠,٠٠ في المملكة الجنوبية، و٨٠٠٠,٠٠ في المملكة الشمالية. وفي عام ٥٦٨ ق.م، بعد التهجير البابلي، بلغ عدد اليهود ١٥٠,٠٠٠ يعيشون جميعاً في المملكة الجنوبية. ولم يبق أحد في المملكة الشمالية، حيث ذاب اليهود الذين تم تهجيرهم إليها وفقدوا هويتهم العبرانية. ولم يتجاوز عدد سكان مقاطعة يهودا بعد مرسوم قورش ٧٠٠,٠٠٠ على الأكثر.

٢ - وفي نهاية القرن الأول، بلغ عدد يهود العالم نحو ٨,٠٠٠,٠٠٠ عاش منهم ما بين ٢,٣٥٠,٠٠ و٢,٥٠٠,٠٠٠ فقط في فلسطين، وذلك قبل هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠م. وعاش ٣,٢٠٠,٠٠٠ في سوريا وآسيا الصغرى وبابل، وتوزَّع الباقون في أماكن أخرى. ويقال إن الإسكندرية وحدها كانت تضم ما يتراوح بين نصف مليون ومليون يهودي، أي نحو ٤٠٪ من سكانها.

وترجع الزيادة الكبيرة في عدد اليهود في تلك الفترة إلى عدة عوامل أهمها التهويد الذي مارسته الدولة الحشمونية لكثير من رعاياها من الإيطوريين والأدوميين، وتهوُّد كثير من الرومان قبيل سقوط إمبراطوريتهم، كما عاش اليهود في ظل السلام الروماني بعيداً عن الحروب فقلَّت بينهم الوفيات.

كما يقال إنه بعد سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية باعتبارهم ساميين ويمارسون الوظيفة نفسها.

٣ - وفي العصور الوسطى في الغرب والعصر الإسلامي في الشرق، اختفت أعداد كبيرة من اليهود بسبب الدخول في المسيحية والإسلام. وتتضارب الإحصاءات بشدة حول تعداد اليهود في هذه الفترة، ويرى بعض المراجع أن عدد اليهود كان حوالي مليون نسمة، وأن حوالي ٨٥٪ - ٩٠٪ منهم تركزوا في العالم الإسلامي مع نهاية القرن الثاني عشر. وخلال القرن الخامس عشر بلغ تعدادهم مليون ونصف.

وحتى ذلك التاريخ كان معظم يهود العالم من السفارد، ولم يكن الإشكناز سوى أقلية صغيرة، ولكن الصورة أخذت تتغير بالتدريج حتى انقلب الوضع مع بداية القرن التاسع عشر، وتركَّز معظم يهود أوربا في بولندا، التي كان يوجد بها ١,٢ مليون يهودي من مجموع الإشكناز الذين بلغوا ١,٧٥ مليون. وكان تعداد يهود العالم وقتئذ ٢,٢٥٠,٠٠٠ نسمة. ولا يوجد تفسير مقنع لهذا التضخم المفاجئ في تعداد يهود بولندا وشرق أوربا إلا بهجرة يهود الخزر بعد سقوط مملكتهم. أما يهود العالم الإسلامي فتراوح عددهم بين ٦٠٠,٠٠٠ ومليون.

٤ - بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥، حدث انفجار سكاني يهودي حيث تضاعف عدد اليهود من ٢,٥٠٠,٠٠٠ عام ١٨٠٠ إلى ٣,٢٨٠,٠٠٠ عام ١٩٢٠ ثم إلى ١٠,٦٠٢,٥٠٠ عام ١٩٠٠، ثم بلغ عدد اليهود عشية الحرب العالمية الثانية نحو ١٦,٧٢٤,٠٠ نسمة، وتركزت هذه الزيادة في يهود الغرب، في حين انكمش تعداد يهود الشرق، ولم يتجاوز المليون عام ١٩٠٠. ومع ذلك يمكن القول بأن الزيادة في يهود الغرب لم تكن مقصورة على اليهود وحدهم، ولكنها كانت سمة ميزت الغرب بشكل عام. حيث تضاعف سكان أوربا بين

عامي ١٨١٥ و١٩١٤ . وزاد سكان الولايات المتحدة من ٧,٢٤٠,٠٠٠ عام ١٨١٠ إلى ٩١,٩٧٢,٠٠٠ عام ١٩١٠ . وإذا كانت الزيادة الأمريكية مبعثها الهجرة، فإن الزيادة الأوربية كانت بسبب الزيادة الطبيعية . وكانت الزيادة بين اليهود أعلى من المعدل الأوربي العام . ويرجع ذلك ـ بخاصة في شرق أوربا ـ إلى ارتفاع الدخول وتحسُّن المستوى الصحي، والتزام اليهود بالتقاليد والشرائع اليهودية الخاصة بالطعام الشرعي، والزواج المبكر وحفظ النسل، حيث كانت نسبة الأطفال غير الشرعيين أقل لدى اليهود بشكل ملحوظ منها لدى غير اليهود . وتذكر المراجع أن اليهود كانوا يزوجون أبناءهم في سن البلوغ، وفي بعض الأحيان كانت تعقد زيجات لأطفال دون الثانية عشرة . كما يشار أخيراً إلى أن كثيراً من الدول الأوربية لم تكن تجنِّد اليهود في جيوشها، فقلَّ تعرضهم للقتل .

٥ ـ إبان الحرب العالمية الثانية، وفي ١٩٣٩ بلغ تعداد اليهود ١٦,٧٢٤,٠٠ منهم ٩,٤٨٠,٠٠٠ في أوربا، وكانت الولايات المتحدة تضم ٤,٩٧٥,٠٠٠ يهودي، بحيث أصبحت الولايات المتحدة مركزاً لأكبر تجمُّع يهودي في العالم، لأن يهود أوربا كانوا موزَّعين على دول عديدة، أهمها روسيا وبولندا ورومانيا . وتوزَّعت البقية على دول العالم المختلفة . ويلاحَظ أن ٥,٥٣٧,٠٠٠ يهودي ـ أي ثُلث يهود العالم آنذاك ـ كانوا يتركزون في دول استيطانية هي الولايات المتحدة، وكندا، وجنوب أفريقيا، والمستوطنات الصهيونية في فلسطين، وأستراليا، ونيوزيلندا، وأمريكا اللاتينية . وبذا أصبحت الجماعات اليهودية جزءاً من التجربة الاستيطانية الغربية (الأنجلوساكسونية تحديداً) .

وفي هذه المرحلة اختفت العوامل التي أدت إلى تزايُد اليهود خلال المرحلة السابقة، بل تناقصت أعدادهم بشكل ملحوظ، وذلك بسبب تصاعُد معدلات العلمنة . ففي بداية القرن التاسع عشر، كانت الجماعات اليهودية أقل تأثراً بالعلمنة، ولكن هذه المعدلات تزايدت بينهم بسبب "الإصلاحات" التي أجرتها الدول الغربية من أجل دمج اليهود، حتى بلغت معدلات العلمنة لديهم في نهاية القرن أعلاها، حيث كان ٣٠٪ من السجناء السياسيين من اليهود، وازدادت بينهم نسبة العاهرات والقوادين والأطفال غير الشرعيين .

ويمكن تفسير تناقُص عدد اليهود في هذه المرحلة بالعوامل التالية :

ـ الهجرة اليهودية الكبرى، التي شملت ٥٠٪ من يهود شرق أوربا . ومن المعروف أن المهاجرين عادةً ما يميلون إلى تفادي الإنجاب بسبب عدم استقرارهم، ويقال إن الهجرة اليهودية قضت تقريباً على اليهود من الفئة العمرية ٢٠ـ٤٠ سنة، وهي مرحلة الخصوبة .

ـ تركُّز اليهود في المدن وتحسُّن مستواهم المعيشي واندماجهم .

ـ المعارك التي جرت خلال الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين العالميتين، وخصوصاً في البلدان الأوربية الشرقية، وتجنيد اليهود في الجيوش الحديثة .

ويرى البعض أنه خلال ٢٥ عاماً بين عامي ١٩٠٥ و١٩٣٠ انخفضت معدلات الخصوبة بين اليهود من ١٨ في الألف إلى ٨ في الألف، وأن ما أحرزه اليهود خلال ١٥٠ عاماً من ١٧٥٠ إلى ١٩٠٥ فُقد خلال ٢٥ عاماً .

وأثناء الحرب العالمية الثانية بلغت هذه الاتجاهات ذروتها، فزادت حركة الجماعات اليهودية واضطر كثير منها إلى إخفاء هويته، ولم تشجع ظروف الحرب على الزواج والإنجاب، إضافة إلى من سقطوا قتلى للجوع والمرض (١٥٪ من يهود روسيا مثلاً)، والحروب . ويقدَّر عدد الذين لقوا مصرعهم حتى ١٩٤١ بنحو ٢٥٠ ألفاً، وهرب الألوف إلى الاتحاد السوفيتي، وأثناء هروبهم هلك بعضهم، ولم يكترث كثير من الناجين بعد وصولهم بإظهار هويته اليهودية . وتوضح هذه الصورة أن كثيراً من اليهود يمكن أن يكونوا قد هلكوا بالفعل أثناء الحرب العالمية الثانية، وليس بسبب النازية، ولكن بسبب العوامل الأخرى، وذلك ما يجعلنا نشك كثيراً في رقم ستة الملايين الذين أبادتهم النازية حسب الادعاءت الصهيونية .

٦ ـ بعد الحرب العالمية الثانية، ظهرت الصورة السكانية التي لم تزل قائمة حتى الآن، وهي أن الولايات المتحدة أصبحت وطن اليهود بلا منازع، إذ بلغ عددهم خمسة ملايين عام ١٩٤٨، ثم ارتفع العدد إلى ٥,٨٧٠,٠٠٠ عام ١٩٦٧ من مجموع يهود العالم البالغ ١٣,٨٣٧,٠٠٠ في العام نفسه . أي أن نصف يهود العالم تقريباً موجود في الولايات المتحدة، كما تركَّز معظم يهود العالم في الدول الاستيطانية، وبلغ ٩,٥٨٣,٠٠٠، منهم ٦,٩٥٢,٠٠٠ في الأمريكتين، و٢,٤٣٦,٠٠٠ في إسرائيل، و١١٥,٠٠٠ في جنوب أفريقيا، و٥,٥٠٠ في روديسيا، و٧٥,٠٠٠ في أستراليا . أما يهود أوربا، فتركَّزوا في الاتحاد السوفيتي، وبلغ عددهم مليونين عام ١٩٤٨، ثم ارتفع إلى ٢,٦٥٠,٠٠٠ عام ١٩٥٩ .

أعداد الجماعات اليهودية وتوزُّعها في العالم وبعض معالمها السكانية في الوقت الحاضر

يُقدَّر عدد سكان العالم من اليهود طبقاً لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليوناً (١٢,٩٣٤,٦٠٠) وصل إلى ١٢,٩٦٣,٨٠٠ عام

١٩٩٢ (حسبما ورد في **الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي** لعام ١٩٩٤). وهو يقل قليلاً عن عددهم عام ١٩٨٢ والبالغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ أو عددهم عام ١٩٨٤ وهو ١٢,٩٦٣,٣٠٠ (وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر في النمو). وقد تناقص هذا العدد عن عددهم في عام ١٩٦٧ حيث كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠، أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون في الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي. والجماعات اليهودية موزعة في الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية في كل أرجاء العالم على النحو التالي:

أوربا (بما في ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا)	١,٩٢٤,٢٠٠
آسيا (فلسطين المحتلة أساساً)	٤,٣٧٨,٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا أساساً)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية (الولايات المتحدة أساساً)	٦,٤٠٩,٧٠٠
أستراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

وأكبر تسع جماعات يهودية هي:

الدولة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٤٣,٥٪
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٣٢,٨٪
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٤,١٪
روسيا	٤١٥,٥٠٠	٣,٢٪
كندا	٣٥٦,٠٠٠	٢,٨٪
بريطانيا العظمى	٢٩٨,٠٠٠	٢,٣٪
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٢,١٪
الأرجنتين	٢١١,٠٠٠	١,٦٪
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	٠,٨٪

وإذا نظرنا إلى توزُّع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية، فإن الصورة سوف تختلف تماماً. فلو استبعدنا سكان المُستوطَن الصهيوني، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساساً في أمريكا الشمالية حيث توجد أغلبيتهم الساحقة التي تبلغ ٤٦,٢٤٪، وفي أوربا الغربية حيث تبلغ ١٤,٩٪، وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم ٥,٣٪، أي أن ٦٩,٨٪ من يهود العالم يوجدون في أمريكا الشمالية وأوربا، ويعيش معظمهم في الوقت الحالي في البلدان الناطقة بالإنجليزية (الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا). ولذا، فيمكننا أن نقول إن اللغة التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هي الإنجليزية وليست العبرية أو اليديشية. ومن الملاحَظ أن الجماعات اليهودية في أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي وأوربا آخذة في الذوبان، وأن عددهم في أمريكا اللاتينية آخذ في التناقص السريع. ولذا يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يُقال له «الشعب اليهودي» سيصبح جزءاً لا يتجزأ من الشعب الأمريكي بعد أن كان جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربي ومن شعوب شرق أوربا. ونلاحظ في الجدول السابق، الذي يبين أكبر تسع جماعات يهودية في العالم، أن ٩٣,٢٪ من يهود العالم يعيشون في تسعة مراكز رئيسية ومنها الدولة الصهيونية، وأن ٧٦,٣٪ يعيشون في دولتين اثنتين (الولايات المتحدة وإسرائيل). ونلاحظ أن البلاد التي يُوجَد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشي مرتفع ودخول مرتفعة، كما أنها تنتمي إلى ما يمكن تسميته بالتشكيل العرْقي الأبيض، ففي الأرجنتين، حيث تُوجَد أعلى نسبة من البيض في أمريكا اللاتينية، توجد أيضاً أعلى نسبة من اليهود.

وهناك عنصر آخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥٪ من يهود العالم توجد في أوربا. وتوجد الأغلبية العظمى في دول استيطانية: الولايات المتحدة وكندا اللتين تضمان ٥,٩٧٦,٠٠٠ (٤٦,٢٧٪ من يهود العالم). وإسرائيل التي تضم ٤,٢٤٢,٥٠٠ (٣٢,٨٥٪ من يهود العالم). وجنوب أفريقيا التي تضم ١٠٠,٠٠٠ (٠,٨٪). والبرازيل والأرجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢,٠٠٠ (٢,٩٪). ويمكن أن نضيف كذلك أستراليا ونيوزيلندا التي تضم ٩٤,٦٠٠ (٠,٧٪). أي أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوربا وبتجربتها الاستيطانية جغرافيا وتاريخيا. إذ يُوجَد في هذه البلاد ٩١٪ من يهود العالم. وكذلك فإن الدياسبورا اليهودية، أي انتشار أعضاء الجماعات في أنحاء العالم، ليست انتشاراً عشوائيا وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري الغربي، خصوصاً في جانبه الاستيطاني. وبالتالي، فإن إسرائيل لا تشكل استثناءً من القاعدة بل هي جزء من نمط غربي عالمي. وارتفاع الدخول ليس منفصلاً تماماً عن العنصر الاستيطاني إذ إن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساساً إلى حل

المشكلات الاقتصادية للمجتمعات الغازية وكانت إحدى أهم المشكلات هي الفائض البشري. وقد كان المجتمع الغربي ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الإطار.

وفيما يلي تَوزُّع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم في الوقت الحاضر حسب إحصاءات ١٩٩٢ :

الأمريكتان :

١ ـ الشمالية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢,٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١,٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠,٩

٢ ـ الوسطى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأنتليز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢,٣
بنما	٢,٥٦٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢,٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠,٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١,١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠,١
الدومينكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	–
فيرجن أيلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢,٨
كوبا	١٠,٩٠٧,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
كوستاريكا	٣,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠,٤
بلاد أخرى	٢٥,٣٣٠,٠٠٠	٣٠٠	–
المجموع	١٥٦,٣٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠,٣

٣ ـ الجنوبية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأرجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
إكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروجواي	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧,٦
باراجواي	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠,٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠,١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠,٤
شيلي	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١,٠
كولومبيا	٣٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠,٢
المجموع	٣٠٨,٦٤٧,٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	١,٢
المجموع الكلي للأمريكتين	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨,٥٣

أستراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
أستراليا	١٧,٨٤٣,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥,٠
نيوزيلاندا	٣,٤٨٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	١,٣
بلاد أخرى	٦,٦١٧,٠٠٠	١٠٠	–
المجموع	٢٧,٩٤٧,٠٠٠	٩٤,٦٠٠	٣,٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسرائيل	٥,١٩٥,٩٠٠	٤,٢٤٢,٥٠٠	٨١٦,٥

* الدول الآسيوية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً):

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
آذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢,٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢,١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠	٣,٣
طاجكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠,٩
كازاخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠,٨
قرغيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠,٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١,٦

* أفريقيا:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إثيوبيا	٥٤,٦٢٨,٠٠٠	١,٥٠٠	–
تونس	٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩,٥٩٠,٠٠٠	٣٠٠	–
جنوب أفريقيا	٤٠,٧٧٤,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٢,٥
زائير	٤١,١٦٦,٠٠٠	٤٠٠	–
زامبيا	٨,٨٨٥,٠٠٠	٣٠٠	–
زمبابوي	١٠,٨٩٨,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,١
كينيا	٢٦,٠٩٠,٠٠٠	٤٠٠	–
مصر	٥٦,٠٦٠,٠٠٠	٢٠٠	–
بلاد أخرى	٤٢٧,٩٩٠,٠٠٠	١,٠٠٠	–
المجموع	٦٦,٨٥٧,٠٠٠	١٠٦,٧٠٠	١,٦

* بلاد آسيوية أخرى:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إيران	٦٣,١٨٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٣
تايلاند	٥٦,٨٦٨,٠٠٠	٢٠٠	–
سنغافورة	٢,٧٩٨,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
سوريا	١٣,٧٦٢,٠٠٠	١,٢٠٠	٠,١
العراق	١٩,٩١٨,٠٠٠	٢٠٠	–
الفلبين	٦٦,٥٤٣,٠٠٠	١٠٠	–
كوريا الجنوبية	٤٤,٥٠٨,٠٠٠	١٠٠	–
الهند	٨٩٦,٥٦٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	–
هونج كونج	٥,٨٤٥,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
اليابان	١٢٤,٩٥٩,٠٠٠	١,٠٠٠	–
اليمن	١٢,٩٧٧,٠٠٠	١,٦٠٠	٠,١
بلاد أخرى	١,٩١٨,٥٠٦,١٠٠	٣٠٠	–
المجموع	٣,٢٢٦,٤٣١,١٠٠	٢٦,٥٠٠	–
المجموع الكلي للبلاد الآسيوية	٣,٣٠٠,٩٢٧,٠٠٠	٤,٣٧٨,٦٠٠	١,٣

أوربا:

* الجماعة الأوربية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسبانيا	٣٩,١٥٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٠,٣
ألمانيا	٨٠,٦٠٦,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٦
أيرلندا	٣,٤٨١,٠٠٠	١,٨٠٠	٠,٥
إيطاليا	٥٧,٨٢٦,٠٠٠	٣١,٠٠٠	٠,٥
البرتغال	٩,٨٧٠,٠٠٠	٣٠٠	–
بلجيكا	١٠,٠١٠,٠٠٠	٣١,٨٠٠	٣,٢
الدنمارك	٥,١٦٩,٠٠٠	٦,٤٠٠	١,٢
فرنسا	٥٧,٣٧٩,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠	٩,٢
لكسمبورج	٣٨٠,٠٠٠	٦٠٠	١,٦
المملكة المتحدة	٥٨,٠٣٩,٠٠٠	٢٩٨,٠٠٠	٥,١
هولندا	١٥,٢٧٠,٠٠٠	٢٥,٦٠٠	١,٧
اليونان	١٠,٢٠٨,٠٠٠	٤,٨٠٠	٠,٥
المجموع	٣٤٧,٣٩١,٠٠٠	٩٩٢,٣٠٠	٢,٩

باقي دول أوربا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
جبل طارق	٣١,٠٠٠	٦٠٠	١٩,٤
السويد	٨,٦٩٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,٧
سويسرا	٦,٨٦٢,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢,٨
فنلندا	٥,٠٢٠,٠٠٠	١,٣٠٠	٠,٣
النرويج	٤,٣١٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
النمسا	٧,٨٠٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٠,٩
بلاد أخرى	٧٧١,٠٠٠	١٠٠	٠,١
المجموع	٣٣,٤٩١,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١,٣

* الدول الأوربية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إستونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠	٢,١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥,٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢,٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤,٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣,٥٠٠	٥,٢
ليتوانيا	٣,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١,٧
مولدافيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤,٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣,٥

أوربا الشرقية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
بولندا	٣٨,٥١٨,٠٠٠	٣,٦٠٠	٠,١
تركيا (بما في ذلك المناطق الآسيوية)	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠	٠,٣
تشيك	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٤
رومانيا	٢٣,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٧
سلوفاكيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٧
سلوفينيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠	-
كرواتيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠	٠,٣
المجر	١٠,٤٩٣,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	٥,٣
يوغسلافيا	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠	٠,٢
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,١٠٠	٠,٦
المجموع الكلي لأوربا	٧٨١,١٧٣,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠	٢,٥

ويُلاحَظ أنه تُوجَد دولتان اثنتان (الولايات المتحدة وإسرائيل) تضمان الغالبية الساحقة من يهود العالم (٧٥٪). ولا يزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا في دولة واحدة (فرنسا). وينقص عن النصف مليون في دولة أخرى (روسيا)، وتوجد دولتان (جنوب أفريقيا والبرازيل) يزيد عدد اليهود في كلٍّ منهما على مائة ألف. وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفاً، والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفاً، لا توجد دولة واحدة أخرى يزيد عدد اليهود فيها على ٣٥ ألفاً. ففي بلجيكا يوجد ٣١,٨٠٠، وفي إيطاليا ٣١,٠٠٠، وفي أوروجواي ٢٣,٨٠٠، وفي رومانيا ١٦,٠٠٠.

ويُلاحَظ أن جميع الدول السابقة تنتمي أيضاً إلى التشكيل العرْقي الأبيض أو التشكيل الاستيطاني ذي الجذور الغربية البيضاء. والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لا يوجدون في العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدَّد، وأن وجودهم في بعض الدول أقرب إلى الغياب ولا يمكن أخذه في الاعتبار من الناحية الإحصائية، فلا يمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودي في الهند حيث لا يوجد بها إلا نحو ٤,٥٠٠ يهودي، أو الوجود اليهودي في اليونان حيث يوجد ٤,٨٠٠ يهودي، أو بولندا وفيها ٣,٦٠٠ يهودي، أو النرويج التي يوجد فيها ألف يهودي، أو زائير التي يوجد فيها ٤٠٠ يهودي، أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودي، أو بورما حيث يوجد عشرون يهوديا وحسب.

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة إلى سكان العالم، وهم كذلك أقلية صغيرة قياساً إلى حجم السكان في الدول التي يوجدون فيها. فأكبر تَجمُّع يهودي في العالم في الولايات المتحدة لا يُشكِّل سوى ٢,١٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠ حسب إحصاءات عام ١٩٩٢. وثاني أكبر تَجمُّع يهودي في العالم كان يتركز في الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، وهو بدوره لا يُشكِّل سوى ١,٠٧٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٧,٥١٦,٠٠٠. أما في كندا، فإن النسبة هي ١,٢٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦,٧٥٥,٠٠٠. وتقل النسبة في البلاد الأوربية الأخرى، فهم في فرنسا مثلاً لا يُشكِّلون سوى ٠,٩٢٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧,٣٧٩,٠٠٠. أما في إنجلترا فإنها ٠,٥١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨,٠٣٩,٠٠٠، وفي روسيا ٠,٢٨٪ من مجموع ١٤٩,٠٠٠,٠٠٠، وفي أوكرانيا ٠,٥٣٪ من مجموع ٥١,٩٠٠,٠٠٠.

ولا يُشكِّل اليهود أغلبية إلا في إسرائيل وحدها، ومع هذا فإنهم يحسون بإحساس الأقلية نظراً لوجودهم في صورة مجتمع استيطاني منعزل داخل الكثافة السكانية العربية، ولخوفهم الدائم من العرب الموجودين في فلسطين. وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وتكاثُر العرب مقابل تَناقُص الهجرة، وتزايُد معدلات النزوح بين المستوطنين، وعُقم الأنثى اليهودية في إسرائيل، فإن العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب، وهذا ما يُسمَّى «مشكلة إسرائيل السكانية».

ومن الظواهر التي تستحق الإشارة، تَركُّز اليهود في العواصم والمدن الكبرى. فالواقع أن حوالي نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية (٢٠٠ ألف) يوجدون في بوينس أيريس، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا (٦٣ ألفاً) يوجدون في جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا (٣٥٠ ألفاً) في باريس، وأكثر من نصف يهود إنجلترا (٢٠٠ ألف) يوجدون في منطقة لندن الكبرى، وأكثر من نصف يهود هولندا (١٥ ألفاً) في أمستردام، وأكثر من نصف يهود كندا في مونتريال (١٠٠ ألف) وتورنتو (١٧٥ ألفاً)، وثلث يهود روسيا (٢٠٠ ألف) يوجد في موسكو. أما في الولايات المتحدة، فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك (الكبرى) ١,٤٥٠,٠٠٠ ولوس أنجلوس ٤٩٠,٠٠٠ وفيلادلفيا ٢٥٤,٠٠٠ وشيكاغو (الكبرى) ٢٤٨,٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨,٠٠٠ وواشنطن (الكبرى) ١٦٥,٠٠٠ وميامي ١٩٩,٠٠٠. والواقع أن تَوزُّعهم على كل هذه المدن، بدلاً من تَركُّزهم في العاصمة، هو انعكاس للتركيبة الفيدرالية للولايات المتحدة. وإذا كان نصف الجماعات اليهودية يتركز في كثير من البلاد في العاصمة، فإن النصف الثاني يوجد موزعاً على مدن كبرى أخرى، أي أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهودية تُوجَد في مراكز حضرية. وهذا أمر مُتوقَّع باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة في الحضارة الغربية كما أنهم مهاجرون إلى البلاد التي يوجدون فيها. والمهاجرون يتركَّزون عادةً في المدن حيث تُوجَد فرص أكبر للعمل، وحيث توجد مراكز التجارة والمال. ولم يكن الحال مختلفاً في العالم العربي، فقد تَركَّزت أغلبية يهود لبنان في بيروت كما تَركَّز يهود مصر في القاهرة بحي المعادي وحي الظاهر. وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ في العواصم، فمثلاً يوجد في القاهرة والإسكندرية عدة معابد، ويقع أحد معابد القاهرة في شارع عدلي على مقربة من البنوك ومراكز التجارة. كما يوجد معبد يهودي في الإسكندرية في شارع النبي دانيال على مقربة أيضاً من بنوك الإسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية. ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين بالبورصة في مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية. وفي تصوُّرنا أن هذا الوضع هو نتيجة الاستعمار الغربي والهجرة الأشكنازية إلى العالم العربي في أواخر القرن الماضي والتي وسمت معظم الجماعات اليهودية العربية في بلاد المتوسط (مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا) بميسمها بحيث تحوَّل أعضاء الجماعات إلى جماعات وسيطة للاستعمار الغربي. كما يُلاحَظ (مثلاً) أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الأشكنازية، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقي القَبَلي وبوجودهم في الجبال. أما في العراق، فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات، لم يستقروا في المدن على

خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتَركَّزوا في العاصمة وفي أعمال التجارة والمال بالذات.

ولم يشذ سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني عن هذا الاتجاه. ففي إسرائيل، يتكدس ٧٥٪ من المواطنين في المدن. ويُلاحَظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لا يزال آخذاً في التناقص، وهو ما يُطلَق عليه ظاهرة موت الشعب اليهودي.

تعداد اليهود وإشكالياته في الوقت الحاضر

يوجد الآن موقع على الإنترنت يظهر فيه تعداد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وآخر الإحصاءات (٣١/ ١/ ٢٠٠٢) هي كما يلي:

إسرائيل	٥,٣٠٠,٠٠٠	الأرجنتين	٢٥٠,٠٠٠
الولايات المتحدة	٥,٨٠٠,٠٠٠	جنوب أفريقيا	١٥٠,٠٠٠
فرنسا	٦٠٠,٠٠٠	البرازيل	١٣٠,٠٠٠
روسيا	٥٥٠,٠٠٠	أستراليا	١٠٠,٠٠٠
أوكرانيا	٥٠٠,٠٠٠	المجر	٨٠,٠٠٠
كندا	٣٦٠,٠٠٠	ألمانيا	٦٠,٠٠٠
بريطانيا	٣٠٠,٠٠٠	روسيا البيضاء	٦٠,٠٠٠

ويوجد ٤٠ ألف يهودي في كل من المكسيك وبلجيكا، و٣٥ ألف في كل من أوزبكستان وإيطاليا وأورجواي وفنزويلا، و٣٠ ألف في كل من هولندا وآذربيجان، و٢٥ ألف في كل من إيران وتركيا، وما بين ١٥ : ٢٠ ألف في كل من سويسرا وتشيلي والسويد وكازخستان ورومانيا وإسبانيا ولاتفيا وجورجيا. أما بقية أنحاء العالم فالجماعات اليهودية فيها صغيرة بشكل يمكن إهماله إحصائيا، ففي بلغاريا لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف، ونحو ألفين في اليابان، و١٢٠ في السلفادور.

ويمكن ملاحظة أن الغالبية الساحقة ليهود العالم موجودة في العالم الغربي، وإن وجدوا خارج العالم الغربي، فهم يوجدون في جيوب استيطانية مثل إسرائيل (تابعة للتشكيل الاستعماري الغربي) أو في بلاد لها ماض استيطاني (جنوب أفريقيا - أستراليا). أي أن اليهودية، شأنها شأن الصهيونية، ظاهرة غربية وليست "عالمية" كما يدَّعي البعض.

كما يلاحظ أن يهود شرق أوربا (يهود اليديشية) كانوا في نهاية القرن التاسع عشر يشكلون أكبر جماعة يهودية في العالم، إذ حدثت بينهم طفرة ديموجرافية فزاد عددهم خمسة أو ستة أضعاف في أقل من قرن. وقد تزامن هذا مع تعثر التحديث في الإمبراطورية الروسية. الأمر الذي أدى إلى هجرة أعداد كبيرة منهم إلى وسط أورباوغربها وإلى الولايات المتحدة، مما هدَّد الأمن الاجتماعي في هذه البلدان (حسب تصور أعضاء الأغلبية). وقد ظهرت الحركة الصهيونية لتخليص العالم الغربي من هذا الفائض البشري ولتوظيفه داخل التشكيل الاستعماري الغربي بعد أن فشل في أن يندمج في التشكيل الحضاري الغربي.

وقد ظلت هذه الكتلة البشرية هي المصدر الأساسي للمستوطنين الصهاينة، فيهود العالم الغربي لا يهاجرون، ويكتفي الصهيوني منهم بدعم المستوطن الصهيوني ماليا وسياسيا (ومن هنا تمييزنا بين الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية). هذه الكتلة البشرية الضخمة بدأت في التآكل لعدة أسباب من بينها تزايد معدلات الاندماج، والزواج المختلط، والعلمنة. ثم أدى سقوط الاتحاد السوفيتي وانقسامه إلى دول الكومنولث ثم الهجرة إلى إسرائيل إلى انقسام هذه الكتلة البشرية الضخمة إلى عدة تجمعات بشرية صغيرة. ومن المعروف في علم اجتماع الأقليات أن معدلات الاندماج والذوبان بين أعضاء الجماعات اليهودية الصغيرة أعلى بكثير من نظيرتها في الجماعات الكبيرة.

كما يلاحظ أن عدد اليهود في منتصف التسعينات كان لا يتجاوز ١٣ مليون، وحسب الإحصاء الجديد يبلغ عددهم ١٤,٥٠٠,٠٠٠.

ما سر هذه الزيادة. مع أنه جاء في أحد الدراسات الخاصة بالديموجرافية اليهودية أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يعيشون خارج إسرائيل سينخفض عددهم إلى النصف خلال عشرة سنين لعدة أسباب من أهمها الزواج المختلط، الذي بلغ ٥٠٪، ويصل إلى ٨٠٪ في بعض المدن الأمريكية. وعادةً ما ينشأ أبناء مثل هذه الزيجات (٨٠٪ من كل الحالات) على أنهم غير يهود.

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى تناقص اليهود هو إحجامهم عن الزواج والإنجاب، وكما يقول التقرير: يُعدُّ أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي أكثر حداثة من بقية أعضاء المجتمع، ولذا نجد أن نسبة الزواج بينهم من أقل النسب، وأنهم لا ينجبون، وإن أنجبوا فإنهم ينجبون طفلاً واحداً على الأكثر (أقل الإناث خصوبة في العالم هي المرأة الأمريكية اليهودية في المرحلة العمرية بين ٢٠-٣٠، فهي تنجب أقل من طفل). ويلاحظ تزايد معدلات الطلاق وعدد غير المتزوجين بين أعضاء الجماعات اليهودية. ولا شك في أن عدد الشذاذ جنسياً بين أعضاء الجماعات

اليهودية آخذ في التزايد، شأنهم في هذا شأن كل المجتمعات الغربية، الأمر الذي يؤدي إلى تناقص أعدادهم.

وجاء في إحصاء عام ١٩٩٨ أن عدد يهود الولايات المتحدة ٥,٦٠٠,٠٠، فهل زاد عددهم ٢٠٠ ألف في غضون أربعة أعوام؟. وجاء في نفس الإحصاء أن يهود روسيا بلغ عددهم ٤٠٠ ألف، فهل زاد عددهم ١٥٠ ألف، أي أكثر من الثُلث، في غضون عدة أعوام، رغم هجرة عشرات الآلاف منهم؟ كما جاء أيضاً في نفس الإحصاء أن عدد يهود أوكرانيا ٢٨٠ ألف، فهل قفز عددهم إلى ٥٠٠ ألف، أي زاد حوالي النصف في هذه الفترة القصيرة؟ ولماذا زاد عدد يهود الأرجنتين ٣٠ ألف في نفس الفترة، مع أنها تعتبر - من المنظور الصهيوني - من بلاد الضيق، أي بلاد طاردة لليهود؟

ويمكن تفسير الزيادة في بعض البلاد مثل روسيا وأوكرانيا بأن بعض غير اليهود يقومون بتسجيل أنفسهم على أنهم يهود حتى تتاح لهم فرصة الهجرة إلى إسرائيل للحصول على المكاسب المادية التي تحققها لهم مثل هذه الهجرة، وهم يعرفون مسبقاً أن الجيب الاستيطاني الصهيوني سيغض الطرف عن حقيقة كونهم ليسوا يهوداً بل مدَّعين لليهودية، نظراً لتعطشه للمادة الاستيطانية. كما أنه يمكن افتراض وجود حركة نزوح عن إسرائيل وعودة للوطن الأصلي.

ويبيِّن التقرير أن حوالي ٥٠٠ ألف مستوطن قد تركوا إسرائيل منذ إنشائها (٣٥٠ ألف في الولايات المتحدة، ٤٠ ألف في كندا، ٣٠ ألف في إنجلترا، ١٠ آلاف في جنوب أفريقيا، ٨ آلاف في ألمانيا، ٥ آلاف في أستراليا). ويلاحظ أن النازحين عن إسرائيل في الآونة الأخيرة يندمجون في مجتمعاتهم الجديدة ولا يبقون على علاقاتهم مع المستوطن الصهيوني، بل إنهم ينكرون أنهم يهود. ولكن أرقام النازحين في تصورنا أقل من الحقيقة، فإسرائيل تسجل أي مواطن يعود لزيارتها حتى ولو أسبوع على أنه مقيم في إسرائيل وليس في الخارج، مما ينقص من عدد النازحين عن إسرائيل. ولكن هذا يعني أن عدداً كبيراً من النازحين يحصون مرتين: مرة باعتبارهم مواطنين في إسرائيل، ومرة أخرى باعتبارهم أعضاء في جماعات يهودية خارج إسرائيل. وهذا الإحصاء المزدوج يزيد من عدد اليهود في الخارج دون أن يكون لذلك أي أساس في الواقع.

وهم في إسرائيل يقرأون كل هذه الإحصاءات بعناية شديدة بسبب تفاقم مشكلتهم الديموجرافية، أي تزايد العرب في فلسطين المحتلة قبل وبعد ١٩٤٨ إلى درجة أنهم قد يصبحون أغلبية في غضون ١٩ عاما كما بيَّن أرنون سوفير الخبير الديموجرافي في مركز بيجين السادات للأبحاث الإستراتيجية في الجدول التالي:

الميزان الديموجرافي بين العرب وإسرائيل
عدد السكان بالمليون

العام	اليهود	العرب	الإجمالي
١٩٩٧	٤,٧٠	٤,١٠	٩,٠٠
٢٠١٠	٦,٠٠	٦,٦٥	١٣,٠٠

موت الشعب اليهودي

«موت الشعب اليهودي» عبارة وضعها عالم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان، وتشير إلى ظاهرة تناقُص أعداد الجماعات اليهودية في العالم إلى درجة اختفاء بعضها وتحوُّل بقيتها إلى جماعات هامشية. ويمكن تحديد أسباب هذه الظاهرة فيما يلي:

١ - تزايُد معدلات الاندماج، كما حدث في الاتحاد السوفيتي السابق، وفي أمريكا اللاتينية حيث هاجر إليها ألوف اليهود الذين عُمِّدوا بشهادات مزيفة أصدرها الفاتيكان أثناء الإرهاب النازي، ثم آثروا الاحتفاظ بهويتهم الجديدة.

٢ - التنصُّر والاندماج في العبادات الجديدة.

٣ - الزواج المختلط، وبلغت نسبته ٥٠٪ في الولايات المتحدة والعالم الغربي عموماً، وبلغت النسبة ٨٠٪ في روسيا وأوكرانيا. ويشمل ذلك الرجال والنساء اليهود على السواء. ويلاحظ أن أبناء الزيجات المختلطة عادةً ولا يكونون يهوداً، أو يكونون غير مكترثين باليهودية.

٤ - تناقُص نسبة المواليد، وهي ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية على وجه الخصوص، وذلك بسبب عديد من العوامل يمكن تفصيلها فيما يلي:

- تفشِّي قيم المنفعة واللذة والفردية والأنانية، وهي قيم تتنافى مع فكرة الأسرة والإنجاب وتربية الأطفال.
- الزواج المتأخر، بسبب امتداد سنوات التعليم واستقلال الأبناء اقتصاديا، خصوصاً في ضوء تصدُّع مؤسسة الأسرة.
- تزايُد الشذوذ الجنسي، حتى بلغ ٣٠٪ في بعض المدن الغربية.
- انسحاب كثير من النساء من عملية الإنجاب في المجتمعات الغربية بسبب ظاهرة التمركز حول الأنثى، التي تعتبر الإنجاب وغيره من الأمور النسوية أمراً سلبيا بالنسبة لدور المرأة ومشاركتها في الحياة العامة. تُعتبر النساء اليهوديات من أكثر الناشطات في هذه الظاهرة وبمعدل يفوق المعدل القومي.
- تفسُّخ الأسر اليهودية وازدياد معدلات الطلاق.

ـ تركُّز اليهود في المدن، ومن ثَمَّ اندماجهم بمعدلات أعلى في العلمنة والفردية . . .

ويلاحظ أن نسبة اليهود إلى التعداد العام في بلدانهم تتناقص بشكل مستلفت للنظر، ففي الفترة بين عامي ١٩٣٠ و١٩٨٠ زاد سكان الولايات المتحدة بمعدل ٧٥٪ بينما لم يزد سوى بنسبة ٣٣٪. وكانت نسبة اليهود في الولايات المتحدة ٣,٦٪ عام ١٩٣٧، ولكنها انخفضت إلى ٢,٧ عام ١٩٧٩. والظاهرة نفسها تكررت في الاتحاد السوفيتي، حيث كان تعداد اليهود هناك مليونين و٢٦٨ ألفاً عام ١٩٥٩، ثم انخفض عام ١٩٨٩ إلى مليون و٤٠٠ ألف. وبعد تفكُّك الاتحاد السوفيتي هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى إسرائيل والولايات المتحدة. ويتوقع للبقية الباقية منهم في روسيا ورابطة الكومنولث أن تهاجر أو تتفتَّت وتذوب في محيطها الحضاري.

وقد أدى كل هذا إلى تناقُص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، بحيث أضحى معدل إنجاب المرأة اليهودية من أضعف معدلات الإنجاب في العالم. ومن المعروف أن المعدل المطلوب لاستمرار أية جماعة بشرية هو ٢,١٪ والمرأة اليهودية في إسرائيل تنجب بمعدل ٢,٩٪ والمرأة اليهودية في الولايات المتحدة في المرحلة العمرية ٣٥ـ٤٤ تنجب بمعدل ١,٥٧، أما في المرحلة العمرية ٢٥ـ٣٤ فإن المتوسط هو ٠,٨٧٪.

ومن ناحية أخرى، يُلاحَظ أن الجماعات اليهودية تميَّز بارتفاع نسبة كبار السن وقلة نسبة الأطفال. حيث يلاحظ أن نسبة من تتجاوز أعمارهم ٦٥ عاماً هي ١٦٪ وتصل نسبة المسنين إلى ٢٩٪ أحياناً، أما الأطفال حتى سن ١٤ عاماً فتبلغ نسبتهم ١٥٪ فقط. وهي سمات تميِّز المجتمعات الغربية عامةً، التي يعيش فيها معظم يهود العالم.

ولا يمكن فصل إشكالية موت الشعب اليهودي عن التركيب السكاني لإسرائيل، حيث بلغ تعداد اليهود الإسرائيليين نحو ٤,٢٤٢,٠٠٠ وهو رقم مُبالغ فيه قليلاً، ويتضمن نحو ٦٠٠ ألف يهودي على الأقل هاجروا من إسرائيل ويقيمون خارجها إقامة دائمة. أما عدد الفلسطينيين في فلسطين المحتلة، فهو ٣,٣ مليون، ينقسمون إلى ٩٠٠,٠٠٠ في أراضي ١٩٤٨ و٢,٤٠٠,٠٠٠ في الضفة الغربية وقطاع غزة. وإذا كان معدل خصوبة المرأة اليهودية في إسرائيل يبلغ ٢,٩ فهو يبلغ ٥,٧ لدى المرأة الفلسطينية في غزة، ونحو ٧,٩ لدى المرأة الفلسطينية في الضفة الغربية. وهو أعلى معدل خصوبة في العالم. ويعني ذلك أن عدد الفلسطينيين سيتجاوز عدد اليهود خلال بضعة أعوام. وهو أمر لا يمكن وقفه بسبب نفاد مصادر الهجرة إلى إسرائيل بهجرة يهود الاتحاد السوفيتي السابق، وازدياد معدلات الهجرة إلى خارج فلسطين وبخاصة الولايات المتحدة.

أما بالنسبة إلى علاقة يهود إسرائيل بيهود العالم، فيلاحظ أنها آخذة في التزايد، ليس بسبب تزايد الهجرة إلى إسرائيل، ولكن بسبب تناقص عدد اليهود خارجها بمعدل أكبر من تناقُصهم في إسرائيل.

وحالياً تبلغ نسبة اليهود في إسرائيل إلى يهود العالم ٣٧٪ ويتوقع أن تتزايد النسبة إلى أكثر من ٥٠٪ في منتصف القرن الحادي والعشرين.

وعلى هذا يمكن القول إن يهود العالم ينقسمون إلى قسمين:

١ ـ جماعة تتحدث العبرية في إسرائيل ليس لها سوى علاقات واهية بيهود العالم وتعتمد في وجودها على الولايات المتحدة، وتوجُّهها الحضاري استهلاكي.

٢ ـ جماعة يهودية في الولايات المتحدة تنقسم بدورها إلى أقلية صغيرة متمسكة بتعاليم الدين اليهودي، وأغلبية باهتة لا تمارس الشعائر اليهودية، وصلتها باليهودية لا تتعدى بعض الرموز والممارسات الفلكلورية.

١٢ ـ الجماعات الوظيفية اليهودية

الجماعات اليهودية والانتماء الطبقي

«الطبقة» فئة في المجتمع تتميَّز عن الفئات الأخرى وفقاً للتشابه في عوامل مادية ومعنوية مثل مستوى الدخل، ومصادره، وطبيعة المهنة، ونصيب أفرادها في ثروة المجتمع، والقوة والسلطة الاقتصادية والمهنية. ولا يمكن تحديد الطبقة، أو الطبقات، التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية، لأنهم ينتمون إلى مجتمعات مختلفة، تمر بمراحل تطور مختلفة، والتعميم الوحيد الممكن للجمع بين كل أعضاء الجماعات اليهودية على مر التاريخ أنهم شغلوا مراكز اجتماعية متنوعة طبقيا في المجتمعات التي عاشوا بينها، فكان منهم الفلاحون والمُلاك والنخبة العسكرية بعد سقوط الدولة العبرانية مثلاً، والرأسماليون والبروليتاريا في إنجلترا في القرن العشرين.

ومن ناحية أخرى، شهدت الجماعات اليهودية ـ شأن مختلف الجماعات ـ صراعات طبقية بين أبنائها، كما حدث في فلسطين في عصر الدولة الحشمونية، حينما كان أثرياء اليهود جزءاً من المؤسسة اليونانية السلوقية، أو الرومانية، وكانت ثورات اليهود الفقراء تندلع

ضدهم، وفي الولايات المتحدة، استغل الأثرياء اليهود ذوو الأصول الألمانية المهاجرين الجدد من يهود اليديشية.

ولذا كلما تخلينا عن الرؤية البانورامية للجماعات اليهودية في العالم، وقصرنا تحليلنا على جماعات محددة، وبلدان محددة، وتواريخ محددة، كانت القيمة التفسيرية للتعميمات التي يمكن الوصول إليها أكبر.

وبدراسة تاريخ الجماعات اليهود في الحضارة الغربية نجد من بين الأنماط المتكررة نمط الجماعة الوظيفية المالية والحرفية. والجماعة الوظيفية ليست لها علاقة مباشرة بالبناء الطبقي والاجتماعي للمجتمع، إذ تقف على هامشه، وتتحدَّد علاقتها بالدور الذي تلعبه والوظيفة التي تؤديها. وقد كانت هذه الجماعات الوظيفية اليهودية أداة إنتاج في يد الحاكم، وكانت المواثيق التي يمنحها لهم تنص على أنهم ملكية خاصة له. وبهذا لم يدخلوا في علاقات إنتاج، ولكنهم كانوا أداة تتحدد من خلالها علاقات الإنتاج؛ أداة لجمع الضرائب، ولزيادة الفوائد على الربا. وكان وجود أعضاء الجماعة اليهودية داخل الجيتو، بمعزل عن بقية المجتمع، تعبيراً عن هذا الوضع الذي يتحدد من خلال الوظيفة خارج السلم الطبقي. وكان المجتمع ككل ينظر إلى أعضاء الجماعة اليهودية لا باعتبارهم أثرياء أو فقراء، أو فلاحين أو نبلاء، وإنما باعتبارهم مادة بشرية تضطلع بوظيفة التجارة والربا، وغير ذلك من الوظائف المشينة أو المتميزة. وكان أعضاء الجماعة اليهودية، بسبب طبيعة وضعهم، يضطرون إلى التلاحم بينهم، الأمر الذي يقلل حدة الصراع الطبقي.

لكن هذا الوضع تغيَّر في الدولة الحديثة، وتم استيعاب الجميع داخل البناء الطبقي والاجتماعي في المجتمعات الغربية، ولم يبق لأعضاء الجماعات اليهودية الغربية من سمات الجماعات الوظيفية سوى أصداء خافتة مثل تركُّزهم في قطاعات هامشية كالإعلام والإعلان والسينما، وغيابهم عن قطاعات أولية كالتعدين والزراعة.

ويمكن القول إن عدم انتماء أعضاء الجماعات اليهودية إلى طبقة محدَّدة وتحوُّلهم إلى جماعات وظيفية هو الذي يفسر عدم مساهمتهم في بناء الرأسمالية الغربية الرشيدة، وعدم ظهورهم كحركة استعمارية مستقلة، ويفسر أيضاً لماذا كان على الاستعمار الصهيوني في فلسطين أن يكون استعماراً عميلاً.

أسباب تحوُّل بعض الجماعات اليهود إلى جماعات وظيفية

يمكن تفسير ظاهرة تحوُّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية بمركب من الأسباب: تاريخي، واجتماعي، وديني. فمن الناحية الدينية، شكَّل الحنين إلى صهيون وفكرة الوطن الأصلي عاملاً من عوامل تميُّز أعضاء الجماعات اليهودية وتماسكها، ومع الوقت حلت فكرة الوطن الأصلي محل الوطن الأصلي نفسه، وزودت الجماعات اليهودية بقدر من التمايز عن محيطها الاجتماعي والتماسك الداخلي، الأمر الذي كان مناسباً تماماً لتحوُّلهم إلى جماعة وظيفية، وأن يكونوا في المجتمع دون أن يكونوا منه، ودعَّم التلمود هذه الازدواجية بما حفل به من تفاصيل عن الشعائر اليهودية، وما سيحدث بعد عودة الماشيَّح إلى صهيون، وحياة اليهودي خارج مجتمع الأغيار، كرَّس عزلة اليهودي، وزود فكرة الهوية اليهودية بإطار واضح.

ومن الناحية الاجتماعية، يمكن القول إن طبيعة المجتمعات الإقطاعية الأوربية، وانقسام المجتمع إلى نبلاء ومحاربين من ناحية، وفلاحين من ناحية أخرى، وانغلاق هاتين الطائفتين أمام اليهود، دفعهم إلى القيام بالأنشطة التي كانت هامشية وتتطلب عنصراً غريباً لأدائها، وهي الوظائف التجارية والمالية وبعض الحرف. ومع تطوُّر الرأسمالية الغربية والانفجار الذي حدث في تعداد الجماعات اليهودية في الغرب، تعرَّض اليهود لعوامل طرد مستمرة، بلغت ذروتها مع وعد بلفور، وهاجر كثير منهم من شرق أوربا إلى فلسطين والولايات المتحدة وغيرهما، وغالباً ما تتحول جماعات المهاجرين إلى جماعات وظيفية.

علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة

وتفيد الدراسة التاريخية لعلاقة الجماعات اليهودية بالزراعة وملكية الأرض، في كشف آليات التحوُّل إلى جماعات وظيفية. وذلك على النحو التالي:

- كان العبرانيون القدماء شعباً من البدو الرُّحل، ولكنهم بعد استقرارهم في كنعان تحوَّل كثير منهم إلى الزراعة، وكان ذلك سبباً في تحوُّلهم دينيا من التركيز على الإله يهوه (إله الصحراء والرعي) إلى الإله بعل (إله الزراعة والخصب)، بحيث أصبحت عبادتهم خليطاً من التوحيد والتعددية البعلية. ونظراً لصغر الملكيات الزراعية وبدائيتها، فقد كان ملاك الأراضي يقومون بالزراعة بأنفسهم، ولكن مع الوقت ظهرت طبقة صغيرة من ملاك الأراضي الكبار الذين يشغِّلون لديهم أعداداً كبيرة من الفلاحين المُعدمين، وكرَّست مؤسسة الملكية فيما بعد هذا الوضع، حيث كانت لها بيروقراطيتها الكهنوتية والعسكرية والمهنية، التي تستحوذ على ريع الأراضي والمحصولات. وقد انتهت هذه المرحلة بهدم الهيكل.

ـ وعند عودة المهجَّرين من بابل، تكرَّر الوضع السابق، حيث ظهرت أقلية من الملاك وأغلبية من الفلاحين المُعدمين، إلا أن كبار الملاك اندمجوا هذه المرة في ثقافة الإمبراطورية اليونانية التي حكمت فلسطين، وتحوَّلوا إلى جماعة وظيفية تجبي الضرائب من الفلاحين لصالح الدولة الحاكمة، وتشتغل بالتجارة المحلية والدولية، في حين بقي الريف زراعياً سامياً آراميا. وقد تسبَّب هذا الانقسام في كثير من الثورات والتمردات التي أُخمدت على يد الرومان، وتشتَّت اليهود وانتشروا كغرباء في البلدان الأخرى، الأمر الذي سهَّل تحوُّلهم إلى جماعات وظيفية.

ـ ويرى البعض أن عدم اشتغال اليهود بالزراعة كان سبباً في استمرار اليهود وعدم ذوبانهم، وأن الفارق بين القبائل العبرانية التي هُجِّرت إلى آشور وانصهرت واختفت، وتلك التي هُجِّرت إلى بابل وبقيت، أن الأولى اشتغلت بالزراعة فاستقرت واختلطت مع السكان الأصليين، والثانية اشتغلت بالتجارة فسهُل عزلها.

ـ وفي العصور الوسطى الغربية كان من حق اليهود في كثير من البلدان الأوربية امتلاك الأراضي الزراعية، ولكن بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي، ظهرت عدة عوامل صرفت اليهود عن الملكية الزراعية، وحولتهم إلى جماعات وظيفية تجارية ومالية، وهي:

* ضيق الرقعة الزراعية، وظهور قوانين تمنع اليهود والأديرة والكنائس من امتلاك الأرض.

* كان اليهود بالذات خطراً على الأراضي الزراعية لكونهم عنصراً تجاريا متحركاً، فظهر الخوف من أن يحوز اليهودي أرضاً ثم يبيعها للغرباء، ويصب ريعها خارج الإمارات الإقطاعية.

* كان محرَّماً على اليهود استئجار فلاحين مسيحيين، ومحرَّما عليهم أيضاً استئجار أرقاء يهود. ومن ثَمَّ كانت الزراعة عملاً غير مريح لليهودي. يُضاف إلى ذلك أن اليهودي يحرَّم عليه العمل يوم السبت، والمسيحي لا يعمل يوم الأحد، ومن ثَمَّ كان هناك يومان يتعطل فيهما العمل.

* كان المهاجرون اليهود أميل إلى التركُّز في المدن لأداء العبادات الجماعية والطائفية، وهو ما لم يكن من الممكن تحقيقه في الوحدات الزراعية المتباعدة.

ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي أصبح هذا الوضع القانوني والاقتصادي لمعظم أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا، وإن كان ذلك لم يمنع وجود يهود يشتغلون بالزراعة في البلقان والخزر والصين وبولندا وإسبانيا.

أما في العالم الإسلامي، فلم يظهر مثل ذلك الانقسام الوظيفي والاقتصادي، بين أعضاء الجماعات اليهودية وبقية السكان، في هذه الفترة، وإن كان الملاحَظ أيضاً أن عدد اليهود العاملين بالزراعة آنذاك لم يكن كبيراً، كما أن التجار والممولين اليهود الذين ارتبطوا بالزراعة عملوا في قطاعات تجارة المحصولات الزراعية والخمور، وجمع الضرائب.

ـ ولم تنقطع صلة الممولين اليهود بالقطاع الزراعي في العصر الحديث، حيث استثمر كثير منهم أموالهم باعتبارهم جزءاً من الرأسمالية الغربية الناشئة، وكان كثير من أصحاب الضياع الكبيرة في جزر الهند الغربية من اليهود، ولكنهم كانوا يتركزون في القطاع التجاري الزراعي، القائم على الاستيطان الرأسمالي الاستعماري، حيث كانت هذه الضياع متخصصة في إنتاج السكر وتصديره، ومن ثَمَّ كانوا جزءاً من المثلث اللعين الذي تشكِّل تجارة الرقيق أحد أضلاعه. كما كان هناك عدد من الممولين اليهود في ألمانيا وروسيا تخصَّصوا في الصناعات المرتبطة بالقطاع الزراعي كالأخشاب.

ـ ومنذ عصر الاستنارة الغربي استمر نقد «الشخصية اليهودية» باعتبارها طفيلية تعيش على كد الآخرين، لأنها لا تعمل بالزراعة، ومن ثَمَّ حاولت الدولة الحديثة التي اضطلعت بمعظم مهام الجماعات الوظيفية إقناع اليهود بترك الربا والتجارة والعمل بالزراعة، من أجل "تطبيع الشخصية اليهودية" وجعلها منتجة، وصدر عديد من التشريعات في فرنسا لتحقيق هذا الهدف، كما طُرح العمل بالزراعة كحل للمسألة اليهودية في شرق أوربا، وبخاصة روسيا التي كانت تمتلك أراضي زراعية واسعة وخالية من السكان، إلا أن تعثُّر عملية التحديث أدى إلى فشل هذه المحاولات.

ـ وبعد الثورة البلشفية حدثت عدة محاولات لتحويل اليهود إلى القطاع الزراعي في أوكرانيا وشبه جزيرة القرم، وكان أهمها تجربة بيروبيجان. وكانت هذه التجربة عاملاً في اندماج اليهود هناك.

ـ يتمثل أحد أهداف الحركة الصهيونية في تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة لتطبيعهم، ولكن الزراعة الصهيونية كانت ذات طابع استيطاني إحلالي شبه عسكري، أي أنها لم تكن أداة لتطبيع اليهود بقدر ما كانت أداة لإحلال العنصر الاستيطاني المهاجر محل العمالة الفلسطينية في الأراضي الزراعية في فلسطين، ولم تحوِّل الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية تجارية ومالية إلى جماعات زراعية، ولكنها حوَّلتهم إلى جماعات وظيفية استيطانية قتالية.

والملاحَظ أن نسبة اليهود العاملين بالزراعة في الوقت الحالي لا تختلف كثيراً عنها في عام ١٨٨٢ قبل الاستيطان الصهيوني في فلسطين.

ويتضح مما سبق أن الحضارة الغربية قامت بحوسلة اليهود، أي تحويلهم إلى وسيلة، بشكل غير مسبوق، حتى ارتبط اسم اليهودي بدور المرابي والتاجر الطفيلي، وأصبح يُطلق على مثل هذه الوظائف أنها يهودية، حتى في بعض المناطق الآسيوية والأفريقية، التي يسمَّى فيها من يقوم بهذه الوظائف باسم اليهودي، بغض النظر عن دينه، وتكرَّس ذلك في الوجدان الغربي، حتى إنه عندما ظهرت المسألة اليهودية في شرق أوربا في القرن التاسع عشر، اتجه تفكير الغربيين إلى حل الدولة الوظيفية الصهيونية، وهو إعادة إنتاج اليهود كدولة وظيفية وليس كجماعة وظيفية. وتحاول الحضارة الغربية الآن حوسلة جميع البشر وتحويلهم إلى عناصر وظيفية.

ويلاحَظ في هذا المجال أمران، أولهما: أن هذه السمة لم تظهر بهذه الحدة في الحضارة الإسلامية، حيث كان اليهود جزءاً عضويا من المجتمعات الإسلامية، ولم يكونوا يختلفون عنهم طبقيا أو اجتماعياً وثقافيا. والأمر الثاني: أن جماعات غير يهودية لعبت الأدوار الوظيفية نفسها، وخصوصاً اليونانيين والأرمن في بعض الدول الأوربية الراقية وفي الدولة العثمانية.

تحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية : تاريخ

شكَّل العبرانيون جماعة وظيفية، حيث كانوا رُحلاً، وكانت المجتمعات المختلفة تجنِّدهم لخدمتها، ورغم اشتغال كثير منهم بالزراعة والحِرَف التقليدية في عصر القضاة والمملكة العبرانية المتحدة، وكذلك بعد التهجير البابلي، فقد تزايد استخدامهم كمرتزقة، وتشكَّلت أول دياسبورا يهودية استيطانية قتالية في جزيرة إلفنتاين لحماية حدود مصر الجنوبية لصالح الفراعنة، واستمر هذا التقليد في مصر البطلمية وسوريا السلوقية.

ومع حلول العصور الوسطى في العالم الغربي، تسارعت عملية تحوُّل اليهود إلى جماعات وظيفية، وذلك لملء الفراغات بين طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين، وأصبحوا أقنان بلاط، أي جماعة وظيفية مالية تابعة للبلاط الملكي، تضطلع بدور التجارة والربا وجمع الضرائب، وقد اتصل يهود الغرب ويهود العالم الإسلامي في هذه المرحلة، وشكَّلوا شبكة دولية تعمل بالتجارة والصيرفة، وبدءوا يتركزون في الحرف التي تتطلب مهارات فنية فائقة، مثل الزجاج والذهب والخمور. . إلا أن الملاحظ أن اليهود لم يكونوا الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة في العالم الإسلامي، ولم يكن الهرم الاجتماعي الاقتصادي الخاص بهم يختلف عن بقية الهرم الاقتصادي للمجتمع ككل.

وفي الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر أخذ أعضاء الجماعات اليهودية ينسحبون من النشاط التجاري الدولي، ويتركزون في المجال المالي الربوي، ويعملون كملتزمي ضرائب لصالح النبلاء وبخاصة في أوربا الشرقية، وقد سمح لهم ذلك بدخول مجالات أخرى مرتبطة بالاستيطان الإقطاعي، وهي الاستثمار في بعض الحرف كصناعة الأخشاب والجلود والخمور، وظهرت طبقة من كبار الممولين ذوي الخبرة الإدراية والمالية، عملوا كوزراء اقتصاد وخارجية واستخبارات في الإمارات الألمانية وغيرها في وسط أوربا، ويلاحظ أن الإقـــراض الربوي تدهور في هذه المرحلة، وبدلاً من أن يتركز في إقراض الأمراء والكنيسة، اتجه إلى إقراض الفلاحين والحرفيين.

ومع القرن الثامن عشر الميلادي، أصبح معظم أعضاء الجماعات اليهودية في شرقي أوربا برجوازيين صغاراً، وخرج منهم "رواد" استيطانيون خارج أوربا. وفي مجمل هذه الوظائف كان أعضاء الجماعات اليهودية أصحاب أعمال مستقلين، وكانت أحوالهم أحسن من أحوال الفلاحين والأرقاء المسيحيين، وكانوا يعملون في مهن غير إنتاجية في الغالب، ومن هنا وُصفوا بأنهم جماعات هامشية وطفيلية.

ولكن هذا الوضع تغيَّر بدخول العصر التجاري المركنتالي، حيث كان رأس المال والتجارة في قلب هذا النظام الاقتصادي، ولذا أصبح أعضاء الجماعات اليهودية في قلب هذا النظام، كممولين وتجار، واستمروا في المشاريع الاستيطانية خارج الغرب، وأصبحوا جزءاً من مشروعه الاستعماري. ومع القرن التاسع عشر وتصاعُد الثورة الصناعية، تم تحديث البناء الوظيفي اليهودي في الغرب، وتم دمجهم بسرعة في غرب أوربا وظيفيا ومهنيا، إلا أن عملية التحديث والدمج تأخرت كثيراً في شرق أوربا بسبب تعثُّر عملية التحديث، وكان اليهود هناك يشغلون وظائف حرفية ووسيطة بالأساس ولم يكن بينهم كثير من العمال والفلاحين، ولذا تشكَّل بناؤهم الاقتصادي على شكل هرم مقلوب، وهو ما كان سائداً في روسيا والإمبراطورية النمساوية. وإن كان الوضع قد تغيَّر بشكل جذري في روسيا السوفيتية نتيجة تأميم التجارة، وتحوُّل كثير من اليهود هناك إلى عمال وأصحاب مهن حرفية وكتابية.

وبعد هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة عمل نحو ٦٠٪ منهم كعمال، وبخاصة في صناعة النسيج. وكان الوضع الوظيفي يتشكل كالتالي: يصل المهاجر إلى العالم الجديد فيصبح عاملاً أو رأسماليا صغيراً، ثم يتحول العامل إلى مهني،

ويتحول الرأسمالي الصغير إلى رأسمالي كبير. ولذا نجد أن غالبية يهود العالم الجديد مهنيون.

كما أن الخلفية الوطنية لأعضاء الجماعات اليهودية في أوربا أثرت في وضعهم في العالم الجديد، حيث أخذوا يتركزون في الأعمال المرتبطة بالربا والرهونات، وأهمها صناعة النسيج، حيث كانت معظم الأشياء المرهونة عبارة عن ملابس قديمة. وخلال الحروب الأمريكية، أثرى أعضاء الجماعات اليهودية من صناعة النسيج، لأنهم كانوا يزودون الجيوش بالملابس. كما يلاحظ بوجه عام تركُّز اليهود في الاستثمارات والصناعات الخفية، وابتعادهم عن الصناعات الثقيلة ورأس المال الثابت، لأنهم يسعون إلى الربح السريع وعدم التقيد بالأرض، إضافة إلى أعمال الوساطة والسمسرة وتجارة التجزئة. ولذا يقال إن يهود العالم الغربي عنصر مهاجر، وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الاجتماعي الوظيفي في الحضارة الغربية.

وفي فلسطين شغل معظم اليهود الذين نبذتهم الحضارة الغربية وحوَّلتهم إلى جماعة وظيفية قتالية استيطانية تخدم الدول الغربية مهناً طفيلية، وفي عام ١٩٤٥ كان ٢٤٪ فقط يعملون بالزراعة والصناعة والنقل، وبعد إقامة إسرائيل ارتفعت النسبة إلى ٦٩٪ لكنها ما لبثت أن انخفضت ثانيةً إلى ٢٣٪ عام ١٩٧٥. أي أن الصهيونية لم تفلح في "تطبيع الشخصية اليهودية" كما زعمت، ولم يتحول اليهود من جماعات وظيفية طفيلية إلى شخصيات منتجة.

السمات الأساسية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية

١ ـ التعاقدية (النفعية والحياد والترشيد والحوسلة):

علاقة الجماعات اليهودية بالمجتمع الغربي علاقة نفعية تعاقدية، لا تقوم على التراحم، فقد كانوا غرباء يُجلبون للقيام بوظائف محدَّدة كالتجارة أو الربا، وكانوا يُعدون ملكية خاصة للملك يتصرف فيها كما يشاء، ولذا لم يكونوا طبقة، ولكن شكَّلوا جماعة وظيفية، وكانوا يشترون حقوقهم من الملك عبر مواثيق تجدَّد كل فترة لإثبات خضوعهم التام له.

وقد ظلت هذه الطبيعة قائمة في أوربا حتى القرن التاسع عشر، وحينما تفجرت هناك المسألة اليهودية كان الحل الذي تم اعتماده وتطبيقه هو إنشاء دولة وظيفية لليهود، تقوم بخدمة المصالح الغربية. ومن ثَمَّ توصف إسرائيل بأنها كنز إستراتيجي للغرب، كما يعتبر الغرب أيضاً مصدر دعم وإمداد لإسرائيل.

٢ ـ العزلة والغربة والعجز:

كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يعيشون في جيتوات منعزلة، ويلبسون ملابس خاصة بهم، ويؤمنون بعقيدة مختلفة عن عقيدة الأغلبية، وفي بعض الأحيان يتحدثون لغة خاصة بهم كاليديشية. وأدى استخدامهم كعملاء وجباة ومرابين لصالح الحكام إلى زيادة غربتهم وعزلتهم عن الجماهير التي عاشوا بينها، وهكذا كانوا أداة للسلطة وليسوا جزءاً منها، وعاشوا في مسام المجتمع دون أن يندمجوا في صميمه، ولذا كثرت الانتفاضات الشعبية ضد الجماعات اليهودية في الغرب، وظهرت أوصاف عديدة لهم تعتبرهم مصاصي دماء، ومسمِّمي آبار، لأنهم يمتصون قوتهم ويسممون حياتهم، أو سحرة، لأنهم يكسبون بدون مجهود إنتاجي حقيقي من خلال تحريك رؤوس الأموال والربا.

كما ساهمت المعتقدات اليهودية بقداسة اليهود (شعب الله المختار) وارتباطهم برمز الوطن الأصلي الذي سيعودون إليه، في مزيد من عزلتهم عن المجتمعات التي عاشوا فيها.

٣ ـ الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية (الوهمية):

ترجم الشعور بالانتماء إلى الوطن الأصلي (صهيون/ فلسطين) نفسه لدى الجماعات اليهودية إلى العقيدة المشيحانية التي أضعفت ارتباطهم بأوطانهم الواقعية وتاريخها. وكان ذلك الانفصال بين أعضاء الجماعات اليهودية ومجتمعاتهم سبباً في عزلتهم، وعاملاً مسهلاً لتوظيفهم في الوقت نفسه، حيث كانوا في المجتمع دون أن يكونوا منه، ولذا كان من السهل أن يلعبوا أدواراً وظيفية بكفاءة عالية، لأنهم يعرفون خصائص المجتمع الذي يتعاملون معه، وفي الوقت نفسه لا ينتمون إليه ولا يتعاطفون معه، بسبب انتمائهم إلى مركز وهمي خارج ذلك المجتمع.

٤ ـ ازدواجية المعايير:

تفسَّر هذه الازدواجية بالشعور بالتميُّز وعدم الاندماج في المجتمع، فأعضاء الجماعات اليهودية يشعرون بأنهم مقدَّسون، ويقسِّمون العالم إلى يهود وأغيار. ولذا يستبيحون من الأغيار ما لا يستبيحونه داخل الجماعة اليهودية من أعمال كالربا أو البغاء أو غير ذلك. ومع ذلك يمكن القول بأن خوفهم من المجتمع ومن السلطة معاً دفعهم إلى الأمانة والحياد.

٥ ـ الحركية:

وذلك نتيجة عدم ارتباطهم بالأرض كالفلاحين والنبلاء ولا بالمدن. وعمَّقت عمليات الطرد والهجرة المستمرة هذه الحركية. وتركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في قمة الهرم وليس في قاعدته. وهذا من أهم أسباب المسألة اليهودية.

٦ ـ التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع (الحلولية):

يستمد التمركز حول الذات من الاعتقاد بقداسة اليهودي واعتباره مختاراً من الإله، وإرادته تمثل إرادة الإله، ولذا فهو حر تماماً، ويستبيح غير اليهودي بلا حدود، ولكن لأنه لا يعيش في وطنه الأصلي ويعاني النفي، ولأنه أيضاً مكلَّف بحكم الاختيار، فهو لا يستطيع الحركة، ولذلك يتمركز حول وظيفته الموضوعية ويمارسها بكفاءة.

الجماعات الوظيفية اليهودية: أنواعها المختلفة

الجماعات الوظيفية أنواع عديدة، منها الاستيطاني، المالي، وغير ذلك من جماعات وظيفية نوعية كالأطباء أو الجواسيس أو تجار الرقيق الأبيض أو البغايا . . . إلخ. وباختصار، يكن أن تتخصَّص الجماعة الوظيفية بأي نشاط حسب الظروف التي تدفعها لذلك.

ورغم أن أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية كانوا من دعاة التحديث لأنه يساهم في عتقهم ومساواتهم بالآخرين، فإنهم سقطوا ضحايا عملية التحديث، حيث فَقَدوا وظيفتهم في معظم الأحيان، عندما قامت الدول القومية بشغل هذه الوظائف، واندمجوا في المجتمع بطبقاته المختلفة، ففَقدوا التماسك الذي كانت الجماعة الوظيفية تمدهم به، وانقسموا مختلف الانقسامات الاجتماعية التي جمعت أعضاء الجماعات اليهودية مع غيرهم. وساعد على ذلك أيضاً الأنظمة التعليمية والإعلامية والثقافية التي تبنتها الدولة القومية من أجل صهر الهُويات المختلفة لمواطنيها.

١٣ ـ الجماعات الوظيفية اليهودية القتالية والاستيطانية والمالية

جماعة يهودية قتالية استيطانية (المرتزقة)

الجماعة الوظيفية الاستيطانية جماعة بشرية تُستجلب من خارج المجتمع، أو تجنَّد من داخله، ثم تنقل إلى مكان آخر لتوطن فيه، بغرض تأدية وظيفة محدَّدة ذات طابع قتالي عادةً، أو زراعي أو تجاري، أو مختلط؛ زراعي قتالي . . . وهكذا.

أما الجماعة الوظيفية القتالية، فهي التي تؤدي دوراً قتاليا وحسب، فالجندي المرتزق هو الجندي الذي يُستجلب من خارج المجتمع أو يُجنَّد من داخله، من إحدى الأقليات، ويقوم بالقتال مقابل المال أساساً. وتتحدد علاقة المجتمع بالجماعة القتالية الوظيفية كعلاقة نفعية تعاقدية، ومن ثَمَّ يُنظر إليها كأداة تساهم في تنظيم عمليات قتالية محددة في خدمة السلطان. وهم يقعون بين المجتمع والسلطة دون أن يندمجوا في أيٍّ منهما، فهم لا ينتمون إلى المجتمع، والسلطة لا تخشاهم لأنهم بلا شرعية ولا جذور ومعتمدون في وجودهم ومعاشهم عليها، وذلك على عكس المقاتلين من مجتمع الأغلبية، الذين يمارسون القتال ولكن بدافع داخلي مركَّب (الانتماء، حب الوطن، الانتقام) وليس بدافع خارجي (خدمة السلطان مقابل المال)، ومن ثَمَّ عندما تقوى شوكتهم تزداد مشاركتهم في السلطة.

وعلى مر التاريخ كانت هناك جماعات وظيفية استيطانية قتالية من اليهود، ولكن ذلك لا يعني أن كل الجماعات اليهودية كانت هكذا، كما لا يعني أنه لم تكن هناك جماعات وظيفية استيطانية قتالية من غير اليهود. وبرزت هذه السمة كأوضح ما تكون في الدولة الصهيونية، ولذا كان من اللازم توضيح جذور هذه السمة، وعلاقتها بتطور الجماعات اليهودية، وبخاصة في الحضارة الغربية.

في عصر العبرانيين، كان المجتمع العبراني قليل العدد، ومتخلفاً حضاريا وتقنيا وعسكريا عن محيطه، وكان عرضة للغزو المتكرر من الإمبراطوريات الكبرى، التي كانت تأسر أعداداً كبيرة من العبرانيين وتنقلهم إليها أو إلى أماكن أخرى، وتجندهم لخدمتها. بل إن كلمة «عبراني» تشير إلى العبد الذي آثر العبودية برضاه، وأصبح أداة بيد الآخرين. وكلمة «خابيرو» التي يرى البعض أنها أصل كلمة عبراني، تعني الجندي المرتزق. وقد عمل العبرانيون كمرتزقة في جيوش كثير من الملوك القدماء العبرانيين والهكسوس والفلستيين والمصريين والفرس واليونانيين الذين كان جُلُّ اعتمادهم على المرتزقة.

وفي بعض الأحيان، انتقلوا من خدمة ملك إلى ملك آخر كما انتقلت الحامية العبرانية في إلفنتاين جنوب مصر من خدمة الفراعنة إلى خدمة الفرس حينما سيطروا على مصر، وفي أحيان أخرى حاربوا بني جلدتهم، كما حاربوا العبرانيين لصالح الفلستيين. وكان هذا العامل ـ وليس تحطُّم الهيكل كما تدَّعي الصهيونية ـ السبب الرئيسي في تحوُّلهم إلى دياسبورا، وتشتُّتهم في الممالك المختلفة.

وكان العصر البطلمي ذروة انخراط اليهود في العمل كجماعة وظيفية استيطانية قتالية، وبلغوا في ذلك العصر مكانةً عاليةً، من خلال إنعام البطالمة عليهم بالعتق والتوطين، وإقطاعهم إقطاعيات يعيشون فيها ويمارسون دور الحامية لصالح الإمبراطورية اليونانية، كما حدث في مصر وبرقة وفلسطين، ووصل اليهود فيها إلى أعلى

الدرجات العسكرية وقيادة الجيوش والشرطة والحراسة. كما استعملتهم الدولة السلوقية للغرض نفسه، ووطنتهم في آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم.

وفي العصر الروماني، انهار وضع اليهود وفقدوا المزايا التي حصلوا عليها في العصر البطلمي، لأن الرومان لم يكونوا يجنِّدون في صفوفهم سوى اليهود الذين تخلوا عن دينهم، ولكن الرومان مع ذلك استمروا في توظيفهم كجماعات استيطانية، وكان أول توطين لليهود في أوربا على يد الرومان في مدينة كولونيا (أي المستعمرة) وإن كان ذلك لأغراض مالية.

ومع انتشار الإسلام والمسيحية، استبعد كل منهما غير المؤمنين من الجهاد والقتال، وفَقَد اليهود المرتزقة عملهم وانخرطوا في وظائف أخرى وظيفية أيضاً، مالية؛ ربوبية وتجارية. كما أصبحوا غرباء أو أقناناً في كثير من الممالك الأوربية.

وقد استُخدم اليهود كجماعات استيطانية (وليس قتالية بالضرورة) من قِبَل المسلمين والمسيحيين على السواء، حيث وطَّنهم المسلمون في بعض مدن الأندلس التي فتحوها حتى يتفرغ المسلمون للقتال، وعندما استعادت الممالك المسيحية الأندلس فعلت معهم الشيء نفسه.

وفي المجر في القرن العاشر عملت جماعة تشاليزان التي تنتمي إلى يهود الخزر الذين انتقل كثير منهم إلى المجر، كجماعة استيطانية وقتالية، ثم تحولت بالتدريج إلى جماعة وظيفية مالية.

وحينما ضمت الدولة العثمانية المجر عام ١٥٢٦ رحَّلت ألفي يهودي إليها ليكونوا عنصراً استيطانيا موالياً للسلطان، كما وطَّنت اليهود في قبرص لموازنة العنصر المسيحي فيها. كما وطَّنهم ملوك بولندا في المدن البولندية لتشجيع التجارة.

وكانت أهم التجارب الاستيطانية شبه القتالية للجماعات اليهودية قبل الصهيونية تجربة الاستيطان البولندي في أوكرانيا، حيث اضطلع بعض أعضاء الجماعات اليهودية هناك بوظيفة "الأرندا" (دفع مقابل عائد الأراضي الزراعية)، منذ أواخر القرن السادس عشر، فقاموا باستئجار ضياع النبلاء التي شملت مدناً بأكملها، وإدارتها لحسابهم، من خلال اعتصار الأقنان الأوكرانيين لحساب النبلاء البولنديين. وقد شيَّد البولنديون مدناً صغيرة تسمى «الشتتل» عاش فيها اليهود تحت حماية القوات البولندية، وكان عليهم أيضاً أن يتدربوا على حمل السلاح.

وفي رومانيا وطَّن النبلاء الإقطاعيون (البويار) يهود رومانيا في مدن صغيرة تشبه الشتتل، ومنحوهم مزايا عديدة، مقابل لعب دور استيطاني تجاري. واستمرت هذه التجربة من منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر.

أما في العصر الحديث، فقد وُلدت أساطير وديباجات الاستيطان الغربي مع الإصلاح الديني البروتستانتي، وظهرت الأسطورة الاسترجاعية التي تذهب إلى أن الخلاص لن يتحقق إلا بعودة اليهود إلى صهيون، كجماعة وظيفية استيطانية دينية يسهم توطينها في صهيون في الإسراع بعملية الخلاص. ومع تطوُّر مراحل الإمبريالية الغربية أخذت معالم الأسطورة تتكشف وتتحدد، وتحولَّت صهيون/ فلسطين من رمز ديني إلى موقع إستراتيجي متميِّز، وهنا بدأ النظر إلى اليهود يتحول من شعب مقدَّس أو شاهد أو منبوذ، إلى جماعة وظيفية تجارية وقتالية نشطة، وبعد سنوات طويلة من المقاومة والرفض من قِبَل الجماعات اليهودية، تلقفت الصهيونية اليهودية الفكرة الصهيونية البروتستانتية ونشرتها بين يهود أوربا كحل أمثل للمسألة اليهودية. وهكذا أصبحت صهيون المكان الذي تخرج منه جيوش المستوطنين اليهود ("الحالوتسيم" أو "الرواد") الذين يسيرون في المقدمة مسلحين أمام الرب.

وإذا كانت الأسطورة الاسترجاعية تجعل اليهود مستوطنين، فإن الأساطير الأخرى جعلت المستوطنين المسيحيين وغيرهم يهوداً، وقد قاد البيوريتان والأفريكانز حملاتهم الاستيطانية في الولايات المتحدة وأفريقيا باعتبار أنهم كالعبرانيين القدامى الذين خرجوا من مصر ودخلوا كنعان وأبادوا سكانها، حسب التوراة، وكانوا يسمون أنفسهم أبناء العهد، ودعا بعضهم إلى اتخاذ العبرية لا الإنجليزية لغة رسمية للولايات المتحدة!

وعلى المستوى العملي، صار الاستيطان البُعد الأساسي في تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب حيث تعيش غالبية يهود العالم، وبخاصة في المجتمعات البروتستانتية. وفي بداية العصر الحديث كانت أهم جماعة يهودية في العالم توجد في هولندا، التي كانت من أنشط الدول الاستيطانية. وساهم اليهود في كثير من الأنشطة المرتبطة بالاستيطان الغربي، مثل شركتي الهند؛ الشرقية والغربية، وغيرهما من الشركات، وفي تجارة العبيد، كما شاركوا أيضاً في عملية الاستيطان نفسها. وفي بداية الأمر كانوا جزءاً من عملية الاستيطان الهولندي، فاستوطنوا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر في الهند الغربية؛ في ترينداد والمارتينيك وجامايكا وجزر الباهاما وكوراساو وسورينام، وانتقلت أول جماعة استيطانية يهودية إلى أمريكا الشمالية عان ١٦٩٣، ثم انتقلوا إلى أمريكا اللاتينية، وساهموا في المشروعات الاستيطانية للدول الكاثوليكية أيضاً

كإسبانيا والبرتغال. وكان يهود المارانو السفارد المادة البشرية الأساسية في هذه التجارب، ولكن المادة الاستيطانية الحقيقية كانت يهود اليديشية (الإشكناز الروس والبولنديين).

وتستحق حركة يهود اليديشية بشكل خاص - داخل التشكيل الاستعماري الروسي الأرثوذكسي في عصرٍ القياصرة ثم في العصر البلشفي - قدراً من العناية والتحليل، فقد تحكمت في السياسة الاستيطانية عند الروس والبلاشفة عدة عوامل متداخلة، هي: المسألة اليهودية، والمسألة السكانية، وترويس المناطق التي ضمتها روسيا من الدول الأخرى.

وقد كان التصور السائد أنه يمكن التخفيف ن حدة المسألة اليهودية من خلال تحويل اليهود إلى جماعة وظيفية تنقل إلى أماكن مختلفة، فتستفيد الدولة الروسية بتعمير الأراضي وتتخلص في الوقت نفسه من الفائض البشري اليهودي. وقد خصَّص القيصر عام ١٨٠٧ أراضيه لتوطين اليهود، وبعد احتلال الخانات التركية حول البحر الأسود سميت المنطقة المحتلة «روسيا الجديدة»، وتم تشجيع اليهود على استيطانها بهدف تعميرها وتأكيد الوجود الروسي فيها. واستمر البلاشفة في النهج الاستيطاني نفسه القائم على الضم والتعمير مع حل المسألة اليهودية.

ولكن النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية تم داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلوساكسوني البروتستانتي، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب أفريقيا وكندا ونيوزيلاندا وأستراليا وهونج كونج، واتجهت غالبيتهم (٨٥٪) إلى الولايات المتحدة التي تعتبر أهم التجارب الاستيطانية الغربية.

ورغم أن كثيراً من المهاجرين الآخرين اتجهوا أيضاً إلى الولايات المتحدة، فإن الطابع الاستيطاني للجماعة اليهودية هناك لا يمكن تجاهله، ودليل ذلك ما يلي:

١ - أن الولايات المتحدة لم تفقد طابعها الاستيطاني إلا مع بداية القرن العشرين، بل إن عملية طرد السكان الأصليين وإبادتهم لم تبدأ إلا عام ١٨٣٠، وقد ضمت الولايات المتحدة أراضي شاسعة من المكسيك وغيرها بعد ذلك التاريخ، وهي أراض احتاجت إلى مستوطنين، كما أن رعاة البقر الذين يمثلون الرواد الأمريكيين البيض ظلوا ملمحاً أساسيا في الحضارة الأمريكية.

٢ - كانت الولايات المتحدة تسمح ليهود اليديشية بالهجرة إليها والاستيطان فيها بقدر حاجتها إليهم، وبما يتفق مع أمنها القومي.

وتجب ملاحظة أن الدول الاستيطانية التي استقرت فيها غالبية اليهود بدأت تفقد طابعها الاستيطاني وتتحول إلى دولٍ مستقرة ذات بنية سكانية ثابتة واضحة، ومع اختفاء السكان الأصليين تلجأ هذه المجتمعات إلى الحصول على المادة البشرية بطرق قانونية (الهجرة)، وتقوم بصهر العناصر الوافدة. كما أن تقدُّم المستوى الاقتصادي سهَّل اندماج اليهود فيها بلا تمييز، وهي مجتمعات ذات أصول بروتستانتية وصلت إلى درجة عالية من العلمنة والتعاقدية، ومن ثَمَّ لم تعد بحاجة إلى جماعات وظيفية؛ إذ يتم تجنيد العاملين من داخل المجتمع نفسه، ولعل هذا يفسر سر اختفاء/ اندماج اليهود باختفاء الوظيفة التي كانت سبباً من أسباب استمرارهم.

أما في العالم العربي، فيمكن ملاحظة أن الغرب بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر يحوِّل اليهود المستعربة إلى جماعة وظيفية استيطانية تدين له بالولاء، بغض النظر عن أصولهم العرْقية والحضارية، وقد تم هذا من خلال عدة قنوات أهمها منح الجَنسيات الأوربية لأعضاء الجماعات اليهودية، وفرنسة أعضاء الجماعات اليهودية في المغرب العربي، وهجرة عناصر يهودية غربية تولت قيادة العناصر اليهودية العربية. ومع انتصاف القرن العشرين وظهور الدولة الصهيونية، تم تحويل الغالبية العظمى من يهود العالم العربي إلى مادة استيطانية لا جذور لها في المنطقة، ثم توظيفها أو نقلها لصالح فرنسا، ولصالح إسرائيل.

والدولة الصهيونية لا تخرج عن هذا النمط، فهي جماعة وظيفية استيطانية قتالية على هيئة دولة، وقد تم توقيع عقد بلفور بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية العالمية، وجرى بمقتضاه نقل من يرغب من اليهود إلى فلسطين ليصبح عنصراً استيطانيا قتاليا يدافع عن المصالح الغربية، نظير مستوى معيشي مرتفع. ولم يُطلق مصطلح «مرتزقة» على هؤلاء الصهاينة، لأنه يحمل انطباعات غير مريحة، ولكنهم أطلقوا على أنفسهم مصطلح «حالوتسيم» أو «الرواد»، وهم الذين يمشون في مقدمة الصفوف العسكرية، ويُشار إلى إسرائيل بأنها قلعة على حدود أوربا في الشرق، وفي وجه الهمجية الشرقية، شأنها شأن المرتزقة الذين كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية للقتال. وفي هذا السياق لا يُنظر إلى الدولة الصهيونية إلا في حدود نفعها وإفادتها لمصالح الممول الغربي، فهي توصف بأنها ثروة إستراتيجية، وحاملة طائرات أمريكية . . . إلخ، وفي كل الأحوال هي وسيلة وأداة وحسب.

وقد ظهرت جماعة جو إيمونيم بعد ضم إسرائيل الضفة الغربي وغزة، وإدراك الصهاينة دورهم بلا لبس وأسبغت على هذا الدور صبغة دينية، واعتبرت أن الاستيطان عبء مقدَّس لا خيار لليهود إلا حمله. ولم يزل فريق من الصهاينة يقومون بهذا الدور الوظيفي

الاستيطاني القتالي، في حين بدأ يحدث تحوُّل لدى كثير من الإسرائيليين باتجاه القيام بالدور الوظيفي الاستيطاني المالي. مع ظهور "النظام العالمي الجديد"، من المتوقع أن تفقد الصهيونية طابعها الاستيطاني القتالي لصالح طابع استيطاني مالي، لا يخرج هو الآخر عن العمالة للغرب التي تعتبر وظيفة الدولة ورأسمالها في النظام الدولي.

وقد لوحظ أن آلاف الإسرائيليين يعملون كمرتزقة في بعض دول العالم الثالث، كخبراء وعسكريين، بدءاً بالطيارين في جنوب أفريقيا، وانتهاءً بالمظليين في زائير، وتوجد في إسرائيل شركات خاصة مثل شركة "ليفدان"، يديرها جنرالات سابقون توظف في صفوفها أفراداً سرحوا حديثاً من الجيش الإسرائيلي، وقد صرح مسئول من الشركة بأن ما تفعله لا يختلف عما تفعله الحكومة الإسرائيلية لسنوات طويلة.

جماعة وظيفية تجارية

«الجماعة الوظيفية التجارية» هي الجماعة التي يضطلع أعضاؤها بالتجارة والنشاطات التجارية. وقد حاول الصهيونيون تفسير ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالتجارة، بأنهم اضطروا لذلك عندما فرضت عليهم مجتمعاتهم ذلك ولم تسمح لهم بالأنظمة الاقتصادية الأخرى، وفسر معادو اليهود والصهيونية ذلك بأنه سمة لازمة لما يسمونه الشخصية اليهودية ونزعتها إلى استغلال الآخرين. وكلا التفسيرين اختزالي تبسيطي لا يتكلف عناء النظر إلى الظروف المتعينة، حيث عمل العبرانيون مثلاً بالرعي والتجارة، وعند استقرارهم في كنعان عملوا بالزراعة، واحتلت الزراعة مكانة مركزية في التلمود على عكس التجارة، ثم أخذت التجارة موقعاً متميزاً في عهد المملكة العبرانية المتحدة، بسبب قوتها وحاجتها لتمويل مشروعات معمارية كبيرة كهيكل سليمان. وساعد على ذلك موقع فلسطين المتميز على طرق التجارة الكبرى.

وبعد التهجير البابلي تحولت مجموعات كبيرة من اليهود في بابل إلى جماعات تجارية وسيطة، وانتشر هذا النموذج مع انتشار الجماعات اليهودية خارج فلسطين، ولكن الثابت أن جماعات يهودية أخرى اشتغلت بالزراعة في بابل وفي حوض البحر المتوسط. وفي العصور الوسطى الأوربية انقسم المجتمع الأوربي انقساماً حاداً بين طبقة النبلاء والإقطاعيين من جهة والفلاحين من جهة أخرى، واضطلع اليهود الذين كانوا يعيشون في الموانئ مع التجار الفينيقيين بدور الجماعة التجارية الوسيطة.

وبعد الفتح الإسلامي وضم الشام، تبلور دور اليهود كتجار داخل التشكيل الحضاري الغربي واختفى التجار الفينيقيون، وصار اليهود الجماعة الوظيفية التجارية الوحيدة في حوض المتوسط؛ في العالمين الإسلامي والمسيحي، وتشكَّل أول نظام ائتماني عالمي يسهل عملية التبادل التجاري، وأصبح اليهود بمنزلة الجسر التجاري والمالي بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

وقد ساعد على ذلك آنذاك انغلاق المجتمع الأوربي المسيحي أمام ممارسة اليهود للوظيفتين الرئيسيتين وهما القتال والزراعة، واقتصارهما على المسيحيين، ومن ثَمَّ تحوَّل اليهود إلى غرباء، ومارسوا التجارة والأنشطة المالية والإدارية كجمع الضرائب، كأنشطة ثانوية في المجتمع، وتحولت علاقتهم بالسلطة الحاكمة إلى أقنان بلاط يتبعون التاج والخزانة الملكيين، ويوضعون تحت حماية الملك. وينطبق هذا النموذج على اليهود في العصور الوسطى الغربية بدرجات متفاوتة، وأبرزها في إنجلترا، أما في فرنسا فينطبق بدرجة أقل حيث عمل اليهود بالزراعة، في حين كانت أوربا الشرقية وثنية آنذاك، وبقيت خارج هذا الإطار حتى القرن العاشر الميلادي.

وفي هذه المرحلة أصبح للتجار اليهود مكانة متميزة عالمية، وكانت المعاهدات بين الدول تنص على تبادل اليهود، وجلبهم لتنشيط التجارة في البلدان التي تعجز عن ذلك بسبب نظامها الاقتصادي الزراعي الجامد، وارتبط أعضاء الجماعات اليهودية بالتجارة إلى حد أن أصبحت كلمة يهودي مرادفة لكلمة تاجر.

ويمكن التمييز في هذا السياق بين نموذجين للتجارة: الأول التجارة البدائية التي بقيت على هامش النظام الاقتصادي في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، وهو الذي مارسته الجماعات اليهودية في ظل الإقطاع، حيث كانت أرباح التجارة تصب في خزائن الأمير، وليس في النظام الاقتصادي، والآخر التجارة الحديثة التي كانت جزءاً من النظام الرأسمالي، ويتم استثمار عوائدها في المجالات الاقتصادية المختلفة، وهو ما ميَّز المجتمعات الرأسمالية الحديثة، وعرَّض الوضع المستقر لليهود من قبل للاهتزاز، وتضاؤل دورهم الاقتصادي، بسبب نمو التجارة الإيطالية وسيطرتها على التجارة في حوض البحر المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي، وحروب الفرنجة التي قضت على الكثير من مراكز التجمع التجاري اليهودي في أوربا، وظهور الهياكل الحكومية المركزية في بعض الدول الأوربية التي بدأت بالاستغناء عن دور الوسيط اليهودي، وأخيراً، تبلور الطبقات الرأسمالية المحلية في أوربا، وعمل هذه الطبقات على طرد التاجر اليهودي المنافس، وبلغ ذلك الاتجاه ذروته في القرن الثالث

عشر الميلادي. وقد قامت النظم الرأسمالية الحديثة على أيدي هؤلاء التجار والرأسماليين المسيحيين. وفي القرن السادس عشر الميلادي تم خنق التجارة اليهودية وتصفيتها في غرب أوربا ووسطها، وكان ذلك سبباً في تحوُّل الجماعات اليهودية إلى شرق أوربا حيث كان معدل النمو والتحديث أبطأ، وساعدوا النخب الإقطاعية على تحصيل الأموال من الفلاحين وضرب البورجوازية المحلية الصاعدة.

وفي هذه المرحلة ظهر عنصر يهودي جديد ساهم في تطور الرأسمالية الحديثة والإمبريالية، هو يهود المارانو الذين طُردوا من إسبانيا وانتشروا في مناطق أوربا المختلفة وشمال أفريقيا، وكانوا يمتلكون الخبرة ورؤوس الأموال، فساعدوا المشروعات الاستعمارية والاستيطانية في العالم الجديد.

وقام هؤلاء المارانو بأدوار تجارية مهمة، بين جانبي الأطلسي، وبين الممالك الأوربية من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، وفي أراضي الدولة العثمانية، وفي المستعمرات الغربية في أفريقيا والعالم الجديد.

والملاحظ أن عودة اليهود إلى دول غرب أوربا خلال القرن السابع عشر كانت عودة لتجار يدينون باليهودية، حيث تبلورت المشروعات القومية الحديثة والإمبريالية في هذه الدول، وأصبحوا من ثَمّ يشكلون جزءاً من كل غربي، لا يتمتعون فيه بفاعلية مستقلة. وأدت المزاحمة المتصاعدة للبرجوازيات المحلية ولنفوذ الدولة المركزية إلى تقليص دور التاجر اليهودي التقليدي، ودفع اليهود إلى ممارسة أنشطة هامشية، وأحياناً غير شرعية، مثل التهريب وتجارة الرقيق الأبيض اليهودي. وكانت هذه الأنشطة والهامشية سببين أساسيين في انتشار الصورة السلبية عن اليهود التي أشاعها معادو اليهود.

والملاحظ أن قيام الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية التجارية أثَّر فيهم بشكل كبير من زاوية الحفاظ على الهوية المستقلة عن المجتمعات التي عاشوا بينها، ومن زاوية التفكير التجاري، حيث تحفل الأدبيات الصهيونية والإسرائيلية بأفكار مثل شراء حائط المبكى أو حتى شراء فلسطين كلها، وحالياً دفع تعويضات ضخمة للفلسطينيين مقابل التنازل عن حق العودة. وترتبط الدولة الصهيونية الهامشية بمصالح الإمبريالية الغربية مثل ارتباط التجار اليهود بالطبقات الحاكمة التي كانت تستخدمهم لضرب القوى الوطنية المحلية.

جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض)

«الجماعة الوظيفية المالية» هي الجماعة التي يضطلع أعضاؤها بوظائف مالية مختلفة مثل الربا وجمع الضرائب، ويتميز الربا عن الإقراض بفائدة، بأن الإقراض في النظام الربوي يكون من أجل سد حاجة أو دفع ضريبة مثلاً، ويتم تحديد سعر الفائدة بشكل مغالى فيه حسب مدى احتياج المقترض، في حين يكون الإقراض بفائدة من أجل القيام بمشروعات إنتاجية، أو التجارة، وعادةً ما تكون هناك نسبة فائدة معقولة. وقد كان الإقراض اليهودي في معظمه ربويا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة. ولذلك ارتبطت صورة اليهودي بالمرابي في العقل الغربي، وفسر المعادون لليهود هذا الأمر بالميل الأزلي لليهودي نحو امتصاص دماء الآخرين، في حين فسر الصهاينة ذلك بأن التجارة والربا وظائف فرضت على اليهود الذين يعتبرونهم ضحايا الذئاب الأغيار. وهما تفسيران لا علاقة لهما بالواقع.

فالعبرانيون مثلاً كانوا بدواً رُحلاً، ولم يتعاملوا بالربا، والمملكة العبرانية المتحدة لم تكن متقدمة اقتصاديا، وكان التبادل يتم فيها من خلال المقايضة، واحتكرت الدولة التجارة الدولية، فلم تكن هناك سيولة نقدية، ولم يظهر فيها الربا.

والعبرانيون المهجَّرون إلى بابل عملوا بالزراعة، ولم يظهر لديهم الربا، ولكن أعداداً منهم بدأت تسكن المدن، وتعمل بالتجارة وظهرت لديهم بيوت مالية كانت تقدم القروض بفوائد، وعمل بعض يهود الإسكندرية آنذاك بالربا، ولكن ذلك كان الاستثناء وليس القاعدة، ولم نجد حتى القرن الرابع الميلادي أي هجوم على اليهود باعتبارهم مرابين.

ومع القرن السادس الميلادي بدأ اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا في الإمبراطورية الفرنجية، كما ظهر مرابون يهود في العالم الإسلامي، وبدأ تركز اليهود في مهنة الربا في الغرب ابتداءً من القرن العاشر الميلادي، نتيجة عدة أسباب:

١ ـ شكَّل أعضاء الجماعات اليهودية جماعة وظيفية وسيطة في التشكيل الحضاري الغربي، كانت مهمتها القيام بالوظائف التي لا يستطيع مجتمع الأغلبية القيام بها، بسبب طبيعتها الصارمة والمحايدة.

٢ ـ ظهرت في ظل الجمود الاقتصادي الإقطاعي الغربي معوقات كثيرة أمام اليهود للعمل بالتجارة والزراعة، وظهرت نقابات للحرفيين كانت معادية لليهود.

٣ ـ كانت الكنيسة تحرِّم الربا على المسيحيين، بدءاً برجال الدين، وانتهاءً بكل المسيحيين. أما اليهودية فلم تحرِّم الربا، إلا بين اليهود فقط، وإن كانت هناك تحفظات على هذه الوسيلة للكسب. وهذه الازدواجية في المعايير سهلت تحوُّل اليهود إلى جماعة وظيفية ربوية.

٤ ـ تزامنت عملية تحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية عن التجارة مع تعاظم الاحتياج إلى السيولة النقدية لتجريد حملات الفرنجة، وبناء الكاتدرائيات والكنائس، كما بدأ الاقتصاد يعتمد على الإقراض بفائدة من أجل الاستثمار.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي تصاعدت وتيرة تحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية عن التجارة واشتغالهم بالربا، وبعد عدة عقود كان معظم سكان أوربا المسيحية، في غربها ووسطها مدينين لليهود الذين أضحوا مالكين لقرى ومدن، بل بعض الأماكن المسيحية المقدَّسة مثل المزارات والأضرحة. واحتكر اليهود عملية الإقراض نظير فائدة عالية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين، وأصبح الربا مصدر حياة معظم يهود أوربا، وأصبحت كلمتا «مرابي» و«يهودي» مترادفين مع نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد كُسر احتكار أعضاء الجماعات اليهودية للربا مع ظهور جماعات من المرابين المسيحيين مثل جماعات فرسان المعبد الألمانية واللومبارد في إيطاليا، والكوهارسين في فرنسا، وكانت الكنيسة الكاثوليكية نفسها متورطة في الربا ودعم المرابين. وقد احتدم الصراع بين المرابين اليهود والمسيحيين، وانتهى، بطبيعة الحال، بسقوط الربا اليهودي في نهاية العصور الوسطى، ولم تعد لرأس المال اليهودي أهمية كبرى، كما لم يعد هناك رأس مال يهودي ضخم عند وقوع الثورة التجارية.

وبعدما كان اليهودي يقرض الملوك والأباطرة، ثم كبار النبلاء والإقطاعيين، فإنه راح يقرض صغار النبلاء والإقطاعيين، ثم الفلاحين والحرفيين والفقراء. وانسحب من جوار الطبقة الحاكمة إلى الهامش، حيث لم يعد اليهود يشكلون الجماعة الوظيفية الوحيدة، وهبط من مرتبة الصيرفي إلى المرابي الذي يقرض مبالغ صغيرة لمدة قصيرة بفائدة عالية وبضمان رهونات بسيطة مثل درع أو قطعة حلي أو بعض الملابس.

وقد أدت هامشية الربا اليهودي إلى شيوع نظرة المجتمعات التي عملوا فيها لهم على أنهم شخصيات طفيلية، لا تبدع ولا تنتج، ولكنها تستولي على فائض القيمة. لكن المرابي كان أداة في عملية اقتصادية ضخمة، إذ كان يعتبر ملكاً للمَلك، وكان ماله يؤول للملك من بعده، ولكنه كان يترك هذا المال لأولاده ليستمروا في أداء هذه الوظيفة، ولذا كان الملك يسمَّى شيخ المرابين، وكان يسبغ عليهم الحماية من خلال المواثيق، ويحميهم من غضب الجماهير، ولذا كانت الجماعة اليهودية التجارية جماعة وظيفية وسيطة، أما المرابون اليهود فمثلوا جماعة وظيفية وسيطة عميلة، يستخدمها الملك لامتصاص دماء الجماهير.

وقد أدى ذلك إلى أن الملك كان يبذل قصارى جهده لمنع اليهود من اعتناق المسيحية، حتى لا يفقدوا تميُّزهم الذي يمكنهم من ممارسة هذه الوظيفة الوسيطة العميلة، وكان المرابي اليهودي الذي يتنصر تؤول ثروته كلها إلى العرش، بحجة أنه لا يحق له التمتع بثمرة الرذيلة! كما كان الملك يمنع اليهود من العمل بأية وظيفة أخرى. وهكذا كانت الثروة مركزة في يد الملك، ولم يتمكن اليهود من مراكمة رأسمال مستقل، ولم يتحولوا إلى طبقة حاكمة.

ويلاحظ في هذا السياق:

١ ـ أن نشاط المرابين اليهود امتد إلى اليهود أيضاً، مع التحايل على التحريمات الدينية بأشكال مختلفة، كأن يصبح المرابي شريكاً بالمال وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة، ولا يخسر إذا خسرت، وهو ما تفعله بعض البنوك الإسرائيلية الآن لتفادي التحريمات الدينية.

٢ ـ تزايد الكراهية والعداء لليهود بين المجتمعات الغربية بسبب كونهم مرابين وليس بسبب كونهم يهوداً، ولذا لم تفرِّق الجماهير الغاضبة بين المرابين اليهود والمسيحيين من العصبة الهانسية أو اللومبارد أو الكوهارسين. وكانت تطالب بطرد المرابين إلى الأبد، وحينما كان المرابون اليهود يُطردون من مدينة معينة كان يحل محلهم مرابون مسيحيون، وكانت الجماهير تكتشف أن المرابي المسيحي يقرض بفائدة أكبر، ولذا كانت المدن التي تطالب بطرد اليهود تطالب مرةً أخرى بعودتهم، وتعتبرهم منقذين! وفي الفترة من ١٣٠٠م إلى ١٥٠٠م طُرد اليهود ١٥٠ مرة من أماكن من جنوب ووسط أوربا، ومع ذلك كان لهم وجود مستمر في هذه المناطق.

٣ ـ تولَّد لدى الجماعات اليهودية في الغرب ـ كرد فعل على هامشيتهم وكراهية الجماهير لهم ـ أفكار مثل الشعب المختار المتجاوز للزمان والمكان، والنزوع إلى تقسيم العالم إلى يهود أبرار وأغيار أشرار، وفي هذه البيئة نمت الصهيونية.

٤ ـ تحول الاشتغال بالربا لدى اليهود إلى وسيلة للانتقام من المجتمع، تمارس بشكل واعٍ ورمزي، حتى إن بعض الحاخامات أفتوا بأن الربا مصدر سريع للدخل يمكِّن اليهودي من التفرُّغ بسهولة لدراسة التوراة! وفسروا ازدهار الدراسات التلمودية والدينية في ألمانيا بأن اليهود كانوا يعملون هناك بالربا أكثر من أي مكان آخر!

٥ ـ أدت الوظيفة الربوية إلى حرمان اليهود من تكوين تراكم رأسمالي، أو اندماجهم في مجتمعاتهم ومشاركتهم في العملية الإنتاجية. ولذا تكرست طفيليتهم وعداء المجتمع لهم.

الضرائب التي يدفعها أعضاء الجماعات اليهودية

يكشف الاستعراض التاريخي لتطور علاقة أعضاء الجماعات اليهودية، سواء في تحصيلها أو في دفعها، أنها أثرت فيهم تأثيراً عميقاً. حيث يلاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا في معظم الأحيان جزءاً من تشكيل حضاري إمبراطوري أوسع، ولم يتمتعوا باستقلال إلا في أحوال نادرة. وكانت الضرائب وسيلة مهمة لتحصيل الثروات اللازمة للإمبراطوريات المختلفة، وقد أدركت هذه الإمبراطوريات أن فرض الضرائب على أعضاء الأقليات المختلفة الخاضعة لها - ومنها الجماعات اليهودية - كجماعة يزيد كفاءة تحصيل الضرائب، فمنحت الجماعة اليهودية استقلالاً ذاتيا في كثير من الأمور الثقافية والدينية، وكانت قياداتها تتمتع بسلطات خاصة، فكانت في كثير من الأحيان هي التي تحدد الضرائب وتقوم بجمعها من أعضاء الجماعة، بل أصبحت هذه المهمة من أهم وظائفها. ولذا حاولت السلطة الحاكمة دائماً أن تقوي قبضة القيادات اليهودية وتحقق لم مركزاً متميزاً داخل الجماعة لتضمن ولاءها وتزيد كفاءتهم، فكانت القيادات تعفى من الضرائب عادةً، بل سُمح لهم بفرض ضرائب خاصة لتمويل مناصبهم وتأمين معاشهم.

ويكشف تطور التاريخ الغربي، وبخاصة خلال العصور الوسطى، أن اليهود كانوا يسددون ضرائب بمعدلات أعلى من نظرائهم المسيحيين في الدول الأوربية، وكانت الضرائب المفروضة على اليهود (سواء أكانت ضريبة على الرؤوس أو على الطعام الشرعي أو شموع السبت أو غير ذلك مما يخص اليهودي وحده) تمثل نسبة مرتفعة من الدخل لكثير من هذه الدول، وفي المقابل يسمح لليهود بإقراض الجماهير غير اليهودية بفائدة مرتفعة لتعويض هذا الفارق.

وأدى ذلك إلى تزايد نقمة الجماهير على الجماعات اليهودية، الأمر الذي كان يدفع هذه الجماعات بدورها إلى مزيد من الاعتماد على السلطة لحمايتها، ويمكِّن السلطة بالتالي من زيادة استغلالها للجماعات اليهودية وفرض المزيد من الضرائب عليها . . وهكذا. وحينما كان الغضب الشعبي يصل ذروته، كانت السلطة تسلم المرابين ومحصلي الضرائب اليهود للجماهير أو تصادر أموالهم أو تنفيهم، فتمتص بذلك الغضب الشعبي، ثم تستدعيهم مرةً أخرى لتبيع لهم المزايا والمواثيق. أي أن جمع الضرائب ودفعها ساهما في حوسلة اليهود.

ومع أن ذلك مثل النموذج العام، فإن تطبيقاته اختلفت عبر الزمان والمكان، وذلك لاستحالة وجود نسق عام يحكم التاريخ. ولكن ذلك لا يقلل من قدرة هذا النموذج على التفسير.

المتعهدون العسكريون

«المتعهدون العسكريون» هم الممولون من أعضاء الجماعات الوظيفية المالية الذين كانوا يزودون الجيوش المتحاربة بالعتاد والسلاح والجراية اللازمة، وكانت وظيفة حيوية لكثير من الدويلات التي لم تكن طورت بيروقراطيات متخصصة تتولى هذه المهمة، وكانت تفتقر لرأس المال والاتصالات الدولية اللازمة لذلك.

وقد اضطلع بعض أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الوظيفة في إسبانيا المسيحية في حروبها ضد المسلمين، كما كانوا يعملون بصناعة السلاح، وكان ذلك سبباً في معارضة المجلس الاستشاري لملك البرتغال قرار طرد اليهود حتى لا تنتقل معظم الأسرار العسكرية إلى الدول المعادية.

واشترك اليهود في تجارة السلاح في أوربا في أواسط القرن السادس عشر، وضمن ذلك يهود المارانو الذين زودوا جيوش هولندا وإنجلترا والمغرب بالسلاح. واستغل اليهود في ذلك الوقت شبكة العلاقات العالمية الضخمة التي كانت تضم يهود الأرندا في شرق أوربا وصغار التجار المتجولين، بل المتسولين اليهود المنتشرين في أوربا، وتجار الدولة العثمانية، وكان بوسع هذه الشبكة أن تزود أي جيش بكل ما يريده من جراية ومعادن نفيسة وأموال وخيول وملابس عسكرية. . حتى ساد الاعتقاد آنذاك بأن كل المتعهدين العسكريين يهود وأن كل اليهود متعهدون عسكريون. وقد استخدمت النازية هذه المقولة في دعايتها ضد اليهود باعتبارهم مستفيدين من مآسي الآخرين، وذلك دونما نظر إلى البيئة الغربية الشاملة التي أنتجت هذا النموذج.

وهكذا قام المتعهدون العسكريون اليهود بأدوار مهمة في تسليح مختلف الجيوش الأوربية خلال القرون التالية (ق١٦ - ق١٩) في فرنسا وإنجلترا وروسيا والولايات المتحدة. وشاركوا في تجهيز مختلف الحملات الاستعمارية، والحروب الدولية والأهلية.

ومع ظهور الدولة القومية الحديثة التي تولت بيروقراطيتها دور المتعهدين العسكريين تماماً، تلعب إسرائيل دور المتعهد العسكري مع النظم الاستبدادية التي تساندها الدول الغربية الكبرى ولكنها تخشى الرأي العام الداخلي لديها، ومن ثَمَّ توكل هذه المهمة لإسرائيل.

الخمور والاتجار فيها

«تجارة الخمور والنبيذ» مهنة عادةً ما تضطلع بها جماعة وظيفية، ربما لأن الخمر تذهب الوعي وترتبط في كثير من العقائد بالمقدَّس والغيب، أي أن الخمر مرتبطة بمنطقة وجدانية تقع خارج نطاق المألوف والعادي والروتيني، ومن هنا تظهر ضرورة اللجوء إلى جماعة وظيفية محايدة، لا يمكنها أن توظف لحظة غياب الوعي هذه لصالحها بسبب عجزها.

وقد جعل التحريم التلمودي الخاص بتناول خمور الأغيار خمور أعضاء الجماعات اليهودية مضطرين إلى أن يكون لهم كرومهم ومصانع الخمور الخاصة بهم، ولكن مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي في الغرب، كانت مزارع الكروم المملوكة لليهود قد تمت تصفيتها مع انسحابهم التدريجي من مهنة الزراعة، ومع ذلك استمروا في تجارة النبيذ والمشروبات الكحولية حتى أصبحت هذه إحدى المهن الخاصة باليهود في شرق أوربا وألمانيا وبولندا بشكل خاص نتيجة نظام الأرندا، حيث كان حق تقطير الخمر مقصوراً على النُبلاء، الذين كانوا يؤجرون هذا الحق لليهود الذين عملوا بتقطير الخمر وبيعها، وأصبحت شخصية اليهودي صاحب الحانة شخصية أساسية في الريف الأوكراني والمدن الصغيرة. وكان اليهود يحتكرون تقريباً إنتاج وبيع المشروبات الكحولية، وبلغت نسبة اليهود العاملين بهذه التجارة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ١٥٪ من يهود المدن، و٨٥٪ من يهود الريف.

وتسبَّب اشتغال اليهود بهذه المهنة في نشوب كثير من التوترات بينهم وبين بقية السكان، وبخاصة أن اليهود لم يكونوا أغلبية مستهلكي الخمر، وأن الإفراط في الشراب كان سمة غالبة على الفلاحين السلاف بسبب سوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان أعداء اليهود يعتبرونهم سر بلاء الريف، ولذلك كانوا يرون أن إصلاح الريف لن يتم إلا بطرد اليهود من صناعة الخمور. وتعاظم هذه التوجه خلال القرن الثامن عشر مع تدهور الاقتصاد البولندي، واتجاه العناصر التجارية المسيحية إلى منافسة اليهود في هذه التجارة المربحة.

وقد اهتم المستوطنون اليهود في فلسطين بزراعة الكروم وتقطيرها، وكان البارون إدموند دي روتشيلد يأمل أن تكون تجارة الخمور أحد أسس اقتصاد القرية اليهودية، ولكن هذه التجربة لم تنجح.

الإعلان

لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً مهماً في صناعة الإعلان وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث ارتبطت هذه الصناعة بآليات المجتمعات الرأسمالية الحديثة. ورغم أن صناعة الإعلان حديثة لم تعرفها المجتمعات التقليدية بسبب التزامها بالتقاليد الدينية والأخلاقية التي كانت تمنع التنافس الشديد بين المنتجين ومحاولة التأثير على زبائنهم واصطيادهم، فإن كثيراً من التجار في العالم الغربي كانوا يشكون من ملاحقة التجار اليهود للزبائن أمام المحلات وفي الطرقات والبيوت، وربما يفسر ذلك كونهم جماعة وظيفية تنظر إلى بقية المجتمع كمصدر للربح، ولا تلتزم بقيمه الدينية والأخلاقية.

وقد تزايدت أهمية الإعلان مع تزايد عملية العلمنة واشتعال المنافسة في ظل اقتصاديات السوق الكبيرة، والاستهلاك الجماهيري، وبخاصة مع منتصف القرن التاسع عشر، وكان أعضاء الجماعات اليهودية من العناصر الرائدة في صناعة الإعلان نتيجة ميراثهم التاريخي كجماعات وظيفية مالية وتجارية وسيطة. وسهَّل ذلك ارتباطهم بتجارة التجزئة وبالصحافة اللتين كانتا من الوظائف الجديدة في المجتمعات الرأسمالية الحديثة، ثم تطوَّر الاهتمام بهذه الصناعة مع انتشار الإذاعة والتليفزيون.

أما في أوربا فلم تكتسب صناعة الإعلان أهميتها إلا بعد الحرب العالمية الأولى. ولم يكد اليهود يساهمون فيها حتى تمت تصفيتهم على يد النازية، إلا أن دورهم تعاظم بعد الحرب العالمية الثانية، واتساع نشاط مؤسسات الإعلان الأمريكية والبريطانية في أوربا.

وما تجب ملاحظته أن العوامل السابقة تفسر تركُّز اليهود في صناعة الإعلان، وليس ظهور هذه الصناعة، التي تعتبر تطوراً طبيعياً في الاقتصاد الرأسمالي القائم على المنافسة الضارية بين المنتجين، واستغلالهم مختلف الدوافع العاطفية والجنسية للمستهلك لجذبه إلى شراء السلع، بل حتى خلق الطلب على السلعة قبل إنتاجها، وهو ما يرتبط بالرأسمالية والاستهلاكية، وليس باليهود بالضرورة، فقد تطورت هذه الصناعة في بلدان لا توجد بها أقليات يهودية تُذكر كاليابان والهند.

تجارة الرقيق

«تجارة الرقيق» مهنة عادةً ما تقوم بها جماعة وظيفية مالية. وتحرِّم اليهودية على اليهودي استعباد اليهودي مدة تزيد على ستة أعوام، ولكنها لا تحرِّم استعباد غير اليهود أو الاتجار فيهم. ويقال إن العبرانيين القدماء كانوا عبيداً في مصر، وهو قول غير دقيق، لأن الاقتصاد المصري كان يعتمد على السخرة، وإن كان ذلك لا ينفي

إمكانية تحوُّل بعض العبرانيين إلى عبيد بعد انحسار حكم الهكسوس الذين كانوا يوظفون اليهود لخدمتهم. ولم يكن العبرانيون عند هجرتهم من مصر وتغلغلهم في كنعان وسكناهم فيها في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد على مستوى اقتصادي متقدم، ولذا كانوا يقتلون سكان المدن والقرى التي يقتحمونها، على نحو ما تكشف عنه أخبار العهد القديم، ولم تكن الملة العبرانية المتحدة بحاجة إلى العبيد نظراً لضعفها الاقتصادي، وسدت حاجتها من العبيد باستعباد العبرانيين الذين كانوا يفشلون في سداد ديونهم. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المملكتين الشمالية والجنوبية. وهكذا لم يُعرف عن العبرانيين تجارة العبيد أو أنهم استُعبدوا، وكانت هناك إشارة إلى أن الفراعنة كانوا يبادلون المملكتين الشمالية والجنوبية الأحصنة المصرية بالمقاتلين اليهود، وكانوا يحولونهم إلى جماعة وظيفية في الفنتاين. ولم يتغيَّر الوضع أثناء التهجير البابلي ولا في عصر الإمبراطوريات الفارسية واليونانية ثم الرومانية.

لكن الصورة اختلفت خلال العصور الوسطى الأوربية، حيث كان الرقيق من السلع القليلة التي يمكن أن توردها أوربا الفقيرة إلى الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي. فاسترقُّوا سكان البلاد السلافية الوثنيين، حيث كانت المسيحية تحرِّم استعباد رعاياها، وكانت الدولة الإسلامية تحرِّم استرقاق المسلمين، وكانت قوافل اليهود تنتقل لأخذ العبيد السلاف ونقلهم وبيعهم، وسهَّل وضع اليهود كجماعة وظيفية أن يقوموا بهذه التجارة المشينة التي لا يقوم بها أعضاء المجتمع، وأن يتنقلوا بحرية في العالمين المسيحي والإسلامي، ويبيعوا المسيحيين في العالم الإسلامي والمسلمين في العالم المسيحي. وقد عملت أعداد كبيرة من اليهود في تجارة الرقيق التي كانت جزءاً من التجارة الدولية آنذاك، حتى القرن الخامس عشر.

وبعد الثورة التجارية ظهرت تجارة الرقيق المرتبطة بالنظام الاقتصادي التجاري الجديد، إذ تطلبت إمكانات ضخمة من سفن وحاميات في المستعمرات لاصطياد العبيد وتوريدهم إلى مستوطنات العالم الجديد. وقد اضطلع اليهود بدور كبير في هذه التجارة، فامتلك اليهود المارانو العبيد خصوصاً في مستعمرات الكاريبي، وتاجروا فيهم، وساعد على ذلك شبكة الاتصالات اليهودية العالمية، ووجود المارانو في البرتغال وانتقالهم إلى المستعمرات البرتغالية والهولندية في أفريقيا والعالم الجديد.

واشترك اليهود في تجارة المثلث اللعين خلال القرن الثامن عشر حيث كانت البضائع الأوربية من أسلحة وبارود ومشروبات كحولية وحُلي رخيصة تشحن إلى أفريقيا، ثم تبادل بالعبيد، وتنقل إلى العالم الجديد، وتعود إلى أوربا محملة بالبضائع الاستوائية كالسكر والنيلة والتبغ والقهوة وغيرها.

والملاحظ أن مساهمة اليهود في مختلف أعمال تجارة الرقيق كانت عالية في أوربا، على خلاف الولايات المتحدة، وكانت مواقف اليهود في الولايات المتحدة تتحدَّد وفقاً للضوابط السائدة، في الولايات الشمالية رفض اليهود تجارة الرقيق، وفي الجنوبية مارسوها شأنهم شأن التجار المسيحيين. ومع ذلك فإن اليهود لم يكن لديهم دور يُذكر في حركة تحرير العبيد أو تهريبهم من الولايات الجنوبية إلى الولايات الشمالية، لا بالتأييد ولا بالتحريض ضدها.

١٤ ـ أقنان ويهود البلاط

أقنان البلاط

«أقنان البلاط» أو «أقنان الخزانة الملكية» تعبير شاع في العصور الوسطى في الغرب، ويشير إلى وضع اليهود داخل النظام الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى كجماعة وظيفية وسيطة، وبخاصة بعد حروب الفرنجة. وقد تم تشريع هذا الوضع في عديد من القوانين الداخلية في الدول الأوربية والاتفاقيات الدولية فيما بينها.

وكان المصطلح يعني عدة أشياء متناقضة أهمها أن اليهود عبيد الملك أو الإمبراطور، وهو أمر اختلف باختلاف الزمان والمكان، وأنهم ملكية خاصة للملك وحده، ولذلك يتمتعون بحمايته، ويتمتعون بمزايا خاصة، وأن أية سلطة غير البلاط الملكي لا يمكنها التعرض لهم.

ويلاحظ أن الحكام الأوربيين كانوا يتصرفون في اليهود كنوع من الملكية الخاصة، فكانوا يتبادلونهم (كجماعات بأكملها، أو أفراداً) كهدايا، ويمنحون ثرواتهم أو بيوتهم لمن يشاءون دون استئذانهم، أو حتى يقتلونهم ويتصرفون في ثرواتهم بلا عناء يُذكر.

ومقابل بسط الحماية الملكية على اليهود، كانوا يقومون بمهام خاصة، هي التجارة والربا وجمع الضرائب، حيث أدت الحماية والمزايا إلى تحويل اليهود إلى جماعة وظيفية مالية نشطة تساهم في تحويل الثروة الطبيعية للدولة إلى نقود، كما أصبحوا وسيلة لزيادة دخل الأفراد في الدولة، إذ كان الملك يفرض عليهم ما شاء من الضرائب، ويبيعهم الحقوق والمواثيق. ثم كانوا بدورهم يحصلون قيمة هذه الضرائب ـ التي كانت تفرض عليهم بمعدلات أعلى مما

يفرض على المسيحيين - من خلال الربا، وكان الملك هو الذي يحدد لهم نسب فوائد الربا، فتعود الثروة مرةً أخرى إلى خزانة الملك. واليهودي بهذا المعنى مملوك يستخدمه الملك لامتصاص أموال الشعب.

وقد تسبَّب هذا الوضع في عزلة اليهود عن بقية طبقات المجتمع، فكانوا في حالة صراع مع النبلاء والبارونات بسبب علاقتهم الفريدة بالملك، وكانوا في صراع مع الحرفيين الذين كانت لهم نقاباتهم تحافظ على امتلاكهم أسرار مهنهم، وكان اليهود ينافسونهم هذا الاحتكار، وكانوا في صراع مع الفلاحين والمُعدمين بسبب الربا.

لكن سكان المدن كانوا أكثر الطبقات عداءً لليهود لأنهم مثَّلوا تحدياً لشبكة التجارة التي كانت المدن تديرها، وتحاول من خلالها أن تنهض وتطور قدراتها الذاتية عن طريق احتكار التجارة. وكانت التجارة اليهودية بسبب خضوعها للملك، تعطل التراكم الرأسمالي المطلوب، وتمثل منافساً قويا للبرجوازية التجارية الصاعدة، بسبب امتلاكها شبكة اتصالات عالمية، وإعفائها من بعض الضرائب، فكان اليهود يمثلون أيضاً أداة لضرب الطبقات البرجوازية الصاعدة.

ويكن تفسير معاداة اليهود التي انتشرت في الغرب خلال العصور الوسطى في ضوء وضعهم هذا كأقنان بلاط، وذلك باعتبارها ضرباً من ضروب الثورة الشعبية ضد الاستغلال، حيث كانت الجماهير لا تدرك هذه الصورة بشكل مركَّب، وكانت توجه غضبها مباشرةً ضد اليهود في فترات ضعف السلطة وتراجُع حماية الملك لهم عند غيابه في بعض الحملات. وهو ما يفسر تصاعد العداء لليهود في أوربا خلال حروب الفرنجة. كما ساهم هذا الوضع في ارتباط اليهود الشديد بالسلطة، وظهرت مجموعة أخرى من أقنان البلاط الذين عملوا بخدمة الملكيات المطلقة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، كدبلوماسيين.

كما عملوا وكلاء ماليين للنبلاء البولنديين من خلال نظام الأرندا، حيث كان النبيل يقيم في وارسو، ويرسل وكيله اليهودي مع القوات البولندية ليقوم باعتصار أموال الفلاحين الأوكرانيين. وقد جاءت معظم القيادات الصهيونية البولندية من داخل هذا التشكيل الحضاري الذي لعب فيه اليهود دور أداة الاستغلال المباشر المنبوذة التي تمثل الحاكم وتعتمد عليه.

ومن أهم الآثار الأخرى لوضع اليهود كأقنان بلاط أن اليهودي تمت حوسلته فتحول إلى وسيلة لا غاية، ومع ظهور الفلسفة النفعية في الغرب تعمق هذا الاتجاه ونوقشت مسألة إعتاق اليهود في إطار مدى نفعهم.

وكان من أهم آثار الحوسلة والعزلة بقاء اليهود خارج التشكيلات السياسية البرجوازية القومية، فكانوا يطردون حين تختفي الحاجة إليهم. وفي بولندا، لم يكونوا خارج التشكيل السياسي والاقتصادي وحسب، بل كانوا خارج التشكيل الحضاري كله، حيث كانوا يتحدثون اليديشية، وكانت الكاثوليكية أحد أبعاد الهوية البولندية مقابل الأرثوذكسية الروسية. ولذا حينما ظهرت القومية البولندية استبعد منها اليهود، كما أن اليهود لم يحاولوا الاندماج فيها بدورهم، وأثناء حركة المقاومة ضد النازي، لم تكن العناصر البولندية تثق كثيراً في العناصر اليهودية، بسبب تراثها الطويل في الالتصاق بالسلطة والقوى الحاكمة، وعزلتها عن القوى الشعبية.

ويفسِّر ظهور أقنان البلاط في الحضارة الغربية بأن المجتمع الإقطاعي كان مجتمعاً عضويا متماسكاً، رغم اللامركزية الإقطاعية، وكان يدور حول الدين المسيحي، سياسيا ودينيا، حيث لم يكن هناك فصل بين السلطتين الزمنية والدينية كما يُشاع، وكانت الجماعات القروية المنغلقة تدور حول القس والنبيل، وكلاهما مسيحي، وكان مسوغ بقاء اليهود خارج هذا الإطار هو اعتبار أن هذه الملكيات والإقطاعيات وريثة للدولة الرومانية (الوثنية) التي اعتبرت اليهود ملكية خاصة للملك منذ تدمير الهيكل وسبي اليهود إلى بابل.

والحركة الصهيونية نتاج ذلك التراث الغربي القديم، لأنها تعتبر اليهود فائضاً بشريا هامشيا في أوربا يمكن توظيفه لصالحها خارج حدودها، من خلال الاستيطان وخدمة الاستعمار، أي تحويل أقنان البلاط الملكي الذين كانوا يقومون بأدوار وظيفية مالية ودبلوماسية إلى أقنان بلاط إمبريالي يقوم بوظيفة استيطانية قتالية.

يهود البلاط

«يهود البلاط» هم وكلاء الحكام ومستشاروهم في الأمور التجارية والمالية في العالم الغربي، وكانوا من أهم الجماعات الوظيفية الوسيطة في عصر الملكيات المطلقة في أوربا، خصوصاً في وسطها في القرن السابع عشر. وقد ظهرت حاجة الأمراء الألمان إلى يهود البلاط كأدوات إنتاج وإدارة لإحكام سيطرتهم على إماراتهم، وملء الفراغ الذي خلقه تفتّت الطبقة الوسطى الألمانية وتآكُل جهاز الدولة، وكان يهود البلاط مؤهلين أكثر من غيرهم للقيام بهذا الدور بسبب امتلاكهم رأس المال اللازم لعملية التنمية، وتمتعهم بشبكة مالية عالمية، وامتلاكهم الخبرة الإدارية.

يضاف إلى ذلك أن اليهودي في العصور الوسطى الأوربية لم يتمتع بأية حقوق، وكان استغلاله سهلاً، حيث لم تكن لهم نقابات ولا كنائس تحميهم. وكون اليهودي في غربة مزدوجة عن بقية جماعته وعن المجتمع الذي يعيش فيه، واستحالة مراكمة اليهود للثروة والقوة، حيث كل ما يتمتعون به من ثروة وقوة هما في الحقيقة للأمير أو الملك.

وقد ظهر يهود البلاط بعد عصر النهضة مباشرةً، وفي مرحلة التحوُّل من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي الحديث. وكانوا ينظمون شئون الملك المالية والإدارية ويشرفون على عملية سك العملات، ويقومون بجمع الضرائب له، ويشرفون على الاستيراد والتصدير، ويشيِّدون المصانع وبخاصة المصانع الحربية والمعدنية، وأدخلوا إلى تلك الإمارات منتجات زراعية وصناعية جديدة. كما كانوا يزودون الملك أو الأمير باللوازم الترفية، من أسواق فرنسا وإيطاليا وهولندا والدولة العثمانية، ويسددون ثمنها من خلال البنوك الأوربية، وكانوا يتولون الإشراف على البعثات التجارية والدبلوماسية، ويقومون بإعداد الميزانية، ويمدون الجيوش بالمؤن، أي أنهم يقومون بوظائف وزراء الخارجية والمالية والحرب.

وقد قام يهود البلاط بدور مهم خلال حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) بسبب شبكة العلاقات الاقتصادية الدولية التي كانوا يتمتعون بها، وكانت تضم اليهود السفارد في هولندا وغيرها، وكانت على صلة بيهود الدولة العثمانية السفارد، ويهود المارانو الذين كانوا يتنقلون بحرية في مختلف دول أوربا باعتبارهم مسيحيين (حقيقة أو ادعاء)، وكانت تربطهم صلات قربى وعلاقات عمل بأصولهم اليهودية. فكانت هذه الشبكة من السفارد والإشكناز والمارانو شبكة متعددةً الجنسيات تربط العالم من شرقه إلى غربه.

وخلال هذه الحرب تمكَّن يهود أوربا من مراكمة ثرواتهم من خلال خدمة مختلف الجيوش المتحاربة وإمدادها بالأموال والمؤن والعتاد والاتصالات. وكانت هذه الجيوش تحتاج إلى تلك الجماعات اليهودية فلم تمسها بسوء. وقد استغلت الدعاية النازية حقيقة استفادة اليهود من هذه الحروب التي مزقت ألمانيا في إدانة اليهود واعتبارهم أغنياء حرب يستفيدون من مآسي الآخرين، ولكنها فصلت هذه الحقيقة عن السياق التاريخي الغربي الذي يبرز أن استفادة اليهود آنذاك لم تكن بسبب كونهم يهوداً، ولكن بسبب وضعهم كجماعة وظيفية.

وبالنظر إلى وضع اليهود في هذا السياق الحضاري والسياسي، نجد أن علاقتهم بالملك كانت علاقة نفعية محض، فهم يخدمونه من أجل الحصول على المنافع المختلفة في صورة حماية وامتيازات خاصة ونفوذ، وهو يسخرهم لخدمته مقابل ما يدفعونه من أموال لشراء الحقوق والامتيازات، وما يقدمونه من هدايا في المناسبات المختلفة، وما يفرضه عليهم من ضرائب. وكان اليهود يشغلون فراغاً وظيفيا محدداً، فإذا انتفت الحاجة إليهم بظهور عناصر جديدة، يتم التخلص منهم بسهولة، لأنهم لم يكونوا يمتلكون كياناً اقتصاديا خاصا بهم، ولكنهم كانوا مجرد أداة بيد الملك، وكانوا مكروهين من مختلف فئات المجتمع. وكثيراً ما كان اليهودي الذي تنتفي الحاجة إليه يعلن إفلاسه عندما يرفض الملك سداد ديونه له، أو يصادر أمواله.

ومع ذلك يلاحظ أن يهود البلاط كانوا أقرب إلى المركز سياسيا واقتصاديا من أقنان البلاط أو المرابين والتجار، وكانوا أقرب إلى الاندماج في وسطهم الحضاري، فكانوا يسلكون كعادة الأوربيين، وبعضهم تنصَّر بالفعل. وكانوا يتميَّزون عن مختلف الجماعات اليهودية بما يمنحهم الملك من مزايا لا تُمنح إلا للنبلاء، وقد مكَّنهم ذلك من قيادة بقية أعضاء الجماعات اليهودية التي كانوا ينتمون إليها. وكانوا يشفعون لهذه الجماعات عند الملك أو يحصلون لهم على حقوقهم، ولكنهم في بعض الأحيان كانوا يقفون مواقف مضادة لغيرهم من اليهود، ويطالبون حتى بوقف الهجرة اليهودية إلى بلادهم. وقد أصبحت وظيفة يهود البلاط وراثية، وتحوَّلوا إلى أسر مالية أرستقراطية متصارعة، مغلقة على نفسها، وتجذرت صورة يهودي البلاط في الوجدان الأوربي كعبقري ساحر وصاحب نفوذ يقرض الملك والأمراء.

وقد رحب يهود البلاط بحركة التنوير اليهودية في المجتمع الأوربي، وتنصَّر كثير منهم ربما بسبب هذا الجو الثقافي الاندماجي، واندمج كثير منهم في الرأسمالية الرشيدة مع تطور الدولة القومية واختفاء طبقة يهود البلاط لانتفاء الحاجة إليهم.

والملاحظ أن وظيفة الدولة الصهيونية لا تختلف كثيراً عن يهود البلاط بالنسبة إلى الأمراء الألمان منذ ثلاثة قرون، فهي دولة وظيفية تخدم البلاط الإمبريالي للدول الكبرى.

مماليك مالية

مصطلح «مماليك مالية» قمنا بنحته، ونستخدمه لوصف أوضاع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية،

انطلاقاً من مفهومنا التحليلي الخاص بالجماعات الوظيفية المالية. ويربط هذا المفهوم ظاهرة الجماعة الوظيفية اليهودية في التشكيل الحضاري الغربي بظاهرة مماثلة في تشكيل حضاري مختلف، بما يوضح أن هذه الظاهرة ليست فريدة، ولكنها جزء من نمط متكرر في التاريخ الإنساني العام، ولكنه في الوقت نفسه لا يمثل قانوناً عاماً مجرداً، نظراً لخصوصية كل تجربة، كما أنها محاولة لتعميق فهم القارئ العربي للظاهرة اليهودية في الحضارة الغربية، من خلال تشبيهها بنموذج معروف لديه. وأخيراً فإن مصطلح «المماليك» ذو مقدرة تفسيرية عالية لفهم وضع الجماعات اليهودية في الغرب، والصهيونية، والدولة الصهيونية.

ويمكن تحديد جوانب التشابه بين التجربتين المملوكية واليهودية في العناصر التالية:

١ - استجلاب كلا المجموعتين من عناصر غريبة على المجتمع.

٢ - القيام بوظيفة متميزة أو مشينة أو كريهة لا تقوم بها الجماعات الأخرى في المجتمع (كالقتال في حالة المماليك أو التجارة والربا وجمع الضرائب في حالة اليهود).

٣ - العلاقة بين الملك/ الحاكم وهذه الجماعة علاقة نفعية تعاقدية؛ فهم يحصلون على المزايا مقابل القيام بالوظيفة المحددة.

٤ - العزلة عن بقية المجتمع (في جيتوات بالنسبة لليهود أو ثكنات عسكرية بالنسبة للمماليك) حتى لا تفقد علاقة التعاقد الصارمة، وتنمو بينهم وبين المجتمع علاقات مودة وتراحم تجعل أداء الوظيفة متعذراً.

٥ - الخضوع التام لسيطرة الملك/ الحاكم، فهم ملك له، أو خدم وأتباع، يجوز له التصرف فيهم، وهم معزولون عن بقية المجتمع مكروهون منه.

٦ - الإيمان بالتميز عن الغير (شعب مختار، أو نخبة مميزة).

٧ - الإيمان بالحتمية (التي تبرر لهم الخضوع والقيام بأعمال غير مقبولة).

٨ - ازدواجية المعايير (داخل الجماعة الوظيفية وخارجها).

٩ - امتلاك مهارة معينة لا يمتلكها أعضاء المجتمع المضيف، وتحدد تميزهم ودورهم الوظيفي (القتال بالنسبة للمماليك، والخبرة الإدارية والمالية والاتصالية لليهود).

١٠ - كراهية المجتمع المحيط لهم.

١١ - استفادتهم بشدة وتضررهم بشدة أيضاً من التغيُّرات الكبرى كالحروب والتحديث.

١٥ - مسألة الحدودية والهامشية

الحدودية كتعبير عن وظيفية الجماعات اليهودية

«الحدودية» مُصطلَح يُعبِّر عن نموذج ذي مقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية، إذ يرصد ويُفسِّر إحدى السمات الأساسية للجماعات اليهودية، ويُقصَد به وجود أعداد ملحوظة منها "على الحدود"، إما بالمعنى الجغرافي (المكان) أو بالمعنى التاريخي (الزمان)، وهو ما يُعبِّر عن وضعها كجماعة وظيفية (في علاقة تعاقدية نفعية مع المجتمع - معزولة مغتربة عاجزة - منفصلة عن المكان والزمان - لديها إحساس متضخم بهويتها الوهمية - حركية - متمركزة حول ذاتها ووظيفتها - لها معاييرها المزدوجة الخاصة بها). فمن الناحية الجغرافية، يُلاحَظ وجود أعضاء الجماعات اليهودية على أطراف أو حدود الدول أو في مناطق تقع بينها أو الموانئ البحرية أو في الموانئ التجارية التي تكون محطات ومراكز برية أو في جيتو خاص. أما من الناحية التاريخية، فيُلاحَظ ازدهار أعضاء الجماعات اليهودية في مرحلة تاريخية مؤقتة تقع بين مرحلتين. ويمكن أن تكون الحدودية وضعية بمعنى ألا يكون المثقف أو الرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية منتمياً إلى مركز التجمع وإنما يكون على حدوده أو هامشه. والحدودية تُعبِّر عن وضع الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية تضطلع بوظائف خاصة (مشينة أو متميِّزة)، وهو ما يتطلب عزلها عن المجتمع، أو بوظائف ريادية في الأماكن النائية والمجهولة. والحدودية الجغرافية يمكن أن توجد بدون الحدودية الوظيفية، والعكس صحيح أيضاً. لكن من الواضح أن الواحدة تقود إلى الأخرى، كما أن انفصالهما أمر مؤقت وتعبير عن الفجوة الزمنية التي تسم الظواهر الإنسانية.

وينبغي التنبيه ابتداءً إلى أن هذه الصفة ليست صفة كامنة في الطبيعة البشرية اليهودية أو لصيقة بها كما قد يتخيل البعض، فهي صفة مُكتسَبة يمكن تفسير كثير من جوانبها في إطار تاريخي واجتماعي. ويجب أيضاً أن نشير إلى أن ثمة جماعات يهودية عديدة لم تتصف بصفة الحدودية هذه. فيهود بابل كانوا دائماً جزءاً من مجتمعهم، كما أن الأمريكيين اليهود أصبحوا جزءاً عضويا من مجتمعهم لا يقفون على حدوده وإنما يتحركون داخله ويوجدون في صميمه.

ويمكن القول إن صفة الحدودية هذه تنطبق بشكل عميق وأساسي على أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي، خصوصاً في شرق أوربا قبل الثورة الصناعية. ولأن وضع هذه

الجماعات، كجماعات وظيفية، هو ما أفرز الصهيونية التي هيمنت إلى حدٍّ كبير على كل يهود العالم، وهذه الظاهرة تكتسب أهمية خاصة في الوقت الحاضر.

هامشية اليهود

«هامشية اليهود» مُصطلَح يُستخدَم في الدراسات التي تدور حول وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، خصوصاً شرق أوربا، وهو مُصطلَح يتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود، ويصف وجودهم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري كجماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف وحرف ومهن مختلفة، مثل التجارة البدائية والربا وكانتا عمليتين مرتبطتين بالنظام الإقطاعي ولكنهما لم تكونا قط من صميم العملية الإنتاجية نفسها. بل إن الحرف التي كان يمارسها اليهود أنفسهم، لم تكن مرتبطة بالفلاحين، وإنما كانت مرتبطة بالتجار اليهود أو الأمراء الإقطاعيين. ولذلك، فحينما ظهرت الرأسمالية المحلية في شرق أوربا مع بدايات القرن التاسع عشر، ثم الدولة القومية والنظام المصرفي الحديث، وجد أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم بلا دور اقتصادي أو إنتاجي يلعبونه، وبالتالي كانوا عرضة لاضطهاد المجتمع الذي لم يَعُد في حاجة إلى خدماتهم ولم يعد يرى لهم نفعاً، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة حدة تفاقم المسألة اليهودية وزيادة هجرتهم إلى غرب أوربا. وقد بذلت الحكومة الروسية، وكذلك الحكومة النمساوية التي كانت تتبعها جاليشيا، جهوداً شتى لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق فتح أبواب مهنة الزراعة أمامهم. وساهم في هذه الجهود مليونيرات الغرب من اليهود، مثل هيرش وروتشيلد، لأن هجرة اليهود من شرق أوربا إلى غربها كانت تسبب لهم الحرج الشديد كما كانت تهدد مواقعهم الاقتصادية والحضارية التي اكتسبوها عن طريق الاندماج. وقد تعثرت هذه المحاولات وهو ما اضطر الحكومة الروسية، على سبيل المثال، إلى أن تلجأ للقمع الاقتصادي عن طريق إصدار قوانين مايو.

والحديث عن هامشية اليهود فيه كثير من التعميم والتجريد. فالهامشية المقصودة هي هامشية يهود شرق أوربا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وحسب، لأن الدور اليهودي (الوظيفي التجاري المالي) في المجتمعات الزراعية التقليدية في الغرب كان دوراً حيويا، إذ اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بوظيفة أساسية في المجتمع رغم أنها لم تكن جزءاً من العملية الإنتاجية الرئيسية. أما الوجود اليهودي في العالم الإسلامي فلم يكن هامشياً قط، حيث تفاعلوا مع محيطهم الحضاري واصطبغوا به فأبدعوا من خلاله وانخرطوا في سائر المهن والوظائف. كما أن الوجود اليهودي في الولايات المتحدة لم يكن أبداً هامشيا وإنما كان في صميم المجتمع نفسه من البداية. كما لا يمكننا استخدام مُصطلَح «هامشي» لوصف الوجود اليهودي في فرنسا أو إنجلترا أو روسيا السوفيتية (سابقاً)، فالبناء الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية في كل هذه البلاد لم يَعُد متميِّزاً كما كان الأمر سابقاً. وإذا كان ثمة تميُّز، فإنه يعود لكون الجماعة اليهودية أقلية أو جماعة وظيفية وليس لأنها يهودية. وإذا كان هناك أي وجود هامشي غير منتج حتى الآن، فهو وجود الدولة الصهيونية الوظيفية المموَّلة من الخارج التي أُسِّست على أرض الفلسطينيين وحوَّلتهم إلى عمالة رخيصة وتستمر في قمعهم وإجهاض تطلعاتهم وأحلامهم المشروعة.

شذوذ اليهود

«شذوذ اليهود» مُصطلَح شائع في الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود يشير إلى بعض السمات التي تُوصَف بأنها غير طبيعية، وهي سمات يُفترَض أنها تسم أعضاء الجماعات اليهودية الغربية، ويمكن إزالتها عن طريق إصلاح اليهود أو تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج أو عن طريق دمجهم أو تطبيعهم. ويرى الصهاينة أن وجود اليهود في المنفى والشتات (أي خارج فلسطين) حالة شاذة تسبب شذوذاً للشخصية اليهودية. وبالفعل، وجَّه الصهاينة سهام نقدهم إلى هذه الشخصية المريضة الشاذة غير السوية.

ولشذوذ الشخصية اليهودية، من وجهة نظرهم، مظهران أساسيان: أحدهما اقتصادي والآخر سياسي. أما المظهر الاقتصادي، فيتبدَّى في اشتغال اليهود بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة، مثل: التهريب والأعمال المالية والاتجار في العقارات وتجارة الرقيق الأبيض والتسول، بينما يتمثل المظهر السياسي فيما يُطلَق عليه إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة. فالصهاينة يرون أن اليهود، بعد تحطيم الهيكل، أصبحوا جماعات مشتتة ليس لها سيادة مستقلة، ويوجد أعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار، الأمر الذي كان يعني، من وجهة نظر الصهاينة، توقُّف مسار ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي». وقد انعكست الظاهرة أيضاً في ازدواج الولاء عند اليهودي، فهو نظراً لافتقاره إلى وطن قومي خاص به يضطر إلى أن ينتمي إلى مجتمعات غريبة يحاول أن يندمج فيها. ولكن نزعته القومية الحقيقية تستمر، مع هذا، في التعبير عن نفسها رغم

أنفه، فينقسم على نفسه وتتنازعه الولاءات المتناقضة. وغني عن القول أن السمات الشاذة التي تسم أعضاء الجماعات اليهودية هي في واقع الأمر السمات الأساسية لأية جماعة وظيفية، ومن ثمَّ فهي تمثل ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة لا تتسم بأي شذوذ. ولكن المعادين لليهود والصهاينة يرونها كذلك لأنهم يعزلون أعضاء الجماعات اليهودية عن محيطهم الحضاري والاجتماعي وينظرون إليهم من خلال نماذج اختزالية لا علاقة لها بوضعهم المتعيِّن، ثم يحكمون عليهم بالشذوذ.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (المجتمع الصهيوني) كجزء من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية، أي تخليصها من شذوذها المزعوم، وذلك بتحويل اليهود إلى أشخاص طبيعيين ينتجون ويستهلكون ويتحكمون في مصيرهم السياسي ويشعرون بالولاء نحو دولتهم، شأنهم في هذا شأن البشر كافة.

وغني عن القول أن مفهوم شذوذ الشخصية اليهودية مفهوم محوري في أدبيات معاداة اليهود، خصوصاً في الفكر النازي. لكن حل المشكلة بالنسبة إلى النازيين ليس إصلاح الشخصية اليهودية وإنما التخلص منها بأي شكل ممكن؛ عن طريق إرسالهم عبر الحدود إلى بولندا باعتبار أن أغلبيتهم كانت من يهود شرق أوربا، أو عن طريق إبادتهم. وكانت استجابة الصهاينة لعملية الإبادة نابعة من هذا الإيمان بشذوذ يهود أوربا. فحينما طلب بعض يهود أوربا عام ١٩٤٢ من يتسحاق جرونباوم (أحد أعضاء النخبة الصهيونية في فلسطين) أن يقوم المُستوطَن الصهيوني باتخاذ خطوات لإيقاف الإبادة، أخبرهم بأن "من الضروري التخلص من وضع اليهود غير العادي حتى نصبح أمة مثل الأمم كافة"، ومن ثمَّ يكون من الأفضل - من وجهة نظره - التخلي عن يهود أوربا حتى لا يتعرض شيء في المُستوطَن الصهيوني للخطر، حتى ولو بضع بقرات (على حد قوله).

ويشير بعض المحللين السياسيين إلى الدولة الصهيونية بوصفها من أكثر الدول شذوذاً وأقلها طبيعية. فاقتصادها أصبح اقتصاداً تسوليا يعتمد على الغرب، ودرجة إنتاجية العمال فيها آخذة في التدني، وأصبحت صناعة السلاح من الصناعات الأساسية فيها، كما تحولّت هي نفسها إلى دولة شتتل/ قلعة تدخل حرباً تلو حرب، كما أنها مهددة من الداخل بالانفجار السكاني العربي. وهي توجد في الشرق الأوسط وليست منه، وهي دولة يهودية فشلت في تعريف من هو اليهودي، الأمر الذي يشير إلى أن بنيتها أبعد ما تكون عن الطبيعية والسواء. كما أن الإسرائيليين عادوا مرة أخرى إلى الشذوذ والهامشية إذ تنخرط أعداد كبيرة منهم في أعمال السمسرة والجريمة، وأصبحت الدولة الصهيونية من أكبر مُصدِّري العاهرات إلى الغرب حتى أن لغة القوادين في أمستردام (على سبيل المثال) إحدى الرطانات العبرية، كما أن قطاع الخدمات غير الإنتاجي آخذ في التضخم رغم أن المواطن الإسرائيلي من أكثر المواطنين مديونية في العالم. ونحن نذهب إلى أن الدولة الصهيونية هي في واقع الأمر دولة وظيفية.

وقد طرحت الانتفاضة مرة أخرى، وبحدة، قضية شذوذ اليهود والدولة الصهيونية، إذ اكتشف التجمع الصهيوني مدى اعتماده على العمالة العربية، خصوصاً بعد أن حقق العمال اليهود من أصل شرقي (من يهود العالم الإسلامي) حراكاً اجتماعيا فتركوا قاعدة الهرم الإنتاجي ليمارسوا وظيفة الوسطاء وغير ذلك من الوظائف، الأمر الذي ترك هذه القاعدة للعمالة العربية. وقد أدَّت مقاطعة العمال العرب إلى تعطيل كثير من القطاعات الإنتاجية.

طفيلية اليهود

كلمة «طفيلية» تُستخدَم للإشارة إلى الحيوان أو النبات الذي يعيش على غيره. ويستخدم المعادون لليهود مُصطلَح «طفيلية اليهود» لوصف ما يتصورون أنه علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يعيشون في كنفها. والكلمة مرادفة لكلمات أخرى مثل «هامشية» أو «شذوذ» أو تشترك معها في بعض المعاني والإيحاءات.

ولعل وصف أعضاء الجماعات اليهودية بالطفيلية يعود إلى كونهم جماعة وظيفية وسيطة موقعها عند حافة المجتمعات وفي الشقوق، وهو وضع استمر في شرق أوربا ووسطها حتى بداية القرن العشرين. فالجماعة الوظيفية الوسيطة تتركز في الأعمال غير الإنتاجية وتحقق أرباحاً عالية دون أن تنتج شيئاً متعيِّناً أو ملموساً، على عكس الزارع أو الصانع، حيث كان أعضاؤها يضطلعون بوظائف مثل الربا والتجارة وتجارة الرقيق والبغاء. ولذا كان يُشار إلى اليهود باعتبارهم «لوفتمنش»، وهي كلمة ألمانية تعني حرفيا «رجال الهواء»، ومعنى ذلك أن اليهود شعب يكسب رزقه لا من الإنتاج وإنما من الهواء أي من لا شيء. وقد وُصفت وظيفة اليهود كمرابين، أو كجماعة وظيفية وسيطة عميلة، بأنها كالإسفنجة يستخدمها الحاكم لامتصاص فائض القيمة من المجتمع ثم يعتصرها لحسابه. ورغم أن الإسفنجة مختلفة عن الكائن الطفيلي، إذ إن الكائن

الطفيلي يمتص رزق الآخرين لحسابه على حين أن الإسفنجة تمتصها لحساب الآخر، فإن الجماهير التي جرى امتصاص رزقها لم تر سوى الجزء الأول من عملية الامتصاص. والإسفنجة والكائن الطفيلي يشتركان في أنهما دون أهمية بالنسبة إلى الجسم الذي يعيشان عليه، بل إنهما يشكلان خطورة شديدة عليه ويهددان حياته. ولعل إدراك الجماهير لليهود في العالم الغربي في العصور الوسطى، كجسم طفيلي أو كإسفنجة، هو أصل تهمة الدم، حيث يُتّهم اليهود بامتصاص دماء ضحاياهم.

وطفيلية يهود العالم خارج فلسطين موضوع كامن أساسي في الأدبيات الصهيونية ذات الديباجة الاشتراكية. فقد وصف المفكر الصهيوني العمالي أهارون جوردون يهود العالم خارج فلسطين بأنهم طفيليون، كما استخدم المفكر الصهيوني الألماني ماكس نوردو كلمة «البكتريا» لوصف وضع اليهود في المنفى، واستخدمها من بعده الزعيم النازي أدولف هتلر. ومن هنا، فإن صورة اليهودي كطفيلي صورة أساسية في الخطاب السياسي الغربي، الرأسمالي والاشتراكي، الصهيوني والمعادي لليهود. وقد اقترح نوردو أن يكون حل مشكلة الطفيلية اليهودية من خلال ظهور اليهودية ذات العضلات. وبالتالي، يمكن حل إشكالية الشعب الطفيلي عن طريق استيطانه في فلسطين بالعنف، والاستيلاء على الأرض، على أن يعمل فيها بنفسه، فيخلِّصها من العرب ويخلِّص نفسه من الطفيلية، وهذا هو الخلاص الصهيوني.

وتتواتر موضوعة طفيلية اليهود في الأدب العبري الحديث وفي الكتابات الإسرائيلية، إذ يرى كثير من المحللين الإسرائيليين أن المجتمع الإسرائيلي يسقط مرة أخرى في الطفيلية، خصوصاً بعد أن تغلغلت العمالة العربية في قطاعات المجتمع الإسرائيلي كافة، وأن شعب الهواء بدأ يظهر مرة أخرى. كما يرون أن انتشار الجريمة، والفساد، وعدم الاكتراث بالإنتاج، هي من أشكال الطفيلية.

اللغات السرية لبعض الجماعات اليهودية الوظيفية

«اللغات السرية» لهجات ورطانات خاصة، بل أحياناً لغات، يستخدمها أعضاء الجماعات الوظيفية. وهذه اللهجة أو الرطانة أو اللغة عادةً ما تختلف عن لغة المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية. وقد كان تحدُّث هذه اللغة يُعدُّ شرطاً للانخراط في سلك الجماعة. فكان المماليك يتحدثون فيما بينهم الشركسية (أو إحدى اللغات التركية)، ويتحدث الصينيون من أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة في جنوب آسيا لغتهم، ويتحدث العرب في أفريقيا لغتهم العربية. أما أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة من اليهود في شرق أوربا، فكانوا يتحدثون اليديشية. ويُلاحَظ أن بعض أعضاء النخبة الحاكمة المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ كانوا يتحدثون التركية (أو العربية المطعمة بالتركية) كمظهر من مظاهر التميز والعزلة والانتماء للجماعة الوظيفية الحاكمة. وهو مصدر النمط السائد في الكوميديا المصرية بعد الثورة ـ المصري/ التركي منتفخ الأوداج المتعجرف، الذي يتحدث هذه اللهجة كإحدى علامات التميز. ولكن تعجرفه ليس له ما يسانده في الواقع، فهو عضو جماعة وظيفية حاكمة فقدت وظيفتها. ويبدو أن التحدث بإحدى اللغات الأوربية بين أعضاء النخب الحاكمة والثقافية في العالم الثالث (التي تحوَّلت إلى ما يُشبه الجماعة الوظيفية التي تخدم الاستعمار) أصبح هو الآخر رمز الانتماء للجماعة الوظيفية، فالمتحدث بهذه اللغة يبيِّن كفاءته، وهو في الوقت نفسه يعزل نفسه عن الجماهير التي لا تتحدث سوى لغة الوطن!

واللغة، من ثَمَّ، وسيلة من وسائل الفصل بين الجماعة وأعضاء المجتمع المضيف، وأداة للتواصل بين أعضاء الجماعة. ولعل في إصرار الصهاينة على أن تكون لغة الدولة الصهيونية العبرية وليست الإنجليزية لغة القوى الإمبريالية العظمى، أو الإسبرانتو (اللغة التي طورها اليهودي الروسي زامنهوف على أمل أن تكون لغة عالمية ولغة يتحدث بها المُستوطَن الصهيوني) إدراكاً من جانبهم لطبيعة الدولة الصهيونية باعتبارها دولة وظيفية.

ومن الأشكال المتطرفة للغات الجماعات الوظيفية اللغات السرية، فالعوالم والنشالون، على سبيل المثال، لهم لغاتهم السرية، وهي في الغالب رطانة تركيبها تركيب اللغة الشائعة في المجتمع مع إضافة مفردات لغوية لا يعرفها إلا عضو الجماعة الوظيفية. وللغة السرية فائدة مباشرة إذ تُسهِّل عملية أداء الوظيفة، وهي وظيفة مشينة في العادة، ومن ثَمَّ تصبح اللغة السرية من علامات الهامشية.

وقد استخدم أعضاء الجماعات اليهودية هذه الآلية للتواصل. وكانت لغاتهم السرية تتكون في العادة من جُمَل باللغة المحلية تحتوي على كلمات عبرية تُعالج حسب قواعد اللغة المحلية، فكلمة «أخل» مثلاً كلمة عبرية بمعنى «أكل»، فإن كان المتحدث اليهودي يتحدث بالإنجليزية فإنه يُعبِّر عن معنى أنه «قد أكل بالفعل» على النحو التالي: «هي هاز أولريدي أخلد He has already akhaled». ولا تُعبِّر هذه الكلمات الداخلية إلا عن الأجزاء المهمة من الأسماء أو الأفعال في الجملة. كما كانت تترجم أسماء الأماكن حرفيا إلى العبرية فكلمة «نيويورك» مثلاً في عبارة «ذهبت إلى نيويورك»، تصبح «آي ونت تو

يورك حاداش I went to york hadash» حيث جاءت كلمة «حاداش» بديلاً عن الجزء الأول من كلمة نيويورك «نيو»، ومعناها «جديد».

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يستخدمون اللغة السرية لمناقشة الأمور التي تهمهم دون أن يفهمهم أحد من المحيطين بهم، بخاصة في الأسواق، وهو ما كان يُسهِّل عملية الغش التجاري والاحتيال، وكثيراً ما كان اللصوص يتعلمون هذه اللغة لاستخدامها بين الناس دون أن يفهمهم أحد. فقد قام موظف بروسي بإعداد معجم عن لغة اللصوص السرية في أواخر القرن الثامن عشر، وظهر أن كثيراً من كلمات هذه اللغة السرية ذات جذور عبرية أو أصل عبري. وقد أُخذ هذا دليلاً على اشتراك أعضاء الجماعة اليهودية وتورطهم في عالم الجريمة.

وفي الوقت الحاضر، يبدو أن كثيراً من القوادين والقائمين على تجارة الرقيق الأبيض يتحدثون لغة سرية ذات أصول عبرية، وقد يعود هذا لوجود عدد كبير من أعضاء الجماعة اليهودية، يعملون قوادين أو بغايا، في هذه المهنة المشينة حتى ثلاثينيات هذا القرن، وفي الوقت الحاضر أصبحت إسرائيل مصدراً للبغايا في أوربا. ويُقال إن لغة القوادين في أمستردام دخلتها كلمات عبرية كثيرة.

وقد كانت اليديشية تحل أحياناً محل اللغة السرية، وهي رطانة ألمانية دخلت عليها مفردات سلافية وعبرية، فكان لا يفهمها سوى أعضاء الجماعة اليهودية، فأصبحت اليديشية لغة الغش التجاري في القرن التاسع عشر، ولذا حرَّمت الحكومات على اليهود استخدامها.

الجرائم المالية لبعض أعضاء الجماعات اليهودية

«الجرائم المالية» هي الجرائم التي يرتكبها بعض كبار المموِّلين، مثل جرائم التزييف والغش التجاري والتهريب. وقد لُوحظ ازدياد نسبة ارتكاب مثل هذه الجرائم بين أعضاء الجماعات اليهودية، عن النسبة العامة السائدة في المجتمع. ومن المعروف أن هذه الجرائم انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر إلى درجة اضطرت معها الحكومات إلى استصدار تشريعات خاصة. ويبدو أن تَرَكُّز أعضاء الجماعات اليهودية في القطاع التجاري (في المجتمع التقليدي) ساعد على ذلك، فهو قطاع لم يكن يعرف نظام الضرائب، ولم يكن يرتبط بشبكات الرأسمالية الرشيدة من مصارف ووسائل نقل وغيرها. ولذلك، كان التهرب من الضرائب، وتهريب البضائع، جزءاً عضويا في مثل هذا النشاط التجاري. كما أن تَرَكُّز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في المناطق الحدودية والمدن شجع على هذا الاتجاه. ومن المعروف أن اللغة اليديشية التي تُكتَب بالحروف العبرية، ولا يعرفها سوى التجار اليهود، أصبحت تشبه اللغة السرية التي يستخدمها اللصوص، وأصبحت بذلك من أهم وسائل الغش التجاري. ولهذا حظرت الحكومات الغربية على التجار اليهود استخدامها في معاملاتهم التجارية. وقد استمر هذا النمط إلى العصر الحديث، فنجد أن نسبة جرائم الغش التجاري والتزييف التي ارتكبها أعضاء الجماعات اليهودية في بولندا وروسيا، وفي ألمانيا وهولندا، تصل إلى ضعفي أو ثلاثة أضعاف نسبتها بين أعضاء الأغلبية. وفي الاتحاد السوفيتي، لُوحظ في الستينيات أن حوالي ٥٠٪ من الجرائم المالية ارتكبها أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانت نسبتهم لا تزيد على ٢٪ من عدد السكان. ويبدو أن أعضاء الجماعات اليهودية لهم دور ملحوظ في توزيع المخدرات في الولايات المتحدة والدول الغربية. ولا تزال تظهر من آونة إلى أخرى فضيحة مالية ضخمة يتورط فيها أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ.

وقد شهدت أواخر القرن التاسع عشر واحدة من أهم فضائح الفساد المالي والسياسي التي هزت المجتمع الفرنسي، وهي فضيحة انهيار شركة قناة بنما، والتي اعتُبرت آنذاك أكبر سقطة مالية في تاريخ فرنسا. وقد تورط في هذه الفضيحة التي عُرفت باسم «فضيحة بنما» ثلاث شخصيات.

وفي القرن العشرين، تعددت الفضائح المالية التي تورطت فيها شخصيات يهودية. ففي السبعينيات، أسس الأمريكي برنارد كورنفلد مؤسسة استثمار أموال مشتركة في سويسرا باسم «إنفستورز أوفرسيز سيرفيسيز» ونجح في جذب مستثمرين من أكثر من مائة دولة بلغت قيمة أموالهم المودعة لدى شركته ملياري دولار. ولم تجتذب شركته هذا الحجم من الأموال بفضل خبرتها في إدارة الأموال ولكن بفضل خبرتها في تهريب الأموال والعملات، وبخاصة من دول العالم الثالث. واكتسب كورنفلد عداء كثير من السلطات المالية في دول عديدة، وأثار قلق الدوائر المالية السويسرية الحريصة على صورتها وسمعتها العالمية. وانهارت شركته بعد أن انخفضت قيمة بعض الأصول المهمة المملوكة لها وهبطت سوق الأوراق المالية الأمريكية التي كانت أغلب أموال الشركة مستثمرة فيها. كما نجحت السلطات المالية السويسرية في اتخاذ إجراءات قانونية ضده، فسُجن لمدة عام ثم أُطلق سراحه بكفالة مالية.

وقد كان كورنفلد على علاقة بشخص ساهم في دفع كفالته

يُدعَى تيبور بنحاس روزنباوم، الذي تورط هو الآخر في فضيحة مالية كبرى. وروزنباوم يهودي سويسري من أصل مجري، كان والده حاخاماً (كما درس هو أيضاً ليصبح حاخاماً). وخلال الحرب العالمية الثانية، عمل روزنباوم في المقاومة المجرية، وشارك في تهريب اليهود. وبعد الحرب، عمل لصالح الوكالة اليهودية، واشترك في عمليات تهجير وتوطين اليهود في فلسطين. كما كان عضواً في المؤتمر اليهودي العالمي وفي حركة مزراحي الدينية الصهيونية. وعقب إقامة دولة إسرائيل، أسس روزنباوم شركة تجارية سويسرية - إسرائيلية.

وكان روزنباوم قد أسس مصرفاً في سويسرا باسم «إنترناشيونال كريديت بنك» اعتمد على الإيداعات السرية لأموال غير معلومة المصدر من اليهود الفرنسيين والمافيا الأمريكية. وكان يتم تحويل هذه الأموال عن طريق فرع المصرف في جزر البهاما. واستخدم روزنباوم مصرفه لتحويل بعض الأموال لشركة كورنفلد. كما قدَّم المصرف خدمات مالية لإسرائيل حيث يُقال إنه دبر قرضاً لوزارة الدفاع الإسرائيلية قيمته ٧ ملايين من الدولارات خلال ٢٤ ساعة وتَلقَّى مقابل ذلك عمولة قدرها نصف مليون دولار. وفي الوقت نفسه اشترك روزنباوم في تمويل بعض الشركات الإسرائيلية ومن بينها شركة «إسرائيل كوربوريشن» التي كان عضواً في مجلس إدارتها، وهي شركة استثمارية أسسها مجموعة من أثرياء اليهود في مقدمتهم البارون إدموند دي روتشيلد الذي ترأس مجلس إدارتها. وقد ترأس الشركة إسرائيلي يُدعى مايكل تسور. وقام روزنباوم وتسور، معاً، بتحويل عشرين مليون دولار من أموال الشركة إلى مصرف روزنباوم في سويسرا دون تفويض من المساهمين أو الأشخاص المعنيين. وقام روزنباوم بتحويلها بدوره إلى إمارة ليختنشتاين، واستخدم الأموال في بعض مشاريعه الخاصة. أما تسور، فكان يتلقى فائدة قدرها ٨٪ على هذه الأموال، بينما كان يدفع للمستثمرين في الشركة ٦,٥٪ فقط ويضع الفارق في جيبه. وقد كشف إدموند دي روتشيلد النقاب عن هذه العمليات وهدَّد بوقف إنفاقاته الخيرية في إسرائيل إذا لم يتم إجراء تحقيق شامل في الأمر. وقد أدين تسور بأربع عشرة تهمة، وحُكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عاماً. وفي سويسرا، أُغلق مصرف روزنباوم، الذي سُجن ثم أُفرج عنه بكفالة مالية قيمتها مليونان من الدولارات وهي أعلى كفالة في تاريخ سويسرا.

وقد ارتبطت بعض الأسماء اليهودية بالفضيحة الخاصة بمصرف أميركان بانك آند تروست كومباني أوف نيويورك الذي اعتُبر سقوطه رابع أكبر إفلاس مصرفي في التاريخ الأمريكي. وقد تأسس هذا المصرف عام ١٩٢٩ في نيويورك على يد بنك مكسيكي، انتقلت ملكيته إلى ديفيد جرافيير وهو يهودي أرجنتيني ثري من أصل بولندي. ونجح هذا المصرفي في جذب كثير من رجال الأعمال وأثرياء اليهود الأمريكيين، كما ارتبطت به شخصيات أمريكية سياسية مهمة. ونجح البنك أيضاً في جذب أموال أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية حيث بلغ حجم أموالهم المودعة لدى البنك حوالي ٤٠ مليون دولار في منتصف السبعينيات. ولكن، في عهد كلاين، بدأ المصرف في ارتكاب عدة مخالفات مثل التجاوز في منح التسهيلات وتجاوز سقوفها ومنح القروض لشركات يمتلك المسئولون في المصرف حصصاً فيها، الأمر الذي اضطرت معه السلطات المالية الأمريكية المختصة إلى وضع المصرف تحت رقابتها. ولكن يبدو أن الاعتبارات السياسية حالت دون اتخاذ أية إجراءات ضده. وعند انتقال ملكية المصرف إلى جرافيير، عمل هو الآخر من خلال سلسلة من العمليات الملتوية على نهب المصرف وإفراغه من ملايين الدولارات وسلب أموال المودعين وودائعهم. وحينما بدأ أمره يفتضح، لقي جرافيير مصرعه فجأة إثر سقوط طائرته فوق المكسيك عام ١٩٧٦ في حادث يحيط به الكثير من الغموض، حيث أثيرت التكهنات حول احتمالات أن يكون قد اغتيل. وقد أغلقت السلطات المالية الأمريكية المصرف بعد أن نهب جرافيير منه ٥٠ مليون دولار، وبعد أن فَقَد كثير من مودعيه من أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية أموالهم.

أما مارك ريتش، الذي تورط في أكبر فضيحة تهرُّب ضريبي في تاريخ الولايات المتحدة، فهو يهودي أمريكي وُلد في بلجيكا عام ١٩٣٤ من أبوين من أصل ألماني، وفرَّت أسرته إلى الولايات المتحدة عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية. وأسَّس شركة خاصة به في سويسرا هي مارك ريتش وشركاه التي أصبحت، خلال فترة وجيزة، من أكبر الشركات العاملة في مجال تجارة السلع، خصوصاً البترول والمعادن، وقُدرت ثروتها عام ١٩٨١ بنحو ٢٠٠ مليون دولار. وقد نجح فرع شركته في الولايات المتحدة في تحقيق إيرادات بلغت ١٠٥ ملايين دولار من خلال الالتفاف حول بعض القوانين الخاصة بضبط أسعار البترول التي أدخلتها الحكومة الأمريكية عام ١٩٧٣ لحماية صناعة التكرير الأمريكية من الارتفاع المفاجئ في الأسعار. ثم قام ريتش بإخفاء وتهريب أرباحه إلى خارج البلاد من خلال سلسلة من الصفقات الملتوية حتى يتهرب من دفع مبلغ ٤٨ مليون دولار هي قيمة الضرائب المستحقة عليه

للحكومة الأمريكية. وقد وُجِّهت إليه عام ١٩٨٢ اتهامات بالتهرب الضريبي وأيضاً بالاتجار مع العدو حيث قام بشراء بترول إيراني أثناء أزمة الرهائن الأمريكية عام ١٩٨٠ بعد أن كانت الحكومة الأمريكية قد أصدرت قراراً بمنع الشركات الأمريكية من التعامل مع النظام الإيراني. إلا أن ريتش فرَّ إلى سويسرا بعد أن أغلق فرع شركته في الولايات المتحدة، ولا تزال شركته تزاول نشاطها من سويسرا في السوق العالمي.

ويُلاحَظ تورط بعض أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في الفضائح الخاصة بسوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة. ومن بين الذين تورطوا في مثل هذه الانحرافات الأمريكي اليهودي لويس وولفسون الذي سطع نجمه في عالم المال خلال الخمسينيات والستينيات، حيث حقق أول مليون له في سن الثامنة والعشرين من خلال تجارة الخردة، ثم اتجه إلى شراء الأسهم والحصص في العديد من الشركات وقام ببناء وتطوير شركة «ميريت شابمان آند سكوت كوربوريشن» التي اعتُبرت أولى الشركات الضخمة متعدِّدة النشاطات. ولكن كثيراً من عمليات ولفسون، لا سيما تلك المتعلقة ببيع وشراء الأسهم، كانت مخالفة للقوانين الخاصة بهذه العمليات الأمر الذي أوقعه في مواجهات عديدة مع هيئة الأوراق المالية والبورصة الأمريكية التي كانت تسعى إلى الحد من تزايد معدلات الجرائم المالية، كما كانت تسعى إلى إدانة أحد رموزها البارزين مثل وولفسون لردع المنحرفين في قطاع المال. وبالفعل نجحت الهيئة في إدانة وولفسون وحُكم عليه بالسجن لمدة عام سنة ١٩٦٩. وصُفِّيت شركته وتفككت إمبراطوريته بعد أن كلفته إجراءات التقاضي مع الحكومة، والدعاوى التي أقامها ضده المساهمون في شركته، الملايين من الدولارات.

ومن أكبر الفضائح المالية التي هزت أركان وول ستريت (سوق المال في نيويورك) فضيحة إيفان بويسكي، وتتلخص جريمته في الحصول مسبقاً على معلومات حول نية بعض الشركات بيع أسهمها من مصادر وثيقة الصلة قبل أن يتم الإعلان عن نية البيع للجمهور واستخدام هذه المعلومات لتحقيق الربح. وقد حقَّق بويسكي، الذي كان يمتلك مؤسسة متخصصة في المضاربة في أسهم الشركات التي يوشك أن يستولي عليها، في الفترة بين ١٩٨٤ و١٩٨٦ أرباحاً بلغت ٥٠ مليون دولار من خلال الحصول على معلومات مسبقة حول نوايا الاستيلاء على بعض الشركات حيث كان يقوم بشراء أسهمها ثم إعادة بيعها بعد أن تقفز أسعارها عقب الإعلان عن هذه المعلومات. وقد فُرضت على بويسكي غرامة قدرها ١٠٠ مليون دولار وحُكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع حرمانه مدى الحياة من المتاجرة في سوق الأوراق المالية الأمريكية.

وقد فتحت فضيحة بويسكي الباب على مصراعيه لأكبر قضايا جرائم ذوي الياقات البيضاء في التاريخ الأمريكي حيث كشفت التحقيقات عن تورط واحدة من أكبر المؤسسات الاستثمارية في وول ستريت (وهي دريكسل بورنام لامبيرت) وأحد نجومها ونجوم وول ستريت (وهو مايكل ميلكن) في انحرافات بويسكي حيث قاما بتقديم معلومات تتصل بنوايا عملائهم إلى بويسكي، واقتسام الأرباح معه. كما تكشف قيامهم بمخالفات وانحرافات مالية خطيرة، منها الاحتيال واستخدام أساليب ملتوية لإخفاء الملكية الحقيقية للأسهم والأوراق المالية بغرض تمرير صفقات غير مشروعة. وكان ميلكن، الذي قُدرت ثروته عام ١٩٨٨ بنحو مليار دولار، قد أسس سوقاً ضخماً لما عُرف باسم «سندات الخردة» وهي سندات ذات عائد عال ومخاطر عالية في الوقت نفسه، وكانت تطرحها عادةً الشركات التي تعاني من أزمات مالية. وقد نجح ميلكن في خَلْق سوق ضخم لهذه السندات وصل حجم التعامل فيه خلال الثمانينيات إلى ١٢٠ مليار دولار، وذلك من خلال استخدامها كأداة لتدبير التمويل اللازم للشركات الصغيرة ومتوسطة الحجم ولتمويل عمليات الاستيلاء على الشركات. كما خلق ميلكن شبكة واسعة ومتداخلة من المتعاملين في هذه السندات واستطاع من خلالها أن يسيطر ويتلاعب في حجم تداولها وأسعارها. ووُجِّهت إليه اتهامات باللجوء إلى أساليب غير مشروعة مثل الرشوة والابتزاز والتلاعب في الأسعار لتشجيع أو إجبار بعض المؤسسات المالية على شراء سنداته والتعامل فيها. وقد فُرضت على ميلكن غرامة قدرها ٦٠٠ مليون دولار وتُعَدُّ أعلى غرامة من نوعها تُفرَض ضد شخص في الولايات المتحدة، كما حُكم عليه، عام ١٩٩١، بالسجن لمدة عشر سنوات.

ويمكن الإشارة أيضاً إلى الفضيحة الخاصة بمؤسسة سالومون براذرز، وهي ثالث أكبر مؤسسات الاستثمار والخدمات المالية في الولايات المتحدة وحققت هذا المركز بفضل إدارة جون جوتفروند رئيس مجلس إدارتها ورئيسها التنفيذي والملقب بـ «ملك وول ستريت». وفي عام ١٩٩١ تبيَّن أن مؤسسة سالومون انتهكت القواعد الفيدرالية الخاصة بالتعامل في سندات الخزانة الأمريكية التي تحظر على أية مؤسسة مالية شراء أكثر من ٣٥٪ من السندات

المطروحة في مزاد واحد. ويهدف هذا الإجراء إلى تجنب الاحتكار في سوق السندات الحكومية التي يصل حجم التعامل فيها إلى ٢,٢ تريليون دولار. كما تكشّف أن مؤسسة سالومون اشترت ما يزيد على ٥٠٪ من السندات المطروحة في عدة مزادات خلال عام ١٩٩١ حيث قدمت بعض عروضها بأسماء عملائها دون الحصول على تفويض منهم. واستقال جوتفروند من منصبه عقب تَفجُّر الفضيحة وبدء التحقيقات.

ومن أهم الفضائح المالية وأكثرها إثارة، الفضيحة الخاصة بروبرت ماكسويل اليهودي البريطاني الذي أقام إمبراطورية إعلامية ضخمة وتُوفي في ظروف غامضة عام ١٩٩١ ودُفن في إسرائيل. فقد أقام ماكسويل نحو ٤٠٠ شركة أغلبها مسجل في إمارة ليختنشتاين حيث تتوافر قوانين السرية، ونجح من خلال هذه الشبكة المتداخلة في إخفاء حقيقة أوضاع إمبراطوريته المالية التي كانت تنوء تحت ثقل الديون وفي إخفاء بعض عملياته غير المشروعة. وقد تكشّف عقب وفاته أنه حوَّل أكثر من ٧٠٠ مليون جنيه إسترليني أو ١,٢٧ بليون دولار من صناديق التقاعد في مجموعة شركاته العامة «ميرور جروب» لمساندة إمبراطوريته الإعلامية المتهاوية وتغطية خسائر شركاته الخاصة. كما تبيَّن أنه احتال على مؤسسة مالية سويسرية للحصول على قرض قيمته ١٠٠ مليون دولار، وأنه استخدم الأصول نفسها لضمان أكثر من قرض. والواقع أن هذه الفضيحة، التي وُصفت بأنها أكبر فضيحة من نوعها في بريطانيا في هذا القرن، أكسبته لقب «محتال القرن»، وزادت التكهنات القائلة بأن ماكسويل مات منتحراً، فلو أنه ظل حيا لاستدعى ذلك مثوله أمام القضاء بتهم الاحتيال والسرقة والتزوير.

ومن أهم الفضائح التي تورطت فيها شخصيات يهودية، الفضيحة الخاصة بمصحات وبيوت المسنين في الولايات المتحدة، وهي فضيحة لم تقتصر فقط على التورط في أعمال التزوير والاحتيال على السلطات الحكومية، بل تضمنت أيضاً إساءة معاملة نزلاء هذه المصحات والبيوت من المسنين. وكان أهم المتورطين في هذه الفضيحة برنارد بيرجمان الذي أُطلق عليه لقب «ملك بيوت المسنين»، حيث كان يتمتع بسيطرة شبه احتكارية على هذا القطاع وهو قطاع احتل فيه اليهود الأمريكيون النسبة الكبرى من العاملين. وُلد بيرجمان في المجر وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٩. وتخرَّج هناك في جامعة يشيفا ليصبح حاخاماً أرثوذكسيا، إلا أنه ترك العمل الديني واتجه نحو الأعمال التجارية ودخل قطاع ملاجئ ومصحات المسنين وهو قطاع يتمتع بهامش ربح عال في الولايات المتحدة. ونظراً لأن الدولة كانت تتحمل النسبة الكبرى من نفقات رعاية المسنين في إطار البرامج الحكومية المخصصة، لجأ بيرجمان إلى تعظيم أرباحه من خلال تضخيم كشوف نفقات هذه الملاجئ والمصحات المقدمة إلى الجهات الحكومية المعنية. وتبيَّن من التحقيقات اللاحقة مدى حجم الإهمال والأوضاع المتردية والمعاملة اللا إنسانية التي تلقاها النزلاء المسنون وهو ما أكد وصف بيرجمان بأنه "يهودي يتولى إدارة معسكر اعتقال" (وهي إشارة إلى معسكرات الاعتقال النازية التي تعرَّض فيها اليهود للإبادة).

ومما يُذكَر أن بيرجمان، شأنه شأن بويسكي، كان من كبار المساهمين في الأنشطة الصهيونية والأنشطة "الخيرية" اليهودية، وقد حرص بيرجمان على إقامة علاقات وثيقة بشخصيات سياسية أمريكية واستغلال هذه العلاقات لتمرير بعض مشاريعه أو التغاضي عن تجاوزاته، كما أنه لم يتردد في اتهام الهيئات أو الجهات المختصة التي عارضت مشاريعه بأنها معادية لليهود، وذلك في الوقت الذي كان يقوم فيه باستنزاف المسنين من اليهود وغير اليهود وإهدار آدميتهم تحت عباءة اليهودية. وقد بدأ التحقيق مع بيرجمان عام ١٩٧٤ حيث أُدين بتهم الاحتيال والنصب على البرنامج الأمريكي للرعاية الصحية والرشوة والتهرُّب الضريبي. وحُكم عليه بالسجن لمدة عام وأربعة أشهر وبغرامة كبيرة.

وإذا كان ميراث الجماعات اليهودية (باعتبارها جماعات وظيفية وسيطة داخل التشكيل الرأسمالي تعمل وتتركز في قطاعات التجارة والخدمات المالية والسمسرة) يفسر إلى حدٍّ كبير بروزهم في كثير من الفضائح المالية، فإن هذه الجرائم والانحرافات المهنية نفسها هي جرائم وانحرافات شائعة في المجتمعات الرأسمالية، بين اليهود وغير اليهود، وانعكاس مباشر لآليات هذه المجتمعات التي تحكمها اعتبارات القوة والمال ويسودها الصراع والتنافس الشديدان وتكثُر بها الثغرات التي يمكن استغلالها والتحايل من خلالها على القوانين والتشريعات لتحقيق الربح. ويجب ملاحظة أن جرائم الغش التجاري التي يرتكبها أعضاء الجماعات اليهودية لا يمكن تفسيرها بأنها جزء من المؤامرة اليهودية الأزلية لإفساد أخلاق الأغيار، فكثير من ضحايا جرائم الغش التجاري التي يرتكبها اليهود من اليهود (كما هو الحال في حالة جرافيير وبيرجمان)، فالغش التجاري في عصر الرأسمالية الرشيدة يتسم بالرشد وعدم التمييز بين البشر على أساس الدين أو اللون أو الجنس، فهو غش مجرد لا شخصي، تماماً مثل رأس المال المجرد.

١٦ ـ إشكالية معاداة اليهود

معاداة السامية

«معاداة السامية» ترجمة شائعة للمُصطلَح الإنجليزي «أنتي سيميتزم». ونستخدم في هذه الموسوعة عبارة «معاداة اليهود» للإشارة إلى هذه الظاهرة.

معاداة اليهود (المصطلح)

«معاداة اليهود» ترجمة للمفهوم الكامن وراء العبارة الإنجليزية «أنتي سيميتزم». والمعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو «ضد السامية»، وتُترجَم أحياناً إلى «اللاسامية». وكان الصحفي الألماني يهودي الأصل ولهلم مار (١٨١٨ـ١٩٠٤) أول من استخدم هذا المُصطلَح عام ١٨٧٩ في كتابه **انتصار اليهودية على الألمانية ـ من منظور غير ديني**. وقد صدر الكتاب بعد المضاربات التي أعقبت الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) وأدَّت إلى دمار كثير من المموِّلين الألمان الذين ألقوا اللوم على اليهود. ولو أُخذت العبارة بالمعنى الحرفي، فإنها تعني العداء للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى، بينما يُشكِّك بعض الباحثين في انتماء اليهود إليه. ولكن المُصطلَح، في اللغات الأوربية، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم، وهذا يعود إلى جهل الباحثين الأوربيين في القرن التاسع عشر بالحضارات الشرقية، وعدم تكامل معرفتهم بالتشكيل الحضاري السامي أو بتنوع الانتماءات العرْقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية. وهذا المُصطلَح يضرب بجذوره في الفكر العنصري الغربي الذي كان يرمي إلى التمييز الحاد بين الحضارات والأعراق، فميَّز في بداية الأمر بين الآريين والساميين على أساس لغوي، وهو تمييز أشاعه إرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢)، ثم انتقل من الحديث عن اللغات السامية إلى الحديث عن الروح السامية والعبقرية السامية مقابل الروح الآرية والعبقرية الآرية التي هي أيضاً الروح الهيلينية أو النابعة منها. ثم سادت الفكرة العضوية الخاصة بالفولك أو الشعب العضوي، ومفادها أن لكل أمة عبقريتها الخاصة بها ولكل فرد في هذه الأمة سمات أزلية يحملها عن طريق الوراثة، وانتهى الأمر إلى الحديث عن تفوُّق الآريين على اليهود (الساميين)، هذا العنصر الآسيوي المغروس في وسط أوربا، كما دار الحديث عن خطر الروح السامية على المجتمعات الآرية. وشاع المُصطلَح منذ ذلك الوقت وقام الدارسون العرب باستيراده وترجمته كما فعلوا مع كم هائل من المُصطلَحات الأخرى. وبدلاً من ترجمة المُصطلَح، فقد فضلنا هنا توليد مُصطلَح جديد هو «معاداة اليهود» لأنه أكثر دقة ودلالة، كما أنه أكثر حياداً ولا يحمل أية تضمينات عنصرية ولا أية أطروحات خاطئة، كما هو الحال مع مُصطلَح «أنتي سيميتزم».

لكن بعض الكُتّاب الغربيين يميلون إلى التمييز بين «معاداة اليهودية» و«معاداة السامية» حيث إن معاداة اليهودية، حسب تصورُهم، عداء ديني للعقيدة اليهودية وحدها، وبالتالي كان بإمكان اليهودي أن يتخلص من عداء المجتمع له باعتناق المسيحية. أما معاداة السامية، فهي عداء لليهود بوصفهم عرْقاً، وبالتالي فهي عداء علماني لاديني ظهر بعد إعتاق اليهود وتزايد معدلات اندماجهم. وهذا النوع من العداء يستند إلى نظريات ذات ديباجات ومسوغات علمية عن الأعراق عامة، وعما يُقال له «العرْق اليهودي»، وعن السمات السلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتمية لليهود اللصيقة بعرْقهم! وتصحب مثل هذه الدراسات إحصاءات عن دور اليهود في التجارة والربا مثلاً، وفي تجارة الرقيق عامة والرقيق الأبيض على وجه الخصوص، ومعدلات هجرتهم، ثم يتم استخلاص نتائج عرْقية منها. وبالتالي، إذا كانت معاداة اليهودية تعبيراً عن التعصب الديني، فإن معاداة السامية حسب هذه الرؤية هي نتيجة موقف دنيوي بارد يستند إلى حسابات المكسب والخسارة وإلى الرصد "العلمي" لبعض السمات اللصيقة بما يُسمَّى «الشخصية اليهودية». ويرى المنادون بهذا الرأي أن معاداة السامية بدأت في القرن التاسع عشر (أساساً) وإن كان بعضهم يرى أن عداء الدولة الإسبانية ليهود المارانو (وهم اليهود الذين تنصَّروا) عداء ذو دافع دنيوي إذ إن هؤلاء المارانو، حسب إحدى النظريات، كانوا مسيحيين بالفعل. ولكن مقياس النقاء العرْقي (نقاء الدم) الذي حُكم به عليهم، لم يكن مقياساً دينيا وإنما كان مقياساً عرْقيا، وكان الدافع وراء اضطهادهم رغبة الأرستقراطية الحاكمة، أو بعض قطاعاتها على الأقل، في التخلص من طبقة بورجوازية جديدة صاعدة كانت تتهددها. ومن هنا، مُنع المارانو من الاستيطان في المستعمرات البرتغالية والإسبانية لتقليل فرص الحراك أمامهم. وهكذا، كانت هذه الحركة تعبِّر عن اتجاه دنيوي، ولكنها تستخدم الخطاب الديني لتبرير غاياتها.

ومن هذا المنظور الطبقي العرْقي، يصبح اليهودي المندمج أكثر اليهود خطورةً، فهو يهودي (أي بورجوازي) يدَّعي أنه مسيحي ليحقق مزيداً من الحراك والصعود الاجتماعي. ولذا، لابد من وقفه والحرب ضده برغم تبنيه العقيدة المسيحية.

وهذا الموقف يناقض الموقف القديم لمعاداة اليهود حيث كانت الكنيسة ترحب بمن تنصَّر. فالنبلاء البولنديون المسيحيون، على سبيل المثال، كانوا يتزوجون من أعضاء الأسر اليهودية المتنصرة حتى القرن الثامن عشر. ولتبسيط الأمور، دون تسطيحها، سنستخدم عبارة «معاداة اليهود» ثم نضيف إليها عبارات تحدد مجالها الدلالي مثل «على أساس عرْقي» أو «على أساس ديني»... إلخ، إن استدعى السياق ذلك.

وقد اختلط المجال الدلالي للمُصطلَح تماماً في اللغات الأوربية بعد ظهور الصهيونية. وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي، لم تَعُد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية. ولم يَعُد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرْقي وبين معاداة اليهود على أساس ديني. وأصبحت معاداة الصهيونية، بل الدولة الصهيونية هي الأخرى، تُصنَّف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود. وحينما كانت دول الكتلة الشرقية تصوت ضد إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة، كان هذا يُعدُّ أيضاً تعبيراً عن تقاليد معاداة اليهودية الراسخة فيها. وبالمثل اعتُبر قيام فرنسا ببيع طائرات الميراج لليبيا تعبيراً عن الظاهرة نفسها. بل يذهب أنصار هذا الرأي إلى أن نضال الشعب الفلسطيني ضد الاستيطان الصهيوني تعبير عن الظاهرة نفسها. وهكذا اتسع المجال الدلالي للمُصطلَح واضطرب ليضم عدة ظواهر لا يربطها رابط، حتى أصبح بلا معنى، وأصبح أداة للإرهاب والقمع الفكريين.

معاداة اليهود (الأسباب وتكوين الصور النمطية)

يُفسِّر الصهاينة معاداة اليهود بأنها تعود إلى كُره الأغيار لليهود عبر العصور، وهو تفسير من العمومية بحيث لا يُفسِّر شيئاً البتة. فإذا كان كره الأغيار لليهود ظاهرة ميتافيزيقية متأصلة، فإن المنطقي هو أن يُعبِّر هذا الكُره عن نفسه بشكل مطلق، أي بالطريقة نفسها بغض النظر عن الزمان والمكان. ولكن تاريخ عداء اليهود تاريخ طويل متنوع يفتقر إلى الاستمرار التاريخي كما تختلف دوافعه وأسبابه. ومن المعروف أن الجماعات اليهودية توجد داخل تشكيلات حضارية مختلفة، وكانت تنشأ توترات مختلفة بينها وبين أعضاء الأغلبية. وبرغم أن سائر أحداث التوتر هذه يُشار إليها بمُصطلَح «معاداة اليهود» على وجه العموم، فإن المُصطلَح يكتسب مضمونه الحقيقي والمحدد من خلال التشكيلات الحضارية المختلفة، ولذلك، فإن الدلالة تختلف من تشكيل إلى آخر. والواقع أننا لو أخذنا بالتفسير الصهيوني وجعلنا مختلف الأحداث التي تُعبِّر عن العداء لليهود ظاهرة واحدة، لأصبح العنصر الثابت الوحيد هو اليهود، وحينذاك يصبح اليهود هم المسئولين عن الكراهية التي تلاحقهم والعنف الذي يحيق بهم، وهو تحليل عنصري مرفوض طرحه محامي أيخمان بشكل خطابي أثناء الدفاع عنه في إسرائيل. فاليهود يُشكِّلون جماعات مختلفة غير متجانسة لكلٍّ منها ظروفها ومشاكلها.

ويمكن القول إن العداء لليهود، بوصفه شكلاً من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب (و«الآخر» على وجه العموم)، إمكانية كامنة في النفس البشرية التي تنفر من كل ما هو غير مألوف، وبالتالي فهو إمكانية كامنة في كل المجتمعات. كما أن هناك بشراً في كل مجتمع لا يقنعون بما لديهم من ثروة أو رزق، ويرغبون دائماً في الاستيلاء على ما يملكه الآخرون، وبخاصة ما يمتلكه أعضاء الأقلية الذين لا يتمتعون عادةً بالحصانات نفسها وبالاستقرار نفسه الذي يتمتع به أعضاء الأغلبية. ومع هذا، تظل هذه الأفكار والدوافع في حالة كمون ولا تعبِّر عن نفسها إلا من خلال أفعال عنف وكره فردية متفرقة أو من خلال أشكال من التحايل على أعضاء الأقلية أو من خلال أعمال أدبية أو قصص أو أساطير، مادام المجتمع مستقرا ولكل عضو فيه وظيفته. ولكن ثمة عناصر تؤدي إلى تحوُّل هذه الدوافع النفعية من حالة الكمون إلى حالة التحقق حيث تتعدد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية.

ولعل من أهم الأسباب التي أدَّت إلى ظهور معاداة اليهود وانتقالها من حالة الكمون إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية أن معظم الجماعات اليهودية كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية في المجتمعات القديمة، وكذلك في المجتمع الغربي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر. وكانت الجماعات الوظيفية تتكون دائماً من عناصر بشرية غريبة عن المجتمع حتى يمكنها أن تضطلع بوظائف كريهة أو مشبوهة أو متميِّزة تتطلب الموضوعية وعدم الانتماء، مثل: التجارة والربا والقتال والبغاء. ولذا، نجد أن موقف أعضاء الجماعات الوظيفية من المجتمع يتسم بالحياد والنفعية، فهم ينظرون إلى مجتمع الأغلبية باعتباره سوقاً أو مصدراً للربح، كما ينظر أعضاء المجتمع إليهم باعتبارهم أداة لتنشيط التجارة أو القتال. وكان يُنظَر إليهم في المجتمعات التقليدية باعتبارهم وسيلة لا غاية وأداة من أدوات الإنتاج لا أكثر، ولذلك كان أعضاء الجماعة لا حرمة لهم في كثير من الأحيان (فهم غرباء) والغريب في معظم الأحوال مباح لا قداسة له. وفي العادة، يتركز أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة في

قطاعات اقتصادية بعينها يبرزون فيها، الأمر الذي يجعلهم مركزاً للكره والحسد. وعلاوة على ذلك، يدافع أعضاء الجماعة الوظيفية عن مراكزهم الاقتصادية هذه بشراسة وضراوة غير عادية نظراً لعدم وجود بدائل أخرى متاحة أمامهم، فهم عادةً يفتقرون إلى الخبرة اللازمة للزراعة والصناعة، ولا يعرفون كثيراً من الحرف بسبب غربتهم وتنقُّلهم. كما أنهم يدافعون عن مراكزهم الاقتصادية عن طريق شبكة الأقارب والعائلات، الأمر الذي يثير حولهم الشائعات عن عمق بغضهم وكرههم لأعضاء الأغلبية («الأغيار» في مُصطلَح الجماعات اليهودية). وفي كثير من الأحيان، يحقق أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة، اليهودية وغير اليهودية، تراكماً للثروة بشكل أسرع من أعضاء مجتمع الأغلبية، نظراً لاستعدادهم لحرمان أنفسهم من كثير من مباهج الحياة، فهم غير منتمين إلى المجتمع كما أن الثروة مصدر قوتهم ومبرر وجودهم. وفي حالة اليهود في بولندا، على سبيل المثال، كانت الأرستقراطية البولندية تؤكد مكانتها عن طريق الإنفاق والتبذير، وأصبح هذا المثل الأعلى لقطاعات الشعب البولندي كافة، الأمر الذي لم يشارك فيه أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يؤثرون الادخار وسرعة تراكم الثروة. وهذا الوضع يزيد، بلا شك، حسد الجماهير.

ولكن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة، رغم غربتهم وتميزهم، كانوا يجدون أنفسهم في قلب الصراعات المختلفة في المجتمع، وبخاصة الصراعات الناشبة بين أعضاء النخبة الحاكمة وبين طبقات المجتمع الأخرى، خصوصاً الطبقات الشعبية، إذ إن قطاعات من النخبة الحاكمة كانت تستخدم أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة لضرب بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها. فأعضاء الجماعة سوط في يد الحاكم، أو هكذا كان يراهم المحكومون، ولكنهم أيضاً كبش الفداء الذي يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات الشعبية، فالأداة ليست غاية في ذاتها. ورغم أن هذه الهجمات على الجماعات اليهودية (الوظيفية) في الغرب تُعدُّ هجمات عنصرية، فيجب ألا نهمل الجانب الشعبي فيها وأنها تمثل جزءاً من تمرُّد الجماهير على عملية الاستغلال، وإن كان تمرداً قصير النظر، كما هو الحال عادةً مع الهبَّات الشعبية. ولم تكن هذه الثورات ثمرة إدراك عميق لحركيات الاستغلال، ولذا اقتصرت على تحطيم الأداة الواضحة أمامهم. ويقابل الهجمات الشعبية ضد أعضاء الجماعات اليهودية الانفجارات المشيحانية بينهم، فهي انفجارات تُعبِّر عن ضيق قطاعات أعضاء الجماعات اليهودية بوضعهم الاقتصادي والوظيفي والنفسي.

لكن هذا الوضع ليس وضعاً عاماً ولا عالمياً ينطبق على كل اليهود في كل زمان ومكان، فهو ينطبق بالأساس على الجماعات اليهودية في العالم الغربي، وبالذات منذ بداية العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر كما ينطبق على كثير من الأقليات الأخرى. ولذا، فهو يَصلُح إطاراً تفسيريا لمعظم جوانب ظاهرة معاداة اليهود باعتبار أن أغلبية يهود العالم كانوا يوجدون في أوربا مع نهاية القرن الثامن عشر، وفي بولندا على وجه الخصوص.

ومن القضايا التي يجب أخذها في الاعتبار، أثناء دراسة ظاهرة معاداة اليهود، الإطار السياسي العام الذي يتم فيه هذا العداء. ويتضح هذا في موقف الإمبراطورية الرومانية حين صبَّت جام غضبها على العناصر المتمردة في فلسطين التي كانت تهدِّد السيطرة الإمبراطورية، ولكنها تحالفت في الوقت نفسه مع أثرياء اليهود الذين كانت مصالحهم مرتبطة بمصلحة الإمبراطورية. ومما يجدر ذكره، أنه كان يوجد جيش يهودي بقيادة أجريبا الثاني يعمل تحت قيادة تيتوس قائد القوات الرومانية التي حطمت الهيكل. فالمسألة لم تكن إذن عداءً لليهود (أو حبا لهم) بقدر ما هي مسألة مصالح إمبراطورية.

ويتضح الشيء نفسه في موقف الإمبراطورية البريطانية التي قامت بتأييد مشروع الاستيطان الصهيوني ودعمه رغم وجود قطاع داخل أعضاء النخبة الحاكمة الإنجليزية (وبين الطبقات الشعبية) يكن الكراهية لليهود، خصوصاً المهاجرين. فالمصالح الإمبراطورية (لا حب اليهود) هي التي دفعت إنجلترا إلى تبنِّي المشروع الصهيوني. وفي فترة لاحقة، نشأ توتر بين المستوطنين الصهاينة والإمبراطورية الراعية (وهو أمر عادةً ما يحدث لأن مصالح الإمبراطورية تكون عادةً أكثر تركيباً وشمولاً واتساعاً من مصالح المستوطنين). فتعقبت السلطات الإنجليزية من سمَّتهم «العناصر المشاغبة أو المتطرفة» بين المستوطنين، وقد فُسِّر ذلك بأنه عداء لليهود وهو أبعد ما يكون عن ذلك. ولعل أكبر دليل على هذا أن أعضاء الجماعة اليهودية داخل إنجلترا كانوا يتمتعون بجميع حقوقهم في ذلك الوقت. ولو أن الأمر كان عداء مطلقاً لليهود، لبدأت عملية التعقب في لندن لا في فلسطين.

ومن الضروري أن تُدرَس العمليات الفكرية والذهنية التي يتعامل المعادون لليهود من خلالها مع الواقع الإنساني المركب. ويمكن القول بأن الفكر العنصري عامة، وضمن ذلك فكر معاداة اليهود، فكر اختزالي ينحو نحو تجريد الضحية من خصائصها الإنسانية المركبة المتعينة بوصفها كياناً إنسانيا له سلبياته وإيجابياته حتى تتحول إلى شيء مجرد يجسد سمة أو جوهراً معيَّناً. وقد يلجأ

العنصري إلى اختلاق الحقائق والأكاذيب، ولكن هذا أمر نادر إذ إن الفكر العنصري، خصوصاً في عصر العلم، يحاول أن يُقدم قرائن وحججاً على صدق مقولاته يستخلصها من الواقع، من خلال عمليات فكرية تنحو نحو التجريد والتبسيط والتسطيح والاختزال، مثل :

١ ـ التركيز على عنصر من الواقع دون غيره، كأن يركز العنصري على إحدى سلبيات بعض أعضاء الجماعات اليهودية (كاشتغالهم بتجارة الرقيق الأبيض) وعزلهم عن إيجابياتهم (الحرب الشرسة من جانب الجماعات اليهودية ضد هذه التجارة).

٢ ـ تعميم ما يرتكبه بعض أعضاء الجماعات اليهودية من جرائم أو أخطاء على كل أعضاء الجماعات اليهودية، ثم التركيز بعد ذلك على ما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» بكل ما تتسم به من شرور وعنف مزعومين.

٣ ـ فصل أعضاء الجماعات اليهودية عن سياقهم الاجتماعي والحضاري الذي قد يفسر سلوكهم السلبي، عدم الربط بين الجماعات اليهودية وغيرها من الجماعات البشرية التي قد تشترك معها في الصفات السلبية نفسها، وذلك بهدف خلع صفة الإطلاق على صفات اليهود حتى تكتسب بعداً نهائيا وتبدو كأنها مقصورة عليهم دون سواهم من البشر.

٤ ـ إسقاط عناصر غياب التجانس بين الجماعات اليهودية المختلفة وعناصر الاختلاف والصراع بين أعضائها وإسقاط واقع انقسامهم إلى طبقات وجماعات مختلفة، فيصبح اليهود كلاً واحداً متجانساً يُسمَّى «الشعب اليهودي» أو «اليهود».

وكثيراً ما تنعكس هذه العمليات الفكرية في أساطير وصور إدراكية ثابتة تنسب إلى اليهود خصائص سلبية ثابتة. كما أن وجود مثل هذه الأساطير والصور يبلور الأفكار العنصرية الكامنة ثم يساعدها على التحقق. ويمكن أن تكون هذه الأنماط الثابتة متناقضة؛ كأن يتبع فريق داخل المجتمع نمطاً معيَّناً ويتبع فريق آخر نمطاً آخر يناقض النمط الأول، مثل نمطي اليهودي الجبان الذي يخاف من أي شيء واليهودي العدواني الذي لا يخشى شيئاً. وقد اتضحت هذه الظاهرة في العصر الحديث في الغرب، فاليهودي هو من كبار المموِّلين وهو أيضاً المتسول، وهو رمز الجيتوية والتخلف الديني والانفتاح المخيف والعلمانية المتطرفة، وهو رمز الرجعية والثورة والإقطاعية والليبرالية. فإذا كان كارل ماركس يهوديا وكان روتشيلد يهوديا ومائير كاهانا يهوديا ومارلين مونرو يهودية، وكذلك فرويد وأينشتاين ونعوم تشومسكي، فلابد أن هناك ما يجمع بينهم.

وحينما يفشل الدارس في العثور على هذا العنصر، فإنه يكمله من عنده ويفترض وجود مؤامرة خفية تجمع بينهم وأنهم ولا شك يحرصون على إخفائها. ولكن التناقض، على كلٍّ، أمر لا يضايق العنصريين بتاتاً، فالإنسان العنصري إنسان غير عقلاني (فهو مرجعية ذاته) لا يقبل الاحتكام إلى أية قيم أخلاقية تتجاوزه وتتجاوز الآخر، فهو يؤمن بشكل قاطع بأن تميُّزه أمر لصيق بكيانه وكامن فيه تماماً مثل تَدنِّي الآخر، وبالتالي فإن العنصري يبحث دائماً عن قرائن في الواقع ينقض عليها كالحيوان المفترس أو الطائر الجارح فيلتقطها ويعممها ليبرر حقده. بل يمكن أن يُوظَّف هذا التناقض نفسه بين الصور الإدراكية بحيث يشير إلى مدى خطورة المؤامرة اليهودية العالمية الأخطبوطية التي تسيطر على سائر مجالات الحياة، وتسيطر على اليمين واليسار، وعلى الشمال والجنوب والشرق والغرب.

ولابد أيضاً من دراسة نوعية الفلسفة الاجتماعية (أو العامة) السائدة في المجتمع. فوجود فلسفة اجتماعية عنصرية في المجتمع يخلق تربة خصبة للتفجرات العنصرية. كما أن وجود فلسفات بعينها ـ كأن تكون الفلسفة العامة في المجتمع رؤية علمانية إمبريالية تتحدث عن التفوق والغزو وإرادة القوة ـ قد يساعد أيضاً على إنبات بذور الفكر العنصري الكامن.

الصور الإدراكية النمطية وكلاسيكيات وتاريخ معاداة اليهود حتى بداية القرن الثامن عشر

لعل أول هجوم على جماعة يهودية سُجِّل في التاريخ هو هجوم المصريين على المعبد اليهودي في جزيرة إلفنتاين في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان هذا الهجوم موجَّهاً إلى جماعة وظيفية قتالية عميلة من الجنود المرتزقة التي وطَّنها فراعنة مصر هناك لحماية حدود مصر الجنوبية، ثم انتقل ولاء هؤلاء الجنود إلى الغزاة الفرس. ومن ثَمَّ، فإنه كان هجوماً على عملاء الفرس (الغازي الأجنبي)، هذا إن أخذنا بالرأي القائل بأنهم كانوا يهوداً، إذ يميل بعض المؤرخين إلى التشكيك في هذا الرأي.

وبعد دخول الشرق الأدنى القديم إلى محور الحضارة الهيلينية، نشأ وضع جديد في علاقة اليهود بمن حولهم. ويجب أن نشير ابتداءً إلى أن الرقعة الجغرافية التي تُسمَّى الآن «فلسطين» لم تكن مأهولة بالعنصر العبراني وحسب، إذ كانت المناطق الساحلية مأهولة بالعناصر الفلستية والفينيقية وغيرها، وكانت توجد داخل فلسطين أقوام سامية كثيرة، وكان العنصر اليوناني السائد يهيمن على التجارة ويتركز في المدن، أما العنصر العبراني اليهودي، فكان يعمل

بالزراعة. وانضمت إلى العنصر التجاري اليوناني قطاعات كبيرة من النخبة اليهودية من كبار ملاك الأراضي وملتزمي الضرائب. وكانت فلسطين محور صراع بين الدولتين البطلمية والسلوقية، وكان اليهود أحد العناصر المهمة التي يدور حولها الصراع. ويمكن رؤية الهجوم على اليهود في هذه المرحلة باعتباره نتاج هذا المركب التاريخي. فسكان المدن من اليونانيين العاملين بالتجارة كانوا يصطدمون بالجماعة العبرانية اليهودية العاملة بالزراعة. وكانت الدولة السلوقية، في سعيها لدمج فلسطين بمساعدة النخبة اليهودية المتأغرقة، تحاول أن تقضي على العبادة القربانية المركزية وعلى الطابع اليهودي في فلسطين. وفي الإسكندرية، كان السكان اليونانيون يرفضون السماح لليهود بدخول الجيمنازيوم (رمز الانتماء الكامل للبوليس أي المدينة) لعدم مشاركتهم في العبادة اليونانية الوثنية. وساعد على تصعيد حدة معاداة اليهود، في كل الأحوال، أن ديانتهم كانت توحيدية تقف ضد عبادة الأصنام، وكانت بالتالي ديانة فريدة آنذاك من بعض الأوجه. وكان هذا التفرد يُفسَّر من قبل الوثنيين بأنه كُره للبشرية، وخصوصاً أن الطقوس الدينية اليهودية تنسج حول اليهود شبكة كثيفة من العزلة.

وقد ازدادت معاداة اليهود في بعض المناطق، مثل الإسكندرية، لأن أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة رحبوا بالغزو الروماني بل قدَّموا له يد المساعدة. وقد نتج عن الغزو الروماني أن النخبة الهيلينية فقدت موقعها المتميِّز في المجتمع، الأمر الذي جعلها تلقي باللوم على أعضاء الجماعة اليهودية. ولذا، ظهرت مجموعة من الكتاب الهيلينيين في القرن الأول الميلادي، مثل: خايريمون (أستاذ نيرون)، وليسيماخوس (أمين عام مكتبة الإسكندرية)، وآبيون (الخطيب اليوناني) يعادون اليهود. وقد ألَّف آبيون كتاباً من خمسة فصول عن تاريخ مصر يضم جزءاً عن اليهود، أورد فيه بعض الآراء السائدة عن اليهود في العالم القديم، من قبيل أنهم شعب بدوي متجول، وأنهم نُفوا من مصر لأنهم كانوا مجموعة من المصابين بالبرص الذين دنسوا المعابد المصرية وكان لابد من التخلص منهم، وقد فُسِّرت واقعة الخروج أو الهجرة من مصر على هذا الأساس. كما يورد آبيون أن العبرانيين كانوا موالين للملوك الرعاة (الهكسوس) الذين أذلوا المصريين، ومن ثَمَّ تم طردهم عقب طرد الهكسوس، فالتجأوا إلى أرض كنعان واحتلوها. وفي واقع الأمر، فإن هذه الأقاويل تهدف جميعاً إلى تقويض فكرة العلاقة الخاصة بين اليهود وفلسطين، والشرعية التي تتأسس على مثل هذه العلاقة. وقد أضاف آبيون تهماً أخرى، مثل أن اليهودية تُعلِّم اليهود كره الجنس البشري والعزلة عنه، وأنهم يذبحون فرداً غير يهودي كل عام ويذوقون أمعاءه، وأنهم يعبدون الحمار.

وإذا انتقلنا إلى روما، فإننا سنجد مستويين مختلفين تماماً لمعاداة اليهود: مستوى السياسة الإمبراطورية، ومستوى موقف الأرستقراطية الرومانية من يهود روما أساساً. أما الإمبراطورية الرومانية فلم تكن تهتم كثيراً بالأخلاق اليهودية أو الدين اليهودي إذ إن اهتمامها كان ينصب على تحقيق السلام الروماني وحسب. ولذا، نجد أن تيتوس الذي هدم الهيكل الثاني لم يعتبر نفسه قط عدوا لليهود، بل كانت عشيقته بيرنيكي أختاً لأجريبا الثاني ملك اليهود. كما حارب في صفوفه جيش يهودي صغير. وقد رفض تيتوس أن يحمل لقب «تيتوس هازم اليهود»، مثلما سُمِّي هازم الأفارقة والألمان، وذلك بسبب صداقته للقوم أو الإثنوس اليهودي. ولذا، اكتفى تيتوس بصك عملة ظهرت عليها عبارة «هُزمت يهودا وأُسرت»، و«يهودا» هنا تشير إلى الأرض لا الشعب.

فإذا ما انتقلنا إلى العصور الوسطى في الغرب، فإننا نجد أن مفهوم معاداة اليهود أخذ يكتسب معاني ومدلولات جديدة تماماً. فلم تَعُد اليهودية ديناً توحيديا في تربة وثنية، وإنما أصبحت ديناً قديماً مهزوماً في تربة توحيدية يسودها دين جديد منتصر واثق من نفسه يرى أن العهد القديم أحد كتبه المقدَّسة يحمله اليهود دون أن يعوا معناه الحقيقي. وهو دين كان يرى أن اليهود يلعبون دوراً مركزيا في نظرته إلى الكون، فهم قَتَلة الرب، ولن تتم عملية الخلاص النهائية إلا بعد اعتناقهم المسيحية، أي أنهم يشغلون موقعاً مركزيا في البداية والنهاية. وكان اليهود من جانبهم يكنون احتقاراً عميقاً للدين الجديد وينكرون أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح. وكان موقف الكنيسة يتمثل فيما يلي: "أن تكون يهوديا جريمة، ولكنها جريمة ليس بإمكان مسيحي أن ينزل بصاحبها العقاب لأن الأمر متروك للرب". وقد اعتبرت الكنيسة نفسها إسرائيل الحقيقية، واعتبر المسيحيون أنفسهم شعب الرب. وكانت الكنيسة ترى نفسها أيضاً إسرائيل الروحية مقابل إسرائيل الجسدية (اليهودية). وتطورت صورة اليهود في الوجدان المسيحي، فكان يُرمَز لهم بعيسو (مقابل يعقوب المسيحي)، وقابيل الذي قتل أخاه هابيل وأصبح كذلك قاتل المسيح. كما ساعدت الشعائر الدينية اليهودية، المتمثلة في صلاة الجماعة التي تتطلب النصاب (المنيان) وقوانين الطعام والزواج، على زيادة عزلة اليهود. ولأن النظام الإقطاعي في الغرب كان نظاماً مسيحيا يستند إلى شرعية مسيحية ويتطلب يمين الولاء كشرط أساسي للانتماء إليه،

فقد وجد أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب أنفسهم خارج كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والمدنية المشروعة. وكانت هذه الظروف سبباً ونتيجة في آن واحد لتحوُّلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة (أقنان البلاط أو يهودَ الأرندا أو يهود البلاط) تقوم بأعمال التجارة ثم الربا. وربما كان هذا الوضع (وضع اليهود) هو الذي حدَّد موقف أعضاء المجتمع منهم، فكان يُنظَر إليهم من أعلى باعتبارهم أداة يمكن استخدامها أو استبدالها إن دعت الحاجة، كما كان يُنظر إليهم من أسفل باعتبارهم وحوشاً لابد من ضربها، فهم الأداة الواضحة لاستغلال الجماهير التي لم يكن بوسعها فهم آليات الاستغلال والقمع. وتاريخ أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي، وكذلك العداء لهم، هو في معظمه تاريخ اليهود كجماعات وظيفية وسيطة تؤدي وظيفتها إلى أن تظهر قوى أخرى تحل محلها في المجتمع، مُمثَّلة في طبقة وسطى قوية، أو جهاز إداري مركزي، أو الدولة القومية الحديثة. كما أن صعود أو هبوط الجماعة اليهودية هو، في جوهره، تاريخ صعود أو هبوط الجماعة الوظيفية الوسيطة. فحينما كان اليهود أقنان بلاط، كانت شرائح من الطبقات الحاكمة تستفيد من الخدمات التي يؤدونها. وبالتالي، كان اليهود يُمنحون المواثيق التي تضمن لهم الحماية، وتعطيهم المزايا التي تجعلهم أفراداً يتمتعون بمستوى معيشي أعلى من مستوى معظم طبقات المجتمع الأخرى. وكما قال أبراهام ليون، فإن وضع اليهود لم يتوقف عن التحسن منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦، وبعد الانتصار الكامل للمسيحيين حتى القرن الثاني عشر. ويمكن القول بأن النخبة الحاكمة بكل فئاتها (الإمبراطور، والكنيسة، والملوك، والأمراء، والشريحة العليا من الأرستقراطية، وكبار رجال الدين، والبورجوازية الثرية المستقلة في المدن) كانت كلها تقف إلى جانب أعضاء الجماعات اليهودية لا ضدهم. وكانت هذه النخبة تحمي أعضاء الجماعات بسبب نفعهم لها، وترى الهجوم عليهم إخلالاً بهيبة النظام وتعويقاً لمساره. وكانت المواثيق التي يحصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية تزيد بطبيعة الحال حدة الغضب الشعبي، ومن ثَمَّ يمكن النظر إلى الهجوم على اليهود باعتباره ضرباً من الثورات الشعبية. ولهذا نجد أن أعداء اليهود يأتون أساساً من الشريحة الدنيا من رجال الدين، وصغار التجار في المدن، والحرفيين. ولكن وصفنا لهذه الهجمات بأنها "ثورة شعبية" لا يخلع عليها صفة إيجابية. ونحن لا نرى أنها عمل مقبول أو شرعي، وإنما نقول إن هذه الهجمات تحركها جماهير تتصور أن اليهودي هو المستغل الحقيقي. وقد ظل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في هذا الوضع حتى حروب الفرنجة في القرن الثاني عشر، حيث بدأت الحياة الاقتصادية في أوربا في الانتعاش وظهرت قوى مسيحية محلية قادرة على أن تحل محل اليهود كتجار دوليين ومحليين، فاتجه اليهود إلى الاتجار بالربا، وتحولوا بالتالي من جماعات وسيطة إلى جماعات وسيطة عميلة، وزادت غربتهم في المجتمعات التي وجدوا فيها.

وكان كثير من اليهود المتنصرين يساهمون في التهييج ضد أعضاء الجماعات اليهودية، ويُعرِّفون القيادات المسيحية (وجماعات الرهبان) بما جاء في التلمود (وبعض الكتب الدينية اليهودية الأخرى) من هجوم شرس على المسيح والمسيحية وبعض عادات اليهود الأخرى التي تهدف إلى عزلهم عن مجتمع الأغيار. وكانت تُقام مناظرات بين اليهود والمسيحيين (يمثلهم عادةً يهود مُتنصِّرون) حتى يُثبت كل طرف قوة حججه الدينية. وغني عن القول أن الطرف اليهودي لم يكن حرا تماماً في مثل هذه المناظرات وأنه كان يضطر إلى التعبير عن وجهة نظره بطريقة أكثر حذراً الأمر الذي كان يفقدها كثيراً من قوتها. وعادةً ما كانت تنتهي هذه المناظرات "بانتصار" الطرف المسيحي، وإصدار الأوامر بإحراق التلمود وربما طرد أعضاء الجماعات اليهودية.

وقد استمرت النخبة الحاكمة (الكنيسة والنبلاء) في حماية اليهود، كما استمرت الثورة الشعبية ضدهم، وبخاصة في صفوف أعضاء الطبقة الوسطى، الندّ الحقيقي للجماعات الوظيفية الوسيطة والمنافس على القطاع الاقتصادي نفسه. ويُلاحَظ أنه أثناء حروب الفرنجة التي اكتسبت بعداً شعبيا، وهو ما جعلها مستقلة نوعاً ما عن الطبقات الحاكمة، كانت القوات غير النظامية هي التي ترتكب المذابح ضد اليهود. وفي المدن الحرة، في ألمانيا وغيرها من البلاد، كان الهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية يبدأ بإسقاط الأقلية الثرية الحاكمة، ثم تحل محلها نخبة جديدة ذات جذور شعبية، ويعقب ذلك عمليات طرد وذبح اليهود. وقد انسحب معظم يهود أوربا إلى بولندا حيث لا توجد طبقة وسطى قوية. كما تم طردهم من إسبانيا بعد أن استكمل المسيحيون استرداد إسبانيا من المسلمين بعدة شهور، إذ اضطلعت الدولة الجديدة بوظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة وأرادت أن تؤمِّن نفسها ضد العناصر الغريبة من المسلمين واليهود. ولهذا استمرت في ملاحقة من كانت تتصوَّر أنهم مسلمون أو يهود متخفون. ومع نهاية العصور الوسطى، كانت كلمة «يهودي» مرادفة في كثير من اللغات الأوربية لكلمة «تاجر» أو «مراب»، ولكلمات أخرى مثل «بخيل» أو «غشاش»، وهي الصورة الإدراكية التي ستتبلور في عصر النهضة على يد شكسبير في شخصية «شيلوك».

وشهد عصر الإصلاح الديني، في القرن السادس عشر، كسر الاحتكار الديني الكاثوليكي وتزايد التعددية. وبشكل عام، يُلاحَظ أن البروتستانتية، بتأكيدها أن الخلاص يتم خارج الكنيسة، تؤكد أهمية الكتاب المقدَّس الذي يضم العهد القديم، الأمر الذي يعني نظريا تزايد التعاطف مع اليهود، أهل هذا الكتاب وحَمَلته. ومع هذا، يُلاحَظ أن البروتستانتية اللوثرية اتجهت اتجاهاً معادياً لليهود (على عكس الكالفنية).

ويُلاحَظ أن هذه الفترة شهدت بداية العقيدة الألفية أو الاسترجاعية التي تتحدث عن رؤية الخلاص وعودة المسيح، وهي رؤية ترتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد. ومن ثَمَّ، تظهر صورة اليهودي كعنصر لا جذور له يمكن نقله من مكان إلى مكان. وهذه الصورة هي الصياغة البروتستانتية لفكرة الشعب الشاهد الكاثوليكية التي تحولت فيما بعد إلى صورة الشعب العضوي المنبوذ، ويظهر اليهود كعنصر استيطاني وكجواسيس يمكن نقلهم وتحريكهم والاستفادة منهم، وهي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة.

كما شهدت هذه الفترة ظهور الجيتوات في إيطاليا وفي بعض مدن وسط أوربا، الأمر الذي كان يعني تراجُع أعضاء الجماعات اليهودية وانكماش دورهم في المجتمع. ولكن هذه الفترة شهدت أيضاً بداية ظهور يهود الأرندا في بولندا واضطلاع اليهود فيها بدور مهم في الاقتصاد التجاري. وقد حصل اليهود على العديد من المزايا التي جعلت مستواهم المعيشي يفوق كثيراً مستوى الأقنان وأعضاء الطبقة الوسطى البولندية، بل صغار النبلاء. وفي عام ١٦٤٨، اندلعت ثورة شميلنكي، وهي ثورة شعبية فلاحية شاملة ضد الحكم الإقطاعي البولندي الكاثوليكي الذي كان يمثله العنصر التجاري الوسيط اليهودي في وسط فلاحي أوكراني أرثوذكسي، فكان هذا الوضع وضعاً تاريخيا يتسم بالتلاقي الكامل بين العداء الطبقي من جهة والعزلة الاجتماعية والثقافية والدينية والعرْقية من جهة أخرى، وهو الوضع الأمثل للانفجارات العنصرية. وقد اكتسحت الثورة في طريقها الجيوب البولندية واليهودية. وفي الأدبيات الصهيونية، يُقرَن شميلنكي بهتلر، مع أن الأول زعيم ثورة شعبية فلاحية له تمثال في كييف باعتباره قائداً للثورة، والآخر زعيم نظام شمولي قام بعملية إمبريالية عنصرية.

وفي القرن السابع عشر، ظهر يهود البلاط في وسط أوربا، وفي غربها بدرجة أقل، حيث قدموا الخدمات التجارية والمالية للدول التي ينتمون إليها وحصلوا على مزايا عديدة، كما قاموا بحماية أعضاء الجماعات اليهودية. وبدأ استيطان اليهود السفارد في هولندا وفي بعض المدن في كلٍّ من فرنسا ووسط أوربا. وكان هؤلاء يتمتعون بحقوق ومزايا لا يتمتع بها كثير من أعضاء الطبقات الأخرى، كما أنهم كانوا يتحدثون باسم أعضاء الجماعة اليهودية لدى الحاكم ويقومون بدور الوسيط بينه وبين الجماعة، وبعملية المقايضة معه بحيث يحصل أعضاء الجماعة على المزيد من المزايا نظير تقديم المزيد من الخدمات، أو تثبيت ما حصلوا عليه من مواثيق نظير الاستمرار في الاضطلاع بدورهم. ويمكن القول بأنه، مع ظهور يهود البلاط ويهود الأرندا، واستيطان السفارد في أوربا، تنتهي العصور الوسطى ويبدأ العصر الحديث بكل مظاهره الجديدة.

أما وضع اليهود في العالم الإسلامي، فلا يمكن القول كما يدَّعي البعض بأنه كان عصراً ذهبيا واحداً طويلاً، وإن كان من الممكن أن نقول إن العالم الإسلامي لم تظهر فيه نظرة شاملة تضع اليهودي في مركز أحداث الخلاص باعتباره "الشيطان قاتل الرب". كما أن العالم الإسلامي يتسم بوجود عدد هائل من الأقليات العرْقية والإثنية التي تفرض عليه قبول التعددية (وهي تعددية اعترف بها الإسلام وقننها في مفهوم أهل الذمة الذي حدد لأعضاء الأقليات مكانهم وواجباتهم وحقوقهم). كما أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يتحولوا جميعاً إلى جماعات وظيفية وسيطة بل كانوا ممثَّلين في معظم النشاطات الاقتصادية والمهيمنة، فكان منهم الأطباء والوزراء والمترجمون والتجار والحرفيون. وحتى حينما اضطلعوا أحياناً ببعض وظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة واكتسبوا خصائصها، فإن هذا الدور لم يكن مقصوراً عليهم إذ كانت هناك جماعات إثنية ودينية أخرى تشارك في نشاطهم الوظيفي، كما كان بين هؤلاء المسلمون. كما أن عدد الجماعات اليهودية في العالم العربي ظل صغيراً جدا بالنسبة إلى عدد السكان. ولكل هذه العناصر المركبة، نجد أن معاداة اليهود في العالم الإسلامي لم تكن بالحدة نفسها التي كانت عليها في العالم الغربي الوسيط، كما أنه ظل في معظم الأحيان إمكاناً كامناً في نفس بعض أعضاء الأغلبية وداخل بعض القطاعات.

الصور الإدراكية النمطية المعادية لليهود منذ القرن الثامن عشر

سادت العصور الوسطى في الغرب صور إدراكية ثابتة عن اليهود، منها أن اليهود شعب شاهد، وأنهم مصاصو دماء، وأنهم قتلة المسيح، وأنهم يدنِّسون خبز القربان ويسمِّمون الآبار. وغني عن القول أن معظم هذه الأفكار فقد كثيراً من البريق والشيوع، وحلت محله أفكار وصور إدراكية ثابتة أخرى سنكتشف أن

معظمها ظهر من خلال علمنة الصور الإدراكية السابقة وإعطائها أساساً علمياً مادياً.

وينطلق فكر عصر الاستنارة (العقلانية المادية)، وهو إحدى أهم ركائز الفكر الحديث في الغرب، من فكرة المساواة الكاملة بين البشر ومن كفاية العقل للوصول إلى الحقيقة دون حاجة إلى وحي إلهي. وهذه المساواة تشمل المسيحي واليهودي وكل البشر، ولكنها في الوقت نفسه مساواة لا تعترف بهوية أي منهم ولا تحترم أية خصوصية، أي أنها مساواة تتم في إطار فكرة الإنسان الطبيعي النافع حيث لا يشكل الإنسان إلا جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة (فهي تسوية أكثر منها مساواة). ومن ثَمَّ، دافع فلاسفة الاستنارة عن اليهود من منظور المساواة الكاملة ومن منظور نفعهم وإمكانية الاستفادة منهم، بعد إصلاحهم وتقويمهم بما يتفق مع المعايير العقلية الطبيعية الجديدة.

أما مفهوم الدفاع عن أعضاء الجماعات اليهودية من منظور نفعهم، فيتضمن قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم باعتبارهم بشراً لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة لأن العنصر النافع يجب التخلُّص منه إن فقد نفعه. وعلى أية حال، فإن هذا المقياس لم يُطبَّق على اليهود وحدهم وإنما طُبِّق على مختلف أعضاء المجتمع الذي تحكمه الدولة القومية العلمانية. بينما أدَّى إصلاح اليهود إلى ظهور أدبيات شرسة تشير إلى طفيلية اليهود وهامشيتهم وطرق إصلاحهم. وكان كل هذا يتم في إطار فكرة القانون العام والطبيعة البشرية العامة، في وقت لم تكن الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية قد أحرزت التقدم الذي أحرزته في أواخر القرن التاسع عشر حيث سقطت فكرة الإنسان الطبيعي والإنسانية العامة وحل محلها إدراك تداخل العناصر التاريخية الخاصة مع الطبيعة البشرية نفسها.

ومن ثَمَّ، طالب عصر العقل (الطبيعي المادي) اليهود (وغيرهم) بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشراً بالمعنى العام (والطبيعي المادي) للكلمة. وكان يُنظَر إلى اليهود الذين يؤثرون الحفاظ على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية باعتبارهم "دولة داخل دولة"، أو على أنهم جماعة قبلية في مجتمع تسود فيه مُثُل الليبرالية والعلمانية والاستنارة. ويجب التنبه إلى أن دعاة الانعتاق كانوا يعادون اللهجات المحلية كافة، ومختلف مظاهر الاختلاف عن المجتمع، بل يُقال إن الكونت دي كليرمونت والأسقف جريجوار (وهما من دعاة إعتاق اليهود شريطة أن يتخلصوا من عزلتهم) كانا يبديان ضيقاً شديداً من الخصوصيات الفرنسية الإثنية واللغوية المحلية (البريتون والفلامنج والأوكستانيان والأوفيرنيان) أكثر من ضيقهم بالخصوصية اليهودية. إذ إن فكر الاستنارة كان يحوي هجوماً على اليهود بوصفهم جماعة لها هويتها، ويغطيه سطح مصقول من القبول العام لليهودي كإنسان طبيعي، وأي إنسان يتفق مع المواصفات القومية العلمانية الجديدة، فالتسامح هنا دعوة للتخلي عن الهوية وللقضاء عليها، وذلك باسم الهوية القومية العضوية الجديدة التي تتجسَّد في الدولة القومية المركزية. وأدَّى كل هذا في نهاية الأمر إلى ظهور اليهودي غير اليهودي.

وقد وجد اليهود أنفسهم وسط حلبة الصراع بين المسيحية والعلمانية، حيث كان العلمانيون يشيرون إلى اليهود باعتبارهم ضحية عصور الظلام المسيحية الوسيطة، أي أن اليهود تحولوا من شعب شاهد على عظمة الكنيسة إلى شعب شاهد على جبروتها وظلمها. وتحوَّل اليهودي، لذلك، إلى بطل من أبطال العلمانية. وأصبح بعض العلمانيين ينظرون إلى اليهودية باعتبارها دين العقل ودين الفلاسفة الذي يؤمن بالرب الواحد دون حاجة إلى طقوس مركبة أو معجزات، أي أن اليهود واليهودية أصبحا مقولة مجردة تُستخدَم لضرب المسيحية والكنيسة. وقد ولَّد هذا في نفوس المسيحيين صورة غير محببة لليهودي.

ولكن فريقاً آخر من دعاة الاستنارة كان يتبع إستراتيجية مخالفة تماماً، إذ إنهم بدلاً من أن يضعوا اليهودي مقابل الكنيسة كانوا يحولون اليهودي إلى رمز للدين، أيِّ دين، أو إلى ممثل لما كانوا يسمونه «المسيحية البدائية». وبالتالي، فإنهم بدلاً من الهجوم على الكنيسة والمسيحية بشكل مباشر، وهو أمر كانت تحفه المخاطر، كانوا يسددون سهامهم إلى اليهود واليهودية والعهد القديم في هجوم مقنَّع على المسيحية. وكان هذا الفريق يشير إلى تخلف اليهود والخرافات التي يؤمنون بها مثل تراث القبَّالاه، وإلى أن الدين اليهودي دين معاد للإنسان يشجع على العزلة وعلى عدم الولاء للدولة في وقت كان المجتمع فيه يتجه نحو العلمانية والتحرُّر.

لكل هذا، نجد أن عصر الاستنارة هو العصر الذي تم فيه وضع الأسس الفكرية لمعاداة اليهود (وللصهيونية في الوقت نفسه) في العصر الحديث، حيث نجد الأطروحات والصور الإدراكية النمطية الثابتة التي تنسب إلى اليهود قدراً كبيراً من الصفات المنفِّرة، وانطلاقاً من ذلك اقتُرح تهجيرهم إلى مكان آخر حلا لهذا الوضع (أي أن الصيغة الصهيونية الشاملة يكتمل تبلورها في هذه المرحلة). ومن باب الهجوم المقنَّع على المسيحية، كان يُطرَح أن الكتاب المقدَّس وثيقة مزيفة، وأن أبطال العهد القديم أوغاد لا خلاق لهم (ومتعصبون ضيقو الأفق) مارسوا الاضطهاد الديني ضد الآخرين، وأن اليهود الذين أتوا بالعهد القديم (وهو أكثر أجزاء الكتاب المقدَّس توحشاً حسب رأيهم) شعب

همجي؛ قاس وفاسد. وقام دعاة الاستنارة ببعث أطروحات الكنيسة ضد اليهود في محاولة ماكرة لاستخدام هذه الأطروحات لا ضد اليهودية وحسب وإنما ضد المسيحية (باعتبار أن اليهودية أم المسيحية) بل ضد كل الأديان الأخرى. ولهذا، لم يكن الهجوم الاستناري يُشَن على السمات اليهودية في النسق الديني اليهودي وحسب، وإنما كان يُوجَّه كذلك (وأحياناً بالدرجة الأولى) إلى تلك السمات المشتركة بين اليهودية والأديان السماوية الأخرى.

ولكن فكر الاستنارة لم يكن البُعد الوحيد في الفكر الغربي الحديث. فمعاداة الاستنارة، والتمرد عليها، والرومانسية، كانت أبعاداً ثابتة وأساسية فيها، ولا تقل عن الاستنارة نفسها في الأهمية. وقد انعكست هذه الرومانسية تجاه اليهود في مواقف متناقضة أيضاً، فتم بعث فكرة اليهودي التائه وتمجيده باعتباره نموذج البطل الرومانسي الحق. ولكننا نلاحظ أن اليهودي التائه هو، في واقع الأمر، اليهودي الهامشي. حتى إذا كان بطلاً، فهو بطل عجائبي متجرِّد من صفات إنسانية متعينة. وبالتالي، فإن تمجيد اليهودي بوصفه بطلاً رومانسيا كان ينزع عنه صفاته الإنسانية وهي الخطوة الإدراكية الأولى نحو معاداة اليهود. كما وجه فلاسفة الرومانسية النقد إلى اليهودية باعتبارها ديانة لا روح فيها.

وكان فكر معاداة الاستنارة (الرومانسي) يشكِّل أساساً قويا لمعاداة اليهود في جانب آخر من جوانبه. فهو فكر يرفض فكرة الإنسان الطبيعي العام ويؤكد الخصوصية. ويرى أن لكل أمة عبقرية خاصة وسمات أزلية يحملها من ينتمي إلى هذه الأمة عن طريق الوراثة والتنشئة، وهو ما سميناه بفكرة «الشعب العضوي» التي تبدَّت في تأكيد خصوصية اليهود كشعب عضوي منفصل عن غيره من الشعوب (وهذه علمنة لفكرة الشعب الشاهد)، فهو شعب ذو خصائص ثقافية واقتصادية ودينية فريدة وله علاقته العضوية بأرضه. ومن ثَمَّ، تنشأ فكرة ضرورة استرجاع اليهود إلى أرضهم (فلسطين) كي يحققوا الوحدة العضوية المطلوبة ويحققوا هويتهم.

ويُلاحَظ أن هذه الرؤية يكسوها سطح مصقول من حب اليهود والتحيز لهم، ولكنها تُضمر تضمينات معادية لهم أو تفترض أنهم شعب عضوي سامي آسيوي لا ينتمي إلى التشكيلات العضوية الآرية في الغرب، وأنه لو مكث داخل هذه التشكيلات لأصبح عنصراً مرضياً مخربا مصاباً بازدواج الولاء، وبالتالي لا يمكن دمجه في المجتمعات التي يوجد فيها ولابد من طرده، وهو ما سميناه «الشعب العضوي المنبوذ». وقد تبنَّى دعاة النظريات العرْقية والقومية العضوية الرأي القائل بأن الصراع الحقيقي والحتمي هو الصراع بين الأجناس والقوميات المختلفة وليس الصراع بين الطبقات والفئات المختلفة داخل التشكيل القومي الواحد. ومن ثَمَّ، أصبح اليهود، كشعب عضوي منبوذ، عنصراً مهما، إذ إن الجماعة العضوية تحتاج إلى جماعة عضوية أخرى تكون بمنزلة الأداة حتى تحدد هويتها من خلال رفضها لها. كما أن اليهودي المندمج الذي يتقمص شخصية غير شخصيته، على نحو ما يتصور دعاة الفكر القومي العضوي، يقف بتفككه وفقدانه هويته شاهداً على تماسك الأمم العضوية.

وهكذا، نجد أن التيارين الأساسيين في الحضارة الغربية الحديثة ينطويان على قدر كبير من العداء لليهود: يتمثل الأول في دعوة اليهود إلى الاندماج بعد أن يفقدوا كل خصوصية وتميُّز، أما الثاني فيقرر ابتداءً أنهم لا يمكنهم الاندماج. ورغم اختلاف التيارين ظاهريا، فإنهما يتفقان على رفض اليهودي.

لكن العنصر الأساسي الذي ساهم في ترسيخ الصور الإدراكية الكريهة عن اليهود، وفي تصاعد الهجمات ضدهم، هو الظاهرة الإمبريالية. فقد كان القرن التاسع عشر عصر التوسع الإمبريالي الغربي الذي انتهى بالهيمنة على كل أنحاء المعمورة ووضع الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية موضع التنفيذ على مستوى العالم. وصاحب هذه العملية ظهور مجموعة من الأفكار والنظريات والصور الإدراكية العرْقية التي تحاول تسويغ سيطرة الإنسان الأبيض على بقية الأعراق. فَضلاً عن أن الفلسفة النيتشوية كانت تكتسح أوربا، وهي فلسفة تنظر إلى الواقع باعتباره صراعاً لا يهدأ، صراع الجميع ضد الجميع، ويستند فيه البقاء لا إلى الحق والخير والجمال وإنما إلى الحركية والقوة والإرادة. كما سادت أوربا آنذاك الفلسفة الداروينية الاجتماعية، وهي أساساً رؤية للعلاقات الاجتماعية من خلال نموذج ينقل القيم التي زعم داروين أنه اكتشفها في عالم الطبيعة إلى المجتمع الإنساني. وكانت هذه الداروينية من أهم مصادر الفكر الصهيوني بخاصة، والفكر الإمبريالي بعامة، فكان يتم تبرير إبادة الملايين في أفريقيا واستعبادهم في آسيا على أساس أن هذا جزء من عبء الرجل الأبيض ومهمته الحضارية، فهو يبيد الملايين ليؤسس مجتمعات متقدمة متحضرة! ولكن الرجل الأبيض هو أساساً الرجل الأقوى الذي لا يكترث كثيراً بالخير أو الشر. ولم يكن من الممكن إدراك الواقع بطريقتين مختلفتين: إحداهما ليبرالية خاصة بأوربا، والثانية إمبريالية عنصرية خاصة بالمناطق التي تقع خارجها. فالعنصرية رؤية متكاملة للإله والطبيعة والتاريخ والإنسان. وكان محتماً أن تقع أكبر الأقليات في أوربا، وأكثرها انتشاراً وبروزاً، ضحيةً لهذا التحول الإدراكي والاجتماعي.

تاريخ معاداة اليهود منذ القرن الثامن عشر

تتمثل السمة الأساسية في أدبيات معاداة اليهود في العصر الحديث أن تُنسَب إلى اليهودي صفات خفية ثابتة لصيقة به لا يمكنه التخلص منها إذا شاء أن يفعل. فبينما كان بوسع اليهودي في الماضي أن يتخلص من هويته تماماً عن طريق التنصر ودخول الكنيسة التي كانت تفتح له دائماً ذراعيها، فإن هذا البديل لم يَعُد مطروحاً في العصر الحديث، مع ظهور النظريات المادية التفسيرية (للإنسان والكون) التي تفسر الكون في إطار مجموعة من القوانين المادية الحتمية التي تخضع لها الظاهرة. إذ إن سمات اليهودي وخصائصه أصبحت خصائص وراثية وسمات بيولوجية ذات جذور مادية عرْقية ومن ثمَّ لا يمكنه الفكاك منها مهما بذل من جهود. بل إن اندماج اليهود، ورغبة بعضهم في الهرب من يهوديتهم تشبُّهاً بالأغلبية، هما في الواقع (حسب الرؤية الحديثة لمعاداة اليهود) مؤشرات على نجاحهم في التخفي والتمسك بالهوية!

وقد تحوَّل كُره اليهود من مجرد عواطف إنسانية كامنة إلى حركات سياسية. ويعود التاريخ الحديث لمعاداة اليهود على أساس عرْقي إلى عام ١٨٧٣ (في وسط أوربا)، وذلك مع انهيار البورصة التي كان لبعض المموِّلين اليهود ضلع فيها، ومع الصعوبات الاقتصادية التي بدأت تطل برأسها. وقد أسس قس البلاط الألماني، أدولف ستوكر، حزباً مسيحيا اجتماعيا عام ١٨٧٨، وتوجه إلى البورجوازية الصغيرة وكذلك إلى المهنيين الذين كانوا يتصورون أنهم ضحية هيمنة الرأسمالية اليهودية على الاقتصاد. وطرح الحزب مفهوماً عضويا للقومية يستبعد اليهود ويراهم خطراً على الأمن. وفي هذه الفترة، ظهرت كتابات دوهرنج وترايتشكه وغيرهما. وفي عام ١٨٨٠، أُسِّست في برلين عصبة المعادين لليهود. وقدَّم المعادون لليهودية عريضة للحكومة الألمانية موقعة من ٢٢٥ ألف شخص تطلب إلى الحكومة أن توقف جميع أشكال الهجرة اليهودية التي كانت تتدفق من الجيب البولندي وأن تصدر تشريعات لاستبعاد اليهود. وقد عُقد أول مؤتمر دولي لمعاداة اليهود عام ١٨٨٢ وضم ثلاثة آلاف مندوب.

وفي عام ١٨٩٣، حققت الأحزاب المعادية لليهود في ألمانيا أكبر نجاح انتخابي لها حين حصلت على ستة عشر مقعداً بعد أن نالت ربع مليون صوت. أما في النمسا، فشهد عام ١٨٧١ نشر كتاب عن التلمود من تأليف أوجست رولنج، ترك أثراً عميقاً في حركة معاداة اليهود.

وفي عام ١٨٩٥، تم انتخاب كارل ليوجر زعيم أعداء اليهود رئيساً للبلدية في فيينا. وقد حاول الإمبراطور أن يوقف تعيينه ورفضت الحكومة المصادقة على التعيين، ولكنه تقلَّد منصبه في نهاية الأمر عام ١٨٩٧ بعد أن أُعيد انتخابه ثلاث مرات. وظل العداء لليهود يتصاعد إلى أن وصل إلى ذروته مع انتخاب هتلر ووصول النازيين إلى الحكم.

وقد كانت معاداة اليهود في فرنسا سلاحاً مهما في يد بعض العناصر الملكية والكنسية المعادية للثورة الفرنسية ومُثُلها. وشهدت هذه الفترة نشر كتاب درومون **فرنسا اليهودية**. وفي أواخر عام ١٨٩٢، وقعت فضيحة قناة بنما التي لعب فيها بعض المموِّلين اليهود دوراً ملحوظاً. وشهد عام ١٨٩٤ حادثة دريفوس أحد ضباط الأركان العامة للجيش الفرنسي والذي أُتهم بأنه خان بلاده وسلم بعض المعلومات المتعلقة بأمنها إلى ألمانيا. وقد دافعت عنه القوى الليبرالية، في حين وقفت القوى المحافظة والمعادية لليهود ضده.

وشهدت روسيا أشكالاً مختلفة من معاداة اليهود، وبخاصة بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٨١ حيث صدرت قوانين مايو (١٨٨١)، وانتشرت موجة من المذابح من أشهرها مذبحة كيشينيف عام ١٩٠٣. وبعد عام ١٩٠٥، ظهرت جماعات المائة السود بدعم خفي من الحكومة كما يُقال، وقامت بالهجوم على اليهود في عدة مدن، كما وُجِّهت تهمة دم ضد بيليس عام ١٩١١ وبُرِّئ منها.

أما في بولندا، فإن الطبقة الوسطى الصاعدة ناصبت الجماعة اليهودية الوسيطة العداء بسبب احتفاظها بهوية غربية مستقلة (يديشية) وبسبب تاريخ التحالف الطويل بينها وبين النخبة الإقطاعية الحاكمة. وقد نظم البولنديون حركات مقاطعة ضد اليهود في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وكانت الحكومة تتفاوت في موقفها من التأييد لحركات العداء أو محاولة وقفها. ثم قام النازيون بإبادة أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا ضمن من أبادوا من ملايين أخرى.

وبعد الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي، تغيَّرت بنية المجتمع ومؤسساته وتوجُّهاته. وواجه أعضاء الجماعات اليهودية شيئاً من التمييز العنصري، ولكن هذا لم يكن نابعاً من سياسة الدولة التي كانت تُجرِّم معاداة اليهود، وإنما كان أمراً عاديا يسم علاقة الأقلية بالأغلبية. ولعل أكبر دليل على تَراجُع معاداة اليهود تَزايُد معدلات الاندماج والزواج المختلط.

ومع هجرة يهود اليديشية وحرب البوير (١٨٩٩) التي وقف ضدها كثير من قطاعات الرأي العام في إنجلترا، شهدت إنجلترا موجة من العداء لليهود، وقيل إن المصالح المالية اليهودية كانت وراء دخول

إنجلترا هذه الحرب. وقد ازداد الحديث عن الخطر اليهودي بشكل مبالغ فيه، وصدرت قوانين الغرباء عامي ١٩٠٢ و١٩٠٥ لمنع دخول الأجانب، أي اليهود.

أما في الولايات المتحدة والدول الاستيطانية الأخرى، مثل: جنوب أفريقيا وكندا وأمريكا اللاتينية، فلم يجابه اليهود أية معاداة إلا في جنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية، بخاصة في الثلاثينيات، ولكنها تلاشت بمرور الوقت وبتناقص عدد أعضاء الجماعة.

كلاسيكيات العداء لليهود منذ القرن الثامن عشر

وُلدت الأفكار الحديثة لمعاداة اليهود، وكذلك صورها الإدراكية، داخل هذا الإطار. ومن أهم وأول الإسهامات الغربية في هذا المضمار استخدام التمييز بين الآريين والساميين ونقله من المجال اللغوي إلى المجال الحضاري ثم العرْقي. وهذا ما فعله الكونت جوبينو في كتابه **مقال في التفاوت بين الأعراق الإنسانية** (١٨٥٣ - ١٨٥٥)، فبسَّط النظريات السائدة، وقسَّم البشر إلى أعراق: أبيض (آري)، وأصفر، وأسود. وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض مؤسس الحضارة، وأن السمات المتفوقة لهذا العرْق لا يمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق النقاء العنصري. وأكد جوبينو أن التيوتونيين أرقى العناصر الآرية لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بنقائهم.

وتوالت بعد ذلك الأعمال العرْقية الغربية المعادية لليهود، ومن أهمها كتاب ولهلم مار (١٨١٨-١٩٠٤) **انتصار اليهودية على الألمانية: من منظور غير ديني** (١٨٦٢). وكان مار مواطناً ألمانيا (يُقال إنه كان يهوديا)، ثم انضم إلى جماعة فوضوية إلحادية في سويسرا بعد فشل ثورة ١٨٤٨. وقد طُبعت من الكتاب اثنتا عشرة طبعة حتى عام ١٨٧٩. وتحل في كتابه كلمتا «سامي» و«سامية»، محل «يهودي» و«يهودية». وهو الذي أشاع مُصطلَح «معاداة السامية»، في اللغات الأوربية، وبيَّن في دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة، كما أسس جماعة تضم أعداء اليهود عام ١٨٧٩.

ومن أهم الشخصيات التي أضفت كثيراً من الاحترام على النظريات العرْقية المعادية لليهود الموسيقار الألماني ريتشارد فاجنر (١٨١٣-١٨٨٣)، وكان صديقاً لجوبينو، وتأثر بكتابات مار. وقد طبع فاجنر كتابه **أضواء على اليهود في الموسيقى** (١٨٥٠، ثم ١٨٦٩)، مصوراً إياهم باعتبارهم تجسيداً لقوة المال والتجارة، ومنكراً عليهم أي إبداع في الموسيقى والثقافة. ثم نشر سلسلة مقالات بعنوان: "الفن الألماني والسياسة" طرح فيها فكرته الخاصة برسالة الشعب الألماني (الخالص) المعادية للمادية الفرنسية واليهودية. وقد اتهم فاجنر اليهود بالهيمنة على الحياة الثقافية في ألمانيا وطالب بحرمانهم من حقوقهم السياسية، كما تحدث عن دمار أو إبادة أو اختفاء اليهود، أي تخليص الحياة الثقافية من اليهود بالقوة، أو دمجهم تماماً عن طريق الفن والموسيقى. وتركت أفكار فاجنر أثراً عميقاً في هتلر، ومن ثَمَّ كانت ذات مكانة خاصة في التجربة النازية (ولهذا، كانت موسيقى فاجنر ممنوعة حتى عهد قريب في إسرائيل).

وكان لإسهام المفكر السياسي والمستشرق الألماني بول أنطون دي لاجارد (١٨٢٧-١٨٩١) أبعد الأثر في تضخيم الهالة الثقافية والعلمية حول معاداة اليهود. كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التيوتونية الخالصة (العضوية)، كما كان يؤمن بالشعب العضوي (الفولك) الألماني وتفوُّقه على الشعوب الأخرى، ويرفض مبدأ المساواة. بل كان يرى أن الليبرالية مؤامرة عالمية خطيرة. ولم يشأ التعبير عنها بأي من اللونين الأحمر أو الأسود، فهما لونان لهما شخصيتهما، بل وقع اختياره على الرمادي، وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأهمية الرمادية التي استنكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها "نحو العلم"، على حد قوله، كما تقطع الطريق على الأماني والأطماع الجرمانية الرامية إلى إخضاع أوربا الوسطى للسيطرة الألمانية، والتخلص من إمبراطورية هابسبورج، وإجلاء السلاف عن البلاد بالقوة لأنهم ليسوا من سكانها الأصليين.

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية لليهود على أساس عرْقي، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه (١٨٣٤-١٨٩٦) الذي كان يُعَدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصداقية والاحترام. وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب (الشعب العضوي في مواجهة الشعب العضوي المنبوذ)، ثم طرح الشعار المشهور "اليهود مصيبتنا". وحذر الألمان من التدفق اليهودي من الخزان البولندي (إشارة إلى الانفجار السكاني بين يهود بولندا)، وهو تدفُّق لا ينضب. وقد تبدَّى هذا الرفض لليهود في شكل تعاطُف مع المشروع الصهيوني.

ومن الشخصيات الأخرى التي أشاعت الفكر العرْقي المعادي لليهود هيوستون ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥-١٩٢٧)، وهو بريطاني المولد فرنسي النشأة ألماني بالاختيار، فكان معجباً بالثقافة

الألمانية إعجاباً عميقاً. وقد تصادق مع فاجنر وتزوج ابنته، وتأثر بأفكار جوبينو ولاجارد، وألّف أهم كتب العنصرية الغربية **أسس القرن التاسع عشر** (١٨٩٩). وقد آمن تشامبرلين بتفوُّق الإنسان النوردي الأشقر، وبأن قدر التيوتونيين قيادة الإنسانية جمعاء، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعهم. وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس سبب التخلف. واليهود، بحسب رأي تشامبرلين، يشكلون عرْقاً هجيناً متحركاً هامشيا طفيليا لاجذور له. وهم غير قادرين عَلى الإبداع، ولا يوجد لديهم إحساس ديني، بل إن وجودهم نفسه جريمة ضد الإنسانية. وذهب تشامبرلين إلى أن الشخصيات المهمة في بدايات التاريخ اليهودي، مثل داود والأنبياء والمسيح، من أصل ألماني! وتنبأ بالمواجهة الحتمية بين الساميين والآريين.

ومن الملاحَظ أن معظم كتب معاداة اليهود (وأكثرها حدة) ألمانية. ولعل هذا يعود إلى مجاورة ألمانيا للجيب البولندي، وإلى وجود عنصر يهودي قوي في عالم الاقتصاد الألماني، وإلى دخول ألمانيا إلى الساحة الإمبريالية متأخرة من الناحية الزمنية، الأمر الذي أثر في مساحة الرقعة الجغرافية التي استعمرتها. ومن هنا، اضطرت ألمانيا إلى أن تنفث سمها العنصري في أوربا (ضد اليهود والسلاف) لا خارجها (ضد الأفارقة والآسيويين والمسلمين). ومع هذا، فليس بإمكاننا إنكار أن معاداة اليهود ظاهرة غربية تشمل شتى دول العالم الغربي، شأنها في هذا شأن الصهيونية. ولهذا، لم تقتصر كُتب معاداة اليهود على ألمانيا. وقد أشرنا من قبل إلى جوبينو الفرنسي، ويمكن أن نشير الآن إلى إدوار أدولف درومون (١٨٤٤ ـ ١٩١٧)، وهو أيضاً فرنسي، وقد ضمن أفكاره كتاب **فرنسا اليهودية** (١٨٨٦) الذي طُبع أكثر من مائة طبعة، وكان من أكثر الكتب الأوربية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر. وقد ألف درومون كتباً أخرى تتضمن الأفكار نفسها والرؤية نفسها. وكان درومون يرى أن يهود فرنسا عنصر أجنبي غريب يستغل النظام الاقتصادي الفرنسي لتحقيق منافعه الخاصة وبسط سيطرته على العالم. وقد ساهم كتاب درومون في صياغة رؤية كثير من المفكرين اليهود وغير اليهود للمسألة اليهودية ومنهم هرتزل.

ومن المفكرين الإنجليز الذين بادروا إلى معاداة اليهود، المؤرخ والمصلح التربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ـ١٩١٠)، فنشر عام ١٨٧٨، مع بدايات هجرة يهود اليديشية من روسيا إلى إنجلترا، عملاً حاول فيه أن يبرهن على استحالة أن يصبح اليهود مواطنين في دول أوربا المضيفة، كما حاول أن يبرهن على أن وجودهم يشكل خطراً سياسيا على بلده. أما اليهودية، فهي في رأيه دين عنصري يتمسك به اليهود بضراوة ويحل فيه العنصر أو العرْق محل البلد الذي فقدوه. الأمر الذي جعلهم يرفضون الاختلاط بالناس وجلب عليهم بُغض الشعوب. ولهذا السبب، نادى سميث بحل صهيوني للمسألة اليهودية.

وقد ظهرت أعمال أدبية أخرى، مثل **بروتوكولات حكماء صهيون**، تردد الأفكار نفسها التي وردت في الكتب السابقة. والواقع أن **بروتوكولات حكماء صهيون** تصوِّر الأفكار السابقة بطريقة شعبية تصل إلى وجدان البسطاء بسرعة وتجسِّد المخاطر، التي تحدَّث عنها تشامبرلين أو ترايتشكه، في شكل مؤامرة عالمية متعيِّنة، واجتماعات عقدها الحاخامات للسيطرة على العالم، أي أن **البروتوكولات** تشيع الأفكار نفسها بأسلوب يشبه أسلوب صحافة الإثارة والجريمة والجنس.

١٧ ـ بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود

بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود

يمكن تفسير ظاهرة معاداة اليهود من خلال نموذج تفسيري وتصنيفي واحد مركب تتفرع عنه عدة نماذج فرعية تتبدَّى، بدورها، في أحداث ووقائع ومؤلفات بعينها، مثل: اضطرابات فيتميلخ، وحادثة دريفوس، وتهمة الدم، وبروتوكولات حكماء صهيون. وفي كل مدخل، سنحاول أن نعرض لموقف كلٍّ من الرؤية العرْقية المعادية لليهود والرؤية الصهيونية من الظاهرة أو القضية موضوع الدراسة ثم نحاول أن نقدم تفسيراً أكثر تركيباً وأقل اختزالية.

طرد اليهود

يُشير مصطلح «طرد اليهود» في الكتابات الصهيونية إلى مجموعة من الوقائع التاريخية التي حدثت في مجتمعات وتشكيلات حضارية مختلفة تحت ظروف مختلفة لا يربطها أي رابط. والواقع أن الحديث عن «طرد اليهود»، كما لو كان ظاهرة تاريخية واحدة، تعبير عن الإيمان بوجود تاريخ يهودي واحد يُعبِّر عن هوية يهودية واحدة (منبوذة من الأغيار)، وأن اليهود شعب عضوي منبوذ.

وفيما يلي بعض تواريخ الطرد المهمة :

٧٢٤ ق.م التهجير (النفي) الآشوري.
٥٨٦ ق.م التهجير (النفي) البابلي.
١٣٩ ق.م القاضي (برائيتور)، هسبالوس يطرد اليهود من روما.
١٩ ق.م تايبريوس ينفي الأجانب (ومن بينهم اليهود).
٥٠م كلوديوس يأمر بطرد اليهود من روما.
٧٠ هدم الهيكل على يد تيتوس وطرد اليهود من فلسطين (وتُعدُّ هذه أهم حادثة طرد من المنظور اليهودي والمسيحي).
١٣٥ دوميتان يطرد المسيحيين واليهود.
٤١٥ طرد اليهود من القدس وتحريم دخولها عليهم.
٦٢٤ الطرد من الإسكندرية.
٦٢٨ الطرد من الجزيرة العربية أيام الرسول.
١٤٦٧ الطرد من تلمسان.

ولكن أهم وقائع الطرد توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي في العصور الوسطى وبعدها:

١٢٩٠	إنجلترا	١٤٩٢	إسبانيا
١٣٠٦-١٣٩٤	فرنسا	١٤٩٥	ليتوانيا
١٣٦٧	المجر	١٤٩٧	البرتغال

وقد شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر حوادث طرد من مدن إيطاليا وألمانيا:

١٤٢٦	كولونيا	١٤٥٣	برسلاو
١٤٣٩	أونسبرج	١٦٤٨	ثورة شميلنكي في أوكرانيا

واستمر الطرد حتى العصر الحديث:

١٧٤٤-١٧٥٢ بـراغ

وبعد ذلك التاريخ، تأسست منطقة الاستيطان، وهو ما كان يعني:

١٧٧٢ الطرد من بقية روسيا ١٨٩١ الطرد من موسكو

وقام الروس بعد الثورة البلشفية، والنازيون بعد استيلائهم على الحكم، بنقل أعداد من اليهود من أماكن إقامتهم إلى أماكن أخرى. كما هاجر يهود البلاد العربية إلى إسرائيل وأوربا بعد عام ١٩٤٨. وتُصنِّف **الموسوعة اليهودية** هذه الأحداث التاريخية كافة باعتبارها "حوادث طرد". وتذكر أنه يمكن تصنيفها على أسس مختلفة إلا أن الدافع الجذري وراءها جميعاً هو كُره اليهود "ومعاداتهم"!

وغني عن القول أن هذه الوقائع لا يربطها رابط، فالتهجير الآشوري والبابلي شملا أقواماً عديدة أخرى لضمان أمن منطقة عبر النهر، أي منطقة الشام. وفي كثير من الأحيان، لم يكن الحكام الآشوريون أو البابليون يعرفون شيئاً عن العبرانيين، فكانت تَصدُر الأوامر بهدم منطقة أو تهدئتها، الأمر الذي كان يعني إخلاءها من معظم سكانها وأقوامها، وبخاصة من أعضاء النخبة. وقد شهد عام ١٣٩ ق.م أول عملية طرد لأعضاء إحدى الجماعات اليهودية، بالمعنى الحرفي للكلمة، حيث إنها لم تكن تهجيراً كالتهجير البابلي مثلاً، وليست فراراً كما حدث مع ثورة شميلنكي. ويبدو أن سبب عملية الطرد هذه من روما هو الخوف من تحوُّل المواطنين الرومان إلى العقيدة اليهودية. ويبدو، بالفعل، أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون باليهودية نظراً لطبيعتها التوحيدية بالقياس إلى التعددية والشرك اللذين يسمان العبادة الوثنية في روما. أما طرد اليهود عام ١٩ ميلادية، فتم بتحريض من سيجانوس رئيس الحرس الإمبراطوري، غير أن الإمبراطور تايبريوس الذي أصدر أمر الطرد عاد وألغاه بعد اثنى عشر عاماً، وأمر بألا يُساء إلى اليهود أو إلى شعائرهم الدينية، وأعلن أن سيجانوس ضلَّله لتحقيق مآربه الخاصة. ورغم أن روما اتسمت بالتسامح، فإن التهود بأعداد كبيرة كان يهدد سلطة الدولة، ذلك أن شرعية الدولة تستند إلى العبادة الوثنية، كما أن كثيراً من الوظائف الإدارية كان مرتبطاً بهذه العبادة، وبالتالي فإن التهود كان يعني ضعف الولاء وأزمة الشرعية، كما كان يهدد ثبات موارد الهياكل المقدَّسة من هبات وقرابين. ويبدو أن رجال المال الرومان كانوا أيضاً وراء طرد اليهود، حيث كانوا يمارسون الربا بالتحايل على القانون ويودون التخلص من المرابين اليهود الذين يشكلون منافساً قويا لهم.

أما طرد اليهود من القدس، فلم يكن جزءاً من سياسة روما الداخلية وإنما جاء في إطار سياستها الإمبراطورية وكمحاولة لتهدئة المنطقة. وكان طرد اليهود من المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يعود إلى أسباب خاصة بحركيات الدين الجديد ومحاولة الدولة الجديدة تأمين مركزها وقلبها بضمان عدم وجود أقليات لا تدين لها بالولاء. وحينما قام شميلنكي بالهجوم على الجماعات اليهودية، فإنه كان يفعل ذلك في إطار حركة تحرُّر وطني

وثورة فلاحية ضد المستغلين البولنديين الذين تَصادَف وجود اليهود كوكلاء لهم. وحينما كتب شميلنكي إلى كرومويل، في محاولة لتوحيد القوى الأرثوذكسية والبروتستانتية ضد الكاثوليكية، فإنه لم يذكر اليهود من قريب أو بعيد.

وإن أردنا أن نجد نمطاً متكرراً في ظاهرة طرد اليهود، فإننا لن نجده على صعيد العالم وإنما داخل التشكيل الحضاري الغربي، وبخاصة في العصر الوسيط. وسنجد أن السبب وراء طرد اليهود لم يكن كُرههم وإنما كونهم جماعة وظيفية وسيطة تشكل عنصراً استيطانياً غريباً، يُوطَّن (أي يُستورَد) ويُصدَّر ولا يضرب بجذوره في أي مكان، تماماً مثل الجنود المرتزقة. والجماعة الوظيفية الوسيطة تلعب دورها، ثم يستغنى عنها المجتمع فينبذها، فتنتقل إلى مجتمع آخر، وهكذا. وعادةً ما تستغني المجتمعات عن الجماعة الوظيفية الوسيطة حينما تظهر هياكل مركزية للإدارة (وهذا ما حدث في حالة إنجلترا عام ١٢٩٠ وفي فرنسا في أواخر القرن الرابع عشر وفي إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر) أو حينما تظهر طبقات محلية بديلة (وهذا ما حدث في معظم أوربا بالتدريج ابتداءً من القرن الثاني عشر).

وقد عمَّقت عمليات الطرد عدم تجذر اليهود في الحضارة الغربية وزادت هامشيتهم، وهي التي حددت إدراك العالم الغربي لهم. وتبدَّى هذا الإدراك في صورة «اليهودي التائه». ومن هنا، فإن الحل الصهيوني للمسألة اليهودية (الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة) يَصدُر عن قبول فكرة طرد اليهود من أوربا وحتميتها. ويُعَدُّ وعد بلفور النقطة التي اتفقت فيها أوربا مع قيادات الجماعة اليهودية على أن يتم نقل اليهود من العالم الغربي إلى فلسطين (أي طردهم بطريقة سلمية مؤسسية) باعتبارهم عنصراً نافعاً يمكنه الاضطلاع بوظيفة قتالية دفاعاً عن المصالح الإمبريالية الغربية داخل إطار الدولة الوظيفية. كما أن الإبادة على يد النازيين، هي الأخرى، شكل من أشكال الطرد (من العالم الغربي إلى العالم الآخر) أخذ شكل التصفية الجسدية، وذلك بسبب عدم وجود مستعمرات ألمانية يُطرَدون إليها، وبسبب رفض بولندا السماح بدخول قطارات اليهود المطرودين إليها.

ويتضح قبول الطرد، كنقطة انطلاق في صهيونية يهود الغرب التوطينية، من واقع أن اللجان (الأليانس وغيرها) كانت تُشكَّل لنقل اليهود إلى أي مكان في العالم ماعدا المكان الذي استوطنوا فيه بالفعل (في بلاد غرب أوربا). وقد أيد يهود الغرب الصهيونية الاستيطانية من منظور توطيني. كما أن المنظمات الصهيونية مازالت تشجع اليهود على الهجرة من روسيا وأوكرانيا بدلاً من الدفاع عن حقوقهم السياسية والمدنية وحقهم في التمتع بحياة كريمة في أوطانهم. ومن ثَمَّ، يمكن أيضاً تصنيف ذلك على أنه تقبُّل لحتمية خروج أو طرد اليهود من تلك البلدان، ويمكننا تصنيف الصهيونية على أنها حركة طاردة لليهود من أوطانهم المختلفة بهدف تجميعهم في بلد واحد، ويُطلَق على هذه العملية مصطلح «تجميع المنفيين».

ومما يجدر ذكره أن أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم اشتركوا، أحياناً، في عملية طرد اليهود. وكان ضمن حقوق الجيتوات، في العصور الوسطى، ما يُسمَّى «تحريم الاستيطان»، أي تحريم استيطان أي يهودي غريب على الجيتو فيه. ومن ثَمَّ، كانت هذه الجيتوات تطرد اليهود الغرباء منها. كما كانت هناك حالات في القرن الثامن عشر طالب فيها اليهود بطرد جماعات يهودية أخرى. ففي عام ١٧٦٠ قدَّم يعقوب رودريجيز التماساً إلى لويس الخامس عشر لطرد اليهود الألمان (الإشكناز)، وأيَّده في ذلك الطلب المفكِّر والمموِّل اليهودي السفاردي إسحق دي بنتو. ووافقت الحكومة الفرنسية على الطلب ونُفِّذ الاقتراح في العام التالي.

ومن الظواهر التي تُفسَّر على أنها طرد لليهود، نتيجة العداء الكامن تجاههم، خروج اليهود من بلاد تأخذ بالنمط الاشتراكي في التنمية. ولعل أكثر الأمثلة بروزاً في هذا المجال كوبا. فبعد استيلاء كاسترو على الحكم، خرجت أعداد هائلة من اليهود حتى أوشكت الجماعة اليهودية على الاختفاء الكامل. وحدث الشيء نفسه في البلاد العربية التي نحت منحى اشتراكياً.

تهمة الدم

«تهمة الدم» هي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبيا مسيحيا في عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظراً لأن عيدي الفصح المسيحي واليهودي قريبان، فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في شعائرهم الدينية وفي أعيادهم، وبخاصة في عيد الفصح اليهودي، حيث أُشيع أن خبز الفطير غير المخمر (ماتزوت) الذي يُؤكل فيه يُعجَن بهذه الدماء. وقد تطورت الإشاعة، فكان يُقال إن اليهود يُصفِّون دم ضحاياهم لأسباب طبية أو لاستخدامه في علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان، بل لاستخدامه كمنشط جنسي.

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر اليونان والرومان، أي إلى ما قبل العصور المسيحية، فقد أتى في كتابات كلٍّ من الكاتبين اليونانيين آبيون (السكندري) وديمقريطس إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا

بشرية إلى آلهتهم. ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من الصورة الإدراكية العامة في الوجدان الغربي لليهود، ولم تُوجَّه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا في العصور الوسطى.

وقد وُجِّهت أول تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في إنجلترا في القرن الثاني عشر، في وقت كانوا يمارسون فيه نشاطهم التجاري والمالي والربوي، وهو ما كان يعني أن هناك أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابي اليهودي ولم ينجحوا في تسديدها وأن ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم آلت إليه. ففي عام ١١٤٤، اتُّهم أعضاء الجماعة اليهودية في نورويتش بأنهم ذبحوا طفلاً يُدعَى ويليام عمره أربعة أعوام ونصف في الجمعة الحزينة (وقد نُصِّب قديساً فيما بعد). كما ذكر أحد اليهود المتنصرين أن من المعتاد أن تقوم إحدى الجماعات اليهودية في إحدى مدن أوربا بذبح طفل مسيحي في يوم عيد الفصح المسيحي الذي يقع عادةً في التاريخ نفسه الذي يقع فيه عيد الفصح اليهودي. ثم وُجِّهت تهم دم أخرى في مناطق مختلفة من إنجلترا بين عامي ١١٦٨ و١١٩٢. أما في فرنسا، فوُجِّهت التهمة إلى الجماعة اليهودية في بلوا عام ١١٧١. كما وُجِّهت خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيو من بلدة لنكولن عام ١٢٥٥ التي يذكرها تشوسر في **حكايات كانتربري**. وحتى منتصف القرن العشرين استمر توجيه التهمة، ومن أشهرها حادثة دمشق عام ١٨٤٠، وقضية بيليس عام ١٩١١. وتُعَدُّ حادثة دمشق التي حدثت في العالم الإسلامي استثناءً، إذ إن الظاهرة تكاد تكون مقصورة على العالم المسيحي.

وكانت تهمة الدم تأخذ الشكل التالي: يختفي شخص مسيحي (في العادة طفل)، أو يوجد مقتولاً، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل أو الشخص شُوهد آخر مرة بجوار الحي اليهودي، أو أن هناك عيداً يهوديا (عادةً عيد الفصح) تتطلب شعائره دم نصراني، ومن ثَمَّ، كانت تُوجَّه لأعضاء الجماعة اليهودية تهمة قتله ويُقبَض على بعضهم، ويتم تعذيبهم ثم يُشنَق عدد منهم أحياناً.

ويُشير الصهاينة إلى تهمة الدم باعتبارها أكبر دليل على أن عالم الأغيار يرفض اليهود ويفتك بهم، وبالتالي لابد أن يكون لهم وطن قومي. ولكننا لو وضعنا هذه الوقائع في سياقها التاريخي، فإنها ستكتسب دلالة جديدة وسيمكننا فهمها بشكل أعمق.

لقد ظهرت تهمة الدم بعد تحوُّل اليهود في العالم الغربي إلى جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا. وكانوا يُشبَّهون آنذاك بالإسفنجة التي تمتص نقود الطبقات كافة، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يقوم الإمبراطور أو الأمير أو الحاكم باعتصارهم لحسابه بعد ذلك (وهو الأمر الذي لم تكن تدركه هذه الطبقات الشعبية بطبيعة الحال). ومن هنا، كانت الإشارة إلى اليهود (كجماعة وظيفية وسيطة لا كيهود) على أنهم مصاصو دماء، ولم يكن من الصعب على الوجدان الشعبي أن يسقط في الحرفية ويحوِّل المجاز إلى حقيقة واقعة.

وكان توجيه تهمة الدم يعني، في واقع الأمر، شنق بعض اليهود من بينهم عدد كبير من المرابين، حيث كان الربا من أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي. وكان هذا يعني، في كثير من الأحيان، إسقاط الديون، أي أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقة بنك من البنوك على يد عصابة شعبية، وكان شنق اليهود يعني إنجاح العملية، وهي عملية تشبه أيضاً عمليات روبين هود الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء، وهو ما جعل جرائمه تحظى بشعبية كبيرة، بل كانت الجماهير تحيطه بحمايتها.

وكانت الخزانة الملكية نفسها تستفيد أحياناً من تهمة الدم حيث ترث ديون المرابي الذي يُشنَق أو يُطرَد، كما أن النخبة الحاكمة كانت تنتهز مثل هذه الفرصة لتعرض على اليهود تجديد المواثيق الممنوحة لهم التي تضمن حمايتهم وتكفل لهم المزايا نظير مبالغ جديدة يدفعونها.

ويبدو أن تهمة الدم صورة نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي حينما يدرك «الآخر»، وهي عادةً اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم.

وساعد تكرار تصوير الدم والقتل في العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن شعائر اليهود الدينية، خصوصاً شعائر عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها. هذا، مع العلم بأن قوانين الطعام اليهودية تمنع شرب الدم كما تمنع أكل اللحم قبل تصفية الدم منه. ويبدو أن ممارسة الختان والذبح الشرعي غذيا هذه الأوهام، حتى سُمِّي اليهود «أهل السكين».

ولم يكن اليهود يقفون في مجابهة مع كل الأغيار كما يدَّعي الصهاينة، فقد كانت النخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطور والملوك) تدافع عن أعضاء الجماعة ضد هذه التهم التي كان يوجهها إليهم عامة الشعب. فبيَّن البابا إنوسنت الرابع، في مرسوم صدر عام ١٢٤٥، أن التهمة باطلة وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود. ودافع البابا جريجوري العاشر، في مرسوم صدر عام ١٢٧٤، عن اليهود، كما فعل بابوات آخرون الشيء نفسه. وفي عام ١٧٥٨، أصدر

الكاردينال لورنز جانجانللي (البابا كليمنت الرابع عشر فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم. وقد أصدر التحريم نفسه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠)، وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج عام ١٢٧٥. وحاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها، ولكنهم فشلوا في مسعاهم واستمرت تهمة الدم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصورة اليهودي حتى عهد قريب.

أما في حادثة دمشق، فكانت تهمة الدم مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي اللذين كانا يتنافسان على مد نفوذهما عن طريق حماية أعضاء الأقليات الدينية. فكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك والمارونيين الذين وجهوا تهمة الدم. أما الإنجليز، فنظراً لعدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد كبيرة في العالم العربي كانوا يقومون بحماية اليهود! وخصوصاً أن روسيا، وهي بلدهم الأصلي، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، كما أن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط إذ كان مشروعها الاستعماري موجَّهاً إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً جرَّم فيه تهمة الدم.

حادثة دمشق

تُعتبَر حادثة دمشق من أشهر تهم الدم، وقد وقعت عام ١٨٤٠ حين كانت سوريا تحت الحكم المصري. وتكاد هذه الحالة تكون المرة الوحيدة التي وجِّهت فيها تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي. فقد اتهم يهود دمشق بقتل راهب من الفرنسيسكان يُدعَى الأب توماس الكبوشي وخادمه المسلم إبراهيم عمارة لاستخدام دمائهما في أغراض شعائرية وفي صنع خبز عيد الفصح غير المخمر (ماتزوت). وقد أُشيع أن الأب توماس شوهد آخر مرة وهو يهم بدخول حارة اليهود، فتم تفتيش الحي اليهودي بتحريض من الكاثوليك المحليين يتزعمهم القنصل الفرنسي، وقُبض على زعماء اليهود ومات منهم اثنان أثناء التحقيق، وأشهر واحد إسلامه وحُكم على الباقين بالإعدام.

وقد تفاقمت ردود فعل هذه القضية بسبب صراع الأوربيين السياسي للحصول على النفوذ في الشرق الأوسط. ولا يمكن رؤية هذه الحادثة إلا في إطار النشاط التبشيري الاستعماري في فلسطين والشام، الذي كان تعبيراً عن الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى. إذ كانت كل دولة تحمي أعضاء جماعة دينية بعينها، فكان الروس يحمون الأرثوذكس وكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك.

وربما لعدم وجود عدد كبير من البروتستانت، قام الإنجليز «بحماية» اليهود. ومن هنا، يُعَد الصراع بين الكاثوليك المحليين (بزعامة القنصل الفرنسي) واليهود تعبيراً عن الصراع على النفوذ. ومما له دلالته أن احتجاج يهود فرنسا ومناشدتهم حكومتهم لم يأت بنتيجة، في حين أدى احتجاج يهود إنجلترا إلى تحرك بالمرستون ومطالبته محمد علي بأن يعامل اليهود معاملة حسنة (باعتبارهم عنصراً يهدف إلى حمايته)، وأدى تدخُّل أدولف كريميه وموسى مونتفيوري ومقابلتهما محمد علي في الإسكندرية، ثم لقائهما مع السلطان عبد الحميد في إستنبول إلى الإفراج عن المتهمين وإسقاط التهمة عنهم. وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يدين تهمة الدم ويعتبرها قذفاً في حق اليهود.

هجوم أو مذبحة (بوجروم)

«بوجروم» كلمة روسية معناها «تدمير» أو «هجوم» أو «فتك» أو «مذبحة». وعادةً ما تكون هذه المذبحة منظمة لتدمير جماعة أو طبقة معيَّنة. وقد دخلت الكلمة اللغات الأوربية بمنطوقها الروسي، وضاق مجالها الدلالي بحيث أصبحت تشير أساساً إلى الهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية، ولكنها تُستعمل مجازاً للإشارة إلى الهجوم على أعضاء الجماعات والأقليات الأخرى.

وقد عرف التاريخ القديم والوسيط والحديث مثل هذه الهجمات على أعضاء الجماعة اليهودية. ويمكن القول بأن أول بوجروم في التاريخ الإنساني هو هجوم المصريين على أعضاء الجماعة اليهودية (المرتزقة) في جزيرة إلفنتاين. ومن أشهر الهجمات الأخرى، هجمات بعض جيوش الفرنجة على أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب، وهجمات شميلنكي في بولندا في القرن السابع عشر على أعضاء الجماعة اليهودية في أوكرانيا. وتُعدُّ أهم الهجمات في العصر الحديث تلك التي نظمتها العناصر الرجعية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر (خصوصاً جماعة المائة السود) التي يُقال إنها كانت تتم بموافقة النظام القيصري وممالأة وزارة الداخلية. وقد تصاعدت الهجمات قبل صدور قوانين مايو عام ١٨٨١ وبعده، ومن أهمها مذبحة كيشينيف. كما نظَّم النازيون هجوم ليلة الزجاج المحطم (كريستال ناخت) في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨.

وتجب الإشارة إلى أن معظم هذه الهجمات كانت ذات طابع شعبي وتُعبِّر بشكل مشوه وغير مشروع عن تطلعات مشروعة للجماهير التي لم تكن تفهم آليات الاستغلال. فالهجوم على الحامية اليهودية في إلفنتاين هجوم على جماعة وظيفية قتالية موالية لقوة

أجنبية غازية (الفرس). كما أن هجمات الجماهير على اليهود في العصور الوسطى في الغرب كانت هجمات على واحدة من أهم أدوات السلطة في استغلال الجماهير، إذ كان اليهود هم المرابون وجامعو الضرائب. وتميل الأدبيات اليهودية المعاصرة إلى المبالغة في أعداد ضحايا هذه الهجمات، بينما تميل الدراسات الحديثة عن هذه الظاهرة إلى الأخذ بأرقام أقل كثيراً.

لكن الهجمات ليست أمراً مقصوراً على أعضاء الجماعة اليهودية، فمن المعروف أن الهجمات ظاهرة لها أسباب اقتصادية واجتماعية وحضارية تسم علاقة الأغلبية بالأقلية في لحظات التطاحن الاجتماعي وفي أوقات الانتقال والانحلال الاقتصادي والاجتماعي. وتُدبَّر هذه الهجمات ضد مختلف الغرباء، خصوصاً إذا كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة مرتبطة بالنخبة الحاكمة وتقوم على خدمتها. فقد نُظِّمت هجمات ضد المرابين غير اليهود في العصور الوسطى مثل الكوهارسين واللومبارد، وضد الصينيين في جنوب شرق آسيا عبر تاريخهم، وقام الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر بتنظيم هجمات على العمال الإيطاليين المهاجرين. وقد نظم الأفارقة السود المسلمون هجوماً (إبادة) على المسلمين الأفارقة من أصل عربي في موزمبيق في العصر الحديث، ونظم السنغاليون هجمات على الموريتانيين واللبنانيين في الآونة الأخيرة.

وبالمثل، تورَّط أعضاء الجماعات اليهودية في شن هجمات على كتل بشرية أخرى معادية لهم، فقد دبر اليهود مذبحة ضد اليونانيين في الإسكندرية في العصر الهيليني، ورد اليونانيون بدورهم على هذه المذبحة. كما قام الصهاينة العلمانيون في الدولة الصهيونية بحرق معبد يهودي في إسرائيل احتجاجاً على تشدد الدينيين. ويقوم المستوطنون الإسرائيليون بالهجوم على قرى الفلسطينيين وتدبير المذابح ضدهم.

وتتجه الكتابات الصهيونية إلى تصوير الهجمات على أعضاء الجماعات باعتبار أنها أمر فريد يحدث لهم وحدهم، وأنها تعبير عن كُره أزلي لليهود، ونتيجة حتمية لوضع أعضاء الجماعات خارج فلسطين، وهو وضع يتسم - بحسب تصورهم - بخلل بنيوي أساسي. وتُحوِّل الصهيونية هذه الهجمات إلى مصدر أساسي للهوية اليهودية والوعي اليهودي، وتبين في الوقت نفسه أن تاريخ اليهود في المنفى لا قيمة له. وقد حاول المدعي العام الإسرائيلي في قضية أيخمان أن يستدر العطف على الشعب اليهودي بأن تلا قائمة بالهجمات التي دُبرت ضد اليهود عبر تاريخهم ولكن بعد عزلها عن سياقها التاريخي، فما كان من محامي أيخمان إلا أن أثار تساؤلاً مفاده: لمَ يستفز هذا الشعب كل الشعوب الأخرى عبر التاريخ؟ أوَ لا يدعو هذا الوضع إلى طرح احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من مذابح؟

اضطرابات فيتميلخ

أحداث شغب مناهضة لليهود جرت في مدينة فرانكفورت الألمانية في أوائل القرن السابع عشر. واندلعت هذه الأحداث في الفترة التي أعقبت اندلاع حرب الثلاثين عاماً التي نتج عنها تدهور حاد في الأوضاع الاقتصادية والمعيشية في البلاد. حيث وجَّه أفراد الشعب، وخصوصاً نقابات التجار والصناع، سخطهم لأعضاء الجماعة اليهودية في المدينة. فاليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة مرتبطة بالنخبة الحاكمة، خصوصاً الإمبراطور، كانوا محط كراهية مختلف الفئات والطبقات في المجتمع. ومع تأزم الأوضاع الاقتصادية، ازدادت حدة السخط والكراهية. وتزعم فنسنت فيتميلخ زعيم نقابات فرانكفورت الحملة المناهضة لليهود، فقدَّم عام ١٦١٢ التماساً للإمبراطور يتهم فيه برلمان فرانكفورت بالفساد ومحاباة اليهود وطالب بفرض قيود اقتصادية على اليهود وتقليص عددهم في المدينة، ولكن الإمبراطور رفض هذا الالتماس. وفي عام ١٦١٤، دخل بعض مؤيدي فيتميلخ مجلس المدينة وطالبت بفرض قيود صارمة على اليهود من بينها طرد كل اليهود الذين يمتلكون أقل من ١٥٠٠ فلورين فوراً. ورفض الإمبراطور مرة ثانية هذه المطالب، ولكن تم طرد ٦٠ أسرة يهودية فقيرة. وإزاء ذلك، قام فيتميلخ على رأس أنصاره بمهاجمة الجيتو اليهودي وقاموا بنهبه وطرد ١٣٨٠ من اليهود خارج المدينة. وفي أعقاب ذلك، أصدر الإمبراطور أوامره بإلقاء القبض على فيتميلخ. وفي عام ١٦١٦، تم إعدامه مع ستة من أعوانه، وقُطِّعت أجسادهم إلى أربعة أجزاء وعُلِّق رأس فيتميلخ على مسمار ضخم (ليكون عبرة للجميع) كما دُمِّر منزله وسُوِّي بالأرض وطُردت عائلته من المدينة. وسمح الإمبراطور بعودة اليهود المطرودين للمدينة وأمر بدفع تعويض لهم قدره ١٧٦,٩١٩ فلوريناً. وفي أعقاب ذلك، كان أعضاء الجماعة اليهودية يحرصون على الاحتفال سنوياً بيوم عودتهم إلى المدينة وأطلقوا على هذا اليوم اسم «بوريم فنسنت».

وتدل هذه الحادثة على مدى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية كجماعات وظفية ووسيطة بالطبقات الحاكمة والملوك. فالإمبراطور رفض الإذعان لمطالب فيتميلخ ولمطالب الجماهير في فرانكفورت، ثم أنزل أشد العقاب بفيتميلخ وأعوانه. ويعود كل هذا إلى حوسلة

أعضاء الجماعات اليهودية، حيث كانوا عنصراً نافعاً يؤدي وظيفة اقتصادية مهمة، وكانوا أداة في يد الطبقة الحاكمة التي استفادت من خدماتهم التجارية والمالية لتكديس الثروات وتدعيم السلطان واستنزاف الجماهير، ومقابل ذلك كانت الطبقة الحاكمة تزودهم بالحماية والامتيازات التي تؤهلهم للاضطلاع بدورهم الوظيفي بكفاءة عالية.

كيشينيف

«كيشينيف» مدينة روسية في بيساربيا (التي ضُمت إلى روسيا عام ١٨١٢) وأصبحت مركزاً تجاريا وصناعيا مهما، وكانت توجد فيها أقلية يهودية كبيرة وصل عددها عام ١٨٤٧ إلى عشرة آلاف، أي ١٢٪ من مجموع سكان المدينة، ثم إلى ثمانية عشر ألفاً عام ١٨٦٧، أي ٢١٪ من مجموع السكان، وخمسين ألفاً بعد ذلك التاريخ. وكانت أغلبية اليهود في هذه المدينة تعمل بالتجارة وصناعة الملابس والأخشاب والاتجار في المنتجات الزراعية، وهي قطاعات اقتصادية كانت مركزة في أيديهم. ومع هذا، كانت توجد نسبة كبيرة من المتسولين اليهود. وكان سكان كيشينيف من اليهود ينقسمون إلى أغلبية أرثوذكسية ونخبة مثقفة روسية. وقد افتُتحت أول مدرسة يهودية حديثة في روسيا عام ١٨٣٦. وفي عام ١٩٠٣ (يومي ١٩-٢٠ إبريل)، وقع هجوم (بوجروم) ضد أعضاء الجماعة اليهودية، إثر توجيه تهمة دم لبعضهم، قُتل فيها واحد وأربعون (٣٢ رجلا - ٦ نساء - ٣ أطفال) وجُرح خمسة وتسعون ودُمر سبعمائة وخمسة وخمسون منزلاً، ونُهب ستمائة محلا، وحدثت بعض حالات اغتصاب. ويُقال إن الشرطة القيصرية لم تتدخل لحماية أعضاء الجماعة اليهودية.

ويتواتر ذكر هذه الحادثة في الكتابات الصهيونية، وتُصوَّر كما لو كانت جزءاً من مؤامرة الأغيار ضد اليهود. ولكن قارئ التاريخ الروسي يعرف أن القمع والإرهاب القيصريين كانا موجهين ضد مختلف الأقليات الدينية والعرْقية في روسيا، بل ضد الجماهير الروسية التي كان الحرس القيصري يطلق عليها النار بدون رحمة أو هوادة (كما حدث في مظاهرة الأب جابون التي وقعت في الفترة نفسها عام ١٩٠٥). ورغم تباكي الصهاينة على ما حدث، فإن الواقعة حدثت في عهد وزير الداخلية الروسي فون بليفيه الذي تفاوض معه الزعيم الصهيوني هرتزل (في العام نفسه الذي شهد وقوع الحادثة) للحصول على تأييد روسيا للمشروع الصهيوني. ولذا، يُلاحَظ أن المؤتمرات الصهيونية التي عُقدت آنذاك لم تذكر الحادث من قريب أو بعيد، ولم تحتج عليها، بل لزمت الصمت الكامل تجاهها حتى تضمن التأييد الروسي. ولا تزال هناك أقلية يهودية كبيرة نسبيا في كيشينيف في الوقت الحاضر يبلغ عددها اثنين وأربعين ألفاً.

حادثة دريفوس

«حادثة دريفوس» يُشار إليها أيضاً بعبارة «واقعة دريفوس»، وبطلها ألفريد دريفوس (١٨٥٦ - ١٩٣٥) الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين، واليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي. وُلد في مقاطعة الألزاس باسم «مولهاوزن» لأسرة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي. ونظراً لأن اسمه ألماني الطابع، فقد غيَّره إلى اسمه الذي اشتهر به. اتُهم دريفوس بسرقة وثائق سرية عسكرية بمساعدة الماسونيين، وتسليمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس، فوُجِّهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا عام ١٨٩٤. وقامت السلطات العسكرية بمحاكمته، وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث وعبأت الرأي العام ضده، الأمر الذي خلق جوا غير ملائم لضمان حياد المحاكمة. وفي نهاية الأمر، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة، وجُرِّد من رتبته علناً أمام الجماهير، ونُفي إلى جزيرة الشيطان (ديفلز أيلاند) التي تقع على الساحل الأفريقي (وكانت مستعمرة فرنسية). ورحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم.

ويُقال إن واقعة دريفوس تركت أثراً عميقاً في تيودور هرتزل لدرجة أنه اكتشف عبث محاولة الاندماج، فتبنَّى بدلاً من ذلك الحل الصهيوني. ولكن هذه الفكرة في حد ذاتها عملية تبسيط فجة للعوامل التي أدَّت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلا للمسألة اليهودية. والحقيقة التي لا توردها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مقتنعاً في بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنباً وخائناً، ولا أحد يدري ما الذي جعله يغيِّر رأيه فيما بعد، ولكن هذا ليس موضوعنا الأساسي. وقد يكون من الأجدى وضع واقعة دريفوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني.

ابتداءً، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية لأسباب وجيهة. فالقوات الفرنسية نفسها كانت تجند كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل كجواسيس لحسابها. ولذا، ساد الاعتقاد بأن ألمانيا أيضاً كانت تقوم بالشيء نفسه، وهو أمر متوقع. والجدير بالذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوربي لأعضاء الجماعات اليهودية، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية. ففي

القرن السابع عشر، لعب أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا دوراً أساسيا في عملية التجسس بين الدول. كما حاول أوليفر كرومويل أن يخطب ود أعضاء الجماعات اليهودية ويوطنهم في إنجلترا حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويُلاحَظ أن هذه الفترة شهدت كساداً اقتصاديا في أوربا، الأمر الذي أدَّى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوربية. وكان عدد العمال الإيطاليين عام ١٨٧٢ نحو ١١٢ ألفاً، فأصبح ٣٠٠ ألف عام ١٨٩٠، وجاء معهم قرويون (من القرى الفرنسية) يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون والأفيرنيان. كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصطبغوا بعد بالصبغة الفرنسية. ووصلت أعداد كبيرة كذلك من يهود شرق أوربا الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية). وأدَّى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب. كما أن تزايُد يهود شرق أوربا ويهود الألزاس واللورين، على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي، أدَّى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب. ومن المعروف أن العناصر الأجنبية عادةً ما تتعرض في فترات الكساد الاقتصادي للهجوم من قبل أعضاء الأغلبية المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنهم سبب الأزمة. كما أن العامل الأجنبي يرضى بأجر أقل ومستوى معيشي أكثر انخفاضاً، الأمر الذي يثير الحقد عليه.

وعلاوة على هذا، كان الجو العام في فرنسا آنذاك متوتراً، خصوصاً إزاء أعضاء الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد بروسيا عام ١٨٧٠. وكانت العناصر الليبرالية التي تضم نسبة عالية من أعضاء الجماعة اليهودية تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما كان المد العلماني آخذاً في التزايد وفي الإصرار على فصل الدين عن الدولة. هذا إلى جانب أن الثورة الصناعية اقتلعت الكثيرين من جذورهم وأدَّت إلى إفقارهم وقذفتهم في المدن الكبرى (مثل باريس). وكان هؤلاء المُقتلَعون يشعرون بانعدام الأمان في المجتمع الجديد (بعلمانيته وثوريته وقيمه التجارية) وكان اليهود يوجدون في مركزه. وإلى جانب كل ذلك، كان هناك أيضاً عدد كبير من اليهود بين قيادة كومونة باريس في عام ١٨٧١. وأدَّى هذا كله إلى ربط الجماعة اليهودية بالعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية في المجتمع. ولكن من المفارقات التي تستحق التأمل أن أعضاء الجماعات اليهودية ارتبطوا في الوقت نفسه في الوجدان الأوربي، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث، بالمصالح المالية الكبيرة، والبنوك والشبكات المالية والتجارية، وهي صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال.

وهكذا، أصبح اليهودي رمزاً متبلوراً لكثير من العناصر محط شك الجماهير وكرهها، فهو الأجنبي البغيض، وهو الثوري العلماني التقدمي الذي يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر، وهو أيضاً رجل المال الذي لا يكترث بأية قيم سوى الربح، ولا يرتبط بأي أرض سوى السوق. وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره ألزاسيا وأجنبيا وعضواً في طبقة المموِّلين الأثرياء.

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التي كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرْقية وتطرح صورة للمجتمع المبني على التضامن المسيحي والتكافل الاجتماعي والتعاون الاقتصادي (جماينشافت)، تلك الصورة التي تقف على الطرف النقيض من المجتمع الصناعي الجديد المبني على التنافس والتفاؤل، الذي يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح والأقوى وحسب (جيسيلشافت). وقد انضمت أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية المتركزون في العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التي أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة. فاليهودي كان رمزاً مهما بلا شك للقوى الجديدة، ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة بل كان جزءاً من كل، فهو جزءٌ من القوى الاجتماعية المتصارعة في المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر التي كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها. وقد حوَّلت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة للصراع فيما بينها.

ففي عام ١٨٩٦، اكتشف جورج بيكار رئيس مخابرات الجيش الفرنسي، بطل واقعة دريفوس الحقيقي، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور إسترهازي الذي لعب دوراً مهما في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس. وحاول بيكار إقناع المسئولين بإعادة المحاكمة، ولكنه أُمر بالتزام الصمت ونُقل إلى تونس بسبب ذلك.

وقد شُنت حملة إعلامية مكثفة قادها المفكر الفرنسي اليهودي برنارد لازار للمطالبة بإعادة النظر في القضية حيث كتب عدة مقالات دافع فيها بحماسة عن دريفوس، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية لاقتناعه ببراءته. وتحت إلحاح

الموقف المتفجر وإصرار بيكار، قُبض على الميجور إسترهازي وحوكم ذرا للرماد في العيون ولكن سرعان ما بُرئ لعدم كفاية الأدلة. فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إني أتهم» هاجم فيها المحاكمتين، وكانت النتيجة أن اتُهم زولا بالقذف العلني وحكم عليه بالسجن ففر إلى إنجلترا.

وفجأة، برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية، فقد انتحر الكولونيل هيوبرت جوزيف هنري أثناء استجوابه ، وهو شاهد الإثبات الأول في القضية، بعد أن اعترف بتزويره الوثائق التي أدّت إلى إدانة دريفوس. وعندما علم إسترهازي بحادث الانتحار اعترف بجريمته وفر إلى إنجلترا. وفي صيف عام ١٨٩٩، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس على ضوء الأحداث التي استجدت. وتحت ضغط بعض الشخصيات من ذوي النفوذ في الجيش، أُعلن مرة أخرى أنه مذنب. وفي هذه المرة حُكم عليه، مع مراعاة الظروف المخففة، بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمساً منها في المنفى. وبعد عدة أيام أمر الرئيس الفرنسي إميل لوبيه بالعفو عنه. وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين عنه على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة، وذلك لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص. غير أن ألفريد دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية، فكان كل ما يتمناه وتتمناه عائلته الثرية المندمجة هو الإفراج عنه سواء عن طريق العفو أو التبرئة، ولهذا، قبل قرار العفو. أما بيكار، فأصبح بطلاً قوميا ورقاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريجادير جنرال، وعُيِّن فيما بعد وزيراً للحرب.

ثم فتحت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، عام ١٩٠٣ بضغط من القوى العلمانية والثورية وصدر الحكم بتبرئته، وأُعيدت له حقوقه السابقة، وعُيِّن في هيئة الأركان مرة أخرى بوظيفة ميجور ومنح نوط الشرف، ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة. وقد عُيِّن أثناء الحرب العالمية الأولى قائداً لأحد قطاعات باريس برتبة كولونيل. ثم اعتزل الحياة العامة تماماً بعد ذلك وعاش في منزله بقية حياته غير مدرك للدلالات التاريخية والسياسية للواقعة التي ارتبطت باسمه (حسبما أخبرني أحد أفراد أسرتي الذي قابله في منزله عام ١٩٣٤ حيث كان صديقاً لابنه).

وقد عمقت هذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدي وخصوم النظام الجمهوري في فرنسا، وأدَّت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية، كما كانت وراء القانون الذي صدر عام ١٩٠٥ بفصل بقايا الدين عن الدولة.

المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية

يميل العقل الإنساني، إن لم يجد نموذجاً تفسيريا ملائماً لواقعة ما، إلى ردها إلى يد أو أياد خفية تُنسَب إليها التغييرات والأحداث كافة. فالأحداث - حسب هذا المنظور - ليست نتيجة تفاعل بين مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة وإرادة إنسانية من جهة أخرى، وإنما هي نتاج عقل واحد وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه، وهو ما يعني أن بقية البشر إن هم إلا أدوات. ومن أهم تجليات هذا النموذج الاختزالي ما يُقال له «المؤامرة اليهودية الكبرى» أو «المؤامرة اليهودية العالمية» التي تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية يكوِّنون كلا واحداً متكاملاً متجانساً، وأن لهم طبيعة واحدة.

ويتسم اليهود (حسب نموذج المؤامرة الكبرى) بالشر والمكر والرغبة في التدمير (فهذه أمور وُجدت في عقولهم بالفطرة وهي بُعد أساسي وثابت في طبيعتهم)، وسلوكهم تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي الذي يخطط ويدبر منذ بداية التاريخ، وقد وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة، وذلك بهدف السيطرة على العالم (وربما لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشليم القدس). والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة، واليهود من ثَمَّ هم المسئولون في كل الأزمنة والأمكنة عن كل الشرور والمنكرات. فهم، على سبيل المثال، الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية)، وهم الذين وضعوا السم للرسول عليه الصلاة والسلام، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبأ (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام، وهم الذين قاموا بدس الإسرائيليات دسا على الدين الحنيف، بل يُنسَب إليهم ذبح الأطفال واستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح.

وفي العصر الحديث يرى التآمريون أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعلنية (وغير المعروفة والخفية) في العالم الغربي والعربي، بل في كل أرجاء العالم. فهم وراء المحافل الماسونية التي أسسوها أداة لمؤامراتهم، وهم وراء البهائية التي تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد، وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها، والبلشفية بكل إرهابها، والإباحية بكل تدميرها، وهم يسيطرون على رأس المال العالمي والحركة الشيوعية ويتحكمون في الصحافة ووسائل الإعلام. وهم الذين ضغطوا على الإمبراطورية الإنجليزية وجعلوها تُصدر وعد بلفور. وهم الذين أسقطوا الدولة

العثمانية من خلال يهود الدونمه وهم الذين يحركون الآن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكي ويجندون الصوت اليهودي، وذلك حتى يُسخِّروا الولايات المتحدة ويُرغموها، بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة، على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم. وهم على اتصال بعالم الجريمة للمساعدة في إفساد العالم. والصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي، وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وهيمنتها على العالم، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية الذي يتبدَّى في الغزو الصهيوني لفلسطين، وضرب المفاعل الذري العراقي وغزو لبنان وقمع الانتفاضة والهجرة اليهودية السوفيتية إلى فلسطين والسوق الشرق أوسطية... إلخ. ومن أهم إفرازات هذا التصور الاختزالي الوثيقة المسماة **بروتوكولات حكماء صهيون**.

وساعد على نشر التصورات التآمرية عن اليهود، شعائرهم الدينية المركبة التي لا يستطيع كثير من الناس فهمها. كما ساهمت النزعة الحلولية الانعزالية في الدين اليهودي، والتصورات اليهودية الخاصة بالشعب المختار، والمركزية الكونية والتاريخية التي يضفيها اليهود على أنفسهم، في تعميق شكوك غير اليهود فيهم. ومما لا شك فيه أن وجود اليهود، بوصفهم جماعات وظيفية متفرقة، داخل عديد من المجتمعات الغربية، تنتظمها شبكة من العلاقات التجارية الوثيقة التي تحقق من خلالها قدراً كبيراً من النجاح التجاري والمالي عمَّق الرؤية التآمرية لليهود. وهذه الشبكة بلغت قمة تماسكها وقوتها في القرن السابع عشر حين كانت تنتظم يهود الأرندا في شرق أوربا، ويهود البلاط في وسطها وغربها، ويهود السفارد في البحر الأبيض والدولة العثمانية وشبه جزيرة أيبيريا والعالم الجديد، وخلق هذا الوجود الإحساس بالتنسيق فيما بينهم. ومع ضعف المجتمعات الغربية وبنائها القيمي، بسبب انتشار قيم النفعية والعلمانية، ومع تركُّز اليهود في كثير من الحركات العلمانية والفوضوية، تعمَّق الإحساس بأن ثمة مؤامرة يهودية تهدف إلى السيطرة على العالم كما تهدف إلى إفساده.

والباحث المدقق سيكتشف أن الرؤية الاختزالية التآمرية لليهود لا تختلف في أساسياتها مطلقاً عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود. فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية واحدية اختزالية ساذجة، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم في التاريخ إذ تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم. فبدلاً من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً يتحرك داخل تاريخه اليهودي الخاص بمعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها. وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلا من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودي عبر التاريخ» و«الشخصية اليهودية في كل العصور» و«العبقرية أو الجريمة اليهودية في كل زمان ومكان» وهكذا.

ويُقدِّم كلا الفريقين تصوُّراً لليهود باعتبارهم كيانات بسيطة دوافعها وغاياتها بسيطة. فأعضاء الشعب اليهودي هذا، حسب رؤية التآمريين والصهاينة، لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم، فهم أينما وُجدوا يحنون لصهيون ويدينون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية بالولاء، ومن ثَمَّ فاليهودي عادةً يعاني ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار في وطنه، ونتيجةً لهذا يصبح شخصية مريضة لا تخضع للقوانين الإنسانية العامة، يقاوم الاندماج في الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم.

والخلاف بين التآمريين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات الحل وحسب، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كليا وشاملاً، فكلا الفريقين يطرح حلا بسيطاً لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة "خروج" اليهود من أوطانهم. ولكن بينما يرى التآمريون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تُشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة، بحيث لا يوجد أي مبرر للعنف. ومع هذا، لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم، كما حدث عام ١٩٥١، حينما ألقى عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمُّع أعضاء الجماعة اليهودية في العراق حتى يضطروهم للهجرة منها إلى الدولة الصهيونية الناشئة، وكما يحدث الآن حينما تضغط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة لتغلق أبوابها أمام اليهود السوفييت حتى يضطروا إلى الهجرة إلى إسرائيل.

وفكرة المؤامرة أكذوبة تلائم معظم الأطراف المشتركة في الصراع الإسرائيلي، فإسرائيل تستفيد كثيراً من هذا الفكر التآمري لأنه يضفي عليها من القوة ما ليس لها، ومن الرهبة ما لا تستحق، وهو في نهاية الأمر يجعلها تكسب معارك لم تدخلها قط.

كما أن الحكومات الأمريكية المختلفة تفسر للزعماء العرب عجزها عن مساعدة الحق العربي بتعاظم النفوذ الصهيوني في

الكونجرس. أما الحكومات العربية، فإنها تُفسِّر تخاذلها وهزيمتها أمام العدو الصهيوني على أساس الأسطورة المريحة نفسها. وبالتالي، يجد كل من أطراف الصراع تفسيراً يبدو معقولاً ومقبولاً لوضعه أمام نفسه وأمام جماهيره.

اليهود كشياطين

من الصور الأساسية المتواترة في أدبيات معاداة اليهود تصويرهم على أنهم شياطين، فالشر لصيق بطبيعتهم، فهم يخربون أي مجتمع يعيشون في كنفه، ويحيكون المؤامرات عبر التاريخ للقضاء على الجنس البشري (ربما مثل إبليس منذ أن خرج من الجنة). وهذا هو المفهوم الكامن وراء **بروتوكولات حكماء صهيون** ووراء فكرة المؤامرة اليهودية العالمية. وهذه الفكرة تفترض وحدة اليهود عبر التاريخ وأنهم يمتلكون قوة سحرية (تماماً مثل الشيطان)، ولذا فهم لا يُقهرون أو لا يمكن قهرهم إلا باللجوء للحلول السحرية، إذ لا يهزم السحر إلا السحر، كما لا يمكن هزيمة الشياطين بالجهد البشري العادي، جهاداً كان أو اجتهاداً.

والإيمان بأن اليهود وحدة صلبة متماسكة لا تُقهر، أو بأن إلحاق الهزيمة بهم في حكم المستحيل، فكرة تروج لها الدعاية الصهيونية الواعية (والدعاية المعادية لليهود غير الواعية). وتظهر في شعارات مثل «جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يُقهر». وفكرة اليهود كشياطين هي مقلوب فكرة اليهود ككتلة صلبة لا تُكسر، وكلاهما يدور في إطار الحلولية الكمونية الواحدية. فكما أن الفكر الحلولي (الصهيوني) يجعل اليهود موضعاً للحلول الإلهي (باعتبارهم الشعب المختار صاحب الحقوق المطلقة)، فإن مفهوم اليهود كشياطين يجعلهم موضع الشر الكوني الذي لا يتحول، فالأول يجعلهم شعباً مقدَّساً يتجاوز الخير والشر، والثاني يجعلهم شعباً شيطانيا يتجاوز الخير والشر أيضاً. وهذه الفكرة لها امتدادها في التراث المسيحي الذي يجعل اليهودي مركزاً للدراما المسيحية الكونية التي تدور حول صلب المسيح وقيامه ويلعب فيها اليهودي دور قاتل الرب الذي يقف بعد ذلك، في ضعته وتدنيه، شاهداً على انتصار الكنيسة وعظمتها. وقد وجدت هذه الفكرة طريقها إلى العالم الإسلامي وحلَّت محل فكرة الفطرة الخيرة التي يولد الإنسان بها.

وإضفاء صفة الإنسانية على أعضاء الجماعات اليهودية (بدلاً من الشيطانية) يعني إمكانية دراستهم وفهمهم والتمييز بين الخيِّر والشرير فيهم، وبين العدو والصديق، وفي نهاية الأمر طرح إمكانية الجهاد ضد من يعادينا ويغتصب أرضنا منهم وإلحاق الهزيمة به.

بروتوكولات حكماء صهيون

«بروتوكول» كلمة إنجليزية تعني «اتفاقية»، و **بروتوكولات حكماء صهيون** وثيقة يُقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا، أي في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول. بل يزعم البعض أن تيودور هرتزل تلاها على المؤتمر، وأنها نوقشت فيه، بل تذهب بعض الآراء إلى تأكيد أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون هذه، وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين) لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس. وتقع **البروتوكولات** البالغ عددها أربعة وعشرين **بروتوكولاً** في نحو مائة وعشر صفحات، ونشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو مواطن روسي ادعى أنه تسلَّم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة (مدام ك) ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا. لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرأة أخذتها من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسا، وأن الأخير سرقها من أرشيف المحفل الماسوني. وقد كانت لنيلوس اهتمامات صوفية متطرفة، كما كان غارقاً في الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية.

وقد لاقت **البروتوكولات** رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التي أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهودية»، إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعية التي اجتاحت كثيراً من البلدان الأوربية إلى اليهود. وانتقلت **البروتوكولات** إلى غرب أوربا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس. وبلغت قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة نجلاء من الخلف قام بها اليهود المشتركون في المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية. وأصبحت **البروتوكولات** من أكثر الكتب رواجاً في العالم الغربي بعد الإنجيل، وتُرجمت إلى معظم لغات العالم وضمنها العربية حيث ظهرت عدة طبعات منها. وحازت **البروتوكولات** اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف وبالإعلام حيث أشاروا إليها باستحسان كبير، وكأنها وثيقة ذات شأن كبير. ولحسن الحظ، لا يوجد مركز دراسات عربي واحد أعارها أي اهتمام، ولا يتم نشرها إلا من خلال دور نشر تجارية.

والرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة **البروتوكولات** دراسة علمية متعمقة أنها وثيقة مزورة، استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان **حوار في الجحيم بين ماكيافللي ومونتسكيو، أو السياسة في القرن التاسع عشر**، نُشر في بروكسل عام ١٨٦٤، فتحوَّل الحوار إلى مؤتمر وتحول الفيلسوف إلى حكماء صهيون. وقد اكتُشفت أوجه الشبه بين الكتيب و**البروتوكولات** حيث تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور، وأحياناً تعبيرات مجازية وصوراً منه. والرأي السائد الآن أن نشر **البروتوكولات** وإشاعتها إنما تم بإيعاز من الشرطة السياسية الروسية للنيل من الحركات الثورية والليبرالية ومن أجل زيادة التفاف الشعب حول القيصر والأرستقراطية والكنيسة بتخويفهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية.

وقد قمنا بدراسة سريعة لعناصر خطاب **البروتوكولات** (الأسلوب والمفردات والصور. . . إلخ)، فوجدنا أن هناك من الدلائل ما يدعم وجهة النظر القائلة بأنها وثيقة مزيفة:

١ ـ يُلاحَظ أن **البروتوكولات** وثيقة روسية بالدرجة الأولى والأخيرة:

أ) فكاتب الوثيقة لا يعرف شيئاً عن المصطلح الديني اليهودي ولا يستخدم أية كلمات عبرية أو يديشية. وهناك إشارتان للإله الهندي فشنو، وإشارة واحدة لأسرة داود. وبطبيعة الحال، يمكن إثارة القضية التالية: إذا كانت **البروتوكولات** وثيقة سرية، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية أو الآرامية أو اليديشية ليضمنوا عدم تَسرُّبها؟ ومما يجدر ذكره أن كثيراً من يهود روسيا آنذاك كانوا يتحدثون اليديشية ولا يعرفون الروسية. وكان حزب البوند، أكبر الأحزاب العمالية في أوربا يدافع عن حقوق العمال من أعضاء الجماعة اليهودية ويُطالب بالاعتراف باليديشية باعتبارها لغتهم القومية (باعتبارهم أحد «شعوب» الإمبراطورية الروسية).

ب) الموضوعات الأساسية المتواترة في **البروتوكولات** موضوعات روسية، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق وعما يُسمَّى «الأرستقراطية الطبيعية الوراثية»، وهجوم شرس على الليبرالية والاشتراكية، وهو ما يبيِّن أن اهتمامات الكاتب روسية تماماً وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية في السنين الأخيرة من حكم النظام القيصري.

جـ) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكية واليسوعية، وهو ما يدل على أثر التربة المسيحية الأرثوذكسية السلافية التي كانت تناصب الكاثوليكية العداء.

د) ثمة هجوم شرس على الماسونية، التي كانت آنذاك جزءاً لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية.

هـ) هناك هجوم شديد على دزرائيلي، الذي كان شخصية مكروهة تماماً من النخبة الحاكمة في روسيا لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل حاجزاً منيعاً ضد توسُّع الإمبراطورية الروسية.

٢ ـ كما أن نبرة **البروتوكولات** ساذجة جدا، فمن الواضح أن كاتبها الذي زيفها، لا يجيد التزييف، فقد حاول أن يبيِّن الخطر العالمي لليهود. وحتى يعطي وثيقته درجة من المصداقية، جعل حكماء صهيون (لا أحد سواهم) يتحدثون عن الخطر اليهودي، حتى يبدو الأمر كله وكأنه "شهد شاهد من أهلها"، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء في عملية تزييفه هذه:

أ) ففي الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ينطق حكيم صهيون الأول بالكلمات التالية: "يجب أن يُلاحَظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطبائع النبيلة". وهذه ملحوظة تبين الشر المتأصل في صاحبها. ولكن السؤال البدهي الذي يطرح نفسه هو: لماذا يصر كبير حكماء صهيون على نقل هذه الآراء لحكماء صهيون؟ أليس كل الحاضرين من الأشرار الذين لا توجد شبهة في شرهم؟ والسذاجة نفسها تتبدَّى في الملاحظة التي ترد بعد عدة صفحات حيث يقول كبير الحكماء: "إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا (ونحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خيِّر وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد!" ومرة أخرى لماذا يكلف كبير الحكماء نفسه بتذكير الحاضرين من الحاخامات بمثل هذه البدهيات المتداولة بين الأشرار في كل زمان ومكان؟ أم أنه لاحَظ بعض علامات الخير بينهم فأراد أن يحذرهم منها؟

ب) يحاول واضع **البروتوكولات** أن يضخِّم اليهود وقوتهم ليخيف الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم في البروتوكول الثاني كل شر فيقول: "نجاح داروين وماركس ونيتشة رتبناه من قبل". ولكنه ينسى نفسه بعد قليل وتتبدل النبرة إذ يبدأ اليهود في توجيه الاتهامات لأنفسهم في البروتوكول الثاني نفسه: "من خلال الصحافة اكتسبنا نقودنا، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدَّسنا الذهب، ولو أن ذلك سبَّب أنهاراً من الدم". وهذه في الواقع عريضة اتهام موجهة للذات؛ فلماذا يكلف كبير الحكماء خاطره ليقدمها لبقية أعضاء المجتمع الذين يعرفون ذلك مسبقاً؟ ولماذا يُصر على أن يُخبرهم في البروتوكول الثالث إن "أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدماً من فشل إلى فشل، حتى إنهم سوف يتبرأون منا" فمن

يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم من "فشل إلى فشل"، ويصر على أن هذه الحركة ستودي بهم؟ ثم يضيف في البروتوكول التاسع: "إن لنا طموحاً لا يُحدّ، وشرهاً لا يُشبع، ونقمة لا تَرحم، وبغضاء لا تُحس. إننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وإننا نُسخّر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب". ثم يتطوع بتأكيد ما يلي: "لقد خدعنا الجيل الناشيء من الأمميين، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ". ومن الواضح أن التزييف لم يبق منه سوى صيغة المتكلم الجمع، أما الباقي فهو اتهامات موجهة بالتآمر لليهود، ينسبها كاتبها لهم حتى تبدو كما لو كانت صادقة.

ويمكننا الآن أن نعرض للأفكار الأساسية في **البروتوكولات** التي تؤكد أن السياسة لا تخضع للأخلاق، وأن اليهود سينفذون مخططهم الإرهابي عن طريق الغش والخداع. فعلى مستوى المجتمع، سيقومون بتقويض دعائم الأسرة وصلات القرابة، وإشاعة الإباحية، واستغلال الحريات العامة، وتخريب المؤسسات المسيحية، وإفساد أخلاق العالم المسيحي الأوربي. أما على مستوى الدولة، فإنهم سيسعون إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تندلع الحروب، على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية، ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم. وينبغي التركيز على المنافسة في المجتمع، وعلى تصعيد الصراع الطبقي، ليجري الجميع نحو الذهب الذي لابد أن اليهود سيحتكرونه، وتُصاب المؤسسات الدينية والسياسية بالاهتراء ويسود رأس المال كل شيء.

وتهتم **البروتوكولات** في المراحل الأولى من المخطَّط بأن يسيطر اليهود على الصحافة ودور النشر وسائر وسائل الإعلام، حتى لا يتسرب إلى الرأي العام العالمي إلا ما يريدونه. كما أنها ترى ضرورة أن يسيطر اليهود على الدول الاستعمارية وأن يسخروها حسب أهوائهم. كما أنهم سيسيطرون أيضاً، بطبيعة الحال، على الدول الاشتراكية المعادية للاستعمار. و**البروتوكولات** تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء: عن الخير والشر، والثورة والثورة المضادة، والاشتراكية والرأسمالية. فالبروتوكول السادس، مثلاً، يقول: "كي نخرب [أي نحن اليهود] صناعة الأغيار سنزيد أجور العمال [اتجاهات اشتراكية] ونعرِّض الصناعة للخراب والعمال للفوضى [اتجاهات فوضوية]".

ومن الواضح أن **البروتوكولات** ليست نقداً لليهود بمقدار ما هي تعبير عن إحساس الإنسان الأوربي في أواخر القرن التاسع عشر بأزمته، و بقدر ما هي تعبير عن إدراكه السطحي المباشر لها بعد تزايد معدلات العلمنة في الغرب وبعد تفكك المجتمع التقليدي الذي كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة، حتى وإن سلبه حريته وفرصه في الحراك الاقتصادي. فالمجتمع الذي يحاول اليهود فرضه على العالم، حسبما جاء في **البروتوكولات**، ليس عالماً شريراً بشكل شيطاني ميتافيزيقي، وإنما هو في الواقع العالم الغربي الصناعي الذي سادت فيه قيم العلمانية والنفعية، ومن هنا كان الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية باعتبارهما نظامين يبشر بهما اليهود، كما كان الجمع بين نيتشه وماركس باعتبارهما فيلسوفين يبشر اليهود بفكرهما. فرغم الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين، والاختلاف بين الفيلسوفين، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو التلاقي) هو تأسيس مجتمع علماني يستند إلى قيمتي المنفعة واللذة لا إلى القيم الدينية الأخلاقية المطلقة.

وقد وُجد أعضاء الجماعات اليهودية في مختلف القطاعات والاتجاهات، شأنهم في ذلك شأن أعضاء أية أقلية أخرى، فكانت توجد أعداد كبيرة من كبار المموِّلين الرأسماليين اليهود، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة والربا، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل الرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وعن أكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً. بل نجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية غير الصهيونية كما حدث في جنوب أفريقيا (في صناعة التعدين)، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية، أو في شركة قناة بنما. كما تركَّز أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء (قوادين وعاهرات) ونشر المجلات والمطبوعات الإباحية. وقد ربط هذا بين اليهودي من جهة وكلٍّ من «اليمين» و«التحلُّل الرأسمالي» و«التفكُّك الليبرالي» من جهة أخرى.

ولكن، إلى جانب ذلك، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً: فقد كان حزب البوند اليهودي من أكبر الأحزاب الاشتراكية في أوربا. وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات الثورية، حتى أن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسيا القيصرية كانوا من الشباب اليهودي. وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩، كان رئيس الدولة يهوديا، وكان عدد اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدهشة، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي. كما كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي. وفي نهاية الأمر، كان كل من روتشيلد رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية، وماركس رمزاً للارتباط العضوي أيضاً بين

اليهود والاشتراكية. ولذا، كان من الممكن تفسير كل شيء بالرجوع إلى مقولة «يد اليهود الخفية».

والفكرة الأساسية في **البروتوكولات** هي فكرة الحكومة اليهودية العالمية. لكن المعروف تاريخياً أنه لم تكن هناك سلطة مركزية تجمع سائر يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد نبختنصر عام ٥٨٦ ق.م، وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودي في العالم حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومي، وقد كان لكل أقلية محاكمها وهيئاتها الخاصة التي تقوم برعاية شئونها. ولكن اليهود لا يختلفون في هذا عن أية أقلية دينية أو جماعة وظيفية أخرى.

وهنا، يمكن أن نثير قضية مهمة هي قضية الوسائل: هل للجماعات اليهودية في العالم من القوة ما يمكنها من تنفيذ هذا المخطط الإرهابي العالمي الضخم؟ إن مَنْ يدرس تواريخ الجماعات اليهودية يعرف أنها كانت دائماً قريبة من النخبة الحاكمة لا بسبب سطوتها أو سلطانها وإنما بسبب كونها أداة في يد النُخب ولأنها لم تكن قط قوة مستقلة أو صاحبة قرار مستقل.

والإشارة إلى **البروتوكولات** واستخدامها في الإعلام المضاد للصهيونية أمر غير أخلاقي لأنها وثيقة مزوَّرة، ولا توجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة. ولكن، حتى لو كانت **البروتوكولات** وثيقة صحيحة، فإن من يستخدمها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأي العام الغربي الذي لا يؤمن بصحتها. كما لا يمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً حقيقيا عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، أو أنهم يأخذون بها كوثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم. وبسبب سمعتها الشائنة، فإن الصهاينة يصفون أي نقد موجَّه إليهم بأنه وقوع في أحابيل **البروتوكولات**. ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء الجماعات اليهودية تحتوي على آراء أكثر تآمرية من **البروتوكولات** مثل ما يُسمَّى كتاب **التربية** الذي يوزع في إسرائيل في الوقت الحالي. كما يحوي التلمود وتراث القبَّالاه (وهي كتابات يهودية لا شك فيها) مقطوعات عنصرية إلى أقصى درجة، ولكن يبدو أن مروِّجي **البروتوكولات** لا يعرفون عنها شيئاً، وهي على كلٍّ كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهودية بدورهم شيئاً، ولا يتداولها في الغالب إلا بعض العنصريين الموجودين في كل المجتمعات وبين أتباع كل العقائد.

وثمة رأي يذهب إلى أن الصهاينة يقومون بترويج هذه **البروتوكولات** لأنها تخدم المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتهجير والتوطين في فلسطين المحتلة. كما أن كثيراً من الافتراضات الكامنة في **البروتوكولات**، مثل «الشعب اليهودي» و«الشخصية اليهودية» و«المصالح اليهودية»، هي جميعاً افتراضات صهيونية أساسية والهجوم عليها هو في واقع الأمر تسليم غير مباشر بوجودها.

وسواء كان هذا الرأي الأخير صحيحاً أم كاذباً، فإن ترويج **البروتوكولات** يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العملية. ويتم الآن، في العالم العربي، تداول كم هائل من الكتابات (مثل **أحجار على رقعة الشطرنج** وغيرها) كل هدفها إشاعة الخوف من اليهود والصهيونية بتبنِّي رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجائبية. ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة في الترويج لهذه **البروتوكولات** لتبرير العجز العربي والتخاذل أمام العدو الصهيوني. وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية أن اليهود بشر وأن إلحاق الأذى بهم وهزيمتهم أمر ممكن، وأنهم قد يهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة ثم يفرون كالدجاج حينما يدركون مدى قوته وإصراره. والاستمرار في إشاعة الرؤية البروتوكولية نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيوني، وعلى التنكر لإنجازات الانتفاضة.

والمسلم الملتزم بتعاليم دينه لا يمكن أن يوجه الاتهام إلى أي إنسان جزافاً ودون قرائن، كما لا يمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد باعتباره تجسداً لفكرة، إذ يظل كل إنسان مسئولاً عن أفعاله. وقد عرَّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات، خصوصاً أهل الكتاب، فحدَّد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهي حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها. وفي الواقع، فإن استخدام **البروتوكولات** لاتهام اليهود فيه سقوط في العنصرية والعرْقية التي تصنف الناس لا على أساس أفعالهم وإنما على أساس مادي لاديني (علماني) مسبق وحتمي. ولذا، فهي لا تميِّز بين ما هو خير وما هو شر.

اليهودي الدولي

شهدت أوائل العشرينيات في الولايات المتحدة نشر عدة كتب معادية لليهود من بينها **بروتوكولات حكماء صهيون** وكتيب **سبب عدم الاستقرار في العالم** الذي سبق نشره على هيئة سلسلة مقالات في جريدة **المورننج بوست** اللندنية. وقد نشرت مجلة **الديربورن إند بندانت** (١٩٢٠)، التي كان يمتلكها هنري فورد صاحب مصنع السيارات الشهير، بعض هذه الأدبيات وغيرها في سلسلة مقالات بعنوان "اليهودي الدولي". وبدأ نشر المقالات ابتداءً من ٢٢ مايو

١٩٢٢ واستمر لمدة سبع سنوات ثم نُشرت المقالات بعد ذلك على هيئة كتيبات. واتهمت هذه المقالات اليهود بأنهم يحاولون هدم أسس الحياة الأمريكية وأنهم وراء مؤامرة عالمية لتحطيم المسيحية والهيمنة على العالم وأن الثورة البلشفية ما هي إلا تعبير عن هذه الثورة المستمرة.

والكتاب، مثله مثل كثير من أدبيات معاداة اليهود في الغرب، يرى اليهودي ممثلاً للثوري المتطرف والثري فاحش الثراء (البلشفي-الصيرفي، تروتسكي-روتشيلد)، وهو في نهاية الأمر خليط من شيلوك وعدو المسيح وقاتل الإله واليهودي التائه.

وهذه الدعاية العنصرية وجدت قبولاً واسعاً في الأوساط القروية الريفية وفي المدن الصغيرة وبين بعض أعضاء النخبة الحاكمة. ولكن غالبية أعضاء النخبة والجهاز السياسي في المدن كانوا يعارضونها إذ أدركوا أن المهاجرين اليهود بدأوا يتخلون عن رؤيتهم وعقائدهم وهويتهم ويندمجون في المجتمع الأمريكي ويتأمركون أسرع من غيرهم، ولذلك، نُظِّمت حملة مضادة اضطر هنري فورد بعدها للاعتذار عن الحملة التي شنها، وذلك من خلال لويس مارشال رئيس اللجنة الأمريكية اليهودية.

١٨ـ معاداة اليهود والتحيز لهم

معاداة اليهود (والتعاطف مع الصهيونية) كإمكانية/إشكالية كامنة في الحضارة الغربية منذ العصور الوسطى

يُلاحظ الدارس أن كلا من ظاهرة معاداة اليهود والصهيونية (وهما وجهان لعملة واحدة) متجذرتان في الحضارة الغربية. وهذا يعود إلى عدة أسباب تراكبت معاً، ويمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ـ سيطر على الحضارة الغربية منذ نشأتها نموذج عضوي في التفكير، ومثل هذه النماذج عادةً ما تفضل التجانس على عدم التجانس، بمعنى خضوع الظواهر الإنسانية جميعاً لقانون واحد حتمي على عدم الاتساق، والواحدية على التعددية، ومن ثَمَّ يكون وضع الأقليات قلقاً وغير مستقر، باعتبارها عنصراً من عناصر عدم التجانس.

٢ـ تعود جذور الحضارة الغربية إلى المدن/ الدول اليونانية، وهي تشكيلات حضارية صغيرة تتسم بالتجانس الشديد ولا يوجد فيها مكان للغريب، وهو ما دعم هذه الرؤية العضوية، على عكس الحضارات الشرقية التي نشأت في أحضان التشكيلات الإمبراطورية الضخمة فكان عليها أن تتعامل مع عشرات الشعوب والأقليات العِرْقية والدينية.

وحينما نشأت الإمبراطورية الرومانية وبسطت نفوذها على الشرق والغرب، فلم تستطع هزيمة التشكيلات الحضارية الشرقية المحلية (الأرمن-الأقباط-الثقافة الآرامية) بينما قضت على كثير من اللغات والتشكيلات الحضارية في القارة الأوربية وفرضت الثقافة اللاتينية، أي أنها قضت على التنوع الحضاري في القارة الأوربية.

٣ـ طرح الإسلام من البداية مفاهيم أخلاقية ومقولات قانونية للتعامل مع الأقليات الدينية والعِرْقية (وهو في هذا متسق إلى حدٍّ كبير مع التقاليد الحضارية في الشرق الأوسط في كثير من مراحله التاريخية)، بينما فشلت المسيحية الغربية في تطوير أية مقولات بشأن الأقليات، حيث لا يصلح مفهوم المحبة (المسيحي) لتنظيم العلاقة بين الأقلية والأغلبية. وفي الوقت نفسه، ظهر مفهوم الشعب الشاهد (الكاثوليكي) والعقيدة الاسترجاعية (البروتستانتية) وهي مفاهيم تتسم بالإبهام الشديد، فهي من ناحية تضع اليهود في مركز الكون باعتبارهم شعباً مقدَّساً، حَمَلة الكتاب المقدَّس، ويتوقف خلاص الكون على استرجاعهم، ولكنهم أيضاً هم قتلة الإله، وهم كذلك في شتاتهم وضعَتهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة. كما أن خلاص الكون يتوقف على تنصيرهم. وورثت المسيحية الغربية العرف الألماني حيث طُبِّق قانون الصيد على اليهود، وهو قانون يجعل الغريب ملكاً للملك ومن ثَمَّ أصبح اليهود ملكية للملك، وكذلك كتلة بشَرية تتعاقد مع الحكومة وليسوا أهل ذمة، فكانوا يوقعون المواثيق التي تمنحهم الحماية والمزايا نظير خدمات يؤدونها أو ضرائب أو مبالغ مالية يدفعونها.

٤ـ تحولت الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تقف على هامش المجتمع دون أن تصبح من صميمه. وحينما بدأت عملية علمنة الفكر والحضارة الغربية، تمت مناقشة المسألة اليهودية في ضوء مفهوم نفع اليهود، وهو أمر منطقي تماماً إذ أن الجماعة الوظيفية هي جماعة يستند بقاؤها إلى مدى نفعها.

٥ـ ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم الشعب العضوي المنبوذ الذي يشكل إطار كل من العداء العرْقي لليهود والتحيز الصهيوني لهم.

٦ـ ظل اليهود خارج التشكيل الرأسمالي كرأسمالية منبوذة. كما أن الفكر الاشتراكي، كان ينظر إليهم باعتبارهم عناصر تجارية طفيلية مستغلة.

٧ـ ارتبط اليهود بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني وجرى النظر إليهم باعتبارهم مادة استيطانية نافعة.

٨ـ شكلت كل هذه العناصر الإطار الذي تطورت من خلاله الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. ومما له دلالته أن صهيونية غير اليهود تسبق صهيونية اليهود بعشرات السنين، فالصهيونية ظاهرة لصيقة بالحضارة الغربية ويقع عقد بلفور في هذا الإطار حيث تقرِّر إخراج اليهود من التشكيل السياسي الغربي، لأنه لا يطيق وجودهم داخله كعنصر غريب، وتقرَّر نقلهم إلى أي مكان خارج أوربا كعنصر نافع، على أن تقوم أوربا (التي طردتهم) بحمايتهم ودعمهم وضمان بقائهم واستمرارهم وتوظيفهم لصالحها داخل إطار الدولة الوظيفية التي تتحرك في الفلك الغربي. فالدولة الصهيونية هي في نهاية الأمر تَحقُّق هذه الإمكانية الكامنة في الحضارة الغربية: العداء العرْقي لليهود والتحيز الصهيوني لهم. وقد استبطنت المادة البشرية اليهودية المُستهدَفة هذه الصيغة فهودتها.

شيلوك

شخصية رئيسية في مسرحية **تاجر البندقية** لوليم شكسبير، وهو يهودي يعمل بالربا. والكلمة أصبحت جزءاً من المعجم الإنجليزي وتعني «الرجل الطماع الشره الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه». ولا يُعرَف على وجه الدقة أصل هذا الاسم، فهو ليس اسماً يهوديا، ولذا تضاربت النظريات بشأنه، فيُقال إنه مأخوذ من كلمة «شيلوه»، ويُقال أيضاً إنه مأخوذ من كلمة «شالح» وهي شخصية يرد اسمها في سفر التكوين (١١/ ١٤-١٥).

ويمكن تفسير شخصية شيلوك على المستويات التالية:

١ـ التفسير التاريخي: من المعروف أنه لم يكن يوجد يهود في إنجلترا زمن كتابة المسرحية (في أواخر القرن السادس عشر الميلادي ـ حوالي ١٥٩٧) إلا بعض يهود المارانو الذين كانوا يقيمون هناك. ويُقال إن رودريجيز لوبيز، طبيب الملكة إليزابيث، الذي اتُّهم بالتآمر ضدها ثم أُعدم، هو النموذج الذي استخدمه شكسبير (وكان عدو رودريجيز لوبيز هو دوم أنطونيو، ومن هنا نجد أن أنطونيو أهم شخصية في المسرحية وعدو شيلوك اللدود). ولكن المؤرخ الأمريكي اليهودي سيسل روث يذهب إلى أن شيلوك يهودي إشكنازي من البندقية. وكانت البندقية تضم في ذلك الوقت ثلاثة أنواع من اليهود كان يُشار إليهم باسم «الأمم الثلاث»: سفارد الشام والمارانو والإشكناز. وكان مصرحاً للسفارد والمارانو بالعمل في التجارة المحلية والدولية وكانوا يمتلكون السفن التجارية ويتاجرون مع الشام. أما الإشكناز، فكان ممنوعاً عليهم الاتجار، بل لم يكن مسموحاً لهم إلا بالعمل بالربا وبيع الملابس القديمة (وهي وظيفة مرتبطة تماماً بالربا).

٢ـ التفسير الطبقي: يذهب بعض النقاد إلى أن أعضاء الأرستقراطية الإنجليزية الزراعية (الإقطاعيون)، وكثيرون منهم كانوا يرتادون مسرح جلوب الذي كانت تُعرَض فيه مسرحيات شكسبير، بدأوا يشعرون بآثار الثورة التجارية وبنمو اقتصاد المدن والتضخم الذي صاحب ذلك، الأمر الذي زاد نفقاتهم، ولكن لم تكن لديهم الكفاءات اللازمة للاستثمار التجاري باستثناء أقلية صغيرة منهم. ولهذا، بدأت ديونهم تزداد أكثر فأكثر. وفي الوقت نفسه، بدأت القيم التجارية التعاقدية تسود المجتمع وتحل محل قيم الشرف والكرم والأبهة التي كان يؤمن بها هؤلاء الإقطاعيون. ويُجسِّد أنطونيو في المسرحية المذكورة الأخلاقيات الأرستقراطية، فهو كريم يقرض أمواله بدون فوائد، يعيش حياة مسرفة ولكنه ليس تاجراً بمعنى الكلمة لأنه غير مشغول بتراكم رأس المال. وهكذا، فإن أنطونيو يقف على الطرف النقيض من شيلوك عضو الجماعة الوظيفية المالية الذي لايدين بالوفاء إلا لقيمة التراكم ولا يدين بالولاء إلا للمال. ويعرِّف شيلوك الخير تعريفاً نفعيا ماديا حينما يشير إلى أن أنطونيو لديه من الممتلكات ما يسمح له برد الدين، فكأن حكمه عليه حكم مالي إجرائي ينزع عنه أية قداسة وينظر إليه بشكل موضوعي كمي غير تراحمي. ومقابل العلاقة الحميمة وكلمة الشرف التي يؤمن بها الأرستقراطيون، هناك العلاقات الموضوعية التعاقدية التي تؤمن بها الطبقة التجارية الجديدة ويدافع عنها شيلوك في المسرحية.

٣ـ التفسير الديني الاقتصادي: وهناك بُعد ديني اقتصادي يتمثل في ظهور جماعات البيوريتان البروتستانت من عناصر البورجوازية الجديدة النشطة المؤمنة بتعاليم كالفن، التي حوّلت الزهد المسيحي في الدنيا من أجل الآخرة إلى زهد داخل الدنيا من أجل تراكم رأس المال، علامةً على الخلاص في الآخرة. ولذلك، كان هؤلاء يكرهون الملذات والإنفاق وارتياد المسرح والمسرات. ويجيء شيلوك، في هذه المسرحية، رمزاً لهذه القطاعات المتزمتة الملتزمة بالتراكم وحسب التي تنكر العلاقات الإنسانية وخلاص الروح حتى تحقق تزايد الثروة. ولم يكن شكسبير مخطئاً على الإطلاق، فبعد فترة وجيزة استولى هؤلاء على الحكم في ثورة كرومويل وأغلقوا المسارح كليةً. وكان من المألوف آنذاك أن يتم الربط بين غلاة البروتستانت واليهود.

٤ـ التفسير اللاهوتي: هناك بُعد ديني خالص، فالعهد الجديد

أشاع صورة سلبية جدا عن الفريسيين (وهي فرقة دينية يهودية ظهرت أيام المسيح)، وفي هذه المسرحية ارتبطت هذه الصورة باليهود بصورة واضحة تماماً. ويمثل شيلوك الفريسي بالدرجة الأولى، فهو يحترم حرفية القانون لا روحه، وهو بلا عاطفة، كما أنه يجيد استخدام الكتاب المقدَّس لتبرير أفعاله (وهي تهمة وجهها المسيح إلى الفريسيين). وأخيراً، ارتبط الفريسيون في الوجدان المسيحي بأنهم المحرضون الحقيقيون على صلب المسيح. ومن هنا، فإن شيلوك يُماثل الفريسيين، حين يطالب برطل اللحم، أما أنطونيو فهو كالمسيح إذ يمثل حَمَل الإله الذي سيُقدَّم للذبح.

بل إن العلاقة بين شيلوك وأنطونيو هي مثل العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد كما يرى المسيحيون. فاليهودية تمثل لاهوت العدل دون رحمة، ومن ثَمَّ أصبح التعاقد والميثاق مسائل مركزية في العقيدة اليهودية. ولكن العدل دون رحمة، حسب رأي المسيحيين، لن يؤدي إلى خلاص. ولهذا، فإن المسيحية هي لاهوت الرحمة التي لا يستطيع الإنسان بدونها أن يصل إلى الخلاص. والمسيحية ترى أن العهد الجديد أكمل العهد القديم بل ربما حل محله ونسخه، وأصبحت الرحمة لا العدل هي الهدف. وقد أنكر اليهود المسيح واستمروا حبيسي العهد القديم ولاهوت العدل والقانون والتعاقد، ولكنهم يذوقون في نهاية الأمر أشد ألوان العذاب ويعانون في الدنيا، وبذلك فإنهم يقفون شاهداً على عظمة المسيحية والكنيسة. ومن هنا، فإن شيلوك يجسد العنصر اليهودي كما يجسد التعاقدية ولاهوت العدل، في حين يقف أنطونيو ممثلاً للمسيحية والرحمة ولاهوت المحبة.

ومع هذا، يُعطي شكسبير الفرصة لشيلوك ليُحاكم المسيحيين من منظور لاهوت الرحمة، هذا الذي يدَّعون إيمانهم به، فيُذكِّرهم بما كانوا يلحقونه به من أذى. كما يعطيه الفرصة للحديث عن الجوانب الإيجابية في فكرة التعاقد ولاهوت العدالة، فالإيمان بالتعاقد وبالعدل هو أيضاً إيمان بأن النفس البشرية ليست منزهة عن الهوى، وأن الأمور لو تُركَت للمحبة وحسب، لاختلط الحابل بالنابل لتحولت القيم الأخلاقية، ذات البُعد الاجتماعي، إلى تجارب نفسية شعورية. ويمكن القول بأن شكسبير يقترح علينا نموذجاً يجمع بين القانون والرحمة وبين العدالة والمحبة وبين التعاقد والتراحم وبين الذات والموضوع وبين الفرد والمجتمع.

٥ ـ الجماعة الوظيفية: اختلف النقاد في تفسير موقف شكسبير من شخصية شيلوك: هل يتعاطف معه جدا أم يرفضه تماماً؟ وهل شيلوك شيطان رجيم يجب أن نفرح لسقوطه، أم أنه ضحية المجتمع المسيحي المستغل؟ وربما أمكن حسم هذه القضية بالتركيز على هوية شيلوك كعضو في جماعة وظيفية أوكل لها المجتمع الاضطلاع بوظيفة الربا الذي يؤدي إلى دمار أعضاء المجتمع، أي أنه أداة دمار. ولكن عضو الجماعة الوظيفية لم يختر وظيفته، فوظيفته قدره ومصيره الذي اختير له. ومن ثَمَّ، فإن ما يقوله شيلوك عن نفسه باعتباره إنساناً أُهدرت إنسانيته أمر حقيقي، كما أن ما يُقال من أنه أداة استغلال صماء لا تدخل في علاقة إنسانية مع البشر وتحاول هدمهم هو أيضاً أمر حقيقي. وهذه الصورة المزدوجة التي يتحدث عنها بعض النقاد هي، في واقع الأمر، ازدواجية تُعبِّر عن علاقة أعضاء الجماعة الوظيفية بأنفسهم وبالمجتمع، فهم بشر في علاقتهم بأنفسهم وهكذا يرون أنفسهم، وهم أدوات في علاقتهم بالمجتمع وهكذا يراهم المجتمع. والواقع أن شكسبير، وكُتَّابا آخرين من بعده، حاولوا أن يتعاملوا مع هذه العلاقة في تركيبيتها الصلبة وثنائيتها الحادة.

وشيلوك شخصية فنية تأتي ضمن سلسلة طويلة من الشخصيات الفنية رسمها الفنان الغربي لليهود قبل **تاجر البندقية** وبعده (فاليهودي جزء لا يتجزأ من الخطاب الغربي في مشوار اكتشافه لذاته وتحديدها). ومن أهم الشخصيات الفنية الأخرى شخصية باراباس في مسرحية مارلو **يهودي مالطة** (وهو شيطان صرف لا يتسم بازدواجية شيلوك). وهناك شخصية اليهودي في رواية وولتر سكوت **إيفانهو**، وشخصية فاجين في قصة ديكنز **أوليفرتويست**، وشخصية **دانيل ديروندا** في رواية جورج إليوت التي تحمل هذا الاسم، والشخصيات اليهودية المختلفة في روايات دزرائيلي.

وتوجد إشارات مختلفة في الشعر الإنجليزي، عن اليهود، منذ القرن التاسع عشر، على وجه الخصوص. ويُقال إن الشخصية الأساسية في قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج هي أساساً اليهودي التائه. ويتراوح الموقف من اليهود في الأدب الإنجليزي (وفي الآداب الغربية عامة) بين الكره الشديد والحب العميق، بين النبذ والتقديس، وكلاهما موقف يستند إلى فكرة الشعب العضوي المنبوذ حيث تتم رؤية أعضاء الجماعات اليهودية لا باعتبارهم بشراً، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإنما باعتبارهم كياناً عضويا متماسكاً غير منتمٍ للمجتمع ومن ثَمَّ لابد من طرده.

وتوجد الظاهرة نفسها في الأدب الأمريكي. ولعل من أهم الكُتَّاب الأمريكيين المعادين لليهود الشاعر عزرا باوند الذي وصل في بعض كتاباته إلى رؤية اليهود كشياطين مسئولين عن كل شرور العالم.

معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية

يُستخدَم مُصطلَح «معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية» للإشارة إلى بعض اليهود الذين يستخدمون مقولات تراث معاداة اليهود في الغرب ويطبقون الصور الإدراكية النمطية السلبية على اليهود. ويبدو أن بعض أعضاء الجماعات اليهودية اكتسحهم تيار الاستنارة والاندماج وسلبهم ذاتهم تماماً بحيث أصبحوا يدركون العالم من خلال هذه الرؤية العنصرية. وقد انتشرت هذه الظاهرة بين اليهود المندمجين في ألمانيا، ويهود الولايات المتحدة من ذوي الأصل الألماني، وكان يهود الغرب المندمجون يدركون يهود اليديشية من خلال مقولات معاداة اليهود، ومن هنا قاموا بصك مُصطلَحات عنصرية مثل «كايك وشيني».

ويبدو أن الظاهرة تتبدَّى بشكل متطرف أحياناً، فهناك نظرية تذهب إلى أن فيلهلم مار الذي صك مُصطلَح «معاداة السامية» من أصل يهودي، بل يُقال إن هتلر نفسه كان طفلاً غير شرعي لأب يهودي. ومن المؤكد أنه كانت تجري في عروق أيخمان دماء يهودية. ويمكن القول بأن الصهيونية تعبير مركب عن الظاهرة نفسها، فهي تَصدُر عن رفض يهود المنفى، أي يهود العالم كافة حتى تاريخ قريب. كما أن الصهيونية تطالب بتصفية الجماعات اليهودية خارج فلسطين. وهي تقبل أيضاً المقولات الأساسية لمعاداة اليهود وأنماطها الإدراكية لليهود واليهودية. وتستند الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة إلى رؤية تنم عن عدم احترام لأعضاء الجماعات اليهودية. ويُلاحَظ أن الأجيال الجديدة في إسرائيل لا تكن احتراماً كبيراً لنمط «اليهودي» (أي يهودي المنفى) ويرى أعضاء هذه الأجيال أنفسهم باعتبارهم عبرانيين أو إسرائيليين، وربما كان هذا تعبيراً آخر عن معاداة اليهود لليهود.

العداء العربي لليهود واليهودية

تحاول الأدبيات الصهيونية في الآونة الأخيرة أن تبيِّن أن ظاهرة العداء لليهود واليهودية ظاهرة متأصلة في المجتمعات العربية وفي التراث الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية. وهذه المحاولة جزء من المحاولة الصهيونية المستمرة لتشويه صورة العرب والمسلمين. إلا أنها تعبِّر أيضاً عن رغبة الصهاينة الدفينة في تناسي تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب، وتراث العداء لليهود واليهودية الثري الطويل الممتد، الذي انتهى بطردهم وإعادة توطينهم في فلسطين في إطار المشروع الصهيوني.

وقضية عداء العرب لليهود واليهودية (عداء العرب للسامية) مسألة مركبة متعددة الأبعاد، تختلف عن معاداة اليهود واليهودية في الغرب. فتاريخياً تحوَّلت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي إلى جماعات وظيفية، ولكنهم لم يكونوا الأقلية الوحيدة التي تضطلع بهذا الدور. فالعالم الإسلامي، على عكس الغرب المسيحي، يضم جماعات دينية وإثنية كثيرة. كما أن النشاط التجاري، والنشاطات المالية والوسيطة على وجه العموم، لم تكن مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية دون غيرهم.

ورغم أن اليهود (وبني إسرائيل) أتى ذكرهم في القرآن عشرات المرات وتحت مسميات مختلفة في سياقات معظمها سلبي، إلا أن رؤية الخلاص الإسلامية لم تعط اليهود أية مركزية خاصة، ولذا لم يكن اليهود يمثلون إشكالية خاصة بالنسبة للفقه الإسلامي. وظهرت بعض الأعمال الأدبية والفكرية داخل التشكيل الحضاري العربي والإسلامي تحاول اختزال أعضاء الجماعات اليهودية من خلال صور إدراكية نمطية سلبية، إلا أن اليهود لم يحتلوا أي مركزية خاصة في الوجدان الأدبي والثقافي العربي والإسلامي. واستقر وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة العربية والإسلامية في إطار مفهوم أهل الذمة الذي حدد حقوقهم وواجباتهم. ومن ثَمَّ لم يعرفوا المذابح أو عمليات الطرد المتكررة التي تسم علاقتهم بالحضارة الغربية في بعض الفترات. ولا يعني هذا أن تجربة يهود العالم الإسلامي مع المجتمعات الإسلامية التي ينتمون إليها كانت خالية من التدافع أو الصراع والظلم (الذي يتنافى مع تعاليم الإسلام ومفهوم أهل الذمة) وأنها كانت عصراً ذهبياً ممتداً، فهذا ليس من طبائع البشر ولا من طبيعة المجتمعات البشرية. كل ما نود تأكيده أن أعضاء الجماعات اليهودية تمتعوا بقدر معقول من الاستقرار والطمأنينة، الأمر الذي أدَّى إلى اندماجهم في مجتمعاتهم.

ولكن الوضع تغيَّر بشكل حاد في العصر الحديث، فيُلاحَظ انشغال عربي وإسلامي كبير بالشأن اليهودي (وإن كان يُلاحَظ أن الأعمال الأدبية العربية، وضمنها الفلسطينية لا تكترث بأعضاء الجماعات اليهودية). وبدأت تظهر أدبيات كثيرة كتبها عرب ومسلمون تدور في إطار مفاهيم ومقولات عنصرية (معظمها مستورد من العالم الغربي). ومن بين هذه المقولات أن اليهود مسئولون عن كل أشرار العالم، كما هو مدوَّن في **بروتوكولات حكماء صهيون** (التي يقرؤها الكثيرون)، وفي التلمود (الذي لم يقرأه أحد). وبدأ الحديث عن المؤامرة التي يحيكها اليهود ضد المسلمين والعرب، وارتبط اليهود بالشيطان وبالصور الإدراكية النمطية الاختزالية السلبية في عقل كثير من العرب والمسلمين.

وبدأت تظهر في الصحف والمجلات وعلى أغلفة الكتب صورة اليهودي ذي الأنف المعقوف الذي تقطر أظافره دماً ويمتص دماء الآخرين وأموالهم. بل بدأت تظهر تهمة الدم في أرجاء متفرقة، وهو أمر لم يكن معروفاً في العالم الإسلامي من قبل. وتُرجمت **البروتوكولات** التي يعتقد البعض أنها من كتب اليهود المقدَّسة، كما نُشرت مقتطفات متفرقة من التلمود. بل بدأ بعض المسلمين يرون أن «اليهودية» صفة بيولوجية تورَّث، أي أن اليهودي - حسب هذه الرؤية - من وُلد لأم يهودية، وهو تعريف قد يتفق مع العقيدة اليهودية ولكنه لا يتفق ألبتة مع العقيدة الإسلامية التي لا تنظر للدين باعتباره أمراً يورَّث، وإنما رؤية يؤمن بها من شاء.

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أنه كلما ازداد الرعب من إسرائيل و "اليهود" ازدادت صورة اليهودي سوءاً، وازداد النموذج التفسيري التآمري الذي ينسب لليهود قوى عجائبية انتشاراً، وهو نموذج يصوِّر اليهود باعتبارهم قوة أخطبوطية لا تُقهَر، فهم يمسكون بكل الخيوط ويُحركون كل القوى (الرأسمالية والاشتراكية) حتى ينفذوا مخططهم اليهودي الجهنمي المستقل، وما اللوبي الصهيوني سوى تعبير جزئي عن مخطط صهيوني أشمل.

وهذه النظرة العنصرية الاختزالية تشكل فشلاً أخلاقيا، فهي لا تحاول أن تميز بين الخبيث والطيب، وتضع اليهود، كل اليهود، في سلة واحدة وضمن ذلك على سبيل المثال أعضاء جماعة الناطوري كارتا الذين يقضون معظم أيامهم في الحرب ضد الصهيونية، بمثابرة وإخلاص ودأب نفتقدهم في كثير من العرب هذه الأيام! والرؤية العنصرية حتمية ترى أن من وُلد يهوديا لابد أن يسلك حسب نمط معيَّن وكأن الإله لم يمنحه فطرة سليمة ومقدرة على تمييز الخير من الشر.

والنظرة العنصرية الاختزالية، تشكل كذلك فشلاً معرفيا لأن الخريطة الإدراكية التي ستفرزها مثل هذه الرؤية ستكون عامة رمادية كالحة سطحية واحدية لا تساعد كثيراً في فَهْم الواقع. فهي على سبيل المثال لن تساعدنا كثيراً في معرفة توجُّهات أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة بكل نتوئها وتموجاتها فنحن في حاجة لأن نعرف مَنْ منهم يساند الصهيونية ومَنْ يعارضها، ومَنْ منهم يجاهر بمناصرتها علناً ويبذل قصارى جهده في التملص منها، ومَنْ منهم ناصرها في الماضي، وتنكَّر لها في الحاضر، ومَنْ منهم تنكَّر لها في الماضي وبدأ يناصرها في الحاضر، ومَنْ منهم توجد لديه إمكانية كامنة لقبولها أو رَفْضها أو التملص منها، ومَنْ منهم تجب محاربته ومَنْ منهم يمكن تجنيده ومَنْ منهم يمكن تحييده، فالرؤية التآمرية العرْقية ترى أن كل يهودي صهيوني وكل صهيوني يهودي، وهي بهذا تتبنَّى الرؤية الصهيونية لليهود، التي تضع اليهود، كل اليهود، في سلة واحدة، هي سلة الشعب اليهودي.

وللرؤية العنصرية في نهاية الأمر مردود سلبي من الناحية النفسية، فهي تنسب لليهود قوة هائلة، الأمر الذي يُولِّد الرعب في نفوس العرب (ولنتخيل صانع القرار العربي الذي يعتقد أن "اليهود" قادرون على كل شيء وأنهم ممسكون بكل الخيوط!).

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن هذه الرؤية العنصرية تُترجم نفسها إلى كُره أعمى يُطالب بملاحقة اليهود والانتقام منهم وطردهم من أوطانهم والتضييق عليهم. وما ينساه حملة مثل هؤلاء الرؤية أن المواطن اليهودي الذي يتم التضييق عليه وطرده من وطنه يضطر للهجرة إلى فلسطين ليصبح مستوطناً صهيونيا يحمل السلاح ضدنا، فكأن العداء العربي لليهود له مردود صهيوني. ومن المعروف أن الحركة الصهيونية قامت بالتضييق على يهود العراق وخلقت وضعاً صهيونيا بنيويا اضطرهم للاستيطان في فلسطين.

ويحاول بعض العرب رد تهمة العنصرية باللجوء لاعتذاريات أقل ما توصف به أنها مضحكة، وجميعها له طابع قانوني وكأننا نقدِّم مرافعة قانونية شكلية، ليس لها سند في الواقع المتعيِّن. فمثلاً هناك من يقول: "كيف يمكن أن نكون لا ساميين ونحن أنفسنا ساميون؟" وهي حجة واهية مردود عليها، فالإجابة عن هذا السؤال البلاغي الأحمق هي بالإيجاب: "نعم يمكن أن يكون الإنسان ساميا ومعادياً للسامية"، وهناك شواهد كثيرة على ذلك. فيمكن أن يكون الإنسان عربيا ومعادياً للعرب، وظاهرة العداء اليهودي لليهود واليهودية ظاهرة معروفة للدارسين. وهناك حجة أخرى لا تقل تهافتاً عنها وهي أننا لا يمكن أن نكون "معادين للسامية" لأن اليهود ليسوا ساميين فهم من نسل قبائل الخزر التي تهوَّدت، والخزر عنصر تركي غير سامي. والرد على هذا أن عبارة «العداء للسامية» تعني في واقع الأمر «العداء لليهود واليهودية»، فسواء كان اليهود ساميين أم لا، تظل القضية مطروحة. وهناك بطبيعة الحال من يشيرون إلى عصر اليهود الذهبي في الحضارة الإسلامية خصوصاً في الأندلس ويستنتجون من هذا العداء أننا بالتالي لسنا معادين لليهود واليهودية باعتبار أنه إذا كان الماضي كذلك، فلابد أن يكون الحاضر كذلك. وهذه مغالطة، فلا يوجد استمرار عضوي بين الحاضر والماضي، ويمكن أن يكون إنسان عنصريا في مرحلة من حياته ويتخلى عن عنصريته في مرحلة لاحقة، والعكس بالعكس. ويسري هذا على تواريخ الشعوب. ومما يجدر ذكره أن كل مراكز البحوث العلمية في

العالم العربي والمجلات العلمية المسئولة لا تسقط، إلا فيما ندر وبدون وعي، في هذا الخطاب العنصري، فمعظم هذه المراكز تتناول الشأن اليهودي للظاهرة الصهيونية بطريقة علمية، تحاول تفسيرها وفهمها ولا تختبئ، بطريقة جنينية اختزالية طفولية، وراء منطق المؤامرة.

ورغم رفضنا المبدئي للخطاب الاختزالي الواحدي العنصري، ورغم إدراكنا لسلبياته من الناحية الأخلاقية والمعرفية والنفسية، إلا أننا يجب أن نفهم سر ذيوعه وانتشاره وهيمنته على بعض الكُتّاب الشعبيين (في الصحف والمجلات) وبعض أعضاء النخب العربية السياسية والثقافية.

١ ـ حينما ظهر «اليهودي» في العصر الحديث على شاشة الوعي العربي والإسلامي ظهر داخل التشكيل الإمبريالي الغربي، وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له. وقامت هذه الإمبريالية بغرسه غرساً وسطنا داخل إطار الدولة الوظيفية ليقوم على خدمة مصالحها بعد أن اقتطعت جزءاً من الوطن العربي الإسلامي، يقع في وسطه تماماً ومن ثَمَّ يقسمه قسمين، وهي منطقة لها دلالة دينية خاصة، إذ تضم القدس والمسجد الأقصى.

٢ ـ قامت الإمبريالية الغربية بتحويل يهود البلاد العربية إلى عنصر وظيفي استيطاني يدين لها بالولاء. وشهدت الجماهير العربية أعضاء الجماعات اليهودية وهم ينسلخون تدريجياً من التشكيل الحضاري العربي والإسلامي. فعلى سبيل المثال أصبح كل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين، واستفاد يهود مصر من الامتيازات الأجنبية وحصلت نسبة كبيرة منهم على الجنسيات الأجنبية. ودعَّم هذا صورة اليهودي كأجنبي وغريب ومغتصب ومتآمر وعميل، وشخص لا انتماء له يبحث عن مصلحته اليهودية.

٣ ـ من المُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يوجدون بشكل واضح في الحركات الشيوعية العربية (شأنهم في هذا شأن أعضاء الأقليات في كثير من المجتمعات). كما لوحظ أن عدداً كبيراً من الرأسماليين ممن راكموا ثروات ضخمة هم أيضاً من أعضاء الجماعات اليهودية. ولعل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في كل من الحركات الشيوعية والطبقة الرأسمالية قد دعَّم صورة اليهودي اللامنتمي أو المنتمي لمصالحه اليهودية، ودعَّم فكرة المؤامرة اليهودية.

٤ ـ من الأمور التي رسَّخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي، الدعم الغربي للتجمُّع الصهيوني بغير تحفُّظ أو شروط أو حدود أو قيود. وهو دعم سياسي واقتصادي وعسكري. وكثير من العرب يفترضون أن العالم الغربي عالم عقلاني، تُتخذ فيه القرارات بشكل رشيد يخدم مصالح الدولة، وأنه عالم ديمقراطي تنتشر فيه مُثُل العدل والمساواة وحقوق الإنسان، ولذا حين يقوم الغرب العلماني العقلاني الديمقراطي بتأييد ودعم مشروع غير عقلاني، غير ديمقراطي يرفع شعارات دينية وعلمانية تتسم بالتعصب القومي الشديدة ويتسم بضيق الأفق وينكر على الفلسطينيين أبسط حقوقهم، فإن هذا أمر غير مفهوم ولا يمكن تفسيره بطريقة عقلانية. واهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضى عليها ما يزيد على خمسين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم والتعبير عن الندم عما بَدَر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد ذاته (فهو في نهاية الأمر تعويض لفئة من ضحايا الحضارة الغربية) إلا أن هذه الظاهرة المحمودة في حد ذاتها تثير الشك حين يلاحظ المواطن العربي والمسلم أن سلسلة كاملة من المذابح قد ارتكبت منذ الخمسينيات حتى منتصف التسعينيات (الجزائر ـ فيتنام ـ البوسنة ـ الشيشان) معظمها في العالم الإسلامي وتم التزام الصمت تجاهها ولم يتحدث أحد عن تعويض أو اعتذار أو توبة أو ندم! هذا في الوقت الذي تستمر الآلة الإعلامية الغربية في التركيز على الهولوكوست دون غيرها. كما أن الزعم الغربي بأن فلسطين في الشرق العربي قدِّمت لليهود تعويضاً لهم عما حدث لهم في ألمانيا، في العالم الغربي، هو أمر يصعُب فهمه.

كل هذه الظواهر تثير التساؤلات في نفوس الناس، وبما أنهم لا وقت عندهم للبحث والاستقصاء، لذا تظهر الإجابات الاختزالية السهلة، وصيغة المؤامرة اليهودية صيغة تملك مقدرة هائلة على سد الهوة التي تفصل عقلانية الرؤية الغربية عن لاعقلانية الممارسة الغربية. وما لم يخطر ببال هؤلاء أن عقلانية الغرب ودفاعه عن حقوق الإنسان ليسا مطلقين وأنهما لا ينصرفان لحقوق الإنسان العربي أو المسلم على سبيل المثال. وأن العقلانية تدور في إطار المصالح الإستراتيجية الغربية، التي تم تحديدها بطريقة ليست بالضرورة عقلانية وإنما من خلال مقولات قَبْلية متمركزة حول الغرب، معظمها عنصري.

٥ ـ قامت الدولة الصهيونية باعتبارها تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي فعليه أن يلجأ إلى الحد الأقصى من العنف ليتخلص من السكان الأصليين، وضمن ذلك الإبادة والطرد والعزل. وقد سمت هذه الدولة نفسها «الدولة اليهودية» فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب.

والأسوأ من هذا أن هذه الدولة ادَّعت أنها تتحدث باسم كل

يهود العالم أينما كانوا، ومن ثَمَّ فهي تتحدث باسم يهود البلاد العربية، بل تطالب بالتعويضات باسمهم، فكأن الدولة الصهيونية تنكر أن أعضاء الجماعات اليهودية مواطنون في بلادهم، وتدعم الصورة الإدراكية العرْقية أن اليهودي لا انتماء له وأنه يدافع عن مصالحه اليهودية وحسب.

هذه بعض الأسباب التي أدَّت إلى هيمنة الرؤية التآمرية على إدراكنا لليهود في العالم العربي وإلى ذيوع **البروتوكولات** وغير ذلك من كتابات عنصرية تهدف إلى تفسير الواقع بشكل سريع سهل وإلى تفريغ شحنة الغضب عند كثير من العرب. ولكن تفريغ الشحنة هنا بهذه الطريقة له جوانبه السلبية العديدة، والمطلوب أن نفهم أسباب الغضب ونحاول استثماره في إطار مشروع نضالي إنساني يهدف إلى تصفية الجيب الاستيطاني الصهيوني ولا يسقط في العنصرية العمياء.

١٩ ـ الإبادة النازية والحضارة الغربية الحديثة

الإبادة النازية ليهود أوربا (مشكلة المصطلح)

يُستخدَم مُصطلَح «الإبادة» في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاء كاملاً. ويُطلَق مُصطلَح «إبادة اليهود» في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوربية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسديا (من خلال أفران الغاز). وتُستخدَم أيضاً عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود، أي تصفيتهم جسديا».

ويُشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة «هولوكوست» وهي كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» (وتُترجم إلى العبرية بكلمة «شواه»، وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة»). وكانت كلمة «هولوكوست» في الأصل مُصطلَحاً دينيا يهوديا يشير إلى القربان الذي يُضحَّى به للرب، فلا يُشوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدَّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على القرابين المقدمة للرب. ولذلك، كان الهولوكوست يُعَدُّ من أكثر الطقوس قداسة، وكان يُقدَّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء. ومن ناحية أخرى، كان الهولوكوست القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدِّموه.

ومن العسير معرفة سر اختيار هذا المُصطلَح، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه "الشعب اليهودي" بالقربان المحروق أو المشوي وأنه حُرق لأنه أكثر الشعوب قداسة. كما أن النازيين، باعتبارهم من الأغيار، يحق لهم القيام بهذا الطقس. أو ربما وقع الاختيار على هذا المُصطلَح ليعني أن يهود غرب أوربا أُحرقوا كقربان الهولوكوست في عملية الإبادة النازية ولم يبق منهم شيء، فهي إبادة كاملة بالمعنى الحرفي. ولكن حينما تستخدم الجماعات المسيحية الأصولية (الحرفية) في الولايات المتحدة كلمة «هولوكوست» فهي تركِّز على جريمة الكبرياء، إذ ترى أن الإبادة عقاب عادل حاق باليهود بسبب صلفهم وغرورهم وكبريائهم. ويُشار إلى الإبادة أحياناً بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تُستخدَم للإشارة إلى «هدم الهيكل»، فكأن الشعب اليهودي هنا هو الهيكل، أو البيت الذي يحل فيه الإله، والإبادة هي تهديم بيت الإله. وهذه الكلمة تُدخل حادثة الإبادة التاريخ اليهودي المقدَّس.

وفي الوقت الراهن، تُستخدَم كلمة «هولوكوست» في اللغات الأوربية للإشارة إلى أية كارثة عظمى. فيشير الصهاينة، على سبيل المثال، إلى «الزواج المختلط» بين اليهود بأنه «الهولوكوست الصامت». وحينما يُصعِّد العرب مقاومتهم للمستوطنين الصهاينة فإنهم ـ حسب المُصطلَح الصهيوني ـ يهددونهم بالهولوكوست. وهذا الاستخدام المستمر والمجوج للمُصطلَح يؤدي إلى نتائج كوميدية أحياناً. إذ تساءل أحد دعاة حماية البيئة في نبرة جادة قائلاً: "كيف يمكن أن نستنكر الهولوكوست ضد اليهود، ونحن نذبح ستة مليون دجاجة يوميا؟"، أي أنه ساوى بذلك بين الطبيعي والإنساني وبين الدجاجة واليهودي ودفع النموذج العلماني الشامل إلى نتيجته المنطقية وأطلق استنكاره هذا.

ومن المعروف أن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة شعوب أخرى أو على الأقل بإبادة أعداد كبيرة منها. ووردت في العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم. ولكن من الثابت تاريخيا أن العبرانيين والكنعانيين تزاوجوا، وأن معظم ادعاءات الإبادة قد تكون من قبيل التهويلات التي تتواتر في كثير من الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي. وربما يكون قد تم فعلاً إبادة سكان مدينة أو اثنتين، لكن هذا لم يكن النمط السائد نظراً لتدني المستوى العسكري لدى العبرانيين، كما أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الغزو دفعة واحدة وإنما عن طريق التسلل أيضاً. ويستند الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الغربي إلى الإبادة، فهذا ما

فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين، وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر.

وفي تصورنا أن ما يميِّز تجربة الإبادة النازية عن التجارب السابقة أنها تمت بشكل واعٍ مخطط منظَّم شامل منهجي محايد عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً، منفصلة عن القيمة). وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيد والعلمنة الشاملة وتحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي، وهو ما نسميه في مُصطلَحنا «الحوسلة»، أي تحويل كل شيء، وضمن ذلك الإنسان، إلى وسيلة. ومن ثَمَّ فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية، إذ كانت المذابح تتم عادةً بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط.

ويمكن في هذا المضمار أن نذكر «ليلة الزجاج المحطم» حينما قامت الجماهير الألمانية في العديد من مدن ألمانيا بالهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية. ويُقال إن الغضب الشعبي لم يكن تلقائيا وإنما تم بتخطيط من القيادات النازية التي كانت مجتمعة في ميونخ. كما أن إلقاء القبض على أعداد من اليهود بعد الحادث يدل على أن الأمر لم يكن تلقائياً تماماً. ويصف بعض الدارسين ليلة الزجاج المحطم بأنها هجوم شعبي منظم على اليهود (بوجروم)، ولكن نظراً لضآلة عدد الضحايا، لم يكن بوسع الدولة النازية أن تتخلص من ملايين اليهود باستخدام هذه الآلية البدائية التقليدية التي تعتمد على إثارة غضب الجماهير. ولذا، كان لابد من اللجوء إلى آليات أخرى أكثر حداثة، ووجد النازيون ضالتهم في مؤسسات الدولة الحديثة مثل التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها، وأجهزة الإعلام التابعة لها، وأساليب الإدارة الحديثة الرشيدة. ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الدولة النازية ما كان بوسعها أن تحقق غرضها بهذه السرعة وبهذه الكفاءة بدون هذه الآليات المتقدمة!

ونستخدم في هذه الموسوعة مُصطلَح «الإبادة النازية ليهود أوربا»، وهو - في تصوُّرنا - مُصطلَح أكثر تفسيرية وحياداً من المُصطلَحات المستخدمة في اللغات الأوربية والعبرية، فكلمتا «هولوكوست» و «شواه» تحملان إيحاءات دينية. ومُصطلَح «الحل النهائي» يحدد مجاله الدلالي بشكل قاطع لا يتفق مع مضمونه الحقيقي. أما مُصطلَحنا فقد حَدَّد الظاهرة النازية من حيث هي ظاهرة أوربية داخل سياق التاريخ الألماني والأوربي، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي. كما أنها تُضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى.

وكلمة «إبادة» كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية، وإنما تعني «استئصال شأفة اليهود» بجميع الطرق وضمنها التهجير القسري (الترانسفير) وغيره من الطرق. ولذلك فنحن نشير أحياناً «للإبادة بالمعنى الخاص والمحدد للكلمة»، أي «التصفية الجسدية المتعمدة»، كما نشير «للإبادة بالمعنى العام للكلمة» وهي عملية «إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة، وأخيراً التصفية الجسدية المتعمدة». كما أننا لا نهمل ما نسميه «اختفاء اليهود» من خلال عوامل طبيعية مختلفة تقع خارج نطاق الإبادة النازية، بالمعنى العام أو الخاص.

الهولوكوست (الإبادة)

«هولوكوست» كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» وهي بالعبرية «شواه»، وتُترجَم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة». وتُستخدَم كلمة «هولوكوست» في العصر الحديث عادةً للإشارة إلى إبادة اليهود، بمعنى تصفيتهم جسديا، على يد النازيين.

المحرقة

«المحرقة» ترجمة عربية للمُصطلَح العبري «شواه»، وهو بدوره ترجمة للمُصطلَح اليوناني «هولوكوست». ويُستخدَم المُصطلَح للإشارة إلى الإبادة النازية لليهود.

الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة

لابد أن نؤكد ابتداءً أن التحولات الاقتصادية والسياسية في أي مجتمع لا تتم في فراغ مهما يكن مستوى هذه التحولات عمقاً أو ضحالة. فالمناخ الفكري والثقافي والنفسي يساعد على تحقيق بعض الإمكانات الكامنة في الواقع المادي وإجهاض البعض الآخر، وعلى تحديد المسار النهائي لهذا الواقع إلى حدٍّ كبير. وتبنِّي ألمانيا النازية خيار الإبادة كوسيلة لحل بعض المشاكل التي واجهها المجتمع الألماني لم يكن لينبع من الاعتبارات الاقتصادية أو السياسية وحدها، فهو أمر مرتبط تماماً بإطار ثقافي وحضاري ونفسي أوسع.

ويمكننا القول إن ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه وليست مجرد مسألة عرضية، وولَّدت داخله استعداداً للتخلص من العناصر غير المرغوب

فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط. وتحققت هذه الإمكانية بشكل غير متبلور في لحظات متفرقة، ثم تحققت بشكل شبه كامل في اللحظة النازية النماذجية. وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا رغم حضارته الغربية وحداثة أخلاقياتها النفعية المادية، وإنما بسببها.

فالأخلاق النفعية المادية التي تُعفي الإنسان من المسئولية الأخلاقية، فهي مستمدة من الطبيعة/ المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغائيات والأخلاقيات الإنسانية. ومن ثَمَّ تَحرَّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم "الإنسان ككل" أو "الإنسانية جمعاء" أو "صالح الإنسانية"، كما تحرر من القيم المطلقة مثل "مستقبل البشرية" و"المساواة" و"العدل"، وجعل نفسه المركز والمطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والغائيات الإنسانية العامة، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وتحول إلى مرجعية ذاته، وقانون ذاته، ومعيارية ذاته، وغائية ذاته، ومن ثَمَّ أصبح من حقه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرَّفه هو. وبذا تحولت الإنسانية (الهيومانية) الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية، وانقسم البشر إلى سوبرمن إمبرياليين يتحكمون في كل البشر والطبيعة، ولهم حقوق مطلقة، وإلى سبمن دون البشر أداتيين يذعنون لإرادة السوبرمن ولقوانين الطبيعة والمادة ولا قداسة لهم ولا حقوق.

وتتبدَّى مادية هذه المنظومة وواحديتها في عدد من المُصطلَحات التي حققت قدراً من الذيوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أخذت المنظومة في التبلور وحينما تحددت معالم المشروع الإمبريالي الغربي والنظرية العرْقية الغربية. ومن أهم هذه المُصطلَحات، من منظور هذه الدراسة، ما يلي: «المادة البشرية» - «الفائض البشري» - «مادة استعمالية». فكان يُشار إلى البشر باعتبارهم «مادة بشرية» يمكن توظيفها، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة» (وأحياناً «غير نافعة»). وهذه المادة الفائضة كان لابد أن تُخضع لشكل من أشكال المعالجة، فكانت إما أن تُصدَّر (ترانسفير) أو تُعاد صياغتها أو تُباد إن فشلت معها كل الحلول السابقة. وترد هذه المُصطلَحات (وغيرها) في كتابات مفكري العنصرية الغربية مثل ماكس نوردو (قبل اعتناقه الصهيونية) وفي الأدبيات النازية (كان أيخمان يشير إلى اليهود المرحلين إلى فلسطين باعتبارهم "من أفضل المواد البيولوجية"). وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هرتزل **دولة اليهود**). ولنلاحظ أن كل المُصطلَحات تُضمر البُعدين الإمبريالي والأداتي، الدارويني والبرجماتي، فالإنسان مادة تُوظَّف، مجرد موضوع، ولكن هناك أيضاً من يُوظِّف، فهو ذات نشطة فعالة. لكن كلاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدية. فالسوبرمن والسبمن ينتميان إلى عالم وثني، حلولي كموني.

وهذه هي النواة المعرفية والأخلاقية الأساسية للحضارة الغربية الحديثة. وهي نواة نمت وترعرعت وعبَّرت عن نفسها من خلال ثنائية الإمبريالي والأداتي، والسوبرمان والسبمان، فتزايدت معدلات اليقين العلمي من ناحية، الأمر الذي أدَّى إلى تَزايُد إحساس الإنسان الغربي بذاته وبقوة إرادته ومقدرته على البطش (خصوصاً بين النخبة الإمبريالية الحاكمة). كما تزايدت في الوقت نفسه معدلات النسبية المعرفية والأخلاقية، الأمر الذي أدَّى إلى ضمور حس الإنسان الغربي الخُلقي وضمور قدرته على اتخاذ القرار، كما عَمَّقت قابليته للإذعان للقانون الموضوعي العام المجرد (اللاإنساني) كقيمة مطلقة لابد من العمل بمقتضاها والسير بهديها دون تساؤل (خصوصاً بين الجماهير).

وسنورد فيما يلي بعض العناصر التي ساعدت على تعميق هذا الاتجاه العام في الحضارة الغربية:

١ - ظهور أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) ذات طابع مشيحاني قوي وذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل، وتنطلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم.

٢ - مع تَزايُد معدلات العلمنة الشاملة، لم يَعُد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني (متجاوز للقوانين الطبيعية/ المادية)، فلم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن (حالّ) فيهم، وليس مفارقاً لهم. ولهذا، طُرح الأساس البيولوجي العرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم. وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية أخرى شبه علمية هي الداروينية الاجتماعية، وكانت الثمرة النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني.

٣ - مع تَصاعُد معدلات العلمنة ظهرت كذلك فكرة الفولك أو الشعب العضوي الذي تربطه بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تنفصم عراها، وهنا تحل الرابطة الإثنية محل الرابطة العرْقية، ولكنها لا تختلف عنها في كمونيتها وحتميتها وفي تحولها إلى أساس لتأكيد التفاوت بين الشعوب.

٤ - تزايدت معدلات النسبية المعرفية، فعالم الطبيعة/ المادة هو عالم

حركي لا ثبات فيه ولا حدود، بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية.

٥ - تَزايُد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة، والتجريب عن العقل، بحيث أصبح التجريب، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفاً في حد ذاته. وترجم هذا نفسه إلى ما يُسمَّى العلم المحايد، المتجرد تماماً من القيمة. ولكن هناك دائماً من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستُجرى.

٦ - تعاظمت قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلق، ومن ثَمَّ أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالمة كانت أم مظلومة) مسألة لا تقبل النقاش ولا تخضع لأية معيارية، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق خيانة عظمى عقوبتها الإعدام. ويُلاحَظ أن مُصطلَحات مثل «مصلحة الدولة العليا» ليس لها مضمون أخلاقي، وتَقبُّلها يعني تَقبُّل المجردات غير الإنسانية.

٧ - ظهرت مؤسسات بيروقراطية قوية (حكومية وغير حكومية) تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد الأمر الذي يعني تَزايُد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يُسمَّى «رقعة الحياة الخاصة».

٨ - كانت هذه المؤسسات ترى نفسها ذاتاً مطلقةً تُعبِّر عن مصلحة الدولة (التي تُعبِّر عن إرادة الشعب) وقد جعلت جل همها أن تنفِّذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة، دون أخذ أية اعتبارات خُلقية في الاعتبار.

٩ - تزايدت معدلات الترشيد والتنميط والميكنة وهيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية على المجتمع بكل ما ينجم عن ذلك من ترشيد للبيئة المادية والاجتماعية وترشيد للإنسان من خارجه وداخله.

١٠ - تَصاعَد نفوذ مؤسسات الدولة المركزية "الأمنية" البرانية والجوانية وزادت مقدرتها على قمع الأفراد وتوجيههم "وإرشادهم" من الداخل والخارج. ورغم أهمية مؤسسات القمع المباشر البراني مثل المخابرات والبوليس السري، إلا أن المؤسسات الأمنية الجوانية، مثل المؤسسات التربوية والإعلام، كانت تفوقها في الأهمية. فإذا كانت المؤسسات البرانية تقوم بتوجيه الفرد بغلظة من الخارج، فالمؤسسات الثانية تقوم بترشيده من الداخل ببطء وبشكل روتيني يومي لا يشعر هو به حتى يصل به الأمر إلى تَمثُّل، ثم استبطان، رؤية الدولة تماماً، فينظر إلى الواقع من خلال عيونها دون حاجة إلى قمع خارجي، ويحيِّد ذاته وحسه الخلقي، ويصبح المجتمع أو الدولة أو العلم الطبيعي المصدرَ الوحيد للقيمة المطلقة، وفي نهاية الأمر ينظر إلى نفسه باعتباره جزءاً من آلة كبرى، وتصبح مهمته الأساسية، وربما الوحيدة، التكيف البرجماتي مع دوران الآلة.

١١ - ونجحت عمليات التجريد المتزايدة في المجتمع في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً جدا لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر. ولنضرب مثلاً من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة: تُقسَّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة، كل وظيفة تُشكِّل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب. ولأنها مجرد حلقة، فهي محايدة تماماً ولا معنى لها، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر. ومن ثَمَّ، تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة جدا. والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبذل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية، ومن ثَمَّ تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس، ولا يتحمل أي شخص مسئولية إبادة البشر، إذ إن مسئولية العامل أو الموظف مسئولية فنية تكنوقراطية وليست مسئولية أخلاقية.

١٢ - ومن المظاهر الأخرى للتجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق مؤسسات متخصصة تقوم بتحقيق أهدافها بشكل مؤسسي رشيد (أي مقنن) ومنظم لا دخل فيه للعواطف. وعادةً ما تتم عمليات التعذيب وغيرها من أعمال العنف بعيداً عن الناس في أطراف المدينة، داخل مكاتب أنيقة تم تقسيمها بعناية فائقة. وعادةً ما يتم التعذيب بأساليب علمية بحيث لا يترك أثراً على جسد الضحايا. وإن تم قتلهم فعادةً ما يمكن التخلص من جثثهم بطريقة نظيفة عالية الكفاءة.

١٣ - تظهر عمليتا التجريد والترشيد في استجابة البشر للعنف والإبادة، إذ تحل الحسابات الرشيدة محل الاستجابة التلقائية والعواطف بحيث يمكن للإنسان أن يكبت أية أحاسيس بالشفقة أو الانفعال الغريزي داخله أو الإحساس التلقائي المباشر ويَحل محل ذلك كله قدر عال من الانضباط والتخطيط.

ويمكن القول إن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خُلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثَمَّ فهي شخصية تعيش في ثنائيات وتعددية) وحلَّت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة، التي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات والتي تحررت من أية قيم أو غائية، فهي تعيش في عالم الواحدية المادية المعقم من القيم المتجاوزة. هذه الشخصية [يمكن أن تتبدَّى من خلال إمبريالية داروينية مليئة باليقينية العلمية توظِّف الكون (الطبيعة والإنسان) لصالحها، ويمكن لها أن تتبدَّى من خلال إذعان أداتي فتصبح

شخصية نمطية تعاقدية برجماتية ذات بُعد واحد]، تستبطن تماماً النماذج السائدة في المجتمع التي تروجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها ولذا يتحدد تَوَجُّهها حسب ما يصدر لها من أوامر تأتي لها من عل، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنياً وقومياً وعلمياً وموضوعياً (من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن) ومن ثَمَّ يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية. وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب، وفي أحسن السبل لإنجاز ما أوكل لها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني.

تحول إمكانية الإبادة إلى حقيقة تاريخية

هذه القابلية أو الإمكانية الكامنة للإبادة، ولتفكيك الإنسان لعناصره المادية الأساسية لاستخدامها على أكمل وجه، تحققت أول ما تحققت بشكل جزئي وتدريجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيها الاستيطاني والإمبريالي. فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة، وحَوَّل الإنسان الغربي نفسه إلى سوبرمان مطلق له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام، طبيعية أو بشرية. فاعتُبرت شعوب آسيا وأفريقيا (الصفراء والسوداء المتخلفة) مجرد سبمن، مادة بشرية تُوظَّف في خدمته، كما اعتُبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظَّف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة، واعتُبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدِّر له مشاكله. بل لم تفرِّق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي، فالجميع مادة بشرية، نافعة أو غير نافعة، ضرورية أو فائضة. فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة، ومصدراً لفائض القيمة، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة. وصنِّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى، المعوقون والمسنون) مادةً بشريةً غير نافعة. وهذه المادة يجب أن "تُعالج"، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد "الحلول الأخرى" إن استلزم الأمر).

وكانت أولى عمليات "المعالجة" نقل الساخطين سياسيا ودينيا (البيوريتان) إلى أمريكا، والمجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتماعي في أوطانهم إلى أمريكا وأستراليا. وتبعتها عمليات ترانسفير أخرى تهدف جميعاً إلى تحقيق صالح الإنسان الغربي:

- نَقْل سكان أفريقيا إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية رخيصة.
- نَقْل جيوش أوربا إلى كل أنحاء العالم، وذلك للهيمنة عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظَّف لصالح الغرب.
- نَقْل الفائض البشري من أوربا إلى جيوب استيطانية غربية في كل أنحاء العالم، لتكون ركائز للجيوش الغربية والحضارة الغربية (فيما يُعَد أكبر حركة هجرة في التاريخ).
- نَقْل كثير من أعضاء الأقليات إلى بلاد أخرى (الصينيين إلى ماليزيا - الهنود إلى عدة أماكن - اليهود إلى الأرجنتين) كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني، إذ تشكل هذه الأقليات جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها.
- نقْل كثير من العناصر المقاتلة من آسيا وأفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة في الجيوش الغربية الاستعمارية، مثل الهنود (خصوصاً السيخ) في الجيوش البريطانية. وفي الحرب العالمية الأولى، تم تهجير ١٣٢ ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرةً للقتال (وهذه أول "هجرة" لسكان المغرب العربي، وقد استمرت بعد ذلك تلقائياً).
- مع ظهور فكر حركة الاستنارة في الغرب تم تعريف الناس حسب نفعهم للمجتمع والدولة وقد طُبِّق هذا المعيار على كل المواطنين بخاصة أعضاء الأقليات. فتم تقسيم اليهود في كثير من البلاد الغربية - كما أسلفنا - بحيث أصبح غير النافعين قابلين للترحيل.
- في هذا الإطار المعرفي الترانسفيري، تمت عملية الاستيطان الصهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية (المسألة اليهودية) إلى الشرق. فيهود أوربا هم مجرد مادة (فائض بشري لا نفع له داخل أوربا يمكن توظيفه في خدمتها في فلسطين)، والعرب أيضاً مادة (كتلة بشرية تقف ضد هذه المصالح الغربية)، وفلسطين كذلك مادة، فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة تُطلَق عليه كلمة «الأرض». فتم نَقْل العرب من فلسطين ونُقل اليهود إليها، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربي.
- تمت عمليات ترانسفير ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى، فنُقل سكان يونانيون من تركيا إلى اليونان، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيا، كما نُقل سكان ألمان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى

بولندا. وهذه العمليات هي التي أوحت لهتلر بعمليات نَقْل اليهود خارج الرايخ. بل إنه في السنين الأخيرة من حكم الرايخ طوَّر هملر جنرال بلان أوست Generalplan Ost لنقل ٣١ مليوناً "غير ألمان" من أوربا الشرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم.

وما يهمنا في هذا كله هو نزع القداسة عن البشر كافة (في الشرق والغرب) وتحويلهم إلى مادة استعمالية ليست لها قيمة مطلقة، ولا علاقة لها بأية معيارية. ولكن لنركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم، خصوصاً في أمريكا الشمالية، وهي تجربة كانت تفترض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كأداء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي. وقد قبلت الجماهير الأوربية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماسة شديدة، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج.

وتُعدّ العقيدة البيوريتانية (أو التطهرية)، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية، أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادية التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة. فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب». وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين»، وللسكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلها مصطلحات توراتية إبادية، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء).

وكان كل هذا يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر، أو نقل الأمراض المختلفة (كأن تُترك أغطية مصابة بالجدري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم وتتم إبادتهم تماماً). وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله. واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا، بل تصاعدت بعد عام ١٨٣٠ حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود، الذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفاً من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم (ترانسفير) أثناء فصل الشتاء سيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصِّص لهم في أوكلاهوما. وقد مات أغلبهم في الطريق (وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير [ترانسفير]، فهو شكلاً ترانسفير من مكان لآخر ولكنه فعلاً ترانسفير من هذا العالم للعالم الآخر). ووصلت العملية الإبادية إلى قمتها في معركة الركبة الجريحة عام ١٨٩٠. وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبق سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يُقدر بنحو ٦,٥ مليون عام ١٥٠٠ لدى وصول الإنسان الأبيض، أي أنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي (وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه الأيام)، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي (يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تمت إبادته منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين). وتكرر النمط نفسه في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢ مليون عند استيطان البيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبق منهم سوى ٣٠٠ ألف. ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة).

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة. وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما من خلال أسباب "طبيعية" بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض.

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة. ففي كتابه **رحلة إلى الكونغو** (١٩٢٧)، يُبيِّن أندريه جيد كيف أن بناء سكة الحديد بين برازفيل والبوانت السوداء (مسافة طولها ١٤٠ كيلو متر) احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة. ويمكن أن نتذكر أيضاً حفر قناة السويس بالطريقة نفسها وتحت الظروف نفسها وبالتكلفة البشرية نفسها.

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرْقي والإبادة داخل أوربا (إما كضحايا أو جزارين) يصل إلى مائة مليون، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد حتماً سوف يتضاعف.

ولكن الإمكانية الإبادية الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية، تحققت بشكل نماذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النماذجية» في الحضارة الغربية، أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور فاضح، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت

الجميع، وضمنهم المدافعون عن النموذج في صوره الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً).

وكان النازيون يُدركون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي الحديث. وقد بيَّن كاتبو سيرة حياة هتلر أن أولى تجارب الإنساني الغربي الاستعمارية الاستيطانية، أي تجربته في أمريكا الشمالية، كانت تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد. وكما يقول المؤرخ جون تولاند إن هتلر، في أحاديثه الخاصة مع أعضاء الحلقة المقرَّبة إليه، كثيراً ما كان يعبِّر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة "معالجتهم" لقضية الهنود الحمر. فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأسر، أما هؤلاء الذين رفضوا الخضوع فكان يتم إبادتهم من خلال "التجويع أو القتال غير المتكافئ". ويقول يواقيم فست إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية. وبالفعل صرح هتلر في إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقاً من أي سند قانوني وإنما من الإحساس الداخلي المطلق بالتفوق. فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية، كما أكد هتلر، لم يكن له أي سند ديمقراطي أو دولي، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض. ولذا في مجال تبريره للحرب الشرسة التي شنها على شرق أوربا قال هتلر: "إن هناك واجباً واحداً: أن نؤلمن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراً". وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها "أرضاً عذراء" و"صحراء مهجورة" ("أرض بلا شعب" في المُصطلَح الصهيوني). وأثناء محاكمته في نورمبرج بيَّن ألفريد روزنبرج، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الإمبريالي، فأشار مثلاً إلى أنه تعرَّف لأول مرة على مُصطلَح «الإنسان الأعلى» (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كتشنر، وأن مُصطلَح «الجنس المتفوق» أو «الجنس السيد» مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرْقية نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية، فالنازية ـ كما أكد روزنبرج لمحاكميه ـ جزء من الحضارة الغربية.

ولعل أكبر دليل على أن الإبادة إمكانية كامنة، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية الحديثة، أنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكر وسلوك الحلفاء، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب! فإرنست همنجواي، الكاتب الأمريكي، كان يُطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني. وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها. وقد عبَّر كاتب يُسمَّى كليفتون فاديمان عن هذا الموقف الإبادي بشكل متبلور. ولم يكن فاديمان هذا شخصية ثانوية في المؤسسة الثقافية الأمريكية فقد كان محرر مجلة **النيو يوركر** (وهي من أهم المجلات الأمريكية) ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبَّان الحرب بغرض الحرب النفسية. وقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان (تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي يشنها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) وجعل الهدف منها "إضرام الكراهية لا ضد القيادة النازية وحسب، وإنما ضد الألمان ككل... فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم... فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة... وإنما هو التعبير النهائي عن أعمق غرائز الشعب الألماني، فهتلر هو تَجسُّد لقوى أكبر منه، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها ٢٠٠٠ عام". ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر.

وقد اشترك بعض الزعماء والكُتَّاب اليهود في هذه الحملة، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا، "فالشعب الألماني بأسره يُشكِّل تهديداً لنا". ولكن يمكن القول إن كتاب الكاتب الأمريكي اليهودي تيودور كاوفمان بعنوان **لابد من إبادة ألمانيا** من أهم الكتب المحرضة على الإبادة، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية وبيَّنت أبعاد المؤامرة الإبادية ضد الألمان، وهو ما شكَّل تبريراً لفكرة الإبادة النازية نفسها. وقد ورد في هذا الكتاب أن كل الألمان، مهما كان توجههم السياسي (حتى لو كانوا معادين للنازية، أو شيوعيين، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة، ولذا لابد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنى إبادة الجنس الألماني تماماً خلال ستين عاماً!

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة "هدم ألمانيا"، وعن "تحويل ألمانيا إلى بلد رعوي، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي). ونجحت غارات الحلفاء على المدن

الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة. وبلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل. كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب، فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد، فتم تصنيفهم على أساس «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب». وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب، وبالفعل قضى ٧٩٣,٢٣٩ جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥، كما قضى ١٦٧ ألف نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجةً للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك)، وفي الوقت نفسه كان يوجد ١٣,٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء ألا توزعها عليهم.

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية، فقام الحلفاء بما سُمِّي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» للقضاء على النازيين في الحياة العامة، فأُقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً. وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين)، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف، أُجريت لهم محاكمات عاجلة. وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ١٦٩,٢٨٢ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي. وأصدر البريطانيون ٢٢,٢٩٦ حكماً والفرنسيون ١٧,٣٥٣ حكماً، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحلول عام ١٩٤٥، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن.

وتظهر النزعة الإبادية نفسها في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ. فخلال عشرة أيام في مارس ١٩٤٥، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها ١١,٦٠٠، تم خلالها إغراق ٣٢ ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل، وهو ما أدَّى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل ١٥٠,٠٠٠. أما الغارات الجوية على طوكيو يوم ٢٥ مايو ١٩٤٥، فتسبَّبت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى إن قائدي الطائرات المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام. وأدَّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل. وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان "يخشى" ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه قنابله ويدمره. ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب، فإن الجنرال جروفز رأى ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها). كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم. ومن ثَمَّ، كان لابد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير. وكان الجنرال جروفز "محظوظاً" (كما تقول بعض الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها ٢٨٠ ألف نسمة ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوِّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة. وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار ٧٠ ألف مدني ومات ١٣٠ ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع. وكأن هيروشيما لم تكن كافية، فأُلقيت قنبلة أخرى على ناجازاكي، أدَّت هي الأخرى إلى مقتل ٧٠ ألفاً آخرين، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مصرعهم فيما بعد. فما بين ألمانيا واليابان تم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين.

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أما الآن فهو لا يُكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية. وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور. وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليوناً مات منهم ١٢ مليوناً على الأقل في معسكرات الجولاج: هذا حسب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً! وبعد

حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرْقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياد غير عادي.

إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية، ومع هذا تظل الإبادة النازية لليهود لها مركزية خاصة، فكيف نفسِّر هذا؟. وتعود هذه المركزية، فيما أعتقد، إلى حداثة الإبادة النازية ومنهجيتها، الأمر الذي جعلها تقض مضجع الإنسان الغربي، فمشروعه الحضاري يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن في الترشيد المتزايد. كما أن الإبادة الاستعمارية كانت تتم دائماً "هناك" بعيداً عن أوربا، في آسيا وأفريقيا، أما الإبادة النازية فتمت "هنا" على أرض الحضارة الغربية، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين. كما أن العناصر التي أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء، وإنما "مثلنا تماماً". وأخيراً يشغل اليهود مكانة خاصة في الوجدان الغربي الديني والحضاري، فاليهودي يقف دائماً على الهامش، موضع تقديس وكُره عميقين، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبه الإنسان الغربي إلى الإمكانية الكامنة، التي تقف فاغرة فاهها، في قلب حضارته الحديثة.

السياق الحضاري الألماني للإبادة

يمكن القول إن المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية اكتسبت حدةً خاصة في ألمانيا لأسباب عديدة من بينها تقاليد وحدة الوجود (الحلولية الكمونية) القوية التي تعود إلى جيكوب بوهمه والمعلم إيكهارت، وهي تقاليد ورثتها الفلسفة المثالية الألمانية وعمقتها ووصلت إلى ذروتها في فلسفة فخته الذي جعل الذات مركز الكون وتصورها قادرة على خلق العالم. ولكن فخته في الوقت نفسه طالب بالقضاء على الفرد (الشخص الإمبريقي) وكان يحلم "بجمهورية الألمان" التي يُجنَّد كل ذكر فيها من سن العشرين حتى موته، فهي جمهورية جنود لا مواطنين. وقد ربطت الفلسفة الألمانية المثالية الإنسان الفرد بالمطلق الذي يمكن أن يتجسد في الفرد، كما يمكن للفرد أن يذوب فيه. وحتى يصل الفرد إلى المطلق أُعيد تعريف العقل وتم توسيع نطاقه ولم تَعُد هناك حدود تفصل بين عقل الفرد والعقل المطلق، ففَقَد العقل هويته وأصبح لاعقلانيا. وقد وصلت الحلولية الألمانية إلى قمتها في منظومة هيجل الشاملة التي تساوي بين المقدَّس والزمني، ثم يبلغ الحلول منتهاه في فلسفة نيتشه وفلسفات الحياة. في هذا الإطار تم تعيين "مطلقات" مختلفة تكون موضع الحلول والكمون. وكان أول المطلقات الشعب الألماني العضوي (فولك) موضع الحلول والكمون، صاحب الرسالة. وقد وُلدت القومية الألمانية في أتون الحروب وتحت شعار الوحدة والمركزية، وصاحب ذلك تعميق مفهوم الشعب العضوي، والإصرار على الانتماء الكامل غير المشروط مقياساً وحيداً للولاء، وطُرح شعار "ألمانيا فوق الجميع" الذي تبناه أعضاء الشعب الألماني، وبُذلت المحاولات لإعادة صياغة الشخصية الألمانية لضمان ولائها للدولة المطلقة. وقد بلغت سطوة هذا المفهوم حداً جعلته يبتلع المنظومة الدينية نفسها، فاختلطت الديباجات الدينية بالقيم القومية بحيث تطلَّب الانتماء للشعب العضوي الألماني الانتماء إلى المسيحية البروتستانتية. ولكن مما يجدر ذكره أن هذه البروتستانتية كانت بروتستانتية ثقافية أو إثنية ("عقيدة آبائنا") تركز على المشاعر الدينية دون العقيدة الدينية، ولذا كان بوسعها أن تتصالح ببساطة مع النيتشوية والداروينية. ونتج عن ذلك تَنصُّر أعداد هائلة من يهود ألمانيا حتى يندمجوا "ثقافيا" في مجتمعهم الألماني. ووصلت نسبة هؤلاء أحياناً إلى ما يزيد على ٥٠٪ من مجموع يهود برلين (الذين كانوا يشكلون معظم يهود ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر). ولكن في إطار مفهوم الشعب العضوي يصبح مثل هذا التنصر عملية "تسلل" و "تآمر"، فصفات الشعب العضوي صفات موروثة تجري في العروق وفي أرض الأجداد. وبالفعل لوحظ تصاعد معدلات العداء لليهود في الفكر الألماني العلماني. فكتب ولهلم مار (١٨١٨-١٩٠٤) كتابه المهم **انتصار اليهودية على الألمانية: من منظور غير ديني** (١٨٦٢). كما نشر فاجنر وبول أنطون دي لاجارد وهنريش فون تراتيشكة كتاباتهم المعادية لليهود.

ثم نأتي لأهم المفاهيم في الحلولية الكمونية المادية وهو مفهوم الدولة، التي تشغل مكاناً خاصاً في التفكير الرومانسي الألماني. وكما تم ربط الفرد بالمطلق، ثم ربط مفهوم الحرية بالدولة، بحيث لا تتحقق الحرية إلا من خلال الدولة (ومن هنا جنود فخته الأحرار!). ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) في فلسفة هيجل حيث تصبح الدولة المطلق، بل تجسيداً له، وهي الإطار السياسي الذي يمكن للشعب العضوي أن يُعبِّر عن نفسه من خلاله. إن الدولة أصبحت المطلق مجازيا وحرفيا ولذا طالب هيجل الإنسان بأن يعبد الدولة كما لو كانت إلهاً سماويا، وهذه قمة الحلولية الوثنية (التي ستُعبِّر عن نفسها بشكل سوقي من خلال النازية والصهيونية فيما بعد). وقد تزامن هذا مع تزايد النزعة التاريخانية (تحت تأثير هيجل وغيره) بحيث لم يعد من الممكن أن يسأل الإنسان هل هذا الفعل خيِّر أم

شرير، إذ أصبح السؤال الوحيد الممكن هو: هل يتفق هذا مع اللحظة التاريخية أو لا؟ كما انتشرت الأفكار الداروينية بشكل متطرف، التي تُهمِّش الإنسان الفرد تماماً.

وقد واكب هذه النسبية الأخلاقية تزايد الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغائية الإنسانية ، فتعقيم المعوقين كان أمراً مقبولاً في الطب الألماني مع بداية القرن العشرين (الأمر الذي يعني أن أعداداً كبيرة من الأطباء الألمان اليهود كانوا متورطين في هذه الرؤية. ومن المعروف أن الأطباء اليهود لم يُطردوا من مهنة الطب في ألمانيا إلا عام ١٩٣٣). كما عرف الألمان أسلوب الانتفاع من الجثث البشرية قبل ظهور النازي، أي أن تزايد إطلاق الدولة واكبه تهميش الفعل الأخلاقي الفردي والمسئولية الفردية فتم استيعاب الفرد في الكل الشامل.

وكان الشاعر هايني من أكثر المفكرين إدراكاً لخطر الحلولية الكمونية التي تجعل الإنسان إلهاً على الأرض، وفي الوقت نفسه تجعل الدولة إلهاً على الأرض. فقال إن فيلسوف الطبيعة سيعقد تحالفاً مع قوى الطبيعة الكونية وسيوقظ القوى الشيطانية لوحدة الوجود الألمانية التي ستضرم الشهوة للحرب (التي تسم الألمان القدامى) حيث لا يحارب الجندي ليدمر ويكسب المعركة، وإنما يحارب من أجل الحرب.

هذه بعض مكونات السياق الحضاري الألماني للنازية وللإبادة النازية لليهود (ولغيرهم). وقد تشابكت هذه المكونات وتصاعدت حدتها وبلغت حداً عالياً من التبلور في العقيدة النازية، التي تشكل تعبيراً صافياً ونماذجياً عن المُثُل العليا للحضارة العلمانية الغربية وعن النموذج الحاكم الكامن فيها. والعقيدة النازية لم تفعل أكثر من وضع هذه المُثُل موضع التنفيذ بشكل أكثر تطرفاً من المعتاد، إذ طبقت الأفكار بشكل أكثر ثورية وأكثر منهجية وشمولاً على البشر كافة.

النازية والحضارة الغربية

كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف (بهدف التهكم) من العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياليستيش دويتش أربايتربارتي «National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei (NSDAP)، أي «الاشتراكية القومية»، وهي حركة عرْقية داروينية شمولية، قادها هتلر وهيْمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا، وعلى المجتمع الألماني بأسره. والحركة النازية حركة سياسية وفكرية، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل السمات نفسها، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى. كانت النواة الأساسية للحركة النازية حزب صغير يُسمَّى «حزب العمال الألمان» أُسِّس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة. وكان المنظِّر الأساسي للحزب جوتفريد فيدر الذي نادى بعقيدة لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك. وكان من أوائل من انضم لعضوية هذا الحزب محاربون قدامى مثل رودولف هس وهرمان جورنج، ومثقفون محبطون مثل ألفريد روزنبرج و ب. ج. جوبلز وهتلر نفسه، وشخصيات أخرى مثل يوليوس سترايخر. وقد ازدادت عضوية الحزب لأنه توجه إلى المخاوف الكامنة لدى قطاعات كبيرة من الألمان من الشيوعيين والبلاشفة، وإلى حنقها على معاهدة فرساي التي أذلت ألمانيا وحولتها إلى ما يشبه المستعمرة، وعلى جمهورية وايمار المتخاذلة التي قبلت هذا الوضع، وإلى إحساس الجماهير بالضياع في المجتمع الحديث وإحساسهم بالقلق وعدم الطمأنينة نتيجة تآكُل المجتمع التقليدي. ورغم أن الحزب كان يُسمَّى «حزب العمال»، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه، ولم ينضم له من العمال سوى العاطلون عن العمل. وأُعيد تنظيم الحزب عام ١٩٢٠ وسُمِّي «حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطل الحرب العالمية الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكان هتلر تقويض دعائم النظام السياسي القائم، الذي لم يكن يسمح لهم باتباع سياسة رأسمالية حرة تماماً، كما أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين. وقد تزايد نفوذ الحزب مع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي. وحل كتاب هتلر **كفاحي** محل برنامج جوتفريد فيدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر)، كما تراجع الخطاب الاشتراكي وحل محله خطابٌ نازيٌّ أكثر تبلوراً ومادية.

وسار الحزب النازي بخطى واسعة في الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٢، ووصلت عضويته إلى مليونين بحيث أصبح الحزب الثاني في ألمانيا أثناء فترة الكساد الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩، وهي فترة شهدت تآكل مدخرات الطبقة الوسطى الألمانية وانتشار الحركات الإباحية والبغاء والفوضوية وتَعاظُم نفوذ الشيوعيين. ورغم أن هتلر خسر انتخابات الرئاسة عام ١٩٣٢ أمام هندنبرج، إلا أن حزبه النازي أصبح أكبر حزب ألماني على الإطلاق. وقد فشل المستشار فون بابن في الاحتفاظ بأغلبية تمكنه من الحكم في البرلمان، فأُجريت انتخابات أخرى. وكان هتلر قد حصل إبان ذلك على الدعم المالي

من رجال المال والصناعة في وادي الراين الذين كانوا يهدفون إلى احتوائه واستخدامه كأداة.

وكان هتلر يستخدم خطابين مختلفين: أحدهما للجماهير، والآخر لرجال المال. وقد احتجت بعض العناصر الاشتراكية في الحزب على الاتجاه المتزايد نحو اليمين، ولكن هتلر نجح في القضاء على هذه العناصر. وفي عام ١٩٣٣، قام الرئيس هندنبرج بتعيين هتلر مستشاراً. وحينما اندلع حريق في مبنى البرلمان، طرد هتلر النواب الشيوعيين بعد أن ألقى التبعة عليهم. ثم اقترع البرلمان على منح هتلر سلطات شاملة، ومن ثَمَّ أنجز هتلر ثورته القانونية. وفي يونيه ١٩٣٤، أصبح الحزب النازي الحزب الأوحد، وقام هتلر بتصفية البقية الباقية من العناصر العسكرية في حزبه بطريقة دموية، وكان من بينهم إرنست روم رئيس قوات العاصفة. كما قام هتلر بضرب اليمين، فأثبت بذلك أنه لم يكن مجرد أداة في يد المموِّلين أو بقايا النظام الملكي فأمم المصارف وبعض الصناعات. ومع هذا، استفادت العناصر الرأسمالية من خلال سيطرة الدولة على كثير من القطاعات الاقتصادية، وأُلغيت اتحادات العمال، وفقد العمال حقوقهم، وتم استيعابهم في مؤسسات الحزب، وتم التنسيق بين جميع مؤسسات الدولة والحزب. كما أصبحت الخدمة العامة إجبارية، ثم فُرض التجنيد الإجباري وأُخضعت ألمانيا كلها لنظام مركزي قوي. وأُلغي استقلال الولايات، وأُخضعت لهيمنة الفوهرر وأجهزته مباشرة، بل أسس الحزب كنيسة ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية.

وفي عام ١٩٣٦، بدأت خطة السنوات الأربع لإعادة تسليح ألمانيا، وإعادة تنظيم الاقتصاد انطلاقاً من الاعتماد على الذات. وقد حقق النازيون نجاحاً اقتصادياً باهراً، الأمر الذي زاد التفاف الجماهير حولهم، حيث تم القضاء على البطالة وبُنيت منشآت عامة عديدة، ثم سيطر هتلر على حزبه سيطرة كاملة، وتولى هملر رئاسة الجستابو (البوليس السري) عام ١٩٣٦. وبعد موت هندنبرج، أصبح هتلر رئيساً للدولة لا يقاسمه السلطة أحد. ونجح في استصدار قرار عام ١٩٣٤ بتأسيس الرايخ الثالث الذي سيدوم ألف عام، وأصبح هو حاكم (فوهرر) ألمانيا بلا منازع.

وبدأ هتلر في تنفيذ مخططه الإمبريالي في الداخل والخارج صدوراً عن الرؤية النازية للعالم التي استمدت ملامحها الأساسية من الحضارة الغربية:

١ ـ السمة الأساسية للمنظومة النازية هي علمانيتها الشاملة وواحديتها المادية الصارمة. وقد هاجم ألفريد روزنبرج (أهم "الفلاسفة" النازيين) المسيحية باعتبارها عقيدة يهودية تدافع عن المطلقات. وفي كتابه **أسطورة القرن العشرين** حاول أن يُبيِّن بعض الأطروحات الأساسية للنازية، فالروح والعِرْق هما شيء واحد، فالعِرْق إن هو إلا التعبير البراني عن الروح، والروح إن هي إلا التعبير الجواني عن العِرْق (وهذا لا يختلف كثيراً عن تصوُّر الفلسفة الألمانية المثالية عن تماثل الروح والطبيعة)، والروح العِرْقية هي التي تحرك التاريخ.

ولكن هتلر، بذكائه الشديد، حاول أن يُبقي هذه النقطة من برنامجه غامضة حتى لا يستفز الجماهير ولا يواجه الكنيسة بشكل علني. وقد عقد اتفاقاً مع الكنيسة الكاثوليكية غير أنه لم يلتزم به وأرسل كثيراً من رجال الدين إلى المحرقة. وقد أسس هتلر "كنيسة" ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية، وتطهير فكرة القومية الألمانية من العناصر المسيحية التي دخلت عليها. وكان الالتحاق بهذه الكنيسة القومية ـ ومن ثَمَّ الانفصال عن المنظومة المسيحية ـ شرطاً أساسياً للانضمام إلى فرق الحرس الخاص المعروفة بالإس. إس. وفي السنوات الأخيرة من حكم النازي، وضع هتلر مخططاً شاملاً للقضاء على الكنائس المسيحية بشكل كامل، حتى تسود الواحدية المادية وقيم القومية العضوية والولاء الكامل لألمانيا ولدولة الرايخ الثالث. وكل سمات النازية الأخرى تنبع من رؤيتها العلمانية الإمبريالية الشاملة.

٢ ـ تتضح مادية النازيين الصارمة في إنكارهم الطبيعة البشرية وثباتها فكل شيء من منظورهم خاضع للتغيُّر والحوسلة. ويمكن القول بأن ثمة نزعة مشيحانية علموية مادية قوية هي التي تعطي النازية تفردها واختلافها عن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى. فالنازية دفعت كثيراً من المقولات الكامنة في الرؤية العلمانية الشاملة إلى نتيجتها المنطقية، ولم تعد تَقْنَع بتغيير العالم وإنما كانت تطمح إلى تغيير النفس البشرية ذاتها وإعادة تنظيم العالم من خلال سياسات بيولوجية وضعية. ومن هنا حربهم الشديدة ضد الأمراض النفسية والجسمانية وضد كل انحراف عن المعيارية العلمية الصارمة (ومن هنا قاموا بإبادة الأقزام!).

٣ ـ آمن النازيون بفكرة الدولة باعتبارها مطلقاً علمانياً يتجاوز الخير والشر. وحدَّد هتلر المطلق الأول والأوحد (الدولة) بدقة غير عادية حين قال إنه لابد من تحقيق العدالة وتوظيفها في خدمة الدولة، أي أنه لا يوجد مفهوم مطلق للعدالة، وإنما تتحدَّد العدالة بمقدار تحقيق نفع الدولة. والدولة كمطلق هي الإطار الذي يُعبِّر الشعب العضوي (فولك) الألماني من خلاله عن إرادته.

٤ - تبنت النازية النظرية العرْقية الداروينية الغربية، وأكدت التفوق العرْقي للشعب الألماني على كل شعوب أوربا، ولشعوب أوربا على كل شعوب العالم. ورفض هتلر فكرة المساواة بين البشر باعتبارها فكرة دينية ("حيلة يهودية مسيحية"، "نوع من التنويم المغناطيسي تمارسه اليهودية الغازية للعالم بمساعدة الكنائس المسيحية").

٥ - من الأفكار الأساسية في الفكر النازي فكرة الشعب العضوي (فولك) الذي تُوجَد وحدة عضوية بين أعضائه من جهة، وبين حضارتهم والأرض التي يعيشون عليها من جهة أخرى، وهي وحدة لا تنفصم عراها. ولا يمكن لهذا الشعب أن يحقق كل إمكانياته إلا بعد أن يضم إليه مجاله الحيوي (الأرض في الثالوث الحلولي العضوي) حتى تكتمل الدائرة العضوية. أما العناصر الغريبة الأجنبية فتعيق هذا التكامل العضوي الصارم، وبالتالي فهي عناصر ضارة لابد من استبعادها.

٦ - من العبارات المتواترة في الخطاب العضوي النازي عبارة «الدم والتربة»، وهي من الشعارات الأساسية للنازية والمرتبطة بفكرة الشعب العضوي. وهذه العبارة النيتشوية تمجد آداب الفلاحين وعواطفهم باعتبارها تجسيداً للصفتين الأساسيتين اللتين يستند إليهما رقي الجنس الألماني؛ الدم الألماني والتربة الألمانية. وهي تحوُّل الدم والتربة إلى المرجعية أو الركيزة النهائية التي يستند إليها النسق المعرفي والأخلاقي. وشعار «الدم والتربة» مثل جيد على ما نسميه «الواحدية المادية الكونية» التي تسم الأنساق الحلولية الكمونية، حيث يصبح المطلق كامناً في المادة لا متجاوزاً لها، ويُنصَّب شعبٌ من الشعوب نفسه إلهاً على بقية الشعوب، فدمه وتربته يحويان كل القداسة ويعطيانه حقوقاً مطلقة لا يمكن النقاش بشأنها. (وقد وجدت هذه العبارة طريقها إلى الفكر والخطاب الصهيوني).

٧ - وقد ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم العرْق السيد، وهو العرْق الآري الألماني التيوتوني الذي سيحتفظ بنقائه العرْقي ويؤسس أمة تتألف من الحكام المحاربين والمفكرين، قدرها المحتوم أن تحكم الأعراق الدنيا وتعيش على عملها وتحقق السيادة على العالم. وهذه الأمة ستنظم نفسها على شكل هرمي تقف على قمته نخبة تتسم بالصفات العرْقية الأكثر تفوقاً، وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر: التجسد المادي والمحسوس والتاريخي للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة). وكان تنظيم الحزب النازي تعبيراً عن هذه الرؤية، فقد استعار هتلر من التنظيمات الشيوعية فكرة الخلية والتنظيم الهرمي للحزب والانضباط الداخلي، واستعار من الفاشية الإيطالية فكرة ميليشيا الحزب ذات الزي الموحَّد، وهؤلاء هم مرتدو القمصان البُنّيَّة وكان يُشار إليهم بالحرفين إس. آيه (A.S).

٨ - رأت العقيدة النازية أن هذا الهرم الألماني المنظم، لابد أن يسيطر على العالم بأسره. وقد استفادت هنا من الفكر الجغرافي السياسي (الجيوبولوتيكي) الغربي. إذ رأى النازيون أن ألمانيا أمة حركية من حقها أن تحصل على مجال يتناسب مع قوتها وحيويتها، وهو مجال أوسع مما سمحت به معاهدة فرساي.

٩ - انطلاقاً من كل هذا وُضعت ألمانيا فوق الجميع وأصبح للألمان حقوق مطلقة فيما تصوروا أنه مجالهم الحيوي. وقد رأى النازيون أن على الشعب الألماني أن يستيقظ من سباته ويتنبه للخطر، وأن يغزو مجاله الحيوي حتى يصبح مجالاً ألمانياً صرفاً خالياً من السلاف.

١٠ - لكن الشعوب العضوية (فولك) تحتاج دائماً إلى آخر تستمد منه هويتها. والآخر هنا هو كل من يقف في طريق تحقيق الأطروحات النازية، وهم في هذه الحالة السلاف بالدرجة الأولى، الذين يشغلون المجال الحيوي في الخارج. أما في الداخل، فكانت توجد عناصر عديدة غير نافعة مستهلكة دون أن تكون منتجة، وأحياناً ضارة، من بينها المعوقون والشواذ جنسيا والشيوعيون والغجر والمصابون بأمراض وراثية مزمنة، بل الأقزام. ولذا كان النازيون يرون ضرورة إبادة العناصر الضارة في الداخل والخارج: السكان السلاف الذين يعيشون داخل المجال الألماني الحيوي، والغجر ممن لا نفع لهم، واليهود خصوصاً الأقلية المالية اليهودية.

١١ - ولكن لنركِّز على أعضاء الجماعة اليهودية وحدهم، لا بسبب أهميتهم المطلقة ولكن بسبب أهميتهم من منظور هذه الموسوعة. كان اليهود - حسب التصور النازي - من أهم القطاعات غير النافعة، بل الضارة، فهم يتركزون في القطاعات الهامشية للاقتصاد، مثل تجارة الرقيق الأبيض. ورغم أنهم مثل البكتريا والطفيليات التي تعيش على الآخرين، إلا أنهم يدَّعون أنهم يُشكِّلون عرْقاً سامياً وشعباً مختاراً، ولذا فهم يحاولون دائماً الهيمنة على الحياة السياسية والاقتصادية للشعوب الأخرى. ويشير هتلر إلى أن اليهود سيطروا على عالم المال في ألمانيا، وأنهم يحيكون مؤامرة عالمية للسيطرة ولذا فهم يحاولون إشعال الحروب والثورات (وهذه هي الأفكار الأساسية في **بروتوكولات حكماء صهيون**، وفي كتاب إدموند دروموند **فرنسا اليهودية**، وهما من أكثر الكتب شيوعاً في أوربا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر). كما بيَّن هتلر أن الماركسية والماسونية ليستا إلا مجرد حيل يهودية للسيطرة على العالم. وقد صُنِّف اليهود أحياناً باعتبارهم سلافيين، لأن كثيراً منهم كانوا من يهود شرق أوربا. وأُلقي اللوم على اليهود باعتبارهم مسئولين عن

هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وعن إذلالها. ولذا قرر الألمان أن يجعلوا المجال الحيوي الألماني «خالياً من اليهود».

وقد بدأ النظام النازي حملته على اليهود عقب تعيين هتلر مستشاراً في ٣٠ يناير عام ١٩٣٣. ففي أبريل عام ١٩٣٣ نُظِّمت مقاطعة للأعمال التجارية اليهودية، ثم استُبعد اليهود من كثير من الوظائف العامة. وفي أبريل ١٩٣٥، استُبعد الأطفال اليهود من النظام التعليمي. وفي سبتمبر من العام نفسه، صدرت قوانين نورمبرج التي نزعت عن أعضاء الجماعة اليهودية حقهم في أن يكونوا مواطنين بالرايخ، تنفيذاً لفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبوذ، ومُنعت الزيجات المُختلَطة بين اليهود والآريين. وفي عام ١٩٣٨، مُنع اليهود من العمل في الوظائف الوسيطة كأن يكونوا وكلاء وبائعين ومديري عقارات ومستشارين في الأعمال التجارية. وأدَّى اغتيال عضو في السفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ إلى قيام ثورة شعبية ضد اليهود تُعرف باسم «كريستال ناخت» أي «ليلة الزجاج المحطم» أُحرق خلالها أربعمائة معبد ونُهب كثير من المتاجر والمنازل الخاصة، وتم القبض على الألوف منهم وفُرضت غرامة على اليهود (ككل). وبعد ذلك بدأ النظام النازي في عملية الإبادة والحل النهائي النازي للمسألة اليهودية والتي استمرت حتى نهاية الحرب.

وكما سنبين فيما بعد لم يكن النظام النازي عشوائيا لاعقلانيا في اضطهاده لأعضاء الجماعات اليهودية، بل إن كلمة «اضطهاد» ذاتها قد لا تنطبق على علاقة النازيين بأعضاء الجماعات اليهودية إذ أن ما حدد هذه العلاقة هو مدى نفع اليهودي وإمكانية توظيفه.

١٢ - أشرنا من قبل إلى تَراجُع الجوانب الاشتراكية (الإنسانية) في برنامج الحزب النازي الذي كان يحوي بلا شك بعض المطلقات الإنسانية (مثل فكرة العدل وضرورة التكافل)، وظهور رؤية مادية واحدية صارمة في ماديتها وواحديتها تنفي المطلقات والثوابت والماهيات كافة، رؤية علمانية شاملة تنزع القداسة عن كل شيء بحدة وشراسة وتُسقط تماماً فكرة الحرمات. وهذا التحول عن الإنسانية (الهيومانية) والسقوط التدريجي والمطرد في الواحدية المادية نمط التطور الأساسي في الحضارة الغربية الحديثة، حيث تطورت من رؤية إنسانية (علمانية جزئية) تحوي مطلقات إلى روية علمانية إمبريالية شاملة تنفي المطلقات والثوابت والكليات كافة.

١٣ - تنطوي الرؤية النازية للكون، شأنها شأن كل الرؤى المادية، على إشكالية أساسية داخلها، هي مشكلة الأساس الفلسفي والمعرفي الذي تستند إليه منظومات الإنسان الأخلاقية. وقد حسم النازيون هذه القضية بتصورهم أن العلم (الطبيعي) قادر على مساعدة الإنسان على التوصل إلى حلول لجميع المشاكل، وضمن ذلك المشاكل الإنسانية والأخلاقية والروحية. ومن ثَمَّ فالعلم هو وحده القادر على تحديد الصالح والطالح والخَيِّر والشرير وهو وحده المرجعية النهائية. ولذا طالب النازيون بضرورة تطبيق قيم العلم والمنفعة المادية على الإنسان والمجتمع، وآمنوا بالمنفعة المادية كمعيار أخلاقي للحكم على الواقع. وبالفعل، اتسم النازيون بالحياد العلمي الشديد في تعاملهم مع الواقع ومع البشر، واستخدموا مقاييس علمية رشيدة لا تشوبها أية قيم أخلاقية أو عاطفية أو غائية، وتحوَّل كل البشر، وضمن ذلك الألمان، إلى مادة بشرية. ومن ثَمَّ، قُسِّم العالم كله إلى نافعين وغير نافعين (وهو تقسيم يعود إلى القرن الثامن عشر، عصر العقل المادي والعقلانية المادية). وتقرر أنه لا يستحق الحياة إلا من ينتج ويستهلك، أما من لا ينتج ويستهلك «من يأكلون ولا نفع لهم» فمصيره أمر مفروغ منه، فقد صُنِّف على أن حياته لا قيمة لها، وتشكل عبئاً على الاقتصاد الوطني بطبيعة الحال.

١٤ - ولكن كما هو الحال دائماً تخبئ الرؤيةُ العلمية النفعية المحايدة أخلاقياً الرؤيةَ الداروينية النيتشوية، بتأكيدها فكرة البقاء باعتباره القيمة المطلقة والصراع باعتباره الآلية الوحيدة للبقاء، وهي عملية مادية محض. فالبقاء هو البقاء المادي، والصراع صراع مادي، والبقاء في هذه الغابة الداروينية الواحدية المادية التي لا تعرف الرحمة أو العدل ليس من نصيب الأرق قلباً أو الأرقى خُلقاً أو الأكثر تراحماً وإنما من نصيب الأصلح والأقوى مادياً (فالقوة هي المطلق النهائي)، والأقوى هو الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه ويتحلى بأخلاق الأقوياء ويضرب بيد من حديد على الضعفاء بدلاً من أن يأخذ بأيديهم.

بعد تَقَبُّل النازيين النفع المادي والقوة، باعتبارهما المعيار الأخلاقي الأوحد في منظومة معرفية علمانية مادية شاملة لا تعرف المطلقات الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية، قام المفكرون والعلماء النازيون بتقييم الواقع المحيط بهم من خلال هذه المنظومة الفكرية المادية وصنفوا كثيراً من العناصر باعتبارها غير نافعة (السلاف - الغجر - اليهود - المعوقين . . . إلخ):

ولا يمكن الدفاع عن كل هؤلاء من منظور أخلاقي مطلق، فهذا أمر مرفوض من منظور علماني شامل، نفعي نسبي، مستنير رشيد، ينطلق من حساب دقيق للمدخلات والمخرجات. ومن يريد الدفاع عن نفسه عليه أن يفعل ذلك من داخل المنظور العلمي النفعي المستنير لا من خارجه. وكان قد تم إعداد الآلة المادية النفعية ذات الكفاءة

العالية، كما تم تحويل العالم بأسره، على المستويين المعرفي والوجداني، إلى مادة استعمالية خام. ومن جهة أخرى، تم استئناس الشعب الألماني وترشيده وتحييد حسه الخلقي تماماً وإسكات عواطفه، ليكون في انتظار التعليمات والحلول الواقعية العلمية العملية (المادية) النهائية لمشاكله، وهي حلول ستأتيه من مجموعة من رجال الحزب والعلماء وأهل التخصص. وحينما بدأت آلة الإبادة المادية النفعية الموضوعية الجهنمية ذات الكفاءة العالية منقطعة النظير، في الدوران، كانت الإبادة قد تحققت معرفيا ووجدانيا ونظريا، من خلال النموذج الواحدي المادي، قبل أن تتحقق فعليا من خلال معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة.

إن الأطروحات الأساسية للنازية هي نفسها الأطروحات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة والتشكيل الإمبريالي الغربي. وبالفعل حظيت الحركة النازية في البداية بتأييد رأسمالي غربي لأنها كانت تنظر إلى الاتحاد السوفيتي باعتباره العدو الأكبر (السلافي) للحضارة الآرية، ومن ثَمَّ كان الرايخ الثالث من هذا المنظور يشكِّل قلعة ضد الزحف السلافي الشيوعي. ولكن ستالين كان أكثر دهاءً، حيث عقد حلفاً مع هتلر اقتسما بمقتضاه بولندا والمجال الحيوي المحيط بهما. ثم تحالف الغرب الرأسمالي مع الشرق الاشتراكي ضد هتلر، لا دفاعاً عن المبادئ ولكن لأنه بدأ يهدد مصالحهما معاً. النازية وليدة الحضارة الغربية إذن، ومع هذا يتساءل بعض الدارسين الغربيين للإبادة النازية عن الكيفية التي أمكن بها لمجتمع غربي يُقال إنه «متحضر» مثل المجتمع الألماني (مجتمع هيجل وفاجنر وهايدجر) أن يفرز حركة بربرية تماماً كالحركة النازية ثم يُخضع كل أعضاء المجتمع لها. وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال، ذهب بعضهم إلى القول بأن النازية مجرد انحراف لا عن مسار التاريخ الألماني وحسب وإنما عن مسار التاريخ الغربي ككل. ويذهب المؤرخ الألماني إرنست نولت (وهو أستاذ في جامعة برلين الحرة يمثل تياراً مراجعاً داخل علم التاريخ في ألمانيا) إلى أن المرحلة النازية ليست مرحلة نماذجية، أي لا ترقى إلى مستوى النموذج والنمط، وإنما مرحلة عرضية غير مُمثِّلة لمسار التاريخ في ألمانيا. وهم يُقارنونها بروسيا الستالينية. ويذهب نولت إلى القول إن النازيين قاموا بعمليات الإبادة خوفاً من أن تُطبَّق عليهم سياسات الإبادة التي كان يطبقها السوفييت منذ عام ١٩١٧ على الطبقات والشعوب غير المرغوب فيها، بل يؤكد أن النازيين تعلموا الإبادة والتصفية الجسدية ومعسكرات السخرة من الشيوعية السوفيتية ومن ممارسات ستالين الإبادية؛ فالأصل هو الجولاج، وأوشفيتس هي النسخة.

وهناك كثيرون داخل ألمانيا وخارجها يعارضون هذا الرأي ويؤكدون أن سلوك الألمان جزء لا يتجزأ من تاريخهم الحضاري (بل هناك من يتطرف إلى درجة القول بأن سلوك الألمان هو في واقع الأمر تعبير عن طبيعتهم الثابتة). والحوار هنا يتعلق بدلالة الإبادة: هل هي جريمة نازية ضد اليهود، أم جريمة غربية متكررة (نمط متكرر) يُعبِّر عن نموذج معرفي كامن، أم أنها مجرد حادثة؟ ونحن نذهب ـ كما أسلفنا ـ إلى أن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية، وفلاسفة العرْقية الحديثة، هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمَتها في اللحظة النازية. ومن ثَمَّ، فإن الإبادة النازية تُعبِّر عن شيء حقيقي أصيل لا في التشكيل الحضاري الألماني وحده وإنما في الحضارة الغربية، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث.

إن جوهر الفكر النازي، متمثلاً في كتابات أدولف هتلر (وغيره من المفكرين النازيين)، لا يختلف كثيراً عن فكر سير آرثر بلفور صاحب الوعد المشهور (وغيره من الساسة والمفكرين الاستعماريين). فكلٌ من هتلر وبلفور يدور داخل الإطار الإمبريالي العرقي المبني على الإيمان بالتفاوت بين الأعراق، وعلى حل مشاكل أوربا عن طريق تصديرها. وكلاهما يؤمن بفكرة الشعب العضوي، وكلاهما يرى في اليهود عنصراً غير مرغوب فيه ويؤكد، من ثَمَّ، ضرورة وضع حل نهائي للمسألة اليهودية في أوربا، وكلاهما لا يلتزم بأية منظومة أخلاقية سوى منظومة المنفعة المادية ومنظومة الصراع الداروينية. وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل (ترانسفير) اليهود خارج إنجلترا وأوربا إلى فلسطين.

وقد حاول هتلر، في بداية الأمر، أن يحل مسألته اليهودية بشكل نهائي أيضاً، بالطرق الاستعمارية السلمية البلفورية التقليدية، أي التخلص من الفائض البشري اليهودي عن طريق تصديره (ترانسفير) إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا. وكان هتلر يدرك أن الترانسفير (تفريغ الأراضي من سكانها ونقلهم) جزء من المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل. فأشار (في أغسطس ١٩٤٠) إلى أنه تم إفراغ بروسيا الشرقية من سكانها الألمان بعد الحرب العالمية الأولى، وتساءل عن وجه الضرر في نقل ٦٠٠ ألف يهودي من أراضي الرايخ (وكان هناك مشروع نازي ترانسفيري أكبر هو نقل ٣١ مليون "غير ألماني" من شرق أوربا، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العرب على أنهم "الجماعات غير اليهودية").

وداخل هذا التصور الترانسفيري البلفوري الغربي تحرَّك هتلر لتنفيذ خطته :

١ ـ قام هتلر بشحن عشرة آلاف يهودي وأرسلهم عبر الحدود إلى بولندا في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، ولكن الحدود البولندية كانت موصدة دونهم (فبولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية) .

٢ ـ استمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهود حتى نهاية الحكم النازي . فبُذلت المحاولة تلو الأخرى لتوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين . وكان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى «مشروع مدغشقر» يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية . ولكن معظم هذه المشروعات فشلت . ولم تُطرح بدائل أخرى ، فالمجال الاستعماري الحيوي لألمانيا ، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، كان محدوداً .

٣ ـ لم تكن الدول الغربية (التي تتباكى حتى الآن على ضحايا الإبادة) ترحب هي الأخرى بالمهاجرين اليهود أو غيرهم (بسبب حالة الكساد الاقتصادي) .

وكان هتلر يسمِّي خطة الترانسفير هذه "الحل الشامل" و"الحل النهائي" ولكن هذا الحل النهائي البلفوري لم يكن متاحاً لهتلر ، ولذا لم يكن أمامه سوى استبعاد اليهود بطريقة غير بلفورية ، وتتميَّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسوقية . ومع هذا يميل كثير من العلماء إلى القول بأن «الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية» ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية ، أي حل نهائي من خلال الترانسفير ، أو التهجير القسري إما إلى المستعمرات في آسيا وأفريقيا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا ، التي لم تكن الأوضاع فيها تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات .

وإذا كان فكر هتلر نتاج لحضارة الغرب ، خصوصاً في القرن التاسع عشر ، التي تدور داخل الإطار العرْقي العلماني الإمبريالي الدارويني ، فلابد أن تكون هناك نقط اتفاق بين هذا الفكر والفكر الصهيوني الذي هو أيضاً نتاج المعطيات الفكرية نفسها . وبالفعل ، نجد أن الفكر الصهيوني يتحدث عن اليهود باعتبارهم عناصر بكتيرية . والواقع أن تعبير البكتريا المجازي (وهو تعبير دارويني لا علاقة له بقيم "بالية" مثل المحبة والمساواة والعدل) يستخدمه كل من هتلر ونوردو وهرتزل ، الذين يتحدثون عن اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً (قارن هذا بكلمات بوبر حيث يتحدث عن اليهود بوصفهم شعباً آسيويا طُرد من آسيا ولكنها لم تُطرد منه ، أي أن آسيا تجري في دمه) . كما أن الصهيونية ترى ضرورة إخلاء أوربا من اليهود ، ولعل الخلاف الوحيد هو أن الصهاينة يفضلون الطريقة البلفورية على الطريقة الهتلرية .

ويتضح مدى انتماء المنظومة النازية للحضارة الغربية الحديثة في معلومة مخيفة وغريبة ولكنها نماذجية وممثِّلة في آن واحد ، هي أن النازيين كانوا يطلقون على ضحايا الإبادة اليهود تعبير «مسلم» . فكأن النازيين هم حملة عبء الرؤية الأوربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية لهم ، وهي الحضارة الإسلامية ، وهم لم ينسوا قط هذا العبء وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا غير النافعين الذين يقلون تقدماً عن الآخرين .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة

كانت هناك ظروف خاصة بأعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا ساهمت في تحويل الموقف المتفجر إلى وضع مدمر بالنسبة لهم ولغيرهم من الأقليات ، ولم يكن للجماعة اليهودية في ألمانيا وزن عددي يذكر . فمن الناحية الكمية المحض ، لم يكن أعضاؤها يُشكلون أي تحدٍّ خاص للأغلبية الألمانية الساحقة كما يبيِّن الجدول التالي :

السنة	عدد اليهود	النسبة إلى عدد السكان
١٨٧١	٥١٢,١٥٠	٪١,٢٢
١٨٨٠	٥١٢,٦١٢	٪١,٢٤
١٨٩٠	٥٦٧,٨٨٤	٪١,١٥
١٩٠٠	٥٨٦,٨٣٣	٪١,٠٤
١٩١٠	٦١٥,٠٢١	٪٠,٩٥

ويُلاحَظ من الجدول السابق أن الجماعة اليهودية لم تكن آخذة في التزايد برغم الانفجار السكاني في أوربا في القرن التاسع عشر (زاد عدد يهود شرق أوربا بين عامي ١٨٠٠ و١٩٣٥ بنحو ستة أضعاف) . كما أن نسبة يهود ألمانيا إلى عدد السكان كانت آخذة في التناقص ، وقد تزايد هذا الاتجاه عام ١٩١٠ بسبب التنصُّر والزواج المختلط الذي بلغت نسبته بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٧ نحو ٤٤,٥٪ من جملة الزيجات اليهودية .

ولذا ، لم تكن المسألة اليهودية في ألمانيا كامنة في الكم كما كان الوضع (إلى حدٍّ ما) في شرق أوربا ، وإنما في الكيف ، وعلى وجه التحديد في الوضع الوظيفي المتميِّز لأعضاء الجماعة اليهودية الذي تأثر تأثراً عميقاً بعملية التحديث في ألمانيا . فقد كان أعضاء الجماعة ،

حتى نهاية القرن الثامن عشر، يعيشون أساساً في الريف والمدن الصغيرة. ولكن، مع بدايات القرن التاسع عشر وظهور الاقتصاد الجديد، هاجرت أعداد هائلة منهم إلى المدن الكبرى. ومع نهاية القرن، كانت أغلبيتهم تقيم في المدن الكبرى مثل براسلاو وليبزج وكولونيا، بالإضافة إلى هامبورج وفرانكفورت، وكانت برلين تضم ثُلث يهود ألمانيا.

وأدّى تركز يهود ألمانيا في المدن إلى وضوح تمايزهم الوظيفي والمهني، وهي ظاهرة موغلة في القدم في دول وسط أوربا، خصوصاً في ألمانيا. ففي العصور الوسطى، كان أعضاء الجماعة اليهودية في الإمارات الألمانية يُشكِّلون، جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بدور التاجر والصيرفي والمرابي، ثم تم طردهم من عدة مدن وإمارات ألمانية، فهاجروا منها إلى مدن وإمارات ألمانية أخرى. ولكن، مع حلول القرن السادس عشر، سُمح لليهود بالاستقرار في كثير من المدن والإمارات التي كانوا قد طُردوا منها، وتم استقدامهم كعنصر تجاري نشط لديه رأس المال اللازم والاتصالات الدولية. وكان يهود المارانو (الذين طُردوا من شبه جزيرة أيبريا) من أهم هذه العناصر. وعادةً ما كان يتم استقدام اليهود، سواء في العصور الوسطى أو في القرن السادس عشر، بأمر من الإمبراطور أو الأمير أو النخبة الحاكمة، فكان أعضاء الجماعات اليهودية يتبعون النخبة الحاكمة (أو أحد أعضائها) بشكل مباشر ويُشكِّلون مصدر دخل كبير لها، وكان الممولون اليهود يقومون باعتصار الجماهير من خلال الفوائد الضخمة التي يُحصِّلونها على قروضهم. ولكن النخبة الحاكمة كانت تستولي على نسبة ضخمة من الأرباح في نهاية الأمر عن طريق الضرائب التي يفرضها على أعضاء الجماعات اليهودية. وفي القرن السادس عشر ظهرت مهنة يهودي البلاط الذي يدير الخزانة الملكية ويعقد الصفقات والقروض بالنيابة عن الأمراء ويمول الحروب ويدير الاتصالات التجارية اللازمة، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا كانوا مرتبطين بالحاكم ملتصقين به ومتميِّزين طبقيا ومهنيا عن بقية أفراد الشعب، وهو وضع ازداد تبلوراً في القرن التاسع عشر.

ومن الإحصاءات الأخرى ذات الدلالة أن يهود برلين الذين كانوا يشكلون ـ كما أسلفنا ـ ٥٪ من سكانها كانوا يدفعون ٣٠٪ من جملة الضرائب، وكان يهود فرانكفورت الذين يشكلون ٧٪ من سكانها يدفعون ٢٨٪ من ضرائبها، كما بلغت نسبة أصحاب الأعمال ومديري البنوك من اليهود في برلين ١٥ , ٥٥٪ عام ١٨٨٢، ثم هبطت إلى ٦ , ٣٢٪ عام ١٩٢٥ (وهي أيضاً نسبة عالية). وتقول **الموسوعة اليهودية العالمية** إن هبوط النسبة المئوية لم يصاحبه هبوط في النفوذ، إذ كان اليهود، في بعض السنوات، يُديرون أهم ثلاثة بنوك تتحكم في ٦٠٪ من نسبة الإقراض في بعض السنوات، وكانوا يديرون نحو ثلاثة أرباع القروض الأجنبية التي مُنحت لألمانيا من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩. كما سيطر اليهود على ٣٢ , ٥٧٪ من صناعة المعادن عام ١٩٣٠. وهكذا، ارتبط اليهود في العقل الألماني بالمشروع الحر والمضاربات والسياسات الليبرالية. ومن جهة أخرى، كان والتر راتناو (وزير التعمير ثم وزير الخزانة في حكومة وايمار) يهودياً، كما كان واضع دستور هذه الجمهورية (التي استمرت فترة قصيرة) يهودياً أيضاً.

وكانت هذه الجمهورية ترمز في العقل الألماني لليبرالية المتخاذلة المتهالكة أمام هجوم أعداء ألمانيا. ومن قبيل المفارقات أن أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالمثل الليبرالية في وقت كان فيه المجتمع الألماني (ككل) يتخلى، بعد تَعثُّر التحديث، عن هذه المُثُل ليبحث عن طرق أخرى شمولية لحل مشاكله. ولعل في هذا الارتباط الوثيق بين الرأسمالية الألمانية ويهود ألمانيا ما يُفسِّر النقد الاشتراكي الثوري العنيف لليهود باعتبارهم ممثلين للرأسمالية، ولليهودية باعتبارها دين الاقتصاد الجديد. ولعل هذا يُفسِّر أيضاً السبب في أن ماركس يَقرن اليهودية بروح التجارة ويُوحِّد بينهما، ويرى أن إله إسرائيل الطماع هو المال. وهذا التراث الاشتراكي في نقد الشخصية اليهودية نابع من تربة ألمانية أساساً، حيث كان اليهود ممثَّلين بشكل واضح في الطبقات الرأسمالية. ولا ينطبق هذا، بأية حال، علىّ شرق أوربا حيث تحوَّلت البورجوازية الصغيرة والجماعات اليهودية إلى بروليتاريا تعاني ويلات الفقر.

وبرغم هذا الربط بين الجماعات اليهودية والرأسمالية في ألمانيا، فقد انضم عدد كبير من المثقفين اليهود إلى الحركات الثورية فيها، وكان ارتباطهم بها على المستوى الفردي واضحاً وضوح الارتباط الجماعي لليهود بالرأسمالية. فكان رئيس حكومة بافاريا الثورية (البلشفية) يهوديا، وكان كثير من قيادات الحركة الثورية المتطرفة (مثل روزا لوكسمبرج) من اليهود، وكان هناك شبح ماركس يرفرف على الجميع. ثم اتضح عام ١٩١٧ الوجود اليهودي الملحوظ في الثورة البلشفية (التي كان يُطلَق عليها في بعض الأوساط «الثورة اليهودية»). وهكذا، ارتبط اليهودي بالصناعة والاستغلال والمشروع الحر، وكذلك بالثورة الاشتراكية المتطرفة والحركات الثورية، أي أن اليهودي أصبح رمزاً جيداً لهذا

المجتمع الحديث (جيسيلشافت) المبني على التعاقد والتنافس، الذي قوض دعائم المجتمع الألماني المترابط (جماينشافت)، وأصبح بؤرة تتجمع فيها مخاوف الطبقة الوسطى التي كانت آخذة في التدهور الاجتماعي والطبقي بسبب التضخم والبطالة. بل أصبح رمزاً لكل تلك القوى، من اليمين واليسار، التي أودت بألمانيا وفرضت عليها أن تذعن للحلفاء.

وحينما استأنفت ألمانيا عملية التحديث بعد الحرب، تمت هذه العملية بقروض أجنبية وتحت رعاية الدولة، أي أن النمط الاقتصادي السائد في ألمانيا لم يكن فيه مجال لرأس المال الحر تماماً ولا للنمط الاشتراكي الجمعي. وارتطمت الدولة النازية بكل من رأس المال الحر الذي ارتبط به اليهود واليسار المتطرف الذي وُجد فيه اليهود بشكل ملحوظ. وساهمت العوامل السابقة جميعاً، بشكلٍ أو آخر، في عزل أعضاء الجماعة اليهودية عن بقية التشكيل السياسي الحضاري الألماني. ولكن العنصرين التاليين كانا حاسمين في فصلهما عن سواد الشعب الألماني، وفي تهميشهما تماماً. والعنصران هما:

١ - العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني:

تعود العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني إلى منتصف القرن التاسع عشر، وتُعتبَر امتداداً لظاهرة يهود البلاط ولارتباط أعضاء الجماعة بالحاكم.

والجدير بالذكر أن وضع اليهود تحسن كثيراً في منتصف القرن التاسع عشر مع توحيد ألمانيا، فقد كان ثلاثة من أهم مستشاري بسمارك من اليهود. ويُقال إن اليهودي المتنصر فريدريك ستاهل هو مُنظِّر الدعوة إلى العسكرية البروسية. والواقع أن بسمارك كان يفكر، حسب تقاليد النخبة الحاكمة الألمانية، في استخدام اليهود دائماً في مشاريعه. ويظهر ذلك الاتجاه بشكل أوضح في تفكير إمبراطور ألمانيا (ويلهلم الثاني) الذي كان يرى إمكان استخدام اليهود في مشروعه الاستعماري، كما كان واعياً بالقدرات المالية لليهود وحجم اتصالاتهم الدولية. وكانت مفاوضات هرتزل، مع إمبراطور ألمانيا، تدور داخل هذا الإطار وتنطلق من هذا التفاهم الضمني. وفي الوقت نفسه، كانت المنظمة الصهيونية في ألمانيا لا تكف عن الحديث عن نفع اليهود وإمكان استخدامهم في المشاريع الاستعمارية الألمانية، وتوطينهم في فلسطين أو في غيرها تحت راية الاستعمار الألماني. وقامت جمعية الغوث الألمانية اليهودية بالمساهمة في النشاط الاستيطاني الصهيوني باسم الاستعمار الألماني، كما كان يُنظَر إلى العنصر اليهودي من شرق أوربا (المتحدث باليديشية) باعتباره عنصراً ألمانياً، يمكن تسخيره في صالح المشروع الألماني الاستيطاني.

وكما هو معروف، صدر وعد بلفور الذي ينطوي، بشكل ضمني، على إمكان تحويل اليهود إلى عناصر تدين بالولاء للاستعمار الإنجليزي. ورغم هذا، استمرت رئاسة المنظمة الصهيونية الموجودة آنذاك في ألمانيا في التقرب إلى النظام الحاكم، واستمرت في بذل المحاولات لاستصدار وعد بلفوري ألماني. ولكن هذه الجهود لم تُثمر، بسبب علاقة ألمانيا الخاصة بالدولة العثمانية ورفض الخليفة العثماني الموافقة على المشروع الصهيوني حتى لو تم في إطار المشروع الاستعماري الألماني. ومع هذا، أصدرت الحكومة الألمانية (بعد صدور وعد بلفور) تصريحاً مبهماً يشبه وعد بلفور من بعض الوجوه، تَعِد فيه بمساعدة المشروع الصهيوني على أمل أن تجند يهود العالم لصالحها وتكسبهم إلى صفها. وقد جاء هذا التصريح متأخراً، ولم يؤد في النهاية إلى شيء يُذكر. ولكن ما يهمنا في هذا السياق أن التعامل مع اليهود (باعتبارهم جزءاً من المشروع الاستعماري الألماني) يُعتبَر (في جوهره) تهميشاً لهم من منظور المشروع القومي الألماني، فهو يعطيهم حقوقاً للاستيطان في فلسطين، كما يمنحهم الحق في التمتع برعاية الحكومة الألمانية "خارج" ألمانيا، الأمر الذي يعني ضمناً إنكار حقوقهم "داخلها". فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو الإطار الذي يتم من خلاله تصدير الفائض البشري غير المرغوب فيه إلى الشرق. ولكن القيادة الصهيونية، بقبولها هذا الإطار، رضيت بالتعريف الضمني الكامن لليهود كعنصر غريب غير منتم يجب أن يتم تصديره عن طريق التهجير. وهذا، على كل حال، هو التعريف الصهيوني (الواضح) لليهود.

٢ - تهميش اليهود من خلال هجرة يهود شرق أوربا:

تسبَّبت الهجرة الكثيفة ليهود اليديشية في أعقاب تعثُّر التحديث في شرق أوربا في تهميش اليهود وفصلهم عن التشكيل القومي الألماني العضوي. ومن الجدير بالذكر أن الهجرة اليهودية الحديثة اتسمت بأنها هجرة داخلية في أوربا (أي من بلد أوربي إلى آخر) حتى عام ١٨٨٠. ولم تبدأ الهجرة عبر الأطلنطي بشكل مكثف إلا بعد ذلك التاريخ. وقد هاجر، في المرحلة الأولى بصفة خاصة، مئات الألوف، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى إنجلترا وتسببوا في استصدار وعد بلفور لتحويل سيل الهجرة عنها، كما وصلت أعداد لا بأس بها إلى ألمانيا.

ومما زاد الأمور سوءاً أن ألمانيا قامت، في نهاية القرن الثامن عشر، بضم بولندا التي كانت تضم يهوداً من المتحدثين باليديشية (يهود شرق أوربا)، وهو ما كان يعني أن يهاجر هؤلاء إلى المدن الألمانية الكبرى. وبالفعل، انتقل معظم يهود بوزنان إلى ألمانيا، وكذا أعداد كبيرة من يهود جاليشيا. ولا شك في أن ظهور هذه الكتلة الضخمة من يهود شرق أوربا ذوي الطابع الجيتوي المنغلق، الذين لا يوجد لديهم (كغرباء مُقْتَلعين) التزام قوي بالمعايير الأخلاقية المحلية أو بالقيم الغربية، كما يفتقرون إلى الكفاءات المطلوبة في التعامل مع أوربا الحديثة والاقتصاد الجديد، كان يمثل تهديداً للموقع الطبقي لليهود ولمكانتهم الاجتماعية. وقد شهدت سنوات العشرينيات من هذا القرن هجرة يهودية ضخمة من بولندا بسبب الأزمة الاقتصادية. وقد أشرنا من قبل إلى النسبة المرتفعة من الزيجات المُختلَطة بين يهود ألمانيا، ويمكن أن نضيف هنا أننا نعتقد أن النسبة كانت عالية جداً بين اليهود من أصل ألماني، ولكن الإحصاءات لا تذكر سوى المتوسط العام دون أن تُفرِّق بين يهود شرق أوربا المقيمين في ألمانيا واليهود ذوي الأصل الألماني. وبوجه عام كان يهود ألمانيا يختفون، بينما كان يهود الشرق يحلون محلهم، أي أن الطابع العام للجماعة اليهودية كان آخذاً في التغير وفي اكتساب طابع غير ألماني.

وتحولَّت ألمانيا، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى مركز للثقافة العبرية نتيجة هرب عديد من الكتاب اليهود من روسيا، فتم تأسيس دار نشر عبرية، كما أسست الحركة الصهيونية كثيراً من المدارس لتعليم العبرية. وكان من شأن هذا كله أن أصبح العنصر اليهودي مرة أخرى عنصراً عضوياً متماسكاً غريباً يقف خارج المجتمع أو على هامشه. ولذا، كان أحد المطالب الأساسية لأعداء اليهود وقف الهجرة من شرق أوربا لأنها تأتي بالغرباء. وكانت حقوق اليهود الأجانب مثار نقاش حتى في عهد جمهورية وايمار الليبرالي، ولهذا نجد بعض الألمان، ممن لا يمكن اتهامهم بمعاداة اليهود، يطالبون بعدم السماح ليهود الشرق بامتلاك عقارات باعتبارهم أجانب لا باعتبارهم يهوداً.

بل طُرحت القضية نفسها داخل المنظمات اليهودية نفسها: هل يُمنح اليهود الأجانب، الذين كانوا يشكلون أحياناً الأغلبية في بعض المجتمعات، حق التصويت في الانتخابات؟ وبالفعل، قرر كثير من هذه التجمعات السماح ليهود الشرق بالانضمام إليها دون ممارسة حق التصويت. ولعل تأسيس جمعية الغوث كان يهدف إلى إبعاد يهود الشرق عن ألمانيا حتى لا يتأثر وضع اليهود داخلها، كما هو الحال مع جمعيات الغوث الأخرى (التوطينية) التي أنشأها أثرياء اليهود في الغرب (أمثال هيرش وروتشيلد).

وظهرت في هذه المرحلة جمعيات يهودية، مثل: التنظيم المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جمعية يهودية تدعو إلى الاندماج)، وجمعية غوث يهود ألمانيا (وهي جمعية خيرية قامت بنشاط استيطاني في فلسطين كما أشرنا)، وغير ذلك من جمعيات دينية وثقافية. وتم تأسيس اتحاد عام لهذه الجمعيات في أواخر العشرينيات. ولكن الأمر الذي يجدر ذكره، من وجهة نظر هذه الدراسة، هو تأسيس فرع للمنظمة الصهيونية في ألمانيا (بل أصبح المقر الرئيسي داخل ألمانيا منذ عام ١٩٠٤). وترأس فرع ألمانيا رجل ألماني متزوج من يهودية من شرق أوربا (كورت بلومنفلد) طرح شعارات قومية عضوية كانت تسبب الكثير من الحرج لأعضاء الجماعة الذين كانوا يحاولون الاندماج. وتُوِّجت جهوده باستصدار قرار بوزنان الصهيوني عام ١٩١٢ الذي جعل الهجرة إلى فلسطين هدفاً أساسياً لكل يهودي. وظل الصهاينة، ومعظمهم من أصل شرق أوربي، يتقبلون مختلف المنطلقات القومية العضوية. وفي هذا المناخ، ظهر هتلر وظهرت النازية. وأثناء محاكمات نورمبرج، أصر الزعماء النازيون، الواحد تلو الآخر، على أنهم تعلموا ما تعلموه عن المسألة اليهودية من أدبيات الصهاينة.

ورغم هذا الجو الهستيري الصهيوني النازي، ظلت الجماعة اليهودية رافضة للمنطق الصهيوني واستمرت في مقاومة المنطق النازي. ومع وصول هتلر للحكم، استولى الصهاينة على قيادة الجماعة اليهودية وطرحوا برنامجاً عام ١٩٣٣ لإعادة صياغة الجماعة اليهودية في ألمانيا وتعليم اليهود ما يتفق مع التقاليد الصهيونية، وذلك عن طريق مزج القومية بالدين بهدف تهجيرهم خارج ألمانيا. وقد وَصفت جمعية التنظيم المركزي للمواطنين الألمان هذا الموقف من قبل الصهاينة بأنه طعنة في الخلف. أما النازيون، فوافقوا على الطرح الصهيوني للقضية وقدَّموا التأييد والدعم للأنشطة والمؤسسات الصهيونية.

وكانت كل هذه الأسباب النابعة من الملابسات التاريخية والسياسية والحضارية العامة (أي المرتبطة بالمجتمع الألماني ككل)، والخاصة (أي المرتبطة بالجماعة اليهودية على وجه التحديد)، هي التي أدَّت إلى ارتطامهم بالنظام النازي وإلى إبادة أعداد كبيرة منهم (بالمعنيين العام والخاص اللذين نطرحهما، أي الإبادة من خلال التجويع والسخرة والتهجير والإبادة من خلال التصفية الجسدية).

٢٠ ـ بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا

توظيف الإبادة

تتسم المجتمعات الغربية الحديثة بمقدرتها الفائقة على حوسلة كل شيء، دون أي اعتبار لقداسة أو محرمات، ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للإبادة. وتبدأ عملية توظيف الإبادة ـ على يد الصهاينة ـ بمحاولتهم فرض معنى صهيوني ضيق عليها باعتبارها جريمة العصر التي ارتكبها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب. ثم تُعطي واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوربا وتاريخ العالم. ولذا صدرت عشرات الأفلام والدراسات والأعمال الفنية لحفر الإبادة في الذاكرة باعتبارها واقعة حدثت لليهود وحدهم، لا باعتبارها جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها. وقد دخلت دراسة الهولوكوست عشرات الجامعات والكليات الأمريكية، وأُقيمت نصب تذكارية للإبادة بالعبرية والإنجليزية في واشنطن ونيويورك ولوس أنجلوس وغيرها. وأنشأت الحكومة الأمريكية المجلس الأمريكي للتذكير بالإبادة، وتم إنشاء متحف تُخلَّد فيه ذكرى الإبادة النازية في واشنطن بجوار المتاحف القومية الأمريكية. وباسم الإبادة، حاولت المؤسسة الصهيونية التدخل (دون نجاح كبير) في انتخابات الرئاسة في النمسا عام ١٩٨٦، واعترضت بشدة (دون نجاح مرة أخرى) على زيارة الرئيس الأمريكي ريجان لمقبرة بتبرج الألمانية التذكارية لمجرد أن بعض المدفونين فيها من رجال قوات الصاعقة النازية.

ومن أهم أشكال توظيف الإبادة لصالح الصهيونية استخدامها كسحابة كثيفة لتبرير الفظائع التي ارتكبتها وترتكبها الدولة الصهيونة ضد الفلسطينيين. كما تُوظَّف الإبادة في جمع التعويضات التي تمول الكيان الاستيطاني الصهيوني (بلغ حجم التعويضات الألمانية وحدها ٧٠ بليوناً من الدولارات في ٣٥ عاماً). ومن المعروف أن هذه التعويضات التي تلقتها الدولة الصهيونية انعشت الاقتصاد الإسرائيلي، ومكنت الدولة الصهيونية من شراء مزيد من الأسلحة والمستوطنات والقنابل العنقودية!

والتعويضات تعني، في واقع الأمر، حصول إسرائيل (وبعض أعضاء الجماعات اليهودية) على مقابل مالي تعويضاً عن الآلام التي لحقت بهم. وهذا يخفف البُعد الأخلاقي للقضية، إن لم يكن يلغيه. ففي موقف مماثل رفضت الصين أن تتقاضى تعويضات مالية من اليابان على جرائمها ضد الصينيين باعتبار أن قبول التعويضات فيه تنازل عن الحق الأدبي، وفيه تخلٍّ عن المنظور الأخلاقي (المطلق) حيث تتحول القضية إلى ما يشبه المقايضة.

ومن الواضح أن عملية توظيف الإبادة تتم من منظور نفعي مادي انتقائي محض، لا علاقة له بالقيم الأخلاقية. وفي هذا الإطار يثير بعض الدارسين قضية علاقة الدولة الصهيونية مع بعض الشخصيات والدول التي كانت لها علاقة بالنظام النازي. إذ لا تُمانع إسرائيل البتة في توثيق علاقتها مع بعض حكومات دول أمريكا اللاتينية التي تأوي مجرمي الحرب النازيين (الذين تزعم إسرائيل أنها تطاردهم في كل زمان ومكان!) مادام هذا يخدم مصلحتها. وقد تعاونت إسرائيل مع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية التي كانت معروفة بتعاطفها الكامل مع النظام النازي. وقامت باستضافة رئيس وزراء جنوب أفريقيا السابق، بلثازا فورستر، وهو جنرال سابق في الحركة الوطنية في جنوب أفريقيا الموالية للنازيين وكانت تقاوم المجهود الحربي للحلفاء، وقد اعتُقل لمدة عشرين شهراً بسبب اشتراكه في المقاومة. ورغم مرور عشرات السنين إلا أنه لم يُنكر موقفه الموالي للنازية. وقد سمحت له الحكومة الصهيونية بوضع إكليل من الزهور على ياد فاشيم (النصب التذكاري) المقام لضحايا الإبادة النازية لليهود، الأمر الذي دفع جريدة **الجيروساليم بوست** (الصهيونية) إلى الاحتجاج والإشارة إلى الحقيقة البدهية التي أغفلتها إسرائيل وهي أن اليهود ينبغي عليهم ألا يرتبطوا بأحد مؤيدي النازية السابقين.

وفي مجال توظيف الإبادة يلجأ الصهاينة أحياناً لاختلاق القصص أو تزييف الحقائق كما حدث في حادثة آن فرانك (١٩٢٩ـ ١٩٤٥)، وهي فتاة ألمانية هاجرت إلى هولندا مع أسرتها بعد وصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣. وحينما قرر النازيون إرسال أختها إلى معسكرات العمل، اضطرت هي وأسرتها إلى الاختباء، فعاشوا في مخبئهم ما يزيد على عام، ثم أُلقي القبض عليهم ورُحِّلوا إلى معسكرات الاعتقال حيث لقيت آن وأختها حتفهما بسبب المرض.

ويُقال إن آن فرانك كتبت، أثناء فترة اختبائها، مذكراتها التي نُشرت بعد الحرب وتُرجمت إلى الإنجليزية. وهناك الكثير من الشكوك التي تحيط بهذه المذكرات إذ يُقال إنها لم تكتبها بنفسها بل كتبها أبوها (أو بعض من حوله) بعد موتها بطريقة مثيرة ليحقق من ورائها ربحاً مالياً. ولهذا فهي لا تُعتبَر وثيقة تاريخية يُعتد بها. ومع أنها ليست ذات قيمة أدبية كبيرة، إلا أنها أصبحت مصدراً لعدة أفلام ومسرحيات. كما غدت آن فرانك إحدى الأساطير التي تُستخدَم لتحويل الإبادة النازية من جريمة غربية ضد قطاعات بشرية عديدة داخل التشكيل الحضاري الغربي (تضم السلاف والغجر والجماعات

اليهودية) إلى جريمة ألمانية ضد اليهود وحسب. وأصبح المنزل الذي اختبأت فيه أسرة فرانك متحفاً.

وتحاول الدعاية الصهيونية توظيف واقعة الإبادة في تعبئة أعضاء الجماعات اليهودية (باعتبارهم الضحية الوحيدة) وراء الأهداف الصهيونية. ولتحقيق هذا يحاول الصهاينة أن يجعلوا الإبادة حجر الزاوية الذي تستند إليه الوحدة بين يهود العالم في إسرائيل وخارجها. فالإبادة، بعد فرض المعنى الصهيوني عليها، تنهض دليلاً على رفض العالم لليهود، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحية اليهود الذين يُقدَّمون قرباناً على المحرقة. وهذا تأكيد للمقولة الصهيونية الخاصة بأزلية معاداة الأغيار لليهود وحتميتها، ومن ثَمَّ يتعيَّن على يهود العالم الهجرة إلى الوطن القومي. (ولكن يهود العالم، مع هذا، يتصرفون على أساس أن الإبادة أمر مستحيل الوقوع مرة أخرى، ومن الصعب أن يخطط المرء على أساس حادثة استثنائية وفريدة).

ويحاول الصهاينة تقديم قراءة كاملة لما يسمونه «التاريخ اليهودي» بحيث تصبح الإبادة أهم معلم فيه، فيُقال «قبل الإبادة» و«بعد الإبادة»، تماماً مثل «قبل هدم الهيكل» و«بعد هدم الهيكل». ويُشار للإبادة بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل». والإبادة هي إذن هدم الهيكل للمرة الثالثة، الأمر الذي يدخلها دورة التاريخ اليهودي المقدَّس. بل يذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود إلى أن الإبادة غيَّرت النسق الديني اليهودي ذاته. ولذا، فإن من الضروري، حسب رأيهم، الحديث عن «لاهوت ما بعد أوشفيتس»، أو «لاهوت الإبادة» الذي يرى حادثة الإبادة باعتبارها حادثة مطلقة لا يمكن فهمها، وهي أكثر الحوادث أهمية وقداسة، ويصبح الشعب اليهودي هو المسيح المصلوب. وينادي هؤلاء المفكرون بحتمية أن تصبح الإبادة المرجعية الأساسية لليهود، ومن ثَمَّ ضرورة مناقشة مدى عدالة الرب، وهل هو رب خيِّر أم شرير، وهل يتدخل في التاريخ بمنحه الغرض والغاية أم يترك التاريخ في حالة فوضى كاملة؟ كما أن البقاء (بقاء الشعب اليهودي) يصبح المطلق الوحيد الذي يَجُبُّ سائر الاعتبارات الأخلاقية الأخرى ويصبح النقطة المرجعية النهائية الوحيدة. ويساعد التركيب الجيولوجي لليهودية على السماح بإفراز مثل هذه الأفكار وإعطائها قسطاً من الشرعية. (ومما يجدر ذكره أن الجماعات الأصولية ذات التوجه الصهيوني المسيحي الواضح ترى أن الإبادة هي بالفعل دليل على أن الرب هجر اليهود بسبب الذنوب التي اقترفوها). ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود (الأرثوذكس) إلى أن الإبادة ذات مغزى ديني عميق، فيرى بعضهم أن إبادة اليهود هي هدم الهيكل الثالث وأن هتلر أداة الخالق في حرق اليهود، كما يذهبون إلى أنهم بمنزلة الماشيَّح المذبوح الذي سيُولَد العالم من جديد بعد ذبحه. (وهناك رأي مغاير لهذا، إذ يذهب بعض الحاخامات [مثل مناحم هارتوم وإليعازر شاخ، الأب الروحي لحزبي شاس و ديجيل هاتورا] إلى أن الإبادة لها حقاً مغزى ديني ولكنها عقاب على خطيئة اليهود لابتعادهم عن تنفيذ الأوامر والنواهي، وسوف يقوم الإله بتدميرهم مرة أخرى إن لم يندموا ويعودوا عن طريق المعصية).

وقد جعلت المؤسسة العسكرية الخوف من الإبادة أحد أسس الإستراتيجية الصهيونية، فقد أشار كل من أبا إيبان ورابين إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ بأنها «حدود أوشفيتس». وهناك قدر كبير من الادعاء في هذه التشبيهات وصل إلى قمته حينما قال مناحيم بيجين إن ياسر عرفات حينما كان مُحاصَراً في بيروت يشبه هتلر في مخبئه، فالقائد الفلسطيني المحاصر الذي اغتُصبت أرض شعبه يشبه القائد النازي المُحاصِر الذي جيَّش جيوشه وأرسلها إلى الشعوب المجاورة ليستولي على أراضيها ويستعبدهم أو يبيد أعداداً منهم. وفي هذا تزييف كامل للحقائق، ولكن هذه هي عقلية العنصري الفاشي الذي يرى أنه عضو في الشعب المختار، ولذا فهو دائماً مضطهد، حتى حينما يقوم بتدمير الآخرين.

وقد نجح الصهاينة في ترسيخ واقعة الإبادة النازية ليهود أوربا في وجدان الأغلبية العظمى من الإسرائيليين. فالصحف لا تكف عن الكتابة عنها. وهناك يوم محدَّد لإحياء ذكرى الإبادة يُسمَّى «يوم الذكرى (يوم هازكرون)» ويقع في يوم ٤ ايار، أي قبل عيد الاستقلال الذي يقع في يوم ٥ آيار (وهو اليوم الذي يحتفل فيه المستوطنون بإنشاء الدولة الصهيونية على أرض فلسطين بعد طرد سكانها منها). ويبدأ اليوم بإطلاق صفارة إنذار في كل أنحاء الدولة في مغرب اليوم السابق فتُنكس الأعلام، وتُغلَق دور اللهو بأمر القانون، وتُقام الصلوات في المعابد اليهودية وتُوقد الشموع فيها، كما تُعلن صفارات الإنذار في الصباح عن دقيقتين حداداً يتوقف فيهما النشاط تماماً في الدولة الصهيونية بكاملها. ثم تُطلَق صفارة إنذار أخرى للإعلان عن انتهاء اليوم وبداية عيد الاستقلال. وقد لاحَظ الفيلسوف الديني الإسرائيلي اليهودي يشياهو لايبوفيتش أن الاحتفال بيوم الذكرى يزداد حدة عاماً بعد عام لأن قائمة أسماء الضحايا تزداد يوماً بعد يوم. بل تؤكد بعض الأبحاث الإسرائيلية أن شبح الكارثة لا يزال منعكساً وجاثماً على عقل الإسرائيليين من الجيل الثاني. ويرى واحد وستون بالمائة من الإسرائيليين أن الكارثة

كانت عنصراً أساسياً من عناصر قيام الدولة الإسرائيلية والمسوغ الأساسي له. ويعتقد اثنان وستون بالمائة أن قيام الدولة الإسرائيلية يمنع حدوث كارثة مماثلة في المستقبل.

ومما لا شك فيه أن الإحساس بخطر الإبادة إحساس حقيقي متجذر في الوجدان الإسرائيلي. ولكننا نذهب إلى أن أساسه الحقيقي ليس خطر الإبادة على يد النازيين، وإنما الطبيعة الاستيطانية للتجمع الصهيوني الذي لم يضرب بجذوره في المنطقة، وبخاصة أن أصحاب الأرض الأصليين لم تتم إبادتهم، بل لم يكفوا عن المقاومة، الأمر الذي يخلق عند الإسرائيليين ما نسميه «عقدة الشرعية» والخوف الدائم من عودة صاحب الأرض الذي يؤكد حضوره كذبهم (أرض بلا شعب)، بل قد يؤدي إلى غيابهم في نهاية الأمر. ولكن بدلاً من أن يواجه المستوطنون حقيقة وضعهم كمستوطنين ومغتصبين للأرض، وبدلاً من أن يدركوا الأصل الحقيقي لمشاعرهم ومخاوفهم، فإنهم يتجاهلونها ويفرضون عليها هذا التفسير الصهيوني. فالإدراك الحقيقي سيُفقدهم ثقتهم بأنفسهم وإحساسهم بشرعية وجودهم وأخلاقيته، أما التفسير الصهيوني فسيسبغ عليهم المزيد من الشرعية وسيزيد إصرارهم على حقهم في البقاء وإبادة كل من يقف في طريق الضحية الوحيدة للمجازر؛ المهددة دائماً وأبداً بالإبادة!

لاحظ بعض التربويين أن هذا التركيز على فكرة الإبادة، كفكرة رئيسية في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية داخل وخارج إسرائيل، يسبب لهم مشاكل نفسية عميقة، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة نفسية سوية، وسط بلاد العالم أو بين أحد الشعوب، وهو يعتقد أنهم قد يبيدونه تماماً في أية لحظة وأنه الضحية الوحيدة. ولذا، بدأت ترتفع أصوات للتحذير من خطورة هذا الاتجاه. ولكن الصهيونية عقيدة تستند شرعيتها إلى الكوارث التي حاقت باليهود في الماضي والتي قد تحيق بهم في المستقبل، ومن ثَمَّ، فإن أية رؤية مُركَّبة للتاريخ تسحب هذه الشرعية منها. وعلى هذا، فليس من المتوقع أن يتغيَّر هذا الاتجاه في القريب.

احتكار الإبادة

يحاول الصهاينة احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب، بحيث تُصوَّر الإبادة النازية باعتبارها جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم. ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية. كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين على سبيل المثال، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم.

وتثبت الدراسات التاريخية أن الإبادة النازية لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب، فعدد ضحايا الحرب العالمية من جميع الشعوب الأوربية يبلغ ما بين خمسة وثلاثين وخمسين مليوناً. وأظهر معرض لحكومة بولندا كان يطوف أمريكا عام ١٩٨٦ أن أكبر معسكرات الاعتقال هو أوشفيتس وأن التركيز النازي كان أساساً على البولنديين والاشتراكيين واليهود والغجر (بهذا الترتيب) لتفريغ بولندا جزئيا وتوطين الألمان فيها.

وتوحي الأدبيات الصهيونية بأن العالم كله تجاهل اليهود وتركهم يلاقون حتفهم ومصيرهم وحدهم. ولكن من الواضح أن المسألة أكثر تركيباً من ذلك بكثير. فصحيح أن بعض الشعوب ساعدت النازيين، كما حدث في النمسا، ولكن البعض الآخر ساعد اليهود وآواهم كما حدث في بلغاريا (خصوصاً بين أعضاء الجماعة الإسلامية) وفي الدنمارك وفنلندا ورومانيا وإيطاليا وهولندا. وفي فرنسا، تم تسليم خمسة وسبعين ألف يهودي للقوات النازية، ولكن تمت، في الوقت نفسه، حماية أضعاف هذا العدد. كما رفض السلطان محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب رغم مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك. ولا يمكن أيضاً تجاهل جهود الحكومة السوفيتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيداً عن المناطق التي احتلها النازيون (رغم تحالفها في بداية الأمر مع هتلر). وتتجاهل التواريخ الصهيونية كل هذا، تماماً مثلما تتجاهل العلاقة الفكرية والفعلية بين النازية والصهيونية والزعامات الصهيونية التي تعاونت مع النازيين.

ولكن هناك من يتحدى هذا الاحتكار الصهيوني للإبادة، وقد بدأت الكنيسة الكاثوليكية المواجهة حين قامت بتنصيب الأخت تريزا بنديكتا قديسةً. والأخت تريزا هي إيديث شتاين سكرتيرة الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر، وكانت يهودية. وعندما قرأت قصة حياة القديسة تريزا شعرت بإحساس ديني غامر وتنصرت وتكثلكت ثم ترهبنت، وقام النازيون باعتقالها وقتلها. ويُصر الصهاينة على أن سبب قتلها هو كونها يهودية بينما ترى الكنيسة أنها راهبة كاثوليكية استُشهدت من أجل عقيدتها. والحادثة الثانية هي الخاصة بدير الراهبات الكرمليات في أوشفيتس، الذي طالب اليهود بإزالته وتمسكت المؤسسة الكاثوليكية في بولندا بالإبقاء عليه. وقد قامت معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين.

فإذا كانت ذكرى الضباط اليهود الذين ماتوا إلى جانب إخوانهم الكاثوليك في كاتين قد خُلدت بنجمة داود، فلماذا لا يتم تخليد ذكرى المليون كاثوليكي الذين أفنوا في أوشفيتس بصليب؟ وإذا كان التذكار حيويا، فلماذا يُستثنى المسيحيون؟

ونحن، بطبيعة الحال، نرى أن الإبادة لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب، وإنما ضد سائر العناصر التي اعتُبرت، من منظور النازية، غير نافعة، خصوصاً وأنه لو انتصرت قوات روميل في العلمين لامتدت آلة الفتك النازية إلى أعراق يعتبرها النازيون متدنية (مثل العرب). ومن ثَمَّ، فإن احتكار الصهاينة واقعة الإبادة ليس له ما يبرره في الواقع التاريخي.

إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي

«إنكار الإبادة» مُصطلَح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي. وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور:

١ ـ كتب بول راسينيه في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان **أسطورة غرف الغاز**. وكان المؤلف قد رُحِّل إلى أحد معسكرات الاعتقال. وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيَّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوربا قبل الحرب وبعدها، وعقب صدور الكتاب حُوكم راسينيه وناشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرضت عليه غرامة مالية فادحة.

٢ ـ من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب البروفسور آرثر باتس الأستاذ بجامعة نورث ويسترن **أكذوبة القرن العشرين** الذي يثير الشكوك بشأن عملية الإبادة نفسها. ولا يزال البروفسير باتس يُدرِّس في الجامعة في الولايات المتحدة.

٣ ـ أصدر روبير فوريسون (أستاذ الأدب في جامعة ليون) سلسلة مقالات ثم مؤلفاً كبيراً كتب مقدمته اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي يثبت أنه لم تكن هناك أصلاً أفران غاز.

٤ ـ تقدَّم هنري روكيه برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكِّك فيها في وجود غُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي». وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز. ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة. ويُعَدُّ هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام.

٥ ـ أصدر ستاجليش، أحد قضاة مدينة هامبورج، كتاباً بعنوان **أسطورة أوشفيتس**. والكتاب رسالة للدكتوراه كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن، وتوصل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود بخصوص معسكر أوشفيتس أو عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرة ومليئة بالتناقضات. وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل. وما إن صدر الكتاب حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل. كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠٪ من راتبه.

٦ ـ يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة **ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس** وصفته بأنه "يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل، وأشارت إلى كتابه عن **حرب هتلر** بأنه أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب". ورغم كل هذا طُرد من كندا ثم من أستراليا، ومُنع من إلقاء محاضراته فيهما. وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس.

وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فابيوس (رقم ٤٣) في مايو ١٩٩٠ المسمَّى «قانون جيسو» (وهو اسم النائب الشيوعي الذي تبناه). ويُحرِّم هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١، جاء فيها: "يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة ٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥".

وقد يظن المرء لأول وهلة أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل: هل هي حقيقة أم مجرد اختلاق؟ وعدد الضحايا اليهود، وهل يبلغ عددهم ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير؟ هي قضايا تم حسمها تماماً في الأوساط العلمية. وقد يظن المرء كذلك أن الدراسات السابقة دراسات عنصرية تآمرية كتبها مهيجون يحاولون إثبات أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم. ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، فهي دراسات علمية، ذات مقدرة تفسيرية معقولة تتناول قضايا خلافية. وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون

متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير)، إلا أنها تبرهن على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات. ومما لا شك فيه أن هناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين، ومثل هذه الكتب لا تستحق القراءة لأنها كتابات عصبية متشنجة لا تبرهن على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة.

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يُهاجم هذه الكتب بشدة، العلمي منها وغير العلمي، ويشجبها بعصبية واضحة، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يُنكر الإبادة أو يثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين، مع العلم بأن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبِّرون فيها عن شكوكهم بشأن رقم ستة مليون. ولعله كان من الأجدى أن يميِّز الإعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية، وأن يُخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادئ، وأن يُطالب بفتح كل الملفات السرية والأرشيفات الغربية والشرقية لنتبيَّن مدى صحة هذه الأطروحات. وقد أصبح هذا متيسراً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إذ أصبحت وثائقه متاحة للدراسة. ولعل حالة ديمانجوك الذي اتُّهم بأنه "إيفان الرهيب"، الذي اشترك في إبادة اليهود وغيرهم في معسكر تربلينكا، تكون مثلاً على الخطوات المطلوب اتخاذها. فقد كانت كل الدلائل التي جمعها الأمريكيون والإسرائيليون تبيِّن أن ديمانجوك هو إيفان الرهيب، وأصدرت المحاكم الإسرائيلية حكماً ضده بالفعل. ولكن، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ظهرت وثائق تبيِّن بما لا يقبل الشك أن هناك شخصاً آخر هو الذي قام بعمليات الإبادة فأُفرج عن ديمانجوك.

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الإعلام الغربي والصهيوني إزاء عمليات إثارة الشكوك حول الإبادة وعدد الستة ملايين، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية. ونحن نذهب إلى أن الخطاب الحضاري الغربي له حدوده التي يفرضها على عملية الإدراك. فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمي والتخصيصي، فقام باختزالها وفرض منطق غربي ضيق عليها من خلال التلاعب بمستويات التعميم والتخصيص، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي، الحضاري والسياسي الحديث.

١ - بالنسبة للمسئول عن الجريمة: تُخضَع الإبادة النازية لعمليتين متناقضتين:

أ) يتم تضييق نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تصبح الإبادة النازية جريمة ارتكبها الألمان وحدهم ضد اليهود.

ب) يتم توسيع نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تختفي كل الحدود وتصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة كل الأغيار بشكل مطلق، أو جريمة كلٍّ من الألمان والأغيار، أو الألمان باعتبارهم أغياراً، أو الألمان بموافقة وممالأة الأغيار.

٢ - بالنسبة للضحية: تُخضَع الإبادة كذلك لعمليتين متناقضتين:

أ) يتم تضييق نطاق الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم، لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من الغجر والسلاف وغيرهم).

ب) يتم تعميم الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود، كل اليهود، لا يهود العالم الغربي وحسب.

وبعد أن تم تعريف الإبادة بهذه الطريقة، وبعد أن تم التلاعب بمستويات التعميم والتخصيص وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب، قام الغرب بأيقنة الإبادة، أي جعلها مثل الأيقونة تشير إلى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بشأنها، فهي مصدر المعنى النهائي. فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات، التي تُشكِّل فَهْم الإنسان الغربي المسبق، شأنها في هذا شأن مقولة "عبء الرجل الأبيض" في القرن التاسع عشر، وشأن إحساس الغرب بمركزيته في القرن العشرين أو الإيمان بالتقدم المادي وتحقيق الذات باعتبارهما الغاية النهائية لوجود الإنسان في الأرض. والمسلمات هي الركيزة الأساسية للنموذج، فهي التي تحدد حلاله وحرامه، وما هو مقدَّس وما هو مدنَّس. ومن ثَمَّ أصبح التساؤل بشأن الإبادة تساؤلاً بشأن إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات، إن شئت) وهو ما لا يمكن لأية حضارة، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله.

وقد يُقال إنهم في الغرب ينتجون أفلاماً تُعرِّض بالسيد المسيح عليه السلام.مثل فيلم سكورسيز "الإغواء الأخير للمسيح"، وأعمالاً فنية مثل لوحة الفنان أندريه سيرانو الشهيرة بعنوان "فلتتبول على المسيح" حيث وَضَع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول، وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله، إن كانوا يفعلون ذلك فلم لا يقبلون فتح ملفات الإبادة؟ والرد على هذا أن السيد المسيح لم يعد ضمن المقدسات، أما الإبادة فأصبحت كذلك. وقل الشيء نفسه عن الشذوذ الجنسي، فحتى الستينيات كان الخطاب الغربي يرى أن ثمة معيارية ما وثمة انحراف عنها، ولهذا كان هناك مفهوم للشذوذ والانحراف، ولكن مع غياب المعيارية تآكل بالتالي مفهوم الشذوذ تماماً، وبالتدريج أصبح الشذوذ شكلاً من أشكال

تأكيد الحرية الفردية المطلقة (التي تتجاوز أية معيارية اجتماعية)، وتعبيراً عن حق الفرد في اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه ويمكنه من خلالها تحقيق ذاته على أفضل وجه ممكن. وبذلك تحوَّل الشذوذ الجنسي من كونه انحرافاً إلى علامة من علامات التفرد وتعبيراً نماذجياً متبلوراً عن المنظومة الحضارية والأخلاقية السائدة في المجتمع في تمركزها حول الذات والمتعة (وفي عدم اكتراثها بالقيم الدينية والاجتماعية أو بأية ثوابت إنسانية). وأصبح تقبل الشذوذ الجنسي علامة من علامات التحضر وسعة الأفق والتعددية، وأصبح رفضها دليلاً قاطعاً على تزمت الشخص وتطرفه بل "أصوليته".

لكل هذا أصبح من الممكن، داخل الخطاب الحضاري الغربي، ربط الشذوذ بالمقدسات العلمانية (المادية) الجديدة. وهذا بالضبط ما يفعله الروائي الأمريكي اليهودي ليف روفائيل، فهو يربط الشذوذ الجنسي والهولوكوست، فبطل إحدى رواياته يهودي يخاف من تأكيد الأبعاد الثلاثة لهويته: هويته اليهودية، وهويته كشاذ جنسي، وهويته كأحد ضحايا الهولوكوست. فيقوم صديقه الذي يعيش معه بتشجيعه على تجاوز مخاوفه. ومنذ عدة سنوات أُقيم مؤتمر للشواذ والسحاقيات في إسرائيل، وأقام أعضاء المؤتمر صلاة القاديش في نصب ياد فاشيم من أجل الشواذ جنسياً والسحاقيات ممن سقطوا ضحايا للاضطهاد النازي. ولا شك في أن ربط الشذوذ الجنسي بالهوية اليهودية بالهولوكوست تصدمنا، ولكن علينا أن ندرك ما هو مقدَّس وما هو مدنَّس في خطاب الآخر قبل أن نشعر بالصدمة، والهولوكوست أيقونة مقدَّسة والشذوذ أمر عادي، بل أمر محبب، ومن يدري لعله أصبح أمراً له "قداسته" الخاصة، ونحن لا نعرف بعد، إذ أننا لا نتابع ما يجري هناك بكفاءة عالية؟

ولنا الآن أن نطرح السؤال التالي: لم تم تحويل الإبادة إلى أيقونة مقدَّسة، ومسلمة نهائية؟ والإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا الانتقال من عالم القرائن والوثائق والاستشهادات إلى عالم محفوف بالمخاطر وهو عالم الخطاب الحضاري والنماذج الحضارية. ولذا سنحاول أن نقدح زناد الفكر وأن نقنع بإجابات ذات مقدرة تفسيرية معقولة وليست ذات طابع يقيني عال. وسوف نعمد بدايةً إلى استبعاد الصيغة العربية الجاهزة للإجابة على كل الأسئلة، أي «اللوبي الصهيوني» أو «المؤامرة اليهودية» أو «النفوذ اليهودي» وغير ذلك من مقولات ما أنزل الله بها من سلطان لأنها تُفسِّر كل شيء ببساطة بالغة، وما يُفسِّر كل شيء بهذه البساطة لا يُفسِّر شيئاً على الإطلاق!

ونحن نذهب إلى أن ثمة خطاباً غربياً واحداً بشأن الإبادة، يتفرع عنه الخطاب الصهيوني، وهو خطاب لا يختلف عن الخطاب الغربي العام إلا في التفاصيل، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة، وعلاقة الواحد بالآخر هي علاقة الكل بالجزء والأصل بالفرع. وتتلخص خصوصية الخطاب الصهيوني في تعميق الجوانب اليهودية وفي إضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) كثيفة. فالخطاب الصهيوني ينزع، هو الآخر، حادثة الإبادة من سياقها الحضاري والتاريخي الغربي، ويتلاعب بمستوى التعميم والتخصيص، فيُحوِّل واقعة الإبادة من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد مجموعات بشرية داخلها إلى جريمة ألمانية أو جريمة الأغيار ضد اليهود. ولكن الخطاب الصهيوني (انطلاقاً من مفهوم الشعب المختار والحلولية اليهودية التي تسبغ القداسة على اليهود) يُعمِّق عملية التخصيص فتتحوَّل الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصي على الفهم الإنساني، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل، وإلى نقطة نهائية ميتافيزيقية تتجاوز الزمان والمكان والتاريخ. والاختلاف هنا اختلاف في الدرجة وليس في النوع، إذ تظل هناك وحدة أساسية، ولذا لا يجوز في الخطاب السياسي الغربي والصهيوني تشبيه إبادة أية أقلية بإبادة اليهود.

معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة)

أُقيمت معسكرات الاعتقال في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم، فكان البوليس السري الألماني (جستابو) يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية واحتجازهم في هذه المعسكرات. وحين عظم نفوذ الجستابو وأُعطي الحرية المطلقة في التصرف، أصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع، فقُبض على جماعات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال. ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهود بالذات، وإنما كان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته. وقد وقعت أول حادثة موجهة ضد اليهود في نوفمبر ١٩٣٨ عندما وُضع عشرون ألف يهودي في هذه المعسكرات في داخاو وبوخنوالد. ومن معسكرات الاعتقال الشهيرة الأخرى، معسكر برجن بلسن.

وقد أُقيمت ستة معسكرات للاعتقال والإبادة في بولندا هي:

١ ـ كلمنو (بالقرب من لودز).

٢ ـ بلزك (بالقرب من لفوف ولوبلين).

٣ ـ سوبيبور (بالقرب من لوبلين).

٤ ـ مايدانيك (على حدود لوبلين).

٥ ـ تربلينكا.

٦ ـ أوشفيتس ـ بيركناو، وهو أشهرها جميعاً.

وقد أُرسل إلى هذه المعسكرات كثير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم، من كل أنحاء أوربا. ويُقال إن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز، والمحارق. ومع هذا يثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن.

كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي في أفران الغاز. إذ تشير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطات فنية عالية، مكلفة جدا (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً ـ لابد من تهويتها لمدة عشر ساعات بعد استخدامها ـ يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون). ومثل هذه الاحتياطات لم تكن متوافرة للألمان تحت ظروف الحرب، وهو ما يعني استحالة استخدامه على نطاق واسع. وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر، الذي كان يعمل مستشاراً لولاية ميسوري وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما له دلالته أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين، قررت الاستغناء عنه، بسبب تكلفته العالية).

وثمة نظرية تذهب إلى أن غُرف الغاز الموجودة إنما كانت غُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر. أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الذين لقوا حتفهم بعد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود، وهو أمر مُتوقَّع في ظل ظروف الحرب وفقر الرعاية الصحية. ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصودة تمت دفعة واحدة، وإنما تمت نتيجة عناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثل سوء التغذية والأوبئة وغيرها، وأن من أُبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعداد صغيرة جداً، وهي قضية خلافية. ويُقال إن كثيرين ممن أُبيدوا بطريقة منظمة لم تكن إبادتهم بدافع الحقد العنصري وإنما كانت جزءاً من محاربة النازيين للمرض وللتشوهات والانحرافات النفسية والخلقية. ولذا حينما كان يندلع وباء في أحد المعسكرات لم يكن النازيون يلجأون لمحاربته (فهذا أمر مكلف، بخاصة في ظروف الحرب) وإنما كانوا يلجأون للتخلص من المرضى بطريقة عملية سريعة.

ولم تكن معسكرات الاعتقال مخصصة لليهود وحدهم وإنما كانت أداة من أدوات النظام النازي تُستخدَم لتحقيق أهدافه القومية، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهود يفوق عدد ضحاياها من اليهود.

ومن المهم بمكان أن نضع معسكرات الاعتقال والإبادة في سياقها الحضاري والمعرفي العام. فمنذ بداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبادة نمطاً متكرراً، حيث تم نقل سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) إلى معسكرات اعتقال منعزلة كان يُطلَق على كل واحد منها اسم «ريزيرفيشن» تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر. وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي. وكان السود، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم (ترانسفير) إلى أمريكا، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة. وفي الحرب العالمية الثانية، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة. وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصليين في معازل جماعية يُقال لها «البانتوستان». وغني عن القول إن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧.

ولم تكن الإبادة مصير كل من يذهب إلى معسكرات الاعتقال، التي كانت أساساً معسكرات سخرة، ولذا نجد أن العدد الأكبر كان يُستخدَم في أعمال السخرة. وقد أُسِّس بجوار أوشفيتس، على سبيل المثال، ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد اللازمة للعمليات العسكرية. وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل الشاق مقابل دولار واحد يومياً (وهو موقف كولونيالي تماماً)، ونظراً لحرصها الشديد على الأيدي العاملة الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة). كما اختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم.

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات، تكون بمنزلة حلقة الوصل بين المساجين والألمان. ويُطلَق عليهم اسم «كابو»، وكان بعضهم من اليهود بطبيعة الحال. وكان كثير من هؤلاء يحرصون على إظهار القسوة نحو المساجين حتى يحظوا برضا الألمان. ومن المعروف أن المساجين الألمان كانوا يُعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعامل به الآخرون لأنهم كانوا يُعتبَرون خونة.

واتسمت معسكرات الاعتقال بكفاءتها الشديدة وتحكمها الكامل في المادة البشرية التي كانت تُصنَّف بعناية وتُوظَّف على أحسن وجه. وقد حققت هذه المعسكرات عائداً كبيراً للاقتصاد

الوطني الألماني. هذا، بخلاف التخلص من أعداد كبيرة من الأفراد الذين يشكلون عبئاً على ألمانيا، أي أن التجربة لا غبار عليها البتة إن نظرنا إليها من منظور نفعي مادي لا يكترث بالمطلقات. وبالطبع، يختلف الأمر تماماً إن نظرنا للقضية من المنظور غير المادي، أي من منظور قداسة الإنسان وحقوقه المطلقة.

ستة ملايين يهودي: عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوربا؟

يرد في وسائل الإعلام الغربية رقم «ستة مليون» باعتباره عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود. وقد استقر الرقم تماماً حتى أصبح من البدهيات، ولكن هناك رفضاً مبدئياً للرقم في الأوساط العلمية اليهودية وغير اليهودية. فعلى سبيل المثال قام راؤول هيلبرج في كتابه **تدمير يهود أوربا** (١٩٨٥) بتخفيض العدد من ستة إلى خمسة ملايين (بعد دراسة إحصائية مستفيضة للموضوع). وذكر سيسيل روث، في موسوعته اليهودية، أن الهولوكوست نُفذ بطريقة يصعب معها التحقق من دقة الأرقام، وأن العدد يتراوح بين أربعة ملايين ونصف المليون وستة ملايين يهودي. ويميل المؤرخ الأمريكي اليهودي (صهيوني النزعة) هوارد ساخار إلى الأخذ برقم أربعة ملايين ونصف مليون. وهناك من الأدلة الإحصائية ما يرجح الأخذ برأي ساخار، فالكتاب السنوي **وولد ألماناك** لعام ١٩٣٩ يقدر يهود العالم آنذاك بنحو ١٥,٦ مليون. وفي عام ١٩٥٠، قُدِّر عددهم بنحو ١٦,٦ مليوناً، في حين قدرته صحيفة **نيويورك تايمز** عام ١٩٤٨ بما بين ١٥,٧ و١٨,٦ مليون، وهناك تقديرات تذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك، وقد يصل إلى ما بين ١٣ و١٤ مليوناً. وفي جميع الحالات، لا يمكن أن يزيد عدد من اختفوا على أربعة ملايين. وأخيرا، ذكر المؤرخ الإسرائيلي يهودا باور، مدير قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث التابع للجامعة العبرية، أن الرقم ستة ملايين لا أساس له من الصحة، وأن الرقم الحقيقي أقل من ذلك. وبيَّنت بحوث المؤرخ الفرنسي جورج ويلير أن العدد الإجمالي لمن أُبيدوا في أوشفيتس من اليهود وغير اليهود ليس أربعة ملايين وإنما هو ١,٦ مليون وحسب، وأن هؤلاء لم يقضوا حتفهم من خلال أفران الغاز وحسب وإنما أيضاً بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار. ومما يجدر ذكره أن من يتبنون رقم ستة ملايين وغيره من الأرقام لا يشيرون من قريب أو بعيد إلى ظاهرة اختفاء اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط وسوء التغذية والغازات والأوبئة (التي تتزايد بسبب ظروف الحرب).

وبغض النظر عن أن يكون الرقم مليوناً أو أربعة أو ستة ملايين، فإن ثمة خللاً أساسيا في المنطق الصهيوني يمكن تلخيص بعض جوانبه فيما يلي:

١ ـ التركيز على اليهود بالذات دون الجماعات الأخرى. فمع أن اليهود عانوا، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من ضحايا النازية، إلا أن سياسة هتلر في الإبادة كانت موجهة أيضاً نحو الغجر والكاثوليك والمعارضين السياسيين والمرضى والمتخلفين عقليا والسلاف عامة والبولنديين والروس على وجه الخصوص. وقد بلغ عدد ضحايا الحرب ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليون، وخسر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشرة وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود. وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني.

٢ ـ التركيز على المدنيين دون العسكريين. ومع ذلك، فإن من بين العشرين مليون سوفيتي الذين قُتلوا في الحرب، كان هناك أربعة ملايين ونصف مليون مدني والباقون من العسكريين، ناهيك عن عدة ملايين من الألمان أرسلهم هتلر للموت في ساحة القتال. كما كان هناك كثيرون من جنود الحلفاء ضمن من قُتلوا في الحرب. ويجب ألا ننسى الجنود من الأفارقة والآسيويين الذين جُنِّدوا، رغم أنفهم، ليشتركوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، حيث كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية باعتبارهم مادة بشرية رخيصة.

٣ ـ التركيز على الماضي دون الحاضر، وعلى ملايين اليهود الذين هلكوا قبل نحو نصف قرن، دون اهتمام مماثل بالملايين التي أُبيدت بعد ذلك. فقد فقدت كمبوتشيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نحو مليوني شخص، وفقدت الجزائر نحو مليون شخص، وفقدت أفغانستان منذ الغزو السوفيتي عام ١٩٧٨ نحو مليون قتيل، فضلاً عن مليوني مهاجر داخل البلد وخمسة ملايين مهاجر خارجها حتى صاروا يمثلون نصف مجموع اللاجئين في العالم.

٤ ـ وهناك، بطبيعة الحال، مشكلة ملايين الفلسطينيين الذين طُردوا من ديارهم ويخضعون لظروف إرهابية شبه دائمة.

لكن التشكيك في مدى دقة الرقم (الستة ملايين) لا يعني بحال من الأحوال التشكيك في الجريمة النازية نفسها، فالجريمة النازية إحدى جرائم الحضارة الغربية الحديثة العديدة التي لا يمكن التهوين من شأنها. وما نهدف أساساً إليه من خلال مناقشة هذه الإشكالية هو تصحيح الرقم ووضع الظاهرة في سياق إنساني عام ومنظور تاريخي شامل، بحيث نُحدِّد هويتها باعتبارها جريمة غربية محددة ضد

قطاعات بشرية عديدة بدلاً من أن تكون جريمة ألمانية ضيقة أو جريمة عالمية غير محدَّدة ضد اليهود كلهم، وضد اليهود دون سواهم. ونحن بهذا ننقذ واقعة الإبادة من سخافات الإعلام الغربي والصهيوني، ولعبة الأرقام الطفولية التي تخبئ الأبعاد التاريخية والأخلاقية والإنسانية العامة للواقعة.

اختفاء وموت الشعب اليهودي

يروج المدافعون عن الرؤية الصهيونية للإبادة النازية لرقم ستة ملايين، كجزء من عملية الأيقنة وتحويل الإبادة إلى لغز من الألغاز وسر من الأسرار المقدَّسة. وقد أهمل هؤلاء تماماً بعض العناصر التي أدَّت إلى اختفاء اليهود من خلال عناصر طبيعية مختلفة سنتناولها في هذا القسم.

فمن المعروف أن الفترة بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٢ شهدت تَناقُص عدد يهود العالم مليوناً، فانخفض من ١٣,٨٣٧,٥٠٠ إلى ١٢,٩٨٨,٦٠٠، دون حدوث إبادة بل دون حالة حرب أو أوبئة. وتناقص عددهم لمركب من الأسباب أدَّى إلى ما يُسمَّى «موت الشعب اليهودي». ومن الواضح أن يهود أوربا، أي أغلبية يهود العالم آنذاك، بدأوا يدخلون مرحلة التناقص ابتداءً من القرن العشرين، للأسباب التالية:

١ ـ أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وتناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر:

أ) أدَّت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويُقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تُعيد إنتاج نفسها.

ب) كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، أي بأعمال التجارة والمال. وكانوا، لهذا، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية. ومع منتصف القرن التاسع عشر، تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن المدن عشية الحرب العالمية الثانية. ومن المعروف أن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة.

جـ) كان اليهود، حتى عشية الحرب العالمية الثانية، جماعة بشرية مهاجرة، ومن المعروف أن أعضاء مثل هذه الجماعات يعزفون عن الإنجاب لعدم استقرارهم.

د) كانت هناك عناصر أخرى أدَّت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب، من بينها تحسن مستواهم المعيشي، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانية، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات، الأمر الذي يقوِّض الرغبة في إنجاب الأطفال.

وبالفعل، يُلاحَظ تناقص أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية. فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثُر بين شعوب الإمبراطورية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر، انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق عام ١٩٢٦. ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٩ لأنها كانت فترة الحرب، كما أنها أصبحت موضوعاً يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه.

٢ ـ عوامل تؤدي إلى الاختفاء:

أ) ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية، وهو أمر جديد كل الجدة، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية. لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى انقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكلٍ غير مباشر أيضاً عن طريق زيادة معدل العزوف عن الإنجاب. كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادةً من الذكور في سن الخصوبة.

ب) تزايد نسبة الزواج المُختلَط بدرجة عالية كانت تصل إلى أكثر من ٥٠٪ في بعض العواصم الأوربية.

جـ) تَنصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من أشكال الاندماج الحادة. وعشية الحرب العالمية الثانية تزايَد المعدل لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي. كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية. وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر.

د) ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي. فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه، فلو كان الشخص يهودياً وعرَّف نفسه بأنه "روسي" أو "أوكراني" فإن الأمر متروك له. ومع تآكُل الهُوية اليهودية، لم يعد هناك دافع قوي لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم. وقد أشار عالم الاجتماع اليهودي لوريا أنجلمان، عشية الحرب العالمية الثانية، إلى ما سماه «العملية ذات

الأبعاد الثلاثة» (تناقص المواليد، وتزايد الوفيات، وتزايد معدلات الاندماج) باعتبارها العملية التي ستؤدي إلى الاختفاء الكامل لليهود.

٣ ـ ظروف الحرب العالمية الثانية:

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعَّدت كل العناصر السابقة وزادتها حدة، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في الفترة نفسها. كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض. ويُقال إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وأنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام. (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع. ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا). كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية، وانتهاءً بالغارات على المدن، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم.

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء الستة ملايين يهودي (أو حتى الأربعة ملايين حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمَّدة وحسب.

٢١ ـ إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازية

من الموضوعات التي لم يتم بحثها بالقدر الكافي، لأسباب معروفة، قضية تورُّط بعض أعضاء الجماعات اليهودية (من الصهاينة وغير الصهاينة) في علاقة تعاون وثيقة مع النازيين. وقد أخذ هذا التعاون أشكالاً كثيرة من بينها عدم الاشتراك في المقاومة أو التعاون الاقتصادي والثقافي مع النازيين. ولكن أهم أشكال التعاون وأوثقها هو التعاون المؤسَّسي بين المستوطنين الصهاينة والنظام النازي والنظام الفاشي الذي أخذ شكل معاهدة الهعفراه. ومن أهم الشخصيات الصهيونية التي تعاونت مع النازي ألفريد نوسيج.

مقاومة الجماعات اليهودية للنازية

يُثير بعض الدارسين تساؤلاً بشأن المقاومة اليهودية والصهيونية للنازيين، وهي مسألة خلافية مركبة. ومما يجدر ذكره أنه حين استولى هتلر على السلطة عام ١٩٣٣، ظلت هناك جيوب رافضة داخل المجتمع الألماني صعَّدت المقاومة ضده من منظور ليبرالي. كما كانت هناك حركة مقاومة ثورية نظمتها الأحزاب الشيوعية والاشتراكية، فالنازية حركة شمولية تقف ضد مصلحة الطبقة العاملة. كما كانت هناك مقاومة من منظور يميني تدعمها قطاعات معينة من الرأسمالية الألمانية الكبيرة. وكانت هناك أيضاً مقاومة من منظور تقليدي أرستقراطي باعتبار أن النازية تقضي على امتيازات الطبقة الأرستقراطية الألمانية التقليدية ومكانتها. إذ كانت النازية، على مستوى من المستويات، عملية تحديث سريعة وراديكالية تمت تحت إشراف عناصر من البورجوازية الصغيرة لا تحترم التقاليد وتقضي على سائر الخصوصيات وتحاول أن تنجز في عشرة أعوام ما أنجزته أوربا في مئات الأعوام. وقد تمركزت المقاومة التقليدية في الجيش ووزارة الخارجية، وكانا يضمان أعداداً كبيرة من أعضاء الطبقة الأرستقراطية. وبالمثل قام البولنديون بحركة مقاومة عنيفة ضد النازيين، هذا بخلاف حركات المقاومة في فرنسا وغيرها من الدول.

وقد بيَّن كثير من الكُتَّاب أنه لم تنشأ أية مقاومة يهودية في أرجاء أوربا، مع أن مثل هذه المقاومة كان بوسعها أن تصيب آلة الإبادة النازية بالشلل أو تحدُّ من سرعتها أو تعطلها، خصوصاً وأنها كانت مرهَقَة. ولم تبدأ المقاومة اليهودية جديا في وارسو، التي كان ٤٥ في المائة من سكانها من اليهود، إلا في أوائل عام ١٩٤٣، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء وحين قررت برلين تدمير حارة اليهود، وكان الوقت قد فات على إنقاذ نزلاء المعسكرات.

والموقف الصهيوني من الأسباب الأساسية التي يطرحها البعض لتفسير ضعف المقاومة اليهودية رغم الشراسة النازية، إذ يبدو أن الصهاينة لم يبدوا حماسة كبيرة في حربهم ضد النازية، وكانوا غير مكترثين بالمقاومة ضد النازيين. وفي مجال هجومه على المشروع الصهيوني، حذر المفكر الاشتراكي كارل كاوتسكي من الآثار الضارة للصهيونية التي توجه جهود اليهود وثرواتهم إلى الاتجاه الخاطئ (الاستيطان في فلسطين) في وقت تتقرر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماماً (أوربا وألمانيا) حيث يجب عليهم أن يركزوا فيه كل قواهم. وكان كاوتسكي يشير بذلك إلى أن ملايين اليهود في شرق أوربا (بين ثمانية وعشرة ملايين) لم يكن من الممكن تهجيرهم إلى

فلسطين. وبدلاً من تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم، حتى يكونوا مهيئين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة، كانت القيادات الصهيونية تركز على تهجير بضع مئات منهم إلى أرض الميعاد.

ولكن الاعتبارات الصهيونية كانت مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك، إذ قرر الصهاينة اتخاذ موقف الحياد من المقاومة، باعتبار أن اليهود لهم مصالحهم وحروبهم المختلفة، وأن هدفهم الوحيد تأسيس الدولة الصهيونية. ولذا نادى كثير من الصهاينة بعدم الاشتراك في الحركات المعادية للنازية والفاشية. وقد بيَّن ماريك إيديلمان، أحد قواد تمرد جيتو وارسو، في حديث له مع مجلة **هآرتس** أن الأبطال الحقيقيين للمقاومة كانوا أعضاء حزب البوند واليهود المعادين للصهيونية والشيوعيين والتروتسكيين والصهاينة اليساريين، أما أعضاء التيار الصهيوني الأساسي فكان موقفهم الحياد. وكلما كان النضال ضد النازية يزداد ضراوة، كان الصهاينة يزدادون ابتعاداً عن بقية اليهود. ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية، ويُقال إن أغلبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة (وإن كان هذا يحتاج إلى مزيد من التمحيص). ومن الثابت تاريخيا أن المجالس اليهودية كانت أداة ذات كفاءة عالية في إدارة عملية الإبادة.

وقد تعاون كثير من الأفراد اليهود (غير الصهاينة) مع النازيين، وهم في هذا لا يختلفون عن مئات الأوربيين الآخرين الذين كانوا مجرد موظفين ينفذون الأوامر التي تَصدُر إليهم. كما لم يكترث يهود فرنسا بنقل اليهود الذين ليسوا من أصل فرنسي، تماماً مثلما أظهر يهود ألمانيا عدم اكتراث بنقل يهود شرق أوربا. بل إن بعض الكُتَّاب اليهود أثاروا قضية دور الحاخامات في أوربا وفشلهم في قيادة حركة المقاومة. ومن المعروف أن قسا كاثوليكياً وواعظاً بروتستانتيا تطوعا للذهاب مع المرحلين إلى معسكرات الاعتقال، بينما لم تلعب الحاخامية دوراً مماثلاً.

والموضوع، كما أسلفنا، خلافي جدا، فثمة نظرية تذهب إلى أن المقاومة لم تكن على أية حال لتجدي فتيلاً، وذلك لأن الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني لم تكن تمانع في الإبادة، كما أن آلة الحرب والمخابرات والإبادة الألمانية كانت على درجة عالية من الكفاءة والقدرة على الفتك. ومن الممكن تطبيق المقولة نفسها على هؤلاء الأغيار المتهمين بعدم مقاومة النازي، فلعلهم توصلوا هم أيضاً إلى عدم جدوى المقاومة. ولكن هذا القول الذي ينطبق على الجماعة اليهودية في ألمانيا لا يسري بأية حال على يهود بولندا الذين كانوا يُشكِّلون كثافة سكانية لا بأس بها، وكان بوسعهم المقاومة والانضمام إلى الشعب البولندي الذي كان يقاوم الغزو النازي.

ومن القضايا الأخرى التي تُثار في هذا السياق موقف المستوطنين الصهاينة. فقد كانت إحدى دعاوى إقامة الدولة الصهيونية أنها ستكون ملجأ لليهود يحميهم من هجمات الأغيار ومذابحهم. ولكن حينما دخلت قوات روميل حدود مصر وبدأت تتقدم نحو الإسكندرية، اكتشف المستوطنون الصهاينة عبث المقاومة، بل وضعت بعض الكيبوتسات خطة للانتحار. والقدرة على الانتحار تختلف بشكل جوهري (في تصورنا) عن المقاومة والإنقاذ. ولكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الانتحار يفقد الجيب الصهيوني شرعيته كملجأ أخير ونهائي لليهود.

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكِّلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا. وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية، عام ١٩٨١، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، ولكنها أغلقته بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم، وهو كذلك بالفعل. لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق، خصوصاً وأن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكان والكنيسة بالتقصير لم تتوقف.

الفاشية والصهيونية

من أهم الأفكار الغربية التي نبتت الصهيونية في تربتها، الأفكار السياسية الخاصة بالقومية العضوية وبالدولة القومية باعتبارها المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية للنسق، وهي الأفكار التي تصبح تقديساً للدولة وانصياعاً لزعيمها في الأنساق الشمولية. وقد تبنَّت الصهيونية كل هذه الأفكار وتحركت في إطارها، فأنشأت علاقة مع النظام الفاشي (في إيطاليا) والنظام النازي (في ألمانيا).

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشيه لا علاقة لها بالعداء لليهود. وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية. حيث نصت المادة ٣٥ من قانون تأسيس هذا الاتحاد على أن اليهود سفراء الفاشية للعالم، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا في النشاطات الدينية والاجتماعية ليهود العالم، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم.

وفي يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيارة موسوليني، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة. واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه بأن الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية. فرد وايزمان عليه ردا مقنعاً بيّن له فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع، وأضاف أن شروط حكومة الانتداب نفسها تفتح المجال أمام إيطاليا أو أية دولة أخرى للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيازات تجارية، على حد قول وايزمان)، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذا اعتمدت الميزانية اللازمة. وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين، سمح موسوليني على أثره بتعيين يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية.

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في سبتمبر ١٩٢٦، عرض موسوليني أن يُقدم المساعدة للصهاينة كي يبنوا اقتصادهم، وقامت الصحافة الفاشية بنشر مقالات مؤيدة للصهاينة. كما زارها ناحوم سوكولوف عام ١٩٢٧، باعتباره رئيس اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية، وصرح بأنه أدرك الطبيعة الحقة للفاشية، وأكد أن اليهود الحقيقيين لم يحاربوا قط ضدها. ولا شك في أن كلماته هذه تحمل معنى التأييد الكامل للنظام الفاشي، وقد تبعته في ذلك المنظمة الصهيونية في إيطاليا. ومن الزعماء الصهاينة الذين زاروا إيطاليا الفاشية، ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي الذي استمع إلى الزعيم الإيطالي وهو يُعرب عن حماسته للمشروع الصهيوني وعن استعداده الكامل لمساندته.

وقد تعلم جابوتنسكي الكثير من الفاشية الغربية، وكان يُعبِّر عن إعجابه الشديد بالدوتشي وفكره، وبالتنظيمات الشبابية الفاشية التي حاولت المنظمات الشبابية التصحيحية التشبه بها في زيها الرسمي. وكال موسوليني المديح والتقريظ لجابوتنسكي حين قال مرة للحاخام ديفيد براتو الذي أصبح فيما بعد حاخام روما: "كي تنجح الصهيونية يجب أن تحصلوا على دولة يهودية لها علم يهودي ولغة يهودية، والشخص الذي يفهم ذلك حقا هو الفاشي جابوتنسكي". كما نعت موسوليني نفسه ضمناً بأنه صهيوني يدافع عن فكرة الدولة اليهودية. ورغم أن جابوتنسكي لم يكن يرتاح أحياناً إلى وصفه بالفاشي، فإن موقفه بشكل عام كان موقف المؤيد للفاشية والمعجب بها.

النازية والصهيونية (الأصول الفكرية المشتركة والتماثل البنيوي)

رغم الدعاية الصهيونية الشرسة وتأكيد احتكار اليهود لدور الضحية في عملية الإبادة التي قام بها النازيون ضد كثير من الشعوب والأقليات الإثنية والدينية والعرْقية، فإن ثمة علاقة وطيدة بين الصهيونية والنازية تستحق الدراسة. وقد يكون من المفيد ابتداءً أن نقرر أن النازية والصهيونية ليسا بأية حال انحرافاً عن الحضارة الغربية الحديثة بل يمثلان تيارين أساسيين فيها. ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية جزء أصيل من الحضارة الغربية أن الغرب يحاول تعويض اليهود عما لحق بهم على يد النازيين بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين، وكأن جريمة أوشفيتس يمكن أن تُمحَى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت أو مذبحة قانا. وقد أنجزت الصهيونية ما أنجزت من اغتصاب للأرض وطرد وإبادة للفلسطينيين من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي، واستخدمت كل أدواته من غزو وقمع وترحيل وتهجير. والغرب، الذي أفرز هتلر وغزواته، هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي. وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية داروينية للجريمة التي ارتكبت وتُرتكب يوميا ضد الشعب الفلسطيني.

ولابد أن نقرر أن الصهيونية لم تقم بعملية إبادة شاملة (بمعنى التصفية الجسدية) للفلسطينيين، إلا أن هذا يرجع إلى اعتبارات عملية عديدة لا علاقة لها بالبنية الإبادية للأيديولوجية الصهيونية، من بينها تأخر التجربة الصهيونية إلى أواخر القرن التاسع عشر، وعدم إعلان الدولة الصهيونية إلا في منتصف القرن العشرين، وهو ما جعل الإبادة مسألة عسيرة بسبب وجود المنظمات الدولية والإعلام. كما كان شأن الكثافة السكانية العربية وتماسك العرب وانتمائهم إلى تشكيل حضاري مركب ومقدرتهم على التنظيم والمقاومة والانتفاضة أن أصبحت الإبادة حلا مستحيلاً (ومع هذا لابد من الإشارة إلى عمليات الإبادة الجسدية التي تمت في صفد ودير ياسين وكفر قاسم، وغيرها من مدن وقرى في فلسطين، حيث لم تكن الممارسة الصهيونية تهدف إلى تهجير الفلسطينيين، بقدر ما كانت تهدف إلى قتلهم وإبادتهم. وبالمثل كانت عملية صابرا وشاتيلا ذات طابع إبادي واضح). كما أن الإبادة بمعنى التهجير والتسخير والقمع والاستغلال حدث يومي داخل الإطار الصهيوني.

إن الحضارة الغربية الحديثة هي التي أفرزت الإمبريالية والنفعية الداروينية والنازية والصهيونية، ولذا فليس من المستغرب أن نجد

مجموعة من الأفكار المشتركة بين الرؤيتين النازية والصهيونية التي تُشكِّل الإطار الحاكم لكل منهما :

١ ـ القومية العضوية وتأكيد مركزية روابط الدم والتراب، وهو ما يؤدي إلى استبعاد الآخر (الشعب العضوي المنبوذ).

٢ ـ النظريات العرْقية .

٣ ـ تقديس الدولة .

٤ ـ النزعة الداروينية النيتشوية .

كما يظهر التماثل البنيوي بين النازية والصهيونية في خطابهما . فكلاهما يستخدم مُصطلَحات القومية العضوية مثل «الشعب العضوي (فولك)» و«الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه» و«الشعب المختار» . وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية : " لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران . ونحن وحدنا شعب الإله المختار . هل هذه إجابة شافية عن السؤال؟ " . ويتحدث مارتن بوبر عن أن الرابطة بين اليهود وأرضهم هي رابطة الدم والتربة، ومن ثم يطالب بضرورة العودة إلى فلسطين حيث توجد التربة التي يمكن للدم اليهودي أن يتفاعل معها ويبدع من خلالها، وهي مسألة أشار إليها كل من الكاتبين الصهيونيين ميخا بيرديشفكي وشاؤول تشرنحوفسكي، حيث تحدثا عن الشعب العضوي اليهودي بالعبارات نفسها ونسبا إليه الخصائص نفسها . كما استخدم الصهاينة مفهوم «الدم اليهودي» لتعريف الهوية اليهودية .

وأثناء محاكمات نورمبرج، كان الزعماء النازيون يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة . وقد أشار ألفريد روزنبرج، أهم منظري النازية، إلى أن " بوبر على وجه الخصوص هو الذي أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا، فهناك فقط يمكنهم العثور على جذور الدم اليهودي " . ولعله، بهذا، كان يشير إلى حديث بوبر عن اليهود باعتبارهم آسيويين حيث يقول " لأنهم إذا كانوا قد طُرِدوا من فلسطين، فـفلسطين لم تُطرد منهم " .

ومن الموضوعات الأساسية المشتركة فكرة النقاء العرْقي . وكان سترايخر (المُنظر النازي) يؤكد أثناء محاكمته، أنه تعلمَ هذه الفكرة من النبي عزرا : لقد أكدت دائماً حقيقة أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي يجب أن تحتذيه كل الأجناس، فلقد خلقوا قانوناً عنصريا لأنفسهم، قانون موسى الذي يقول : " إذا دخلت بلداً أجنبيا فلن تتزوج من نساء أجنبيات " . وكانت الأدبيات الصهيونية الخاصة بنقاء اليهود العرْقي ثرية إلى أقصى حد في أوربا حتى نهاية الثلاثينيات .

ويستخدم النازيون والصهاينة على حد سواء الخطاب النيتشوي الدارويني نفسه المبني على تمجيد القوة وإسقاط القيمة الأخلاقية . إذ يستخدم الصهاينة ـ شأنهم في هذا شأن النازيين ـ مُصطلَحاً محايداً، فهم لا يتحدثون عن طرد الفلسطينيين وإنما عن " تهجيرهم " أو " دمجهم في المجتمعات العربية " . وهم لا يتحدثون مطلقاً عن " تفتيت العالم العربي " وإنما عن " المنطقة "، ولا يتحدثون عن «الاستيلاء» على القدس وإنما عن «توحيدها» ولا عن الاستيلاء على فلسطين أو «احتلالها» وإنما عن «استقلال» إسرائيل أو عن «عودة الشعب اليهودي» إلى أرض أجداده .

ويتضح التطابق بين النازيين والصهاينة بكل جلاء في واحد من أهم التنظيمات النازية . فقد كان النازيون ـ شأنهم شأن أية عقيدة تدور في إطار القومية العضوية ـ يؤمنون بوجود دياسبورا ألمانية تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية . وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهودي يدينون بالولاء للوطن الأم ويجب أن يعملوا من أجله . وربما لأن العودة للوطن الأم أمر عسير، كما هو الحال مع الصهاينة، اقترح النازيون ما يشبه نازية الشتات (مثل صهيونية الشتات) عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانيتين . وكان للنازيين ما يشبه المنظمة النازية العالمية التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية، وكانت لها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجوه مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل . وقد تعاون الألمان، في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان، تماماً كما يتعاون اليهود والصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم .

ولنا أن نلاحظ الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية . فتيودور هرتزل وماكس نوردو وألفريد نوسيج وأوتو ووربورج كانوا إما من ألمانيا أو النمسا يكتبون بالألمانية ويتحدثون بها، كما كانوا ملمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنون لها الإعجاب ولا يكنون احتراماً كبيراً للحضارات السلافية (وقد غيَّر هرتزل اسمه من «بنيامين» إلى «تيودور» حتى يؤلمن اسمه، وسمَّى ماكس نوردو نفسه بهذا الاسم لإعجابه الشديد بالنورديين) . ولا يختلف زعماء يهود اليديشية عن ذلك، فلغتهم اليديشية هي رطانة ألمانية أساساً . ومن جهة أخرى، كانت الألمانية لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى، كما توجه الزعماء الصهاينة أول ما توجهوا لقيصر ألمانيا لكي يتبنى المشروع الصهيوني .

وأكد جولدمان أن هرتزل وصل إلى فكرته القومية (العضوية) من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانيين. وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكنون الإعجاب للنازية، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولمُثُلها ولنجاحها في إنقاذ ألمانيا. بل عدوا النازية حركة تحرر وطني. وسجل حاييم كابلان، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي)، أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية.

وظهرت في ألمانيا، في الثلاثينيات، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذي أدركوا العناصر الفكرية المشتركة بين النازية الصهيونية وأبعادها العدمية. ومن هؤلاء هاينريش فريك الذي حذر اليهود من فكرة الشعب العضوي التي يدافع عنها النازيون والصهاينة، كما عَرَّف كلا من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا النزعة الأرضية (الارتباط بالأرض) والدنيوية (الارتباط بالدنيا)، وهما من الأمور المادية، إلى كيانات ميتافيزيقية، أي إلى دين. وأشار إلى أن النازية والصهيونية تتبنيان الرأي القائل بأن ألمانيا لا يمكنها أن تقبل اليهود أو تظهر التسامح تجاههم.

وفي عام ١٩٢٦، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب العضوي. فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية، الدم والتربة، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء. ومن ثَمَّ، توصَّل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي (فولك) الصهيونية أو النازية. كما توصل إلى أن كلا من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تجسيد لعدم فهم البُعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية. وبالتالي، فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحانية السياسية (الأخروية العلمانية) التي تحوِّل الدنيوي المدنَّس إلى مقدَّس، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية، بل للجنس البشري بأسره.

النازية والصهيونية (العلاقة الفعلية)

تتعدى العلاقة بين النازية والصهيونية مجرد التماثل البنيوي والتأثير والتأثر الفكريين، إذ أن ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة. ولنبدأ بأدناها، وهي كيفية استغلال النازيين للدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم. فقد نشر الصهاينة في ألمانيا نفسها المزاعم الصهيونية الخاصة بالتميز اليهودي العرْقي والانفصال القومي العضوي عن كل أوربا، وذلك حتى قبلَ ظهور النازيين كقوة سياسية. ففي عام ١٩١٢، قدَّم عضوان في المنظمة الصهيونية مشروعاً بإيعاز من كورت بلومنفلد جاء فيه أنه، نظراً للأهمية القصوى للعمل ذي التوجه الفلسطيني (أي الصهيوني)، يعلن أن من الواجب على كل صهيوني، خصوصاً من يتمتع باستقلال اقتصادي، أن يجعل الهجرة جزءاً عضويا من برنامج حياته. وقد سُمِّي هذا القرار «قرار بوزن»، وأصبح منذ ذلك الحين الإطار العقائدي للصهيونية الألمانية التي تخلت بفضله عن أية أبعاد غير قومية ذات طابع خيري أو توطيني، وأصبحت أيديولوجيا قومية عضوية ذات طابع استيطاني. وكان بلومنفلد خبيراً بالمناورات السياسية، ولذلك نجح في تمرير قراره من خلال ما سماه بعض معارضيه «الأغلبية الطارئة»، أي عن طريق تقديم مشروع القرار أثناء وجود المؤيدين وغياب المعارضين والحصول على موافقة الحاضرين. وقد اتهمه المعارضون بالمزايدة، وفسَّروا تطرفه على أساس أنه يقبض راتبه من المنظمة الصهيونية وليس من الحكومة الألمانية أو أية هيئة أو مؤسسة ألمانية، وأن هذا يسمح له بأن يتخذ مثل هذه المواقف وأن يمرر مثل هذه القرارات التي لا تعكس وضع يهود (أو حتى صهاينة) ألمانيا أو تطلعاتهم.

وقد قام الصهاينة الألمان بعد ذلك بتطوير الأيديولوجيا الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية، أي تصفية الجماعات اليهودية في المنفى (أي العالم) تماماً وإنشاء الدولة الصهيونية. وابتداءً من العشرينيات، بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية العضوية الخالصة وتنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية. ففي عام ١٩٢٠ (قبل ظهور كتاب هتلر **كفاحي** بثلاثة عشر عاماً)، ألقى جولدمان خطاباً في جامعة هايدلبرج بيَّن فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ جداً في الحركات التخريبية، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨، وأصر على أن يهود ألمانيا والشعب الألماني ليست بينهما عناصر مشتركة، وعلى أن الألمان يحق لهم أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون الفولك الألماني. أما وايزمان، فقد شبه علاقة الألمان باليهود بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم، فقال : إن أي بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عدداً محدوداً فقط من اليهود. وكان يرى أن عدد اليهود في ألمانيا أكبر من

اللازم، أو بعبارة أخرى يوجد فائض بشري يهودي. وفي الفترة نفسها، وصف كلاتزكين اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها، ولذا فإن من حقهم أن يحاربوا ضد اليهود من أجل تماسكهم القومي. وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هرتزل ونوردو، الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم والصهيونية الألمانية على وجه الخصوص، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد ذلك. وهي لا تختلف في جوهرها عن قول إرنست يونجر (المفكر القومي العضوي الذي ألهم النازيين) أن اليهود يتوهمون أن بوسعهم أن يصبحوا ألمانيين في ألمانيا، ولكن هذا أمر غير قابل للتحقق. فاليهود يواجهون خياراً نهائياً: إما أن يكونوا يهوداً في ألمانيا، أو لا يكونوا.

وفي ضوء هذا التوجه الصهيوني، لم يكن غريباً أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيراً من الصهاينة على استعداد لتَفهُّم وجهة نظره. فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم برنز في يناير ١٩٣٣ أنه لا مكان يمكن لليهود أن يختبئوا فيه. وقال: بدلاً من الاندماج، نرى نحن الصهاينة أنه يجب الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعِرْق اليهودي. وحينما قام النازيون في ٣١ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرونها هدامة، كتبت **يوديش روندشاو** (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيراً من المؤلفين اليهود خونة تنكروا لجذورهم لأنهم شتتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية. وفي نبرة ترحيب واضحة، صرح إميل لودفيج (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع الآلاف من اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها. وقال: "ولذا، فأنا شخصيا ممتن لهم". وترد الفكرة النازية الصهيونية نفسها على لسان الشاعر الصهيوني حاييم بياليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا، ويضيف: "أنا أيضاً مثل هتلر أؤمن بفكرة الدم". وبكثير من القلق، لاحظ أعضاء الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جماعة اندماجية تعتبر يهود ألمانيا مواطنين ألمانيين) أنشطة الصهاينة وتصريحاتهم واعتبروها طعنة من الخلف في الحرب ضد الفاشية.

ولكن كل هذه المقالات والتصريحات لم تكن سوى افتتاحيات تمهيدية للإعلان الصهيوني الألماني الرسمي الذي أصدرته المنظمة الصهيونية في ألمانيا، في ٢١ يونيه ١٩٣٣، بعد وصول النازيين إلى السلطة (إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الجديدة). الذي حدَّد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إبهام فيه. وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. فقد بدأت المذكرة/ الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة، دولة البعث القومي، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجي، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكسل، وبيَّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها). وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة اليهود. وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرْق، أحد ثوابت الرؤية النازية، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعاتِ المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعرْقية. كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرْقيا، مبينة أن هدفَ الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفَاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي، مؤكدةً إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خُططها، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي. وكما تقول المذكرة الإعلامية: "على تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين". وسيؤدي الإطار النظري الفلسفي المطروح إلى ظهور حقائق اجتماعية جديدة تأخذ شكل نموذج جديد: اليهودي المتجذر في تقاليده الروحية، الواعي بنفسه الذي لا يحس بالحرج تجاه هويته، وهو نموذج مختلف تماماً عن ذلك اليهودي الذي لا جذور له الذي يهاجم الأسس القومية للجوهر الألماني، وهو مختلف أيضاً عن اليهود المندمجين الذين يحسون بالضيق لانتمائهم للجماعة اليهودية

وللعِرْق اليهودي وللماضي اليهودي (ولابد هنا من ملاحظة أن النمَوذج اليهودي الجديد لا يختلف في أساسياته عن النموذج النازي). ثم تمضي المذكرة قائلة إن الصهيونية تأمل أن تحظى بالتعاون مع حكومة معادية لليهود بشكلٍ أساسي، إذ لا مجال للعواطف عند تناول المسألة اليهودية، فهي مسألة تهم كل الشعوب (وخصوصاً الشعب الألماني) في الوقت الراهن. وفي نهاية المذكرة/ الإعلان، شجب الصهاينة جهود القوى المعادية للنازية وهتلر، التي كانت قد طالبت في ربيع عام ١٩٣٣ بمقاطعة ألمانيا النازية اقتصاديا. ومما يجدر ذكره أن هذه الوثيقة لم تُكتَشف إلا عام ١٩٦٢ ولم تُعط الذيوع الذي تستحقه، رغم أنها تُلقي الكثير من الضوء على علاقة النازيين بالصهاينة. وربما لو عرف مؤرخو الإبادة النازية في الشرق والغرب بها لنظروا إلى الإبادة النازية لليهود نظرة مختلفة بعض الشيء.

ونشرت **يوديش روندشاو** مقالاً تعلن فيه استعداد الصهاينة للتعاون مع أصدقاء اليهود وأعدائهم، حيث إن المسألة اليهودية ليست مسألة عاطفية، وإنما هي مسألة حقيقية تهتم بها كل الشعوب. وهذا الموقف امتداد لموقف هرتزل حين ميَّز بين التعصب الديني القديم (وهو مجرد تعصب عاطفي غير منهجي) والمعاداة الحديثة لليهود التي وصفها بأنها حركة بين الشعوب المتحضرة الغربية تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها. ويتضمن التمييز هنا شكلاً من أشكال القبول بالمعاداة المنهجية الرشيدة لليهود أو التي تم ترشيدها. وتبنَّى هتلر موقفاً مماثلاً حين ميَّز هو الآخر بين المعاداة العاطفية لليهود والمعاداة المنهجية لهم، إذ تنتهي الأولى بالمجازر، أما الثانية فتنتهي بالحل الصهيوني، أي تهجير جميع اليهود من ألمانيا إلى "وطنهم" فلسطين. وقد حدَّد هتلر مشروعه بالنسبة إلى اليهود على أسس صهيونية ومنهجية رشيدة (وهي القومية العضوية). كما قرر روزنبرج ضرورة مساندة الصهيونية بكل نشاط "حتى يتسنى لنا أن نرسل سنويا عدداً محدداً من اليهود إلى فلسطين، أو على الأقل عبر الحدود". وحينما استولى النازيون على السلطة، سمحوا للصهاينة بالقيام بنشاطاتهم الحزبية، سواء اتخذت شكل اجتماعات أو إصدار منشورات أو جمع تبرعات أو تشجيع الهجرة أو التدريب على الزراعة والحرف، أي أنهم سمحوا لهم بنشاط صهيوني خارجي كامل. كما كانت المجلات الصهيونية المجلات الوحيدة غير النازية المسموح لها بالصدور في ألمانيا. وقد وتمتعت هذه المجلات بحريات غير عادية، فكان من حقها أن تدافع عن الصهيونية كفلسفة سياسية مستقلة. وحتى عام ١٩٣٧، لم يتأثر عدد صفحات **يوديش روندشاو** بالقرارات الاقتصادية التقشفية التي تقرر بمقتضاها إنقاص عدد صفحات كل المجلات (وضمنها المجلات الآرية). كما نشرت دور النشر الألمانية أعمال حاييم وايزمان وبن جوريون وآرثر روبين. ويقول إدوين بلاك مؤرخ اتفاقية الهعفراه (أي النقل)، إن "الصهيونية الفلسفة السياسية المستقلة الوحيدة التي وافق عليها النازيون".

وقد بيَّنا من قبل عدم اكتراث الصهاينة بالمقاومة اليهودية وغير اليهودية للنازيين. ولكن يبدو أن المسألة كانت تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود وعدم الاشتراك في المقاومة، إذ يبدو أن الصهاينة اكتشفوا، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود.

وقد حدد بن جوريون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تَعُد مشكلة آلاف اليهود المهدَّدين بالإبادة وإنما مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني. وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين. وأكد بن جوريون أنه إن استولت "الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد" فإن ذلك سيؤدي إلى "شطب الصهيونية من التاريخ". وفي العام التالي صرح بن جوريون أمام زعماء الصهيونية العمالية: "لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا، مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين - فإني أختار الحل الثاني، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل". وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) تجاوز الحدود تماماً، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣، صرح قائلاً إنه لو سُئِل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون "كلاً ثم كلاً" بشكل قاطع. وأضاف: "يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية... إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا". وعبَّر وايزمان عن الفكرة النفعية نفسها عام ١٩٣٧ حينما قال: "إن العجائز سيموتون، فهم تراب وسيتحملون مصيرهم، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك". وانطلاقاً من هذه الرؤية المتمركزة حول المشروع الصهيوني وليس الإنسان اليهودي، لعبت الحركة الصهيونية دوراً حاسماً في تدمير جميع المحاولات الرامية إلى توطين اليهود في أماكن مختلفة من

العالم، مثل جمهورية الدومينيكان، حتى يضمن الصهاينة تدفق المادة البشرية اليهودية على فلسطين. ولهذا، التزمت جولدا مائير، مندوبة الحركة الصهيونية في فلسطين، الصمت الكامل حيال مداولات مؤتمر إفيان باعتبارها أمراً لا يخصها. (وقد فسَّرت موقفها هذا، فيما بعد، بأنها لم تكن تدري شيئاً عن عمليات الإبادة النازية).

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني. فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية شخص يستحق الاحترام (لأنه يدرك الواقع من خلال إطار عضوي وثني يشبه الإطار النازي)، على عكس اليهودي المتأملن المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها، لأنه حبيس هويته اليهودية، شاء أو أبى. ولعل هذا يُفسِّر السبب في أن النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية. ولعله يفسر أيضاً لم كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم. فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين، وباندماجهم في مجتمعاتهم، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي.

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته، بينما مُنع الاندماجيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر. وقد قام كورت جروسمان، في **كتاب هرتزل السنوي** (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات". وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية. وأول هذه التوجيهات صادر عن الشرطة السياسية في بافاريا بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥، وهو خاص بمنظمات الشباب اليهودي. وجاء فيه أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية التي تدرب اليهود تدريباً مهنياً على الزراعة والحرف، قبل تهجيرهم إلى فلسطين، هو أمر في صالح الدولة النازية. بينما جاء في توجيه آخر بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه "يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا". وقد مُنع مواطن صهيوني (جورج لوبنسكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب، ثم صدر توجيه آخر ليصحح هذا الوضع، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه "لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق".

كما اهتم النازيون كثيراً بنشاط التصحيحيين. ولهذا، صدر تصريح لمنظمتي الشباب القومي الهرتزلي وعصبة الأشداء (بريت هابريونيم) بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم. وقد مُنح التصريح، كما جاء في التوجيه، بشكل استثنائي لأن صهاينة الدولة (أي التصحيحيين) برهنوا على أنهم هم الذين يمثلون المنظمة التي تحاول، بكل السبل، حتى غير الشرعية منها، أن ترسل أعضاءها إلى فلسطين. وكان من شأن التصريح بارتداء الزي أن يحفز أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية على الانضمام إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة، حيث كان يجري حثهم بشكل أكثر كفاءة على الهجرة إلى فلسطين. وقد صدر تصريح للمنظمات الصهيونية بتاريخ ٩ يوليه ١٩٣٥ بجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين ولشراء الأراضي هناك. ومُنح التصريح "لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية". كما شجَّع النازيون المدارس العبرية والمؤسسات الثقافية ذات التوجه اليهودي التي تساعد على إظهار الهوية اليهودية والرجوع عن الاندماج، بل منعوا اليهود من رفع الأعلام الألمانية وسُمح لهم برفع "العَلَم اليهودي" (أي عَلَم المنظمة الصهيونية).

والملاحَظ أن أشكال التعاون بين النازيين والصهاينة، التي تناولناها حتى الآن، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون)، أو التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون). ولكن ثمة أشكالاً أخرى من التعاون الواعي. فهناك دلائل تشير إلى أن الجستابو وفرق الإس. إس إيماِيم (الصاعقة) ساعدت في تهريب المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين، أي أن النازية لم تدعم الصهيونية التوطينية وحسب، بل امتد دعمها إلى الصهيونية الاستيطانية أيضاً. ولكن أهم أشكال التعاون مع الصهاينة الاستيطانيين تم من خلال اتفاقية الهعفراه المبرمة بين النظام النازي وصهاينة المُستوطَن (دون علم الصهاينة التوطينيين أو يهود العالم). ولا تكمن أهمية الاتفاقية في تبيان مدى عمق العلاقة بين الصهاينة والنازيين وحسب، بل إنها تبين أيضاً مدى عمق التناقض بين الصهاينة المستوطنين والصهاينة التوطينيين، وهو تناقض سيطر على الحركة الصهيونية منذ ولادتها ولم تفلح الأيام إلا في زيادته

حدة. ويمكن القول بأن إبرام اتفاقية الهعفراه كان أول مواجهة حقيقية بين الفريقين، وقد كسب المستوطنون هذه الجولة الأولى.

وتوجد حالات محددة تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في عمليات نَقْل اليهود وإبادتهم (كاستنر ونوسيج). كما تُوجَد منظمة صهيونية ذات طابع نازي واضح، وهي عصبة الأشداء التي سبقت الإشارة إليها. وبالمثل، حاولت منظمة ستيرن تقنين عملية التعاون.

معاهدة الهعفراه (الترانسفير)

«هعفراه» كلمة عبرية تعني «النقل» أو «الترانسفير». والنقل هو أحد مكونات الصيغة الصهيونية الأساسية. والهعفراه هو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن وحماية مصالحهم بأية طريقة، ومن ذلك التعاون مع النظام النازي، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا، وضمنها تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام. ومن أهم الشخصيات القيادية في عملية المقاطعة صمويل أُنترماير المحامي الأمريكي اليهودي (الصهيوني) الذي نجح في تكوين حركة جماهيرية تضم اليهود وغير اليهود بقيادة الرابطة الأمريكية للدفاع عن حقوق اليهود، وأسس منظمة دولية أطلق عليها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» في أمستردام للتنسيق بين جميع المنظمات الداعية إلى المقاطعة. وشكلت المقاطعة، خصوصاً في الشهور الأولى، تهديداً خطيراً للنظام النازي. ويذهب إدوين بلاك (مؤلف كتاب **الهعفراه**، وهو أهم كتاب صدر في الموضوع في جميع اللغات) إلى أنه لو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة، فلربما كانت قد نجحت في تعبئة الجماهير غير اليهودية، وانضمت بعض الحكومات إليها، ولما نجح النازيون، خصوصاً في الأشهر الأولى من تسلمهم السلطة، في الإمساك بزمام الأمور "فاستجابة مباشرة وموحَّدة كان من الممكن أن تقصم ظهر ألمانيا قبل شتاء عام ١٩٣٣".

ولكن المستوطنين الصهاينة كانوا قد قرروا تبني خطة تخدم مصالحهم، فسافر الزعيم العمالي الصهيوني ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩-١٩٣٣) إلى ألمانيا لمناقشة إمكانية التعاون والتبادل الاقتصادي معها. وكانت المسألة بالنسبة إلى المستوطنين ملحة للغاية، فقد فشل المستوطن الصهيوني في اجتذاب المهاجرين ولم يصل إليه رأس المال اليهودي المتوقع (وقد تم اغتيال أرلوسوروف بعد عودته من ألمانيا بعدة أيام). وكان هنريش ولف قنصل ألمانيا العام في القدس قد مهد الجو له وللمبعوثين الصهاينة من بعده عندما كتب مؤيداً وموضحاً المزايا التي سيجنيها النظام النازي من التعاون معهم. وفي النهاية، تم توقيع الاتفاق عام ١٩٣٣ الذي كان يقضي بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة. وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترليني) في حساب مغلق يفتح في بنك واسرمان في برلين وبنك ووربورج في هامبورج ثم يُسمَح باستعمال هذا المبلغ فقط لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا ويتم تصديرها إلى فلسطين. وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها.

وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرةً، ويريدون مع هذا تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطويرها، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه بشرط ألا يزيد المبلغ الإجمالي عن ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أيا كان نوعها. وأثناء تنفيذ الاتفاقية، اعترضت بعض العناصر في وزارة الخارجية الألمانية على هذه المساهمة النازية في بناء المُستوطَن الصهيوني. كما قام المستوطنون الألمان في فلسطين (من أتباع جماعة فرسان الهيكل) بالضغط ولكن دون جدوى، إذ أن هتلر نفسه قرر وجوب الاستمرار في العمل بالاتفاقية.

ويبدو أن الهدف الأساسي والمباشر من الاتفاقية كان (من المنظور النازي) كسر طوق المقاطعة اليهودية في العالم للبضائع الألمانية في أنحاء العالم. وفي محاولة لتوضيح الموقف النازي، قال وزير الاقتصاد الألماني لوزير الخارجية إن الاتفاقية تقدم أحسن ضمان لأقوى تأثير مضاد لإجراءات المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية. كما أكد القنصل الألماني العام في القدس الفكرة نفسها حين قال: "بهذه الطريقة، يمكن أن نقوم نحن الألمان بحملة ناجحة في مواجهة المقاطعة اليهودية في الخارج ضد ألمانيا. وقد يمكننا أن نحدث ثغرة في الحائط". ولاحَظ القنصل أنه في الصراع الدائر، بين الصهاينة التوطينيين (في الخارج) والصهاينة الاستيطانيين (في فلسطين)، بدأت موازين القوى تتغيَّر لصالح المستوطنين: "إن فلسطين هي التي تعطي الأوامر، ومن الأهمية بمكان أن نحطم المقاطعة في فلسطين في المقام الأول، وسيترك هذا أثره على الجبهة الأساسية في الولايات المتحدة". وقد أيَّده في ذلك فريتز رايخرت عميل الجستابو في

فلسطين حين قال: "إن مهمتنا الأساسية هي أن نمنع، انطلاقاً من فلسطين، توحيد صفوف يهود العالم على أساس العداوة لألمانيا . . . لقد دمرنا مؤتمر المقاطعة في لندن من تل أبيب لأن رئيس الهعفراه في فلسطين، بالتعاون الوثيق مع القنصلية الألمانية في القدس، أرسل برقيات إلى لندن أحدثت الأثر المطلوب".

ويقول إدوين بلاك: "إن احتمالات انهيار الاقتصاد الألماني بدأ بالتناقص بسرعة بمرور الوقت. فحينما عقد أُنترماير اجتماعاً لاتحاده الدولي في أمستردام في أواخر يوليه ١٩٣٣، كانت الفرصة لا تزال جيدة. ومع نهاية أغسطس، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣)، كانت الفرصة صعبة لكنها ممكنة".

فماذا حدث في هذا المؤتمر؟ لعل دراسة الوقائع وتوقيتها يعطينا صورة دقيقة ومثيرة عن المعركة بين المستوطنين الصهاينة وصهاينة الخارج التوطينيين وكيفية إدارتها، وكذلك عن بعض الأساليب التي استخدمها المستوطنون لإحكام قبضتهم على الفريق المعادي. فقد وُقِّعت الاتفاقية بشكل مبدئي في ١٧ أغسطس ١٩٣٣ وسُوِّيت كل النقط الفنية المعلقة في ٢٢ أغسطس بعد افتتاح جلسات المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ (تشيكوسلوفاكيا). وأدرك النازيون الأهمية غير العادية للمؤتمر وركزوا كل جهودهم عليه حتى يتسنى إفشال المحاولات الرامية لإصدار قرارات من شأنها دعم المقاطعة اليهودية. وبعد افتتاح جلسات المؤتمر، ألقى سوكولوف خطبة ملتهبة عن يهود ألمانيا وبؤسهم دون أي ذكر للمقاطعة. ولكن النازيين كانوا يودون إحراز المكاسب الإعلامية التي يطمحون إليها، ولهذا أعلنوا عن الاتفاقية يوم ٢٤ أغسطس، وهو اليوم الذي كان محدداً لمناقشة وضع يهود ألمانيا في المؤتمر، وقد تناقلت صحف أوربا الخبر، وألقى سوكولوف خطبة ملتهبة قال فيها: "إن اليهود يحترمون إسبانيا القديمة أكثر من ألمانيا الحديثة لأن خروج اليهود جميعاً أفضل من إهانتهم على هذا النحو". ورغم أن ألفاظه جاءت غاضبة شكلاً، فإن مضمونها كان نازياً صهيونياً، فهو لا يتحدث عن حقوق اليهود في أوطانهم وإنما عن حقهم في الخروج الكامل والنهائي منها.

وقدَّم الصهاينة التصحيحيون قراراً محدداً خاصاً بالمقاطعة، ولكن العماليين نجحوا في فرض قرارهم. وكان النازيون قد أوقفوا مجلة **يوديش روندشاو** عن الصدور مدة ستة أشهر، فرُفع عنها الحظر وصدرت في اليوم نفسه وهي تحمل مقالاً تتباهى فيه بأن المؤتمر الصهيوني هزم بأغلبية ساحقة اقتراح التصحيحيين الذي كان يهدف إلى تحويل المنظمة الصهيونية إلى وحدة مقاتلة. وصدرت الصحف النازية مرحبة هي الأخرى بالموقف الإيجابي للمؤتمر.

وحينما افتتحت جلسة ٢٥ أغسطس، انهالت برقيات الاحتجاج من يهود العالم لأن الاتفاقية ستهز مصداقية حركة المقاطعة اليهودية من جذورها وتقضي عليها تماماً في نهاية الأمر. فصعَّد النازيون حملتهم الإعلامية الذكية، وأعلنوا يوم ٢٧ أغسطس عن صفقة برتقال ضخمة مع المستوطن الصهيوني (أشار إليها أحد صهاينة الخارج بـ«البرتقالة الذهبية» قياساً على «العجل الذهبي»). وأرسل أُنترماير برقية يطلب فيها أن ينكر المؤتمر أن مثل هذه الصفقة قد أبرمت، وهدد بأنه إن كان الأمر حقيقة ولم يتم إلغاء الصفقة، فإن المنظمة الصهيونية الأمريكية ستنسحب من المنظمة الصهيونية. وفي يوم ٣١ أغسطس، نشرت الحكومة الألمانية النص الكامل لاتفاقية الهعفراه، فقُوبل الحدث بعدم تصديق من جانب يهود الخارج. ونشرت **جويش كرونيكل** النص باعتباره نكتة نازية رائعة، كما أنكرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية أية علاقة بالموضوع، ولكنها تراجعت عن ذلك بالتدريج واعترفت بإبرام الاتفاقية.

وفي يوم ٢ سبتمبر، طرح العماليون مشروع قرار يحكم سيطرتهم الكاملة على الصهاينة التوطينيين جاء فيه: "كجزء من الانضباط الصهيوني، لا يُسمَح لأي فرد أو مجموعة داخل المنظمة الصهيونية أن يشتغل بالسياسة الخارجية، أو أن يتصل بالحكومات الأجنبية أو بعصبة الأمم، أو أن يقوم بأية نشاطات سياسية من شأنها المساس بصلاحيات اللجنة التنفيذية". ويتضمن هذا القرار تحريماً لكل أشكال الاحتجاج ضد النازية وضمن ذلك اتفاقية الهعفراه. وقد تم التصويت على القرار الساعة الثالثة صباحاً ووُفق عليه، وأُجِّل التصويت على الاتفاقية ذاتها حتى آخر يوم. وبعد طرح مشروع قرار عمالي ومشروع قرار مضاد، قام الزعيم العمالي برل كاتزنلسون فتحدث عن الانضباط وكيف أن مناقشة الهعفراه خرق له، وبيَّن للمؤتمرين أنه توجد، في كل الاجتماعات الديمقراطية، مسائل مهمة لا يمكن مناقشتها. ثم اختتم كلمته قائلاً إن على كل هيئة صهيونية أن تعترف بأن إرتس يسرائيل لها أولوية على أي شيء آخر، وأهم واجب هو إنقاذ حياة اليهود وممتلكاتهم من الخطر الذي يتعرضون له (ورغم أنه استخدم لغة الإنقاذ والإغاثة، فقد أحاطها بالإطار الأيديولوجي بتأكيده أولوية المستوطن على أي شيء آخر). وقد وافق المؤتمر على مشروع القرار العمالي، الذي لم يأت فيه سوى أنه لن يتم اتخاذ أي شيء من شأنه أن يتعارض مع موقف المؤتمر فيما يتصل بالمسألة اليهودية الألمانية، أي أنه لن يقوم أي شخص بأي نشاط وسيُترك الأمر برمته للجنة التنفيذية. وقد وافق المؤتمرون في

الجلسة نفسها على أن يصبح علم المنظمة هو علم الدولة، وأن يصبح نشيد الهاتيكفاه النشيد الوطني للدولة عند إنشائها، وأنشد المؤتمرون النشيد واختتمت أعمال المؤتمر. وقد أدركت **جويش كرونيكل** في ٣ سبتمبر أن الاتفاقية لم تكن نكتة نازية خفيفة بل حقيقة صهيونية نازية ثقيلة مريرة، ونشرت جرائد أخرى أنباء الاتفاقية وما حدث في المؤتمر.

وكان المؤتمر اليهودي العالمي الثالث على وشك الانعقاد في جنيف في ٨ سبتمبر. ولما كانت أنباء الاتفاقية قد أصبحت معروفة ولم يعد هناك أي لبس أو إبهام، فقد كان من الممكن اتخاذ قرار في هذا الشأن. وكانت هذه الفرصة كما يقول إدوين بلاك، هي "الفرصة الأخيرة" أمام اليهود والصهاينة لكي يتخذوا قراراً حاسماً (خصوصاً وأن حركة المقاطعة في الأوساط غير اليهودية كانت آخذة في التزايد). ولكن المؤتمر اليهودي اجتمع وفشل في اتخاذ قرار محدد بخصوص المقاطعة نتيجة الضغط الصهيوني، واكتفى بتأييد المعارضة التلقائية بين الجماهير. وقد تم إفشال المؤتمر بإشراف الزعيم الصهيوني الأمريكي ستيفن وايز، وكان قد أفشل قبلاً اجتماع أنترماير في أمستردام ولندن. وحينما عُرضت الاتفاقية مرة أخرى على المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥)، بهدف نقضها، رُفض مشروع القرار وتقرر وضع نشاطات الهعفراه كافة تحت إشراف الإدارة الصهيونية.

وقد حقَّقت اتفاقية الهعفراه نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهاينة. فقد نجح النازيون في تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود. وأما بالنسبة إلى المستوطنين، فإن فترة الهعفراه تُعَد أهم فترة في تاريخ المُستوطَن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية. وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذي هاجروا إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤١ (بموجب الاتفاقية) نحو ٥٢,٣٠٠ ويُشكِّلون ٢٥٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها. وكان بينهم ٦,٥٢٩ رأسمالياً يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمستوطن و٦,٧٠٠ مهاجر من أبناء الطبقة الوسطى المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصناعيين.

كما ذكر ناحوم جولدمان في مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك في المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر، بل وتخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراه. وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول. ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً.

تيريس آينشتات

«تيريس آينشتات» مدينة في تشيكوسلوفاكيا (وتُسمَّى «تيريزين» بالتشيكية) حولها النازيون إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥. رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من يهود وسط أوربا وغربها من المتميِّزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة. وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة، باعتبار أن هذا يعني بقاء يهود تشيكوسلوفاكيا في وطنهم. ويُقال إن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمي باعتبارها مثالاً على " حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث " (وهو اسم أحد الأفلام التي صُورت في المستوطنة).

وأدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية. وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية. ومن ثَمَّ، كان من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمسنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي. كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس آينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي). وسمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء. وقد رُحِّل حوالي ١٤٠,٩٣٧ يهودياً إلى مستوطنة تيريس آينشتات من بينهم ٣٣,٥٢٩ ماتوا فيها، أي حوالي ٢٥٪، ورُحِّل حوالي ٨٨,١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال. وحينما تم تحرير المستوطنة وكان يوجد فيها ١٧,٢٤٧ شخصاً.

وتثير هذه المستوطنة الكثير من القضايا:

١ ـ يُلاحَظ اشتراك المجالس اليهودية مع السلطات النازية في كل الأنشطة سواء الإعداد والتخطيط للمستوطنة أو إدارتها أو مقابلة مندوبي الصليب الأحمر الدولي. وهذا التعاون يثير واحدة من أهم القضايا الأساسية في ظاهرة الإبادة النازية لليهود، أي مدى اشتراك قيادات الجماعات اليهودية في عملية الإبادة.

٢ ـ وتثير المستوطنة قضية ترشيد الإبادة، فلم يكن النازيون مجرد جزارين على الطريقة التقليدية، وإنما كانوا يلجأون إلى التخطيط العلمي الدقيق وإلى التفرقة بين اليهود المتميِّزين واليهود العاديين.

٣ ـ ويمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان هدف النازيين هو توظيف اليهود أم إبادتهم.

٤ ـ ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أية دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها، والحريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي، وهو ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن التجربة النازية جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية.

٥ ـ ومن القضايا الأخرى التي تثيرها المستوطنة، عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز. **فالموسوعة اليهودية (جودايكا)** تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب، وأنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات ١٤,٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المرحلين الجدد الآلاف، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي. فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف قبل وبعد انتهاء الحرب، ألا يثير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيدوا عن طريق أفران الغاز؟

جيتو وارسو

أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود. ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس آينشتات "النموذجية" في بوهيميا في المجر.

ومن أهم الجيتوات جيتو وارسو الذي بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط ارتفاعه ثمانية أقدام.

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المخطط النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبوذ له شخصيته القومية المستقلة. ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة منعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها، وهو بهذا استمرار لتقاليد القهال والإدارة الذاتية والشتتل التي يمجدها الصهاينة في كتاباتهم، وهو يشبه في كثير من الوجوه الدولة الصهيونية المشتولة في الشرق الأوسط.

وكان يدير الدويلة/ الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء»، تُعيِّن السلطات النازية أعضاءه. ولكن استقلالية الدويلة/ الجيتو لم تكن كاملة، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدِّد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو. كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو. وكان العامل البولندي، يهوديا كان أم غير يهودي، يتقاضى ربع ما يتقاضاه العامل الألماني.

ولا ندري هل وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جيتو وارسو (بالمعنى الخاص للكلمة، أي بمعنى التصفية الجسدية) من خلال فرض وضع اقتصادي غير متكافئ عليهم بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين، أم أن عملية الإبادة تمت كنتيجة حتمية، ليست بالضرورة متعمدة، للبنية الاستغلالية التي فرضها النازيون؟ فقيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدِّمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي بالاحتياجات المادية الأساسية العاملين اليهود الأساسيين، الأمر الذي كان يعني سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين. وقد أدَّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والدويلة/ الجيتو اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً ويهلكون بالتدريج وببطء دون أفران غاز.

وكانت علاقة الدولة النازية بدويلة/ جيتو وارسو علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالسلطة الفلسطينية في غزة وأريحا (كما يتخيلها الصهاينة). وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكُّم، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً، ومن ثم كان بالإمكان التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة، على عكس الضفة الغربية وغزة حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتسم بتجذره، كما أن سكان "المناطق" المحتلة لم يتوقفوا قط عن المقاومة. وكل هذا يجعل التحكم في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. ويدل سلوك الإسرائيليين تجاه السلطة الفلسطينية في غزة وأريحا أنهم استبطنوا هذا الجانب من تجربة يهود أوربا مع النازية. فهم يحاولون أن تكون علاقتهم مع هذه

السلطة تشبه في معظم الوجوه علاقة الحكم النازي بالسلطة اليهودية في جيتو وارسو أو مستعمرة تيريس آينشتات.

جماعة ستيرن والنازية

جماعة ستيرن هي جماعة صهيونية مراجعة حاولت التعاون مع النازيين باعتبار أن ثمة فارقاً عميقاً بين ما سمته الجماعة «مضطهدي الشعب اليهودي» وأعدائه. فمضطهدو الشعب اليهودي أمثال هامان وهتلر موجودون في كل زمان (فالصهاينة يؤمنون بحتمية العداء لليهود واليهودية). ولكن الأمر جدٌّ مختلف بالنسبة لأعداء اليهود، فهؤلاء هم الأجانب الذين يهيمنون على فلسطين ويمنعون اليهود من العودة إليها لينهوا حالة المنفى ويؤسسوا وطنهم القومي فيها. وبناءً على هذه الأطروحة الصهيونية الراديكالية لم يجد أعضاء ستيرن أية غضاضة في التفاوض مع النظم الشمولية بهدف التعاون الوثيق معها. فعقدوا اتفاقاً مع حكومة موسوليني تعترف بمقتضاه الحكومة الفاشية بالدولة الصهيونية على أن يقوم أعضاء ستيرن بالتنسيق مع القوات الإيطالية حين تقوم بغزو فلسطين.

ولكن التعاون مع النازيين كان هو الهدف الحقيقي. ولتحقيق هذا الغرض أرسل أعضاء ستيرن مندوباً إلى بيروت (التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشي الموالية للنازيين) للتفاوض مع قوات المحور. وقد قابل هذا المندوب، في يناير ١٩٤١، مواطنين ألمانيين أحدهما هو أوتو فون هنتج، رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية الألمانية، والذي كان يشعر بالإعجاب العميق للصهيونية.

وبعد الحرب اكتُشفت وثيقة (في أرشيف السفارة الألمانية في أنقرة) أرسلتها جماعة ستيرن للحكومة الألمانية تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوربا واشتراك أعضاء جماعة ستيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء. وتنص الوثيقة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا شرط مسبق لحل المسألة اليهودية. وقد عبَّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية. (وصفت ستيرن نفسها بأنها حركة تشبه الحركات الشمولية في أوربا في أيديولوجيتها وبنيتها). كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية، وتُعبِّر عن تقدير جماعة ستيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين. وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة والفولك العبري في المجال السياسي والعسكري. ولم يتلق الجانب الصهيوني رداً، ولذا أرسلت جماعة ستيرن مندوباً آخر في ديسمبر من نفس العام إلى تركيا (بعد احتلال البريطانيين للبنان) ولكن قُبض على هذا العميل.

وكان إسحق شامير، رئيس وزراء إسرائيل السابق، عضواً في جماعة ستيرن. ويؤكد الباحث الإسرائيلي باروخ نادل أن شامير كان يعرف بخطة ستيرن للتعاون مع النازيين.

عصبة الأشداء

«عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) جماعة صهيونية مراجعة أسسها آبا أحيمير (١٨٩٨ - ١٩٦٢) ومجموعة من المثقفين الصهاينة مثل الشاعر أوري جرينبرج. وكان معظم مؤسسي الجمعية أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها. وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تخفي إعجابها بالفكر النازي أو العنصرية النازية. وكانت مجلة **عصبة الأشداء** في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجِّد هتلر والهتلرية. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة "ألمانيا لهتلر، وإيطاليا لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي". كما مجَّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين، فكانوا يشبهون أنفسهم بجماعة حَمَلة الخناجر، وهم فريق من جماعة الغيورين كانت تغتال الرومان واليهود الذين يتحالفون معهم، وذلك أثناء التمرد اليهودي الأول في فلسطين بين عامي ٦٦ و٧٣ ميلادية (واسم الجمعية نفسه «بريت هابريونيم» هو اسم إحدى الجمعيات الإرهابية اليهودية في تلك الفترة). وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى، وأن الدم والحديد هما الطريق الوحيد للتحرر.

ورغم أن جابوتنسكي كان يحاول أحياناً أن يحتفظ بمسافة بينه وبين أعضاء الجمعية، فقد كان يُعبِّر في خطاباته عن إعجابه بهم وتعاطفه معهم. ولم يتخذ أي إجراء تنظيمي ضدهم بل أطلق على أحيمير (بنبرة لا تخلو من التهكم) اسم «معلمنا ومرشدنا الروحي»، كما أن الحاخام إسحق كوك دافع عنهم. وتذكر **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن مناحيم بيجين انضم إلى الجناح الراديكالي لحركة التصحيحيين الذي كان مرتبطاً بعصبة الأشداء.

ألفريد نوسيج (١٨٦٤-١٩٤٣)

أحد مؤسسي الحركة الصهيونية مع هرتزل، وأهم شخصية يهودية صهيونية متورطة في التعاون مع النازيين، وهو فنان وشاعر وموسيقار من أصل بولندي وخلفية ثقافية ألمانية. وقد بدأ حياته، شأنه شأن معظم الزعماء الصهاينة، خصوصاً الذين كانوا من أصل

ثقافي ألماني، بالمطالبة بالاندماج الكامل لليهود، ثم أصبح محرراً في إحدى الصحف البولندية. وفي عام ١٨٨٧، نشر كتيبه **محاولة لحل المسألة اليهودية** (بالبولندية)، حيث اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين والدول المجاورة. وقد ترك هذا الكتيب أثراً عميقاً على المثقفين اليهود في أوربا خصوصاً في جاليشيا. ومنذ ذلك التاريخ، أصبح نوسيج نشيطاً في المجال الصهيوني فألَّف الكتب ودبج المقالات عن موضوع الاستيطان وغيره.

وقد يتصور البعض أن ثمة تناقضاً بين نزعته الاندماجية الأولى ونزعته الصهيونية بعد ذلك. ولكن هذا النمط معروف تماماً بين مؤسسي الحركة الصهيونية، ولا سيما أصحاب الخلفية الثقافية الألمانية. فهؤلاء يهود غير يهود، بمعنى أنهم حاولوا الاندماج بل والانصهار في الأغلبية لرفضهم لهويتهم اليهودية (الدينية والعرْقية). ولكن المجتمع صنفهم "يهوداً". ولهذا، أخذوا يبحثون عن طريقة أخرى للتخلص من اليهود، ووجدوا ضالتهم في الحل الصهيوني، الذي يرمي إلى نقل (ترانسفير) يهود أوربا خارجها، إلى أن يفرغها من يهوديها في نهاية الأمر. وهذه عملية ستقضي على الفائض البشري وتُسهِّل اندماج القلة التي ستبقى.

شارك نوسيج في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧)، واصطدم مع هرتزل لأسباب لا تذكرها المراجع التي عدنا إليها. ولكنه استمر في حضور المؤتمرات الصهيونية، وصوت ضد مشروع شرق أفريقيا (باعتبار أنه مشروع بريطاني، بينما كان متحمساً للمشروع الاستعماري الألماني).

وهدف الصهيونية (حسب تعريف معظم مؤسسيها) نَقْل اليهود من أوربا وإفراغها منهم لحل المسألة اليهودية، ونوسيج ينتمي إلى هذه المنظومة الفكرية التوطينية (الترانسفيرية). فكان معظم فكره يدور حول تهجير اليهود، وكان هذا يأخذ شكل محاولة زيادة وعيهم بهويتهم اليهودية العضوية حتى يَضمُر ويذوي إحساسهم بالانتماء إلى أوربا. كما أسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمَّى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود. فهو، شأنه شأن نوردو، كان في عجلة من أمره. ولعل طول الانتظار هو الذي دفعه إلى التعاون مع النازيين، لأنهم أيضاً ذوو نزعة توطينية ترانسفيرية. فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، وعيَّنه تشيرنياكوف، رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي، عضواً في المجلس ورئيساً لقسم الفنون. ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة، ونظراً لرغبته العميقة في إفراغ أوربا من يهودييها، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم. وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازي وأنه عضو في الجستابو، فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفِّذ الحكم في ٢٢ فبراير ١٩٤٣. وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية.

مردخاي رومكوفسكي (١٨٧٧ـ ١٩٤٤)

صهيوني بولندي ورئيس المجلس اليهودي في جيتو لودز خلال الحرب العالمية الثانية. وُلد في روسيا ثم استقر في مدينة لودز مع بداية القرن العشرين. كان عضواً في الحزب الصهيوني العمومي، وقام بتمثيله في لجنة الجماعة اليهودية في لودز. كان رومكوفسكي مؤمناً بأن التعاون مع الألمان سيُعزِّز وضع اليهود، خصوصاً إذا زادت مساهمتهم وأهميتهم بالنسبة للمجهود الحربي الألماني. ولهذا عُيِّن، بعد احتلال الألمان لمدينة لودز عام ١٩٣٩، رئيساً للمجلس اليهودي فيها، أي كبيراً لليهود، ومنحه المسئولون الألمان في جيتو لودز (الذي ضم ١٧٠ ألف يهودي) سلطات إدارية واسعة. وتَعزَّز موضعه القيادي بسبب مهارته التنظيمية، فكان مسئولاً عن إقامة الورش التي أمر الألمان بإنشائها لاستغلال عمل اليهود، والتي بلغ عددها ١٢٠ ورشة. ومع مرور الوقت، عمل رومكوفسكي على تركيز جميع السلطات في يده وأصبحت إدارته أكثر استبداداً. وعندما أمرت السلطات الألمانية الجيتو بإصدار عملة نقدية خاصة به (باعتباره كياناً يهودياً مستقلاً وبدلاً من استخدام العملة البولندية أو الألمانية)، طُبعت على الأوراق المالية الجديدة صورته.

اشترك رومكوفسكي في عمليات ترحيل ونقل يهود لودز إلى معسكرات الاعتقال الألمانية، وكان مسئولاً مع معاونيه عن تحديد من سيتم ترحيله، الأمر الذي جلب عليه كراهية كثير من سكان الجيتو. وقد ضمت قوائم المرحلين كثيراً من معارضيه داخل الجيتو. وخلال الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٤٢، تم ترحيل ٥٢ ألف يهودي من الجيتو بمعاونة رومكوفسكي الذي ظل مؤمناً بأن التعاون مع الألمان هو أفضل سبيل لتخفيف وطأة هذه المأساة. وقد قام الألمان بتصفية الجيتو في نهاية الأمر عام ١٩٤٤، ورُحِّل رومكوفسكي مع أسرته إلى معسكر أوشفيتس حيث مات.

وتُعَدُّ شخصية رومكوفسكي شخصية مثيرة للجدل في الأدبيات اليهودية التي تؤرخ لفترة الإبادة النازية، حيث يحمِّله البعض مسئولية إبادة يهود جيتو لودز. وهو يُعَدُّ مثلاً جيداً على ذلك

التعاون بين قيادات الجماعات والمجالس اليهودية من جهة والسلطات النازية من جهة أخرى.

آدم تشرنياكوف (١٨٨٠ ـ ١٩٤٢)

صهيوني بولندي ورئيس مجلس الجماعة اليهودية في وارسو خلال الحرب العالمية الثانية. وأول رئيس للمجلس اليهودي في وارسو، والذي شكلته سلطات الاحتلال النازية. كان تشرنياكوف من النشطين في مجال شئون الجماعة اليهودية في بولندا عقب الحرب العالمية الأولى، واهتم بشكل خاص بشئون الحرفيين اليهود الذين كانوا يشكلون ٤٠٪ من تعداد الجماعة، وقام بالتدريس في شبكة المدارس اليهودية المهنية في وارسو. وانتُخب في الفترة بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٤ عضواً في مجلس مدينة وارسو، كما انتُخب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة عضواً في المجلس التنفيذي للجماعة اليهودية، ثم عيَّنه عمدة وارسو بعد اندلاع الحرب رئيساً لمجلس الجماعة اليهودية. وبعد احتلال القوات الألمانية للمدينة، عينته السلطات النازية رئيساً للمجلس اليهودي، وأوكلت إليه مهمة تنظيم الجماعة اليهودية في جيتو خاص بها، وكان على اتصال وثيق بالسلطات النازية، خصوصاً مع قوميسار الجيتو الألماني. وقد وجه بعض أعضاء الجماعة اليهودية انتقادات حادة للمجلس اليهودي ونشاطه وحاول بعضهم إقصاء تشرنياكوف. ويُقال إن تشرنياكوف لم يصدق، عندما بدأت عمليات ترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال، أنه سيتم ترحيل اليهود بالفعل. ولكنه أدرك في نهاية الأمر أبعاد المخطط، فرفض التعاون مع الألمان ورفض التوقيع على أوامر الترحيل ولم يجد مخرجاً من مأزقه سوى الانتحار. وقد ترك تشرنياكوف يوميات دوَّن فيها جميع الأحداث المهمة التي جرت داخل الجيتو وجميع ملاحظاته ومشاهداته. وتعتبر هذه اليوميات مرجعاً مهماً لأوضاع وظروف جيتو وارسو إبان الاحتلال النازي.

وتثير حياة تشرنياكوف قضيتين: أولهما قضية مدى مسئولية القيادات اليهودية عن نجاح النازيين في تنفيذ مخططهم. أما القضية الثانية فهي خاصة بمدى معرفة العالم الخارجي بما كان يدور في ألمانيا من عمليات تهجير وقمع وإبادة، إذ يذهب بعض الدراسين إلى أن العالم بأسره لم يكن يعرف شيئاً عما يدور في ألمانيا النازية وعن عمليات الإبادة، ومن ثَمَّ لم يتخذ أية إجراءات للحيلولة دون وقوع مثل هذه العمليات، بينما تصر الأدبيات الصهيونية على أن العالم ترك اليهود وحدهم لمصيرهم، الأمر الذي يعني صدق المعادلة الصهيونية البسيطة: اليهود ضد الأغيار. ولكن تشرنياكوف (وهو، كما بيَّنا، واحد من أهم الشخصيات القيادية اليهودية وكان يعيش داخل بولندا ويترأس الجيتو اليهودي في وارسو، وكان على علاقة يومية مع السلطات النازية) لم يكن يعرف شيئاً عن الترحيل أو عن أفران الغاز ولم يصدق ما كان يحدث من حوله، وقد تعاون مع النازيين، كما تُقرِّر المراجع الصهيونية، لأنه لم يكن يدرك إطلاقاً ما كان يحدث من حوله، ولم يصل إلى مسامعه شيء إلا في عام ١٩٤٢، أي قرب نهاية الحرب، فكيف كان يمكن للعالم الخارجي أن يعرف عن الاعتقال والتهجير والإبادة؟

حاييم كابلان (١٨٨٠ ـ ١٩٤٢)

مرب بولندي صهيوني دوَّن يومياته في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النَّازي لبولندا. وُلد في بلوروسيا وتلقى تعليماً تلموديا في المدرسة التلمودية العليا (يشيفا)، ثم درس في المعهد الحكومي التربوي في ڤلنا. وفي عام ١٩٠٢، استقر في وارسو حيث أسس مدرسة ابتدائية عبرية كانت جديدة في نوعها، وظل مديراً لها لمدة أربعين عاماً، وكان كابلان شديد التحمس للغة العبرية ومن دارسيها والعارفين بها. وكان كابلان من المؤمنين بالقومية اليهودية، أي الصهيونية، والتاريخ اليهودي الواحد، وكانت يهوديته ذات طابع قومي حيث لم يكن متمسكاً بممارسة الشعائر والتقاليد الدينية. وقد اتجه إلى فلسطين في عام ١٩٣٦ حيث كان ينوي الاستقرار مع ابنيه اللذين هاجرا للاستيطان بها من قبل، إلا أنه عاد إلى وارسو بعد أن فشل في العثور على عمل.

وتعود أهمية كابلان إلى أنه دوَّن يومياته وهو في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا وقبل أن يُدمَّر الجيتو بأكمله. وقد بدأ كابلان في كتابة يومياته بالعبرية ابتداءً من عام ١٩٣٣ وسجل فيها الأحداث اليومية لمجتمع الجيتو، كما سجل أفكاره وحواراته مع أصدقائه وانطباعاته العديدة. وقد أدان كابلان القيادات اليهودية في الجيتو ومن بينها آدم تشرنياكوف رئيس المجلس اليهودي، الذي كان يقوم بتسليم اليهود إلى النازيين والذي انتحر فيما بعد. وقد نجح كابلان في تهريب يومياته إلى خارج الجيتو قبل أن يلقى حتفه عام ١٩٤٢.

وتتضمن اليوميات إدراكاً كاملاً للتشابه البنيوي بين النازية والصهيونية، إذ يُعبِّر كابلان عن دهشته لاضطهاد النازيين لليهود رغم أن الحل النازي هو نفسه الحل الصهيوني: الاعتراف باليهود كشعب عضوي منبوذ وطنه فلسطين ومن ثم يتعيَّن عليه أن يهاجر إليها. وقد دوَّن كابلان في مذكراته أن هذه الكلمات كانت جديدة

على النازيين تماماً، وأنهم لم يصدقوا آذانهم حينما سمعوا ذلك لأول مرة من أحد اليهود. وهذه الملاحظة تدل على مدى جهل كابلان بمستوى المعرفة النازية بالمسألة اليهودية والعقيدة الصهيونية، وتدل على أنه لم يكن متابعاً للتعاون الوثيق بين النازيين والصهاينة في ألمانيا النازية.

وتُرجمت يوميات كابلان إلى لغات عدة منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والدنماركية واليابانية، ونُشرت بالإنجليزية تحت عنوان **مخطوطات العذاب**.

كورت بلومنفلد (١٨٨٤-١٩٦٣)

أحد الزعماء الصهاينة في ألمانيا، والقوة المحركة للمنظمة الصهيونية فيها. وهو يهودي ألماني وُلد لأسرة مندمجة، ولكنه خَلُص إلى أنه لا جدوى من الانعتاق وأن اليهود لن يكون في وسعهم الاندماج في المجتمع الألماني. تزوج بلومنفلد فتاة من شرق أوربا، وبعد أن درس في كلية الحقوق في إحدى الجامعات الألمانية، انضم إلى المنظمة الصهيونية وأصبح سكرتيرها الأول عام ١٩٠٩، ثم أصبح السكرتير العام للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (ورئيس قسم النشر)، وترأس تحرير مجلة **دي فيلت** لسان حال المنظمة. وبعد الحرب العالمية الأولى، قام بحملات واسعة لجمع التبرعات للصندوق القومي اليهودي وأصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩٢٤، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٣٣، أي عندما تولى هتلر السلطة في ألمانيا. وقد هاجر بلومنفلد عندئذ إلى فلسطين واستوطن فيها وأصبح الرئيس التنفيذي للصندوق القومي اليهودي في فلسطين. ومات بلومنفلد عام ١٩٦٣، ولكن المصادر الصهيونية لا تَذكُر شيئاً عن نشاطه السياسي منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته، أي مدة عشرين عاماً، وهو أمر يحتاج إلى دراسة.

كان بلومنفلد يرى نفسه "نبي" الصهيونية الألمانية في عصر ما بعد الاندماج وفشله، وبدأ يعلن عن مواقفه ويقوم بالجولات الإعلامية داخل ألمانيا وخارجها بوصفه مسئولاً صهيونيا، كما دأب على إلقاء خطب نارية ورفع شعارات سببت كثيراً من الحرج لأعضاء الأقلية اليهودية في ألمانيا. وكان بلومنفلد وراء إصدار ما يُسمَّى «قرار بوزن» الذي أصدرته المنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩١٢ وحدَّدت فيه الصهيونية كحركة قومية تُترجم نفسها إلى هجرة إلى فلسطين "الوطن القومي لليهود". ووصف بلومنفلد هذا القرار بأنه كان بمنزلة إعلان للهجوم على صهيونية الإحسان (الغربية)، أي الصهيونية التوطينية، وأن الصهيونية بصدوره أصبحت حركة ذات طابع قومي (استيطاني) واضح (وقد اعترف بلومنفلد أيضاً بأن الأعضاء وافقوا على قراره لأنهم لم يدركوا تضميناته السياسية الراديكالية).

رودولف كاستنر (١٩٠٦-١٩٥٧)

أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر. ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير مجلة **أوج كيليت** (أي "الشرق الجديد")، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر، ثم أصبح مسئولاً عن "إنقاذ" المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، فقد كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بودابست التابعة للوكالة اليهودية.

قام كاستنر بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها)، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر. وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظف وحسب، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين، هذا بينما كان يبلغ عدد يهود المجر ما يزيد عن ٨٠٠ ألف، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة. ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال. ومقابل ذلك سمحت السلطات النازية (عام ١٩٤١) بإرسال ٣١٨ يهوديا ثم ١٣٨٦ يهوديا من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين ("يهود من أفضل المواد البيولوجية" على حد قول أيخمان).

استقر كاستنر في فلسطين عام ١٩٤٦، وانضم إلى قيادة الماباي ورُشِّح للكنيست الأول. وانتقلت معه مجلة **أوج كيليت**، وأصبح رئيساً لتحريرها، بل كان يُعَدُّ مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم.

ولكن في عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتُّهم فيها كاستنر بالتعاون مع النازيين، وأنه قام بالدفاع عن أحد ضباط الحرس الخامس (الإس. إس.) أثناء محاكمات نورمبرج الأمر الذي أدَّى إلى تبرئته وإطلاق سراحه. وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر وتبرئته. كما بيَّن كاستنر أثناء محاكمته أنه لم يكن يسلك سلوكاً فرديا وإنما تَصرَّف بناءً على تفويض من الوكالة

اليهودية (التي أصبحت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨). ولم يكن كاستنر مبالغاً في قوله فالمواطن الإسرائيلي جويل براند كان على علم ببعض خفايا القضية وبمدى تورط النخبة الحاكمة في عملية المقايضة الشيطانية التي تمت. وقد طُلب منه الإدلاء بشهادته، ولكنه آثر ألا يفعل وبدلاً من ذلك كتب كتاباً بعنوان **الشيطان والروح** يقول فيه "إن لديه حقائق تبعث على الرعب وتدمغ رؤوس الدولة اليهودية (الذين كانوا رؤساء الوكالة اليهودية)". وأضاف قائلاً "إنه لو نشر مثل هذه الحقائق لسالت الدماء في تل أبيب".

وقد قضت المحكمة الإسرائيلية بأن معظم ما جاء في كتيب جرينولد يتطابق مع الواقع. وبعد إشكالات قضائية كثيرة، حُسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق "أحدهم" الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع. وقد تمت الجريمة رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر، بل وكانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة.

العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوربا

لعل من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود. أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين فهو واضح تماماً لا لبس فيه. فالقيم الأخلاقية الدينية (الإسلامية والمسيحية واليهودية) لا تسمح بقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق. وجاء في الذكر الحكيم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

ويحاول الغرب إقحام الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرِّر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي، تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوربا الجغرافية. وتحاول الدعاية الصهيونية، بممالأة الغرب، أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين:

١ ـ تحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصورِّ المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين. ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة. فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها، تحت رعاية العالم الغربي، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية (ومن النازيين أنفسهم)، وفي الوقت الذي كانت الدول الغربية توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود. ومهما فعل الصهاينة (يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفُّظ) يظل حق المقاومة حقا إنسانيا مشروعاً بل وواجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته، ويظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبله وعظمته، بل وإنسانيته.

٢ ـ تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي. وهذه أكذوبة أخرى. فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فالعالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي). كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود، ولذا فأي تحالُف مزعوم كان تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/ هتلر. وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً في اليهود أو حباً في النازيين، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني. وهو، على أية حال، تعاطف يُعبِّر عن سذاجة وعن عدم مقدرة على القراءة الجيدة للأحداث، وعن عدم إلمام بطبيعة الغزوة النازية ومدى تَجذُّرها في المشروع الحضاري والإمبريالي الغربي ومدى رفضها العنصري للمسلمين والعرب. ولم يُترجم هذا التعاطف العام نفسه إلى اشتراك فعلي في الجريمة النازية، التي تحتفظ بخصوصيتها كظاهرة حضارية غربية.

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية، الدينية والإنسانية. فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء ضحايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر. وهذه المحاولات تُبيِّن في نهاية الأمر اتساق الغرب مع نفسه، الذي يُكفِّر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي.

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة النازية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية. فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة، كما أن الملك الحسن الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي.

وأثناء كتابة هذه الموسوعة لاحظت تكرار كلمة «مسلم» في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس، وقال مرجع آخر إن الضحايا الذين كانوا يُقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم تسمية

«غربية» . وقد تبيَّن بعد قراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أنهم كانوا يسمون في واقع الأمر «ميزلمان Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في **الموسوعة اليهودية** (جزء١٢ ص٥٣٧ـ٥٣٨) عنوانه «مسلم» :

«ميزلمان» أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدَم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي. وكان هذا المُصطلَح يُستخدَم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يُستخدَم في المعسكرات الأخرى" .

هذه هي المعلومة، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم. ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط .

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية، وهم مُمثِّلو الحضارة الغربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية، أي الحضارة الإسلامية، وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا. كل ما في الأمر أن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم، سواء كان من الغجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «عربي» في الخطاب الصهيوني لتصبح «الأغيار»). وقد حاول كاتب مدخل «مسلم» في **الموسوعة اليهودية** أن يفسر أصل استخدام الكلمة، فهو يدَّعي أن الضحايا سُموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: "إنهم كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة «شرقية» ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة" . والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» العامة محل كلمة «مسلمين» المحدَّدة.

الجزء الثاني

ثقافات الجماعات اليهودية

١ ـ من التحديث إلى ما بعد الحداثة

البروتستانتية (القرن السادس عشر والسابع عشر)

ثمة علاقة وثيقة بين البروتستانتية من جهة والعقيدة اليهودية والجماعات اليهودية من جهة أخرى. ولعل من أكثر العناصر أهمية شكل الحلول في كل من البروتستانتية واليهودية. فبدلاً من الحلول الفردي المؤقت المنتهي (في شخص المسيح أو في الكنيسة، جسد المسيح) نجد أن الحلول يكون في الشعب أو الجماعة، وهو حلول مستمر تنجم عنه حلولية ثنائية صلبة. وهذا التشابه خلق تربة مواتية في أوربا لتقبُّل اليهودية، وهي تربة لم تكن موجودة في أوربا الكاثوليكية.

وإلى جانب هذا، نجد أن النزعة الأصولية التبسيطية الاختزالية في البروتستانتية جعلت الإصلاحيين يفضلون المبادئ اليهودية البسيطة التي يستطيع القوم فهمها على تعقيدات اللاهوت الكاثوليكي. وقد أكدت البروتستانتية الجانب العبراني في المسيحية على حساب ما وسمته بأنه الجانب الهيليني أو الوثني، وهو ما خلق تعاطفاً مع اليهود ومع الثقافة الدينية اليهودية، خصوصاً وأن الكتاب المقدَّس أصبح أكثر الآثار الأدبية شيوعاً، فبدأ الاهتمام باللغة العبرية والتلمود والقبَّالاه.

وقد أثار اللاهوت البروتستانتي قضية شديدة الخطورة هي قضية الخلاص. فالخلاص ليس ممكنا من خلال إقامة الشعائر المقدَّسة، إذ إن مفتاح الخلاص أصبح من خلال النعمة الإلهية والاختيار الإلهي المستمر للبقية الصالحة. ومع تزايد أهمية الاختيار ومركزيته، طُرح سؤال عن العلاقة بين الميثاق والعهد الجديد، هل يفسخ العهدُ الجديد العهدَ القديم أم يُضاف إليه؟ وهذا ما يطرح سؤلاً آخر: هل يظل اليهود شعباً مختاراً؟

كانت المسيحية الكاثوليكية ترى نفسها «إسرائيل الحقيقية». وكان رأي الكنيسة الكاثوليكية أن مجيء المسيح نقض العهد الإلهي لإسرائيل وأنهاه. فبعد المسيح لا وعد ولا اختيار إلا لمن آمن بالخلاص وسعى إليه. وباب هذا الخلاص مفتوح لكل الناس بلا استثناء، وعلى اليهود أن يؤمنوا بالمسيح مثلهم مثل غيرهم إذا أرادوا الخلاص. أما النبوءات المبشرة بعودة اليهود فكانت تُؤوَّل على أنها تحققت حينما أعادهم قورش إلى فلسطين. أما الفقرات الأخرى التي تتنبأ بمستقبل مُشرق لإسرائيل، فقد كانت تنطبق ـ حسب تفسير القديس أوغسطين ـ على إسرائيل الجديدة وحسب، أي الكنيسة المسيحية. وبعد أن ظهر المسيح وأنكره اليهود أصبح اليهود إسرائيل الجسدية الزائفة والشعب المختار للعنة الإله وأصبحت اليهودية اسماً لا ديناً. ونتيجة ذلك، كانت الكنيسة الكاثوليكية تفصل بين العبرانيين القدامى الذين كانوا يُعتبَرون شعباً مثاليا وإسرائيل التي ورثتها الكنيسة الكاثوليكية من جهة، واليهود المعاصرين الذين كانوا يقفون في ضعفهم وذلتهم شعباً شاهداً على عظمة الكنيسة من جهة أخرى.

كان التفسير البروتستانتي لهذه القضية جدَّ مختلف إذ أكد أن اختيار اليهود دائم رغم التناقض بين الوعد القديم بالاختيار والوعد الجديد بالخلاص. فبحسب وجهة النظر البروتستانتية، لم يتغيَّر الميثاق. وقد فسر كالفن كلمة «الجديد» بمعنى «التجديد». وكما أن العهد الجديد لا يحتوي على نقض لما كان قديماً، فمحتوى الوعد واحد إنما أخذ أبعاداً جديدة، فالوعد لم يقم بحد ذاته بل ارتبط بمفهوم الوفاء به، أي أن الإله لم يُعط اليهود الوعد دون أن يتعهد بأن يفي به. والمسيح في نظر كالفن هو الوفاء بالعهد أو الوعد الإلهي دون نقض لما كان قبله، وهذا، على حد قول كالفن، ما قال به المسيح نفسه: إنه ما جاء لينقض بل ليكمل وإن كلامه لن يزول حتى يتم الكل. فنعمة الإله على اليهود في رأي كالفن لا يمكن إهمالها كعمل عظيم كان في الماضي ومرّ عليه الزمن بل هو متضمَّن في حياة الكنيسة، أي أنه وعد أزلي. ولأنه أزلي، فإن الماضي يشبه الحاضر ويشبه المستقبل، وثمة استمرارية صلبة تؤدي إلى التفسيرات الحرفية. وتقوم التفسيرات الحرفية بتحويل نصوص العهد القديم وقصصه الديني إلى حقائق ووقائع (حوادث) تاريخية. كما ساد الاعتقاد بين البروتستانت بأن اليهود المعاصرين هم العبرانيون القدامى، وهم الفلسطينيون الغرباء في أوربا الذين سيعادون إلى فلسطين عندما يحين الوقت، ومن ثَمَّ ظهرت العقيدة الألفية الاسترجاعية وحلت محل فكرة الشعب الشاهد. وقد أدَّى هذا إلى ظهور ضرب من الفكر الصهيوني الاسترجاعي الذي يطالب بعودة اليهود إلى فلسطين.

ومما ساعد على ذلك، نزوع البروتستانت نحو الخلط بين المقدّس والتاريخي وبين المطلق والنسبي. فالوجدان البروتستانتي دائب البحث عن قرائن وإشارات (مادية) من الإله، ودائم الانتظار للرؤى (أبوكاليبس) التي تتحقق داخل التاريخ، وهذا جزء من نزعته الحرفية. وهذه الرؤية صهيونية في بنيتها، فهي رؤية تنكر التاريخ المتعين، وتنتقل بسهولة من العهد القديم إلى فلسطين وبالعكس، وهي تحوِّل اليهود المعاصرين إلى شعب الإله المختار، ذي الحقوق الأزلية في أرض الميعاد. ومما يجدر ذكره أن الأسطورة الاسترجاعية أسطورة صهيونية ومعادية لليهود في آن واحد. فهي ترى أن الخلاص لا يتم إلا بتحقيق عودة اليهود إلى وطنهم وتنصيرهم، أي التخلص منهم عن طريق التهجير والتنصير. وما حدث بعد ذلك في الاستعمار الاستيطاني إقرار بأن الخلاص يتم عن طريق التخلص من اليهود بتهجيرهم، أما التنصير فلم يعد أمراً ذا بال في المجتمع العلماني الغربي الحديث.

وقد تزامن ظهور البروتستانتية وحركة الإصلاح الديني مع تزايُد النشاط التجاري الرأسمالي في المجتمعات الغربية. ويرى ماكس فيبر أن ثمة علاقة تبادلية بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية الرشيدة (فالبروتستانتية هنا «تهويد» للمجتمع المسيحي بالمعنى الذي استخدمه ماركس). وقد كان اليهود جماعة وظيفية وسيطة تعمل بالتجارة والأعمال المالية مثل الربا، وهو ما زاد أهميتها ونشاطها في المجتمع وخروجها عن هامشه وتحركها نحو مركزه. وقد وجد اليهود المارانو، المطرودون من شبه جزيرة أيبريا الكاثوليكية ومن محاكم التفتيش، ملجأً في الدول والمدن البروتستانتية مثل أمستردام وهامبورج ولندن وغيرها. ولم تَعُد الجماعات اليهودية تنفرد بكونها الأقليات الدينية في المجتمع، إذ كانت توجد الفرق البروتستانتية في الدول الكاثوليكية والفرق الكاثوليكية في الدول البروتستانتية التي كان أعضاؤها يواجهون رفضاً ومقاومة عنيفة أكثر من تلك التي كان يواجهها أعضاء الجماعة اليهودية. ففي أمستردام التي كان يُقال لها القدس الثانية، كان المجتمع البروتستانتي هناك يرحب باليهود ويضطهد الكاثوليك. وقد حاول المفكر الهولندي هيوجو جروتيوس (من منظِّري فكرة القانون الدولي العام والقانون الطبيعي) أن يُعرِّف المصادر المشتركة بين المسيحية واليهودية في بحثه المعنون **حقيقة الدين المسيحي** فبيَّن أن الفرق المسيحية (الكاثوليكية أو البروتستانتية) كان يُنظَر لها باعتبارها مصدر خطر حقيقي داخلي يفوق الخطر اليهودي كثيراً، فاليهود جماعة معزولة ضعيفة قليلة العدد هامشية، وكان المجتمع يجيد التعامل معها. كما ظهرت فرق بروتستانتية متطرفة، كالمعمدانيين، هددت البناء السياسي والاجتماعي نفسه، فضلاً عن أنها كانت ذات جذور جماهيرية راسخة.

ولقد خلخل ظهور البروتستانتية في حد ذاته الإطار المسيحي الكاثوليكي العالمي الموحَّد، فبدأت تظهر تعددية عقائدية في المجتمع الغربي. ويشكل هذا، بطبيعة الحال، بداية تقهقُر العقيدة المسيحية وتزايُد العلمنة في المجتمع الغربي. والواقع أن انقسام النخبة الحاكمة إلى بروتستانت وكاثوليك ألقى ظلالاً من الشك على العقيدة نفسها، الأمر الذي أدَّى بدوره إلى ظهور أو تشجيع الشك الفلسفي واليقين الإلحادي والحركة الإنسانية التي تحوِّل الإنسان إلى مطلق يحل محل الإله.

وقد ساهم لوثر في إشاعة جو التسامح تجاه أعضاء الجماعات اليهودية في بادئ الأمر، حيث تصوَّر أن بإمكانه هداية اليهود وتنصيرهم. ففي عام ١٥٢٠ هاجم لوثر هؤلاء الذين يضطهدون اليهود، وأدان اضطهادهم من قبَل الكنيسة الكاثوليكية محتجا بأن المسيحيين واليهود ينحدرون من أصل واحد. بل رفض لوثر المقولة الإقطاعية الدينية الغربية التي ترى أن اليهود هم أقنان البلاط أو الملك، ووجد أنهم على حق في رفض المسيحية في صورتها الكاثوليكية الوثنية. ووردت كل هذه الأفكار في كتابه الذي نشره عام ١٥٢٣، وطُبع سبع مرات في العام نفسه، بعنوان **عيسى وُلد يهوديا**. ودفاع لوثر عن اليهودية جزء لا يتجزأ من نزعته التبشيرية، أي أنه غير مهتم باليهود في حد ذاتهم وإنما مهتم بهم بمقدار إمكان تنصيرهم، فهو يختم كتابه هذا بقوله: "إذا أردنا أن نجعلهم خيراً مما هم، فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة المسيحي لا قانون البابا، علينا أن نحسن وفادتهم وأن نسمح لهم بأن يتنافسوا وأن نتيح لهم فرصة فهم الحياة والعقيدة المسيحيتين، وإذا أصر بعضهم على عناده فما الضرر في ذلك؟ نحن أنفسنا لسنا جميعاً مسيحيين صالحين". وقد عارض لوثر حرق التلمود ومصادرة الكتب الحاخامية، ولعل هذا ما حدا بالسلطات الكنسية إلى أن تعتبر لوثر "يهوديا" و"راعياً لليهود" و"شبه يهودي". بل تصوَّر بعض اليهود أيضاً أنه يهودي خفي من يهود المارانو.

ولكن موقف لوثر تغيَّر في أواخر الثلاثينيات، إذ اتخذ موقفاً متطرفاً متعصباً يفوق في تطرفه موقف الكنيسة الكاثوليكية. فالكنيسة الكاثوليكية كانت دائماً ملتزمة بالدفاع عن اليهود وحمايتهم باعتبارهم الشعب الشاهد، أما لوثر فأسقط هذا الدور تماماً (ضمن ما أسقط من مؤسسات وسيطة). ويُلاحَظ أن تزايُد اشتغال المسيحيين

بالتجارة كان له جانبه المظلم بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية إذ كان ذلك يعني تزايُد التنافس معهم. وقد أدّى الإصلاح الديني إلى فتح الباب على مصراعيه للاجتهادات والانشقاقات، فظهرت مجموعات المسيحيين الذين تمسكوا بحرفية العهد القديم واتخذوا طابعاً يهوديا، كما هو الحال مع جماعة السبتيين الذين كانوا يستريحون يوم السبت بدلاً من يوم الأحد. وكتاب لوثر **خطاب ضد السبتيين** يتضمن هجوماً حادا على اليهود الذين اتهمهم بأنهم يجمعون الأنصار لعقيدتهم. ثم ظهر عام ١٥٤٢ كتابه عن **اليهود وأكاذيبهم**، أما عام ١٥٤٣ فشهد نشر كتاب عن **شيم هامفوراش**، أي الاسم الذي لا يُنطَق به، والكتابان يتضمنان سيلاً من الشتائم والهجوم على اليهود إذ وصفهم بأنهم مسمِّمون وخبثاء ولصوص وقطاع طرق وديدان مقزِّزة. ولكن الجدير بالذكر أن لوثر كان عنيفاً في هجومه على كل أعدائه من أمراء وأساقفة وبابوات ومحامين وغيرهم. وقد تأثر لوثر في كتابيه بيهوديين متنصرين. والأكاذيب التي يتحدث عنها لوثر تتعلق بمفهوم الاختيار والميثاق مع الخالق من خلال الختان في سيناء، وإيمان اليهود بأن الرب أعطاهم إرتس يسرائيل (أي فلسطين) والقدس. واستخدم لوثر في كتابه كل الاتهامات التي كانت توجَّه إلى اليهود في العصور الوسطى، مثل تهمة الدم وتسميم الآبار، واتهمهم بأنهم يلعنون المسيحيين في معابدهم، ووصف اليهودية بأنها أصبحت شكلاً من أشكال الوثنية. كما أوصى لوثر بضرورة إحراق معابد اليهود وتدمير منازلهم وأن يُجمعوا كالقطيع في الحظائر حتى يتحققوا من أنهم ليسوا أسياداً في بلادهم وإنما غرباء في المنفى، وأن يخضعوا للسخرة، وأن تُسلب منهم كتب الصلوات الخاصة بهم والتلمود وأن يُمنع الحاخامات من تلقين تعاليم دينهم وأن لا يُسمح لهم بالسفر من خلال طرق الإمبراطورية.

وصاغ لوثر في هذا الكتاب فكرة الشعب العضوي المنبوذ صياغة متبلورة، فهو يطالب بعدم إعاقة اليهود عن العودة إلى أرضهم في يهودا (أي فلسطين) ويوصي بتزويدهم "بكل ما يحتاجون إليه في رحلتهم لا لشيء إلا لنتخلص منهم، إنهم عبء ثقيل وهم بلاء وجودنا". ونحن نرى في هذه العبارات نمطاً متكرراً في الحضارة الغربية. فمعاداة اليهود تُترجم نفسها دائماً إلى دعوة صهيونية، أي طرد اليهود وتوطينهم في فلسطين. وتشبه عبارات لوثر بعض العبارات التي وردت في المقدمة التي كتبها بلفور، صاحب الوعد المشهور، لكتاب **تاريخ الصهيونية** الذي كتبه ناحوم سوكولوف. وكانت آخر موعظة ألقاها لوثر، قبل موته بأربعة أيام، نوعاً من الهجوم على اليهود والمطالبة بطردهم.

ولا يتسم موقف المفكر الديني البروتستانتي جون كالفن (١٥٠٩ـ ١٥٦٤) بهذا الوضوح والعنف، فلم تكن لديه علاقة كبيرة بأعضاء الجماعات اليهودية سواء في فرنسا أو سويسرا. ومع هذا، فقد كتب كالفن كتيباً أخذ شكل حوار بين يهودي ومسيحي يحاول كل منهما أن يدافع عن عقيدته ويدحض عقيدة الآخر.

ولكن أثر كالفن في أعضاء الجماعات اليهودية يظهر بشكل غير مباشر، إذ أباح الربا، وهو ما أسبغ شرعية على أحد نشاطات اليهود الاقتصادية الأساسية. كما أن البروتستانتية الكالفنية التي ابتدعها كالفن، وسيطرت على معظم العالم الأنجلو ـ ساكسوني، ساهمت في ظهور الرأسمالية حسب أطروحة ماكس فيبر. وهو الأمر الذي ترك أثراً عميقاً في اليهود. وقد كان اهتمام كالفن بالعهد القديم بالغاً، كما ركَّز تركيزاً قويا على النزعة القانونية والتقيد الحرفي والمفرط بالقانون. ومن هنا كان قربه من روح العقيدة اليهودية واتهامه، مثل كثير من المفكرين البروتستانت الأوائل، بأنه يهودي أو من دعاة التهويد.

ويُلاحَظ أن ثمة علاقة وثيقة بين البروتستانتية من جهة والصهيونية والجماعات اليهودية من جهة أخرى:

١ ـ تأثرت اليهودية بالإصلاح الديني، فظهرت اليهودية الإصلاحية في ألمانيا (مهد الإصلاح الديني) متأثرة بفكر الإصلاح الديني المسيحي بشكل عام وبفكر لوثر على وجه الخصوص. وقد صرح الفيلسوف اليهودي هرمان كوهين أنه لا يرى أي فارق بين التوحيد اليهودي والبروتستانتية.

٢ ـ لاحظنا ظهور الفكر الاسترجاعي الصهيوني داخل الفكر البروتستانتي. ويمكن الإشارة إلى أن كثيراً من يهود أوربا كانوا، ابتداءً من القرن السابع عشر، يستقرون في البلاد البروتستانتية (هولندا وإنجلترا... إلخ)، وهي بلاد كان لها النصيب الأكبر في التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي. ولذا، نجد أن معظم يهود العالم يتركزون في البلاد البروتستانتية الاستيطانية التي تتحدث الإنجليزية: الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. ولم يَعُد لهم وجود يذكر في البلاد الكاثوليكية. ومع هجرة اليهود السوفييت، سيتركز يهود العالم إما في البلاد البروتستانتية أو في إسرائيل.

٣ ـ يُلاحَظ ارتباط الحركة الصهيونية بالبلاد البروتستانتية. وقد تبنت إنجلترا المشروع الصهيوني بعد منافسة قصيرة مع ألمانيا وتبعتها الولايات المتحدة، وذلك بينما كان هناك دائماً رفض للمشروع

الصهيوني في الأوساط الكاثوليكية. ويُلاحَظ أنه، مع تزايُد انتشار البروتستانتية في أمريكا اللاتينية، يُتوقع تزايد التعاطف مع المشروع الصهيوني.

٤ ـ ارتبطت هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني البروتستانتي الأنجلو ساكسوني، ولذا نجد أن الغالبية الساحقة من يهود العالم توجد في الولايات المتحدة وكندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا (وأخيراً إسرائيل التي هي جزء من هذا التشكيل الأنجلو ساكسوني).

٥ ـ ثمة علاقة غير مباشرة بين البروتستانتية والجماعات اليهودية تتحدد في أن الرأسمالية، حسب أطروحة فيبر، وُلدت في المجتمعات البروتستانتية، كما أن ميلاد الرأسمالية الرشيدة كان أهم حدث في تاريخ الجماعات اليهودية، خصوصاً في الغرب.

٦ ـ ولا يزال كثير من غلاة البروتستانت يأخذون بالتفسير الحرفي للعهد القديم، وينظرون إلى فلسطين باعتبارها أرضاً مرتبطة باليهود، وينظرون إلى اليهود باعتبارهم العبرانيين القدامى، ويتفشى في صفوفهم تفكير صهيوني وحُمَّى استرجاعية ألفية. ويرى كثير منهم أن دولة إسرائيل تحقيق للنبوءات التي وردت في العهد القديم.

لكن هذا لا يعني أن ثمة علاقة عضوية أو سببية بين البروتستانتية والصهيونية. وكما أسلفنا، تحوي الرؤية الاسترجاعية البروتستانتية قدراً كبيراً من كراهية اليهود ورفضهم. وتتحدث إذاعات غلاة البروتستانت في الولايات المتحدة عن ضرورة عودة اليهود، ولكنها ترى أيضاً أن هتلر سوط العذاب الذي أرسله الإله لتعذيب اليهود لإنكارهم المسيح.

عصر النهضة

رغم التفتح العام الذي شهدته الحضارة الغربية في عصر النهضة، فإنه لم تكن له مردودات إيجابية على أعضاء الجماعات اليهودية. وربما يعود هذا إلى وضع اليهود الخاص داخل المجتمع الغربي وإلى أنهم لم يكونوا جزءاً من القوى الاجتماعية التي أدَّت إلى ظهور النهضة والاستنارة فيما بعد. كما أن بنية المجتمع، برغم تغيرها في كثير من الوجوه، ظلت جامدة وتقليدية. ولذا، لم يشهد عصر النهضة (بشكل عام) تغيراً جوهريا في أحوال أعضاء الجماعة اليهودية، كما لم تحدث تطورات فكرية عميقة إلا في بعض الجماعات مثلما حدث في إيطاليا في بداية عصر النهضة. وكانت أوربا خالية من اليهود بعد أن طُردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢، ومن البرتغال عام ١٤٩٦، ومن نافار وصقلية وسردينيا عام ١٤٩٨، ومن سويسرا وألمانيا عام ١٤٩٠. أما إنجلترا وفرنسا، فكانتا قد طردتا أعضاء الجماعة اليهودية في فترة سابقة ولم يسمح لهم بالاستيطان فيهما. ولم تكن هناك جماعات يهودية إلا في شرق أوربا (بولندا) التي كانت خارج نطاق عصر النهضة (في بدايته)، أو في بعض الإمارات الألمانية التي استقبلت اليهود الذين كانوا قد طُردوا من إمارات أخرى. كما كان يوجد بعض اليهود في المدن/ الدول الإيطالية في بداية عصر النهضة. بل إن هذه الفترة شهدت تكريس عزلة اليهود، وشهدت تحوُّل الجيتو من المكان الذي كانوا يعيشون فيه إلى المكان الذي يتعين عليهم العيش فيه. فمع عصر النهضة، فَقَد كثير من الجماعات اليهودية في غرب أوربا دورها كجماعة وظيفية وسيطة تعمل بالتجارة والربا وحلت محلها جماعات مسيحية محلية أو دولية.

ومع هذا، شهدت الجماعات اليهودية في تلك الفترة بعض التحولات العميقة، وهي تحولات كان مقدراً لها أن تتصاعد في الفترات التاريخية اللاحقة بعد تزايُد أعداد يهود بولندا، وبداية تشابكهم مع طبقة الشلاختا داخل إطار الإقطاع الاستيطاني في أوكرانيا (نظام الأرندا). ويُلاحَظ بدايةً الانفجار السكاني بين يهود بولندا الأمر الذي أدَّى إلى تحوُّلهم إلى الغالبية الساحقة من يهود العالم. كما بدأ يهود المارانو في تكوين مراكزهم السكانية والثقافية في أمستردام وبوردو وسالونيكا (وفي كثير من مدن الدولة العثمانية) وكان يُطلَق عليهم «السفارد» أو «البرتغاليين». وكان السفارديون على مستوى ثقافي رفيع (نظراً لاحتكاكهم بالثقافة العربية الإسلامية)، وكانت النخبة بينهم على دراية بالأمور المصرفية المتقدمة. وكانت تربطهم فضلاً عن ذلك علاقات وثيقة باليهود السفارديين في الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي سهل عليهم القيام بالعمليات التجارية الدولية، وبذلك أمكنهم أن يلعبوا دوراً في الاقتصاد الجديد. وقد بدأ الأدب والفن في عصر النهضة ينفتحان على المواضيع العبرية واليهودية، فرسم رمبرانت يهود أمستردام (ومن بينهم إسبينوزا) وأبطال العبرانيين. ويُلاحَظ أن الأعمال الأدبية بدأت هي الأخرى تعالج شخصيات مثل شمشون ويهوديت وإستير.

ومن المفارقات أنه حين بدأت أوربا في نبذ اليهود، اكتسب يهود أوربا مركزية بين يهود العالم بسبب ثقلهم السكاني (إذ أصبحوا يشكلون غالبية يهود العالم) وزاد وزنهم الثقافي مع تزايُد طباعة الكتب العبرية، وكذلك بسبب تزايد أهمية أوربا في العالم مع تزايد غزواتها الإمبريالية لأركان المعمورة الأربعة. ويُلاحَظ أن ظاهرة يهود

البلاط بدأت في هذه الفترة ولكنها لم تتبلور إلا في القرن السابع عشر الميلادي. وقد بدأ تحرُّك أعضاء الجماعة اليهودية مع التشكيل الاستيطاني الغربي في هذه المرحلة، وهي عملية انتهت في الوقت الحاضر بوجود معظم يهود العالم في بلاد استيطانية.

ويُلاحَظ أن الفكر الصهيوني بدأ ظهوره، في هذه الفترة، بين المسيحيين في البلاد البروتستانتية على وجه العموم وفي إنجلترا على وجه الخصوص. وهو فكر يذهب إلى أن خلاص العالم لن يتم إلا بالاستيلاء على فلسطين واسترجاع اليهود، أي عودتهم لها، وتنصيرهم حتى يتم الإعداد لعودة المسيح المخلِّص. والفكرة الصهيونية هي نفسها الفكرة الاسترجاعية مع إحلال العنصر اليهودي محل العنصر المسيحي.

من نهاية عصر النهضة حتى العصر الحديث

ويُلاحَظ أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا خلال العصور الوسطى في الغرب كانت قد أخذت شكل الانسحاب أو الهجرة إلى الماضي من الغرب إلى الشرق - من أوربا الغربية حيث نشأت طبقات تجارية محلية إلى الشرق السلافي حيث كان نمط التنظيم الاجتماعي شبيهاً بأوربا في العصور الوسطى - فكان بوسع أعضاء الجماعات اليهودية الاستقرار في مسام المجتمع وعلى هامشه ليلعبوا دوراً حدوديا. وكان اليهود المنسحبون هم أساساً اليهود الإشكناز الذين يشتغلون بالتجارة البدائية والربا، وكان أكبر تجمُّع لهم في هولندا وروسيا، وهو التجمُّع الذي نشأت فيه المسألة اليهودية (والأفكار الصهيونية فيما بعد). وقد استمرت هذه الحركة حتى بداية القرن السابع عشر الميلادي حين بدأت الدولة العثمانية (التي كانت تستوعب الفائض الأوربي من اليهود) في التجمد.

أخذت الهجرة اليهودية منذ ذلك التاريخ تتجه نحو بلاد وسط وغرب أوربا، وهي البلاد التي كانوا قد طُردوا منها. وبعد أن تساقط النظام الإقطاعي الوسيط عاد اليهود إلى هذه البلاد وظهر حكم الملكيات المطلقة التي حطمت سلطة الأمراء الإقطاعيين وظهرت الدولة المركزية المطلقة. وكان يهود المارانو، بما لديهم من خبرة في الأمور المالية والتجارة الدولية، عنصراً أساسيا في الحركة الثانية لليهود.

وفي عام ١٦١٢، سمحت هامبورج ليهود المارانو بالاستيطان فيها، وأعلن بعضهم يهوديته صراحة بعد الاستيطان. أما في فرنسا، فكان هناك بعض الجيوب اليهودية. ومع عصر النهضة، تغيَّرت الصورة. ففي أواخر القرن السادس عشر الميلادي، سُمح لبعض اليهود السفارد من المارانو بالاستيطان في بوردو وبايون. كما تم ضم منطقة الألزاس واللورين التي كانت تضم يهوداً من الإشكناز، وبعدها انتشر اليهود، وبخاصة من الألزاس، في كل فرنسا. أما في إنجلترا، فقد سُمح بعودة اليهود عام ١٦٦٤، وأُسِّس معبد يهودي في لندن عام ١٦٩٠. ولم يكن هناك، في إنجلترا، جيتو يهودي بالمعنى المعروف، ولم تُفرَض عليهم هناك أية قيود.

وقد هاجر يهود المارانو أيضاً إلى هولندا واستوطنوا في أنتورب، ثم في أمستردام، وتحالفوا مع البروتستانت في حربهم ضد الهيمنة الإسبانية، كما لجأ بعض يهود المارانو إلى الإمبراطورية العثمانية. وكان نمط الهجرة يأخذ في العادة شكل استيطان سفاردي في البداية ثم يتوافد المهاجرون الإشكناز.

وقد أدَّى هذا، في بداية الأمر، إلى تزايُد انعدام التجانس بين اليهود داخل القارة الأوربية. وفي داخل كل مدينة، كانت الجماعات اليهودية مستقلةً الواحدة عن الأخرى تماماً، ففي إيطاليا مثلاً كانت هناك جماعة يهودية إيطالية وأخرى إسبانية سفاردية وثالثة ألمانية إشكنازية، وكانت كل جماعة منفصلة عن الأخرى وتتصارع معها في بعض الأحيان. بل كانت الجماعة الواحدة تنقسم إلى عدَّة أقسام حسب المدينة التي ينتمي إليها أعضاؤها أصلاً.

ومع هذا، كان هناك فريقان أساسيان هما: السفارد ممن يتحدثون اللادينو، والإشكناز المتحدثون باليديشية، وبخاصة بعد أن انضمت الجماعات الصغيرة الأخرى إلى أحد الفريقين وفقدت هويتها بينهم. وتركز يهود المارانو في شبه جزيرة أيبريا وثغور البحر الأبيض المتوسط، وداخل الدولة العثمانية، وداخل أوربا، وفي العالم الجديد. أما اليهود الإشكناز فتركزوا في شرق أوربا وداخل بعض مدن وسط ألمانيا.

وكان الهرم الطبقي لليهود في الغرب يتكون من خمس أو ست طبقات. وعلى قمة الهرم، كانت تقف نخبة صغيرة من كبار المموِّلين ويهود البلاط ويهود الأرندا ووكلاء الأمراء، وكان هؤلاء يشكلون قيادة الجماعة اليهودية كما هو الحال مع يهود البلاط في وسط أوربا، والمهاماد في غربها، والقهال في شرقها، تليها طبقة أكبر من كبار التجار والوكلاء التجاريين وأصحاب المعامل. أما الطبقة الثالثة، وهي أكبرها حجماً، فهي جمهور الباعة الجائلين وبائعو الملابس القديمة وغيرهم من صغار التجار. وكانت هناك طبقة رابعة صغيرة من الحرفيين. وفي أسفل الهرم، كانت توجد قاعدة كبيرة من الجائلين والمتسوِّلين والمتعطِّلين.

وكما ذكرنا من قبل، كان بناء بعض المجتمعات الغربية فيما قبل

الثورة الفرنسية هرميا جامداً، وكانت حقوق الفرد تزداد بارتفاع مستواه الطبقي والاجتماعي. ولذا، لم يكن للفلاحين والأقنان أية حقوق تذكر. وكذلك الوضع بالنسبة ليهود ألمانيا، إذ كان يهود البلاط في قمة المجتمع ولهذا كانوا يتمتعون بكل الحقوق تقريباً، أما يهود الجيتو فلم تكن لهم حقوق تذكر. وكان أعضاء الجماعة اليهودية في بروسيا يُقسَّمون حسب وضعهم في المجتمع ومدى نفعهم للدولة، وهو تقسيم تبنته فيما بعد معظم دول أوربا في القرن الثامن عشر الميلادي وتبنته روسيا في القرن التاسع عشر الميلادي.

وكانت قاعدة الهرم الطبقي اليهودي تمتد من القرى إلى المدن، ويُلاحَظ خلو هذا الهرم إلى حدٍّ كبير من الطبقة الوسطى المرتبطة بالصناعة ومن التجار متوسطي الحال ومن العمال والفلاحين والنبلاء. وكان أعضاء الجماعة اليهودية، نظراً لعلاقتهم المباشرة مع الحاكم من خلال يهود البلاط أو كبار المموِّلين الذين لعبوا دور الوسطاء (شتدلان) بين الحاكم وأعضاء الجماعة، أحسن حالاً من بقية أعضاء المجتمع الخاضعين لأهواء النبلاء وموظفي بقايا النظام الإقطاعي الذي لم يكن له قانون موحَّد أو قواعد ثابتة. وبرغم تزايد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم، فقد ظلت الجماعات اليهودية محتفظة بشيء من تماسكها وبكثير من مؤسساتها، وهو ما جعلها منفصلة نوعاً ما عن المجتمع ومنعزلة عنه ومتمتعة بهوية شبه مستقلة.

وبعد تناقص دور اليهود كجماعة وظيفية وسيطة تتشكَّل من تجار صغار ومرابين، بدأت الحضارة الغربية تحوِّلهم مرة أخرى إلى جماعة وظيفية وسيطة أخرى تضطلع بالدور التجاري نفسه ولكن بما يُعبِّر عن التغيرات التي خاضها المجتمع الغربي. فبعد أن كان أعضاء الجماعة اليهودية هم الإسفنجة أو الأداة التي يمتص بها الحاكم الإقطاعي فائض القيمة من داخل مجتمعه، تحولوا إلى أداة يستخدمها حاكم الدولة المطلقة في النشاطات التي تقوم بها هذه الدولة داخل وخارج حدودها، إذ لم يعد هناك ضرورة لامتصاص فائض القيمة لأن مؤسسات الدولة كانت تقوم بذلك على وجه أفضل. ومع هذا، استمر بعض أعضاء الجماعة اليهودية في لعب دور الجماعة الوسيطة القديمة أي التجارة البدائية والربا، وهؤلاء هم اليهود الذين كانوا يوجدون في قاعدة الهرم. والواقع أن معظم، إن لم يكن كل، أعضاء الجماعات اليهودية (في قمة الهرم وقاعدته) كانوا يضطلعون بأشكال مختلفة من الوساطة.

وفي هذه المرحلة كوَّنت الجماعات اليهودية شبكة علاقات تجارية على مستويين: عالمي متقدم، ومحلي بدائي. فكان كبار المموِّلين اليهود، من يهود البلاط وغيرهم، يربطون بين الدول المختلفة ويسدُّون احتياجات الأمراء للأموال وحاجات الجيوش إلى التموين. كما كانت تساندهم القاعدة الكبيرة من كبار تجار الجملة، والسماسرة والوكلاء التجاريين الذين كان يساندهم آلاف الباعة الجائلين وصغار تجار العملة والحرفيون اليهود الذين كانوا يعملون عادةً بالقرب من الوسيط اليهودي فيقومون بتقطيع الماس والصياغة والنسيج وخياطة الملابس وإصلاحها.

ولهذا السبب، كان بوسع كبار المموِّلين اليهود، من يهود البلاط أو غيرهم، أن يدبِّروا أية كمية من الذهب يريدها الإمبراطور أو الأمير، ويعدوا له التموين اللازم للحملات العسكرية التي يجرِّدها في أسرع وقت ممكن رغم ظروف الحرب. كما كان بوسعهم، من خلال الشبكة نفسها، القيام بأعمال التجسس لصالح هذا الفريق أو ذاك، وتوصيل المعلومات بسرعة غير متوافرة لأيٍّ من الفريقين المتحاربين، وذلك من خلال حلقة الاتصال اليهودية، سواء مع يهود الأرندا في بولندا أو يهود المارانو في الدولة العثمانية، أو المئات من صغار التجار والمموِّلين اليهود في طول أوربا وعرضها.

وقد استفادت كل دول أوربا المتحاربة من هذا الهرم التجاري اليهودي الممتد، فاستفاد منهم الكاثوليك والبروتستانت، والألمان والسويديون. ولذا، لم يمس أيٌّ من الأطراف المتحاربة أعضاء الجماعات اليهودية بأذى.

وترجع إلى هذه الفترة بداية ارتباط الجماعات اليهودية بالاستعمار الغربي الحديث، وبخاصة في جانبه الاستيطاني، وكذلك تزايد اهتمام الغرب بالجماعات اليهودية باعتبارها عنصراً استيطانيا ماليا يشجع التجارة. فعلى سبيل المثال، كان أغلبية المستوطنين الأوربيين في سورينام من اليهود، وثار العبيد عليهم هناك. وقد سيطر المموِّلون اليهود على كثير من أشكال التجارة الإستراتيجية، واشتركوا في كثير من المشروعات الاستعمارية، فساهموا في شركة الهند الشرقية الهولندية وفي غيرها من الشركات. كما اشتركوا في تجارة العبيد بنشاط كبير. واستوطنت بعض الجماعات اليهودية في العالم الجديد، وهو ما وسع نطاق الشبكة التجارية اليهودية.

ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا كانوا مرتبطين بالاقتصاد الإقطاعي التقليدي فيها، وبالنبلاء من خلال نظام الأرندا. أما في الغرب والوسط، فكانوا جزءاً من اقتصاد الدولة المطلقة، وبخاصة في مجال التجارة والنشاط الكولونيالي، أي تلك النشاطات المرتبطة بأهداف الدولة القومية الجديدة. وكان القاسم

المشترك بين هذه النشاطات أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا في أغلب الأحيان مرتبطين بأهداف الحاكم ومعادين لكثير من طبقات المجتمع. كما أنهم، رغم تراكم ثرواتهم، لم يصبحوا قط جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الجديد، فلم يستثمروا أموالهم في الصناعات الجديدة بل ظلوا بمنأى عنها. وظل رأس المال اليهودي مرتبطاً بالدولة، فحين كان رأس المال اليهودي يؤسس المصانع، كانت هذه المصانع تابعة للدولة. ولأنهم لم يؤسسوا مصانع مستقلة، ظلوا تحت حماية الدولة، لا علاقة لهم بالرأسماليين الآخرين ولا بالجماهير ولا بأيٍّ من الطبقات المهمة في المجتمع، ولذا فإنهم لم يساهموا في تطور الرأسمالية الرشيدة.

وكان أعضاء الجماعة اليهودية في الدولة المطلقة، وبخاصة في المراحل الأولى من تاريخها، إحدى أدوات التوحيد وفرض المركزية، بل كانوا أداة على درجة كبيرة من الكفاءة والموضوعية والحياد نظراً لوجودهم خارج المجتمع الغربي.

ووضع الجماعات اليهودية في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة، وعلاقتهم الخاصة بالنخبة الحاكمة، يُفسِّر سرَّ تدهورهم بعد صعودهم. وتشكل الفترة من اندلاع حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) حتى توقيع معاهدة أوترخت عام ١٧١٣، بعد حرب الخلافة الإسبانية، قمة ازدهار الجماعات اليهودية، وقد تلتها مرحلة التدهور، فقد كان الحاكم يصادر أموال اليهودي بعد موته وهو ما كان يعوق أي تراكم رأسمالي. وكان الملك يرفض أحياناً دفع ما عليه من ديون، فيدفع جزءاً منها وحسب، الأمر الذي كان يؤدي إلى القضاء على ثروة المموِّل اليهودي. وكان هذا أمراً سهلاً على الحاكم، نظراً لعدم وجود قاعدة جماهيرية تساند اليهودي، ونظراً لاعتماده الكامل والمذل على الحاكم. وكانت علاقة الشك المتبادلة بين الحاكم والمموِّل اليهودي، رغم حاجة الواحد منهما إلى الآخر، تؤدي إلى أن يهرِّب المموِّل جزءاً من رأسماله خارج حدود البلد الذي يعيش فيه، إذ كان الشك يجعل من المستحيل على أعضاء الجماعة اليهودية أن ينتموا انتماءً قومياً كاملاً.

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي بدأ التدهور بين السفارد، فلم يعد هناك وكلاء يهود لأي بلاط أوربي في مدينة هامبورج ذات الأهمية التجارية. وعلى سبيل المثال، حينما عُيِّن مندوب يهودي للبلاط الدنماركي في أمستردام، اضطر مجلس الشيوخ بضغط من الجماهير إلى رفض الاعتراف به. كما انتقلت وكالة إسبانيا والبرتغال في أمستردام من أيدي أعضاء الجماعة اليهودية في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي. ولحق هذا التدهور نفسه بأعضاء الجماعة اليهودية من السفارد البرتغاليين في أمستردام، فتناقص استثمارهم في التجارة الدولية وفقدوا جزءاً كبيراً من رأسمالهم في مضاربات البورصة.

وحدث الشيء نفسه بالنسبة إلى يهود ألمانيا، إذ دخلت السياسة المركنتالية الألمانية في مرحلة جديدة بعد عام ١٧٢٠، فبدأت تحمي الصناعات والبضائع المحلية ومنعت استيراد الصوف والمواد الخام الأخرى. وكان ازدهار الجماعة اليهودية في ألمانيا يستند إلى استيراد البضائع من هولندا وإنجلترا. ومن أهم البضائع التي كانوا يستوردونها الأقمشة الهولندية وبضائع أخرى من التي طُبِّق عليها الحظر. وقد أدَّى كل هذا إلى تدهور وضع الجماعات اليهودية. ورغم تحسن وضعهم لفترة وجيزة (عام ١٧٤٠) بسبب حرب الخلافة النمساوية، إلا أنهم لم يعودوا إلى سابق عهدهم، بل تزايد عدد الفقراء بينهم، فمثلاً تضاعف عدد فقراء اليهود السفارد البرتغاليين في أمستردام أربع مرات في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام إذ زاد من ١١٥ إلى ٤١٥، أي نحو ٤٠٪ من جملة أعضاء الجماعة السفاردية. وقد بدأ كبار المموِّلين اليهود بنقل رأسمالهم من التجارة اليهودية التقليدية إلى الصناعات الجديدة التي لم تكن صناعات يهودية (إن صح التعبير)؛ إذ كانت الدولة المطلقة تضع القوانين التي تجعل من الصعب على صاحب الرأسمال اليهودي أن يستأجر يهوداً وحسب.

أما فيما يتصل بيهود بولندا، فكانت هجمات شميلنكي أول ضربة تلقوها ثم تلتها الفوضى السياسية التي تسببت في اضمحلال الجماعة اقتصاديا. ووضعت معاهدة أوترخت حدا الحالة الحرب التي ازدهرت بسببها الجماعات اليهودية، وساد السلام الذي ساهم في القضاء على الأساس الاجتماعي للتجارة اليهودية وفي القضاء على الحاجة إليها. وأثَّر هذا أيضاً في يهود الأرندا إذ لم تَعُد أوربا في حاجة إلى المحاصيل الزراعية أو الأخشاب. أما التجارة الكولونيالية، فبدأت تتسع وتحتاج إلى قاعدة بشرية ورأسمالية واسعة جدا؛ وهو ما جعل رأس المال اليهودي الهزيل بدون أهمية كبيرة. وقد أدَّى تقسيم بولندا ثم اختفاؤها، كوحدة سياسية مستقلة، إلى تقسيم أهم وأكبر تجمُّع يهودي على الإطلاق. ولذا، فمع النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، بدأ يتفاقم ضعف الحالة الاقتصادية ليهود أوربا: شرقها ووسطها وغربها. وبدأ أعضاء الجماعات اليهودية يعانون الهامشية وانعدام الإنتاجية، لا لكسل طبيعي فيهم وإنما بسبب التطورات الاجتماعية والثقافية السريعة. وظهرت ظاهرة الشحاذ اليهودي، وهذه كلها جوانب مما يُسمَّى «المسألة اليهودية». ومما يجدر ذكره أن هذه المرحلة شهدت أيضاً

تقلُّص نفوذ الجماعة اليهودية في الدولة العثمانية، وذلك نظراً لتزايُد النفوذ الغربي الذي شجع الأقليات المسيحية على حساب الجماعات اليهودية. وأخذ نصيب يهود الدولة العثمانية من تجارتها الدولية يتناقص ابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي، حتى اختفى تماماً مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

وكان أعضاء الجماعة اليهودية مرتبطين بالنظام السياسي الإقطاعي والدولة الإقطاعية في بولندا وفي غيرها من الجيوب نظراً لارتباطهم بالنخبة الحاكمة، ففي بداية الفترة التي نتناولها كان أعضاء الجماعة يقفون على مقربة من الدولة المطلقة ويخدمون أهدافها ومآربها. ولذا، كانوا عرضة لهجوم أعداء السلطة الحاكمة نتيجة التطور التاريخي وتزايد نفوذ الدولة المطلقة ورغبتها في تصفية الجيوب الإثنية والدينية المختلفة كافة وكل الجماعات الوظيفية الوسيطة، وضمن ذلك تلك الجماعات التي خدمتها بعض الأوقات. ومن هنا جاء دور الجيب اليهودي، فقررت الدولة المطلقة أن تحل مسألتها اليهودية على طريقتها المألوفة وهي ترشيد اليهود، بإخضاعهم للإجراءات نفسها التي طُبِّقت على مواطني الدولة المطلقة. وإذا كان الهدف من هذه العملية أن تصل الدولة إلى الفرد مباشرة بحيث يمكنها توظيفه لصالحها تماماً، وإدارته من خلال مؤسساتها العامة، ولذا أخذت شكل تحرُّك على مستويين؛ مؤسسي وفردي. فعلى مستوى المؤسسات، أُلغيت كل المؤسسات اليهودية الوسيطة مثل القهال والمهاماد وغيرها. ولكن ثمة أسباباً داخلية خاصة باليهود ساهمت في عملية ضعف المؤسسات الوسيطة ومن بينها ازدياد عدم التجانس المهني والوظيفي بين أعضاء الجماعات وتدنِّي المستوى الحضاري والثقافي لقيادتهم، الأمر الذي جعل هذه القيادات غير مؤهلة لتمثيل الجماعة أمام الحكام غير اليهود. أما على المستوى الفردي، فحدث ترشيد اليهود وتطبيعهم أي تحويلهم إلى إنسان عصر الاستنارة الطبيعي. وقد سُمِّيت العملية «عملية إصلاح اليهود»، أي تخليصهم من هامشيتهم وطفيليتهم وانعدام إنتاجيتهم وتحويلهم إلى عناصر نافعة يمكن توظيفها مع ما يوظَّف من عناصر مادية وبشرية أخرى في خدمة الدولة، ويمكن دمجها مع بقية المادة البشرية التي تكوِّن مواطني الدولة. ولم يكن هذا الأمر مقصوراً على أعضاء الجماعة اليهودية فقد أكد فكر حركة الاستنارة الحرية الشخصية وضرورة الحكم على الفرد من منظور مدى نفعه للدولة، ولذا كانت عملية الإعتاق والتحرير تتم بهدف زيادة نفع الإنسان وتحويله إلى مواطن منتج مستهلك (وقد وجدت فكرة تطبيع اليهود وتحويلهم إلى عناصر نافعة طريقها إلى الفكر الصهيوني).

وإذا كانت عملية الإصلاح ترتبط بأسماء حكام مطلقين مثل جوزيف الثاني ونابليون بونابارت وألكسندر الثاني، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فإنها لم تختلف كثيراً عن السياسة التي طرحتها الثورة الفرنسية. فالفكر الكامن في الملكيات المطلقة والجمهوريات الثورية فكر عصر الاستنارة، والنموذج الكامن نموذج الإنسان الطبيعي. ومع هذا، كان وضع أعضاء الجماعة اليهودية وطريقة حلّ المسألة اليهودية يختلفان من بلد إلى آخر بحسب مستوى تطوُّر هذا البلد. فبالنسبة إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية التي كانت تضم النمسا والمجر وبوهيميا ومورافيا، ثم جاليشيا التي كانت تضم كتلة يهودية كبيرة نوعاً ما، حاول الإمبراطور جوزيف الثاني أن يدمج اليهود في الإمبراطورية فأصدر عدة تشريعات في الفترة من ١٧٨١ إلى ١٧٨٩ كما أصدر عام ١٧٨٢ براءة التسامح التي كانت تهدف إلى تحديث المجتمع ككل وإلغاء انعزالية اليهود المتمثلة في مؤسسات الإدارة الذاتية. وحدَّدت التشريعات حقوق النبلاء، كما استهدفت تحسين أحوال الفلاحين والحد من سلطان رجال الدين الكاثوليكي. وقد أُلغيت الشارة اليهودية التي كان على اليهود ارتداؤها خارج الجيتو. كما أُلغي كثير من القوانين التي كانت تحد من حركتهم، فأصبح من حقهم ممارسة أية حرفة وأن يعملوا بالتجارة والصناعة أو في أية وظيفة مدنية أو عسكرية، وأصبح من حقهم أن يشيِّدوا منازل خاصة بهم في أي مكان. ومُنحوا حق التمتع بشرف الخدمة العسكرية عام ١٧٨٧، كما حُظر عليهم استخدام اليديشية، وبخاصة التجار الذين كان عليهم أن يكتبوا حساباتهم بالألمانية. كما أصبح من المحظور على أعضاء الجماعات اليهودية ارتداء أزياء خاصة بهم، بل فرضت عليهم الأزياء الأوربية، ومُنع الآباء من تدريس التلمود لأبنائهم قبل اكتمال دراستهم، وفُرض عليهم اختيار أسماء جديدة ألمانية. وقد حاولت حكومات الإمارات والدويلات الألمانية تطبيق سياسة ترمي إلى دمج اليهود، فأصدر فريدريك الأكبر ميثاقاً يضمن لهم حرية العبادة ولكنه يحدد في الوقت نفسه مكان سكناهم ونسبة المصرح لهم بالزواج.

وفي روسيا وبولندا خاض اليهود عملية تحديث مماثلة في مرحلة لاحقة، وإن أخذت شكلاً خاصا نظراً لخصوصية وضع اليهود فيها ونظراً لتعثر عملية التحديث. هذا على عكس الوضع في فرنسا وإنجلترا وهولندا، وهي بلاد ذات بورجوازيات محلية قوية لم تخش منافسة التاجر اليهودي ولم ترفض توطين اليهود، وبخاصة المارانو، بل أتاحت أمامهم فرصة الاشتغال بجميع الحرف. وكانت اللاأهلية الشرعية (القانونية) المفروضة عليهم محدودة وآخذة في الاختفاء،

كما لم تظهر في مثل هذه البلاد مسألة يهودية إذ أخذت فيها المسألة اليهودية شكلاً غير مستعص على الحل لأن الجماعة اليهودية لم تكن جسماً غريباً فيها، ولم تكن أيضاً متميِّزة اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا، كما أن عدد أعضائها كان صغيراً. وكان لمعظم هذه البلاد مشروع استعماري قوي في فترة مبكرة، وأمكنها عن طريقه حلّ كثير من مشاكلها الاجتماعية.

وكما أسلفنا، كان الاقتصاد المركنتالي يمثِّل تحدِّياً للمسيحية وقيمها، ومن ثَمَّ شكَّل تحدِّياً للاقتصاد التقليدي المسيحي المبني على القيم المسيحية التقليدية. وكانت التجارة اليهودية عنصراً مهماً من عناصر التحدي التي ساهمت في تقويض دعائم الاقتصاد التقليدي. وتمثَّل هذا التحالف بين القوى المدافعة عن المركنتالية والتجارة اليهودية فيما يُسمَّى «حب السامية» أي التحيُّز لليهود وحبّ المعرفة التي ينقلونها. وقد شهدت المرحلة بالفعل تزايُد الاهتمام بالدراسات العبرية، وهو اهتمام يُعدُّ على مستوى من المستويات تحدِّياً للقيم المسيحية والتقليدية ويُعبِّر عن تراجعها فهو من ثم شكل من أشكال العلمنة. كما أنه مرتبط بظهور الشك الفلسفي في هذه المرحلة، أي أن حب السامية أو التحيز لليهود تعبير آخر عن تزايُد معدلات العلمنة في المجتمع الغربي. وقد تنبه بعض رجال الكنيسة إلى أن هذا الاهتمام باليهودية والدراسات العبرية يشكل هجوماً مقنَّعاً على المسيحية.

ولعب المارانو دوراً أساسيا في علمنة الجماعات اليهودية، إذ كانوا كتلة بشرية متحركة لا جذور لها في بقعة جغرافية. ومن ثَمَّ، ساهموا بشكل فعال في عملية التحديث والعلمنة على المستويين الاقتصادي والثقافي باشتراكهم في التجارة الدولية وفي بناء الدولة المطلقة، وبنشرهم لأول مرة كتباً وضعها يهود ولكن بإحدى اللغات الأوربية، وبإشاعتهم فكرهم الديني الذي كان جوهره تفكيراً لادينيا رافضاً لليهودية الحاخامية دون قبول دين آخر. وكانت اليهودية الحاخامية في ذلك الوقت قد بدأت تدخل أزمتها العميقة التي أودت بها في نهاية الأمر كعقيدة لأغلبية اليهود، إذ تحجرت تماماً داخل الجيتو وأصبحت خالية من المعنى منفصلة عن الواقع. وظهرت القبَّالاه لسد الفراغ النفسي والمعرفي، كما ظهر إسبينوزا من صفوف المارانو ووجه سهام نقده لليهودية وللفكر الديني بشكل عام، وترك اليهودية دون أن يؤمن بدين آخر. وبذلك، وضع إسبينوزا أساس اليهودية العلمانية بل العلمانية ككل. وظهر شبتاي تسفي في الفترة نفسها، فطرح تصوراته التي قوَّضت دعائم اليهودية وتحدَّت القيادة الحاخامية الأرثوذكسية وأحرز شعبية غير عادية، بل انضم إليه عدد كبير من الحاخامات. والواقع أن نجاح الشبتانية أكبر دليل على مدى عمق التغير الذي حدث لليهود واليهودية. وقد تزايدت معدلات العلمنة بين اليهود وتزايد ابتعادهم عن تراثهم الديني وغربتهم عنه بل احتقارهم له، وهو احتقار كان يشعر به حتى المتدينون منهم. ومما عجل بعملية العلمنة أن قيادات الجماعات اليهودية انتقلت من يد الحاخامات إلى يد الأثرياء، من أمثال يهود البلاط الذين كانوا مُستوعَبين في الحضارة الغربية العلمانية حيث استمدوا شرعيتهم من تقبُّل مجتمع الأغيار لهم، هذا المجتمع الذي تشبهوا به وبطرقه، ولذا كانوا النموذج الذي يُحتذى بين من يودُّون تحقيق النجاح.

وأدَّت عمليات التحديث والعلمنة التي قامت بها الدولة المطلقة إلى ظهور نواة مستنيرة داخل الجماعات اليهودية يُقال لها «دعاة الاستنارة»، وهي جماعات كانت منتمية بشكل شبه كامل للفكر الغربي غير اليهودي. كما ظهرت في صفوف اليهود جماعات مهنية وقطاعات اقتصادية مرتبطة بالاقتصاد الغربي الرأسمالي الجديد. لكل هذا، انتشر فكر عصر الاستنارة بينهم، وكانت الجماعات اليهودية عشية الثورة الفرنسية والانعتاق السياسي مهيأة لتقبُّل تحولات عنيفة. وتُعَدُّ معظم الفلسفات اليهودية الحديثة التي طُرحت في القرن التاسع عشر الميلادي، مثل الصهيونية وقومية الجماعات (الدياسبورا)، استجابات لهذه التحولات.

وأخذت الفكرة الصهيونية تتغلغل في الفكر الغربي، الديني والعلماني، حتى أصبحت الإطار المرجعي الأساسي الذي يتم إدراك اليهود من خلاله، وأصبحت فلسطين مرتبطة في الذهن الغربي باليهود. ومع تزايد معدلات العلمنة في المجتمع الغربي، لم تختف الفكرة بل تم ترشيدها، واستُبعدت منها العناصر الغيبية مثل الشعب الشاهد والعقيدة الاسترجاعية، واكتسبت شكلاً علمانيا وأصبحت جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي، فدعا توماس شيرلي إلى أن توطين اليهود في إنجلترا "لا لأنهم يهود وإنما لأنهم عنصر تجاري".

وفي نهاية الأمر ساد الخطاب العلماني وضمر الخطاب الديني وتحوَّل إلي ديباجات تستخدمها شخصيات هامشية. وشهدت هذه المرحلة بروز ظاهرة معاداة اليهود بالمعنى العرْقي الحديث. والواقع أن فكر عصر الاستنارة، بطرحه فكرة الإنسان الطبيعي، وجد أن الخصوصية اليهودية تشكل تحدِّياً لهذه الفكرة. ولكن الفكر التنويري، بتأكيده فكرة نفع الإنسان، وبانطلاقه من فكرة الإنسان الطبيعي العام، طلب من أعضاء الأقليات أن يُطبِّعوا أنفسهم ويرشِّدوها وأن يتَّبعوا القانون العام. ومن ثَمَّ طُلب منهم أن يتخلوا عن خصوصيتهم وعن كل ما يميِّزهم كأقلية إثنية أو دينية في الحياة

العامة، ثم انسحب ذلك على الحياة الخاصة أيضاً حتى أصبح الجميع مواطنين نافعين، أي أن ما بدأ كمحاولة لإعتاق الأقليات انتهى بعملية دمجها وتذويبها، وهو النموذج الكامن في عصر الاستنارة: تحرير الإنسان من المطلقات ثم تفكيكه وتذويبه.

ويجب التنبه إلى أن عداء مفكري الاستنارة للخصوصية لم يكن مقصوراً على الخصوصية اليهودية بل كان عداءً عاماً لسائر الخصوصيات. كما كان بعض أعداء الخصوصيات المحلية يجدون أن خصوصية البريتون والفلامنج والأوكستينيان تسبب لهم قدراً من الضيق أكبر مما تسببه الخصوصية اليهودية. وكان مفكرو عصر الاستنارة يهاجمون المسيحية تحت ستار الهجوم على اليهودية (التي كانوا يسمونها «المسيحية البدائية»). ومن هذين العنصرين، ظهر الهجوم الشرس على اليهود في فكر الاستنارة. وشكلت فكرة الشعب العضوي المنبوذ التي سادت الفكر الغربي، وهي علمنة لبعض المفاهيم الدينية، الإطار المشترك للفكر الصهيوني والمعادي لليهود.

وقد تأثر المفكرون اليهود في العالم الغربي بالفكر المعادي للاستنارة والرومانسية في النواحي التالية:

١ ـ الفكر العنصري الغربي، إحدى ثمار الفكر المعادي للاستنارة.

٢ ـ فكرة القومية العضوية (والشعب العضوي)، وهي فكرة تضرب بجذورها في الفكر المعادي للاستنارة، هي حجر الزاوية في الفكر الصهيوني.

٣ ـ اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية متأثرتان بالفكر المعادي للاستنارة.

مع نهاية القرن التاسع عشر، وتزايد هيمنة الإمبريالية على العالم، تبدأ الصهيونية في إحكام قبضتها على الجماعات اليهودية في الغرب. ويصبح تاريخ الجماعات اليهودية، من الناحية السياسية، هو تاريخ صهينة هذه الجماعات أو رفضها للصهيونية ومحاولتها التملص منها.

ولكن من الناحية الحضارية والثقافية، يدخل أعضاء الجماعات اليهودية عصر ما بعد الحداثة فيزداد اندماجهم في مجتمعاتهم ولا يوجد أي تمايز مهني أو حرفي قسري، كما لا يوجد أي تمييز ضدهم. ويزداد تهميش اليهودية الحاخامية في حياة أعضاء الجماعات اليهودية، إذ يصبحون إما يهوداً إثنيين (أي ملحدين) أو يهوداً إصلاحيين أو محافظين، وهي صيغ يهودية مخففة جدا فقد بعضها كل علاقة باليهودية الحاخامية المعيارية. فهم، على سبيل المثال، يتقبلون الشذوذ الجنسي ويسمحون بقيام أبرشيات للشذاذ جنسيا يقودها حاخامات (من الذكور والإناث) من الشواذ أيضاً ويظهر لاهوت موت الإله.

ويظهر ما نسميه «الهوية اليهودية الجديدة»، وهي هوية غربية تماماً تغطيها قشرة زخرفية يهودية لا تؤثر في جوهر سلوك أعضاء الجماعات اليهودية. ويصبح المفكرون من أعضاء الجماعات اليهودية جزءاً عضويا من الفكر الغربي الحديث.

٢ ـ العلمانية والإمبريالية وأعضاء الجماعات اليهودية

العلمانية ودور الجماعات اليهودية في ظهورها

ساد بعض الأدبيات العربية والإسلامية القول بأن اليهود هم مخترعو العلمانية ومروجوها في العالم بأسره، بل إنهم المسئولون عن ظهورها. وهذا ما تؤكده **بروتوكولات حكماء صهيون** التي يقتبس منها البعض وكأنها وثيقة علمية مهمة. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذه الأطروحة ساذجة جدا وتعطي لأعضاء الجماعات اليهودية وزناً وحجماً يفوقان كثيراً وزنهم وحجمهم الحقيقيين. فالعلمانية ليست مجرد مؤامرة أو حركة منظمة أو فكرة، وإنما ظاهرة اجتماعية وحقيقة تاريخية ذات تاريخ طويل ومركب، تعود نشأتها إلى عناصر اقتصادية وفكرية وحضارية عديدة وإلى دوافع واعية وغير واعية أدّت جميعها إلى انقلابات بنيوية في رؤية الإنسان لنفسه وللطبيعة والإله، وفي بنية المجتمع نفسه. وهي، شأنها شأن كل الظواهر الاجتماعية والتاريخية، لا تظهر بسبب رغبة بعض الأفراد أو الجماعات في ظهورها وحسب، وإنما تتم أيضاً خارج إرادة الأفراد، ورغماً عنهم أحياناً. وقد تم الانقلاب العلماني في الغرب بمعزل عن أعضاء الجماعات اليهودية، كما أن كثيراً من المجتمعات التي لا يوجد فيها يهود على الإطلاق (مثل اليابان)، أو توجد فيها أقليات يهودية صغيرة إلى أقصى حد (مثل يوغوسلافيا وبلغاريا وشيلي وكينيا)، تمت علمنتها بدرجات متفاوتة، وهو ما يدل على أن اليهود ليسوا السبب الوحيد أو الأساسي لظهور العلمانية.

وثمة ظواهر عديدة ساهمت في ظهور العلمانية وتأثرت بها (فهي سبب ونتيجة في آن واحد) مثل الإصلاح الديني، وحركة الاكتشافات، والفلسفة الإنسانية الهيومانية، وفكر حركة الاستنارة (الفكر العقلاني والنفعي)، والدولة القومية المركزية، ثم الثورة الفرنسية والصناعية، والثورة الرومانتيكية، وتزايُد تركُّز الناس في المدن، وهي ظواهر تاريخية غربية لم تلعب الجماعات اليهودية فيها

دوراً ملحوظاً. فدورهم في الحضارة الغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر كان محدوداً جدا.

ومع هذا، وبعد تأكيد هذه الحقيقة الأساسية والمهمة، لابد أن نشير إلى أن من المحال أن تحدث ظاهرة بنيوية كاسحة عامة مثل الهيمنة التدريجية للرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي أثرت في أشكال الحياة كافةً، دون أن يتفاعل معها أعضاء الجماعات اليهودية، ودون أن يساهموا فيها أو يتأثروا بها سلباً أو إيجاباً. فهذه الظاهرة وصل أثرها إلى كل أعضاء المجتمع أيّاً ما بلغت هامشيتهم أو تفردهم أو ضآلة شأنهم. ونظراً لخصوصية وضع الجماعات اليهودية في المجتمع الغربي، فإن علاقتهم بالثورة العلمانية الكبرى تتسم بالخصوصية.

ساهم أعضاء الجماعات اليهودية في حمل الأفكار العلمانية ونشرها. ويجب أن نؤكد، مرة أخرى، أنهم لم يفعلوا ذلك رغبةً منهم في تدمير العالم وإيذاء العباد، بل تحركوا كجماعة في إطار منظومة اجتماعية غربية تتجاوز إرادتهم ورغباتهم وأهواءهم. لكن هذا لا يعني إعفاء الإنسان من المسئولية الخلقية أفعاله، إذ يظل مسئولاً، على المستوى الفردي، عما يقترفه من ذنوب وما يأتي به من حسنات. وهناك كثير من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تصدوا للعلمانية وحاولوا وقف زحفها. ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية اضطلعوا بدور الجماعات الوظيفية الوسيطة في المجتمع الغربي، وهو ما ولّد لديهم نزعة حلولية خلقت لديهم استعداداً كامناً للعلمنة. ويمكننا أن نضيف هنا أن اضطلاعهم بهذا الدور جعلهم واحداً من أهم عناصر العلمنة المباشرة في المجتمع الغربي. والعلمنة، في جانب من جوانبها، هي تطبيق القيم العلمية والكمية الواحدية على مجالات الحياة كافة، وضمنها الإنسان نفسه، حتى ينتهي الأمر بتحييد العالم تماماً وترشيده وتحويله إلى حالة السوق والمصنع.

وعلاقة التاجر والمرابي بالمجتمع ليست علاقة مباشرة وإنما علاقة ثانوية أو هامشية، فهما لا ينتجان شيئاً وإنما يسهلان عملية تبادل السلع التي ينتجها الآخرون من خلال ما يحملون من النقود، أكثر الأشياء تجريداً. والتاجر والمرابي ليسا موضع حب أو كره الناس، فالجميع ينظر إليهم بشكل موضوعي من منظور مدى نفعهم وأهميتهم الوظيفية. وإلى جانب هذا، كان اليهود يشكلون عنصراً متعدد الجنسيات، عابراً للقارات، يقوم بوظيفة التجارة والمصارف الدولية، الأمر الذي عمّق تحوسلهم أي تحوُّلهم إلى وسيلة. لكن أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة، إلى جانب هذا، أداة في يد الحاكم يستخدمها في امتصاص الثروة من يد الجماهير، وقد شُبِّهوا بالإسفنجة لهذا السبب. وقد كان اليهود دائماً من ملتزمي الضرائب. ولكل هذا، نجد أن علاقة الجماعة الوظيفية الوسيطة بالمجتمع تتسم بالموضوعية والتعاقدية والتنافسية، الأمر الذي يجعل أعضاء الجماعات اليهودية من أهم عناصر علمنة المجتمع بشكل بنيوي يتجاوز وعي ونوايا أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة وأعضاء المجتمع المضيف في الوقت نفسه.

وكان أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة يقيمون في الجيتو ليتم عزلهم عن أعضاء المجتمع وتزيد كفاءة المجتمع في استغلالهم وفي تحقيق الفائدة المرجوة من وجودهم فيه. وقد طُبِّقت على الجيتو، من البداية، الأنساق المادية الآلية الترشيدية في الإدراك وتنظيم العلاقة، فكان مجتمع الأغلبية ينظر إلى الجيتو من منظور نفعي، ويدخل معه في علاقة تعاقدية باردة برانية يحكمها القانون والحسابات والمنفعة لا العواطف أو الأخلاق أو الالتزام الداخلي (الجوّاني) أو التآلف والتراحم. ولم يكن مجتمع الأغلبية يتواصل مع أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ولا ينسب إليهم أي معنى إنساني خاص. فاليهود في الجيتو مصدر ربح وخدمات وحسب، أي مجرد وسيلة. والعلاقة بين المجتمع والجيتو علاقة تواجُد نفعي في المكان، دون زواج أو حب، ودون مشاركة في الزمان. فالجيتو، مثل الإنسان العلماني النموذجي، كان منعزلاً موضوعيا محايداً مجرداً مباحاً ولا يتمتع بأية قداسة، فهو مادة استعمالية محض. ومن هنا، كانت البغايا في كثير من الأحيان يقطنّ إما داخل الجيتو أو بجواره. وبهذا، كان الجيتو أول جيب علماني حقيقي. وقد أدّى كل هذا إلى أن أصبح أعضاء الجماعات اليهودية من أهم القطاعات البشرية في أوربا التي كانت لديها قابلية للعلمنة ومؤهلة للتحرك داخل المجتمع التعاقدي التناحري، إذ كانوا مسلحين بالكفاءات اللازمة للتعامل مع عالم تسود فيه العلاقات الموضوعية وهم بشر لا يقبلون إلا المنفعة قيمة وحيدة مطلقة.

وبالفعل، لعب اليهود، كجماعة وظيفية وسيطة، دوراً في علمنة المجتمع، فوسعوا نطاق القطاع الاقتصادي التبادلي، وكانوا عنصراً شديد الحركية في المجتمع الوسيط الذي يتسم بالسكون. وكانوا دائمي البحث عن زبائن جدد وسلع جديدة وأسواق جديدة، ولم يكن يهمهم الإخلال بتوازن المجتمع أو بقيمه، فهم يقفون خارج نطاق العقيدة المسيحية وقيمها، لا يكنون لها أي احترام ولا يشعرون نحوها بأي ولاء، وينظرون إلى أعضاء المجتمع المضيف باعتبارهم شيئاً مباحاً. ولم يكن التاجر اليهودي، على سبيل المثال، يلتزم

بفكرة الثمن العادل أو الأجر الكافي، وإنما كان يحمل رؤية صراعية تنافسية تناحرية غير تراحمية. وهكذا لعب اليهود دوراً فعالاً وحاسماً في تقويض الأخلاقيات الدينية، وفي دفع عملية الترشيد والعلمنة إلى الأمام.

وفي القرن السابع عشر، تزايد دور اليهود في عملية العلمنة مع ظهور الدولة المطلقة التي اعتمدت عليهم في عملية علمنة القطاع الاقتصادي والسياسي في المجتمع. وما فعله الأمراء المطلقون في وسط أوربا (في ألمانيا) يصلح مثلاً على ذلك، إذ استخدموا أعضاء الجماعة اليهودية ككل، وكبار المموِّلين اليهود (يهود البلاط على وجه التحديد) في النشاطات الاقتصادية، مثل: التجارة الدولية، وتمويل الجيوش، وعقد القروض والصفقات. وقد كان لانتشار يهود المارانو في أرجاء أوربا دور مهم في عملية العلمنة إذ كانوا هامشيين لا يؤمنون باليهودية أو المسيحية، فإيمانهم بكلتيهما كان سطحيا جدا. ولعب المارانو دوراً مهماً في التجربة الاستيطانية الغربية كمموِّلين للشركات الاستيطانية وكمادة استيطانية.

ومع هذا، ولأسباب عديدة ربما من أهمها انعزال يهود اليديشية (في شرق أوربا) الذين كانوا يشكلون أغلبية يهود العالم آنذاك داخل الجيتو والشتتل، انفصل أعضاء الجماعات اليهودية عن التحولات الفكرية والبنيوية الضخمة في أوربا. وكان أغلبيتهم من المؤمنين بدينهم، يتبعون حاخاماتهم، أو قياداتهم الدينية غير الحاخامية في حالة الحسيديين، ويتمسكون بتقاليدهم الدينية والاجتماعية. وقد هاجرت أعداد كبيرة من هؤلاء إلى النمسا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وقاوموا محاولات العلمنة والتحديث بضراوة. ولكن الدول الغربية قامت بعملية علمنة اليهود، وغيرهم من الجماعات الإثنية والدينية، بشراسة غير عادية ابتداءً من أوائل القرن التاسع عشر. وتمت أهم المحاولات بصورة أكثر منهجية في فرنسا على يد نابليون، ثم تبعتها ألمانيا والنمسا وروسيا القيصرية في منتصف القرن. وتكفلت الولايات المتحدة (المجتمع العلماني شبه النموذجي) بالإجهاز على ما تبقَّى من انتماء ديني بين المهاجرين من يهود اليديشية وغيرهم. ويرى مؤرخو الجماعات اليهودية أن تأخُّر بعض الجماعات اليهودية في دخول العصر الحديث العلماني هو جوهر ما يُسمَّى «المسألة اليهودية»، إذ ظلوا يشكلون جيباً دينياً تقليدياً في مجتمع علماني حديث.

وبعد هذا التاريخ، تزايد دور أعضاء الجماعات اليهودية كـحَمَلة للفكر العلماني وأدوات للعلمنة. ويُلاحَظ أنه بعد أن فرضت الدولة المطلقة العلمنة قسراً على أعضاء الجماعات اليهودية، استبطنوا هم أنفسهم الرؤية العلمانية وحققوا درجة عالية من الاندماج وأصبحوا أهم رواد العلمانية ومن أكثر الداعين لها حماسة وتطرفاً.

تركت العلمانية أثراً عميقاً في اليهودية. والواقع أنه، حينما تصاعدت معدلات العلمنة في المجتمع الغربي، كانت اليهودية الحاخامية قد دخلت مرحلة الأزمة، وهيمنت القبَّالاة الحلولية على الجماهير اليهودية بحيث أصبحت رؤيتها للكون حلولية متطرفة. ونتيجة ذلك، بدأت مرحلة التفجرات المشيحانية ومن أهمها حركة شبتاي تسفي، وبدأت في سالونيكا والدولة العثمانية وانتشرت منها إلى أرجاء العالم في القرن السابع عشر، وتبعتها الحركة الفرانكية في بولندا في القرن الثامن عشر، وانتهت بالحركة الحسيدية التي سيطرت على معظم جماهير اليهود في شرق أوربا مع نهاية القرن الثامن عشر. لكل هذا، كانت اليهودية قد وصلت إلى مرحلة تتطلب "الإصلاح الديني". ولكن، بسبب تكلس اليهودية الحاخامية شكلاً ومضموناً بين أوساط النخبة الدينية، وبسبب انتشار الحلولية بين الجماهير، أصبح من العسير إصلاح اليهودية من الداخل. وأخذ الإصلاح شكل تبنِّي الأشكال الدينية الإصلاحية المسيحية، ثم تحوَّلت إلى العلمنة الصريحة بعد فترة. وبدأ الإصلاح الديني بمحاولة إصلاح الجانب الجمالي، فأُلقيت المواعظ باللغة السائدة في المجتمع، وأُدخل الغناء في الصلوات حيث كانت تؤديه في البداية جوقة من الذكور ثم جوقة مختلطة، كما أُدخل الأرغن، وهذه كلها عناصر مستمدة من طقوس العبادات المسيحية. ثم تصاعدت درجة الإصلاح الديني وتجاوزت الجانب الجمالي ووصلت إلى الجانب العقيدي، فظهرت اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية، وهي صيغ من اليهودية مخففة جدا لا تعترف بها اليهودية الأرثوذكسية الحاخامية ولا تعترف بحاخاماتها. ومن هنا كان ظهور مشكلة من هو اليهودي.

وهذه الفرق الجديدة ذات الطابع الربوبي العقلاني، التي تذهب إلى أن العقل البشري يمكنه الوصول إلى الحقائق الدينية بدون وحي إلهي، وأن الشريعة اليهودية ليست منزَّلة من الإله، تحاول أن تقلص رقعة الغيب على قدر الإمكان أو تلغيه تماماً أو تستبعده من نموذجها المعرفي والتفسيري والأخلاقي. وبدلاً من ذلك، فإنها تتبنى مطلقات علمانية، مثل روح العصر في اليهودية الإصلاحية، أو روح الشعب في اليهودية المحافظة، أو التقدم (في إطار المجتمع الأمريكي) في اليهودية التجديدية.

ثم تزايدت معدلات التحديث والعلمنة على مستوى الشعائر

وبشكل جذري، فحدث الاختلاط بين الجنسين، وأُلغي غطاء الرأس، وتم ترسيم النساء كحاخامات، وخُففت شعائر السبت، وتم التخلي عن التلمود كمصدر أساسي للتشريع، وأُقيمت صلوات السبت يوم الأحد. ثم تصاعدت وتيرة الإصلاح إلى أن أصبحت علمانية صريحة، ففي بعض الأبرشيات الإصلاحية أصبحت صلوات السبت تقام في اليوم الذي يتفق عليه المصلون. وقد بدأ أخيرا قبول الشواذ جنسيا في الأبرشيات اليهودية المختلفة، بل بدأت تظهر أبرشيات مقصورة عليهم، كما قُبل ترسيم الشواذ جنسياً كحاخامات وأنشئت المدارس التلمودية العليا (يشيفا) المقصورة على الشواذ.

ولكن أهم أشكال علمنة اليهود ظهور عقائد علمانية قلباً وقالباً، وتُسمِّي نفسها مع ذلك «يهودية»، وتستخدم ديباجات يهودية إثنية ودينية. وجوهر هذه العقائد أنها تُحل الهوية اليهودية محل العقيدة اليهودية، وتُحل اليهود محل الإله كمركز للقداسة. فظهر ما يُسمَّى «اليهودية العلمانية» و«اليهودية الإثنية» و«اليهودية الإلحادية» و«اليهودية الإنسانية»، وهي عقائد يُقال لها «يهودية» تدور كلها حول مطلق واحد هو الشعب اليهودي وتُسقط الإيمان بالغيب أو الإله، بحيث يصبح الإيمان الديني متمركزاً حول الذات القومية أو مجموعة من المُثُل الدنيوية. وتحولّت شعائر اليهودية وعقائدها إلى شكل من أشكال الفلكلور أو التراث القومي، أي أن الدين تحوَّل إلى قومية والقومية تحوَّلت إلى دين، وهذا هو الحل العلماني لمشكلة الهوية: أن تصبح الهوية هي نفسها مصدر الإطلاق الوحيد وموضع القداسة. بل يمكن القول بأن اليهودية الإصلاحية والمحافظة، والتجديدية على وجه الخصوص، هي في جوهرها في واقع الأمر عقائد علمانية ذات ديباجات دينية.

ومع تزايُد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية، تزايدت معدلات علمنة العقيدة اليهودية، فظهر لاهوت يهودي يستند إلى فكرة موت الإله يجعل الإبادة النازية ليهود غرب أوربا نقطة ولحظة مرجعية أساسية تحقَّق فيها الشعب اليهودي من موت الإله الذي تخلى عنهم. ودخلت اليهودية كذلك عالم ما بعد الحداثة، فظهرت يهودية لا تدور حول مطلقات وإنما تدور حول لحظات إيمانية تعقبها لحظات شك.

ومن أهم العقائد اليهودية العلمانية ما طرحه دعاة اليديشية الذين يرون أن مضمون الانتماء اليهودي هو تراث ثقافي، وأن ما يجمع يهود اليديشية ليس الإيمان الديني وإنما تراثهم القومي اليديشي الشرق أوربي المشترك. ولذا، طالبوا ببعث قومي يديشي في شرق أوربا. ولكن أهم العقائد العلمانية على الإطلاق الصهيونية التي استولت على كل الرموز الدينية اليهودية التقليدية واستخدمت كل الديباجات الدينية بعد أن أفرغتها من مضمونها الديني وأحلت محلها مضموناً قوميا، وجعلت النقطة المرجعية عناصر دنيوية طبيعية تتسم بالمطلقية (مطلقات علمانية)، مثل: الدولة الصهيونية واليهود (بدلاً من الإله)، والتاريخ اليهودي الدنيوي (بدلاً من التاريخ المقدَّس)، والهوية اليهودية (بدلاً من الالتزام بالشعائر وتأدية الأوامر والنواهي). كما أكدت الصهيونية (في صيغتها العلمانية وهي أهم الصيغ) أن اليهود مادة بشرية متحركة يمكن تحويلها وتوظيفها إلى مادة نافعة وكذلك حوسلتها. كما أكدت الصهيونية أن اليهود شعب عضوي (وأكدت أوربا العلمانية أنه شعب عضوي منبوذ)، وجماع المفهومين (نفع اليهود وأنهم شعب عضوي منبوذ) هو الصيغة الصهيونية الأساسية.

ويُلاحَظ أن نسبة اليهود تتزايد في قطاعات المجتمع التي تتصف بقدر عال من العلمنة والتحرر من القيم المطلقة. ولذا، نجدهم يتركزون في القطاعات التي يتحول الإنسان فيها إلى مادة عامة استهلاكية، وفي تلك القطاعات التي تتسم بالعلاقات التعاقدية وعدم الإيمان بالحرمات، مثل: صناعة السينما، والصحافة الرخيصة، وتجارة الرقيق الأبيض، وتجارة العقارات. ولعل هذا البروز في الحضارة العلمانية، وكذلك التركز في قطاعات اقتصادية بعينها (بعضها مشين)، هو ما جعل البعض يتصور أن ثمة مؤامرة يهودية لعلمنة العالم، أو أن العلمنة ما هي إلا عملية يقوم اليهود بنشرها وإذاعتها. وهذا التصوُّر يفترض أنه لو اختفى اليهود لاختفت العلمانية، وهو تصور يخلط بين الجزء الفعال (اليهود) والكل المركب (العلمانية)، وهو افتراض يفشل بطبيعة الحال في تفسير انتشار العلمانية في ربوع العالم في الصين والهند واليابان ونيجيريا حيث لا يوجد يهود على الإطلاق.

وتختلف معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية من بلد إلى آخر، كما تختلف أشكال العلمنة حسب المحيط الحضاري. ففي أمريكا اللاتينية حيث كانت معدلات العلمنة منخفضة في المجتمع، كان معدلها منخفضاً بين الجماعات اليهودية. وقد احتفظت كل جماعة منها بهويتها الدينية والإثنية، ومن هنا كان انقسام يهود أمريكا اللاتينية إلى جماعات متنافرة. ولكن، مع تزايُد العلمنة في المجتمع ككل، يُلاحَظ أيضاً تزايُد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات وانصهارهم في المجتمع اللاتيني أو انصرافهم عن الدين وانخراطهم في المحافل الماسونية والنوادي الاجتماعية أو

اندماجهم في جماعة واحدة. أما في فرنسا وإنجلترا، فقد زادت معدلات العلمنة وأخذت شكل الابتعاد عن الكنيسة. وقد انعكس هذا الوضع على يهود البلدين، فانصرفوا هم أيضاً عن الذهاب إلى المعبد اليهودي.

يهودي ملحد

مُصطلَح «يهودي ملحد» يبدو وكأنه تركيب واضح التناقض، إذ نتصور أن اليهودي من يؤمن باليهودية قياساً على أن المسلم من يؤمن بالإسلام، والمسيحي هو من يؤمن بالمسيحية، بكل ما يتبع ذلك من إيمان بالإله. ولكن معيار تعريف اليهودي ليس كونه مؤمناً بالعقيدة وإنما كونه مولوداً لأم يهودية. وبحسب الشريعة اليهودية، يمكن أن يكون اليهودي من الناحية النظرية يهوديا وملحداً في الوقت نفسه. وانطلاقاً من ذلك الإبهام والتناقض في الشريعة اليهودية، ذهب الأخ دانيال (وهو راهب كاثوليكي وُلد لأبوين يهوديين ثم تنصَّر) إلى إسرائيل وطالب بأن يحصل علىَ الجنسية الإسرائيلية حسب قانون العودة، فإذا كانت الشريعة اليهودية تعترف بالملحد يهوديا فيمكنها (من باب أولى) أن تعترف بالمسيحي يهوديا! لكن طلبه رُفض. وقد استندت حيثيات الحكم إلى مقولة علمانية هي أن الأخ دانيال، باعتناقه المسيحية، فصل نفسه عن «المصير اليهودي»، أي أن المعيار هنا مدى الارتباط بالشعب اليهودي لا بالعقيدة أو العقائد اليهودية. ولكن يبدو أن الرأي العام الإسرائيلي بدأ يتجه اتجاهاً مغايراً في الآونة الأخيرة، بحيث أصبح لا يمانع في إطلاق مُصطلَح «يهودي» على مسيحي هاجر إلى إسرائيل مدفوعاً بدوافع صهيونية.

يهودي إثني

«اليهودي الإثني» هو اليهودي الذي يرى أن يهوديته لا تنبع من إيمانه بالقيم الدينية والأخلاقية اليهودية وإنما من الإثنية اليهودية، أي من موروثه الثقافي. وربما كان هذا ما يعنيه إسحق دويتشر بمُصطلَح «اليهودي غير اليهودي».

الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والجماعات اليهودية

كان للرؤية المعرفية الإمبريالية والتشكيل الاستعماري الغربي أثر واضح في أعضاء الجماعات اليهودية. ويتضح هذا في فكر نيتشه الذي اكتسح كثيراً من المفكرين اليهود في القرن التاسع عشر، وفي تمثُّل كثير من المفكرين اليهود أفكار داروين، والفكر الصهيوني بأسره هو أساساً إفراز من إفرازات الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والأفكار البرجماتية.

هذا على مستوى الفكر. أما على المستوى السياسي والاجتماعي والتاريخي، فقد قامت الدولة القومية المطلقة في الغرب بترشيد أعضاء الجماعات اليهودية وبتحويلهم إلى مادة بشرية وبطرح الحل العلماني الإمبريالي للمسألة اليهودية، أي تصدير المادة البشرية اليهودية إلى الخارج وبطرح الفكرة الصهيونية وفرضها على أعضاء الجماعات اليهودية.

ولا يمكن فهم حركة انتقال الجماعات اليهودية إلى الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا وكندا وجنوب أفريقيا وفلسطين إلا في إطار حركة الاستعمار الاستيطاني الغربي، وبخاصة الأنجلو ساكسوني. كما لا يمكن فهم تركُّزهم في الولايات المتحدة إلا باعتبارها التجربة الاستيطانية الكبرى التي استوعبت حوالي ٨٠٪ من الفائض البشري في أوربا.

ويمكن القول إن مصير يهود العالم أصبح مرتبطاً تماماً بالإمبريالية بعد أن تركَّز يهود العالم في العالم الغربي، وبخاصة في الولايات المتحدة وإسرائيل. فالمصير اليهودي أصبح هو نفسه مصير الإمبريالية. ولعل هذا يُفسِّر تصهيُن الجماعات اليهودية في العالم وتراجُع الجماعات المعادية للصهيونية.

الاستعمار الاستيطاني الغربي والجماعات اليهودية

يمكن القول بأن نمط هجرة أعضاء الجماعات اليهودية هو حركة تنقُّل تتم دائماً داخل إطار حركة الإمبراطوريات الكبرى التي تيسر لهم هذه الحركة وتتيح لهم فرص الحراك وتوظفهم كجماعة وظيفية استيطانية أو مالية. وإذا كان التهجير البابلي قد تم قسراً، فإن حركة الهجرة العبرانية (اليهودية) التي تعاظمت بالتدريج حتى وصلت ذروتها مع نهاية الألف الأولى قبل الميلاد (حين أصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها)، هذه الحركة كانت هجرة تلقائية بحثاً عن الفرص الاقتصادية وتتم في إطار الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. ويمكن القول بأن هجرة يهود شرق أوربا إلى الولايات المتحدة وكندا وفلسطين وغيرها من الدول الاستيطانية بأعداد هائلة حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية من أوربا (روسيا ـ بولندا) إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين)، وهي الأخرى هجرة تلقائية تمت داخل إطار إمبراطوري، فهي تتم داخل التشكيل الاستعماري الغربي وتجربته الاستيطانية في أنحاء العالم.

وقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية كمموِّلين ومستثمرين في كثير من النشاطات المرتبطة بالاستيطان الغربي (شركتا الهند الشرقية والغربية الهولنديتان وغيرهما من الشركات، وتجارة العبيد. . . إلخ). كما اشتركوا في التجارة المثلثة (العبيد من أفريقيا - المشروبات الكحولية والسلع من أوربا - المولاس من جزر الهند الغربية). واشترك كثير من المموِّلين من أعضاء الجماعات اليهودية في الاستثمار في جنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية. كما اشتركت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في عملية الاستيطان نفسها. وفي بداية الأمر، كان أعضاء الجماعة جزءاً من النشاط الاستيطاني الهولندي فاستوطنوا ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر جزر الهند الغربية (مثل: ترينداد، وسورينام، والمارتينيك، وجاميكا، وجزر الباهاما). ولكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى. وقد استوطن اليهود كذلك معظم بلاد أمريكا اللاتينية، وبخاصة الأرجنتين التي وطَّن فيها المليونير هيرش آلاف اليهود، وكانت تُعَدُّ أهم تجربة استيطانية زراعية في العصر الحديث باستثناء تجربة إسرائيل.

ويُلاحَظ أن هذه النشاطات الاستيطانية كانت تدور إما في إطار الاستعمار الهولندي أو في إطار الاستعمار الإسباني البرتغالي، والمادة البشرية الأساسية هنا يهود السفارد (المارانو). ولكن المادة الاستيطانية الحقيقية كان مصدرها يهود اليديشية (الإشكناز) من شرق أوربا الذين كانوا يشكلون أغلبية يهود العالم الساحقة مع نهاية القرن التاسع عشر. وكان النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلو ساكسوني، فاتجهت ملايين اليهود إلى جنوب أفريقيا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا وهونج كونج، لكن غالبيتهم (٨٥٪) اتجهت إلى الولايات المتحدة، أهم التجارب الاستيطانية، ثم إلى إسرائيل التي تلي الولايات المتحدة في الأهمية، وهي تجربة استيطانية تمت برعاية إنجلترا ثم الولايات المتحدة، أي التشكيل الأنجلو ساكسوني في جانبه الاستيطاني.

والإطار التفسيري السابق يجعلنا نرى مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم (الغربي بالذات) بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي، ويضع يدنا على الحقائق الأساسية التالية في واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم:

١ - الدياسبورا اليهودية (أي انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أرجاء العالم) ليست انتشاراً عشوائياً وإنما انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري الغربي، وبخاصة في جانبه الاستيطاني، فهجرة أعضاء الجماعات اليهودية لا تحددها حركيات التاريخ اليهودي أو الطبيعة اليهودية وإنما حركيات الاستعمار الغربي، وبخاصة الاستعمار الأنجلوساكسوني في جانبه الاستيطاني. ولا يمكن فهم تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة إلا باعتبارها التجربة الاستيطانية الكبرى.

٢ - لا تشكل إسرائيل استثناء من هذه القاعدة، فهي جزء من نمط وحركية غربية هي الإمبريالية الغربية التي جعلت العالم مسرحاً لنشاطها سواء في أستراليا أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو فلسطين. فالمشروع الصهيوني جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني في الغرب، وما كان بمقدوره أن يتحقق دون إمكانيات الإمبريالية الغربية ودون طموحاتها أو آلياتها. واستيطان اليهود في فلسطين هو نَقْل فائض بشري غربي إلى بقعة آسيا أو أفريقيا حيث يتم تحويله إلى دولة وظيفية استيطانية تقوم على خدمة مصالح الغرب نظير أن يقوم هو على حمايتها. فإسرائيل من هذا المنظور إعادة إنتاج لنمط قديم، على حين أن وعد بلفور، ثم دعم حكومة الانتداب للمستوطن الصهيوني، ثم دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وتوقيع الاتفاق الإستراتيجي معها، يبين أن الدولة الصهيونية امتداد لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالاستعمار الاستيطاني الأنجلو ساكسوني.

٣ - بل يمكن القول إن يهود الشرق والعالم الإسلامي تم تحويلهم إلى مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطاني الغربي من خلال مدارس الأليانس والدعاية الصهيونية وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الإشكناز إلى العالم العربي. وهذه العمليات كلها أفقدتهم هوياتهم المحلية المختلفة وأحلَّت محلها هوية يهودية عالمية اسماً ولكنها استيطانية فعلاً جوهرها فك الصلة بين اليهودي ووطنه، ومن ثَمَّ يتم استيعابه في المنظومة الاستيطانية. وبالفعل، حينما أُعلن إنشاء إسرائيل، هاجرت الأغلبية الساحقة من يهود البلاد العربية إليها وظل الباقون يجلسون على حقائبهم في انتظار السفر إما إلى الولايات المتحدة أو إلى إسرائيل.

٣ - التحديث وأعضاء الجماعات اليهودية

التحديث وأعضاء الجماعات اليهودية (دورهم فيه وأثره فيهم)

«التحديث» (في إطار المنظومة المعرفية العلمانية الشاملة) عملية تعديل البيئة الاجتماعية والرؤية المعرفية والأخلاقية بحيث يُخضَع الواقع بأسره (الإنسان والبيئة أو الطبيعة) للقواعد

والإجراءات العامة وغير الشخصية ويزداد التحكم فيه، فتُستبعَد كل المطلقات (الأخلاقية والإنسانية والدينية) من الدنيا وتُصفَّى كل الثنائيات ويصبح مصدر المعرفة العقل وما يصله من معطيات من خلال الحواس. وينبع من هذه المعرفة نسق أخلاقي يجعل الأخلاق مترادفة مع المنفعة واللذة (وهذه العملية هي في جوهرها عملية ترشيد وعلمنة وفرض للواحدية المادية). وينتج عن ذلك أن الشخصية التقليدية تتحول بالتدريج إلى المواطن الحديث القادر على الاستجابة للقانون العام، الذي لا يدين بالولاء إلا للدولة (المطلقة) أو الوطن ويفضل الدخول في علاقات تعاقدية واضحة محدَّدة. وهو بذلك، يصبح منتجاً ومستهلكاً بالدرجة الأولى. كما أن البيئة الاجتماعية نفسها تسيطر عليها مؤسسات الدولة التي تحل محل المؤسسات التقليدية مثل الكنيسة أو الأسرة، أي أن الجماعة العضوية المترابطة (جماينشافت) تتحول إلى المجتمع التعاقدي (جيسيلشافت). ويؤدي كل هذا إلى تزايد هيمنة المؤسسات الحديثة التي يصبح بوسعها توظيف الواقع (الإنسان والطبيعة) وتعظيم الإنتاج (من خلال توحيد السوق وتوحيد القوانين والنظم الاقتصادية) وزيادة الدخل (عن طريق وضع الخطط وإقناع الناس بها من خلال الإعلام). وتصاحب هذه العملية نمو الديموقراطية، وانتشار التعليم، وزيادة الإبداع والحراك الاجتماعي، ونزع القداسة عن الرموز والأفراد، وتزايُد تكيُّف المرء مع القيم والمخترعات الجديدة التي تظهر يوماً بعد يوم، وتعاظُم دور الإعلام والمخابرات. وقد عرَّف أحد العلماء الغربيين الإنسان الحديث بأنه الإنسان القادر على تغيير قيمه بعد إشعار قصير، أي أنه إنسان حركي جدا لا يهدأ ولا يخضع لأية ثوابت أو مطلقات. كما يُلاحَظ أن عملية التحديث يصاحبها تزايُد التركز في المدن، والاغتراب، وانتشار الإباحية والنزعات العدمية. ويمكن وصف التحديث بأنه علمنة المجتمع.

وعملية التحديث، سواء في الشرق الإسلامي أم الغرب، هي أهم عملية تاريخية في هذا العصر، وهي سمته الأساسية، فهي تمس كل جوانب المجتمع الإنساني من الاقتصاد إلى أسلوب الحياة. ويعود تاريخ عملية التحديث والعلمنة في الغرب إلى بدايات عصر النهضة، ومع بداية القرن التاسع عشر زادت حدتها، ووصلت هذه المرحلة إلى نهايتها مع الحرب العالمية الأولى حيث تحولت المجتمعات الغربية من كونها مجتمعات زراعية إقطاعية وشبه إقطاعية إلى مجتمعات تجارية وأخيراً إلى مجتمعات صناعية رأسمالية إمبريالية. وهذه العملية التاريخية تركت أعمق الأثر في أعضاء الجماعات اليهودية، ولا يمكن فهم الحركات السياسية والفكرية وحركة الهجرة بين اليهود إلا بفهم أثر عملية التحديث فيهم ودورهم فيها.

وقد لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً في تحديث العالم الغربي والشرق العربي من خلال كونهم جماعة وظيفية وسيطة. ولكنه كان دوراً محدوداً بسبب ارتباطهم إما بالطبقة الحاكمة، كما هو الحال في الغرب، أو بالاستعمار في الشرق، إذ أن عملية التحديث لابد أن تتم في صلب المجتمع نفسه وأن يقوم بها أعضاء المجتمع الذين يعيشون فيه وينتمون إليه انتماءً كاملاً.

وقد هاجر يهود البلاد العربية والعالم الإسلامي إلى العالم الغربي أو الدولة الصهيونية قبل أن تتصاعد عملية التحديث في هذا الجزء من العالم، ولذا لم تُبذَل محاولات لتحديثهم ودمجهم في المجتمع.

أما يهود العالم الغربي، فقد كانت تجربتهم مختلفة، إذ تصاعدت معدلات التحديث في المجتمع الغربي ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر ودخلت عليه تحولات عميقة غيَّرت بنيته ورؤيته تماماً، وهي تحولات كان اليهود بمعزل عنها، وبخاصة في شرق أوربا، حيث كانوا لا يزالون يلعبون دور الجماعة الوظيفية الوسيطة. ومع نهاية القرن الثامن عشر، كان اليهود من أكثر القطاعات البشرية تَخلُّفاً في كل أرجاء أوربا. ومن هنا وجدت الحكومات المركزية المطلقة، التي كانت تود توحيد السوق القومي والسيطرة على كل جوانب الحياة، أن من الضروري تحديث اليهود حتى تتم عملية دمجهم.

وفي الأدبيات التي تتناول ذلك الموضوع، يرد المصطلح مرادفاً لمصطلحات مثل «دمج اليهود» أو «صبغهم بالصبغة البولندية أو الروسية أو النمساوية في بولندا أو روسيا أو النمسا» أو «تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج» أو تخليصهم من «هامشيتهم» الإنتاجية أو «إصلاحهم» أو «تحويلهم إلى عنصر نافع». والصعوبات التي واجهت عملية التحديث هذه ومدى نجاحها وفشلها هي التي تشكل جوهر ما يُسمَّى «المسألة اليهودية».

وقد كانت عملية تحديث اليهود تتم في أحيان نادرة بناءً على اقتراح من دعاة التنوير بين أعضاء الجماعات اليهودية، كما حدث في بولندا حين قدم أحدهم عام ١٧٩٢ إلى البرلمان البولندي كتيباً بالفرنسية يقترح فيه الخطوات اللازم اتخاذها لتحديث اليهود. ولكن مثل هذه المبادرات اليهودية كانت نادرة، إذ أن عملية التحديث لم تكن تنبع من الحركيات الداخلية للجماعات اليهودية، وإنما من حركيات المجتمع الذي يحتويها. ولذا، كان التحديث في معظم

الأحوال يتم بمبادرة من العالم غير اليهودي الذي يعيش اليهود بين ظهرانيه، كما كان يُفرَض عليهم فرضاً.

وقد أخذ التحديث شكلين أساسيين. أحدهما سياسي مباشر، وهو ما يُطلَق عليه الإعتاق، أي منح اليهود حقوقهم المدنية والسياسية نظير أن يدينوا بالولاء للدولة التي عرَّفت القومية على أساس لا ديني (عرْقي أو إثني)، وهو الأمر الذي خلق عند اليهود أزمة هوية، حيث إن تعريف الشريعة لليهودي على أنه من تهود أو من وُلد لأم يهودية يتضمن عناصر إثنية شبه قومية تتناقض مع فكرة الولاء الكامل للدولة ولقيمها الحضارية والسياسية في حياتهم العامة (على أن يحتفظوا بقيمهم الإثنية والدينية في حياتهم الخاصة إن شاءوا). كما أخذ التحديث شكلاً اجتماعياً واقتصادياً أكثر عمقاً، مثل تشجيعهم على الاشتغال بالزراعة وتحريم اشتغالهم بالربا أو التجارة وغير ذلك من المحاولات والأشكال.

وقد تأثر أعضاء الجماعة اليهودية بهذا المناخ الثقافي وبالتحولات الاجتماعية التي واكبته، فيُلاحَظ أن الهوة التي تفصل بينهم وبين بقية أعضاء المجتمع أخذت تضيق بسرعة حتى اختفت تماماً في بعض البلاد مثل دول غرب أوربا والولايات المتحدة. وبالتالي، تحوَّلت القضية بالنسبة إلى اليهود من قضية حقوق ومزايا خاصة يحصلون عليها، كما كان الأمر من قبل، إلى قضية إعتاق واندماج، إذ إن الاندماج (حسب افتراض فكرة الاستنارة والليبرالية) سيحل مشكلة الحقوق بشكل آلي. ولكن الأمور لم تكن بالبساطة التي تصورها مفكرو عصر الاستنارة، فالجماعات اليهودية كان لها خصوصيتها المرتبطة بدورها كجماعة وظيفية وسيطة متميِّزة إثنيا ووظيفيا. لذا، لم تكن عملية الانتقال هينة أو سهلة، خصوصاً وأن الفكر القومي العضوي انتشر في أوربا، وهو فكر استبعادي يطرح تصوراً للدولة القومية لا مجال فيه للتعدد الإثني أو الديني، ولا مكان فيه للأقليات.

ومع هذا، فَقَد اليهود تميُّزهم بدرجات متفاوتة، إذ أن ما يحدث عادةً أن القيم العامة التي تسود الحياة العامة تبدأ في التغلغل في حياة أعضاء الأقليات الخاصة ثم تسود فيها فيفقدون أية خصوصية، دينية أو إثنية، ويصبحون مثل بقية أعضاء المجتمع في حياتهم الخاصة والعامة، فتتزايد معدلات الاندماج بينهم، بل يكتسب الاندماج حركية مستقلة، إذ يصبح نابعاً من داخل أعضاء الأقليات ذاتياً بعد أن كان مفروضاً عليهم. ثم تظهر مشاكل جديدة لم يجابهها أعضاء الأقليات من قبل، مثل تزايُد معدلات الزواج المُختلَط والانصهار الكامل. والجماعات اليهودية مثل جيد على هذه الظاهرة، فبعد أن كانوا يشكون من معاداة اليهود ومن العزلة والعزل، تسري الآن الشكوى من الزواج المختلط ومن الانصهار. وكانت معدلات الاندماج تختلف من منطقة إلى أخرى في أوربا التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام من منظور معدلات التحديث وأشكاله:

١- بلاد التحديث الناجح، وهي بلاد غرب أوربا ما عدا ألمانيا.

٢- بلاد التحديث الشمولي في وسط أوربا وألمانيا.

٣- بلاد التحديث المتعثر أو المتوقف في شرق أوربا، وبالأساس في بولندا وروسيا.

وقد اندمج اليهود في مجتمعات غرب أوربا، وبدأت عملية الاندماج في وسطها وشرقها، ولكنها تعثرت ثم توقفت. وظهرت موجة من موجات معاداة اليهود في ثمانينيات القرن التاسع عشر في معظم أنحاء أوربا، وبخاصة في وسطها وشرقها. ونتيجة كل هذا، بدأت الهجرة اليهودية من شرق أوربا إلى وسطها وغربها، ثم إلى الولايات المتحدة التي أصبحت تضم أكبر جماعة يهودية في العالم.

وقد ظهرت استجابات يهودية كثيرة لحركة التحديث، فكانت هناك اليهودية الإصلاحية والدعوة للاندماج والاستفادة من الفرص الثقافية والاقتصادية الجديدة، وهذا هو الحل الذي ساد أساساً في الغرب. أما في شرق أوربا، فقد ساد الفكر الحسيدي والأرثوذكسي. وتتلخص الاستجابة الحسيدية في تفضيل البقاء في الماضي وتجاهُل الحاضر، بينما تأخذ الاستجابة الأرثوذكسية شكل تفضيل البقاء في الماضي والعزلة مع محاولة التصدي للحاضر. ولكن كلتا الاستجابتين الحسيدية والأرثوذكسية لم تؤثرا في مصير اليهود ككل. أما الاستجابة الصهيونية واستجابة دعاة قومية الجماعات (سواء من البوند الاشتراكيين أو من الليبراليين)، فتتجاوزان الإطار الديني التقليدي وترفضان الجيتو كإطار مرجعي وتقبلان المجتمع الغربي الحديث كحقيقة نهائية. ويمكن تصوُّر قومية الدياسبورا باعتبارها قامت بعلمنة الصيغة الحاخامية التقليدية التي عارضت النزعات المشيحانية وعارضت العودة الفعلية إلى فلسطين ونادت بتقبُّل الشتات (أي انتشار الجماعات اليهودية في أنحاء العالم) بوصفه حالة نهائية إلى أن يأذن الإله بغير ذلك. أما الصهاينة، فقد علمنوا الصيغة الشبتانية (نسبة إلى شبتاي تسفي)، وهي صيغة مشيحانية تؤكد أهمية عودة اليهود الفعلية إلى فلسطين وإنشاء دولة يهودية قومية حديثة مثل كل الدول.

والصهيونية، رغم أنها إحدى الاستجابات اليهودية لعملية التحديث، وذلك باعتبارها محاولة لتقديم حل حديث للمسألة اليهودية (العنوان الفرعي لكتاب هرتزل **دولة اليهود**)، فإنها استجابة

سطحية جدا. فقد امتصت كثيراً من ديباجات التحديث المختلفة، مثل العلمانية والاشتراكية، وطرحت شعارات تحديثية مثل «تطبيع اليهود» وغير ذلك من الشعارات مع احتفاظها ببنية تقليدية جيتوية. وطرحت الصهيونية مفاهيم، مثل الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي تبدو كأنها مفاهيم حديثة، ولكن الباحث المدقق سيكتشف أن الشعب اليهودي هو الشعب المختار بعد عملنته، والتاريخ اليهودي هو امتداد للتاريخ المقدَّس الذي ورد في العهد القديم وهو يفترض علاقة خاصة مع الإله بعد أن تم صبغه بصبغة دنيوية. والدولة الصهيونية دولة وظيفية تجارية قتالية تشبه في كثير من النواحي الجماعات اليهودية الوظيفية الوسيطة.

ولقد أنجزت الصهيونية تحديث بعض أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا عن طريق ضمهم إلى المشروع الاستعماري الغربي، الذي حولهم إلى مستوطنين في فلسطين يعيشون داخل جيب غربي يدار بطريقة غربية حديثة. ولكن مجتمعات المستوطنين البيض لم يكن لها أي أثر تحديثي في المجتمعات الآسيوية والأفريقية التي تواجدت بين ظهرانيها. فمؤسسات المجتمع الاستيطاني المقصورة على المستوطنين تتسم بأنها مؤسسات حديثة تدار بطريقة حديثة، بما يتضمنه ذلك من محاولات للترشيد وتعظيم الربح وخلافه، ومع هذا تحاول هذه المؤسسات قصارى جهدها أن تمنع تطبيق المثل نفسه على المجتمعات المحيطة بها وتحاول أن تُبقيها في حالة التخلف والتجزئة، لأن تحديث هذه المجتمعات فيه قضاء على الخلية الاستيطانية وعلى فرص استغلال الأرض ومَنْ عليها من بشر. ولذا، نجد أن المجتمع الاستيطاني مجتمع حديث تماماً يبذل قصارى جهده لئلا تنتشر عملية التحديث!

وفي الحقيقة، فإن سلوك الصهاينة تعبير عن هذا النمط المألوف. فمنذ البداية، رفض الصهاينة التعامل مع القيادات الفلسطينية الحديثة، وكانوا يفضلون دائماً التعامل مع شيوخ القبائل، كما رفضوا أن ينظروا إلى الفلسطينيين كجزء من التشكيل العربي القومي الحديث، وفضلوا أن ينظروا إلى المنطقة ككل باعتبارها فسيفساء من شيعة وسنة وأكراد وكاثوليك ودروز وأرثوذكس. كما يحاولون منع الفلسطينيين من إنشاء مؤسسات ذات طابع حديث، مثل الأحزاب السياسية التي تتمتع بحرية التعبير، ويرفضون الاعتراف بقيادتهم القومية.

ومع هذا، يمكن القول إن النمط الصهيوني، برغم انتمائه إلى النمط الاستعماري، له تفرُّده. فهو لم يُعق المجتمع الفلسطيني عن النمو والتحديث، وإنما (نظراً لإحلاليته) شوَّه البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الفلسطيني تماماً، وذلك بطرده الفلسطينيين، أي أن هذه العملية ليست محاولة للقضاء على عملية تحديث المجتمع وحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى القضاء على تاريخه بل وجوده.

إصلاح اليهود واليهودية

«إصلاح اليهود واليهودية» عبارة تُستخدَم للإشارة إلى موضوع أساسي كامن في الخطاب السياسي الغربي في أواخر القرن الثامن عشر، هو إمكانية تحديث اليهود، أي تحويلهم من جماعة وظيفية وسيطة تقف على هامش المجتمع (التقليدي) إلى أعضاء مندمجين في طبقات المجتمع (الحديث) كافة. ومن أهم كلاسيكيات إصلاح اليهود كتاب كريستيان دوم **بخصوص إصلاح المكانة المدنية لليهود** (١٧٨١) حتى يصيروا عناصر قادرة على الانتماء للدولة الجديدة نافعة لها.

وقد ترك كتاب دوم أثراً عميقاً في مفكري عصره، وظهرت كتابات أخرى تتبنَّى المقولة نفسها للأب هنري جريجوار وميرابو وغيرهما. وقد نوقشت قضية إصلاح اليهود في إطار مفهوم المنفعة (العقلاني المادي). وتُجمع هذه الكتابات على إمكانية إصلاح اليهود عن طريق تطبيعهم، وجعلهم جزءاً لا يتجزأ من المجتمع في وظائفهم وأزيائهم ولغتهم، وذلك بتوجيههم (بعيداً عن التجارة) نحو الحرف اليدوية والمهن الصناعية، ومنعهم من استخدام اليديشية، ومن ارتداء الأزياء الخاصة بهم، وكذلك منعهم من بيع الكحول. وكل هذه الإجراءات تعني، في واقع الأمر، فكّ عزلتهم كجماعة وظيفية وسيطة، ودفعهم إلى أن يُجنَّدوا في الجيش حتى يتسنى تطبيعهم تماماً، ويصبحوا مادة بشرية نافعة.

وقد تبنَّى الصهاينة أيضاً هذا المصطلح أو المفهوم الذي يُستخدَم باعتباره مصطلحاً مترادفاً مع مصطلحات أخرى، مثل: «تطبيع اليهود» أو «تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج» أو تخليصهم من «هامشيتهم» و«شذوذهم». لكن دوم طالب كذلك بأن يُحظَر على اليهود كتابة حساباتهم التجارية بالحروف العبرية حتى تزداد الثقة بينهم وبين جماهير الشعب المسيحي، وبأن يتم الإشراف على مدارسهم لاستبعاد العناصر غير الاجتماعية في ثقافتهم والموجهة ضد الآخرين أو الأغيار. وقد طالب كذلك بفرض الاتجاه العقلاني عليهم وتلقينهم احترام الدولة والاعتراف بواجباتهم تجاهها. ويمكن القول بأنه وضع مشروعاً يهدف إلى التخلص من كل أبعاد الخصوصية اليهودية.

لكن فكر دوم نتاج عصره، عصر الملكيات الأوتوقراطية

المستنيرة وفكرة الاستنارة. ومن هنا، فإن برنامجه المجرد العام يشبه، في كثير من النواحي، برنامج جوزيف الثاني إمبراطور النمسا لتحديث اليهود ودمجهم. والواقع أن فكرة إصلاح اليهود مرتبطة بفكرة نفعهم وإمكانية حوسلتهم، فإصلاح اليهود يهدف إلى جعلهم نافعين يمكن تحويلهم إلى مادة استعمالية، ومن ثَم فهو في جوهره عملية علمنة.

ولم تكن عملية الإصلاح مقصورة على اليهود وحسب، وإنما امتدت لتشمل اليهودية كذلك، ولا يختلف مشروع إصلاح اليهودية وتحديثها في أساسياته عن مشروع إصلاح اليهود. وكان هذا الإصلاح يأخذ شكل تحديث وتطبيع حتى تقترب اليهودية من المسيحية البروتستانتية (كانت ألمانيا مهد الإصلاح الديني المسيحي، وهي نفسها بلد الإصلاح الديني اليهودي). وحاول الإصلاح الديني اليهودي تقليل أهمية الشعائر وتخليص اليهودية من العناصر القومية فيها. واليهودية الإصلاحية هي ثمرة هذه المحاولة وتبعتها اليهودية المحافظة والتجديدية في الاتجاه نفسه.

نفع اليهود

«نفع اليهود» مصطلح يعني النظر إلى أعضاء الجماعات اليهودية من منظور مدى نفعهم للمجتمعات التي يوجدون فيها، وهو واحد من أهم الموضوعات الأساسية، الواضحة والكامنة، التي تتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود، وبخاصة النازية.

والدفاع عن اليهود من منظور نفعهم يتضمن داخله قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم كبشر لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة. فالعنصر النافع عنصر متحوسل يُستفاد منه طالما كان نافعاً ومنتجاً، كما يجب التخلص منه إن أصبح غير نافع وغير منتج. وعلى كلٍّ، فإن هذا المقياس لم يُطبَّق على اليهود وحدهم، وإنما على كل أعضاء المجتمع الذي تحكمه الدولة القومية المطلقة العلمانية التي تقوم بحوسلة الطبيعة والإنسان. ومفهوم نفع الإنسان مفهوم محوري في فكر حركة الاستنارة نابع من الواحدية المادية.

وقد كانت الجماعات اليهودية تضطلع بدور الجماعة الوظيفية في كثير من المجتمعات، فكان بعضها يضطلع بدور الجماعة الوظيفية القتالية والاستيطانية في العصور القديمة، وتحولوا إلى جماعة وظيفية تجارية في العصور الوسطى في الغرب. وكان يُنظَر إليهم باعتبارهم مادة بشرية تُستجلَب للمجتمع كي تقوم بدور أو وظيفة محددة، ويتم قبولها أو رفضها في إطار مدى النفع الذي سيعود على المجتمع من جراء هذه العملية. ومما دعَّم هذه الرؤية، فكرة الشعب الشاهد التي تنظر إلى اليهود كأداة للخلاص، ومن ثَمَّ ينبغي الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذي يلعبونه في الدراما الدينية الكونية، وهي الفكرة التي سادت أوربا الكاثوليكية الإقطاعية. وقد استقر اليهود في إنجلترا وفرنسا في العصور الوسطى في الغرب كأقنان بلاط وكمصدر نفع ودخل للإمبراطورية. وكان يُشار إليهم أحياناً على أنهم سلع أو منقولات. ويمكن القول بأنه قد يكون من الأدق النظر إلى اليهود باعتبارهم أدوات إنتاج وإدارة، لا باعتبارهم بشراً أو قوى إنتاج. وقد استقر اليهود في ألمانيا ثم في بولندا على هذا الأساس. وظهر بينهم يهود البلاط أو يهود الأرندا، وكانوا هم أيضاً جماعات وظيفية، وكان يُنظَر إليهم من حيث أنهم يؤدُّون وظيفةً ما، كما كان يُحكَم عليهم بمقدار أدائهم لها. ومن أكثر الأمثلة إثارةً على أن اليهود كان يتم التسامح معهم والتصريح لهم بالاستيطان كمادة نافعة، وضعهم في شبه جزيرة أيبريا، فقد كانت توجد عناصر يهودية كثيرة في بلاط فرديناند وإيزابيلا. بل إن أحد أثرياء اليهود لعب دوراً مهماً في عقد القرآن بينهما وفي توحيد عرش قشطالة وأراجون. وقام بعض أثرياء اليهود بتمويل حرب الملكين ضد المسلمين، وهو ما أدَّى إلى هزيمتهم وإنهاء الحكم الإسلامي. ومع هذا، تم طرد أعضاء الجماعات اليهودية بعد سبعة شهور فقط من إنجاز هذه العملية العسكرية التي مولوها، ذلك أن نجاحها أدَّى إلى أن دورهم كجماعة وظيفية مالية نافعة لم يَعُد لازماً.

وقد كان وضع اليهود مستقرا تماماً داخل المجتمعات الغربية كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح. ولكن هذا الوضع بدأ في التقلقل مع التحولات البنيوية العميقة التي خاضها المجتمع الغربي ابتداءً من القرن السابع عشر وظهور الثورة التجارية. ولم يَعُد بالإمكان الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية). فظهرت فكرة العقيدة الألفية أو الاسترجاعية التي تجعل الخلاص مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة نفسها لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني، ولم يكن مفر من أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لادينية علمانية، كما لم يكن بد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية. ومن ثَمَّ، ظهرت فكرة نفع اليهود للدولة، هذا المطلق العلماني الجديد، فتم الدفاع عن عودة اليهود إلى إنجلترا في القرن السابع عشر من منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزي، حيث نُظر إليهم كما لو كانوا سلعة أو أداة إنتاج. وكان المدافعون عن توطين اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الإنجليزية بما يتفق مع قانون الملاحة الذي صدر آنذاك ويجعل نقل

السلع، إلى إنجلترا ومنها، حكراً على السفن الإنجليزية. كما أن كرومويل فكر في إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس. وعمل اليهود في تلك المرحلة في وسط أوربا كيهود بلاط، وهم جماعة وسيطة يستند وجودها أيضاً إلى مدى نفعها.

وحينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور ضررهم وعدم نفعهم، دافع أعضاء الجماعات اليهودية عن أنفسهم لا من منظور حقوقهم كبشر، وإنما من منظور نفعهم أيضاً. فكتب الحاخام سيمون لوتساتو عام ١٦٣٨ كتاباً بالإيطالية تحت عنوان **مقال عن يهود البندقية** عدَّد فيه الفوائد الكثيرة التي يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم قد طوَّروا فروعاً مختلفة من الاقتصاد، ويضطلعون بوظائف لا يمكن لغيرهم الاضطلاع بها مثل التجارة، ولكنهم على عكس التجار الأجانب خاضعون لسلطة الدولة تماماً، ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقومون بشراء العقارات، ومن ثَمَّ لا ينقلون أرباحهم خارج البلاد. إن اليهود من هذا المنظور يشبهون رأس المال الوطني (مقابل رأس المال الأجنبي) لابد من الحفاظ عليه والدفاع عنه.

وقد استمر هذا الموضوع الكامن شائعاً في الفكر الغربي، ثم ازداد انتشاره وتواتره مع علمنة الحضارة الغربية وسيادة الفلسفات المادية النفعية التي تحكم على مجالات الحياة كافة، وليس على اليهود بمفردهم، من منظور المنفعة. ولذا، نجد أن فكرة نفع اليهود تزداد محورية في الفكر الغربي في أواخر القرن الثامن عشر، وهي أيضاً المرحلة التي لم يَعُد فيها وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب مقلقلاً وحسب، بل وصل فيها إلى مرحلة الأزمة.

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العداء لليهود (وضمن ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا. فقد تبنَّى المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعة اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة، بل ضارة يجب التخلص منها، وتدور معظم الأدبيات العنصرية الغربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وهي أطروحة لها أصداؤها أيضاً في الأدبيات الماركسية، وضمن ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث يظهر اليهودي باعتباره ممثلاً لرأس المال الطفيلي الذي يتركز في البورصة ولا يغامر أبداً بالدخول في الصناعة. وتظهر الأطروحة نفسها في كتابات ماكس فيبر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية منبوذة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالي الجديد (ومن المفارقات أن اليهودي الذي كان رمزاً لرأس المال المحلي المتجذر، أصبح هنا رمز رأس المال الأجنبي الطفيلي المستعد دائماً للرحيل والهرب).

وقد وصل هذا التيار إلى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لطفيليتهم وللأضرار التي يُلحقونها بالمجتمع الألماني وبالحضارة الغربية. وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة إلى قسمين:

١ ـ يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نفعاً.

٢ ـ يهود قابلون للترحيل وقابلون للتخلص منهم ويُستَحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تأكل ولا تنتج حسب التعبير النازي المادي الرشيد الطريف) وبوصفهم عناصر ضارة غير نافعة لا أمل في إصلاحها أو في تحويلها إلى عناصر نافعة منتجة.

ومما يجدر ذكره وتأكيده، أن هذا التقسيم تقسيم عام شامل، غير مقصور على اليهود، فهو يسري على الجميع، فقد صنَّف الألمان المعوقين والمتخلفين عقلياً وبعض العجزة والمثقفين البولنديين باعتبارهم «غير نافعين»، أي قابلين للترحيل ويستحسن التخلص منهم. وقد سويت حالة كل هؤلاء (وضمن ذلك اليهود) عن طريق الترحيل إلى معسكرات السخرة أو الإبادة، حسب مقتضيات الظروف والحسابات النفعية المادية الرشيدة المتجاوز للقيم والغائيات الإنسانية.

وتقبَّل الصهاينة هذا الإطار الإدراكي، فنجد أن هرتزل يرى أن اليهود عنصر بشري فائض غير نافع يجب توظيفه وجعله عنصراً نافعاً للحضارة الغربية عن طريق تحويله إلى مستوطنين، بل عن طريق تحويل أعضاء الجماعات كافة إلى عُمَلاء للقوة الاستعمارية الراغبة في الاستفادة منهم. ويمكن القول إن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هي فكرة الشعب العضوي المنبوذ مضافاً إليها فكرة نفع اليهود. ويتحدث ناحوم سوكولوف بالطريقة نفسها عن اليهود وكيفية تحويلهم إلى مادة نافعة. كما كان مفكرو الصهيونية العمالية يصرون على إمكانية تحويل اليهود إلى عنصر نافع ومنتج من خلال غزو الأرض والعمل.

نابليون بونابرت (١٧٦٩ـ١٨٢١)

إمبراطور فرنسا في الفترة بين ١٨٠٤ـ١٨١٤، وهو يُعَدُّ من أهم القادة العسكريين في التاريخ ويتمتع بمقدرات إدارية. وُلد نابليون في جزيرة كورسيكا وتولى قيادة الجيش الجمهوري أثناء حروب الثورة الفرنسية، وأحرز نجاحاً كبيراً في حملته على إيطاليا

(١٧٩٦-١٧٩٧)، ولكن حملته على مصر (١٧٩٨-١٧٩٩) أخفقت تماماً. وعاد إلى فرنسا والحكومة الثورية على وشك الانهيار، فقام بانقلاب عسكري واستولى على الحكم وقاد حروب فرنسا «الثورية». ثم أدخل إصلاحات على النظام التعليمي وفي مجال القانون ونظَّم العلاقة مع الكنيسة (١٨٠١)، ثم أصبح إمبراطوراً عام ١٨٠٤، وبدأ في تكوين أرستقراطية جديدة وبلاط ملكي. وقد امتدت رقعة الإمبراطورية الفرنسية في عهده لتضم كل أوربا تقريباً. وساهم في تحديث أوربا ومؤسساتها السياسية والإدارية من خلال غزواته. ولكن شوكة نابليون انكسرت حينما حاول غزو روسيا، وانتهى الأمر بأن هُزم تماماً ونُفي إلى جزيرة إلبا (١٨١٤) ثم إلى سانت هيلينا (١٨١٥).

وتأخذ علاقة نابليون بالجماعات اليهودية ثلاثة أشكال، تستند في معظمها إلى مبدأ نفع اليهود:

١ ـ كانت جيوش فرنسا تكتسح النظم الإقطاعية في طريقها وتنصب نظماً أكثر ليبرالية. وقد وصلت هذه الجيوش حتى بولندا، حيث كانت توجد الكثافة السكانية اليهودية. وأينما حلَّت هذه الجيوش، كانت تقوم بإعتاق أعضاء الجماعات اليهودية ووضْع أسس تحديث هوياتهم المختلفة. ورغم هزيمة جيوش فرنسا ونابليون، فإن العملية التاريخية التي بدأتها هذه الجيوش كان لها أعمق الأثر في أعضاء الجماعات اليهودية. ومع هذا، لابد من الإشارة إلى أن نابليون قام بتجنيد بعض أعضاء الجماعة اليهودية في روسيا واستغلهم كطابور خامس خلال حربه مع روسيا، أي أنه حولهم إلى جماعة وظيفية جاسوسية (لكن غالبية يهود روسيا الساحقة وقفت ضد نابليون وساعدت الحكومة القيصرية).

٢ ـ كان لعلاقة نابليون بأعضاء الجماعات اليهودية في فرنسا أعمق الأثر فيهم. فبعد اندلاع الثورة وإعتاق اليهود في فرنسا، انتشر يهود الألزاس (الإشكناز) الذين كانوا متخلفين حضارياً ويعملون أساساً بالتجارة والأعمال الطفيلية كما كانوا يعملون بالربا، وهو ما أدَّى إلى ظهور مشكلة بينهم وبين فلاحي الألزاس. وقد نشأت مسألة يهودية إشكنازية في فرنسا لم يكن السفارد طرفاً فيها، فأبدى الإمبراطور اهتماماً بالقضية (عام ١٨٠٦) ودعا مجلس وجهاء اليهود في باريس، وجمَّد بشكل مؤقت الديون التي اقترضها الفلاحون من المرابين اليهود. وقام الوجهاء بمناقشة القضايا التي قدمتها لهم السلطات مثل: عادات الزواج بين اليهود، والأعمال التي يقومون بها، وواجبهم تجاه الدولة، ومدى إحساسهم بالولاء تجاهها والانتماء إليها. ووافق المجتمعون على أن ولاءهم يتجه إلى الدولة الفرنسية أساساً، وأن اليهود يشكِّلون جماعة دينية، لا جماعة قومية أو إثنية أو عرْقية. ثم دعا نابليون عام ١٨٠٧ لعقد السنهدرين الأكبر، وأسَّس إدارة يهودية مركزية تعمل من خلال مجالس مختلفة هي المجالس الكنسية. ولا يزال هذا النمط هو المعمول به في فرنسا بل طُبِّق أيضاً في الجزائر. ثم أصدر نابليون قرارات تحد من النشاط التجاري والمالي لليهود؛ ليتحوَّلوا إلى عناصر نافعة في المجتمع مندمجة فيه، كما أصدر قرارات تشجعهم على الاشتغال بالزراعة والصناعة لدمجهم في المجتمع الفرنسي.

٣ ـ قام نابليون بأولى حملات الثورة الفرنسية الاستعمارية في الشرق، فاحتل مصر عام ١٧٩٨. وكانت حكومة الإدارة الفرنسية قد أعدت خطة لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين، وذلك مقابل تقديم المموِّلين اليهود قروضاً مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر آنذاك بضائقة مالية. وكان المفروض أن يموِّل اليهود الحملة المتجهة صوب الشرق، وأن يتعهدوا ببث الفوضى وإشعال الفتنة وإحلال الأزمات في المناطق التي سيرتادها الجيش الفرنسي لتسهيل أمر احتلالها. ويبدو أن نابليون كان مطلعاً على الخطة. ولذا، فقد أصدر، بمجرد وصوله إلى مصر، بياناً يحث فيه اليهود على الالتفاف حول رايته لإعادة مجدهم الغابر ولإعادة بناء مملكة القدس القديمة، أي أن نابليون أصدر أول وعد بلفوري في تاريخ أوربا.

وكانت أهداف نابليون مركبة:

١ ـ كان نابليون يحذو حذو مؤسسي الإمبراطوريات الذين كانوا يهتمون بفلسطين لأهميتها الإستراتيجية، ولذا كانوا يحاولون غرس عنصر سكاني موال لهم. ويبدو أن نابليون وجد في يهود الشرق ضالته، حيث يمكن تحويلهم إلى مادة استيطانية تدور في مدار المصالح الفرنسية وتكون عوناً له في دعم نفوذه وتثبيت سلطانه. واليهود إن وُطِّنوا في فلسطين فإنهم سيكونون بمنزلة حاجز مادي بشري يفصل ما بين مصر وسوريا، ويدعِّم الاحتلال الفرنسي، ويهدِّد المصالح البريطانية من خلال إغلاق طرق مواصلاتها إلى الهند. ويبدو أن نابليون كان يحاول كسب رضا وتأييد حاييم فارحي، اليهودي الذي كان يتمتع بنفوذ مالي في عكا ويتولى مسئولية تزويدها بالمؤن الغذائية. وأخيراً، فإن نابليون كان يهمه كسب ثقة يهود فرنسا ودعمهم المالي في صراعه الذي بات وشيك الوقوع مع حكومة الإدارة.

٢ ـ ولكن، ومهما كانت الدوافع، فإن نابليون كان من نتاج عصر الاستنارة، وكان نفعياً لا يؤمن بأية عقيدة دينية، ولذا فإنه لم يكن ليتوانى عن استغلال الدين أو أية عقيدة أخرى. وعلى هذا، فإنه،

في ندائه إلى يهود العالم، يتحدث عن حقوقهم التي وردت في العهد القديم وعن احترام الأنبياء (وهو لا يؤمن بأي منهم). وحينما يصل إلى مصر، فإنه يتحدث عن الإسلام بإجلال شديد ويعلن أنه لم يأت إلى ديار المسلمين إلا للدفاع عن الإسلام ولحمايتهم من الظلم.

ومما تجدر ملاحظته أنه، رغم أن سياسة نابليون بالنسبة ليهود فرنسا كانت ترمي إلى تحويلهم من جماعة وظيفية وسيطة لها سماتها وخصوصيتها إلى جزء من التشكيل الطبقي والحضاري الفرنسي، لا خصوصية له بل مندمج تماماً في محيطه، فإن سياسته في الشرق كانت تقف على الطرف النقيض من ذلك، إذ كانت ترمي إلى تأكيد خصوصية اليهود باعتبارهم شعباً عضويا، إذ إن هذه الخصوصية مصدر عزلتهم، وعزلتهم هي التي ستجعل بالإمكان تحويلهم إلى جماعة وظيفية قتالية استيطانية تُوطَّن في فلسطين لتقوم على خدمة الاستعمار الغربي.

ويُلاحَظ أن المسألة الشرقية، أي ضعف الدولة العثمانية والميراث الذي ستتركه بعد موتها، قد بدأت تلتقي بالمسألة اليهودية. وتتبدَّى عبقرية نابليون في أنه قرر توظيف المسألة اليهودية والجماعات اليهودية في حل المسألة الشرقية حلا يتناسب مع مصالحه.

والنمط الكامن في تفكير نابليون هو أيضاً النمط الكامن في النظرية الاستعمارية الغربية تجاه الشرق وتجاه أعضاء الجماعات اليهودية، وقد تبدى هذا النمط في وعد بلفور في بداية الأمر، ثم وصل ذروته مع توقيع الاتفاق الإستراتيجي بين إسرائيل والولايات المتحدة.

تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج

«تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج» عبارة إصطلاحية تُستخدَم للإشارة إلى المحاولات التي قامت بها حكومات فرنسا وروسيا وبولندا، وبعض حكومات وسط أوربا، مثل النمسا، لتحويل اليهود عن الاشتغال بالتجارة البدائية والربا وبعض الحرف الأخرى التي كانوا يقومون بها كجماعة وظيفية وسيطة، وتشجيعهم على الاشتغال بالزراعة والحرف والوظائف الأخرى. وقد نجحت المحاولة في فرنسا، ولكنها تعثَّرت في جاليشيا وروسيا وغيرهما من المناطق، وهو ما اضطر الحكومة الروسية، على سبيل المثال، إلى إصدار قوانين مايو. ونحن نفضل استخدام مصطلح «تحديث اليهود» فهو أكثر عمومية وحياد، ولا يحمل أية تضمينات قدحية، وخصوصاً أن اليهود لم يكونوا قط غير منتجين في المجتمعات الزراعية التقليدية، وإنما أصبحوا كذلك نتيجة تطور المجتمع. كما أن المصطلح يؤكد العلاقة بين التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي خاضتها الجماعات اليهودية في شرق أوربا والتحولات الاجتماعية المماثلة التي مرت بها الأقليات الاقتصادية والإثنية التي تلعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة في مجتمعات أخرى، كالصينيين في شرق آسيا.

والمصطلح دخل الأدبيات الصهيونية العمالية التي تنطلق من الإيمان بهامشية وطفيلية يهود المنفى والشتات وتنادي بضرورة تطبيعهم.

التطبيع (تطبيع الشخصية اليهودية)

بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد، شاع مصطلح «تطبيع» في الخطاب السياسي في مصر، بمعنى محاولة جعل العلاقات بين مصر والدولة الصهيونية علاقات عادية طبيعية مثل العلاقات التي تنشأ بين أي دولتين. ولكن المصطلح في الأدبيات الصهيونية، حينما يُستخدَم للإشارة إلى ما يُسمَّى «الشخصية اليهودية»، تكون له مدلولات مختلفة تماماً. وقد شاع المصطلح في أوربا ابتداءً من القرن الثامن عشر مع مصطلحات أخرى إما مشابهة أو مرتبطة به، مثل «تحويل اليهود إلى قطاع منتج» أو «نفع اليهود»، وكلها مصطلحات تفترض شذوذ وضع اليهود وهامشيتهم، وتؤكد الحاجة إلى تغييره عن طريق «إصلاح اليهود» وتحويلهم إلى مادة بشرية استعمالية يمكن توظيفها في خدمة المجتمع، وهذا يعني أن يصبح اليهودي إنساناً طبيعياً لا يختلف عن غيره من البشر (والإنسان الطبيعي مفهوم محوري في فكر عصر الاستنارة) الذي ركَّز على العناصر العامة في البشر، وحاول أن يقلل أهمية الخصوصيات وأن يلغيها تماماً.

ولكن الظاهرة نفسها، بغض النظر عن المصطلح، تعود إلى تواريخ قديمة، فقد كانت الحاجة إلى تطبيع اليهود أو إصلاحهم تنشأ حينما يواجهون حضارة متفوقة، كما حدث عند التهجير البابلي. وبرزت الظاهرة نفسها بشكل أكثر إثارة في العصر الهيليني، إذ بدأ أعضاء الجماعة اليهودية التي كانت متركزة أساساً في فلسطين ثم في مصر يشعرون بالإحساس بالنقص وبالتدني الحضاري إزاء الحضارة المتفوقة، فاصطنعوا أساليبها، وتأغرقت أعداد كبيرة منهم، وبخاصة أعضاء الطبقات الثرية، وبذلوا جهداً غير عادي ليصبحوا مثل الإغريق. ويمكن اعتبار الحركات المشيحانية أول محاولات تطبيع اليهود في الواقع. ولذا، كان من أهداف هذه الحركات إسقاط الأوامر والنواهي المسئولة عن تميُّز اليهود وعزلتهم.

ولكن عملية التطبيع التي تهمنا هي التي بدأت في نهاية القرن الثامن عشر نتيجة الانقلاب الصناعي الرأسمالي في الغرب، والتحولات البنيوية التي خاضتها المجتمعات الغربية، إذ أدَّت هذه التحولات إلى ظهور الدولة القومية الحديثة والاقتصاد الحديث، وكلاهما تطلَّب نوعية جديدة من المواطنين ذوي كفاءات وولاءات محددة. وقد كان مؤسسو الدولة القومية الحديثة في غرب أوربا ووسطها وشرقها يرون أن اليهود، بوضعهم الذي كانوا عليه، كجماعات وظيفية وسيطة، أصبحوا شخصيات هامشية غير منتجة وغير محددة الولاء أو الانتماء ودون دور محدد تلعبه، أي أن وضعهم أصبح غير طبيعي في الإطار القومي المركزي الجديد. ولذا، ينبغي تطبيعهم، أي صبغهم بالصبغة القومية ليتم دمجهم في المجتمع. فأصدرت حكومة فرنسا ثم النمسا وروسيا وغيرها قرارات لإعادة صياغة هوية أعضاء الجماعات. وقد تفاوتت درجات نجاح المحاولة وإخفاقها من بلد إلى آخر.

والتطبيع أيضاً من أهم المفاهيم في الفكر الصهيوني، فهو العملية التي يتخلَّص اليهودي من خلالها من أمراض المنفى أو الشتات (الانتشار في العالم) خارج الوطن القومي، وتتمثل في عقلية استجداء الأغيار والاعتماد السياسي عليهم وتتمثَّل كذلك في ازدواج الولاء. وهي تعني أيضاً التخلُّص من أية قداسة يخلعها عليه تراثه الديني، وبالتالي يتعيَّن على اليهود الجدد من المستوطنين الصهاينة ألا ينغمسوا في أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة مثل بني ملتهم أو بني جلدتهم من يهود المنفى، وعليهم أن يتحولوا إلى شعب يهودي منتج بمعنى الكلمة، يسيطر على كل مراحل العملية الإنتاجية، وبالتالي على مصيره الاقتصادي والسياسي. كما أن عليهم أن يطرحوا كل المفاهيم الدينية مثل «الشعب المختار» و«الالتزام بأداء الأوامر والنواهي»، وأية مطلقات دينية أو أخلاقية. وقد عبَّر المفكر الصهيوني العمالي دوف بير بوروخوف عن القضية نفسها بقوله إن اليهود أعضاء في هرم إنتاجي (أي أنهم مادة إنتاجية)، وأن الحل الصهيوني يتلخَّص في أن يقف الهرم الإنتاجي اليهودي على قاعدته، بحيث يتركز اليهود في العمليات الإنتاجية في قاعدة الهرم ويعملون بأيديهم وتصبح أغلبيتهم من العمال والفلاحين، أما المهنيون والعاملون في القطاع التجاري والمالي فيصبحون قلة في قمة الهرم، شأنهم في هذا شأن قرنائهم في أي مجتمع آخر. وهذا ما يُطلَق عليه مصطلح «العمل العبري» و«غزو العمل»، أي أن يستولى الصهيوني على الأرض عن طريق العنف الذي يُطهِّره من مخاوف المنفى، ويعمل فيها بيديه ويسيطر على كل مراحل الإنتاج. وهو، إن فعل، يكون قد أنجز الثورة الصهيونية الحقَّة، فاستولى على الأرض وزرعها، وعلى الهيكل الاقتصادي وعمل فيه، وعلى الهيكل السياسي وتحكَّم فيه. ثم تحوَّل هو نفسه من شخصية هامشية خائفة لا سيادة لها، إلى شخصية شجاعة منتجة ذات سيادة قومية، وبذلك يكون قد تم تطبيعه، ويصير اليهود شعباً، مثلهم مثل كل الشعوب، لهم وطنهم ولغتهم وجيشهم. ومن هنا، لا يكون الاستيطان الإحلالي (الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والعمل فيها) مجرد فعل خارجي يحمل مدلولاً اقتصاديا محدوداً، وإنما فعل شامل ذو أبعاد سياسية وقومية، وفي نهاية الأمر نفسية. وهو أيضاً يحل مشكلة المعنى بالنسبة للصهاينة، ويُعقلن وجودهم في فلسطين التي تلفظهم ويقاتل أهلها ضدهم.

ولكن التطبيع في السياق الصهيوني يعني أيضاً التغريب، أي أن يصبح لليهود وطن يؤسَّس على النسق العلماني الغربي. فالصهاينة يرون دولتهم الاستيطانية جزءاً من التشكيل الاستعماري الغربي. وقد أسس الصهاينة دولتهم، التي حوَّلت الدين إلى رموز قومية خالية من المضمون الأخلاقي على طريقة الدول الغربية الحديثة، المتمسكة بقيم المنفعة وبالقوة كوسيلة لحل كل مشاكلها. وبعد حرب ١٩٦٧، مع تلاشي ما تبقى من أوهام عن روح الريادة والعمل العبري، ازدادت الروح النفعية والاستهلاكية. ولذا، زادت حدة التطبيع، وأصبح يهود إسرائيل مثل كل الشعوب، والأمريكيين على وجه الخصوص. وربما يفسر هذا نزوح كثير من الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية الاستهلاكية، فهذه نتيجة منطقية لمنطق التطبيع بمعنى التغريب.

ولكن، يبدو أن الدولة الصهيونية لم تنجح تماماً في أن تُطبِّع نفسها أو سكانها، فهي دولة تعتمد على الغرب، وتنتشر فيها الجريمة، كما أن عدداً كبيراً من سكانها يشتغلون بأعمال السمسرة ويرفضون العمل اليدوي، وهو الأمر الذي كشفت عنه الانتفاضة بشكل واضح وجليّ. أما أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، وهم أكبر جماعة يهودية في العالم، فتم تطبيعهم وعلمنتهم تماماً، فقد تبنُّوا أسلوب الحياة الأمريكي دون تحفُّظ. ونصفهم لا يؤمن بالخالق، كما أن الأغلبية الساحقة ممن يظنون أنهم يؤمنون بالعقيدة اليهودية ينتمون إلى اليهودية الإصلاحية والمحافظة وليس الأرثوذكسية، ولا يقيمون شعائر السبت، وإن احتفلوا به فهم يرونه جزءاً من عطلة نهاية الأسبوع (الويك إند) بما تتضمنه من نشاطات

علمانية عديدة لا يربطها رابط بشعائر السبت. بل يُقال إن يهود الولايات المتحدة أكثر ملكية من الملك، وأكثر طبيعية وأمريكية من الأمريكيين. وثمة رأي يذهب إلى أن النشاط الصهيوني، الهستيري في شكله، المترهل في مضمونه، الذي لا يتجاوز في واقع الأمر دفع التبرعات والاشتراك في التظاهرات ووضع اللافتات على السيارات، ولا يأخذ شكل سلوك ديني في المنزل أو هجرة إلى إسرائيل، ما هو إلا تغطية لعملية التطبيع الراديكالية التي تتم بين أعضاء الجماعة اليهودية، وتترجم نفسها إلى أمركة كاملة وانصهار تام في المجتمع الأمريكي. ولهذا السبب، يطلق بعض الصهاينة على يهود الولايات المتحدة اسم «الهيلينيين الجدد».

وغنيٌّ عن القول أن مفهوم شذوذ الشخصية اليهودية مفهوم محوري في أدبيات معاداة اليهود، وبخاصة في الفكر النازي. وقد وجد النازيون أن حلَّ قضية الشذوذ هذه لا يتم عن طريق تطبيع اليهود كما يقترح الصهاينة، وإنما عن طريق إبادتهم.

المسألة اليهودية

«المسألة اليهودية» مصطلح يتواتر في الكتابات الصهيونية وفي غيرها بصيغة المفرد، وهو مصطلح يفترض أن ثمة مشاكل محدَّدة ثابتة لا تختلف تقريباً باختلاف الزمان والمكان، يواجهها اليهود وحدهم ولا يواجهها غيرهم من أعضاء الجماعات أو الأقليات الدينية أو الإثنية. ولذا تتم الإشارة إليها بعبارة «المسألة اليهودية» (الواحدة) لا «المسائل اليهودية» المتنوعة بتنوع تجارب أعضاء الجماعات اليهودية عبر الزمان والمكان.

ويمكن تصنيف المصطلح، بشكله هذا، ضمن مصطلحات شبيهة أخرى، مثل «الشخصية اليهودية» التي تفترض وجود شخصية يهودية ثابتة مستقلة عما حولها من ظروف. و«التاريخ اليهودي»، الذي يفترض وجود تاريخ مستقل له سماته المحددة، ووحدته الواضحة، وفتراته المتتالية التي تعرَّف بالعودة إلى جوهر يهودي أو وجود مستقل، هو أمر يتناقض مع الواقع التاريخي الحي المركب. فالمشاكل التي واجهها يهود الإمبراطورية الرومانية جزء من تاريخ هذه الإمبراطورية، والمشكلات التي واجهها يهود المدينة أيام الرسول (عليه الصلاة والسلام) ناجمة عن وجودهم داخل التشكيل الحضاري الإسلامي في الجزيرة العربية، كما أن المشاكل التي واجهها يهود روسيا في القرن التاسع عشر الميلادي كانت نابعة من وجودهم داخل التشكيل السياسي الروسي في عهد القيصرية، تماماً كما أن المشكلات التي واجهوها بعد عام ١٩١٧ جزء من تاريخ روسيا السوفيتية. أما من هاجر من يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة، فأصبح تاريخه وكذلك مشاكله جزءاً من تاريخها. ومع أن هذا لا ينفي وجود مشكلات خاصة نابعة من خصوصية وضع أعضاء الجماعة اليهودية داخل هذه التشكيلات، فإنه لا يوجد عنصر مشترك واحد يجمع بين هذه المشاكل الخاصة، إذ أن هذه الخصوصية نفسها مستمدة من طبيعة علاقة الجماعة اليهودية بالمجتمع الذي تعيش في كنفه (وتتشكَّل في إطاره) ولا علاقة لها بخصوصية يهودية تشمل كل اليهود. وقد غيَّر حدث ضخم، مثل الثورة البلشفية، من نوعية المشاكل التي كان يواجهها أعضاء الجماعة اليهودية. فبعد أن كان يُفرَض عليهم العزل داخل منطقة الاستيطان، أصبح يتهددهم الاندماج، وبعد أن كانوا بعيدين تماماً عن مؤسسات صنع القرار، أصبحوا قريبين منها، لدرجة أن أعداء اليهود والبلاشفة كانوا يسمون الثورة البلشفية «الثورة اليهودية». بل كانت هناك داخل التشكيل السياسي الروسي القيصري ثم البلشفي عدة تشكيلات يهودية مختلفة لكلٍّ مشاكلها الخاصة، فيهود جورجيا واجهوا مشاكل تختلف نوعياً عن مشاكل يهود اليديشية. أما اليهود القرَّاءون، فلم يواجهوا مشاكل حقيقية نظراً لأن الحكومة القيصرية اعتبرتهم جماعة منتجة، وبالتالي لم تُطبِّق عليهم أياً من القرارات التي طبقتها على يهود اليديشية. كما أن تواتر المسائل اليهودية داخل المجتمعات البشرية لا يعني بالضرورة أن هذه المسائل متشابهة أو أن الواحدة لها علاقة بالأخرى. فقد تتشابك المسائل كما حدث حينما هاجر يهود اليديشية بأعداد كبيرة إلى ألمانيا وقوضوا وضع يهود ألمانيا ومكانتهم. ولكن، مع هذا، تظل كل مشكلة أو مسألة يهودية مستقلة ولا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى سياقها التاريخي والحضاري والاجتماعي.

لكل هذا، يكون مصطلح «المسألة اليهودية» الذي يَفترض أن هناك مسألة يهودية واحدة، عالمية وعامة، مصطلحاً منافياً تماماً للحقائق المتعيِّنة للتاريخ، ومن ثَمَّ فإن قيمته التصنيفية والتفسيرية ضعيفة إلى أقصى حد. ومن الأفضل استخدام صيغة الجمع والتحدث عن «مسائل يهودية». وحين يُستخدَم المصطلح في صيغة المفرد، فإنه يشير، في واقع الأمر، إلى المشاكل التي واجهها أعضاء الجماعات اليهودية (في القرن التاسع عشر) في أوربا، وبخاصة في شرقها، وبذلك تُستبعَد الجماعات اليهودية الأخرى كافة. وهذا التحديد الزماني المكاني يعطي المصطلح مضموناً حقيقياً ودلالة ومقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية.

ويجب التمييز بين المسألة اليهودية في العصر الحديث من جهة، وبين المذابح التي كانت تُدبَّر ضد أعضاء الجماعة اليهودية في الماضي

من جهة أخرى. ورغم أن كلا من الظاهرتين ينبع من أساس واحد هو كون اليهود جماعة وظيفية وسيطة، فإن أوجه الاختلاف بين الظاهرتين أساسية وجوهرية، فالمذابح التي دُبِّرت ضد أعضاء الجماعة اليهودية حتى بداية القرن السابع عشر تقريباً كانت، في كثير من الأحيان، من قبيل الثورة الشعبية ضد جماعة وظيفية إثنية تُشكِّل أجزاء من الطبقة الحاكمة وتُعَدُّ أداتها. أما المسألة اليهودية الحديثة، فهي مرتبطة بمحاولة ظهور الرأسماليات المحلية وتآكُل دور الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية "نافعة" وتحولها إلى فائض بشري ومحاولة الدولة القومية التخلص من الفائض البشري الناجم عن تحول الجماعات الوظيفية عن طريق دمجه أو تصديره وتحويله إلى عنصر بشري نافع. وهي عملية لم تكن مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وإنما كانت تسري على الجماعات الإثنية والدينية الأخرى كافة في المجتمع، فالمسألة اليهودية من ثَمَّ مرتبطة بآليات وحركيات خاصة بالمجتمع الغربي بعد تآكل النظام الإقطاعي وانتقاله من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الرأسمالي وأخيراً التشكيل الإمبريالي الغربي.

ويجب الانتباه إلى أن مسألة يهود شرق أوربا في القرن التاسع عشر ليست مسألة فريدة، فهي نمط متكرر في معظم المجتمعات التي تنتقل من النمط الزراعي التقليدي في الإنتاج إلى النمط الحديث. وعلى هذا، توجد مسألة هندية أو عربية في أفريقيا، ومسألة إيطالية أو يونانية في مصر، ومسألة صينية في جنوب شرق آسيا، ولعل التشابه بين المسألة الصينية في الفلبين والمسألة اليهودية في بولندا أمر ملحوظ بشكل ما ويستحق الإشارة إليه. لقد كان أعضاء الجماعة الصينية يشكلون جماعة وظيفية وسيطة فكانوا يعملون وسطاء بين المستعمرين الإسبان والعنصر الفلبيني المحلي، تماماً كما كان اليهود وسطاء بين النبلاء البولنديين (الشلاختا) والفلاحين والأقنان الأوكرانيين داخل مؤسسات الإقطاع الاستيطاني ونظام الأرندا. وكان الصينيون يعيشون في جيتو خارج مانيلا، تماماً كما كان اليهود يعيشون في الجيتوات والشتتل. وكان يُحظَر خروج الصينيين من الجيتو الخاص بهم بعد الساعة الثامنة. وقد طُرد الصينيون من الفلبين عدة مرات (١٥٦٩ و١٧٥٥) ودُبِّرت المذابح والهجمات ضدهم (في سنوات ١٦٠٣ و١٦٣٩ و١٦٦٢ و١٧٦٤)، وفُرضت عليهم ضرائب خاصة باهظة. وتركَّز الصينيون في مانيلا في الأعمال التجارية والمالية، ونظموا أنفسهم داخل مؤسسات تشبه القهال. وكان الصينيون يضطلعون بدور مهم في المجتمع الفلبيني، ولكنهم بعد استقلال الفلبين فقدوا دورهم كجماعة وظيفية وسيطة، فحدثت محاولات للتخلص منهم بطردهم أو دمجهم عن طريق تحديثهم.

ويمكن القول إن المسألة اليهودية في أوربا، في العصر الحديث، محاولة لتحديث أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا بهدف دمجهم في مجتمعاتهم بعد أن فقدوا دورهم كجماعة وظيفية وسيطة، وهي محاولة حققت درجات متفاوتة من النجاح والإخفاق. ولفهم هذه الظاهرة، لابد أن نتعامل مع مركب من الأسباب الاقتصادية والسياسية والتاريخية والثقافية التي أدَّت إلى ظهورها، ومع الطريقة التي حاولت كل دولة التعامل بها مع الجماعات اليهودية ومع الجماعات الإثنية والدينية كافة، كما يجب أن نتعامل مع العناصر التاريخية والسياسية التي أدَّت إلى نجاح أو تعثُّر أو توقُّف هذه المحاولات. ويمكن القول بأن جذور المسألة اليهودية تعود إلى ما أسميناه «المسألة العبرانية»، أي ضعف الدولة العبرانية القديمة سواء في مواردها البشرية أو في مواردها المادية ووجودها في منطقة مهمة إستراتيجياً بين عدة إمبراطوريات عظمى، وهو ما أدَّى إلى تحوُّلها إلى معبر لهذه الإمبراطوريات، وجعل التجمع العبراني مصدراً أساسياً للمادة البشرية.

وقد أدَّى هذا الوضع، في نهاية الأمر، إلى انتشار اليهود، كما جعل عندهم قابلية لأن يتحولوا إلى جماعات وظيفية (قتالية أو استيطانية أو تجارية). ومع العصور الوسطى، كانت معظم الجماعات اليهودية في الغرب جماعات وظيفية وسيطة تضطلع بوظيفة التجارة والربا وجمع الضرائب وأعمال مالية وإدارية مماثلة أخرى. لكن التجارة التي كان يضطلع بها أعضاء الجماعة الوسيطة هي ما يُطلق عليه «التجارة البدائية». فالتاجر اليهودي لم يكن يُوظِّف أمواله في الإنتاج، كما كان يفعل تجار مدن العصور الوسطى الكبيرة، ولا يشتري مواد أولية ولا ينفق على صناعة الأقمشة جزءاً من رأسماله، بل كان مجرد وسيط يوزع منتجات لا يسيطر عليها ولا يخلق ظروف إنتاجها. وهكذا، لم تكن التجارة اليهودية تنطوي على أسلوب معيَّن لإنتاج فائض القيمة، وإنما كانت، على عكس التجارة المسيحية التي كانت تجارة تبادلية مرتبطة بالاقتصاد والإنتاج نفسه، تعيش على فائض القيمة الذي ينتجه الفلاحون، فهي تجارة توجد في الشقوق بين المجتمعات. وحينما تحوَّل الرأسمالي اليهودي إلى الإقراض كان إقراضه أيضاً استهلاكياً، على عكس الإقراض المصرفي الذي كان يساهم مباشرة في إنتاج فائض القيمة لأنه كان يُموِّل المشروعات التجارية والصناعية الكبيرة. وقد لعب اليهود دور التاجر والمرابي والخمَّار ووكيل السيد الإقطاعي والوسيط في جميع الأمور. والمجتمع الإقطاعي المستند إلى إنتاج القيم الاستعمالية لا يتناقض مع

الرأسمالية بشكلها التجاري الربوي البدائي، بل يضمن بقاءها واستمرارها. ولذلك لم يكن هناك وجود لأية مسألة يهودية في المجتمعات الإقطاعية، فالتاجر والمرابي اليهوديان كانا يقومان بدور حيوي مهم، إذ كان التاجر يُورِّد للمجتمع الإقطاعي السلع التي يحتاج إليها ويُصدِّر الفائض الإنتاجي، بينما كان المرابي يقرض الأمير الإقطاعي، وكذلك الفلاح، لشراء السلع الكمالية. بل إن التاجر أو المرابي اليهودي كانا أداة في يد النخبة الحاكمة الإقطاعية. وبهذا، كان اليهود أقنان بلاط (مماليك تجارية) يُستخدَمون لامتصاص الثروة من المجتمع ولضرب الطبقات التجارية الصاعدة. وقد ظهر، بين اليهود، يهود البلاط، وهم من كبار المموِّلين الذين كانوا يقومون بإدارة الشئون المالية لبعض الإمارات الألمانية والدول الغربية في عصر الملكية المطلقة، ويساعدون حكامها على تأسيس صناعات جديدة وارتياد آفاق اقتصادية لم يرتدها أحد من قبل. ولكن الوضع لم يختلف كثيراً، إذ كان يهود البلاط مرتبطين ارتباطاً كاملاً بالنخبة الحاكمة، وظل نشاطهم الاقتصادي محصوراً بحدود الملكيات والإمارات المطلقة. كل هذا كان يعني أن أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية (أقنان بلاط أو يهود بلاط) كانوا خارج التشكيلات البورجوازية والرأسمالية الغربية الصاعدة التي يشير إليها ماكس فيبر باعتبارها «الرأسمالية الرشيدة». كما أن تبعيتهم هذه كانت تعني أن نشوء رأسمالية يهودية مستقلة مستحيل، إذ كان الحاكم يصادر أموالهم حينما يصلون إلى درجة عالية من الثراء كما حدث لكثير من يهود البلاط.

وهذا الوضع في حد ذاته لا يخلق مسألة يهودية، بل إن مثل هذه المسألة تبدأ في الظهور حينما تتناقص حاجة المجتمع إلى اليهودي كتاجر أو مراب أو مدير مالي، وذلك بعد أن تنشأ طبقات تجارية ومالية محلية أو بعد أن تضطلع الدولة نفسها بمثل هذه الوظائف. وهذه عملية تتطور بالتدريج إلى أن يستغني المجتمع عن الجماعات الوظيفية الوسيطة تماماً. وعند هذه النقطة، تُطرَح قضية مدى نفع اليهود ومدى إنتاجيتهم، وتُثار الأسئلة الخاصة بازدواج الولاء، بكون اليهود يشكلون دولة داخل الدولة. وبالتالي، فإن المسألة اليهودية (أي بداية الاستغناء عن الجماعات اليهودية) بدأت مع الثورة التجارية وظهور الدولة القومية المركزية (المطلقة ثم الليبرالية ثم الشمولية) التي قامت بتوحيد جميع مناحي الحياة ودمج المواطنين كافة، وطالبتهم بالولاء الكامل والانتماء غير المشروط لها، وحاولت أن تصهرهم جميعاً (وضمن ذلك أعضاء الأقليات) في بوتقة واحدة ينتظمها إطار واحد. وعلى هذا، أُعطيَ اليهود حقوقهم السياسية (أي تم إعتاقهم)، وفُتحت أمامهم مجالات الحراك الاجتماعي، وسُمح لهم بالعمل في جميع الوظائف وفي الخدمة العسكرية، وأُسقطت حوائط الجيتو. ولكنهم طُولبوا في المقابل بأن يتخلوا عن خصوصيتهم وانعزاليتهم، ومن ثَم تعيَّن عليهم ألا يستخدموا سوى لغة الوطن الأم وأن ينبذوا اليديشية، وبخاصة في المعاملات التجارية حتى لا يغشوا أحداً (مثلما حُرِّم على الصينيين استخدام الصينية في المعاملات التجارية في الفلبين)، كما طولبوا بتغيير أزيائهم وأسمائهم، بل وإدخال إصلاحات على عقيدتهم الدينية بحذف الجوانب القومية من عقيدتهم لتصفية أي اشتباه في ازدواج الولاء. كما أصبح مفروضاً على اليهود ألا يدرسوا التلمود إلا بعد سن معينة. وكانت الدولة تقوم بتدريب حاخامات في مدارس دينية يهودية تشرف عليها، كما كانت تتدخل في تعليم اليهود كلَّ شيء وضمن ذلك تعليمهم الدين، بل كانت تتدخل أحياناً في تحديد سن الزواج وعدد الأطفال المصرَّح بإنجابهم.

التحديث وظهور الرأسمالية الرشيدة والمسألة اليهودية

أدت عمليات التحديث وظهور الرأسمالية الرشيدة إلى تدهور وضع أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في الغرب بسبب فقدانهم دورهم، وهو ما يسمَّى «المسألة اليهودية». ولكن التحديث نفسه وكذا الرأسمالية الرشيدة هما اللذان أديا إلى حل المسألة. ويمكن تقسيم أوربا إلى ثلاث مناطق أساسية، وأساس التصنيف نمط التحديث السائد ومدى قوة أو ضعف الرأسمالية الرشيدة:

١ ـ غرب أوربا (إنجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها)، ثم الولايات المتحدة فيما بعد، وهي دول التحديث الحر: وهي مجتمعات حققت معدلات عالية من التقدم الاقتصادي في فترة مبكرة، وكان لها مشروع استعماري قوي ساهم في حل معظم مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية وحقق قدراً من الوفرة ساعد على خفض حدة الصراعات الطبقية والتوترات الاقتصادية الداخلية.

وقد قامت الطبقة البورجوازية بعملية التحول الاجتماعي في هذه البلاد وتبنَّت مُثُلاً ليبرالية منفتحة. وكانت الرؤية القومية التي سادت هذه المجتمعات هي الأخرى منفتحة، فكانت مسألة الانتماء للوطن مسألة غير عضوية أو عرْقية، وإنما مسألة انتماء قومي متاح لكل من وُلد داخل المجتمع ونَشأ على أرضه وكان على استعداد للاضطلاع بوظيفته وأداء واجبه. ولذا، لم تستبعد المُثُل القومية في هذه المجتمعات أعضاء الجماعات اليهودية، وإنما فتحت الأبواب والفرص أمامهم فحققوا الحراك الاجتماعي الذي يحتاجون إليه.

وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، لم تكن معظم هذه البلاد تضم جماعات يهودية كبيرة، إما لعدم وجود يهود فيها أصلاً أو لأنهم طُردوا منها في مرحلة سابقة. وحينما استوطن اليهود مرةً أخرى في هذه البلاد، ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادي أي مع بدايات التحديث، فإنهم استقروا في بلاد تحددت فيها الملامح الأساسية للاقتصاد التجاري الرأسمالي، وكانت تضم طبقة تجارية محلية قوية لا تخشى منافسة رأس المال اليهودي بل ترحب به لحاجتها إلى الاستثمارات في المشروعات الرأسمالية والاستعمارية المختلفة.

وكان اليهود الذين استقروا في هذه البلاد من أصل سفاردي ولديهم كثير من الكفاءات المطلوبة والاتصالات الدولية المهمة، كما كانوا متقدمين من الناحية الحضارية. ثم انضمت إليهم عناصر من الإشكناز شكلوا الأغلبية فيما بعد واستوعبوا كثيراً من عناصر الحضارة الغربية حولهم. ورغم أن العنصر الإشكنازي كان متمايزاً حضارياً ووظيفياً، إلا أن هذا التمايز تقوَّض بمرور الوقت من خلال معدلات التحديث السريعة وفتح باب الحراك الاجتماعي، وكذلك من خلال التقاليد السياسية الليبرالية السمحة. واستمرت عملية دمجهم في المجتمع حتى زال التمايز الوظيفي والاقتصادي تماماً، ثم تبعه التمايز السياسي والحضاري.

لم تكن عملية التحديث سهلة أو متيسرة في أول الأمر، بل كانت بعض الحكومات مثل فرنسا تضطر إلى استصدار قوانين خاصة لفرض التحديث على اليهود الإشكناز في الألزاس واللورين. كما حدثت بعض المشاكل والتراجعات والترديات مثل حادثة دريفوس (في فرنسا). ولعل ظهور الفكر العرْقي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وانتشاره فيها، شكل من أشكال التردي. وقد ظهرت بعض التوترات ذات الطابع العرْقي في إنجلترا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، وذلك بعد هجرة يهود شرق أوربا بأعداد متزايدة، كما ظهرت التوترات نفسها في الولايات المتحدة مع أزمتها الاقتصادية في الثلاثينيات. لكن مثل هذه المشاكل والتوترات لا تختلف كثيراً عن تلك التي تنشأ في أي مجتمع في فترات الأزمات الاقتصادية، بين أعضاء الأقليات فيها من جهة وبعض العناصر المتطرفة من أعضاء الأغلبية الذين يُضخِّمون خطر أعضاء الأقلية من جهة أخرى، وعادةً يتم التغلب عليها، كما حدث بالفعل في نهاية الأمر.

٢ ـ وسط أوربا (النمسا وألمانيا)، وهي دول التحديث المختلط والشمولي والتحديث تحت رعاية الدولة: وقد بدأ التحديث في هذه الدول وغيرها من دول وسط أوربا في وقت متأخر قليلاً، مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وتم تحت إشراف بعض العناصر التقليدية في المجتمع (الملك وبعض النبلاء) أو بإشراف الحكومة.

ولم يكن لهذه الدول مشروع استعماري قوي يساهم في تخفيف حدة التوترات الاجتماعية والاقتصادية، كما لم تَسُد المُثُل البورجوازية الليبرالية فيها، لأن الطبقة البورجوازية لم تكن قوية بما فيه الكفاية ولم تتول قيادة كل الطبقات، وقنعت في غالب الأمر بدور التابع. وعلى مستوى الرؤية القومية، ظهرت فكرة القومية العضوية (الجامعة الألمانية)، وفكرة الشعب العضوي، وهي التي حددت مسألة الانتماء القومي على أساس عضوي ثقافي ضيق، ثم حوَّلته في مرحلة لاحقة إلى مسألة انتماء عرْقي أو انتماء قومي ديني (القومية المسيحية). وهذا الأمر ينطبق على ألمانيا أكثر من انطباقه على الإمبراطورية النمساوية المجرية، التي كانت تشجع التعددية كما هو الحال مع الإمبراطوريات المتعددة القوميات. وإن كان هذا لم يمنع انتشار الرؤية الألمانية العضوية في النمسا التي كانت دائماً في محيط ألمانيا الثقافي.

ولم تكن هناك جماعة يهودية كبيرة في وسط أوربا. فيهود ألمانيا، على سبيل المثال، لم يزد عددهم على ١٪ من عدد السكان، ولذا، فإنهم لم يكونوا جماهيراً بمعنى الكلمة. وقد حققوا معدلات عالية من الاندماج في محيطهم الثقافي، فكانوا يتحدثون اللغة الألمانية ويتبعون أسلوب الحياة السائد في المجتمع، وازداد الزواج المُختلَط بينهم. إلا أن ثمة عناصر أخرى فصلتهم عن محيطهم الثقافي وخلقت لهم وضعاً خاصاً وأعاقت عملية التحديث، منها:

١ ـ أن الهجرة من شرق أوربا في منتصف القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠، وكانت هجرة داخلية أي من بلد أوربي إلى آخر، كانت تقذف بأعداد كبيرة من يهود اليديشية المتخلفين، المتمايزين حضاريا وطبقيا، إلى ألمانيا والنمسا. وحينما ضم هذان البلدان أجزاء من بولندا، ضما معها أعداداً كبيرة من يهود اليديشية، الذين هاجرت أعداد منهم إلى المدن الألمانية والنمساوية وبدأوا يصبغون الجماعات اليهودية فيها بصبغة يهودية فاقعة. وكان هؤلاء المهاجرون يُشكِّلون التربة الخصبة للأفكار الصهيونية، كما كانوا يفرضون على يهود هذه البلاد تبنِّي الصهيونية التوطينية حلاً لمشاكل اللاجئين. ولا يمكن فهم دعوة هرتزل للصهيونية، وهو اليهودي المندمج بل المنصهر، إلا بإدراك أنه كان مهدداً بفقدان موقعه الطبقي ومكانته الاجتماعية وانتمائه الحضاري بسبب وفود الآلاف من يهود اليديشية. وقد كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية في فيينا لا يزيد عن بضع مئات في

أواخر القرن الثامن عشر، ثم قفز عددهم إلى نحو ١٧٦ ألفاً مع بداية القرن العشرين.

٢ ـ ورغم أن يهود ألمانيا والنمسا كانوا مندمجين في محيطهم الثقافي، فإنهم كانوا يتميَّزون طبقيا ووظيفيا. فعدد كبير منهم، وبخاصة في ألمانيا، كان من العاملين بالتجارة وشئون المال وبنسبة تفوق نسبتهم إلى عدد السكان. وبعد تَصاعُد عملية التحديث في ألمانيا، وبخاصة بعد حرب عام ١٨٧٠ وضم الألزاس واللورين. ومع بدايات المشروع الاستعماري الألماني، ازداد المموِّلون من أعضاء الجماعة اليهودية نشاطاً، وازداد وجودهم وضوحاً حتى ارتبط اليهود في الوجدان الشعبي بالمشروع الحر والاستغلال الرأسمالي والمضاربات، هذا رغم وجود أعداد كبيرة من اليهود المتسولين والفقراء.

٣ ـ ارتبطت عناصر يهودية أخرى بالحركات الثورية، بحيث ارتبط اليهود في الوجدان البورجوازي في هذه الدول بالشيوعية والحركات الفوضوية والثورية، وزادت هذه العناصر تميُّز اليهود وعزلتهم عن كثير من الطبقات والقطاعات داخل المجتمع. وظل الجو في وسط أوربا مشحوناً بالكراهية العنصرية ضد أعضاء الجماعات اليهودية حتى الحرب العالمية الأولى، حين تحوَّلت النمسا إلى بلد صغير لا أهمية له، وتم تحطيم ألمانيا وإذلالها والقضاء على مشروعها الاستعماري، ثم تحويلها هي نفسها إلى شبه مستعمرة. وعندما عاودت ألمانيا التحديث، تم ذلك تحت مظلة الدولة وتحت لواء فلسفة شمولية ترفض كلاً من البلشفية والليبرالية، وتطرح رؤية عرْقية عضوية صارمة تُهمِّش مختلف أعضاء الجماعات الذين لا ينتمون انتماءً عضوياً كاملاً إلى الأغلبية، وبخاصة اليهود الذين تركَّزوا في اليمين واليسار.

٣ ـ شرق أوربا (أي روسيا وبولندا ورومانيا)، وهي الدول التي تعثَّر فيها التحديث وتوقف، ثم استؤنف على النمط الاشتراكي: وقد بُذلَت محاولات شتى في هذه البلاد لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج، وخُصِّصت الجوائز للحرفيين وأصحاب العمل الذين يُشغِّلون الصناع اليهود، وأرسل ألوف اليهود لاستصلاح الأراضي في بعض المناطق الروسية. وحاولت الحكومة إدخال التعليم العلماني بين اليهود ليكتسبوا خبرات تؤهلهم للتعامل مع البنيان الاقتصادي الجديد، واستمرت هذه المحاولات التي ساهم فيها أثرياء اليهود في الغرب حتى عام ١٨٨٠ تقريباً، ولذلك يُلاحَظ أن الهجرة اليهودية، حتى ذلك الوقت، كانت هجرة داخلية إلى المراكز الصناعية.

ومما ساعد على تخفيف حدة الانتقال إلى النمط الرأسمالي في الإنتاج، في مرحلة ما قبل عام ١٨٨٠، أن النمط الرأسمالي (في مراحله الأولى) كان يتم بأشكال بدائية، وهو ما أتاح لعدد من اليهود أن يجدوا مجالاً رحباً للعمل في التجارة (في المدن الصناعية الجديدة) وفي الحرف. وقد ظهرت حركة التنوير اليهودية تعبيراً عن تقبُّل اليهود واليهودية عملية التحديث.

ولكن محاولات تحديث اليهود تعثَّرت في شرق أوربا، وتفاقمت المسألة اليهودية لأسباب مركبة يرجع بعضها إلى طبيعة تركيب الدولة الروسية وطبيعة النظام الاجتماعي السائد فيها وفي دول شرق أوربا، والبعض الآخر يرجع إلى بعض السمات الخاصة بالجماعة اليهودية في روسيا وبولندا، ومن هذه الأسباب:

١ ـ بدأت عملية التحديث، في روسيا وبولندا، في مرحلة متأخرة جدا، إذ كان اقتصادهما، حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، اقتصاداً يشبه من الناحية الأساسية اقتصاد البلاد التي يُقال لها متخلفة. ولم يكن لبولندا أو رومانيا مشروعات استعمارية مستقلة، بل كانتا مستعمرتين من قبل روسيا والدولة العثمانية. أما روسيا، فكان لها مشروعها الاستعماري الجديد في آسيا على حدودها مع تركيا في منطقة البحر الأسود، وعلى حدودها مع بولندا وأوكرانيا وغيرهما، وعلى حدودها مع الصين واليابان. ولكن هذا المشروع بدأ متأخراً ولم يكن قد آتى أُكله بعد نظراً لحداثته ولقلة كفاءة البيروقراطية الروسية والافتقار إلى رأس المال الروسي الكافي للاستثمار فيه. بل يُقال إن المشروع الاستعماري لروسيا القيصرية كان يُشكِّل عبئاً على الخزانة الروسية، ولذا كان بعض المفكرين الروس يطالبون الدولة القيصرية بالانسحاب من مستعمراتها. ولهذا، لم يساهم المشروع الاستعماري الروسي في حل المشاكل الداخلية للدولة، بل لعله زادها تفاقماً.

٢ ـ لم تسُد المُثُل الليبرالية لا في المجال الاقتصادي ولا في المجال السياسي. ويعود هذا إلى عدة أسباب من بينها حجم الدولة الروسية الضخم، وهذه إحدى سمات التشكيل الحضاري المتعدِّد القوميات المترامي الأطراف الذي تلعب الدولة فيه دائماً دوراً مركزيا في عمليات النهضة كما تُشكِّل عنصر التوحيد الأساسي. ومن ناحية أخرى، فإن البورجوازية الروسية كانت ضعيفة هزيلة إلى أقصى حد، ولذا فإن عملية التحديث تمت بقيادة الحكومة الأرستقراطية الروسية الملتصقة بالكنيسة. كما أن القومية البولندية كانت دائماً ملتصقة بالكنيسة الكاثوليكية. وقد سادت مُثُل قومية عضوية منغلقة تجعل الانتماء مسألة ثقافية عضوية أو مسألة عرْقية أو دينية.

٣ ـ لم تكن عـمليـة الدمج في دول شـرق أوربا تتم داخل إطار حضاري منفتح يفترض المساواة بين الأفراد ويُظهر الاحترام للتراث الحضاري لكل الأقليات، وإنما كان ثمة افتراض بأن حضارة الأغلبية المسيحية أكثر أهمية، وأنَّ من واجب اليهود اللحاق بركب هذه الحضارة.

٤ ـ لم تكن عملية الدمج والتحديث والإعتاق تتم عن طريق الإقناع أو عن طريق إظهار النتائج الإيجابية والمكاسب التي قد تحرزها الجماهير اليهودية، وإنما كانت هذه العملية تتم عن طريق الإرهاب والقسر، الأمر الذي كان يثير مخاوف الجماهير اليهودية فتندفع عائدة إلى الجيتو (الفعلي والنفسي) حيث الأمن والطمأنينة.

٥ ـ ونظراً لتميُّز الوضع الطبقي لأعضاء الجماعات اليهودية وارتباطهم بالطبقات الحاكمة وبالنظام الإقطاعي داخل نظام الإقطاع الاستيطاني والأرندا، كانت الحركات القومية والثورية الصاعدة تناصبهم العداء ولا تحاول تجنيدهم في صفوفها (إلا في حالات نادرة)، إذ كان اليهود يُعَدُّون من الغرباء والأعداء. وبعد الحرب العالمية الأولى، استُؤنف التحديث في روسيا. أما بولندا وغيرها من دول شرق أوربا، فخرجت من الحرب بعد أن عانت من دمار رؤوس الأموال والممتلكات والحياة. وقد ضعفت السوق المحلية تماماً، وحلّت محلها وحدات اقتصادية صغيرة متنافسة. وقد تدخلت حكومات هذه الدول، وكانت دولاً مركزية حديثة، فقامت بالدفاع عن مصالحها ومصالح طبقاتها الوسطى على حساب الأقليات التي تعيش داخل حدودها. ومما زاد التناقض تفاقماً أن انخفاض مستوى المعيشة كان يعني، أحياناً، ارتفاع مستوى معيشة أعضاء الجماعة اليهودية نظراً لاشتغالهم بالتجارة ولوجود كفاءات لديهم لم تكن متوافرة لبقية أعضاء المجتمع. كما أن تحويلات المهاجرين اليهود، من الخارج (الولايات المتحدة وغيرها من الدول) إلى ذويهم، ساهمت في هذا الإنعاش أيضاً. كل هذه العناصر ساهمت في عزل أعضاء الجماعات اليهودية عن بقية المجتمع وعمَّقت وضعهم كغرباء، وهذا ما جعل الدول لا تكترث بدمجهم وتحديثهم، بل تبذل قصارى جهدها أحياناً لطردهم. ومن هنا، فقد تبنَّت الحكومات الرجعية في هذه الدول سياسة صهيونية تجاه المسألة اليهودية.

٦ ـ ومما ساعد أيضاً على تعثُّر عملية تحديث اليهود أن مجتمعات شرق أوربا كانت تخوض تحولات اقتصادية وسياسية عميقة بسبب سرعة معدل النمو الاقتصادي والحضاري في هذه المجتمعات، فهي مجتمعات لم تكن تمارس عملية النمو على النمط الأوربي الغربي البطيء الذي استغرق مئات السنين، وإنما كانت مجتمعات تنمو على نمط العالم الثالث، حيث تحاول الدولة القومية الجديدة أن تقوم بالثورة التجارية والقومية والاجتماعية والصناعية في وقت واحد، رغم ما قد يكون بين هذه الثورات من تناقض في الأهداف والوسائل في بعض الأحيان. كما أن معدلات النمو السريع لا تسمح بتاتاً بالعمل البطيء أو الخطأ المحتمل ومحاولة علاجه، بل تتطلب تحديد الأهداف والاندفاع نحوها. كما أن عملية التحول البطيئة تسمح لأعضاء الأقليات بأن يكتسبوا الخبرات المطلوبة للعمل في الاقتصاد الجديد، وأن يكتسبوا الهوية الجديدة الملائمة للمجتمع الجديد. ففي روسيا مثلاً، كانت المراحل الأولى للانتقال إلى الرأسمالية بطيئة نوعاً، كما أسلفنا، ولم تكن حركة شاملة بعد. غير أن النمو الرأسمالي لم يتوقف عند هذه المرحلة، بل اتسعت رقعة الصناعة لتشمل الصناعة الخفيفة أيضاً، فكان ذلك ضربات قاضية دمرت الاقتصاد الإقطاعي ودمرت معه الفروع الرأسمالية الحرفية، حيث كان اليهود يتركَّزون بنسبة مرتفعة. وهكذا، تشابكت عملية تحويل التاجر اليهودي لما قبل الرأسمالية إلى عامل حرفي أو تاجر رأسمالي مع عملية أخرى هي القضاء على العمل الحرفي اليهودي. ولكن الحرفي اليهودي لم يتمكَّن من التحول إلى عامل بسبب منافسة الفلاحين الروس المقتلَعين من مزارعهم ذات المستوى المعيشي المنخفض.

٧ ـ ومما زاد الأمور تشابكاً وتعقُّداً أن الحرفي اليهودي كان يعمل في كثير من الأحيان فيما يمكن تسميَته «الحرف اليهودية» التي وُلدت في الظروف الخاصة بالشتتل والجيتو اليهودي. فلم يكن الحرفي اليهودي يعمل من أجل الفلاحين المنتجين، بل كان يعمل من أجل التجار والصيارفة والوسطاء، ولذلك نجد أن إنتاج السلع الاستهلاكية الشاغل الرئيسي للحرفي اليهودي، ذلك لأن زبائنه يتألَّفون من رجال متخصصين في تجارة الأموال والبضائع وغير منتجين أساساً. أما الحرفي غير اليهودي، فإن ارتباطه بالاقتصاد الزراعي جعله لا يُنتج سلعاً استهلاكية، لأن الفلاح يكفي نفسه بنفسه. وهكذا، كان الحرفي غير اليهودي (الحدّاد) يوجد إلى جانب الفلاح، وإلى جانب رجل المال اليهودي كان يوجد الحرفي اليهودي (الخياط). وقد ساعد على تطوُّر الحرفي المسيحي ارتباطه بالتاجر المسيحي الذي كان يُوظِّف أمواله في حرف متخصصة غير مرتبطة بالنظام الإقطاعي (مثل نسج الأصواف)، وهي حرف كان الغرض منها الإنتاج للتصدير وليس للاستهلاك المباشر، أي أنها تقع خارج نطاق النظام الإقطاعي وتُمثِّل نواة الاقتصاد الجديد، وبالتالي فهي لم تسقط مع الاقتصاد القديم.

وانعكس هذا الوضع على الطبقة العاملة اليهودية، فكانت الحرف الأقل قابلية للتطور إلى صناعة محصورةً في أيدي الحرفيين اليهود، على حين انحصرت المهن الأكثر قابلية لهذا التطور في أيدي الحرفيين غير اليهود. فمثلاً نجد أن ٩٩٪ من صانعي الأقفال كانوا من غير اليهود، في حين كان ٩٤٪ من الخياطين من اليهود. ويُلاحَظ أن أول الكوادر العمالية التي وُجدَت في صناعات التعدين والنسج تشكَّلت بصورة مطلقة من غير اليهود.

٨ ـ وثمة عناصر أخرى زادت حدة المسألة اليهودية في أوربا الشرقية، من أهمها أن الأغلبية العظمى من يهود أوربا ويهود العالم كانت موجودة في بولندا وأوكرانيا التي كانت تتبعها. وقد تم تقسيم بولندا عدة مرات، وتم تقسيم أعضاء الجماعة اليهودية فيها بين عدة دول، لكل منها لغتها وسياستها وتوجُّهها الحضاري. فضمت روسيا الجزء الأكبر من الجماعة اليهودية وحاولت ترويس اليهود، أي صبغهم بالصبغة الروسية. وضمت ألمانيا جزءاً آخر، واعتبرت اليهود مواطنين ألمانيين نتيجة أنهم كانوا يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية)، وذلك حتى تضرب بهم السكان السلاف. وضُمَّت جاليشيا إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية التي حاولت أن تفرض عليها الولاء والانتماء إليها. أما بولندا، فكانت تطالب من تبقَّى من اليهود فيها بأن يصبغوا أنفسهم بصبغة بولندية. وقد تضاعف عدد يهود رومانيا بعد أن ضمت مقاطعات كانت توجد فيها نسبة عالية من اليهود. وكانت هذه التقسيمات تتم بسرعة وتتضمن تحولات حضارية جوهرية وعميقة دون أن تكون هناك الفسحة الزمنية اللازمة لإنجاز التحول المطلوب.

ويُلاحَظ أنه أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، وقبل قيام الثورة البلشفية، كانت الحدود الجغرافية في المنطقة الحدودية التي يقطنها اليهود في حالة سيولة كبيرة، إذ أصبحت جاليشيا وبكوفينا وبولندا الروسية وليتوانيا مسرحاً للعمليات العسكرية تتحرك فيها الجيوش الألمانية والروسية. وقامت القوات الألمانية في بولندا بمحاولة تجنيد اليهود باعتبارهم عنصراً ألمانياً، وأصدرت القيادة العسكرية الألمانية منشورات بالعبرية واليديشية إلى "إخواننا اليهود". وقام الروس البلاشفة أيضاً بطرح أنفسهم باعتبارهم محرِّري اليهود وكل الأقليات. ومن ثَمَّ طالبوا أعضاء الجماعة اليهودية بمساندتهم والتحالف معهم. وقد انتهزت العناصر الأوكرانية هذه الفرصة وهاجمت العناصر اليهودية المحلية. وتسبَّب ذلك في إخفاق أعضاء الجماعة في تحديد ولائهم وفي تحديث أنفسهم كما هو مطلوب منهم، وكما حدث فعلاً بين بني ملَّتهم في غرب أوربا.

وبعد هذا الحديث العام والشامل عن مسألة يهود شرق أوربا من ناحية العناصر المشتركة، يمكننا أن نقلِّل مستوى التعميم قليلاً ونركِّز على روسيا. ونحن في واقع الأمر، حين نتحدث عن يهود شرق أوربا أو يهود اليديشية، نتحدث عن روسيا التي ضمت بولندا مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي فظلت تابعة لها حتى الحرب العالمية الأولى. وبالتالي، فإن روسيا كانت تضم داخل حدودها الأغلبية الساحقة من يهود اليديشية، أي معظم يهود العالم. ومن أهم الأسباب التي ساهمت في عرقلة عملية تحديث أعضاء الجماعة اليهودية في الإمبراطورية القيصرية ما يلي:

١ ـ كان يهود بولندا يلعبون دوراً تجاريا محدداً ونشطاً في بولندا بسبب إحجام الأرستقراطية البولندية عن العمل في التجارة. وكان النبيل الإقطاعي يفقد منزلته الطبقية إن عمل في التجارة، وهو ما ترك المجال مفتوحاً أمام اليهود. وحينما ضُمَّت أعداد كبيرة منهم إلى روسيا، وجدوا أنفسهم داخل تشكيل حضاري جديد توجد داخله طبقات تجارية كبيرة ونشطة، خصوصاً وأن النبلاء الروس لم يكن مُحرَّماً عليهم الاشتغال في التجارة. وشهدت الصناعة والتجارة الروسيتان حركة انتعاش عام ١٨٠٧، بعد أن فرض نابليون على روسيا مقاطعة إنجلترا تجاريا، وكانت روسيا في واقع الأمر مستعمرة لإنجلترا من الناحية التجارية. وأدَّى نهوض الحركة التجارية في روسيا إلى ضعف نشاط التجار اليهود.

٢ ـ لم يكن في روسيا جماعات يهودية تُذكَر حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، بل كان محظوراً على اليهود دخول روسيا. وإن تم التصريح لهم بالدخول، كان عليهم مغادرتها في الحال. ولما ضمَّت روسيا أجزاءً من بولندا، وضمَّت معها أعداداً كبيرة من اليهود، وجدت روسيا نفسها تضم أكبر تجمُّع يهودي في العالم له صفاته الحضارية المميزة ولغته الغريبة وعقيدته أو عقائده الفريدة التي يدين بها. ولم يكن لدى البيروقراطية الروسية أية معرفة باليهود أو لغتهم أو مشاكلهم.

٣ ـ كانت روسيا دولة تحكمها ملكية مطلقة، ولذا فإن مؤسسات الحكم فيها لم تكن مؤسسات حديثة قادرة على مساعدة الأقليات على الانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى. بل ربما كان الوضع في روسيا أكثر سوءاً من غيرها من الدول لضخامتها وفساد موظفيها الذين كانوا في العادة مرتشين لا يؤمنون بأهمية العمل الذي يقومون به ولا يدركون أبعاده التاريخية والاجتماعية. وحتى حينما كانت تتوافر النية الصادقة، لم تكن هذه البيروقراطية تمتلك الأدوات

اللازمة لترجمة الأفكار الإصلاحية إلى واقع اجتماعي جديد. ولذا، فإن اليهود، الذين كانوا راغبين بإخلاص في أن يخضعوا لعملية التحديث، وجدوا أنفسهم مواجَهين بمؤسسات هزيلة ليس لديها الإمكانات المطلوبة. ويمكن أن نضرب مثلاً بمحاولة بعض أعضاء الجماعة اليهودية الاستجابة لمحاولات تحديثهم عن طريق العمل بالزراعة (ليخرجوا بذلك من مسام المجتمع الإقطاعي ويدخلوا في قطاع المهن المنتجة)؛ غير أن هذه المحاولة ارتطمت ابتداءً بحقيقة أن الجماعة اليهودية كانت من الجماعات القومية الروسية التي ليس لها أرض. وتم التغلب على هذه العقبة بأن خصصت الدولة القيصرية مساحات من الأرض لتوطينهم. ولكن، لم تكن هناك خطة واضحة للتوطين، فحين تقدمت عدة أسر يهودية عام ١٨٠٦ إلى حاكم مقاطعة موخيليف لتوطينها في إحدى المناطق المخصصة لهم، لم يتم ذلك إلا بعد مفاوضات طويلة، فاتفق وزير الداخلية مع حاكم الولاية على أن يخصص لهم ستين ألف إيكر (يعادل الإيكر نحو أربعة آلاف متر مربع) من أراضي الإستبس على ضفاف أحد الأنهار. وبعد معاينة الموقع، تقدَّمت نحو ٧٧٩ أسرة يهودية للاستيطان هناك. ولكن الحكومة لم تقدِّم لهم سوى مساعدات مالية ضئيلة جداً أنفقها المستوطنون الجدد وهم بعد في الطريق. وعند وصولهم إلى المكان المحدد لهم، وجدوا أن السلطات لم تكن على استعداد لاستقبالهم، وفتكت بهم الأمراض. ومع هذا، استمر تدفُّق اليهود إلى أن أُلغي مشروع التوطين عام ١٨١٠.

٤ ـ ارتطمت محاولة تحويل اليهود إلى مزارعين بحركة إعتاق أخرى هي حركة تحرير الأقنان عام ١٨٦٠، وهذه الحركة الأخيرة ضيَّقت الرقعة الزراعية التي يمكن توطين اليهود فيها. وكما بيَّنا من قبل، كان تحرير الأقنان واليهود وأعضاء الأقليات الأخرى جزءاً من حركة واحدة تهدف إلى بناء الدولة المركزية القومية الحديثة في روسيا.

٥ ـ وكانت الكتلة البشرية اليهودية في تلك المنطقة (روسيا وبولندا) تُشكِّل معظم يهود العالم، وهي كتلة منعزلة إلى حدٍّ كبير عن محيطها السلافي على المستوى الحضاري والديني والوظيفي، يتحدث أعضاؤها اليديشية ويرتدون أزياء مغايرة لتلك السائدة في المجتمع، ويطلقون لحاهم وسوالفهم بطريقة غريبة. وقد كانت تهيمن عليهم قيادات أرثوذكسية وحسيدية تقليدية لم تدرك الانقلابات الحضارية الاقتصادية التي كانت تحدث في أوربا آنذاك. وكانت أغلبية يهود شرق أوربا من أتباع الحسيدية، كما أن اليهودية نفسها (كنسق ديني) كانت قد وصلت إلى مرحلة من التحجر والتخلف بعد جفاف الفكر التلمودي وهيمنة الحسيدية والقبَّالاه، بحيث أصبح من العسير عليها التأقلم مع الوضع الجديد. ولذا، قوبلت محاولات التحديث في أغلب الأحيان بمعارضة حادَّة من قبل الجماهير اليهودية التي كانت تشعر بأن عملية التحديث هذه ستفقدها مهاراتها وقناعتها التقليدية وتدخلها عالماً غريباً عليها. كما أن هذه الجماهير كانت تشعر بأن دعاة الاندماج والتحديث ليسوا إلا نخبة مستفيدة لديها ـ وحدها ـ الكفاءات اللازمة لدخول هذا العالم الجديد الغريب. وإلى جانب كل هذا، لم يكن يهود شرق أوربا، رغم عزلتهم وتميُّزهم، يشكِّلون وحدة على نحو ما كانوا حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فقد تهدَّم نظام الشتتل تماماً، وانتشرت العلمانية في صفوفهم، وانصرف كثير من الشباب عن العقيدة اليهودية، بل سلكوا درب الجماعات الثورية.

٦ ـ وكان من الممكن أن تخف حدة المشكلة عن طريق الهجرة من روسيا وبولندا ورومانيا إلى الولايات المتحدة. وبالفعل، راحت جماهير اليهود غير القادرة على التأقلم تهاجر بالمئات ثم بالآلاف ثم بمئات الآلاف، حتى بلغ عدد من هاجر من يهود اليديشية عدة ملايين. ولكن، لم ينتج عن هذه الهجرة تخفيف حدة الموقف، فنسبة تزايُد اليهود كانت مرتفعة جداً، شأنها في هذا شأن نسبة تزايُد سكان أوربا بعد الثورة الصناعية. وعلى سبيل المثال، تضاعف يهود جاليشيا على مدى خمسين عاماً. أما في روسيا، فرغم معدلات الهجرة العالية إلى الولايات المتحدة، ورغم اندماج أعداد لا بأس بها، فإن معدل تزايُد السكان اليهود كان يفوق معدل الهجرة والاندماج ويفوق معدل الزيادة بين الروس أنفسهم. فقد كان عدد اليهود عام ١٨٥٠ نحو ٢,٣٥٠,٠٠٠، ولكنه تضاعف خلال خمسين عاماً ليصبح ٥,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٨٩٥. ومن المعروف أن عدد سكان كيشينيف كان قد زاد من عشرة آلاف إلى ثمانية عشر ألفاً في عشرين عاماً، قبل وقوع المذبحة التي كثيراً ما تُذكَر في الأدبيات الصهيونية. ويذكر أبراهام ليون أن عدد اليهود تضاعف خمس مرات بين عامي ١٨٢٥ و١٩٢٥، فتكون نسبة الزيادة أكثر مرة ونصف المرة قياساً إلى نسبة الزيادة بين شعوب أوربا.

وقد أدَّى كل هذا إلى تعثُّر عملية التحديث عدة سنوات، ثم إلى توقفها شبه الكامل مع بداية القرن العشرين. وأدَّى هذا، بالتالي، إلى تصعيد حدة الصراع الطبقي والثورات الاجتماعية الحادة التي انتهت بالثورة البلشفية. وتمثَّل هذا التعثر في صدور قوانين مايو عام ١٨٨١ التي حرَّمت على أعضاء الجماعة اليهودية الانتقال خارج منطقة الاستيطان اليهودية في روسيا، وفي المذابح المتكررة التي وقعت في ذلك الوقت. ويمكن التأريخ لظهور الحركة الصهيونية بين

اليهود بهذا التاريخ. ففي هذه الفترة طُرح بين أعضاء الجماعات اليهودية بشكل جدي الحل الصهيوني للمسألة اليهودية، وهو الحل الذي يرى ضرورة إقامة الدولة الصهيونية في فلسطين ليهاجر إليها اليهود. وقد تحالفت العناصر الصهيونية، متمثلة في الصهيونية التوطينية في الغرب، مع الصهيونية الاستيطانية في شرق أوربا، ومع بعض القطاعات الدينية التي اكتشفت خطر سقوط الجيتو على اليهودية كما عرفوها وخبروها. والحل الصهيوني لمسألة يهود شرق أوربا هو، في جوهره، الحل الاستعماري الذي يتلخص في تصدير المشاكل إلى الشرق، سواء أكانت هذه المشاكل متمثلة في الفائض السلعي أم كانت متمثلة في الفائض البشري الذي كان اليهود يشكِّلون نسبة كبيرة منه. وفي هذه الحالة، تم ربط المسألة اليهودية بالمسألة الشرقية (أي تقسيم الدولة العثمانية)، فيتم حل المسألة اليهودية (فائض يهودي لا نفع فيه) بتصديره إلى الشرق وتوطينه في فلسطين، ويقوم المستوطنون هناك بتأسيس قاعدة للاستعمار الغربي تحمي مصالحه. وهكذا، ينجح الغرب في التخلص من فائضه البشري ويوظفه في خدمته. أما الفائض اليهودي نفسه، فينجح بذلك في تحقيق الانتماء إلى الغرب خارج أوربا ولكن من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي، وذلك بعد أن فشل في تحقيق هذا الانتماء داخلها من خلال التشكيل الحضاري والقومي الغربي. وقد طُرحت تصورات لحل المسألة اليهودية من بينها الاندماج وقومية الدياسبورا.

وقد قُدِّر للمسألة اليهودية أن تُحَلّ، ولكن الصهيونية لم تكن المسئولة عن ذلك في واقع الأمر. بل إن ظهور الصهيونية يعوق إتمام هذه العملية التي ستؤدي في نهاية الأمر إلى تحوُّل اليهودية إلى انتماء ديني وحسب، وإلى سقوط الأوهام الدينية القومية التي أفرزها وضع الجماعات اليهودية المتميِّزة كجماعة وظيفية وسيطة. وقد اندمج يهود غرب أوربا في مجتمعاتهم، وازداد هذا الاندماج بعد انحسار موجة هجرة يهود اليديشية. وفي ألمانيا، حُلَّت المسألة نتيجة ظروفها الخاصة بالطريقة النازية، أي بالإبادة، وذلك بعد فشل محاولات التهجير القسري لليهود. أما في الولايات المتحدة، ورغم أن الجذور الجيتوية اليديشية (الشرق أوربية) لا يزال لها أثر في التكوين الاقتصادي والنفسي للجماعة اليهودية، مثل تركُّزهم في أحياء خاصة بهم وزيادة عددهم في الصناعات الاستهلاكية والمهن الحرة، إلا أن أعضاء الجماعة اليهودية على وجه العموم حققوا الاندماج الاقتصادي والحضاري شبه الكامل. ومن ثَمَّ، فإن الهجرة من صفوف يهود أمريكا إلى إسرائيل تكاد تنعدم. وقد حلَّت الثورة البلشفية المسألة اليهودية في روسيا، ثم في بولندا، بتحقيق المساواة بين الأقليات الدينية والعرْقية كافة.

ومن الضروري، ونحن ندرس المسألة اليهودية، أن نميِّز بينها وبين المسألة الإسرائيلية. فالمسألة اليهودية مشكلة يهود أوربا، وبخاصة يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. أما المسألة الإسرائيلية، فهي مشكلة التجمُّع الاستيطاني الصهيوني، خصوصاً جيل الصابرا الذي وُلد على أرض فلسطين، ونشأ فيها، ولا يعرف لنفسه وطناً آخر. وقد تشابكت المسألتان، ولكن يظل لكل مسألة حركياتها وآلياتها ومسرحها التاريخي والجغرافي المختلف.

٤ ـ الإعتاق والاستنارة

الإعتاق

كلمة «إمانسيبيشن emancipation» الإنجليزية يمكن أن تُترجَم إما بكلمة «عتق» أو «إعتاق» ونستعمل في هذه الموسوعة مصطلح «إعتاق» كما في عبارة "إعتاق الأقنان في روسيا القيصرية" على أساس أن عملية تحرير اليهود تمت، لا بمبادرة من أعضاء الجماعات اليهودية، وإنما نتيجة حركيات اجتماعية وسياسية عامة داخل المجتمعات الغربية، كما أن التحرر والتحديث كانا يُفرَضان في كثير من الأحيان فرضاً على أعضاء الجماعات اليهودية، وبخاصة في شرق أوربا. ولفظة «الإعتاق» من الفعل المتعدي «أعتق» الذي يفيد وقوع الفعل على العبد (مثلاً).

وحركة الإعتاق ثمرة تطبيق قيم حركة الاستنارة الأوربية ومُثُلها على أعضاء الجماعات اليهودية كالتسامح، والمساواة بين البشر، والإيمان بأن الإنسان نتاج بيئته وليس مولوداً بكل صفاته، والإيمان بأن العقل المصدر الأساسي وربما الوحيد للمعرفة.

وحركة الإعتاق هي في جوهرها حركة تحديث للمجتمع ككل، وضمن ذلك أقلياته. لكن إعتاق اليهود لم يكن شيئاً فريداً نادراً أو مقصوراً عليهم وإنما كان جزءاً من حركة عامة في أوربا في القرن التاسع عشر الميلادي وتضم أقليات وفئات أخرى كثيرة: الزنوج، والنساء، والأقنان، والكاثوليك في البلاد البروتستانتية، والبروتستانت في البلاد الكاثوليكية. وقد حصل أعضاء هذه الأقليات على حقوقهم كاملة كمواطنين. ولكن الدولة القومية العلمانية الحديثة التي حولَّت نفسها إلى المطلق الأوحد، وفصلت نفسها عن الدين، وعن القيم المطلقة بشكل عام، منحتهم هذه

الحقوق، ثم طلبت إليهم أن يقوموا بدورهم بفصل حياتهم داخل الدولة (كمواطنين) عن انتماءاتهم الدينية، أو عن أية انتماءات قد تتعارض مع الانتماء القومي. أما اليهود، فكان عليهم أن يتخلوا عن خصوصيتهم الإثنية الدينية وانعزاليتهم التقليدية وعن ولائهم الغامض إلى أرض الميعاد البعيدة مقابل أن يصبحوا مواطنين لهم كل الحقوق.

وحركة الإعتاق ذات شقين: شق سياسي يتمثل في إعطاء اليهود حقوقهم السياسية والمدنية، وشق اجتماعي هو إعطاء اليهود حقوقهم الاقتصادية وإتاحة فرص العمل والحراك الاجتماعي أمامهم. وثمة شق ثقافي مرتبط بالشقين السابقين.

وقد تمثَّل الإعتاق السياسي والمدني في هدم أسوار الجيتو وإسقاط كثير من مؤسسات الإدارة الذاتية، مثل القهال، وحصول اليهود على المساواة السياسية.

وفيما يلي نورد بعض التواريخ المهمة الخاصة بمنح اليهود حقوقهم، مع ملاحظة أن كل هذه القوانين والإعلانات الدستورية والتصرفات صدرت في أقل من مائة وخمسين عاماً، وهي فترة قصيرة جدا حتى لو نُظر إليها من وجهة نظر الفرد اليهودي وليس فقط من وجهة نظر التاريخ الإنساني أو تواريخ الجماعات اليهودية في العالم:

١٧٨٧ يصدر الإمبراطور جوزيف الثاني (النمسا) براءة التسامح.

١٧٨٨ يعلن دستور الولايات المتحدة أنه لن يطالب أي مواطن يبحث عن عمل... أن يدخل امتحاناً دينيا.

١٧٨٩ ينص إعلان حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا على أن: "الناس يولدون ويظلون أحراراً متساوين في الحقوق".

١٧٩١ يمنح المجلس الوطني الفرنسي اليهود الجنسية الفرنسية والحقوق المدنية الكاملة وجيوش نابليون تحمل لواء الإعتاق أينما ذهبت.

١٧٩٥ يحصل اليهود في هولندا على حقوق متساوية، ثم يتم انتخاب أول رئيس يهودي للبرلمان عام ١٧٩٨.

١٧٩٧ إلغاء الجيتو في إيطاليا.

١٨١٢ يعلن فريدريك وليم الثاني، ملك بروسيا، أن اليهود مواطنون بروسيون.

١٨٣٩ إعلان المساواة في الحقوق في كندا.

١٨٤٨ يعلن المجلس الوطني الألماني في فرانكفورت أن "الولاء الديني للإنسان لن يُقرِّر أو يُحدِّد حقوقه الوطنية أو السياسية". وهذا المبدأ ظل النموذج الذي يُحتذَى في كل الدساتير التي أصدرتها الدويلات الألمانية إلى أن صدر دستور ألمانيا الموحَّد.

١٨٦٧ إجراء تعديلات دستورية في الإمبراطورية النمساوية المجرية لإعطاء اليهود حقوقهم.

١٨٧٠ سقوط روما في أيدي القوات الاتحادية التي قررت على الفور منح الحقوق السياسية لكل اليهود في إيطاليا.

١٨٧١ يلغي الدستور الإمبراطوري الألماني سائر القواعد والقوانين المبنية على أسس دينية.

١٨٧٤ يمنح الدستور السويسري الحرية الدينية للكافة.

١٨٨٧ تلغي معاهدة برلين كل القوانين التي تحدّ من حرية اليهود في رومانيا وبلغاريا.

١٩١٧ سقوط القيصرية في روسيا وإلغاء الامتيازات والقيود الدينية والقومية كافة.

١٩٣٦ يعلن دستور الاتحاد السوفيتي أن "المناداة بالعزلة أو الكراهية العنصرية أو القومية جريمة يعاقب عليها القانون".

وقد نتج عن حركة الإعتاق ظهور طبقة وسطى بين اليهود. ولكن، لم يَعُد ليهود الجيتو، بخبراتهم الخاصة، مجال في المجتمعات الجديدة، ولذلك ازداد معدل الهجرة. وقامت في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية محاولات مماثلة لدمج اليهود، وتحديثهم، والقضاء على هامشيتهم الثقافية والإنتاجية، وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج في المجتمع الجديد، وهو ما كان يُطلَق عليه «إنتاجية اليهود». وقد أصدرت الحكومات أيضاً التشريعات التي تُلزم أعضاء الجماعات اليهودية بتغيير أسلوب حياتهم حتى يندمجوا في المجتمع. ومما يجدر ذكره أن عملية الإعتاق كانت تتم أساساً في أوربا. أما في العالم الجديد، فلم تكن ثمة حاجة إلى ذلك إذ لم تكن هناك قيود تُذكَر على أعضاء الجماعة اليهودية. وكان الإعتاق يتم بالنسبة إلى اليهود الإشكناز المتميِّزون اقتصادياً وثقافياً عن المجتمعات التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها. أما السفارد، فكان عدد كبير منهم يتمتع بمعظم الحقوق السياسية.

وقد ترك الإعتاق أثراً عميقاً في اليهودية، فأُعيد بعث القاعدة التلمودية التي تقضي بأن "شريعة الدولة هي الشريعة". وكانت هذه القاعدة تشير فيما قبل إلى القوانين المدنية فحسب، ولكن نطاقها أخذ يتسع بحيث أصبحت تنطبق على جميع القوانين التي من شأنها عَزْل اليهود، مثل قوانين الطعام. وقد تعثرت حركة إعتاق أعضاء الجماعات اليهودية، فحدثت انتكاسات وانتفاضات ضد اليهود، وبخاصة في ألمانيا ودول شرق أوربا. وكان وضع اليهود مرتبطاً بالحركة السياسية والاجتماعية في المجتمع ككل. فإذا كان المناخ

السياسي السائد مناسباً لانتشار قيم الحرية وتطبيقها، سار الإعتاق إلى الأمام. أما إذا انتكست قضية حقوق الفرد، فإن حقوق اليهود كانت تنتكس معها. وبعد هزيمة نابليون، تراجعت عملية الإعتاق بالنسبة إلى شعوب أوربا، وبالنسبة إلى كل الأقليات وضمنها الجماعات اليهودية. أما أثناء ثورة ١٨٤٨، فقد حقق اليهود تقدماً ملحوظاً ومهماً. ولذا، فمع سيادة التفكير الرجعي والعنصري والإمبريالي في أوربا، في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، ومع تعثُّر التحديث في شرق أوربا، تراجعت عملية الإعتاق بين شعوب أوربا وحلت محلها فكرة التفاوت بين الشعوب.

ومما ساهم في تعثُّر حركة الإعتاق أنها لم تكن ثمرة جهود أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب، كما أنها لم تنبع من تجربتهم الحضارية وإنما جاءت نتيجة التطور الخارجي للمجتمع بمبادرة من العالم غير اليهودي. ولم يكن أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا (أي يهود اليديشية) مهيئين نفسيا أو حضاريا لتقبُّل الوضع الجديد، وهو ما جعل عملية دمجهم عسيرة. لكل هذا، أدَّت عملية الإعتاق إلى ظهور بعض المشاكل والأزمات ليهود أوربا. فعلى سبيل المثال، أدَّت حركة الإعتاق إلى ظهور أزمة هوية بين اليهود، إذ كان عليهم إعادة تعريف أنفسهم كجماعة دينية وحسب، وهو ما أثار وبحدة قضية الشعائر والمفاهيم اليهودية التي سُمِّيت «قومية» مثل الرغبة في العودة إلى صهيون أو الحديث عن الشعب اليهودي. وتُعَدُّ الفرق اليهودية الحديثة المختلفة، مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية، محاولة للإجابة عن مشكلة الهوية هذه. كما أن عملية الإعتاق التي تمت بمبادرة العالم غير اليهودي كانت كثيراً ما تدفع بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى التشبه بأعضاء الأغلبية وبأسلوب حياتهم وتبنِّي سائر الأشكال الدينية والحضارية السائدة في المجتمع بشكل متطرف، الأمر الذي نجم عنه انصهار أعداد كبيرة من اليهود في المجتمع الأم وتفسُّخ أعداد أخرى منهم أخلاقياً بسبب فقدان الهوية. وقد حدث العكس أيضاً إذ رفض بعض أعضاء الجماعات اليهودية حركة الإعتاق وآثروا الانسحاب إلى الماضي.

وتحت تأثير الفكر العنصري والإمبريالي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وفشل بعض قطاعات اليهود في تحقيق الحراك الاجتماعي الذي كانت تطمح إليه، وبخاصة بسبب تعثُّر التحديث في روسيا وبولندا، ظهرت المُثُل الصهيونية بديلاً لفكرة الإعتاق والاندماج.

وتحمل كلمة «إعتاق»، وكذلك كلمة «انعتاق»، إيحاءات سلبية في الأدبيات الصهيونية. وتزعم هذه الأدبيات أحياناً أن حركة الإعتاق فشلت تماماً، وأن أعضاء الجماعات لا يزالون يعانون التمييز القانوني والسياسي. وموقف الصهاينة هذا ناجم عن أن توقعاتهم من حركة الإعتاق فاقت ما كان ممكناً بالفعل. فالتقدم التاريخي والتحولات الاجتماعية لا تسير كما نعلم على وتيرة واحدة، وإنما تأخذ شكل خط متعرج. وقد كان معدل إعتاق أعضاء الجماعات عالياً جدا إذا قورن بمعدل إعتاق الأقليات الدينية والعنصرية الأخرى، فبدأت حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للزنوج في الولايات المتحدة، منذ عهد طويل ولكنها لم تؤت أُكُلها بعد. ومع هذا، لم يجرؤ أحد على إعلان فشل هذه الحركة. أما الصهاينة من أمثال بيريتس سمولنسكين، فكانوا، بعد مرور أقل من خمسين عاماً على ظهور هذه الحركة الفكرية والاجتماعية والسياسية، ينعونها للعالم. ولعل هذا يعود إلى انتشار الأفكار الخاصة بالشعب المختار وما يصاحب ذلك من توقعات متطرفة أحياناً. كما يعود ولاشك إلى عدم ذكاء القيادة الصهيونية، وافتقارها إلى التكوين الثقافي والسياسي المناسب لتقييم ظاهرة مثل الإعتاق أو الانعتاق، وكذلك افتقارها إلى رؤية كاملة للكون وإلى رؤية تاريخية مركبة.

ومع أن الصهاينة نعوا حركة الإعتاق والانعتاق، فإنهم وقفوا ضدها في واقع الأمر بشكل مبدئي، وذلك لأنهم يؤمنون بأن العلاقة بين اليهود والأغيار علاقة تضاد جذري، كما أنهم ينطلقون من تصور أن اليهود عنصر قومي له خصوصيته وتفرُّده ولا يمكنه الاندماج في العناصر الأخرى. ولذا، تصبح القضية بالنسبة إليهم هي تهجير اليهود إلى وطنهم القومي الافتراضي وليس الدفاع عن حقوقهم المدنية والسياسية. وتتجلى مُثل هذه المفاهيم في موقف الصهاينة من يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، فالحركة الصهيونية لا تحاول أن تكسب لليهود السوفييت حقوقاً مدنية جديدة، ولا تحاول الدفاع عن حقوقهم التي اكتسبوها بمقتضى القانون السوفيتي، وإنما تبذل قصارى جهدها لتهجيرهم إلى إسرائيل باعتبارهم أعضاء من الشعب اليهودي لا يمكنهم العيش في المجتمع السوفيتي.

ولكن، ورغم الادعاءات الصهيونية، فإن الأغلبية الساحقة من يهود العالم الموجودون في العالم الغربي يتمتعون بثمرة نجاح حركة الإعتاق، ومن ثَم يطلق عليهم «يهود مرحلة ما بعد الانعتاق». فيهود الولايات المتحدة مندمجون تماماً في مجتمعاتهم، وقد حصلوا على الحقوق المدنية والسياسية كافة، ويساهمون في مجتمعهم كمواطنين أمريكيين. ويهود الاتحاد السوفيتي لا يختلفون عن ذلك كثيراً. فرغم عدم سيادة المُثُل الديموقراطية والليبرالية في المجتمع السوفيتي حتى عهد قريب، فإن اليهود السوفييت حصلوا على حقوق سياسية مماثلة

لحقوق المواطنين في مجتمعهم، وبالتالي تحققت مُثُل المساواة بالنسبة إليهم. وهم مندمجون حضارياً في بيئتهم ولا يتسمون بأي تمايز وظيفي أو مهني (إلا بدرجات قليلة جداً)، فليس لهم مؤسسات قانونية مقصورة عليهم. ومعاناة اليهود السوفييت لم تكن مقصورة عليهم بوصفهم يهوداً، وإنما هي ناجمة عن انتمائهم إلى المجتمع السوفيتي الاشتراكي، وكذلك فإن دوافع الهجرة عند اليهود السوفييت هي دوافع مرتبطة تماماً بحركيات المجتمع وليس بأية حركيات يهودية مستقلة. ولذا، فإن أغلبية المهاجرين من اليهود السوفييت كانت تتجه إلى الولايات المتحدة، وإن اتجهوا إلى الدولة الصهيونية فإن دوافعهم كانت في العادة اقتصادية محض. ومن هذا المنظور، فإن مُثُل الاستنارة والانعتاق تحققت تماماً بالنسبة لأغلبية يهود العالم. وأدَّى نجاح حركة إعتاق اليهود إلى ظهور مشاكل خاصة بمرحلة ما بعد الانعتاق. وفي مواجهة حقيقة نجاح حركة الإعتاق، يصبح من العسير على الصهاينة الدفاع عن فكرة فشلها. ولذا، تلجأ الأدبيات الصهيونية إلى إثارة الشك بشأن مدى إيجابية حركة الإعتاق باعتبار أنها تؤدي إلى الاندماج والإبادة الصامتة. وقد طالب المفكر الصهيوني حاييم كابلان بالكف عن الإعتاق والرجوع عن مُثُله، والنظر إلى أعضاء الجماعات لا باعتبارهم أفراداً لكلٍّ حقوقه وواجباته وإنما باعتبارهم جماعة عضوية.

الانعتاق

«الانعتاق» من الفعل «انعتق» الذي جاء على زنة الفعل المطاوع، وهو فعل لازم بطبيعة تشكيله حيث نقول «أعتق السيدُ العبدَ فانعتق العبدُ». وهو مصطلح يُستخدَم للإشارة إلى تحرُّر بعض الأقليات في المجتمع الغربي إبان القرن التاسع عشر الميلادي أو ما قبله. أما مصطلح «الإعتاق»، فيشير إلى تحرُّر أعضاء الجماعات اليهودية. والعلاقة البنيوية بين كلمتي «الانعتاق» و«الإعتاق» هي نفسها العلاقة بين كلمتي «التحرر» و«التحرير»، أو ما يكون بين اللازم والمتعدي من الأفعال بصفة عامة. ولم تكن هناك حركة تحرر في صفوف الجماعات اليهودية، كما أن التحرر لم يكن تعبيراً عن تحولات اجتماعية داخل هذه الجماعات وإنما كان تعبيراً عن حركة داخل المجتمع الغربي أثرت فيهم وغيَّرت الأنساق التقليدية لحياتهم بشكل جذري وحررتهم. وهم في الحقيقة لم يسعوا إلى إعتاق أنفسهم، ولم يثوروا من أجله وإنما تم إعتاقهم على يد الآخرين. ولذا، فإن مصطلح «إعتاق» يُعبِّر عن الظاهرة منظوراً إليها من ناحية التحولات الاجتماعية التي أثرت في الجماعة اليهودية، أما مصطلح «انعتاق» فيُعبِّر عن الظاهرة نفسها منظوراً إليها من ناحية استجابتهم لما وقع عليهم من مؤثرات.

مرحلة ما بعد الانعتاق

يُطلَق على يهود العالم الغربي يهود مرحلة «ما بعد الانعتاق»، وهي عبارة تفترض أن عملية إعتاق اليهود اكتملت وأن أعضاء الجماعات اليهودية قد أُعتقوا وانعتقوا تماماً. ولكن الأدبيات الصهيونية تذهب إلى أن اكتمال هذه العملية لم تكن كل ثمراته إيجابية بل أدَّى إلى ظهور مشاكل جديدة مختلفة تماماً عن تلك التي كان يواجهها اليهود قبل تلك المرحلة. فأعضاء الجماعات اليهودية، قبل إعتاقهم، كانوا يواجهون مشكلة عزلتهم عن بقية أعضاء المجتمع، كما كانوا يواجهون مشكلة عدم حصولهم على حقوقهم. وكان المجتمع بدوره يشكو من خصوصيتهم وتكاتفهم المتطرف. ولكن، بعد الإعتاق والانعتاق، نجد أن الوضع انقلب تماماً. إذ أصبح الخطر الأكبر الذي يتهدد اليهود، من وجهة نظر الصهاينة وبعض الدارسين، هو الاندماج وأحياناً الانصهار أو ضياع الهوية وأي شكل من أشكال الخصوصية. ويعود هذا إلى تزايد معدلات العلمنة في المجتمع الغربي وانتشار مُثُل حركة الاستنارة، وهي حركة تؤكد أهمية العام على الخاص، وتطرح فكرة الإنسان الطبيعي الأممي كمثل أعلى، ومن ثَمَّ فإنها تعادي الخصوصية والهوية. وقد أدَّت عملية الإعتاق (المرتبطة بالعلمنة) إلى ضعف الدين اليهودي بمؤسساته المختلفة، إذ كان يحتفظ لأعضاء الجماعات اليهودية بشيء من الهوية كما كان يمنعهم من الزواج المختلط. كما أن تزايد انتشار مُثُل الإعتاق أدَّى إلى تراجع الأفكار العنصرية المختلفة وإلى تراجع ظاهرة معاداة اليهود، وهي الأخرى من أهم دعائم ما يُسمَّى «الهوية اليهودية».

ومن القضايا الأساسية الأخرى ليهودية ما بعد الانعتاق الحوار اليهودي المسيحي الذي يفترض وجود تراث يهودي مسيحي مشترك، ومثل هذا الحوار لم يكن أمراً مطروحاً في الماضي. غير أن اليهودية، باعتبارها نسقاً دينياً، ليست مهيأة لدخول هذا الحوار، نظراً لخاصيتها الجيولوجية، ولعدم تحديدها عقائدها الأساسية. كما أن اليهود جماعات إثنية منقسمة إلى فرق لا تعترف الواحدة بالأخرى. ويخشى كثير من اليهود المتدينين (الأرثوذكس) أن يؤدي هذا الحوار إلى توسيع رقعة الاتفاق بين اليهودية والمسيحية إلى درجة يصبح التنصر معها أمراً سهلاً وربما منطقياً. وهذا ما حدث فعلاً في ألمانيا بعد ظهور اليهودية الإصلاحية التي أعادت صياغة اليهودية

على أسس المسيحية البروتستانتية، الأمر الذي أدَّى في النهاية إلى تنصُّر أعداد كبيرة من يهود ألمانيا.

ومن الصعب على الصهاينة أو غيرهم الاحتجاج على النتائج السلبية لإعتاق اليهود، إذ أن المُثُل العليا للمجتمعات الغربية التي يعيش فيها معظم أعضاء الجماعات اليهودية مُثُل علمانية عقلانية من نتاج عصر الاستنارة، تشجع على الاندماج وتمازج الأفراد، وامتزاج هويتهم وخصوصيتهم في هوية قومية عامة عظمى. ولذا، فإن هذه المجتمعات تقبل من اليهود احتجاجهم على معاداة اليهود ولكنها تجد أن من الصعب عليها أن تقبل الاحتجاج على نتائج عملية الإعتاق.

ولكن أهم المشاكل التي يواجهها اليهود واليهودية، في مرحلة ما بعد الانعتاق، ظهور الصهيونية باعتبارها حركة تدَّعي التحدث باسم كل اليهود، وكذلك تأسيس الدولة الصهيونية التي تطلق على نفسها اسم «الدولة اليهودية». ويهود مرحلة ما بعد الانعتاق يتمتعون، كما أسلفنا، بدرجة عالية من الاندماج في مجتمعاتهم، ويشعرون بالانتماء الكامل لها والولاء العميق نحوها. ولكن الصهيونية تضع هذا موضع التساؤل إن لم يكن موضع الشك أيضاً. كما أن سلوك الدولة الصهيونية، وبخاصة بعد اندلاع الانتفاضة المجيدة، أصبح يسبب لهم كثيراً من الحرج.

جوزيف الثاني (١٧٨٠-١٧٩٠)

إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، ابن جوزيف الثاني وماريا تريزا. وهو من أشهر حكام أوربا ممن أُطلق عليهم «المستبدون المستنيرون». حاول قدر استطاعته أن يصلح الإمبراطورية النمساوية المجرية وأن يحدِّثها، بعد أن تلقَّى تعليمه الحقيقي من كتابات فولتير والفلاسفة الموسوعيين الفرنسيين، بحيث أصبح من أكبر المدافعين عن مُثُل حركة الاستنارة. وكان إيمانه عميقاً بمقدرة الدولة المطلقة على أن تصلح كل شيء إن هي عملت بهدي العقل. كما كان من المتحمسين للتجارة الحرة وضرورة تقليل نفوذ الكنيسة. ولذا، فبعد أن تقلَّد الحكم، قام بإصلاح النظام التعليمي في الإمبراطورية وبفصل القضاء عن الجناح التنفيذي، وأصلح نظام الصحة العامة، وألغى نظام الرق، وأصدر براءة التسامح (١٧٨٢) التي حددت حقوق الجماعات غير الكاثوليكية في الإمبراطورية. وقد اصطدم بالكنيسة الكاثوليكية إذ أسَّس كليات تابعة للدولة لتخريج القساوسة، وقلَّص سلطة الأساقفة، وحد من علاقة الكنيسة بالبابا. بل قام جوزيف الثاني بحل ٧٠٠ دير لا تعمل في وظائف نافعة مثل التدريس أو التمريض، وشطب حوالي ٣٦ ألفاً من قوائم الرهبان وأعطاهم تعويضات كي يعودوا إلى مواطنهم الأصلية. ويبدو أن حماس جوزيف الثاني الزائد لتغيير كل شيء جلب عليه عداء الكثيرين من سكان المناطق المحافظة. وأثناء حكمه، تم تقسيم بولندا، وضمت النمسا أجزاء منها، وضمنها جاليشيا.

وقد وجَّه جوزيف الثاني اهتمامه للمسألة اليهودية، في محاولته تحديث إمبراطوريته. فحاول أن يجعل أعضاء الجماعات اليهودية أكثر نفعاً للدولة، تماماً كما فعل مع الكنيسة الكاثوليكية والأديرة، فأصدر قوانين تحظر على أعضاء الجماعات اليهودية بيع الخمور أو جمع الضرائب أو إدارة الفنادق، وفرض عليهم أن يتسموا بأسماء ألمانية تُختار من قائمة أُعدت خصيصاً لهذا الغرض، وذلك حتى يتسنى دمجهم في المجتمع. كما منع استخدام العبرية أو اليديشية في المعاملات التجارية أو الوثائق الرسمية، وألغى المحاكم الحاخامية والزي اليهودي الخاص. ولإبقاء عدد اليهود قليلاً كما هو، لم يُلغ جوزيف الثاني القوانين التي كانت ترمي إلى الحد من حجم العائلات اليهودية.

وقد أصدر عام ١٧٨٢ براءة التسامح التي أكدت الحقوق القائمة لأعضاء الأقليات غير الكاثوليكية وأضافت لها حقوقاً جديدة. وبالنسبة لأعضاء الجماعة اليهودية، أعطت البراءة اليهود الحق في حرية التنقل والسكنى في أي مكان واختيار أية مهنة أو وظيفة. وظلت قوانين وتشريعات جوزيف الثاني أساس التعامل مع أعضاء الجماعات اليهودية في الإمبراطورية النمساوية المجرية حتى نشوب ثورة ١٨٤٨.

وقد قوبلت إصلاحات جوزيف الثاني بالترحاب من بعض زعماء الاستنارة مثل فيسيلي. أما مندلسون، فعبَّر عن شكوكه نحوها، كما أن المتدينين وصفوها بأنها كارثة. ومهما كانت استجابة أعضاء الجماعة اليهودية، فإن هذه القوانين، وضمنها براءة التسامح، أتاحت الفرصة أمام كل الأقليات غير الكاثوليكية ليُحقِّقوا حراكاً اجتماعياً كبيراً وليندمجوا في المجتمع.

وقد طُبِّقت في بادئ الأمر على فيينا والنمسا ثم طُبِّقت على سائر مقاطعات الإمبراطورية النمساوية المجرية. وهي واحدة من سلسلة البراءات التي مُنحت للأقليات غير الكاثوليكية، ومن بينها اليهود، تتضمن حقوقهم القائمة وتضيف لها حقوقاً جديدة وتحدد واجباتهم.

التحديث المتعثر

«التحديث المتعثر» مصطلح نستخدمه لنشير إلى تلك الفترة من تاريخ روسيا، السابقة على الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية،

ومن تاريخ معظم بلاد شرق أوربا (بولندا ورومانيا والمجر، وغيرها) في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية وانضمام هذه البلاد إلى المعسكر الاشتراكي، وهما فترتان لم تتمكن فيهما النظم الحاكمة من إنجاز عملية التحديث. ونحن نذهب إلى أن السبب الأساسي لتعثُّر التحديث في هذه الدول أنها لم يكن لها مشروع استعماري أساساً، أو أن مشروعها الاستعماري لم يكن ناجحاً، أو كان باهظ التكاليف لأنه كان بعد في مراحله الأولى (ويُقال إن تكاليف ضم وإدارة المستعمرات التابعة للإمبراطورية القيصرية الروسية كانت تفوق كثيراً عائدها، ولذا كان هناك كثير من المفكرين الروس ذوي الاتجاه الشوفيني والعنصري والرجعي ممن يعادون التوسع الإمبريالي الروسي).

وقد أثر تعثُّر التحديث في هذه البلاد في عمليات إعتاق اليهود ومحاولة اندماج أعضاء الجماعات اليهودية إذ أن تعثُّر التحديث أدَّى إلى ظهور رؤى شمولية واستبدادية تستبعد الأقليات وتحاول منعهم من الاندماج ومن المشاركة في السلطة. كما أن تعثُّر التحديث، على المستوى البنيوي، أدَّى إلى بطء النمو الاقتصادي، وهذا ما كان يعني عدم وجود فرص للحراك الاجتماعي أمام أعضاء الأقلية والأغلبية. ولكن النظم الاشتراكية نجحت حينذاك في استئناف التحديث وبالتالي في إعتاق اليهود ومنحهم حقوقهم المدنية والسياسية الكاملة. وعلى أية حال، فإن الصهاينة لا يتحدثون عن تعثُّر التحديث وإنما عن فشله، وبالتالي عن استحالة اندماج اليهود، مع أن التعثُّر أمر مؤقت يقف بين النجاح والفشل، بينما الفشل أمر نهائي مطلق يستطيع المرء أن يؤسس بناءً عليه أحكاماً نهائية ذات طابع اختزالي.

كما نستخدم المصطلح للإشارة إلى ما حدث بعد الحرب العالمية الأولى حين جُرِّدت ألمانيا من مستعمراتها بعد إبرام اتفاقية فرساي، فتعثرت عملية نموها وتحديثها، ولم يُستأنَف التحديث إلا على الطريقة الشمولية النازية.

الاستنارة اليهودية (الهسكلاه)

يُستخدَم في الكتابات العربية مُصطلَح «الاستنارة اليهودية» للإشارة للحركة التي انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا في منتصف القرن الثامن عشر (في ألمانيا وغيرها من الدول). ولكننا نؤثر استخدام مُصطلَح «التنوير اليهودي» باعتبار أن هذه الحركة أتت بمثل وقيم من خارج الموروث الديني والفكري اليهودي، وباعتبار أن هذه المثل والقيم فُرضت على أعضاء الجماعات اليهودية إما من خلال الدولة أو من خلال طليعة ثقافية يهودية تشربت أفكار حركة الاستنارة الغربية ثم حاولت تنوير اليهود. وكان أعضاء الجماعات اليهودية يتلقون مُثُل الاستنارة بشكل متفاوت؛ فمنهم من تبناها بحماس وطبقها، ومنهم من خضع لها وسايرها، وأخيراً هناك من تصدى لها وقاومها.

الهسكلاه

«هسكلاه» كلمة عبرية اشتُقت منها كلمة «سيكِّيل» بمعنى «نوَّر» ثم استُخدمت الكلمة بمعنى «استنارة»، والاسم منها «مسكيل» وجمعه «مسكليم». وفي هذه الموسوعة، نستخدم مُصطلَح «الاستنارة» للإشارة إلى الحركة المعروفة بهذا الاسم في الحضارة الغربية. ونستخدم كلمة «تنوير» للإشارة إلى أثر هذه الحركة في بعض المفكرين الغربيين اليهود وفي أعضاء الجماعات اليهودية. كما تُستخدَم الكلمة للإشارة للمحاولات التي بذلها بعض المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية لتطبيق فكر ومُثُل عصر الاستنارة على أعضاء الجماعات اليهودية.

التنوير اليهودي

كلمة «هسكلاه» العبرية تعني «التنوير»، ويُعبَّر عنها أيضاً في الأدبيات العربية بكلمة «الاستنارة». وقد ظهر المُصطلَح عام ١٨٣٢ للإشارة إلى حركة في الآداب المكتوبة بالعبرية حاول دعاتها أن يبتعدوا عن الأشكال الأدبية التقليدية المرتبطة إلى حدٍّ كبير بالدين وأن يستعيروا أشكال الأدب العلماني الغربي. ولكن التنوير لم يكن مجرد حركة أدبية وإنما كان أيضاً رؤية متكاملة نسميها «العقلانية المادية». وتُستخدَم الكلمة بالمعنى العام للإشارة إلى الحركة الفكرية الاجتماعية التي ظهرت بين يهود غرب أوربا (في ألمانيا ووسطها) ثم انتشرت منها إلى شرقها. وقد بدأت حركة التنوير في صورة تيار أساسي بين أعضاء الجماعات اليهودية منذ منتصف القرن الثامن عشر واستمرت حتى عام ١٨٨٠. ورغم انحسارها كحركة فكرية واعية، إلا أن مقولاتها ظلت سائدة بينهم بشكل ظاهر أو كامن حتى تم اندماج أعضاء الجماعات اليهودية واستيعابهم في المجتمع الغربي العلماني.

وتنطلق حركة التنوير اليهودي من الأفكار الأساسية في حركة الاستنارة الغربية مثل الإيمان بالعقل باعتباره مصدراً أساسيا وربما وحيداً للمعرفة إلى ثقة كاملة بالعلم وبحتمية التعدد، وبنسبية المعرفة والقيم، وبإمكانية إصلاح الإنسان عن طريق تغيير بيئته وخلق المواطن الذي يدين بالولاء للدولة. كما تدور حركة التنوير اليهودية في إطار الرؤية الآلية للكون والإيمان بالإنسان الطبيعي أو الأممي، كما تقع في كل تناقضات حركة الاستنارة الغربية مثل التناقض بين النزعة العقلية المجردة التي تتجه نحو العام والنزعة الحسية التجريبية التي تتجه نحو الخاص، وهو تناقض يضرب بجذوره في الرؤية العلمية للكون التي تبدأ برصد الأشياء المادية المحسوسة والملموسة وتنتهي في عالم القانون العام الرياضي المجرد. ولذا نجد أن الفكر العقلاني المادي يبدأ بالتعامل مع الملموسات والمحسوسات داخل حدودها، ولكنه ينتهي بأن ينظر لها باعتبارها ظواهر مادية عامة مجردة خاضعة لقانون مادي عام مجرد، لا تتمتع بأية خصوصية أو قداسة. ولذا فالواقع الذي ينتجه العقل المادي لا قسمات له ولا حدود. وكرد فعل لذلك، ظهر الفكر المعادي للاستنارة (الإيمان بالطبيعة واللاعقل والقوة والأرض والحيوية) ليستعيد قدراً من القداسة للعالم ولكنها قداسة مصدرها المادة، كامنة فيها لا تتجاوزها (ولذا فهي حركة «لا عقلانية مادية»). طالب دعاة التنوير (والعقلانية المادية) بأن يُمنَح اليهود حقوقهم السياسية والمدنية (أي إعتاقهم)، وأن تتاح لهم الفرص الاقتصادية، وأن يتخلص أعضاء الجماعات اليهودية من أية خصوصية تتسبب في عزلتهم عن أعضاء المجتمع، وأن يندمجوا في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وأن يكون ولاؤهم الأول والأخير للبلاد التي ينتمون إليها لا لقوميتهم الدينية التي لا تستند إلى سند عقلي أو موضوعي. وكان دعاة التنوير اليهودي يرون أن هذا ممكن إذا اكتسب اليهود مقومات الحضارة الغربية العلمانية، وإذا قاموا بفصل الدين اليهودي عما يُسمَّى «القومية اليهودية» حتى يتلاءموا مع الدولة العلمانية القومية في أوربا، أي إذا قاموا بتحديث اليهود واليهودية، وتحولوا من كونهم جماعة وظيفية هامشية ليصبحوا جزءاً من البناء الطبقي والثقافي للمجتمع.

وقد ظهر بين صفوف يهود البلاط من المارانو والإشكناز شخصيات تولت قيادة الجماعة اليهودية، وأصبح لها مكانة تفوق كثيراً مكانة الحاخامات. ولم يكن يهود البلاط، على عكس التاجر والمرابي اليهودي القديم، لا في مركز المجتمع على وجه الحصر، ولا في مسامه أو على هامشه، بل كانوا على مقربة من أعضاء الطبقة الحاكمة يتعاملون معهم ويزودونهم بالأموال ويشترون لهم التحف والسلع الترفيهية اللازمة لمظاهر أبهة الملكيات والإمارات المطلقة. وكان هذا يتطلب معرفة وثيقة لا بالاحتياجات الاقتصادية للطبقة وحسب وإنما بأسلوب حياتها أيضاً، ذلك الأسلوب الذي بدأ يهود البلاط يستوعبونه ويتأثرون به. ولكن يهود البلاط كانوا يقفون على قمة هرم مالي تجاري يهودي يضم طبقات اليهود المختلفة من كبار التجار إلى التجار البائعين والمتسولين. وكان هذا الهرم عابراً للقارات متعدد الجنسيات، يمتد بطول أوربا وعرضها وتصل أطرافه إلى الدولة العثمانية والعالم الجديد. وكان على يهودي البلاط، رغم عالميته، أن يظل يهودياً حتى يتمتع بشبكة الاتصالات هذه، وحتى يظل يلعب دوره كعضو في جماعة وظيفية وسيطة. ولهذا، كان يهود البلاط يعيشون بين العالمين المسيحي واليهودي، يتحركون بسهولة داخل الحضارة الغربية التي كانوا يعرفون لغتها، كما كانوا مُلمين بالفلسفة والعلوم والاقتصاد، وكانوا مُلمين في الوقت نفسه بالتكوين الثقافي والديني المتميز لأعضاء الجماعات اليهودية. ومن هنا، فإن القيادات الجديدة للجماعات اليهودية لم تكن يهودية ولا دينية خالصة.

ومن أهم العناصر التي ساهمت في فك قبضة الأفكار الدينية التقليدية يهود المارانو الذين كان يُشار إلى قطاعات منهم بأنهم «السفارد» أو «اليهود البرتغاليون» أو «المسيحيون الجدد». وقد أسس المارانو مراكز اقتصادية متميِّزة في أوربا، مثل: بوردو وبايون وأمستردام وهامبورج ولندن. وحسب بعض النظريات، كان المارانو مسيحيين في الظاهر يهوداً في الباطن. ولكنهم، حسب بعض النظريات الأخرى، كانوا مسيحيين ظاهراً وباطناً، أي جزءاً عضويا من التشكيل الحضاري الغربي. ولكنهم، مع هذا، ولأسباب مختلفة، تهودوا واندمجوا في الجماعة اليهودية بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبريا. ولذا، فإنهم كانوا حَمَلة الحضارة الغربية داخل الجماعة اليهودية، عن وعي أو عن غير وعي، ينشرون قيمها بينهم. كما أن بعضهم ممن كان يبطن اليهودية، يحمل في وجدانه صورة مثالية لليهودية ارتطمت بالواقع كما حدث لأورييل داكوستا وإسبينوزا، وهو ما جعلهم عناصر ثورية داخل الجماعة اليهودية تبشر بالعقل (المادي) وبالقيم المجردة. وإلى جانب كل هذا، كانوا، نتيجة التعددية التي مارسوها، من حملة لواء الشك الديني. وقد تزامن خروج المارانو مع تعمُّق أزمة اليهودية الحاخامية إذ كانوا عنصر هدم أساسياً لها، فهم الذين ساندوا شبتاي تسفي، ومن بين صفوفهم خرج إسبينوزا.

وقد بدأ المارانو في إشاعة مُثُل الحضارة الغربية بين الجماعات

اليهودية، كما ساهم يهود البلاط (القيادة الحقيقية للجماعات ورمز النجاح الكبير والقدوة التي تُحتذَى) في ترويج الأسلوب الغربي للحياة من خلال أنفسهم ومن خلال أتباعهم والمحيطين بهم الذين تشبهوا بهم. وقد كان للمارانو ويهود البلاط، كما أسلفنا، خبرة بالعالم المسيحي الذي بدأ يتعلمن، وبالعالم اليهودي الذي كان متحجراً. وفرضت عليهم خبرتهم هذه عملية المقارنة بين العالمين، وبالتالي طرح التساؤلات بشأن الموروث الثقافي الديني اليهودي. ولعل الاندماج النسبي لهذا العدد الكبير من اليهود، ودخولهم عالم الحضارة الغربية الجديدة والاقتداء به، جعل كثيراً من المُصطلَحات الدينية اليهودية (مثل النفي والشعب المختار) تفقد كثيراً من مدلولاتها بالنسبة لهم. ومعنى هذا أن يهود المارانو لعبوا دوراً مماثلاً للدور الذي يلعبه بعض مثقفي العالم الثالث الذين يذهبون إلى الغرب لتلقِّي العلم أو البحث عن الرزق، لكن بعضهم يعود إلى بلاده جسدياً وحسب إذ يكتشفون أن من العسير عليهم العودة الروحية الكاملة إلى أوطانهم بعد رحلة الذهاب. ولذا، فإنهم حينما يعودون يحملون رايات التغريب ويكونون بمنزلة معاول هدم في موروثهم الحضاري.

وكان مهد حركة التنوير هو البلاد التي كانت تضم جماعات يهودية صغيرة ذات صبغة غربية مثل يهود هولندا وإيطاليا. وقد حقق أعضاء هذه الجماعات معدلات عالية من الاندماج نظراً لصغر حجمها ونظراً لوجود قيادة من المارانو. كما أن كثيراً من أعضاء هذه الجماعات تلقوا تعليماً علمانيا وحققوا نجاحاً ملحوظاً في مهن مثل الطب. ويبدو أن فشل حركة شبتاي تسفي خلق ميلاً عاماً بين الجماعات اليهودية نحو رفض النزعة المشيحانية ككل، ورغبةً في الاندماج في المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها. كما أن ظهور حركة مشيحانية، مثل الحركة الفرانكية، كان يعني أن اليهودية دخلت مرحلة أزمتها الأخيرة، فهذه الحركة كانت حركة عدمية تماماً تُعبِّر عن رغبة اليهود في التخلص من الشريعة.

ولكن العنصر الأساسي والحاسم، الذي أدَّى إلى انتشار قيم ومُثُل التنوير بين اليهود، هو التحولات التي كان المجتمع الغربي يخوضها: تزايُد معدلات العَلمنة، وسيادة القيم النفعية التي أتاحت الفرص أمام أعضاء الجماعات للتحرك من الهامش الثقافي والاقتصادي والوظيفي للمجتمع نحو مركزه. وهي تحولات غيَّرت أسلوب حياتهم، كما غيَّرت البناء الوظيفي والمهني لأعداد كبيرة منهم.

وقد بدأت حركة التنوير، بالمعنى المحدَّد، في برلين. فالمجتمع المركنتالي في ألمانيا تحت حكم فريدريك الثاني الأعظم (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) خلق مناخاً مواتياً شجع اليهود على الاستيطان في بروسيا والاشتغال بالتجارة، ومنح بعض قطاعاتهم حقوقهم كاملة، فنشأت طبقة رأسمالية تجارية وجدت أن من مصلحتها الاندماج في المجتمع وأصبحت بمنزلة القدوة أو النموذج لبقية اليهود. وحملت هذه الطبقة مُثُل التنوير التي طرحها المجتمع الغربي. ويُعَدُّ موسى مندلسون، الذي كان يعمل محاسباً وتاجراً كما كان متزوجاً من حفيدة أحد يهود البلاط، أهم مفكري حركة التنوير. أصدر عام ١٧٥٠ مجلة أسبوعية تُسمَّى **كوهيليت موسار** (أي الواعظ الأخلاقي) صدرت منها ثلاثة أعداد وحسب، وهي المجلة التي تُعَدُّ أول منبر للتعبير عن أفكار حركة التنوير. ومع هذا، يرى بعض المؤرخين أن تاريخ نشأة حركة التنوير هو عام ١٧٨٣، فقد أصدر جوزيف الثاني براءة التسامح عام ١٧٨٢، وفي العام التالي نشر مندلسون ترجمته الألمانية لأسفار موسى الخمسة بحروف عبرية مع تعليق ذي طابع عقلاني. وقد ساهم معه في هذه الترجمة والتعليق رابطة أصدقاء العبرية التي أصدرت بين عامي ١٧٨٣ ـ ١٨١١ فصلية عبرية تُسمَّى **هاميسائيف** (أي الحاصد أو الجامع) كان محتواها تافهاً ومملاً، واعتمدت أساساً على الترجمات من الألمانية، إلا أن أثرها كان عميقاً جداً، وبخاصة خارج ألمانيا. وقد رفض كُتَّاب هذه المجلة عبرية الحاخامات، وحاولوا العودة إلى الكتاب المقدَّس بأسلوبه الكلاسيكي، وزخرفوا أسلوبهم بكلمات أنيقة مصطنعة كانوا يعدونها دليلاً على الذوق الأدبي الرفيع. نشرت المجلة قصائد في مدح الحكومة والطبيعة، وقصصاً وعظية، وشروحاً للكتاب المقدَّس، ودراسات في اللغويات العبرية، ومقالات في تواريخ الجماعات اليهودية. وكان معظم المؤلفين محافظين في آرائهم السياسية. وحققت مُثُل التنوير نجاحاً ساحقاً في ألمانيا حتى أنها أسقطت الشكل العبراني للحركة كما أنهم رفضوا اليديشية باعتبارها ألمانية فاسدة، واختار يهود ألمانيا الاندماج الثقافي الكامل في حضارة بلادهم. ولم تستمر حركة التنوير ذات الشكل العبراني إلا في برسلاو حتى عام ١٨٣٠. ومن أهم دعاة الاستنارة في ألمانيا، نفتالي هيرتز فيسيلي وجبريل رايسر وبنديفيد لازاروس.

انتشرت مُثُل التنوير، ابتداءً من عام ١٨٢٠، في الإمبراطورية النمساوية (بوهيميا وشمال إيطاليا وجاليشيا). وارتبطت الحركة هناك بالألمانية منذ البداية، إذ كان مرسوم التسامح الذي أصدره جوزيف الثاني يمنح اليهود الحقوق السياسية بمقدار ما يحققونه من

اندماج ثقافي واقتصادي. وكان نفتالي فيسيلي من قيادة حركة التنوير هناك، وبين ١٨٢١ ـ ١٨٣٢ أصدر دعاة التنوير في فيينا مجلة سنوية تُسمَّى **بيكوري هاعيتيم** (أي بواكير ثمار هذه الأزمنة) نشرت دراسات لغوية وتاريخية وسيراً انطلاقاً من مبادئ علم اليهودية، كما نشرت كتابات تسخر من الحياة التقليدية لأعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الحسيديين منهم)، وكذلك دراسات تاريخية.

ومن الجوانب المهمة لحركة التنوير التي تستحق الإشارة دور المرأة اليهودية في هذه العملية. ويُعَدُّ هذا تحولاً عميقاً وربما ثورياً في مجرى تواريخ الجماعات اليهودية، فالشريعة اليهودية لا تطالب المرأة بالذهاب إلى المعبد اليهودي أو الصلاة. ولم يكن النساء يتعلمن اللغة العبرية، وإن كن يتعلمن الأبجدية العبرية لتلاوة بعض الأدعية التي لم يكنَّ يفهمنها. ونظراً لجهل النساء بالعبرية، كنَّ يقرأن أدباً مكتوباً باليديشية ذا طابع ديني ترفيهي وأحياناً ذا طابع دنيوي محض، أي أن معدلات العلمنة كانت أعلى بين النساء منها بين الرجال. ولكن، بعد التحول عن اليديشية وتأكيد أهمية الألمانية، بدأت النساء اليهوديات يقرأن الآداب الألمانية بدرجة أعلى من الرجال. وإذا أضفنا إلى هذا رغبة بنات الطبقات الثرية بين اليهود في الاندماج بالمجتمع الألماني وفي ممارسة حياتهن كاملة، لأمكننا فهم طبيعة نشاطهن الثقافي الذي أخذ شكل الصالون الأدبي. ومن أهم المثقفات الألمانيات اليهوديات اللائي لعبن دوراً أساسياً في ظاهرة الصالون الأدبي راحيل فارنهاجن.

وانتقلت حركة التنوير، في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، من ألمانيا وجاليشيا إلى روسيا وأصبح مركزها هناك في منتصف الأربعينيات، وبخاصة في ليتوانيا، حيث وُضعت أسس الأدب الحديث المكتوب بالعبرية ونُشرت أول رواية عبرية عام ١٨٥٤ كما ظهرت عدة مجلات أسبوعية. ويُعَدُّ إسحق دوف لفنسون أهم دعاة الاستنارة في روسيا (ويُطلَق عليه «مندلسون روسيا»).

ومن أشهر الجمعيات المنادية بالتنوير جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا عام ١٨٦٣ التي أسَّست عدة مدارس لتعليم الحرف وغيرها من الفنون الدنيوية. وبدأ لفيف من الكاتبين بالعبرية في التحول عن الأسلوب المتأنق الذي تبناه دعاة التنوير الأوائل واتجهوا نحو النقد الاجتماعي. ومن الملحوظ أن حركة التنوير اليهودية في روسيا لم تستبعد اليديشية كأداة للتعبير، على عكس حركات التنوير في ألمانيا والنمسا. ولكن إلى جانب الدعوة لليديشية، كان هناك فريق يدعو إلى الاستجابة لحركة الحكومة الروسية لترويس رعاياها، أي صبغهم بالصبغة الروسية.

وقد أصبحت حركة التنوير قوة فكرية وسياسية واجتماعية ذات بال في ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية، وبشكل أقل في روسيا حيث هبت على الحياة الثقافية لليهود معظم الحركات الفكرية العلمانية الغربية، مثل: الرومانسية والمثالية الفلسفية والوضعية والاشتراكية والداروينية والعنصرية. وقد أصبحت كلها، فيما بعد، مكونات للفكرة الصهيونية، وأصبح دعاة التنوير شخصيات أساسية في الجماعة اليهودية يتحدثون باسمها إلى العالم غير اليهودي.

وقد تزايد التأثير العميق لحركة التنوير على يهود العالم الغربي كافة إلى أن سادت مُثُلها وتمت علمنتهم وتحديثهم، فأصبحوا إما ملحدين أو لاأدريين أو مؤمنين بصياغات مخففة من اليهودية كاليهودية الإصلاحية. ولكن يُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوربا(فرنسا وإنجلترا وهولندا) لم يلعبوا دوراً كبيراً في حركة التنوير، ذلك لأن المسألة لم تكن تعنيهم كثيراً بسبب تحقيقهم معدلات عالية من الاندماج وحصولهم على حقوقهم منذ بداية استقرارهم في هذه البلاد. وعلى النقيض من هذا، يقف يهود شرق أوربا الذين لم تضرب حركة التنوير بجذور قوية بينهم. وبين الفريقين كان يقف يهود وسط أوربا (ألمانيا والنمسا وغيرهما) الذين كانوا يمثلون العصب الحقيقي لحركة التنوير، فكان منهم موسى مندلسون، وظهرت بينهم اليهودية الإصلاحية وكذلك علم اليهودية. كما يُلاحَظ أن الفكرة الصهيونية (فيما بعد) ظهرت أول الأمر بينهم، فمنهم تيودور هرتزل وماكس نوردو. وكانت الألمانية هي لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى. لكن البُعد الألماني الواضح لحركة التنوير لا ينفي أنه كانت توجد مؤثرات فكرية فرنسية على المفكرين، ذلك لأن الفلسفة العقلانية وصلت قمة ازدهارها في فرنسا.

ويمكننا أن نميِّز، من منظور مدى انتشارها ونجاحها وإخفاقها، بين نمطين أساسيين في حركة التنوير. فهناك نمط غربي في ألمانيا والنمسا وجاليشيا حيث حققت مُثُل التنوير نجاحاً ملحوظاً، ونمط شرقي في روسيا (بولندا أساساً) حيث لم تنجح هذه المُثُل كما كان مقدراً لها. وكلمة «غربي» هنا هي الكلمة التي أطلقها يهود الشرق أو الأوسط يودين أو يهود اليديشية على يهود ألمانيا والنمسا ووسط أوربا. وقد أدَّى نجاح مُثُل التنوير بين يهود الغرب وإخفاقها النسبي في الشرق إلى انقسام العالم الغربي، فكان يهود الغرب المندمجين يشعرون بالخوف من يهود اليديشية وأحياناً بالاحتقار تجاههم، في حين كان يشعر يهود الشرق بأن يهود الغرب فَقَدوا هُويتهم وأنهم يتشبهون بالأغيار بشكل يبعث على الضيق وأحياناً الاشمئزاز. وهو

انقسام انعكس داخل الحركة الصهيونية فيما بعد وتبدَّى في انقسامها إلى صهيونية استيطانية (في شرق أوربا) وصهيونية توطينية (في وسطها وغربها). ويعود الاختلاف بين النمطين إلى اختلافات في المحيطين اللذين تواجد فيهما أعضاء كل جماعة. ويُلاحَظ أن عملية التحديث حققت قدراً من النجاح في بلاد الغرب، وخلقت فرصاً للحراك الاجتماعي أمام أعضاء الجماعات اليهودية. أما في شرق أوربا، فقد تأخر التحديث ثم تعثَّر بل توقَّف بعض الوقت، وهو ما أغلق أبواب الحراك الاجتماعي أمامهم.

ولذا، فعلى حين كانت توجد شرائح اجتماعية كبيرة في الغرب تطمح إلى الاندماج في المجتمع غير اليهودي لم توجد مثل هذه الشرائح في الشرق وظل دعاة التنوير قلة قليلة. ومن هنا نجد أن دعاة التنوير في الغرب كانت لديهم طموحات الانتماء إلى النخبة غير اليهودية وهي طموحات لم تصل في الشرق إلى الدرجة نفسها من القوة. وكان اليهود في ألمانيا يمتلكون الخبرات والأموال التي تؤهلهم للانخراط في المجتمع الجديد الذي كان مستعداً لأن يستفيد منهم. أما في روسيا، فقد ارتبط أعضاء الجماعة هناك بحرف، مثل التجارة البدائية والربا والخمور، أو بوظائف هامشية لم تَعُد مطلوبة. ولذا، فقدت حركة التنوير في الغرب قشرتها اليهودية، في حين تحولت هذه القشرة إلى محارة في الشرق. وأدَّى هذا الوضع إلى استقطاب داخل الجماعة اليهودية في الشرق، فكان دعاة التنوير عادةً من الأثرياء أو البورجوازيين أو المرتبطين بهم حيث كان بوسعهم أن يستفيدوا اقتصادياً من عملية الدمج والتغريب، وهذا مقابل الجماهير اليهودية البورجوازية الصغيرة التي كان الاندماج يعني بالنسبة إليهم الهبوط في السلم الاقتصادي إلى مرتبة العمال. وتتميَّز الجماعات اليهودية في الغرب بصغر عددها، وهو ما سهَّل عملية دمج أعضائها. أما في شرق أوربا، فكانت الكتلة البشرية اليهودية ضخمة. ومما زاد الطين بلة الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفها في القرن التاسع عشر، و يمكن القول بأنه كانت هناك جماهير يهودية في الشرق ولم تكن توجد جماهير في الغرب. وساعد ذلك أيضاً على ألمنة يهود ألمانيا، إذ أن الكتابة العبرية كانت تعني كتابة بلا جماهير، بينما نجد أنه برغم صغر حجم قراء العبرية في الشرق كان هناك أعداد لا بأس بها من طلبة المدارس التلمودية العليا الذين يعرفون العبرية. ومما ساهم في عدم انتشار مُثُل التنوير في روسيا وبولندا على عكس ألمانيا أن المحيط الثقافي الذي أحاط بيهود ألمانيا (بلد بيتهوفن وهايني) كان متقدماً مصقولاً وأغرى كثيراً من اليهود بالانضمام إليه. أما المستوى الحضاري المحيط بيهود الشرق، بجوه الإقطاعي الخانق وحكوماته الأوتوقراطية وأقنانه المتخلفين، فلم يكن فيه ما يغري بالانتماء أو الاندماج. ولذا، لم تفقد حركة التنوير في شرق أوربا شكلها العبري واليديشي.

وإذا كان الوسط الفلاحي المحيط بيهود الشرق متخلفاً، فإن يهود الشرق أنفسهم كانوا متدنين حضارياً وملتصقين تماماً بطرقهم التقليدية من لغة يديشية إلى زي خاص. وهو ما جعل التكيُّف مع الوضع الحضاري الجديد ومع مُثُل التنوير أمراً عسيراً.

وثمة أسباب أخرى أدَّت إلى إضعاف انتشار مُثُل التنوير في الشرق، بل في الغرب أيضاً، وإن كان أثرها في الشرق أكثر عمقاً منه في الغرب. فحركة الاستنارة كانت تتسم بالسطحية والسذاجة في رؤيتها للإنسان، إذ رفضت كل أنواع الخصوصية بكل مستوياتها وأصرت على أن يتحول الإنسان الفرد المتجذِّر في تراثه إلى مواطن عام لا جذور له. وكان التصور السائد أن عملية التخلص من الخصوصية مسألة يسيرة سهلة خاضعة لإرادة الفرد دون أي إدراك لمدى ارتباط الهوية بالمستويات العميقة للذات الإنسانية. وغني عن القول أن مثل هذه الرؤية منافية للحقائق النفسية ومنافية لواقع يهود اليديشية الذين كانوا يتمتعون بدرجة عالية من الخصوصية باعتبارهم أقلية قومية داخل روسيا القيصرية. وكان اليهودي يشعر أنه بتخليه الكامل وغير المشروط عن خصوصيته يمسخ نفسه، الأمر الذي كان يُنفِّر كثيراً من أعضاء الجماعة من محاولة الاندماج هذه. أما أولئك الذين كانوا يقبلون فكر حركة الاستنارة ويحاولون التخلي عن الخصوصية، فإن بعضهم كان يبالغ في التشبه بأعضاء الأغلبية واصطناع الأشكال الحضارية السائدة والابتعاد عن التراث اليهودي المحلي. وكانت هذه العملية تثير الشك والاشمئزاز في نفوس أعضاء الأغلبية وأعضاء الجماعة اليهودية الذين لم يندمجوا.

وظهرت سذاجة فكرة عصر الاستنارة في محاولة الحكومات المطلقة فرض الإصلاحات من أعلى، وكأنها شيء خارجي، عن طريق التشريعات القانونية، دون تغيير بنية المجتمع الاقتصادية والسياسية. وكان الإعتاق يُعَدُّ منحة من القيصر، الأب الرحيم، لأبنائه اليهود الذين كان من واجبهم إثبات جدارتهم بهذه المنحة بأن يصبحوا مواطنين صالحين! وفُرضت الإصلاحات من خلال أجهزة حكومية متخلفة وبدائية. ويُلاحَظ أن الجهاز الحكومي في ألمانيا والنمسا كان أكثر حداثة وكفاءة منه في روسيا، كما أن النظام الحاكم في ألمانيا كان مدركاً لنفع أعضاء الجماعة والدور الذي يمكن أن يلعبوه في عملية التحديث. هذا على عكس الطبقة الحاكمة في روسيا وبولندا، وبدرجة أقل في النمسا، التي لم تجد دوراً خاصا لليهود.

وساعد على انتكاس حركة التنوير، في نهاية الأمر، ظهور القوميات الأوتوقراطية المتخلفة ذات المُثُل العضوية في روسيا وبولندا، ومن قبلهما في ألمانيا. وهي قوميات لم تتبن مُثُل الإخاء والتسامح شأنها في هذا شأن القومية الفرنسية، وإنما تبنت رؤية ثنائية حادة تقسم الناس إلى الأنا والآخر. ومما ساعد على تعميق هذا الاتجاه، ظهور الفكر الرومانسي المحافظ لما يُسمَّى الحركة المعادية للاستنارة، والأفكار العنصرية المختلفة التي شاعت في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر بوصفها جزءاً من الهجمة الإمبريالية على العالم. ثم أدَّى تعثُّر التحديث في شرق أوربا، وتوقُّفه تقريباً عام ١٨٨١، إلى سحب الأرض من تحت أقدام دعاة التنوير. وتحوَّل كثير من دعاة حركة التنوير إلى دعاة للعقيدة الصهيونية بسبب الظروف المواتية.

وقد أشرنا إلى أن فكر حركة التنوير كان يحوي داخله منذ البداية تناقضاً أساسياً بين النزعة العقلانية التي تؤكد العام والمجرد وترفض الخصوصية ومن ثَمَّ تؤدي إلى الاندماج من جهة، ومن جهة أخرى النزعة (غير العقلانية) الإمبريقية الحسية (الرومانسية) التي تؤكد الخاص ومن ثَمَّ تؤدي إلى العزلة. وانعكس هذا التناقض في فكر مندلسون ثم في علم اليهودية. ويجب تَذكُّر أن اليهودية المحافظة لم تخرج من التراث الديني التقليدي وإنما هي وليدة حركة التنوير، وعلم اليهودية، والرؤية النقدية والعلمية للتاريخ.

ومع هذا، فبرغم انحسار حركة التنوير بوصفها حركة فكرية واعية، ظلت مقولاتها سائدة بين أعضاء الجماعات بشكل ظاهر وكامن، كما أن بنية المجتمع الغربي نفسها تغيَّرت بشكل أصبح معه التراجع عن مُثُل الاستنارة أمراً عسيراً وصعباً. فلم تَعُد هناك حاجة إلى جماعات وظيفية وسيطة، وأصبحت المساواة بين جميع الأفراد حقيقة تكاد تكون من المسلمات التي تستند إليها النظم السياسية. وزادت معدلات العلمنة وعدم الاكتراث بالدين في المجتمع ككل بحيث لم يَعُد يتم التمييز بين الأفراد على أساس ديني. وحينما كان يتم التمييز على أساس عرْقي، كما هو الحال في الولايات المتحدة، فإن اليهود كانوا يُعتبَرون من الجنس الأبيض. ولذا، يمكن القول بأنه، برغم تراجع حركة التنوير بين اليهود وضعف حركة الاستنارة في العالم الغربي وتعثُّرها، فإن مُثُلهما سادت في نهاية الأمر المجتمع الغربي وبين أعضاء الجماعات.

وعلى المستوى الفكري انطلق دعاة حركة التنوير اليهودية من المنطلقات نفسها التي انطلقت منها حركة الاستنارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها وبكل تعميماتها وتناقضاتها (وأهم التناقضات التناقض الحاد بين الاتجاه نحو العام المجرد من جهة والاتجاه نحو الخاص المحسوس من جهة أخرى ثم تصفية الثاني لحساب الأول). ولكن، حركة التنوير اليهودية كان لها طابعها الخاص وموضوعاتها المتميِّزة، نظراً للخصوصية النسبية للجماعات اليهودية في المجتمع الغربي.

ومن الموضوعات الأساسية التي طرحها الفكر التنويري اليهودي مسألة الشخصية اليهودية وخصوصيتها المفرطة وطفيليتها. فقد رأى دعاة التنوير أنها شخصية جيتوية متمسكة بتراثها وهويتها بشكل يفرض عليها العُزلة. وقد تبنَّى دعاة التنوير الصورة النمطية الاختزالية التي ترسمها أدبيات معاداة اليهود لليهودي (وهي الصورة التي تبناها الصهاينة فيما بعد).

كما بيَّن دعاة التنوير ما تصوَّروه طفيلية اليهود وهامشيتهم، وهي سمات مرتبطة بالوظائف التقليدية لليهود ومسألة التجارة والربا (أي دور الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية)، فطالب دعاة التنوير بضرورة تغيير ذلك حتى يمكن تحويل اليهود من عناصر هامشية منعزلة إلى عناصر منتجة مندمجة، أي تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج بحيث يمكنهم التكيف مع الوضع الاقتصادي الجديد. كما طالبوا بضرورة تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة والحرف اليدوية. ولم يكن للدعوة إلى تحديث وظائف اليهود وحرفهم ومهنهم مضمون اقتصادي وحسب وإنما كان لها مضمون ثقافي ونفسي عميق، إذ كانت دعوة إلى أن يتحرك أعضاء الجماعة من مسام المجتمع كجماعة وظيفية وسيطة منعزلة لها ثقافتها الخاصة إلى نخاعه أو صلبه. فيصبحون مثل بقية أعضاء المجتمع، يتحدثون بلغته ويرتدون أزياءه وينتمون إليه ويدينون له وحده بالولاء. ولذا، كان من القضايا الأساسية التي طرحتها حركة التنوير إشكالية اللغة إذ كانت الجماعات اليهودية في شرق أوربا تتحدث اليديشية. ولذا، شجع دعاة التنوير الاندماج اللغوي، فنادوا بما سموه «النقاء اللغوي». ذلك أن تنقية اللغة التي كان يتحدث بها اليهود كفيلة، حسب تصورهم، برفع مستواهم الحضاري. ولذلك، طالبوا بألا يستعمل اليهود اليديشية، وأن يتعلموا بدلاً من ذلك اللغة الأم سواء كانت الروسية أو الألمانية أو البولندية. كما دعوا إلى إحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة التراث اليهودي الأصلي. ومع هذا، كان هناك من دعاة التنوير في روسيا وبولندا من كتب أدبياته باليديشية وطالب بأن تصبح اليديشية اللغة القومية ليهود شرق أوربا.

وكانت قضية التربية القضية الأساسية بالنسبة إلى دعاة التنوير بسبب ما تصوره من استغراق الجماعات اليهودية في التخلف

والخصوصية. فقد كان ما تصوروه من الاعتقاد السائد بين أعضاء الجماعات اليهودية أن التلمود الكتاب الوحيد الجدير بالدراسة، وأن الدراسة العلمية غير الدينية لابد أن تبقى ثانوية وتوظَّف في خدمة الدراسة الدينية. ونادى دعاة التنوير اليهودي بأن تكون المدارس التلمودية العليا مدارس لإعداد الحاخامات وحدهم، وطالبوا اليهود بأن تتم العملية التعليمية خارج الإطار الديني وأن تشمل الجماهير كلها وليس الأرستقراطية الفكرية وحدها من الحاخامات وغيرهم. كما طالبوا إخوانهم في الدين بأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس غير اليهودية حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية، مثل الهندسة والزراعة، وشجعوا ممارسة الأعمال اليدوية، كما دافعوا عن تعليم المرأة. وبالفعل، بدأت المدارس اليهودية العلمانية تظهر، لأول مرة في تاريخ الجماعات اليهودية الأوربية، مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وافتُتحت أول مدرسة يهودية لتعليم المرأة في روسيا عام ١٨٣٦. وكان دعاة التنوير يرون أن التعليم العلماني السبيل إلى تحديث اليهود ودمجهم وعلمنتهم.

ومن القضايا الأساسية التي طرحها دعاة حركة التنوير، قضية ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»، فظهر مؤرخون يهود عديدون مثل هاينريش جرايتز ونحمان كروكمال، كما ظهر علم اليهودية الذي يُعَدُّ موريتز ستاينشنايدر وسولومون ستاينهايم من أهم أعلامه.

وقد حاول دعاة التنوير إعادة تنظيم الجماعة اليهودية من الداخل، فطالبوا بإلغاء القهال وأشكال الإدارة الذاتية التقليدية، وكانوا في هذا يستجيبون لدعوة الدولة المركزية إلى أن يدين المواطنون لها وحدها بالولاء. ولكن، مع تغيير حياة اليهود الاجتماعية والاقتصادية، أي بعد تحديثهم، كان ضرورياً أن تُحدَّث الديانة نفسها حتى لا ينصرف عنها الشباب اليهودي الذي كان قد بدأ يتساءل عن مدى جدوى وجدية مُصطلَحات مثل «المنفى» أو «صهيون» أو «العودة». وقد وجه دعاة التنوير سهام نقدهم إلى التراث القومي الديني اليهودي، فهاجموا فكرة الماشيَّح وأسطورة العودة، وحولوا فكرة جبل صهيون إلى مفهوم روحي أو إلى اسم المدينة الفاضلة التي لا وجود لها إلا بوصفها فكرة مثالية في قلب الإنسان. وأصبح الخلاص انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية، ولم يَعُد مرهوناً بالعودة إلى أرض الميعاد. وهاجم دعاة التنوير التراث اليهودي الشفوي أو الشريعة الشفوية وكُتُبها الدينية مثل التلمود والشولحان عاروخ، وأبقوا على التراث اليهودي المكتوب وحده. وذهبوا إلى أن من حقهم العودة إلى التراث الأصلي نفسه دون التقيد باليهودية الحاخامية، كما هاجموا الحركات والكتب الصوفية العديدة التي أفرزها التراث اليهودي، مثل الحسيدية وكتب القبَّالاه. وحاولوا أن يُدخلوا نزعة عقلانية على اليهودية، فأحيوا كتابات المفكر العربي (الإسلامي) المؤمن باليهودية موسى بن ميمون الذي كان يطالب منذ العصور الوسطى بإدخال التعليم غير الديني على الدراسات الدينية اليهودية. ويُعَدُّ المفكر الألماني موسى مندلسون، الذي تأثر بأعمال موسى بن ميمون، أباً للتنوير اليهودي. ولكن من الأهمية بمكان تبيان أن حركة الإصلاح الديني التي حققت نجاحاً فائقاً في ألمانيا وانتقلت منها إلى الولايات المتحدة، حيث يشكل اليهود الإصلاحيون والمحافظون الأغلبية الساحقة، فشلت تماماً في شرق أوربا. ولذا، وبدلاً من حركة الإصلاح الديني، نجد أن ما انتشر بين شباب اليهود النزعتان الإلحادية والثورية.

وقد زعزع هذا كيان السلطة الدينية التي كانت تتحكم في اليهود، الأمر الذي جعل هذه السلطة تقاوم التيارات التنويرية وتحاول إفشالها. وهو ما كان يضطر دعاة التنوير إلى اللجوء أحياناً إليها لمساعدة الحكومة حتى تفرض القيم العصرية على اليهود. وقد نجح الحسيديون، ثم الصهاينة في نهاية الأمر، في السيطرة على الجماهير اليهودية.

ورغم فشل حركة التنوير اليهودي في إنجاز كل أهدافها، فإنها تركت آثاراً عميقة في اليهودية. ولعل أهم هذه الآثار ظهور اليهودية الإصلاحية ودعاة الاندماج من الليبراليين والثوريين اليهود الذين طالبوا بحل مشاكل اليهود، أي المسألة اليهودية، عن طريق الثورة الديموقراطية البورجوازية أو الثورة الاجتماعية الاشتراكية. غير أن حركة التنوير مسئولة أيضاً بشكل ما عن ظهور الصهيونية. وهاجم دعاة التنوير فكرة انتظار الماشيَّح الذي سيأتي بالخلاص، ونادوا بأن على اليهود الحصول على الخلاص بأنفسهم. وقد أزالت هذه الدعوة الحاجز الوجداني الذي كان يقف بين اليهود (المتدينين وغير المتدينين) والصهيونية، إذ أصبحت العودة إلى فلسطين ممكنة دون انتظار مقدم الماشيَّح. كما هاجم دعاة التنوير مفاهيم أخرى، مثل العودة والشعب المقدَّس، بحيث أسقطوا البعد الديني المجازي، وكان هذا تمهيداً لتحويلها إلى مفاهيم ذات طابع دنيوي وضعي حرفي فتحوَّلت صهيون إلى موقع للاستيطان وتحوَّل الشعب المقدَّس إلى شعب بالمعنى العرْقي أو الإثني. كما أن فكر حركة التنوير كان يهدف إلى تطبيع اليهود، أي أن تكون الشخصية اليهودية شخصية طبيعية، ويصبح اليهود أمة مثل كل الأمم، وتطوَّر هذا المفهوم ليصبح الدعوة إلى تأسيس الدولة الصهيونية حتى يكون للشعب اليهودي دولته المستقلة شأنه في هذا شأن كل الشعوب.

وخلقت حركة التنوير في شرق أوربا طبقة وسطى يهودية متشربة ببعض الأشكال الثقافية اليهودية الخاصة ولها ولاء كامل لتراثها الديني الغربي، ولكنها كانت في الوقت نفسه مُشبَّعة بالأفكار السياسية والاجتماعية الغربية من قومية إلى اشتراكية. وهذا الازدواج الفكري، أو التعايش بين نقيضين، هو الذي أفرز القيادات والزعامات الصهيونية القادرة على التحرك في إطار معتقداتها التقليدية المتكلسة، والتي تجيد في الوقت نفسه استخدام المُصطلَحات والوسائل العلمانية. وقد عمَّق التناقض الأساسي الكامن في فكر حركة الاستنارة الغربية (الاتجاه نحو العام والمجرد والآلي مقابل الاتجاه نحو الخاص والحسي والعضوي) من هذا التناقض. فبينما النزعة الأولى نحو العام تطالب بدمج اليهود وبتخليهم عن خصوصيتهم، تتجه النزعة الحسية (والرومانسية) نحو تأكيدها والمطالبة بتقوية الوعي القومي. وهذا التناقض يظهر حتى عند مندلسون نفسه، أهم دعاة التنوير. فاليهودية دين العقل (العام)، ولكن شعائرها مُرسَلة ومُوحى بها (الخاص). ولذا، فإن العقائد الأساسية عامة ومُرسَلة لكل البشر، أما الشعائر فمقصورة على اليهودية وهي مصدر هويتهم وعلى اليهود الحفاظ عليها. وقد اتبع صموئيل لوتساتو الإستراتيجية نفسها في فلسفته. وأخذت رقعة العام في الانكماش في كتابات المفكرين اليهود (كما حدث في الحضارة الغربية نفسها) حتى نصل إلى علم اليهودية، وهو علم كان من ناحية يتكون من دراسات علمية نقدية عقلانية تهدف إلى الكشف العلمي عن الحقيقة التاريخية أو الاجتماعية أو الأنثروبولوجية الكامنة وراء القصص الديني، ولكنه كان من ناحية أخرى علماً يهدف إلى اكتشاف ماضي اليهود وإنجازاتهم الحضارية المتميِّزة والمنفردة حتى يكتشفوا خصوصيتهم ويقووا وعيهم القومي بها.

ويظهر هذا التناقض في التأرجح بشأن قضية اللغة، فحركة التنوير بدأت بمهاجمة اليديشية باعتبارها لغة غير طبيعية شاذة، وألمانية منحطة وغير عقلانية، وطالبوا بالعودة إلى العبرية باعتبارها لغة طبيعية وربما عقلانية. ولكن العبرية عودة للماضي، وبعث رومانسي للغة لم يَعُد يتحدث بها أحد، فأُسقطت العبرية، وتم تبنِّي الألمانية أو اللغة القومية سواء الروسية أو البولندية. ثم ظهرت الدعوة إلى اليديشية نفسها باعتبارها اللغة العضوية المحلية الجماهيرية. وتظهر الازدواجية في الآداب المكتوبة بالعبرية فهو دعوة إلى الانفتاح على الآداب الغربية وتبنِّي أشكالها الحديثة، ولكن لغة هذه الآداب العبرية لغة ميتة تم بعثها. كما يظهر التناقض في حركة الإصلاح الديني اليهودي، إذ كان من ثمراته اليهودية الإصلاحية التي تدعو للاندماج وإسقاط العزلة، والتمسك بالعقلانية. ولكن من ثمراته أيضاً اليهودية المحافظة التي رفضت الشريعة اليهودية التقليدية وكثيراً من الأشكال التقليدية، ولكنها حولَّت هذه الأشكال نفسها إلى تراث شعبي عضوي يشبه المطلق. ومن ثَمَّ، فهي تهاجم اليهودية الحاخامية التقليدية، والعقيدة اليهودية بكل مطلقاتها، ولكنها تتمسك بالتراث العضوي اليهودي بوصفه مطلقاً لا يمكن التساؤل عنه. ومن هنا، كان الهجوم العقلاني على أنبياء اليهود وعلى التراث الديني اليهودي باعتباره تراثاً غيبيا معادياً للإنسان. ثم يتبع ذلك البعث الرومانسي للبطولات العبرية لفترة ما قبل اليهودية، مثل شمشون وشاؤول، وهي بطولات تجسِّد عناصر لا عقلانية خارقة. ويظهر التناقض كذلك في الدعوة إلى العودة إلى الطبيعة والاندماج بها، فهي تعني أن يترك اليهودي الجيتو المظلم ويترك مغارته اليهودية ليختلط بعالم الأغيار ويقوم بالعمل اليدوي والأعمال الزراعية والإنتاجية المختلفة التي حُرِم منها. ولكن هذه الدعوة تصبح، كذلك، دعوة إلى العودة إلى الطابع المحلي وإلى التراث القومي العضوي الطبيعي.

ويتضح التناقض نفسه، في موقف الحركة الصهيونية من الغيبيات الدينية. فالحركة الصهيونية نظرت للمفاهيم الدينية باعتبارها مفاهيم لا عقلانية تتجاوز المادة، ولذا دعت اليهود لأن يكونوا طبيعيين لا يختلفون عن البشر ولا يتحدثون إلا عن القانون الطبيعي (المادي) العام ولا يدورون إلا في إطاره. وانطلاقاً من هذا تم رفض الدين والماشيَّح وكل الغيبيات. ولكن تم تبنِّي بعض هذه الأفكار والغيبيات المرفوضة (مثل الشعب اليهودي والأرض) بعد أن أُفرغت من مضمونها الديني وتم إضفاء المطلقية عليها، أي أنه تمت استعادة القداسة من داخل المادة ومن ثَمَّ تم تشجيع الخصوصية والتفرُّد. فالشعب اليهودي شعب مثل كل الشعوب، ولكنه شعب ذو رسالة خاصة وحقوق مطلقة. وهو يؤسس دولة ديمقراطية مثل كل الدول الأخرى، ولكن هذه الدولة تتمتع بقداسة لا نظير لها حتى أنها تحل محل الرب في وجدان اليهود. والمستوطن الصهيوني سيعود إلى الطبيعة يلتصق بها، ويعمل بيديه في الأرض، ويتحرر من الاستغلال والملكية الخاصة ومن كل ما يميِّز الإنسان عن أخيه الإنسان. ولكننا نكتشف أن الأرض ليست الأرض بشكل عام بل الأرض المقدَّسة الخاصة المقصورة عليه. ومن ثَمَّ نجد أن هذا الداعي إلى الإخاء الإنساني والعالمي يقتل العرب ويرفض السماح لهم بأن يزرعوا الأرض معه. ولعل هذا الجانب في الصهيونية سر جاذبيتها

للعالم الغربي، فهي محاولة ماهرة لحسم التناقض الكامن في الفكر العلماني. وهذا التناقض هو ما مكَّن الصهيونية من التوصل للخطاب الصهيوني المراوغ، بمقدرته التعبوية الهائلة إذ جعل استيعاب يهود الغرب من دعاة الاندماج ويهود الشرق من دعاة الانعزال والهجرة الاستيطانية ممكناً.

دعاة التنوير اليهودي (المسكليم)

«مَسكليم» كلمة عبرية مفردها «مَسْكيل» وهي لفظة تكريم عبرية وتعني «العالم» أو «الرجل المستنير»، وهي مشتقة من كلمة «سيكيل» ومعناها «ذكاء» التي استخدمت بعد ذلك بمعنى «استنارة». وقد استُخدمت هذه الكلمة لأول مرة في إيطاليا في القرن الرابع عشر الميلادي، ثم صارت تعني في البلاد السلافية، منذ القرن التاسع عشر الميلادي، العالم اليهودي الذي يتصف بحب المعرفة ويكافح من أجل البعث الحضاري لليهود ويبشر بحركة التنوير اليهودية ومُثُل حركة الاستنارة الغربية.

وقد أحدَث دعاة التنوير ثورة في عالم اليهود وفي مسار تواريخهم، إذ قدموا أنفسهم باعتبارهم أعلم بمصلحة اليهود من القيادة التقليدية، وعلى أنهم، بما لديهم من علم ومعرفة بالعالم الحديث، أكثر قدرة على التعبير عن هذه المصالح. وكانوا يرون أنفسهم، أساساً، بشراً لا يهود، وطليعة حضارة إنسانية عالمية يبشرون بها بين اليهود الذين يتمسكون بحضارتهم المتخلفة. وحاول دعاة التنوير إعادة صياغة الهوية اليهودية وتحديثها، فكانوا يتقدمون بالبرامج والمشاريع للحكومات الغربية المختلفة حتى يتم تحديث اليهود. وعلى سبيل المثال، تعاون هرتز هومبرج مع الحكومة النمساوية لفرض الصبغة الألمانية على يهود جاليشيا وأسس فيها ما يزيد على مائة مدرسة يهودية ألمانية في الفترة بين ١٧٨٧ و ١٨٠٠.

ويمكن أن نفرِّق بين دعاة التنوير في شرق أوربا من جهة ودعاة التنوير في وسطها (الذي كان يُطلَق عليه في الأدبيات اليهودية اسم «الغرب») من جهة أخرى. ففي الغرب، تمكَّن دعاة التنوير من أن يمسكوا بزمام الموقف ويقوموا بتغيير معالم حياة الجماعة اليهودية، الأمر الذي يتضح في اليهودية الإصلاحية وغيرها من الحركات. أما في شرق أوربا، فكان الوضع جد مختلف، إذ ظل دعاة التنوير أقلية صغيرة مُحاصَرة، ولم يستطع سوى الأثرياء منهم المجاهرة بآرائهم. أما الفقراء، فكانوا يهربون إلى مراكز التنوير في الغرب. ونظراً لصغر عددهم وهامشيتهم، لم تظهر حركة دينية إصلاحية في الشرق على غرار ما حدث في الغرب. وآمن دعاة التنوير بقوة الدولة باعتبارها قوة مطلقة، واستغلوا المقولة الدينية اليهودية "شريعة الدولة هي الشريعة" لإعطاء شرعية دينية لهيمنة الدولة على اليهود وغير اليهود. واستعان دعاة التنوير بالسلطات الحكومية لضرب القوى التقليدية داخل الجماعة اليهودية، وقاموا بنضال لا هوادة فيه ضد الحسيديين، وساعدوا السلطات في اضطهاد التساديك (زعماء الحسيدية) وفي مصادرة كتبهم. وظل هذا الوضع قائماً حتى نهاية القرن حينما بدأ دعاة التنوير يتبنون مُثُلاً اجتماعية ثورية فانقلب الحال، واستعانت القيادة التقليدية بالسلطات ضد دعاة التنوير الثوريين، مؤكدة لها أن اليهود المتمسكون بالتقاليد الدينية هم وحدهم الخاضعون للحكومة المتعاونون معها.

وقدم دعاة التنوير نقداً متكاملاً للشخصية اليهودية التقليدية، في طفيليتها وهامشيتها وعدم انتمائها. وهو النقد الذي ورثه كل من الصهاينة والمعادين لليهود. ومن الملاحَظ أن الكلمة في الكتابات الصهيونية واليهودية والأرثوذكسية تكتسب مدلولات قدحية.

المسكليم

«مسكليم» كلمة عبرية تشير إلى دعاة حركة التنوير بين اليهود. انظر: «دعاة التنوير اليهودي (المسكليم)».

موسى مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦)

رائد حركة التنوير اليهودية. وُلد في دساو (ألمانيا الوسطى) لأب فقير يعمل في كتابة مخطوطات التوراة أي لفائف الشريعة. وأُصيب بمرض في طفولته تسبَّب في تقوُّس عموده الفقري وأثر في جهازه العصبي. وتلقَّى مندلسون تعليماً تقليدياً على يد حاخام ثم سافر إلى برلين حيث درس الطب والفلسفة واللغات اليونانية واللاتينية والإنجليزية والفرنسية، وكان هذا أمراً غير عادي بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في أوربا آنذاك. اشتغل مندلسون مدرساً خصوصياً لأولاد صاحب مصنع حرير ألماني يهودي ثم عمل محاسباً عنده، واستوعبت الوظيفة كثيراً من وقته، ولكنها أتاحت له فرصة الإقامة في برلين كيهودي يتمتع بالحماية بسبب نفعه. وظل يعمل طيلة حياته تاجراً وتزوج حفيدة يهودي البلاط صموئيل أوبنهايمر.

صادق مندلسون عديداً من المثقفين الألمان في عصره من بينهم كانط ولسينج الذي كتب مسرحية **نيثان الحكيم** (١٧٧٩) واستخدم مندلسون فيها كنموذج لبطل المسرحية اليهودي الذي يتحدث عن الأخوَّة وحب الجنس البشري.

قرأ مندلسون أعمال موسى بن ميمون وتأثر بنزعتها العقلانية،

كما تأثر بأعمال لايبنتز وإسبينوزا. وذاع صيته في بداية الأمر بسبب كتاباته في فلسفة الجمال التي تُعَدُّ إسهاماً لابأس به في هذا الحقل الفلسفي، ثم نشر كتاب **فايدون** (١٧٦٧) تناول فيه موضوع الخلود الشخصي في شكل حوار أفلاطوني يؤكد فيه فكرة خلود الروح وأن الموت لا يعني الفناء الكامل، وبيَّن أن الرب الخيِّر ما كان غرس هذه الفكرة في روح الإنسان إن لم يكن هناك خلود حقيقي للروح. ويتضح في الكتاب مدى تأثر مندلسون بمفكري عصر العقل والاستنارة والفلاسفة الربوبيين، الذين كانوا يؤمنون بالخالق دون إيمان بأي دين ولا حتى بالآخرة. وقد ذاع صيت مندلسون بعد هذا الكتاب وكان يشار إليه بأنه «أفلاطون الألمان وسقراط اليهود». ورُشح مندلسون لأكاديمية العلوم في برلين ولكن الملك شطب اسمه من قائمة المرشحين. ودخل مندلسون في نقاش حاد مع المفكر الديني المسيحي السويسري يوحنان لافاتر الذي طلب إلى مندلسون أن يثبت زيف الدلائل على صدق العقيدة المسيحية أو أن يفعل ما كان سقراط سيفعله لو كان في الموقف نفسه، أي أن يتنصَّر.

لكل هذا، دخل مندلسون مرحلة فكرية ثانية ظهر فيها اهتمامه باليهود واليهودية، فبذل قصارى جهده كي يقضي على عزلة اليهود الفعلية والنفسية. وحاول أن يحطم ما أسماه الجيتو العقلي الداخلي الذي أنشأه اليهود حول أنفسهم لموازنة الجيتو الفعلي الخارجي الذي كانوا يعيشون فيه حتى عهد قريب، فأنشأ مدرسة للأطفال في برلين لتعليم الألمانية والحرف اليدوية إلى جانب العلوم التقليدية، وهاجم استخدام اليديشية، وأصدر عام ١٧٥٠ مجلة لنشر ثمار الثقافة العالمية بعنوان **كوهيليت موسار** (الواعظ الأخلاقي) مقلداً أسلوب مجلتي **إسبكتاتور وتاتلر**، ولكنها منيت بالفشل ولم يظهر منها سوى ثلاثة أعداد. ثم نشر عام ١٧٨٣ مجلة **هاميئاسيف** (الحاصد أو الجامع) التي كانت تُعَدُّ أهم مجلات حركة التنوير، واستمر نشرها حتى عام ١٨١١.

ونشر مندلسون عام ١٧٧٠ طبعة مشروحة من سفر الجامعة، كما نشر تعليقاً بالعبرية على كتاب موسى بن ميمون عن المنطق. وانتهى مندلسون من ترجمة أسفار موسى الخمسة إلى الألمانية وكُتبت بحروف عبرية، وكتب تعليقاً بالعبرية عام ١٧٨٣. وقد نُشرت الترجمة مع تعليقات وشروح كتبها معه مؤلفون يهود آخرون من بينهم نفتالي فيسلي وهيرتز هومبرج وياروسلاف. ويُعَدُّ هذا العمل من أهم أعمال عصر الإعتاق والتنوير، فهو الخطوة الأولى التي خطاها أعضاء الجماعة اليهودية نحو الحضارة الغربية العلمانية الحديثة، وقد حرَّم الحاخامات تداولها. كما ترجم مندلسون بعد ذلك المزامير ونشيد الأنشاد إلى الألمانية، وكتب كريستيان دوم عمله الشهير عن نفع اليهود وتحسين أحوالهم **بخصوص إصلاح مكانة اليهود المدنية**، الذي يتناول فيه هذه القضية بعد أن حثه مندلسون على ذلك. ويُقال إنه اشترك معه في كتابته وإن كان اختلف معه بعد ظهور الكتاب، لأن دوم طالب بمنح اليهود بعض الحقوق المدنية وأوصى بعزلهم داخل الجيتو والاحتفاظ بمؤسسات الإدارة الذاتية وألا يشغلوا وظائف عامة.

وفي عام ١٧٨٢، قام أحد أصدقاء مندلسون بترجمة كتاب مَنَسَّى بن إسرائيل الذي يدافع فيه عن اليهود ونفعهم، وكتب له مندلسون المقدمة. وأثار الكتاب نقاشاً حاداً لأنه نادى بضرورة إلغاء حق الحاخامات في طرد اليهود من حظيرة الدين. ورد عليه أحد النقاد مبيناً أن مثل هذا المطلب غير منطقي لأن القسر الديني أحد أعمدة اليهودية، وزعم أن مندلسون اقترب (في موقعه هذا) من المسيحية التي لا تستند إلى الشرائع والقواعد وإنزال العقوبات بمن لا ينفذها وإنما إلى العقائد الأخلاقية غير المرتبطة بنظام عقوبات.

واضطُر مندلسون إلى كتابة **أورشليم: أو عن السلطة الدينية والعقيدة اليهودية** (١٧٨٣) للرد على الانتقادات الموجهة إليه. والكتاب في جزئه الأول يشبه كتاب إسبينوزا في دفاعه عن الحرية الدينية وحرية الضمير إذ أن للدولة وحدها، من وجهة نظره، حق استخدام القوة من أجل مصلحة المواطنين. ولكن لا الدولة نفسها ولا الكنيسة لها الحق في فرض أية قيود على عقيدة الإنسان، أو على مبادئه، ولا يمكن تحديد مكانة الإنسان في المجتمع أو حقوقه بناء على عقيدته. ومن ثَمَّ طالب مندلسون بمنح كل فرد حرية العقيدة، ليقرر كلٌّ ما يشاء حسبما يمليه عليه ضميره وتصوُّره الأخلاقي. وإذا أرادت الكنيسة أو أية مؤسسة دينية أن تبشر بعقيدتها، فلابد أن تلجأ إلى الإقناع لا القسر وطالب بفصل الدين عن الدولة.

ولكن يُلاحَظ أن ما يقرره الضمير الفردي لا يتجاوز البتة رقعة حياة الفرد، إذ يظل للدولة الحق الكامل فيما يختص بالمصلحة العامة والحياة العامة. وهذا يعني أن مندلسون كان يحاول أن يطرح على اليهود التحدي الذي طرحه عليهم عصر الإعتاق والانعتاق بأن يصبح اليهودي مواطناً لا عضواً في جماعة إثنية دينية، وأن يكون ولاؤه فيما يختص بالحياة العامة للدولة وحدها. ويمكنه أن يحتفظ بولائه فيما يختص بالدين لأعضاء جماعته الدينية حسبما يمليه عليه ضميره، أي أن يصبح اليهودي مواطناً في الشارع يهودياً في منزله.

ويتوجه مندلسون في الجزء الثاني من الكتاب لمشكلة اليهود واليهودية، فيوجه سهام نقده إلى سيطرة الحاخامات، ويحاول أن

يطرح تصوراً لليهودية عقلانيا في أساسه، ولكن للوحي فيه مكاناً، فيذهب إلى أن هناك أسساً ثلاثة لليهودية هي: وجود الإله، والإيمان بالعناية الإلهية، وخلود الروح. وهذه الأسس حقائق بدهية مثل الحقائق الرياضية، كما تشكل الأساس الفلسفي لكل الأديان قاطبة. ومن ثَمَّ، لا يوجد تعارض بين العقل واليهودية في الجانب العقيدي، ولا يوجد بالتالي داع للقسر الديني. ولكن اليهودية ليست ديناً بالمعنى المتعارف عليه فهي مجموعة من القوانين والقواعد الأخلاقية السلوكية والشعائر المرسلة، فهي ديانة لا تهدف إلى تقنين طريقة تفكير اليهودي وإنما لوضع أسس لسلوكه.

واليهودية لا تطلب الإيمان بأية عقائد يهودية محددة أو حقائق خاصة بالخلاص، ولا تنقل معرفة ربانية خاصة، ولا توجد وصية واحدة من الوصايا العشر تتحدث عن الإيمان وإنما تتحدث كلها عن السلوك. وعندما تحدَّث الرب مع موسى في سيناء لم يذكر له أية عقائد بل ذكر له طريقة للسلوك يطبقها اليهود في حياتهم، أي أن العقل يصل إلى العقائد (العامة والجوهرية)، والوحي يقرر الشعائر (الخاصة والمحلية)، وكأن العقل يمثل المضمون والوحي يمثل الشكل.

وتعريف مندلسون لليهود يقترب إلى حدٍّ كبير من تعريف إسبينوزا الذي يرى أن شريعة اليهود أُرسلت لليهود دون سواهم. وبينما كان إسبينوزا يرى أن هذه الشريعة فقدت حيويتها ووظيفتها مع نهاية الدولة العبرانية، كان مندلسون يؤمن بأنها مازالت ذات فاعلية. كما يرفض مندلسون حلولية إسبينوزا المتطرفة، فالرب حالٌّ ومفارق في آن واحد وهو رب يرسل بالأوامر والنواهي ولكنه رحيم. والإله ليس مجرد نظام منطقي (النظام الضروري والكلي للأشياء) أو قانون طبيعي غير شخصي (كما كان يتصور إسبينوزا). وهذا يعني أن مندلسون احتفظ بشيء من الثنائية الأساسية التي تسم أي تفكير ديني وإن أصبحت باهتة جداً. ولذا، فحينما علم أن صديقه ليسنج اعترف قبل موته بأنه من المؤمنين بفكر إسبينوزا وحلوليته وإلحاده، أصيب مندلسون بالذعر وألَّف كتاباً يهاجم فيه إسبينوزا، وكان آخر كتبه. ويبدو أن الجهد العصبي الذي بذله في كتابته كان فوق طاقته إذ تُوفي بعد عدة أيام من تسليم مخطوط الكتاب للناشر.

وذاع صيت مندلسون لدرجة أن اليهود أطلقوا عليه لقب «موسى الثالث»، (باعتبار أن النبي موسى هو الأول، أما الثاني فهو موسى بن ميمون). ورغم أن مندلسون الأب الحقيقي لحركة التنوير، فإنه كان من بعض النواحي شخصية انتقالية إذ كانت تسيطر عليه أحياناً تحفظات كثيرة بشأن ترجمة كل العلوم الدينية. كما كان يعارض التعليم المشترك بين اليهود والأغيار خشية أن يؤدي مثل هذا التعليم إلى تحوُّل اليهود عن دينهم. وقد هاجمه المفكر الصهيوني بيريتس سمولنسكين لأنه طالب بفصل الدين عن القومية، ولأنه أعلن أن اليهودية لا يمكنها الاستمرار إلا بوصفها ديناً وحسب، وهو الأمر الذي يتنافى مع جوهر اليهودية كما يراها سمولنسكين، فهي دين وقومية في آن واحد.

وقد تنصَّر أبناء مندلسون كلهم إلا واحداً، وهذه حقيقة يسوقها بعض اليهود الأرثوذكس والصهاينة دليلاً على أن حركة التنوير كانت حتماً ستؤدي إلى اختفاء اليهودية وإلى انصهار اليهود. ولكنهم لو نظروا إلى مصير عائلة هرتزل وأبنائه، حيث تنصَّر أحدهم وجُنَّ الآخر وانتحر، وحيث كان السلوك الجنسي لابنته شائناً إذ يُقال إنها احترفت البغاء، نقول لو نظروا إلى مصير عائلة هرتزل لاكتشفوا أن ما يحدث لأبناء زعيم حركة سياسية أو فكرية ما، خصوصاً بعد وفاته، لا يصلح لأن يكون معياراً وحيداً للحكم على هذه الحركة.

٥ـ الرأسمالية والجماعات اليهودية

الرأسمالية والجماعات اليهودية

يمكن القول، بشكل عام، بأن يهود العالمين العربي والإسلامي لم يلعبوا دوراً اقتصاديا متميِّزاً، ولم يضطلعوا بوظائف اقتصادية خاصة مقصورة عليهم دون بقية أعضاء المجتمع، ومن ثَمَّ فإنهم لم يلعبوا دوراً خاصا أو متميِّزاً في نشأة الرأسمالية أو في المشروعات الرأسمالية الحرة في العالم العربي أو الإسلامي، وخصوصاً أن الرأسمالية لم تنبع من داخل البلاد العربية والإسلامية وإنما وفدت من أوربا، بخاصة مع الجيوش الاستعمارية. كما يُلاحَظ أن البلاد العربية والإسلامية التي أسست نظاماً اقتصاديا يتبع نموذج الاقتصاد الحر، مثل تركيا ودول الخليج ولبنان، لم يكن فيها جماعات يهودية كبيرة. وحتى حين وُجدت جماعات يهودية كبيرة نسبياً في بعض البلاد، كما هو الحال في المغرب، فإنها لم تساهم بشكل خاص في التاريخ الاقتصادي لهذه البلاد. لكن هذا التعميم لا ينفي، بطبيعة الحال، وجود أي شكل من أشكال التمايز بين الجماعة اليهودية والأغلبية، فهذا ضد طبيعة الأشياء. فالأقليات الدينية والإثنية والعرْقية لعبت دائماً وأبداً دوراً متميِّزاً في المجتمعات التقليدية؛ إذ كانت قطاعات منها تتحول إلى جماعات وظيفية، وجماعات وظيفية وسيطة على وجه التحديد. وكان تقسيم العمل يتم أحياناً في

هذه المجتمعات التقليدية حسب الأوضاع الإثنية والدينية. ولا يشكل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي استثناءً من القاعدة، لكن درجة تميُّزهم الاقتصادي لم تكن حادة، كما أنهم لم يكونوا قط الأقلية الوحيدة التي تلعب دوراً اقتصادياً متميِّزاً. ومن ناحية أخرى، كان كثير من الحرف والوظائف التي كان يشتغل بها أعضاء الجماعة اليهودية غير مقصورة عليهم بل كان يشتغل بها المسلمون والمسيحيون.

أما في العالم الغربي، فكان الأمر جد مختلف، إذ لعب أعضاء الجماعات اليهودية فيه دوراً محدَّداً بارزاً الأمر الذي حدا بكثير من المفكرين الغربيين، مثل كارل ماركس وماكس فيبر ووارنر سومبارت، إلى دراسة قضية العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعات اليهودية وظهور الرأسمالية في العالم الغربي وتطوُّرها ومدى مساهمتهم فيها. وأصبحت القضية نفسها إشكالية أساسية في الفكر الاشتراكي وأدبيات معاداة اليهود والفكر الصهيوني نفسه. وتُركِّز الأدبيات الخاصة بهذه الإشكالية على عنصرين أساسيين يربطان بين أعضاء الجماعات اليهودية والرأسمالية:

١ ـ تجربة الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية داخل التشكيل الحضاري الغربي.

٢ ـ النسق الديني اليهودي نفسه. ولا يميِّز ماركس وفيبر وسومبارت بين اليهودية واليهود (خصوصاً ماركس الذي يكاد يفترض ترادفهما).

ويؤكد فيبر أهمية العنصر الديني (الفكر الديني اليهودي) على حساب العناصر التاريخية. أما سومبارت، فإنه يؤكد أهمية العنصرين معاً، ولكنه يعطي لأطروحته الخاصة بمسئولية اليهود (خصوصاً المارانو) عن ظهور الرأسمالية صفة الحتمية بل العِرْقية إذ يرى وجود علاقة سببية بسيطة بين اليهود والرأسمالية.

ويميِّز المفكرون الثلاثة بين شكلين من أشكال الرأسمالية:

١ ـ رأسمالية المجتمعات التقليدية أو الإقطاعية والتي يُسمِّيها ماركس «الرأسمالية الشكلية»، ويسميها فيبر «الرأسمالية المنبوذة»، ويسميها سومبارت «الرأسمالية التجارية». ويستخدم ماركس وإنجلز المصطلح الأخير أيضاً (ونسميها نحن في مصطلحنا «الجماعة الوظيفية الوسيطة»).

٢ ـ رأسمالية المجتمعات الحديثة التي يُسمِّيها ماركس «الرأسمالية الصناعية أو الحقيقية»، ويسميها فيبر «الرأسمالية الرشيدة»، ويُطلق عليها سومبارت مصطلح «رأسمالية الاستثمارات».

ويتسم الشكل الأول بأنه رأسمالية تعمل بنقل البضائع من مجتمع إلى آخر، أما نشاطها فيتركز على عمليات التبادل دون أن تقوم بإنتاج أية سلع جديدة ولا تُضيف أي فائض قيمة. أما الشكل الثاني، فإنه يقوم بالاستثمار والمخاطرة وإنتاج السلع الجديدة. ولذا، نجد أن مركز الرأسمالية الأولى سوق الأوراق المالية، أما الثانية فمركزها المصنع. ومن ثَمَّ، نجد أن الرأسمالية الأولى مجرد جيب رأسمالي (تجاري مالي) في المجتمع الإقطاعي يعيش فيه وبه، على نقيض الرأسمالية الحقيقية التي تُولَد في المدينة خارج المجتمع الإقطاعي وتقف على الطرف النقيض منه وتقضي عليه في نهاية الأمر. وربط هؤلاء المفكرون بين أعضاء الجماعة اليهودية من جهة والرأسمالية التجارية من جهة أخرى. ولعل هذا من أهم أسباب عدم تحدُّد وضع اليهود داخل الحضارة الغربية من وجهة نظرهم، فهم ممثلون لرأسمالية المجتمع الإقطاعي. وقد ارتبط وجودهم في الأذهان بعدة قوى متناقضة: الطبقات الحاكمة التقليدية، والقوى الرأسمالية المعادية لها، ثم القوى الثورية التي وقفت ضد الفريقين.

وفي محاولتنا رصد دور الجماعات اليهودية في ظهور الرأسمالية سنفرِّق بين العقيدة اليهودية من جهة والجماعات اليهودية من جهة أخرى. كما سنحاول الابتعاد عن طرح أي تصور خاص بوجود علاقة سببية واضحة بين اليهود وظهور الرأسمالية في الغرب. وسيكون نموذجنا التفسيري لهذه العلاقة مفهوم الجماعة الوظيفية الوسيطة.

العقيدة اليهودية والرأسمالية

ليس بإمكان الدارس المدقق إنكار أن النسق الديني اليهودي، في صياغته الأولى التوراتية، ثم في صياغاته التلمودية ثم القبَّالية، يحوي داخله استعداداً كامناً أو قابلية لظهور الرأسمالية، وهذا جانب وفَّاه فيبر حقه من الدراسة. ولكن من الواضح أن فيبر لم يكن ملما بالتحولات العميقة التي دخلت اليهودية بعد هيمنة الفكر القبَّالي عليها وانتشار التصوف بين أعضاء الجماعات أو لعله لم يدرك أهميتها. والقبَّالاه اللوريانية فكر حلولي (روحي) متطرف يضع اليهودي في مركز الكون باعتباره امتداداً للخالق ويعمق إحساس اليهودي بأنه من الشعب المختار، كما يُصعِّد حدة التوقعات المشيحانية. فالحلولية تعني حلول الإله في الأشياء حتى يتوحَّد بها ولا يُوجَد مستقلاً عنها فتصبح المخلوقات في قداسة الخالق مساوية له فتُرَدُّ كل الأشياء إلى مبدأ واحد، كامن في المادة ولا يعلو عليها، وكل هذا يساعد على تزايُد معدلات العلمنة. أما النزعة المشيحانية والإحساس بالاختيار فهي عناصر تعزل اليهودي عن واقعه المباشر

وعن الجماعات الإنسانية المحيطة به فيصبح عنصراً موضوعيا وشخصاً غريباً، وهذه صفات أساسية تخلق استعداداً كامناً لدى صاحبها لتبنّي أخلاقيات الرأسمالية المجردة والسوق الحر الذي يرى كل الظواهر باعتبارها خاضعة تماماً لآليات العرض والطلب. وتَجدُر الإشارة إلى أن العلاقة بين التصوف (الحلولي) والتجارة أمر مثير جداً ويحتاج إلى مزيد من الدراسة، بخاصة في ضوء علاقة الجماعة الوظيفية بالرؤية الحلولية للكون (المكان والزمان والإنسان) ومركب الشعب المختار.

وإذا كانت ثمة عناصر داخل النسق الديني تخلق عند أعضاء الجماعات اليهودية استعداداً كامناً لتقبُّل أخلاق الرأسمالية، ومن ثَمَّ المساهمة في تطويرها، فإن تجربتهم التاريخية داخل التشكيل الحضاري الغربي هي التي بلورت وضعهم وحولّت الاستعداد الكامن والقابلية إلى حقيقة تاريخية واقعة. وأهم سمات هذه التجربة أن أعضاء الجماعات اليهودية قد نُظر إليهم، منذ البداية (داخل التشكيل الحضاري الغربي)، باعتبارهم الشعب الشاهد، أي أنهم ليسوا جزءاً من جماعة الأغلبية المسيحية، كما أصبحوا أقناناً للبلاط ومن بعد ذلك يهود أرندا ثم يهود بلاط، أي أن اليهود ظلوا خارج نطاق العلاقات الاقتصادية والدينية والأخلاقية للمجتمع الإقطاعي. فاليهودي كان غريباً بمعنى الكلمة، ونحن نرى أن انتشار القبَّالاه ساهم ولا شك في تعميق هذه العزلة والغربة إذ أضفت على دور اليهود، كوسطاء وغرباء، قدراً عالياً من القداسة، بحيث أصبح اليهودي الوسيط الكوني بين الإله والعالم، مجرد أداة لتوصيل الإرادة الإلهية لبقية البشر. وترتبط رؤية الخلاص بمدى قيامه بتنفيذ الأوامر والنواهي، أي أن القداسة حوسلت اليهودي تماماً. ولكن هذه الوساطة الكونية كانت صدى (وربما تبريراً وتسويغاً أيضاً) لعملية وساطة أخرى؛ إذ اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب، منذ بدايات العصور الوسطى حتى بدايات الثورة التجارية، بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، فكانوا يقومون بنقل الفائض الزراعي والسلع الترفية، ويؤدون وظائف مالية وتجارية مختلفة شديدة الحيوية للمجتمع الإقطاعي، مع أنها لم تكن من صميم العلاقات الإنتاجية لهذا المجتمع، كما لم يكن بوسع بقية أعضاء المجتمع القيام بها. وكان المجتمع يُظهر التسامح تجاه اليهود مادام في حاجة إليهم، ولكنهم لم يُعطوا قط حقوقاً قانونية محدَّدة (مثل حقوق وواجبات أهل الذمة في الإسلام). وكانت تَصدُر مواثيق خاصة تؤمِّن حقوقهم وتحدِّد واجباتهم ومقدار الضرائب المفروضة عليهم وأماكن إقامتهم وتُزوِّدهم بالحماية وتمنحهم المزايا. وكانت هذه المواثيق تُلغَى في أي وقت تنتفي فيه الحاجة إلى اليهود وإلى دورهم الاقتصادي، وبالتالي كان يتم طردهم، أي أن حوسلة أعضاء الجماعات اليهودية تمت تماماً. وكان يُشار إليهم باعتبارهم أقنان بلاط، أي أنهم كانوا خاضعين للملك أو الإمبراطور مباشرة بل يُعَدُّون ملكية خاصة له وأداة من أدواته، يدينون له وحده بالولاء، الأمر الذي حقق لهم قسطاً كبيراً من حرية الحركة، لكن ذلك في الوقت نفسه زاد عزلتهم عن بقية قطاعات المجتمع.

ونتج عن ذلك أن وجود أعضاء الجماعات اليهودية في إطار الحضارة الغربية كان يتسم بعدم التجذُّر أو الانتماء الكامل لأي تشكيل ثقافي أو طبقي محدَّد، فتحولوا إلى عنصر بشري حركي يحتفظ برأسماله على هيئة نقود سائلة يمكن نقلها بسهولة من مكان إلى آخر. ودعم هذا الاتجاه منع اليهود، في معظم الأحوال، من شراء العقارات الثابتة.

لقد تحوَّل اليهود، نظراً لغربتهم وعدم تَجذُّرهم وبسبب الطبيعة السائلة لثروتهم، إلى عنصر بشري متحرك وموضوعي مجرد: موضوعي لأنه يُنظَر إليه دائماً من الخارج، ومجرد لأنه لا يوجد داخل سياق مُحدَّد. وأصبح أعضاء الجماعة يجسدون ضرباً من الاقتصاد الحركي المجرد داخل الاقتصاد الزراعي الثابت الطبيعي. ووصل هذا التجريد إلى قمته في التنظيم الكامل لعلاقة اليهود بالمجتمع، وفي إحلال العلاقات القانونية التعاقدية محل العلاقات التقليدية الشخصية المبنية على كلمة الشرف والثقة التي كانت سائدة في المجتمع الإقطاعي. فكانت المواثيق التي تُمنَح لليهود تحاول أن تنظم كل جوانب العلاقات الممكنة بين المجتمع المسيحي وأعضاء الجماعة اليهودية، وهي علاقات كان الهدف منها، بالنسبة إلى الطرفين، الربح الاقتصادي المحض. وفكرة القانون اللاشخصي والعلاقات البشرية (علاقات إنسانية بين أشياء وعلاقات إنتاج بين بشر) هما الجوهر النفعي للاقتصاد والمجتمع الرأسماليين. ويمكننا القول بأن اليهود أصبحوا نواة الجيزيلشافت (المجتمع التعاقدي الذري المفتت) داخل الجماينشافت (الجماعة العضوية التراحمية المترابطة التقليدية).

وأدَّى عدم انتماء اليهود وتجريدهم ـ إلى جانب وجود التبادل الاختياري بين اليهودية والرأسمالية ـ إلى تحوُّل أعضاء الجماعة إلى الخميرة التي ساعدت على نشوء الرأسمالية، دون أن يكونوا بالضرورة السبب الوحيد أو حتى الأساسي في العملية التاريخية المركَّبة التي أدَّت إلى ظهور الرأسمالية.

ويظهر دور أعضاء الجماعات اليهودية، كخميرة للنظام

الرأسمالي في الغرب، في كثير من النشاطات التي لعبوها وفي إبداعاتهم. فهم من أوائل مَنْ طوَّر فكرة الأسهم والسندات التي تحقق تراكماً رأسمالياً يمكن توجيهه إلى أي مجال استثماري قد يظهر، أي أنهم أسرعوا بعملية تجريد النقود بفصلها عن الأفراد وعن الرغبات البشرية والعواطف والأخلاق، وزادوا كفاءتها كرأسمال، وجعلوا مقياس الكفاءة الذي يُطبَّق عليها معدل الربحية وحسب.

وبالطبع، كان اليهودي الذي تم استبعاده من النظام الإقطاعي يقع خارج نطاق القيم الدينية والأخلاقية للمجتمع (وهو في هذا لا يختلف عن عضو الجماعة الوظيفية الذي ينظر له المجتمع المضيف باعتباره شيئاً لا قداسة له، ومجرد آلة يستفاد منها ثم تُنبَذ). كما أن قيمه التجارية الموضوعية المجردة كانت مختلفة عن القيم المسيحية التي كانت تنظر بعين الشك إلى النشاط التجاري ككل، وإلى الربا على وجه الخصوص، وتهدف إلى أن تجعل السوق مكاناً يلتزم بالحد الأدنى من الأخلاق وبأفكار مثل فكرة الثمن العادل والأجر الكافي، مع ضرورة إتاحة الفرصة لكل التجار لتحقيق ربح معقول مع وضع حدٍّ أقصى للأرباح. وأدَّت هذه الأخلاقيات، المتخلفة من منظور رأسمالي دنيوي، إذ تخلط بين الاقتصاد والأخلاق، إلى الحد من حركية التجارة. أما العنصر اليهودي، فلم يكن يدين بالولاء لمثل هذه الأخلاقيات. بل ظهر بين أعضاء الجماعات اليهودية مقياسان أخلاقيان: أحدهما يُطبَّق على الجماعة اليهودية (باعتبارها جماعة مقدَّسة لها حرمتها) والآخر يُطبَّق على المجتمع ككل (باعتباره لا حُرمة له ولا قداسة). ولذا، لعب العنصر اليهودي دوراً أساسيا في تحطيم الأخلاقيات المسيحية الاقتصادية الإقطاعية وفي تقويض هذا الضرب من الاقتصاد المحافظ الذي تتداخل فيه العناصر الاقتصادية مع العناصر الأخلاقية والدينية. فساهم أعضاء الجماعة في عملية العلمنة والترشيد، أي فصل العنصر الاقتصادي عن العناصر الأخرى، بحيث يصبح النشاط الاقتصادي مرجعية نفسه ولا يتم ضبطه من خلال مرجعيات (أخلاقية أو دينية أو إنسانية) متجاوزة له. وأدَّى هذا إلى ظهور اقتصاد تجاري مبني على التنافس وعلى محاولة تعظيم الربح (اقتصاد يطرح فكرة الإنتاج بلا حدود وإشباع حاجات المستهلك التي لا تنتهي).

كما أن أعضاء الجماعة، بسبب عدم انتمائهم، كانوا من أكثر العناصر حركية والتزاماً بالقوانين الاقتصادية للسوق كقيمة مطلقة. فنجد أنهم حاولوا دائماً أن يوسِّعوا نطاق السوق وانتشاره، وهي العملية التي انتهت إلى تحويل المجتمع بأسره إلى النمط الرأسمالي وأطلق عليها ماركس تعبير «تهويد المجتمع». وكانوا يبحثون عن أسواق جديدة وزبائن جدد وسلع جديدة. كما أنهم كانوا على استعداد لأن ينتجوا سلعاً أقل جودة وأقل تكلفة عما كان ينتجه (في العصر الوسيط) الحرفي أو التاجر الذي يعتز بحرفته وتجارته، والذي تعوَّد على إنتاج سلعة بعينها يرقى بها إلى مستوى معيَّن من الجودة ولا يمكنه أن يتنازل عنه أو يتهاون فيه، فالواقع أن حرفته كانت جزءاً من ميراثه الشخصي. وكان اليهودي، في محاولة توسيع نطاق السوق، من أوائل العناصر التي شجعت على استخدام الإعلانات على حين كان كثير من المفكرين الغربيين، حتى منتصف القرن الثامن عشر، يهاجمون الإعلانات باعتبارها عملاً غير أخلاقي، بل صدر في باريس عام ١٧٦١ قانون يمنع الإعلانات أو الجري وراء الزبائن لحثهم على الشراء. ويمكننا أن نرى هنا، مرة أخرى، أن الأخلاق المسيحية والتقليدية تحد من حركية السوق، على عكس الأخلاقيات الحركية (العلمانية) للجماعة الوظيفية التي لا تأبه بالحرمات ولا تعبأ بالمطلقات ولا تهتم بأية قيم، سوى قيم الربح والخسارة والبقاء.

وربما كان من العناصر الأساسية التي جعلت أعضاء الجماعة اليهودية خميرة للنظام الرأسمالي أنهم، نظراً لانتشارهم (شتاتهم) على هيئة جماعات منفصلة مترابطة، كانوا عنصراً بشرياً متعدد الجنسيات، عابراً للقارات، إن صح التعبير. فكان ليهود بولندا علاقات تجارية ومالية وثيقة مع يهود ألمانيا ومع يهود العالم الإسلامي، وهلمجراً. وساهم هذا في تسهيل عملية التجارة الدولية وتوسيع نطاق السوق، كما سهل عملية جمع المعلومات التجارية، الأمر الذي جعلهم قادرين على المنافسة.

وقد لعب يهود شرق أوربا دوراً خاصا، فالباعة اليهود، وكذلك اليهود الذين كانوا يقومون بأعمال الفنادق الصغيرة وتقطير الخمور وبيعها وإنتاج الماشية في المناطق الريفية وجمع الضرائب لحساب كبار الملاك، ساعدوا على إدخال عناصر التبادل واقتصاد المال. وكان نشاط صغار التجار اليهود في المناطق الريفية يشجع إنتاج فائض زراعي لزيادة استهلاك البضائع غير الزراعية، كما كان يساهم في إبعاد جزء من قوة العمل الزراعي عن الأراضي، وتوجيهها إلى صناعة الأكواخ المنزلية وخدمات النقل. وهذا النشاط هو الذي ساعد على خلق قوة عمل غير زراعي في المناطق الريفية تعتمد على الأجور أكثر من اعتمادها على العائد من الأرض.

وبظهور النظرية المركنتالية، زاد الدور الذي يلعبه اليهود داخل النظام الرأسمالي. فهذه النظرية تجعل مصلحة الدولة المبدأ الأعلى المقبول لدى الجميع، والإطار المرجعي بحيث يتم الحكم على الإنسان لا بحسب انتمائه الديني وإنما بمدى نفعه للدولة. وقد ظهرت في هذه

الفترة فكرة مدى نفع اليهود وفُتح المجال أمامهم للإسهام في جميع النشاطات الاقتصادية. وابتداءً من منتصف القرن السابع عشر، استعان الملوك والأمراء في وسط أوربا (في ألمانيا وغيرها من الدول) باليهود في كثير من النشاطات الاقتصادية، مثل: التجارة الدولية، وتمويل الجيوش، وعقد القروض والصفقات. وهؤلاء هم الذين يُطلَق عليهم مصطلح «يهود البلاط».

لكل ما تقدَّم، نجد أن تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب مرتبط بتاريخ الرأسمالية في كثير من الوجوه. ومن الملاحظ أن كثيراً من الدول التي كان لها مشروعات تجارية أو استعمارية، كانت ترى أن العنصر اليهودي عنصر أساسي في هذه العملية ويمكن الاستفادة من خبراته ورأسماله كما يمكن توظيفه في أماكن نائية وجديدة، فهو عنصر حركي وحسب. وقد تم توطين اليهود في بولندا في القرن الثالث عشر مع التجار الألمان، لتشجيع الاقتصاد التجاري. ثم تم توطينهم في أوكرانيا بعد ضمها إلى بولندا للسبب نفسه. كما تم توطين اليهود في كثير من المستعمرات الاستيطانية والمراكز التجارية التابعة لإنجلترا وهولندا في العالم الجديد.

وقد رحب كرومويل بتوطين اليهود في إنجلترا لكي ينعشوا الاقتصاد الإنجليزي ولكي يكونوا جواسيس يأتون له بالمعلومات التجارية. وسمحت فرنسا ليهود المارانو المطرودين من إسبانيا بالاستيطان في بعض المراكز التجارية المهمة فيها، مثل بايون وبوردو. وكان توطين أعضاء الجماعات اليهودية يأخذ، في العادة، النمط التالي: يبدأ توطين اليهود السفارد، بمالهم من خبرات تجارية مالية ورؤوس أموال واتصالات دولية، في الدول الغربية والدولة العثمانية ثم يتبعهم في معظم الأحوال جماعات من اليهود الإشكناز الذين بدأوا في الهجرة بعد ثورة شميلنكي.

ولكن، ورغم أهمية الدور الذي لعبه أعضاء الجماعات اليهودية كخميرة ساعدت في نشوء الرأسمالية الحديثة الرشيدة، فإنهم كجماعة وظيفية وسيطة ظلوا مرتبطين بالطبقة الحاكمة في المجتمعات الإقطاعية تابعين لها يخدمونها ويخدمون مصالحها. فالتجارة والربا اليهوديان، أي ما يسميه فيبر «رأسمالية المنبوذين»، لم يشكلا نقيضاً للمجتمع الإقطاعي وإنما خلية داخله. ولذا، كانت هذه التجارة اليهودية تقع ضحية عملية ظهور الرأسمالية الرشيدة المحلية رغم أنها ساهمت هي نفسها في الإعداد لها وتخميرها وإن كانت ساهمت أيضاً في قمعها وتأخير ولادتها كما حدث في بولندا. وربما يكون من المفيد في هذا المضمار أن نفرق بين الدور الذي لعبه أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا في قمع الرأسمالية المحلية وبين الدور الذي لعبه أعضاء الجماعة اليهودية في هولندا وإنجلترا وفرنسا في تطويرها. ولكن أعضاء الجماعات اليهودية، سواء أكانوا أداة قمع في بولندا أم كانوا أداة للتطوير في هولندا، ظلوا دائماً أداةً وحسب لخدمة هدف ما. وهم، في هذا، يشبهون الجماعات الوظيفية الوسيطة في كل مكان. ولقد كانت جيوب اليونانيين والإيطاليين في مصر تمثل عنصراً تجاريا نشطاً حيث بنوا المصانع، مثل مضارب الأرز ومطاحن الدقيق، ولكنهم لم يغامروا قط في الصناعة الثقيلة أو تلك التي تتطلب استثمارات ضخمة بعيدة المدى. فقد ساهموا في حركة التصنيع التي ساعدت على نشوء طبقة رأسمالية محلية، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يحاولون وقف نموها من خلال الهيمنة الاستعمارية. ثم تزايدت قوة الطبقة الجديدة بالتدريج، فطردت الجماعات الوظيفية الوسيطة الغربية لتتولى هي كل النشاطات التجارية والاستثمارية ثم الصناعية.

أثر ظهور الرأسمالية الرشيدة في الجماعات اليهودية

بعد تناول الدور الذي لعبه أعضاء الجماعات اليهودية في تكوين الرأسمالية والاقتصاد التجاري، يمكننا الآن أن نترك المرحلة التكوينية لنرى أثر ظهور الرأسمالية (الرشيدة) فيهم ومقدار إسهامهم في الاقتصاد الرأسمالي نفسه. وسنلاحظ أن دور يهود غرب أوربا يختلف عن الدور الذي لعبه يهود وسط أوربا وشرقها. ويعود هذا إلى معدلات النمو الرأسمالي في هذه البلاد وإلى علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالمجتمع ككل ووضعهم فيه. ففي فرنسا وإنجلترا وهولندا لعب اليهود دوراً ثانويا، أو لنقل دور الجزء في الكل الاقتصادي الأكبر الذي كان قد اكتسب كثيراً من ملامحه الرأسمالية الحديثة في غيبة أعضاء الجماعات اليهودية، وكان لهذه الدول مشروعاتها الاستعمارية الضخمة، ولذا لم يلعب أعضاء الجماعات اليهودية في هذه البلاد سوى دور جزئي منشط.

أما في شرق أوربا، فلم تكن المجتمعات الأوربية هناك متطورة بما فيه الكفاية ولم يُقدَّر للرأسمالية الرشيدة التي نشأت في مرحلة متأخرة أن تتطور، كما لم يكن لديها مشروع استعماري مهم. وانتهى الأمر بأن حل النمط الاشتراكي في الإنتاج محل النمط الرأسمالي. ولهذا، انخرط أعضاء الجماعات اليهودية هناك إما في الطبقة العاملة أو في الطبقة البورجوازية الصغيرة. وكان من بينهم كذلك رأسماليون ولكنهم كانوا نسبة صغيرة.

وفي وسط أوربا، وبخاصة في ألمانيا، ظهر النظام الرأسمالي الذي أخذ يتطور بسرعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وتبلور لألمانيا مشروعها الاستعماري الخاص، وكان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون عنصراً مهماً في عملية التطور الرأسمالي هذه. ولكن الرأسمالية الألمانية تم ضربها وتم كذلك ضرب مشروعها الاستعماري ثم تحوّلت ألمانيا نفسها إلى ما يشبه المستعمرة بعد اتفاقية فرساي. وحينما عاودت ألمانيا محاولة التصنيع مرة أخرى، لم يتم ذلك حسب النمط الرأسمالي الحر وإنما تم بتدخل الدولة، وقد راح رأس المال الذي يملكه بعض أعضاء الجماعات اليهودية ضحية هذه العملية.

ويتضح تباين معدلات إسهام أعضاء الجماعة في نمو الرأسمالية من بلد إلى آخر من خلال علاقتهم بالمدن ومدى تركُّزهم فيها. فظهور المدن وازدياد أهميتها كان يعني أن الوظائف المالية والتجارية الهامشية القديمة أصبحت تحتل المركز. وقد صاحب ذلك تحوُّل في وضع أعضاء الجماعات اليهودية، فبدلاً من كونهم عنصراً بشريا متحركاً يحمل رأسمالاً متحركاً ويتحرك على أطراف المجتمع، تحوَّلوا إلى عنصر بشري يقطن المدينة في داخل المجتمع وليس على هامشه، أي أنهم أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد الوطني. وأتاح ظهور الرأسمالية فرصة أمام رأس المال الذي يمتلكه يهود (ومن ثَمَّ فإنه قد اتسم بدرجة عالية من الحركية) لدخول الاقتصاد الجديد بنسبة أعلى من رأس المال المحلي (غير اليهودي) الثابت المُستثمَر في العقارات والمزارع، وهو الأمر الذي تم إنجازه في إنجلترا وفرنسا ثم ألمانيا. أما في شرق أوربا، فرغم أن تركُّز أعضاء الجماعة اليهودية في المدن قد ازداد، فإن السياق الطبقي لهذه العملية كان مختلفاً، إذ ساهم وجودهم في المدن في تحويل أعداد منهم إلى طبقة عاملة.

أما فيما يتصل بعلاقة الصهيونية بالرأسمالية، فيمكن القول بأنها ليست مباشرة. فالصهيونية ليست جزءاً من التشكيل القومي الغربي، وإنما جزء من التشكيل الإمبريالي الغربي يخدم مصالحه الإستراتيجية تحت ظروف خاصة هي ظروف الاستيطان في فلسطين. ولذا، لم تصر الإمبريالية الغربية، أو البورجوازيون من أعضاء الجماعة اليهودية في الغرب، على أن يأخذ المشروع الصهيوني شكلاً رأسمالياً محدَّداً، بل سمحت له وللدولة الصهيونية الوظيفية من بعده باتخاذ الشكل الاقتصادي المناسب الذي يضمن بقاءه حتى يستمر في خدمتها. وقد توصَّل الصهاينة إلى أن الأشكال الجماعية في الإنتاج التي تستخدم ديباجات اشتراكية أنسب الطرق لتنفيذ المشروع الصهيوني الاستيطاني الإحلالي. ولذا، فعلى حين كانت الولايات المتحدة (المكارثية) تحارب الشيوعية في الولايات المتحدة، كان الصهاينة في الخمسينيات يرفعون لواء الاشتراكية، ويحتفلون بعيد العمال في مايو، وينتسبون إلى الدولية الاشتراكية ويتلقون المعونات بسخاء من الحكومات ومن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الرأسمالي، ويقومون على خدمة الإمبريالية.

الرأسمالية اليهودية

«الرأسمالية اليهودية» مصطلح يفترض وجود تشكيل رأسمالي يهودي مستقل عن الاقتصاد الرأسمالي في المجتمعات التي يعيشون فيها. ولأنه أمرٌ مناف للحقيقة فإننا نفضل استخدام مصطلح «الرأسماليون الأمريكيّون اليهود» أو «الرأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية».

البورجوازية اليهودية

«البورجوازية» كلمة مأخوذة بالنسب إلى كلمة «بورج» أي «المدينة»، وهي كلمة موجودة في عدة لغات أوربية. وعبارة «البورجوازية اليهودية» تفترض وجود طبقة بورجوازية مستقلة عن البورجوازيات المختلفة وهو ما يعني أيضاً وجود «تاريخ يهودي مستقل». وحيث إن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم لا يلعبون دوراً مستقلاً عن المجتمعات التي يوجدون فيها، فلا يمكن الحديث عن بورجوازية يهودية بشكل عام، وإنما يمكن الحديث عن «اليهود من أعضاء البورجوازية الإنجليزية» أو «اليهود من أعضاء البورجوازية الأمريكية» وهكذا. ومع هذا، فقد لعب أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب دوراً متميِّزاً نوعاً ما في نشوء الرأسمالية.

الرأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية

من المُصطلَحات الشائعة في الخطاب السياسي العربي والغربي مُصطلَح «الرأسمالية اليهودية» و«البورجوازية اليهودية» و«رأس المال اليهودي». وهي مُصطلَحات، شأنها شأن مُصطلَحات مثل «الشخصية اليهودية» و«القومية اليهودية»، تفترض أن ثمة وجوداً اقتصادياً يهودياً مستقلاً عن التشكيلات الاقتصادية المختلفة وتطوُّراً اقتصادياً يهودياً مستقلاً عن التطورات الاقتصادية العامة في المجتمعات التي عاش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها. وهذا افتراض غير دقيق ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة، ويؤدي في النهاية إلى العجز عن فهم حركيات التطور والتغيير بين أعضاء تلك الجماعات. ولذا، فإننا نفضل استخدام مُصطلَح «الرأسماليون الأمريكيون اليهود» أو «الرأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية» أو أي مُصطلَح مماثل يفيد عدم وجود رأسمالية يهودية مستقلة.

فالرأسمالية الأمريكية، على سبيل المثال، تضم رأسماليين أمريكيين لهم انتماءات إثنية مختلفة، فالانتماء الإثني الخاص هو الفرع والجزء، والرأسمالية الأمريكية هي الأصل والكل.

ومما لا شك فيه أن أعضاء الجماعات اليهودية لعبوا دوراً فعالاً في نشوء وتطوُّر الرأسمالية في العالم الغربي، ولكن لا يمكن اعتبارهم مسئولين عن ظهورها. فتطوُّر الرأسمالية في الغرب مرتبط بظواهر لم يكن لليهود أي دور فيها، مثل: حركات الاكتشاف والقرصنة، ثم الاستعمار التجاري الاستيطاني في القرن السادس عشر، والإصلاح الديني، والترشيد والعلمنة. وقد تناول كلٌّ من ماركس وفيبر وسومبارت هذه القضية.

أما من ناحية تطوُّر اليهود كرأسماليين في إطار الحضارة الغربية، فهذا مرتبط بوضعهم كجماعة وظيفية تضطلع بوظائف مالية محددة، فقد كان منهم من اشتغل بالتجارة والربا، وكان منهم من اشتغل بالأعمال المالية الأخرى، مثل يهود الأرندا ويهود البلاط، ثم كان منهم أخيراً الرأسماليون المحدثون. وكان أعضاء الجماعة في وظائفهم المختلفة، حتى الانقلاب التجاري، تابعين للحاكم أو الطبقة الحاكمة وليس لهم أي استقلال اقتصادي عن النظم التي وجدوا فيها، فكانوا تابعين لها يعيشون على أطرافها وفي خدمتها. ومما لا شك فيه أن أعضاء الجماعات اليهودية استفادوا من العلاقات الدولية التي نشأت بينهم، فكان يهود البلاط يستوردون الحبوب من يهود الأرندا ويوفرون لبعضهم البعض نظاماً ائتمانياً يسهل عملية انتقال البضائع والأرباح، ولكنهم مع هذا ظلوا أساساً جزءاً من كل.

ويمكن تقسيم دور بعض أعضاء الجماعات اليهودية كرأسماليين داخل التشكيل الحضاري الغربي، إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الرأسماليون من يهود اليديشية في شرق أوربا، خصوصا روسيا. وبلغ بعضهم درجات عالية من الثراء وتخصَّصوا في بعض الصناعات والسلع مثل السك الحديدية والغلال، كما حدث مع أسرة جونزبرج. ولكنهم كانوا قلة نادرة تعيش خارج منطقة الاستيطان بعيداً عن أية جماهير يهودية، وكانت حريصة على الاندماج في المجتمع الروسي. أما داخل منطقة الاستيطان نفسها، فكان يوجد صغار الرأسماليين الذين امتلكوا نحو نصف الصناعات داخل المنطقة. ولم يكن هؤلاء قوة سياسية حقيقية، فقد كانوا يعانون ـ شأنهم شأن بقية قطاعات المجتمع الروسي ـ من التناقض الأساسي في روسيا القيصرية بين الشكل السياسي المتكلس والوضع الاقتصادي المتطور. وكانوا يستأجرون عمالاً من أعضاء الجماعات اليهودية، ولكن كثيراً ما كانت تنشأ الصراعات الطبقية بين هؤلاء وأولئك فينظم العمال ضدهم الإضرابات، ويحاولون هم استئجار عمال غير يهود.

وقد قامت الثورة البلشفية بالقضاء على الرأسمالية الروسية وضمن ذلك الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية. ومع هذا، استمر بعض التجار اليهود في ممارسة نشاطهم، بل ازدهروا في فترة النظام الاقتصادي الجديد (نيب)، بل كانت هناك نسبة من اليهود بين تجار السوق السوداء في الستينيات. ولكننا في هذه الحالة لا نتحدث عن رأسماليين يمتلكون وسائل الإنتاج وإنما نتحدث عن صغار الانتهازيين وتجار العملة وما شابه ذلك. وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وظهور الاقتصاد الحرُّ في روسيا وأوكرانيا وغيرهما من الجمهوريات التي تُوجَد بها جماعات يهودية كبيرة نسبية، نتوقع أن تشتغل أعداد كبيرة منهم في القطاع التجاري والصناعي الاستهلاكي (وهذا هو النمط السائد في الغرب).

٢ ـ في وسط أوربا، خصوصاً ألمانيا، برز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية الرأسماليين، وهؤلاء ورثة يهود البلاط، وقد لعبوا دوراً مهماً في تطور الرأسمالية والصناعة الألمانية، وتم القضاء عليهم مع استيلاء هتلر على الحكم، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى الولايات المتحدة وفلسطين بما تبقَّى من رؤوس أموال وصودرت أموال الباقين.

٣ ـ أما الرأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية في بلاد غرب أوربا والولايات المتحدة، فلهم مكانة مختلفة إذ يلاحظ أن النخب الحاكمة في هذه البلاد، بعد أن ظهرت فيها ثورة تجارية، وبعد أن ظهرت فيها طبقة بورجوازية محلية، وجدت أن استيطان الجماعات اليهودية فيها سيساعدها على تحقيق كثير من طموحاتها وسيزودها بكثير من الخدمات. ومن هذا المنظور، تم توطين اليهود في هولندا وإنجلترا في القرن السابع عشر ثم في العالم الجديد. وقد ازدهر الرأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية في هذه البلاد، ولكن نسبتهم ظلت صغيرة كما ظل رأس المال الذي يمتلكونه والصناعات التي يديرونها تتضاءل في الأهمية قياساً إلى المصانع ورؤوس الأموال الضخمة في هذه البلدان. وقد قال كارل ماركس في **المسألة اليهودية** أن أصغر رأسمالي أمريكي يجعل روتشيلد يعر وكأنه شحاذ.

ولعبت عائلة روتشيلد في إنجلترا وفرنسا، وعائلات مونتيفيوري وساسون ومونتاجو في إنجلترا، دوراً مهما في القطاع المالي والمصرفي في بلدهم حيث ساهموا في تمويل الحكومات والحروب وفي تطوير الرأسمالية في أوربا وفي تمويل المشروعات

الرأسمالية الإمبريالية خلال القرن التاسع عشر. كما تخصَّص الرأسماليون اليهود في إنجلترا مثل إسرائيل سيف وسيمون ماركس في القطاع التجاري، وبخاصة في مجال المتاجر المتكاملة متعدِّدة الأقسام. وفي فرنسا، برز خلال القرن العشرين بعض رجال الصناعة المهمون من اليهود مثل مارسل داسو وأندريه سيتروين. ولكن رغم أهمية دورهم وحيويتهم فلم يكن لهم دور يهودي مستقل.

أما بالنسبة لدور أعضاء الجماعات اليهودية في تطوُّر الرأسمالية في العالم العربي، فلا تمكن دراسته إلا في سياق الغزو الاستعماري الغربي للمنطقة وتحويل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي إلى مادة استيطانية تدور في فلك المنظومة الإمبريالية الغربية.

عائلة روتشيلد

عائلة من رجال المال ويهود البلاط الذين تحوَّلوا بالتدريج إلى رأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية، ويعود أصل العائلة إلى فرانكفورت في القرن السادس عشر. والاسم «روتشيلد» منقول من عبارة ألمانية تعني «الدرع الأحمر» وتشير كلمة «درع» هنا إلى ذلك الدرع الذي كان على واجهة منزل مؤسس العائلة إسحق أكانان. وقد حققت عائلة روتشيلد مكانة بارزة في عالم المال والبنوك في أوربا بدءاً من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين. وتاريخ تطوُّر العائلة هو أيضاً تاريخ يهود البلاط واختفاؤهم وتحوُّلهم إلى مجرد أعضاء في الرأسمالية الغربية الرشيدة ثم التشكيل الإمبريالي الغربي (الذي كان يُخطِّط لاقتسام الدولة العثمانية والاستيلاء على ثروات الشرق). ودعم الأسرة للمشروع الصهيوني في فلسطين، ليس تعبيراً عن وجود مصالح يهودية مستقلة وإنما تعبير عن معدلات الاندماج في الحضارة الغربية في تشكيلها القومي والإمبريالي.

وكان ماجيراشيل روتشيلد (١٧٤٣ ـ ١٨١٢) تاجر العملات القديمة هو الذي وسَّع نطاق العائلة في مجال المال والبنوك، بعد أن حقق ثروة طائلة أثناء حروب الثورة الفرنسية من خلال عمله في بلاط الأمير الألماني وليام التاسع. وقد تفرق أبناؤه الخمسة وتوطنوا وأسسوا فروعاً لبيت روتشيلد في خمسة بلاد أوربية هي: إنجلترا وفرنسا والنمسا وإيطاليا بالإضافة إلى ألمانيا.

أسَّس الابن الأكبر نيثان ماير روتشيلد (١٧٧٧ ـ ١٨٣٦) فرع بيت روتشيلد في إنجلترا، وتزوج أخت زوجة رجل المال الثري، زعيم الجماعة اليهودية في إنجلترا موسى مونتفيوري. وأتاحت له هذه الزيجة دخول أوساط المجتمع اليهودي السفاردي في إنجلترا سريعاً. واكتسب نيثان ماير روتشيلد مكانة مرموقة في عالم المال أثناء الحروب النابليونية حيث ساهم في تمويل إنفاق الحكومة الإنجليزية على جيشها في أوربا، واستعان في ذلك بأخيه جيمس روتشيلد المقيم في فرنسا، كما ساهم في تمويل التحويلات البريطانية إلى حلفائها في أوربا. وقد استطاعت عائلة روتشيلد، خلال تلك الفترة، تدبير ما يقرب من ١٠٠ مليون جنيه إسترليني للحكومات الأوربية. وبعد الحرب، كانت هذه العائلة الأداة الرئيسية في تحويل التعويضات الفرنسية إلى الحلفاء وفي تمويل القروض والسندات الحكومية المخصصة لعمليات إعادة البناء. واكسبته هذه المعاملات المالية مكانة متميِّزة في جميع أنحاء أوربا ودعمت مركز مؤسسته كواحدة من أبرز المؤسسات المالية الأوربية في تلك الفترة.

وكان نيثان روتشيلد يتسم بالدهاء المالي والتجاري. فخلال فترة الحروب النابليونية، نجح هو وإخوته، من خلال عمليات تهريب السلع من إنجلترا إلى أوربا، في تحقيق مكاسب ضخمة. كما استغل إمكانياته في الحصول على المعلومات والأخبار بشكل سريع نسبيا، بفضل شبكة الاتصالات التي أسستها العائلة فيما بينها، لتحقيق أرباح طائلة لمؤسسته. وكان نيثان من أوائل من علموا بانتصار إنجلترا على قوات نابليون في معركة ووترلو. وكان ذلك يعني ارتفاع أسعار سندات الحكومة الإنجليزية. إلا أن نيثان أسرع ببيع حجم كبير من سنداته حتى يوهم الجميع بأن إنجلترا خسرت الحرب، وهو ما دفع الكثيرين إلى التخلص من السندات التي في حوزتهم، الأمر الذي أدَّى بدوره إلى انخفاض أسعار هذه السندات بشكل حاد. وهنا قام بشراء هذه السندات بثمن بخس مُحقِّقاً من وراء ذلك أرباحاً طائلة حيث قفزت أسعار السندات إلى أعلى، عقب إعلان خبر انتصار إنجلترا وهزيمة نابليون. وظل نيثان يستغل قدرته على الحصول على المعلومات والأخبار سواء الخاصة بالتطورات السياسية أو الخاصة بالأمور المالية في التلاعب من خلال عمليات البيع والشراء الواسعة النطاق في أسعار الأسهم والسندات مُحقِّقاً لنفسه ولمؤسسته مكاسب ضخمة.

وبعد وفاة نيثان ماير، تولى أكبر أبنائه ليونيل نيثان روتشيلد (١٨٠٦ ـ ١٨٧٩) إدارة مصالح بيت روتشيلد في لندن. وقد اشترك في عمليات مالية مهمة، من بينها تدبير قرض قيمته ١٦ مليون جنيه لتمويل حرب القرم. كما قدم ليونيل التمويل اللازم لدزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا، الذي كانت تربطه به صداقة وثيقة، وهي عملية تمت في كتمان وسرية تامة بعيداً عن الخزانة البريطانية، ولم يُبلَّغ البرلمان

البريطاني بها إلا بعد إتمامها. ولا شك في أن مساهمة بيت روتشيلد في تقديم القروض للخديوي إسماعيل ولأعيان مصر، وما تبع ذلك من تَضخُّم المديونية المالية لمصر ثم ما جر ذلك وراءه من امتيازات أجنبية ثم تَدخُّل بريطاني في آخر الأمر بحجة الثورة العرابية، كل ذلك تم في إطار المصالح الإمبريالية الرأسمالية التي كانت تسعى لفصل أهم أجزاء الإمبراطورية العثمانية عنها تمهيداً لتحطيمها وتقسيمها.

وقد اشترك ليونيل روتشيلد أيضاً في إقامة السكك الحديدية في فرنسا والنمسا بالتعاون مع فروع بيت روتشيلد في البلدين. وقد بادر روتشيلد بإقامة هذه المشاريع بعد أن تبيَّن له مدى نجاح وأهمية السكك الحديدية في إنجلترا التي كانت أول دولة تطوِّرها، وهو ما يعكس تبادل فروع بيت روتشيلد للخبرات والتجارب فيما بينها. كما قامت مؤسسته بتمويل جهود الاستعماري سيسل رودس لإقامة إمبراطورية ضخمة لصناعة وتجارة الماس في جنوب أفريقيا.

ويُلاحَظ أن الزواج من داخل العائلة ظل النمط الغالب بين أعضائها، وهو تقليد كان يهدف إلى الحفاظ على الثروة داخل العائلة وتدعيم العلاقات فيما بينها. وقد تمسكت العائلة بقاعدة صارمة في زواج الأبناء. ففي حين كان يُسمَح لبنات روتشيلد بالزواج من غير اليهود، لم يُسمَح بذلك للذكور الذين كان يئول لهم النصيب الأكبر من ثروة العائلة وإدارة أعمالها. ومن الواضح أن المعيار المُستخدَم هنا معيار غير يهودي، وقد كان آل روتشيلد يحاولون بذلك الحفاظ على الثروة لا على الانتماء اليهودي. وقد كان اليهودي، حسب الشريعة، مَنْ يولَد لأم يهودية، ولذا فإن زواج بنات روتشيلد من غير اليهود كان يعني أن أولادهم (اليهود الحقيقيين) سينشأون في بيوت غير يهودية وأن آباءهم من الأغيار.

وتزوج ليونيل روتشيلد ابنة عمه كارل روتشيلد (الذي كان قد استقر في نابولي). واهتمت الزوجة بالمشاريع الخيرية للعائلة، وبخاصة بناء المدارس اليهودية الحرة. ونالت هذه المدارس اهتماماً خاصاً من العائلة، وكانت هذه المدارس قد أقيمت أساساً لخدمة أبناء المهاجرين اليهود الأوائل من شرق أوربا الذين جاءوا بثقافتهم اليديشية وتقاليدهم الدينية، وهو ما كان يثير قلقاً بين أعضاء الجماعة اليهودية المندمجين في إنجلترا؛ لما قد يمثله من تهديد لمواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية. وهذه المدارس بالتالي، كانت تهدف إلى استيعابهم ودمجهم وصبغهم بالثقافة الإنجليزية. وقد أصبح دعم عائلة روتشيلد للصهيونية (فيما بعد) أداة لإبعاد هذه الهجرة برمتها عن بلادهم بعد أن تزايد حجمها في نهاية القرن التاسع عشر، أي أنه كان دعماً صهيونياً توطينياً.

وقد تولى ناثانيل ماير روتشيلد (١٨٤٠ ـ ١٩١٥) إدارة بيت روتشيلد بعد وفاة والده، وأصبح أول فرد في عائلة روتشيلد يحصل على لقب لورد. كما ورث البارونية من عمه سير أنتوني دي روتشيلد (١٨١٠ـ١٨٧٦). وقد كانت له علاقات صداقة مع ولي العهد البريطاني الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع، ومع كل من بلفور ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا آنذاك. وقد اهتم ناثانيل روتشيلد بأوضاع الجماعات اليهودية في شرق أوربا التي تدهورت بسبب تعثُّر عملية التحديث وتعرُّض جميع الأقليات للاضطهاد. فرفض تدبير القروض للحكومة القيصرية احتجاجاً على ذلك رغم أن والده ظل يمثل الحكومة الروسية في المجالات المالية لمدة ٢٠ عاماً. ورغم عدم تعاطفه مع الصهيونية، إلا أنه رحب بمشاريع هرتزل لتوطين اليهود.

أما ابنه الأكبر ليونيل والتر روتشيلد (١٨٦٨ ـ ١٩٣٧)، فترك عالم المال والبنوك وتخصَّص في علوم الأحياء والطبيعة. وتعود أهمية ليونيل والتر إلى أنه كان يمتلك حديقة حيوانات خاصة، كما أن وعد بلفور أخذ شكل خطاب موجه إليه. وقد أيد ليونيل منذ عام ١٩١٧ الجهود الدبلوماسية لكلٍّ من حاييم وايزمان (الذي أصبح أول رئيس لإسرائيل) وناحوم سوكولوف والرامية إلى إصدار تعهُّد بريطاني بشأن تأسيس «وطن قومي» لليهود. وكان ليونيل روتشيلد يرى أن الوجود الصهيوني في فلسطين لابد أن يأخذ شكل دولة لا شكل وطن قومي وحسب، وأن هذا يخدم مصالح الإمبراطورية البريطانية، ومن ثَمَّ مصالح عائلة روتشيلد. وعند إصدار وعد بلفور، كان روتشيلد رئيساً شرفياً للاتحاد الصهيوني لبريطانيا وأيرلندا. كما كان أثناء الحرب العالمية الأولى من مؤيدي إنشاء الفيلق اليهودي الذي دخل فلسطين مع الجيش البريطاني.

ومن الجدير بالذكر أن عائلة روتشيلد، مثلها مثل غيرها من عائلات أثرياء اليهود المندمجين في المجتمع البريطاني، كانت في البداية ترفض صهيونية هرتزل السياسية بسبب تَخوُّفهم مما قد تثيره من ازدواج الولاء، وهو ما يشكل تهديداً لمكانتهم ووضعهم الاجتماعي. وساهمت العائلة في تأسيس «عصبة يهود بريطانيا» المناهضة للصهيونية. لكن هذا الموقف تبدَّل فيما بعد حيث تبيَّن أن وجود كيان صهيوني استيطاني في المشرق العربي يخدم مصالح الإمبراطورية البريطانية، وذلك إلى جانب أن الصهيونية كان يتم تقديمها في ذلك الوقت كحل عملي لتحويل هجرة يهود شرق أوربا إلى فلسطين بعيداً عن إنجلترا وغرب أوربا.

كما استقر في بريطانيا جيمس أرماند دي روتشيلد (١٨٧٨ ـ ١٩٥٧) ابن إدموند دي روتشيلد، الذي حصل على الجنسية البريطانية، وأصبح عضواً في البرلمان البريطاني وخدم في الجيش البريطاني في كلٍّ من فرنسا وفلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان من بين مهامه تجنيد المتطوعين من بين المستوطنين اليهود في فلسطين للالتحاق بالفيلق اليهودي. كما أُلحق ضابطاً بمشاريع عديدة في فلسطين، وترأس هيئة الاستيطان اليهودي في فلسطين التي كانت تدير المستوطنات التي أسسها والده في فلسطين. وخصَّص في وصيته عند وفاته مبالغ كبيرة لإقامة مشاريع من أهمها إنشاء مبنى الكنيست في القدس.

وفي فرنسا، أسس جيمس ماير دي روتشيلد (١٧٩٢ـ١٨٦٨) فرع بيت روتشيلد في باريس عام ١٨١٢. وأصبح شخصية مالية احتفظت بنفوذها الواسع في عالم المال رغم تغيُّر الحكومات، فعمل على تدبير القروض لملوك البوربون، وكان مقرباً للملك لويس فيليب حيث تولى إدارة استثماراته المالية الخاصة، كما قدَّم قروضاً عديدة للدولة. كما شارك لفترة طويلة من عمره في رسم السياسة الخارجية الفرنسية. وفي أعقاب ثورة ١٨٤٨، استمر بيت روتشيلد في تقديم خدماته المالية وقام بتدبير القروض لنابليون الثالث. وشهدت هذه الفترة منافسة شديدة بين بيت روتشيلد وبين المؤسسة المالية المملوكة للأخوين اليهوديين إسحق وإميل. كما حصل جيمس ماير على امتياز بناء سكك حديد الشمال الفرنسية التي ظلت ملكاً لعائلة روتشيلد حتى عام ١٩٤٠.

وقد ورثه خمسة أبناء من بينهم ماير ألفونس جيمس دي روتشيلد (١٨٢٧ ـ ١٩٠٥) الذي تولَّى من بعده إدارة بيت روتشيلد عام ١٨٥٤، وترأس سكك حديد الشمال، كما أصبح أيضاً عضواً في مجلس إدارة بنك فرنسا. وبعد هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ـ١٨٧١ في الحرب الفرنسية البروسية، أدار ماير ألفونس روتشيلد المفاوضات الخاصة بالتعويضات والديون الفرنسية الواجب سدادها للجانب البروسي.

ومن بين الأبناء الخمسة إدموند روتشيلد (١٨٤٥ ـ ١٩٣٤) الذي تعود أهميته إلى دعمه النشاط الاستيطاني اليهودي في فلسطين. وترأس حفيده إدموند (١٩٢٦ـ) رئاسة لجنة التضامن مع إسرائيل في عام ١٩٦٧ وقد ترأسها قبله جي دي روتشيلد (١٩٠٩ـ) وهو حفيد ماير ألفونس. وقام إدموند خلال الخمسينيات والستينيات باستثمارات عديدة في إسرائيل، بخاصة في قطاعي السياحة والعقارات. كما ترأس جي النداء اليهودي الموحَّد. وعند وقوع فرنسا تحت الاحتلال الألماني عام ١٩٤٠، تم الاستيلاء على ممتلكات العائلة وفرَّ أفرادها إلى إنجلترا والولايات المتحدة حيث ظلوا طوال فترة الحرب. واستعادت العائلة الجزء الأكبر من ممتلكاتها وثرواتها عقب انتهاء الحرب.

وفي النمسا، أسس سولومون ماير دي روتشيلد (١٧٧٤ ـ ١٨٥٥) آخر يهودي بلاط في أوربا فرع الأسرة في فيينا. وكان صديقاً لمترنيخ زعيم الرجعية الأوربية الذي ساعده في التغلب على أزمات مالية عديدة، وصدر قرار إمبراطوري بمنح سولومون وإخوته الأربعة البارونية وذلك عام ١٨٢٢ بعد بضعة أيام من حصول حكومة مترنيخ على قرض ضخم من بيت روتشيلد. كما أن علاقة سولومون روتشيلد بأفراد أسرته المنتشرين في أرجاء العالم أتاحت له أن يكون مصدر معلومات مهماً لمترنيخ حول التطورات السياسية الجارية على الساحة الأوربية. ويقال إنه ساعد مترنيخ على الهرب أثناء ثورة ١٨٤٨ وأخفاه في منزله. ومن أهم إنجازات سولومون روتشيلد بناء أول خط سكك حديدية في النمسا وتأسيس بنك كريديتا نستالت النمساوي الذي أصبح فيما بعد بنك الدولة النمساوية. وخلفه ابنه سولومون روتشيلد (١٨٠٣ـ١٨٧٢) الذي عُيِّن في البرلمان النمساوي.

وشهدت الأسرة تدهوراً حاداً في وضعها في ظل الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي شهدتها أوربا بعد الحرب العالمية الأولى والتي انتهت باستيلاء النظام النازي على مؤسستهم عام ١٩٣٨ بعد ضم النمسا إلى ألمانيا النازية. وتمت تصفية فرع بيت روتشيلد في النمسا بعد رحيل لويس دي روتشيلد (١٨٨٢ ـ ١٩٥٥) إلى الولايات المتحدة.

وفي ألمانيا، واصل أمشيل ماير فون روتشيلد (١٧٧٣ ـ ١٨٥٥) أعمال الأسرة في فرانكفورت، وكان أكبر مموِّلي الحركة اليهودية الأرثوذكسية. وقد خلفه ماير كارل (١٨٢٠ ـ ١٨٨٦)، ثم وليام كارل (١٨٢٨ـ١٩٠١). وبموته انقرض فرع الأسرة في رانكفورت.

وفي إيطاليا أسس كارل ماير روتشيلد (١٧٨٨ ـ ١٨٥٥) فرع نابلي، وقدَّم خدمات مالية عديدة، إلا أن هذا الفرع كان أقل الفروع أهمية، وأُغلق عام ١٨٦١.

ويتضح مما سبق أن عائلة روتشيلد، كغيرها من العائلات اليهودية المالية الكبيرة في أوربا، كانت في البداية من يهود البلاط ثم أصبحت تشكل جزءاً من نسيج الرأسمالية الرشيدة الذي كان آخذاً في التشكُّل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي فترة

اتسمت بتحولات عميقة داخل المجتمعات الأوربية وبتزايُد حدة الاضطرابات السياسية والصراعات العسكرية وبتنامي الأطماع الاستعمارية. فشارك بيت روتشيلد في تمويل الجيوش والحروب، وفي تسوية التعويضات والديون، وفي تمويل مشاريع إعادة بناء ما دمرته الحروب وفي تقديم القروض للعديد من الملوك والزعماء، وفي تمويل المشاريع والمخططات الاستعمارية التي كان المشروع الصهيوني في فلسطين في نهاية الأمر يشكل جزءاً منها.

ومع نمو النظام المصرفي الرأسمالي الحديث القائم على العلاقات بين المؤسسات المالية المختلفة والذي حل محل نظام التجارة والربا القديمين تضاءلت أهمية عائلة روتشيلد. كما أن نمو حجم التعاملات المالية في العالم قلَّص حجم رأس المال المتوفر في يد الرأسماليين اليهود (من عائلة روتشيلد وغيرهم) قياساً إلى حجم رؤوس الأموال المُتداوَلة داخل النظام الرأسمالي العالمي، وذلك رغم ازدياده من الناحية المطلقة. ويُعَدُّ اسم روتشيلد، في الأدبيات اليهودية والصهيونية، رمزاً للثري اليهودي الخيِّر الذي يجزل العطاء لإخوانه في الدين ولا ينساهم البتة. أما في أدبيات العداء لليهود، فهو مثل للجشع والطمع وامتصاص الدماء والتآمر العالمي من جانب الصيارفة اليهود.

دور الجماعات اليهودية الاقتصادي في مصر في العصر الحديث

ابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، كان لعدد من العائلات والشخصيات اليهودية المصرية شأن كبير في أحوال مصر الاقتصادية وفي شئونها المالية والتجارية والصناعية. وكانت أغلب هذه العائلات من اليهود السفارد الذين وفدوا إلى مصر خلال القرن التاسع عشر وانضووا تحت الرعويات الأجنبية حتى يستفيدوا من الامتيازات القانونية والاقتصادية الممنوحة للأقليات الأجنبية في مصر خلال تلك الفترة، وقد أتيحت لهذه الأقليات، في ظل الوجود الاستعماري البريطاني، احتلال مكانة داخل الاقتصاد المصري لا تتناسب مع حجمها الحقيقي. وقد قامت هذه العائلات اليهودية بتمثيل المصالح الأوربية المختلفة داخل مصر، سواء كانت فرنسية أو بريطانية أو إيطالية أو غيرها، وقامت بدور الوسيط لرأس المال الأوربي الباحث عن فرص الاستثمار داخل البلاد، أي أنها لعبت دور الجماعة الوظيفية المرتبطة بالاستعمار الغربي (ومما يجدر ملاحظته أن هذا الدور نفسه قامت به بعض الجماعات الأوربية وشبه الأوربية الأخرى، خصوصاً اليونانيين الذين حققوا قوة اقتصادية ومكانة اجتماعية مماثلة تقريباً لما حققته طبقة كبار الأثرياء من اليهود).

وتركَّز نشاط هذه العائلات اليهودية في الأنشطة المالية الربوية والائتمانية والتجارية، واندمجت بيوتات المال اليهودية في علاقات وساطة مع البنوك الأوربية وارتبط نشاطها بالدرجة الأولى باقتصاديات زراعة وتجارة القطن وخدمة المصالح الاقتصادية الاستعمارية البريطانية التي كانت تخطِّط لتحويل مصر إلى مزرعة للأقطان. ولعبت مجموعة عائلات قطاوي وسوارس ورولو ومنَسَّى وموصيري الدور الأكبر في هذا المجال وفي الاقتصاد المصري بشكل عام.

وساهمت الجماعات المصرفية اليهودية في عملية التوسع الزراعي في مصر، واشتركت في عملية تصفية الدائرة السنية عام ١٨٨٠ وبيعها لكبار الملاك الجدد ثم في تأسيس البنك العقاري المصري في العام نفسه بالتعاون مع رأس المال الفرنسي، للقيام بعمليات إقراض القطاع الزراعي الخاص الجديد وتمويل أعمال الزراعة وشراء الأقطان. وفي عام ١٨٩٧، قامت هذه الجماعات المصرفية، بالتعاون مع رأس المال البريطاني، بتأسيس البنك الأهلي المصري بهدف تمويل المشروعات الخاصة بالتوسع الاقتصادي والاستعماري البريطاني في مصر مثل مشروع بناء خزان أسوان وقناطر أسيوط أو تنظيم شبكة الري في حوض النيل إلى جانب تمويل عمليات شراء ما تبقَّى من أراضي الدائرة السنية من قبل كبار الملاك.

واشتركت العائلات اليهودية أيضاً في تأسيس الشركات العقارية العديدة التي أقيمت في إطار مبيعات أراضي الدائرة السنية ثم في إطار الحجوزات العقارية بعد تَراكُم الديون على كبار وصغار الملاك المصريين نتيجة انخفاض الطلب على القطن المصري. وأكثر هذه الشركات تأسَّس في الفترة بين عامي ١٨٨٠ و١٩٠٥، وقامت بامتلاك الأراضي واستغلالها وإقامة المشروعات العقارية والصناعية عليها وكذلك المضاربة فيها لتحقيق تَراكُم سريع لرأس المال. ومن أهم هذه الشركات شركة أراضي الشيخ فضل، وشركة وادي كوم أمبو. ومن أهم المشروعات الصناعية الزراعية التي أقامها اليهود على أراضي الدائرة السنية شركة عموم مصانع السكر والتكرير المصرية التي أُقيمت عام ١٨٩٧ بالتعاون مع رأس المال الفرنسي واحتكرت لفترة طويلة إنتاج السكر في مصر.

وساهم أعضاء الجماعات اليهودية أيضاً في إقامة الهياكل الأساسية اللازمة للتوسع الزراعي، خصوصاً اللازمة لنقل وتجارة القطن وغيرها من المحاصيل الزراعية، فاهتموا بإنشاء خطوط النقل

الحديدية مثل شركة سكك حديد قنا أسوان (١٨٩٥)، وشركة سكك حديد الدلتا المصرية المحدودة وهما أهم شركتين لنقل الأقطان والسكر من الأراضي ومعامل التكرير. كما ساهموا في تأسيس شركة ترام الإسكندرية (عام ١٨٩٦) وكانت تقوم بنقل الأقطان إلى البورصة، واشتركوا أيضاً في إدارة بعض الشركات الملاحية مثل شركة الملاحة الفرعونية التي سُجلت عام ١٩٣٧ وكانت تحتكر تقريباً نقل البضائع المصرية بحرياً. وإلى جانب مساهمتهم في تأسيس كثير من شركات النقل البري والبحري، ساهم أعضاء الجماعات اليهودية في مصر في عملية التوسع العمراني التي صاحبت التوسع الزراعي. فساهموا، على سبيل المثال، في تأسيس حي سموحة بالإسكندرية وحي المعادي بالقاهرة، وفي إدارة العديد من شركات تقسيم وبيع الأراضي وشركات صناعة البناء.

كما لعب المموِّلون اليهود من أعضاء الجماعات اليهودية دوراً أساسياً في مجال تصدير القطن والمحصولات الزراعية، وكان أكثر من ٥٠٪ من الشركات المصدرة للقطن في الإسكندرية (قبل التأميم) مملوكة لهم. وكان أعضاء الجماعات اليهودية يحتلون مواقع إدارية مهمة في الشركات الأخرى، كما تركزوا في القطاعات الخاصة وفي تصدير بعض المحصولات الزراعية المهمة مثل البصل والأرز. ونشطوا في عمليات استيراد السلع والوكالة التجارية للشركات الأجنبية، وبخاصة مع بداية العشرينيات، لاستغلال وفرة الأموال في أيدي أغنياء الحرب والرواج الذي جاء في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى. وقد قامت المحلات التجارية الكبيرة المملوكة للعائلات اليهودية، مثل محلات شيكوريل وشملا وبنزيون وعدس وغيرها، بتسويق هذه الواردات السلعية، خصوصاً المنسوجات البريطانية.

وقد ارتبطت العائلات اليهودية، سواء من خلال المؤسسات المالية والائتمانية أو من خلال المؤسسات التجارية التي كانت تمتلكها والتي كان أفرادها يحتلون فيها مواقع إدارية مهمة، بشبكة من علاقات العمل المتداخلة تدعمها علاقات المصاهرة.

ويمكن تقدير مدى مساهمة أعضاء الجماعات اليهودية في مصر في الشركات والقطاعات الاقتصادية المختلفة من خلال عضويتهم في مجالس إدارة الشركات المساهمة التي سيطرت على أهم قطاعات الأعمال في مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر. وتشير بعض الإحصاءات إلى أن اليهود احتلوا ١٥,٤٪ من المناصب الرئاسية و١٦٪ من المناصب الإدارية عام ١٩٤٣، وانخفضت هذه النسبة إلى ١٢,٧٪ و١٢,٦٪ عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨، وإلى ٨,٩٪ و٩,٦٪ عام ١٩٥١. وتشير إحصاءات أخرى إلى أن نسبة اليهود في مجالس إدارة الشركات المساهمة كانت ١٨٪ عام ١٩٥١. والواقع أن هذه نسب مرتفعة إذا قورنت بنسبتهم لإجمالي السكان وبلغت عام ١٩٥٠ نحو ٠,٤٪ فقط.

وكان معظم رأس المال اليهودي متمركزاً عام ١٩٥٦، وقبل قرارات التأميم، في الشركات العقارية يليه قطاع حلج وغزل ونسج القطن ثم التأمين والبنوك. وكانت هذه القطاعات أكثر القطاعات ربحية في الاقتصاد المصري، وبخاصة خلال الفترة التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الأولى وحتى بداية الخمسينيات.

وفي شأن دور أعضاء الجماعات اليهودية في اقتصاد مصر، منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى عمليات التأميم عام ١٩٥٦، يمكننا أن نلاحظ ما يلي:

١ - لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً مهماً لا باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم أعضاء في التشكيل الاستعماري الغربي الذي أتوا معه (وقد جاءت معهم أيضاً الأقليات الغربية الأخرى مثل اليونانيين والإيطاليين والإنجليز. . . إلخ) واستقروا ضمن إطار الامتيازات الأجنبية وأسسوا علاقات مع المجتمع هي في جوهرها علاقات استعمارية. ولذا، يُلاحَظ بشكل ملموس غياب يهود مصر المحليين، خصوصاً القرائين، عن هذا القطاع الاقتصادي النشط، فلم يكن عندهم رأس المال ولا الكفاءات ولا الاتصالات للاضطلاع بمثل هذا الدور.

٢ - يُلاحَظ أن كبار المموِّلين من أعضاء الجماعات اليهودية لعبوا دور الجماعة الوظيفية الوسيطة بين الاقتصاد العالمي الغربي والاقتصاد المحلي. وقام أعضاء الجماعات اليهودية بدور ريادي نشيط في عدد من الصناعات والقطاعات الاقتصادية الجديدة التي يتطلب ارتيادها كفاءة غير عادية وجسارة، وهو الدور الذي يلعبه أعضاء الجماعات الوظيفية، وقد اشترك فيه معهم المموِّلون من أعضاء الجاليات الأجنبية الأخرى.

٣ - تركَّز هؤلاء المموِّلون في صناعات وقطاعات مالية قريبة من المستهلك (حلج القطن - المصارف - تسويق السلع - العقارات. . . إلخ) وهي قطاعات بعيدة عن الصناعات الثقيلة. ويعزى نشاط أعضاء الجماعات اليهودية في قطاع الزراعة إلى نظام ملكية الأراضي في مصر الذي فتح الباب على مصراعيه للأجانب (اليهود وغيرهم).

٤ - ومع تزايُد فاعلية القوى الوطنية ونشاطها في القطاع الاقتصادي، بدأ نشاط الطوائف الأجنبية يتراجع وضمن ذلك نشاط المموِّلين من أعضاء الجماعات اليهودية.

٥ - وحينما تم التأميم عام ١٩٥٦، كان ذلك تتويجاً لتصاعُد هذه

الحركة واختزالاً لبقية المرحلة. وكان قرار التأميم موجَّهاً ضد المموِّلين الأجانب والمصرين ممن كان الحكم المصري يرى أن نشاطهم يربط الاقتصاد الوطني بعجلة الاستعمار الغربي ويعوق عمليات التنمية من خلال الدولة التي تبناها هذا النظام الوطني. ولذا، فقد هاجر كثير من هؤلاء المموِّلين وغيرهم من المموِّلين الأجانب والمصريين.

لكل ما تقدَّم، يكون من الصعب جداً الحديث عن «رأسمالية يهودية في مصر» أو «مخطَّط يهودي للهيمنة والسيطرة على الاقتصاد الوطني في مصر». فقدوم أعضاء الجماعات اليهودية إلى مصر ونشاطهم الاقتصادي فيها وخروجهم منها تم داخل إطار الاستعمار الغربي، ولم يكن هناك بُعد يهودي يعطي خصوصية يهودية لنشاط الجماعة اليهودية في مصر. وإذا كان هناك ١٠٪ من المناصب الإدارية الرئاسية في أيد يهودية، فإن نحو ٩٠٪ من هذه المناصب تظل في أيد غير يهودية، ونسبة كبيرة منها في أيدي اليونانيين والإيطاليين وغيرهم. وإذا كان ثمة تعاطُف مع الحركة الصهيونية، فإنه لم يأخذ شكل ظاهرة عامة أو نمط متكرر وإنما كان اتجاهاً فردياً يمكن تفسيره هو الآخر في إطار انتماء المموِّلين من أعضاء الجماعات اليهودية إلى التشكيل الاستعماري الغربي. وتجب الإشارة إلى أن تأييد بعض الأثرياء اليهود للنشاط الصهيوني يمكن أن نضعه في إطار ما يُسمَّى «الصهيونية التوطينية»، فقد شهدت مصر خلال أواخر القرن التاسع عشر هجرة أعداد من يهود شرق أوربا (الإشكناز) إليها، كان أغلبهم من الشباب الفقير وكانوا يختلفون ثقافيا وعقائديا وطبقيا عن الأرستقراطية السفاردية المصرية. كما تورَّط كثير منهم في الأنشطة المشبوهة، خصوصاً الدعارة، وهو ما دفع السفارد لإطلاق لقب «شلخت»، أي الأشرار، عليهم. وكان وجودهم يهدد بخلق أعباء مادية ومشاكل اجتماعية محرجة لأثرياء اليهود. ولذلك، كان دعم بعض أعضاء الأرستقراطية السفاردية للأنشطة الصهيونية في مصر يهدف إلى تحويل هذه الهجرة إلى فلسطين بعيداً عن مصر. كما سعى بعضهم لدى السلطات المصرية لوقف الهجرة اليهودية القادمة إلى مصر كليةً.

هذا، ويمكن القول بأن وضع يهود مصر والدور الذي اضطلعوا به نمط متكرر بين أعضاء الجماعات اليهودية وأعضاء الجماعات الوظيفية الغربية الأخرى في العالم العربي ابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر.

رأسماليون من الأمريكيين اليهود (اليهود الجدد)

يُلاحَظ أن معظم الرأسماليين الأمريكيين اليهود أمريكيون تماماً وإن كانوا قد تأثَّروا بعض الشيء، في المراحل الأولى، بميراثهم الاقتصادي. فالتجار السفارد في القرن السابع عشر كانوا من كبار تجار الرقيق ومموِّلي الجيوش إلى جانب التجار المتجولين الذين كثيراً ما كانوا يصنعون بعض سلعهم بأنفسهم لأنهم حرفيون تجار.

أما في المرحلة الألمانية من تاريخ الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة (١٧٧٦ـ١٨٨٠)، فيُلاحَظ ما يلي:

١ ـ معظم هؤلاء من أصل ألماني وليس من أصل روسي/ بولندي (يديشي)، ولعل هذا يعود إلى أن مَن هاجروا من ألمانيا جاءوا من بلد حقق طفرات واسعة في مجال التحديث والتصنيع، ولذا كانوا يحملون معهم خبرات ملائمة للمجتمع الأمريكي، وهو ما يعني أنهم كانوا قد تحرروا أيضاً من عدد كبير من الشعائر والأوامر والنواهي التي كان يمكن أن تعوقهم عن الحركة والحراك. كل هذا على خلاف يهود شرق أوربا.

٢ ـ وصل اليهود الألمان منذ منتصف القرن التاسع عشر وبأعداد صغيرة. وقد جاءوا بعد أن كانت اليهودية الإصلاحية قد ظهرت واستحدثت صيغة مخففة للعقيدة اليهودية. وساهم كل هذا في عملية اندماجهم وسرعتها (على عكس يهود شرق أوربا الذين جاءوا بأعداد كبيرة يؤمنون بالأرثوذكسية).

٣ ـ ملأ المهاجرون اليهود من ألمانيا كثيراً من الفراغات وراكموا الثروات بسرعة، كما أن جذورهم في أوربا وعلاقاتهم المالية والتجارية فيها ساعدتهم على تحقيق النجاح في أعمالهم (على عكس يهود شرق أوربا الذين كانوا مُنبتِّي الصلة بأوربا).

٤ ـ وصل المهاجرون الألمان والاقتصاد الأمريكي في حاجة ماسة إلى خبراتهم كرأسماليين ومموِّلين، على عكس يهود شرق أوربا الذين وصلوا والاقتصاد الأمريكي في حاجة إلى أيد عاملة.

ويُلاحَظ أن الرأسماليين الأمريكيين اليهود (من أصل ألماني) اتجهوا نحو المصارف والاستثمارات العقارية. وأنهم، مع عدم سيطرتهم على قطاع البنوك والمال، احتلوا مكانة مميَّزة في مجال النشاط المصرفي الاستثماري. وقد لعبت المؤسسات المالية المملوكة لعائلات يهودية ذات أصول ألمانية، مثل عائلات سليجمان ولويب وووربورج وجولدمان وليمان وسبير، دوراً حيويا في عملية التراكم الرأسمالي والنمو الصناعي في الولايات المتحدة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وتحقَّق ذلك بفضل علاقاتهم المالية المتشعبة المتداخلة في أوربا، وهو ما أتاح لهم قدراً كبيراً من التنسيق فيما بينهم ومقدرة على توفير رأس المال بكميات أكبر وبشكل أسرع نسبياً من المؤسسات المصرفية الأمريكية المماثلة.

ثم اتجه الرأسماليون الأمريكيون اليهود نحو الصناعات الخفيفة ومتاجر التجزئة ذات الأقسام المتعددة. وكانت من الأنشطة الاقتصادية الجديدة التي تميَّزت بهامشيتها وبقدر كبير من المخاطرة. ونجح اليهود في دخول هذه المجالات وحققوا فيها نجاحاً ومكانة بارزة بفضل ميراثهم الاقتصادي كجماعات وظيفية ذات خبرات تجارية ومالية واسعة. وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن كثير من الأنشطة الاقتصادية الأخرى في الاقتصاد الأمريكي (مثل الصناعات الثقيلة) متاحة أمامهم بالقدر الكافي. وتُعَدُّ عائلات جمبل روزنوالد وستراوس من العائلات الأمريكية اليهودية التي حققت نجاحاً كبيراً في مجال متاجر التجزئة ذات الأقسام المتعددة. ومع وصول المهاجرين من شرق أوربا، ازدهرت صناعة الملابس الجاهزة التي كان يحتكرها الرأسماليون من أعضاء الجماعة اليهودية من أمثال ليفي شتراوس الذي تُعَدُّ شركته، التي أسسها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أكبر شركة للملابس الجاهزة في العالم في وقتنا الحاضر. واحتلت جماهير المهاجرين من يهود اليديشية المواقع الدنيا في السلم الاجتماعي والطبقي الأمريكي في بداية الأمر، وانضم الجزء الأكبر منهم إلى الطبقات العاملة. إلا أن كثيراً منهم سرعان ما بدأوا يخطون خطوات سريعة في مجال التجارة والأعمال وبدأوا في اقتحام الأنشطة الاقتصادية الجديدة ذات الطابع التجاري أو الصناعي الخفيف، التي بدأ ظهورها في أوائل القرن العشرين، محققين فيها نجاحاً ملموساً بفضل خبراتهم الاقتصادية والتجارية السابقة. وخلال الثلاثينيات برز الرأسماليون الأمريكيون اليهود في قطاع النشر الصحفي والإعلام، وفي مجال الراديو والسينما.

واحتل الرأسماليون الأمريكيون اليهود مكانة مهمة أيضاً في صناعة مستحضرات التجميل. فأسس ماكس فاكتور في أوائل القرن العشرين شركة لمستحضرات التجميل أصبحت من أكبر الشركات في العالم في هذا المجال. كما تُعَدُّ هيلينا روبنشتاين من أبرز الشخصيات التي عملت في هذه الصناعة. وتُعَدُّ شركة استي لودر ثالث أكبر شركة عاملة في مجال مستحضرات التجميل في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر.

وفي القرن العشرين، اتجه نشاط الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية، نحو البورصة والعقارات وصناعات الترفية، إلى جانب الأنشطة سالفة الذكر. ففي عام ١٩٣٦، كان اليهود متركزين في البورصة وأعمال السمسرة، وكان ١٦٪ من سماسرة الأسواق المالية يهوداً. ولكنهم لم يسيطروا على البنوك أو يُمثَّلوا في الصناعة الثقيلة إلا بدرجة صغيرة (حيث إن سابع أكبر شركة صلب، لا غير، كان يمتلكها يهودي). كما لم يسيطروا على أيٍّ من شركات السيارات، ولم يوجد أي رأسمالي يهودي في شركات حيوية، مثل شركات الفحم أو المطاط أو الكيماويات. إلا أن بعضهم احتل مكانة مهمة في قطاع التعدين مثل عائلة لويسون وعائلة جوجنهايم التي أسَّست واحدة من أكبر الشركات المنتجة للمعادن في العالم.

وقد بيَّن أحد الكُتَّاب أن الرأسماليين الأمريكيين اليهود يتواجدون في تلك الصناعات التي يلتقي فيها الصانع بالتاجر، وأن هذا التواجد استمرار لتقاليد الحرفي التاجر. ووضعهم هذا يجعلهم جزءاً لا يتجزأ من الهرم الإنتاجي الأمريكي لا أداة يهودية مستقلة له. فهو من ناحية يعتمد على الصناعات الثقيلة التي يمتلكها البروتستانت أساساً، وهو يبيع لسوق أمريكي تتحكَّم فيه طموحات وأحلام الإنسان الاستهلاكي الأمريكي.

وفي عام ١٩٨٥ كان يوجد ١١٤ يهودياً من بين أثرى ٤٠٠ شخص في أمريكا أي أن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون داخل هذه الفئة نسبة ٢٤-٢٦٪. ورغم أنهم يشكلون ٢,٥٤٪ فقط من السكان، فإنهم يحصلون على ٥٪ من الدخل القومي، كما يشكلون ٧٪ من الطبقة الوسطى الأمريكية. وهناك ٩٠٠ ألف أسرة يهودية تنتمي إلى الطبقة الوسطى أو إلى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى من حوالي مليوني أسرة يهودية، وذلك مقابل ١٣,٥ مليون أسرة أمريكية تنتمي إلى الطبقة نفسها من حوالي ٥٣ مليون أسرة أمريكية. ومتوسط الدخل السنوي لليهودي الأمريكي هو ٢٣,٣٠٠ دولار مقابل ٢١,٣٠٠ دولار للأبيسكوبليان (وهم المسيحيون الأنجليكيون الذين يُعَدُّون أثرى طبقات المجتمع) و١٤ ألف دولار للمعمدانيين البروتستانت (أفقر البروتستانت). ويُلاحَظ أننا استبعدنا السود والبورتوريكيين لأن معظم هؤلاء تحت خط الفقر. وجاء في إحصاءات عام ١٩٨٢/١٩٨٣ أن هناك ٩٠٠ ألف يهودي تحت مستوى خط الفقر. وقد ظل اليهود، برغم كل ثرائهم، خارج نطاق ملكية الصناعات الثقيلة.

ولكن الثراء لا يَصلُح معياراً للاستقلال أو الهيمنة، فهو ثراء حققه أعضاء الجماعة اليهودية داخل المجتمع الأمريكي ومن خلال آليات الحراك والتراكم المتاحة للجميع. وقد حققوا ما حققوه من بروز وثراء غير عادي لعدة أسباب، من بينها خبراتهم التجارية السابقة، وتزايُد معدل علمنتهم قياساً إلى بقية أعضاء الجماعات الدينية، وارتفاع مستواهم التعليمي عن بقية جماعات المهاجرين. ومما يؤكد أن الثراء لا يصلح مؤشراً على الهيمنة أن الصناعات الثقيلة لا تزال في يد المسيحيين البروتستانت أساساً. وقد ذكرت مجلة **فوربس**، في عددها لعام ١٩٨٥، أسماء أغنى أربعمائة أمريكي في

الولايات المتحدة، فكان منهم مائة وأحد عشر يهودياً. وتركزت أغلبيتهم الساحقة في العقارات والسمسرة والمضاربات والملاهي والبورصة والإعلام (أي حوالي ٢٧٪)، بينما لم يكن لهم وجود في صناعات حيوية، مثل تكرير البترول، سوى بضعة أفراد من عائلات بلاوستين وماكس فيشر وأرماند هامر الملقب بملك البترول.

ولعل أهم يهودي في إحدى الصناعات الثقيلة هو إدجار برونفمان الذي اشترى أسهم شركة دي بونت للكيماويات، كما اشترى آخر من عائلة كراون أسهم شركة جنرال ديناميكس، وهي شركة لتصنيع عتاد الحرب. ويمكن الإشارة هنا إلى أن بعض الرأسماليين الأمريكيين اليهود احتلوا مراكز اقتصادية ومالية مهمة في الدولة والحكومة الأمريكية، وبخاصة خلال فترات الحربين العالميتين وفيما بعدهما، بفضل خبراتهم التجارية والمالية المهمة. وتميَّزت أغلبية هذه المراكز بطابعها الاستشاري ولكنها لم تنطو على قوة سياسية حقيقية. ومن بين هؤلاء، برنارد باروخ الذي عمل مستشاراً لعدة رؤساء أمريكيين، وأيوجين ماير، وبعض أفراد عائلتي وربورج ومورجنتاو.

ويمكن اعتبار كثيراً من الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية، وخصوصاً الأمريكيين منهم، ممثلين لما يمكن تسميته «صهاينة الدياسبورا» أو «الصهاينة التوطينيون». وتعود صهيونية هؤلاء إلى عام ١٨٨٢ حين تعثَّر التحديث في روسيا القيصرية (وبولندا)، تدفَّق إلى الولايات المتحدة الآلاف من يهود اليديشية، وهي الكثافة البشرية ذات الطابع الحضاري السلافي الفاقع، اليهودي الأرثوذكسي الواضح، الظاهر التدنِّي طبقيا. ولم تُقابَل هذه الهجرة بكثير من الترحاب من جانب أعضاء البورجوازية من اليهود الأمريكيين ذوي الأصول الألمانية الذين حققوا قدراً كبيراً من النجاح ونجحوا في الاندماج في المجتمع وتبنوا صيغة مخففة من اليهودية هي اليهودية الإصلاحية، ذلك أن هذه الكثافة البشرية هددت مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية. فهم «يهود»، شأنهم في هذا شأن يهود اليديشية، ولكنهم من أصول ألمانية «رفيعة»، ولذا يكنون الاحتقار الألماني التقليدي للعناصر السلافية «المتخلفة». ولذا، تحرك يهود أمريكا المندمجون، لإنشاء مؤسسات هدفها أمركة هؤلاء المهاجرين الجدد وسرعة استيعابهم في المجتمع الأمريكي، وكذلك لغوث ومساعدة يهود اليديشية في أوطانهم الأصلية بهدف الحد من هجرتهم إلى الولايات المتحدة (تُوصَف هذه المؤسسات بأنها مؤسسات خيرية هدفها إنقاذ اليهود). وامتداداً لهذا القلق ساهم الرأسماليون من أعضاء الجماعات اليهودية في دعم الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين، ثم قدموا التأييد السياسي والدعم المالي للكيان الصهيوني بعد تأسيسه. وهو موقف ينبع في المقام الأول من انتمائهم لأوطانهم أو لهويتهم الأمريكية، ولا يختلف موقفهم عن غيرهم من الرأسماليين الغربيين أو الأمريكيين الذين يرون ترادف مصالح بلادهم مع مصالح إسرائيل التي يعتبرونها قاعدة للمصالح الرأسمالية والإمبريالية في الشرق العربي.

ولذا، يكون الحديث عن «رأسمالية يهودية»، لا عن رأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية، حديثاً مضللاً يخلع الاستقلالية على ظاهرة تابعة. وربما، لو أن هناك رأسمالية يهودية، لتبعها المشروع الصهيوني، وقامت هي بتمويله لصالحها. ولكن المشروع الصهيوني كان دائماً، منذ وعد بلفور إلى الاتفاق الإستراتيجي بين الولايات المتحدة والدولة الصهيونية، يبحث عن راعٍ غربي يوفر له الأمن والدعم والتمويل، ويحوِّل الرأسماليين من اليهود داخل التشكيلات الرأسمالية القومية المختلفة إلى أداة للضغط يستخدمها لصالحه. ولكن العكس أيضاً صحيح، إذ أن الدول الغربية تستخدم هؤلاء الرأسماليين أداة للضغط على الدولة الصهيونية أحياناً.

ومن القضايا التي ينبغي إثارتها، مدى اشتراك الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية في النشاطات التجارية والمالية غير المشروعة، مثل التهرب من الضرائب ومراكمة الثروات من خلال الغش التجاري. ولكن لا توجد دراسة إحصائية مقارنة دقيقة تثبت أن معدل الغش والتهريب بين الرأسماليين الأمريكيين اليهود يفوق المعدل القومي، كما لا توجد دراسات توضح ما إذا كانت يهودية الرأسمالي هي التي تفسر الجرائم التي ارتكبها أم أن من الأجدى تفسيرها على أساس عدم انتماء الرأسمالي عضو الجماعة اليهودية كعنصر مهاجر لم يتحدد انتماؤه بعد. ومن ثَمَّ، لابد أن نقارن نسبة هذه الجرائم بين الرأسماليين اليهود وغيرهم من الرأسماليين من أعضاء الجماعات المهاجرة الأخرى.

أما فيما يتصل بالمهنيين ورجال السياسة من الأمريكيين اليهود، فهم عادةً من أبناء الجيل الثالث الذين وُلدوا في الولايات المتحدة وتلقوا تعليماً جامعيا ونسوا الوطن القديم تماماً (إلا كذكريات رومانسية) وأصبحوا جزءاً من المؤسسة الأمريكية الثقافية والسياسية ولا يمكن الحديث عن أية خصوصية مميِّزة لهم.

الرأسماليون من الأمريكيين اليهود في قطاع الصحافة والإعلام

يُلاحَظ أن المستثمرين من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة من العناصر الرائدة في مجال الصحافة. وتمتلك دار

صمويل نيوهاوس للنشر واحدة من أكبر الشبكات الإعلامية في الولايات المتحدة وتضم المجلات والصحف ودور النشر ومحطات الإذاعة والتليفزيون. وتُعتبَر عائلات سولزبرجر وأننبرج وبوليتزر من العائلات الرائدة أيضاً في مجال النشر الصحفي والمجلات. وربما يرجع ذلك إلى أن القطاع الإعلامي في المجتمع قطاع جديد يتطلب الانخراط فيه روحاً ريادية، وهو مجال بدأ يكتسب أهمية مع تزايُد معدلات النمو الصناعي وما صاحبه من نمو الطبقات العمالية والمتوسطة التي كانت في حاجة إلى خدمة إخبارية غير مكلِّفة. وقد ساعد موروث اليهود الاقتصادي والاجتماعي، أي كونهم جماعات وظيفية، على أن يدخلوا هذا القطاع ويستثمروا فيه رأسمالهم وخبراتهم واتصالاتهم.

ورغم أن ١,٣٪ فقط من الجرائد الأمريكية مملوكة لأفراد أو أسر يهودية، إلا أن أكثر هذه الجرائد والمجلات أهمية وانتشاراً مملوكة لأعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة. ولكن يجب الإشارة إلى أنه لا يُلاحَظ وجود نمط يهودي خاص في هذه الجرائد والمجلات التي يمتلكها مموِّلون من أعضاء الجماعات اليهودية إذ تدافع عن السياسة الخارجية لأمريكا وتلتزم بفلسفتها في الحكم، وتُعبِّر عن الاتجاهات والآراء والمصالح الاقتصادية والسياسية المختلفة والمتعددة داخل المجتمع الرأسمالي الأمريكي. ومن هنا يمكن اعتبار توجُّهها الصهيوني نابعاً من التزامها الأمريكي.

٦ـ الاشتراكية والجماعات اليهودية

الفكر الاشتراكي الغربي وموقفه من الجماعات اليهودية

تتسم النظرة الاشتراكية إلى أعضاء الجماعات اليهودية بالإبهام نفسه الذي تتسم به رؤية عصر الاستنارة إليهم. فقد دعا مفكرو عصر الاستنارة إلى المساواة بين كل البشر، وبالتالي إلى إعتاق اليهود وإعطائهم حقوقهم السياسية والاقتصادية كاملة. وهذا تيار أساسي في الفكر الاشتراكي يُوجَد في كثير من كلاسيكيات هذا الفكر.

لكن إعتاق اليهود، بل الإنسان عموماً، يتم في إطار مفاهيم علمانية مادية مثل مفهوم الإنسان الطبيعي أو المادي أو العالمي أو الأممي. فهو مفهوم مادي اختزالي يُسقط أية خصوصية أو هُوية، ويرى الإنسان باعتباره جزءاً من الطبيعة/ المادة. ويترتب على هذه المقدمات عدة نتائج أهمها رفض خصوصية اليهود العرْقية، ثم يُنظَر إليهم باعتبارهم مواطنين عاديين وحسب يمكن دمجهم في المجتمع وإعطاؤهم حقوقهم كافة. ومن ثَمَّ نجد أن كثيراً من كلاسيكيات الفكر الاشتراكي ترفض الفكرة الصهيونية التي ترى أن اليهود أمة عرْقية مستقلة.

ولكن، كما أن هناك تيار داخل فكر حركة الاستنارة يرى أن اليهود عنصر له خصوصيته، وأن تخلُّصه من هذه الخصوصية أمر صعب بل مستحيل أحياناً، فإن الفكر الاشتراكي اشتمل على مثل هذا التيار. وهو يترجم نفسه أيضاً إلى اتجاه معاد لليهود ومتحيِّز للصهيونية في آن واحد. ويطرح أتباع هذا التيار فكرة هوية يهودية مستقلة عضوية يُفترَض فيها عادة أنها ذات طابع شرقي أو آسيوي أو سامي. وقد ازداد الاهتمام بهذا الجانب مع تزايُد الاهتمام بالعنصر الهيليني (الآري فيما بعد) في الهوية الغربية. وهو اهتمام صار محورياً في الخطاب السياسي الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد أكد هيجل ما أسماه «الطابع الشرقي» للروح القومية اليهودية التي لم تدرك المثل العليا (الهيلينية) للحرية والعقل، فظلت اليهودية لذلك مرتبطة بشعائر بدائية لاعقلانية أو طقوس لا روح فيها تسبَّبت في نهاية الأمر في إدخال العنصر العبراني السلبي على الحضارة الغربية.

وكجزء من هجومهم على المؤسسات القائمة في المجتمع، قام المفكرون الاشتراكيون بالهجوم الضاري على المسيحية وعلى كل الأفكار الدينية، فوجَّهوا النقد إلى اليهودية باعتبارها أساس المسيحية، بل باعتبارها شكلاً متخلفاً منها. واتهموا اليهودية أيضاً بأنها تتضمن عناصر نفعية أنانية تشجع اليهود على الاهتمام بأنفسهم وعلى كُره البشر. كما أن اليهودية تشجع اليهود على ضرب العزلة حول أنفسهم وعلى البقاء سجناء شعائرهم البدائية المتخلفة مثل قوانين الطعام التي تجعل اندماجهم مع بقية الجنس البشري مستحيلاً.

وللقضية أيضاً جانب اقتصادي، فكثير من المفكرين الاشتراكيين ينظر إلى اليهود بوصفهم عنصراً هامشياً غير منتج يتركز في التجارة والأعمال المالية ولا يتجه إلى الصناعة أو الزراعة أبداً (أي أنهم جماعة وظيفية وسيطة). كما أن بعض الاشتراكيين يرون أن ثمة علاقة عضوية بين اليهود والرأسمالية، خصوصاً في شكلها التجاري المتمثل في الأعمال المالية والبورصة.

لكل ما تقدَّم، ذهب بعض المفكرين الاشتراكيين إلى أن اليهود يشكلون جماعة بشرية غير سوية وغير طبيعية. وكان الحل الذي يطرحونه ضرورة تخليص اليهود من هويتهم المتخلفة أو الخسيسة أو الأنانية (البورجوازية أو الرأسمالية) وتحويلهم إلى عناصر منتجة ودمجهم في المجتمع أو تأكيد هويتهم وتوطينهم في فلسطين داخل

مجتمع تعاوني اشتراكي. وقد ساوى كارل ماركس بين "برجزة" المجتمع (أي سيادة العلاقات التعاقدية البورجوازية فيه) من جهة، وبين تهويده من جهة أخرى.

ومن أوائل الدعاة إلى الاشتراكية المفكر كونت دي سان سيمون (١٧٨٠-١٨٢٥)، وهو ممن يسمون «الاشتراكيين الطوباويين»، أي المثاليين. ويبدو أنه يوجد تيار يهودي مشيحاني في فكره، إذ طالب بتأسيس مجتمع صناعي يحكمه نخبة من العلماء وأصحاب الأعمال والمصرفيين الذين يهتدون بهدي «المسيحية الجديدة» - وهي مسيحية علمانية (أو لادينية) لا تستند إلى الإيمان بالإله أو باليوم الآخر أو الزهد في الدنيا - وهي تشبه في ذلك اليهودية الإثنية. وثمة إشارة في كتابات سان سيمون إلى الماشيَّح الأم، وهي أنثى يهودية من الشرق ستصوغ الأخلاق الجديدة. وبطبيعة الحال، سيتمتع اليهود بالمساواة الكاملة في هذا المجتمع الجديد. وقد كان الكثير من تلاميذ سان سيمون وحوارييه يهوداً.

وأدَّى هذا العنصر اليهودي اللاديني الفاقع في اشتراكية سان سيمون إلى رد فعل عنيف من الكنيسة ومن شارل فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) أحد أهم المفكرين الاشتراكيين وأحد أهم النقاد الاشتراكيين لليهود. ويذهب فورييه إلى أن التجارة مصدر كل الشرور، وأن اليهود تجسيد لها، كما أنهم المستغلون الاقتصاديون الرئيسيون في أوربا. واليهود (في تصوُّره) ليسوا جماعة دينية، وإنما جماعة قومية غير متحضرة بدائية معادية للحقيقة، ولابد للمجتمع أن يتخلص منها بالدمج أو الطرد. ومعنى ذلك أنه يتحرك في إطار فكرة الشعب العضوي المنبوذ.

وقد أشار فورييه إلى قوانين الطعام اليهودية كقرينة على صدْق كل الشائعات التي أطلقها أعداء اليهود عنهم مثل اتهامهم بأنهم يعتبرون سرقة المسيحي أمراً مباحاً لهم شرعاً. ولذا، يرى فورييه أن لفظتي «يهودي» و«لص» مترادفتان، وأن الإنسان عند التعامل معهم لا يتوقع سوى أكاذيب ولا شيء سوى الأكاذيب التي يشجعهم عليها دينهم. بل يرى فورييه أن اليهود عنصر تجاري لا ارتباط ولا انتماء له بوطن. ولذا، فهم لا يتورعون عن ارتكاب أعمال الخيانة العظمى ويعملون جواسيس لكل الأمم وجلادين لها. وهم كذلك غير مبدعين في الفنون والآداب ولا يتميَّزون إلا بسجل طويل من الجريمة والقسوة. ونشاطات اليهود الاقتصادية كلها هامشية وشرهة وغير منتجة، فهم لا يعملون أبداً بالزراعة ويشتغلون بالتجارة والأعمال المالية. وهم إلى جانب هذا متمرسون في التهرب من دفع الضرائب ولا يستثمرون رأسمالهم في الصناعة أبداً حتى لا يرتبط مصيرهم بمصير الدولة التي يعيشون فيها. ويقتصر نشاطهم التجاري على الاستيراد والتصدير حتى يحرموا تجار البلاد المضيفة من الاحتكاك بالبلاد الأخرى. وهم يحققون الثروات الهائلة على حساب المواطنين، وخصوصاً أنهم بخلاء إلى درجة أن بإمكانهم العيش على أقل القليل وهو ما يساعدهم على مراكمة الثروة بسرعة. ومن الواضح أن فورييه يتحدث عن الجماعة الوظيفية الوسيطة، ولكنه نظراً لجهله بهذه الظاهرة وتواتُرها في المجتمعات الأخرى تصوَّر أنها ظاهرة يهودية وحسب، وأن خصائص أعضاء الجماعة الوظيفية خصائص لصيقة بطبيعة اليهود، أينما كانوا وعَبْر التاريخ.

وقد طرح فورييه برنامجاً لحل المسألة اليهودية، وذلك عن طريق دمج اليهود بالقوة اقتصاديا وروحيا. وهذا لن يتأتى إلا بالقضاء على خصوصيتهم اليهودية القومية الاقتصادية عن طريق تطبيق قوانين قاسية عليهم، ومنعهم من الاشتغال بالأعمال التجارية، وإبعادهم عن الحدود والسواحل والأماكن التي يمكنهم أن يمارسوا فيها التهريب والتجارة، وكذلك عن طريق توطينهم بالقوة في القرى. ويجب أن يواكب عملية الدمج الاقتصادي عملية دمج روحي عن طريق التعليم حتى يتخلى اليهود عن مبادئهم الشريرة.

والحل الثاني للمسألة اليهودية الذي يطرحه فورييه قد يبدو وكأنه نقيض الأول، ولكنه في الواقع امتداد له. فإذا كان الحل الأول يفترض إمكانية التخلص من الشعب العضوي المنبوذ عن طريق تخليصه من هويته الكريهة ودمجه، فإن الحل الثاني الذي ورد في كتاب **الصناعة الزائفة** (١٨٣٥ - ١٨٣٦) يقوم على التخلص منهم عن طريق توطينهم في فلسطين وسوريا ولبنان ليصبحوا أمة معترفاً بها لها ملك وعلم وقناصل وعملة! ويتوجه فورييه بالنصح إلى اليهود، فبدلاً من مضاربات البورصة يمكنهم تحويل فلسطين وما حولها في المنطقة الممتدة من لبنان إلى سيناء إلى أرض صالحة للسكنى عن طريق توفير منافذ لنهر الأردن والبحر الميت على موانئ البحر الأحمر، وأن يتم ري الصحراء وزراعة الغابات الخضراء فيها بواسطة الجيوش الصناعية والمزارع التعاونية وذلك بتمويل روتشيلد وبدعم أوربا، وهذا أدق وصف لعملية الاستيطان الصهيوني وللزراعة الصهيونية التعاونية المسلحة ولكل من الصهيونية التوطينية والاستيطانية (وقد قضت الحركة الصهيونية بين اليهود نحو سبعين عاماً لتكتشف هذه الصيغة البسيطة). ويجب أن نشير إلى أن تاريخ نشر الكتاب هو نفسه الوقت الذي طُرحت فيه المسألة الشرقية وبحدة بسبب ثورة محمد علي على السلطان العثماني.

وقد ترك فورييه أعمق الأثر في الفكر الاشتراكي بعده. فنجد

أن تلميذه ألفونس توسينيل (١٨٠٣ ـ ١٨٨٥) يؤلف كتابه **اليهود ملوك العصر : تاريخ الإقطاع المالي** (١٨٤٥) حيث يمثل الإقطاع المالي البنوك في أوربا وفرنسا . والكتاب ليس هجوماً عنصرياً تقليديا على اليهود إذ يُحذِّر الكاتب في البداية من أنه سيستخدم كلمة «يهودي» لا بمعناها المحدد الذي يشير إلى جماعة إثنية أو دينية ، وإنما يستخدمها بالمعنى الشائع لها ، أي «مصرفي» أو «مراب» أو «تاجر» . ولذا ، فإنه يستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى كل من يشتغل في الأمور المالية ، كل الطفيليين غير المنتجين الذين يعيشون على وجود الآخرين وجهدهم . وقد ربط توسينيل بين القدس اليهودية وجنيف البروتستانتية الكالفنية ، فكأن من يقول "يهودي" يقول "بروتستانتي ، أي تجار وطيور جارحة" . وقد وصل توسينيل إلى أن اليهود ، أي كبار المموِّلين ، هيمنوا على أوربا في القرن التاسع عشر .

وظهر هذا الاتجاه أيضاً في كتابات أدولف ألايزا الذي ترأس مجلة **لا رينوفاسيون** الناطقة باسم الحركة الاشتراكية من أتباع فورييه وأعطاها اتجاهاً معادياً لليهود . ويرى ألايزا أن اليهود مثل البكتيريا القذرة (وهذه صورة مجازية استخدمها الزعيم الصهيوني نوردو والزعيم النازي هتلر من بعده) تؤدي إلى عفن المكان الذي تصل إليه . فاليهودي يتآمر ضد الأمن الوطني مثل دريفوس . وربطت مدرسة فورييه أيضاً بين ماركس والبلشفية من جهة ، وبين ماركس واليهودية من جهة أخرى .

وتُعبِّر آراء ميخائيل باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) ، المنظِّر المفكِّر الفوضوي الروسي ، عن كُره عميق لليهود . ففي كتابه **الاعتراف** الذي ألفه عام ١٨٥١ ، انتقد قادة الاستقلال في بولندا لاتخاذهم موقفاً إيجابياً تجاه اليهود . وقد نشر عام ١٨٦٩ رداً على خطاب من موسى هس أشار فيه إلى اليهود باعتبارهم أمة من المُستغلِّين تقف على الطرف النقيض تماماً من مصالح البروليتاريا . ويمكن فَهْم موقفه هذا من اليهود من خلال حقيقتين ، أولاهما : خلافه الفكري الحاد مع الاشتراكيين وبالذات اليهود ، منهم كارل ماركس وموسى هس وأمثالهما . وثانيتهما : الدور البارز لأعضاء الجماعة اليهودية في التجارة والمال في أوربا ، وهو ما كان نتاجاً لميراثهم التاريخي كجماعات وظيفية هامشية . وقد ذهب باكونين إلى أن اليهود يشكلون خطراً أكبر من اليسوعيين ، وأنهم القوة الحقيقية في أوربا ، إذ يسيطرون بشكل مطلق على التجارة والبنوك وعلى ثلاثة أرباع الصحافة الألمانية وعلى جزء كبير من صحافة الدول الأخرى . ووصف باكونين الفوضوي ظهور ماركس وأعماله بأنها ظهور جديد للنبي موسى ، وأنه يعتبر نموذجاً يمثل الشعب اليهودي .

وقد كان عداء الاشتراكيين والثوريين لليهود يستند إلى تحليل طبقي يفترض فيه أصحابه علميته وموضوعيته . ولكن مع العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وظهور الخطاب العرْقي واكتساحه الفكر الأوربي ، نجد أن أتباع فورييه أيضاً يتبنون التفسير العرْقي . فالعرْق اليهودي ، بحسب تصوُّرهم ، قبيح من الناحية الجسدية ، فوجوههم تخرق قواعد الجماليات تماماً كما تخرق روحهم الروح الآرية (الهيلينية من قبل) التي تتسم بالجمال . والعرْق اليهودي لا يمكن دمجه ولا هضمه ، وهو عرْق طفيلي كليةً ، فاليهودي في كل مكان وزمان كان طفيلياً يصيب المجتمعات بالتحلل . وهم طفيليون لأسباب عرْقية ولا يمكنهم أن يغيِّروا دورهم ، تماماً كما لا تستطيع المخلوقات الطفيلية التي تقتل الأجساد الحية أن تتوقف عن وظيفتها . وهم معروفون بشكل خاص بمقدرتهم على تخريب قوانين البلاد التي ينتمون إليها .

ويُلاحَظ أن كل هذه الأوصاف هي أوصاف الشعب العضوي المنبوذ ، فما الحل إذن؟ طرحت المجلة ، الناطقة بلسان أتباع فورييه ، حلاً صهيونياً حيث طلبت من اليهود الجلاء عن فرنسا طواعية . ولذا ، توجهت بنداء إلى اليهود : "أيها اليهود! إلى أعالي سيناء ، حيث أرسل الإله الوصايا العشر التي تخرقونها دائماً ، إلى موسى والإله الذي تركتموه بسبب حبكم الشديد للذهب . . . أعبروا البحر الأحمر مرة أخرى ، ولتنزلوا إلى الصحراء مرة أخرى ، إلى أرض الميعاد التي تنتظركم ، الأرض الوحيدة التي تناسبكم ، أيها الشعب الشرير الوقح الخائن ، اذهبوا إلى هناك" . وهذا هو الحل الاستعماري الصهيوني ، إرسال كل مشاكل أوربا إلى الشرق .

ومن الطريف أنه برغم صهيونية مثل هذه الحلول التي طُرحت عام ١٨٩٩ بعد عقد المؤتمر الصهيوني الأول ، فإن المجلة لم تُعط أية أهمية للحركة الصهيونية أو المنظمة الصهيونية . بل إنه حينما نشر أحد أتباع فورييه ويُدعى فيربيه كتيبه **المسألة اليهودية** (١٩٠٢) ، قدَّم رؤية إيجابية للحركة الصهيونية وفرَّق بين يهود الغرب المندمجين الذين سيبقون في أوطانهم ويهود شرق أوربا (أي يهود اليديشية) الذين يجب تهجيرهم إلى وطن قومي خارج فلسطين لأنها ـ حسب تصوُّره ـ غير مناسبة . ورد عليه ألايزا قائلاً إنه يؤيد الحل الصهيوني الذي طرحه تيودور هرتزل من ناحية المبدإ ، ويحب أن يرى اليهود في وطنهم وأن هذا سيحقق مصلحتهم ، وأكثر من هذا فإنه سيحقق مصلحة فرنسا نفسها! ولكنه عبَّر عن شكه في إمكانية تحقُّق هذا الحلم بسبب طبيعة اليهود الهامشية .

وأصبح ارتباط اليهود بالرأسمالية وكبار المموِّلين موضوعاً

أساسياً متواتراً في الفكر الغربي امتزج بالأطروحة العرْقية التي تنظر إلى اليهود بوصفهم ساميين (مقابل الآريين). ويُلاحَظ أن مقولة «الآريين» انفصلت بالتدريج عن مقولة «الهيلينيين»، وبالتالي فَقَدت بُعدها الثقافي واكتسبت بعداً عرْقياً فاقعاً. ولذا، نجد أن بعض الكتاب يقرنون التاجر اليهودي بالتاجر اليوناني باعتبارهما من التجار الوسطاء.

وتبلوِّر كتابات يوجين دوهرنج (١٨٣٣ ـ ١٩٢١) هذه الاتجاهات كافة، فكتابه **الحالة اليهودية كمسألة عرْقية وأخلاقية وحضارية** ينسب النزعة الليبرالية في الاقتصاد السياسي (أي الرأسمالية والديموقراطية) إلى اليهود الذين يتهمهم باستغلال مبدأ الاقتصاد الحر وتسخيره في خدمة الاحتكار اليهودي الذي يحاول استعباد كل الناس. ورغم أن اليهود يلعبون دوراً طبقياً، فإنهم يُشكِّلون عرْقاً وضيعاً لا مثيل له. واتجاه اليهود نحو التجارة يعود إلى أن جمجمةَ الإنسان اليهودي ليست جمجمة إنسان مفكر فهي ملأى على الدوام بالربا والشئون التجارية. فاليهود، إذن، فئة تجارية نظراً لأن خصائصهم العرْقية تجعلهم ينزعون نحو التجارة، وهم يحققون ترابُطاً غير عادي بسبب شعائرهم القديمة التي لم يطرحوها جانباً تماماً. وتهمة الدم، بحسب رأي دوهرنج، ذات أساس علمي، فهي تعود إلى التضحيات البشرية التي كان اليهود يقدمونها. وهذه التضحيات استمرت بسبب رغبة قيادات اليهود في أن تجعل كل فرد في الجماعة اليهودية متورطاً في جريمة قتل الأطفال المسيحيين.

وحل المسألة اليهودية بالنسبة لدوهرنج هو أيضاً خليط عرْقي اشتراكي علمي، فهو ينادي باعتماد سياسة الاكتفاء الذاتي وبالاقتصاد الموجَّه وبنوع من الاشتراكية المقيدة وبالحفاظ على الشرف العرْقي الذي يستدعي إنقاذ جميع الدوائر العامة وعالم المال والأعمال من تسلُّط اليهود وسيطرتهم. وبهذا، فإن دوهرنج وحَّد بين الرأسماليين بوصفهم تشكيلاً اقتصادياً واليهود بوصفهم عرْقاً وقرن بينهم. ولهذا، فهو يرفض الحل الصهيوني لأن الصهيونية ستدعم قوة اليهود العالمية، ويجد أن الحل الأسمى للمسألة اليهودية القتل والطرد. ومن هذا المنظور، فإن مفكراً اشتراكيا مثل ماركس، في رأي دوهرنج، هو الشر المجسد بسبب نظرياته الشيوعية وعرْقه اليهودي، فقد استقى كل نسقه الفكري من القانون الموسوي رغم أنه تم تعميده. وقد ظهرت الأطروحة مرة أخرى في كتابات ورنر سومبارت عن علاقة الرأسمالية باليهودية ووصلت إلى ذروتها في الفكر النازي.

وينبغي ألا نتصوَّر أن هذه الرؤية المعادية لليهود مقصورة على المفكرين غير اليهود وحدهم، ففرديناند لاسال (١٨٢٥ـ١٨٦٤) المفكر الألماني الاشتراكي اليهودي كانت له آراء شبيهة. إذ أكد تنصُّله من اليهودية لأنه يبغض اليهود، إذ لا يرى فيهم سوى سلالة منحلة لماض عظيم ولَّى. وبعد قرون طويلة من العبودية، اكتسب هؤلاء الرجال سمات العبيد. ويجب ذكر أنه كان يوجد عديد من المفكرين، من الاشتراكيين اليهود، لم يهتموا باليهود واليهودية، وإنما افترضوا أن المساواة داخل المجتمع الاشتراكي ستحل المشاكل كافة.

وقد يكون من المفيد ذكر أن ماكس فيبر يستخدم أيضاً منظوراً دينياً لتحليل إشكالية ظهور الرأسمالية في الحضارة الغربية، ولكنه طرح فكرة الرأسمالية الرشيدة مقابل الرأسمالية المنبوذة. وقد وجد أن الرأسمالية الرشيدة مرتبطة بالكالفنية في حين ترتبط الرأسمالية المنبوذة باليهود، وبالتالي فإن اليهود من هذا المنظور غير مسئولين عن ظهور الرأسمالية.

البلاشفة والجماعات اليهودية

تنطلق رؤية المفكرين الاشتراكيين، ماركس وغيره، من تجربتهم التاريخية في فرنسا وألمانيا والنمسا أساساً. وهي دول لم تكن فيها تجمعات يهودية كبيرة، كما أن اليهود فيها كانوا مُركَّزين في الأعمال التجارية والمالية، وزاد ارتباطهم بالنظام الرأسمالي مع تطوُّر المجتمعات. أما في شرق أوربا وروسيا على وجه الخصوص، فكان الوضع مغايراً تماماً إذ كانت تُوجَد أكبر كتلة بشرية يهودية ذات صفات شبه قومية واضحة تميِّزها اللغة اليديشية، كما أن ظروف التحديث أدَّت إلى تحوُّل قطاعات كبيرة من اليهود إلى بروليتاريا. ولذا، تجاهَل البلاشفة كلاسيكية ماركس عندما كان عليهم أن يتعاملوا مع جزء كبير من هذه الكتلة التي ورثوها ضمن ما ورثوا من روسيا القيصرية. ولم يكن من الصعب عليهم تجاهل كتيب ماركس، لأنه كان من أعماله الأولى ولم تكن أفكاره قد تبلورت بعد. مع هذا، يبدو أن البلاشفة، مثل ماركس من قبلهم، خلطوا بين مفهومين مختلفين تمام الاختلاف في منطلقاتهما ونتائجهما، وظنوا أنهما شيء واحد. أما المفهوم الأول فهو مفهوم الأمة اليهودية العالمية، وهو مفهوم صهيوني مطلق يفترض وجود وحدة يهودية عالمية ويهدف إلى تأسيس دولة يهودية لجمع الشعب اليهودي. أما المفهوم الثاني، فهو مفهوم اليهود بوصفهم أقلية قومية شرق أوربية لها خصوصيتها التي لا تختلف عن خصوصيات القوميات أو الأقليات الأخرى الموجودة في روسيا القيصرية. وهي خصوصية قد

تفصل أعضاء الجماعة اليهودية عن محيطهم الثقافي الروسي أو البولندي، ولكنها لا تربطهم بالضرورة بالجماعات الأخرى في بقية العالم، وهذا هو طرح البوند. ولعل هذا الخلط نتيجة محاولة البلاشفة والماركسيين عموماً الوصول إلى مستوى تعميمي، مرتفع وعلمي، يتجاهل كل الخصوصيات أو يوحِّدها بحيث لا يراها، وهذا ميراث عصر الاستنارة والنموذج المادي الذي يصر على مستوى عال من البساطة والوضوح والتعميم لا يتفق مع تركيبية الظاهرة الإنسانية. وهذا ما أدَّى إلى تخبُّط السياسة السوفيتية بعض الوقت، وإلى عدم حسم المسألة اليهودية في الاتحاد السوفيتي إلا من خلال التطورات الاقتصادية للمجتمع الاشتراكي (ككل) خارج إطار الحلول النظرية المطروحة وبدون هدي كبير منها.

وقد انطلق لينين من تعريف محدد للأمة استقاه من كارل كاوتسكي، وهو أن الأمة جماعة لابد أن تكون لها أرض تتطوَّر عليها، الأمر الذي لم يكن متوفراً لليهود، ولابد أن تكون لها لغة مشتركة، وهو الأمر الذي توفَّر ليهود شرق أوربا وحدهم. ولكن لينين، مع هذا، لم ينظر إلى يهود شرق أوربا بوصفهم وحدة مستقلة داخل التشكيل السياسي الروسي والتشكيل الحضاري لشرق أوربا منفصلة عن يهود العالم. ولذا، فقد ناقش القضية من منظور أعلى نقطة تعميم فتساءل: هل اليهود، بشكل عام ومجرد، وفي كل زمان ومكان، يُشكِّلون قومية أم لا؟ وهل هناك وحدة عالمية تنتظم كل اليهود؟ وهل هناك خصوصية مقصورة عليهم أم لا؟ والإجابة على مثل هذا السؤال البسيط بسيطة جداً، هي أن كل اليهود بطبيعة الحال لا يشكلون قومية، وأنه لا وجود لأية وحدة بين يهود ألمانيا وبولندا وفرنسا وإنجلترا. فيهود فرنسا يتحدثون الفرنسية، ويهود إنجلترا يتحدثون الإنجليزية، ويهود ألمانيا يتحدثون الألمانية، ويهود شرق أوربا كانوا يتحدثون اليديشية، ويتحدث يهود القوقاز عدة لغات، ولكل جماعة يهودية موروثها الثقافي ووضعها الاقتصادي المتميِّز الذي تحدِّده حركيات المجتمعات التي يعيش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية. والخلل يكمن في درجة التعميم التي ينطوي عليها السؤال، فهو لا يتفق مع طبيعة الظاهرة وتنوُّعها وانعدام تجانسها.

وفي تصوُّرنا أن موقف لينين كان سيختلف تماماً لو أنه لم يطرح السؤال بهذه الطريقة، وتخلَّى عن مفهوم "اليهود ككل" و"في كل زمان ومكان"، وخفَّض مستوى التعميم قليلاً ونظر إلى يهود شرق أوربا داخل الإطار الوحيد الممكن وهو التشكيل الحضاري الشرق أوربي، وطرح حلاً لمشاكلهم داخل هذا الإطار باعتبارهم أقلية قومية شرق أوربية.

ولأن اليهود، من وجهة نظر لينين، لا يشكلون أمة، فإن القضية تصبح مشكلة اندماجهم أو انعزالهم. ومن ثَمَّ، فإن حل المسألة اليهودية هو ببساطة دمجهم، وهي عملية يمكن أن تتم بأن ينخرط اليهود في النضال الثوري إلى جانب المُضطهَدين من الطبقة العاملة وغيرها من الطبقات على أن يذوب أعضاء الجماعة اليهودية في المجتمع الاشتراكي الكبير، أي أن الخاص (يهود شرق أوربا) لابد أن يذوب في العام (المجتمع الثوري الجديد). وهذا هو النمط الكامن في فكر حركة الاستنارة وفي كل الحلول الماركسية.

ولهذا، وقف لينين موقف المعارضة الكاملة لا من فكرة القومية اليهودية العامة العالمية الوهمية (أي الصهيونية)، وإنما أيضاً من فكرة الخصوصية اليديشية المحدودة المقصورة على يهود شرق أوربا، وهي الفكرة التي طرحها حزب البوند الذي طالب بقدر من الاستقلال الثقافي للعمال اليهود يتناسب مع هويتهم الثقافية المحددة وخصوصيتهم، ولا يختلف عن استقلال الأقليات والطوائف الأخرى، ويترجم نفسه إلى استقلال تنظيمي. كما رفض لينين بالتالي أي استقلال تنظيمي لحزب البوند أو ما سُمِّي «الوحدة الفيدرالية»، ورأى أن مبدأ الاستقلال الذاتي يفي بكل احتياجات اليهود من أعضاء الطبقة العاملة، ويكفل لها أن تقوم بالدعاية لبرنامج الحزب باليديشية، وأن تعقد مؤتمراتها الخاصة، وأن تقدِّم مطالب مستقلة تدخل في برنامج واحد يُعبِّر عن الاحتياجات المحلية وخصوصية الحياة اليهودية. ذلك لأن الهدف النهائي هو اندماج أعضاء الطبقة العاملة من اليهود اندماجاً كاملاً في الطبقة العاملة الروسية. وثمة نظرية تذهب إلى أن معارضة لينين للبوند كانت في واقع الأمر نابعة من اعتبارات عملية سياسية غير نظرية، وأن كل تحليلاته هي مسوغات وديباجات لتبرير رغبته في تصفية البوند.

وكان تروتسكي الزعيم الماركسي اليهودي هو الآخر ضد فكرة القومية اليهودية، ولذا فقد عارض الصهاينة، وكان يرى أن حل المسألة اليهودية لا يكون عن طريق تأسيس دولة يهودية بين دول أخرى غير يهودية، وإنما يكمن في إعادة تركيب المجتمع تركيباً أممياً متماسكاً. إلا أنه عارض أيضاً مفهوم الأقلية اليهودية باعتبارها أقلية قومية شرق أوربية، ولذا عارض البوند.

ولا يخرج موقف ستالين عن موقف الزعماء الماركسيين السابقين، فقد بيَّن أن اليهود ككل لا يجمعهم إلا الدين، وقد يكون لهم طابع قومي، ولكنهم لا يكوِّنون أمة واحدة عالمية، ذلك لأنهم متفرقون اقتصادياً، ويعيشون على أراض مختلفة، ويتكلمون لغات

متعددة وليس لهم ثقافة مشتركة. وهذا، مرة أخرى، أمر بدهي واضح. ولكن ستالين ارتكب الخلل التحليلي نفسه الذي ارتكبه كل من لينين وماركس وإنجلز من قبله وهو التعامل مع الظاهرة على مستوى تعميم وتخصيص لا يتفق مع طبيعتها، وقد رفض، بطبيعة الحال، فكرة القومية اليهودية العالمية التي تنتظم كل يهود العالم. ولأن مثل هذه القومية غير موجودة، يتم الانتقال إلى الحد الأدنى، أي افتراض عدم وجود أية وحدة على الإطلاق، دون البحث عن مستوى وسيط من الخصوصية يتمثل في قومية يهودية يديشية مقصورة على يهود شرق أوربا وحدهم دون سواهم.

وقد تبنَّى خروشوف الموقف المطلق الكلي نفسه، في تعليق له بجريدة **الفيجارو** في ٩ أبريل ١٩٥٩، إذ تحدَّث عن اليهود بشكل عام ومجرد، وبيَّن أن اليهود هم المسئولون عن فشل تجربة بيروبيجان "فاليهود منذ أقدم الأزمنة فضلوا الحرف الفردية، وهم لا يحبون العمل الجماعي ولا الانضباط الجماعي، كما أنهم في جميع الأوقات فضلوا أن يكونوا مُشتَّتين. وهم في الواقع فرديون، ومنذ قرون لا تُحصَى، لم يستطيعوا أن يعيشوا مجتمعين، أو أن يستمدوا وجودهم وتوازنهم من أنفسهم". وهذا حديث لا يختلف عن نقد فولتير أو ماركس لليهود بشكل عام. ولو تخلَّى خروشوف عن مقولة اليهود، وتحدَّث بدلاً من ذلك عن الجماعات اليهودية المختلفة، فربما استطاع أن يُفسِّر الواقع اليهودي في الاتحاد السوفيتي، وأن يبين سبب رفض اليهود الاستيطان في بيروبيجان. ولأن السوفييت يرفضون فكرة أن اليهود يكوِّنون شعباً، فإنهم يرفضون الصهيونية ويعتبرونها حركة رجعية، بل استغلالية.

ومن الواضح أن موقف البلاشفة من المسألة اليهودية، رغم معاداته الضارية للصهيونية ومعاداة اليهود، ورغم اعترافه من البداية باليديشية لغة قومية ورفض الاعتراف باللغة العبرية باعتبارها لغة قومية وهمية، خضع لبعض الوقت للصياغات العامة والمقولات المجردة، مثل مقولة "اليهود ككل". ولكن هذا الوضع تم تصحيحه فيما بعد بتأسيس منطقة بيروبيجان، إذ كانت هذه الخطوة تعني ضمناً قبول ما رفضه لينين، وهو أنه إذا كان اليهود لا يشكلون أمة بالمعنى المطلق، فيهود روسيا يشكلون أقلية قومية روسية لها وضعها الثقافي المتميِّز ولها خصوصيتها التي لا تستمدها من جوهر يهودي عام، وإنما من تجربتها تحت ظروف اجتماعية وحضارية معينة في شرق أوربا، ولم يبق سوى توفير الأرض لها لتصبح أقلية قومية مثل مئات الأقليات الأخرى في الاتحاد السوفيتي.

وقد حُسمت مسألة الاندماج والعزلة اليهودية، في ثلاثينيات القرن، لا من خلال الأطروحات الماركسية أو البلشفية وإنما من خلال تغيُّرات بنيوية في المجتمع. فمع تصاعد حركة التصنيع داخل الاتحاد السوفيتي، تمتَّع أعضاء الجماعة اليهودية بحراك اجتماعي غير عادي، ونتج عن فرص الترقي أمام اليهود تفتُّت التجمعات اليهودية فزادت معدلات الاندماج واختفت اليديشية تقريباً، ولم تهاجر أعداد كبيرة إلى بيروبيجان. ومما ساعد على الاندماج، الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة التي كانت تضم كثيراً من العناصر اليهودية الشابة والعناصر ذات التوجه الصهيوني التي كان يمكنها أن تحافظ على عزلة اليهود. ولم تكن عملية الدمج والاندماج سهلة أو بسيطة، فتقاليد معاداة اليهود في الاتحاد السوفيتي قديمة وراسخة وكثيراً ما انعكست من خلال البيروقراطية السوفيتية نفسها.

وإذا انتقلنا من استعراض موقف الفكر البلشفي إلى تأمُّل موقف الاتحاد السوفيتي من المسألة اليهودية، فإننا نجد الأمر لا يختلف كثيراً. فالقانون السوفيتي يجعل الصهيونية ومعاداة اليهود جريمتين يعاقب عليهما القانون. وقد أُلغيت جميع التنظيمات الصهيونية وأصبح نشاطها غير شرعي، مع أن روسيا كانت مركز النشاط الصهيوني في العالم. ووقف المندوبون السوفييت، في المنظمات والمؤتمرات الشيوعية، ضد السماح للأحزاب الصهيونية ذات الديباجات الماركسية البوروخوفية بالانضمام إليها حتى لا تكتسب أية شرعية.

البلاشفة والصهيونية

أيَّد الاتحاد السوفيتي قيام الدولة الصهيونية، واعترف بها فور قيامها. ولقد تحدَّث المندوب السوفيتي في هيئة الأمم عن الشعب اليهودي الذي لاقى الاضطهاد، أي أنه كان يتحرك داخل الإطار المجرد والعام لمقولة اليهود التي رفضها البلاشفة من قبل، وليس داخل إطار يهود شرق أوربا بوصفهم أقلية قومية.

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن التطورات اللاحقة ترجح أن كلا من الاعتبارات العملية والتقاليد السياسية الروسية القيصرية هي التي قررت مسار القضية، كما نرى أن سياسة البلاشفة تجاه يهود الاتحاد السوفيتي امتداد للسياسة القيصرية الشمولية التي كانت تهدف إلى دمج وتذويب أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم عنصراً غريباً ثقافته ألمانية وولاؤه مشكوك فيه، فألمانيا عدو روسيا الأكبر. وهناك من القرائن ما يشير إلى أن مشروع توطين اليهود في شبه جزيرة القرم استُبعد بعد البدء فيه نظراً لقرب القرم من ألمانيا، وأنه نُقل إلى بيروبيجان بعيداً عن أي مركز جذب أوربي. ولكن، مع بداية الأربعينيات، وتصاعُد النفوذ النازي الذي كان يشكل تهديداً قويا

للدولة السوفيتية، بدأت الاتصالات بين السوفييت والصهاينة، وشُكِّلت في بداية الأمر لجان يهودية لمناصرة السوفييت ولمناهضة الفاشية. وفي عام ١٩٤٣، وضمن إطار الاستعدادات للتسوية النهائية لعالم ما بعد الحرب، بدأ السوفييت يتحدثون في إطار أن المشكلة اليهودية ستصبح مشكلة عالمية ملحة مع نهاية الحرب، لا مجرد مشكلة ألمانية أو حتى مشكلة غربية. ومن ثَمَّ، فلابد أن يحددوا موقفهم منها بوضوح وفي إطار عالمي.

وفي أكتوبر ١٩٤٣، قام إيفان مايسكي، نائب وزير الخارجية السوفيتية، بزيارة إلى فلسطين قام خلالها بزيارة الكيبوتسات ومناقشة مشاكل الاستيطان مع بن جوريون وجولدا مائير، ولم يتصل بالجانب العربي قط. ويبدو أن مايسكي بدأ سياسة مراجعة موقف السوفييت من الاستيطان الصهيوني، إذ كان يرى أن "من الواضح أن اليهود الاشتراكيين والتقدميين في فلسطين سيكونون أكثر فائدة لنا من العرب المتخلفين الذين تسيطر عليهم مجموعات إقطاعية من الباشوات والأفندية". واستمرت هذه النغمة طيلة الحرب وبعدها وأصبحت لبنة أساسية في الديباجات الاشتراكية الصهيونية. وأخذ السوفييت يتحدثون عن الدولة الصهيونية باعتبارها الدولة الديموقراطية الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما وأنها كانت تسمح للحزب الشيوعي بممارسة نشاطاته بشكل قانوني. كما أن الأحزاب الصهيونية ذات الديباجات الاشتراكية المتطرفة كانت تُشكِّل من وجهة نظرهم نواة للاشتراكية في المنطقة!

ويبدو أن هذا هو المنطق الذي ساد، فمستشارو ستالين، كما يُقال، نصحوه بأن إقامة الدولة الصهيونية في الشرق الأوسط المتخلف ستُدخل عنصراً من عدم الاتزان والصراع في المنطقة وهو ما سيؤدي إلى تثويرها، حتى لو كانت هذه الدولة نفسها دولة رجعية واستعمارية! وهذا يعني أنه نسب للدولة الصهيونية الدور أو الوظيفة التي نسبها الفكر الماركسي لليهود بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة تقوِّض دعائم المجتمع دون أن تقوم هي ببناء المجتمع الجديد. بل كان هناك رأي يذهب إلى أن الدولة الصهيونية ستؤدي إلى نوع من أنواع الاستقطاب الطبقي بحيث تتحالف الرجعية الغربية مع الرجعية اليهودية ويتحالف أعضاء الطبقة العاملة من العرب واليهود ضد أعدائهم الطبقيين، أي أن المنطقة بهذه الطريقة يتم إدخالها العملية التاريخية الكبرى، عملية استقطاب الرأسماليين والعمال، بحيث يتم استقطاب كل التفاعلات والتناقضات في عملية واحدة ذات قطبين متعارضين. ولكن مهما كانت الأسباب والدوافع، فإن التطورات اللاحقة بينت خلل المقدمات.

ومهما كانت الديباجات، قومية أم طبقية، بيروقراطية أم ثورية، فإن من الواضح أنه تقرَّر توظيف فلسطين وشعبها في خدمة المصالح الإستراتيجية للاتحاد السوفيتي، وكان يُفترَض أن انتشار الاشتراكية يخدم هذه المصالح. وقد تكون هذه الديباجات الاشتراكية زائفة أو حقيقية، ولكن ما يهم أن الدولة السوفيتية بدأت تدرك دورها باعتبارها قوة عظمى وأن من الضروري أن يكون لها دور تلعبه في الصراع.

وقد ظهر هذا الاهتمام العملي بفلسطين، بوصفها عنصراً يُوظَّف في خدمة المصالح، في صورة تحوُّل كامل على المستوى العقائدي وعلى مستوى الخطاب السياسي. ويُلاحَظ أنه، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، بدأ تأييد الاتحاد السوفيتي لفكرة الدولة اليهودية في فلسطين يتخذ صوراً واضحة. ففي فبراير عام ١٩٤٥، عُقد مؤتمر نقابات العمال العالمي في لندن وصوَّت الوفد السوفيتي إلى جانب قرار يؤيد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. ونص القرار أيضاً على ضرورة إيجاد علاج أساسي عن طريق عمل دولي لإصلاح الخطأ الذي وقع على الشعب اليهودي، وأن تكون حماية اليهود من الاضطهاد والتمييز في أي بلد من بلدان العالم من واجب السلطات الدولية الجديدة. وأن يُعطَى اليهود الفرصة في الاستمرار لبناء فلسطين كوطن قومي عن طريق الهجرة والاستيطان الزراعي والإنماء الصناعي، على أن يكون ذلك مقروناً بتأمين المصالح الشرعية لكل السكان في فلسطين، وتأمين المساواة في الحقوق والفرص كذلك. وهذا جزء لا يتجزأ من الخطاب السياسي الغربي العلماني النفعي الذي لا تثقله أية مثاليات أو مطلقات.

كما اتفق ستالين مع كل من روزفلت وتشرشل في مؤتمر يالطا في فبراير عام ١٩٤٥ على ضرورة إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، وعلى وجوب إزالة كل معوقات الهجرة اليهودية إلى فلسطين فوراً مقابل السماح للسوفييت بإقامة مناطق نفوذهم في أوربا الشرقية. وبادر الاتحاد السوفيتي في يوليو من العام نفسه إلى الاعتراف بالوكالة اليهودية وسمح بفتح مكتب لها في موسكو. ثم قام جروميكو بتأييد قرار التقسيم حتى يتم التعايش بين الشعبين العربي واليهودي في أبريل ١٩٤٧. وتحدث جروميكو في ١٣ أكتوبر ١٩٤٧ من العام نفسه عن ارتباط الشعب اليهودي (التاريخي) بفلسطين، وأشار إلى الظروف التي وجد الشعب اليهودي نفسه فيها نتيجة الحرب. وهنا لا نجد مجرد منطق ذرائعي، وإنما نجد كل مكونات الخطاب الغربي العنصري تجاه اليهود باعتبارهم شعباً ومادة استيطانية متحركة لها ارتباط أزلي

بفلسطين، الأمر الذي يعطيها حقوقاً أزلية في هذه الأرض، خصوصاً وأن ما يعانيه اليهود في الغرب لابد من تعويضهم عنه في الشرق، وهذا هو منطق الإمبريالية. كما يمكن استخدام هذا الوضع لخدمة الحضارة الغربية متمثلة هذه المرة في الاتحاد السوفيتي والاشتراكية العالمية والعلمية. وهذا هو الموقف الغربي التقليدي من الجماعة الوظيفية الوسيطة التي تُستخدَم كأداة. ولذا، ليس من المدهش معرفة أن الاتحاد السوفيتي أول دولة منحت إسرائيل اعترافاً قانونيا، وبذلك أعطتها مصداقية كانت في أمس الحاجة إليها. ومما يجدر ذكره أن من مجموع إحدى عشرة دولة اعترفت بإسرائيل خلال شهر واحد من إقامتها كان من بينها ستٌ من دول الكتلة الاشتراكية.

ولم تكن علاقة الاتحاد السوفيتي بالصهيونية على مستوى العقيدة النظرية أو على مستوى الاعتراف القانوني وحسب، وإنما امتدت لتشمل الدعم البشري والعسكري، إذ سهَّل السوفييت عملية الهجرة للعديد من يهود بولندا إلى مناطق احتلال الحلفاء في النمسا وألمانيا مدركين أن هؤلاء المهاجرين سيتوجهون في النهاية إلى فلسطين. كما أن تشيكوسلوفاكيا زودت المستوطنين بالأسلحة التي لعبت دوراً أساسيا. ويبدو أن السوفييت في الخمسينيات، حينما اكتشفوا عدم جدوى الدولة اليهودية وعدم نفعها، قطعوا العلاقات السياسية معها ودخلوا في تحالف مع العرب. ولكن، مع تغيُّر سياسة الدولة السوفيتية باتجاه الانفتاح، شهدت العلاقات مع إسرائيل تحسُّناً مرة أخرى، إلى أن فُتحت بوابات الهجرة على مصاريعها أمام من يريد أن يهاجر من أعضاء الجماعات اليهودية.

الطبقة العاملة اليهودية أو البروليتاريا اليهودية

مصطلح «الطبقة العاملة اليهودية» أو «البروليتاريا اليهودية» مصطلح يشبه مصطلحات أخرى مثل «الرأسمالية اليهودية» أو «البورجوازية اليهودية». ويتمثَّل وجه الشبه في افتراض أن ثمة استقلالاً يهوديا، وأن اليهود يشكلون طبقات خاصة مستقلة عن طبقات المجتمع. ونحن نفضل استخدام مصطلحات مثل: «العمال من أعضاء الجماعات اليهودية» أو «العمال الأمريكيون اليهود» وذلك باعتبار أن اليهود يشكلون جزءاً من كل، ويخضعون إلى حدٍّ كبير لحركيات هذا الكل وآلياته وقوانينه.

العمال من أعضاء الجماعات اليهودية

تشير كلمة «البروليتاريا» في اللغات الأوربية إلى طبقة من السكان لا تملك شيئاً ولا حتى وسائل الإنتاج التي تستخدمها، وتكسب رزقها من عمل يدها، وتُستخدَم هذه الكلمة مرادفة لكلمة «طبقة عاملة». والبروليتاري هو العامل (مقابل الرأسمالي الذي يمتلك وسائل الإنتاج والفلاح الذي يعمل في الزراعة). ويشكل مفهوم البروليتاريا اليهودية أو الطبقة العاملة اليهودية إشكالية أساسية في الأدبيات التي تتناول وضع الجماعات اليهودية في أوربا. وقد عبَّر عن هذه القضية المفكر الصهيوني بوروخوف في فكرة الهرم الإنتاجي المقلوب، وتتلخص في أن اليهود يتركزون في المهن والحرف ويندُر وجودهم في صفوف الفلاحين والعمال على عكس معظم الشعوب الأخرى. وهو بطبيعة الحال مفهوم قيمته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إلى أقصى حد. فاليهود ليسوا شعباً، وإنما جماعات يهودية تضطلع بدور الجماعات الوظيفية وتعيش بين مختلف الشعوب، وتتحدَّد طبيعة وظيفتها ووجودها في الهرم الإنتاجي بين المهنيين وبالقرب من أعضاء الطبقة الحاكمة باعتبارهم أداة في يدها لامتصاص فائض القيمة من المجتمع ولإنجاز أغراض أخرى. وقد تحوَّل بعض أعضاء هذه الجماعات إلى عمال انخرطوا في صفوف الطبقات العاملة المختلفة. ولكل هذا، فإننا نفضل استخدام مصطلحات مثل «العمال من أعضاء الجماعات اليهودية» أو «العمال الأمريكيون اليهود» أو أية صيغة أخرى تؤكد أن العمال من أعضاء الجماعات اليهودية ليس لهم وجود يهودي مستقل وأنهم جزء من كل، وذلك لأن القيمة التفسيرية والتصنيفية لمثل هذه المصطلحات أعلى بكثير من مصطلح «البروليتاريا اليهودية».

وقد انخرطت أعداد كبيرة من يهود اليديشية في شرق أوربا في صفوف الطبقة العاملة ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر، مع تزايُد معدلات تحديث اقتصاد الإمبراطورية الروسية التي كانت تضم أكبر كتلة بشرية يهودية في العالم. كما انخرطت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية بنسبة أصغر في الطبقة العاملة في الإمبراطورية النمساوية.

أما في البلاد الأخرى، مثل الولايات المتحدة وإنجلترا وإلى حدٍّ ما فرنسا، فإن تاريخ العمال من أعضاء الجماعات اليهودية مرتبط بالهجرة من شرق أوربا ولا علاقة له بالحركيات الداخلية للمجتمع في أيٍّ من هذه البلاد.

وقد تركت التحولات الاجتماعية الضخمة في روسيا والنمسا أثرها في أعضاء الجماعات اليهودية، إذ فَقَد كثير من الحرفيين اليهود وظائفهم بظهور الصناعة الحديثة، وكذا التجار والمرابون اليهود الذين كانوا مرتبطين بالاقتصاد الزراعي. كما أن البورجوازيات الصاعدة

والدولة القومية المطلقة التي كانت تريد السيطرة على كل جوانب الإنتاج، حرَّمت على اليهود العمل في بعض الوظائف التي كانوا يضطلعون بها كجماعة وظيفية، مثل صناعة الكحول والاتجار فيها. وأدّى هذا الوضع إلى وجود عمالة يهودية ضخمة لا تمتلك وسائل الإنتاج وليس لديها رأسمال كاف الأمر الذي جعلها تنخرط في صفوف الطبقات العاملة، وكانت هذه العملية صعبة بعض الشيء في أوربا الشرقية بسبب الميراث الاقتصادي والتقاليد السائدة. أما العناصر المهاجرة، وهي عناصر أكثر حركية في العادة، فلم تجد صعوبة شديدة في التحول إلى عمال بسبب عدم وجود عوائق نفسية أو حضارية أو قانونية، وإن كان الميراث الاقتصادي ووضعهم كمهاجرين قد وجههم نحو قطاعات معينة دون غيرها. ومن الأمور التي تستحق التسجيل أن الصناعات التي كان يملكها يهود داخل منطقة الاستيطان استفادت في بداية الأمر من العمالة اليهودية. أما في الولايات المتحدة، فقد نجح أصحاب مصانع النسيج من اليهود ذوي الأصل الألماني في أن يستفيدوا من العمالة اليهودية الوافدة واستغلوها استغلالاً كاملاً فيما يُسمَّى «ورش العَرَق». وقد بلغ عدد العمال من أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا، قبل الحرب العالمية الثانية، مليوناً ونصف المليون من مجموع يهود العالم البالغ عددهم نحو ستة عشر مليوناً، منهم: ٤٠٠ ألف في الولايات المتحدة، و٣٠٠ ألف في الاتحاد السوفيتي، و٣٠٠ ألف في بولندا، و١٠٠ ألف في فلسطين، و٤٠٠ ألف في البلاد الأخرى مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا والمجر ورومانيا وبلدان أمريكا اللاتينية. ويُلاحَظ أن هذه الأرقام تشير إلى العمال وحسب، ولا تشير إلى كل العاملين في الصناعة من موظفين إداريين.

وقد ترك الميراث الاقتصادي لليهود أثره في العمال من أعضاء الجماعات اليهودية. فيُلاحَظ تركُّزهم في صناعات بعينها دون غيرها مثل صناعة الملابس والخياطة. وهذا يعود في الواقع إلى اشتغال اليهود بالربا وأعمال الرهونات. وكان من أكثر أعمال الرهونات الملابس المستعملة التي كان اليهودي يُعيد ترقيعها وبيعها. كما أن افتقار العمال اليهود للكفاءة، بسبب انخراطهم المتأخر في سلك الطبقة العاملة، ساهم في توجيههم نحو صناعات بعينها دون غيرها. وتتسم الصناعات التي تركَّز فيها اليهود بصغر حجمها وقربها من المراحل النهائية للإنتاج مثل إنتاج السلع المُصنَّعة أو نصف المُصنَّعة مقابل إنتاج وسائل الإنتاج، وهي صناعات لا تتطلب كفاءات عالية، بل تستند أحياناً إلى الصناعات المنزلية.

وحيث إن العمال من أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يتركزون في صناعات خفيفة، لذا نجد أن هذا انعكس على نفوذهم وثقلهم الذي ظل ضئيلاً، فمارسوا ضغطهم من خلال الاتحادات والأحزاب العمالية المختلفة القائمة، أي أنهم لم يشكلوا حركة عمالية يهودية مستقلة. ومع هذا، ظهر حزب البوند الذي حاول تنظيم العمال اليهود من المتحدثين باليديشية. ويُلاحَظ أن حزب البوند لم يكن يتحدث عن طبقة عاملة يهودية عالمية، وإنما كان يتحدث عن عمال يهود في شرق أوربا لهم ظروفهم الثقافية (وربما الاقتصادية) الخاصة، وهو الرأي الذي رفضه البلاشفة. ومع اختفاء الثقافة اليديشية، اختفى تماماً أي أساس لوجود تنظيم عمالي يهودي (يديشي) مستقل. وعلى كلٍّ لم يَعُد هناك عمال يهود في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، أي أن أحفاد العمال من أعضاء الجماعات اليهودية دخلوا الجامعات وانخرطوا في صفوف المهنيين والطبقة الوسطى وحققوا حراكاً اجتماعيا ابتعد بهم عن إطار العمال والعمل اليدوي.

انخراط أعضاء الجماعات اليهودية في الحركات الاشتراكية والثورية

يُلاحَظ وجود كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في الحركات الثورية الاشتراكية في كثير من بلاد العالم بنسبة تفوق نسبة انخراط السكان الأصليين في هذه الحركات. وهذه ظاهرة كانت ملحوظة في العالم العربي الإسلامي، إذ يُلاحَظ أن كثيراً من قيادات ومؤسسي الحركات الشيوعية كانوا من اليهود. وليس هذا بمستغرب، فكثير من أعضاء الأقليات ينجذبون إلى الحركات الثورية العلمانية على أمل أن يحقق لهم المجتمع الثوري العلماني الجديد الحرية الكاملة والمساواة التامة. ولكن ذلك، على كل حال، كان ظاهرة عابرة نظراً لأن كثيراً من العناصر اليهودية في الحركة الاشتراكية كانت أجنبية أو من أصل أجنبي ورحلت عن العالم العربي بعد تأسيس الدولة الصهيونية وبعد اتضاح معالم حركة القومية العربية. كما أن هذه العناصر كانت ضمن القيادات وحسب ولم يكن هناك قط جماهير يهودية بهذا المعنى. ومع الخمسينيات، كانت معظم الحركات الاشتراكية يقودها عناصر عربية محلية. ومع هذا، يذهب بعض الباحثين إلى أن القيادات الشيوعية العربية من أصل يهودي (مثل هنري كورييل) ظلت مسيطرة على الحركات الشيوعية.

أما في العالم الغربي، فيمكن القول بأن غرب أوربا في القرن التاسع عشر (إنجلترا وهولندا وفرنسا وغيرها) لم يكن فيه كتلة بشرية يهودية كبيرة كما أنها كانت مندمجة، وبالتالي لم يكن هناك وجود

يهودي ملحوظ لا على مستوى القيادات الاشتراكية ولا على مستوى الجماهير. ولكن من المُلاحَظ أن بعض العناصر الثورية كانت تُجنَّد من بين المهاجرين من شرق أوربا مع يهود اليديشية. كما أن تمثيل اليهود في الأحزاب الثورية، سواء على مستوى القيادة أو على مستوى الجماهير، كان أعلى من نسبتهم القومية.

أما في وسط أوربا (ألمانيا والنمسا)، فقد كانت أعداد اليهود صغيرة، كما كانت تنتمي أساساً لكبار المموِّلين والطبقات الوسطى، ولذا ارتبط اليهودي في الأذهان بكبار المموِّلين وبالدعاوى الليبرالية. ولم تكن الأحزاب الثورية تضم في صفوفها أعداداً كبيرة من اليهود بشكل مطلق. ومع هذا، كان هناك عدد ملحوظ من قيادات الحركات الثورية الاشتراكية والشيوعية، ومن المفكرين الثوريين، من أعضاء الجماعات اليهودية، يمكننا أن نذكر من بينهم كارل ماركس وفرديناند لاسال وكارل كاوتسكي وروزا لوكسمبرج. ولعل هذا الوضع هو الذي أضفى مصداقية سطحية على الادعاءات النازية بشأن المؤامرة اليهودية الكبرى ومحاولة اليهود تحطيم ألمانيا بتطويقها من اليمين واليسار.

أما في شرق أوربا، فكان وجود اليهود في الحركات الثورية على مستوى القيادات والجماهير وجوداً ملحوظاً لا شك فيه. فكان عدد كبير من البلاشفة الروس، مثل زينوفييف وكامينيف وليتفينوف، من أعضاء الجماعات اليهودية، وعلى رأسهم تروتسكي مهندس الثورة البلشفية وقائد الجيش الأحمر. أما على مستوى المشاركة الجماهيرية، فكان حزب البوند الروسي البولندي اليهودي أكبر حزب ثوري اشتراكي في العالم عند تأسيسه. وكان الشباب اليهودي ينخرط في سلك الثوار بدرجات متزايدة، فقد كان ٣٠٪ من المقبوض عليهم في جرائم سياسية عام ١٩٠٠ (في روسيا) من أعضاء الجماعات اليهودية.

ويمكن تفسير انخراط أعضاء الجماعات اليهودية في الحركات الثورية بشكل ملحوظ على الأساس التالي:

١ ـ كان اليهود يشكلون نسبة كبيرة من القطاع المتعلم في المدن، وهو القطاع الذي يساهم في الحركات الثورية أكثر من القطاعات الأخرى.

٢ ـ كان كثير من الشباب اليهودي محروماً من دخول الجامعات الروسية، فالتحقوا بالجامعات في أوربا حيث تم تسييسهم وتثويرهم بدرجة أعلى من أقرانهم.

٣ ـ كان اليهود أقلية مُضطهَدة محرومة من حقوقها المدنية. ولذا، نجد أن المثقفين اليهود الذين كان من الممكن في ظروف عادية أن يتحولوا إلى مهنيين عاديين (وهو الأمر الذي حدث فيما بعد) وقد انخرطوا، بدلاً من ذلك، في صفوف القواعد الثورية، كما يحدث في كثير من الحركات الثورية في العالم، حيث نجد أن أعضاء الأقليات المضطهدة يشكلون نسبة عالية فيها.

واستفادت الصهيونية من ظاهرة انخراط أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في الحركات الثورية ووظفته لصالحها، إذ أن أحد الموضوعات الأساسية التي كان يطرحها تيودور هرتزل في كتاباته، وأثناء مفاوضاته، أن الحل الصهيوني الطريقة الوحيدة لتحويل الشباب اليهودي عن الثورة. وقد تم تطوير الصيغة الصهيونية العمالية كمحاولة لاستيعاب الديباجة الثورية الاشتراكية داخل الصهيونية. ومن الأسباب التي أدَّت إلى صدور وعد بلفور، محاولة تجنيد الكتلة اليهودية الضخمة في شرق أوربا ضد الثورة البلشفية.

وبعد الحرب العالمية الأولى، يُلاحَظ تركُّز اليهود في التنظيمات الاشتراكية التي بدأت تتبلور في تنظيمات شيوعية وتنظيمات اشتراكية ديموقراطية. وكانت التنظيمات الشيوعية الدولية معادية للصهيونية ولمعاداة اليهود، ورفضت السماح للأحزاب الصهيونية ذات الديباجات الاشتراكية بالانضمام إليها. وحيث إن الأحزاب الشيوعية كانت تتبع تعليمات الاتحاد السوفيتي في هذا المجال، وفي عدة مجالات أخرى، فإن هذه الأحزاب ناصبت الصهيونية وأحزابها العداء. ولكن هذه الأحزاب نفسها أيَّدت قيام الدولة الصهيونية حينما فعل الاتحاد السوفيتي ذلك، ثم ناصبت الصهيونية العداء مرة أخرى حينما غيَّر الاتحاد السوفيتي سياسته وأعلن عداءه للصهيونية ودولتها. أما الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية، فتقبلت الظاهرة الاستعمارية وبالتالي الصهيونية، وأيَّدت المشروع الصهيوني ثم الدولة الصهيونية، وتعاونت مع الأحزاب الصهيونية ذات الديباجة الاشتراكية ومنحتها حق العضوية في الأممية الثانية. وفي الستينيات، ظهرت حركة اليسار الجديد، وكان كثير من زعمائها في الولايات المتحدة وأوربا من أعضاء الجماعات اليهودية، وكان هربرت ماركوز، مُنظِّرها الأساسي، يهودياً. وأخذت هذه الحركة موقفاً معادياً لإسرائيل ومؤيداً للعرب، خصوصاً بعد حرب ١٩٦٧، وهو ما أدَّى إلى ابتعاد بعض الشباب اليهودي عنها. ولكن، مع هذا، ظلت نسبة عالية من أعضائها من اليهود.

ولا تزال كثير من حركات الرفض الثورية تضم عدداً كبيراً من أعضاء الجماعات اليهودية. وهذه أيضاً ظاهرة ليست مقصورة عليهم وإنما هو أمر شائع بين أعضاء الأقليات.

ويُلاحَظ أننا لا نستخدم اصطلاحات مثل «الاشتراكية اليهودية» أو «الاشتراكيين اليهود» لأن مثل هذه الاصطلاحات تفترض وجود اشتراكية يهودية لا يمكن تفسيرها إلا بالعودة إلى حركيّات يهودية مستقلة، وأن يهودية الاشتراكي اليهودي أهم العناصر التي تفسر سلوكه. وهو ما نجد أن من الصعب قبوله. فبعضهم لعب انتماؤه اليهودي، الديني والإثني، دوراً في انخراطه في الحركة الاشتراكية، والبعض الآخر لم تلعب معه اليهودية أي دور على الإطلاق. وأحياناً نجد أن يهودية الاشتراكي من أعضاء الجماعات اليهودية لعبت دوراً سلبيا وجعلته يتخذ موقفاً معادياً لليهود واليهودية، وكثيرون منهم «يهود غير يهود» (على حد تعبير إسحق دويتشر) لا يكترثون باليهود أو اليهودية، وكل ما بقي من يهوديتهم هو الاسم، ومع هذا صنِّف كل هؤلاء باعتبارهم يهوداً.

وثمة وجود ملحوظ لأعضاء الجماعات اليهودية في قيادة الأحزاب الشيوعية، خصوصاً في شرق أوربا، بنسبة تفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان. كما يُلاحَظ وقوفهم إلى جوار الستالينية، ويجب أن نرى الستالينية هنا باعتبارها «النفوذ الروسي». فرغم الإدعاءات الأممية للنظرية الشيوعية إلا أنه، في مجال التطبيق، ظهرت التوترات العرْقية والإثنية والقومية التقليدية وظهر مرة أخرى خوف الشعوب المَحيطة بروسيا (بولندا-المجر-تشيكوسلوفاكيا-رومانيا) من الدب القيصري الذي ارتدى رداءً أمميا شيوعيا. وقد وقف كثير من أعضاء الجماعات اليهودية إلى جانب روسيا، وهو ما جعل منهم ما يشبه الجماعة الوظيفية التي تمثل المصالح الروسية باعتبارها القوة الإمبريالية الحاكمة. وفي هذا استمرار لميراث الجماعة اليهودية في شرق أوربا كجماعة وظيفية استخدمتها الطبقات الحاكمة لضرب الفلاحين وأحياناً النبلاء، الأمر الذي دعم الصورة الإدراكية السلبية لليهود عند شعوب شرق أوربا. ولعل هذا يُفسِّر سخط كثير من شعوب شرق أوربا على «اليهود» رغم اختفاء الجماعات اليهودية تقريباً، إذ لا تزال صورة اليهودي كسوط عذاب في يد الحاكم حية في الأذهان.

الثورة اليهودية

«الثورة اليهودية» مصطلح أطلقه البعض على الثورة البلشفية عند نشوبها، وهو يفترض أن الثورة البلشفية نظمها اليهود وخططوا لها وعملوا على نجاحها واستفادوا منها. بل يذهب البعض إلى أن الثورة البلشفية، كثورة يهودية، هي إحدى تطبيقات **بروتوكولات حكماء صهيون** أو المؤامرة اليهودية العالمية الكبرى ضد الجنس البشري. والمدافعون عن هذا التصور يشيرون إلى أن كلا من كارل ماركس ولينين يهودي (وهو أمر مناف للواقع، فأبو ماركس قد تنصَّر، أما لينين فمن المعروف أن خلفيته ليست يهودية)، كما يشيرون إلى وجود عدد كبير من اليهود في صفوف البلاشفة على مستوى الكوادر السياسية العادية والقيادات مثل تروتسكي وكامينيف وزينوفييف.

ولكن من يدرس سير هؤلاء البلاشفة اليهود، وغيرهم، سيجد أنهم كلهم رفضوا اليهودية بل ساهموا في صياغة السياسة البلشفية تجاه الجماعات اليهودية وفي تطبيقها، وهي السياسة التي أدَّت في نهاية الأمر إلى تصفية التجمعات السكانية اليهودية في روسيا وأوكرانيا (وكانت من أكبر التجمعات في العالم) وإلى تصاعد معدلات الاندماج والعلمنة بينهم. ومن المعروف أن صعود وهبوط القيادات البلشفية اليهودية في ميزان القوى، داخل الحزب وخارجه، لم يكن نتيجة يهوديتهم، وإنما كان بسبب الظروف العامة للصراع داخل الحزب الشيوعي والمجتمع السوفيتي. وقد تحالف كامينيف وزينوفييف مع ستالين ضد تروتسكي، ومن ثَمَّ نجح ستالين في إقصائه ونفيه رغم أنه كان ثاني أهم شخص في الحزب. ثم تحالفا معاً ضد ستالين الذي نجح في نهاية الأمر، في القبض عليهما وإعدامهما، وهي أمور تحدث في كل الثورات.

ولا شك في أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية المشتركين في الثورة البلشفية والمناصرين لها كان أكبر من نسبتهم إلى عدد السكان. كما أن الجماعة اليهودية استفادت ولا شك من الثورة، ولكن هذا أمر مُتوقَّع من أقلية عانى أعضاؤها من الحكم القيصري في الوقت الذي كانوا يتمتعون فيه بمستوى تعليمي عال.

ولا شك في أن الميراث اليهودي للبلاشفة اليهود قد ترك أثراً في فكرهم وسلوكهم. ولعل تطرُّف تروتسكي كان نتيجة هذا الميراث. ولكن تفسير موقفهم بأكمله على أساس انتمائهم اليهودي أمر غير ممكن، إذ ظل اشتراكهم في الثورة أو انخراطهم في صفوفها خاضعاً لآليات وحركيات المجتمع الروسي إبان الثورة. ومن ثَم، فإن مصطلح «الثورة اليهودية» ليست له قيمة تفسيرية عالية، فهو قد يفسر بعض التفاصيل ولكنه يعجز عن تفسيرها جميعاً بكل تركيبيتها.

كما أن مصطلحاً مثل مصطلح «الثورة اليهودية» له مضمون عنصري، إذ يفترض أن اليهودي يظل يهودياً مهما غيَّر آرائه ومهما اتخذ من مواقف، فثمة حتمية ما تفرض نفسها عليه، أي أنه مصطلح ينكر عليه حرية الاختيار. ومن ثَمَّ، فهو أيضاً مصطلح صهيوني،

فالصهاينة يفترضون أيضاً وجود هوية يهودية ثابتة، لا تتحوَّل ولا تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان.

وقد عاد مصطلح «الثورة اليهودية» إلى الظهور، إذ بدأ أعداء الشيوعية في الاتحاد السوفيتي يلقون باللوم على اليهود وعلى الثورة اليهودية (أي البلشفية) التي ألحقت الكوارث بمجتمعهم، وأوصلته إلى ما وصل إليه من تفكُّك ودمار.

ليون تروتسكي (١٨٧٩-١٩٤٠)

اسمه الأصلي ليف ديفيدوفيتش برونستاين. ثوري ماركسي زعيم سوفيتي، وُلد لعائلة يهودية ميسورة الحال في أوكرانيا. درس في جامعة أوديسا، ولكنه ترك دراسته وانخرط في النشاط الثوري، وانضم عام ١٨٩٦ إلى حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي المحظور. وقد ألقت السلطات القيصرية القبض عليه عام ١٨٩٨ وأُرسل إلى سيبريا، إلا أنه نجح في الهروب إلى إنجلترا عام ١٩٠٢ حيث عمل مع لينين في تحرير جريدة **إيسكرا** لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، وكان يُدعَى «سوط لينين».

واستمر تروتسكي في نشاطه وكتاباته الثورية سواء داخل روسيا أو في أوربا أو الولايات المتحدة، حيث لعب دوراً مهماً في ثورة ١٩٠٥ في روسيا، وكان رئيساً لسوفييت بتروجراد، حيث برزت موهبته التنظيمية والقيادية الفذة. وتعرَّض تروتسكي للسجن في روسيا مرة أخرى عام ١٩٠٥، وللطرد من فرنسا عام ١٩١٦. وقد اتخذ موقفاً معادياً للحرب العالمية الأولى استناداً إلى رؤيته الأممية. ومع اندلاع ثورة فبراير ١٩١٧، عاد إلى روسيا وبدأ التعاون مع لينين.

وفي أول حكومة شكلها البلاشفة عام ١٩١٧، تولَّى تروتسكي منصب مفوض أو قوميسار الشعب للشئون الخارجية، وترأس وفد بلاده لمحادثات السلام في برست ليتوفسك.

وفي عام ١٩١٨، تولَّى منصب مفوض الشعب للشئون العسكرية والبحرية حيث عمل على بناء وتنظيم الجيش الأحمر. وإليه يعود الفضل في انتصار البلاشفة في الحرب الأهلية التي أعقبت الثورة. قاد تروتسكي الحملة على بولندا التي انتهت بكارثة رغم معارضته لها في البداية. وكان مسئولاً عن ضرب المعارضة الفوضوية واليسارية فيما عُرف بعدئذ باسم "الإرهاب الأحمر"، كما كان صاحب فكرة كتائب العمل الإجباري. ومع وفاة لينين عام ١٩٢٤، نشب صراع على السلطة بين تروتسكي وستالين انتصر فيه الأخير بفضل تحالفه مع زينوفييف وكامينيف (وهما من البلاشفة اليهود). وقد اختلف تروتسكي مع ستالين حول سياسة بناء الاشتراكية في بلد واحد، فلم يكن تروتسكي يقبل فكرة الاشتراكية داخل حدود دولة واحدة، بل اعتبر أن ذلك لن يتحقق إلا من خلال ثورة اشتراكية على نطاق العالم أجمع. وتزعَّم تروتسكي المعارضة اليسارية الراديكالية شبه الشرعية داخل الحزب، وانضم إليه زينوفييف وكامينيف بعد أن تحوَّل ستالين ضدهما. إلا أن ستالين نجح، في نهاية الأمر، في إقصاء تروتسكي من المكتب السياسي، وفي طرده من الحزب الشيوعي عام ١٩٢٧، ثم نفيه إلى تركستان عام ١٩٢٨ بتهمة التورط في نشاط معاد للثورة. ثم طرده ستالين من الاتحاد السوفيتي نهائياً عام ١٩٢٩ وجرَّده من الجنسية السوفيتية عام ١٩٣٢. وقد استمر تروتسكي في الهجوم على ستالين واتهمه بأنه مُمثِّل البيروقراطية البونابارتية. وتنقَّل تروتسكي بين عدة دول واستقر أخيراً في المكسيك عام ١٩٣٧. وحاول مؤيدو تروتسكي عام ١٩٣٨ تأسيس دولية شيوعية مستقلة عن موسكو، إلا أنهم فشلوا في تعبئة حركة جماهيرية واسعة مؤيدة له. واتُّهم تروتسكي، أثناء المحاكمات التي تمت في موسكو في أواسط وأواخر الثلاثينيات ضد بعض القيادات البلشفية (وكان من بين المتهمين زينوفييف وكامينيف)، بتورُّطه، بالاتفاق مع حكومتي ألمانيا واليابان وبعض العناصر المؤيدة له في الاتحاد السوفيتي، في مؤامرة للإطاحة بنظام ستالين. وقد قامت السلطات السوفيتية بشطب أية إشارة إلى دور تروتسكي في الثورة أو في السنوات الأولى للنظام السوفيتي من السجلات التاريخية الرسمية. وأُغتيل تروتسكي عام ١٩٤٠ في المكسيك، ويسود الاعتقاد بأنه أُغتيل بأوامر مباشرة من ستالين.

وقد تأثر تروتسكي، مثله مثل غيره من القادة الاشتراكيين، برؤية ماركس للمسألة اليهودية، التي ترى أن ثمة ظاهرة يهودية عالمية واحدة وأن ثمة حلاً واحداً هو الثورة الاجتماعية ودمج اليهود. فرفض تروتسكي فكرة القومية اليهودية، كما عارض استقلال اليهود ثقافياً الذي كان يطالب به حزب البوند عام ١٩٠٣، وأكد وحدة أهداف ومصالح اليهود وغير اليهود داخل المعسكر الاشتراكي. كما رفض الصهيونية باعتبار أن حل مشاكل العصر لا يكون في إقامة دول قومية ولكن بالتطلع إلى مجتمع أممي. ورغم أن تروتسكي أعرب عام ١٩٣٧ في حديث له لمجلة أمريكية يهودية عن أن تزايُد معاداة اليهود في ألمانيا والاتحاد السوفيتي دفعه للاعتقاد بأن المشكلة اليهودية تحتاج إلى حل

إقليمي، إلا أنه رفض أن تكون فلسطين هي الحل. وقد تنبأ بأن الطبيعة الاستيطانية الإحلالية ستحوّل فلسطين إلى بقعة صراع ساحقة، وأن الصراع بين اليهود والعرب في فلسطين سيكتسب طابعاً مأساويا بشكل متزايد وأن "تطوُّر الأحداث العسكرية في المستقبل قد يحولّ فلسطين إلى فخ دموي لعدد من مئات الآلاف من اليهود". ولذا استمر تروتسكي في تأكيد أن الحل النهائي للمسألة اليهودية لن يتحقق إلا مع تحرُّر الإنسانية من خلال الاشتراكية العالمية. ومع هذا اتجه تروتسكي في نهاية حياته إلى قبول المشروع الصهيوني.

ومنذ بداية نشاطه الثوري، اهتم تروتسكي كثيراً بإيجاد دور لنفسه يجعله في صدارة الأحداث. ومع هذا، تُشكِّل نظريته في "الثورة الدائمة" ذروة الحلولية الثورية في الماركسية، فبإمكان الحزب الطليعي أن يقود الطبقة الطليعية إلى الجنة الدائمة رغماً عن حركة التاريخ! ونلاحظ أن قبول تروتسكي فيما بعد فكرة "المركزية الديموقراطية" اللينينية أمر طبيعي، حيث ينتهي الأمر إلى أن تقود اللجنة المركزية الحزب الطليعي ويقود الأمين الثوري الذي يمثل التجسيد النقي للفكر البروليتاري اللجنة المركزية.

٧ ـ ثقافات الجماعات اليهودية

ثقافات الجماعات اليهودية (تعريف وإشكالية)

كلمة «ثقافة» لها معنيان أو استخدامان رئيسيان:

١ ـ معنى متسع: أسلوب الحياة في المجتمع بكل ما ينطوي عليه من موروث مادي ومعنوي حي.

٢ ـ معنى ضيق: الأنشطة الإبداعية المتميِّزة في الآداب والفنون الأدائية والتشكيلية ونحن نستخدم الكلمة بكلا المعنيين.

وتشير معظم الكتابات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى «الثقافة اليهودية»، و«التراث اليهودي»، و«الموروث اليهودي». وهذه المُصطلَحات، شأنها شأن مُصطلَحات الاستقلال اليهودي الأخرى، مثل «التاريخ اليهودي» و«القومية اليهودية»، تفترض أن الجماعات اليهودية في العالم ذات حضارة يهودية مستقلة وثقافة يهودية مستقلة وتراث يهودي مستقل عن حضارة وثقافة وتراث المجتمعات التي يُوجَد أعضاء الجماعة اليهودية فيها، وأن إسهامات اليهود الحضارية المختلفة سواء في بابل في العصور القديمة أو في فلسطين في العصور الوسطى في الغرب أو في بولندا والهند والصين في القرن السادس عشر أو في ألمانيا في القرن التاسع عشر أو في الولايات المتحدة واليمن في القرن العشرين، ورغم تنوُّعها الحتمي والمُتوقَّع، تُعبِّر عن نمط واحد (وربما جوهر يهودي). ويستند مفهوم الإثنية اليهودية (وهو مفهوم صهيوني أساسي) إلى افتراض وجود مثل هذه الثقافة المستقلة. بل يُلاحَظ أن الصهاينة أسقطوا المفهوم العرْقي للهوية اليهودية ويؤكدون بدلاً من ذلك البُعد الثقافي (الإثني) لهذه الهوية.

ومفهوم الهوية الإثنية المستقلة تعمَّق حتى تغلغل تماماً في النسق الديني اليهودي نفسه. فاليهودية المحافظة، على سبيل المثال، تدور حول مفهوم التاريخ اليهودي والثقافة اليهودية. وقد أسَّس المفكر الديني الأمريكي اليهودي مردخاي كابلان فرقة يهودية تُسمَّى «اليهودية التجديدية» تستند إلى الإيمان بالحضارة اليهودية والثقافة اليهودية والتراث اليهودي، وإلى أن هذا التراث شيء مقدَّس يشغل المكانة نفسها التي شغلها الخالق في التفكير الديني اليهودي التقليدي. وغني عن القول أن المشروع الصهيوني بأسره يستند إلى رفض الأساس الديني الغيبي للهوية اليهودية ويُحل محلها فكرة الثقافة اليهودية المستقلة.

ونحن نذهب إلى أنه يمكن القول بوجود تشكيلين حضاريين «يهوديين» يتمتعان بقدر محدود من الاستقلال عما حولهما من تشكيلات حضارية:

١ ـ الثقافة العبرية القديمة، التي تمتعت بقدر من الاستقلال داخل التشكيل الحضاري السامي في الشرق الأدنى القديم. ومع هذا ظل هذا الاستقلال محدوداً جداً بسبب بساطة الحضارة العبرانية وضعف الدولة العبرانية وتبعية الدولتين العبرانيتين (مملكة يهودا ومملكة يسرائيل) للإمبراطوريات الكبرى في الشرق الأدنى القديم (العبرية ـ الآشورية ـ البابلية ـ الفارسية). والتبعية السياسية، بخاصة في العصور القديمة، كانت تؤدي إلى تبعية ثقافية بل دينية. ولذا استعارت الثقافة العبرانية الكثير من حضارات هذه الإمبراطوريات.

٢ ـ الثقافة الإسرائيلية (أو العبرية الحديثة). وهذه الثقافة مستقلة ولا شك عن التشكيل الحضاري العربي. ولكنها مع هذا لا تزال جديدة لم تكتمل مفرداتها الحضارية بعد. كما أن الصراع الثقافي الحاد بين عشرات الجماعات اليهودية التي انتقلت إلى إسرائيل ومعها تقاليدها الحضارية (سفارد ـ إشكناز ـ يهود البلاد العربية ـ فلاشاه ـ بني إسرائيل من الهند ـ يهود بخارى ـ يهود قراءون ـ سامريون. . . إلخ). جعلت بلورة مثل هذه الثقافة أمراً عسيراً.

ولكن العنصر الأساسي الذي يتهدد عملية بلورة خطاب حضاري إسرائيلي مستقل أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع استيطاني يدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة الأمريكية ويعاني تبعية اقتصادية وعسكرية مذلّة لها، فهو يدين لها ببقائه وبمستواه المعيشي المتفوق، ولذا فثمة اتجاه حاد نحو الأمركة، يكتسح في طريقه كل الأشكال الإثنية الخاصة التي أحضرها المستوطنون معهم من أوطانهم الأصلية. ومما عمَّق هذا الاتجاه أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع علماني تماماً ملتزم بقيم المنفعة واللذة والإشباع المباشر والنسبية الأخلاقية والاستهلاكية، وهذا يتعارض مع محاولة إحداث التراكم الحضاري. ومع ظهور النظام العالمي الجديد والاستهلاكية العالمية، فإن من المتوقع أن تزداد الأمور سوءاً.

وبخلاف الحضارة العبرانية القديمة والثقافة الإسرائيلية الجديدة لا يمكن الحديث عن ثقافة أو حضارة يهودية مستقلة أو شبه مستقلة. فاليهود، مثلهم مثل سائر أعضاء الجماعات والأقليات الدينية والعرْقية الأخرى، يتفاعلون مع ثقافة الأغلبية التي يعيشون في كنفها ويستوعبون قيمها وثقافتها ولغتها. وإن كان هناك درجة من الاستقلال لكل جماعة يهودية عن الأغلبية، فإن هذا الاستقلال لا يختلف عن استقلال الأقليات الأخرى عن الأغلبية، كما أنه لا يعني بالضرورة أن ثمة عنصراً (عالميا) مشتركاً بين كل جماعة يهودية وأخرى. فالعبرانيون، منذ ظهورهم في التاريخ، تبنّوا حضارات الأمم الأخرى، ابتداءً من اللغة، مروراً بالمفاهيم الدينية، وانتهاءً بالطراز المعماري. وعلى سبيل المثال، لا يُعرَف طراز معماري يهودي، أو فن يهودي مستقل، فهيكل سليمان كان يتبع الطراز الآشوري الفرعوني (المصري)، ولم يكن يختلف كثيراً عن الهياكل الكنعانية. كما نعلم أن الذي قام بتنفيذه عمال مهرة من فينيقيا، وأن الأخشاب أُستوردت من هناك أيضاً، وكذلك تتبع المعابد اليهودية في العالم العربي الطراز العربي. أما جنوب الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر على سبيل المثال، فكانت المعابد اليهودية فيه تُبنَى على الطراز النيو كلاسيكي السائد هناك آنذاك.

وكثير من المنتجات الحضارية التي يستخدمها أعضاء الجماعات اليهودية وتعطي انطباعاً بأنها منتجات يهودية خالصة، يظهر بعد التحليل الفاحص أنها في واقع الأمر ليست كذلك. فلحن صلاة النذور مأخوذ من لحن مسيحي، وألحان نشيد الهاتيكفاه (النشيد الوطني الإسرائيلي) مقتبسة من أغنية شعبية رومانية. ونجمة داود الشهيرة لم تصبح رمزاً يهودياً إلا في العصر الحديث بعد أن كانت رمزاً مسيحياً من قبل. والفنانون التشكيليون اليهود في العصر الحديث، أمثال مارك شاجال، ينتمون إلى تراث فني غربي، ولا يمكن رؤيتهم في إطار ثقافة يهودية مستقلة. ولا يُعرف أيضاً تراث أدبي يهودي مستقل، فالأدباء اليهود العرب في الجاهلية والإسلام اتبعوا التقاليد السائدة في عصورهم. وكذلك الأدباء اليهود في الولايات المتحدة وإنجلترا، فإبداعهم الأدبي مرتبط بالتراث الذي ينتمون إليه، وهذ أمر طبيعي.

لا توجد إذن ثقافة يهودية مستقلة، عالمية، تُعبِّر عن وجدان أعضاء الجماعات اليهودية وسلوكهم وإنما تُوجَد ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيل الحضاري الذي يُوجَد أعضاء الجماعات اليهودية داخله. ولذا يجدر بنا أن نتحدث عن ثقافة غربية يهودية أو ثقافة عربية يهودية، وبذا نخفض مستوى تعميمنا حتى يتلاءم مع الظاهرة التي ندرسها. ولكننا لو فعلنا ذلك فإننا سنكتشف، على سبيل المثال، أن الثقافة العربية اليهودية هي، في نهاية الأمر، جزء من الثقافة العربية، ولا تُوجَد ملامح يهودية خاصة إلا في بعض الموضوعات وبعض المضامين المختلفة إذ تظل البنية العامة بنية عربية. ولنضرب مثلاً بيعقوب صنوع (أبو نظارة) أحد رواد المسرح والصحافة الساخرة في مصر. إن يهوديته لا يمكنها أن تُفسِّر أدبه وفكره وحبه للفكاهة، فهذه أمور مصرية صميمة. ولنحاول على سبيل التجربة أن تُفسِّر سيرة حياته الشخصية والفكرية أو قصة النجاح اليهودية في الولايات المتحدة أو عنصرية يهود جنوب أفريقيا في إطار الجيتو اليهودي في شرق أوربا، لو فعلت ذلك لاكتشفت مدى عجز مثل هذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود ثقافة يهودية واحدة عالمية. وقل الشيء نفسه عن الفنان المصري داود حسني، فهو ملحن وموسيقي مصري يهودي ويُقرَن اسمه بموسيقيين من أمثال سيد درويش وكامل الخلعي حيث لعب دوراً بارزاً في نهضة الموسيقى في مصر وفي إثرائها في العقود الأولى من القرن العشرين. وتقوم الإذاعة الإسرائيلية بالإشارة إلى داود حسني باعتباره موسيقاراً يهودياً، وهو أمر يستحق التأمل دون شك، فلو حاولنا البحث عن أي بُعد يهودي في موسيقاه لأعيتنا الحيلة.

وستتضح المقدرة التفسيرية لنموذجنا التفسيري المقترح (عدم وجود ثقافة يهودية واحدة) حينما نطبقه على الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية، إذ سنلاحظ أنه لا توجد ثقافة يهودية غربية واحدة، وإنما ثقافات يهودية بعدد الدول التي يتواجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية، فثقافة يهود إسبانيا (السفارد) ثقافة إسبانية، تماماً مثلما أن ثقافة يهود ألمانيا ثقافة ألمانية، وثقافة يهود إيطاليا ثقافة إيطالية، وهكذا. ويقول المؤلف الإنجليزي اليهودي آرثر كوستلر إن ما يُعرَف

بالتراث اليهودي أو الثقافة اليهودية (بمعنى عام لا بمعنى ديني وحسب) أمر ليس من السهل تعريفه إذ أن كل ما يَصدُر عن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ليس يهودياً بالمعنى المُحدَّد، وليس جزءاً من تراث قائم. فإنجازات اليهود الأفذاذ الفلسفية والعلمية والفنية تتوقف على معطيات ثقافة الشعوب الأخرى وحضاراتها.

ولذا، فإن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية الذي ينطلق من الثقافة (أي التعريف الإثني) تعريف عار من الصحة، تماماً مثل التعريف العرْقي. وربما تُبيِّن الصورة العامة في إسرائيل الآن أن أسطورة الثقافة اليهودية هي من قبيل الأكاذيب العقائدية الصهيونية العديدة. فاللغة الأمهرية التي يتحدث بها الفلاشاه، والجعزية التي يتعبدون بها، لغات ربما لم يسمع بها الإسرائيليون، تماماً كما لم يسمع الفلاشاه من قبل بالعبرية أو اليديشية.

والنموذج التفسيري الصهيوني بافتراضه وجود ثقافة يهودية واحدة مستقلة يخلق مشكلات لا حصر لها في عملية تعريف المثقف اليهودي، فلا يوجد نمط واحد لتناول المثقفين أو الأدباء اليهود الموضوعات اليهودية. فهناك من يتناول الموضوعات اليهودية من منظور يهودي ما (مثل مائير لفين)، ولكن هناك أيضاً من يتناولها من منظور معاد لليهود (مثل ناثانيل وست)، وثمة فريق ثالث يتجاهل الموضوع اليهودي تماماً في كل كتاباته أو في معظمها (مثل ليونيل ترلنج)، وهناك فريق رابع يتناول الموضوع اليهودي ولكنه يضعه في سياق إنساني عام ويرى أن غربة اليهودي الحادة إن هي إلا تعبير عن أزمة الإنسان (العلماني) الحديث (كما يفعل وودي ألين وإيزاك بابل). وهذا التنوع يجعل من العسير إطلاق اصطلاح «مثقف يهودي» على كل هؤلاء. وفي عام ١٩٨٩، صدر كتاب بعنوان **دليل بلاكويل للثقافة اليهودية**. لكن هذا المعجم لا يضم سوى أسماء المثقفين اليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي، ويستبعد كل المثقفين اليهود الشرقيين، مثل يعقوب صنوع وغيره. ولعل محرري هذا المعجم فعلوا ذلك ليفرضوا نوعاً من الوحدة عليه. ولكن الوحدة في هذه الحالة وحدة غربية وليست يهودية.

ولكن المشكلة الأخرى هي أن هذا المعجم يضم أسماء مثقفين يهود معادون بشكل أساسي لليهودية ولا يمكن فهم فكرهم إلا في إطار تقاليد معاداة اليهود في الحضارة الغربية، فهل يُصنَّف هؤلاء باعتبارهم مثقفين يهود يُعبِّرون عن الثقافة اليهودية، بينما يُستبعَد المثقفون الشرقيون اليهود؟

وهناك مشكلة ثالثة هي مجموعة المثقفين اليهود الذين يؤكدون انتماءهم للحضارة المسيحية باعتبارها مصدر وحيهم ورؤيتهم للكون، مثل بوريس باسترناك وإيليا إهرنبرج (في مرحلة من مراحل حياته). بل هناك فيلسوف روسي يُسمَّى ليف شستوف ظهر اسمه في كتاب حول أهم ثلاثة فلاسفة يهود في العصر الحديث ومعه مارتن بوبر وروزنزفايج. ولكن المعجم الذي نتحدث عنه لم يورد اسمه لسبب وجيه هو أن هذا الفيلسوف الذي وُلد لأم يهودية يُعتَبَر فيلسوفاً مسيحياً لأنه يتحدث عن واقعة صلب المَسيح باعتبارها أهم حدث تاريخي. ولكن، رغم استبعاد معجم بلاكويل لاسمه، فإننا نجد أن اسمه ورد في **الموسوعة اليهودية**. وهناك أيضاً حالة نعوم تشومسكي، وهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث ويجيد العبرية وعاش بعض الوقت في إسرائيل، ومع هذا تهمل الموسوعات اليهودية كافة ذكره ربما بسبب عدائه لإسرائيل والصهيونية. فهل موقف المثقف اليهودي السياسي يُسقط عنه إثنيته اليهودية؟

وإنكارنا وجود ثقافة يهودية مستقلة ومثقفين يهود خالصين لا يعني إنكار وجود بُعد يهودي أو عناصر يهودية مستقلة. كل ما نذهب إليه أن مثل هذه العناصر، إن وُجدت، فليست ذات مركزية تفسيرية، أي أننا لتفسير بنية فكر فيلسوف أو مفكر يهودي ما، وطبيعة أدب أديب يهودي ما، فعلينا تبنِّي نماذج تفسيرية مشتقة من الحضارات التي ينتمي إليها هذا المفكر أو الأديب اليهودي بدلاً من العودة للتوراة والتلمود وتاريخ العبرانيين والكنعانيين (كما فعل الصهاينة والمعادون لليهود) فالنماذج المشتقة من هذه الحضارات تفوق كثيراً مقدرة النماذج المشتقة من الثقافة اليهودية.

ويمكن دراسة العناصر اليهودية باعتبارها عناصر مكملة، دون أن تكتسب مركزية تفسيرية. انطلاقاً من هذا نطرح نموذجاً تفسيريا مشتقا من الحضارة الغربية الحديثة ومن تطوُّر العقيدة اليهودية داخلها فنشير إلى أن العقيدة اليهودية أصبحت عقيدة حلولية كمونية بعد هيمنة القبَّالاه عليها منذ القرن الرابع عشر، وأن الميراث الحلولي للمثقفين اليهود في العصر الحديث (ابتداءً بإسبينوزا وانتهاء بدريدا)، ساهم ولا شك في جعلهم أكثر استعداداً لقبول الحضارة الغربية الحديثة، بحلوليتها وكمونيتها. ويمكن أن نشير إلى تصاعُد معدلات العلمنة بين الجماعات اليهودية بدرجات تفوق المعدل السائد في المجتمع الغربي (كما هو الحال دائماً مع الأقليات). ويمكن أن نشير كذلك إلى أن إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بالغربة وانعدام الأمن (كما هو الحال أيضاً مع أعضاء الأقليات) جعلهم تربة صالحة وخصبة لتقبُّل الحضارة الغربية الحديثة. ويمكن أخيراً أن نذكر أن موقف كثير من المثقفين اليهود يتسم بأنه موقف نقدي جذري من الحضارة الغربية، يتسم بالشك المعرفي والأخلاقي وسيطرة

الفلسفات العدمية. كل هذه العناصر اليهودية ساهمت ولا شك في أن تجعل المثقفين اليهود أكثر استعداداً لتقبُّل الحضارة الغربية الحديثة وأكثر قدرة على التعبير عنها - أي أن البُعد اليهودي في ثقافة المثقف اليهودي الغربي قد يُفسِّر حدة نبرته وجذريتها وعمق عدميتها وحلوليتها. كما قد يُفسِّر تزايُد عدد المثقفين اليهود من الثوريين والعدميين ودعاة العقلانية المادية، ولكنه لا يُفسِّر بأية حال ظهور المنظومة الحضارية الغربية الحديثة العقلانية المادية، فهذا مرتبط بآليات المجتمع الغربي، الثقافية والاقتصادية. بل إننا نذهب إلى أن بروز أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية الحديثة، ناجم عن انتمائهم إلى هذه الحضارة واندماجهم فيها لا انعزالهم عنها، ويتزايد بروزهم بمقدار تخليهم عن عزلتهم واستقلالهم. وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي بارز في الحضارة الغربية الحديثة هو إسبينوزا الذي تخلَّى عن يهوديته. وقد أعلن هايني أن التنصُّر هو تأشيرة دخول الحضارة الغربية، فتنصَّر هو نفسه (كما فعل أبو ماركس وأولاد هرتزل وأولاد موسى مندلسون ونصف يهود برلين في القرن التاسع عشر.. إلخ). ولكن الأدق القول بأن التخلي عن العقيدة اليهودية (وليس بالضرورة التنصُّر) تأشيرة الدخول (فليس مطلوباً من أحد التنصُّر، باعتبار أن مرجعية الحضارة الغربية لم تَعُد المسيحية وإنما العقلانية المادية أو الحلولية الكمونية).

وتنبغي الإشارة إلى أن البُعد اليهودي قد ينصرف إلى بنية فكر المثقف اليهودي وإلى الموضوعات الكامنة، وليس إلى مضمونه الواضح. بل إن المضمون الواضح يمكن أن يكون عالمياً وإنسانياً بل معادياً لليهود أو الصهيونية، وتظل البنية والمقولات الأساسية الكامنة يهودية بالمعنى المحدَّد الذي نطرحه، كما هو الحال مع كل من إسبينوزا ودريدا وفرويد وكافكا. فإسبينوزا وقف موقفاً رافضاً تماماً لكل الأديان، بل اختص اليهودية بالهجوم الشرس، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن كثير من المفكرين الغربيين منذ عصر النهضة وهيمنة العقلانية المادية، ومع هذا لا يمكن فهم حدة هذا الرفض وهذا الهجوم إلا بالعودة للقبَّالاه اللوريانية والتراث المارانى.

واهتمام فرويد الحاد بالجنس يمكن رؤيته كتعبير طبيعي عن تصاعُد معدلات العلمنة ومحاولة رد كل شيء إلى عنصر واحد (كامن/ حال) في المادة (الجنس في حالة فرويد) وهو بالفعل كذلك. ولكن القبَّالاه اللوريانية كانت قد قامت بإنجاز هذا معرفياً وبشكل متبلور قبل ذلك بعدة قرون. وقد وصف أحد المراجع القبَّالاه بأنها جنَّست الإله، وألَّهت الجنس: أي جعلت الجنس نموذجاً تفسيرياً كلياً ونهائياً، يُرَدُّ له كل شيء. وهذا ما فعله فرويد.

وتلجأ بعض المراجع لحيلة رخيصة لتأكيد وجود حضارة يهودية مستقلة وهوية يهودية ثقافية مستقلة نابعة منها. فتتحدث **موسوعة التاريخ اليهودي** عن هذا الزي "اليهودي الصميم" الذي يرتديه يهود المغرب والذى يُسمَّى «الكسوة الكبيرة»، وتُكتب الكلمة بحروف لاتينية دون ترجمة فيتصور القارئ الذي لا يعرف العربية أن هذه كلمة عبرية أو كلمة عربية عبرية! ويوجد للزي اليهودي الصميم شيء يُسمَّى «cum» وهو «الكم» (ويأكل أعضاء الجماعة اليهودية في بخارى طعاماً يهودياً مميَّزاً يُسمَّى «yachni» أي «الياخني»، أما في اليمن فهم يأكلون طعاماً خاصاً جداً لم نسمع عنه قط من قبل يُسمَّى «khubz» أي «خبز». وفي إسرائيل بلد العجائب، يأكلون طعاماً موغلاً في يهوديته اسمه «falafel» أي «الفلافل» التي اكتشفتُ أنها طعام إسرائيلي فريد حينما كنت أعيش في مدينة نيويورك). ورؤساء يهود الفلاشاه، نوع خاص من الحاخامات، يسمونهم «قسيم» وهي صيغة الجمع العبرية لكلمة «قس» العربية (وربما الأمهرية) التي اقتبسها يهود الفلاشاه الذين دخلت على يهوديتهم عناصر مسيحية كثيرة! وحينما يحاول الإسرائيليون أن يرقصوا فهم يرقصون رقصة يهودية صميمة تُسمَّى «الهورا» (من أصل روماني أو أوكراني) أو رقصة يهودية صميمة أخرى تُسمَّى «الدبكة»! وحينما ترتدي مضيفات شركة العال زي الفلاحة الفلسطينية، فهذا زي إسرائيلي نابع من الثقافة اليهودية. وحينما أُسِّس متحف في قرى حيفا على هيئة قرية عربية أخبر كتيب المعرض الزائر أن هذه قرية من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يمكن تحاشي ذكر كلمة «فلسطيني»، وحتى يختبئ الأصل الحقيقي للمُنتَج الحضاري.

التراث اليهودي

يتواتر مُصطلَح «التراث اليهودي» في الكتابات التي تصف الجماعات اليهودية. وهو مُصطلَح يفترض أن تراث أعضاء الجماعات اليهودية تراث يهودي منفصل عن تراث المجتمع الذي يعيش اليهود بين ظهرانيه. ونحن نذهب إلى أنه لا تُوجَد ثقافة يهودية مستقلة، ومن ثَمَّ لا يُوجَد تراث يهودي مستقل.

وقد يكون ما يدفع البعض للحديث عن «تراث يهودي مستقل» و«ثقافة يهودية مستقلة» انفصال اليهود النسبي عن محيطهم الحضاري. فيهود بولندا كانوا يتحدثون اليديشية التي تبدو كأنها لغة يهودية خالصة، كما كانوا يبدعون الأدب اليديشي الذي يبدو كأنه جزء من تراث يديشي يهودي مستقل. ولكن اليديشية، كما هو

معروف، هي ألمانية العصور الوسطى، دخلت عليها كلمات سلافية وعبرية، وتُكتَب بحروف عبرية. أما الأدب اليديشي، فهو نتاج التقاليد الأدبية السلافية. ولا يمكن فهم فتراته وحركاته إلا بالعودة إلى التراث الأدبي الغربي، خصوصاً في روسيا وألمانيا. ثم يحمل المهاجرون اليهود معهم هذه اللغة وهذه الثقافة إلى البلاد التي هاجروا إليها، فيبدو كما لو أن هذا تراثهم الخاص بهم، المقصور عليهم، الذي يحملونه معهم أينما ذهبوا في كل زمان ومكان. ومما يزيد الأمر حدة أن هؤلاء المهاجرين يُظهرون ولاءً شديداً لهذه الثقافة التي أحضروها معهم فهي تراثهم الوحيد، يتمسكون بها، ويدافعون عنها، تماماً مثلما يتمسك أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة بانتمائهم إلى وطنهم القومي الوهمي أو بيهوديتهم الإثنية الخالصة المستمدة - في واقع الأمر - من محيطهم الحضاري السابق أو الحالي. ويتمسك المهاجرون بتراثهم باعتباره تراث الأجداد وباعتباره تراثاً يهوديا خالصاً وعاما. وقد تجتمع عدة أقليات يهودية لكل تراثها في بلد واحد. ومع هذا، تستمر كل أقلية في الحفاظ على موروثها اليهوديّ الذي أتت به رغم أنه مختلف عن موروث الجماعات اليهودية الأخرى. وتجربة الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية مثال جيد على ذلك، فكل جماعة تحافظ على تراثها بتعصُّب شديد وهو تراث ألماني بالنسبة للألمان وسوري حلبي بالنسبة ليهود حلب وسوري دمشقي بالنسبة ليهود دمشق! ومهما يكن من أمر تمسُّك المهاجرين اليهود بموروثهم، فإن هذا الموروث عادةً ما يأخذ في الاختفاء كما حدث مع اليديشية التي لم يعد لها سوى صدى خافت في وعي المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة أو جنوب أفريقيا وفي رؤيتهم لأنفسهم وللواقع.

ويذهب بعض الباحثين (في الغرب) إلى أن الإبداع الحضاري الأساسي لليهود يكمُن في تراثهم أو موروثهم أو رؤيتهم الدينية وفي الثقافة الدينية التي أشاعوها، أي أن عبقرية اليهود الثقافية عبقرية دينية. وهذه رؤية سادت أوربا في القرن التاسع عشر. ومع هذا، كان مفكرو أوربا حتى نهاية ذلك القرن يرون اليهودية باعتبارها مسيحية ناقصة. ومهما يكن من أمر، يمكننا القول بأن التراث الديني لأعضاء الجماعات اليهودية يتسم بقدر من الاستقلال غير موجود على مستوى التراث الحضاري. فالتراث الديني له سماته وإشكالاته الخاصة، وأحياناً لغته.

ومع هذا، فلابد أن نلاحظ ما يلي:

١ - لم يكن التراث الديني اليهودي القديم مستقلا تماماً بأية حال عن التقاليد والأفكار الدينية السائدة في الشرق الأدنى القديم، خصوصاً في بلاد الرافدين، كما لا يمكن فصله عن الإرهاصات الدينية التوحيدية في مصر، وعبادة يهوه في سيناء. وفي الحقيقة، فإن تطوُّر اليهودية من عبادة يسرائيل شبه الوثنية، التي تخلو من أي مفهوم لليوم الآخر والثواب والعقاب، إلى اليهودية التي تُعَدُّ نسقاً دينيا توحيديا متكاملاً، أو التي تحوي داخلها عنصراً توحيديا قويا، أكبر دليل على تأثير الحضارات المصرية والبابلية والآشورية، ثم الفارسية والهيلينية، في المعتقدات الدينية اليهودية. هذا لا يعني بطبيعة الحال تبنِّي نموذج تراكمي، فالتوحيد، تماماً مثل الشرك، أمر كامن في نفس الإنسان التي ألهمها الله فجورها وتقواها.

٢ - يمكن الحديث بشكل ما عن موروث ديني يهودي عام حتى بداية العصور الوسطى. ولكن مع اختفاء السلطة المركزية اليهودية، ومع دخول اليهودية في فلكي حضارتين توحيديتين مختلفتين، ظهرت تقاليد دينية مختلفة متناقضة وموروثات دينية متباينة. كما ظهرت، في إثيوبيا والهند والصين، مراكز يهودية مختلفة بعيدة تماماً عن تأثير السلطات الحاخامية وتتأثر بالموروث الديني لكل بلد. ومع تصاعُد معدلات العلمنة الشاملة حدث تفجُّر كامل، خصوصاً بعد عصر الإعتاق والانعتاق، إذ تصاعدت معدلات العلمنة والاندماج وازداد تأثر أعضاء الجماعات اليهودية كما تأثر الدين اليهودي بالسياقات الحضارية المحيطة. وأصبح من المستحيل الحديث عن موروث ديني يهودي واحد، بل لم يَعُد هناك أي تأثير للموروثات الدينية في الأجيال الجديدة. وقد سمينا هذه الظاهرة «الخاصية الجيولوجية لليهودية».

٣ - يُلاحَظ أن التراث التلمودي وكتب التفسيرات الضخمة (الشريعة الشفوية) التي تحاول أن تحتفظ لليهودية بهويتها، لم تكن معروفة عملياً للعامة من أعضاء الجماعات اليهودية. وكانت هذه الكتب، أو على الأقل الرؤى التي تتجسَّد من خلالها، تؤثر بغير شك في سلوك اليهودي. لكن هذا التأثير لم يكن يماثل، بأية حال، أثر التراث الحضاري لبلدهم الذي يتفاعلون معه ويبدعون من خلاله ويدورون في إطاره ويدركون العالم ككل من خلاله. وعلى كلٍّ، لا يمكن فصل الشريعة الشفوية نفسها عن سياقها الحضاري، وقد ازداد اليهود جهلاً بهذه الكتب في العصر الحديث.

٤ - يُلاحَظ أن جوانب كثيرة من الرسالات العامة للعهد القديم من تعظيم للخالق الواحد الذي لا تدركه الأبصار المتجاوز للطبيعة والتاريخ المتعالي عليهما، والوصايا العشر، والروح العامة للأنبياء العبرانيين، والأمثال والمزامير، أصبحت جزءاً من التراث الديني المسيحي، أي أنها لم تَعُد مقصورة على اليهود حيث تداخل

الموروثان اليهودي والمسيحي. ويمكن هنا أن نطرح ما يمكن تسميته «إشكالية فيلون»، فقد كان يهودياً منبت الصلة إلى حدٍّ كبير بالثقافة العبرية الآرامية، وحاول صبغ العقيدة اليهودية بصبغة إغريقية، ولكنه لم يترك أي أثر في تطور اليهودية اللاحق في حين تأثرت به العقيدة المسيحية أيما تأثر، فهل يُعَدُّ فيلون، إذن، جزءاً من الموروث المسيحي أم يُعَدُّ جزءاً من الموروث اليهودي؟

ميراث الجماعات اليهودية الاقتصادي

«الميراث أو التراث أو الموروث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية»، عبارات تتواتر في كثير من الكتابات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية. ومناقشة هذا الموضوع ستتطلب منا أن نخفض مستوى تعميمنا قليلاً فنتحدث عن يهود العالم الغربي بمعزل عن بقية يهود العالم لأننا لو ضممنا كل يهود العالم في إطار واحد لأصبح التعميم، أياً كان مستواه، مستحيلاً. ولعل الدور الذي لعبه اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة، الحقيقة الأساسية، في هذا الميراث الاقتصادي، وكذلك الكفاءة التي اكتسبوها عبر تاريخهم في الغرب بسبب وظيفتهم هذه، فهذه الخبرة التي حملوها معهم أينما هاجروا استمرت في تحديد نشاطاتهم الاقتصادية حتى بعد أن زالت الوظيفة. فيُلاحَظ مثلاً أن اشتغال يهود العالم الغربي بالربا وأعمال الرهونات، جعلهم يتخصصون في حياكة الملابس، ذلك لأن كثيراً من الأشياء المرهونة كانت ملابس قديمة. ولذا، يُلاحَظ أن يهود العالم الغربي يتخصصون في صناعة النسيج والملابس الجاهزة. وقد أتاح لهم هذا إلى أن يحققوا ثروات أثناء الحروب، لأن القوات المحاربة، خصوصاً في العصر الحديث، تحتاج إلى زي رسمي. وقد حدث هذا في حروب عديدة من بينها الحرب الأمريكية الأهلية حيث حقَّق أثرياء اليهود أرباحاً هائلة بسبب تركُّزهم في صناعات النسيج.

وكذلك، فإن ميراث أعضاء الجماعة اليهودية الاقتصادي في الغرب (باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة تقف دائماً على الهامش) يجعلهم يتخصصون في الصناعات القريبة من المستهلك ويبتعدون عن الصناعات الثقلية، إذ أن عضو الجماعة الوسيطة كان لا يحب الاستثمار في المنقولات الثابتة (مثل الأرض والصناعات الثقيلة) أو لا تتاح له الفرصة أساساً في أحيان كثيرة. فكان يفضل الاستثمار في الصناعات الخفيفة وفي المشاريع التجارية التي تتطلب قدراً عالياً من المهارة الإدارية، ومن هنا كان تخصُّصهم في التجارة وصناعة الأثاث والأحذية وقطاع الخدمات. كما أن تركزهم في المهن والمصارف هو أيضاً نتيجة هذا الميراث الاقتصادي. ويُقال إن هذا أيضاً يرجع إلى أن يهود العالم الغربي عنصر مهاجر، والعناصر المهاجرة تشغل دائماً الأجزاء العليا من الهرم الإنتاجي ولا تشغل قاعدته. ومن ثَمَّ، لا يوجد عمال أو فلاحون يهود، ونتج عن ذلك هامشية اليهود، أي أن نشاطاتهم الاقتصادية ليست في قلب العملية الإنتاجية.

وهذا الوضع يُفسِّر ظاهرة الرأسمالية المنبوذة التي تحدث عنها ماكس فيبر، وهي النشاط الرأسمالي في المجتمع الإقطاعي، الذي لا تربطه علاقة كبيرة بالرأسمالية الرشيدة (أي الرأسمالية الحديثة). وينتج عن ميراث اليهود الاقتصادي في العالم الغربي أنهم كثيراً ما يكونون عرضة للتأميم والتصفية، وربما يصلح تركُّزهم في صناعة النسيج والملابس مثلاً على ذلك. فقد قامت كوبا بتأميم هذه الصناعات، الأمر الذي نتج عنه تصفية الأساس الاقتصادي للوجود اليهودي في كوبا، فهاجروا منها. ويمكن القول بأن تركُّز بعض أعضاء الجماعات اليهودية في تجارة الرقيق الأبيض ـ قوادين وبغايا ـ هو نتيجة ميراثهم كجماعة وظيفية وسيطة. فالجماعة الوظيفية الوسيطة عادةً ما تتحرك بسرعة لسد حاجة نشأت في المجتمع. ويبدو أنه، في أواخر القرن التاسع عشر، نشأت في العالم الغربي حاجة للخدمات الجنسية خارج مؤسسة الزواج بسبب ضعف الأسرة وتصاعُد معدلات العلمنة.

وفي المجتمعات الاستيطانية مثل أمريكا اللاتينية كان الأمر أكثر حدة حيث كان عدد الإناث أقل بكثير من عدد الذكور. وتزامن ذلك مع ضعف التجارة اليهودية الصغيرة ودور اليهود كباعة متجولين. ومن ثَمَّ، تحولت أعداد كبيرة من اليهود إلى التجارة الجديدة. ومما يجدر ذكره أن ميراث المهاجرين اليهود الاقتصادي، شأنه شأن الميراث اللغوي والثقافي والديني، يؤثر بشكل واضح في الجيل الأول ثم يفقد فعاليته بالتدريج إلى أن يفقدها كلها تقريباً بعد جيلين أو ثلاثة.

ولكن هناك جانباً مهماً في الميراث الوظيفي ليهود العالم الغربي حدَّد بشكل جوهري طبيعة وجودهم في القرن العشرين، وهو رؤية الغرب لهم كمادة استيطانية نافعة، وتوظيفهم في هذا المجال. ولعل أهم تجارب الجماعات اليهودية مع الاستيطان تجربة يهود بولندا (يهود أوكرانيا على وجه التحديد) مع نظام الأرندا إذ كان اليهود يُشكِّلون عنصراً استيطانياً مالياً. ومما يَجدُر ذكره أن يهود العالم الغربي كافة في العصر الحديث من نسل يهود بولندا. ومما لا شك فيه أن هذا

الجانب من الموروث الاقتصادي اليهودي في الغرب هو الذي رشحهم للعب دور الجيب الاستيطاني في الغرب والشرق وهو الدور الذي أخذ شكل الدولة الصهيونية الوظيفية التي حولَّت عدة ملايين من يهود العالم إلى جماعة استيطانية قتالية.

الموقف الصهيوني من تراث أعضاء الجماعات اليهودية والتناقض بين القول والفعل في إسرائيل والعالم

تنطلق الصهيونية من افتراض وجود ثقافة يهودية مستقلة وتراث يهودي مستقل، بل تجعلهما من ركائزها الأساسية. والصهيونية في هذا وليدة العصر الإمبريالي الغربي الذي ظهرت فيه فكرة الشعب العضوي ذي الثقافة العضوية التي تُعبِّر عن هويته. وهذه الثقافة العضوية يفترض فيها أنها ذات امتداد في الماضي (أي ذات تراث)، ويجب أن تكون ذات امتداد في المستقبل. ومن ثَمَّ، دعا الصهاينة إلى بعث الثقافة العبرية واللغة العبرية تعبيراً عن كونهم شعباً عضوياً. وازدادت هذه الدعوة قوة بعد أن انضم إلى صفوفها يهود شرق أوربا (يهود اليديشية) من دعاة الصهيونية الثقافية الذين كانوا ينادون بأن اليهودية هي بالدرجة الأولى هوية إثنية ذات تراث ثقافي مستقل وشخصية ثقافية مستقلة ولغة مستقلة (العبرية). واكتسبت الدعوة للتراث ركيزة دينية داخل اليهودية المحافظة التي خلعت صفة الإطلاق على الشعب العضوي بحيث حل محل الخالق، فالتراث محور اليهودية المحافظة، ويكاد يصبح الركيزة النهائية والنقطة المرجعية للنسق الفكري. وفي اليهودية التجديدية، يصبح التراث، دون مواربة أو حرج، مصدر الإطلاق وموضع القداسة.

وقد عارضت ثلاثة اتجاهات يهودية هذا المفهوم:

١ - اليهود المتدينون: وهؤلاء يؤمنون بأن اليهودية ليست مجرد تراث ثقافي وإنما انتماء ديني، وبأن اللغة العبرية لغة مقدَّسة لا يصح استخدامها في الحياة اليومية أو في شئون الدنيا.

٢ - اليهود الاندماجيون: وكانوا يتركزون أساساً في فرنسا وإنجلترا وألمانيا (أي في غرب أوربا)، وبعد ذلك في الولايات المتحدة وغيرها من الدول الاستيطانية (باستثناء إسرائيل)، وهؤلاء يرون أن اليهود يكتسبون هويتهم الثقافية من الثقافات القومية المختلفة التي يتفق وجودهم فيها. وقد استبعد معظم هؤلاء كل الإشارات القومية والمُصطلَحات العبرية حتى من الصلوات اليهودية نفسها.

٣ - دعاة الثقافة اليديشية. وكانوا مركزين في شرق أوربا التي كانت تضم أغلبية يهود العالم آنذاك (في روسيا وبولندا أساساً). وكان دعاة هذا التيار يرون أن يهود شرق أوربا من يهود اليديشية يشكلون جماعة بشرية ذات شخصية ثقافية قومية مستقلة، ولكن هذه الشخصية ليست يهودية بشكل عام وإنما شرق أوربية تتحدث وتفكر وتكتب باليديشية وليس لها أيةّ علاقة بالعبرية (ولذا، يمكن إطلاق اصطلاح «القومية اليديشية» عليها). وقد كان حزب البوند أكبر تنظيم اشتراكي في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر يضم أعضاء الطبقة العاملة اليهودية في شرق أوربا من أهم المدافعين عن هذا الاتجاه.

واحتدم الصراع بين ممثلي هذه التيارات، ولكن كان من المحتم أن ينتصر التيار الصهيوني بين الجماعات اليهودية، وذلك لسبب بسيط هو أن كلا من دعاة اليديشية والاندماج لا يؤمنون بضرورة التوجه إلى الجماعات اليهودية كافة، فكلاهما ينكر أساساً وجود ثقافة يهودية عالمية مستقلة ويعترف بانتماء أعضاء الجماعات إلى تشكيلات حضارية قومية مختلفة. أما التيار الديني المناوئ للدعوة الصهيونية، وهو تيار عالمي بمعنى أنه يرى أن اليهودية انتماء ديني (مثل الإسلام والمسيحية) لا تحده الحدود القومية، فانحسر بالتدريج وتحوَّل إلى جيب صغير معارض بسبب تزايُد معدلات العلمنة في الغرب. هذا إلى جانب صهينة الدين اليهودي نفسه، أي فرض الأطروحات الصهيونية عليه.

وقد تم الاستيطان الصهيوني تحت راية الإمبريالية الغربية ومن خلال ديباجات الثقافة اليهودية العالمية العبرية الوهمية. وكان المستوطنون الأوائل يرفضون أن يُسمَّوا «اليهود»، إذ كانوا يعتبرون أنفسهم عبرانيين يهدفون إلى إنشاء دولة عبرية أو عبرانية تقطع علاقتها تماماً بالتراث اليهودي باعتباره تراث المنفى. وظل هذا الوضع قائماً حتى منتصف الثلاثينيات، ثم تم تبنِّي مُصطلَح «الدولة اليهودية» بسبب إمكاناته التعبوية الواضحة. ولكن، بعد إنشاء الدولة، لا تزال قضية الثقافة اليهودية تلاحق الصهاينة داخل المستوطَن الصهيوني وخارجه. فكل مهاجر صهيوني يستوطن فلسطين يحضر معه من وطنه الأصلي ثقافته الحقيقية التي تعلمها ونشأ عليها، وتراثه الذي تغلغل في وجدانه وفي عقيدته الدينية، بحيث تحوَّلت إسرائيل إلى ساحة صراع بين هذه الحضارات المختلفة، وظهرت الطبيعة الجيولوجية للهوية اليهودية. وقد تفاقم هذا الوضع، وبحدة، حينما وصلت أخيرا أعداد كبيرة من إثيوبيا من يهود الفلاشاه الذين يتحدثون الأمهرية (لغة معظم أهل إثيوبيا) ويصلون باللغة الجعزية (لغة الكنيسة القبطية هناك). وتذكر إحدى الصحف الإسرائيلية أن معلقاً إذاعيا إسرائيليا سأل أحد المهاجرين عن اللغة التي يتحدث بها، ويبدو أنه لم يكن قد سمع عنها قط من قبل، فلقد طلب إليه أن يكرر الإجابة ثلاث مرات قبل أن يستوعب كلمة «أمهرية»، ثم طلب إليه أن يشرح معنى الكلمة!

ولكن الصراع الأكبر هو الصراع الدائر بين ثقافة مؤسسي الدولة من الإشكناز من جهة، وثقافة السفارد (من المتحدثين باللادينو) وثقافة يهود العالم العربي من جهة أخرى. فالثقافة التي تهيمن في المُستوطَن الصهيوني وتسم المؤسسات الثقافية في إسرائيل بميسمها ثقافة ذات طابع إشكنازي. أما ثقافة السفارد، فاستُبعدت قدر المستطاع، فلا تذكر الكتب المدرسية شيئاً عن إنجازات العرب اليهود داخل التشكيل الحضاري العربي، ولا عن إسهامات السفارد داخل تشكيل البحر الأبيض المتوسط بشكل عام. ورغم أن اليهود السفارد والعرب يشكلون الآن أكثر من نصف سكان التجمع الصهيوني، فإن التوجه العام لا يزال إشكنازياً غربياً.

ورغم زعم الصهاينة أن الثقافة اليهودية مستقلة عن الثقافات الأخرى، فإنهم لا يكفون عن تأكيد أن إسرائيل امتداد للحضارة الغربية وأنها لا تنتمي إلى الشرق الأوسط إلا بمعنى جغرافي. بل إن المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون يرى أن الثقافة اليهودية بأسرها إنما هي ثقافة غربية، وهو أمر يصعب قبوله من جانب يهود بني إسرائيل في الهند أو يهود الفلاشاه الذين انقطعت علاقتهم بالعالم الخارجي منذ مئات السنين.

ويرى بعض دارسي المُستوطَن الصهيوني أن ثمة ثقافة جديدة متميِّزة آخذة في الظهور هناك وعاؤها اللغة العبرية الجديدة، وأن هذه الثقافة تتخطى الانقسامات القديمة وتتجاوز الثقافات المختلفة التي حملها المهاجرون معهم، فهي ثقافة تعبِّر عن وضع المستوطنين الإسرائيليين. ورغم أن مثل هذه الثقافة الجديدة لا تزال في طور التكوين، باعتبار أن الاختلافات والانقسامات الثقافية لا تزال واضحة، فإن بإمكان هذه الثقافة، من الناحية النظرية والمنطقية إن لم يكن من الناحية الفعلية أيضاً، أن تظهر وتكتمل معالمها بمرور الزمن. ومع هذا، يمكن أن نضيف التحفظات التالية:

١ - هذه الثقافة الجديدة (ثقافة الصابرا)، أي ثقافة الإسرائيليين المولودون على أرض فلسطين، ستكون ذات صبغة إشكنازية واضحة، وذلك نظراً لاستبعاد اليهود السفارد والعرب من مؤسسات صنع القرار، ذلك لأن صورة الذات في إسرائيل إشكنازية، ولأن أجهزة الإعلام يديرها أساساً إشكناز ينظرون إلى العالم بعيون إشكنازية، وفي النهاية، نظراً لأن الأشكال الأولى لهذه الثقافة تمت صياغتها في غياب السفارد واليهود العرب.

٢ - حينما تكتمل هذه الثقافة بأشكالها المختلفة، لن تكون «ثقافة يهودية» وإنما ستكون «ثقافة إسرائيلية» تُعبِّر عن تجربة المستوطنين الصهاينة في فلسطين، ولن تكون ذات علاقة كبيرة بثقافات أعضاء الجماعات، إذ سيظل هؤلاء داخل تشكيلاتهم الثقافية المختلفة يتفاعلون معها ويؤثرون فيها ويتأثرون بها. ومن المعروف أن أعضاء جيل الصابرا لا يكنون كثيراً من مشاعر الاحترام والمودة لأعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين الذين تصفهم الأدبيات الصهيونية بأنهم شخصيات مريضة هامشية خانعة قابلة لحالة النفي كحالة نهائية. وقد حدا هذا عالم الاجتماع الفرنسي اليهودي جورج فريدمان إلى أن يصف الإسرائيليين بأنهم "أغيار يتحدثون العبرية"، أي أن مواقفهم ورؤاهم لا تختلف كثيرا عن مواقف ورؤى غير اليهود إلا في الوعاء اللغوي. وقد أُعلن مؤخراً أنه سيُكرَّس شهر في كل عام يُسمَّى «شهر التراث اليهودي» ليتعلم الإسرائيليون هذا التراث بعد اكتشاف جهلهم العميق به.

٣- ولكن، حتى الوعاء اللغوي، أي العبرية التي ارتبطت دائماً بأعضاء الجماعات اليهودية من الناحية الدينية وبأعضاء المُستوطَن في نشاطات حياتهم كافة، بدأت تحيط به المشاكل. فقد كتب مواطن عربي من إسرائيل (أنطون شماس) رواية بالعبرية تُسمَّى **آرابيسك** أثنى عليها الناقد الإسرائيلي يائيل لوتان. وعبَّر الروائي الإسرائيلي يهوشاوا عن إعجابه بها، وشبَّه كاتبها بالروائي الروسي نابوكوف الذي يكتب بالإنجليزية. ويبدو أن الرواية باعتبارها عملاً فنيا جيداً ستفرض نفسها على الأدب العبري، ولكن كاتبها عربي فلسطيني غير يهودي، أي شخص "لا يحمل عبء الوعي اليهودي"، وليس "عضواً في القبيلة اليهودية"، على حد قول لوتان. أي أن العبرية نفسها، كوعاء يهودي، قد انكسر على يد هذا الروائي العربي. ومن قبل، كتبت الشاعرة الروسية (المسيحية) اليشيفا قصائد بالعبرية، وهي تُعَد من شعراء العبرية.

هذا هو وضع «الثقافة اليهودية» بالنسبة للمستوطن الصهيوني. أما بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم، فمن الممكن تقسيمهم إلى قسمين أساسيين: أعضاء الجماعات اليهودية ممن احتفظوا بثقافتهم المحلية (وعلى رأسهم يهود اليديشية)، ويهود العالم الغربي المندمجين حضاريا في مجتمعاتهم وبقية اليهود في العالم. ولنبدأ بالقسم الأول. أسهم النازيون وكذلك الحرب العالمية الثانية في تصفية المراكز السكانية اليهودية في بولندا (وغيرها) التي كانت تزدهر فيها الثقافة اليديشية. ويُلاحَظ كذلك أن اليديشية آخذة في الضمور في روسيا وأوكرانيا، رغم اعتراف الاتحاد السوفيتي بها كلغة قومية، وذلك بسبب معدلات الاندماج السريع وإحجام أعضاء الجماعة اليهودية عن الهجرة إلى مقاطعة بيروبيجان التي أعلنت أن لغتها القومية اليديشية، وفي نهاية الأمر بسبب إحساسهم بأن هذه

اللغة لا مستقبل لها (ولذا، فإنهم لا يشجعون أولادهم على تعلُّمها). والوضع نفسه يسري على الولايات المتحدة حيث حمل إليها المهاجرون اليهود اليديشية. فالصحف والجرائد اليديشية آخذة في الانقراض ولم يبق منها سوى صحيفة واحدة ومجلة أو مجلتين يتناقص عدد قرائها. كما أن معهد الدراسات اليديشية (ييفو) في نيويورك يعاني أزمة مالية دائمة لا يخرجه منها سوى معونات الحكومة الأمريكية. ويعود هذا إلى أن أبناء المهاجرين يفهمون اليديشية ولكنهم لا يتحدثونها في العادة. أما أبناء الجيل الثالث فينسونها تماماً ولا يبقى منها سوى ذكرى، فالجميع يود الاندماج بسرعة في المجتمع الجديد ويود تحقيق حراك اجتماعي أهم شروطه، في مجتمع تعاقدي مثل المجتمع الأمريكي، تملُّك ناصية اللغة مثل أهلها. وأعضاء الجماعة اليهودية لا يختلفون في هذا عن بقية جماعات المهاجرين (الإيطاليين أو البولنديين أو الألمان أو الروس) وإن كان من الملاحَظ أنهم كانوا من أوائل الجماعات المهاجرة التي فقدت اللغة التي أحضرتها معها.

وغني عن الذكر أن الثقافات اليهودية المحلية الأخرى اختفت هي الأخرى. فاللادينو (الرطانة التي يتحدث بها السفارد) اختفت تماماً، كما أن أية جيوب ثقافية أخرى انتهت بتصفية الجماعات اليهودية في الهند وإثيوبيا وفي كل أرجاء العالم العربي الإسلامي. ولا شك في أن الحركة الصهيونية حاربت بلا هوادة، قبل إنشاء الدولة وبعدها، ضد اليديشية (الوعاء الأساسي لثقافة يهود شرق أوربا) في مختلف أنحاء العالم وضد كل لهجات وثقافات الجماعات اليهودية. ولكن الإنصاف يتطلب منا أن نقرر أنه رغم شراسة الهجمة الصهيونية ضد الثقافة اليديشية وغيرها من الثقافات اليهودية المحلية، ورغم أن هذه الهجمة ساهمت ولا شك في سرعة ضمور واختفاء هذه الثقافة، إلا أن ظاهرة الاختفاء نفسها لا يمكن تفسيرها إلا على أساس حركيات المجتمعات الحديثة التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها، وهي حركيات تقضي على مختلف الخصوصيات الدينية والإثنية، أو على الأقل تهمِّشها.

أما يهود الغرب المندمجون، فقد تبنَّت الصهيونية تجاههم إستراتيجية مختلفة بسبب طبيعة العلاقة الخاصة مع حكومات الدول الغربية التي لا يمكن اتهامها بالاضطهاد والإبادة وبسبب حاجة الصهيونية إلى يهود الغرب، خصوصاً يهود الولايات المتحدة باعتبارهم عنصر ضغط سياسي ودعم مالي. وأخذت هذه الإستراتيجية شكل محاصرة إعلامية تؤكد أطروحة الهوية اليهودية والثقافة اليهودية المستقلة، ومهاجمة كل كاتب أو مؤلف يهودي يحاول أن يُعبِّر عن هويته القومية المتعينة كأمريكي أو إنجليزي أو فرنسي، باعتبار أنه يتسم بالجبن، وأنه منقسم على نفسه. كما تأخذ هذه الحملة شكل تأكيد أية جوانب يهودية كامنة أو واضحة في كتابات أي مؤلف يهودي. وقد أنكر شاجال ذات مرة، في مجلة **تايم**، أن رسومه يهودية بالمعنى العام للكلمة، وأصر على هويته الروسية الفرنسية، فانهالت عليه عشرات الخطابات تؤكد يهوديته، مع أن من المعروف أن اليهودية تُحرِّم التصوير، وأن الفنون التشكيلية لم تزدهر بين أعضاء الجماعات اليهودية عبر تواريخهم إلا داخل التشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر بعد علمنة اليهود واندماجهم في الحضارة الغربية الحديثة. وتُنظَّم حملات شرسة ضد كاتب أمريكي، مثل فيليب روث، تتهمه بأنه يعامل هويته اليهودية باستخفاف شديد، بل يخضعها للنقد والتمحيص والتشريح (كما يفعل الكُتَّاب الأمريكيون مع كل شيء). وقد وصف الكاتب الأمريكي اليهودي سول بلو نفسه بأنه أمريكي وفيٌّ لتجربته ولثقافته الأمريكية، كما ذكر أن لغته هي الإنجليزية وتربيته أمريكية وأنه لا يمكن أن يرفض ستين عاماً من حياته في الولايات المتحدة. وأضاف قائلاً: "إن اصطلاح «كاتب يهودي» اصطلاح سوقي ومُبتذَل من الناحية الفكرية، ويفرض قيوداً ضيقة دون جدوى، ولا فائدة منه على الإطلاق". وتعبِّر روايات بلو عن هذه التجربة الأمريكية (ولكنه، مع هذا، كان عليه أن يكتب كتيباً عنصريا صهيونيا عن الصراع العربي الإسرائيلي عنوانه **إلى القدس مع العودة** وذلك قبل أن يحصل على جائزة نوبل في الآداب).

وقد نجح الصهاينة في الولايات المتحدة في أن يضعوا مفهوماً للثقافة اليهودية داخل إطار أمريكي. فالعقد الاجتماعي يسمح للمواطن الأمريكي بأن يعتز بتراثه الإثني مادام ذلك لا يتناقض مع انتمائه الأمريكي أو التزامه الوطني. فالأمريكي من أصل إيطالي يعتز بإثنيته الإيطالية، ويقيم الاحتفالات الراقصة القومية، وقد يطلق أسماء إيطالية على أولاده، ويتناول الأطعمة الإيطالية بحماس قومي زائد. وقد نمَّى الصهاينة في يهود أمريكا، بغض النظر عن أوطانهم الأصلية، الإحساس بأن إسرائيل وطنهم القومي الأصلي وأن ثقافتهم هي الثقافة اليهودية. ولكن إذا نظرنا إلى مضمون هذه الثقافة اليهودية بين اليهود العاديين، فإننا نجد أنها تتكون أولاً من ذكريات الإبادة النازية، ثم تأخذ شكل تعلُّم الرقص الشعبي الإسرائيلي الذي هو في واقع الأمر رقص شعبي من شرق أوربا، والاحتفال ببعض الأعياد اليهودية (وليس كلها) وعلى الطريقة الأمريكية، والإبقاء على بعض الشعائر الدينية بعد تفريغها من أي مضمون أخلاقي،

وتناول بعض الأطعمة اليهودية التي أحضرها أعضاء الجماعة اليهودية من بولندا (تماماً كما يتناول الأمريكيون، من اليهود وغير اليهود، الفلافل المصرية باعتبارها طعاماً إسرائيلياً!).

وكما قال أحد المفكرين الأمريكيين اليهود، فإن هؤلاء اليهود الأمريكيون (بثقافتهم اليهودية المزعومة) لا يعرفون إلا أقل القليل عن دينهم اليهودي، ولم يسمعوا قط بموسى بن ميمون (العربي). وهم، بلا شك، لم يسمعوا بالحاخام راشي (الفرنسي). وكثيرون منهم لا يعرفون أن التلمود يتكون من عدة أجزاء، لأن أحدهم لم ير نسخة واحدة منه طيلة حياته، وكل نصيبهم من العبرية بضع كلمات يتفوهونها بصعوبة بالغة، على طريقة تيودور هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧). ومن المؤكد أنهم هم وأولادهم يعرفون والت ويتمان شاعر الديموقراطية الأمريكية، ومارك توين المؤلف الأمريكي، وأسماء رؤساء الولايات المتحدة، والتاريخ الذي نشبت فيه الحرب الأهلية الأمريكية، والبرامج السياسية للأحزاب الأمريكية. ولا شك في أنهم يرتدون البنطلون الجينز والقمصان المعروفة باسم «تي شيرت»، ويلتهمون الهامبورجر وفطيرة التفاح الأمريكية الشهيرة بشراهة أمريكية معهودة.

وربما كان اليهود الأمريكيون محقين في جهلهم بموسى بن ميمون، فهذا المفكر جزء من التشكيل الثقافي العربي، وهو ليس ذا أهمية ثقافية عالمية. أما إسهامه في صياغة الأطروحات الأساسية أو أصول الدين اليهودي، فهو أمر لا يعنيهم لأنهم علمانيون كبقية المجتمع الأمريكي وأغلبيتهم العظمى لاأدرية. وإن كان لدى أحد منهم بقايا انتماء ديني، فهي تأخذ شكل صياغة مخفَّفة جداً، مثل اليهودية الإصلاحية، ولا يشغل هذا الانتماء سوى حيِّز صغير من وجدانه. ويمكننا أن نقول إن اليهودي الأمريكي، رغم كل الادعاءات الصهيونية، أمريكي عادي غارق حتى أذنيه في الثقافة الأمريكية بكل محاسنها ومساوئها. وهو حينما يدافع عن إسرائيل، فإنه لا يختلف كثيراً عن أي مواطن أمريكي آخر إلا في نبرته العالية. فإسرائيل الحليف الإستراتيجي لبلده. وكما قال القاضي الأمريكي الزعيم الصهيوني برانديز، فإن صهيونية اليهودي الأمريكي تنبع من أمريكيته. ولذا، فإننا نجد أن هذا اليهودي الأمريكي لا يمانع في حمل لواء الثقافة اليهودية الوهمية التي لا يعرف عنها شيئاً. وهو يفعل ذلك لأن الأمر لا يكلفه شيئاً، ولا يتناقض البتة مع ولاءاته القومية الأمريكية الحقة.

٨ـ فلكلور (طعام وأزياء) الجماعات اليهودية

فلكلور الجماعات اليهودية

لا يمكن الحديث عن «فلكلور يهودي»، لأن مثل هذا الفلكلور سيضم مواد من حضارات مختلفة لا يمكن تصنيفها على أساس يهوديتها، وإنما يمكن تصنيفها على أساس الحضارات التي تنتمي إليها. ولا يمكن الحديث عن «الطعام اليهودي» لأن هذه العبارة تعني أن ثمة طعام يهودي متميِّز نابع من ثقافة يهودية متميِّزة ويعبِّر عن إثنية يهودية متفردة. وهي أمور نتصوَّر أنها وهمية ولذا فإننا نستخدم مُصطلَح «طعام أعضاء الجماعات اليهودية» أي أنواع الطعام التي يتناولونها. وهذا المُصطلَح ذو مقدرة تفسيرية وتصنيفية أعلى بكثير.

تتنوَّع وتتعدَّد أنواع وأصناف الأطعمة، التي يقوم بإعدادها وتناولها أعضاء الجماعات اليهودية، بتعدُّد وتنوُّع المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها باستثناء بعض التفاصيل التي ترجع إلى قوانين الطعام الشرعي (التي تُحدِّد طريقة الذبح والإعداد وتُحرِّم أنواعاً معيَّنة من الطعام أو تُحرِّم الجمع بين أنواع منه) وربما بعض الوصفات التي حملها أعضاء الجماعات اليهودية من تشكيلات حضارية أخرى تواجدوا فيها قبل هجرتهم إلى مجتمعهم الجديد. فإذا استبعدنا هذين العنصرين فإن من الصعب أن نجد، فيما يتعلق بأصناف الطعام أو مكوناتها أو طرق الإعداد، سمة مشتركة أو مميِّزة تسمح لنا بإطلاق صفة «الطعام اليهودي» على الطعام الذي اعتاد أعضاء الجماعات اليهودية في مختلف أنحاء العالم تناوله سواء في وجباتهم اليومية أو في احتفالاتهم وأعيادهم الدينية. فالأطباق والأصناف التي تملأ موائد العائلات اليهودية لا تختلف كثيراً (بل إطلاقاً) عن تلك الأطباق والأصناف التي تملأ موائد غير اليهود في المجتمعات المختلفة التي يعيش بينها أعضاء الجماعات اليهودية، وهي تعتمد بالدرجة الأولى على أنواع المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية المتوافرة في كل منطقة وعلى تقاليد وعادات الطهي المتوارثة لدى شعوب هذه المناطق.

وسوف يتضح لنا ذلك إذا أجرينا مقارنة بين أنواع وأصناف الطعام التي يتميَّز بها اليهود السفارد والشرقيون من جهة واليهود الإشكناز من جهة أخرى، وذلك من خلال رصد أصناف الطعام التي اعتادت كل جماعة إعدادها للاحتفال بالأعياد الدينية اليهودية نفسها. فبين اليهود السفارد واليهود الشرقيين، يكثُر استخدام الأعشاب والتوابل مثل النعناع والكمون والزعفران والقرفة، وأيضاً الأرز والحبوب والبقول مثل العدس والفول والبرغل، وكذلك

الزيتون ولحم الضأن والماعز والحلويات المقلية المضاف إليها محلول السكر المُركّز. وهذه الأصناف من الغذاء هي نفسها التي يكثر استخدامها وتناولها بين شعوب بلاد الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط. ويقوم اليهود السفارد واليهود الشرقيون بإعداد الأصناف والأطباق المميَّزة لهذه المناطق مثل مختلف المحشيات والكباب والكبة والأرز المخلوط بالخضراوات واللحوم والمسقَّعة والبامية، والحلويات الشرقية المتنوعة كالقطايف والكعك بالسمسم. ومن الطريف أن كثيراً من المراجع اليهودية تضم هذه الأصناف الشرقية تحت بند «الطعام اليهودي»، وتشير لأسمائها الشرقية أو العربية مكتوبةً بالحروف اللاتينية دون ذكر أصولها العربية أو الشرقية، فيهود بخارى مثلاً يأكلون يوم السبت قطعاً صغيرة من لحم مشوي مع البصل يُسمَّى «kabab» أي «الكباب»، أو قطعاً من لحم بارد يُسمَّى «yachni» أي «اليخني». أما يهود اليمن، فيفضلون يوم السبت أكل الـ «kur'i» أي «الكوارع»، ويأكلون خبزاً اسمه الـ «Khubs» (أي الخبز) يُخبَز في الأفران الطينية (وهي الأفران التي تكثُر وتنتشر في ريف الشرق الأوسط). أما يهود العراق، فيفطرون بعد صيام يوم الغفران بالـ «bamya» أي «البامية»، كما يأكلون حلوى تُسمَّى «ata-if» أي «القطايف». والقارئ غير العربي الذي يقرأ مثل هذه الكلمات، يظن لأول وهلة أنها أسماء عبرية لأطعمة يهودية موغلة في القدم، وأن ترجمتها للغة غير عبرية أمر عسير ظناً أن لها ارتباطاً عضوياً بالثقافة اليهودية العريقة!

ولا يمكن إطلاق صفة «يهودية» على مثل هذه الأصناف الشرقية بدعوى أنها أصبحت من الأطباق المميَّزة في أعياد اليهود الشرقيين الدينية أو أنها تشكل جزءاً من وجباتهم اليومية، كما لا يمكن ادعاء أنها تهوَّدت بفعل قوانين الطعام اليهودية. فهي في النهاية تشكِّل جزءاً من التراث الغذائي للشعوب العربية وشعوب حوض البحر المتوسط التي استمد منها اليهود السفارد والشرقيون تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية والغذائية.

أما بالنسبة لليهود الإشكناز، خصوصاً يهود شرق أوربا، فيكثُر بينهم استخدام اللحم البقري والخضراوات قليلة التتبيل، مثل البطاطس والكرنب والبقول ومنتجات الألبان. ونظراً لأن اللحم المذبوح شرعاً لم يكن متوافراً بشكل دائم، أصبح السمك يشكِّل جزءاً مهماً من غذاء الجماعات اليهودية في وسط وشرق أوربا، خصوصاً بعد العصور الوسطى، وكذلك الدواجن. ومن أصناف السمك الشائعة لدى يهود شرق أوربا سمك الجيفيلت gefilte وهو سمك محشو يبدو أنه من أصل ألماني، وسمك الليبكوخن -leb kukhen وهو سمك بالزبيب والعسل وهو من أصل سويسري، وسمك الرنجة المُملَّحة التي يُخرَّط عليها البصل والبيض والتفاح والخبز ويُضاف إليها الخل، وهناك أيضاً الجيهاكت gehakte وهو صنف من أصل روسي بولندي ليتواني. كما يكثُر بين يهود شرق أوربا الأصناف النشوية مثل عجائن لوكشين lokshen والكريبلاخ kreplach، ويبدو أنهما من أصل إيطالي نظراً لتشابُه اللوكشين مع الإسباجيتي أو المكرونة الإيطالية، وتشابُه الكريبلاخ مع الرافيولي الإيطالي. كما تُستخدَم عجينة اللوكشين نفسها لإعداد حلوى البودنج أو لوكشين كوجيل lokshen kugel حيث يُضاف إلى العجين الزبيب والسكر. ويبدو أن هذا الصنف من أصل ألزاسي. ومن الأصناف التي تشتهر أيضاً بين يهود شرق أوربا حساء الكرنب أو البورشت borsht الروسي الأصل، وفطائر اللحم البيروجين -pi rogen الروسية الأصل أيضاً. وهناك السجق أو الكيشكه kishke المحشوة بالبصل والدقيق، وطبق المامالِيجا mamaliga الروماني الأصل الذي يتم إعداده من دقيق الذرة ويُقدَّم بقشدة اللبن الرايب أو الزبدة. وتُستخدَم قشدة اللبن الرايب بشكل واسع في شرق أوربا وتضاف لكثير من الأكلات، ويأكلها اليهود مع الخضراوات الطازجة والجبن.

وتشتهر بين يهود الإشكناز أيضاً كعكة عجينة الخمير. ورغم اعتقاد الكثيرين أن لها خصوصية يهودية، إلا أنها من أصل روسي. كما أن فطائر البلنتسس blintses من أصل روسي بولندي، أما فطيرة الشترودل strudel فهي من أصل ألماني، كذلك الكعكة الإسفنجية التورته torta وكعك اللوز مانديلتروت mandeltrot. وقد أخذ يهود الإشكناز عن الألمان أيضاً المخللات والأطباق التي تجمع بين الطعم الحلو والحمضي مثل أصناف التزيم tzimmes وهي أطباق من اللحم تُضاف لها البطاطس والدقيق أو الخوخ أو الزبيب.

ويتبيَّن مما سبق أن كثيراً من الأصناف والأطباق التي أصبحت معروفة في الغرب، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص، بأنها يهودية وتضمها كتب الطهي اليهودي، ما هي إلا أصناف وأطباق سلافية أو ألمانية تشتهر بها مناطق شرق ووسط أوربا وجاء بها يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة وارتبطت بهم. ومع هجرة الجزء الأكبر من يهود شرق أوربا إلى الولايات المتحدة، اكتسب هؤلاء اليهود العادات الأمريكية في الطعام، وأصبح كثير من هذه الأصناف والأطباق يُقدَّم في الأعياد والمناسبات الدينية وحسب لدرجة أنه أصبح هناك ما يُسمَّى «يهودية المطبخ» أو «يهودية الطعام حيث لا يربط اليهودي أي شيء بالعقيدة اليهودية أو طقوسها سوى الحرص

على تناول الطعام اليهودي التقليدي في الأعياد اليهودية المختلفة. ففي ظل المجتمعات الغربية العلمانية الحديثة، وفي ظل تزايُد علمنة واندماج أعضاء الجماعات اليهودية، أصبح الطعام يمثل بالنسبة لكثير من اليهود شكلاً من أشكال الإثنية اليهودية أو الانتماء اليهودي الإثني، ولعله الشكل الوحيد. ولكن المفارقة هنا أن هذا الطعام الذي يُقال له "طعام إثني" أي يعبِّر عن الهوية أو الإثنية اليهودية هو في الواقع طعام روسي أو بولندي أو ليتواني أو ألماني.

والواقع أن نمط ما يُسمَّى «الطعام اليهودي» لا يختلف عن معظم الأشكال الثقافية التي يُقال لها «يهودية»، وهي في العادة منتَج ثقافي (طعام ـ لغة ـ شكل من الأشكال الفنية ـ زي) يتبناه أعضاء إحدى الجماعات اليهودية ثم تهاجر أعداد منهم إلى بلد آخر يحملون معهم هذا المنتَج الثقافي الذي يُطلَق عليه اصطلاح «يهودي». ويتصوَّر البعض أن هذا المنتَج الثقافي يشارك فيه كل اليهود في كل زمان ومكان، وهم أبعد ما يكونون عن الواقع، إذ أن هذا المنتَج الثقافي يظل مقصوراً على أعضاء الجماعة اليهودية في مجتمع ما وعلى من هاجر منهم واستقر في بلد آخر.

طعام الجماعات اليهودية في الأعياد اليهودية

رغم أن الشريعة اليهودية لا تضم أية شروط أو قوانين خاصة بالطعام في الأعياد اليهودية فيما عدا عيد الفصح، إلا أن أغلب هذه الأعياد (سواء عند اليهود السفارد أو عند الإشكناز) ارتبطت بها بعض الأصناف الخاصة من الطعام. ورغم أن المناسبة الدينية اليهودية قد توجِّه اختيارات أعضاء الجماعات اليهودية وتحدِّدها على مستوى الشكل أو النوعية، إلا أن البيئة الثقافية التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية (أو كانوا يعيشون فيها قبل هجرتهم)، وما توفره من أطعمة وطرق في الطهي، تظل الإطار النهائي الذي يدورون فيه ويحكم اختياراتهم وذوقهم. ولنضرب مثلاً بالطعام الذي يتناوله أعضاء الجماعات اليهودية في ليلة السبت، حيث يُلاحَظ أن يهود شرق أوربا يفضلون بعض الأكلات المُفضَّلة في يوم السبت (طبق سمك الجيفلت المحشو مثلاً)، أما يهود بخارى فيأكلون السمك المقلي بالثوم. ونظراً لأنه محرَّم على اليهود القيام بأي نشاط في يوم السبت (مثلاً إيقاد النار ولو للطهو)، فقد نتج عن ذلك أسلوب في إعداد الطعام يتمثَّل في الطهي على نار هادئة ابتداءً من مساء يوم الجمعة حتى يوم السبت. وفي شرق أوربا، كان يُطلَق على هذا الطبق اسم «تشولنت cholent» وهي كلمة مشتقة من كلمتين فرنسيتين هما «شو chaud» أي «دافئ»، و«لنت lent» أي «بطيء». وعادةً ما يضم هذا الطبق خليطاً من اللحم الدسم والسجق (كيشكه) والبطاطس والبقول. أما في تونس والمغرب والجزائر، فيُسمَّى هذا الطبق «دفينة» وفي بعض دول الشرق الأوسط الأخرى، يُسمَّى هذا الطبق «سخينة» أو «حامين» أي «الطبق الدافئ» أو «الطبق الحار» وبين يهود بخارى يُسمَّى هذا الطبق «بحش bahsh»، وهو خليط من الأرز واللحم والكبدة والخضراوات والتوابل. ومن الأكلات المفضلة أيضاً بين الإشكناز في يوم السبت حساء الدجاج والبيتشا pitcha أو الكوارع، وسمك الرنجة المُملَّحة المُسمَّى «الجيكهات» وأطباق اللحم المسماه «التزيم».

ومقارنةً باليهود السفارد واليهود الشرقيين، يفضل يهود بخارى مثلاً الكباب واليخني وفطيرة اللحم أو الفاكهة وتُسمَّى «ماموس mamossa». أما يهود إيران، فيفضلون أطباق الأرز المتنوعة أو «البيلاو pilaw»، وأيضاً طبق الجيبا gipa وهو الأمعاء المحشو بالأرز (المنبار). ويأكل السفارد فطائر البستيلا أو البوريكاس وهي فطائر بالسمسم والبندق واللحم والبصل. وبالنسبة للحلويات، يفضل يهود شرق أوربا كومبوت الفواكه، أما يهود وسط أوربا فيفضلون الكعك الإسفنجي وكعك اللوز وفطيرة الشترودل، ويفضل يهود اليمن صنف الغينينون ghininun وهو نوع من البودنج يُقدَّم أحياناً بالجبن. كما يأكل يهود اليمن الجعلة ga'le وهي الفول السوداني والزبيب واللوز والفاكهة والحلوى المُحمَّصة. وفي حين يتناول اليهود الإشكناز النبيذ أو البراندي مع وجبة يوم السبت، يتناول اليهود الشرقيون شراب العَرَقي.

ويصاحب وجبة يوم السبت وأغلب الأعياد الأخرى، خصوصاً عند اليهود الإشكناز، خبز الحالا hallah الذي يُخبَز من الدقيق الأبيض. ونظراً لأن يهود شرق أوربا كانوا يأكلون الخبز الأسود طوال الأسبوع، أصبح تناول الخبز الأبيض يوم السبت (وفي الأعياد الأخرى) رمزاً للاحتفال. ويُعجَن خبز الحالا عادةً على شكل ضفائر وتُرَش عليه حبات السمسم رمزاً للمانا manna المذكورة في العهد القديم. أما يهود إسبانيا، فيتناولون الخبز الإسباني الذي يُخبَز بالبيض والسكر، ويكثُر بين اليهود الشرقيين تناول أنواع الفاكهة المختلفة يوم السبت حيث يُعتبَر ذلك في الشرق رمزاً للاحتفال. كل هذا يبين كيف يتنوَّع طعام السبت بتنوُّع البيئة التي يعيش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية.

ولا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للأعياد الأخرى، ففي عيد الفصح، يأكل اليهود خبزاً لا يدخله خميرة أو ملح. وفي هذا اليوم، تُعَدُّ أنواع متنوِّعة من خبز الفطير، ويُستخدَم في ذلك دقيق خبز

الفطيرة. كما يُستخدَم دقيق البطاطس لإعداد أصناف مختلفة من الطعام. ومن الأطباق الإشكنازية الشهيرة لهذا اليوم ما يُسمَّى «كنيدلاخ kneidlaeh» أو «كور الماتساه» حيث يُعجَن دقيق الماتساه بالبيض والسمن والبصل في شكل كور ويُطهَى في الماء المغلي أو المرقة. أما أطباق عيد الفصح بين اليهود الشرقيين (في اليمن) فتضم ما يُسمَّى «فتوت fahthut» وهو نوع من الحساء يدخل في إعداد دقيق الماتساه والميناس minas، والمحموراس في تركيا (وهي رقائق الماتساه محشوة بالجبن أو الخضراوات أو اللحوم).

أما في عيد الأسابيع، فيكثُر تناول الألبان والجبن، ويُقال إن هذا التقليد يرجع إلى أن التوراة التي يُحتَفل بنزولها في هذا اليوم يُشار إليها أحياناً باسم «اللبن والعسل»، وتتنوع أصناف الأطباق التي تُقدَّم في هذا اليوم من جماعة إلى أخرى، وعادةً ما يتم إعداد الحلوى والكعك بالجبن على شكل جبل موسى (سيناء).

ومن الأطباق التي يفضلها اليهود الإشكناز في هذا اليوم فطائر البلنتسس وعجائن الكريبلاخ وفطائر الشترديل الألمانية وكعكة الجبن البولندية وفطيرة الجبن الأمريكية وعجينة الكنيش knishes وهي عجينة الخميرة التي تُحشَى باللحم أو البطاطس والجبن أو الفاكهة وأصلها ليتواني. ويُخبَز في هذا اليوم خبز الحالا الأبيض بالجبنة. أما السفارد، فيُعدُّون لهذا اليوم كعكة السماوات السبع رمزاً للسماوات السبع التي شقها الإله لكي تنزل التوراة على موسى. ويستخدم السفارد جبن الشاه لتحضير العديد من الأطباق مثل طبق السفونجوس sphongous الذي يُعدُّ بالجبن والسبانخ.

وفي عيد رأس السنة اليهودية، يتم تقديم الأصناف الحلوة والفواكه كرمز لعام جديد مليء بالخير والطيبات. وعادةً ما يضاف العسل إلى كثير من الأطباق. وتقوم كل جماعة بإعداد الخضراوات واختيار الفواكه التي لها دلالة خيرة في المجتمعات التي يعيشون فيها، فيهود شمال أفريقيا يأكلون السلق والسبانخ في هذا اليوم باعتبار أنهما "يحملان البركة" وفقاً للاعتقاد العربي المحلي. وعند تناول السلق تتلو العائلة اليهودية دعاء للتبريك يشمل كلمة «يستلقو» أي «تشتيت الأعداء وهروبهم» التي تتشابه في النطق مع كلمة «سلق». وفي اليمن، يتناول اليهود الحلبة ويقابلها في العبرية «روبيا»، وبالتالي فإن تناولها يرمز إلى التكاثر إذ أن منطوقها يشبه العبارة العبرية «شيه يربو» التي تفيد التكاثر. أما بين الإشكناز، فيتم إعداد أطباق التزيم بالجزر والشرائح المستديرة للجزر ذهبيٍّ اللون حيث يرمز ذلك إلى الخير والثراء (ولها معنى مماثل باللغة الألمانية). كما يأكل الإشكناز أيضاً سمك الليبوخن الذي يُعَدُّ بالزبيب والعسل. وفي هذا العيد، يقدِّم اليهود الشرقيون رأس سمكة أو رأس خروف إلى رب البيت رمزاً لبقائه دائماً على رأس العائلة. ويُخبَز خبز الحالا على شكل عجلة مستديرة رمزاً لدوام الخير طوال العام.

وفي يوم الغفران، يخبز الإشكناز خبز الحالا، حيث يُعجن جزء منه على شكل مدرج أو رأس طير رمزاً لصعود الصلوات والأدعية سريعاً إلى السماء. ويأكل اليهود الإشكناز قبل بدء الصيام حساء الدجاج مع عجين السكر. وتتنوع الأطباق التي يفطر عليها أعضاء الجماعات بانتهاء الصيام. ففي وسط أوربا، يفطر هؤلاء على ال «باركس barkes» أو ال «شنيكين shneken» وهي كعكة بالقرفة والجوز أو الزبيب، وهم يفضلون أطباق الرنجة والأصناف التي تجمع بين الطعم الحلو والحمضي مثل السمك المُخلَّل بالجيلي أو «زيس زوير zise-zoyre». أما السفارد، فإنهم يفضلون الإفطار بفنجان قهوة محوجة بالقرفة (هولندا) أو بحب الهال (سوريا ومصر) أو بالزنجبيل (اليمن). وفي بعض دول الشرق الأوسط، مثل تركيا واليونان والعراق، يفطر أعضاء الجماعات اليهودية على مشروب اللوز أو السوبيا أو غيرها من المشروبات التي يرمز لونها الأبيض إلى النقاء. أما في العراق، فإن أعضاء الجماعات يفطرون على البامية وكعك الزنجبيل أو الشدجوباده، كما تأكل كثير من الجماعات الشرقية الكعك بالسمسم. أما في إيطاليا، فإنهم يأكلون كعكة لها نكهة البن أو الموكا اسمها «دولشي ريبكا dolce Rebeca».

وفي عيد المظال، تتنوع الأصناف التي تُقدَّم في الأكواخ الخاصة أو المظال الصغيرة التي تقام احتفالاً بهذه المناسبة. فبين الإشكناز، يُقدَّم حساء البورشت الروسي والجولاش المجري وعجينة الفلودن fluden، وهي حلوى تُعَدُّ بالفواكه، إلى جانب فواكه الموسم. وفي الشرق الأدنى القديم، كان تُقدَّم الكبة والمسقَّعة والمحشيات المختلفة. وفي اليوم السابع من عيد المظال، يُخبَز خبز الحالا، وأحياناً يُعجَن جزء منه على هيئة يد ممدودة رمزاً لتلقِّي البركة، أو على هيئة مفتاح رمزاً لفتح باب السماء للأدعية.

وفي عيد التدشين، يجرى إعداد الفطائر والحلوى المقلية في الزيت رمزاً لمعجزة استمرار الزيت في الاحتراق عند إعادة تدشين الهيكل في أورشليم في عهد يهودا المكابي. ويقوم الإشكناز بإعداد فطائر اللاتكيس latkes أو الفاسبوتشس fasputches أو البونتشكس pontshkes ويُقال إنه جرت العادة على إعداد هذه الفطائر بين يهود شرق أوربا لأن لعب الورق (الكوتشينة) كان من عادات الاحتفال بهذا العيد. وكانت هذه الفطائر تُعتبَر من الوجبات

التي يَسهُل إعدادها وتناولها دون إحداث تعطيل أو انقطاع في جلسات اللعب التي كانت تستمر أحياناً طوال الليل وحتى فجر اليوم اللاحق. ويقوم يهود شرق أوربا أيضاً بإعداد سلطة من الفجل واللفت والزيتون والبصل المحمَّر في سمن الإوز، كما تُقدَّم أطباق الإوزِّ في هذا اليوم.

وفي اليمن، يتم إعداد طبق من الجزر المطهو على نار هادئة اسمه «لحيس جزر lahis gizar»، كما يأكلون الزلابيا، وفي العراق يأكلون القطايف، وفي بخارى الدوشبير dushpire، وفي ليبيا السبانزس spanzes وكلها أصناف من الفطائر.

ومن أشهر الوجبات التي يتم إعدادها بين الإشكناز في عيد النصيب، فطائر مُسلسَلة الشكل تُحشَى بحبوب الخشخاش وأيضاً بالزبيب أو البرقوق أو الخوخ. وتُسمَّى هذه الفطائر بين يهود شرق أوربا «هامان تاشن haman tashen» أو «جيوب هامان» فهي ترمز إلى جيوب هامان المليئة بالرشاوى التي تقاضاها. وفي وسط أوربا، تُسمَّى هذه الفطائر «قبعة هامان». ويُقال إن شكل الفطيرة جاء من قبعات جنود نابليون حيث يبدو أن اليهود في عصر نابليون كانوا يعتبرونه محرِّراً. وقد كان يُطلَق عليها أيضاً اسم «آذان هامان» لأنه كان يتم قديماً قطع آذان المجرمين عقب إعدامهم. ويُقال أيضاً إن هذه الفطيرة ارتبطت بعيد النصيب لأن الكلمة الألمانية التي تعني حبوب الخشخاش وهي كلمة «مون mohn» مشابهة لاسم هامان.

وخبز عيد النصيب كبير الحجم ومضفَّر رمزاً للحبال التي استُخدمت لشنق هامان. ويُعدّ السفارد فطائر مشابهة تُحشَى باللحوم والخضراوات والفاكهة. ويُعدّ أعضاء الجماعات الشرقية أنواعاً مختلفة من الحلويات والكعكات المحشوة باللوز والجوز، ويوزِّع يهود إيران بعد قراءة أجزاء من العهد القديم نوعاً من الحلوى تُسمَّى «حلافا كاشكا».

أزياء وملابس الجماعات اليهودية

لا يمكن الحديث عن «أزياء يهودية»، وإنما يمكن الحديث عن الأزياء والملابس والثياب التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية المتعددة التي تختلف باختلاف المجتمعات التي يعيشون في كنفها، ومن ثَمَّ يكون اصطلاح «أزياء الجماعات اليهودية» أكثر دقة وأعلى قدرة على التفسير والتصنيف، فالذي يحدِّد السمات الأساسية لهذه الأزياء المجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها. ولا يمكن فهم تحولات وتطوُّر أزياء أعضاء هذه الجماعات إلا في هذا الإطار وهو أمر طبيعي تماماً فالأزياء، شأنها شأن اللغة، رموز اجتماعية لا يبتدعها المرء وإنما يتلقاها من المجتمع، قد يحاول التغيير في بعض التفاصيل (وحينئذ قد يوصف بالأصالة أو بالشذوذ)، لكن الأزياء في نهاية الأمر لغة اجتماعية. وقد كان العبرانيون في مصر يرتدون (على ما يبدو) أزياء قدماء المصريين، كما ارتدوا أزياء البابليين ثم الفرس وهم في بابل فارس، وأزياء اليونان والرومان إبان حكم الإمبراطوريات الهيلينية والرومانية. ولم يختلف زي اليهود المستعربة عن أزياء العرب. ولا نرى يهود الدولة العثمانية يرتدون سوى الزي السائد في زمانهم ومكانهم. وحينما بدأ العثمانيون يرتدون الطربوش ارتدوه، وعندما تخلوا عنه واستعملوا الأزياء الغربية تحوَّلوا بتحوُّلهم. ويرتدي يهود الهند، من الذكور والإناث، الأزياء الهندية المعروفة، كما ارتدى يهود الصين أزياء أهل بلدهم.

ومع هذا، لابد من الإشارة إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية، شأنهم شأن الأقليات والجماعات الدينية والإثنية الأخرى قبل العصر الحديث، لهم بعض الثياب المميَّزة المرتبطة بشعائر دينهم وأعيادهم ومناسباتهم التي لا يشاركون فيها أعضاء الأغلبية. فعلى سبيل المثال، يرتدي أعضاء الجماعة اليهودية من المتدينين (أي غالبية اليهود الساحقة حتى أواخر القرن الثامن عشر، وأقلية صغيرة جداً في العصر الحديث) شال الصلاة وهم في طريقهم إلى المعبد يوم السبت، ويرتدي بعضهم شال صلاة صغيراً تحت ملابسه طيلة الوقت، وإن كانت أغلبية يهود العالم هجرت هذه الممارسات الدينية. وحيث إن قوانين المجتمعات التقليدية كانت مبنية على الفصل الحاد بين الطبقات والجماعات، فإن الأزياء كانت تُستخدَم وسيلةً لتدعيم هذا الفصل، فلا يرتدي الفرسان زي الفلاحين، ولا يرتدي هؤلاء زي التجار، وهكذا. ولأن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يتركزون عادةً في مهنة واحدة مثل التجارة، فإنهم كانوا يرتدون زي أهل هذه المهنة حينما يتطلب الأمر اشتغالهم بها. كما أن انتماء الفرد في تلك المجتمعات إلى إحدى الأقليات، خصوصاً إذا كانت الأقلية من الجماعات الوظيفية الوسيطة، كانت تصحبه مجموعة من المزايا والأعباء كما كان الحال في العصور الوسطى في الغرب، إذ كان يُفرَض عليه ارتداء شارة تميِّزه عن الآخرين. ومن هنا، وُجدت شارة اليهود المميِّزة التي كانت تُعَدُّ ميزة يحصلون عليها ويسعون من أجلها، فهي تكفُل لهم الحماية وتضمن لهم الإعفاء من جمارك المرور على سبيل المثال. ولكن أحياناً كان يُفرَض على اليهود في العالم الغربي، وعلى غيرهم من أعضاء الأقليات، زي محدَّد لضمان الأمن الداخلي أو كمحاولة للحد من نشاطهم وتضييق الخناق عليهم، خصوصاً حينما يصبح المجتمع بلا حاجة إليهم. ولكن، في جميع الحالات، لم يكن

هناك زي واحد يُفرَض على اليهود في كل زمان ومكان، بل كانت هناك أزياء مختلفة ومتعددة باختلاف وتعدُّد الأماكن والمراحل التاريخية والظروف الاجتماعية والسياسية.

وإذا كنا قد شبَّهنا الأزياء باللغة، فبوسعنا الآن أن نشبه أزياء أعضاء الجماعات اليهودية باللهجات التي يتحدثون بها. فلهجات أعضاء الجماعة اليهودية تنبثق من لغة ما يتبنونها ثم يضيفون إليها بعض العبارات العبرية، ويستمرون في استخدامها حتى بعد أن تتطور اللغة الأصلية، كما حدث مع اليديشية التي هي عبارة عن ألمانية العصور الوسطى نقلها اليهود إلى بولندا واستمروا في استخدامها كما هي (مع أنها تطورت في وطنها الأصلي) وأضافوا إليها كلمات سلافية وعبرية.

وعلى سبيل المثال، فإن الزي الذي يُسمَّى «الكسوة الكبيرة»، وهو رداء العروس اليهودية في المغرب، يضم عناصر من أزياء إسبانيا كان أعضاء الجماعة اليهودية قد تبنوها قبل طردهم منها وأضافوا إليها عناصر من أزياء المغرب. وحدث تطوُّر مماثل في أزياء يهود شرق أوربا، فهم يرتدون رداءً طويلاً مصنوعاً من الحرير ذا أكمام طويلة ومفتوحاً من الأمام حيث يُثبَّت بحزام في الوسط ويُسمَّى «كفتان» (من الكلمة العربية «قفطان»). وكان النبلاء البولنديون يرتدونه، ويبدو أن هؤلاء بدورهم كانوا قد نقلوه من زي المغول الرسمي في القبيلة الذهبية التي كانت تمثل القوة العظمى في أوربا السلافية. وتطوَّر الكفتان بعد ذلك وأصبح ما يُسمَّى «كابوت». وقد تبنَّى يهود شرق أوربا إلى جانب ذلك بعض العناصر الأخرى من رداء النبلاء البولنديين، حيث كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تمثل مصالح هؤلاء النبلاء في أوكرانيا وغيرها من الأماكن. ومن أهم هذه العناصر قبعة اليرمولك، وهو غطاء الرأس الصغير الذي أصبح السمة المميِّزة لأعضاء الجماعة اليهودية من المتدينين، بل يرتديه غير المتدينين كذلك باعتباره طقساً من طقوس حفاظهم على هويتهم. ومن الملامح المميِّزة أيضاً لرداء يهود شرق أوربا قبعة خارجية تُسمَّى «الشترايميل». ومن الواضح أنها من أصول سلافية، فهي قبعة ثُبِّت في طرفها ذيول ثعالب، وكانت كثرة عدد الذيول من علامات الثروة. ويذهب آرثر كوستلر إلى أن هذه القبعة كان يرتديها يهود الخزر وأنهم نقلوها عن قبائل الكازاك.

أما النساء، فقد كن حتى منتصف القرن التاسع عشر يرتدين عمامة عالية بيضاء كانت نسخة طبق الأصل من «الجولوك» التي كانت تلبسها نساء الكازاك والتركمان. ومازالت الفتيات اليهوديات الأرثوذكسيات ملزمات، حتى اليوم، بأن يضعن عوضاً عن العمامة البيضاء العالية شعراً مستعاراً من شعورهن نفسها، ثم ينزعنه عندما يتزوجن.

واحتفظ يهود شرق أوربا بهذا الزي بتنويعاته المختلفة. وبقيت لهذا الزي المميِّز وظيفته في مجال عَزْل أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية الوسيطة عن محيطهم (إلى جانب الرموز والأشكال الأخرى مثل اللهجة المميِّزة والعقيدة المختلفة). ولكن، مع التحولات العميقة في وسط أوربا وشرقها، ورغبة الدولة القومية المركزية في إنهاء عزلة اليهود وغيرهم من الجماعات والأقليات، طُلب إلى أعضاء الجماعة اليهودية التخلي عن هذا الزي وارتداء الأزياء الغربية، وصدرت قوانين تُحرِّم ارتداء أزياء خاصة بالجماعات اليهودية. لكن أعضاء الجماعة اليهودية رفضوا هذا التغيير القسري في بادئ الأمر، قبل أن يندمجوا في نهاية المطاف. ولا يحافظ على زي يهود شرق أوربا سوى الجماعات الحسيدية، وهم قلة صغيرة.

ومنذ عام ١٨٨١ وحتى عام ١٩٣٥، اشتغل كثير من اليهود في تجارة الرقيق الأبيض المشينة، وكان القوادون يرتدون الكفتان حتى أصبح الكفتان والبغاء مرتبطين تمام الارتباط في الذهن الشعبي في الغرب.

وفي الوقت الحاضر، ترتدي الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الأزياء السائدة في مجتمعاتهم ويتبعون آخر الموضات، إن سمح لهم دخلهم بذلك، وهم في هذا لا يختلفون عن معظم البشر في القرن العشرين.

أما في الدولة الصهيونية، فلم يُلاحَظ ظهور زي إسرائيلي أو يهودي خاص، وإن كان يُلاحَظ أنهم يرتدون الصندل (حتى أصبح إحدى العلامات المميِّزة لجيل الصابرا). ولكن ارتداء الصندل ليس تعبيراً عن هوية يهودية كامنة أو عن أي شيء من هذا القبيل، وإنما تعبير عن حرارة الجو في الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ نجد أن الصندل منتشر في كل دول المنطقة! كما يُلاحَظ أن المضيفات في خطوط العال الإسرائيلية يرتدين زياً قريباً جداً من زي الفلاحات الفلسطينيات!

ولا يُوجَد زي خاص موحَّد للحاخامات. فحاخامات يهود فرنسا يرتدون زي الوعاظ الهيجونوت، أما في إنجلترا فبعضهم يرتدي زي قساوسة الكنيسة الإنجليكانية، وفي الولايات المتحدة يرتدون الزي الغربي العادي، شأنهم في هذا شأن الوعاظ في كنائس البروتستانت، وفي الدولة العثمانية كان الحاخامات يرتدون زي الشيوخ أي جُبَّة وقفطاناً وعنترية وعمامة.

٩ـ فنون الجماعات اليهودية

الفن اليهودي

من الصعب الحديث عن «الفن اليهودي» بشكل عام، ولذلك فإننا نجد أن الحديث عن «فنون الجماعات اليهودية» أكثر دقة وتفسيرية. فعبارة «الفن اليهودي»، شأنها شأن عبارات أخرى، مثل «الثقافة اليهودية» و«الأدب اليهودي»، تفترض وجود هوية يهودية محدَّدة مستقلة وثابتة ومنفصلة عن التشكيلات الحضارية التي تُوجَد فيها، وتفترض وجود شخصية يهودية لها خصوصيتها المتميِّزة.

فنون الجماعات اليهودية

نحن نذهب إلى أنه لا توجد هوية يهودية واحدة، وإنما هناك هويات عديدة تختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف التشكيلات الحضارية التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية في كنفها. ومن ثَمَّ، لا يوجد فن يهودي ولا حتى فنون يهودية بشكل عام، وإنما يوجد فنانون عبرانيون وفنانون يهود تختلف طرقهم في الإبداع باختلاف التشكيلات الحضارية التي ينتمون إليها. ويظهر هذا في فن العمارة على سبيل المثال، فهيكل سليمان يتبع النماذج المصرية والفينيقية والآشورية. أما هيكل هيرود، فيتبع النمط الروماني السائد في ذلك العصر. وكانت مباني العبرانيين تتبع النمط السائد، ولذا كانت كنعانية في البداية ثم هيلينية ورومانية. وفي العالم الإسلامي، شُيِّدت المعابد اليهودية حسب الطراز المعماري الإسلامي، كما تُشيَّد الآن في العالم الغربي حسب الطرز المعمارية السائدة فيه.

وقد أثار اكتشاف معبد ديورا أوروبوس، الذي بُني في العصر الهيليني، قضية تحريم التصوير والتماثيل في اليهودية (كما وردت في الوصية الثانية من الوصايا العشر). ويبدو أن هذا التحريم لم يُنفَّذ إبان حكم الممالك العبرانية. فتماثيل الكروب (الملائكة) فيه تدل لا على تقبُّل التصوير وحسب، وإنما تدل على بناء التماثيل أيضاً. كما أن تماثيل العجول التي كانت في هيكل المملكة الشمالية تدل على أن الكروب لم تكن استثناء فريداً، وإنما كانت نمطاً متكرراً. ولكن، بعد العودة من بابل، حدثت محاولة لتنفيذ هذا الحظر، وإن تم الاحتفاظ بتماثيل الكروب. وبمرور الوقت، ازداد تشبُّع اليهود بالحضارة الهيلينية، وبالتالي بدأ الاهتمام بالتماثيل إلى أن نُسي الحظر الديني تماماً، فنجد أن معبد ديورا أوروبوس تظهر فيه لوحات فسيفساء تمثل أنبياء العهد القديم وبعض الشخصيات الأخرى. وهناك لوحة تمثل ميلاد موسى وقد حملته أفروديت (فينوس) إلهة الجمال، في حين ظهر هارون في لوحة أخرى، وقد تبعه أحد الكهنة اللاويين، ويسير وراءهما عبد.

ولكن، ومن خلال التأثر بالحضارة الإسلامية، اكتسب الحظر شرعية جديدة، وتزايد ابتعاد يهود الحضارة الإسلامية عن التصوير. أما في إيطاليا، مثلاً، حيث ازدهر فن النحت، فإننا نجد أن جيتو روما كان يزينه تمثال نصفي لموسى. وكل هذا يبين أن عبارة «فن يهودي» بغير مضمون، والصحيح أن هناك فن يبدعه فنانون يهود، أو فن ذو مضمون يهودي، أو فن موجه إلى جمهور يهودي يتبع التقاليد الحضارية السائدة في المجتمع المضيف.

ويمكن القول إن مساهمة اليهود في الفن الغربي ظلت ضئيلة حتى القرن التاسع عشر، باعتبار أنهم كانوا جماعة وظيفية وسيطة منعزلة عن أعضاء المجتمع، لها لغتها الخاصة على الصعيد الحضاري وأحياناً اللغوي. كما أن الدين كان مرتبطاً بالفن في المجتمعات التقليدية، ارتباطه بمعظم نشاطات الإنسان الأخرى، وهو ما كان يعني استبعاد اليهود كمنتجين لهذه الفنون، وضمور إبداعهم في مثل هذه المجالات.

وتغيَّر هذا الوضع تماماً، مع القرن التاسع عشر، بعد الإعتاق والانعتاق، وبعد علمنة المجتمع الغربي. ويُلاحَظ منذ ذلك التاريخ ظهور عدد من الفنانين الغربيين من أصل يهودي، ولكن إبداعهم كان يتم من خلال المُصطلَح واللغة الفنية السائدة في مجتمعهم وزمانهم ومكانهم. ومن أهم الفنانين من أعضاء الجماعات اليهودية الفنان الانطباعي كاميل بيسارو (الفرنسي) والفنان مارك شاجال (الروسي) وبن شان (الأمريكي) وأماديو موديلياني (الفرنسي)، وكلهم من الرسامين. وأهم النحاتين من أعضاء الجماعات اليهودية جاك ليبشيتس (الأمريكي). ويُوجَد عدد كبير من تجار الأعمال الفنية ونقاد الفنون من أصل يهودي. ولكن تظل نشاطات أعضاء الجماعات اليهودية، كفنانين مبدعين أو ناقدين للفن أو متاجرين فيه، نابعة من محيطها الحضاري، فهي تعبير عن المجتمعات التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية وعن تفاعلهم معها، وهذه المجتمعات هي التي تحدِّد موضوعات هذه الفنون ولغتها الفنية.

ومن بين مقتنيات المتحف اليهودي في نيويورك ميدالية من طراز إيطالي تعود إلى منتصف القرن السادس عشر، نُحت عليها رأس دونا جراسيا ناسي. ولكن صانع الميدالية نفسه هو باستور ينو دي جيوفان ميشيل دي باستوريني (١٥٠٨-١٥٩٢)، وهو فنان إيطالي مشهور قام بصك عدة ميداليات، من أشهرها ميدالية

لفرانسيسكو ميديتشي. وفن الميداليات انتشر في إيطاليا في عصر النهضة، وهو محاولة لتقليد العملات القديمة (الرومانية وغيرها) بحيث يظهر الشخص المُحتفَى به، الذي تظهر صورته على الميدالية على هيئة أحد أبطال الرومان. وكانت الصورة تهدف إلى إبراز السمة الأساسية في الشخصية وتمجُّدها. ولكن الميدالية، مثل كل أنواع الفن الكلاسيكي، لم تكن تهدف إلى إبراز الشخصية كما هي، وإنما كما ينبغي أن تكون في أكثر لحظاتها سموا ونبلاً. وتوجد حول رأس المُحتفَى به نقوش. وربما كان العنصر اليهودي الوحيد هنا أن هذه النقوش كُتبت بالعبرية. وفن الميداليات، والمفهوم الكامن وراءه، فن يحاكي الفن الروماني، وله أبعاد وثنية عميقة كما هو الحال مع فن عصر النهضة وبدايات علمنة العقل الأوربي وكذلك علمنة رغبات وقيم الإنسان الغربي. فإذا كان الفن أوربيا (عصر النهضة) والفنان إيطاليا، والقيم الجمالية والخلقية وثنيةً، فبأي معنى يمكن تسمية هذا الفن «يهودياً»؟

ومن المقتنيات الأخرى، لوحة رمبرانت «اليهود في المعبد اليهودي». وهذه اللوحة الرائعة (وهي حفر على الورق) تبيِّن رؤية رمبرانت للجماعة اليهودية في عصره. فرغم أن اليهود كانوا أقلية صغيرة، فإنه هو نفسه كان يعيش في حارة اليهود. ويقول نقاد الفن إن رمبرانت في هذه اللوحة يدرس موضوع الغربة، وهو موضوع إنساني عام، فمركز اللوحة اليهودي الجالس على قطعة من الحجر، وقد أعطى المشاهد ظهره. ويُلاحَظ أن كل الأشخاص الآخرين في الصورة يتحدث الواحد منهم مع الآخر وجميعهم غير مكترث بوجوده، بل نجد أنهم ينظرون بعيداً عنه. ورغم أنه يُوجَد في بقعة التوتر (في الوسط تماماً)، فإن وجهه متجه نحو الظلمة. ويبدو أن أزياء اليهود اجتذبت انتباه رمبرانت (وهي أزياء لم تكن هولندية، إذ جاء الإشكناز من بولندا، أما السفارد فمن إسبانيا)، وأحضرت كل جماعة منهما أزياءها المحلية.

ومن الأعمال الفنية الأخرى، شمعدان المينوراه، وهو الشمعدان الذي يُشعَل في منازل اليهود وفي معابدهم. وهو على الطراز الألماني (من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر). ومن الحقائق التي ينبغي ذكرها أن شمعدان المينوراه كان يُوجَد في بعض الكنائس في العصور الوسطى أيضاً (لأن الكنيسة كانت ترى نفسها إسرائيل الحقيقية التي حلّت محل إسرائيل غير الحقيقية، أي الشعب اليهودي). ويُلاحَظ في المينوراه الألمانية وجود موضوعات ونقوش ألمانية مثل القاعدة التي اتخذت شكل أُسود، والتي تظهر في كثير من المينورات في الكنائس، وكذلك الفروع التي زُيِّنت بأوراق.

ويُوجَد في المتحف اليهودي قسم خاص بما يُسمَّى «كتوباه»، أي عقود الزواج. والكتوباه، شأنها شأن الأعمال الفنية اليهودية الأخرى، نابعة من التشكيل الحضاري الذي تُوجَد فيه. ومن أشهر عقود الزواج التي يحتفظ بها المتحف، عقد زواج من ليفورنو (إيطاليا) في القرن الثامن عشر، وكانت المدينة قد اختارت النحات إيزيدور باراتا (من كرارا) ليزيِّن المعبد اليهودي بالزخارف، ويبدو أن صانع هذه الكتوباه تأثر بسفينة العهد التي صنعها الفنان الإيطالي، فاستخدمها إطاراً للكتوباه، وأضاف إليها ملاكين، أخذهما من إحدى اللوحات التي نقشها باراتا على الرخام، وهي لوحة «صلب بطرس الرسول». وزيَّن الكتوباه بعد ذلك بورود رائعة. وفي وسط الخرطوشة (شكل بيضاوي أو مستدير في وسطه اسم شخص مشهور)، يوجد منظر ذو مضمون ديني: يظهر إبراهيم وهو يُضحِّي بإسحق (بحسب رؤية اليهود)، ثم يصل الملاك بالرسالة من الخالق في اللحظة المناسبة.

ولكن أبطال العهد القديم يصبحون، في هذا العمل الفني، مثل الأبطال الوثنيين. ولذا، نجد أن التركيز يتجه نحو ملامحهم الجسدية. فصورة إبراهيم وإسحق تشبه صور أو تماثيل زيوس وأوربا مثلاً، ولا تعطي أي إحساس بالرهبة الدينية. والكتوباه خليط من فن الباروك والروكوكو. ويجب أن نذكِّر القارئ هنا بأن اليهودية تُحرِّم التصوير أساساً، فما بالك بتصوير أبي الأنبياء والأم بهذه الطريقة (لفظة إبراهيم تعني في العبرية «أبو الأمم»)؟ ولعل أهمية هذه اللوحة بالنسبة لنا أنها تعطينا صورة عن كيفية إنتاج الفن الذي يُقال له «يهودي» من خلال اللغة الفنية والحضارية السائدة. فقد قام فنان مسيحي إيطالي في عصر النهضة الذي سادته الاتجاهات الوثنية بتزيين معبد يهودي، ثم تأثر حرفي يهودي بزخارفه فنقلها إلى الكتوباه. ويُلاحَظ أيضاً أن الحرفي أضاف زخارف أخرى قام الفنان الإيطالي نفسه بإبداعها لعمل فن مسيحي. وهكذا، لا يبقى سوى الكتابة العبرية في هذه الكتوباه. ولا ندري، هل كانت كتابة الخط شكلاً فنيا قائماً بين يهود إيطاليا، كما كان الحال ومازال عند العرب المسلمين، وعند كل المسلمين الذين يستخدمون الحرف العربي؟ في غالب الأمر سنجد أن الخط لم يكن مما يُعَدُّ من الفنون الجميلة في أوربا آنذاك.

وإذا تركنا عصر النهضة والباروك والركوكو ووصلنا إلى عصر العقل والفن الذي يُشار إليه باسم «العصر النيو كلاسيكي» أي «العصر الكلاسيكي الجديد»، فإننا سنجد لوحة لفنان أمريكي يهودي يُسمَّى توماس سللي (١٧٨٣ - ١٨٧٢)، واللوحة بورتريه لسالي

إتينج، أي صورة شخصية لها. والفن النيو كلاسيكي يحاكي الفنون الرومانية واليونانية بشكل واعٍ، وهو بهذا يُعَدُّ امتداداً لفن عصر النهضة الغربي. وهنا، فإن بطلة الصورة رُسمت على هيئة إحدى بطلات الرومان، فهي ترتدي زيا رومانيا، بل نجد أن تسريحة شعرها على الطريقة الرومانية. ومن الواضح أن انعكاس الضوء على وجهها وجسدها يهدف إلى تأكيد جمالها الجسدي ومثاليتها الخلقية، وستظل هذه أهم معالم الفن العلماني، حيث يحاول أن يصل إلى قيم مطلقة من خلال الجسد الإنساني والظاهرة الإنسانية. وقد كانت مثل هذه المحاولات مشُوبة دائماً بالتوتر، فهي تعبير عن نزعة مثالية ولكنها تظل حبيسة الجسد والمادة. ولا ندري هل نجح الفنان هنا في حفظ التوازن بين الحسي والمثالي؟ ولكن، أياً ما كانت نتيجة المحاولة، إيجاباً أو سلباً، فالفن الذي نشاهده فن غربي نيو كلاسيكي، كما أن المشكلة التي يواجهها الفنان هي على وجه الحصر مشكلة لا يمكن أن تُوصَف بأنها يهودية. وإلى جانب ذلك، فإن المعالجة الجمالية الأخلاقية تنتمي إلى قواعد ذلك العصر. بل إننا، ابتداءً من الميدالية والكتوباه، نلاحظ بداية القيم العلمانية والموضوعات الوثنية في الفنون الغربية. ومن هنا، يمكننا القول بأنه، مع شيوع الفن النيو كلاسيكي، انتصر العنصر الوثني، وهو ما أفضى إلى اختفاء القيم المسيحية والدينية. وقد حدث الشيء نفسه بالنسبة للفنان اليهودي، إذ اختفت الحروف العبرية. كما توقفت أية محاولات، مهما كانت واهية واهنة، تتعلق بإقحام عنصر يهودي على العمل الفني. فنحن هنا في حضرة عمل فني غربي خالص، لا يُوجَد فيه حتى ادِّعاء اليهودية.

وقد كان النقاد الفنيون اليهود يتحدثون، حتى عهد قريب، عن يهودية حاييم سوتين، ولكن الاتجاه الآن نحو دراسة صوره يتم داخل إطار تاريخ الفن في القرن العشرين ومشاكل الحداثة. وقد كوَّن مع موديلياني وأوتريللو وياسين جماعة تُسمَّى «الملاعين» أو «سيِّئو الحظ» وكلهم يهود ماعدا ياسين. ولكن، هل لعبت يهوديتهم دوراً في تحديد رؤيتهم وأسلوبهم؟ أم أن تجربتهم تجربة أفراد يشعرون بالضياع والغربة في عالم القرن العشرين العلماني؟ (ولعل يهوديتهم تزيد حدة هذا الإحساس بالاغتراب، فمعدلات العلمنة بين اليهود، خصوصاً المثقفين، كانت أعلى منها بين بقية المجتمع). وقد رسم سوتين لوحته «وعاء زهور» عام ١٩٣٠، واشتهر باللون الأحمر الذي استخدمه في هذه اللوحة وفي لوحاته الأخرى التي رسم فيها لحم حيوانات مخضباً بالدماء، (ويُقال إن هذه اللوحات احتجاج على قوانين الطعام اليهودية). ويتضح توتُّر سوتين وجرأته في هذه اللوحة التي تُعَدُّ إرهاصاً للتعبيرية التجريدية.

ومن أهم الأعمال الفنية التي يُقال لها «يهودية»، النصب التذكاري الذي نفذه جورج سيجال المولود عام ١٩٢٤ لضحايا الهولوكوست أو الإبادة النازية، بناء على طلب بلدية سان فرانسيسكو. وتماثيل النصب مصنوعة من قالب جصي بالحجم الطبيعي لعدة جثث مرتبة على هيئة نجمة داود. وتمسك إحدى الجثث بتفاحة رمزاً لحواء، كما أن جثة أخرى تمد ذراعيها رمزاً للمسيح المصلوب. وهناك رجل عجوز وبجواره صبي، ويرمز إلى إبراهيم وإسحق. أما الرجل الواقف، فهو رمز البقاء (بقاء الشعب اليهودي)، ولكنه في حالة ذهول. ولذا، فهو يمسك بالسلك الشائك دون أن يشعر بالوخز، وربما كان ذلك رمزاً آخر للمسيح. والموضوع هنا يهودي بالمعنى الإثني لا الديني، لكن التناول صهيوني، وهو يؤكد بلا شك مركزية واقعة الإبادة النازية، ويتحدث عن تاريخ يهودي منفصل عن التاريخ البشري، وعن معاناة يهودية منفصلة عن معاناة الأغيار. ولكن العمل مع هذا يظل عملاً أمريكيا غربيا حديثاً، لا يمكن فهم قيمه الجمالية إلا بالعودة إلى اللغة الفنية السائدة في الولايات المتحدة، وهي لغة تدخلها الرموز المسيحية. وهذا أمر طبيعي، فقد صاغه فنان أمريكي ليعرضه على جمهور أمريكي. وإذا كان الموضوع يهوديا والفنان الذي تناوله يهوديا، فإن هذا لا يقلِّل من أمريكية العمل، إذ تظل اللغة الفنية لغة أمريكية غربية حديثة.

وفي عرضنا حتى الآن لما يُسمَّى «الفن اليهودي»، وجدنا أنفسنا نتنقل من الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الغربية. ولو انتقلنا إلى الحضارة الصينية لندرس معمار المعبد اليهودي هناك، لوجدنا أنه لا يختلف كثيراً عن معمار المعابد الكونفوشيوسية. وفي دراستنا للأعمال الفنية اليهودية المختلفة، وجدنا أنفسنا نشير إلى فن عصر النهضة، وفن عصر العقل، وفن عصر الرومانسية، وفن العصر الحديث. وفي محاولة فهم هذه الأعمال، كان علينا أن نعود دائماً إلى تطوُّر الفكر والفن الغربيين، ونحن لم نجد عناصر يهودية إلا في الموضوع، وهو عنصر فرعي لا يحدِّد القيم الجمالية أو طريقة التناول. ومن هنا، نجد أن من الصعب التحدث عن «فن يهودي»، بينما يمكننا أن نتحدث عن فن غربي في محاولة لتصنيف الأعمال التي نشاهدها.

وإذا نظرنا إلى الفن الإسرائيلي، فإننا نجد أن الأمر لا يختلف كثيراً عما يُسمَّى «الفن اليهودي»، فهو فن ليست له شخصيته المستقلة، ولا معجمه الخاص. وقد يتبلور فن إسرائيلي له شخصية فنية مستقلة، ولكننا، حتى الآن، لا يمكن أن نزعم وجود مثل هذا

الفن. وللدلالة على هذا القول، يمكننا أن ننظر إلى لوحة الفنان الإسرائيلي ريوفين روبين (١٨٩٣ ـ ١٩٧٤) الذي وُلد في رومانيا وهاجر إلى فلسطين واستوطن فيها. واللوحة من مقتنيات المتحف اليهودي في نيويورك، ولها عنوانان: «بائع السمك الملون»، و«الصياد العربي». والواقع أن إعطاء اسمين للوحة أمر ذو دلالة عميقة في السياق الصهيوني، فعنوان «الصياد العربي» محاولة أولية لتجريد العربي بحيث يصبح جزءاً من الطبيعة. ويظهر هذا في تشكيل اللوحة نفسه. فالصياد تحوَّل إلى شكل هندسي يقف متوازناً بين السمكة التي في يده والسمك الذي في الوعاء الذي يحمله، وعيونه نفسها تشبه عيون السمك وتجعله هو نفسه يشبه السمك. ويداه: إحداهما تمسك بسمكة ملتوية بحيث تصبح متوازية مع جسده، والأخرى ممسكة بالوعاء، أما أصابعه فتكاد تسبح في الماء كالسمك. وذراعاه يشبهان الإطار، بحيث يأخذ الصياد شكل المربع، ولكنه مربع مليء بتموجات تذوب وتندمج في الخلفية المتموجة بحيث يندمج الفرد في الطبيعة تماماً. وثمة غنائية عميقة في اللوحة رغم ألوانها، ولكنها على أية حال ألوان أرض فلسطين التي يسميها الصهاينة «إرتس يسرائيل».

وموضوع العربي موضوع أساسي في الفن الصهيوني، وقد طرح الصهاينة فكرة «أرض بلا شعب»، أي فكرة أن العرب لا وجود لهم. ولتفسير هذا التناقض، لابد أن نشير إلى عنصرين:

١ ـ المستوطنون الصهاينة الذين عاشوا في هذه الأرض وجدوا العربي في كل مكان، يسير حولهم ويعمل في الأرض قبل وبعد استيلائهم عليها، آثاره في كل مكان حتى بعد أن طُرد منها. ولذا، لم يكن هناك مفر من أن يظهر العربي على شاشة الوجدان الصهيوني، مهما حاولت الأيديولوجيا المجردة أن تغيِّبه.

٢ ـ يرفض الفكر الصهيوني يهود المنفى (أي كل يهود العالم ما عدا المستوطنين الصهاينة) على أساس أنهم شخصيات هامشية هزيلة تعمل بالربا والتجارة ولا يمكنها أن تقوم بالأعمال اليدوية المنتجة. وكانوا يضعون العربي مقابل يهودي المنفى باعتباره شخصية حيوية منتجة تعيش في وئام مع الطبيعة، فالعربي هنا نقيض يهودي المنفى، وعلى المستوطن الصهيوني أن يعيد صياغة شخصيته بحيث يكون مثل هذا العربي. ومن هنا، كُتبت مسرحيات وقصص كثيرة تدافع عن هذه الرؤية حتى اشتكى أحد النقاد الصهاينة في أوائل القرن من أنه لا يوجد عمل أدبي واحد يكتب في فلسطين إلا وفيه تمجيد للعرب. وقد كان الصهاينة يرتدون زي العرب ويحاولون أن يتصرفوا مثلهم.

ولوحة «الصياد العربي» نتاج هذا الموقف الذي استمر حتى أواخر العشرينيات، ثم اختفى بعد ذلك مع بداية انتفاضات العرب، الأمر الذى حوَّلهم من شخصيات رومانسية مندمجة في الطبيعة ملتحمة معها، ومن موضوع للتأمل، إلى شخصيات حقيقية تدافع عن أرضها. ولم يَعُد العربي مجرد مربع يشبه السمكة، ينظر في السمك، ويحمل الأسماك ويذوب في الأمواج، إذ أصبح من الصعب تجريده. ولعل هذا ما أدَّى إلى اختيار العنوان الثاني «بائع السمك الملون»، فهنا تتحوَّل عملية التجريد إلى تغييب كامل، فيصبح العربي مجرد بائع سمك مُلوَّن، وتصبح فلسطين أرضاً بلا شعب. واللوحة متأثرة بفن موديلياني والفن الساذج أو البدائي. وتحليلنا لمضمونها العقائدي العنصري لا ينفي عنها أنها عمل فني جميل، لكن الجمال على كلٍّ ليس له علاقة كبيرة بالأخلاق، فالأعمال العنصرية والإباحية يمكن أن تكون على مستوى عال من الجمال والإبداع الفني.

أما العمل الثاني الذي سنختاره للتحليل، فهو للفنان الإسرائيلي جوشوا نيوشتاين، المولود في دانزيج بألمانيا، وهو بعنوان «سلسلة فايمار رقم ٢»، وهو جزء من مجموعة لوحات عن جمهورية فايمار (١٩١٩ ـ ١٩٣٣) في ألمانيا، التي كان يحكمها نظام ليبرالي، وحقَّق فيها الألمان من اليهود بروزاً كبيراً، واتسم حكمها بالاضطرابات الاجتماعية والتضخم وعدم الاستقرار السياسي والبطالة والتنازلات المستمرة للحلفاء (إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة) الذين حققوا الانتصارات وأذلوا ألمانيا بمعاهدة فرساي. وقد أدَّى كل هذا إلى تحلُّل وسقوط هذا النظام، ثم ظهر هتلر والحكم الشمولي. وموضوع اللوحات التحلُّل والتآكُل.

وينتمي نيوشتاين إلى حركة فنية تُسمَّى «التجريد المعرفي» ظهرت في الولايات المتحدة، وكانت لها أصداؤها في إسرائيل في أواخر الستينيات. ويشير اسم الحركة إلى نوع من الفن يتعامل مع طبيعة المعرفة والإدراك وكيفية فَهْم وإدراك الحقائق الفيزيقية الأساسية. ويتعين على مشاهد هذه الصورة أن يحاول رؤية عملية ثني الورق وتَشقُّقه ومحاولة إصلاحه، بل أن يحاول أن يخمن ما تحت الورقة، هذا على الأقل رأي الناقد الفني روبرت بنكوس ويتن. كانت كل لوحات نيوشتاين، في البداية، رمادية خالية من اللون. ولكن، مع سلسلة فايمار هذه، لجأ نيوشتاين إلى الألوان الصاخبة وإلى ضربات الفرشاة ليعبر عن إحساسه بالإحباط، فهي محاولة لرسم صورة اللوحات، وهي على هيئة الحطام نفسها. وكثيراً ما تُستخدَم ألفاظ، مثل: «هشّ»، و«مُمزَّق»، و«غير ثابت»، لوصف

أعمال نيوشتاين. ويلجأ أعضاء هذه المدرسة في إسرائيل إلى عمليات تجريبية مادية، مثل تمزيق الورق ومسح الألوان والخربشة. والاختلاف العميق بين عدمية الفنانين الإسرائيليين واتجاه زملائهم الأمريكيين تبيِّن الفرق بين الاهتمامات القومية لكل من الفريقين، فهدم الإسرائيليين للمادة التي يستخدمونها تعبير عن وضع الدولة الصهيونية التي تخرج من حرب لتدخل أخرى.

وهذه الحركات الفنية داخل المُستوطَن الصهيوني تبدو كما لو كانت تنبع من حركة فنية أمريكية وجدت أصداء لها بين الفنانين الإسرائيليين. وقد يمكن القول بأنهم أضافوا نغمة إسرائيلية خاصة إلى أعمالهم، وأنهم جزء من حركة فنية عالمية هي حركة الحداثة (والتجريد والتجريب)، وأنهم في هذا لا يختلفون عن معظم فناني العالم في العصر الحديث.

مارك شاجال (١٨٨٧-١٩٨٥)

رسَّام روسي فرنسي، وُلد لأسرة حسيدية تقية (عائلة سيجال، ولكن شاجال غيَّر اسمه أو غيَّر طريقة نُطقه) في قرية فايتبسك في روسيا داخل منطقة الاستيطان، وهي القرية التي خلَّدها في أعماله وتشكِّل خلفية معظم هذه الأعمال. درس في عدة مدارس فنية في روسيا القيصرية، من بينها المدرسة الإمبراطورية لحماية الفنون ومدرسة سفانسيفا. ويُلاحَظ أن قراره بتعلُّم الرسم كان يُعَدُّ تحدياً صارماً للتقاليد الدينية اليهودية آنذاك.

انتقل إلى باريس عام ١٩١٠ حيث درس في عدة مدارس للفنون بشكل متقطِّع، ثم انتقل إلى لاروش. وبدأت تتحدَّد، في هذه المرحلة، ملامح فنه. كما تحدَّدت النغمة الأساسية لأعماله، وهي نغمة طفولية فلاحية تحاول أن تَنقُل عالم الباطن والأحلام وكأنه العالم الحقيقي الوحيد. وفي عام ١٩١٤، سافر شاجال إلى برلين لأول معرض منفرد له، ومن هناك سافر إلى قريته فايتبسك حيث اضطر إلى البقاء فيها بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى. وفي عام ١٩١٥، تزوج بيلا روزنولد التي ظلت مصدر وحي له في فنه. وعُيِّن شاجال قوميساراً للفنون في فايتبسك عام ١٩١٨. ولكن سرعان ما نشبت الخلافات بينه وبين الثورة، فانتقل هو وزوجته وابنته إلى موسكو عام ١٩٢٠ حيث رسم عدة جداريات لمسارح الدولة التي تقدِّم مسرحيات يديشية، كما رسم جدارياته المشهورة لمسرحيات جوجول وتشيكوف.

ترك شاجال الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٢، واستقر في باريس حيث انضم إلى جماعة الفنانين الروس اليهود المهاجرين فيما يُسمَّى «مدرسة باريس» أو «المدرسة اليهودية»، وكانت أعماله، في الفترة التي قضاها في روسيا، ذات طابع غنائي رقيق، وحسِّية إلى حدٍّ ما، ولكن أعماله بدأت في الثلاثينيات تأخذ شكلاً أكثر ظلمة بسبب الأحداث في أوربا، وقد استقر في الولايات المتحدة في الفترة من عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٨، ثم عاد واستقر في فرنسا، وعادت أعماله للغنائية القديمة. وبعد هذا التاريخ اتسع نطاق الموضوعات التي يتناولها والمواد والخامات التي يستخدمها، فرسم بألوان الماء والجواش والزيت والطباعة وأقام بعض التماثيل واستخدم السيراميك. ونفَّذ العديد من الأعمال بمعاونة الحرفيين، غير أن طفولته ظلت المصدر الأساسي لأعماله.

وعلاقة شاجال باليهودية مُركَّبة إلى أقصى حد، فهو لم ينكر قط أهمية خلفيته اليديشية، ولكنه صرَّح أكثر من مرة بأنه ليس فناناً يهودياً، وإنما فنان يرسم لكل البشر. ولذا، عارض شاجال محاولة بعض الفنانين اليهود المهاجرين (من روسيا إلى باريس) تأسيس مدرسة فنية يهودية. وعادةً ما كانت تصريحاته هذه تُقابَل باستهجان شديد من النقاد الفنيين اليهود. ولحسم القضية، يمكن العودة لأعمال شاجال نفسها. فالمؤثرات الفنية في رسمه غربية، ولا يمكن فهمها إلا في إطار التطورات الفنية في العالم الغربي. بل نجد أنه، حتى على مستوى الموضوعات، يستخدم موضوعات وصوراً مسيحية، خصوصاً واقعة الصلب. ولعله، في هذا، تأثَّر بعمق بالمسيحية الأرثوذكسية التي تؤكد واقعة الصلب على حساب واقعة القيام، كما أنه يستخدم الصور المسيحية للتعبير عن الموضوعات اليهودية. فالمسيح المصلوب يصبح اليهودي المعذَّب. ولعل هذا يلقي ضوءاً على طريقة تناوله ليهوديته أو للموضوع اليهودي، فهو تناول لا يستبعد الأغيار، ولا يَسقُط في ثنائيات التفكير الحلولي الحادة، بل تناول يحوِّل اليهودي إلى نموذج إنساني يستطيع أي فرد أن يتعاطف معه لا أن يقف ضده. ولوحاته عن الزواج والحب تعبِّر عن احتفائه الشديد بهذه المواضيع الإنسانية. وقد أشار أحد النقاد إلى أن رسومات شاجال تشبه من بعض الوجوه الرسومات التركية أو الفارسية، وهو ما قد يشي بالأصول التركية (الخزرية) لفنه.

قام شاجال بتنفيذ الشبابيك الملونة (بالزجاج المعشق) لمعبد يهودي واحد (معبد مستشفى الهاداساه في القدس)، ولعدد كبير من الكنائس المسيحية (من بينها الكاتدرائية الكاثوليكية في متز، والكنيسة الكاثوليكية في آس في الألب الفرنسية، ونافذة ملونة ضخمة في الفاتيكان). ومن بين أعماله الأخرى، سقف أوبرا باريس، وجداريات دار الأوبرا التابعة للنكولن سنتر في نيويورك،

وجدارية ولوحات قماشية وأرضية فسيفسائية للكنيست، ونافذة ملونة ضخمة في مبنى سكرتارية هيئة الأمم. وقد عاد شاجال إلى موسكو عام ١٩٧٣ حيث قُدِّم له أول معرض منفرد هناك. كما أُسِّس متحف لأعماله في جنوب فرنسا.

موسيقى الجماعات اليهودية

«الموسيقى اليهودية» عبارة تفترض وجود أشكال موسيقية خاصة مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية، ذات سمات وخصائص يهودية معيَّنة تتَّسم بها هذه الموسيقى أينما وُجد أعضاء الجماعات اليهودية وتميِّزها عن غيرها من موسيقى الشعوب. وهذه العبارة ليست لها أية قيمة تفسيرية أو تصنيفية، إذ ليس من المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية كان لهم موسيقى أو آلات موسيقية مستمدة من محيطهم الحضاري. وقد حاول كورت ساخس (أحد أساتذة علم الموسيقى الإثنية البارزين) وَصْف الموسيقى اليهودية خلال المؤتمر الأول للموسيقى اليهودية الذي انعقد في باريس عام ١٩٥٧، فقال: "إنها الموسيقى التي يلحنها اليهود لليهود باعتبارهم يهوداً"، وهذا الوصف لا يضع معياراً لتحديد مدى «يهودية» أية قطعة موسيقية سوى الأصل أو العقيدة اليهودية دون اعتبار للشكل أو المضمون أو البناء الموسيقي لها، ويحاول إيجاد مظلة فضفاضة تضم تحتها تراث الجماعات اليهودية المختلفة الموسيقي المتنوع والمتباين. فهل يجوز مثلاً تصنيف سيمفونيات الموسيقار الألماني الرومانسي فليكس مندلسن، والطقاطيق الشرقية للموسيقار المصري داود حسني باعتبارها «موسيقى يهودية» لأن كلا من الملحنين يهودي أو من أصل يهودي؟ وهل يجوز اعتبار الموسيقى التي تُرتَّل أو تُنشَد في المعابد اليهودية موسيقى يهودية رغم أن ألحانها قد تكون ألحاناً سلافية أو ألمانية أو عربية؟ وإذا أضفنا إلى هذا صعوبة (بل استحالة) تعريف مَنْ هو اليهودي - الركيزة النهائية لتعريف ساخس - فإن الحديث عن «موسيقى يهودية» يصبح أمراً مستحيلاً.

وأكدت الدراسات المختلفة لما يُسمَّى «الموسيقى اليهودية»، سواء أكانت موسيقى دينية أو شعبية أو فناً موسيقياً رفيعاً، أن هذه الموسيقى تعدَّدت وتنوَّعت أشكالها وألحانها من جماعة يهودية إلى جماعة يهودية أخرى، ومن مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى، وعبَّرت عن التقاليد الموسيقية والقيم الجمالية السائدة في المجتمعات التي عاش بينها أعضاء الجماعات اليهودية.

ويؤكد لنا العَالم والمؤلف الموسيقيّ الأمريكي اليهودي هوجو ويزجال ذلك، فيقول: "لا تُوجَد أية مواصفات أو سمات محدَّدة أو موضوعية تجعل قطعة موسيقية يهودية أو غير يهودية". ولذلك، فإن عبارة «موسيقى يهودية»، مثلها مثل عبارات «ثقافة يهودية» و«فن يهودي» و«تاريخ يهودي»، تحاول افتراض نوع من الوحدة والاستمرارية، بينما لا تُوجَد مثل هذه الوحدة أو الاستمرارية. ولهذا السبب، فنحن لا نتحدث عن «موسيقى يهودية»، وإنما عن «موسيقى الجماعات اليهودية».

فالعهد القديم يضم إشارات عديدة إلى استخدام الموسيقى في الطقوس والعبادات اليهودية القديمة. وقد اقتبس العبرانيون الكثير من التراث الموسيقي في بابل ومن التراث الكنعاني والمصري والهيليني. واحتلت الموسيقى مكانة مهمة في الطقوس الدينية للهيكل، وكان يضطلع بها اللاويون، وكانت تجمع بين الغناء والعزف على الآلات الموسيقية. أما بعد هدم الهيكل (عام ٧٠ ميلادية)، فقد بدأ ظهور الموسيقى الدينية التي تُرتَّل أو تُنشَد في المعابد اليهودية، وتم تحريم استخدام الآلات الموسيقية فيها إلى أن يأتي الماشيَّح، كما أُعتبر صوت المرأة غير محتشم وغير لائق للإنشاد الديني في المعبد.

وكان ترتيل المزامير يتم على وتيرة واحدة وعلى لحن بسيط، وكانت تُرتَّل عن طريق منشد منفرد، أو من خلال التبادل الصوتي بين المنشد المنفرد ومجموعة المصلين. كما كانت تتم قراءة أو تلاوة العهد القديم بتنغيم بسيط. وفي القرن السادس، تم إدخال الترنيمة الدينية التي عُرفت باسم «بيوط». ومع ظهور هذه الترنيمة، تطوَّر دور المنشد الديني الذي كان يقوم بتلحين كلمات الترنيمة إلى جانب إنشادها. وتميَّز أسلوب الإنشاد بالإرتجال والتموجات الصوتية والزخارف اللحنية. وكانت الألحان تُتوارث من خلال النقل الشفوي، ولم تبدأ عملية تدوينها إلا في القرن السادس عشر بين بعض الجماعات الإشكنازية والسفاردية.

والتراث والرصيد الموسيقي المختلف للجماعات اليهودية (سواء الجماعات الشرقية والسفاردية في العالم العربي الإسلامي أو الجماعات السفاردية التي استقرت في أوربا بعد طردها من إسبانيا في القرن الخامس عشر أو الجماعات الإشكنازية في غرب وشرق أوربا) تَشكَّل من خلال البيئة الثقافية التي تواجدت فيها كل جماعة على حدة.

ومع انعتاق الجماعات اليهودية في أوربا، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتزايد اندماجهم في مجتمعاتهم الأوربية، أصبح من الطبيعي احتكاك قطاعات أوسع من أعضاء الجماعات بالقيادات الموسيقية السائدة في عصرهم واكتسابهم واستيعابهم لغتها

وأشكالها وأساليبها. وفي ظل هذا التطور، كان حدوث تغيُّرات في شكل وتقاليد الموسيقى الدينية للمعابد اليهودية حتمياً حتى بين الطوائف الأرثوذكسية التي كانت ترفض أي تغيير في الطقوس الدينية، الأمر الذي أثار كثيراً من الجدل في حينها. فدخلت آلة الأرغن الموسيقية المعبد اليهودي، وكانت المعابد الإصلاحية في ألمانيا أول من بادر بذلك، كما اتجهت إلى ترتيل الترانيم باللغة الألمانية واقتباس ألحان بعض الترانيم البروتستانتية الشهيرة. كما تم إدخال فرق الكورال التي تضم رجالاً ونساءً بشكل دائم في بعض المعابد. وقد استخدم كثير من المنشدين أسلوب الغناء الأوبرالي في الإنشاد، ولم يكن غريباً أن يجمع كثير منهم بين الإنشاد الديني في المعبد والغناء الأوبرالي خارجه. وكان ذلك يثير أحياناً اعتراض رجال الدين اليهودي. وكانت فيينا، مهد كبار الموسيقيين أمثال هايدن وبيتهوفن وموزار وشوبرت، مركزاً مهماً من المراكز التي شهدت هذه التحولات.

وشهد القرنان التاسع عشر والعشرون صعود عدد غير قليل من الملحنين الموسيقيين اليهود احتل بعضهم مكانة متميِّزة في التاريخ الموسيقي الغربي. ونظراً لأن التلحين الموسيقي ظل خاضعاً لفترات طويلة لرعاية الكنيسة المسيحية والنبلاء، لم يجد أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا مجال التلحين الموسيقي متاحاً أمامهم. ومع انعتاق اليهود، وتزايُد معدلات العلمنة والليبرالية في القرن الثامن عشر، وصعود الطبقات الوسطى، وانتشار الحفلات الموسيقية العامة، اتسعت فرص ومجالات التلحين الموسيقي أمام الموسيقيين اليهود.

ويُعَدُّ فيلكس مندلسن (١٨٠٩-١٨٤٧) أول ملحن موسيقيٍّ بارز من أصل يهودي منذ عصر النهضة في الغرب، وجسَّدت مؤلفاته التراث الرومانسي السائد في عصره. وتُعتبَر أعمال الموسيقار الألماني جوستاف ماهلر (١٨٦٠ - ١٩١١) من تراث المرحلة الرومانسية المتأخرة. أما الموسيقار النمساوي المولد الأمريكي الجنسية أرنولد شونبرج (١٨٧٤ - ١٩٥١)، فهو أحد الموسيقيين والملحنين البارزين في القرن العشرين، وهو الذي طوَّر نظاماً جديداً للتأليف الموسيقي (نظام الاثنتي عشرة نغمة). وتُعتبَر مؤلفاته السريالية جزءاً من تراث مرحلة ما بعد الرومانسية. وكلٌّ من مندلسون وماهلر شونبرج اعتنق الدين المسيحي، لكن شونبرج عاد إلى اليهودية في أواخر حياته.

وفي الولايات المتحدة، احتل الموسيقيين اليهود مكانة متميِّزة في مجال الموسيقى الشعبية الأمريكية، خصوصاً موسيقى المسرح الاستعراضي الغنائي (برودواي) والموسيقى التصويرية للأفلام، والموسيقى الخفيفة، وكانوا من العناصر الرائدة فيها. أما الموسيقيون اليهود الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة قادمين من شرق أوربا حاملين معهم تراث الموسيقيين الشعبيين في هذه البلاد، فوجدوا فرصاً أوسع للعمل في المجال الموسيقي، خصوصاً في المجالات التي لا تزال تُعتبَر حديثة مثل المسرح الاستعراضي وموسيقى الأفلام والموسيقى الخفيفة. ومن أهم الموسيقيين الأمريكيين في هذا المجال، جورج جيرشوين (١٨٩٨ - ١٩٣٧)، الذي لحن الكثير من موسيقى المسرح الاستعراضي الغنائي.

وتفوَّق أعضاء الجماعات اليهودية أكثر في مجال العزف، سواء من حيث عدد العازفين أو مستوى أدائهم. أما في مجال التأليف الموسيقيّ، فلم يكن الأمر كذلك رغم وجود عدد من الملحنين اليهود في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. ويرجع السبب في ذلك إلى أن فرصة اقتحام مجال التلحين لم تُتَح لأعضاء الجماعات اليهودية بشكل واسع إلا منذ مائتي عام، في حين كان هناك رصيد من العازفين الشعبيين المهرة، وخصوصاً في شرق أوربا، تميَّزوا في العزف على آلة الكمان. وبالفعل، حقَّق عازفو الكمان من اليهود، من أمثال يوسف يواقيم (١٨٣١ - ١٩٠٧)، درجة رفيعة في العزف والأداء الموسيقيّ. وبعد أن اكتسبت آلة البيانو شعبية بين الطبقات المتوسطة الأوربية، انضم الموسيقيون اليهود إلى قائمة العازفين المتميِّزين على البيانو، ويعد أنطون روبنشتاين (١٨٢٩ - ١٨٩٤) من أعظم عازفي البيانو في القرن التاسع عشر. ومن أشهر عازفي الكمان في الوقت الحاضر يهودي مينوهين.

وقد جرت محاولات، من جانب أعضاء الجماعات اليهودية ومن جانب المعادين لليهود، لتحديد ما يتصورونه سمات مميِّزة لمؤلفات وأعمال الموسيقيين اليهود. وقد كان الموسيقار ريتشارد فاجنر من أشهر من اتجهوا إلى مثل هذا الاتجاه، فكان ينسب إلى الموسقيين اليهود بعض السمات والخصائص الفنية السلبية والمدمرة. وفي مقاله «اليهود في الموسيقى» (عام ١٨٥٠) هاجم فاجنر بكل شدة فيلكس مندلسن وغيره من الموسيقيين اليهود بشكل عام. وتبنَّى النازيون آراء فاجنر الذي نال شعبية في عهدهم. وقد ذَكر النازي ريتشار إيخيناو في **الموسيقى والجنس** أن الملحنين والموسيقيين اليهود يُشكِّلون عنصراً مدمراً لأنهم يمثلون الاتجاهات الراديكالية في الموسيقى. ومما يُذكَر أن أعمال فاجنر الموسيقية ممنوعة في إسرائيل. ومن جهة أخرى، حاول البعض وصف الأعمال الموسيقية للملحنين اليهود بأنها تمثل جمال "الفن العبري" وتتميَّز بالانفعالات العاطفية المتطرفة والمبالغة، كما تعبِّر عن أعماق الروح.

وهذا الاتجاه، سواء الذي يبحث عن سمات مدمرة أو ذلك الذي يبحث عن سمات متميِّزة لأعمال الموسيقيين اليهود ليس ذا قيمة تفسيرية عالية. فإذا أمكننا وصف أعمال شونبرج بالراديكالية، فهذا لا ينطبق على غيره من الموسيقيين اليهود مثل ماهلر وغيره. وإذا كانت بعض الصفات السابق ذكرها يمكن أن تنطبق أيضاً على موسيقيين من غير اليهود مثل تشايكوفسكي وموسورسكي وفاجنر وبرامز، فإن معنى ذلك أنه ليست هناك أية سمات خاصة، تُميِّز أعمال الموسيقيين اليهود وتعزلها عن أعمال غيرهم من الموسيقيين. وكما تعدَّدت وتنوعت موسيقى أعضاء الجماعات اليهودية من تشكيل حضاري إلى آخر، تعدَّدت وتنوعت داخل كل تشكيل حضاري على حدة من مرحلة تاريخية إلى أخرى، ومن مدرسة موسيقية إلى أخرى. ولذا، فإننا نجد بين الموسيقيين اليهود (الكلاسيكيين والرومانسيين والراديكاليين والمحافظين) العاطفيين أو العقلانيين.

رقصات الجماعات اليهودية

عبارة «الرقص اليهودي» أو حتى «الرقصات اليهودية» تفترض وجود أساليب في الرقص ورقصات بعينها مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية، وهو ما لم ينجح أحد في إثباته، ولذا فنحن نُسقط مثل هذه العبارات لأن مقدرتها التفسيرية والتصنيفية ضعيفة بل منعدمة، ونفضل أن نستخدم بدلاً من ذلك عبارة «رقصات الجماعات اليهودية».

يُعتبَر الرقص واحداً من أقدم الفنون على الإطلاق. عرفته جميع الأقوام والشعوب على مر العصور كجزء من طقوسها الدينية أو احتفالاتها الاجتماعية. ويوضح لنا كلٌّ من العهد القديم والتلمود ارتباط كثير من الرقصات باحتفالات وطقوس العبرانيين في التاريخ القديم، وهي رقصات لم تختلف كثيراً في شكلها أو حركاتها أو أسلوب أدائها عن الرقصات السائدة بين الشعوب المحيطة بهم في تلك العصور. وبالنسبة إلى الجماعات اليهودية، فإننا نجد أن هناك أهمية خاصة للرقص في حياتها سواء من الناحية الدينية أو من الناحية الاجتماعية، كما نجد أن أشكال الرقصات التي انتشرت بينهم وأسلوب أدائها تختلف من جماعة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر وأنها اعتمدت بالدرجة الأولى على تقاليد المجتمعات التي عاش أعضاء الجماعات اليهودية بينها وعلى التراث الفني الثقافي لهذه المجتمعات.

ومن منظور التحريم كانت العقيدة اليهودية تمنع الرقص المُختلَط بين الرجال والنساء، ووضع الحاخامات خلال العصور الوسطى في أوربا قواعد صارمة بالنسبة للرقص المُختلَط بحيث أصبح يُسمَح به فقط بين الرجل وزوجته وبين الأخ وأخته وبين الأب وابنته، وأدَّى ذلك إلى تصميم رقصات مُعقَّدة يتم فيها الاختلاط بين الجنسين ولكن مع مراعاة القاعدة التي وضعها الحاخامات. وفي أحيان أخرى، كان يتم تجاهُل هذه القواعد كليةً. ومع تصاعُد معدلات العلمنة داخل المجتمعات الغربية، ومن ثم بين أعضاء الجماعات اليهودية، بدأ التراخي في تطبيق التحريمات الدينية يتزايد وضمن ذلك التحريمات المتصلة بالرقص المُختلَط. وحاول الحاخامات الحد من ذلك بفرض الغرامات على المخالفين ولكن دون جدوى، خصوصاً وأن الرقص المُختلَط بدأ يكتسب قبولاً وشعبية كبيرة بين الجماهير اليهودية، وذلك (دون شك) تحت تأثير البيئة المحيطة بهم.

وفي العصور الوسطى اكتسب الرقص في أوربا شعبية بين أعضاء الجماعات اليهودية كنشاط اجتماعي وترفيهي شأنها في هذا شأن أعضاء مجتمع الأغلبية. وأُقيمت في كثير من الجيتوات اليهودية في فرنسا وألمانيا وبولندا دور للمناسبات تُقام فيها الحفلات الراقصة والغنائية في أيام الأعياد وأيام السبت وللاحتفال بالزواج. ويبدو أن هذه الدور أقيمت أساساً للاحتفال بالزواج وتحوَّلت تدريجيا إلى أماكن للترفيه. وكانت الرقصات التي اشتُهرت في هذه الدور رقصات شبيهة أو مماثلة للرقصات المنتشرة بين الشعوب الأوربية آنذاك. وإن كان يُرجَّح أن أصولها ترجع إلى رقصات الشعوب الأوربية المحيطة. وقد كان لكل دار من هذه الدور قائد للرقص يتميَّز بتفوُّقه في الرقص والغناء والقدرة على الارتجال، وكان يقوم بإدارة الرقصات كما كان معنياً بإدخال التنويعات الجديدة عليها.

أما الجماعات اليهودية في إسبانيا والعالم العربي الإسلامي فلم تنشأ بينهم مثل هذه الدور. وعلى عكس يهود أوربا الذين عاشوا في الجيتوات الضيقة، كانت بيوت يهود الشرق من السعة بحيث تسمح بإقامة جميع الاحتفالات بداخلها.

وتنوَّعت واختلفت أشكال وأنواع الرقصات التي تقام احتفالاً بالأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية من جماعة إلى أخرى. وكانت هناك رقصات عديدة مخصَّصة للاحتفال بالزواج، ففي العصور الوسطى في أوربا ظهرت رقصات كانت أقرب إلى الطقوس السرية أو الصوفية، وفي أحيان كثيرة كان الموت يُتَّخذ موضوعاً لها، وفي بعض الأحيان يسقط أحد الحاضرين في حفل الزواج على الأرض كأنه ميت ويرقص من حوله الرجال والنساء وهم يغنون، ثم يقوم الرجل (من مماته) وينضم إلى الآخرين في رقصة مرح وابتهاج.

وهي رقصة ترمز إلى البعث. وانتشرت مثل هذه الرقصات والأغاني بين شعوب أوربا في تلك الآونة.

أما بالنسبة للجماعات اليهودية في العالم العربي والإسلامي، فكانوا يحيون حفلات الزفاف بإحضار راقصات ومغنيات محترفات (عوالم) يرقصن على أنغام الطبول. وهناك رقصات خاصة أيضاً بيوم السبت. وقد اعتاد الحسيديون الرقص، مع انتهاء نهار السبت، حول مائدة الحاخام. كما كانت تُقام رقصات احتفالاً بعملية الختان، وخصوصاً بين الجماعات اليهودية في العالم العربي والإسلامي.

وقبل الانتقال إلى الرقص بين أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث، قد يكون من المفيد الإشارة إلى أن الحركات الحلولية المشيحانية ساعدت على انتشار الرقص بينهم. وساهمت في هذا الاتجاه حركة شبتاي تسفي بشكل خاص، ثم الحركة الفرانكية، إذ إن النزعة الترخيصية شجعت على إسقاط الحدود، وضمن ذلك الحدود الخاصة بالرقص. بل إن الشعائر السرية ذات الطبيعة الجنسية لهذه الجماعات كانت تتضمن دائماً الرقص المحموم.

واكتسب الرقص، مع ظهور الحركة الحسيدية في القرن الثامن عشر، أهمية كبيرة بالنسبة إلى الجماعات اليهودية في شرق أوربا، وأصبح يشكل جزءاً من حياتهم اليومية. فقد اعتبر بعل شيم طوف، مؤسس الحسيدية، الرقص شكلاً من أشكال الصلاة والعبادة أمام الرب وأداة للوصول إلى حالة من النشوة الدينية والالتصاق بالرب والتوحد به. وهذا يتفق تماماً مع النزوع الحلولي نحو التجسد (مقابل النزوع التوحيدي نحو التبليغ) الذي يتضح أيضاً في مفاهيم مثل الخلاص بالجسد. وبالتالي، أصبح الرقص الحسيدي نوعاً من الطقس الديني يصل من خلاله الراقص إلى حالة من النشوة والابتهاج الديني. والرقص الحسيدي كان يتم في شكل دائري، أو في حلقات، رمزاً للفلسفة الحسيدية الحلولية القائلة بأن "الكل متساو والكل عبارة عن حلقات في سلسة، والدائرة ليس لها جهة أمامية أو خلفية وليس لها بداية أو نهاية" (والنسق الحلولي العضوي في رأينا يأخذ دائماً شكل دائرة مغلقة).

والرقص الحسيدي يبدأ بطيئاً ثم يزداد إيقاعه تدريجيا إلى أن يصل إلى حالة النشوة وتصاحبه حركة التمايل وحركات الأيدي والأرجل والقفز في الهواء والتصفيق. وقد علَّم الحاخام نحمان البرتسلافي أتباعه أن الرقص مع الصلاة من الفروض المقدَّسة وأن كل جزء من الجسد له إيقاعه الخاص، وقام بتأليف صلاة خاصة يقوم بتلاوتها قبل الرقص مباشرةً كما دعا مع غيره من الحاخامات الحسيديين إلى ضرورة الرقص في جميع المناسبات والأعياد، حتى تلك التي تتَّسم بالوقار إحياءً لذكرى حزينة، مثل: التاسع من آب ورأس السنة ويوم الغفران، وكذلك في احتفال بهجة التوراة. فإلى جانب المواكب المعتادة لهذا الاحتفال كان الحاخام الحسيدي يقوم بالرقص في نشوة روحية مع التوراة مرتدياً شال الصلاة ومحاطاً بدائرة من الحسيديين الذين يقومون بالغناء والتصفيق.

ومما سبق، نرى أن فنون الرقص تنوعت وتعدَّدت من جماعة يهودية إلى أخرى ومن عصر إلى آخر وارتبطت في المقام الأول بالتشكيل الحضاري الذي انتمت إليه كل جماعة على حدة. ومن ثَمَّ، فإن من الصعب الحديث عن «الرقص اليهودي» باعتباره فنا له سماته وشكله وحركاته وأسلوب أدائه الخاص. والواقع أن رقصات الجماعات اليهودية، سواء بين الإشكناز أو السفارد أو الشرقيين، تجد جذورها إما في المجتمعات الأوربية (سواء في شرق أو وسط أو جنوب أوربا) أو في المجتمعات العربية والشرق أوسطية. وخير دليل على ذلك تعدُّد وتنوُّع الرقصات التي جاء بها المستوطنون اليهود إلى إسرائيل وهي الدولة الصهيونية التي تدَّعي "وحدة الشعب والتراث والثقافة اليهودية"، فكانت هناك الرقصات البولندية والروسية والرومانية والرقصات العربية اليمنية. بل إن الرقصة الشعبية الأولى في إسرائيل، وهي الحورا، ما هي إلا رقصة رومانية الأصل. وليس هذا فحسب بل إن إسرائيل اتجهت، في محاولة لخلق "رقص شعبي إسرائيلي" للأخذ من تراث الرقص العربي الفلسطيني، خصوصاً رقصة الدبكة الشهيرة. ومعنى ذلك أن عملية السلب لم تقتصر على الأرض بل امتدت أيضاً إلى تراث أصحاب الأرض وفنونهم ورقصاتهم.

وشهدت العصور الوسطى، وعصر النهضة في أوربا، ظهور العديد من الراقصين ومعلمي الرقص اليهود المحترفين، وكان أغلبهم من اليهود الإيطاليين أو من يهود المارانو. واكتسب الرقص في تلك الفترة أهمية كبيرة بالنسبة إلى طبقة الأمراء والنبلاء الأوربيين وأصبح يُشكّل جزءاً مهما من تقاليدهم الاجتماعية وظهرت العديد من الرقصات الخاصة ببلاط الأرستقراطية التي أصبحت تتميَّز عن الرقصات الشائعة بين عامة الشعب. وساعد على هذا التطور ظهور معلمي الرقص، خصوصاً في إيطاليا. ويبدو أن اليهود لعبوا دوراً رياديا في هذا المجال (ربما نتيجة ميراثهم كجماعات وظيفية) فيعود أول ذكر لمعلم رقص إلى الحاخام هاسن بن سالومو الذي قام عام ١٣١٣ بتعليم المسيحيين رقصة كورالية تؤدَّى أمام المذبح في الكنيسة.

أما في العصر الحديث، ومع تزايُد اندماج أعضاء الجماعات

اليهودية في المجتمعات المحيطة بهم وانخراطهم في حياتها الثقافية والفنية، فظهر بينهم مصممو الرقصات والمرموقون من الراقصين والراقصات. ففي القرن التاسع عشر، قام آرثر ميشيل سان ليون (١٨١٥ ـ ١٨٧٠)، وهو راقص ومصمِّم رقصات فرنسي، بتصميم باليه كوبيليا الشهير بالإضافة إلى العديد من الباليهات الرومانسية الأخرى والتي عُرِضت في مختلف دول أوربا. كما وضع كتاب **التدوين المختزل للرقص** عام ١٨٥٢، وهي طريقة سريعة لكتابة وتسجيل الرقص، وتُعدُّ من أوائل النظم التي وُضعت في هذا المجال. ويُعَدُّ سان ليون من أهم أساتذة الباليه ومصممي الرقصات في عصره، وقد اعتنق الكاثوليكية عندما تزوج إحدى راقصات الباليه.

أما في القرن العشرين، وعندما زاد الاهتمام في الغرب بفن الباليه، فقد ظهر كثير من راقصي وراقصات الباليه بين أعضاء الجماعات اليهودية الذين حققوا شهرة واسعة بل ساهموا في نشر هذا الفن في إنجلترا والولايات المتحدة. فقدَّمت فرقة الباليه الروسي دياجليف عدداً من الراقصات والراقصين اليهود اللامعين أمثال إيدا روبنشتاين وإليشيا ماركوفا، وكذلك ماري رامبيرت التي أسَّست فيما بعد أول فرقة للرقص الكلاسيكي في إنجلترا وتُعتبَر بالتالي من مؤسسي الباليه الإنجليزي الحديث. كما أن مصمِّم هذه الفرقة التي قدَّمت عروضها بنجاح كبير في أوربا بين عامي ١٩٠٩و١٩٢٩ هو ليون باسكت اليهودي الأصل. وبعد قيام الدولة السوفيتية، أُتيحت فرصة أكبر لأعضاء الجماعة اليهودية للعمل في المجال الفني وظهر عدد من الراقصات والراقصين البارزين مثل مايا بليستسكايا التي أصبحت الباليرينا الأولى في فرقة باليه البولشوي واختيرت فنانة الشعب للاتحاد السوفيتي، وهي من أعظم راقصات هذا الجيل.

أما في الولايات المتحدة، فلم يتميَّز أعضاء الجماعات اليهودية بالإبداع في مجال الرقص، ولكن كانت لهم إسهامات مهمة كراقصين أو مصممي رقصات أو مؤسسي فرق باليه. بل كان لهم دور ريادي في نشر هذا الفن في الولايات المتحدة، فقد أسس ليفكون كيرستاين فرقة مدرسة الباليه الأمريكية (١٩٣٤) وفرقة مدينة نيويورك، ويُعتبَر ذلك بداية ميلاد الباليه الأمريكي. كما قام معلمو الرقص الأمريكيون اليهود بتدريب كثير من راقصي الفرق الجديدة للباليه الكلاسيكي التي تكونت في الثلاثينيات والأربعينيات. ومن مصممي الرقص المتميِّزين جيروم روبينز الذي اكتسب شهرة عالمية من خلال تصميمه رقصات فيلم «قصة الحي الغربي». ومن بين الراقصات المتميِّزات ميلسيا هايدن ونورا كاي. وقد قامت هذه الأخيرة بتصميم رقصات باليه «الديبوك» المأخوذة عن مسرحية الكاتب اليديشي آن سكي. ومما يُذكَر أن كثيراً من اليهود وغير اليهود وضعوا باليهات من الرقص الحديث تتناول مواضيع أو قضايا تخص الجماعات اليهودية أو تستمد بعض رقصاتها من الرقصات الحسيدية مثل باليه «القرية التي عرفتها» التي وضعته صوني مازلو، ويتناول حياة اليهود في روسيا القيصرية، وباليه «ذكريات» لهيلين تاميريس والذي يتناول حياة أسرة يهودية، وباليه «أحلام» الذي صممته آنا سوكولون وفيه إدانة لألمانيا النازية. كما صممت مارثا جراهام، وهي مصممة رقص غير يهودية وصاحبة واحدة من أهم فرق الرقص في الولايات المتحدة، عملين يتناولان مواضيع يهودية هما: «بعل شيم» و«نيجون» وذلك عام ١٩٢٨. ولكن تناول مواضيع يهودية لا يعطي هذه الأعمال صفة اليهودية، فالشكل الفني لهذه الرقصات وأسلوب أدائها وحركاتها تنتمي كلها إلى مدرسة الفن الحديث، وهي مدرسة تميل أكثر ناحية التعبير واستعمال الحركات الطبيعية وتعتبر جزءاً من تراث فن الرقص في الغرب.

وقد ظهرت في بداية القرن الحالي في العالم العربي راقصات من أعضاء الجماعات اليهودية يقمن بما يُسمَّى «الرقص الشرقي»، ولا يزال يُوجَد عدد كبير منهن في الولايات المتحدة. وتُوجَد مدرسة لتعليم الرقص الشرقي في إسرائيل.

١٠ ـ الأدب اليهودي والصهيوني

الأدب اليهودي

«الأدب اليهودي» عبارة تُستخدَم لتصنيف بعض الأعمال الأدبية، إما من منظور مضمونها أو من منظور الانتماء الإثني أو الديني (الحقيقي أو الوهمي) لكاتبها إذ تُصنَّف الأعمال الأدبية التي تتناول موضوعاً يهودياً أو مُستمَداً من حياة أعضاء الجماعات اليهودية (بغض النظر عن لغة العمل أو التقاليد الفكرية أو الحضارية التي يدور في إطارها) باعتبارها «أدباً يهوديا». ويمكن تصنيف الأعمال الأدبية من منظور انتماء كاتبها، فإن كان يهودياً صُنِّف ما كتبه على أنه «أدب يهودي». وهذا التعريف الأخير يستبعد الأدباء غير اليهود الذين تناولوا موضوعات يهودية في أدبهم. والمقدرة التفسيرية والتصنيفية لهذا المُصطلَح محدودة جداً لعدة أسباب:

١ ـ إن أخذنا بالتصنيف الذي يستند إلى مضمون العمل الأدبي، نكون قد تجاهلنا لغة الأدب والتقاليد الحضارية والأدبية والشكلية

التي يَصدُر عنها وصرنا نختزله تماماً في بُعْد واحد. فالأعمال الأدبية التي كتبها أدباء مثل برنارد مالامود وسول بيلو وفيليب روث هي أدب يهــودي (بالمعنى الإثني لا بالمعنى الديني، فــهم لا يؤمنون باليهودية) إذ يتناولون فيها موضوعات وشخصيات يهودية في أدبهم. ولا شك في أن تصنيفنا أدبهم على هذا النحو سيحد من توقعاتنا، وسييسر علينا فهم أعمالهم الأدبية اليهودية وتفسيرها. ولكن هذا التصنيف رغم فائدته قاصر عن أن يحيط بأدبهم بكل تركيبيته، فهو أدب مكتوب بالإنجليزية وينتمي إلى التقاليد الأدبية الأمريكية. والموضوعات والشخصيات التي يتناولونها ليست يهودية بشكل عام ومجرد، وإنما أمريكية يهودية تحددت هويتها داخل التشكيل الحضاري الأمريكي، بل إن البُعْد الأمريكي في نهاية الأمر أكثر أهمية من البُعد الإثني اليهودي.

٢ ـ يربط مُصطلَح «الأدب اليهودي» بين أعمال أدبية كُتبت داخل تقاليد أدبية مختلفة باعتبار أنها جميعاً «أدب يهودي»، وكأن ثمة موضوعات متواترة وأنماط متكررة تبرر تصنيف هذه الأعمال الأدبية داخل إطار واحد. فقصيدة كتبها شاعر روسي يهودي عن اليهود باللغة الروسية، ورواية كتبها مؤلف فرنسي يهودي عن اليهود باللغة الفرنسية، وقصة قصيرة كتبها كاتب أمريكي يهودي عن اليهود باللغة الإنجليزية، ومقال أدبي كتبه أديب من ليتوانيا باليديشية، ودراسة نقدية كتبها أديب إسرائيلي بالعبرية، تُصنَّف كلها باعتبارها «أدب يهودي». أي أنه مُصطلَح يفترض وجود أطر ثقافية وفكرية يهودية عالمية. ومثل هذا الافتراض لا يسانده الكثير في واقع أعضاء الجماعات اليهودية، وهو يؤكد الوحدة والتجانس والعمومية على حساب التنوع وعدم التجانس والخصوصية، ويؤكد المضمون اليهودي للعمل الأدبي على حساب أبعاده الفكرية والشكلية الأخرى، أي أنه مُصطلَح يُفقد الأدب ما يُميِّزه كأدب.

ويمكن أن يُقال إن هناك موضوعات مثل الإحساس بالغربة أو انتظار الماشيَّح تربط بين هذه الآداب. ولكن سيُلاحَظ أن هذه الموضوعات من العمومية بحيث نجد أن ما يربط بينها هنا ليس يهودية المؤلف، وإنما أحاسيسه الإنسانية، أي أن المرجعية النهائية هي إنسانيتنا المشتركة، أو البُعْد الإنساني في تجربة عضو الأقلية في مجتمع الأغلبية، بكل ما يحيق بهذه التجربة من مخاطر.

٣ ـ إن أخذنا بالتصنيف الذي يستند إلى خلفية الكاتب اليهودية، نكون قد أخذنا بأساس تصنيفي ليس له مقدرة تفسيرية عالية. فكثير من الأعمال الأدبية التي يكتبها مؤلفون يهود (مثل الناقد الأمريكي ليونيل تريلنج) ليس لها مضمون يهودي.

ونحن نرى ضرورة عدم استخدام هذا المُصطلَح بسبب قصوره عن الإحاطة بشكل ومضمون الأعمال الأدبية التي كتبها مؤلفون يهود عن موضوعات يهودية، فالبُعْد اليهودي ليس المحدِّد الأساسي للعمل الأدبي، كما أنه لا يوجد بُعْد يهودي عالمي واحد.

وبطبيعة الحال، يثير مُصطلَح «أدب يهودي» مشكلة بشأن أديب مثل هايني الذي تمرَّد على يهوديته ليدخل الحضارة الغربية، فتنصَّر. ولكنه بعد تنصره بدأ يحن ليهوديته! أو أديب مثل نيثان وينشتاين الذي رفض انتماءه اليهودي تماماً وغيَّر اسمه إلى «ناثانيل وست» وكَتَب أدباً عدمياً يهاجم فيه المسيحية واليهودية ومختلف العقائد الدينية.

ونحن في هذه الموسوعة نرفض التعميمات التصنيفية الكاسحة مثل «أديب يهودي» ونُصنِّف كل أديب حسب الأبعاد الحقيقية لأعماله الأدبية، ولهذا نستخدم مُصطلَحات مثل « الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية»، و«الأدب الصهيوني»، و«الآداب المكتوبة بالعبرية»، و«الأدب اليديشي». ولتصنيف أي كاتب من أعضاء الجماعات اليهودية لابد من استخدام مُصطلَح مُركَّب. فمثل هذا الأديب لا يعيش خارج التاريخ، حتى لو توهَّم هو نفسه ذلك، بل يعيش داخل حضارة معينة ويكتب أدباً بلغة معيَّنة. لكل هذا، يُستحسَن وصف تشرنحوفسكي، على سبيل المثال، بأنه شاعر روسي يهودي يكتب بالعبرية. ورغم أنه يَصدُر عن التقاليد الأدبية الروسية والغربية، فهو صهيوني النزعة في معظم قصائده، ولذا فهو يكتب أدباً يمكن أن يُسمَّى «أدباً صهيونياً». أما سول بيلو فهو كاتب أمريكي يهودي يكتب أدباً ذا طابع أمريكي باللغة الإنجليزية، ويتعرض أحياناً للموضوعات اليهودية وأحياناً أخرى يهملها، وأعماله الأدبية لا تنم عن نزعة صهيونية، وإن كانت إحدى أعماله الصحفية تعبِّر عن هذه النزعة. وبهذا نكون قد وصفنا الانتماء الحقيقي للأديب قومياً وحضاريا وأدبيا (وهذا هو الإطار العام)، ثم ذكرنا الأداة اللغوية والتقاليد الأدبية التي يدور في إطارها (أي انتقلنا إلى الخاص وحددنا الأداة التي يستخدمها)، ثم ذكرنا موقفه السياسي بعد انتمائه الحضاري واللغوي.

الأدب الصهيوني

«الأدب الصهيوني» عبارة يمكن استخدامها للإشارة لبعض الأعمال الأدبية ذات المضمون الصهيوني الواضح، بغض النظر عن الانتماء القومي أو الديني أو الحضاري أو اللغوي للمؤلف. فرواية **دانيال دروندا**، التي ألَّفتها الكاتبة المسيحية جورج إليوت بالإنجليزية،

تنتمي إلى هذا الأدب الصهيوني، بينما نجد أن بعض الروايات التي كتبها يهود عن الحياة اليهودية لا تنتمي إلى الصهيونية من قريب أو بعيد، بل إن بعضها يتبنى رؤية معادية للصهيونية بل لليهودية. وما يُسمَّى «الأدب الصهيوني» هو عادةً أدب من الدرجة الثالثة (أو كما نقول «أدب صحفي»، أي أنه كُتب ليُنشَر في الصحافة كما أنه ذو توجُّه دعائي واضح. ومن أهم أعمال الأدب الصهيوني رواية **الخروج** للكاتب الأمريكي اليهودي ليون أوريس وأعمال الكاتب الأمريكي اليهودي ماثير لفين). والأعمال الأدبية المكتوبة بالعبرية أو اليديشية أو التي كتبها أدباء يهود في مختلف أرجاء العالم نجد أن منها ما هو صهيوني - وهو القليل - ومنها ما هو معاد للصهيونية، وغالبيتها غير مكترثة بها.

ولا يصف مُصطلَح «الأدب الصهيوني» شكل الأدب ولا محتواه ولا حتى لغته، وإنما يصف اتجاهه العقائدي العام، تماماً مثل عبارة «الأدب الرأسمالي» أو «الأدب الاشتراكي». ولذلك، فهو مُصطلَح عام ومجرد مقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة جدا ولا يُعَدُّ تصنيفاً أدبيا، شأنه في هذا شأن مُصطلَح «الأدب اليهودي».

الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية

«الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية» مُصطلَح نستخدمه بدلاً من مُصطلَحات مثل «الأدب اليهودي» أو حتى «الأدباء اليهود» (انظر: «الأدب اليهودي» - «الأدب الصهيوني»). وقد أشرنا في المداخل الخاصة بهؤلاء الأدباء إشكالية البُعْد اليهودي في أدبهم، فبعضهم تنصَّر والبعض الآخر وُلد مسيحياً وبعضهم هاجم اليهودية بعنف والبعض الآخر لم يكترث بها، وهناك من تناول يهوديته باعتبارها موضوعاً إنسانياً (وحسب)، أما خصوصيته اليهودية فهي مسألة عرضية تشكل جزءاً من الكل الإنساني. وكل أديب من هؤلاء ينتمي إلى التشكيل الحضاري الذي يعيش في كنفه بشكل شبه كامل، ومن ثَمَّ أمكنه أن يبدع من خلاله.

فرانز كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤)

روائي ألماني يهودي، وُلد ونشأ في تشيكوسلوفاكيا لأسرة يهودية مندمجة. درس القانونَ وعمل في أحد مكاتب المحاماة، ثم في شركة تأمين تابعة للحكومة، ولذلك فإنه لم يكن يكتب إلا في أوقات فراغه. كان أبوه شخصية متسلطة تركت أثراً عميقاً فيه. وكان كافكا يعاني طيلة حياته من الصداع النصفي والأرق. وتم تشخيص مرضه عام ١٩١٧ على أنه السل، فقضى بقية حياته في مصحة. وكان كافكا قد عهد بمخطوطاته لصديقه وكاتب سيرته ماكس برود، ولكنه أوصى وهو على فراش الموت بأن تُحرَق أعماله بعد وفاته، ولكن برود لم يُنفِّذ رغبته.

وكثيراً ما تُطرَح قضية يهودية كافكا: فهناك من يرى أنه كان يهوديا بل صهيونيا حتى النخاع، وهناك من يذهب إلى أنه كان غير مكترث بيهوديته بل معادياً للصهيونية، ويورد كل فريق من الشواهد ما يدل على صدق رؤيته. كما أن هناك تناقُض عميق بين مذكراته من ناحية ورواياته من ناحية أخرى. ففي المذكرات اهتمام شديد بالموضوع اليهودي، على عكس رواياته التي يلتزم فيها الصمت حياله. وهناك، في المذكرات، إشارات إلى المدينة اليهودية القديمة والجيتو والمشروع الاستيطاني الصهيوني (بل قيل إن كافكا حضر أحد المؤتمرات الصهيونية). أما رواياته فلا تكاد تشير إلى الموضوع اليهودي، ففي رواية **أمريكا** (١٩٢٧) توجد شخصيات من كل الجنسيات (ألمان ومجريون وأيرلنديون وفرنسيون وروس وسلاف وإيطاليون) ولا يوجد سوى يهودي واحد. ونعرف أنه يهودي من اسمه، إذ لا تحمل شخصيته أية سمات من تلك التي تُسمَّى «يهودية». ومع هذا، فإننا لا نعدم من يُقدِّم قراءة صهيونية لأعماله. ففي دراسة للكاتب العربي كاظم سعد الدين بعنوان «حل رموز كافكا الصهيونية»، يذهب الكاتب إلى أن رواية **المحاكمة** (١٩٢٥) تسعى إلى كشف فساد دار الحاخامية، سليلة السنهدرين، أي المجمع الديني الأعلى. ورواية **المسخ أو التحول** (١٩٢٧) إنما تشير إلى التاجر اليهودي المتجول. و **القلعة** (١٩٢٦) هي حصن صهيون، وترمز وظيفة المسَّاح إلى الحياة الدنيا لليهود، كما تشير إلى ضرورة معرفة قوانينها وعاداتها وإيجاد نوع من العلاقة الجيدة بينها وبين القلعة التي ترمز إلى السلطة الدينية اليهودية العليا. ويرى كاظم سعد الدين أن كافكا أسقط رمز سور الصين على حدود الدولة المُرتقَبة، وأراد أن يقول إن سور الصين سيُشكِّل لأول مرة في تاريخ العالم أساساً راسخاً لبرج بابل جديد! وأن بدو الشمال هم الشعب العربي، وأن أبواب الهند أبواب فلسطين، وسيف الملك سيف داود! ويشير الكاتب أيضاً إلى أن كافكا عارض اندماج اليهود في الشعوب الأخرى ذاهباً إلى أن المدينة اليهودية القديمة غير الصحية، أي الجيتو، حقيقة أكثر رسوخاً بالنسبة إلى اليهود من الشوارع العريضة للمدينة المبنية حديثاً! ويشير أيضاً إلى أن كافكا ذكر أن أرض كنعان أرض الأمل الوحيد.

وأوضحت الدكتورة بديعة أمين في كتابها **هل ينبغي إحراق كافكا؟** أن هذين الاقتباسين الأخيرين نُزعا من سياقهما، إذ يتبع

الاقتباس الأول الخاص بالجيتو عبارة "إننا لسنا سوى شبح زال، أما أرض كنعان فليست أرضاً على الإطلاق، وإنما حلم وحسب".

ووصفت الدكتورة بديعة تفسيرات الأستاذ كاظم سعد الدين بأنه استنبطها من الكتب الدينية والتاريخية، ثم اعتبرها معادلات موضوعية مادية حسيَّة للرمز الكافكاوي استناداً إلى بعض العوامل الخارجة عن كتابات كافكا. ثم أضافت الدكتورة تحليلها لرؤية كافكا مبيِّنة استحالة أن يتبنى مثل هذا الكاتب رؤية صهيونية، فموضوعات أدبه هي الإحساس العميق بالغربة والعزلة الروحية حتى وسط الأهل والأصدقاء، والوعي بالذات وما يؤدي إليه هذا الوعي، وعلاقة الإنسان بالسلطة وبيروقراطيتها القاتلة، والانسحاب والانسلاخ الاجتماعيين، واختفاء الهدف والإحساس بالهزيمة. وقد عبَّر كافكا عن هذه الموضوعات بأسلوب غامض مغلق لا يسمح بتسرب قطرة ضوء. والواقع أن أدباً يتناول مثل هذه الموضوعات بمثل هذا الأسلوب لا يمكن أن يكون صهيونياً، لأن الأدب الصهيوني أداة أيديولوجية ووسيلة إلى هدف واضح بطريقة واضحة، ولذا فإن مثل هذا الأدب لابد أن يتسم بالوضوح والإيجابية. كما أن الأدب الصهيوني يهدف إلى الدفاع عما يُسمَّى حقوق الشعب اليهودي الذي يحمل خصائص عرْقية وإثنية خاصة ثابتة عبر الزمان والمكان، بل يُركِّز على تقديس هذا الشعب. وغني عن القول أن رؤية كافكا للطبيعة البشرية مختلفة تماماً، فهي بالنسبة له طبيعة متقلِّبة كالغبار غير مستقرة ولا تحتمل أية قيود. كما أن اليهودي بالنسبة له شخصية هامشية تقف بين عوالم مختلفة ولا تنتمي إلى أي منها. أما كافكا نفسه، فيؤكد عدم انتمائه إلى أي عالم، وهو لا يخلع القداسة على أحد، يهوديا كان أو غير يهودي، فعالمه عالم حداثي تماماً، خال من أية مطلقات أو مرجعيات أو مقدَّسات.

هذا فيما يتصل بموقف كافكا من الصهيونية. ولكن ماذا عن المضمون اليهودي في أدبه؟ إن مثل هذه المسألة يمكن أن تُحسَم إن قبلنا التحليل السياسي المباشر للمضمون ثم أضفنا إليه مستويات أكثر عمقاً، ولعلنا لو قبلنا صيغة تفسيرية مُركَّبة تقبل المستويات المتناقضة المختلفة، لفهمنا كافكا حق الفهم.

ولنبدأ بكافكا الإنسان والكاتب. كان كافكا يهوديا مندمجاً، ولذا فإنه لم يكن في البداية مدركاً للكتابات الدينية اليهودية أو كتابات المؤلفين اليهود، ولكنه بالتدريج بدأ يهتم بها وبالموضوع اليهودي. وهو أمر طرحته عليه عدة عناصر من أهمها أنه رغم الرغبة الصادقة لقطاعات كبيرة من يهود وسط أوربا في الاندماج، بل الانصهار في الحضارة الغربية، ورغم محاولة كثير من المجتمعات قبولهم ودمجهم وصهرهم، إلا أن عملية مثل هذه لم يكن من الممكن أن تتم في جيل واحد أو جيلين، فالجيل الأول والثاني من اليهود المندمجين كان يشعر أنه فقد الجيتو والأمن الذي كان اليهودي يشعر به داخله، بل وجد نفسه في عالم معاد له. ولا شك في أن حركات معاداة اليهود التي تصاعد نفوذها وازدادت شعبيتها عمَّقت هذا الإحساس لدى كثير من المثقفين اليهود. كما أن هجرة يهود اليديشية (أي يهود شرق أوربا)، الذين كان يتزايد عددهم داخل الإمبراطورية النمساوية المجرية، ساهم في خلخلة وضع اليهود المندمجين، وهو الوضع الذي فُرضَ على يهودي مندمج مثل هرتزل أن يبحث عن حل للمسألة اليهودية، أي مسألة يهود شرق أوربا، وأن يصوغ الحل الصهيوني. ويعني هذا أن الموضوع اليهودي فُرضَ على كافكا فرضاً. فبدأ يقرأ في الكتابات الدينية اليهودية وفي كتابات المؤلفين اليهود العلمانيين. قرأ في كُتب القبَّالاه والحسيدية، ودرس العبرية، وقرأ كتابات صهيونية أو شبه صهيونية (بل يُقال إنه كتب دراسات يُفهم منها تأييده المشروع الاستيطاني الصهيوني).

وعلى أية حال، فإن المصادر الغربية لفكره كانت أكثر تنوعاً وعمقاً وشمولاً، فقد تأثر بكلٍّ من كيركجارد ودوستويفسكي وفلوبير وتوماس مان وهيس وجوركي، وبالفكر الاشتراكي والفوضوي في عصره. ويبدو أنه كان معادياً للرأسمالية ولاقتصاديات السوق التي تحوِّل الإنسان إلى شيء.

وهذه الازدواجية (اليهودي/ غير اليهودي) تُعبِّر عن نفسها في مختلف المستويات. ولنأخذ موقفه من الدين؛ من الواضح أن كافكا كان رافضاً الدين كحل لمشكلة المعنى، ومن هنا كانت حداثة رواياته وإحساسه بالضياع الشامل. وهو في هذا، يُعبِّر عن موقف كثير من يهود عصره، حيث كانت اليهودية الحاخامية تعاني أزمتها العميقة، إذ أخذت تحل محلها العقائد العلمانية المختلفة، مثل الصهيونية والداروينية والماركسية والنازية.

ويمكننا القول بأن الموضوعات الأساسية في أدب كافكا موضوعات أساسية متواترة في الأدب الغربي الحديث بصفة عامة، وبالتالي فإن أصولها غربية، ولا يمكن فهمها إلا على مستوى الحضارة الغربية ككل. ولكننا في حالة كاتب من أصل يهودي فَقَدَ يهوديته مثل كافكا، نجد أن وضعه هذا يخلق عنده قابلية غير عادية لاكتشاف هذه الموضوعات وتطويرها، فهي تكتسب حدة خاصة في أدبه، وبعبارة أخرى، فإن يهودية كافكا ليست مصدر الرؤية العبثية عنده (فهي رؤية تضرب بجذورها في حضارته الغربية) والأدب الغربي. ومع هذا فانتماؤه اليهودي يُعمِّق هذه العبثية ويزيد حدَّتها.

وقد ترك كافكا أثراً عميقاً جداً في الأدب الغربي الحديث (مسرح العبث). ويُستخدَم مُصطلَح «كافكاوي» أو «كافكوي» لوصف الإحساس بالضياع والسقوط في شبكة متداخلة من الأحداث العبثية. ولعل عمق أثره في الحضارة الغربية يُبيِّن مدى تجذُّره في التشكيل الحضاري الغربي، كما يُبيِّن مدى هامشية خصوصيته اليهودية، اللهم إلا إذا كانت هذه اليهودية نفسها تعبيراً عن شيء جوهري في الحضارة الغربية.

إسحق بابل (١٨٩٤-١٩٤١)

كاتب قصة قصيرة مسرحي سوفيتي يهودي، وُلد في مدينة أوديسا ونشأ فيها. وكانت أوديسا مركزاً كوزموبوليتانياً، إذ كانت تعيش فيها جماعات ذات خلفيات ثقافية وإثنية مختلفة (ولذا كانت المسارح تعرض المسرحية الواحدة بثلاث أو أربع لغات مختلفة)، كما كانت مركزاً لنشاط تجاري دولي واسع النطاق. وإلى جوار هذا كانت أوديسا مركزاً للدراسات العبرية واليديشية ومركزاً لحركة التنوير اليهودية والحركة الصهيونية والحركات الاشتراكية اليهودية.

وُلد بابل لعائلة مندمجة تتحدث اليديشية التي تُعَدُّ لغته الأولى، وتلقى تعليماً خاصاً في منزله حتى سن السادسة عشرة، حيث تعلم مواد دينية ودنيوية عديدة منها العبرية والعهد القديم والتلمود، ثم التحق بمدرسة تجارية في أوديسا. وبعد عام ١٩١٥، ذهب بابل إلى بتروجراد (سان بطرسبرج فيما قبل ولينينجراد فيما بعد) متخفياً، حيث كان محظوراً على أعضاء الجماعة اليهودية التواجد فيها دون تصريح، لأنها كانت تقع خارج منطقة الاستيطان على عكس أوديسا.

وقد نُشرت أول أعماله الأدبية في بتروجراد، قبل الثورة، في مجلة أدبية كان يرأس تحريرها ماكسيم جوركي. وبعد اندلاع الثورة البلشفية، انضم بابل لقواتها. فعمل في قوات الأمن، وفي قوميسارية التعليم، وفي مهمات التموين، أي في مصادرة المحصولات في الريف، وفي الجيش البلشفي ضد القوات الروسية البيضاء المعادية للثورة. كما خدم في فرقة الفرسان الأولى التي كانت تضم المحاربين القوزاق وكانت تحارب على الجبهة البولندية. وهذه واحدة من مفارقات عديدة في حياة بابل، فالقوزاق أعداء الجماعة اليهودية التقليديون، ومن صفوفهم جاء شميلنكي الذي قاد ثورة شعبية أوكرانية ضد الإقطاع الاستيطاني البولندي وممثليه من يهود الأرندا. كما كانت الدولة القيصرية تجند القوزاق في قوات الأمن الداخلي لقمع المتظاهرين ولفرض الهيمنة الروسية على الشعوب والأقليات التي كانت تضمها الإمبراطورية القيصرية ومن بينهم الجماعات اليهودية. ورغم كل هذا، انضم بابل اليهودي إلى القوزاق أعداء اليهود، وهم فرسان محاربون شرسون من أصل قَبَلي يحملون سيوفهم وأسلحتهم، وهو مثقف من المدينة يرتدي نظارة ويحمل كتبه ولا يجيد ركوب الخيل. وتستمر المفارقات في حياة بابل، فقد نشأ نشأة دينية أرثوذكسية جامدة، ثم تبنَّى عقيدة علمانية لا تقل عنها جموداً. وقد دافع بابل عن النظام السوفيتي، وسقط ضحية هذا النظام في نهاية الأمر.

كتب بابل في هذه الفترة **الفرسان الحمر** (١٩٢٦) وهو كتاب يتناول تجربته مع المحاربين القوزاق من الفرقة الأولى الحمراء. واتهمه قائد الفرقة الأولى بأنه شوَّه الحقائق وأساء إلى صورة الفرقة. وفي عام ١٩٣١، كتب بابل رواية أو مجموعة من القصص عن عملية فرض الصيغة الجماعية على الإنتاج الزراعي، وظهر فصل منها ثم توقفت لأنها كانت متناقضة مع خط الحزب.

سُمح له عام ١٩٢٨ بزيارة زوجته وابنته اللتين كانتا قد هاجرتا إلى باريس. ثم بدأت فترة الإرهاب الستالينية بعد ذلك، فأصبح بابل، حسب قول أحد النقاد، "سيد الصمت". وبموت ماكسيم جوركي (١٩٣٦)، فقد بابل أهم أصدقائه، إذ كان يزوده بالحماية. وبالفعل، قُبض عليه عام ١٩٣٩ واختفى على الفور. ولا تُعرَف الأسباب التي أدَّت إلى القبض عليه، ولكن ثمة نظرية تذهب إلى أنها لم تكن سياسية، وأنه أُلقي القبض عليه بسبب علاقة غرامية بينه وبين زوجة رئيس البوليس السري.

ويُعَدُّ بابل من أهم الكُتَّاب الروس، فرغم أن لغته الأولى كما أسلفنا هي اليديشية، ورغم أنه كتب أولى رواياته بالفرنسية، إلا أنه امتلك ناصية اللغة الروسية وأصبح من أحسن كتابها. ورغم اختياره الروسية لغة للتعبير، فقد ظل الموضوع اليهودي موضوعاً أساسيا ظاهراً وكامناً في أعماله. ولم يكن بابل منشغلاً بأن يحدِّد موقفاً مع اليهود أو ضدهم، فقد أدرك أن يهوديته (أو بقاياها) هي مُعطى أو ميراث يحدِّد سلوكه كمواطن في عصر الثورة وهو ما يخلق التناقضات والمفارقات العديدة في حياته.

ولعل هذا سر عظمة أعماله وسر إنسانيتها، فاليهودية هنا ليست نسقاً مغلقاً مكتفياً بنفسه يُقسِّم العالم إلى يهود وأغيار ثم يستبعد الأغيار باعتبارهم الأشرار، وإنما بُعْد أساسي في بنية إنسانية مأساوية كوميدية ذات دلالة إنسانية عامة. ومأساة اليهودي في رواياته ليست مأساة يهودية خاصة، وإنما مأساة إنسان يسقط صريع عمليتي الثورة والتحديث رغم إيمانه بهما وتحمسه لهما وانضمامه

لصفوفهما. وهذا نمط إنساني عام يتجاوز يهودية اليهودي وكل الانتماءات الإثنية، ويُعبِّر عن الصراع القائم بين الجديد والقديم وبين المجتمع التقليدي والحديث، فالمرجعية النهائية هنا إنسانية البشر المشتركة، وكذلك أفراحهم وأتراحهم.

ولم يكن بابل كاتباً غزير الإنتاج، فسمعته الأدبية تستند إلى مجموعتين أدبيتين: **الفرسان الحمر** (١٩٢٦)، و**روايات أوديسا** (١٩٢٧). وقد تأثر أسلوبه الروائي بفلوبير وموباسان، فهو يجيد رواية الحكايات، حيث تنكشف الشخصيات المتنوعة من خلال الحبكة نفسها. وعادةً ما يكون الراوي في القصة الشخصية الأساسية يحكي روايته بلغته سواء كانت لهجة فلاحية أو رطانة جنود أو لغة مواطن يهودي من أوديسا يتحدث الروسية بلكنة يديشية.

والموضوع الأساسي في روايات بابل صدى لواحد من أهم الموضوعات في الأدب الغربي الحديث: تمجيد الإنسان الطبيعي أو النبيل المتوحش. ولكن الموضوع يأخذ شكلاً خاصاً في أدب بابل، بل يكتسب أبعاداً نيتشوية واضحة، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن كثير من الأدباء اليهود في عصره حيث اكتسحتهم النيتشوية، مثل آحاد هعام فيلسوف أوديسا وحاخامها اللاأدري. فاليهودي التقليدي في أدب بابل ممثل أخلاق الضعفاء، المثقل بعبء التاريخ وميراثه، يود أن يتحرر من كل هذا ويصبح مثل الوثنيين ممثلي أخلاق الأقوياء الذين يتسمون بالقوة الجسدية الخارقة وبغياب الحس الخلقي والمقدرة على الحياة في عالم الحس المباشر. ولعل أحسن مثل على ذلك، حسب رؤية بابل، المحاربون القوزاق. ومما يَحسُن ذكره أن لهذا الموضوع صدى في الأدب الصهيوني، فالصابرا أو العبراني الجديد هو هذا الوثني النيتشوي غير المُثقَل بعبء التاريخ، والوثني الجديد قادر على القيام بأفظع الأفعال وأبسطها؛ قتل الآخرين. وفي إحدى قصص بابل، لا يقوى بطلها على أن يُجهز على أحد الرفاق الجرحى، ويصلّي للإله ليمنحه المقدرة على القتال. وفي قصة أخرى، يحاول البطل أن ينضم إلى جماعة القوزاق، ولذا كان عليه أن يقتل إوزَّة بطريقة شرسة وينجح في ذلك، ولكنه حينما يأوي إلى فراشه يبدأ ضميره (اليهودي) في تأنيبه على فعلته هذه.

وإلى جانب ممثلي أخلاق الضعفاء، يوجد يهود آخرون يعيشون في عالم الحس خارج نطاق قيم الخير والشر، أبطال لا علاقة لهم باليهود المساكين الذين صوَّرهم الأدب اليديشي، ولا بالحالمين المثاليين في الأدب ذي التوجه الصهيوني. أما أبطال بابل فهم، على حد قول أحد النقاد، مثل الخمر الحمراء الرديئة المليئة بالفقاقيع، فمنهم امرأة يهودية ضخمة تدير بؤرة للصوص وماخوراً للدعارة، ومنهم شحاذون ذوو ذقون مدببة يحرسون مقابر اليهود ويتحدثون عن عبث الوجود الإنساني، ومنهم رؤساء عصابات يُدخلون الرعب على قلوب تجار أوديسا وشرطييها، ومنهم ذابحون شرعيون وحسيديون بولنديون. هذا الجانب من أدب بابل يُعبِّر عن وعيه بالجانب الحسي لعالم يهود اليديشية، ولكنه عالم آخذ في الاختفاء بسبب تصاعُد معدلات العلمنة والتحديث، خصوصاً بعد الثورة. ومن هنا يتحوَّل أدب بابل إلى مرثية اختفاء هذا العالم، ولكنها مرثية كوميدية. وهذه النغمة هي التي تنقذه إلى حدٍّ ما من العدمية التي تسم كثيراً من الأعمال الحداثية وتُحل محلها شكلاً بدائياً مباشراً من تأكيد الحياة. فعلى سبيل المثال، هناك بيت للعجزة اليهود يحاول أن يضمن لنفسه الاستمرار بأن يتحوَّل إلى تعاونية اشتراكية للدفن، ولكنه لا يمكنه البقاء إلا بالحفاظ على الجثمان الوحيد لديه وعدم دفنه. ومن ثَمَّ، فإن أول جنازة حقيقية ستقوم بها هذه المؤسسة الاشتراكية تعني، في واقع الأمر، نهايتها. وهناك قصة أخرى عن حياة طفل يُسميه أبواه الشيوعيان الملحدان «كارل»، ولكن جديه يختتنانه سرا، ومن ثَمَّ يُسمَّى الطفل «كارل ـ يانكل» (كارل ـ يعقوب). وفي قصة ثالثة، ينضم ابن أحد الحاخامات للحزب الشيوعي (رمز الجديد) ولكنه يستمر في الحياة مع أبويه لأنه لا يريد أن يترك أمه (رمز القديم). وفي قصة رابعة، يموت ابن الحاخام الشيوعي في معركة ولكنهم (بعد موته) يجدون في أوراقه صورة للينين وأخرى لموسى بن ميمون وقرارات للحزب الشيوعي كُتبت في هوامشها أبيات شعرية بالعبرية ونص من نشيد الأنشاد مع بعض الطلقات الفارغة.

ولعل من أهم القصص التي تبيِّن هذا الصراع قصة **جيدالي**. وبطل القصة يهودي عجوز (صاحب محل تحف)، وقد اعترته الدهشة والحيرة بسبب عمليات السرقة والنهب في مدينته التي يقوم بها الجانبان الشيوعي والمعادي للشيوعية. ولذا، فهو يسأل: كيف يستطيع المرء إذن أن يفرِّق بين الثورة والثورة المضادة؟ وهو ممن لا يقبلون الرأي الحديث القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة، ويعيش في ألم لأن الثورة تطالب الناس بأن ينبذوا كل القيم القديمة: الجيد منها والرديء. "سنقول نعم للثورة، ولكن هل يمكن أن نقول لا لشعائر السبت؟" ثم تنتهي القصة باقتراح يقدمه بطل القصة لزائره الشيوعي: إن ما تحتاجه الدنيا ليس مزيداً من السياسة، وإنما منظمة دولية للأخيار، يعيش كل الناس فيها في سلام ووئام.

وقد رُدَّ اعتبار بابل في الاتحاد السوفيتي في فترة ما بعد ستالين ونُشرت أعماله في الستينيات. ويمكن هنا أن نثير قضية تصنيف بابل

الذي ورد اسمه في **دليل بلاكويل للثقافة اليهودية** باعتباره أديباً يهودياً. ورغم أن بابل يكتب باللغة الروسية داخل إطار الثقافة الروسية وتقاليد الرواية الروسية، ولا يمكن فهم أعماله إلا بالعودة إلى هذه التقاليد. وهو يتناول موضوعات يهودية، ولكنها في واقع الأمر موضوعات روسية يهودية، أي أنها موضوعات تخص حياة يهود اليديشية في روسيا بعد الثورة، وهي موضوعات لا تُفهَم هي الأخرى إلا بالعودة إلى المجتمع السوفيتي الجديد ومشاكل الشعوب والأقليات فيه. ويتسم تناول بابل لموضوعاته بالرحابة الإنسانية، ومن ثَمَّ فإن أعماله ترقى إلى مستوى العالمية. كل هذا يجعل تصنيفه كروائي يهودي مستحيلاً، فمثل هذا التصنيف لا يُفسِّر إلا جوانب محدودة جداً من أدبه.

بريمو ليفي (١٩١٩-١٩٨٧)

كاتب إيطالي وكيميائي، وُلد في تورين لعائلة إيطالية يهودية مندمجة في تورين حيث درس الكيمياء في جامعتها وتخرج عام ١٩٤١، واشتغل في ميلانو. ومع سيطرة الفاشيين على السلطة، انضم إلى المقاومة الإيطالية، ولكنه وقع في الأسر ورُحِّل إلى معسكر الاعتقال النازي في أوشفيتس. ونظراً لخبرته الكيميائية، أُختير ليفي للعمل في معمل لإنتاج المطاط الصناعي لصالح المجهود الحربي الألماني. ومع انتهاء الحرب، عاد إلى تورين بعد رحلة شاقة، ليشتغل في تخصصه، ولكنه اتجه في الوقت نفسه إلى الكتابة حيث أراد تسجيل تجربته في معسكر أوشفيتس باعتباره شاهداً على ما حدث هناك، وكذلك باعتبار أن عملية التسجيل وسيلة لتفريغ مشاعره. وقد كانت ثمرة مجهوده كتابه الأول **لو كان هذا رجلاً** (١٩٤٥) الذي وصف فيه تجربة معسكر الاعتقال بأسلوب مشابه لأسلوب دانتي في الجحيم، وقد سعى فيه إلى تفسير عملية التجرد من الإنسانية التي جرت في أوشفيتس من جهة، وقدرة البشر من جهة أخرى على الحفاظ على إنسانيتهم بفضل العقلانية والوعي بالذات. وفي كتابه الثاني **الهدنة** (١٩٦٥)، روى رحلة عودته عبر أوربا إلى تورين بعد الحرب. وفي عام ١٩٧٥، كتب ليفي سيرته الذاتية تحت عنوان **الجدول الدوري** استخدم فيه أساس العناصر الكيميائية في الجدول الدوري ليرمز بذلك إلى الأحداث المختلفة التي جرت في حياته والشخصيات الكثيرة التي عرفها ومن بينها العَالم الألماني الذي عمل في معمله خلال فترة اعتقاله في أوشفيتس. وتناول ليفي أحداث معسكرات الاعتقال النازية مرة أخرى في كتاب **الغرقى والناجون** (١٩٨٦) الذي ضم مجموعة مقالات تناولت مواضيع مثل الشعور بالذنب لدى الناجين من المعسكرات وظاهرة المتعاونين مع الألمان. وفي عام ١٩٨٢، أصدر ليفي رواية بعنوان **إن لم يكن الآن فمتى؟** تناول فيها قصة يهودي روسي من أفراد المقاومة خلال الحرب وهو يشق طريقه عبر أوربا إلى إيطاليا بهدف الإبحار إلى فلسطين.

وقد ابتعد ليفي عن اليهودية بشكل خاص وعن الدين بشكل عام وأصبح لا أدريا، ولكنه كان من المؤمنين بقيمة الصدق كقيمة مطلقة ودعا إلى التمسك بها على المستوى الشخصي، ومن ثَمَّ قاوم إغراء الصلاة أمام احتمالات الموت أثناء وجوده في معسكر الاعتقال، باعتبار أن دوافع الصلاة في مثل هذه الظروف دوافع عملية، ولذا فهي لا تعبِّر عن التقوى، بل هي شكل من أشكال الهرطقة والتجديف. مات ليفي منتحراً عام ١٩٨٧ حيث كان يعاني حالة اكتئاب حاد أدَّى به على ما يبدو إلى الإقدام على الانتحار.

ورؤية ليفي للعالم متشائمة عدمية، ويتجلَّى هذا في تناوله موضوع الإبادة النازية ليهود أوربا، إذ يرى أن الضحايا تعاونوا تماماً مع من ذبحهم، ومن ثَمَّ فإن الإبادة كانت عملاً مشتركاً بينهما ولا يمكن تجريم النازيين وحدهم. وغني عن القول أن هذا الموقف أدَّى إلى هجوم الكثيرين عليه.

هارولد بنتر (١٩٣٠-)

كاتب مسرحي بريطاني يهودي من أصل سفاردي برتغالي. وكان الاسم الأصلي لعائلته «دا بنتا»، فقام بتغييره ليصبح «بنتر». تلقَّى بنتر تعليمه في المدارس الإنجليزية. وحينما التحق بالأكاديمية الملكية للفنون المسرحية، وجد الطلبة فيها أكثر صقلاً وتركيباً منه، فادَّعى أنه مصاب بانهيار عصبي وترك الدراسة. ثم رفض بعد ذلك أداء الخدمة العسكرية نظراً لاعتراضه على أساس الضمير، وعمل ممثلاً بعض الوقت.

في الخمسينيات، ظهر أول عمل مسرحي له، وهو **الحجرة** (١٩٥٧). ثم ظهر له **الجرسون الأخرس** و**حفلة عيد الميلاد**. ولكن أول نجاح حقيقي له كان في مسرحية **الوصي** (١٩٦٠) التي تُعَدُّ من أهم مسرحياته، وهي ملهاة مأساوية تنتمي إلى ما يُسمَّى «مسرح العبث» تتناول ثلاث شخصيات: أولها ميك الذي يمتلك بيتاً مهجوراً ويهديه لأخيه المتخلف عقليا، آستون، ولكن هذا الأخير يضعه تحت تصرف شخص متشرد لا مأوى له، والموضوعات الأساسية غير

واضحة في المسرحية، ولكن هناك محاولة من جانب ميك أن يستعيد علاقته مع أخيه المتخلف عقليا. ولكن المتشرد الوصيّ يتحول من مجرد شخص شريد هامشي إلى شخص عدواني ومنافس حقيقي لميك، ولكن المسرحية تنتهي بطرده.

وهذه المسرحية عمل نموذجي لبنتر، فشخصياته تفشل دائماً في التواصل، ورغم أن لغة الحوار في المسرحية متميِّزة، إلا أن الشخصيات لا تمتلك لغة خاصة للتعبير عن عواطفها، ولذا يصف النقاد بنتر بأنه "سيد الصمت البليغ على المسرح"، والصمت عنده دائماً رمز الفشل الإنساني في التعبير. كما أنه يستخدم الصمت أيضاً ليوحي بما لا يمكن توصيله بالكلمات (ولذا، فإن مسرحياته تُسمَّى أيضاً «كوميديات الخطر»). وشخصيات بنتر غير قادرة على فهم نفسها أو شرح مواقفها ولكنهم جميعاً يتميَّزون بإحساس هائل بالمكان أو المنطقة التي ينتمون إليها (المنزل في مسرحية **الوصيّ**). ولذا، فإن الصراع يدور دائماً بين الرجل الذي يجلس في الحجرة ويمتلكها والشخص الذي يقيم فيها.

ومن أهم الموضوعات الأخرى التي تتناولها مسرحيات بنتر العلاقات الزوجية، فمسرحية **المحب** (١٩٦٣) تتناول علاقة زوجية لا يستطيع الزوجان أن يستمرا فيها إلا بالتظاهر بأن علاقتهما مُحرَّمة وغير شرعية! أما مسرحية **العودة** (١٩٦٤)، فتدور حول مثقف بريطاني يعود من الولايات المتحدة ومعه زوجته الأمريكية التي تواجه أسرته التي تنتمي للطبقة العاملة.

كتب بنتر عدة مسرحيات للإذاعة، وحوَّل بعض مسرحياته إلى أفلام. ومن أهم مسرحياته الأخرى: **المجموعة** (١٩٦١)، و**حفلة شاي** (١٩٦٤)، و **خيانة** (١٩٧٨)، و**الأيام الخوالي** (١٩٧٩)، و **أصوات عائلية** (١٩٨١). ويعترف بنتر بأن أهم المؤثرين فيه فرانز كافكا وصمويل بيكت وأفلام العصابات الأمريكية التي تركت أعمق الأثر فيه.

ويرد اسم بنتر في بعض الموسوعات اليهودية، بينما يُسقَط من بعضها الآخر. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الدراسات الأدبية العامة في أدبه تذكر أصله اليهودي بشكل عابر، أو لا تذكره على الإطلاق، وهذا يعود إلى أنه لا يوجد أثر عميق لانتمائه اليهودي في أعماله الأدبية. وقد ذهب **دليل بلاكويل للثقافة اليهودية** إلى أن "خلفية بنتر اليهودية تم التعبير عنها من خلال قنوات عالمية إنسانية". وهذه عبارة ليس لها مدلول واضح، فهي تؤكد أن خلفية بنتر يهودية، وهو أمر لا خلاف عليه، ولكنها تشير إلى أن هذه الخلفية اليهودية لم تترك أي أثر في أدبه، إذ تم التعبير عن هذه الخلفية من خلال قنوات (أي أشكال) عالمية، أي أن مرجعيته النهائية هي إنسانيتنا المشتركة كما هو الحال مع كل الأعمال الأدبية العظيمة، وهي إنسانية مشتركة لم يتم التعبير عنها من خلال قنوات يهودية، على عكس دانتي الذي عبَّر عن إنسانيتنا المشتركة من خلال قنوات كاثوليكية، وعلى عكس ملتون الذي عبَّر عنها من خلال قنوات بروتستانتية، فأين تكمن هوية بنتر اليهودية؟

فيليب روث (١٩٣٣-)

أهم روائي أمريكي يهودي، وُلد ونشأ في مدينة نيو آرك التابعة لولاية نيوجرسي لأسرة أمَريكية يهودية بورجوازية مندمجة. وتدور قصصه حول الصراع الحاد الذي يدور داخل الأمريكيين اليهود بين ميراثهم اليهودي (اليديشي) من جهة، وجاذبية الحضارة الأمريكية (المسيحية) والعلمانية التي يعيشون فيها من جهة أخرى. أثارت أعمال روث جدلاً كبيراً، ولعل هذا يعود إلى صراحته غير العادية وإلى أن شخصياته اليهودية شخصيات كوميدية مريضة تكشف عن نفسها من خلال علاقات جنسية شرعية وغير شرعية، صحيحة ومرضية. وقد وصفه البعض بأنه يهودي كاره لنفسه وليهوديته.

ومن أهم قصصه **المدافع عن العقيدة**، و**تحوُّل اليهود عن عقيدتهم** (١٩٦٢)، و**درس التشريح** (١٩٨٣) حيث يحاول روث أن يكتشف التناقض الكامن في بعض التعريفات الأمريكية للهوية اليهودية، ويُبيِّن التضمينات الكوميدية الكامنة في مفاهيم مثل الشعب المختار والشعب المقدَّس، كما يكشف التناقض الكامن في الانشغال الزائد لدى اليهود بما حاق بهم من عذاب في الماضي وحساسيتهم الزائدة، بينما يعيشون الآن في مجتمع علماني لا يكترث بهم ولا يكن لهم حباً ولا كُرهاً. ويتناول روث عادةً علاقات الأبناء بآبائهم، خصوصاً الأمهات، فموضوع الأم اليهودية شديدة الطموح والتسلط موضوع أساسي في رواياته. كما أن اهتمامه ينصرف كذلك إلى علاقة الرجال بالمرأة. فالأنثى، خصوصاً اليهودية، متسلطة، زوجة كانت أم عشيقة، مخططاتها مختلفة عن مخططات الذكر. وهو يطلق على مثل هذه الأنثى «الأميرة الأمريكية اليهودية»، وقد أصبح هذا المُصطلَح شائعاً في الخطاب الأمريكي ويحمل معنى قدحياً. وفي مقابل ذلك، تشير روايات روث إلى الشيكسا، أي الأنثى غير اليهودية، التي تشكل جاذبية خاصة لليهودي. وأهم الروايات التي تتناول هذا الموضوع **شكوى بورتنوي**

(١٩٦٩) التي تأخذ شكل اعتراف رجل يهودي يبلغ من العمر ٣٣ عاماً لمحلله النفسي.

وتُعَدُّ رواية **شكوى بورتنوي** ذات أهمية خاصة من منظور هذه الموسوعة، فبطلها ينتقل بين الولايات المتحدة (الدياسبورا) وإسرائيل. وفي الولايات المتحدة، يكتشف أن هويته اليهودية إنما هي مصدر ألم له وليس لها قوام أو مضمون واضح، وتدفعه إلى ما يسميه روث المستنقع الأوديبي: أي الاهتمام المرضي بعلاقة الابن اليهودي بأمه اليهودية، وإحساسه العميق بالذنب حينما تتجه عواطفه نحو الشيكسا من بنات الواسب، أي الفتاة البيضاء (عادةً شقراء) من أصل أنجلو ساكسوني بروتستانتي.

ولا يختلف الأمر كثيراً عندما يذهب البطل إلى إسرائيل، حيث لا يعجبه ما يرى، إذ لا يجد نفسه الأمريكية اليهودية المركَّبة هناك. ولذا، فهو حينما يقابل فتاتين إسرائيليتين في أرض الميعاد، تنتهي العلاقة نهاية مأساوية ملهاوية، إذ تسأله الأولى، وهي ملازم في الجيش الإسرائيلي، إن كان يفضل الجرارات أو البلدوزرات أو الدبابات. أما الثانية (ناعومي)، فهي إسرائيلية حقة، وُلدت في إحدى المستعمرات بالقرب من الحدود اللبنانية، وأتمت خدمَتها في الجيش الإسرائيلي، ثم استقرت في إحدى المستعمرات الواقعة على الحدود السورية، وهي لا تكف عن الثرثرة عن الاشتراكية وعن الفساد الذي يسود المجتمع الأمريكي.

وقد لقنته هذه الفتاة المحاربة درساً في التاريخ اليهودي من وجهة نظر صهيونية، فأخذت تتحسر على تلك القرون الطويلة التي عاشها اليهود بلا ديار ولا مأوى، وأفرزت أمثاله من الرجال "الخائفين المخنثين الذين لا يعرفون قدر أنفسهم، الذين أفسدتهم الحياة في عالم الأغيار". بل إنها تلومه على ما حدث لليهود في ألمانيا النازية "فيهود الشتات، بسلبيتهم، هم الذين ساروا بالملايين إلى غرف الغاز دون أن يرفعوا يداً ضد مضطهديهم... الشتات! إن الكلمة نفسها تثير حنقي". ولا غرو أن بورتنوي لم يُوفَّق بعد هذا في العثور على فتاة أحلامه في إسرائيل.

وتعكس روايات روث واقع يهود الولايات المتحدة الأمريكية الذين يتمتعون بمعدلات عالية من الاندماج (أو يعانون منها حسب الرؤية الصهيونية). ولذا، فإن رؤيتهم للواقع، وأحلامهم، وطموحاتهم، لا تختلف كثيراً عن رؤية وأحلام وطموحات أعضاء الأغلبية، فحلمهم هو الحلم الأمريكي. وهذا أمر مُتوقَّع من أبناء مهاجري اليديشية الذين تركوا أوطانهم واستقروا في أمريكا ليحققوا الحراك الاجتماعي، وإذا وجد الشاب اليهودي أن الشيكسا ذات جاذبية خاصة فهذا أمر منطقي لأقصى حد.

وفي رواياته الأخيرة، بدأ روث يتجه نحو داخله باعتبار أنه فنان يهتم بعملية الإبداع بشكل خاص، وذلك في روايات مثل **حياتي كرجل** (١٩٧٤)، و**الكاتب الشبح** (أي الذي يصوغ كتابة ما يكتبه الآخرون صياغة أدبية) عام ١٩٧٩، و**زوكرمان طليقاً** (عام١٩٨١)، وتدور الروايتان حول حياة الروائي زوكرمان الذي تشبه حياته حياة روث نفسه، وهي حياة مليئة بالمتناقضات. إنه متعطش للنجاح ولكنه لا يود أن يطارده المعجبون، ويتصرف كابن بار بأسرته ثم لا يُطيع أوامر أبيه، وينشر رواية تدور أحداثها عن أسرته ثم يتبيَّن مساوئها، ويتوق للإثارة والهدوء، ويتزوج نساءً مثقفات متزنات ثم يرفضهن لأنهن مثقفات متزنات، ويقوم بعمليات مطاردة جنسية للنساء ثم يرفض أي نقد موجه لهذه المطاردات، ويكتب روايات فاضحة عن اليهود ولكنه لا يفهم لماذا تستجيب المؤسسة اليهودية لرواياته استجابة سلبية.

وقد صدرت لروث روايات أخرى، مثل: **حينما كانت خيِّرة** (١٩٦٧)، و**عصابتنا**(١٩٧١)، و**الرواية الأمريكية العظمى**(١٩٧٣)، و**قراءة نفسي والآخرين** (١٩٧٥)، و**أستاذ الرغبة** (١٩٧٧). ومن آخر رواياته رواية **الحياة المضادة** (١٩٨٦) حيث يستكشف معنى حياة اليهود في إسرائيل وخارجها و**عملية شيلوك** (١٩٩٢).

تدور الرواية الأخيرة حول الكاتب نفسه (فيليب روث) الذي يذهب إلى إسرائيل لإجراء مقابلة مع كاتب إسرائيلي معروف، وهناك يجد نظيراً له يحمل الملامح نفسها والاسم نفسه ويزعم أنه هو نفسه فيليب روث. يدعو فيليب روث الثاني هذا إلى ما يسميه «نظرية النية» ومفادها أن الأجدى لليهود الهجرة من إسرائيل إلى أوربا لأن واقعهم الثقافي الحقيقي كان دائماً هناك ولأن إسرائيل ستكون الموقع الجديد لإبادة اليهود في حرب نووية مع العرب، كما يصبح المؤلف/ البطل محور العديد من الأحداث التي تدور في إسرائيل في زمن الانتفاضة. ومن أطرف المواقف في الرواية أن فيليب روث الحقيقي توقفه دورية إسرائيلية ليلاً وتشتبه في أنه عربي فيمر بلحظات رعب قبل أن ينجح في إثبات هويته. وتؤكد الرواية "أن على اليهود واجب أخلاقي لا مفر منه، هو تعويض الفلسطينيين عما اقترفه اليهود ضدهم من طرد وتعذيب وقتل". ثم يؤكد بطل الرواية "بغض النظر عن كل شيء: الفلسطينيون كشعب، أبرياء بالكامل، واليهود كشعب، مُعذَّبون بالكامل".

١١ـ الآداب المكتوبة بالعبرية

أدب عبري وأدب مكتوب بالعبرية

تُستخدَم أحياناً عبارة «الأدب العبري» للإشارة إلى الأعمال الأدبية المكتوبة بالعبرية. وهو اصطلاح عام مقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة، فهو يشير إلى الانتماء اللغوي للعمل الأدبي وحسب ولا يغطي الانتماء الحضاري أو القومي. فتشرنحوفسكي ويهودا اللاوي كلاهما كتب بالعبرية، غير أن الأول ينتمي إلى التقاليد الأدبية الروسية الرومانتيكية، بينما ينتمي الثاني إلى التراث الأدبي العربي في الأندلس، أي أن القاسم المشترك بينهما ليس سوى اللغة وحسب. بل إن العبرية التي استخدمها كلٌّ منهما متأثرة بالمحيط الحضاري، ومن ثَمَّ فإن أيا منهما لم يكتب «أدباً عبريا» وإنما عبَّر عن نفسه ورؤيته من خلال «أدب مكتوب بالعبرية». وحيث إن هذه الآداب تتنوع بتنوع التقاليد الحضارية والأدبية واللغوية فنحن نتحدث عن «الآداب المكتوبة بالعبرية». أما «الأدب الإسرائيلي» فهو الأدب المكتوب بالعبرية في إسرائيل بعد عام ١٩٦٠، ونشير له أحياناً بأنه «الأدب العبري الحديث».

وقد اعتبرنا أن عام ١٩٦٠ نقطة فاصلة ظهر بعدها الأدب العبري في إسرائيل (فكل من مات بعد هذا التاريخ من أدباء العبرية صنِّف على أنه «أديب إسرائيلي»)، وهو اختيار فيه شيء من التعسف كما هو الحال في مثل هذه الأحوال. ومع هذا، يمكننا القول بأن الآداب المكتوبة بالعبرية، التي كُتبت قبل ذلك التاريخ لم تكن متأثرة بالتقاليد الأدبية المختلفة التي وجد فيها الأدباء وحسب، وإنما صادرة عنها. ولا يمكن إطلاق مصطلح «أدب إسرائيلي» على تشرنحوفسكي لمجرد أنه هاجر إلى فلسطين، فالإنسان لا يغيِّر وعيه أو وُجدانه أو طريقة إبداعه بمجرد انتقاله من مكان إلى آخر، خصوصاً إذا كانت قد تقدمت به السن وتشكلت رؤيته وتحددت أدواته الأدبية. أما في الستينيات، فرغم أن الأدب العبري كان لا يزال متأثراً بالتقاليد الأدبية الغربية (الحداثة وما بعد الحداثة)، والتي يُقال لها «عالمية»، فإنه كان لا يختلف في ذلك كثيراً عن كثير من الآداب القومية التي تحاول الوصول إلى ما يُسمَّى «العالمية»، كما بدأت تظهر له شخصية مستقلة، وأصبح يعبِّر عن آمال وآلام جيل الصابرا وتجربتهم التاريخية مع الاستيطان. وهو كذلك يعالج مشاكل الاستيطان الإسرائيلي بواقعه ومكوناته التي تشتمل أيضاً على ما هو غير يهودي وغير صهيوني.

ومع هذا، يمكن القول إن عبارة «الأدب المكتوب بالعبرية» غير مرادفة تماماً لعبارة «الأدب الإسرائيلي» إذ ليس كل الأدب الإسرائيلي مكتوباً بالعبرية، فلا نعدم أن نجد من يكتب بغير العبرية مثل الكاتبة يئيل ديان التي تكتب بالإنجليزية (ولكنها تمثل الاستثناء وليس القاعدة، تماماً مثل المؤلف العربي أنطون شماس مؤلف رواية **أرابيسك** التي كتبها بالعبرية). وهناك محاولات ترمي إلى تصنيف الكتابات العربية التي كتبها عرب إسرائيل ضمن «الأدب الإسرائيلي».

الأدب الإسرائيلي

«الأدب الإسرائيلي» عبارة تُستخدَم للإشارة إلى «الأدب المكتوب بالعبرية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٦٠» وهي عبارة مرادفة تماماً تقريباً لعبارة «الأدب العبري الحديث».

الآداب المكتوبة بالعبرية حتى العصر الحديث

تُعتبَر أسفار موسى الخمسة أقدم النماذج الأدبية العبرية التي يدل أسلوبها وبناؤها على تأثرها بالتشكيلات الحضارية المجاورة: البابلية والكنعانية والمصرية... إلخ، وجاء بعدها من الناحية التاريخية كتب الحكمة مثل سفر الأمثال وأيوب وسفر الجامعة، والأشعار الدينية مثل المزامير والمراثي، وأشعار الحب والغزل مثل نشيد الأنشاد. ويرى بعض نقاد العهد القديم أن كتب الأنبياء نفسها، رغم توجُّهها الديني والسياسي الواضح، أعمال أدبية يتسم أسلوبها بالجمال.

أما الكتب الدينية التي ظهرت بعد ذلك فمعظمها مكتوب بالعبرية المشوبة بالآرامية، وما كُتب منها بالعبرية ليس ذا قيمة أدبية كبيرة. ويمكن الإشارة إلى بعض الكتب الخفية (أبوكريفا) والفتاوى الدينية وقصائد البيوط، وبعض الكتب الدينية مثل الشولحان عاروخ وكتب القبَّالاه، باعتبارها أعمالاً دينية لا تخلو من القيمة الأدبية، خصوصاً كتب القبَّالاه التي طوَّر كُتَّابها نسقاً رمزيا مركباً يدل على خيال خصب.

ولكن الكتابات السابقة تظل نصوصاً غير أدبية تُوظِّف القيم الجمالية والأدبية من أجل هدف غير أدبي: ديني أو فلسفي أو تأمُّلي. غير أنه ظهر أدب مكتوب بالعبرية بين يهود العالم العربي والعالم الإسلامي، وكانت أهم مراكزه في الأندلس. ولما كان الشعر الغنائي أهم الأغراض الأدبية عند العرب، فقد انعكس هذا على الجماعة اليهودية. فظهر شعر غنائي عبري متأثر في أخيلته

وعروضه بالشعر العربي. ووصل هذا الشعر ذروته في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ومن أهم شعراء العبرية في الحضارة الإسلامية، سليمان بن جبيرول ويهودا اللاوي (هاليفي) وموسى بن عزرا. ومما يجدر ذكره أن أغراض الشعر المكتوب بالعبرية داخل الحضارة العربية لم تكن دينية وإنما كانت دينية ودنيوية، فكانت تضم غزليات وخمريات وفخراً ووصفاً للطبيعة. وقد ظهرت أنواع أدبية أخرى بين يهود الحضارة العربية الإسلامية مثل المقامات والمقالات، ولكن الشعر الغنائي يظل النوع الأدبي الأساسي.

وقد ظهر في إيطاليا شعر غنائي مكتوب بالعبرية إبان عصر النهضة. وكان عمانوئيل بن سولومون (عمانوئيل الرومي) أهم شاعر غنائي، فكتب سوناتات وقصائد هجائية، كما أن قصيدته «جهنم والجنة» متأثرة بقصيدة دانتي **الكوميديا الإلهية**.

الآداب المكتوبة بالعبرية منذ بداية العصر الحديث حتى عام ١٩٦٠

يرى بعض مؤرخي الآداب المكتوبة بالعبرية أن نقطة بداية هذه الآداب في العصر الحديث عام ١٧٤٣، باعتبار أنه العام الذي نشر فيه لوتساتو قصيدة **مدح المستقيمين**. ولكن هناك من يذهب إلى أن البداية الحقيقية إنما كانت في ألمانيا على يد نفتالي هيرتس فيزلي. ومهما يكن الأمر، فإن ما أُنتج من أعمال أدبية مكتوبة بالعبرية منذ عصر النهضة حتى أواخر القرن الثامن عشر لم يكن من الأهمية بمكان، وهو ما يجعل الإشكالية غير ذات موضوع.

وفي تصوُّرنا أن تاريخ هذا الأدب يمتد حتى عام ١٩٦٠ وهو العام الذي تبلورّ فيه الأدب العبري الحديث، أو الأدب الإسرائيلي، وهو الأدب المكتوب بالعبرية ويعبِّر عن تجربة المستوطنين الصهاينة في فلسطين وبخاصة أبنائهم ممن وُلدوا ونشأوا في فلسطين.

ومنذ عصر النهضة في الغرب كانت الأعمال الأدبية المكتوبة بالعبرية، في الأساس، تقليداً واضحاً وصريحاً للأعمال الأدبية الأوربية التي كان يتفاعل معها الأدباء الذين يكتبون بالعبرية في الغرب، وهو أمر مفهوم تماماً، فقد كانوا يعيشون في كنف الحضارة الغربية وكانت لغة البلد الذي يعيشون فيه أول لغة يتعلمونها.

نشأت الآداب المكتوبة بالعبرية في العصر الحديث من خلال تصاعد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية، إذ أدَّى هذا إلى أن الأدباء الذين يكتبون بالعبرية بدأوا يُسقطون الحديث عن القيم المطلقة في الفكر الديني اليهودي. بل إنهم تناولوا الموروث الديني من منظور لاديني، فمنهم من رفضه تماماً، ومنهم من حولّه إلى مادة بحث وأعاد النظر فيه، ومنهم من اعتبره تراثاً شعبياً قومياً. ولذا نجد أن السمة الأساسية للآداب المكتوبة بالعبرية في العصر الحديث التي تُميِّزها عما سبقها من آداب مكتوبة بالعبرية هي توجُّهها نحو الموضوعات الدنيوية وابتعادها عن الموضوعات الدينية (على الأقل داخل التشكيل الحضاري الغربي).

وظهرت في الآداب المكتوب بالعبرية الموضوعات الأساسية المتواترة في الآداب الغربية مثل العودة للطبيعة والبحث عن الذات والاغتراب عنها، وإن كانت هذه الموضوعات قد اكتسبت أحياناً بُعداً خاصاً في الآداب المكتوب بالعبرية، نظراً للتجربة الخاصة لأدباء العبرية باعتبارهم أعضاء في أقليات تواجه مشاكل خاصة لا يواجهها أديب من أعضاء الأغلبية. وعلى سبيل المثال، فإن الأديب الذي يكتب بالعبرية حين يحاول، بتوجُّهه العلماني، التمرد على التراث الديني اليهودي، شأنه في هذا شأن كثير من الأدباء الغربيين، ويقرر العودة إلى تراثه، فإنه يعود لهذا التراث الذي رفضه. ومن هنا ظهرت ازدواجية القبول والرفض.

وبإمكان الدارس أن يعثر لدى الأديب الواحد على أعمال ترفض التراث وتهاجمه بحدة وعلى أعمال أخرى تمجده، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن الآداب الحديثة المكتوبة بالعبرية وُلدت فاقدة الاتجاه. ومن هذا المنظور، يمكن أن نفهم يهودا ليف جوردون في محاربته اليهودية الحاخامية في الوقت نفسه الذي تحدث فيه عن داود وبرزيلاي. وكذلك مابو الرومانسي الذي كتب رواية **محبة صهيون** في الوقت نفسه الذي كَتَب فيه **المنافق**. ومن الطبيعي أيضاً أن يتحولّ موشيه ليلينبلوم داعية التنوير إلى صهيوني رومانسي في مرحلة تالية. وحينما ظهر الفكر الصهيوني، حاول آحاد هعام أن يعثُر على صيغة للتوفيق بين النزعتين الدينية والمعادية للدين، فقال: إن الأدب العبري في العصر الحديث صورة علمانية للتقاليد القديمة. وفي محاولة تبرير هذه الازدواجية الدينية/ اللادينية، في الآداب المكتوبة بالعبرية، حاول النقاد تفسير استلهام التراث على أنه أساساً عملية أدبية حولّت التراث نفسه إلى مادة أدبية. فالأصل الإنساني لهذه المادة هو ما أثار الاهتمام الأدبي لدى أدباء العبرية وليس القداسة الإلهية فيها.

ومما يؤكد أن ما نتحدث عنه هو «آداب مكتوبة بالعبرية» لا «أدب عبري واحد» أن المراكز التي ظهر فيها هذا الأدب متعدِّدة (بل

نجده متعدِّد المراكز داخل الدولة الواحدة)، فلقد ظهر في وقت واحد في كلٍّ من إيطاليا حيث تأثر بالأدب الإيطالي، وألمانيا حيث تأثر بأدب التنوير وأعمال شيلر وجوته، وفي روسيا حيث تأثر بالأدب الفرنسي والأدب الألماني والأدب الروسي في مرحلة لاحقة. ولا يمكن فَهْم الآداب المكتوبة بالعبرية إلا بالعودة للتقاليد الحضارية والأدبية المختلفة التي وُلد من رحمها هذا الأدب وتفاعل معها الأدباء الذين يكتبون بالعبرية.

ويمكن أن نشير إلى ثلاثة مصادر رئيسية للتأثير في الآداب المكتوبة بالعبرية في العصر الحديث، هي: الأدب الروسي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأدب غرب أوربا في بداية القرن العشرين، والأدب الأنجلو ساكسوني الذي أثر أساساً في أدباء العبرية الذين أقاموا في الولايات المتحدة وعلى الأدباء الشبان بعد ذلك في إسرائيل. ومما عمَّق أثر الآداب الأوربية في الآداب المكتوبة بالعبرية أنه، منذ ثمانينيات القرن الماضي، تُرجمت إلى العبرية العديد من أعمال الأدباء الأوربيين، وقام على هذه الترجمات عدد من كبار أدباء العبرية، مثل: فريشمان وبياليك وبرينر وعجنون وجنسين وبارون، وغيرهم. وفي جيل أبراهام شلونسكي وناثان ألترمان وليئة جولدبرج، تحوَّل أسلوب الترجمة إلى مصدر تأثير في الأسلوب النثري في العبرية.

ويمكن أن نقسم مراحل الآداب المكتوبة بالعبرية في العصر الحديث إلى فترات تاريخية على النحو التالي:

١ ـ الآداب المكتوبة بالعبرية في القرن التاسع عشر (التنوير وإرهاصات الفكر الصهيوني).

٢ ـ الآداب المكتوبة بالعبرية في النصف الأول من القرن العشرين (تبنِّي المُثُل الصهيونية).

٣ ـ المرحلة الفلسطينية.

وسنضيف إلى جانب التقسيم التاريخي تقسيماً جغرافيا. فالجماعات اليهودية عاشت خلال هذه الفترات في أماكن متعددة من أوربا، وخضعت هناك لمتغيرات بيئية جعلت التباين بينها واضحاً من حيث الأنماط السلوكية والحياة الفكرية التي تركت آثاراً واضحة في الإنتاج الأدبي المدوَّن في هذه الفترة.

١ ـ الآداب المكتوبة بالعبرية في القرن التاسع عشر:

لا يمكن أن نفهم بداية الآداب الحديثة المكتوبة بالعبرية بمعزل عن المتغيرات التي تعرضت لها أوربا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فحينما انتشر فكر الاستنارة في أرجاء أوربا، انعكس ذلك في حركة تنوير بين أعضاء الجماعات اليهودية حيث انتشرت بينهم بسرعة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مُثُل حركة الاستنارة، وتبلورت بوضوح إبان القرن التاسع عشر.

أ) غرب أوربا:

ظهر في إيطاليا، معقل النهضة الأوربية، الأديب اليهودي موشيه حاييم لوتساتو الذي دفع الآداب المكتوبة بالعبرية نحو الموضوعات العلمانية. ولم يكن لوتساتو الوحيد الذي بَرَز من الشعراء اليهود في ذلك الوقت. فقد برز معه أيضاً شعراء أمثال شبتاي حاييم ماريني الذي ترجم التناسخ عن أبوديوس، ويسرائيل بنيامين باسان الذي ترجم العديد من القصائد الإيطالية إلى العبرية، وغيرهما كثير. ولكن لوتساتو كان يتميَّز عنهم بجمال أسلوبه وتملُّكه ناصية الشعر وسعة الخيال، الأمر الذي مكَّنه من طَرْق موضوعات جمالية اعتُبرت في ذلك الوقت جديدة على الأدب وخرقاً للتقاليد الدينية اليهودية.

وإذا كان موسى مندلسون هو مَنْ وضع الإطار الفكري لحركة الاستنارة، فإن نفتالي هيرتس فيزلي هو أديب التنوير في ألمانيا الذي وسَّع قاعدته بين أعضاء الجماعات اليهودية وأرسى أُسُس فن المقال في الآداب المكتوبة بالعبرية، كما كتب العديد من القصائد.

وعموماً، فإننا نلاحظ أن كثيراً من أعمال أدب التنوير في ألمانيا قد تناولت القصة الدينية، كما يُلاحَظ تكرار استخدام شخصيات موسى وداود وشمشون وشاؤول. وكتب العديد من الأدباء مسرحيات ذات موضوعات توراتية أو مستوحاه من التراث الديني.

وتُعتبَر حركة التنوير في النمسا فرعاً من فروع حركة التنوير في ألمانيا. وقد سار أدباء النمسا على النهج نفسه الذي سار عليه أدباء برلين من استخدام الصورة الشعرية الحديثة واستلهام التراث في أعمالهم. ومن أشهر أدباء التنوير في النمسا، نفتالي هيرتس هومبرج ومناحيم مندل ليفين وشلومو بابنهايم، حيث لعب كلٌّ منهم دوره في إشاعة الاتجاه نحو تجديد الصورة التي اختطها فيزلي. وأشهر أدباء العبرية في النمسا شالوم هاكوهين، ووريث فيزلي، الذي يُعتبَر حلقة الوصل بين الأدب المكتوب بالعبرية في ألمانيا والأدب المكتوب بالعبرية في النمسا.

واستمر أدب التنوير في غرب أوربا حتى عام ١٨٢٠ تقريباً. ورغم الأهمية التي يضفيها عليه مفكرو الصهيونية، فإنه كان فقيراً في قيمته الأدبية. فلا يوجد في هذه الفترة أديب يهودي واحد يمكن أن ترقى أعماله إلى مرتبة الأدب العظيم. وليس فيها عمل أدبي يرقى إلى مرتبة الإنتاج ذي القيمة الإنسانية التي تعيش معه عبر العصور متجاوزاً الأهمية التاريخية. وعموماً، فإن من سمات هذه الفترة أن الإنتاج الأدبي تنوَّع وطَرَق فروعاً ومجالات لم يعرفها من قبل. كما تم فيها تحديث اللغة العبرية إذ تحولَّت من لغة تُتلى في المعابد وتُرتَّل بها الصلوات إلى لغة تُستخدَم استخداماً أدبياً. وكان هذا التحديث اللغوي بدوره نتاجاً مباشراً للحركة الرومانسية في أوربا الغربية.

ومن الأمور التي ينبغي تسجيلها عدم وجود قصة واحدة طويلة باللغة العبرية، بل لم يُترجَم إلى العبرية سوى بعض القصص القصيرة. أما الموضوعات النثرية ذات الطابع القصصي التي نُشرت في الدورية الأدبية العبرية **هامآسيف** (صدرت في ألمانيا عام ١٧٨٤)، فلا ترقى بأية حال إلى مستوى الفن القصصي الرفيع. ومما يسترعي الانتباه أيضاً في هذه الفترة نوعية الأدباء أنفسهم، فكثير من الأثرياء من أعضاء الجماعات اليهودية اندمج تماماً في محيطه الثقافي ووصل به الأمر إلى التحول عن الدين اليهودي وتجنُّب الكتابة العبرية. وكان هؤلاء المندمجون، من أمثال هايني، من كبار الأدباء. ولم يكتب بالعبرية سوى الشخصيات متوسطة الخيال والذكاء. ووضع الآداب المكتوبة بالعبرية يشبه، في هذا، الحركة الصهيونية نفسها، حيث اندمج المثقف اليهودي في الوطن الذي يعيش في كنفه وانخرط في حركاته السياسية، أما أنصاف المثقفين فهم الذين قادوا الحركة الصهيونية.

ب) شرق أوربا:

حينما انتقل الأدب المكتوب بالعبرية من غرب أوربا إلى شرقها، كان اليهود هناك يعيشون في جو مشبَّع بالأفكار الدينية الصوفية القبَّالية المتمثلة في الحسيدية، وساعد هذا على أن يأخذ الأدب هناك طابعاً مختلفاً عما كان عليه في دول الغرب.

كان دعاة التنوير في جاليشيا، من عائلات التجار والأثرياء، ملمين بثقافة بلدهم ولغاتها. وقد ترك هذا أثره في الأدب المكتوب بالعبرية في شرق أوربا. ويمكن اعتبار حاييم دوف جينسبرج أول أدباء التنوير في جاليشيا. وقد قلَّد شعراء العبرية في جاليشيا الشعر الأوربي، وبخاصة الشعر الألماني. ومن أبرز شعراء العبرية، في جاليشيا، ماير هاليفي ليتريس. وقد أرست الحركة الأدبية في جاليشيا أُسُس القصة المكتوبة بالعبرية. ومن روادها يوسف بيرل وإسحق آرثر. وشن كلاهما، في قصصهما الواقعية، الحرب على بعض جوانب حياة الجماعة اليهودية.

أما في روسيا، فلم يكن أديب العبرية في حاجة إلى أن يتحسَّس الطريق، إذ كانت أمامه إنجازات أدباء العبرية في ألمانيا والنمسا وجاليشيا. ومن أبرز شعراء هذه الفترة آدم هاكوهين ليبنسون، كما برز معه أيضاً ابنه ميخا يوسف ليبنسون الذي تأثر بالشعراء الرومانسيين الألمان، فقدَّم أعمالاً استوحى موضوعاتها من التاريخ العبراني القديم، وأسقط على أبطاله القدامى مفاهيمه الحديثة. ويُعَدُّ ليبنسون (الابن) أول شعراء العبرية الذين كتبوا شعراً عن الحب. وأشهر شعراء هذه الفترة يهودا ليف جوردون. أما في مجال الرواية، فتُعتبَر رواية أبراهام مابو **محبة صهيون** (١٨٥٣) أول رواية مكتوبة بالعبرية. وصحيح أنه كانت هناك محاولات كثيرة سبقتها، لكنها جميعاً لم تكن موفقة في تقديم صورة كاملة للحدث الدرامي كما فعل مابو في هذه الرواية.

ويُعتبَر إسحق ليبنسون أبا التنوير في روسيا، حيث ساعدت كتبه ومقالاته في نشر فكر التنوير بين اليهود. وفي ليتوانيا، ظهرت مجموعة من دعاة التنوير تأثروا بأفكاره وأسلوبه في الكتابة، ربما كان أشهرهم مردخاي أهارون جينسبرج.

٢ ـ الآداب المكتوبة بالعبرية في النصف الأول من القرن العشرين:

أ) في أوربا:

بعد عام ١٨٨١ وما صاحبه من أحداث في روسيا، صدرت قوانين مايو التي أدَّت إلى تعثُّر التحديث في روسيا، وبدأت تظهر بوادر ظاهرة جديدة حلت محل التنوير، هي ظاهرة الصهيونية التي اتسم بها أدب النصف الأول من القرن العشرين. ففي ذلك الوقت، ظهر جيل من الشبان على دراية بالحضارة الأوربية، ورؤيتهم أوربية في جوهرها. وكانت النزعة الرومانسية قد بدأت تنحسر، لتحل محلها النزعة الطبيعية والفكر الدارويني والنيتشوي الذي يشكل تصاعداً في النزعة العلمانية، وسادت الأدب الاتجاهات الواقعية والطبيعية. ودعم كل هذه الاتجاهات ظهور الحركات الثورية المختلفة والتحولات الاجتماعية العميقة في المجتمعات الأوربية وبخاصة في الشرق. وتُشكِّل الإمبريالية الخلفية العامة لكل هذه التحولات، فشهدت الساحة اليهودية تبعاً لذلك ازدياد النزعة الصهيونية بين كُتَّاب العبرية، وهو أمر مُتوقَّع باعتبار أن اختيارهم العبرية لغة كتابة كان يتضمن رفضاً لانتمائهم إلى الأوطان المختلفة.

ويُعَدُّ حاييم نحمان بياليك (قبل أن يهاجر إلى فلسطين) من أهم أدباء العبرية في أوربا. وقد كتب أغلب أعماله في الفترة من

١٨٨٢ إلى ١٩١٧. ويتجلى إسهامه في الشكل الأدبي في تحريره الشعر العبري من قيود بلاغة فترة التنوير. كما كانت حساسيته الشعرية أكثر أوربية من أيٍّ من معاصريه، فقدَّم في أعماله المزيد من الأشعار ذات الطابع الأوربي اعتماداً على كم هائل من أشكال الشعر الأوربي مثل: السوناته والبالاد. ومن شعراء هذه الفترة أيضاً زلمان شيناؤور، ويعقوب كاهان، ويعقوب فيخمان، الذين كانت أشعارهم تتَّسم بمحاولة وضع فلسفة شعرية تَصدُر عن الفكر الصهيوني.

ومن أشهر كُتَّاب القصة والمقال في هذه الفترة، ميخا جوزيف بيرديشفسكي الذي حاول في قصصه العديدة، ذات النزعة النيتشوية، أن يجد حلا لمشكلة الإنسان اليهودي في مواجهة المجتمع. ومعظم أبطاله يحاولون الهرب من هويتهم الضيقة ولكنهم عاجزون عن ذلك، ومن ثَمَّ فإنهم يعانون من الضياع والعقم الجسدي والنفسي. واشتهر في هذه الفترة أيضاً القاص بيرتس سمولنسكين، ومندلي موخير سفاريم (شالوم أبراموفيتس) الذي يُعتبَر رائد القصة الواقعية المكتوبة بالعبرية ويُعتبَر في الوقت نفسه رائد القصة في أدب اليديشية. وفي السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، برز كل من بيرتس سمولنسكين وموشيه ليلينبلوم في فن المقال، وذلك بعد أن تحوَّلا عن فكر التنوير وبدأت كتاباتهما تضع البذور الأولى للفكر الصهيوني.

وكما ظهر مندلسون بفلسفته ليوجِّه أدب العبرية توجُّهه الاندماجي في القرن التاسع عشر، ظهر آحاد هعام ليبلور هذا الأدب في القرن العشرين بتوجهاته الصهيونية. فحاول أن يجد صيغة توفيقية بين الدين والحياة حيث كان يرى أن الأمة هي الدين في صيغته الجديدة، وأنها هي المطلق الذي يحل محل المطلق التقليدي أي الخالق. وفي رأى آحاد هعام فإن الأدب العبري يجب أن يُقلِّص حدوده ويقتصر على تناول الموضوعات اليهودية التاريخية، وعلى تناول الإنسان اليهودي في صورته الأدبية. وقد تجلَّى هذا الموقف في مجلته الشهرية **هاشيلوح**. وظهر في تلك المرحلة أيضاً إليعازر بن يهودا الذي يُعتبَر رائد إحياء اللغة العبرية.

ب) في فلسطين:

حينما انتقل مركز الآداب المكتوبة بالعبرية ليمارس نشاطه على أرض فلسطين، لم ينتقل إليها كاستمرار للآداب المكتوبة بالعبرية في أوربا بل كتحوُّل في الصورة والمضمون. وتحتم على كُتَّاب العبرية في فلسطين أن يطرحوا جانباً الموضوعات التقليدية التي تناولتها الآداب المكتوبة بالعبرية حتى ذلك الوقت، وبدأوا يبحثون عن موضوعات جديدة، وصور جديدة تتلاءم مع الوضع الاستيطاني الجديد الذي تسعى الصهيونية إلى تحقيقه. وفي أوربا، كان أديب العبرية يعيش واقعاً غريباً عنه ويتبنى رؤية صهيونية. وطوال هذه الفترة من تاريخ الآداب المكتوبة بالعبرية، كانت فلسطين موضوعاً مُهمَلاً، ولم يكن هناك إلا بعض الأشعار هنا وهناك أو بعض القصص التي تناولت موضوع الحنين تحت تأثير الرومانسية الأدبية الأوربية. ولذا، حينما انتقل بعض أدباء العبرية إلى فلسطين، لم تَعُد الصهيونية مجرد أفكار يتبنونها وإنما حقائق استيطانية تؤثر في حياتهم اليومية. وأظهرت خطوات الاستيطان الصهيوني الأولى في فلسطين مخاوف المستوطنين الجدد من أن تضيع أقدام هذا الجيل في مصير مجهول. وانعكست هذه المخاوف على الصورة الأدبية، وظل هناك سؤال أساسي يلح على وعي الأدباء الذين نزحوا إلى فلسطين: ما صورة الوجود في فلسطين؟ وهل حقاً ستُحدث تلك الثورة (الصهيونية) في داخلهم التحول الوجودي المطلوب؟

وقد أيقن أدباء هذه الفترة أن تغيُّر المكان لا يمكن أن يغيِّر ما يُسمَّى «المصير اليهودي». ولازم هذا التوتر الأدب المكتوب بالعبرية في تلك الفترة، وأدَّى إلى ردود فعل مختلفة تتراوح بين الاقتناع والارتباط بهذ الواقع الجديد من جهة، واليأس والإحباط من جهة أخرى.

أما مصادر التأثير في الأدب المكتوب بالعبرية في فلسطين، فهي كثيرة ومتنوعة. فأدب الهجرة الأولى كان لا يزال يسير في ركاب أدب حركة التنوير، كما أن الواقعية الاجتماعية كانت تبرز بوضوح في أعمال رواد الهجرتين الأولى والثانية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأدب الذي أُنتج في أيام الهجرة الثالثة نحا منحى وضعيا.

وبالإضافة إلى تأثير برينر الذي استمر، لفترة طويلة، عاملاً رئيسيا في توجيه دفة الآداب المكتوبة بالعبرية، وإلى تأثير برديشفسكي بأفكاره الفلسفية عن الفرد والمجموع، نجد أن المهاجرين الجدد جلبوا معهم من روسيا إلى فلسطين دستويفسكي وتشيكوف والأدباء الإسكندنافيين الرومانسيين والجيل الجديد من أدباء ألمانيا. وامتزجت كل هذه التأثيرات مع الميراث الأدبي الذي عاش مع هؤلاء المهاجرين الجدد في اللاوعي ليُخرج في النهاية أدباً يمزج بين الرومانسية والواقعية، وبين الاغتراب ومحاولة الانتماء، حتى إن الدارس ليمكنه أن يلمس في أدب تلك الفترة، وبسهولة، مدى الأزمة النفسية التي عاشها المهاجرون الجدد، أولئك الذين مازالوا يتخبطون في أزمة البحث عن الذات. أما أغلب أدباء الهجرة الثانية

فكانوا على وعي كامل بوضعهم الجديد، وبأنهم مُقتلَعون من أرض أوربية ليعاد زرعهم من جديد في أرض شرقية. ولكن، رغم ما كان لدى بعضهم من حماس للالتقاء مع الأرض الجديدة، فإن أغلبهم كان على وعي كامل بحقيقة أنهم يفتقرون إلى الارتباط بالأرض.

وإذا كان أبناء الهجرة الثانية قد اعتقدوا أن كل الآمال الصهيونية الاستيطانية سوف تتحقق في فلسطين، فإنهم سرعان ما شعروا بأنهم تعلَّقوا بآمال واهية، ولذا عاد الكثير منهم إلى حيث أتوا. أما الذين مكثوا في فلسطين، فأنتجوا أدباً أكد قيم الصهيونية. وخلق التناقض بين مطالب الهجرة الصهيونية وبين الواقع النفسي للمهاجرين، أدباً مركَّباً يتأرجح بين رؤية المهاجرين والواقع المرير الذي اصطدموا به.

وقد أثيرت أخيرا قضية جديدة كل الجدة على الأدب المكتوب بالعبرية والأدب العبري، هي ظهور مجموعة من الكُتَّاب الفلسطينيين العرب الذين يكتبون بالعبرية. ومن أهمهم أنطون شماس صاحب رواية **أرابيسك** (١٩٨٦) التي كتبها بعبرية أدهشت الإسرائيليين. وكان شماس قد كتب ونشر قصائد بالعربية والعبرية في السبعينيات، وفي الفترة نفسها تقريباً بدأت سهام داود وهبي كاتبة وصحفية عربية من حيفا تكتب الشعر بالعبرية أيضاً.

وفي عام ١٩٩٢ كتب الشاعر الفلسطيني توفيق زياد، الذي كان عضواً في الكنيست الإسرائيلي قطعة شعرية على وزن المقامة، وهو لون شعري عبري كان يُقال على غرار المقامة العربية، قصيدة هجا بها لبون زئيفي، الذي كان وزيراً في الحكومة الإسرائيلية ممثلاً أقصى اليمين الصهيوني.

ويعكف الشاعر الفلسطيني العربي نعيم عرايدي على كتابة رواية بالعبرية، وهو الذي عُرف بوصفه شاعراً وكاتباً عربياً في إسرائيل. ولعل هذا الأدب يمكن الإشارة إليه على أنه «أدب عربي مكتوب بالعبرية».

يهودا جوردون (١٨٣٠-١٨٩٢)

شاعر وقاص وناقد كتب بالعبرية، من مواليد ليتوانيا. ويُعَدُّ من أهم دعاة حركة التنوير اليهودية ومن أهم المعبِّرين عنها، ولكن فكره وتمرُّده ضد التراث الديني اليهودي يشيان بما في داخله من بذور الصهيونية. تلقَّى جوردون تعليماً تقليديا في طفولته. وفي سن السابعة عشرة، تلقى تعليماً غربياً حديثاً، ودَرَس عدة لغات (الروسية-الألمانية-البولندية-الفرنسية-الإنجليزية). وتخرَّج في إحدى الكليات التربوية الحكومية عام ١٨٥٣ وعمل مدرساً في مدارس الحكومة.

انضم جوردون إلى جماعة من دعاة حركة التنوير كان من أهم أعضائها شاعر العبرية أبراهام دوف ليبنسون وابنه ميخا. تبنَّى جوردون فكر حركة التنوير تماماً، وشن هجوماً شرساً على التقاليد الدينية، واتهم اليهودية بأنها دين متحجر يحوِّل اليهود إلى شعب من الكهنة، وطالب بإدخال القيم المادية العلمانية في حياة اليهود. وكان مديراً لجمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا، وهي من أهم جمعيات نشر مُثُل حركة التنوير.

كتب جوردون كتابات نثرية عديدة، من بينها مقالات بالعبرية والروسية. ولكن إسهامه الأدبي الأساسي أشعاره. ويُقسِّم النقاد أدبه إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة رومانسية، وأخرى واقعية:

١ - المرحلة الرومانسية: هي المرحلة التي قاد فيها حركة التنوير التي تهدف إلى إصلاح اليهود وتحويلهم إلى شعب منتج. وتتناول قصائده في هذه المرحلة الموضوعات التاريخية والتوراتية وبعض الموضوعات السائدة في عصره، وإن كان تناوله ليس مباشراً أو واقعيا. وتعكس قصيدة «داود وبرزيلاي» (١٨٥١-١٨٥٦) الدعوة إلى العودة للأرض. وتؤكد القصائد الأخرى في هذه المرحلة روح الاعتزاز بالذات القومية التي كان يرى جوردون أنها تنعكس في بعض شخصيات العهد القديم.

وأهم قصائد هذه المرحلة قصيدة «بين أنياب الأسد» (١٨٦٨) التي تحكي قصة سيمون بر جيورا (أحد أبطال التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان) ونهايته المأساوية. وفي هذه القصيدة، ينحي جوردون باللائمة على التعاليم الحاخامية التي أدَّت باليهود إلى رفض الحياة وقبول العبودية، وإلى أن يقبعوا خلف الأسوار ويكونوا موتى في الأرض أحياء في السماء "فتراب كتابكم وأوراق أحاديثكم الجافة غطتكم تماماً وجعلتكم مومياء حية لعدة أجيال".

ومن الواضح أن رومانسية جوردون من النوع النيتشوي الذي يُمجِّد القيم العضوية والحيوية وقيم البطولة. ومن أهم قصائد هذه المرحلة أيضاً قصيدة «استيقظ يا شعبي» (١٨٥٦)، وهي دعوة لليهود أن يتبنوا مُثُل حركة التنوير وأن يخرجوا من ظلمات الجيتو ويتعلموا العبرية وينبذوا اليديشية ويعملوا في الحرف اليدوية المنتجة وفي الصناعة والزراعة. وقد اختتم هذه القصيدة بالكلمة المأثورة التي أصبحت فيما بعد شعاراً لهذه الحركة: "كن يهوديا في بيتك وإنساناً خارجه". ومع هذا، يظل التوجه نحو فكرة الشعب العضوي (فولك)، والكتلة القومية المتماسكة وليس نحو الفرد، على عكس مُثُل حركة الاستنارة التي كانت تتوجه أساساً إلى الفرد. ومن أهم

أعمال هذه الفترة القصص الخرافية الوعظية التي كتبها جوردون على نمط خرافات إيسوب ولافونتين وكريلوف وسخر فيها من معاصريه أعضاء الجماعات اليهودية الذين نبذوا مُثُل حركة التنوير وعاشوا في الظلام (بحسب تصوُّره).

٢ ـ المرحلة الواقعية: يشكل عام ١٨٦٧ نقطة حاسمة في حياة جوردون، إذ وقف إلى جانب ليلينبلوم في دعوته إلى الإصلاح الديني. وكانت قصائده في هذه المرحلة هجوماً مباشراً لا هوادة فيه، في شكل قصص ساخرة، على الخرافات الدينية وانحلال الحياة الدينية الذي أدَّت إليه الشعائر اليهودية التي كان يرى جوردون أنها معادية للحياة. وأهم القصائد «حكاية اليود [الياء] أو أتفه الأشياء» التي أتمها عام ١٨٧٦، وتتناول مأساة امرأة شابة مطلقة لا يمكنها أن تتزوج مرة ثانية لأن الحاخام رفض الاعتراف بقسيمة الطلاق لأن توقيع زوجها ينقصه حرف اليود (أي حرف الياء وهو أصغر الحروف في اللغة العبرية)، ولذا فهي تظل مطلقة (عجوناه) لا يحق لها الزواج. أما قصيدة «اليوسفان بن سيمون»، فهي هجوم على القهال ورئيسه الذي تآمر وأرسل أحد دعاة حركة التنوير، ويُسمَّى يوسف ابن سيمون، إلى السجن بدلاً من لص قاتل يحمل الاسم نفسه.

ومن قصائد هذه المرحلة قصيدة «الملك صدقياهو في السجن»، وهي مونولوج درامي يعبِّر عن احتجاج آخر ملوك يهودا ضد روحانية الأنبياء التي قضت على حياة اليهود العادية والطبيعية وعلى وجودهم السياسي. وهذا الموضوع كامن ومتكرر وأساسي في الأدبيات الصهيونية ذات الطابع النيتشوي.

وقد أخذت الموضوعات الصهيونية تظهر على السطح بشكل أكثر تزايداً ووضوحاً، ففي قصيدة «لمن أعمل» يُلاحظ الشاعر أن مُثُل حركة التنوير أدَّت إلى اندماج الشبان اليهود في مجتمعهم. وهذا تناقُض كامن في حركة التنوير العبرية، فهي تدعو إلى الاندماج في المجتمع، وفي الوقت نفسه تدعو إلى بعث العبرية التي تعزل المتحدثين بها عن مجتمعهم. ولذا، نجد أن هذا الداعية للتنوير يقول "من بوسعه أن يخبرني عن المستقبل، لعلي آخر شعراء صهيون ولعلك آخر القراء".

وبعد تعثُّر التحديث في روسيا عام ١٨٨١، نبذ جوردون مُثُل الاندماج ولكنه لم يتبن فكرة هجرة اليهود. وفي قصيدته «أختي روحاماه» (١٨٨٢)، يدعو جوردون اليهود إلى الهجرة ولكنه يرى أن الهجرة يجب أن تكون إلى الولايات المتحدة لا إلى فلسطين العثمانية. وقد وصل جوردون إلى صيغة صهيونية تشبه الصيغة الآحاد هعامية "لن يتحقق خلاصنا إلا بعد خلاصنا الروحي". وقد أشار آحاد هعام إلى دَينه الفكري لجوردون. وجوردون هو الذي أشاع عبارة "يابيت يعقوب هلم فلنسلك في نور الرب" (أشعياء٢/ ٥) التي استخدمها في مقال له عام ١٨٦٦ ونادى فيها بأن يصبح اليهود جزءاً من أوربا. وقد أصبحت فيما بعد شعاراً لأعضاء جماعة البيلو الذين استوطنوا في فلسطين. ولعل هذا يبيِّن التناقض الكامن في مُثُل حركة التنوير اليهودية.

وكتب جوردون نقداً لكتاب بنسكر **الانعتاق الذاتي**، ولكنه كان نقداً متعاطفاً، كما أنه عبَّر عن حماسه لاستعمار إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢ إذ رأى أن هذا الاحتلال سيزيد أهمية فلسطين كممر إلى مصر ومركز للتجارة الآسيوية "وقد يجذب الحكم البريطاني كثيراً من إخواننا في الدياسبورا ليستقروا في فلسطين ليحرثوا أرضها ويبنوا السكك الحديدية ويحيوا التجارة والفنون والحرف". ونادى بإنشاء جمعية من أجل الذاهبين إلى فلسطين، أي أنه تبنى المشروع الصهيوني بكل أبعاده. ورغم أهمية جوردون كشاعر يكتب بالعبرية، فإن كثيراً من النقاد يميلون إلى القول بأنه لم يكن شاعراً وأنه كان ناظماً للقصائد ومهيجاً اجتماعيا بالدرجة الأولى. وقد ترجم جوردون كثيراً من الأشعار الغربية إلى العبرية، وهو يُعَد من مجددي الشعر المكتوب بالعبرية.

ميخا بيرديشفسكي (١٨٦٥-١٩٢١)

كاتب روسي مفكر صهيوني رومانتيكي كوني النزعة حلولي الرؤية كان يكتب باليديشية والعبرية. وُلد في مدينة ميدزيبوز الروسية، مَهْد الحسيدية في القرن الثامن عشر، ونشأ في عائلة عريقة في التدين، وكان أبوه يعمل حاخاماً، وفي سن السابعة عشرة كان بيرديشفسكي قد تلقَّى تعليماً تلموديا كاملاً وألم بكل تعاليم القبَّالاه والحسيدية.

حاول في كتاباته الأولى أن يفعل ما وصفه فيما بعد بأنه المستحيل: التوفيق بين التقاليد الحاخامية وحركة الاستنارة اليهودية. وفي عام ١٨٩٠، انتقل إلى أوربا الغربية ليتلقى شيئاً من التعليم العلماني (المحرَّم). وأثرت فيه هذه الفترة القصيرة ووسمته بسماتها. ثم بدأ بعد ذلك في الترحال بين برن وبرلين حيث قضى أكثر فترات حياته إبداعاً.

كتب بيرديشفسكي (اسمه الأدبي المستعار «بين جوريون») كثيراً من المقالات النقدية والقصص القصيرة والطويلة العبرية واليديشية. وتأثر بيرديشفسكي بأفكار شوبنهور بشأن علاقة الفرد بالجماعة، وتأثر أيضاً بأفكار نيتشه وبخاصة أفكاره بشأن السوبرمان

أو الفرد الممتاز المتميِّز الذي يرتفع على الجماعة والتقاليد، كما تبع نيتشه في إصراره على "إعادة تقييم جميع القيم" وإخضاعها للنقد الكامل. لكل هذا نجد أن بيرديشفسكي يهاجم التقاليد اليهودية الروحية في خضوعها وخنوعها وفي تكبيلها الإنسان بالطقوس الميتة. كما هاجم بعض أدباء العبرية (بياليك وكلاوزنر) واليديشية (مندلي موخير سيفاريم) ولكنه شجع بعض الأدباء الجدد مثل حاييم برنر ممن يشاركونه رؤيته للعالم. وقد هاجم بيرديشفسكي وبشدة جماعة أحباء صهيون وهرتزل وآحاد هعام لأن الأخير أكد أهمية ما سماه «القيم الروحية». كتب بيرديشفسكي أكثر من ١٥٠ قصة بالعبرية وكتب بعض القصص باليديشية. وتصوِّر قصصه تمزُّق اليهودي في العصر الحديث بين تقاليد اليهودية وروح الحضارة الغربية، والشتتل هو الخلفية الأساسية لعديد من هذه القصص التي تتضمن نماذج بشرية مختلفة تجابه مشاكل يهودية محدَّدة مثل التقاليد الخانقة والزيجات الاضطرارية المرتبة. وتعالج القصص الدوافع الإنسانية لهذه الشخصيات في تصارُعها مع كل هذه العوائق والحواجز. وتدور معظم قصصه حول موضوعين أساسيين:

١ ـ الحياة اليهودية في المدن اليهودية الصغيرة في آخر القرن التاسع عشر التي يقسمها دائماً نهر يفصل حي اليهود عن حي الأغيار.

٢ ـ حياة الطلبة اليهود من شرق أوربا في وسط أوربا وغربها وإحساسهم بالانبهار والاغتراب.

ويمكن القول بأن هذين الموضوعين أهم موضوعين في حياة معظم المفكرين الصهاينة، بل معظم المفكرين والأدباء الذين تناولوا الموضوع اليهودي. وثمة صراع يدور بين الخير والشر وبين الجمال والقبح ينتهي بهزيمة الخير والجمال. فالشتتل ـ ساحة هذا الصراع ـ وقع في قبضة قوة عمياء قاسية. وتوجد في روايته أنماط إنسانية متكررة: امرأة ذكية رقيقة متزوجة من إنسان فظ خشن ـ رجل لا قسمات له ولا ملامح ـ طالب متمرد على أوضاع مجتمعه ـ أشخاص يقضون حياتهم يعانون من الزيجات المُرتَّبة ـ شخصيات متمردة على التراث اليهودي مثل المهرطقين ومدَّعي المشيحانية.

جمع بيرديشفسكي بعض الأساطير الحسيدية، واهتمامه بالحسيدية رغم تمرُّده على التراث اليهودي يَصلُح مدخلاً لفهم فكره الصهيوني. فهو يعيد تقييم اليهودية ويذهب إلى أن اليهودية القديمة إنما هي في واقع الأمر العبادة اليسرائيلية القربانية الوثنية، التي تدور حول عبادة الطبيعة والكون والأصنام، وأن الطبقة التوحيدية (التوراتية) دخيلة على هذه العقيدة. وفي كتابه **سيناء وجيرزيم**، يذهب بيرديشفسكي إلى أن الجبل المقدَّس ليس جبل سيناء، وأن مؤسس العقيدة اليسرائيلية يوشع بن نون وليس موسى. فكأن بيرديشفسكي يطالب بالعودة إلى الوثنية الحلولية القديمة كطريقة للتحرر من اليهودية الحاخامية. فالبعث القومي بعث كوني وثني حلولي، وعلى اليهود أن يرفضوا عبوديتهم الظاهرة التي حوَّلتهم إلى أمة من الرجال الذين نضبت قواهم الطبيعية واستوُعبوا في يهودية مجردة خالية من الحياة. عليهم العودة إلى يهودية جديدة: يهودية تضع اليهودي قبل اليهودية وإسرائيل قبل التوراة، وتعيش في وئام مع الطبيعة، وتتغنى بنشيد الأنشاد الذي يحتفي بالجسد ونشيد داود الذي يتغنى بالطبيعة السامية التي لا حدود لها، الطبيعة التي هي منبع كل شيء، منبع كل ما يحيا وروحه. هذه الوثنية الجديدة ترى أن السيف جوهر الحياة، بل تجسيدها في أعرض خطوطها المادية والجوهرية إذ حل السيف محل التوراة. وهذه العودة للطبيعة هي برنامج بيرديشفسكي لإصلاح اليهود واليهودية، وعلى حد قوله فإن الشعب المقدَّس سيصبح الشعب الحيّ.

ويمكننا أن نسمي صهيونية بيرديشفسكي «الصهيونية الطبيعية» أو «الصهيونية الكونية» أو «الصهيونية العضوية»، باعتبار أن الإنسان اليهودي سيستمد هويته وكينونته من خلال العودة للطبيعة والالتحام بها وبفقدان الذات فيها. وصهيونية بيرديشفسكي لا تختلف كثيراً في بنيتها عن صهيونية جوش إيمونيم الحلولية العضوية، فكلاهما جعل الأرض موضع الحلول وأهم عناصر الثالوث الحلولي. ولعل هذا التشابه بين المتمرد بيرديشفسكي ومعظم الصهاينة يُفسِّر سرَّ حماسه للحسيدية وقصصها. ويمكننا أن نقول إن بيرديشفسكي لا يعارض الحلولية التقليدية وإنما يعارض سكونها وحسب، وهو سكون اضطرت إليه بعد فشل كثير من الحركات المشيحانية فتحوَّلت النزعة المشيحانية العدمية المدمرة إلى توجُّه نفسي وغوص في الذات، عدميته وتدميريته كانت موجودة بالقوة، ثم تفجرت في الدولة الصهيونية وأصبحت توجد بالفعل. وقد صدرت أعمال بيرديشفسكي الكاملة في ٢٠ جزءاً (١٩٢١ ـ ١٩٢٥).

حاييم بياليك (١٨٧٣-١٩٣٤)

أهم شاعر روسي يهودي كتب بالعبرية في العصر الحديث. وُلد لأبوين فقيرين، وكان أبوه عالماً دينيا وتاجر أخشاب فقيراً. وقد عمل الشاعر نفسه بعض الوقت كتاجر أخشاب، وتزوج ابنة رجل يعمل بالمهنة نفسها. قام جده بتربيته بعد وفاة أبيه، فدرس في مدرسة تلمودية، لكنه قرأ، في الوقت نفسه، العديد من كتب حركة التنوير اليهودية سرا. رحل بياليك إلى فولوجين، مركز الحركة الحسيدية، إذ

تصوَّر خطأً أن المدرسة التلمودية في هذه المدينة تجمع بين الدراسات العلمانية والدراسات الدينية، وبقي في هذه المدرسة ثمانية عشر شهراً، وهناك بدأ في الكتابة الأدبية، والتحق بجماعة أحباء صهيون. وفي عام ١٨٩١، ذهب إلى أوديسا التي كانت آنذاك مركزاً للبعث الثقافي الروسي اليهودي حيث تعرَّف إلى آحاد هعام الذي شجعه على الكتابة والنشر. هاجر بياليك من روسيا السوفيتية عام ١٩٢١، ومكث ثلاث سنوات في برلين، ثم هاجر بعدئذ إلى تل أبيب. وقد درس بياليك أدب العبرية التقليدية، ولكنه في الوقت نفسه قرأ واستوعب الكثير من الأعمال الأدبية الأوربية الروسية والألمانية، وبخاصة أعمال المرحلة الرومانتيكية.

ولعل الموضوع الأساسي في أعمال بياليك الشد والجذب بين القديم والجديد والبحث عن مخرَج من الأزمة المستحكمة. وقد عبَّر الشاعر عن تطلعاته الصهيونية من خلال ثلاث فكرات أساسية: فكرة العودة إلى الأرض والطبيعة، وفكرة الماشيَّح المخلِّص، وفكرة نبذ حركة الاستنارة اليهودية وحركة الاندماج في الشعوب الأخرى. وقد استخدم الشاعر أدوات وقوالب تعبيرية متنوعة، فكتب قصائد في وصف الطبيعة وقصائد مناسبات وقصائد ذات طابع أسطوري. ويتميَّز شعره بالنبرة الغاضبة وبتواتر صور الهلاك والثأر والصور المرتبطة بآخر الأيام. من أهم قصائده قصيدتا «حقاً إن الشعب لشعب» و«في مدينة الذبح» حيث يتمرد على خنوع اليهود أمام هجوم الروس عليهم، خصوصاً في كيشينيف، وكذلك قصيدتا «إلى الهاجاداه» و«على أعتاب بيت هامدراش» حيث يتأوه من أجل الماضي اليهودي الذي ولَّى ولم يَعُد له وجود.

وقد كتب بياليك قصائد للأطفال وترجم بعض الأعمال الأدبية العالمية إلى العبرية. وكانت له نشاطات ثقافية بين أدباء التجمع الاستيطاني الصهيوني. وبعد عام ١٩٣٤، أُنشئت في إسرائيل جائزة أدبية تحمل اسمه. وقد نُشرت أعماله الكاملة بالعبرية، كما تُرجمت معظم قصائده إلى الإنجليزية والفرنسية والعربية.

شاؤول تشرنحوفسكي (١٨٧٥-١٩٤٣)

شاعر روسي يهودي يكتب بالعبرية، ويُعدُّ هو وبياليك قطبي الأدب المكتوب بالعبرية في روسيا. وتشرنحوفسكي ابن لأبوين متدينين تأثرا بأدب التنوير اليهودي، ولكنهما انضما إلى حركة أحباء صهيون. وقد أرسل الأبوان ابنهما إلى مدرسة يهودية حيث تلقى تعليماً تقليديا ودروساً في العبرية، ثم أرسلاه بعد ذلك إلى مدرسة تجارية.

ولكن الشاعر، مع هذا، قرأ عديداً من الكتب الأدبية والفكرية العالمية. ومن بين قراءاته، نجد قصص جول فيرن وألكسندر دوماس والإلياذة والأوديسة وأعمال جيته ونيتشه، جنباً إلى جنب مع التوراة والتلمود والكتب الدينية اليهودية. درس تشرنحوفسكي الطب في ألمانيا، وتزوج سيدة روسية مسيحية من أصل أرستقراطي تقية ورعة متمسكة بأهداب دينها وتعاليمه. وبعد أن انتهى من دراسته، توجه إلى روسيا حيث مارس مهنته هناك بعد طول عناء. ولكن وضعه الطبقي تدهور، بنشوب الثورة البلشفية، وهو ما اضطره إلى الهجرة. وقد حاول تشرنحوفسكي جاهداً الحصول على وظيفة طبيب في فلسطين، ولكنه لم يفلح، فهاجر إلى برلين. وتصف قصيدته المعنونة «الماء الآسن» الآلام الروحية والجسدية لمثقف فقد مكانته بسبب النظام الاجتماعي الجديد، ولكنه يظل مع هذا يحلم بالماضي السعيد. ولم يستقر تشرنحوفسكي في فلسطين (عام ١٩٣١) إلا بعد أن حصل على وظيفة طبيب. وهناك أيَّد الغزوة الصهيونية، كما أسهم في الدعاية الصهيونية بشكل واضح. ولكنه، رغم ذلك، كانت تمر به لحظات يخامره فيها الشك فيما يفعل على نحو ما صوَّر في قصيدة «ليس لي شيء يخصني».

ويمكن تقسيم شعر تشرنحوفسكي إلى ثلاث نبرات أساسية: أولاً، النبرة العلمانية الحلولية الوثنية المتمردة، حيث يطرح الشاعر التراث اليهودي التقليدي جانباً ويتوحد بالوجود والكون والطبيعة ويحلم ببعث يهودي وبظهور شعب لا ينوء تحت نير الغيبيات، وتعبِّر عن ذلك قصيدتا «إلى الشمس» و«إني أعتقد». ثانياً، النبرة اليهودية القَبَلية، حيث يعبِّر تشرنحوفسكي عن إحساسه اليهودي بالانفصال عن الأغيار وبالعداء الشديد تجاههم على نحو ما يظهر في قصيدتي «باروخ المغنتسي» و«فليكن هذا ثأرنا». ثالثاً، النبرة الغيبية اللادينية، حيث يحاول الشاعر أن يمزج بين النبرتين السابقتين وينجح في أن يقدم رؤية صهيونية علمانية عقلانية المظهر غيبية المخبر، كما في قصيدة «أمام تمثال أبوللو». تأثر تشرنحوفسكي بأفكار المفكر الصهيوني بيرديشفسكي، ونحا منحى كنعانيا ونادى بقومية إسرائيلية جديدة منفصلة عن قومية يهود المنفى.

وقد كتب تشرنحوفسكي قصصاً ومقالات وقصائد للأطفال، مقلداً كثيراً من الأشكال الأدبية الغربية من السوناتا إلى الملحمة إلى الخمريات الأناكرونية الإغريقية، وترجم كثيراً من الأشعار الغربية إلى العبرية. وهو يُعَدُّ من المجددين في الشعر المكتوب بالعبرية.

جوزيف برينر (١٨٨١-١٩٢١)

مؤلف روسي يهودي يكتب بالعبرية واليديشية، تأثر بأعمال بيرديشفسكي وبرؤيته للحياة وبأعمال مندلي موخير سيفاريم. وتأثر، شأنه شأن كثير من المؤلفين الذين يكتبون بالعبرية في عصره، بأعمال دوستويفسكي وتولستوي ونيتشه. وُلد في أوكرانيا، ودرس في إحدى المدارس التلمودية العليا، ثم عمل كَكاتب (سوفير) حيث كان يكتب رقائق التوراة والتمائم، وانضم إلى حزب البوند. وقد كتب بعض القصص من أهمها روايته القصيرة **في الشتاء** (١٩٠٢) التي تُعَدُّ أول أعماله الروائية المهمة.

عاش برينر بعد عام ١٩٠٠ في وارسو، وخدم في الجيش الروسي بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٤، ولكنه هرب إلى لندن حيث نشط في جماعة عمال صهيون، ثم بدأ العمل بالطباعة والنشر والتأليف بعض الوقت ثم استقر في فلسطين حيث قام بتدريس العبرية في يافا عام ١٩١٥، ثم اضطر إلى تركها. ولكنه عاد مع القوات البريطانية واستمر في نشاطاته الصهيونية العديدة التي كان من أهمها المساهمة في تأسيس الهستدروت. وقد قُتل عام ١٩٢١ أثناء بعض أعمال المقاومة العربية ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني.

وُصفت أعمال برينر الروائية بأنها انعكاس مباشر للحياة ولحياته هو على وجه التحديد، ولذا نجد أن الراوي فيها هو الشخص الأول (المتكلم). ومهما اختلفت الأسماء والشخصيات الأساسية فهم في نهاية الأمر برينر نفسه. وتأخذ أعماله الأدبية الأشكال التالية:

١ - القصة الوثائقية التي تتبع منهج التعاقب التاريخي.

٢ - المذكرات التي تم تحريرها وتحويرها.

٣ - الراوي الذي يرى الأحداث بعينه ولكنه لا يشارك فيها.

وتُقدِّم كثير من شخصيات برينر اعترافاتها وتكشف خبايا نفسها بنفسها، وهي شخصيات تُغيِّر مكان إقامتها لتكتشف أن هذا لا يجدي فتيلاً إذ أن الخلل في الداخل، ولذا فهي تنتهي بالإحساس بالمرارة تجاه نفسها وتجاه العالم. وكثير من أبطاله أبطال مضادون، بعضهم قد يبحث عن معنى لحياته، أو عن هويته والبعض الآخر يستسلم تماماً لقدره (من أهم أعماله رواية **من هنا وهناك** وهي مستوحاة من حياة جوردون الذي تتضمن شخصيته قدراً من الإيجابية والتفاؤل).

هاجم برينر آحاد هعام وكان محور الصراع مفهوم المنفى. فبرينر كان يعبِّر عن وجهة النظر الاستيطانية العمالية بكل شراستها وتبلورها وتطرفها ذاهباً إلى أن يهود العالم كيان لابد من تصفيته، ومهمة اليهود الاعتراف بوضاعتهم منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا وبكل نقائص شخصيتهم. فاليهود يحيون بأية طريقة، حتى كالنمل أو الكلاب؛ يحب كل يهودي نفسه ويتكيف مع الأوضاع ويذل نفسه من أجل البقاء. والتاريخ اليهودي تاريخ طويل من الذل والمهانة. ثم يجيء بعد هذا آحاد هعام، المتحدث باسم الإثنية اليهودية (إثنية يهود المنفى)، ويكيل الثناء للتاريخ المليء بالشهداء والوضعاء؛ وذلك التاريخ الذي تشكلت فيه الهوية اليهودية من خلال الاضطهاد والطرد، حتى ظهر في آخر الأمر شعب يحيا بدون مجتمع، خارج أي مجتمع على الإطلاق، "شعب هائم شاذ معذب لا هدف لحياته ولا استقلال لها". وبعد هذه الصورة السلبية ليهود العالم، لم يبق سوى الخروج. ولذا، يقترح برينر إنشاء مجتمع جديد حتى يمكن تطبيع الشخصية اليهودية من داخله: "مستعمرات للعمال هذه ثورتنا الوحيدة". وقد نُشرت أعمال برينر الكاملة في ثمانية أجزاء.

١٢ - لهجات أعضاء الجماعات اليهودية ولغاتهم

اللغات اليهودية

«اللغات اليهودية» اصطلاح تستخدمه بعض المراجع الصهيونية (أو المتأثرة بها) للإشارة إلى اللغات واللهجات والرطانات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وهو اصطلاح غير دقيق بالمرة، فالجماعات اليهودية تتحدث اللغات نفسها التي يتحدث بها أغلبية أعضاء المجتمعات التي يعيش اليهود في كنفها، وإذا كان ثمة اختلافات، فهي عادةً اختلافات طفيفة تجعل طريقة حديثهم مجرد لهجة أو رطانة.

لغات الجماعات اليهودية ولهجاتها ورطاناتها

لم يتحدث اليهود اللغة التي تُعرَف بالعبرية إلا لفترة قصيرة جدا، فلغة الآباء (إبراهيم وإسحق ويعقوب) (٢١٠٠-١٢٠ ق.م) كانت لهجة سامية قريبة من العربية أو الآرامية، أما العبرية فكانت لهجة من اللهجات الكنعانية ولم يتخذها اليهود لساناً لهم إلا بعد إقامتهم في كنعان (ابتداءً من ١٢٥٠ ق.م). ويبدو أن العبرية اختفت بوصفها لغة الحديث بين اليهود مع التهجير البابلي (٥٦٧ ق.م) (وثمة نظرية تذهب إلى أن الآرامية كانت لغة المسئولين في بلاط

ملوك مملكة يهودا الجنوبية). ورغم أنه بقي بعض اليهود في فلسطين يتحدثون العبرية، إلا أن الآرامية حلت تماماً محل العبرية نحو ٢٥٠ ق.م. أما اللغات التي كان يستخدمها أعضاء الجماعات اليهودية في تعاملهم مع الآخرين بعد انتشارهم في العالم، فكانت في معظم الأحيان لغة الوطن الذي استقروا فيه وانتموا إليه، أو إحدى اللغات الدولية السائدة. فكان يهود بابل يتحدثون الآرامية، لغة التجارة الدولية والإدارة في الشرق الأدنى القديم. وكان يهود الإسكندرية في العصر الهيليني يتحدثون اليونانية، كما أن يهود فلسطين كانوا يتكلمون إما الآرامية أو اليونانية (جاء في العهد الجديد أن القديس بولس تحدَّث للناس في فلسطين باليونانية ثم تحدَّث معهم بالآرامية بعد ذلك). وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، كان يهود الإمبراطورية الشرقية يتحدثون لغة هذه الإمبراطورية، أي اليونانية (وظلوا يتحدثون بها حتى الفتح العثماني). أما يهود الإمبراطورية الغربية وأفريقيا وغرب أوربا، فكانوا يتحدثون اللاتينية. ويبدو أن بعض يهود الإمبراطورية الإيرانية كانوا يتحدثون باللهجات الفارسية المختلفة (ففي سفر إستير ورد أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يتحدثون بالفارسية مع الفرس بدون صعوبة)، وكان يهود العالم العربي يتحدثون العربية في العالم العربي، وهكذا. وفي بعض الأحيان، كان أعضاء الجماعات اليهودية يستخدمون، في التعامل فيما بينهم، رطانات مكوَّنة من لغة الوطن أو لغة المنشأ بعد أن يُدخلوا عليها بضع كلمات ومُصطلَحات عبرية أو آرامية أو ألفاظاً من أية لغة أخرى كانوا يتحدثون بها في البلد الذي كانوا فيه قبل هجرتهم. فيهود الأندلس، على سبيل المثال، كانوا يتحدثون رطانة تُسمَّى «العربية اليهودية»، ويهود إسبانيا كانوا يتحدثون اللادينو. أما يهود أوربا الشرقية، فكانوا يتحدثون اليديشية، وهي رطانة ألمانية تحولت في مرحلة لاحقة إلى ما يشبه اللغة المستقلة للحديث والكتابة. وفي القرن السادس عشر، يبدو أن معظم يهود العالم كانوا يتحدثون إما اليديشية (في أوربا) أو اللادينو (في الدولة العثمانية). وكثيراً ما كان أعضاء الجماعات اليهودية يستخدمون الحروف العبرية في كتابة هذه الرطانات في المعاملات اليومية، مثل الفواتير التجارية أو غير ذلك من أمور الدنيا. ولم يكتب أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الرطانات أدباً ذا بال، لا في الماضي ولا في العصر الحديث. وربما يمكن استثناء اليديشية من ذلك، فنظراً لأنها عمرت طويلاً (نسبياً) وأصبحت، مع القرن التاسع عشر، لغة مستقلة يتحدث بها معظم يهود العالم الغربي الذين كانوا مُركَّزين في روسيا وبولندا، فكُتب بها أدب شعبي للنساء والعامة في بادئ الأمر، ثم كُتبت بها أعمال أدبية بعضها يرقى إلى مستوى الأعمال الجادة. ولكن هذه المرحلة دامت فترة قصيرة جداً بسبب اختفاء اليديشية.

وفي محاولة تفسير وجود لغة أو رطانة أو لهجة خاصة بأعضاء الجماعات اليهودية، يمكن القول بأن كثيراً من الجماعات اليهودية شكلت جماعات وظيفية وسيطة تضطلع بدور التجارة والربا والأعمال الشبيهة الأخرى، ومثل هذه الجماعات كانت في العادة تربطها بالمجتمع علاقة موضوعية، الأمر الذي تطلَّب خَلْق مسافة بينها وبين المجتمع. واللغة الخاصة تزيد من غربة الجماعة الوظيفية وتزيد تجرُّدها وتحفظ لها عزلتها وهو ما يُيسِّر اضطلاعها بدورها الخاص في المجتمع، فجماعات الغجر تتحدث لغة خاصة بهم تماماً كما كان المماليك يتحدثون الشركسية.

أما بالنسبة للغة التأليف الديني، فإن العهد القديم كُتب بعبرية العهد القديم التي اختفت كلغة مُستخدَمة بعد التهجير البابلي، بينما لغة التلمود الآرامية بالأساس. ومع هذا، ظلت العبرية لغة المؤلفات الدينية في معظم الأحيان وليس كلها، فوضع هليل وشماي مؤلفاتهما بالعبرية، في حين وضع المفكرون اليهود، في الإسكندرية في العصر الهيليني، مؤلفاتهم الدينية والدنيوية باليونانية. وكان موسى بن ميمون يكتب بالعربية، أما راشي، فكان يكتب بالعبرية، وكُتب معظم أدب القبَّالاه الصوفي بالآرامية. وظل هذا الوضع قائماً حتى القرن التاسع عشر، حين بدأ المفكرون اليهود يضعون مؤلفاتهم الدينية بلغة الوطن الأم وحسب. فكتب موسى مندلسون بالألمانية، وكذا كل المفكرين اليهود الإصلاحيين ومارتن بوبر. ويكتب كثير من المفكرين اليهود الآن، مثل جيكوب نيوزنر في الولايات المتحدة، مؤلفاتهم الدينية بالإنجليزية، بل إن لغة الصلاة عند اليهود الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين أصبحت الإنجليزية، ولا يستخدم العبرية سوى الأرثوذكس.

أما الكتابات التي تقع خارج نطاق التفكير الديني من أدب وفلسفة وعلم، التي وضعها مؤلفون يهود، وهم قلة نادرة حتى القرن التاسع عشر، فكانت لغتها منذ البداية لغة الوطن الأم. ففيلون السكندري وضع مؤلفاته باليونانية، وموسى بن ميمون كان يستخدم العربية، وكذلك معظم الشعراء اليهود في الأندلس. أما في العصور الوسطى في الغرب، فلم يظهر مؤلفون يهود يُعتد بهم حتى القرن السابع عشر حيث ظهر إسبينوزا، المنشق على اليهودية، الذي كتب مؤلفاته باللاتينية شأنه شأن كثير من الكُتَّاب الغربيين في عصره. وغني عن البيان أن المؤلفات غير الدينية للمؤلفين من أعضاء

الجماعات اليهودية تُكتب كلها في الوقت الحاضر بلغة الوطن الذي يعيشون في كنفه. فيعقوب صنوع (الكاتب المصري اليهودي) كتب بالعربية، وهايني وماركس بالألمانية، وبروست بالفرنسية، ودزرائيلي وسول بيلو بالإنجليزية، بل إن معظم كلاسيكيات الفكر الصهيوني كُتبت بالألمانية أو الإنجليزية. وكان هرتزل لا يعرف العبرية ولا أبجديتها، لكنه حاول في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) أن يُدخل البهجة على قلوب الحاخامات الأرثوذكس فنطق ببعض كلمات عبرية كُتبت له بالأبجدية اللاتينية، وكتب فيما بعد في مذكراته ملاحظة يقول فيها: "إن محاولتي هذه سببت لي مشقة كبيرة تفوق كل متاعبي في الإعداد للمؤتمر". وقد كان هرتزل ونوردو وكثير من المفكرين الصهاينة الأوائل، لا يؤمنون بوجود ما يُسمَّى الثقافة اليهودية. وقد سخر هرتزل من هذا المفهوم بصوت عال حينما طُرح لأول مرة في أحد المؤتمرات. ولم يكن هرتزل يتصورّ أن تكون العبرية لغة الوطن القومي الذي يقترحه، إذ كان يرى أن كل مستوطن يهودي سيتحدث بلغته. وفي السنين الأولى من الاستيطان نشبت حرب سُمِّيت «معركة اللغة» بين دعاة استخدام الألمانية من أتباع الاستعمار الألماني ودعاة استخدام العبرية من يهود شرق أوربا التابعين للاستعمار الإنجليزي.

ولغة يهود العالم الأساسية الآن الإنجليزية التي يتحدث بها يهود الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، وهؤلاء يشكلون الأغلبية العظمى من يهود العالم (وهذا يعود إلى ارتباط الجماعات اليهودية في العصر الحديث بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي بشكل عام، والأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص) ثم تأتي العبرية لغةً يهود إسرائيل في المرتبة التالية، أما اليديشية فقد اختفت تماماً تقريباً في الولايات المتحدة، وهي آخذة في الاختفاء في روسيا. واللادينو لم يَعُد لها أثر.

ويُقال إن تعدد لغات الجماعات اليهودية في شرق أوربا كان سبباً أساسياً في أزمة الهوية التي جابهوها، إذ كانت لغتهم المقدَّسة العبرية، ولغتهم القانونية الآرامية (لغة التلمود)، ولغة الحديث اليديشية، ولغة المثل الأعلى الاندماجي الألمانية أو البولندية أو الروسية وأحياناً الأوكرانية، ولغة المثل الأعلى الصهيوني العبرية كلغة حديث لا كلغة عبادة. وكان يقابل هذه الانقسامات اللغوية انقسام طبقي واجتماعي. وساعدت كل هذه الانقسامات على تصعيد الأزمة.

ومع بدايات العصر الحديث وخروج اليهود من الجيتو، وبعد تحديثهم وانتهاء تميزهم الوظيفي، بدأت تختفي هذه الرطانات إذ طالبت الدولة القومية الحديثة أعضاء الأقليات بأن يكون انتماؤهم القومي لأوطانهم كاملاً. وتعرضت اليديشية بالذات لهجوم شديد، وخصوصاً أن التجار اليهود كانوا يستخدمونها وهو ما كان يُسهِّل لهم غش الآخرين. وتظل الصورة اللغوية العامة بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وفيما يختص بالحديث ولغة المعاملات اليومية، هي أنهم من ناحية الأساس يتحدثون لغة الموطن الذي كانوا يعيشون في كنفه.

اللغات السامية

يضم الفرع السامي من اللغات عدداً من اللغات القديمة والحديثة. واللغات السامية من أقدم اللغات التي وصلت إلينا مدوَّنة، إذ دُوِّنت الأكادية عام ٢٥٠٠ ق.م، ودُوِّنت الأجريتية نحو عام ١٤٠٠ ق.م. وأقرب المجموعات اللغوية الأخرى إليها هي المجموعة الحامية، حتى أن بعض العلماء يجعلونها مجموعة واحدة: سامية حامية.

وثمة نواحي تشابه بين اللغات السامية في الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. أما من الناحية الصوتية، فإننا نجد أن اللغات السامية تضم مجموعة حروف الحلق (مثل: العين والحاء والغين والخاء) وهي موجودة في العربية، ومنها تداخلت في العبرية. ومن الناحية الصرفية، نجد أن اللغات السامية تتَّسم بوجود الفعل الثلاثي مصدراً أساسيا للتصريف (لبعضها أصل ذو حرفين). وتصريف الفعل يتبع الأسلوب نفسه، ويتم اشتقاق معظم الكلمات بتغيير الصيغ التي يتوقف عليها نوع الدلالة. ومن ناحية الجنس النحوي، تُصنَّف الصيغ في اللغات السامية إلى مذكر ومؤنث، ومن ناحية العدد إلى مفرد ومثنى وجمع. ويوجد زمنان للفعل هما الماضي (التام وغير التام) والمضارع. وقد نشأ من اشتقاق الكلمات من أصل «فعل» أن سادت ما يمكن تسميته «العقلية الفعلية»، إن صح هذا التعبير، على اللغات السامية، أي أن لأغلب الكلمات في هذه اللغات مظهراً فعليا. وحتى الأسماء الجامدة والألفاظ الدخيلة التي تسربت من اللغات الأعجمية إليها، اكتسبت هي الأخرى هذه الصفة. والفعل في اللغات السامية هو كل شيء، فمنه تتكون الجملة. ولم يخضع الفعل للاسم والضمير، بل نجد الضمير مسنداً إلى الفعل ومرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً.

وفي جميع اللغات السامية نجد تشابهاً بين الكلمات الأساسية كالضمائر الشخصية والأسماء التي تدل على القرابة والأعداد وأعضاء الجسم الرئيسية والنبات والحيوان:

إثيوبية (جعزية)	أكادية	آرامية	عبرية	عربية
أحادو	إيدو	حاد	أحاد	أحد (واحد)
شلاش	شلاشو	تلات	شالوش	ثلاثة
أم	أم	أم (إما)	أم	أم

ويرى بعض العلماء أنه كانت هناك لغة سامية واحدة تفرعت عنها كل هذه اللغات، وأن العربية أقرب اللغات الحية إلى هذه السامية الأصل.

وتُقسَّم اللغات السامية إلى قسمين أساسيين:

١ - السامية الشمالية: وتشمل الآشورية/ البابلية، واللهجات الكنعانية المختلفة (العبرية والمؤابية والفينيقية واللهجات الآرامية والقرطاجية).

٢ - أما السامية الجنوبية: فتشمل العربية الشمالية بلهجاتها المختلفة، والعربية الجنوبية، والإثيوبية.

وقد اشتبكت اللغات السامية في صراع بعضها مع بعض. وأول صراع حدث فيما بينها كان صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية. فقد اشتبكت الآرامية في صراع مع الأكادية أولاً وقضت عليها في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، ثم صرعت العبرية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وتغلبت على الفينيقية (في آسيا) في القرن الأول قبل الميلاد. وكان الصراع الثاني صراع العربية مع أخواتها. فاشتبكت في صراع مع اللغات اليمنية القديمة وقضت عليها قبيل الإسلام. ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انعزالها وانزواؤها على نجاتها، فظلت محتفظة بلهجتها القديمة حتى العصر الحاضر. ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلها في الشرق والغرب وانتزعتها منها معقلاً معقلاً حتى تم لها القضاء عليها نحو القرن الثامن الميلادي. ولم يفلت من هذا المصير إلا بعض مناطق منعزلة لا تزال تتكلم اللهجة الآرامية إلى العصر الحاضر. وامتد أثر العربية إلى الأمم الآرية والطورانية التي اعتنقت الدين الإسلامي (الفرس والهنود والأتراك... إلخ)، فاحتلت لديها مكانة مقدَّسة سامية، وتركت آثاراً عميقة في كثير من لغاتها، فاتسعت بذلك مناطق نفوذها حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بها نحو خمسمائة مليون من سكان المعمورة.

الأسماء العبرية واليهودية

كان للأسماء والأعلام في الحضارات القديمة دلالة وفحوى ليس لها ما يوازيها في عصرنا الحديث، فالاسم كان يُعَدُّ ممثلاً لجوهر صاحبه، ولذلك كان الإنسان يُعطى اسماً جديداً حينما يدخل مرحلة جديدة من حياته. وفي العهد القديم، نجد أن بعض الشخصيات كانت تغيِّر أسماءها عقب مرورها بتجربة مهمة. فبعد مصارعة الرب، يتحول اسم «يعقوب» إلى «يسرائيل». وفي الواقع فإن تغيير الاسم يُضفي دلالة خاصة على صاحبه.

وليست كل أسماء أعضاء الجماعات اليهودية من أصل عبري، فالاسم «إستير» مثلاً مأخوذ من «عشتروت» زوجة بعل، واسم «موسى» نفسه ليس عبريا ويُقال إنه اختصار لكلمة مصرية قديمة تعني «ابن». وقد اتخذ اليهود أسماء بابلية بعد التهجير من بابل، مثل «مردخاي»، من اسم الإله البابلي «مردوك». وكثير من قادة اليهود يحملون أسماء آرامية مثل «بركوخبا»، ويونانية مثل «أنتيجون»، ولاتينية مثل «يوسيفوس فلافيوس»، وعربية مثل «موسى بن ميمون» و«سعيد بن يوسف الفيومي» (الذي يُشار إليه في الكتابات العبرية باسم «سعديا جاؤون» أي «الفقيه سعيد»).

ويؤكد التلمود أن اسم الشخص يؤثر في مستقبله، كما يرى الحاخامات أن اليهودي الفاضل يجب ألا يُغيِّر اسمه العبري خارج فلسطين. وأيُّ يهودي يحمل اسم «كوهين»، أو أيا من أسماء الكهانة الأخرى، يُعتبَر من نسل كهنة المعبد وتسري عليه محظورات معيَّنة متصلة بالزواج والطلاق.

ولم يكن من عادة أعضاء الجماعات اليهودية، قبل الإعتاق، أن يحملوا اسم أسرة، فكان الشخص يُسمَّى فلان بن فلان، «يعقوب بن إسحق» مثلاً، وأحياناً كان يضاف اسم المهنة حتى يتم التمييز بين فرد وآخر في الجماعة نفسها، مثل «صندلر» أي «صانع الأحذية» في العبرية، و«جولدشميت» في الألمانية أي الصائغ. ولكن، بظهور حركة الإعتاق، أسقط كثير من اليهود أسماءهم العبرية، كما طلبت إليهم الحكومات أن يحملوا اسم أسرة بشكل ثابت، مثل بقية المواطنين، حتى يمكن الاحتفاظ بسجلات رسمية عنهم، ويمكن فرض الضرائب عليهم وتجنيدهم. وقد قاوم أعضاء الجماعات اليهودية من التقليديين هذا الاتجاه، ولكنهم أذعنوا في نهاية الأمر. وكان اليهود يُسمَّون أحياناً باسم المدن، مثل: «أوبنهايمر» أي «من مدينة أوبنهايم» على نهر الراين، أو «شابيرو»، أي «من مدينة شبير». أو كانوا يُسمَّون بأسماء ذات دلالات جميلة مثل «بلومنفيلد» أي «حقل الزهور»، أو «روزنبرج»، أي «جبل الورد»، أو بترجمة أسمائهم من العبرية إلى لغة بلدهم، فالاسم «موسى بن مندل» يصير «موسى مندلسون» (فكلمة «سون» تعني «ابن»). كما أنهم كانوا يُسمَّون باسم الكاهن، مثل: «كوهين»

و«كاتس» و«ليفي» و«هارون». وقد تمت ألمنة هذه الأسماء فأصبحت على التوالي: «كوهينشتاين» و«كاتسمان» و«ليفينتال» و«أرونشتين». وفي الحالات النادرة، كان أعضاء الجماعات اليهودية يحملون اسم عائلة، كما هو الحال مع العائلات اليهودية العريقة مثل «روتشيلد». ويحمل بعض أعضاء الجماعات اليهودية أسماء غير لائقة لأن الموظف الحكومي المسئول عن تسميتهم منحهم إياها بسبب عدم رضاه عنهم مثل: «جروس» أي «ضخم»، أو «كلاين»، أي «صغير»، أو «كالف»، أي «العجل»، أو «برونفن» أي «براندي»، أو «شفارتز» أي «الأسود» أو «العبد». ويستخدم الإشكناز هذه الكلمة الأخير للإشارة إلى يهود الشرق في العالمين العربي والإسلامي.

ومع تزايُد معدلات الاندماج في العالم الغربي، بدأ يهود العالم الغربي يبتعدون عن الأسماء اليهودية أو ذات النبرة اليهودية. وقد بدأت هذه العملية بإدغام الاسم فالاسم «أبراهام» يصبح «برام»، و«سولومونسون» (أي ابن سليمان) أصبح «سولس»، و«صموئيل» أصبح «زيميل». وأحياناً أخرى، كان الاسم يُعلمَن بتبسيط طريقة كتابته لتبسيط نُطقه، وذلك حينما يهاجر عضو الجماعة اليهودي من بلد لآخر. وأحياناً كان ثمة صعوبات تواجه أعضاء الجماعات اليهودية في تغيير اسم الأسرة، لأن هذا كان يستلزم إجراءات قانونية معقدة، ومن ثَمَّ قامت الأغلبية العظمى من يهود الغرب بتسمية أبنائهم بأسماء غير يهودية. وقد توقف يهود ألمانيا، قبل الحرب العالمية الثانية، عن اختيار أسماء توراتية. ومع هذا، كانوا يختارون أسماء تبدأ بحروف تُذكِّر المرء بشخصية توراتية، فبدلاً من «موسى» كانوا يُسمُّون «موريتز»، وبدلاً من «سيمون» كانوا يقولون «سيجفريد»، وبدلاً من «موردخاي» «مارتن»، وبدلاً من «إسحق» «إيزيدور». وكان من المفهوم أن هذه أسماء يهودية، ولذا كان المسيحيون يتحاشونها. وتكررت الظاهرة في الولايات المتحدة في الفترة نفسها، فبدلاً من «إسرائيل» قالوا «إرفنج»، وبدلاً من «موسى» قالوا «مورتيمر» أو «موريتز» أو «موريس» أو «ماكس» أو حتى «مارفن» أو «مري»، وكان من النادر أن يتسمَّى غير اليهود بهذه الأسماء. ولكن كل هذه الظواهر اختفت مع الحرب العالمية الثانية، ومع تزايُد معدلات العلمنة. وفي الوقت الحاضر، لا يختار أعضاء الجماعات اليهودية أية أسماء خاصة، ولم تَعُد أسماؤهم تختلف عن بقية أسماء أعضاء المجتمع، بل أحياناً نجد يهوداً يُسمُّون «كريستين»، و«كريستوفر»، وهي أسماء لها دلالة مسيحية واضحة. وقد تسمَّى يهود الدونمه المتخفون بأسماء عربية إسلامية يتعاملون بها مع أعضاء المجتمع التركي، ولكنهم تسمُّوا أيضاً بأسماء عبرية يتعاملون بها فيما بينهم.

والأسماء التي يتسمَّى بها أعضاء الجماعات اليهودية متنوعة وعديدة، ولذا يَصعُب تحديد هوية الشخص بناء على اسمه. وحسب بعض التقاليد الدينية، كان يتحتم على اليهودي (خارج فلسطين) أن يتخذ لنفسه اسماً عبريا إلى جانب اسمه الأصلي إن لم يكن عبريا، وذلك لاستخدامه في الشعائر الدينية وليوضع على شاهد قبره بعد موته. وكان على اليهود، أثناء حكم النازي، أن يستخدموا أسماء عبرية، وهي عادة بُعثت أيضاً في إسرائيل حيث ينص القانون على أن من واجب الشخصيات المهمة في الدولة أن تغيِّر أسماءها، ومن ثَمَّ فقد غيَّر ديفيد جرين اسمه إلى «ديفيد بن جوريون»، أي «ابن الشبل». ومع هذا، يُلاحَظ أن ثمة اتجاه ظهر مؤخراً، خصوصاً بين الإشكناز، للاحتفاظ بالأسماء الأصلية (اليديشية). وقد سقط الحظر حينما رفض يوسف سياشاتوفر (مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية) أن يُعبرن اسمه في السبعينيات، وأيَّده في ذلك الكاتب الإسرائيلي عاموس آلون (الذي كان قد عبرن اسمه من قبل).

وتمتد عبرنة الأسماء إلى المدن والقرى العربية التي تغزوها القوات الإسرائيلية، فأم الرشراش أصبحت «إيلات»، وشرم الشيخ أصبحت «أوفير»، والضفة الغربية يُشار إليها باسم «يهودا والسامرة»، وفلسطين تذوب وتختفي لتصبح «إسرائيل»، أو «إرتس يسرائيل». ولا يختلف هذا كثيراً عن محاولات الدول الاستعمارية فرض أسماء جديدة على الأراضي التي تفتحها فيُعاد تسمية «زمبابوي» باسم «روديسيا» نسبة إلى سيسل روديس، ويُفرَض على «إندونسيا» اسم «جزر الهند الهولندية».

معركة اللغة

«معركة اللغة» نشبت في المستوطنات الصهيونية في فلسطين تعبيراً عن تعدُّد الانتماءات والهويات اليهودية اللغوية والحضارية، وعن الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى (فرنسا وإنجلترا وألمانيا) من أجل فرض هوية ثقافية على المستوطَن الصهيوني وضمان بقائه في حيز نفوذها. فاحتفظت مدارس الأليانس باللغة الفرنسية، وأبقت المدارس الإنجليزية (اليهودية) على لغة الوطن الأصلي، وظلت العبرية فيها جميعاً لغة ثانية. وحينما تصاعدت الحملة بين المستوطنين من أجل تبنِّي العبرية، أوصت الحكومة الألمانية المستوطنين اليهود من الألمان (عام ١٩١٣) بأن يحتفظوا بلغتهم، وأن يحاولوا اتخاذ قرار من اتحاد المدرسين مفاده عدم وجود لغة رسمية

للمستوطنين. وحاول هؤلاء جعل اللغة الألمانية لغة الدراسة في التخنيون وفي بقية مدارس جمعية عزرا الألمانية، ولكن النصر كان لدعاة العبرية في نهاية الأمر.

اللغة الآرامية

«الآرامية» فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية وأقربها إلى العبرية وتُسمَّى أحياناً الكلدانية. ولكن العلماء يتجهون الآن إلى الرأي القائل بأن لغة الكلدانيين لم تكن الآرامية بل كانت لغة مستقلة تُسمَّى «الكلدانية». بدأت الآرامية في الانتشار في الشرق الأدنى القديم مع ظهور الأقوام الآرامية في الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد. وفي سوريا، بدأ ظهور الوثائق المكتوبة بالآرامية في القرن السابع قبل الميلاد، ثم انتشرت الآرامية في منطقة وادي الرافدين إلى أن رسخت بعد ذلك في بابل حيث حلت محل اللغة البابلية الآشورية، وأصبحت في عهد دارا الأكبر (٥٢١-٤٨٦ ق. م) اللغة الرسمية (الإدارية) بين مقاطعات الإمبراطورية الفارسية، كما أصبحت لغة التجارة الدولية ولغة النشاطات اليومية والدبلوماسية في الشرق الأدنى، وكان يتحدث بها كثير من الجماعات غير المتجانسة عنصرياً أو حضارياً في المنطقة. وقد دُوِّنت الآرامية بخط هجائي بسيط كان من أسباب الإقبال على استخدامها. وبلغت الآرامية أوج سلطانها في الفترة من ٣٠٠ ق. م حتى ٦٥٠م حين حلت العربية محلها.

بدأ اليهود يتحدثون الآرامية أثناء وجودهم في بابل حتى حلت محل العبرية تماماً مع عودتهم منها (وإن كان هناك رأي يذهب إلى أن المسئولين في البلاط الملكي في مملكة يهودا الجنوبية كانوا يتحدثون الآرامية). وثمة إشارة في سفر نحميا (٨/٨) إلى هذا، إذ كان لابد أن يُفسَّر الكتاب المقدَّس بالآرامية. وقد كُتب بها معظم التلمود (البابلي والفلسطيني)، وبعض الصلوات مثل صلوات عيد الفصح والقاديش ودعاء كل النذور، وكذلك بعض أجزاء العهد القديم. والآرامية لغة قريبة من العبرية في المفردات كما أنها أثرت فيها تأثيراً عميقاً، وإن كانت القواعد النحوية في الآرامية أقرب إلى قواعد اللغة العربية. وقد أخذ العبرانيون حروفهم الهجائية، المعروفة بالخط المربع أو الخط الآشوري، عن الآرامية بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد. وكان الآراميون أنفسهم قد اقتبسوا الهجائية الفينيقية ونشروها في العالم. وفَقَدت الآرامية كثيراً من هيمنتها في العصر الهيليني، حتى يُقال إن أغلبية اليهود كانت تتحدث اليونانية. وكان الحاخام يهودا الناسي يشير إلى الآرامية بأنها «سورسي» (أي سوري) وهي لفظة تحقير، وقال إن «سورسي» (أي الآرامي) لا علاقة له بأرض إسرائيل، وأن المرء اليهودي يجب أن يتحدث إما العبرية أو اليونانية. ويشبه موقفه هذا موقف دعاة التنوير بين اليهود، في أواخر القرن الثامن عشر تجاه اليديشية. وباختفاء الآرامية، حلت العربية محلها وأصبحت لغة يهود الشرق الأوسط جميعاً.

وتُقسَّم الآرامية إلى:

١ـ الآرامية القديمة (حتى عام ٧٠٠٠ ق. م). وقد وُجدت في النقوش القديمة في سوريا.

٢ـ الآرامية الرسمية (حتى عام ٣٠٠ ق. م). وقد وُجدت في النقوش القديمة في منطقة سوريا والعراق وكتب بها على برديات جزيرة إلفنتاين. ولم تكن هذه الآرامية اللغة الإدارية للإمبراطورية الفارسية وحسب، ولكن اللغة التي كانت تتفاهم بها الأقوام المختلفة في الشرق الأدنى القديم.

٣ـ الآرامية الوسطى (منذ حوالي عام ٣٠٠ ق. م). وتشمل الآرامية الوسطى الآرامية الغربية والآرامية الشرقية. أما الآرامية الغربية، فتشمل الآرامية الكتابية وهي لغة الأجزاء الآرامية في العهد القديم، وهي لغة التلمود الأورشليمي أو الفلسطيني وآرامية الترجوم (ترجمة يوناثان)، واللغة التي تُرجمت بها أسفار موسى الخمسة السامرية (الآرامية السامرية)، والآرامية النبطية، وآرامية تَدمُر (بالميرا). وأما الآرامية الشرقية، فتشمل اللغة السريانية وآرامية التلمود البابلي ومخطوطات البحر الميت.

٤ـ الآرامية الحديثة أو المتأخرة.

ويعتقد بعض الحاخامات أن الآرامية لغة مقدَّسة مثل العبرية، لكن بعضهم كان يرى أن الملائكة لا تفهم إلا العبرية وحدها. والآرامية لغة الصوفية اليهودية لأن كتاب الزوهار مكتوب بها. ولا يزال بعض المسيحيين النسطوريين، في القرى والمقاطعات الكردية في سوريا والعراق وتركيا، يتحدثون الآرامية التي أصبحت خليطاً من الآرامية والعبرية واليونانية، كما يتحدث بها أيضاً بعض يهود تلك البلاد.

اللغة اليديشية

اليديشية ليست لغة أساساً، وتُسمَّى كذلك تجاوزاً، فهي لهجة ألمانية تُكتَب بحروف عبرية، وهي لغة اليهود الإشكناز في شرق أوربا منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث (ومن ثَمَّ أطلقنا عليهم «يهود اليديشية»). وثمة نمط لغوي يتكرر بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، فهم عادةً يتحدثون لغة البلد الذي

يعيشون فيه بعد أن تصطبغ بصبغة عبرية خفيفة إذ تدخل مفرداتها هذه اللغة. ثم ينتقل أعضاء الجماعة من وطنهم هذا حاملين معهم لهجتهم، ويحتفظون بها حتى بعد أن تختفي في البلد الأصلي. واليديشية تنتمي إلى هذا النمط.

ظهرت اللغة اليديشية في الفترة بين عامي ١٠٠٠ و١٣٥٠، حين تبنَّى أعضاء الجماعة اليهودية ألمانية العصور الوسطى، أي لغة الشعب الذي كانوا يعيشون بين ظهرانيه، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا في حاجة إلى مُصطلَح خاص بهم للتعبير عن نمط حياتهم الخاصة كجماعة وظيفية وسيطة تعمل في حرف خاصة مثل التجارة والربا. ولذلك، استخدموا بعض مفردات العبرية والآرامية (وهما لغتا التراث الديني اليهودي، إذ إن التلمود مكتوب بالآرامية)، خصوصاً وأن نواة الجماعة اليهودية في ألمانيا جاءت من شمال فرنسا وشمال إيطاليا حيث كانوا يتحدثون رطانة فرنسية خاصة بهم أُطلق عليها اسم «لعز». ومن هنا، نشأ ذلك الخليط اللغوي الذي أُطلق عليه في بادئ الأمر «يوديش دويتش»، أي «ألماني يهودي»، ولكن الكلمة حُرِّفت وأصبحت «يديش تايتش»، ثم أصبح يطلق عليها «يديش»، ونترجمها نحن فنقول «اليديشية». ولم تكن هناك في بادئ الأمر أية فروق بين ألمانية العصور الوسطى واليديش تايتش، إلا في بضع كلمات وعبارات عبرية والمزيد من التحريف الصوتي في نطق الكلمات الألمانية أو العبرية.

وحينما هاجرت أعداد من يهود ألمانيا إلى أوربا الشرقية، حملوا لهجتهم الألمانية معهم. وحينما استقر أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا، تم توطينهم ضمن العناصر الألمانية التجارية، أي أنهم وُطِّنوا كألمان. ولم يتبنوا اللغة البولندية في وطنهم السلافي الجديد نظراً لتفوق ألمانيا حضاريا وبسبب التنظيم الإقطاعي الصارم الذي عزلهم عن بقية المجتمع. وكان يهود بولندا، في القرن السادس عشر، يشيرون إلى اللغة التي يتحدثون بها على أنها «الألمانية». وفي البيئة الجديدة، دخلت كلمات وتراكيب لغوية سلافية على اليديشية، ساهمت في إبعادها عن الأصل الألماني وفي استقلالها نسبياً عن الألمانية. ومع هذا، ظلت «اللغة اليديشية» لهجة ألمانية ساهمت في الحفاظ على التوجه «الألماني» ليهود شرق أوربا.

وقد تحدى آرثر كوستلر هذا التفسير لبدايات اللغة اليديشية، فبيَّن استناداً إلى آراء اللغويين أنه لا توجد في اليديشية آثار لغوية مشتقة من الألمانية المنقولة إلى فرنسا، بل يقرر أن المناطق الأكثر توسطاً في ألمانيا الغربية (فيما حول فرانكفورت) لم تشارك في تطور اللغة اليديشية، فالتأثير الغالب على اليديشية هو لهجات ألمانيا الوسطى الشرقية التي كانت مُستعمَلة، حتى القرن الخامس عشر، كلغة حديث في مناطق الألب النمساوية والبافارية، أي المناطق الشرقية من ألمانيا والمجاورة للحزام السلافي لأوربا الشرقية. وهو يَخلُص من ذلك إلى رفض الأصول الفرنسية الراينية ليهود شرق أوربا، ويعود بتلك الأصول إلى هجرة يهود الخزر من الإستبس إلى أن استقروا في بولندا. ولكن كيف أصبحت اليديشية لغتهم؟ يرى كوستلر أن الثقافة الألمانية كانت ثقافة النخبة في بولندا وثقافة البورجوازية المتعلمة، كما كانت لغتهم الألمانية (أو على وجه الدقة لهجات ألمانيا الوسطى الشرقية)، فكان التاجر اليهودي يتحدث ألمانية ركيكة مع عملائه الألمان، وبولندية ركيكة مع الأقنان، ويستخدم العبرية في المعبد اليهودي، ثم يخلطها كلها في بيته. وبالتالي، فقد هؤلاء اليهود لغتهم الأصلية (الخزرية) وتحدثوا هذه اليديشية. وهو ليس بالأمر الاستثنائي، فالمهاجرون عادةً ما يفقدون لغتهم في الجيل الثالث، كما حدث ليهود شرق أوربا الذين استقروا في الولايات المتحدة.

ولكن أيا كان الأمر الخاص بأصول اليديشية، فإن تركيبها اللفظي هو على النحو التالي: ٧٠٪ كلمات ألمانية، و٢٠٪ عبرية وآرامية، و١٠٪ بولندية وسلافية. وقد دخلتها في السنين الأخيرة كلمات إنجليزية (بعد الهجرة إلى الولايات المتحدة)، وكلمات عبرية (بعد قيام إسرائيل) للتعبير عن المجالات الدينية والفكرية. والبنية النحوية في اليديشية بنية ألمانية رغم احتوائها على مفردات غير ألمانية، ومن هنا تصنيفنا لها بأنها «لهجة».

ويُقسِّم علماء اللغة تطوُّر اليديشية إلى أربعة مراحل:

نهاية المرحلة المبكرة: حتى عام ١٢٥٠

اليديشية القديمة: من ١٢٥٠ إلى ١٥٠٠

اليديشية الوسطى: من ١٥٠٠ إلى ١٧٠٠

اليديشية الحديثة: من ١٧٥٠ حتى الآن

وتنقسم اليديشية إلى يديشية غربية (اختفت تماماً تقريباً)، ويديشية شرقية تقسم بدورها إلى لهجات شمالية (في ليتوانيا) وأخرى جنوبية (في بولندا وأوكرانيا ورومانيا). وتظهر مختلف اللهجات اليديشية في الولايات المتحدة، لكن النطق القياسي هو نطق لهجة اليديشية الشمالية، وقد تم توحيد طريقة التهجي. وظهر أدب يديشي شفاهي ومكتوب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كما ظهر أدب يديشي مطبوع في القرن السادس عشر. واليديشية لغة الجيتو، فكان الأطفال اليهود لا يتعلمون سواها ـ إلا ما تيسر من العبرية ـ وذلك بسبب اعتقاد ساد بين يهود الجيتو مفاده أن من ينظر

إلى الهجائية غير العبرية تُحرَق عيناه. وقد أحاطت باليديشية في نهاية الأمر هالة من القداسة، بما يعبِّر عن التيار الحلولي القومي في اليهودية حيث كان يُعتَقد أن أفكار التلمود المركبة لا يمكن تفسيرها إلا بهذه اللغة. ومع هذا، كانت اليديشية في بداية الأمر لغة العوام والسوقة والنساء - أي لغة الشارع - وكان الأدب المكتوب بها موجَّهاً إلى العوام. وظلت العبرية، ومعها الآرامية، لغة النخبة المثقفة، ولغة الأدبيات التي يكتبها ويقرؤها أعضاء هذه النخبة.

أصبحت اليديشية لغة التجارة والأعمال الربوية، وبذلك أصبحت من دعائم عزلة يهود شرق أوربا. ومن المعروف أن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة التجارية في المجتمعات التقليدية عادةً ما يتحدثون لغة أو لهجة مغايرة عن لغة البلد المضيف، حتى يتسنى لهم الاستمرار في عملهم، ويُقال إن التجار اليهود استفادوا من معرفتهم باليديشية وجهل الآخرين بها في غشهم وخداعهم. كما أنها أصبحت لغة المجرمين والمهربين. ولذا، كانت الحكومات الأوربية (في القرن التاسع عشر) تُحرِّم على اليهود استخدامها في المعاملات التجارية. ولقد صدر قرار يُحرِّم على يهود ألمانيا استخدامها ويفرض عليهم أن يكتبوا الوثائق التجارية بالألمانية. كما أن لويس بونابرت طالب اليهود الفرنسيين بأن يفعلوا الشيء نفسه. وطالب دعاة حركة التنوير، مع بدايتها في ألمانيا، بأن يتخلى أعضاء الجماعة اليهودية عن انفصالهم اللغوي وأن يتحدثوا لغة الوطن الألماني الأصلية. وكان فرايدلندر (الزعيم الألماني اليهودي الإصلاحي) يؤكد أن اللغة اليديشية هي المسئولة عن فساد الدين والأخلاق بين اليهود.

ولما كان كثير من القوادين العاملين في تجارة الرقيق الأبيض في أوربا (بل وفي العالم) في الفترة من ١٨٨٠ حتى عام ١٩٣٠ من اليهود الذين أتوا من منطقة الاستيطان في روسيا (التي كانت تُعَدُّ أكبر مصدر للبغايا في العالم) فإن اليديشية كانت من أهم اللغات التي تُدار بها هذه التجارة في تلك الفترة، إلى أن قضى البوليس الدولي بمساعدة أعضاء الجماعات اليهودية عليها.

ورغم الهجوم على اليديشية، كُتب لها الاستمرار حتى أصبحت «لغة قومية» ليهود اليديشية، أي يهود شرق أوربا، ونسلهم ممن انتشروا في معظم أوربا والولايات المتحدة. وإذا كانت العبرية هي «اللسان المقدَّس»، فاليديشية هي «لغة الأم». وقد تبناها بعض دعاة التنوير في روسيا بوصفها لغة قومية بدلاً من الروسية، ووضعوا بها مؤلفاتهم، وكانوا لا يختلفون في هذا عن أعضاء الأقليات والقوميات الأخرى. ولكن هذا وحده لا يكفي لتفسير ظاهرة استمرار اليديشية وازدهارها بين العقدين الأخيرين من القرن الماضي والعقدين الأولين من القرن الحالي. ولتفسير هذه الظاهرة، علينا العودة إلى الظروف التاريخية والاجتماعية المحيطة بأعضاء الجماعة اليهودية في شرق أوربا حيث كانوا يشكلون كتلة بشرية ضخمة (بلغت نحو ٨٠٪ من جملة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) تتحدث اليديشية. وقد كانت هذه الكتلة الضخمة، في روسيا وبولندا، هي التي تُصدِّر اليهود المتحدثين باليديشية، إذ كان المهاجرون يحملونها معهم من شرق أوربا ويكوِّنون جيوباً تتحدث بها. وكانت ألمانيا، المجاورة لجاليشيا وبولندا، الممر بين الجيب الروسي البولندي اليديشي من جهة وبقية العالم من جهة أخرى، ولذا كانت تستوطن فيها أعداد كبيرة منهم. ولكن أكبر كتلة يهودية يديشية مهاجرة كانت قد انتقلت إلى الولايات المتحدة التي أصبحت في أواخر القرن التاسع عشر المركز الثاني لليديشية في العالم.

وقد كُتب لليديشية الاستمرار بعض الوقت في كلٍّ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في الفترة الزمنية نفسها. وكان ذلك لأسباب مختلفة؛ منها تعثُّر التحديث في شرق أوربا (روسيا وبولندا)، وتوقف عمليات الدمج الثقافي واللغوي، وتوقف الحراك الاجتماعي، الأمر الذي زاد عزلة أعضاء الجماعة اليهودية والتفافهم حول أنفسهم، خصوصاً وأنهم كان بوسعهم (ككتلة بشرية ضخمة) أن يتعاملوا مع بعضهم البعض في كثير من مناحي الحياة دون الحاجة إلى الاحتكاك بأعضاء الأغلبية (ولم يكن هناك في الواقع ما يُغري بمحاولة الاحتكاك أو الاندماج). أما في الولايات المتحدة، فإن يهود اليديشية أصبحوا أيضاً كتلة ضخمة (ما يزيد على المليونين) في فترة زمنية وجيزة. وقد قوبلوا بعداوة من اليهود الألمان والسفارد الذين كانوا لا يفهمون هذه الرطانة، ومن المجتمع ككل كما هو الحال في معظم هذه الأحوال. وكانوا كجماعة مهاجرة، يستمدون شيئاً من الإحساس بالأمان والطمأنينة بالالتفاف حول أنفسهم وعن طريق تكوين جمعيات وجماعات لمساعدة بعضهم البعض في الشئون المالية والاجتماعية وفي عملية التكيف مع المجتمع الجديد. ولذا، كانت اليديشية، منذ عام ١٨٨١ حتى العشرينيات، لغة الشارع اليهودي والفلكلور اليهودي عند معظم يهود العالم (روسيا وبولندا ورومانيا وألمانيا وأمريكا وجنوب أفريقيا والأرجنتين وغيرها من بلاد أمريكا اللاتينية) الذين تعود أصولهم إلى الجيب الروسي البولندي ويهود اليديشية. ويُقال إن عدد المتحدثين باليديشية كان نحو عشرة ملايين يهودي، أي معظم يهود العالم.

وازدهر، في هذه الفترة، الأدب اليديشي والسينما اليديشية والصحافة اليديشية. وبلغت الثقافة اليديشية ذروتها في كل من

الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، فكان يوجد في الولايات المتحدة أحد عشر مسرحاً يديشياً في نيويورك وسبعة عشر مسرحاً خارجها. وكانت الجرائد اليديشية توزع ما بين ٥٠٠ و٦٠٠ ألف نسخة يومياً. والشيء نفسه في الاتحاد السوفيتي، إذ بدأ يظهر أيضاً إحساس بالهوية اليديشية. ومن هنا، ظهر مفهوم دبنوف بشأن قومية الدياسبورا، وكان يعني في واقع الأمر «القومية اليديشية»، ولذا كان دبنوف يطالب بالحفاظ على اليديشية باعتبارها الوعاء اللغوي لهذه القومية. وفي هذه الفترة، ظهر حزب البوند الذي كان يضم في صفوفه كثيراً من العمال اليهود (في روسيا وبولندا) المتحدثون بهذه اللغة. وكانت اليديشية اللغة الرسمية للحزب حيث أصدر منشوراته بها، وطالب الحزب البلاشفة بالاعتراف بها كلغة قومية. وقد اعترف الاتحاد السوفيتي باليديشية كلغة رسمية، وأصبحت إحدى اللغات المُعتَرف بها في المحاكم وكانت تُدار بها الجلسات، ولا تزال اللغة الرسمية في بيروبيجان. وقد وصل النظام التعليمي باليديشية إلى قمته في هذه الفترة، في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، فكان عدد الطلبة المسجلين في المدارس اليديشية اثنى عشر ألفاً في الولايات المتحدة. أما في الاتحاد السوفيتي، فتم تأسيس شبكة من المدارس الابتدائية والثانوية يتم التدريس فيها باللغة اليديشية، كما أُسِّست كليات تربوية لإعداد مدرسين لليديشية.

وبعد نهاية العشرينيات مباشرة، بدأ الاضمحلال والذبول يدبان في جسد اليديشية في كلٍّ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ولكن لأسباب مختلفة. ففي الولايات المتحدة، كانت اليديشية تُعتبَر لغة منقولة من بيئة قديمة، ولم يكن لها أساس اقتصادي أو حضاري في البيئة الجديدة، وبالتالي لم يكن لها مستقبل. وفي منتصف العشرينيات مع توقُّف الهجرة، أخذت اليديشية في الاضمحلال السريع. وأخذ أبناء المهاجرين (كما هو مُتوقَّع) يتعلمون الإنجليزية، وبدأت المدارس اليديشية تفرغ من طلبتها. وتدار جلسات معهد ييفو (معهد البحوث اليديشية) في الوقت الحالي باللغة الإنجليزية، كما أنه في حاجة دائمة إلى الدعم المالي الذي تحجبه عنه المؤسسات الصهيونية وهو غير قادر على الاستمرار بدون المعونات التي يحصل عليها من الحكومة الأمريكية. وتوجد الآن جريدة يديشية واحدة في الولايات المتحدة تعيش على المعونات وتَصدُر ثلاث مرات أسبوعياً، وثلاث مجلات توزع اثنين وعشرين ألف نسخة، (قُرَّاء هذه الجرائد والمجلات من المسنين).

أما في الاتحاد السوفيتي، فمع تزايُد معدلات التحديث في المجتمع وإتاحة فرص الحراك الاجتماعي، بدأ اليهود ينصرفون عن اليديشية، وأخذت أعداد الطلبة اليهود في المدارس اليديشية في التناقص فوصلت عام ١٩٣١ إلى ٣٣٪ من مجموع الطلبة اليهود في المدارس الروسية، ثم إلى ٢٠٪ عام ١٩٣٩. وتكاد النسبة تنعدم الآن، ولذا أُغلقت الغالبية الساحقة من المدارس اليديشية. وقد انصرف الكُتَّاب اليهود الروس والأمريكيون عن الكتابة باليديشية، وآثرت أعداد متزايدة منهم الكتابة بالروسية أو الإنجليزية، كما قام بعضهم بترجمة الأعمال التي كتبها باليديشية إلى الإنجليزية. وهذا لا يعود فقط إلى معدلات التحديث العالية، ولكنه يرجع أيضاً إلى أن اليديشية ليس لها تاريخ حقيقي. كما أنها لا تملك تراثاً أدبيا ثريا، الأمر الذي يجعل الإبداع الأدبي من خلالها أمراً صعباً. وهذا يُفسِّر تلك الظاهرة التي تبعث على الدهشة، ظاهرة قلة الكلمات اليديشية (معظمها ألماني) التي دخلت اللغة الإنجليزية مع أن ملايين اليهود كانوا يتحدثون هذه اللغة. وربما كان السبب الحاسم أن من يكتب أدبه باليديشية لن يجد قراء يُعتدُّ بهم ويصبح مؤلفاً بلا جمهور، وهو أمر يصعب على أي مؤلف قبوله.

ومن العناصر الأساسية المشتركة التي أدَّت إلى اختفاء اليديشية، في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، تغيُّر وضع اليهود الوظيفي ودخولهم مجالات المهن الحرة بأعداد متزايدة، الأمر الذي كان يتطلب ابتعادهم عن مراكز الثقافة ذات الطابع اليهودي التقليدي، وهو ما أدَّى إلى انزواء ما تبقى من ثقافة يديشية منعزلة.

وفي الوقت الحالي، لا يوجد سوى بضعة آلاف في الولايات المتحدة يتحدثون اليديشية، أغلبيتهم من كبار السن. أما في الاتحاد السوفيتي، فعدد اليهود الذين صرحوا (في السبعينيات) بأن الروسية لغتهم نحو ٨٦,٧٪، في حين توزَّع ١٧,٧٪ بين مختلف اللغات، وهو ما يعني أن عدد المتحدثين باليديشية قد لا يزيد على ١٠٪، معظمهم من المتقدمين في السن الذين يسكنون المناطق الغربية (ليتوانيا ولاتفيا ومولدافيا) التي كانت تضم كثافة سكانية يهودية في الماضي، مع العلم بأن عدداً لا بأس به ممن يصرحون بأن لغتهم اليديشية يفعلون ذلك تمسكاً بهويتهم ولكنهم في واقع الأمر لا يتحدثونها. وقد اختفت اليديشية تقريباً في جنوب أفريقيا، وقام النازيون بإبادة بقية يهود بولندا ممن كانوا لا يزالون يتحدثون بها. ولكن من الملاحظ أنه، رغم عدم تصاعُد معدلات التحديث في المجتمع البولندي قبل الحرب العالمية الثانية، كانت اليديشية قد

بدأت تذبل وتضمر، وبدأ يهود بولندا يتعلمون البولندية. إذ كان يهود بولندا، مثلهم مثل يهود الولايات المتحدة أو يهود الاتحاد السوفيتي، يريدون أن يتعلم أولادهم لغة لا تعوقهم عن الحراك الاجتماعي وتحبسهم داخل حدود ضيقة، وبالتالي أرسلوا أولادهم إلى المدارس القومية (الهولندية أو الروسية أو الأمريكية) حيث يتعلمون اللغة القومية لينالوا حظهم من الحياة. وعلى هذا، فإن الحديث الصهيوني عن اضطهاد الاتحاد السوفيتي (سابقاً) للثقافة اليديشية لا أساس له من الصحة. وقد اختفت اليديشية في الولايات المتحدة دون اضطهاد، بل لم يعرها المجتمع أي التفات، لا تشجيعاً ولا اضطهاداً، وماتت من تلقاء نفسها. ويمكن القول بأن الحركة الصهيونية أسهمت بشكل فعال في الإسراع بعملية موت اليديشية، فمنذ البداية ناصب الصهاينة اللغة اليديشية العداء على اعتبار أنها لغة المنفى، وطرحوا بدلاً منها اللغة العبرية: لغة التراث واللغة القومية "الحقة"!

واللغة اليديشية قيمة عالية في وجدان يهود شرق أوربا، فهي الوعاء الذي يحوي تراثهم الحيوي (لا موروثهم الديني الجامد) الذي عبَّروا عن تجربتهم التاريخية في شرق أوربا من خلاله، ولذلك فثمة حنين عاطفي لها في الدولة الصهيونية بين شباب الصابرا (الإشكناز) الذي يجدون أن العبرية لغة جامدة لا جذور لها، تفتقر إلى امتداد تاريخي يتصورون وجوده في اليديشية بدرجة أكبر. وقد أسقط بعض الإسرائيليين الأسماء العبرية التي اختاروها واستعادوا أسماءهم اليديشية التي كانوا قد أسقطوها. وكثير من المفكرين الصهاينة وأعضاء النخبة الحاكمة في إسرائيل (من الجيل القديم) يتحدثون اليديشية.

ولا تزال اليديشية لغة الدراسة بالمدارس الدينية العليا (يشيفا) في إسرائيل، كما أن نواطير المدينة (ناطوري كارتا)، وهم جماعة يهودية أرثوذكسية معادية للصهيونية، يتحدثون اليديشية على اعتبار أن العبرية لغة الصلاة وحسب. وهي أيضاً اللغة التي يتحدث بها المهاجرون الإشكناز من شرق أوربا، ولذلك أصبحت اليديشية إحدى علامات التميز الاجتماعي في إسرائيل. ويُلاحَظ أن اليديشية مازالت مستخدَمة داخل بعض المنازل هناك، ويتعلمها الشباب سماعياً، ولكنهم لا يقرءونها ولا يكتبون بها. ويتكلف بعض الشباب في إسرائيل التحدث باليديشية، حتى السفارد ويهود العالم الإسلامي، فذلك يجعلهم بحسب تصوُّرهم من الطبقة الحاكمة، ويعطيهم من ناحية أخرى قدراً من الرضاء الذاتي بالحصول على قيمة ثقافية يهودية، كما يُسهِّل في الوقت نفسه عملية الاتصال بالعناصر المهاجرة الجديدة. وتصدُر في إسرائيل عدة صحف ومجلات باليديشية، ولا يزال هناك أدباء يكتبون بها في كلٍّ من إسرائيل والولايات المتحدة، بعضهم صهيوني والبعض الآخر إما معاد لها أو غير مكترث بها.

اللادينو

كلمة «لادينو» تحريف لكلمة «لاتينو»، واللادينو لهجة إسبانية، ولذا فهي تسمَّى أحياناً «إسبانيولي»، كما يُطلَق عليها أحياناً «رومانسي»، و«جوديزمو». ويتحدث بهذه اللهجة اليهود السفارد، وبخاصة يهود المارانو. وتتكون مفردات اللادينو من إسبانية العصور الوسطى (القشطالية) بعد أن دخلتها بضع كلمات من العبرية والتركية واليونانية، وبعض المفردات من اللهجات الإسبانية الأخرى والبرتغالية، غير أن نسبة العناصر الدخيلة على إسبانية اللادينو غير كبيرة كما هو الحال في اليديشية. وتُستخدَم في اللادينو أيضاً النهايات العبرية التي تدخل على الكلمات العبرية. وقد ظهرت هذه اللغة في القرون التي سبقت طرد اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢. وهي أساساً لغة حديث، ولذا فإن معظم ما كُتب بها كان مجرد شروح على الكتاب المقدَّس.

وكانت اللادينو تُكتَب بالحروف العبرية، ولكن المتحدثين بها الآن يكتبونها بالحروف اللاتينية. وهناك نصوص كُتبت باللادينو في العصور الوسطى. لكن أول كتاب مطبوع بهذه اللغة ظهر في القسطنطينية عام ١٥١٠، كما طُبعت بها بعض الروايات والجرائد في القرن التاسع عشر. وقد سادت اللادينو بين الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية. وكان أهم مراكزها، حتى الحرب العالمية الثانية، مدينة سالونيكا اليونانية، عاصمة اليهود السفارد.

واللادينو على وشك الاختفاء، شأنها في ذلك شأن كل الرطانات التي تتحدث بها الجماعات اليهودية المختلفة في العالم، وذلك بسبب الاندماج أو الهجرة إلى إسرائيل. ويتراوح عدد اليهود الذين كانوا يتحدثون اللادينو، أو على الأقل يفهمونها، بين ٢٠٠ ألف و٣٠٠ ألف، حيث كانوا ينتشرون في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي الولايات المتحدة. وتتأثر لهجة المتحدثين باللادينو بلغة البلد الذي يعيشون فيه، فالمتحدث باللادينو في يوغوسلافيا يستخدم مفردات سلافية، أما المتحدث بها في تركيا فيميل إلى استخدام اللغة التركية. وفي إسرائيل، تصدر في الوقت الحالي بعض المطبوعات باللادينو، لكن عدد المتحدثين بهذه اللغة يكاد ينعدم تماماً.

١٣ ـ المفكرون والفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية

الفكر اليهودي والمفكرون اليهود

تُطلَق عبارة «فكر يهودي» أحياناً على الكتابات التي يكتبها مفكرون من أعضاء الجماعات اليهودية («المفكرون اليهود» في المصطلح الشائع)، وكأن هناك عناصر يهودية متكررة تربط بين كتابات هؤلاء المفكرين وتضفي عليها درجة من الوحدة. ويمكننا أن نسأل: ما الوحدة التي تربط كتابات يوسيفوس فلافيوس ويهودا اللاوي وإسحق لابيرير ويعقوب صنوع ومراد فرج وألبير ميمه، حتى يمكن تصنيف فكرهم على أنه يهودي؟ فإسحق لابيرير وألبير ميمه فَقَدَا الإيمان الديني، ومراد فرج يهودي قرائي ويوسيفوس يهودي متأغرق، أما يهودا اللاوي فهو من اليهود المستعربة، وتأثرت عقيدة كلٌّ منهم بمحيطه الحضاري.

ومن ناحية الانتماء الحضاري ولغة الكتابة والتقاليد الفكرية، فإن يوسيفوس جزء من التراث الهيليني، ويهودا اللاوي جزء من التراث العربي الإسلامي القديم، على عكس يعقوب صنوع ومراد فرج فهما جزء من التراث العربي الإسلامي في مصر. وكل مؤلف من هؤلاء يكتب بلغة مختلفة تماماً عن لغة الآخر. وتتنوع القضايا التي يتعامل معها هؤلاء المفكرون والكُتّاب بتنوع لغاتهم وحضاراتهم، وإن بقيت عناصر مشتركة فلن تكون لها قيمة تفسيرية أو تصنيفية كبيرة. ولذا، قد يكون من الأفضل الحديث عن مفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية بسبب المقدرة التصنيفية والتفسيرية العالية لهذا التعبير، فهو يؤكد التنوع وانعدام التجانس، ويمكن داخل هذا الإطار أن نشير إلى المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب باعتبار أن لهم بعض السمات المشتركة التي يكتسبونها من داخل التشكيل الحضاري الغربي لا رغماً عنه أو من خارجه.

وقد تزايد بروز المفكرين اليهود في الحضارة الغربية مع تزايُد حلوليتها وعدميتها في مرحلة الحلولية بدون إله. وحينما ظهر نيتشه الذي أعلن موت الإله، تلبست النيتشوية المفكرين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر، إذ كانت الحلولية اليهودية قد توصلت إلى النيتشوية قبل نيتشه (على حد قول آحاد هعام). ومما لا شك فيه أن غربة المثقف اليهودي في مجتمعه عمقت اغترابه وموقفه النقدي والعدمي. ونحن نرى أن هذه العناصر جعلت المثقفين اليهود أكثر حداثة وأكثر امتلاكاً لناصية الخطاب الحضاري الغربي الحديث، ومن ثَمَّ أكثر بروزاً.

ومع هذا، حتى لا نسقط في التعميمات البسيطة والاختزالات السهلة، لنا أن نلاحظ أن من الأنماط التي تتواتر بين المثقفين من أعضاء الجماعات اليهودية، أن عدداً لا بأس به منهم ينتمون إلى زمرة المثقفين التي تحاول الاحتفاظ بالوظيفة النقدية للعقل، بحيث لا يُستوعب العقل في المادة ويظل متجاوزاً، وبشكل دائم، للأمر الواقع والوضع القائم، أي أنهم يحاولون تخطِّي الحلولية الكامنة في الفكر العلماني المادي عن طريق افتراض وجود نقطة ثبات خارج النسق (شيستوف ولا محدودية الاحتمالات – إرنست بلوخ والإمكانية الإنسانية التي لم ولن تتحقق، أي مقولة «ليس بعد» – العداء بين المعرفة والدولة عند ولتر بنجامين – القيم الأخلاقية الدائمة عند ليو ستراوس – المجال الخاص الذي يستطيع الفرد أن يفكر فيه وأن يحكم ضميره عند أرنت – التعددية التي لا يمكن اختزالها عند أيزياه برلين – المسيحية وسيمون فاي... إلخ). ويُلاحَظ وجود الظاهرة نفسها عند بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس من أعضاء الجماعات اليهودية.

ولهذا كله، نفضل استخدام مصطلح «مفكرون ومثقفون من أعضاء الجماعات اليهودية» بسبب مقدرته التصنيفية والتفسيرية العالية، فهو يؤكد انعدام التجانس كما يؤكد التنوع والانفصال بين المفكرين اليهود. ونحن في هذه الموسوعة، نفرِّق بين «الفكر» و«الفلسفة». وهو فصل متعسف بعض الشيء، بخاصة في العصر الحالي الحديث، حيث نجد أن جزءاً كبيراً من التفكير الفلسفي يتم من خلال دراسات في اللغة (تشومسكي وفتجنشتاين ودريدا) والأنثروبولوجيا (كلود ليفي شتراوس) وعلم النفس (فرويد) وعلم الاجتماع (أدورنو وهوركهايمر). ومع هذا، فإن الفصل هنا ذو فائدة تصنيفية، من منظور هذه الموسوعة، بل له فائدة تفسيرية أيضاً.

الفلسفة اليهودية والفلاسفة اليهود

«الفلسفة اليهودية» عبارة تفترض أن الرؤى والأنساق الفلسفية للفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية متماثلة ومتجانسة وأن ثمة عناصر تجانس وتشابه ووحدة بينها، تفوق في أهميتها وتفسيريتها عناصر غياب التجانس والتشابه. ولكننا لو وضعنا فيلسوفاً هيلينيا يهوديا مثل فيلون إلى جانب فيلسوف إسلامي الحضارة والتفكير يؤمن باليهودية مثل موسى بن ميمون إلى جانب فيلسوف فرنسي يهودي مثل برجسون لاكتشفنا أن عناصر الاختلاف وانعدام التجانس بين الفلاسفة اليهود من الأهمية والضخامة بحيث إن المقدرة

التفسيرية والتصنيفية لمصطلح «فلسفة يهودية» أو حتى «فلاسفة يهود» ضعيفة إلى أقصى حد. ولذا، فنحن نفضل استخدام اصطلاح «الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية» حتى يتم تفسير أنساقهم الفلسفية المختلفة بالعودة إلى التشكيلات الحضارية التي كانوا يعيشون في كنفها وتفاعلوا معها واستمدوا منها الإطار الأساسي لأنساقهم الفلسفية وخطابهم، بل الأبعاد الأساسية لرؤيتهم للكون.

الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية

«الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية» عبارة ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية (بالقياس إلى عبارات مثل «الفلسفة اليهودية» أو «الفلاسفة اليهود»). ويمكن أن نُقسِّم هؤلاء الفلاسفة من منظور موضوع فلسفتهم، فهناك من يتعامل مع اليهودية وبعض المشكلات الفلسفية المرتبطة بها وهناك من يتعامل مع القضايا الفلسفية العامة، وإن تعرَّض لقضايا يهودية فهو يتعرض لها بشكل عرضي.

ويمكن التمييز بين المحاولات التي يبذلها بعض المفكرين الذين يتبنون الموقف التحليلي من اليهودية ويدرسونها بطريقة منهجية. فإن كان المفكر غير يهودي فإن ثمرة فكره تكون جزءاً من الدراسة الفلسفية للدين. أما إذا كان المفكر يهوديا مؤمناً بالعقيدة اليهودية، فإن الثمرة تكون اللاهوت اليهودي أو دراسة أصول الدين (التي تناولناها في مدخل العقائد).

وغني عن القول أن المفكر من أعضاء الجماعات اليهودية حين يحاول أن يتأمل عقيدته فإنه، شاء أم أبى، يُطبِّق المقولات الفلسفية السائدة في عصره على اليهودية. ولا يمكن فصل الجانب التحليلي عن الجانب التركيبي، فالتحليل مثل التركيب كان يتم من خلال المقولات الفلسفية السائدة في الحضارات التي كان الفيلسوف من أعضاء الجماعات اليهودية يعيش بين ظهرانيها. ومن ثَمَّ، لا يمكن الحديث عن «فلسفة يهودية» وإنما عن محاولات قام بها مفكرون من أعضاء الجماعات اليهودية لتطبيق النظم الفلسفية المختلفة على العقيدة اليهودية والمزاوجة بينهما، وهي محاولة لا تتسم بكثير من التجانس نظراً لوجود الجماعات اليهودية داخل تشكيلات حضارية مختلفة تؤثر كل منها في المفكرين بطريقة مختلفة. ولذا، فإن دراسة فكر هؤلاء لا يكون إلا بالعودة للحضارات التي يعيشون بين ظهرانيها.

والعهد القديم، مثله مثل أي كتاب مقدَّس، لا يحوي نسقاً فلسفيا واضحاً، وإنما يستند إلى نسق كامن مركب يعبِّر عن نفسه في العقائد الأساسية الخاصة بطبيعة الخالق والخلق والوحي والتوحيد والعدالة الإلهية ومعنى التاريخ، وهلمجرا. كما أن التراث الديني اليهودي، من خلال الأجاداه، كان يحاول الإجابة على أسئلة فلسفية بطريقة غير فلسفية، من خلال الرموز والقصص. وتوجد تساؤلات فلسفية في كلٍّ من التلمود وكتب القبَّالاه، ولكن الاجابة عليها لا تتم بالطريقة الفلسفية المنهجية وإنما من خلال الأسطورة والأمثولة والصورة والمجاز. ولم يظهر التفكير الفلسفي المنهجي بين اليهود إلا في القرن الأول قبل الميلاد في فلسفة فيلون السكندري الذي حاول المزاوجة بين الفلسفة اليونانية (الأفلاطونية والرواقية) والعقيدة اليهودية. ولكن فلسفته لم تترك أثراً في التطور اللاحق لليهودية، بينما تأثر بها اللاهوت المسيحي. وتأثر المفكرون من أعضاء الجماعات اليهودية في الدولة الإسلامية بعلم الكلام (الذي هو بدوره، في جانب من جوانبه، رد الفعل الإسلامي للفلسفة اليونانية).

ويبدو أن اليهودية وجدت نفسها دين أقليات متناثرة تواجه دينين سماويين توحيديين تتبع كل منهما إمبراطورية مترامية الأطراف وترفض كلٌّ منهما اليهودية. ولذا، ظهر فكر ديني يهودي يحاول تفسير هذه الظاهرة عقليا ويرمي إلى الدفاع عن اليهودية وإثبات شرعيتها. وأولى هذه المحاولات محاولة داود بن مروان المقمص، وتبعتها محاولة سعيد بن يوسف الفيومي، اللذين نقلا فكر المعتزلة إلى الفكر الديني اليهودي. وهما، في هذا، لا يختلفان كثيراً عن القرائين. وتأثر الفكر الديني اليهودي بالحوار الذي جرى داخل الفلسفة الإسلامية بين الفلسفة وأعدائها، فدافع عن الفلسفة أبراهام بن داود، وموسى بن ميمون، ولاوي بن جرشون (جيرونيدس)، وحسداي قرشقاش. وهاجم الفكر الفلسفي كلٌّ من سليمان بن جبرول وابن فاقودة ويهودا اللاوي.

وفي العصر الحديث، يبدأ التفكير الفلسفي بين اليهود في كتابات إسبينوزا فيلسوف العَلمانية الذي وجَّه سهام نقده لليهودية خاصة، وللفكر الديني عامة، لدرجة يصعب معها الحديث عنه باعتباره مفكراً دينيا. ولذا، قد يكون من الأفضل أن نبدأ بموسى مندلسون فيلسوف حركة التنوير بين اليهود، الذي تبنَّى فكر حركة الاستنارة الغربية والفلسفة العقلانية وطبقه على اليهودية بعد إفساح المجال للوحي، وهذا ما جعل فكره ربوبيا إلى حدٍّ ما. وقد تأثر المفكرون اليهود بفكر هيجل كما يتضح في كتابات كروكمال. أما هرمان كوهين فتأثر بفلسفة كانط. وظهر فلاسفة يهود آخرون في

العصر الحديث حاولوا إعادة صياغة اليهودية مستخدمين مقولات الأنساق الفلسفية السائدة. فنجد فرانز روزنزفايج، ومارتن بوبر، وليوبايك، وأبراهام هيشيل، يحاول كل منهم بطريقته استخدام مقولات نسق فلسفي ما (وجودي أو مثالي) لإعادة تفسير اليهودية.

ويمكن أن نضع الصهيونية في هذا الإطار، فهي محاولة لتطبيق مقولات الفكر الرومانسي القومي العنصري على اليهودية. وتأثر معظم المفكرين الصهاينة (هرتزل ونوردو وآحاد هعام) بفلسفة نيتشه وأفكاره عن القوة وأخلاق العبيد والإنسان الأعلى أو الأسمى. ويُلاحَظ أن كثيراً من الموضوعات الصهيونية وجدت طريقها إلى كتابات الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أولئك الذين لم يهتموا بالصهيونية أو ناصبوها العداء، ومن أهم هذه الموضوعات موضوع «سر بقاء الشعب اليهودي»، ومحاولة تفسيره إما من خلال مقولات هيجلية أو من خلال مقولات نيتشوية أو وجودية. ورغم أن الموضوع يُناقَش بشكل فلسفي مجرد جداً، وليس له علاقة كبيرة بالتطبيقات السياسية، إلا أن هذا الموضوع نفسه يشكل الفكرة المحورية في النسق العقائدي الصهيوني الذي هو بدوره علمنة لفكرة الشعب المختار أو الشعب المقدَّس. ومن ثَمَّ، نجد أن هذه الكتابات إنما هي تسويغ واع أو غير واع للغزوة الصهيونية من خلال ديباجات فلسفية معاصرة.

ويوجد فلاسفة يهود كان اهتمامهم باليهودية ضعيفاً أو منعدماً، أو كان تعبيراً عن موقف فلسفي عام يتجاوز اليهودية في حد نفسها. ولذا، فإن إسهامهم الأساسي كان يصب في التيار العام للفلسفة الغربية، ومعظمهم من اليهود غير اليهود، أي اليهود الذين لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية ولا يتمسكون بإثنيتهم اليهودية حقيقية كانت أم وهمية وقد ازدهروا في الحضارة الغربية بمقدار تمثُّلهم لقيمها وبمقدار تهميشهم هويتهم. وإسبينوزا أول هؤلاء الفلاسفة. ويمكن أن نذكر في هذا المقام كارل ماركس، وفرديناند لاسال، وإدموند هوسرل، وهنري برجسون، ولودفيج فيتجنشتاين، وهربرت ماركوز، وهوراس كالن، وجاك دريدا (أي كل الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية الذين ازدهروا على مستوى الحضارة الغربية). وقد يكون لهؤلاء الفلاسفة بعض الملاحظات أو العبارات المؤيدة للصهيونية أو المعادية لها أو لليهودية ولكنها تظل ملاحظات عرضية (إلا في حالة كالن). وقد لاحظنا أن معظم الفلاسفة العلمانيين من أعضاء الجماعات اليهودية يُعبِّرون في فلسفتهم عن الرؤية الحلولية الكمونية الواحدية وأنهم يتأرجحون بين التمركز حول الذات والتمركز حول الموضوع.

ومن الظواهر التي تستحق الدراسة عدم ظهور فلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية يُعتَد بهم عبر تاريخ العالم الغربي والإسلامي، وأن إسبينوزا أول فيلسوف يُعتَد به في القرن السابع عشر (هذا على عكس علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأنثروبولوجيا وعلم اللغة، حيث يُلاحَظ وجود عدد كبير من العلماء من أعضاء الجماعات اليهودية ساهموا في تأسيس هذه العلوم وتطويرها). ولتفسير ذلك يمكن الإشارة إلى أن الفلسفة كانت دائماً مرتبطة بالدين وبرؤية المجتمع للكون، وهو ما كان يعني استبعاد أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم أعضاء في جماعة وظيفية تعيش داخل المجتمع ولكنها ليست منه. ومع ظهور الرؤية العلمانية المادية للكون وترسُّخها، وتصاعُد معدلات العلمنة في المجتمع، أصبح بإمكان أعضاء الجماعة الوظيفية (وهم عادةً من حملة الرؤية الحلولية العلمانية) أن يساهموا بدور أكثر فعالية ومباشرة في عملية الإبداع الفلسفي (وفي العلوم الأخرى التي ظهرت بعد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، أي بعد أن أصبحت رؤية الإنسان الغربي للكون حلولية علمانية). وقد لاحظنا أن الفيلسوف أو المفكر من أعضاء الجماعة اليهودية يحقق ذيوعاً إن تحرك على أرضية حلولية كمونية (روحية على طريقة فيلون أو مادية على طريقة إسبينوزا) تجعل التمييز بين عقيدة وأخرى أمراً عسيراً. ومع هذا يُلاحَظ أنه بعد إسبينوزا لم يظهر فيلسوف واحد بارز من أعضاء الجماعات اليهودية، وعلينا الانتظار حتى أوائل القرن العشرين لنقابل بعض الفلاسفة البارزين من أعضاء الجماعات اليهودية (برجسون وهوسرل). وقد ترك ماركس أثراً عميقاً في الفكر الفلسفي الغربي ولكنه لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المتخصص للكلمة. ولتفسير هذه الظاهرة يمكن القول بأن إسبينوزا ظهر في لحظة انقطاع في الحضارة الغربية (نهاية الرؤية المسيحية وبداية الرؤية العقلانية المادية) وأن برجسون وهوسرل هما الآخران ظهرا في لحظة انقطاع في الحضارة الغربية (عالم ما بعد نيتشه وبداية اللاعقلانية المادية).

ويُلاحَظ تزايد اشتراك أعضاء الجماعات اليهودية في صياغة الفكر الفلسفي النقدي في الغرب (ماركس وفرويد) خصوصاً في فلسفة اللغة، وهو تيار يصل إلى قمته في فكر تشومسكي (الثورة التوليدية) وفكر دريدا (الفلسفة التفكيكية التي تضم عدداً كبيراً من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية). وقد لوحظت بعض السمات الأساسية في أنساقهم الفلسفية التي لا يمكن تفسيرها إلا بالعودة لميراثهم اليهودي (مارانية إسبينوزا ومشيحانية ماركس العلمانية وحلولية دريدا... إلخ). ولكن نسقهم الفكري يظل في

شكله ومضمونه جزءاً من الفلسفة الغربية ينبع منها ويصب فيها. ولذا، سيُلاحَظ أن تتابع فلسفات هؤلاء الفلاسفة وتغيُّرها ينبع من تاريخ الفلسفة في الغرب.

وفي هذه الموسوعة فرقنا بين المفكرين والفلاسفة، فالمفكرون من يتعاملون مع القضايا الفكرية والفلسفية من خلال مقولات فكرية عامة ليست بالضرورة المقولات الفلسفية المتعارف عليها، كما أن آليات التحليل والخطاب المستخدم مختلفة عن تلك التي يستخدمها الفلاسفة.

موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤) والفلسفة الإسلامية

موسى بن عبد الله بن ميمون القرطبي. مفكر عربي إسلاميٌّ الحضارة والفكر يؤمن باليهودية وعضو في الجماعة اليهودية في إسبانيا الإسلامية. وُلد في قرطبة لأسرة من القضاة والعلماء اليهود. كان بارعاً في آداب الدين والعهد القديم والطب والعلوم الرياضية والفلسفة. تلقى تعليماً عربيا ودينيا يهوديا، ومن بين شيوخه تلميذ من تلاميذ ابن باجه.

من أهم كتبه كتاب **السراج** وهو تفسير دقيق للمشناه. وكتاب **مشنيه توراه** أي «تثنية التوراة» وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالعبرية حتى يستطيع كل قضاة اليهود قراءته والاستفادة بما جاء فيه ولا يضطروا إلى العودة للتلمود. والكتاب عمل تصنيفي متأثر بالتصنيفات الإسلامية المماثلة، رتب فيه في نظام منطقي وبإيجاز واضح ما حواه العهد القديم من قوانين بالإضافة إلى جميع قوانين المشناه والجماراه.

وإذا كانت طريقة التلمود عرض الموضوع وإفساح المجال للمناقشة بين أصحاب المذاهب والآراء المختلفة دون ترجيح غالباً، فإن بن ميمون اعتمد على رجاحة عقله وعلى التقاليد الموروثة في الحكم بشكل مجرد. وهو لا يجمع روايات ولا يدخل في غمرة مناقشات، بل يُفصِّل تفصيلاً ويحكم حكماً صريحاً مبيناً. ومن هنا، نراه لا يشير إلى مصادر أو إلى أسانيد أو أصحاب المذاهب من أحبار التلمود إذ ليست المذاهب جوهر الموضوع الذي يبحثه. وقد سُمِّي هذا الكتاب **اليد القوية (يد حازاقاه)**، وكلمة «يد» تعادل الرقم ١٤ وهو عدد فصول الكتاب.

وأهم كتب ابن ميمون على الإطلاق كتاب **دلالة الحائرين** الذي كتبه بالعربية ثم تُرجم إلى العبرية، وهو مقسَّم إلى ثلاثة فصول. ويحاول ابن ميمون في هذا الكتاب أن يُوفِّق بين العقل والدين، لأن العقل غرسه الخالق في الإنسان. وحينما يبحث ابن ميمون في الذات الإلهية، فإنه يستنتج مما في الكون من شواهد التنظيم المُحكَم أن عقلاً سامياً يسيطر على هذا الكون. فالخالق حسب رأيه عاقل ولا جسم له، وكل العبارات التي تشير إلى شيء من أعضاء الجسم في وصف الخالق يجب أن تُفسَّر تفسيراً مجازيا. وصفاته لا تنفصل عن ماهيته وهو المحرِّك الأول والصلة الأولى الواجبة. وهو خالق العالم من العدم، ولذا فهو يدحض فكرة أرسطو الخاصة بأزلية الكون. والعالم كلٌّ تترابط أجزاؤه على أساس قوانين معينة تتوقف في كليتها على فعل الخلق (أي عملية الخلق) نفسه، وهو فعل لا نظير له في التاريخ، وهذا الرأي يقترب من رأي الأشاعرة رغم هجوم ابن ميمون عليهم. ويصر ابن ميمون على فكرة فعل الخلق هذه إذ بدونها يصبح العالم محض مادة تتحرك بقانون السببية المادي. وهو يضيف أنه لو كان هذا هو الوضع حقاً لفهمنا كل شيء في الطبيعة بقوانين المنطق. ولكن في الطبيعة من الظواهر ما لا يمكننا فهمه.

وضع ابن ميمون ما يُعرَف بالأصول الثلاثة عشر لليهودية، وهي أهم محاولة لتحديد عقائد الدين اليهودي، ووردت في مقدمة ابن ميمون لكتاب السنهدرين في كتاب **السراج**، وهي في جوهرها لا تختلف عن المعتقدات الإسلامية كثيراً، فهي تنفي أية حلولية عن الإله:

١ - الإله خالق هذا الكون ومدبِّره.
٢ - واحد منذ الأزل وإلى الأبد.
٣ - لا جسد له ولا تحدُّه حدود الجسد.
٤ - هو الأول والآخر.
٥ - على اليهودي ألا يعبد إلا إيّاه.
٦ - كلام الأنبياء حق.
٧ - موسى أبو الأنبياء؛ من جاء قبله ومن جاء بعده.
٨ - التوراة التي بين يدي اليهود هي التي أُعطيت لموسى.
٩ - التوراة غير قابلة للتغيير ولن تنسخها شريعة أخرى.
١٠ - الخالق عالم بكل أعمال البشر وأفكارهم.
١١ - يجزي حافظي وصاياه ويعاقب مخالفيها.
١٢ - سيجيء الماشيَّح، وعلى اليهودي انتظاره.
١٣ - على اليهودي أن يؤمن بقيامة الموتى.

ويوجد نوعان من الاختلاف بين هذه الأصول وبين العقائد الإسلامية؛ اختلاف سطحي ينصرف إلى الألفاظ لا إلى البنية حين يحل موسى بن ميمون كلمة «توراة» محل «القرآن» وكلمة «موسى» محل «محمد»، واختلاف أساسي بنيوي يتعلق بعقيدة عودة الماشيَّح. ولكننا، حتى في هذا المجال، نجد أن موسى بن ميمون

يحاول أن يضفي عليها صيغة عقلية إذ يذهب إلى أن عصر الخلاص بعودة الماشيَّح سيأتي في مسار التاريخ وسيكون حدثاً يتم في هدوء بعيداً عن أية كوارث وعلامات للظهور، وسيأخذ شكل عصر جديد لا يختلف عن عصرنا هذا وإن كان سيأخذ شكلاً أعلى من أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي. ورغم تأثر موسى بن ميمون بالفكر الإسلامي العقلاني في كتابات الفارابي وابن سينا وربما ابن رشد، فإنه يؤمن بأن الشريعة الشفوية (التلمود) مرسلة من الإله ويشير إلى الشعب المقدَّس والشعب المختار.

وقد ذهب موسى بن ميمون إلى أن العقيدة اليهودية وفكرة الخالق لا يمكن فهمهما واستيعابهما إلا من خلال الفلسفة الأرسطية، وإلى أن أيَّ تفسيرات أخرى هي شكل من أشكال الوثنية، ولذا يجب أن نلقن الناس (حتى العوام) التعريف الدقيق للخالق.

ويبدو أن بعض أقواله تحتمل تأويلات يُفهَم منها أنها إلحادية أو تبث الشك في قلوب المؤمنين، مثل قوله إن جوهر الإله غامض على الإنسان ولا يمكنه فهمه. وهناك ما يوحي بأنه لا يؤمن بالبعث، خصوصاً أن فكرة الآخرة ظلت باهتة في اليهودية. كما أنه كان يؤمن بأن النبوَّة أمر يحققه الإنسان من خلال الجهد العقلي. ومن ثَمَّ ذهب بعض علماء اليهود إلى أن الأرسطية الميمونية تشوِّه معنى الكتاب المقدَّس وأن ابن ميمون يظهر احتراماً لأرسطو أكثر من احترامه لنصوص الكتاب المقدَّس أو التراث الحاخامي.

ولذا، حدثت مواجهة بين أنصار ابن ميمون وأعدائه. ففي عام ١٢٣٠ حاول معارضوه أن يمنعوا دراسة **دلالة الحائرين** والأجزاء الفلسفية في كتاب **مشنيه توراه**. وكان نحمانيدس ضمن مهاجميه، بل استعدى بعض اليهود في بروفانس (فرنسا) محاكم التفتيش على كتابات ابن ميمون فأُحرقت عام ١٢٣٢. واندلع السجال مرة أخرى عام ١٣٠٠ ومُنعت دراسة كتابات ابن ميمون قبل سن الخامسة والعشرين. وانتهى السجال حين طُرد اليهود من فرنسا عام ١٣٠٦.

ويبدو أن أعمال موسى بن ميمون لم تكن ذات أهمية تذكر في العالم الإسلامي بين المثقفين المسلمين، فلم يسمع أحد بأعماله في الحوار الفلسفي في عصره، وابن رشد أهم فلاسفة وعلماء عصره لم يسمع عنه ولم يقرأ أياً من كتبه. ولا ندري إن كان هذا يرجع إلى أن فكر ابن ميمون لا يتسم بالأصالة أم إلى أن الثقافة العربية اليهودية في الأندلس كانت ثقافة تابعة للحضارة الأم إلى درجة كبيرة، أم يرجع إلى أن مؤلفاته كُتبت بحروف عبرية فظلت مجهولة لجمهرة القراء والمثقفين؟

وقد بعثت حركة التنوير اليهودية كتاباته لإدخال شيء من العقلانية على الدين اليهودي بعد أن خنقته الدراسات التلمودية والاهتمامات الحسيدية والقبَّالية. ومن بين المتأثرين بفكره، إسبينوزا وموسى مندلسون (أبو حركة التنوير اليهودية) وهرمان كوهين. بل إن كتابات ابن ميمون تُعَدُّ النقطة الأساسية التي اجتمع عليها دعاة التنوير، وهي إطار مرجعي أساسي لليهودية الإصلاحية.

باروخ إسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) والعقلانية المادية

فيلسوف عقلاني مادي. من أهم فلاسفة الحضارة الغربية الحديثة، بل هو في تصوُّرنا (مع نيتشه ومن بعده دريدا) فيلسوف العلمانية الأكبر. عاش في هولندا، ولكنه من أصل ماراني. أفصح أبوه وجده عن انتمائهما اليهودي بعد وصولهما إلى أمستردام حيث أصبحا من قادة الجماعة اليهودية ومن كبار التجار فيها، وكانا يعملان بالاستيراد أساساً. وبإمكان القارئ أن يعود إلى مدخل «هولندا» لمعرفة الخلفية الاقتصادية والثقافية العامة ليهود أمستردام في القرن السابع عشر.

لم ينشر إسبينوزا سوى كتابين في حياته ولم يصدر باسمه سوى واحد منهما فقط هو **مبادئ الفلسفة الديكارتية**، أما الكتاب الثاني **رسالة في اللاهوت والسياسة**. ونُشرت بقية مؤلفاته بعد وفاته ومن بينها **الأخلاق** و **البحث السياسي** و **إصلاح العقل** و **الرسائل** و **رسالة في النحو العبري**. وتتسم فلسفة إسبينوزا بشمولها، فهي نظرية في الدين والدنيا، وفي الأخلاق والعاطفة، وفي الإنسان والطبيعة، وفي الفرد والمجتمع. وتدور معظم (إن لم يكن كل) النماذج والمنظومات الفكرية حول عناصر ثلاثة، الإله والطبيعة والإنسان، والعلاقة بينها. وإذا كان هذا القول ينطبق على معظم النماذج الفكرية، فهو أكثر انطباقاً على فلسفة إسبينوزا إذ تدور فلسفته حول هذه العناصر الثلاثة بشكل واضح.

أولاً: رؤية إسبينوزا للإله والطبيعة:

يُفرِّق إسبينوزا بين الجوهر (ما يوجد وهو علة ذاته)، وبين الصفات (الجوهر كما ينكشف للمعرفة)، والأحوال (ما يطرأ على الجوهر)، وكلها جزء من الجوهر الواحد الأزلي اللامتناهي. هذا الجوهر هو الإله الذي يصفه إسبينوزا بأنه الوجود الضروري اللانهائي الأزلي الشامل. وحينما تُطرَح هذه الأوصاف قد نظن لأول وهلة أننا أمام إله متجاوز للطبيعة والتاريخ، ولكننا حينما ندقق النظر سنكتشف أن صفات الإله هي نفسها صفات الطبيعة. فالطبيعة لا تأتي من أية علة (أي أنها علة ذاتها) وهي مبدأ خلاق وهي النظام الكلي الشامل للعالم.

ثانياً: رؤية إسبينوزا للإنسان:

ونقطة البدء عند إسبينوزا، كما هو الحال مع مفكري عصر النهضة وممثلي التفكير الإنساني الهيوماني في الغرب، إعلان الإيمان بقدرة العقل البشري غير المحدودة على إزالة أية عقبة قد تحول دون اقتحام هذا العقل جميع ميادين المعرفة أو تحول دون فهمه كل قوانين الطبيعة فهماً كاملاً. ومن هذا المنظور، فهو ممثل جيد للفكر الإنساني (الهيوماني) الغربي. ولكن الفكر الهيوماني، يتفرع إلى رؤيتين: رؤية متمركزة حول الإنسان تدور حول ثنائية الإنسان والطبيعة، والأخرى متمركزة حول المادة تلغي هذه الثنائية. كما أن الفكر الغربي الحديث انتقال تدريجي من الرؤية الأولى التي تمنح الإنسان مركزية في الكون إلى الرؤية الثانية التي ترى الكون بشكل محايد ولا تمنح الإنسان أية خصوصية، بل تساوي بينه وبين كل الكائنات. وتتميَّز المنظومة الفلسفية عند إسبينوزا بأنها حققت هذا الانتقال منذ البداية بشكل جذري وجعلته رائداً حقيقيا للفكر الغربي الحديث وللمشروع التحديثي والتفكيكي الغربي والاستنارة المظلمة، ومن هنا جاء هجومه الشرس على ظاهرة الإنسان، بعد تمجيده العقل، وقوله إن الإنسان يستثني نفسه بصلف شديد من قوانين الطبيعة الحتمية المحايدة ومن موضوعية الضرورة الكاملة التي لا ثغرات فيها. والإنسان، لهذا، يحاول أن يُحدث ثغرات هي في واقع الأمر المجال الذي يحاول أن يطبِّع فيه صورته البشرية (وهو ما نسميه «الحيز الإنساني»)، أي يحاول أن يتصرف كطبيعة طابعة (خالقة) لا كطبيعة مطبوعة (مخلوقة). بل إنه يَعدُّ نفسه سيداً للطبيعة ويظن نفسه سيداً مطلقاً أو أن له وضعاً خاصاً، وهو في واقع الأمر ليس سوى جزء من الطبيعة، شيء بين الأشياء يسري عليه ما يسري عليها، لا تحيط به أية أسرار ولا يتمتع بأية قداسة خاصة.

ثالثاً: الرؤية المعرفية:

لا توجد في منظومة إسبينوزا الفلسفية أية فراغات بين الإله والطبيعة والإنسان، فهي منظومة مصمتة تماماً؛ شكل من أشكال الحلولية الكمونية الواحدية المادية. وهي حلولية كمونية بمعنى أن كل الأسباب تحل في المادة وقوانين الحركة كامنة فيها، ومادية بمعنى أن الأسباب لا تتجاوز المادة وأن القوانين كامنة في الأشياء لا تفارقها أبداً (إلا من خلال مقدرة العقل البشري على التجريد، وهي عملية عقلية لا تُغيِّر من طبيعة الأشياء شيئاً).

ولكن الذهن والجسم في المنظومة الإسبينوزية شيء واحد، يُنظَر إليه في الحالة الأولى من خلال صفة الفكر وفي الحالة الثانية من خلال صفة الامتداد، وهو ما يعني أن الأفكار والتطلعات والأحلام والغائيات الإنسانية كلها في نهاية الأمر "إن هي إلا" تعبير عن حركة القوانين الثابتة للطبيعة/ المادة/ الإله. ويُلاحَظ هنا أن الذهن هو الذي يُردُّ إلى المادة، فنظام الأفكار (البناء الفوقي) لا يوازي نظام الأشياء (النظام التحتي) وإنما يُردُّ الأول للثاني.

رابعاً: الرؤية النفسية:

يذهب إسبينوزا إلى أن الفرح المصاحب لعملية المعرفة الكونية الموضوعية لا يشكل تجرداً كاملاً من الحالة الإنسانية، ولذا فهو يؤكد أن الإحساس الأكثر ثباتاً نوع من الاتزان والحياد الكامل والتحرُّر من الخوف الذي يحققه الإنسان عن طريق الخضوع لقانون الطبيعة وللمنطق السائد في الواقع وإدراك الضرورة الكونية (قانون الضرورة). وبهذه الطريقة، نفصل الانفعال عن أسبابه المباشرة وعن الأفكار الغامضة غير الكافية ونربطه بالأفكار العقلية الصحيحة، وبذلك تتخلص النفس من عبودية الانفعال عن طريق تأمله في ضوء العقل الباهر، ويزداد المرء اقتراباً من حالة الصفاء كلما اتسع نطاق فهمه للأشياء، حتى إذا توصل إلى تأمل النظام الكلي للأشياء في ضرورته الشاملة حقق بذلك أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من الفضائل وأمكنه التغلب تماماً على انفعالاته عن طريق ربطها بالمنطق الكلي للأشياء. بل إن فكر الإنسان، بذلك، ينحصر في التفكير في الحياة ودون تفكير في الموت، فكأن الحلولية الكمونية المادية تحل مشكلة الموت بإلغائها. فإذا كان الإنسان مادة وحسب فإنه حينما يموت، ينحل إلى مادة ويلتحم مرة أخرى بالمادة ويعود إلى الرحم الأكبر الذي جاء منه، وهو ما يعني أنه لم تحدث تحولات، فالإنسان لا يموت لا لأنه حر بشكل مطلق، وإنما لأنه كان ميتاً من الأصل، وهو لا يفقد حريته لأنه لا يمتلكها أصلاً! ويصبح الجهد المعرفي والنفسي للإنسان منصرفاً إلى الحصول على المعرفة الشاملة التي ستبين له بما لا يقبل الشك أنه لا حرية ولا إرادة ولا حياة (مستقلة) له، أي أن الإنسان ينفي حريته بكامل حريته، وينفي إرادته بإرادته.

خامساً: الرؤية الأخلاقية:

تنبع رؤية إسبينوزا الأخلاقية من الإيمان بأن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة ليس له أي استقلال عنها. والطبيعة كما يقول إسبينوزا محايدة خالية تماماً من القيم البشرية، فلا هي جميلة ولا قبيحة، ولا هي خيِّرة ولا شريرة (فهذه كلها أفكار إنسانية ذاتية لا توجد إلا في ذهن الإنسان المتمركز حول نفسه) هي "أحوال للفكر"، فالقيم الأخلاقية ليس لها مكان في المجرى الفعلي للطبيعة (الواقعية المادية). وبينما نجد أن القيم الأخلاقية في نظر كثير من الفلاسفة التقليديين (المؤمنين بوجود خالق) الغاية النهائية لسلوك

الطبيعة بأسرها، نجد أن ظهور القيم عند إسبينوزا هو في حقيقته تعبير عن ضيق حدود الذهن الإنساني وعجزه عن استيعاب الطبيعة بأطرافها اللامتناهية. وهكذا يحد الإنسان نظرته إلى الطبيعة بمجال معيَّن يتأمله من خلال أمانيه ورغباته الخاصة ويفسره على أساسها، بينما لو كان قادراً على إدراك مجموعة العلاقات اللانهائية المتشابكة في الطبيعة لاختفت تماماً هذه القيم التي صنعها، ولظهر كل شيء على حقيقته جزءاً من نسق هائل لا نهائي التعقيد في الكون، ولطرح المُثُل العليا جانباً. وحيث أن الكمال هو الواقع (فكل القوانين كامنة في المادة ولا توجد خارجها)، فالأخلاق تنتقل من مجال ما ينبغي أن يكون إلى مجال ما هو كائن، وبالتالي "تجاوز إسبينوزا الحواجز بين الواقع والمثل الأعلى، وبين ما هو فعلي وما هو معيار مثالي، وأنكر الخير المطلق، وبالتالي عالم الغايات الذي تركزت فيه الأخلاق المثالية بأسرها"، وأحل بدلاً من ذلك عالماً محايداً لا غاية له ولا هدف يتحرك حسب قوانينه الداخلية. والأخلاق الحقة محاولة تمكين هذه القوانين عن التحقق لأن الإنسان (بتحقيقه هذه القوانين) يضمن لنفسه البقاء، فالبقاء هو القيمة المطلقة الكبرى باعتبار أن قوانين الكون ثابتة (ويُعَدُّ هذا الطرح الإسبينوزي بداية الفكر البرجماتي).

سادساً: النظرية السياسية:

وفي هذا النسق الواحدي تماماً، الذي يُردُّ فيه الكمال إلى الواقع، ويُردُّ الإنسان إلى الطبيعة، ويتجرد الواقع تماماً من القيمة، ويتجرد الإنسان من القداسة ويفقد مركزيته: ما وضع الدولة؟ سنكتشف أن نظرية إسبينوزا عن الدولة امتداد لنظريته عن الطبيعة وقوانينها. ويذهب إسبينوزا إلى أن الإنسان لديه دافع طبيعي للمحافظة على نفسه، فغريزة البقاء جوهر الإنسان، ومن حق الإنسان أن يتخذ كل وسيلة لتحقيق هذا الغرض، وأن يعد كل من يحول بينه وبين المحافظة على نفسه عدوا له. ومن هنا، يود كل إنسان أن يعيش آمناً على حياته، متحرراً من الخوف. لكن من المستحيل تحقيق ذلك إذا مارس الإنسان حقه الطبيعي بطريقة طبيعية وفعل كل ما يريده. ولهذا السبب، لم يكن ثمة مفر لكل فرد من أن يتعاون مع غيره ويتفق معه من أجل تحقيق هذا الغرض، أي تحقيق بقاء النفس والعيش في وئام بدلاً من حالة الصراع الدائم. فقَبل الأفراد التنازل عن شريعة الطبيعة والخضوع لقانون العقل، كما تنازلوا عن بعض رغباتهم وحقوقهم الطبيعية لهيئة حاكمة في المجتمع الذي ينظمه القانون المدني لا القانون الطبيعي. فالاجتماع البشري يقوم إذن على المصلحة الشخصية المستنيرة، وهو أمر مختلف عن الحق الطبيعي والمصلحة المباشرة غير المستنيرة.

سابعاً: موقف إسبينوزا من الدين:

يمكننا أن نقول إن إسهام إسبينوزا الأكبر في تاريخ الفلسفة الغربية هو اكتشافه التوازي والترادف بين وحدة الوجود الروحية ووحدة الوجود المادية، وأن عبارة "لا موجود إلا هو" (أي الإله) هي نفسها عبارة "لا موجود إلا هي" (أي الطبيعة)، ومن ثَمَّ أمكنه (من خلال المنظومة الحلولية الكمونية) أن يُعلمن الفلسفة الغربية ويشيع الفكر الفلسفي الواحدي المادي دون أن يسبب أي فزع لأحد، ودون أن يدرك أحد أن النموذج الواحدي المادي بكل وحشيته ولا إنسانيته يوجد خلف غنائية الحلولية الكمونية الصوفية. بل يمكن القول بأنه نجح في توليد المنظومة العلمانية المادية من داخل المنظومة الدينية واستخدم مُصطلَحاتها الغيبية (كما يفعل كثير من العلمانيين العرب).

الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية في القرن الثامن عشر

بعد إسبينوزا لم يظهر داخل التشكيل الحضاري الغربي ولمدة قرنين من الزمان فيلسوف مهم من بين أعضاء الجماعات اليهودية. فجميع الفلاسفة البارزين من أعضاء الجماعات اليهودية وُلدوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدأوا يكتبون في العقود الأولى من القرن العشرين. هذا لا يعني أنه لم يظهر بينهم فلاسفة، ففكر حركة الاستنارة ترك أثراً كاسحاً فيهم، ففكر موسى مندلسون ("أفلاطون ألمانيا وسقراط اليهود" كما كان يُقال له) تنويع مباشر إن لم يكن اشتقاقاً مباشراً من فكر حركة الاستنارة والعقلانية المادية بكل نقطه الإيجابية والسلبية. كما تأثر المفكرون الدينيون والتربويون من أعضاء الجماعات اليهودية بالفكر الاستناري والربوبي وحركة التنوير اليهودية وهي ثمرة حركة الاستنارة.

وترك ظهور الفكر المعادي للاستنارة هو الآخر أثره العميق في المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية فظهر فكر عضوي يتحدث عن «تفرُّد اليهود» وعن «الشعب العضوي (فولك)» و«حركة التاريخ اليهودي» و«الشخصية اليهودية». وتبلور هذا الفكر في نهاية الأمر في الفكر الصهيوني. ولعل الانتقال من فكر حركة الاستنارة إلى فكر العداء للاستنارة يتبدَّى في ظهور اليهودية الإصلاحية (ثمرة حركة الاستنارة والتفكير الآلي) ثم اليهودية المحافظة (ثمرة حركة العداء للاستنارة والتفكير العضوي). ويبدو أن الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية يحققون بروزهم داخل الحضارة الغربية في لحظات

الانقطاع الحادة. فإسبينوزا ظهر عند ولادة المنظومة العلمانية في إطار العقلانية المادية (وتواري المنظومة المسيحية) وعبَّر عنها أبلغ تعبير. أما برجسون وهوسرل فظهرا بعد ميلاد اللاعقلانية المادية (بعد مقتل العقلانية المادية على يد نيتشه) وهما أيضاً عبَّرا عنها أبلغ تعبير.

١٤ـ علم الاجتماع وعلم النفس والجماعات اليهودية

علم الاجتماع والجماعات اليهودية

من الصعب تعيين نقطة محدَّدة ظهر عندها الفكر الاجتماعي (السوسيولوجي)، ذلك أن أي مؤرخ أو فيلسوف يتعرض لموضوعه الأساسي، وهو حياة البشر في جماعات، يجد نفسه ـ شاء أم أبى ـ يتطرق إلى موضوعات أصبحت في صميم علم الاجتماع. وهذا القول ينطبق على هيرودوت والبيروني وأرسطو. ولكن التطرق لحياة الجماعات البشرية يختلف إلى حدٍّ ما عن المحاولة الواعية أو شبه الواعية لدراسة حركة المجتمعات وقوانين تطورها. ولعل من أول المفكرين الذين حاولوا ذلك المفكر العربي ابن خلدون. ثم تصاعدت وتيرة هذه المحاولة في عصر النهضة في الغرب في كتابات فيكو وتوماس هوبز ثم في كتابات الفلاسفة الأخلاقيين الإسكتلنديين (آدم فرجسون وديفيد هيوم وآدم سميث). ولكن كلمة «علم الاجتماع» (سوسيولوجي) نفسها لم يتم نحتها إلا على يد أوجست كونت، ولم يظهر العلم إلا بعد الثورتين الفرنسية والصناعية ومع التحولات الطبقية التي خاضها المجتمع الغربي إبان عمليات تحديثه وعلمنته والتي تصاعدت وتيرتها بشكل ملحوظ مع منتصف القرن التاسع عشر.

ويُلاحَظ أنه، حتى ذلك التاريخ، لم تكن هناك أية إسهامات تُذكَر لأي مفكرين يهود، وبعد ذلك يُلاحَظ تزايد مساهمة المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية في هذا الحقل. وفي محاولة تفسير هذا الوضع، يمكن أن نسوق الأسباب التالية:

١ ـ ينتمي أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تنظر إلى المجتمع نظرة محايدة موضوعية.

٢ ـ يميل أعضاء الجماعات اليهودية (بسبب وضعهم الوظيفي) إلى التفكير في الواقع من خلال جوهر ثابت (الذات الوظيفية المقدَّسة) ومن خلال علاقات دينامية، أي من خلال حركيتها ورؤيتها للآخر المباح.

٣ ـ يميل أعضاء الجماعات الوظيفية والهامشية إلى النظر بطريقة نقدية إلى المجتمع.

٤ ـ تم إعتاق اليهود في أوربا في منتصف القرن التاسع عشر وكان من مصلحتهم معرفة القوانين التي تحكم المجتمع حتى يمكنهم التكيف معه والاستفادة من هذه القوانين.

٥ ـ يُقال إن النزعة المشيحانية عند اليهود لها أثر في إقبال بعض المفكرين اليهود على علم الاجتماع حتى يمكنهم اكتشاف نقائص المجتمع ومن ثَمَّ تثويره وتغييره.

٦ ـ تصوَّر كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية أن علم الاجتماع سيساهم في عملية علمنة المجتمع عن طريق كشف قوانينه. ولكننا سنلاحظ أن هؤلاء المفكرين اليهود الذين أقبلوا على دراسة علم الاجتماع هم يهود غير يهود، أي يهود فقدوا الأواصر الدينية أو الإثنية التي تربطهم بالجماعة اليهودية، فهم غرباء بالمعنى الحرفي للكلمة لا ينتمون إلى عالم اليهود ولا إلى عالم الأغيار، وهم نموذج جيد لإنسان العصر الحديث اللامنتمي الذي سقط في العدمية ونُزعت عنه القداسة فلا يملك إلا أن ينزع القداسة عن كل شيء. ويمكن أن نذكر بعض الأسماء الأساسية حتى تتضح هذه الفكرة: كارل ماركس وإميل دوركهايم وجورج زيميل ولودفيج جومبلوفيتش وكارل مانهايم وجورج لوكاش وماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو وهربرت ماركوز وريمون آرون وجورج فريدمان ودانيال بل.

ولا يمكن فهم هؤلاء إلا بوضعهم في سياقهم الحضاري والاجتماعي والفكري الغربي. ولا يمكن بأية حال أن نعيِّن خاصية محددة مشتركة بينهم نسميها «خاصية يهودية» فمنهم اليميني ومنهم اليساري، ومنهم المتفائل ومنهم المتشائم (وإن كانت أغلبيتهم تميل إلى التشاؤم). ومع هذا، يمكن أن نلاحظ أنهم جميعاً غير مستقرين تماماً في أي تيار فكري ينتمون إليه. ولكن هذه سمة كل المفكرين العظماء، الذين لا يمكنهم الاستقرار الكامل في أي نسق فكري مهما بلغت أصالته وتركيبه ولا تتسم أنساقهم الفكرية بالتناسق الهندسي البسيط.

ويُلاحَظ كذلك أن معظم هؤلاء العلماء لا يهتمون بالموضوع اليهودي اهتماماً خاصاً ولا يتعرضون له إلا في إطار اهتمامهم بالحضارة الغربية. فهم يتعرضون للموضوع اليهودي باعتباره موضوعاً غربياً حديثاً كما فعل ماركس في **المسألة اليهودية** حيث وضعها في إطار إشكالية ظهور الرأسمالية، وكما فعل دوركهايم في موضوع ظاهرة الانتحار بين اليهود (والكاثوليك والبروتستانت)،

وكما فعل زيميل مع الغريب، وكما فعل لودفيج جومبلوفيتش مع الأمة اليهودية حيث توقَّع اختفاءها. وهم في هذا لا يختلفون البتة عن ماكس فيبر أو ورنر سومبارت اللذين تناولا الموضوع اليهودي بشيء من الإسهاب في سياق الحديث عن أصول الرأسمالية الرشيدة. أما الصهيونية، فمعظم علماء الاجتماع من اليهود غير مكترث بها ولم يكتب عنها لا معها ولا ضدها.

إميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧)

أول عالم اجتماع فرنسي أكاديمي. وُلد في أبينال في مقاطعة اللورين التي لم تضمها فرنسا إلا في القرن السادس عشر، ولذا ظلت محتفظة إلى حد ما بطابعها الألماني. وكان أعضاء الجماعة اليهودية فيها من يهود اليديشية؛ يتحدثون رطانة ألمانية، ويعملون بالتجارة والربا، وغير مندمجين في المجتمع الفرنسي أو الثقافة اللاتينية (على عكس اليهود السفارد في الجنوب). ويمكن القول بأن التنظيم الاجتماعي للجماعة اليهودية في اللورين كان بسيطاً يتسم بما سماه دوركهايم فيما بعد «التضامن الآلي»، إذ كانت جماعة صغيرة يديرها الحاخام أو أحد الرؤساء. وكانت عائلة دوركهايم تنتمي إلى هذه القيادة، وكان أبوه حاخاماً، كما أن أجداده كانوا من الحاخامات. التحق دوركهايم بمدرسة المعلمين العليا. وكانت المدرسة مركزاً فكريا مهما في ذلك الوقت، إلا أن علم الاجتماع لم يكن قد احتل مكانته اللائقة بعد. وقد التقى هناك بزملاء كانوا فيما بعد رواد الفلسفة والعلم مثل الفيلسوف برجسون. ولم يكن دوركهايم طالباً متفوقاً وإن كان قد حظي ببعض كبار الأساتذة هناك من بينهم فوستيل دي كولانج وإميل بترو، كما تأثر بأعمال أوجست كونت وسان سيمون. وبعد تخرجه قرر أن يكرس نفسه للدراسة العلمية لعلم الاجتماع واشتغل بالتدريس في الجامعات الفرنسية كما اشتغل بتحرير **حولية علم الاجتماع** التي ظهر العدد الأول منها عام ١٨٩٨.

وثمة موضوعان أساسيان في علم الاجتماع عند دوركهايم، أولهما مشكلة النظام الاجتماعي في مجتمعات وصل فيها تقسيم العمل إلى درجات عالية من الشمول والتنوع، ويوجد فيها صراع بين الطبقات؛ مجتمع تصاعدت فيه معدلات التصنيع والتحديث والعلمنة، وغاب فيه اليقين الأخلاقي والتوقعات الاجتماعية المعتادة، وتُرك فيه الأفراد دون توجيه أخلاقي جماعي في محاولتهم الوصول إلى أهدافهم، وهذا هو ما أدَّى إلى تفكُّك المرجعية وغيابها وتزايد الأنانية والنفعية. وتمخض كل هذا عن حالة الأنومي أو اللا ميعارية، فاللا معيارية ليست حالة عقلية فردية وإنما ظاهرة اجتماعية. والإنسان حسب تصور دوركهايم حيوان لا يشبع (على عكس الحيوانات الأخرى)، وكلما ازداد ما يحصل عليه يزداد نهمه. ولذا، فلابد أن توضع رغباته الفردية داخل حدود خارجية جماعية. ولنا أن نلاحظ أن هذه الأفكار إعادة إنتاج للأفكار المسيحية، والكاثوليكية على وجه التحديد، الخاصة بالخطيئة الأولى للإنسان وبأنه لا خلاص للفرد خارج الكنيسة، فالخلاص لا يتم إلا بشكل مؤسسي. أما الموضوع الثاني، فهو طريقة حل هذه المشاكل. وكان دوركهايم يرى أن علم الاجتماع يمكنه أن يلعب دوراً حاسماً في البحث عن أساس جديد للتماسك الاجتماعي في المجتمع الحديث العلماني، ولذا انصب اهتمامه على محاولة أن يجعل علم الاجتماع تخصصاً أكاديميا مستقلا وعلماً ذا أسس منهجية ومعرفية مستقلة.

درس دوركهايم ظاهرة الانتحار في إطار علم الاجتماع، فبيَّن أن الانتحار ليس انحرافاً نفسيا فرديا كما كان متصوَّراً وإنما حقيقة اجتماعية، فحاول الربط بين معدلات الانتحار كما حدده والفروق في التضامن الاجتماعي بين الجماعات المختلفة، فوجد أنه كلما تآكلت الضوابط المجتمعية والروابط الأسرية ضعف التضامن وزادت عزلة الفرد الاجتماعية وتعرَّض النظام السياسي والاجتماعي للانهيار، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور حالة اللا معيارية، فإن معدلات الانتحار تتزايد. فالانتحار يرتبط ارتباطاً عكسيا بدرجة التكافل في المجتمع.

وبيَّن دوركهايم أن معدل الانتحار في أوربا يزداد في الدول البروتستانتية عنه في الدول الكاثوليكية، وتقل نسبة الانتحار بين اليهود عنها بين الكاثوليك والبروتستانت، ويرجع هذا إلى ما يتمتع به البروتستانت من حرية البحث فضلاً عما يشيع بينهم من فردية نتيجة ضعف التضامن بين جماعاتهم. أما انخفاض معدلات الانتحار بين اليهود، فيرجع إلى شعورهم غير العادي بالتضامن الذي ولَّده بينهم ما تعرضوا له من مذلة وما تتميز به حياتهم من انعزالية. وما أنجزه دوركهايم في دراسته عن الانتحار هو توضيح الأبعاد الاجتماعية لظاهرة قد تبدو نفسية، وتأكيد إسهام علم الاجتماع في كشف أسباب اللا معيارية التي تؤدي إلى هذه الظاهرة، ومن ثَمَّ يصبح علم الاجتماع قادراً على اقتراح حلول لمشاكل المجتمع الحديث، وهذا جوهر مشروع دوركهايم المعرفي.

وفي كتابه الأخير المهم **الأشكال الأساسية للحياة الدينية** يطرح دوركهايم رؤيته للدين وللعلاقة بين الدين والمجتمع. وينتمي دوركهايم لخط طويل من المثقفين الفرنسيين المؤمنين بحتمية الدين

كظاهرة. فالدين ليس سمة من سمات السلوك الفردي، ولا اختيارا شخصيا، وإنما بُعد أساسي في الحياة الجماعية لا يستقيم المجتمع بدونه. وقد واجه هؤلاء المثقفون الإشكالية التي يمكن أن نطلق عليها «إشكالية موت الإله في المجتمعات العلمانية»، وهي الإشكالية التي اكتشفها دوستويفسكي حين قال: إذا لم يكن الإله موجوداً، فكل شيء يصبح مباحاً. ويمكن أن نعيد صياغة هذه الفكرة على النحو التالي: إذا مات الإله اختفى المطلق المتجاوز للواقع المادي الذي تؤمن به الجماعة، أي اختفت المرجعية ومن ثَمَّ لم تَعُد هناك حدود للفرد، وأصبح كل فرد مرجعية نفسه وحاول تحقيق نفسه وصالحه كفرد. ومن ثَمَّ تظهر الإشكالية التالية: كيف يمكن التوفيق بين الصالح العام والاتجاهات الفردية في المجتمع؟ كيف نحمي المجتمع من السقوط في الإشكالية الهوبزية: حرب الجميع ضد الجميع؟ هذه هي الإشكالية الأساسية الكامنة في فلسفة المنفعة العلمانية التي تذهب إلى أن مصدر التماسك في المجتمع ومصدر حركته سعْي كل فرد نحو مصلحته الشخصية لتحقيقها، وأن الفرد حين يحقق مصلحته الشخصية يحقق الصالح العام بشكل تلقائي، وأن التناسق يتم من خلال الصراع بشكل آلي. فالسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يحدث هذا؟ لماذا لا يستمر الإنسان الفرد في تحقيق مصالحه حتى يدمر نسيج المجتمع نفسه؟ أفليست المصلحة الذاتية هي الحقيقة المطلقة وتحقيقها الهدف، خصوصاً وأن دوركهايم أكد أن الإنسان حيوان شره لا تتوقف رغباته عند أية حدود؟ الدين حتمي إذن، ولكن الميتافيزيقا غير مقبولة في عصر العقل المادي والعلم والاستنارة والتفسيرات المادية، فما المخرج إذن؟ لقد حاول هؤلاء المثقفون الفرنسيون أن يحلوا المشكلة بالتوصل إلى دين جديد إنساني مُخلَّق يتوصل إليه العقل البشري ليحل محل الدين التقليدي الذي يفترض المؤمنون به أنه مُرسَل من السماء. وبدأت هذه المحاولة بعبادة العقل إبان الثورة الفرنسية، وحاول سان سيمون طرح رؤيته للمسيحية الجديدة، وطرح أوجست كونت رؤيته لديانة الإنسانية، وهو تقليد ليس مقصوراً بأية حال على المثقفين الفرنسيين وإنما يمتد ليشمل كل المحاولات الرامية إلى تأسيس مجتمع علماني صرف يُغيِّب الإله أو يهمشه، فالفلسفة الماركسية تطرح ديانة الطبقة العاملة الجديدة، والليبرالية تطرح نفسها ديانة التقدم الدائم والانتصار المستمر للعقل (حتى أعلن فوكوياما نهاية التاريخ). أما دوركهايم، فيحاول حل الإشكالية عن طريق تعريف الدين ليصل إلى ما يمكن تسميته «دين بدون إله» أو «لاهوت بدون إله» (وهو لاهوت موت الإله قبل أن تُطبَّق على الإنسان الغربي رؤيته التشاؤمية بشأن العدمية الكامنة في مثل هذه الرؤية).

ويمكن القول بأن دوركهايم هو إسبينوزا علم الاجتماع الذي استبعد كل المطلقات من منظومته واستبعد الغائية والهدف. وأدَّى كل هذا إلى استبعاد الإنسان ككائن حر قادر على الاختيار والفرح والحزن، وكلاهما كان يشعر بالغبطة الشديدة لإنجازه الفلسفي، ذلك أنهما لم يدركا ما في موقفهما من شمولية وإطلاق وعداء جذري للإنسان. ولعل الفارق الوحيد بين إسبينوزا ودوركهايم ينبع من واقع أن الأول كان يدور في نطاق الصورة المجازية الآلية على حين أن الثاني كان يدور في إطار صورة مجازية عضوية حيوية (ولكنها، شأنها شأن صورة المجازية الآلية، تبتلع الإنسان وتفترض أسبقية المجتمع على الفرد كما تفترض أن أفعال الإنسان إن هي إلا جزء لا يتجزأ من حركة اجتماعية تطورية كبرى). وكلاهما يدور في إطار حلولية بدون إله أو وحدة الوجود المادية. وإذا كان إسبينوزا قد احتفظ بالإله وساوى بينه وبين الطبيعة، فإن دوركهايم ألغاه وخلع صفاته وقدراته على المجتمع. ورغم هذا الاختلاف، فإن كليهما وضع المطلق في نهاية الأمر داخل المادة، وجعل المادة (الطبيعة أو المجتمع) شيئاً مكتفياً بنفسه ومصدراً للتماسك والحركة، فكلاهما يؤمن بأن ثمة نظام ضروري وكلي للأشياء، نظام ليس فوق الطبيعة وحسب ولكنه فوق الإنسان أيضاً. وهو نظام كامن في الطبيعة عند إسبينوزا وكامن في المجتمع عند دوركهايم.

فأين تكمن خصوصية دوركهايم اليهودية؟ إن السياق الكلي والأساسي الذي يتحرك داخله دوركهايم هو الفكر الغربي العلماني الحديث الذي لا تختلف بنيته عما بيَّنا من قبل، ولا يمكن فهم فكره إلا في إطار هذا الفكر، بل لا يمكن فهم خصوصيته إلا في إطار خصوصية الفكر الفرنسي العقلاني المادي (الكاثوليكي في بعض أشكاله). ولا شك في أن جذور دوركهايم اليهودية لعبت دوراً في تأكيد بعض العناصر (الحلولية المتطرفة) وفي بلورة بعض العناصر الأخرى (أهمية التضامن في المجتمع والفكر العضوي)، ولكن المنظومة بقضها وقضيضها تظل منظومة علمانية عقلانية مادية بكل ما تتسم به هذه المنظومة من وضوح ومادية وتبسيط.

علم النفس وأعضاء الجماعات اليهودية

يضم العهد القديم والتلمود إشارات عديدة إلى أعراض واضطرابات في السلوك تدل على أمراض نفسية وعقلية. ولم ير العهد القديم هذه الاضطرابات باعتبارها نوعاً من أنواع المرض، بل اعتبرها نتيجة تملك روح شريرة جسد الإنسان، ورأى ضرورة رجم

الشخص الذي تملكته روح شريرة حتى الموت. وتأثر اليهود خلال العصر اليوناني بآراء فلاسفة اليونان وأطبائهم الذين كانوا أول من نظر إلى الأمراض النفسية نظرة علمية وربطوا بين الاضطرابات العقلية والاضطرابات الفسيولوجية. ويذهب التلمود في بعض أجزائه إلى أن اضطرابات السلوك والجنون نوع من أنواع المرض، واهتم التلمود أيضاً بوضع الشرائع التي تحدد المسئولية العقلية للمريض ووضعه في المجتمع. كما تناول التلمود وأدب المدراش قضايا عديدة حول سلوك الفرد وعلاقته بالمجتمع، وحول القيم والمواقف، وأساليب التهذيب والعقاب. واعتبر التلمود أن الأحلام ذات مصدر إلهي، وكتب أحد الحاخامات كتباً عن الأحلام مماثلة لكتب قدماء المصريين واليونانيين. كما تأثر الفلاسفة من أعضاء الجماعات اليهودية بمفهوم ورؤية اليونانيين لطبيعة ودور الروح والعقل والذكاء.

وفي العصور الوسطى في الغرب، اعتمد الأطباء من أعضاء الجماعات اليهودية، مثلهم مثل غيرهم من الأطباء، على النظريات اليونانية والرومانية في الطب، وانتشر الطب الشعبي بين أعضاء الجماعات اليهودية ويذهب الطب الشعبي إلى أن الأمراض العقلية والنفسية علامة على أن الأرواح الشريرة تتملك جسد الإنسان وأنها إحدى علامات الصراع بين قوى الخير وقوى الشر وكانت تعالج بالأحجبة والتعويذات والأناشيد وأحياناً بالتعذيب والسجن. وتناولت كثير من أعمال الفلاسفة والأطباء من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي العديد من القضايا النفسية. فعلى عكس الغرب، احتل الطب في العالم الإسلامي مكانة رفيعة، وأدرك أطباء الإسلام حقيقة العلاقة بين النفس والجسم والتفاعل الوثيق بينهما وأحسنوا معاملة المصابين بالأمراض العقلية ونجحوا في علاج كثير من هذه الأمراض علاجاً نفسيا. وكان من أبرز من تناول القضايا النفسية الفيلسوف موسى بن ميمون الذي كتب عدة كتب في الطب في القرن الثاني عشر وتعرض للاضطرابات الجسدية الناتجة عن اضطرابات عقلية أو عاطفية. وقد تضمنت الحركة الحسيدية التي ظهرت في القرن الثامن عشر في الغرب كثيراً من الجوانب النفسية، إذ استمدت الكثير من الأفكار من القبَّالاه، كما أكدت تعاليمها أهمية النواحي الروحية والعاطفية.

وفي العصر الحديث، بدأ إخضاع الطبيعة الإنسانية والاضطرابات والأمراض النفسية والعقلية للبحث والدراسة العلمية. وشهد القرن التاسع عشر بداية صعود الطب النفسي وبداية توصيف وتصنيف الأمراض العقلية والنفسية وبداية معاملة المرضى معاملة إنسانية طبية. كما تأسست أقسام لعلم النفس الأكاديمي في الجامعات الأوربية وانتشرت معامل علم النفس في المدن الأوربية والأمريكية. وظهرت مدارس عديدة في علم النفس تطرح كل منها تفسيراتها ونظرياتها الخاصة حول حقيقة السلوك والطبيعة البشرية ودوافعها.

وأدَّى انعتاق أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى إتاحة الفرصة لهم للالتحاق بالجامعات الأوربية حيث وجدوا في المجالات العلمية التي كانت لا تزال حديثة وهامشية، مثل علم النفس، فرصاً أكبر للحراك والتقدم العلمي لم تكن متوافرة في المجالات العلمية الأقدم والأكثر عراقة. وشكَّل أعضاء الجماعات اليهودية نسبة كبيرة في حقل علم النفس الأكاديمي بجميع فروعه ومدارسه، كما لعبوا دوراً ريادياً في الطب النفسي وفي نشأة التحليل النفسي ومدارسه. ومع هذا، لا يمكن الحديث عن «علم نفس يهودي» أو «تحليل نفسي يهودي» وهكذا، فالمحللون النفسيون وعلماء النفس من أعضاء الجماعات اليهودية يختلفون فيما بينهم ويتخاصمون وينتمون لمدارس وتيارات فكرية متصارعة، أُسُسها الفلسفية مختلفة.

وقد اشترك بعض أعضاء الجماعات اليهودية في تأسيس بعض معامل علم النفس في كلٍّ من بلجيكا وهولندا وألمانيا والولايات المتحدة في نهايات القرن التاسع عشر. وقد كان أوتو سيلز عضواً بارزاً في مدرسة ويرزبورج لعلم النفس التي اهتمت بدراسة العمليات المصاحبة للتفكير. كما أسس ماكس فيرتهايمر (١٨٨٠ - ١٩٤٣) (بالاشتراك مع كرت كوفكا وولفجانج كوهلر) علم نفس الجشطالت، وكان أغلب مؤسسي هذه المدرسة من أعضاء الجماعات اليهودية.

أما في مجال الطب النفسي، فكان سيزار لومبروزو أول طبيب نفسي من أعضاء الجماعات اليهودية، وقد صدر له عام ١٨٦٤ كتاب **العبقرية والجنون** وقدَّم فيه عرضاً لجوانب الشخصية الإجرامية التي أرجعها إلى خصائص وراثية وربطها ببعض الظواهر التشريحية. وكان هيبوليت برنهايم (١٨٣٧ - ١٩١٩)، من أوائل من وضعوا لبنات المدرسة النفسية التي رأت أن كثيراً من الاضطرابات العقلية ناشئة عن أسباب نفسية، على عكس المدرسة العضوية في ذلك الوقت التي كانت ترى أن الاضطرابات العقلية ناتجة كلها عن علل عضوية. ويعود الفضل لسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) في إقامة البناء النظري الذي تأسس عليه التحليل النفسي الحديث. ورغم المعارضة التي واجهت نظرية فرويد في

البداية، إلا أنه بدأ يضم حوله مجموعة من الأتباع، وسرعان ما أخذت تعاليم التحليل النفسي في الانتشار واعترف بها علم النفس الأكاديمي وامتدت إلى مجالات أخرى مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والنقد الأدبي والفني والتربية.

وقد اختلف بعض أتباع فرويد معه ومن أبرزهم ألفريد أدلر وأوتو رانك (وهما يهوديان) وكارل يونج، وانتهى بهم الأمر إلى الانفصال عن مدرسته وتأسيس مدارس أخرى في التحليل النفسي. وقد اختلف أدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٧) مع فرويد حول مدى أهمية الغريزة الجنسية في تكوين الأمراض العصابية، ورأى أن "الشعور بالنقص" الذي ينشأ في الطفولة، سواء نتيجة ضعف أو نقص بدني أو متاعب وصعوبات في بيئة الطفل، السبب الأول في تكوين هذه الأمراض. واعتبر أن دافع القوة وتفرُّد الذات القوة الإيجابية المسيطرة على الحياة على خلاف فرويد الذي اعتبر الدافع الجنسي القوة المهمة الفعالة. وأطلق أدلر على نظريته الجديدة "علم النفس الفردي". أما أوتو رانك (١٨٨٤-١٩٣٩)، فظهر خلافه مع فرويد في كتابه الذي عزى فيه أسباب الأمراض العصابية إلى تجربة الميلاد نفسها حيث تمحورت نظريته حول الأم وعلاقة الابن بها. وبينما رأى فرويد أهمية فهم وإدراك الذات والتخلص من الأوهام، أكد رانك أهمية التعبير عن الذات وأهمية الأوهام وقيمتها العلاجية.

وقد أثارت حقيقة أن مؤسسي التحليل النفسي ورواده الأوائل كانوا جميعهم تقريباً من أعضاء الجماعات اليهودية كثيراً من الجدل حول مدى العلاقة بين ظهور نظرية التحليل النفسي ومضمونها والانتماء أو الأصل اليهودي، وذلك رغم أن فرويد وأتباعه كانوا من اليهود المندمجين غير المتمسكين بممارسة الشعائر والتقاليد الدينية اليهودية، بل كانوا يسخرون من اليهود غير المندمجين، خصوصاً يهود شرق أوربا. وقد تنصَّر بعض أتباع فرويد حيث اعتنق أدلر البروتستانتية واعتنق رانك الكاثوليكية، لكن رانك عاد مرة أخرى إلى اليهودية عند زواجه. غير أن كل هذا لا ينفي وجود التأثير اليهودي في فكرهم، فرغم رفضهم العقلي لليهودية ورغم اندماجهم في بيئتهم الثقافية والاجتماعية إلا أن تكوينهم الثقافي والاجتماعي اليهودي الخاص كان له تأثير لا شك فيه على كلٍّ منهم يتفاوت من حالة إلى أخرى. وقد تعدَّدت وتباينت التفسيرات في هذا الصدد، فذهب البعض مثل إرنست جونز أحد أتباع فرويد وكاتب سيرته الذاتية (وهو غير يهودي) إلى نفي أية أهمية أو دلالة للانتماء اليهودي لفرويد وأتباعه، ولكنه كان يرى أيضاً أن تمسك فرويد بنظريته وأفكاره (رغم المعارضة الشديدة التي واجهته) ينهض دليلاً على قدرة اليهود "الموروثة" على الصمود أمام العداء والرفض، وهو تفسير سطحي متهافت. وفي محاولة تفسير وجود عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية كمؤسسين لعلم النفس والتحليل النفسي وكممارسين له، يمكننا أن نورد هذه الأسباب كمحاولة مبدئية:

١ - يُلاحَظ أن أعضاء الجماعات الوظيفية يوجدون في المجتمع وليسوا منه، وهو ما يطوِّر عندهم الحاسة النقدية بشكل قد يكون مرضيا وعدميا أحياناً. وهم، نظراً لعدم تجذرهم في المجتمع، يهتمون بالنماذج الهامشية والمرضية وتصبح عندهم مقدرة غير عادية على فهمها والتعامل معها، خصوصاً وأن عضو الجماعة الوظيفية عنده كفاءة في التعامل مع الآخر باعتباره موضوعاً أو مجرد حالة، باطنه مثل ظاهره، لا حرمة له ولا قداسة، تتم دراستها ورصدها وتوظيفها والاستفادة منها. وهذه القدرة على التعامل بشكل محايد ومتجرد مع خبايا النفس البشرية مقدرة لا تتوافر لكثير من البشر، ولابد أن تتوافر (بشكل أو بآخر) فيمن يود أن يضع أسس علم للنفس بحيث تُدرَس النفس البشرية كما تُدرَس الأشياء الطبيعية، أو حتى باعتبارها أمراً أكثر تركيباً. والواقع أن اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية جعل عندهم تقبلاً واستعداداً نفسيا وفلسفيا كامناً لأن يتركزوا في علم النفس وفي التحليل النفسي حينما ظهر هذا العلم. ولعل هذا هو ما أعرب عنه فرويد في محاضرة له أمام رابطة أبناء العهد عام ١٩٢٦ حين قال إنه (باعتباره يهوديا) قد تحرَّر من التحيزات والآراء المسبقة التي تقيد الحرية الفكرية لغير اليهود (مثل الإيمان بقداسة الإنسان)، وأن كونه يهوديا يسَّر له الانضمام إلى الجبهة المعارضة لأفكار وفلسفات الأغلبية. وأعضاء الجماعة الوظيفية مغامرون يكتشفون الآفاق الجديدة ويحاولون فتح مجاهلها والاستفادة منها، ولابد أن علم النفس والتحليل النفسي كانا أحد المجالات الجديدة التي ارتادها الأطباء من أعضاء الجماعات اليهودية.

٢ - ويمكن أيضاً أن نستخدم نموذج الحلولية (مقابل التوحيد) لتفسير تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في التحليل النفسي. ويمكن أن نذكر ابتداءً أن أعضاء الجماعة الوظيفية يتبنون رؤية حلولية للواقع (تضعهم داخل دائرة القداسة وتضع الآخر خارجها)، وأن القبَّالاه الحلولية سيطرت تماماً على اليهودية ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر. والحلولية ترى أن الإله يحل في الإنسان والطبيعة ويتوحد بهما ويوحدهما بحيث يصبح الإله والإنسان والطبيعة شيئاً واحداً، وهذا يعني في واقع الأمر إلغاء كل الثنائيات بحيث يصبح الإنسان

مادة مثل الطبيعة، يحوي داخله كل ما نحتاج إليه لفهمه وتفسيره، ويصبح سلوكه (البراني) وسيلة الوصول إلى عالمه (الجواني).

ويُلاحَظ أن النموذج الحلولي يدور دائماً حول الجنس (والأرض) وهذا ما حدث في القبَّالاه التي وُصفت بأنها تجنيس للإله وتأليه للجنس (بمعنى الغريزة الجنسية). ويُلاحَظ أخيراً أن المنظومة الحلولية ترتبط دائماً بالحل السحري وبمحاولة الوصول إلى الصيغة السحرية التي تشفي الآلام، كما أنها رؤية تتجاوز مقاييس الخير والشر وتدور في واقع الأمر حول مفاهيم مثل لذة الوصول ومتعة الذوبان. والرؤية الحلولية (خصوصاً في مرحلة الحلولية بدون إله ووحدة الوجود المادية) تخلق أيضاً استعداداً نفسيا كامناً لدى من يتحرك في إطارها لأن يتكشف علماً مثل علم النفس يحاول التعامل مع النفس البشرية باعتبارها كياناً مكتفياً بنفسه لا يمكن الحكم عليه أخلاقيا. فمهمة المحلل النفسي أن يساعد المريض في أن يرى نفسه (أو يقبلها) خارج إطار المعايير الأخلاقية، معايير الخير والشر، وأن يتحرك داخل مفهوم تحقيق الذات وراحتها!

٣ـ ولعل الاتجاه المعادي للتاريخ وللوجود الإنساني داخل حدود التاريخ والمصاحب للرؤية الحلولية، والذي يمارسه أعضاء الجماعات الوظيفية بدرجات متفاوتة، ساهم هو الآخر في تعميق قابلية أعضاء الجماعات اليهودية للاشتغال بعلم النفس الذي تنحو كثير من اتجاهاته نحو تفسير سلوك الفرد في إطار معطيات نفسية ليست بالضرورة على علاقة كبيرة بمعطيات التاريخ.

٤ـ لاحظ بعض الدارسين أن ثمة تشابهاً بين مناهج التفسير في اليهودية ومناهج التفسير في علم النفس. فالمفسرون اليهود كانوا يدورون في إطار الشريعة الشفوية، وهو مفهوم حلولي يساوي بين الوحي الإلهي (المكتوب) والاجتهاد البشري (الشفهي)، بل يجعل الاجتهاد الشفوي أكثر أهمية وفعالية من النص المقدَّس. كما ظهر مفهوم التوازي بين توراة الخلق (العادية الظاهرة) وتوراة الفيض (الباطنة)، ولا يمكن التوصل إلى توراة الفيض إلا من خلال إعادة تفسير وتأويل النصوص الدينية الواضحة الظاهرة بحيث يتجاوز المفسر المعاني المباشرة ويعلو عليها ويصل إلى المعنى الباطني. وقد اعتمد التحليل النفسي أيضاً على المفسر الوسيط الذي يُحلل النص ليكتشف وراءه المعنى الباطني (الذي يشبه التوراة الشفوية أو حتى توراة الفيض).

٥ـ إذا كانت الحلولية تُلغي الثنائيات بحيث يصبح الإنسان جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة، غير قادر على تجاوزها، فإن الانتماء إلى الجماعة الوظيفية يُنجز شيئاً مماثلاً، إذ أن عضو الجماعة الوظيفية يرى نفسه في إطار وظيفته بحيث لا يصبح له وجود خارجها، وغير قادر على تجاوزها. فالإنسان الحلولي والإنسان الوظيفي لهما بنية واحدة، رغم اختلاف المضامين، وجوهر هذه البنية هو الواحدية. ويخلق هذا الوضع استعداداً كامناً للعلمنة بين أعضاء الجماعات الوظيفية، فالعلمانية تدور حول مفهوم الإنسان الطبيعي الذي تدور حوله الفلسفة العقلانية المادية ويتفرع إلى الإنسان الاقتصادي (الوظيفي) الذي يدور حول الاقتصاد السياسي، والإنسان الجسماني أو الجنسي، الموضوع الأساسي لبعض أشكال علم النفس.

ولكن كل هذه الأسباب لا تجعل أعضاء الجماعات اليهودية مسئولين عن ظهور علم النفس والتحليل النفسي. فهذه أمور مرتبطة بتطور الحضارة الغربية وعلمنة ظاهرة الإنسان بحيث تُلغَى كل الثنائيات ويُدرَس الإنسان في إطار غرائزه وسلوكه، ويحل مفهوم النفس (العلماني) محل مفهوم الروح (الديني). وتجب الإشارة هنا أيضاً إلى أن التحليل النفسي وُلد في فيينا التي كانت تُعَدُّ في نهاية القرن مركزاً ثقافيا وفكريا مهماً يموج بالعديد من النظريات والقيم والمعايير الجديدة في الفكر والأدب والفنون. وكان ظهور التحليل النفسي جزءاً من هذه العملية الانقلابية وأحد مظاهر التحولات الجديدة التي كانت تهدِّد القيم والأفكار السائدة حول الدين والإنسان والمجتمع.

وقد واجه التحليل النفسي هجوماً حادا بسبب ما كان يشكله من تهديد للمفاهيم السائدة حول السلوك البشري بشكل عام والسلوك الجنسي بشكل خاص. ولأن رواده كان أغلبهم من اليهود، فقد تضاعف الهجوم عليه من قبل المعادين لليهود. ومع مجيء النازية إلى أوربا، انتقل كثير من علماء النفس الأوربيين اليهود إلى الولايات المتحدة.

ولم يكن أعضاء الجماعات اليهودية من رواد التحليل النفسي في الولايات المتحدة، ولم يبدأوا في دخول هذا المجال بشكل واسع إلا بعد انتقال علماء النفس اليهود الأوربيين إلى الولايات المتحدة. إذ انتقلت معهم أيضاً بعض مدارس علم النفس الأكاديمي المهمة مثل الجشطالت. وكان لأعضاء الجماعات اليهودية، خصوصاً في الولايات المتحدة، مساهمات مهمة ومتنوعة في بلورة النظريات الخاصة بعلم النفس في الفترة المعاصرة. ويُلاحَظ أن التحليل النفسي منتشر في الوقت الحاضر في أمريكا اللاتينية، خصوصاً في الأرجنتين، لكن أعضاء الجماعات اليهودية لم يلعبوا دوراً فكريا مهما داخل هذا التشكيل الحضاري.

وقد كان من بين الأجيال الأولى للمحللين النفسيين من أعضاء

الجماعات اليهودية مَنْ تعاطفوا مع الصهيونية وأيدوها مثل سيجفريد بيرنفلد الذي ساهم في تنظيم الشباب الصهيوني في ألمانيا. وماكس إيتنجتون، الذي أسس أول معهد تدريبي وأول عيادة للتحليل النفسي في برلين عام ١٩٢٠، ثم استقر في فلسطين عام ١٩٣٣ وأسس بها جمعية ومعهداً للتحليل النفسي لا يزالان موجودين حتى الآن. ولكن هناك من المحللين النفسيين من أعضاء الجماعات اليهودية مَن رفض الصهيونية أو لم يكترث بها أصلاً.

سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩)

مفكر من أعضاء الجماعة اليهودية في النمسا مؤسس مدرسة التحليل النفسي، ويُعَدُّ من أهم المفكرين الغربيين، إن لم يكن أهمهم طُرا، لا يضارعه في مكانته (في رأي البعض) سوى كارل ماركس. وقد أثَّر التحليل النفسي في معظم المدارس والاتجاهات الفكرية الغربية الحديث، حتى إن كثيراً من أفكار فرويد أصبحت بُعداً أساسيا في الخطاب الحضاري الغربي الحديث. ولعل النسق الفرويدي من أهم الأنساق المعرفية التي وضعت أساس النسبية الأخلاقية التي أصبحت سمة أساسية في رؤية الإنسان الغربي للكون. وقد اكتسب فرويد مزيداً من الأهمية والمركزية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي (والمنظومة الماركسية) ومع شيوع فكر ما بعد الحداثة والتمركز حول الأنثى والاهتمام المتزايد بالجسد والجنس والإنسان الجسماني في الحضارة الغربية الحديثة.

والسياق الحضاري لنظريات التحليل النفسي هو الحضارة الغربية الحديثة في العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر، التي هيمنت عليها العلمانية الشاملة (وحدة الوجود المادية) باعتبارها رؤية للكون. وقد تفرَّعت عنها أيديولوجيات وظواهر أخرى مثل الإمبريالية والعنصرية والصهيونية، هي جميعاً تنويعات على الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة. ونحن نَصف العلمانية الشاملة بأنها رؤية حلولية كمونية واحدية مادية ترى أن مركز العالم كامن فيه، وأن كل ما يلزم لتفسيره يوجد بداخله، وهو ما يعني أن العالم إن هو إلا مادة قابلة للحوسلة، وأن كل الظواهر، وضمنها الإنسان، تُفسَّر في إطار قوانين الحركة المادية.

في هذا الإطار الطبيعي/ المادي تظهر نظرية المنفعة (واللذة) التي تجعل الهدف النهائي، وربما الوحيد، للحياة تحقيق اللذة، كما يظهر مفهوم الحتمية المادية، حجر الأساس بالنسبة للعديد من نظريات وأيديولوجيات القرن التاسع عشر. لكن الحتمية المادية الصارمة تعني في واقع الأمر ظهور الإنسان أحادي البُعد الذي يُحركه عنصر واحد أو عنصران ماديان مثل العنصر الاقتصادي أو العنصر الجنسي. فظهر علم النفس الترابطي الآلي الذي يُفسِّر الإنسان في كليته باعتباره كائناً بسيطاً يدخل بقضه وقضيضه في شبكة السببية المادية الصلبة (وفيما بعد ظهر بافلوف والمدرسة السلوكية تعبيراً عن الاتجاه الاختزالي نفسه).

ولكن هذه الهيمنة الكاملة للعقلانية المادية تعني في واقع الأمر ظهور اللاعقلانية المادية، فضمور الإنسان باعتباره كائناً حرا مسئولاً عن أفعاله، مستقلا عن الطبيعة، يعني في واقع الأمر أن العقل الإنساني عديم الجدوى وكذلك القيم الإنسانية والفعل الإنساني، وهذا يعني حتمية ظهور نموذج آخر يملأ هذا الفراغ. وبالفعل شهدت أوربا تدريجيا ظهور فكرة اللاشعور وبدأ الاهتمام بالتنويم المغناطيسي. وقد شاعت فلسفة شوبنهاور (التصوفية الحلولية) وفلسفة نيتشه التي تمجد الفرد والإرادة، وفلسفات القوة التي تمجد السوبرمان الإمبريالي، وتدعو ضمناً السبمان، أحادي البُعد، إلى أن يذعن للقوانين الطبيعية وقوانين الواقع، وهو ما كرسه كثير من الفلسفات المادية الواقعية مثل البرجماتية.

وفرويد ابن عصره، فرؤيته للكون حلولية واحدية مادية، علمانية شاملة، تدور حول فكرة الإنسان الطبيعي/ المادي في جانبيه العقلاني واللاعقلاني، وقد تأثر بداروين ورؤية جوته الحلولية للطبيعة. قال جوته في **مقال عن الطبيعة**: "أيتها الطبيعة أستحلفك مرات ومرات أن تقدمي لنا الإجابة عن كل أسرارك". فالسر ليس سرا وإنما ظاهرة طبيعية/ مادية ويمكن اكتشافه، وحينئذ يصبح قانوناً عاما (كان فرويد يتصور أن علم الأعصاب سيكتشف الأساس الفسيولوجي لتصوره للنفس البشرية)، فالإنسان كائن طبيعي/ مادي، تخضع حركاته وسكناته لقوانين الطبيعة. ومن ثَمَّ فالسلوك الإنساني ليس عشوائيا، بل إن الظواهر النفسية، سواء كانت أعراض مرض أو سقطات ذاكرة أو عثرات لسان، قد تبدو كأنها لا معنى لها وغير مفهومة، يسودها الاعتباط والتفكك أو الصدفة، ولكنها في واقع الأمر ظواهر لها معنى يمكن اكتشافه، فهي نتيجة منطقية للأسباب التي ارتبطت بها وأدَّت إليها. لذا فالسلوك الإنساني يتبع نمطاً محدداً له معنى كامن يمكن اكتشافه ودراسته بشكل علمي منهجي، تماماً كما تُدرَس الكائنات الأخرى مثل الحيوان.

ورؤية فرويد للإنسان شأنها شأن أية رؤية مادية، فهي رؤية صراعية إلى حد كبير. فهناك بطبيعة الحال رؤيته للعدوان كمحرك أساسي للإنسان، ولذا نجد الصراع في كل مكان: الإنسان في صراع

مع الحضارة - الأنا في صراع مع الهو - الإيروس في صراع مع الثناتوس - الأب مع الابن - البنت مع الأم - الذكر مع الأنثى - آليات الدفاع ضد اللبيدو مقابل آليات الاقتحام والالتفاف.

إن الرؤية الفرويدية جزء من حركة تفكيكية تقويضية عامة بدأت في واقع الأمر مع المشروع التحديثي الغربي، وتصاعدت حدتها في القرن التاسع عشر، ثم وصلت إلى قمتها مع الحركة التفكيكية في أواخر القرن العشرين. وكان فرويد يدرك أنه جزء من هذه الحركة التفكيكية التقويضية، فقد وصف نفسه بأنه أحد ثلاثة طعنوا نرجسية الإنسان (أي قاموا بتفكيكه ورده إلى المادة): كوبرنيكوس وداروين وفرويد نفسه. وفرويد محق في ذلك تماماً فكوبرنيكوس بيَّن للإنسان أن الأرض ليست مركز الكون، ومن ثَمَّ فالإنسان ليس ذا أهمية خاصة في النظام الشمسي، وإنما مجرد جزء من كل. وعمَّق داروين هذا الاتجاه حين بيَّن أن الإنسان سليل القرود وابن الطبيعة الذي أنتجته من خلال عملية تطورية ليس لها هدف واضح ولا يحظى الإنسان فيها بأهمية خاصة. وأخيراً جاء فرويد ليُبيِّن أن القرد لا يوجد خارج الإنسان وحسب وإنما يوجد داخله وفي صميم كيانه. فإذا كان كوبرنيكوس وداروين حطما أي تفرُّد خارجي للإنسان، فإن فرويد حطم أيضاً أوهام التفرُّد الداخلي بحيث يصبح الإنسان خاضعاً لقوانين الطبيعة/ المادة من الداخل والخارج، ومن ثَمَّ تم تحويله إلى مادة كاملة.

ويذهب كثير من مؤرخي الأفكار إلى القول بأن التحليل النفسي "علم يهودي" يضرب بجذوره في طبيعة اليهود النفسية (وهذه مقولة أخذ بها النازيون وكثير من الصهاينة). والمدافعون عن هذا الرأي يسوقون قرائن عديدة من بينها أن اليهود دائمو التأمل في أسباب الظواهر، ويتضح هذا في مزامير داود وفي التلمود. وهذا التفسير يربط بين التحليل النفسي وبعض الصفات الأزلية الثابتة في طبيعة اليهود. وهناك من يحاول أن يُدخل بُعداً تاريخياً فيذهب إلى القول بأن التحليل النفسي هو محاولة اليهودي أن يعالج عُصابه الناجم عن وجوده الدائم في المنفى. وتذهب سوزان هاندلمان إلى أن فرويد إن هو إلا تعبير عن تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة وهو جزء من انتقام اليهودي من مجتمع الأغيار الذي اقتلعه من مكانه، ولذا فاليهودي يقوم بتفكيك الحضارة الغربية المسيحية، تماماً كما قامت هذه الحضارة بتفكيكه. ومثل هذه الأفكار تلاقي رواجاً غير عادي في بعض الأوساط في العالم العربي، وتُستخدَم في تدعيم الرأي القائل بوجود "مؤامرة يهودية" تعبِّر عن الجوهر اليهودي. وكان فرويد نفسه يغذي هذه الأفكار فكان يربط بين التحليل النفسي وانتمائه اليهودي، فالمقاومة التي لاقاها التحليل النفسي كانت، في تَصوُّره، جزءاً من رفض الحضارة الغربية لكل ما هو يهودي. والتحليل النفسي في تصوره كان من إبداعه ("لمدة عشر سنوات كنت أنا الشخص الوحيد الذي انشغل به ولا أحد يعرف أكثر مني ما التحليل النفسي").

وكان فرويد كثيراً ما يتباهى باليهودية وبانتمائه اليهودي، فكان يرى أن الشعب اليهودي قَدَّم التوراة للعالم، وأن اليهودية مصدر طاقة لكثير مما كتب. وقد أكد أكثر من مرة أنه كان دائماً مخلصاً لشعبه "ولم أتظاهر بأنني شيء آخر: يهودي من مورافيا جاء أبواه من جاليشيا". وحينما سأله صديق يهودي عما إذا كان من الواجب على اليهود أن يوجهوا أولادهم لاعتناق المسيحية (وهو أمر كان شائعاً بين اليهود آنذاك، بل من المعروف أن بعض أقارب فرويد قد تَنصَّروا) رد قائلاً: "اليهودية مصدر طاقة لا يمكن أن تُعوَّض بأي شيء آخر، [فاليهودي] عليه كيهودي أن يكافح، ومن الواجب أن يُنمِّي في نفسه كل هذا الكفاح، فلا تحرمه من هذه الميزة".

بل يبدو أن فرويد كان يغازل الصهيونية ويظهر هذا في تباهيه بما يُسمَّى «الشعب اليهودي». وكان فرويد يعرف تيودور هرتزل ويوليه الاحترام ويشير إليه باعتباره "الشاعر المحارب من أجل حقوق شعبنا". وأرسل إليه أحد كتبه مع عبارة إهداء شخصي عليه. وكان أحد أبناء فرويد عضواً في جماعة قديما الصهيونية، كما كان هو نفسه عضواً فخرياً بها. وكتب فرويد إلى إحدى تلميذاته من العاملات بالتحليل النفسي، وهي إشبيلر اين، بعد أن علم أنها توشك أن تضع طفلاً، يقول لها: "... أود لو خرج الطفل ذكراً أن يصير صهيونياً متعصباً.. إننا يهود، وسنظل يهوداً.. وسيبقى الآخرون، على استغلالهم لنا، دون أن يفهمونا، أو يقدرونا حق التقدير" (الخطاب مؤرخ في أغسطس ١٩١٣ ولكنه لم يُنشَر إلا عام ١٩٨٢). وكان فرويد عضواً في مجلس أمناء الجامعة العبرية بالقدس، وكان يفتخر بذلك ويقول عنها "جامعتنا".

أما فيما يتصل بتكوين فرويد الثقافي فنحن نعرف أنه درس العبرية والتوراة في طفولته. ومن المؤكد أن فرويد كان على علم بالتراث القبَّالي فأبواه كانا من خلفية حسيدية، وكان جلينيك، وهو واحد من أشهر العلماء القبَّاليين، يعطي محاضراته في فيينا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.

بعد تناول ادعاءات فرويد عن يهوديته وتعصبه وصهيونيته وعن

العلم اليهودي، وبعد الحديث عن خلفية فرويد الثقافية اليهودية يظل السؤال مطروحاً: هل المنظومة الفرويدية بالفعل "منظومة يهودية"؟ وهل التحليل النفسي "علم يهودي" كما يدَّعي الصهاينة وأعداء اليهود في آن واحد، وكما يدَّعي فرويد نفسه أحياناً؟ في تصورنا أن الإجابة على هذا السؤال مركبة. وباختصار شديد نحن نذهب إلى القول بأن المنظومة الفرويدية قد تكون "يهودية" ظاهراً ولكنها في حقيقة الأمر منظومة علمانية شاملة، وبأن عناصرها اليهودية الصميمة تشبه بنيويا عناصر داخل المنظومة العلمانية الشاملة، بسبب الإطار الحلولي الكموني الذي يجمع بينهما.

ولنبدأ بتناول البُعد اليهودي الظاهر في المنظومة الفرويدية. ولإنجاز هذا يجب أن نُضيِّق نطاق الرؤية ونركِّز لا على التلمود كله وإنما على بعض العناصر الحلولية فيه وعلى القبَّالاه (وقد اعتمدنا على كتاب صبري جرجس، وعلى دراسة باكان **فرويد والتقاليد الصوفية اليهودية**).

١ - لعل أهم نقاط التماثل بين المنظومة الفرويدية والمنظومة القبَّالية مركزية الجنس في كليهما. وقد سُمِّيت الفرويدية «النظرية الجنسية الشاملة» أي «الواحدية الجنسية»، وهي تسمية لها ما يبررها. فالجنس - حسب تصور فرويد - ليس وراء كل سقم نفسي وحسب، بل إن طاقته هي المحرك أيضاً لكل ما يَصدُر عنه من وجوه النشاط من لحظة أن نُولَد. والجنس ليس مقصوراً على العلاقة الجنسية، ولكنه في واقع الأمر صورة مجازية تتخلل على نحو ما كل النشاط الإنساني، وضمن ذلك نشاط الإنسان العلمي والفني. وهذا لا يختلف كثيراً عن استخدام القبَّالاه للجنس كصورة مجازية أساسية في رؤيتها للعالم فقد عزا التراث القبَّالي إلى الإله صفة الجنسية.

٢ - ثمة نقطة التقاء أخرى بين فرويد وتراث القبَّالاه، فالزوهار ينسب الجنسية الثنائية للإنسان، فالإله ينطوي داخل نفسه على الشخيناه وهي مرادفه الأنثوي. والفكر القبَّالي ينطوي على أن الذكر والأنثى قطبان لكيان واحد، كما أن الزوهار يتضمن أن "الإله لا يبارك مكاناً إلا حيث يجتمع فيه رجل وامرأة، وأن الرجل لا يُسمَّى رجلاً إلا إذا اتصل بامرأة. . والرجل غير المتزوج ناقص وتعوزه نعمة الإله". ويذهب فرويد إلى أن الإنسان يُولَد بتركيب جنسي ثنائي، وأن هذه الثنائية تنفصل فيما بعد، ولكن التحقيق في حياة الإنسان لا يصل إلى غايته إلا بعودة هذه الثنائية إلى الاتصال مرة أخرى في العلاقة الجنسية السوية.

٣ - في سفر براخوت في التلمود وردت آراء عن الأحلام تشبه كثيراً من آراء فرويد.

١٥ - التربية والتعليم عند الجماعات اليهودية

تربية يهودية وتربويون يهود

«تربية يهودية» مُصطلَح يفترض وجود شعب يهودي ذي تاريخ مشترك ومصير مشترك، ومن ثَمَّ يصبح له نوع خاص ومتميِّز من التربية. إلا أن هذا الافتراض لا تدعمه الحقائق التاريخية، ومن ثَمَّ فمقدرته التفسيرية والتصنيفية منخفضة جدا. فمن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يكونوا شعباً واحداً باستثاء فترة قصيرة من تاريخهم، أي منذ استقرارهم في كنعان (فلسطين) في حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحتى تهجيرهم إلى بابل في حوالي القرن السادس قبل الميلاد. وخلال هذه الفترة، كوَّن العبرانيون شعباً أو قوماً ذا سمات إثنية محدَّدة وديانة مرتبطة بالمكان (فلسطين) ويجمعه إطار ثقافي واحد ويتحدث لغة مشتركة. ورغم أن العبرانيين احتفظوا ببعض السمات الإثنية بعد العودة إلى فلسطين، إلا أننا نجد أن انتشارهم في البلدان المختلفة بدأ أيضاً خلال هذه الفترة، وظهرت تجمعات يهودية كبيرة في كل من بابل والإسكندرية لها ظروفها الثقافية المحددة وحركياتها المختلفة عن حركيات العبرانيين في فلسطين، ومن ثَمَّ لها مؤسساتها التربوية التي تلبي احتياجاتها باعتبارها أقلية لها أوضاعها الثقافية والحضارية المتعينة. ولهذا، فيمكننا أن نتحدث عن «التربية العبرانية» أو عن «التربية عند العبرانيين». وقد قسمنا هذه المرحلة إلى فترتين: قبل التهجير إلى بابل، وبعد العودة من بابل، ذلك أنه رغم وجود وحدة ثقافية تسم التشكيل الحضاري العبراني إلا أن ثمة تحولاً جوهريا حدث للعبرانيين عند تهجيرهم إلى بابل، وهو تحول انعكس على مؤسساتهم التربوية المدرسية وغير المدرسية. فقد أوجد العبرانيون اليهود منذ عودتهم من بابل، وتحت تأثير تجربة التهجير والمعيشة في إطار الحضارة البابلية، وحتى سقوط الهيكل عام ٧٠م، المؤسسات التربوية الثلاث اللازمة لتطوير ونقل ونشر الديانة اليهودية، وهي: تنظيم الكتبة والحلقات التلمودية، والمعبد اليهودي، ثم أخيراً المدرسة الأولية التي ظهرت تحت التأثير الهيليني وكرد فعل له. وخلال هذه الفترة، حاول سيمون بن شيتا (٧٥ ق.م) نشر التعليم بين الشباب، ثم جاء يوشع بن جمالا (٦٥ ق.م) بقرار جعل التعليم إجباريا وعممه مجاناً.

ومع سقوط الهيكل عام ٧٠م على يد تيتوس، أصبح من المستحيل التحدث عن «الشعب العبراني» أو عن «الثقافة العبرانية»، ومن ثَمَّ أصبح من المستحيل الحديث عن «التربية العبرانية». ونظراً

لتنوع أحوال وتجارب واحتياجات الجماعات اليهودية، لا يمكن الحديث عن «تربية يهودية» باعتبارها كياناً فكريا واحداً أو عن «مدرسة يهودية» باعتبارها نمطاً مؤسسيا متكرراً، وإنما يمكن الحديث عن «تربية وتعليم أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الهيليني» أو «تربية وتعليم أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب» . . . وهكذا، أي بنسبة الجماعة اليهودية إلى مكان وزمان محدَّدين. وبذلك نكون قد نحتنا مُصطلَحات وصُغنا مقولات تحليلية لها مقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية.

ولتوضيح هذه النقطة يمكن أن نشير على سبيل المثال إلى يهود الإسكندرية في العصر الهيليني الذين تأغرقوا بشكل سريع وانضم أطفالهم وشبابهم إلى المدارس الهيلينية، بل أقاموا صلواتهم وتعلموا مبادئ دينهم باللغة اليونانية من خلال الترجمة السبعينية. أما أعضاء الجماعات اليهودية في بابل، فتبعت تربيتهم نمطاً مختلفاً نتيجة تكوُّن التشكيلات الإمبراطورية المختلفة في هذه المنطقة، فأرسل أعضاء الجماعات اليهودية أطفالهم إلى مؤسسات تعليمية خاصة بهم، كما قدمت الحلقات التلمودية في بابل فيما بعد إسهامات في تطوير التراث الديني اليهودي المتمثل في التلمود البابلي.

وبمجيء العصور الوسطى في الغرب والتشكيل الإسلامي في الشرق، أصبحت الحضارات التي يعيش اليهود بين ظهرانيها أساساً حضارات دينية توحيدية حيث ساد الإسلام الشرق الأوسط والأندلس وسادت المسيحية أوربا. وقد مثل الدين وعلومه المختلفة محوراً أساسيا للدراسة في المؤسسات التعليمية لشعوب هذه البلدان. ولم يختلف الوضع بالنسبة إلى الجماعات اليهودية التي عاشت في هذه المناطق، فكوَّنت العقيدة اليهودية وكتبها المقدَّسة المادة الأساسية التعليمية للجماعات اليهودية. ومع هذا، نجد أن مناهج التعليم وأساليب التدريس اختلفت من جماعة يهودية إلى جماعة يهودية أخرى طبقاً للأوضاع الثقافية والحضارية للشعوب التي عاشت بينها وطبقاً لوضع الجماعة نفسها. ففي أوربا حيث تدنت الأوضاع الثقافية للبلدان الأوربية، ودعمت نظم الإدارة الذاتية عزلة الجماعات اليهودية الثقافية، تدنَّى مستواهم الثقافي وتخلَّف مستواهم التعليمي، واقتصرت مؤسساتهم التعليمية على تدريس الكتب الدينية، وعلى تأكيد التوافه من أمور دينهم واستخدام أسلوب الجدل العقيم في التدريس، كما تخلفوا عن تحصيل العلوم والمعارف التي بدأت تأخذ طريقها إلى الحضارة الأوربية منذ عصر النهضة. أما في بلدان العالم الإسلامي، فازدهرت ثقافة الجماعات اليهودية تحت تأثير الحضارة الإسلامية وشارك أعضاؤها في النهضة الثقافية والعلمية. ولكونهم أهل ذمة، سُمح لهم بكثير من الحريات وأُحسنت معاملتهم اجتماعيا وثقافيا، ومن ثَمَّ فإن عزلتهم لم تكن على نحو ما كانت عليه عزلة الجماعات اليهودية في بلدان أوربا. وبطبيعة الحال، أثرت هذه الأوضاع في ثقافة الجماعات اليهودية ومؤسساتهم التعليمية. ورغم أن الدراسات الدينية احتلت مركزاً مرموقاً فيها، إلا أن المنهج التعليمي لم يقتصر عليها بل اتسع ليشمل كثيراً من المعارف والعلوم، فاحتوى على اللغة العربية والقواعد والشعر والمنطق والبلاغة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والميتافيزيقا. كما ظهر بين الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي أدب مكتوب عن التربية والتعليم أخذ شكل فصول من كتب أو وصايا أو تعليقات. وكان من أهم المفكرين الذين كتبوا عن التربية يوسف بن عكنين (شمال أفريقيا)، ويهودا بن عباس في الأندلس. ولم تختلف مناهج الدراسة كثيراً بين الجماعات اليهودية في كل من إيطاليا وجنوب فرنسا.

وإذا كان التعليم الديني قد شكَّل محوراً رئيسيا وعنصراً مشتركاً بين مؤسسات التعليم للجماعات اليهودية خلال العصور الوسطى في الغرب وفي العصر الإسلامي الأول والثاني في العالم الإسلامي، فإن هذا العنصر يختفي تدريجيا ويزداد التنوع وعدم التجانس في تربية وتعليم أعضاء الجماعات اليهودية منذ أواخر القرن الثامن عشر حيث بدأت المجتمعات الأوربية تدخل مرحلة تصاعدت فيها تدريجيا وتيرة التصنيع والتحديث، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور الدولة القومية العلمانية المركزية التي طالبت أعضاء الجماعات اليهودية بأن يندمجوا في المجتمعات التي يعيشون فيها وأن يدينوا لها وحدها بالولاء. وأدرك حكام أوربا المستنيرون أن تحديث وعلمنة تربية وتعليم أعضاء الجماعات اليهودية أنجح الوسائل لتحقيق هذا الهدف. ففتحت أمام أعضاء الجماعات اليهودية أبواب التعليم الحكومي العلماني، كما سُمح لهم بتأسيس مدارس علمانية خاصة بهم، الأمر الذي دفع المثقفين اليهود من دعاة حركة التنوير إلى تحديث التعليم اليهودي التقليدي، فقاموا بتأسيس عدد من المدارس اليهودية التي جمعت مناهجها بين المواد العلمانية والمواد الدينية، كما شجعوا أعضاء الجماعات اليهودية على إرسال أولادهم إلى المدارس الحكومية، وكان أهم دعاة هذا الاتجاه موسى مندلسون ونفتالي هرتز فيسلي وغيرهما. ومنذ ذلك الوقت، تزايد إقبال أعضاء الجماعات اليهودية على التعليم الحكومي العلماني، وكذلك إقبالهم على المدارس الخاصة بهم، كما تم تهميش التعليم الديني والاقتصار على المدارس التكميلية التي كان يحضرها التلاميذ بعد حضورهم المدارس

الحكومية. وحتى المدارس التلمودية العليا نفسها (التي تُخرِّج الحاخامات والمتخصصين في مجال الدين)، هبت عليها هي الأخرى رياح التطوير والتحديث. ومع هذا، يُلاحَظ أنه، داخل التشكيل الحضاري الأوربي، اتخذت عملية تحديث تربية وتعليم أعضاء الجماعات اليهودية أشكالاً مختلفة. ففي أوربا الغربية، تمت عملية التحديث دون مقاومة. أما في شرق أوربا وفي روسيا القيصرية، فإن عملية تحديث التعليم حققت نجاحاً في بدايتها، إلا أن تعثُّر عملية التحديث (في المجتمع ككل) في نهايات القرن التاسع عشر أدَّى إلى تزايد اغتراب أعضاء الجماعات اليهودية وتزايد انخراطهم في الحركات الثورية والعمالية اليهودية والصهيونية التي أشرفت على إقامة سلسلة من المؤسسات التعليمية الخاصة بها واتسمت بتوجهها العلماني الإثني-اليديشي أو الصهيوني. غير أن قيام الثورة البلشفية وبناء الدولة السوفيتية أنهى هذا الوضع في روسيا. أما في بولندا وسائر بلدان أوربا الشرقية، فتزايدت هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى الأمريكتين.

وإذا نظرنا إلى الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي، وجدنا أن تطوُّر مؤسساتهم التعليمية اتبع نمطاً مغايراً عن مثيلاتها في مجتمعات أوربا حيث تمت عملية تحديثها في مرحلة متأخرة (وبعد وصول القوات الغربية الإمبريالية)، ونجم عن ذلك تحويل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية وإلى مادة استيطانية تابعة للغرب. وقد اتبع تحديث المؤسسات التعليمية اليهودية في الهند النمط نفسه الذي اتبعه في العالم الإسلامي. أما الجماعات اليهودية في إثيوبيا فقد اتبعت نمطاً مخالفاً للأنماط السالفة الذكر.

وفي المجتمعات الاستيطانية، تأثرت تربية وتعليم الجماعات اليهودية بطبيعة المجتمع الاستيطاني نفسه. ففي الولايات المتحدة، التي اتسمت باقتصادها الحر المفتوح وتربيتها العلمانية ونظامها التعليمي الحكومي المجاني، تمت عملية تحديث تربية وتعليم أعضاء الجماعات اليهودية بسهولة كما تم إكسابهم الهوية الأمريكية. أما في بلاد أمريكا اللاتينية فقد اتبع تطوير تربية وتعليم الجماعات اليهودية شكلاً مخالفاً. إذ اتجهت كل جماعة يهودية إلى إقامة مؤسساتها التعليمية الخاصة بها، فكثُر عدد مدارس اليوم الكامل اليهودية التي يتلقى فيها الأطفال تعليماً يهوديا بعيداً عن تأثير المدارس العامة ذات التعليم الكاثوليكي. واتسمت هذه المدارس بتوجهها الإثني الصهيوني. ولم يختلف نمط تربية وتعليم الجماعات اليهودية في كندا وجنوب أفريقيا كثيراً عن نمط أمريكا اللاتينية.

ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية المختلفة لم تُقدِّم فلاسفة أو مفكرين تربويين لهم ثقلهم الفكري العالمي في مجال التربية، وذلك رغم إنجازات بعض أعضاء الجماعات اليهودية في المجالات الأخرى. فمعظم المفكرين اليهود الذين كتبوا عن التربية اتبعوا النظريات والاتجاهات الفكرية التربوية أو عالجوا المشكلات التربوية التي تمس الأوضاع التربوية القائمة في المجتمعات التي ينتمون إليها، ومن الصعب وصف إنجازاتهم الفكرية بأنها ذات مضمون يهودي. فجيكوب بريير تربوي فرنسي، وهو أول من اهتم بتعليم الصم البكم، وجوزيف فيرتيمر تربوي نمساوي اتبع الاهتمام الفكري السائد في أوربا آنذاك بطفل ما قبل المدرسة وأسس دور حضانة في النمسا، بينما نجد يانوس كورساك البولندي أبدى اهتماماً بالأطفال الأيتام وأنشأ لهم ملجأً وكتب عن كيفية فهم الطفل ومعاملته. وفي الولايات المتحدة، أبدى أبراهام فلكسنر اهتماماً بتعليم الطب وقدَّم تقييماً لكليات الطب في الأمريكتين وكندا ثم في أوربا. ويُعَدُّ كل من لورانس كرين وإسحق بركسون من أتباع التربية التقدمية. أما إسرائيل شيفلر، فهو رائد من رواد مدرسة التحليل الفلسفي في التربية.

المدرسة الأولية (بيت سيفر)

«المدرسة الأولية» المقابل العربي للعبارة العبرية «بيت سيفر»، وتعني حرفيا «بيت الكتاب». ويُطلَق المُصطلَح على المدارس الأولية الإجبارية التي وُجدت في فلسطين منذ القرن الأول الميلادي، وفي بابل فيما بعد. وغالباً ما كانت توجد هذه المدرسة داخل المعبد أو في حجرة ملحقة به. وكان الهدف من هذه المدرسة إعداد الطفل اليهودي للمشاركة في شعائر المعبد. وكانت الدراسة فيها تقتصر على القراءة وبعض أجزاء من أسفار موسى الخمسة وكتب الأنبياء، وكذلك كتب الحكمة والأمثال.

التربية والتعليم عند الجماعات اليهودية في العالم الغربي حتى الحرب العالمية الأولى

١ ـ ألمانيا والنمسا (وجاليشيا):

شهدت الأراضي الألمانية تغيرات وتطورات أدَّت إلى ظهور طبقة من المموِّلين والتجار ويهود البلاط الذين يتطلب عملهم معرفة اللغات الأوربية والثقافة الحديثة. ومن ثَمَّ، قل اهتمامهم بدراسة التلمود والمواد اليهودية التقليدية ولم تتعد معرفتهم قراءة آلية لبعض أجزاء من أسفار موسى الخمسة. كما شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهور كثير من التشريعات التي تعطي اليهود حقوقهم

المدنية، حيث أصدر الإمبراطور جوزيف الثاني إمبراطور النمسا براءة التسامح (١٧٨٢-١٧٨٥) التي أتاحت لأعضاء الجماعات اليهودية كثيراً من فرص الحراك الاجتماعي، وطالبت في الوقت نفسه بإصلاح كثير من ممارساتهم وبالذات في مجال التربية والتعليم. وأدّى هذا إلى انتشار فكر حركة التنوير اليهودية.

انطلق دعاة حركة التنوير من اليهود من مقولات الفكر العقلاني (المادي) وإيمانه بفاعلية التعليم العلماني اللامتناهية في تحسين أحوال البشر، ومن ثَمَّ أصبحت قضية التربية القضية الأساسية بالنسبة لهم. كما رأوا في التعليم اليهودي التقليدي سبباً من أسباب تخلُّف الجماعات اليهودية وانعزالها الثقافي، ولذا حاولوا إحداث تغييرات في مناهج التعليم اليهودي وطرق تدريسه. كان موسى مندلسون - مؤسس حركة التنوير اليهودية - أول من حاول تحسين وتحديث نظام التعليم اليهودي كوسيلة لرفع مستوى اليهود الثقافي ودمجهم في المجتمع الألماني. فقام بترجمة العهد القديم إلى اللغة الألمانية كوسيلة لتشجيع اليهود على تعلُّمها، كما تم، بمبادرة منه، تأسيس المدرسة الحرة أو مدرسة الشباب في برلين للأطفال اليهود الفقراء عام ١٧٧٨ وكانت مجانية، وتُعتبَر هذه المدرسة أولى المدارس اليهودية التي جمعت مناهجها بين دراسة العهد القديم والتلمود، واللغة الألمانية والفرنسية، والحساب والجغرافيا، والعلوم الطبيعية والفن. وأحدثت هذه المدرسة انقلاباً في نظام تعليم أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب. كما شكَّلت بداية انتقال مركز الثقل من المواد اليهودية التقليدية إلى المواد العلمانية. وحققت هذه المدرسة منذ بدايتها الأولى نجاحاً، فكان نصف تلاميذها السبعين فقط من الفقراء، أما النصف الآخر فكان من الميسورين الذين أدركوا أهمية التعليم العلماني الذي تقدمه هذه المدرسة. ويأتي نفتالي هرتز فيسيلي (١٧٢٥-١٨٠٥) في الأهمية بعد مندلسون، كأحد دعاة حركة تحديث تعليم الجماعات اليهودية. ففي كتيب **كلمات السلام والحق** الذي يُعتبَر المنشور الأول لحركة التنوير اليهودية، يرحب فيسيلي ببراءة التسامح التي أصدرها الإمبراطور جوزيف الثاني إمبراطور النمسا، ويقترح برنامجاً لتعليم الطفل اليهودي يتكون من جزءين: جزء يُخصَّص للدراسات العلمانية، أطلق عليها دراسات تتصل بالإنسان، أما الجزء الثاني فكان يُخصَّص للدراسات الدينية. كما يؤكد فيسيلي أهمية تعليم اللغة الألمانية والعبرية، بل يقترح أن يدرس الأطفال اليهود العهد القديم في ترجمته الألمانية. كذلك احتلت قضية التعليم موقعاً بارزاً ونوقشت بتوسع في جريدة **هامآسيف** المعبِّرة عن أفكار التنويريين اليهود، وفيها طالب المتحمسون من دعاة حركة التنوير بأن يبدأ الطفل اليهودي بتعلم اللغة الألمانية والحساب أولاً ثم يضاف فيما بعد تعلُّم اللغة العبرية قراءة وكتابة. بل طالب ديفيد فرايدلاندر بأن تقتصر الدراسة الدينية على بعض الفصول المنتقاة من العهد القديم ذات الطبيعة الأخلاقية وأن تُستخدَم اللغة الألمانية في تدريسها.

وبمبادرة من دعاة حركة التنوير، تم تأسيس عدد من المدارس في برلين ودساو وفرانكفورت جمعت مناهجها بين المواد العلمانية والمواد الدينية، التي خُصِّصت لها ساعات قليلة وأهملت فيها دراسة التلمود. كذلك قام عدد من المربين بكتابة كتب مدرسية باللغة العبرية لهذه المدارس. فألَّف بيتر بير كتاباً عن التاريخ اليهودي، كما ألَّف نفتالي هرتز هومبرج كتاب **المطالعة الدينية والأخلاقية للشباب**. وفي عام ١٨٠٧، أُدخلت طقوس بلوغ سن التكليف الديني بعض المدارس في ألمانيا، وذلك في محاكاة واضحة لطقوس تثبت التعميد بين المسيحيين. كذلك تغلغل أثر حركة التنوير بين اليهود الأرثوذكس الذين كان عليهم أن يستجيبوا لمتطلبات العصر. فالحاخام حزقيال لانداو يرى أن التوراة أساس التعليم، إلا أنه يؤكد أن تعليم القراءة والكتابة أمر مهم أيضاً، لذا يجب على الفرد اليهودي أن يتعلم كلا الشيئين. كما وافق الحاخام ديفيد تفيلي على أهمية تعليم الأطفال اليهود اللغة الألمانية لمدة ساعة أو ساعتين يوميا. كذلك قام اليهود الأرثوذكس بتأسيس مدرسة في هالبرستادت وأخرى في هامبورج جمعت مناهجها بين العلوم الدينية وغير الدينية. كذلك أدخلت حركة التنوير تغييرات مهمة على تعليم البنات، فبينما كانت بنات اليهود الأثرياء يتلقين تعليمهن على أيدي مدرسين خصوصيين، اهتم دعاة التنوير بتعليم الفقيرات وأُسِّس عدد من مدارس البنات (ابتداءً من عام ١٧٩٠) في برسلاو وهامبورج وغيرهما من المدن، ضمت مناهجها تعليم الألمانية والعبرية وأساسيات الدين والأخلاق والحساب، كما وُجِدت مدارس أيضاً قامت بتعليم اليديشية والأشغال الفنية والفن والغناء.

ويجب أن نشير أيضاً إلى أن حركة التنوير اليهودية اهتمت بالتعليم المهني، إذ رأى دعاة التنوير اليهودي أن إبعاد اليهود عن وظائفهم التقليدية (مثل الربا والتجارة) وتحويلهم إلى الاشتغال بالزراعة والحرف اليدوية المختلفة سيساهم في تغيير حياة أعضاء الجماعة اليهودية وسيؤدي إلى تخليهم عن أية خصوصية قد تتسبب في عزلتهم عن بقية أعضاء المجتمع، ولهذا أدخلوا تعليم الحرف في المدارس التي أسسوها. وكانت بعض هذه المدارس تسجل خريجيها عند حرفيين مسيحيين ليتتلمذوا على أيديهم. كما أُنشئت في بعض

الولايات الألمانية جمعيات للعناية بالصبية تحت التدريب. وفي برلين، أُسِّست جمعية لنشر الحرف الصناعية بين أعضاء الجماعة اليهودية عام ١٨١٢ وكان هدفها إيقاظ الروح الخلاقة بين أعضاء الديانة اليهودية وتفنيد الاعتقاد السائد عن اتجاه اليهود إلى التجارة.

وانتشرت المدارس اليهودية المتكاملة التي جمعت مناهجها بين المواد العلمانية والدينية في بلدان أوربا الغربية والشرقية. ففي عام ١٨١٣، أسس يوسف بيرل مدرسة في تارينول في جاليشيا استُخدمت فيها الألمانية كلغة للتدريس، كما أُلحقت بها فصول مخصَّصة للبنات، وأُسِّست مدرسة مشابهة في لفوف عام ١٨٤٥. وفي عام ١٨١٩، أسس يعقوب تجندهولد في وارسو ثلاث مدارس استُخدمت فيها البولندية لغة للتدريس كما تم تأسيس مدرستين للبنات. ولم تُفتَح أية مدارس ثانوية خاصة لليهود إلا مدرسة فيلانثروبين (الابتدائية) في فرانكفورت التي افتُتح فيها قسم علمي عام ١٨١٣ مدة الدراسة فيه ست سنوات. كما أُنشئت معاهد خاصة تجارية.

وبتأسيس هذه المدارس، ظهرت مشكلة تدريب معلمين لها، ففُتح أول معهد لإعداد المعلمين في كاسل عام ١٨١٠، وتبعه معهد في أمستردام (١٨٣٦) لإعداد المعلمين والحاخامات. وفي عام ١٨٥٦، افتتح معهد لإعداد المعلمين وحسب في بودابست.

وبلغ عدد المدارس التي أقامتها الجماعات اليهودية في موارفيا عام ١٧٨٤ نحو ٤٢ مدرسة، وفي بوهيميا وصل عددها ٢٥ مدرسة عام ١٧٨٧، وفي المجر بلغ عددها ٣٠ مدرسة بنهاية عام ١٧٨٠. أما في جاليشيا، فبلغ عدد المدارس ١٠٤ مدارس إلا أنها أُغلقت عام ١٨٠٦ خوفاً من الاتجاهات العلمانية التي اعتنقها مدرسوها اليهود، فتم استدعاء التربوي اليهودي نفتالي هرتز همبورج للإشراف عليها.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، فتحت المدارس الحكومية أبوابها للأطفال اليهود وتدفقت أعداد كبيرة منهم عليها. وأصبح التعليم الديني اليهودي مقتصراً إما على المدارس التكميلية التي كان الأطفال اليهود يتركونها عند سن الثالثة عشرة أو على بعض الفصول الدينية في المدارس الحكومية. وقد اختفت المدارس الأولية الدينية (حيدر) لتحلّ محلها المدارس اليهودية الحديثة، إلا أن عددها كان صغيراً وكان برنامج الدراسات اليهودية فيها لا يتعدى قراءة الصلوات وبعض أجزاء من أسفار موسى الخمسة.

ومع هذا، كانت هناك حركة مضادة لهذا الاتجاه في ألمانيا، حيث أسس سامسون روفائيل هيرش، مؤسِّس الأرثوذكسية الجديدة وزعيمها في ألمانيا، مدرسة في فرانكفورت عام ١٨٥٥، قدمت برنامجاً مكثفاً للدراسات الدينية واليهودية، بالإضافة إلى برنامج من المواد العامة على نمط المدارس الألمانية. وهذه المدرسة كانت الأولى في سلسلة المدارس الأرثوذكسية التي تأسست فيما بعد، كما تم تحديث مرحلة الدراسات العليا، فاختفت المدارس اللاهوتية التي تم تأسيسها عام ١٨٥٤، وكان يترأسها زكريا فرانكل الذي أدارها بطريقة حديثة وشجع الدارسين فيها على اتخاذ موقف من اليهودية وتاريخها. وكان خريجو هذه الكلية يُعيَّنون حاخامات محافظين. وفي عام ١٨٧٢، افتُتحت في برلين المدرسة العليا للدراسات اليهودية وكانت متأثرة في اتجاهاتها بآراء جايجر الإصلاحية. كما أُسِّست في برلين، عام ١٨٨٣، كلية لاهوتية أرثوذكسية لتخريج الحاخامات الأرثوذكس.

٢ ـ إنجلترا:

ظلت إنجلترا خالية من اليهود تقريباً حتى القرن السابع عشر حيث سُمح لهم بالاستقرار. وكان عدد أعضاء الجماعة اليهودية فيها صغيراً جداً. ومع هذا، كان للجماعة اليهودية في إنجلترا شبكة واسعة من المدارس اليهودية، وذلك قبل تطبيق قانون التعليم الإجباري العام في إنجلترا عام ١٨٧٠. وقد تأسس كثير من هذه المدارس خلال القرن التاسع عشر، خصوصاً شبكة المدارس الحرة التي كان يَدرس بها عام ١٨٥٠ نحو ٢٠٠٠ طفل يهودي من إجمالي تعداد أعضاء الجماعة البالغ في تلك الفترة ٣٥٠٠٠ شخص. كما كانت توجد مدارس يهودية خاصة ذات مستوى أفضل من المدارس الحرة. ومما يُذكَر أن غالبية هذه المدارس، وخصوصاً المدارس الحرة، كان يقدم تعليماً علمانياً إلى جانب قدر ضئيل من الدراسات اليهودية، كما وُجدت فصول دينية مسائية ومدارس أحد لتعليم اللغة العبرية. كذلك أُسِّست مؤسسات يهودية للتعليم العالي في منتصف القرن التاسع عشر.

ومع صدور قانون التعليم الإجباري عام ١٨٧٠، توقَّف تأسيس مدارس حرة جديدة. كما شهدت المدارس اليهودية الخاصة تدهوراً حاداً. ولكن، مع بداية تدفُّق يهود اليديشية من شرق أوربا عام ١٨٨١، أثارت ضحالة برامج الدراسات الدينية في المدارس اليهودية استياء المهاجرين الجدد، ولذا فضلوا إقامة عدد من المدارس التقليدية وإرسال أولادهم إليها. فانتشرت المدارس الابتدائية الدينية التقليدية مثل المدارس الابتدائية الخاصة والخيرية في جميع أنحاء البلاد. إلا أن مستوى هذه المدارس كان بدوره هابطاً جدا ولا يُقارَن بمستوى مثيلتها في أوربا الشرقية، بل وفشلت في تعميق ارتباط طلابها بالديانة والتقاليد اليهودية.

ورغم أن لندن كانت تضم في نهاية القرن واحدة من أكبر المدارس اليهودية في أوربا بل في العالم بأسره، إذ كانت تضم ٣٠٠٠ طالب، إلا أن الهدف الحقيقي من هذه المدرسة كان إضفاء الطابع الإنجليزي على هؤلاء المهاجرين الغرباء إلى إنجلترا وكسر حدة يهوديتهم الزائدة، وفقاً لإسرائيل زانجويل، في كتابه **أطفال الجيتو** (١٨٩٢).

كما نجد أنه مع تحسُّن أوضاع المهاجرين الاقتصادية، وخروجهم من مناطق تمركزهم في لندن إلى الضواحي والمناطق السكنية الأرقى، بدأت تختفي أيضاً المدارس الدينية التقليدية لتحلَّ محلها المدارس الملحقة بالمعبد حيث يتلقى الأطفال بضع ساعات من الدراسة الدينية خلال الأسبوع، وذلك في نظام مشابه لنظام مدارس الأحد اليهودية في الولايات المتحدة. وبالتالي، أصبحت الصورة السائدة في العقد الأول من القرن العشرين التحاق الجزء الأكبر من الأطفال الإنجليز اليهود بالمدارس الابتدائية والثانوية الحكومية وحصولهم على قدر ضئيل من المعرفة بالديانة اليهودية واللغة العبرية من خلال الدراسة التكميلية.

٣- روسيا وبولندا:

بعد تقسيم بولندا للمرة الثالثة، ضمت روسيا غالبية يهود اليديشية. وتزامنت هذه العملية مع تغيرات سياسية واقتصادية كان المجتمع الروسي يمر بها في مجرى انتقاله من مجتمع زراعي إقطاعي إلى مجتمع صناعي. فعلى الصعيد السياسي، قامت محاولة لفرض ضرب من الوحدة على مئات الأقليات والتشكيلات الحضارية حتى يتسنى للحكومة المركزية التعامل معهم. وعلى الصعيد الاقتصادي، بدأت تظهر في روسيا اتجاهات نحو التصنيع، وتحديث بنية المجتمع الاقتصادية. وكانت عملية التحديث هذه تتم تحت إشراف القياصرة المطلقين وطبقة النبلاء الإقطاعيين، ومن خلال بيروقراطية غير مستنيرة وغير مؤهلة عرقلت عملية تحديث المجتمع، فأدَّى ذلك إلى قيام الاضطرابات والثورات التي انتهت بالثورة البلشفية عام ١٩١٧.

وقد حدَّدت هذه الأوضاع علاقة الجماعات اليهودية بكل من المجتمع الروسي والدولة الروسية. فاتبعت الدولة معهم، مثلهم مثل غيرهم من الأقليات، سياسة الترويس بالقوة حتى يتم استيعابهم ودمجهم في الثقافة الروسية.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر، ومع المحاولات الأولى للحكومة الروسية في مجال تحديث وترويس الجماعات اليهودية، أدرك المسئولون في الحكومة الدور الفعال الذي يمكن أن يلعبه التعليم الحديث في هذا المضمار، ومن ثَمَّ اتخذوا التعليم وسيلة لتحديث تربية أعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم في الإطار الثقافي العام للمجتمع. وساعد الحكومة القيصرية في جهودها رواد حركة التنوير.

بدأ التيار التنويري يدخل روسيا عن طريق أوربا الغربية وبالذات ألمانيا منذ بداية القرن التاسع عشر. وكانت ليتوانيا وأوكرانيا من المناطق الأولى التي دخلها الفكر التنويري، وقد حمله إليهما التجار والعلماء المتجولون والأطباء. كما ساعد اشتراك بعض اليهود من مدن ليتوانيا وبولندا في الدوريات التي أصدرها دعاة التنوير في ألمانيا في نشر الفكر التنويري بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية في روسيا.

وقد ساهم هؤلاء التنويريون الأوائل في نشر الثقافة الحديثة عن طريق كتابة أو ترجمة بعض كتب العلوم الحديثة إلى العبرية. وكانت هذه المرة الأولى التي تستخدم فيها اللغة العبرية لنقل العلوم الحديثة. كذلك قام أحد اليهود الأغنياء بتأسيس مركز للمستنيرين في ضيعته. واعتمد هؤلاء المستنيرون الأوائل على علاقتهم بالسلطات الروسية كتجار وأطباء وموردي مواد غذائية، وقدموا مجموعة من المقترحات إلى الإدارة الروسية لتحسين وضع اليهود من أهمها إتاحة الفرصة لأعضاء الجماعات اليهودية للاشتغال بالحرف المختلفة والعمل بالزراعة وفتح مدارس حديثة لهم. واهتم دعاة التنوير في روسيا منذ البداية، مثلهم مثل دعاة التنوير الألمان، بتأسيس مدارس تجمع منهاجها بين المواد العامة والمواد اليهودية كوسيلة لتحديث ثقافة الجماعات اليهودية. وكانت أولى المدارس التي تم تأسيسها على هذا النمط مدرسة أومان التي أسسها هايمان هورويتز. كما أسَّس بزاليل ستيرن مدرسة مماثلة في أوديسا عام ١٨٢٦، وتلتها مجموعة من المدارس في كل من ريجا وكشينيف وفلنا. وخلال هذه الفترة، قام إسحق ليفنسون بتوضيح برنامج دعاة التنوير الروس لتحديث تربية أعضاء الجماعات اليهودية وتعليمهم. وقام هذا البرنامج أساساً على تأسيس شبكة من المدارس الابتدائية للبنين والبنات تجمع مناهجها بين المواد الدينية واليهودية والمواد العامة والتدريب على بعض الحرف. كما تضمَّن البرنامج تأسيس مدرسة ثانوية للمتميِّزين من الطلبة، كما أكد ضرورة نشر الحرف المنتجة (وبالذات الزراعة) بين الجماهير اليهودية، وضرورة استخدام اللغة الألمانية أو الروسية في التعليم. وبطبيعة الحال، قاومت القيادات الحاخامية الفكر التنويري التربوي واتخذت إجراءات عنيفة ضد أيِّ شاب يُقلِّد "البرلينيين".

ونظر دعاة التنوير إلى الحكومة الروسية كنصير لهم في محاولتهم تحديث تربية وتعليم الجماعات اليهودية وأعانوها في

تأسيس شبكة من المدارس الحديثة المخصَّصة لليهود أُطلق عليها اسم «مدارس التاج». وإقناع الجماعات اليهودية في روسيا بإرسال أولادهم إليها. واتجهت جهود الحكومة الروسية، في محاولتها تحديث ثقافة وتربية الجماعات اليهودية، اتجاهين: فتح أبواب التعليم الحكومي لأعضاء الجماعة اليهودية وإقامة مدارس يهودية مخصَّصة لهم تحت إشرافها من جهة، وتحديث نظام التعليم اليهودي القائم من جهة أخرى. ففتحت الحكومة أبواب المدارس والجامعات الروسية للأطفال والشباب اليهود بقرار صدر عام ١٨٠٤ خلال حكم القيصر ألكسندر الأول (١٨٠١-١٨٢٥)، إلا أن عدد الأطفال والشباب اليهود الذي انضم إليها ظل منخفضاً جدا حتى عام ١٨٤٠. ويبدو أن سلطة القهال وقفت بشدة ضد هذا القرار ومارست سلطتها في منع الطلاب اليهود من الالتحاق بالمدارس والجامعات الروسية. ونظراً لفشل الحكومة في جذب أعضاء الجماعة اليهودية للتعليم في المدارس الحكومية، وضعت الحكومة خطة لتأسيس مدارس تُخصَّص لليهود تخضع لإشرافها دون النص على حرمان التلاميذ اليهود من الالتحاق بالمدارس الحكومية، وأصدرت قراراً عام ١٨٤٤ بتأسيس شبكة من مدارس التاج.

وكوسيلة لترويس وتحديث الجماعات اليهودية، حاولت الحكومة القيصرية تحديث النظام التعليمي اليهودي التقليدي، ففرضت إشرافها على المدارس الأولية الخاصة وعلى معلميها، كما حاولت تغيير مناهجها وتحسين طرق التدريس فيها وتحسين الأوضاع التعليمية داخلها، إلا أن هذه المدارس كان بمقدورها تجاهل قرارات الحكومة نظراً لأنها كانت مدارس خاصة بعيدة عن قبضتها. ومع هذا، فقد تحسنت تجهيزات بعض هذه المدارس وكذلك الأوضاع الصحية داخلها تحت تأثير حركة التنوير، كما زادت رواتب معلميها، إلا أن مناهجها وطرق التدريس فيها لم تتغيَّر كثيراً عما قبل. ولكن أثر جهود كلٍّ من الحكومة وحركة التنوير في المدارس الأولية الخيرية كان أكثر وضوحاً منه في المدارس الأولية الخاصة حيث إنها كانت مؤسسات تمولها الجماعة، فأدخلت بعض المواد غير الدينية على منهجها مثل اللغة الروسية (والترجمة منها إلى العبرية) والحساب، كما أدخلت التعليم المهني والحرف اليدوية في برامجها. وأُدخل في هذه المدارس نظام الامتحانات كطريقة للتقييم داخلها. كذلك حاولت الحكومة تحديث المدارس التلمودية العليا، فأصدرت عدة قرارات شملت ضرورة تدريس اللغة الروسية والحساب والخط إلى جانب المواد الدينية، وتنظيم أوقات الدراسة داخلها. إلا أن قرارات الحكومة لم تؤثر كثيراً في هذه المدارس نظراً لكونها - كما أسلفنا - مؤسسات خاصة. ولعل أهم نتائج محاولات الحكومة الروسية تحديث ثقافة وتربية الجماعات اليهودية بروز فئة من المثقفين والرأسماليين اليهود لديهم ثقافة علمانية حديثة.

وباغتيال ألكسندر الثاني عام ١٨٨١، زادت الاتجاهات الرجعية في روسيا القيصرية، وصدرت عدة قوانين تحدُّ من الحريات ومن فرص الحراك الاجتماعي والاقتصادي للأقليات والجماعات غير الروسية. ولم تكن الجماعة اليهودية سوى إحدى الجماعات التي وقعت ضحية عملية القمع الرجعية، حيث صدرت قوانين مايو عام ١٨٨٢ التي قلصت حقوقهم كثيراً. كما صدر قانون النسب (١٨٨٧) الذي حدَّد نسبة قبول التلاميذ والطلبة اليهود في المدارس والجامعات الروسية، فحُدِّدت نسبة الطلبة اليهود المسجلين في التعليم العالي والجامعي بـ ١١٪ في منطقة الاستيطان، و٥٪ خارج منطقة الاستيطان، و٣٪ في كل من مدينتي موسكو وبتروجراد، ثم خُفِّضت النسَب إلى ٧٪ و ٥٪ و ٢٪ على التوالي. وأدَّت القوانين الرجعية التي صدرت خلال هذه الفترة إلى تسييس طبقة المثقفين والمتعلمين من اليهود وانضمامهم إلى الحركات الثورية الروسية أو اعتناقهم الأفكار القومية الصهيونية أو اليديشية. أما الجماهير اليهودية، فقد تعرقل حراكها وبطؤت عملية استيعابها ودمجها في المجتمع الروسي.

ورغم صدور قوانين عام ١٨٨٧ التي حددت عدد الطلبة اليهود في التعليم العلماني الحديث، إلا أن الطلب على التعليم العلماني استمر بصورة عامة وإن تذبذب بين الارتفاع والانخفاض وفقاً لتطبيق أو عدم تطبيق سياسة النسب التي حددها القانون. وفي أواخر التسعينيات من القرن الماضي، بدأت المدرسة الأولية المطوَّرة في الظهور. وخضع هذا النوع من المدارس لتأثير الحركة الصهيونية، فكانت المناهج فيها تجمع المواد الدينية والمواد غير الدينية، إلا أن المواد الدينية وُجِّهت وجهة صهيونية، فاحتوى منهج هذه المدارس على تعليم اللغة العبرية لا كلغة مقدَّسة، وإنما كلغة قومية تستخدم في شتى المجالات المختلفة للحياة. كما تمت دراسة ما يُسمَّى «تاريخ اليهود» وجغرافية إرتس يسرائيل، أي أرض فلسطين، وزاد الاهتمام بالعهد القديم باعتباره التعبير الحقيقي عن الجوهر اليهودي الأصلي والتعبير الأمثل عن اليهود المرتبطين بأرضهم، على عكس التلمود الذي كُتب بعد النفي (أي بعد انتشار اليهود) خارج فلسطين. كذلك دُرِّست بعض المواد غير الدينية الأخرى مثل التاريخ العام

والرياضيات واللغة الروسية حيث تمت دراستها بشكل موجز ومختصر. وقد اتبعت هذه المدارس تنظيماً حديثاً، فحدَّدت ساعات الدراسة وأدخلت نظام الامتحانات ومنحت خريجيها شهادات. كذلك تم تحسين معداتها وطرق التدريس المتبعة فيها. وكان بعض هذه المدارس مختلطاً، ثم قامت جمعية أحباء صهيون بتأسيس مدارس مخصَّصة للبنات حيث بدأت إقامة هذه المدارس في جنوب روسيا في منطقة كييف وبساربيا وأوديسا، ثم انتشرت في منطقة الاستيطان وجاليشيا النمساوية، وكذلك في بعض أجزاء من رومانيا.

وارتبط انتشار المدرسة الأولية المطوَّرة بحركة إحياء اللغة العبرية، فنادى آحاد هعام بـ «أُسَر المدارس» كوسيلة لنشر الفكر الصهيوني واللغة العبرية، وكان من قادتها عدد من الصهاينة مثل وايزمان وديزنجورف والشاعر بياليك. وبعد اعتراف الحكومة الروسية بجمعية أحباء اللغة العبرية عام ١٩٠٧، أشرفت هذه الجمعية على العديد من المدارس الأولية للبنين والبنات ودور الحضانة، كما أقامت فصولاً مسائية لتعليم اللغة. وفي الوقت نفسه لعبت جماعة نشر الثقافة بين يهود روسيا دوراً مهماً في نشر هذه المدارس، وجُنِّد بعض خريجي المدارس التلمودية للتدريس في هذه المدارس. وطوِّر منهج جديد لهذه المدارس، وافتُتح فصل جديد لتدريس العبرية عن طريق المحادثة، كما عُقدت برامج صيفية لتدريب معلميها. وفي وارسو، فُتحت حضانة للأطفال اليهود عام ١٩٠٩، وبدأت دورات تدريبية لمعلمي الحضانات على طريقة فروبل. ونظم معلمو هذه المدارس أنفسهم في نقابة في جاليشيا. ولعبت نقابة المعلمين دوراً في تحسين التدريب داخل هذه المدارس، فظهرت كتب مدرسية ومطبوعات للأطفال والشباب والكبار باللغة العبرية. كما ظهرت مدارس أولية خاصة متأثرة بالفكر القومي اليديشي. ففي عام ١٩٠٨، صرح مؤتمر شيرنوفتس الذي عقده أتباع هذا الاتجاه بأن اليديشية اللغة القومية للجماعات اليهودية في روسيا، ومن ثَمَّ كثفت الدوائر اليديشية جهودها لتأسيس شبكة من المدارس تستخدم اللغة اليديشية لغة تعليم. لكن نجاح هذه الحركة كان محدوداً نظراً لمعارضة كل من الحكومة الروسية والاندماجيين من اليهود والصهاينة لهذا التيار الفكري.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى، كان هناك ثلاثون مدرسة تلمودية عليا مسجل فيها حوالي ١٠ آلاف طالب في روسيا، وقد غطت هذه المدارس معظم دول البلطيق ومعظم بولندا وبساربيا.

التربية والتعليم عند الجماعات اليهودية في الغرب منذ الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر

تزايدت وتائر التحديث والتصنيع في العصر الحديث، وتزايد معها تساقط النظم التربوية الخاصة بالجماعات اليهودية لتحل محلها المؤسسات التربوية الحديثة العامة، التي أصبحت من أهم وسائل علمنة ودمج أعضاء الجماعات اليهودية.

وصاحبت عملية التحديث التي جرت في غرب أوربا، منذ نهايات القرن الثامن عشر، تحولات عميقة في البنية الاقتصادية والطبقية والسياسية للمجتمعات الأوربية، الأمر الذي كان له أعمق الأثر في وضع الجماعات اليهودية في هذه البلاد، فتساقطت جدران العزلة التي عاش أعضاء الجماعات اليهودية داخلها خلال العصور الوسطى في الغرب وتم إعتاق أعضاء الجماعات اليهودية واستيعابهم في المجتمعات المحيطة. وباستيعاب اليهود في مجتمعاتهم، تساقطت المؤسسات التربوية اليهودية التقليدية؛ مثل المدارس الابتدائية الخاصة، والمدارس الابتدائية الخيرية، والمدارس التلمودية العليا. ومنذ أواسط القرن التاسع عشر، بدأت أعداد متزايدة من الأطفال اليهود في الالتحاق بالمدارس الحكومية العلمانية، وبدأ التعليم الديني اليهودي يقتصر بشكل متزايد على مدارس التعليم التكميلي (وهي مدارس يحضرها التلاميذ اليهود بعد حضورهم المدارس الحكومية ويدرسون فيها بعض المواد اليهودية. وهذه المدارس يحضرها الطالب في العادة إما مرة في الأسبوع أو لمدة ساعة أو ساعتين كل يوم بعد انتهاء اليوم الدراسي، وعادةً ما تكون هذه المدارس ملحقة بالمعبد)، أو مدارس اليوم الكامل اليهودية، وهي مدارس تضم مناهجها مواد دراسية غير دينية وتُضاف إليها بعض مواد ذات طابع يهودي. وتتفاوت نسبة المواد غير الدينية إلى المواد الدينية من بلد لآخر، وإن كان النمط الغالب غلبة المواد غير الدينية على المواد الدينية اليهودية.

وبعد الحرب العالمية الأولى، تزايد الاتجاه نحو تحديث وعلمنة تعليم الجماعات اليهودية في أوربا الغربية حيث زاد التحاق أطفال اليهود بالمدارس الحكومية، واقتصر التعليم اليهودي على عدد قليل من الساعات في مدارس تكميلية ذات برامج محدودة. كما لم يُؤسَّس سوى عدد قليل من مدارس اليوم الكامل اليهودية التي جمعت مناهجها دراسات غير دينية ودراسات دينية كانت بدورها ضئيلة جدا.

١ - ألمانيا:

لا يختلف نمط تطور التربية والتعليم عند الجماعة اليهودية في

ألمانيا عن النمط العام للتطور في أوربا الغربية ووسطها. ومع هذا، تشكِّل المرحلة النازية انحرافاً عن النمط. فمع ظهور النازية، مُنع الأطفال اليهود من دخول المدارس الألمانية، وذلك انطلاقاً من اعتقاد النازيين بأن اليهود يشكلون شعباً عضوياً له لغته وتراثه وأرضه ومن ثَمَّ لا يجوز له أن يندمج في الشعب الألماني. ولذا، أسس النازيون، بالتعاون مع الحركة الصهيونية، مدارس يهودية ابتدائية وثانوية تُركِّز على تعليم العبرية وتهدف إلى تقوية ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» المستقلة. كما أسسوا معاهد مهنية لتأهيل الشباب اليهودي الذي يفكر في الاستيطان في فلسطين أو أية دولة أخرى. وبلغ عدد الشباب الذين تم تأهيلهم في هذا المعهد نحو ٦٠ ألف شاب وشابة. وقد اختفت هذه المؤسسات التعليمية بعد تصفية يهود ألمانيا من خلال الهجرة أو الإبادة أثناء الحرب العالمية الثانية.

٢ ـ فرنسا:

بعد الحرب العالمية الثانية، قلَّ عدد أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا الغربية حيث هاجر بعضهم إلى إسرائيل وهاجرت غالبيتهم إلى الأمريكتين. وفي عام ١٩٦٩، لم يزد عدد المدارس اليهودية في أوربا الغربية عن ٤٠ مدرسة بعضها في مدن لم يكن يوجد فيها مدارس يهودية من قبل، مثل: إستكهولم، مدريد، زيورخ، بازل. ومع هذا، تشير الإحصاءات خلال هذا العام إلى أن ٥٠٪ من الأطفال اليهود تلقوا تعليماً يهوديا، و٢٥٪ منهم نال تعليمه في مدارس تكميلية لا يداومون فيها سوى يوم واحد في الأسبوع ولمدة أربع سنوات فقط في أغلب الأحيان، و٢٥٪ في مدارس اليوم الكامل اليهودية. وكان لنمو الجماعة اليهودية في فرنسا خلال الخمسينيات والستينيات، نتيجة هجرة يهود شمال أفريقيا، أكبر الأثر في زيادة حجم المؤسسات التعليمية اليهودية والتوسع في المدارس وخصوصاً مدارس اليوم الكامل.

وقام الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحَّد عام ١٩٧٦، بالتعاون مع الوكالة اليهودية، بتأسيس الصندوق الاستثماري للتعليم الذي عمل على تأسيس مدارس عديدة في باريس والأقاليم، كما عمل خلال خمس سنوات على زيادة عدد الطلبة المسجلين بمدارس اليوم الكامل إلى الضعف.

وفي عام ٨٦/ ١٩٨٧، كان حوالي ٢٠٪ من الأطفال اليهود، بين أعمار ٥ و ١٧ سنة، مسجلين في مدارس اليوم الكامل اليهودية. ووصل عدد هذه المدارس إلى ٥٥ مدرسة في باريس و٣٣ في الأقاليم، شاملةً مراحل الحضانة والابتدائية والثانوية. كما كان ٩٧٠٠ طفل يهودي يتلقون تعليماً دينيا في ٢٢٠ مدرسة دينية تكميلية في باريس وخارجها. ويعود هذا التحول في واقع الأمر إلى حركة عامة نشأت في فرنسا واتجهت نحو تأكيد اللامركزية والخصوصية الإقليمية وعارضت مركزية الدولة، كما طالبت بالاعتراف بالخصائص اللغوية والثقافية للأقاليم الفرنسية المختلفة. ومن ثَمَّ، بدأت الجماعات اليهودية في فرنسا هي الأخرى بالمطالبة بالاعتراف بهوياتها الدينية والإثنية. غير أن أشكال الهوية اليهودية تعددت فاتخذت شكلاً دينياً إثنيا بين اليهود القادمين من شمال أفريقيا بتراثهم وتقاليدهم التي تبلورت في العالم العربي، في حين اتخذت شكلاً إثنيا لادينيا بين اليهود الأوربيين، وخصوصاً بين اليهود ذوي الأصول الشرق أوربية والتراث اليديشي.

وإذا كان تعميق الهوية اليهودية، وإن تعدَّدت أشكالها، له أثر في تزايد الالتحاق بالمدارس اليهودية، فإن الجزء الأكبر من الأطفال اليهود ظَلَّ خارج النظام التعليمي اليهودي، خصوصاً وأن النظام المجاني للتعليم الحكومي الفرنسي كان إحدى أدوات الحراك الاجتماعي بالنسبة لأبناء المهاجرين. وتوفر المدارس الحكومية الفرنسية فصولاً للعبرية، كما تسمح لطلابها بتلقي تعليم ديني بعد ساعات الدراسة المدرسية.

ويوجد نشاط ثقافي وتربوي خارج الإطار المدرسي. فهناك حركات الشبيبة الصهيونية والدينية وغيرها، وهناك أيضاً مركز الإجازات الذي يقضي فيه نحو ٢٠ ألف طفل يهودي بضعة أسابيع كل عام في جو يعمل على تعميق الهوية اليهودية الدينية والثقافية. كما أن هناك حلقات للدراسات اليهودية في ١٧٠ مركزاً تغطي باريس والأقاليم الأخرى تهتم بدراسة التقاليد الدينية اليهودية. ويبدو أن هذه المراكز كانت عاملاً مساعداً في عودة البعض إلى ممارسة الشعائر الدينية.

٣ـ إنجلترا:

أصبحت الصورة السائدة للتعليم في إنجلترا، في العقد الأول من القرن العشرين، أن يلتحق الجزء الأكبر من الأطفال الإنجليز اليهود بالمدارس الابتدائية والثانوية الحكومية ويحصلوا على قدر ضئيل من المعرفة بالديانة اليهودية واللغة العبرية من خلال الدراسات التكميلية. وفي عام ١٩٤٤، أعطى القانون الإنجليزي لتلاميذ المدارس، ومن بينهم اليهود، الحق في تلقي تعليمهم الديني داخل المدارس الحكومية خلال الفترات المعتادة للدراسة.

وتأسس خلال الأربعينيات والخمسينيات كثير من مدارس اليوم الكامل وصل عددها عام ١٩٧٠ إلى ٥٠ مدرسة تضم ١٠ آلاف طالب. وفي عام ١٩٦١، بلغ الطلاب في هذه المدارس نحو

١٣٪ من إجمالي عدد اليهود ممن هم في سن الدراسة والبالغ عددهم ٨٠ ألف طالب. وزادت النسبة في نهاية السبعينيات إلى ٢٠٪ أو ١٣ ألف طالب. أما التعليم التكميلي، فانخفض عدد المسجلين فيه من ٢٢ ألفاً عام ١٩٦١ إلى ١٣ ألفاً في أواسط الثمانينيات.

وتضم إنجلترا الآن ٨١ مدرسة يهودية، بين حضانة وابتدائية وثانوية، و٦ معاهد دينية عليا، ومعاهد حاخامية من أهمها كلية اليهود. كما أن بعض الجامعات الإنجليزية تُقدِّم برامج في الدراسات اليهودية.

٤ ـ الاتحاد السوفيتي (سابقاً):

اتجهت الحكومة السوفيتية في بادئ الأمر إلى الاعتراف باليديشية لغة قومية للأقليات اليهودية في الاتحاد السوفيتي، كما اتجهت إلى إقامة شبكة من المدارس اليديشية في إطار توجهها العام نحو تأكيد الثقافة اليديشية للجماعة اليهودية. وأدَّى هذا إلى زيادة نسبة الطلاب اليهود الملتحقين بالمدارس اليديشية إلى إجمالي الطلاب اليهود من ٢٢٪ عام ١٩٢٢ إلى ٢٩,٥٪ عام ١٩٣٠، ثم إلى ٦٤٪ عام ١٩٣٢. إلا أن أعداد اليهود بدأت تنخفض بشكل تدريجي بعد هذا العام، بسبب تزايد التحاقهم بالمدارس والمؤسسات التعليمية الروسية. وكان عدد الطلاب اليهود في المدارس الثانوية والجامعات الروسية في العام الدراسي ١٩٢٦/ ١٩٢٧ نحو ٢٣٦٩٩ طالباً يشكلون ١٥,٤٪ من إجمالي الطلاب، ووصل عددهم إلى ٦٠ ألفاً عام ١٩٣٥ أو ١٠٪ من إجمالي الطلاب.

وقد اختفت المدارس اليديشية تماماً مع نهاية الثلاثينيات، وزاد التحاق الطلبة اليهود بالمدارس الحكومية في الفترة التالية حتى الثمانينيات. وظل الاتحاد السوفيتي لا يضم أية مدارس أو مؤسسات تعليمية خاصة للجماعات اليهودية، إلا أنه، مع سياسة البريسترويكا، تم افتتاح مدارس جديدة في الاتحاد السوفيتي من أهمها مدرسة تلمودية عليا يشرف عليها واحد من أهم علماء التلمود الإسرائيليين. ومع سقوط الاتحاد السوفيتي وهجرة أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية من روسيا وأوكرانيا وغيرهما من الجمهوريات (من المراحل العمرية التي تلتحق بالمؤسسات) من المتوقع أن تتغيَّر صورة تعليم أعضاء الجماعات اليهودية.

٥ ـ بولندا:

تعمقت في بولندا عزلة الجماعة اليهودية وغربتها بعد قيام الحرب العالمية الأولى. فمن ناحية، كانت بنية المجتمع الثقافية والحضارية تلفظ اليهود وترفض دمجهم نظراً لميراثهم التاريخي المرتبط بطبقة النبلاء وبنظام الأرندا (استئجار عوائد القرى والضياع) وهو في جوهره تراث معاد لمصالح بولندا القومية. ومن ناحية أخرى، تدهورت الأوضاع الاقتصادية للجماعة اليهودية مع اضطلاع الدولة البولندية الجديدة وطبقة التجار البولنديين الصاعدة بالوظائف الوسيطة التقليدية لليهود. وقد تأسست شبكة من المدارس اليهودية على أيدي الحركات الثورية والعمالية اليهودية والصهيونية تعبيراً عن هذه العزلة وهذا الانفصال المتزايدين.

وكان للحركة الصهيونية شبكة من المدارس تُعرَف باسم «تاربوت» تضم حضانة ومدارس ابتدائية وثانوية، ومدارس مسائية، ومدرسة زراعية للتدريب على الاستيطان في فلسطين. وزادت هذه المدارس من ٥١ مدرسة عام ١٩١٨ تضم ٢٥٧٥ طالباً إلى ٣٠٠٠ مدرسة عام ١٩٣٨ يدرس فيها ٤٠ ألف طالب.

كما كانت هناك شبكة من المدارس تشرف عليها المنظمة المركزية للمدارس اليديشية. وكانت هذه المدارس تحت رعاية حزب البوند والحركات العمالية اليهودية الأخرى، وبالتالي اتسمت مناهجها باتجاهها الاشتراكي العلماني القوي وبالاهتمام بالثقافة اليديشية. وضمت هذه الشبكة، التي كانت لغة التدريس فيها اليديشية، مدارس حضانة وابتدائية وثانوية ومدارس مسائية وصل عددها عام ١٩٣٤/ ١٩٣٥ إلى ١٦٩ مدرسة يحضرها ١٥٤٨٦ طالباً. وأقامت زيشو أيضاً معهدين عاليين لتدريب المعلمين.

كما كانت توجد شبكة مدارس «رابطة المدارس والثقافة» التي انشق مؤسسوها عن حزب عمال صهيون اليميني نظراً لموقفهم بشأن ضرورة تدريس اللغة العبرية إلى جانب اليديشية. إلا أن هذه الشبكة لم تنتشر بشكل كبير في بولندا، حيث وصل عدد المدارس التابعة لها عام ١٩٣٤/ ١٩٣٥ إلى نحو ١٦ مدرسة حضانة وابتدائية وثانوية ومسائية تضم ٢٣٤٣ طالباً.

كما كانت هناك شبكتان من المدارس الدينية، الأولى شبكة مدارس يفنه تحت رعاية حزب مزراحي الصهيوني الديني. وكانت مدارسها خليطاً من المدرسة الدينية التقليدية والمدرسة الحديثة. وضمت هذه الشبكة مدارس حضانة وابتدائية وثانوية في أغلبها تكميلية، وكانت العبرية لغة التدريس فيها. ووصل عدد طلابها عام ١٩٣٦ إلى نحو ٥٦ ألف طالب.

أما الشبكة الثانية، فكانت شبكة مدارس حوريف التابعة للمؤسسة الدينية الأرثوذكسية، وتضم مدارس دينية أولية ومدارس تلمودية عليا، وكانت لغة التدريس فيها اليديشية. وبلغ عدد هذه المدارس في أواسط الثلاثينيات ٣٥٠ مدرسة تضم ٤٧ ألف طالب. كما كانت هناك أيضاً شبكة من المدارس المخصَّصة للبنات تحت رعاية

المؤسسة الدينية الأرثوذكسية هي مدارس بيت يعقوب بلغ عددها عام ١٩٣٨ نحو ٢٣٠ مدرسة تضم ٢٧ ألف طالبة. كما كانت توجد مدارس دينية تقليدية خاصة غير خاضعة لإشراف أيٍّ من الشبكات سالفة الذكر كانت تضم ٤٠ ألف طالب. وكان لشبكات المدارس مؤسساتها الخاصة لتدريب الحاخامات والمعلمين للتعليم في المدارس الدينية. كما كانت هناك مدرسة حكومية في وارسو تخدم هذا الغرض أيضاً.

وكان لتردي أوضاع اليهود في تلك الفترة واستبعادهم من قطاعات اقتصادية عديدة، أبعد الأثر في تزايد الإقبال على المدارس التجارية اليهودية التي ضمت عام ١٩٣٤ نحو ٥٠٠٠ طالب. كما تأسس عام ١٩٢٥ في فلنا معهد ييفو لدراسة التاريخ واللغة والثقافة اليديشية. وأنشأ المعهد فروعاً له فيما بعد في الولايات المتحدة والأرجنتين، وانتقل مجلس إدارته إلى نيويورك بعد الحرب العالمية الثانية.

ووصل حجم الطلبة المسجلين في المدارس اليهودية في بولندا إبان الحرب العالمية الثانية إلى أكثر من ٢٠٠ ألف طالب أو ٣٨,٨٪ من إجمالي الطلاب اليهود، ٢٩,٥٪ منهم مسجلون في المدارس الدينية و٩,٣٪ في المدارس اليديشية أو العبرية العلمانية. كما التحقت أعداد كبيرة من أطفال اليهود بالمدارس الحكومية حيث تلقوا تعليمهم بالبولندية. وبلغ عددهم ٣٥٥,٠٩١ طالباً أو ٦١,٢٪ من إجمالي الطلاب اليهود، أي أن عدد الطلبة المسجلين في المدارس البولندية كان ضعف عدد المسجلين في المدارس ذات التوجه الديني والإثني (اليديشي) الخاص، مع العلم بأن مقررات هذه المدارس نفسها لم تكن كلها متوجهة هذا التوجه الخاص، بل إن العنصر الديني أو الإثني لم يكن يتجاوز أحياناً لغة التدريس ومادة أو اثنتين. وقد يكون من العوامل التي شجعت الاتجاه نحو الالتحاق بالمدارس الحكومية عدم اعتراف وزارة التعليم البولندية بشهادات المدارس الثانوية اليهودية. ومع هذا، تضاءلت أعداد الطلبة اليهود في الجامعات البولندية حيث انخفض عددهم بنسبة ٣٥٪ بين عامي ١٩٢٣ و١٩٣٦، في حين زاد حجم الطلبة من غير اليهود بنسبة ٣٧٪ خلال الفترة نفسها.

ورغم أن هذه الأرقام تدل على أن نسبة غير قليلة من الشباب اليهودي كان يتلقى تعليماً بولنديا، وهو ما يعني تزايد استيعاب اللغة والثقافة البولندية، إلا أن ذلك لم يؤد إلى دمجهم في المجتمع البولندي مثلما حدث في أوربا الغربية في القرن التاسع عشر. وذلك بسبب ما تقدَّم من أن بنية المجتمع البولندي الثقافية والاقتصادية كانت تلفظ أعضاء الجماعات اليهودية وتسعى إلى طردهم لا إلى دمجهم. وقد أدَّى ذلك إلى هجرة أعداد كبيرة منهم خارج بولندا، بلغت بين عامي ١٩٢١ و١٩٣٧ نحو ٣٩٥,٢٣٥ فرداً (وكان بين هذه العناصر عدد كبير من زعامات الحركة الصهيونية وقيادات إسرائيل).

أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد تقلص حجم الطلبة اليهود من ٣٢٠ ألف طالب عام ١٩٣٩ إلى ٢٥ ألفاً. وقد أُعيد فتح ٣٤ مدرسة تضم ٢٨٧٤ طالباً، ولكن العام الدراسي ١٩٤٨/١٩٤٩ شهد تأميم جميع المدارس اليهودية فأصبحت تابعة للحكومة، وكان قد تم من قبل إلغاء اللغة اليديشية كلغة للدراسة كما أُلغي تعليم العبرية. ومع تزايد هجرة أعضاء الجماعة إلى خارج بولندا (تمت تصفيتهم بشكل نهائي عام ١٩٦٩ ولم يتبق منهم سوى بضعة آلاف)، أغلقت المدارس التي كان لها صبغة يهودية أو شبه يهودية أبوابها. وفي عام ١٩٨٦ تم تأسيس معهد دراسة تاريخ وثقافة اليهود في بولندا ويتبع جامعة كراكوف.

الجزء الثالث

تواريخ الجماعات اليهودية

١ ـ إشكالية التاريخ اليهودي

تاريخ يهودي أم تواريخ يهودية؟

«التاريخ اليهودي» مُصطلَح يتواتر في الكتابات الصهيونية والغربية المتأثرة بها ويفترض المُصطلَح وجود تاريخ يهودي مستقل عن تواريخ الشعوب والأمم كافة، وهو تاريخ يضم اليهود كافة. يتفاعلون داخله مع عدة عناصر مقصورة عليهم، من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة. وتتفرع عن هذا المفهوم مفاهيم أخرى تدور حول الاستقلال اليهودي. ويشير رصد واقع الجماعات اليهودية إلى أنها كانت تتصف بغياب التجانس بينها، وأن أعضاءها كانوا يوجدون في مجتمعات مختلفة ذات "تواريخ" مستقلة. فيهود اليمن في القرن التاسع عشر كانوا يعيشون في مجتمع صحراوي قبلي عربي. أما يهود الولايات المتحدة في الفترة نفسها فكانوا يعيشون في مجتمع رأسمالي حضري غربي، وهكذا. ومن ثَمَّ لا يمكن الحديث عن «تاريخ يهودي» واحد وإنما «تواريخ يهودية» مختلفة باختلاف المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

التاريخ المقدَّس أو التوراتي (الإنجيلي)

«التاريخ المقدَّس أو التوراتي (الإنجيلي)» هو القصص التاريخي الذي يرد في العهد القديم (التوراة). وتاريخ العبرانيين، كما ورد في العهد القديم، يختلف عن التاريخ الفعلي ويتناقض معه أحياناً. ويصلُح التاريخ التوراتي مصدراً للمعلومات والفرضيات، ولكن أحياناً أخرى لا يمكن دراسته إلا باعتباره جزءاً من الرؤية الدينية اليهودية وحسب. وهذا التاريخ جزء من العقيدة اليهودية، وهو يختلف تماماً عن ممارسات أعضاء الجماعات اليهودية. وفي هذا لا يختلف أعضاء الجماعات اليهودية عن غيرهم من البشر. فتاريخ الهند والأقوام الهندية ليس تاريخ الديانة الهندوكية، وتاريخ الصين ليس تاريخ الديانة الكونفوشيوسية.. وهكذا.

والتاريخ التوراتي المقدَّس الذي ورد في العهد القديم تاريخ ذو مغزى أخلاقي تُستخلَص منه العبَر، بل إن العبْرَة أحياناً تكون أهم من الأحداث نفسها. والتاريخ التوراتي يختارَ من الحدث ما يخدم تصوُّره ويلجأ إلى الصور المجازية والرموز والمبالغة ليوصل الحكمة للمتلقي، وبالتالي كثيراً ما تتناقض وقائعه ووقائع التاريخ الدنيوي، وإن كانت تتفق معه أحياناً. وكثير من القصص التي وردت في العهد القديم لا يمكن إثباتها بالرجوع للتاريخ الدنيوي. كما أن بعض المدونات الآشورية والبابلية والمصرية تعطينا أحياناً صورة مختلفة تماماً لأحداث رويت في التاريخ التوراتي. ومن أمثلة ذلك: وقائع الخروج من مصر، وحياة سليمان، وغيرهما.

والفكر الغربي والصهيوني يتجه دائماً نحو محاولة فرض الأنماط المتكررة في التاريخ المقدَّس على تواريخ الجماعات اليهودية في العالم وعَبْر التاريخ. فمثلاً حادثة مثل الإبادة النازية يتم تصويرها بوصفها تكراراً لحوادث سابقة في التاريخ التوراتي كالعبودية في مصر والتهجير البابلي وهكذا. وكأن التاريخ مسرحية إلهية ذات حبكة واضحة، وبالتالي يصبح قيام إسرائيل نهاية التاريخ.

الرؤى اليهودية للتاريخ

في معظم الكتابات اليهودية أو الصهيونية التي تعالج القضايا المتصلة بالجماعات اليهودية في العالم، يلاحظ الدارس أنه لا توجد أية تفرقة بين تاريخ اليهودية من جهة وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية من جهة أخرى، أي أن هذه الكتابات لا تفرق بين التاريخ المقدَّس والتاريخ الفعلي. في البداية يتداخل تاريخ العبرانيين مع التاريخ المقدَّس، وهو ما يعني أنهم يتحولون من قبائل من البدو عاشت في ظروف تاريخية محددة وأثرت فيها ليصبح تاريخهم تاريخاً مقدساً، وتكتمل قداسته بتدخُّل الإله في التاريخ دائماً لينصرهم. وفكرة تدخل إله يسرائيل الدائم في مسار التاريخ لصالح شعب إسرائيل ثم تصوُّر حلوله في الشعب وتاريخه تحوِّل اليهود إلى أمة من القديسين والكهنة والأنبياء.

والتدخل الإلهي المستمر في التاريخ يؤكد أن التاريخ يتم دفعه وتحريكه من الخارج وأن الإرادة البشرية لا دور لها في تحريكه. ويعني كذلك أن التاريخ اليهودي (المقدَّس والإنساني على السواء) بدأ من مطلق إلهي لا يقبل النقاش أو التقييم هو العهد مع إبراهيم، وهو عهد يجدده الإله من آن لآخر كما في العهد مع إسحق ثم مع يعقوب، وينتهي بمطلق أخير هو ظهور الماشيَّح الذي يمثل نهاية التاريخ. وترد الوقائع في أسفار موسى الخمسة بمقدار ما يخدم

الغرض الإلهي هدفاً واحداً هو إعلاء جماعة يسرائيل. والرؤية الدينية القومية الحلولية للتاريخ هي التي شجعت النزعات المشيحانية التي اتسمت بها تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية. وقد أدى انتشار الجماعات اليهودية في العالم وتحوُّلهم إلى جماعة وظيفية منعزلة إلى زيادة معاداتهم للتاريخ.

وعندما بدأ علم التاريخ بمعناه الحديث في الغرب، بدءاً من القرن السابع عشر، كان إسهام أعضاء الجماعات اليهودية فيه منعدماً. ولم تبدأ مساهماتهم فيه إلا بعد ظهور شرائح منهم تلقت ثقافة علمانية غربية مختلفة تماماً عن الثقافة اليهودية التقليدية.

الرؤية الصهيونية للتاريخ

تنبع رؤية الصهاينة للتاريخ من عنصرين أساسيين أحدهما عقائدي، والآخر تاريخي. أما العقائدي فهو الحلولية اليهودية بما تحوي من مزج بين المطلق (الإلهي) والنسبي (الإنساني)، وبكل ما تخلع على الشعب اليهودي من قداسة تجعله مطلقاً. أما التاريخي، فهو التجربة التاريخية التي خاضتها الجماعات اليهودية في شرق أوربا كجماعات وظيفية. فهذه التجربة قدمت ما يمكن اعتباره برهاناً واقعياً ملموساً يؤكد صحة الرؤية الصهيونية للتاريخ اليهودي. فهذه التجربة أوهمت المفكرين الصهاينة بأن لليهود تاريخهم المستقل عن تاريخ المجتمعات التي عاشوا فيها. وقد نسي هؤلاء أن ما تمتع به اليهود من استقلالية في هذه التجربة التاريخية سببه طبيعة المجتمع الإقطاعي في روسيا وبولندا.

والرؤية الصهيونية للتاريخ لا تختلف عن الرؤية الحلولية الواحدية اليهودية له، والفارق الوحيد بينهما أن الرؤية الصهيونية تمت علمنتها. ومن الواضح أن هناك تداخلاً في البنى التاريخية وعدم إلمام بحركة التاريخ ينعكسان بجلاء في الطريقة التي يقرأ بها الصهاينة الواقع التاريخي. فعندما نظروا إلى فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر رأوها أرضاً بلا شعب، ولم يروا واقعها الإنساني التاريخي.

انتفاضة شميلنكي

«انتفاضة شميلنكي» انتفاضة شعبية حدثت في أوكرانيا ضد الاستعمار البولندي وكل المؤسسات التي كانت تتبعه مثل: الكنيسة الكاثوليكية والوكلاء اليهود. وهذه الانتفاضة من أهم الحوادث التاريخية التي أثرت في الجماعات اليهودية في شرق أوربا، ولا تقل في أهميتها عن وعد بلفور أو الإبادة النازية. ولا يمكن فهم انتفاضة شميلنكي إلا بالعودة إلى تاريخ العلاقة بين بولندا وأوكرانيا، وهو أمر لا علاقة له بما يسمَّى «التاريخ اليهودي».

قائد الانتفاضة بوجدان شميلنكي (١٥٩٣-١٦٥٧) قائد القوزاق، وهي قوات أوكرانية مسلحة. تعود أسباب الانتفاضة إلى عدة أسباب من بينها تزايد الاستغلال الإقطاعي الواقع على الفلاحين الذين كانوا في واقع الأمر أقناناً تقترب حالتهم من العبودية الكاملة، وخصوصاً أن النبلاء البولنديين لم تكن تربطهم علاقة حقيقية بأوكرانيا التي تم ضمها لبولندا في القرن السادس عشر. وكان النبلاء البولنديون مهتمين بتعميرها حتى تدر عليهم عائداً كبيراً.

وقد نشأت منظومة متكاملة للاستغلال كان دور أعضاء الجماعات اليهودية فيها أساسيا، فكان اليهودي يُقرض النبيل البولندي بضمان ضيعته وعائدها، ثم يتولى إدارتها في إطار «نظام الأرندا». وفي هذا النظام كان كثير من اليهود يتحولون إلى ممثلين للنبلاء الإقطاعيين الغائبين في العاصمة البولندية وارسو، فيقومون بتحصيل الضرائب الباهظة من الفلاحين، ومنها ضريبة يدفعها الفلاحون الأرثوذكس لفتح باب الكنيسة للصلاة. كما كانوا يحتكرون بعض السلع كالملح والخمر بأسعار مرتفعة جدا.

ورغم أن اليهودي كان أداة للمستغل الحقيقي (النبيل البولندي) إلا أن الغضب الشعبي الأوكراني انصبّ عليهم، وكانت العناصر التي جرفتها الانتفاضة: القوة العسكرية البولندية، والقساوسة الكاثوليك والوكلاء اليهود. وانتفاضة شميلنكي من منظور التاريخ الإنساني ثورة شعبية ضد شكل من أشكال الظلم لم تشهد له الإنسانية مثيلاً، لكن الدراسات الصهيونية تنظر للحادثة في إطار التاريخ اليهودي، إذ تصوِّر اليهود أقلية صغيرة تعيش آمنة في مدنها الصغيرة، وفجأة يهب العالم من حولها ليذبح أعضاءها دون سبب واضح. ومن هنا تصبح «مذبحة شميلنكي» بدلاً من انتفاضة شميلنكي، ويقارن شميلنكي بهتلر.

الماضي والمستقبل اليهوديان

«الماضي اليهودي» تعبير يفترض أن لأعضاء الجماعات اليهودية ماضياً واحداً مستقلا، فإن لم يكن لهم حاضر موحَّد فهذا نتيجة حادث هدم الهيكل وشتاتهم. والمشروع الصهيوني، حسب هذا المفهوم، محاولة تستهدف أن يكون لليهود مستقبل واحد. وتبيِّن الدراسة المتأنية أن أعضاء الجماعات اليهودية ليس لهم ماض واحد. فماضيهم في بولندا، أي تجربتهم التاريخية وموروثهم الحضاري والديني في بولندا، يختلف عن ماضي يهود الفلاشاه، وتجربة هذين

الفريقين تختلف عن تجربة الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة. وليس لأعضاء الجماعات اليهودية حاضر واحد، فلكل جماعة يهودية مشكلاتها، وتدل المؤشرات كافة على أن أعضاء هذه الجماعات لن يكون لها مستقبل واحد.

ومع هذا، تصر الكتابات الصهيونية على تأكيد وجود ماضٍ مستقل ومصير يهودي واحد منفصل عن ماضي الجماعاعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بينها، والانفصال المزعوم يمتد ليشمل استقلال المستقبل والمصير.

المصير اليهودي (الوحدة والتشابك)

«المصير (أو القدر) اليهودي» عبارة تعني أن أعضاء الشعب اليهودي لهم مصير واحد مشترك، وأنهم خاضعون لمسار واحد، ولهم آمال مشتركة، ويلقون نهاية واحدة. وفكرة المصير اليهودي ترتبط بفكرة الشعب المختار. فهذا الشعب اختاره الإله وحلَّ فيه ليكون محط عنايته واهتمامه وهو بالتالي ذو مصير خاص، مُقرَّر مسبقاً. ويبدأ تاريخ هذا المصير بالخروج من مصر وينتهي بعودة الماشيَّح. وبين البداية والنهاية يجد اليهود مصيرهم المحتوم من اضطهاد وهجرة وطرد. وهذا النموذج غير قادر على تفسير الكثير من الظواهر، فمثلاً، أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية مصيرهم مرتبط بها أكثر من ارتباطهم بإسرائيل، فهم لا يهاجرون إليها، وعدد من قُتل منهم في الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الثانية يفوق عدد من قُتلوا دفاعاً عن الوطن القومي اليهودي.

ونحن نفرق بين وحدة المصير اليهودي، وبين تشابك المصائر، فأحوال إحدى الجماعات اليهودية تؤثر أحياناً في جماعة يهودية أخرى، وذلك رغم وجود كل منهما في مسار تاريخي مختلف عن الأخرى. وعلى سبيل المثال فإن حركيات التحديث المتعثر في شرق أوربا قذفت ملايين اليهود الذين كانوا يشكلون فائضاً بشريا إلى غربها، فاشتبك مصيرهم بمصير يهود هذه البلاد دون أن يتحد المصيران.

الاستمرار اليهودي

«الاستمرار اليهودي» مصطلح يفترض أن الجماعات اليهودية تكوِّن في العصر الحديث كلا متجانساً على مستوى العالم، وأن ثمة استمراراً تاريخيّا وثقافيّا، وأحياناً عرْقيّا، يميِّز التاريخ اليهودي. وبناءً على هذا المفهوم يذهب الصهاينة إلى أن يهود العصر الحاضر ورثة العبرانيين القدامى، وأن حكومة إسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة هي الكومنولث اليهودي الثالث. ويرى بعض الصهاينة أن الصهيونية تعبير عن هذا الاستمرار. وتذهب الرؤية الصهيونية في تفسير هذا الاستمرار إلى أن الوجود اليهودي عبر التاريخ اتبع نمطاً واحداً، وعبَّر عن جوهر يهودي واحد.

ويعتمد مفهوم الاستمرار اليهودي على قياس تاريخي زائف، إذ يفترض أن الظواهر التي تحيط بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم. وكما هو الحال مع المفاهيم الصهيونية الأخرى، نجد أن مفهوم «الاستمرار اليهودي» يستخدم لإعطاء اليهود حقوقاً مطلقة مستمرة، ويُسقط حقوق الآخرين. فباسم هذا الاستمرار يدَّعي الصهاينة لأنفسهم شرعية اغتصاب فلسطين وطرد أهلها، باعتبار أن الدولة اليهودية، حسب تصوُّرهم، وريثة الدويلات اليهودية التي قامت منذ آلاف السنين.

الاستمرار اليهودي: منظور إسلامي

يرى المؤمنون بالاستمرار اليهودي أن كلمة «يهودي» تشير إلى يهود العالم في الماضي والحاضر والمستقبل. ومثل هذا التصور يتنافى تماماً مع الواقع التاريخي ومع الرؤية الإسلامية. فهناك تنوُّع هائل بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العرْقي، ويشهد على ذلك وجود يهود بيض ويهود سود ويهود صفر، وهكذا...

ومن الواضح أن القرآن الكريم لا يفترض وجود استمرار بين يهود العالم، ولذا وردت مصطلحات عديدة في الحديث عنهم ليعبِّر كل منهم عن وضع مختلف زمانيا ومكانيا، وهذا المصطلحات هي:

- بني إسرائيل (ورد ٤١ مرة)
- هود (ورد ٣ مرات)
- الذين هادوا (ورد ٩ مرات)
- أوتوا الكتاب (ورد ١٢ مرة)
- أهل الكتاب (ورد ٣١ مرة)

والإيمان بالاستمرار اليهودي على النحو الذي يروجه الفكر الصهيوني يتناقض مع مفهوم الفطرة، ولا أحد يرث عن آبائه وأجداده صفات تجعله خيِّراً أو شريراً، فكل إنسان مخيَّر وسيحاسبه الله على ما يفعل من خير أو شر. كما أن باب التوبة مفتوح لكل إنسان.

البقاء اليهودي

«البقاء اليهودي» عبارة تتواتر في التواريخ المتأثرة بالرؤية الصهيونية، وتجدها دائماً مقرونة بكلمة «معجزة». ومصطلح «البقاء

اليهودي» مرتبط بمصطلحات أخرى مثل «الاستمرار اليهودي» و«الشعب اليهودي» و«التاريخ اليهودي». وهذه المصطلحات جميعاً تنبع من نموذج تفسيري واحد يفترض وجود جماعة متجانسة يقال لها «اليهود» احتفظت بهويتها المستقلة، رغم وجودها في أزمنة مختلفة. وعادةً ما تتم مقارنة البقاء اليهودي باختفاء بعض الشعوب الأخرى كالآراميين والبابليين.

وهذا المفهوم، مثل غيره من المفاهيم الصهيونية، يفترض أن الجماعات اليهودية في العالم تتصف بالاستمرار والوحدة والتجانس، وهو ما يكذبه التاريخ والواقع. فبقاء اليهود لم يكن مطلقاً، فمن الوقائع الأساسية في التاريخ العبراني واقعة تهجير القبائل العبرانية العشر من المملكة الشمالية إلى آشور، ثم لم يُسمع بهم بعد ذلك، ولا يزال البحث جارياً عنهم. وقد أصدر أحد الحاخامات فتوى بأن الفلاشاه الذين تم تهجيرهم للكيان الصهيوني ينتمون لواحدة من هذه القبائل المفقودة. والقول نفسه ينطبق على يهود الخزر الذين لا نعرف شيئاً عن مصيرهم وإن كان هناك نظريات مختلفة متناقضة تحاول تفسير هذا الاختفاء. كما أن نسبة كبيرة من اليهود تختفي من خلال لاندماج، فرغم أن عدد اليهود في القرن الأول الميلادي كان يصل إلى ما يقرب من سبعة ملايين، فإن عددهم في القرن السابع الميلادي لم يتجاوز المليون.

ويعود بقاء الجماعات اليهودية لأسباب تاريخية تختلف من جماعة لأخرى، ولا يعود لأسباب دينية. والبقاء ليس فضيلة أو رذيلة، بل حقيقة تاريخية لا تخضع للقبول أو الرفض، ولا تعطي صاحبها أية حقوق. وبقاء يهود روسيا وأوكرانيا لا يعطي أياً من الجماعتين أية حقوق في الاستيطان في فلسطين حتى إن أرادوا ذلك وأصروا عليه.

التمركز اليهودي

«التمركز اليهودي» مصطلح يعني رؤية الأمور منفصلة عن إطارها التاريخي الواقعي، منقطعة الصلة عن القوى أو العوامل التي أدت إلى ظهورها أو أثَّرت في مسارها، ويركز ـ فحسب ـ على مدى تأثيرها في اليهود أو تأثرها بهم. فالشخص المتمركز حول نفسه تمركزاً يهودياً يسأل نفسه عند النظر إلى أي أمر: هل هذا الأمر نافع لليهود أم ضار بهم؟ وما معناه بالنسبة إليهم؟ بدلاً من أن يسأل نفسه عن نفعه للبشرية أو مدى قبوله ورفضه أخلاقياً. والتمركز اليهودي يعزل اليهود عن مجرى الأحداث التاريخية التي تتحكم، بشكل أو آخر، في كل الجماعات البشرية الأخرى، كأن لهم قوانينهم الخاصة التي لا تنطبق على غيرهم من البشر وتجعلهم سرا من الأسرار يحيطهم الغموض.

والصهيونية في برنامجها السياسي وفي رؤيتها لتواريخ الجماعات اليهودية، متمركزة تمركزاً يهوديا تاما. ففي قراءتها التواريخ تراها تاريخاً يهوديا واحداً له مركز يهودي واحد وحسب. ويَخلُص الصهاينة من قراءة التاريخ بهذه الطريقة المتمركزة تمركزاً يهودياً إلى الحديث عن اليهود بوصفهم جماعة فريدة متميزة. ثم يتحدثون عن معجزة البقاء اليهودي، كما لو كان البقاء أمراً مقصوراً على اليهود وحدهم، دون عشرات الطوائف والشعوب والأقليات الأخرى، كالأكراد، والأرمن والنوبيين. ومن الناحية السياسية قامت الحركة الصهيونية بترجمة هذا التمركز اليهودي إلى سلوك سياسي.

الهيكل الأول والهيكل الثاني

يستخدم بعض المؤرخين مصطلح «مرحلة الهيكل الأول» و«مرحلة الهيكل الثاني» للإشارة إلى مراحل ما يسمَّى «التاريخ اليهودي». ومرحلة الهيكل الأول، حسب تصوُّر هؤلاء المؤرخين، تبدأ مع بناء الهيكل في عهد سليمان عام ٩٦٠ ق.م. وتنتهي بسقوط المملكة الجنوبية عام ٥٨٦ ق.م.. أما مرحلة الهيكل الثاني فتبدأ عام ٥١٦ ق.م. مع عودة اليهود من بابل وإعادة تشييد الهيكل، وتنتهي بتحطيم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠ ميلادية. وهذا مثل جيد على التمركز اليهودي حول الذات وعلى محاولة فرض نمط متكرر في التاريخ المقدس على التاريخ الزمني وعلى افتراض وجود تاريخ يهودي واحد يضم جميع يهود العالم في كل زمان ومكان. وفهم تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية فهماً صحيحاً يتطلب وضعهما في سياقهما التاريخي، والنظر إليهما من خلال تاريخ الإمبراطوريات العظمى في المنطقة، وبالتالي فإن مصطلح مثل «الهيكل الأول» لا يفيد كثيراً.

الكومنولث اليهودي

مصطلح غربي يُستخدم للإشارة إلى المرحلة التي ارتبط فيها تاريخ فلسطين بوجود يهودي سياسي مستقل، أو شبه مستقل. وتنقسم الفترة المقصودة إلى «الكومنولث الأول» وترتبط بالهيكل الأول، حيث اتحدت القبائل تحت حكم القضاة حتى عام ٥٨٦ ق.م. أما «الكومنولث الثاني» فيشير إلى المرحلة التي تبدأ بثورة الحشمونيين عام ١٦٥ ق.م.، وقد أعلنوا استقلال البلاد بعد ذلك

بخمسة وعشرين عاماً، واستمر هذا الحكم حتى غزا الرومان المنطقة عام ٦٣ ق.م. وتقسيم تواريخ الجماعات اليهودية إلى فترات مثل الهيكل الأول والثاني، والكومنولث الأول والثاني، افتراض غير واقعي. فالكومنولث الأول، مثلاً، ارتبط قيامه وانهياره بحركة الإمبراطوريات الكبرى. وعلى أية حال لم تزد مدة الوجود السياسي المستقل، أو شبه المستقل، في فلسطين أكثر من ٣٠٠ عام تسبقها آلاف السنين من الحضارات غير العبرانية غير اليهودية، ويليها أكثر من ألف عام من الحضارات العربية الإسلامية وغير الإسلامية.

التأريخ من خلال الكوارث

«التأريخ من خلال الكوارث» عبارة تُستخدم للإشارة إلى اتجاه بعض كتَّاب ما يسمَّى «التاريخ اليهودي». وكتَّاب هذا الاتجاه يركزون على ما يحل بالجماعات اليهودية من كوارث، ويبدأ هذا التاريخ (حسب هذه الرؤية) بالخروج من مصر نتيجة قيام الفراعنة باضطهاد جماعة يسرائيل. وعقب الخروج يأتي: سقوط الهيكل الأول، والسبي البابلي، وسقوط الهيكل الثاني، وطرد اليهود من فلسطين والقدس، ونفيهم في كل بقاع الأرض، ثم عمليات الطرد المتكررة من بلاد أوربا، والمذابح التي راح اليهود ضحاياها. وتصل الكوارث قمتها في الهولوكوست (أي المحرقة). والرؤية التي تركز على الكوارث نتاج ما نسميه «الثنائية الصلبة» المرتبطة بالرؤية الحلولية الكمونية التي تقسِّم العالم إلى الأنا (المقدَّس) والآخر (المدنَّس). وهذه الرؤية الثنائية تعبِّر عن نفسها هنا في رؤية التاريخ اليهودي باعتباره مجالاً للفوضى (الكوارث) لكنه في لحظة يتجلى فيه النظام الكامل (نهاية التاريخ المشيحانية).

والتركيز على الكوارث يساعد على تماسك الهوية، فالبشر يميلون للتضامن في أوقات المحن، كما أنه يوفر عنصراً مشتركاً بين تواريخ الجماعات اليهودية، فالكوارث تجعل تواريخها المتباينة تاريخاً واحداً في نظر الصهاينة وأعداء اليهود. وإذا دققنا النظر وجدنا أن مصدر هذه الكوارث ليس يهودية اليهود وإنما الوظائف التي اضطلعوا بها.

والتواريخ التي تستخدم الكوارث محوراً أساسيا تحاول قدر إمكانها أن تجعل اليهود ضحية وحسب مقابل الأغيار. وهي لتحقق هذا الهدف تستبعد العناصر الإيجابية في سلوك الأغيار إزاء اليهود، لتصوُّرهم ذئاباً يفتكون (دائماً) باليهود.

احتكار دور الضحية (مَنْ المسئول ومَنْ الضحية؟)

من الأسئلة التي تُثار دائماً في دراسة تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية محاولة تحديد المسئولية عما حدث لليهود عبر التاريخ، وهل هم المسئولون عن العنف الذي يحيق بهم؟ أم أنهم ضحية لهذا العنف؟ الصهاينة يقولون إن اليهود هم دائماً الضحية وأنهم تم طردهم من بلد لآخر دون سبب واضح ودون رحمة. ويحاول الصهاينة تضخيم دور اليهود كضحية بحيث يحتكرون هذا الدور، ويبذلون قصارى جهدهم في إنكار هذا الدور على الآخرين. فمثلاً عندما يذكر مؤرخ حقيقة أن عدد البولنديين الذين أبادهم النازيون يفوق عدد من أبيد من أعضاء الجماعات اليهودية، فإن الصهاينة يثيرون صخباً شديداً مبتذلاً. ويحاول الصهاينة استثمار دور اليهود كضحية لخدمة مشروعهم السياسي، فيطالبون ألمانيا بدفع بلايين الدولارات تعويضاً لليهود عما لحق بهم من مذابح، بل يصبح احتلال فلسطين وطرد سكانها منها مجرد تعويض عما حاق باليهود من أذى على يد النازيين.

وفي محاكمة أيخمان (وهو مسئول نازي اختطفه الصهاينة وحاكموه في إسرائيل) ركز المدعي العام الإسرائيلي على دور اليهود كضحية أزلية في كل مكان وزمان، ورد محامي أيخمان على ذلك بأن تساءل: ألا يمكن أن يكون هذا الشعب الذي يتعرض للاضطهاد على يد الجميع في كل زمان ومكان، هو المسئول عن وقوع هذا الاضطهاد؟ والمعادون لليهود يردون على هذا السؤال بالإيجاب ويقولون: نعم اليهود هم المسئولون. وهذان التفسيران يغفلان أن هناك جوانب كثيرة في الواقع تتشكل خارج إرادة الإنسان ووعيه، فاشتغال اليهود بالربا داخل سياق الحضارة الغربية حولَّهم إلى مستغلين للجماهير، لكنهم لم يصبحوا كذلك بقرار واعٍ منهم أو من النخب الحاكمة الأوربية، وإنما نتيجة أسباب عديدة اجتماعية واقتصادية وثقافية، أدت بتفاعلها معاً إلى هذه النتيجة.

التفسير الحرفي والنصوصية

«الحرفية في التفسير» هي أن يصر المؤمن بكتاب مقدس على أن نصوص هذا الكتاب معناها واضح بسيط مباشر، مثل القاعدة العلمية، يمكن التوصل إليها دون جهد عقلي، ولذا يرى الحرفيون ضرورة التمسك بحرفية النص. والتفسير الحرفي لا يعترف بالمجاز في النص المقدَّس، ولذا فإنه يختصر المسافة بين النص والواقع. والتفسير الحرفي عكس الأصولية، وهي العودة إلى الأصول الأولى كما تظهر في النصوص المقدَّسة وفي سلوك الأولين الصالحين

واجتهادات الفقهاء. وهذه الأصول جميعاً تمثل جذراً تتفرع منه الفروع والاجتهادات كلها، وتشكل الإطار العام الذي يحكم عملية اجتهاد مستمرة في كل عصر يقوم بها عقل المؤمن المفسر المجتهد بالعودة إلى النص المقدَّس. وهذه التفرقة ضرورية لأنها تضع حداً يفصل بين الاجتهادات التي يصل إليها المجتهد ولا تتصف أبداً بالقداسة، وبين النص المقدَّس.

والتفسيرات الحرفية تفسيرات شديدة السهولة، فالمفسر يأخذ جملة من الكتاب المقدَّس ويفسرها بطريقة مباشرة، والحركات الثورية الشعبية ذات الطابع المشيحاني الحلولي الكموني تربة خصبة لظهور التفسيرات الحرفية للنصوص المقدَّسة والتنبؤات، وتقوم على أنه سيحدث تجسُّد كامل فجائي للإله في التاريخ الإنساني وتمتلئ الدنيا عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وتنتهي كل الآلام. وعندئذ ينتهي التاريخ البشري الذي هو مجال الاختبار وحرية الإرادة والاختيار، وتأتي النهاية السعيدة (نهاية التاريخ).

والعقيدة الألفية الاسترجاعية في التراث المسيحي واليهودي مثال على الحرفية، فقد فسرت بعض الإشارات العابرة التي وردت في العهد القديم تفسيراً حرفيا وأعطتها مكانة مركزية في تصوُّرها. وقد حاول المذهب الكاثوليكي تهدئة النزعة المشيحانية فقدم تفسيرات مجازية للنصوص نفسها التي ارتكزت عليها العقيدة الألفية. وصهيون بالنسبة لليهودية الحاخامية، ليست موقعاً جغرافيا، وإنما فكرة مثالية تتعلق بها الأفئدة، والعودة إليها ليست عودة حقيقية مادية بل تتم بشكل إلهي تام خارج التاريخ، وهي كفكرة لا علاقة لها بأرض فلسطين. والشعب المختار ليس اليهود وحدهم بل جماعة من المؤمنين تلتزم بالأوامر والنواهي الإلهية.

والجماعات الصهيونية ترفض التفسيرات المجازية التي طرحتها اليهودية الحاخامية، فبدلاً من صهيون المثالية غير المادية، تظهر فلسطين كموقع للاستيطان الصهيوني ويتحول الشعب المختار من فكرة تنطبق على كل من يلتزم بشروط محددة إلى شعب بعينه، وبدلاً من عودة إلهية تتم بعد انتهاء التاريخ تحدث عودة بالقوة المسلحة.

وتعد «النصوصية» شكلاً من أشكال الحرفية. «النصوصية» نسبة إلى «نص»، وهي محاولة لتفسير سلوك فرد أو جماعة أو رؤيتها للواقع أو مخططاتها للمستقبل بالعودة إلى النصوص المقدَّسة التي يؤمن بها الفرد أو أفراد هذه الجماعة. وكثير من العرب يحاولون تفسير سلوك أعضاء الجماعات اليهودية بل سلوك الحركة الصهيونية والدولة الصهيونية من خلال العودة إلى نصوص العهد القديم أو **بروتوكولات حكماء صهيون** التي يظن البعض أنها أحد كتب اليهود المقدَّسة. وبعض الصهاينة يلجأون لهذا الأسلوب في التفسير.

تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية

نستخدم عبارتي «تاريخ العبرانيين» و«تواريخ الجماعات اليهودية» للإشارة إلى التواريخ الحقيقية للعبرانيين والجماعات اليهودية. وهذه التواريخ تختلف عن تاريخ العقيدة اليهودية بمدارسها واتجاهاتها وفرقها المختلفة، كما أنها تختلف عن التاريخ الذي ترويه التوراة. وسنحاول تقديم مخطط عام مبسَّط لتواريخ الجماعات اليهودية في العالم عبر التاريخ (بإمكان القارئ أن يعود إلى المداخل المختلفة للاستزادة). وقد قسَّمنا هذه التواريخ إلى قسمين أساسيين: تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية. ثم تم تقسيم كل قسم إلى عدة مراحل.

أولاً: تاريخ العبرانيين (جماعة يسرائيل):

بدأ تاريخ العبرانيين بهجرات من مناطق مختلفة إلى بلاد الرافدين. وبين ٢١٠٠-١٢٠٠ ق.م حدثت هجرة إبراهيم إلى فلسطين (١٩٩٦ أو ١٨٠٠ ق.م)، ثم هجرة يعقوب ثم يوسف إلى مصر (١٧٢٠ ق.م). ويبدو أن العبرانيين في هذه المرحلة كانوا جماعات من البدو الرحل يعيشون على أطراف المدن ويتنقلون على طرق التجارة. وتلت ذلك فترة القضاة، وفيها خرج موسى من مصر عام ١٢٧٥ ق.م ووصل إلى سيناء، ثم حدث التسلل العبراني إلى كنعان (١٢٥٠-١٢٠٠ ق.م) تحت قيادة يوشع بن نون ومحاولتهم الاستيطان فيها. وشهدت هذه الفترة الحرب ضد الفلستيين الذين انتصروا على العبرانيين عام ١٠٥٠ ق.م ثم انسحب الفلستيون بالتدريج واقتصر وجودهم على ساحل فلسطين الغربي.

ثانياً: تواريخ الجماعات اليهودية:

مع انتهاء المرحلتين السابقتين، يمكننا أن نُسقط تماماً مُصطلَح «تاريخ العبرانيين» أو «تاريخ العبرانيين اليهود»، ليحل محله مُصطلَح «تواريخ الجماعات اليهودية»، إذ يصبح من المستحيل التحدث عن اليهود بشكل عام داخل إطار تاريخي موحَّد. فبعد أن اكتسبت الجماعات اليهودية المختلفة استقلالها الثقافي عن مركز عبراني موحد، أصبح لكل جماعة يهودية ظروفها التاريخية وحركيتها المستقلة عن ظروف وحركيات الجماعات الأخرى، ولا يمكن فهم سلوكها ومصيرها إلا في إطار تاريخ المجتمع الذي تنتمي إليه. وبدأت تظهر أشكال جديدة من القيادة السياسية لتحل محل كهنوت الهيكل والأرستقراطية الحشمونية واليهودية، فقد استمر

أمير اليهود (ناسي ـ بطريرك) تحت حكم الرومان، ورأس الجالوت تحت حكم الفرس، في إدارة شئون الجماعة اليهودية، كلٌّ في بلده، بالنيابة عن السلطة الحاكمة.

التواريخ الاقتصادية للجماعات اليهودية

مُصطلَح «تاريخ اليهود الاقتصادي» يفترض وجود تاريخ اقتصادي واحد يضم كل الجماعات اليهودية في العالم عبر التاريخ. ويصعُب على دارسي الجماعات اليهودية أن يجدوا معالم تاريخ واحد يضم كلا من يهود إثيوبيا الذين يعيشون في مجتمع قبلي بسيط ويهود الولايات المتحدة الذين يعيشون في مجتمع غربي رأسمالي متقدم ويهود الهند الذين يعيشون في مجتمع ينتمي للعالم الثالث. ولذا فإننا نفضل مُصطلَح «التواريخ الاقتصادية للجماعات اليهودية»، لأنه أكثر قدرة على التفسير.

التواريخ الفكرية (أو الثقافية أو الحضارية) للجماعات اليهودية

«تاريخ الفكر اليهودي» أو «التاريخ الفكري لليهود» أو «تاريخ الحضارة اليهودية»... إلخ كلها مصطلحات تفترض أن ثمة تاريخاً واحداً لما يسمى: «الفكر اليهودي» أو «الحضارة اليهودية» أو «الثقافة اليهودية». وأن هذا التاريخ يضم كل الجماعات اليهودية في العالم ويفسر وحدتهم وتنوُّعهم والتحولات الفكرية التي تطرأ عليهم.

ومن الصعب على أي دارس أن يكتشف عناصر الوحدة بين ثقافة أعضاء الجماعات اليهودية في الصين الذين تأثروا بعمق بالمحيط الثقافي والحضاري الصيني، وثقافة أعضاء الجماعات اليهودية في مصر أو الولايات المتحدة أو إثيوبيا. ولذا فإننا نرى أن مصطلح «التواريخ الفكرية (أو الثقافية أو الحضارية) للجماعات اليهودية» أكثر قدرة على التفسير.

٢ ـ إشكالية الإدارة الذاتية

الإدارة الذاتية للجماعات اليهودية

مُصطلَح «الإدارة الذاتية للجماعات اليهودية» نستخدمه بدلاً من المُصطلَح الإنجليـــــزي ذي الأصل اللاتيني «أوتونومي autonomy» الذي يعني «الاستقلال أو الحكم الذاتي»، وهو مُصطلَح شائع في الأدبيات الغربية عن أعضاء الجماعات اليهودية، وهو في تصورنا أبعد ما يكون عن وصف طبيعة علاقة هذه الجماعات بالمجتمعات التي يعيشون في كنفها. وتتسم الحضارات التقليدية بالفصل الحاد بين الطبقات والفئات والأقليات، فكان لكل فئة مؤسساتها الإدارية التي تمثل الأقلية أمام الدولة والحاكم، وكانت الدولة بدورها لا تتعامل مع الأفراد مباشرة وإنما مع الفئات والطبقات والأقليات المختلفة باعتبارها تجمعات لها مؤسساتها. فكانت هذه المؤسسات تتولى جمع الضرائب مثلاً، كما كانت تتولى الشئون التعليمية والقضائية الخاصة بأعضائها. وكان لكل فئة أو أقلية مدارسها التي تديرها وتشرف عليها، كما كان لها محاكمها التي تفصل في النزاعات التي تنشب داخلها. ولم يكن يُستثنَى من ذلك فئة أو طبقة أو أقلية. والواقع أن الهدف من هذا التقسيم والاستقلال الإداري النسبي كان، على المستوى المحلي، تسهيل عملية الإدارة وضبطها.

وكانت الجماعات الوظيفية (القتالية والمالية) تشكل حالة متطرفة من هذا الوضع العام، فهي جماعات كانت تضطلع بوظائف تتسمَ بأنها مصدر رهبة أعضاء المجتمع أو اشمئزازهم. ولذا، كان المجتمع يعزل أعضاء هذه الجماعات حتى يصبح لهم مؤسساتهم وأماكن إقامتهم المقصورة عليهم. وأعضاء الجماعات اليهودية في معظم الحضارات، خصوصاً الحضارة الغربية، قاموا (حتى القرن التاسع عشر) بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، ومن ثم كانت عملية عزلهم تأخذ شكلاً حاداً. ففي بابل، بعد التهجير، كان لليهود مؤسساتهم المستقلة التي يترأسها رأس الجالوت (المنفى) ويساعده رؤساء الحلقات الدراسية. كما كان يهود الإسكندرية البطلمية، في القرن الثاني قبل الميلاد، يكوِّنون بوليتيوما (جماعة من الغرباء يحق لهم السكنى) ويترأسها رئيس القوم (إثنَارخ) الذي كانت له صلاحيات إدارية وقضائية واسعة، وكان يشاركه السلطة ويعلو عليه أحياناً مجلس الشيوخ (جيروسيا). وقد سمح الرومان لليهود بأن تكون لهم محاكمهم ومؤسسات الإدارة الذاتية، وكان يترأسها أمير اليهود (ناسي أو بطريرك) الذي يعود تاريخه إلى عصر السلوقيين، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة في الأمور الخاصة باليهود. ولم يكن تنظيم الجماعة في إسبانيا المسيحية، الذي كان موروثاً عن إسبانيا الإسلامية (الأندلس)، يختلف كثيراً عن مؤسسات الإدارة الذاتية. ويمكن رؤية مجالس القهال التي كانت ممثلة في مجلس البلاد الأربعة في بولندا، أو اللانديوديـنشافت في وسط أوربا، أو الماهاماد في هولندا وغيرها من البلاد، أو نظام الملة في الإمبراطورية العثمانية، تعبيراً عن الوضع نفسه. ومؤسسة الجيتو بطبيعة الحال تعبير عن هذه الظاهرة.

ولكن هذه الإدارة الذاتية عادةً ما تختفي مع بداية عملية التحديث وظهور الدولة القومية العلمانية الحديثة ذات النظام التعليمي والاقتصادي الشامل والتي تضطلع بمعظم وظائف الجماعات الوظيفية مثل جمع الضرائب. ومن ثم، فإنها تتطلب ولاءً كاملاً من أعضائها، وترفض منافسة أية جيوب دينية أو إثنية فرعية منغلقة على نفسها. وقد بدأت هذه العملية في أوربا مع بداية القرن الثامن عشر، واستمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويمكن رؤية المسألة اليهودية كتعبير عن الفجوة الحضارية الناجمة عن هذا التحول السريع.

والمفهوم الذي طرحته حركة الانعتاق والاندماج للهوية اليهودية، هو أن اليهودي فرد ينتمي إلى مجتمعه ويكتسب هويته منه، شأنه شأن سائر أعضاء المجتمع، ولذا فلا توجد أية ضرورة إدارية أو حضارية لقيام مؤسسات الإدارة الذاتية.

وعلى العكس من هذا تحاول التواريخ التي تنطلق من المنطلقات الصهيونية إظهار أن مؤسسات الإدارة الذاتية مؤسسات حكم ذاتي («دولة داخل دولة» حسب التعبير الصهيوني والمعادي لليهود) مقصورة على اليهود وحدهم، وبالتالي فإنها تعبير عن هويتهم القومية الجمعية التي ترفض الاندماج، لتستخلص من ذلك أن اليهود يشكلون كلاً واحداً وأنهم تجمُّع قومي مستقل عبر التاريخ في كل زمان ومكان. ينطلق الفكر الصهيوني من هذا المفهوم الجمعي للهوية اليهودية الذي يضرب بجذوره في العصور الوسطى والجيتو، الذي يصل إلى تعبيره الحقيقي عن نفسه في الدولة الصهيونية؛ التجربة الكبرى في الإدارة الذاتية.

ولكن الدولة الصهيونية سبقتها تجارب أخرى في الإدارة الذاتية من أهمها تجربة سورينام في الاستعمار الاستيطاني اليهودي وتجربة جيتو وارسو ومستوطنة تيريس ينشتات اللتين حاول النازيون من خلالهما أن يبينوا أن الشعب اليهودي شعب عضوي له مكوناته الحضارية المستقلة.

وقد اختفت كل مؤسسات الإدارة الذاتية التقليدية (والنازية والصهيونية) وحلت محلها مؤسسات حديثة تختلف في وظيفتها تماماً عن مؤسسات الإدارة الذاتية التقليدية. فالهدف من مقاطعة بيروبيجان حل مشكلة الجماعة اليهودية في روسيا باعتبارها جماعة قومية ليست لها أرض خاصة بها (ولذا انخرط بعض أعضائها في الوظائف الطفيلية الهامشية). أما مؤسسات القهال وروابط المهاجرين وحلقات العمال والنادي اليهودي في الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وغيرها فهي لا تختلف عن مثيلتها من المؤسسات التي تجمع أعضاء الجماعات الإثنية والدينية المهاجرة في المجتمعات الحديثة وهي مؤسسات توفر لهم إطاراً يمكنهم من خلاله التواصل على مستوى أقل عمومية وأكثر خصوصية من تواصلهم في رقعة الحياة العامة وتفي ببعض حاجاتهم النفسية والمادية الخاصة. ومن ثَمَّ فهي ليست مؤسسات إدارة ذاتية رغم أن اسمها قد يوحي بذلك.

وتحاول بعض الكتابات الصهيونية أن تُقدِّم بعض الحوادث التاريخية الاستثنائية مثل مملكة حمير ومملكة حدياب ومملكة الخزر باعتبارها تعبيراً عن رغبة اليهود الأزلية في الاستقلال الذاتي. وغني عن القول أن الدراسة التاريخية ستبيِّن أن هذه مجرد استثناءات يمكن تفسيرها لا في إطار التاريخ اليهودي وإنما في إطار التشكيلات الحضارية المختلفة التي ظهرت في إطارها.

قيادات الجماعات اليهودية

«قيادات الجماعات اليهودية» هي الشخصيات أو المجموعة التي تتولى قيادة الجماعات اليهودية وتوجيهها والتفاوض باسمها مع النخب الحاكمة. ومن المشاكل التي يواجهها أعضاء الجماعات اليهودية، عبر تواريخهم دائماً، مشكلة القيادة ومشكلة من يتحدث باسمهم أمام السلطة الحاكمة. ولم يواجه العبرانيون القدامى هذه المشكلة، ففي فترة الآباء كانت قيادتهم تتشكل من شيوخ القبيلة (القضاة). وحسبما وصلنا من معلومات عن هذه الفترة السديمية، لم يكن هناك ما يميِّز العبرانيين عن سواهم من الأقوام المتجولة في الشرق الأدنى في العالم القديم من ناحية البناء السياسي والطبقي. وقد استمر الوضع على ذلك أثناء فترة القضاة حين ظهرت القيادة الكاريزمية القَبَلية التي لم تكن تختلف في جوهرها عن القيادة القَبَلية في عصر الآباء. وبعد ذلك، ظهرت مؤسسة الملكية تساندها طبقة الكهنة، فقد حكم العبرانيين ملوك ابتداء من ١٠٢٠ حتى ٥٨٦ ق.م. ولكن، وبطبيعة الحال، كانت ثمة صراعات على القيادة لازمت هذه الممالك. فبعد وفاة شاؤول، انقسمت المملكة إلى قسمين؛ الجنوبي (يهودا) وقد استولى عليه داود، والشمالي (يسرائيل) الذي استولى عليه إشبعل ابن شاؤول. وبعد سبع سنين ونصف السنة، اتحدت المملكتان ثانية تحت قيادة داود، ثم جاء سليمان وكانت أول خطوة قام بها أن قتل جميع منافسيه في الملك ليستريح من متاعبهم. ولكن المملكة الموحَّدة انقسمت بعد موته مباشرةً إلى مملكتين مستقلتين متخاصمتين ومتحاربتين: المملكة الشمالية وبقيت حتى عام ٧١٢ ق.م، والمملكة الجنوبية وبقيت حتى عام ٥٨٦ ق.م. كما أن المملكتين كانتا بدورهما ميداناً لنزاعات

داخلية مستمرة. كما كان هناك صراع دائم بين الكهنة والملوك (المؤسسة الحاكمة) من جهة والأنبياء من جهة أخرى.

وبعد هذا التاريخ، أخذت مشكلة القيادة في الظهور بكل أشكالها، إذ تحوَّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية. وتتسم الجماعة الوظيفية بأن قياداتها تهيمن على أعضائها لأنها عادةً جماعة صغيرة عدديا، كما أنها لابد أن تخضع لعملية ضبط اجتماعي هائلة حتى يتسنى لأعضائها القيام بوظائفهم وحتى يمكنهم توارث الخبرات من خلال الجماعة الوظيفية. وعادةً ما كانت النخبة الحاكمة تطلق يد قيادة الجماعة الوظيفية في تصريف أمور الجماعة كشكل من أشكال الإدارة الذاتية. ومع أن الوضع في فلسطين كان مختلفاً، بطبيعة الحال، إلا أنه يُلاحَظ أن الجماعة اليهودية على أرض فلسطين فقدت استقلالها السياسي (باستثناء فترة الحشمونيين القصيرة) وأصبحت دولة تابعة لإمبراطورية كبرى. ولكن علاقة النخبة الحاكمة الإمبراطورية بالقيادة اليهودية المحلية كانت لا تختلف كثيراً عن علاقة أية نخبة حاكمة بقيادات الجماعات اليهودية الوظيفية.

ومنذ فترة التهجير إلى بابل، قام أعضاء الجماعات اليهودية بتصريف أمورهم الدينية وبعض أمورهم الدنيوية المحلية ذات الطابع الإداري، مثل جمع الضرائب، بتصريح من السلطة الحاكمة وفي إطار الإدارة الذاتية المعمول بها في معظم الإمبراطوريات القديمة، شأنهم في هذا شأن كل الطوائف والجماعات الوظيفية في المجتمعات التقليدية وفي هذا الإطار تم تأسيس المجمع الكبير. وقد استمر هذا النمط وساد بين أعضاء الجماعات حتى القرن التاسع عشر، ثم تقلص بعد ذلك التاريخ إلى تصريف الأمور الدينية وحدها. ولا يُستثنَى من هذا النمط إلا أعضاء التجمع الصهيوني. وقد تولي القيادة في غالب الأمر تحالف من رجال الدين وأثرياء اليهود وكانت التفرقة بينهم صعبة في معظم الأحيان. وبعد مرسوم قورش بالعودة من بابل (٥٣٨ ق. م)، آلت القيادة إلى طبقة الكهنوت المتركزة حول الهيكل، وتحالف معهم أثرياء اليهود الذين تأغرقوا، فقاومتهم العناصر العبرانية المحلية. ثم ظهر من بينهم، لفترة زمنية قصيرة، ملوك الحشمونيين (١٤٢ ـ ٦٥ ق. م) الذين كانوا يحملون لقب الكاهن الأعظم، وقد تأغرق هؤلاء أيضاً وتعاونوا في نهاية الأمر مع السلطة السلوقية ثم الرومانية. أما حكم الهيروديين (ابتداءً من ٣٧ ق. م)، فكان تابعاً للرومان تماماً. ومن المعروف أن لقب «ملك روماني (دوكس)» الذي كان يحمله ملوكهم وبعض ملوك الحشمونيين من قبلهم، كان لقباً شرفياً وحسب إذ كانوا يدينون بالتبعية الكاملة لروما. وقد كان الملوك الهيروديون يعينون كاهناً أعظم يعمل موظفاً لديهم ويدين لهم بالولاء. وقد أصبح للجماعة اليهودية في بابل مركز سلطة مستقل يترأسه رأس الجالوت (المنفى). وحين تعاظم عدد يهود مصر وتزايد نفوذهم، أصبح لهم، هم أيضاً، قيادتهم المستقلة بل وهيكلهم المستقل. وفي نهاية القرن الأول قبل الميلاد، ظهرت داخل اليهودية تيارات متعددة كان من أهمها الصدوقيون والفريسيون والغيورون، طرح كلٌّ منهم نفسه باعتباره قيادة اليهود الحقيقية، في فلسطين أساساً، وفي العالم ككل. ثم نشب التمردان اليهوديان الأول والثاني ضد الرومان واللذان انتهيا بتهديم الهيكل بيد الرومان، الأمر الذي وضع نهاية للمرحلة العبرانية اليهودية.

ويُلاحَظ أنه، بعد هدم الهيكل، لا يوجد شكل واحد محدَّد للقيادة يسود الجماعات اليهودية إذ كانت كل جماعة خاضعة للتشكيل الحضاري السياسي الذي توجد فيه. وعلى سبيل المثال، فإن قيادة يهود الفلاشاه التي استمرت حتى العصر الحديث كانت قَبَلية، واصطبغت قيادة يهود بني إسرائيل في الهند بطابع هندي واضح، وتأثرت قيادة يهود كايفنج بالحضارة الصينية. أما يهود الخزر، فقد سادت بينهم مؤسسة الملكية المزدوجة (التركية). أما في الشرق الإسلامي، فقد ترأس الجماعات اليهودية رأس الجالوت (المنفى)، وكان منصبه المركزي تعبيراً عن مركزية الإقطاع في العالم الإسلامي. وقد ظهر إلى جواره نخبة قائدة دنيوية تستند هيبتها إلى نجاحاتها التجارية وثرائها، وقد كانت هي التي تتحكم في النخبة الدينية. وهذا وضع يشبه الوضع في الولايات المتحدة في الوقت الحالي، إذ أن أثرياء اليهود قد أمسكوا بزمام قيادة الجماعة اليهودية فعلياً، وتضاءل دور المفكرين الدينيين والحاخامات.

وحين كانت الدولة المركزية قوية، كان اليهود يتبعون مركزاً واحداً وقيادة واحدة. وحينما كانت السلطة المركزية تضعف وتنقسم الدولة إلى دويلات، كانت الجماعات اليهودية ذاتها تنقسم إلى وحدات صغيرة تتبع كل منها الدولة التي تعيش فيها. في العالم الإسلامي على سبيل المثال، حينما كانت تحكمه سلطة مركزية قوية، كان منصب رأس الجالوت يتمتع بنفس القوة. ومع تفكُّك الدولة الإسلامية إلى دويلات أو مقاطعات شبه مستقلة، ظهر منصب رئيس اليهود (نجيد) في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية.

ومع هذا، كانت الجماعات اليهودية، داخل الإطار القوي للدولة العثمانية، منقسمة فيما بينها متصارعة الواحدة مع الأخرى، واحتفظت كل جماعة باستقلالها. ولكن حدثت عملية اندماج فيما

بينها مع مرور الزمن نظراً لسيادة العنصر السفاردي. ولذا، فقد عينت الدولة العثمانية الحاخام باشي (في القرن التاسع عشر) ليمثل نوعاً من القيادة المركزية ليهود الدولة العثمانية.

ومن ناحية ظهور المسألة اليهودية وتطوُّر الحركة الصهيونية، قد يكون من المفيد التركيز على أوربا وحدها. ويُلاحَظ أن الإقطاع الأوربي لم يكن ذا سلطة مركزية واحدة وإنما كان منقسماً إلى وحدات صغيرة. ومن الحقائق الأساسية التي تتعلق بالإقطاع الأوربي أن القيادات اليهودية انقسمت بانقسام الجماعات، فكان لكل جماعة يهودية وظيفية نخبتها القائدة التي كانت تتكون عادةً من كبار رجال الدين والمموِّلين وتستبعد صغار رجال الدين والتجار. ويظهر هذا في مؤسسة القهال التي كانت تتكون من تنظيمات صغيرة متصارعة فيما بينها، ثم أصبحت في نهاية الأمر مُمثَّلة في مجلس البلاد الأربعة الذي تم حلُّه عام ١٧٦٤، فعادت التوترات والصراعات بين منظمات القهال المختلفة مرة أخرى. وفي بداية القرن السابع عشر، ظهر يهود البلاط (وهم من كبار المموِّلين الذين كان يعتمد عليهم الحاكم) الذين كانوا يكتسبون هيبة خاصة وشرعية نتيجة ارتباطهم بالحاكم ويتحولون إلى قيادات للجماعة اليهودية ويتحدثون باسمها أمام الأمير. وكانت أهم وظيفة تُوكَل إلى القيادات وظيفة الوسيط (شتدلان)، تلك الوظيفة التي كانت مهمتها التوسط بين الحاكم وأعضاء الجماعة. وكان هؤلاء الوسطاء، بسبب ثرائهم ونفوذهم، يقدمون الصدقات للفقراء من أعضاء الجماعة، الأمر الذي كان يعطيهم شرعية هائلة، فشرعية هذه القيادة كانت تستند إلى ثرائها وإلى نجاحها في عالم الأغيار، وإلى تقبُّل عالم الأغيار لها، وهي ليست قيادة دينية أو نابعة من داخل حركيات الجماعة اليهودية.

ومع تدهور الجماعة اليهودية في شرق أوربا، في بولندا وروسيا اللتين كانتا تضمان معظم يهود أوربا والعالم، تدهورت هذه القيادات أيضاً وأصبحت فاسدة، وتحوَّل القهال من شكل للإدارة الذاتية إلى أداة استغلال وقمع. وكان منصب الحاخام يُباع ويُشتَرى وكذلك منصب القاضي، وهو ما كان يجعل الرشوة أمراً طبيعياً في المحاكم الشرعية اليهودية، وهكذا ازداد انفصال القيادات الدينية والدنيوية عن جماهيرها. وربما كان هذا الوضع المتردي أحد العناصر التي أدَّت إلى تفجُّر النزعات المشيحانية والحركات الشبتانية التي جاءت بعدها، والتي كانت تمثل، فيما كانت تمثله، ثورة ضد القيادة التقليدية المكوَّنة من الحاخامات والأثرياء، فضمت عناصر كثيرة من بينها صغار المموِّلين وصغار الحاخامات، وكل من اهتز وضعه الاقتصادي نتيجة التحولات الاقتصادية، وكل من استبعدته أشكال التنظيم القديمة. وقد كان لهذه الحركات قيادتها الكاريزمية، يتبع كل قائد مريدوه وأتباعه وجماهيره. ولما كان لكل جماعة، مثل الدونمه والفرانكيين، طقوسها ومعتقداتها المتميزة عن طقوس ومعتقدات اليهودية الحاخامية، فقد شكلت مثل هذه الجماعات جيوباً مستقلة. وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تطلب إلى الحاكم أن يحميها من اضطهاد القيادات الحاخامية والمالية. وقد كانت الحركة الحسيدية أكثر الحركات الصوفية (الشبتانية) انتشاراً وجماهيرية. وكان لكل جماعة حسيدية قائدها (تساديك) وهو زعيمها الديني الصوفي الذي كانت تقوم بينه وبين أتباعه علاقة مباشرة حميمة، فهو الصلة الوحيدة بينها وبين الإله حسب التصور القبَّالي. وقد حلَّ التساديك محل الحاخام بالنسبة إلى الحسيديين.

غير أن التحدي الأكبر للمؤسسة الحاخامية جاء من بين صفوف دعاة حركة التنوير (مسكليم) مع نهاية القرن الثامن عشر بتأييد من التجار اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الصناعي الجديد الذي جعل وجود الجماعات الوظيفية (اليهودية وغير اليهودية) غير ذي موضوع. وقد تلقَّى هؤلاء تعليمهم خارج المحيط اليهودي التقليدي. وكانوا قادرين على التعامل بكفاءة مع العالمين اليهودي والمسيحي والتقليدي والحديث، فطرحوا أنفسهم باعتبارهم القيادة المنطقية للجماعات اليهودية، والقادرين على التحدث باسمها، والعارفين بمصالحها، حتى ولو رفض السواد الأعظم من اليهود ذلك الرأي. وكانت الحكومات الغربية الحريصة على تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وعلى علمنتهم، تؤثر التعامل معهم، وهذا يعني أن دعاة التنوير كانوا، مثل يهود البلاط، يكتسبون شرعيتهم من عالم الأغيار.

وحينما ظهرت الحركة الصهيونية، كانت بعض أشكال القيادة التقليدية لا تزال سائدة برغم تزايُد تحديث أعضاء الجماعات اليهودية ودمجهم في مجتمعاتهم. ولا يمكن فهم سلوك الزعامات الصهيونية في شرق أوربا إلا في ضوء هذه الحقيقة. وقد كانت منظمات أحباء صهيون منظمات حديثة تنطلق من مفاهيم حديثة مثل تطبيع الشخصية اليهودية وحل المسألة اليهودية عن طريق الاستعمار. ولكن، ورغم أن ليو بنسكر وموشيه ليلينبلوم تلقيا تعليماً علمانيا، فإنهما حينما بدآ في التحرك اتبعا النمط التقليدي فطلبا إلى الحاخام موهيليفر أن يتوجه إلى هيرش وروتشيلد (وهما من أثرياء الغرب اليهود) ليطلب منهما تقديم المساعدة لمشروعهما الاستيطاني، أي أنهما توجها للوسيط (شتدلان) التقليدي (الحاخام) الذي يتوجه إلى

الثري حتى يتوسط لدى الحكومات المعنية وحتى يزودهما بالدعم المالي الذي يريدانه. وظلت الحركة الصهيونية قابعة داخل هذه الرؤية الضيقة، إلى أن جاء هرتزل وحدَّث الحل الصهيوني فخرج به من الإطار اليهودي التقليدي وتخطَّى الوسطاء التقليديين وطرح المسألة في إطار استعماري غربي لا علاقة له بأشكال القيادة التقليدية المألوفة لدى اليهود فتَوجَّه إلى الدول الغربية الاستعمارية. ولذا، نجح هرتزل فيما فشل فيه أحباء صهيون ويهود شرق أوربا، فأسس المنظمة الصهيونية العالمية التي أصبحت الوسيط المباشر بين أعضاء الجماعات اليهودية والقوى الإمبريالية، وظل مهيمناً عليها تماماً حتى موته.

وقد ظن صهاينة الغرب أن هيمنتهم على المنظمة ستستمر وأن صهاينة الشرق سيستمرون في تلقِّي الأوامر والإذعان لها. لكن، بعد موت هرتزل بفترة قصيرة، استولى صهاينة شرق أوربا على المنظمة على أساس أن الكثافة السكانية اليهودية تتركز في بولندا وروسيا، وعلى أساس أنهم أولى بالتعبير عنها وعن مصالحها، خصوصاً بعد أن تعلموا الدرس من هرتزل وتجاوزوا الإطار اليهودي المحض واتصلوا بالقوات الاستعمارية الغربية.

ويُعَدُّ وعد بلفور الشكل الجديد الذي يحدد العلاقة بين الجماعات اليهودية والحضارة الغربية حيث قامت الزعامة الصهيونية بدور الشتدلان أو الوسيط الحديث، فعرضت تهجير فائض أوربا من اليهود إلى فلسطين تخلُّصاً منهم، ولتأسيس قاعدة للاستعمار الغربي، على أن يقوم الغرب بحمايتهم في المقابل. وقد قبل الغرب هذه الرؤية، وتم توقيع وعد (عقد) بلفور في هذا الإطار، حيث يقوم اليهود تحت زعامة الحركة الصهيونية بتصريف أمورهم الدينية باستقلال كامل، وتصريف أمورهم الإدارية والسياسية المحلية في المُستوطَن الصهيوني، على أن يتحرك الجميع في إطار المصالح الإمبريالية الغربية. وهذا الوضع لا يختلف في أساسياته عن وضع الجماعات اليهودية داخل إطار الإمبراطوريات القديمة. ولذا، تم القضاء على المعارضة اليهودية للصهيونية أو كبح جماحها واستولت الصهيونية على الجماهير اليهودية من خلال الضغط "من فوق" أي من جهة الدولة الإمبريالية الراعية. ومن الأمور التي تستحق التأمل والدراسة أن معظم كبار المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية لا ينضمون إلى الحركة الصهيونية وهو ما يعني أن قيادة الجماعات اليهودية سقطت في يد صغار المفكرين الصهاينة الذين لا يتمتعون بأية آفاق فكرية فسيحة أو رؤى تاريخية عميقة.

ولم يتوقف الصراع على زعامة الجماعات اليهودية، بعد وعد بلفور، سواء على الصعيد العالمي أو داخل المُستوطَن الصهيوني. أما على الصعيد العالمي وداخل الحركة الصهيونية، فإن الصراع أصبح يدور بين أعضاء الجماعات بما لهم من مصالح وارتباط بأوطان وهويات ثقافية متنوعة من جهة وبين المنظمة الصهيونية من جهة أخرى، فهي تريد أن توظف كل شيء لصالح المُستوطَن الصهيوني وترى أن الجماعات ليست إلا وسيلة تخدم الغايات النهائية للصهيونية. وهذا الصراع مستمر حتى الآن وينعكس في حوادث متفرقة كما حدث عند اكتشاف نشاط بولارد، الجاسوس الأمريكي اليهودي.

كما نشب صراع جانبي آخر على قيادة الجماعات بين صهاينة الداخل المستوطنين (أي الإسرائيليين) وصهاينة الخارج التوطينيين (أي أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية). وقد حُسم الصراع إلى حدٍّ كبير لصالح الصهاينة المستوطنين، وتحولت المنظمة الصهيونية العالمية إلى أداة تابعة لحكومة المُستوطَن الصهيوني. ولا تزال هناك أصداء للصراع القديم على قيادة الجماعات بين الصهيونية وأعداء الصهيونية من اليهود. ولكن هذا الصراع، مثل كثير من الصراعات الشبيهة، تم حسمه لصالح الحركة الصهيونية.

ودار صراع ثالث حول القيادة داخل المُستوطَن الصهيوني، وهو صراع ذو أبعاد عديدة. وينبغي ملاحظة أنه لا يوجد تجانس كبير بين أعضاء النخبة الحاكمة في إسرائيل وزعاماتها، ولا داخل أعضاء المُستوطَن الصهيوني فيما بينهم، فأمثال بن جوريون وبيجين وبيريز وشامير جاءوا من بولندا، وأمثال حاييم وايزمان وجابوتنسكي وإشكول مهاجرون من روسيا، وآلون وشارون وإيتان ورابين ولدوا في فلسطين، وليفي وشاحل من الدول العربية، وجولدامائير وأرينز وكهانا وأبا إيبان من الدول الناطقة بالإنجليزية. ومعظم القادة المذكورين لادينيون ولا يؤمنون باليهودية كعقيدة وإنما يتخذونها انتماءً إثنياً وحسب. أما ليفنجر ويتسحاق بيريتس ومناحيم كوهين وأبراهام شابيرا، فيعيشون وفق الشريعة (هالاخاه). ولذا، نشب كثير من الصراعات بينهم حول تَوجُّه الدولة الصهيونية وقيادتها، فهناك صراع إثني بين الأشكناز وبقية أعضاء المُستوطَن من يهود سفارد وعرب وغيرهم. كما يوجد صراع بين المؤسسة العمالية الصهيونية من جهة وبعض كبار المموِّلين ودعاة الاقتصاد الحر ومن يتبعهم من قطاعات شعبية محبطة لا تجد وسيلة للإفصاح عن سخطها من جهة أخرى. وقد أخذ الصراع بين الدينيين واللادينيين في التصاعد، كما يُلاحَظ أن هناك صراع أجيال غير واضح على سطح الأحداث، ويطرح كل قطاع من أعضاء

النخبة والزعامات نفسه باعتباره القيادة الأكثر كفاءة. بل ثمة صراع حاد الآن بين القوى الدينية المختلفة: الصهاينة المتدينين والليتوانيين وحبد والسفارد... إلخ.

ومن الأمور المرتبطة بقضية القيادة ما يُسمَّى بمشكلة عجز اليهود بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة. وقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة التي ستقوم بحلها وتستعيد السلطة والسيادة لليهود بحيث تصبح لهم سيادتهم القومية وقيادتهم المستقلة. وتثار الآن هذه القضية مرة أخرى في الصحافة الإسرائيلية، كما يثار مدى نجاح القيادة الصهيونية داخل إسرائيل في تحقيق هذا الهدف على ضوء الاعتماد المالي والعسكري والسياسي المتزايد على الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى ضوء تَدخُّل الولايات المتحدة في كثير من القضايا التي لها علاقة بالسيادة القومية مثل إنتاج طائرة لافي.

ومع ظهور ما يُسمَّى «لاهوت البقاء»، الذي يجعل الهدف الأساسي من التاريخ اليهودي بقاء اليهود، طرح الحاخام ريتشارد روبنشتاين رؤية مفادها أن القيادة الحاخامية لليهود قيادة فرضها الرومان على اليهود بعد إخمادهم التمردات اليهودية، وأن هذه القيادة هي التي علَّمت اليهود الخنوع والخضوع وتَقبُّل العجز وأن هذا الوضع استمر حتى الحرب العالمية الثانية حين تعاونت المجالس اليهودية مع القوات النازية وسلمتهم أعضاء الجماعات اليهودية ليرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال. ومن ثَمَّ، فإن ظهور القيادة الصهيونية (العسكرية) تصحيح لمسار التاريخ اليهودي كتاريخ زمني.

المجمع الكبير

«المجمع الكبير» المقابل العربي للكلمة العبرية «كنيست هجدولا» وهو المجلس التشريعي الذي يُقال إن عزرا أسسه بعد عودته من بابل بعد صدور مرسوم قورش (٥٣٨ ق.م). ومعنى هذا أن المجمع الكبير يرجع إلى تلك الفترة الفارسية من تاريخ اليهود في فلسطين والتي لا يُعرف عنها الكثير. لكن هناك نظرية تذهب إلى أنه يعود إلى أيام العبرانيين الأوائل، وأنه استمر في فترة التهجير البابلي، وأن كل ما فعله عزرا هو دعوة المجلس للانعقاد. ولم تصلنا معلومات واضحة أو أكيدة عن هذه المؤسسة التشريعية، ولكن يبدو أنه كان مجلساً يضم ممثلين عن كل اليهود ومنهم الكهنة.

ويُقال إن عدد أعضاء المجمع الكبير كان مائة وعشرين، وهو عدد أعضاء البرلمان الإسرائيلي الذي يُقال له الكنيست. ويُقال أيضاً إن العدد كان خمسة وثمانين في بداية الأمر. ويبدو أن المجلس كان يعقد اجتماعات كلما ظهرت قضية خطيرة، واشترك في المجلس الأول الشيوخ والأنبياء الذين عادوا من بابل، من بينهم عزرا ونحميا وحجاي وزكريا. كما يبدو أن هذا هو المجلس الذي عيَّن شمعون الحشموني كاهناً أعظم وقائداً أعلى، واستمر المجلس حتى الفترة الهيلينية. وقد قرَّر هذا المجمع الثمانية عشر دعاء، ودعاء مقدم السبت، وكثيراً من الصلوات والبركات الأخرى. وهو أيضاً الذي قام بتقسيم الشريعة الشفوية إلى مدراش وهالاخاه وأجاداه. وهو أيضاً الذي ضم أسفار حزقيال ودانيال وإستير، وكذلك أسفار الأنبياء الصغار، إلى العهد القديم.

السنهدرين الأكبر

ويُشار إليه بلفظ «سنهدرين» فقط. و«السنهدرين» صيغة عبرية للكلمة اليونانية «سندريون» وتعني «مجلس». وقد كان هذا الاسم يُطلق على الهيئة القضائية العليا المختصة بالنظر في القضايا السياسية والجنائية والدينية المهمة في المناطق التي كان يعيش فيها اليهود في فلسطين. وكان السنهدرين بمنزلة المحكمة (بيت دين). ولذا، فإنه يُطلَق عليه «المحكمة العليا»، وهي محكمة تمارس تطبيق العدالة وإصدار الأحكام طبقاً للشريعة اليهودية في ذلك الوقت، وتشريع القوانين الخاصة بالعبادات ومحاكمة من ينتهك هذه القوانين، وكذلك الإشراف على الاحتفالات الكهنوتية في المعبد. وكان السنهدرين يقوم أيضاً بوظيفة محكمة الاستئناف. والسنهدرين أعلى سلطة قضائية لليهود وله الرأي النهائي في تفسير القوانين وإصدارها. وقد كانت أحكامه تَصدُر بموافقة أغلبية الأعضاء. وكان السنهدرين يشرف على المحاكم الصغرى، كما كان من صلاحياته تعيين القضاة في المحاكم الدنيا سواء في محاكم السنهدرين الأصغر أو في غيرها. وهو الذي كان يحاكم كبار الموظفين، مثل الكاهن الأعظم، ويتحرَّى مدى صدق أو كذب مدعي المشيحانية. والسنهدرين هو المجلس الذي جمع الحقائق وقدمها للحاكم الروماني حين اتهم اليهود المسيح (عيسى بن مريم) بأنه ليس الماشيَّح المنتظر. وقد حكم المجلس بصلبه. وكان يترأس السنهدرين، في مرحلة من المراحل، الكاهن الأعظم، ولكنه في مرحلة أخرى كان يترأسه الزوجوت، أي رئيسان أحدهما يحمل لقب «ناسي (أمير اليهود)» ويحمل الثاني لقب «آب بيت دين (رئيس المحكمة)». ومن الرؤساء المشهورين للسنهدرين الكبير، شمعون بن شطح (حوالي عام ١٠٠ ق.م) وهليل (حوالي ٣٠ ق.م). وتختلط الآراء فيما يتعلق بتاريخ ظهور السنهدرين ووظائفه:

١ ـ يذهب بعض الباحثين إلى أن السنهدرين استمرار للمجمع الكبير. وهو هيئة تشريعية لا نعرف عنها الكثير ولا حتى متى ظهرت، إذ تختلف الآراء أيضاً بالنسبة إلى هذه المؤسسة ذاتها.

٢ ـ ويرى البعض أنه ظهر أثناء حكم السلوقيين عام ٣٠٠ ق.م.

٣ ـ وثمة نظرية تذهب إلى أنه ظهر أثناء حكم الحشمونيين حين تم فصل المجال السياسي عن المجال الديني وفصل الطقوس الكهنوتية والتفسير الديني عن الحكم المطلق للدولة. وبالتالي، فإن تاريخ ظهور السنهدرين، حسب هذه النظرية، يعود إلى حكم شمعون الحشموني عام ١٤٢ ق.م، فيكون هو الذي أسس السنهدرين لتفسير الشريعة.

٤ ـ وتناقض هذه النظرية تماماً وقائع التاريخ، فالملوك الحشمونيون كانوا ملوكاً كهنة (كان الملك الحشموني هو قائد الشعب والكاهن الأعظم). وبذلك، يكون السنهدرين التعبير عن الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية لا الفصل بينهما.

٥ ـ كما أن هناك نظرية تذهب إلى أنه يوجد مجلسان للسنهدرين لا مجلس واحد فقط كما سنبين فيما بعد.

وهكذا تختلط النظريات بشأن تاريخ السنهدرين ووظيفته. ولكننا نعرف أنه ظل قائماً حتى عام ٦٦م، أي حتى نشوب التمرد اليهودي الأول ضد الرومان. ولم يكن السنهدرين مثل مجلس الشيوخ (جيروسيا) وإن كان قد حل محله. ولم يكن أيضاً له صلاحيات مجلس المدينة اليونانية (بوليس)، كما لم يكن مثل المجمع الكبير الذي كان لا يجتمع إلا وقت الأزمات وفي الطوارئ. وكان السنهدرين يتكون من واحد وسبعين عضواً وكان مقرُّه القدس، وكان يجتمع في القاعة العظمى أو في قاعة الحجارة المنحوتة، ويُقال لها أيضاً «قاعة القرارات».

وبعد تحطيم الهيكل، انتقل السنهدرين إلى يفنه، ولكن لم تَعُد له السلطة ولا الصلاحية السابقة، بل ويفضل بعض المؤرخين تسمية سنهدرين يفنه «البطريركية» التي اعترف الرومان بها كسلطة مركزية لكل اليهود لها الصوت المسموع في الأمور الدينية والقضائية وفي تحديد التقويم وتقرير رؤية القمر.

وباضمحلال أهمية الجماعة اليهودية في فلسطين، بدأ السنهدرين (أو البطريركية) يفقد أهميته، واختفى في نهاية الأمر عندما ألغى الرومان الشرقيون وظيفة أمير اليهود (ناسي ـ بطريرك) عام ٤١٥م.

وثمة رأي يقول إن السنهدرين كان هيئة سياسية يترأسها الكاهن الأعظم، وإن كان بعض الباحثين يرى أنه كان يوجد، منذ البداية، مجمعان للسنهدرين: واحد للأمور السياسية وآخر للأمور الدينية. ولم يكن السنهدرين السياسي، بحسب هذا الرأي، يضم رجال الدين ولكن كبار رجال الشعب والأرستقراطية. كما يذهب هذا الرأي إلى أن الرومان ألغوا المجمع الأول وأبقوا على الثاني وحسب. ولعل الهدف من هذه النظرية أنها تلقي مسئولية محاكمة المسيح والحكم بصلبه على السلطة الدنيوية اليهودية وحدها، وتعفي السلطة الدينية من ذلك. ومن الصعب حسم هذه القضية لأن رأي المصادر اليهودية فيها يختلف عن رأي المصادر الهيلينية، فالمصادر اليهودية تقصر مهمته على الأمور الدينية في حين ترى المصادر الهيلينية، ومن بينها يوسيفوس، أنه كان يختص بالأمور السياسية أيضاً. وقد اختفى السنهدرين تماماً في القرن الرابع الميلادي. وحاول بعض الحاخامات (جوزيف كارو وآخرون) بعث السنهدرين ولكنهم لم يُوفَّقوا. ويُدعى أحد كتب التلمود «السنهدرين» ويتناول تركيب المجلس ووظيفته. وقد سُمِّي الاجتماع اليهودي الذي عُقد عام ١٨٠٧ بناء على طلب نابليون بونابرت «السنهدرين الأعظم». تكوَّن هذا الاجتماع من واحد وسبعين عضواً من اليهود ذوي النفوذ، وذلك ليضعوا الصياغات المناسبة للقرارات الخاصة بالحالة الاجتماعية لليهود. وفي العصر الحديث، لم تنجح الدولة الصهيونية في إعادة بعث تقاليد السنهدرين بسبب الصعوبات القانونية والدستورية التي كانت ستقف أمام مثل هذه الخطوة.

دار القضاء (بيت دين)

«دار القضاء» هي الترجمة العربية لكلمة «بيت دين» العبرية وتعني أيضاً «دار الحكم». وهي محكمة يهودية كانت تعمل بهدي الشريعة، تجبي الضرائب وتتولى القضاء وتُصدر القرارات الخاصة بالطعام وبكل الأمور الدينية والمدنية. وكانت توجد ثلاثة أنواع من المحاكم، أدناها المحكمة المُشكَّلة من ثلاثة قضاة وسلطتها الحكم في القضايا المدنية. وكانت هناك سلطة قضائية أعلى تحكم في القضايا الجنائية وهي ما كان يُطلَق عليه السنهدرين الصغير وعدد قضاته ثلاثة وعشرون. أما أعلى سلطة قضائية، فكانت السنهدرين الذي كان يُطلَق عليه أيضاً اسم «بيت دين جادول» أي «دار القضاء الأكبر» أو «المحكمة العليا».

وبعد انتشار اليهود خارج فلسطين، وبعد إخماد التمرد اليهودي الثاني (١٣٢ـ١٣٥م)، أصبح لكل جماعة يهودية نظامها القضائي الخاص بها المتأثر بالبيئة المحيطة به. وقد كان النمط السائد

عبارة عن نظام قضائي يترأسه الحاخام أو الديان (القاضي الشرعي) وهي وظيفة ظهرت في العالمين الإسلامي والمسيحي. والديان هو قاض متخصص تلقَّى تدريباً خاصاً يُمكِّنه من إصدار أحكام في القضايا الدينية، ولذا كان يُعَدُّ عالماً توراتياً من الناحية الأساسية، وأيضاً عالماً في القضايا الأخرى التي تخص الجماعة اليهودية ولا تخص السلطة المركزية غير اليهودية.

ويرى بعض المفكرين الصهاينة أن احتفاظ اليهود، بعد نفيهم، بنظم قضائية مستقلة (مثل: بيت دين والقهال ومجلس البلاد الأربعة) أكبر علامة على الاستمرار والاستقلال اليهوديين. ولكن معظم المجتمعات التقليدية تتَّسم بوجود محاكم خاصة لكل أقلية دينية بل ولكل جماعة حرفية، كما هو الحال مع المحاكم الشرعية في البلاد الإسلامية في أيام الخلافة العثمانية. ولذلك، وبعد حركة عتق اليهود في القرن الثامن عشر، انحسرت مهمة المحاكم اليهودية وأصبحت مقصورة على المسائل الخاصة بالطقوس الدينية. وفي الوقت الحاضر، تشير عبارة «بيت دين» إلى المحكمة الحاخامية أو المحكمة الشرعية، وهي المحكمة المختصة رسميا والمخولة من قبَل المؤسسة الدينية بأمور الأحوال الشخصية التي لا يحقُّ لأي محكَمة أن تنظرها. كما أن الجماعات الأرثوذكسية في الولايات المتحدة أسست بيت دين أي محاكم شرعية لاستصدار أحكام في مسائل الزواج والطلاق والزواج المُختلَط.

بيت دين

«بيت دين» عبارة عبرية تعني «دار الحكم» أو «دار القضاء»، وتعني «بيت دين» في الوقت الحاضر «المحكمة الشرعية».

أمير اليهود (ناسي ـ بطريرك)

«أمير اليهود» هي الترجمة العربية لكلمة «ناسي» العبرية، وهو لقب تلمودي يُستخدَم للإشارة إلى رئيس السنهدرين الذي كان يُعَدُّ قائداً روحيا لليهود في فلسطين وخارجها، وكانت له بعض الصلاحيات الدنيوية التي كانت تمنحه إيَّاها السلطة الحاكمة، ولذا فإننا نستخدم اصطلاح «أمير اليهود». وكان يليه في السلطة رئيس المحكمة (آب بيت دين) وهما معاً يكونان الزوجوت اللذين أتى ذكرهما في المشناه. وثمة نظرية تذهب إلى أن أمير اليهود (ناسي) لم يكن رئيساً للسنهدرين، وأن الكاهن الأعظم هو الذي كان يضطلع بهذه الوظيفة. وقد اقتُرح حلا لهذا التناقض تفسير يرى أنه كان هناك مجمعان للسنهدرين: أحدهما سياسي والآخر ديني، وأن أمير اليهود (ناسي) كان رئيساً للمجمع السياسي وحسب. وقد اعترفت السلطات الرومانية، ابتداءً من القرن الثاني الميلادي، بأمير اليهود كبطريرك لليهود. وقد كان أمير اليهود في العادة من نسل هليل أو من نسل داود، ثم أصبح موظفاً رومانيا يمثل الجماعة اليهودية في فلسطين أمام السلطات الرومانية، وذلك بعد سقوط كل أشكال الإدارة الذاتية أو الحكم الذاتي (عام ٧٠ ميلادية) مع سقوط القدس وهدم الهيكل. وكان أمير اليهود أو البطريرك يُعَدُّ رجلاً مهماً متميِّزاً في مقام القنصل أو كبار رجال الدولة العسكريين أو الوزراء المقربين إلى العرش، لا يعلوه في المرتبة إلا أعضاء الأسرة المالكة، وكان يعلو في مقامه الحاكم الإقليمي. وقد أعدم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (الأعظم) أحد حكامه الإقليميين لأنه سبَّ أمير اليهود (بطريرك).

وقد كان أمير اليهود يقوم بفرض الضرائب ويُعيِّن بعض الحاخامات ويعفيهم من الضرائب نظير اضطلاعهم بدور جهازه التنفيذي ومساهمتهم في حفظ الأمن، وهو ما يعني أن النخبة الدينية الحاكمة كانت أداةً في يد الحاكم الروماني أو كانت جماعة وظيفية وسيطة (من الملاحَظ أن منصبي رأس الجالوت [المنفى] ورئيس اليهود [نجيد]، هما المناصب المقابلة في الحضارة الإسلامية، ولكنهما لم يحملا هذا القدر من الأهمية قط). ومع استقرار دعائم الإمبراطورية الرومانية، فقدت النخبة الدينية أهميتها، فألغى الرومان الضرائب التي كان يجمعها أمير اليهود، ثم أُلغي المنصب نفسه عام ٤٢٥م.

وفيما بعد، استُخدم اللقب بين أعضاء الجماعات للإشارة إلى الرؤساء الدنيويين للجماعة كما هو الحال في إسبانيا. وفي نهاية الأمر، أصبح هذا اللقب مجرد اسم عائلة. وقد اتخذ بركوخبا لنفسه لقب «ناسي».

البطريرك

انظر: «أمير اليهود (ناسي ـ بطريرك)»

الناسي

انظر: «أمير اليهود (ناسي ـ بطريرك)»

البطريركية

مُصطلَح «بطريركية» يُستخدَم للإشارة إلى المؤسسة التي يرأسها أمير اليهود (ناسي)، وهي المؤسسة التي حلت محل السنهدرين.

النجيد (رئيس اليهود)

«نجيد» كلمة عبرية معناها «الزعيم» أو «الأمير»، وجمعها «نجيديم». و«نجيد» هو رئيس الجماعة اليهودية في الدويلات الإسلامية التي استقلت عن الخلافة العباسية ابتداءً من القرن العاشر في إسبانيا والقيروان ومصر واليمن. وكان هناك رؤساء في المغرب والجزائر وتونس ابتداءً من القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر.

والواقع أن رئيس اليهود هو نفسه «البطريرك» (ناسي) تحت حكم الرومان، و«رأس الجالوت» تحت حكم العباسيين، و«الحاخام باشي» تحت حكم العثمانين. وقد كانت الدولة الإسلامية تُعيِّن رؤساء لكل الجماعات غير الإسلامية لإدارة الشئون الداخلية للجماعة، أي علاقة الأعضاء بعضهم ببعض وعلاقة الجماعة بالدولة. ولأن أهم الوظائف الخارجية هي جمع الضرائب وحفظ الأمن بين أعضاء الجماعة، فقد كان بطريرك الأقباط ونجيد اليهود أو رئيسهم يتم تعيينهم. وقد كان المنصب يتم توارثه أحياناً، وفي أحيان أخرى كان وجهاء الجماعة يرشحون رؤساء لها ثم تُصدِّق الدولة على ترشيحه وتعيينه. وفي مصر، صار المنصب وراثيا بين أولاد موسى بن ميمون إذ شغلوا هذا المنصب لمدة قرنين. وقد كان رئيس اليهود في مصر من الحاخامين في العادة، ولكن كان عليه أن يعين رئيساً للقرائين وآخر للسامريين (ولكن رئيس السامريين كان يتلقى خطاب تعيينه من الحكومة مباشرة). وعادةً ما كان رئيس اليهود بمنزلة وكيل يمثل مصالح التجار اليهود في الخارج، وكانت وظيفتا الوكيل التجاري والنجيد يشغلهما شخص واحد تقريباً.

وكان رئيس اليهود، مثل كبار الموظفين، يرتدي الخلعة. وكانت وظيفته تقتضي المحافظة على ترابط الجماعة، والحكم بين أعضائها حسب شريعتهم، والحكم في الأحوال الشخصية وحق الطرد من حظيرة الدين. كما كان من حقه أن يُوقِّع عقوبات مثل الجلد والسجن. وكان يشرف على إقرار تعاليم الدين حسب الشريعة وفتاوى الحاخامات، وعلى تحديد مستويات أعضاء الجماعة وثرواتهم (لتحديد الضرائب)، كما كان يقوم بالحفاظ على الأمن بشكل عام، وتعيين قضاة شرعيين في المحكمة الشرعية. وكان مندوب رئيس اليهود هو المقدَّم.

وقد ظل المنصب قائماً حتى الفتح العثماني، ولكنه أُلغيَ في القرن التاسع عشر وحل محله منصب الحاخام الأعظم الذي كان يتبع الحاخام باشي في إستنبول.

القهال

«قهال» كلمة عبرية بمعنى «جماعة»، وهي تشير إلى أعضاء الجماعة اليهودية ككل، كما تشير الكلمة بالمعنى الضيق إلى الهيئة الإدارية أو المجلس الذي كان يدير شئون التجمعات اليهودية المختلفة. وكان ينتظم كل مجالس القهال مجلس البلاد الأربعة. وكانت بولندا مملكة متعددة الجنسيات والديانات، فقد كان ثلث سكانها من غير البولنديين وكانوا يدينون بديانات أخرى غير المسيحية الكاثوليكية. وكما هو الحال دائماً مع الممالك والإمبراطوريات التي تضم مجموعة سكانية غير متجانسة، نشأت أشكال من الإدارة الذاتية تُيسِّر للسلطة الحاكمة عملية جمع الضرائب من أعضاء الجماعات والأقليات وتضمن ولاءهم لها. وكان هناك تنظيمات إدارية ذاتية للأرمن والتتار ومختلف أعضاء الجماعات الأخرى. كما كان من حقهم أن يُطبِّقوا شرائعهم فيما يقوم بينهم من منازعات، فكان الأرمن مثلاً يحتكمون إلى الشريعة الخاصة بهم وتُدعَى «الداتاستانا جيرك»، وقد تُرجمت إلى البولندية حتى تمكن الاستفادة منها أمام المحاكم.

ويستند القهال، كشكل من أشكال الإدارة الذاتية، إلى الميثاق الذي أصدره الملك سيجسموند الأول عام ١٥٠١ وتم بمقتضاه تشكيل تنظيم القهال. وكانت كل جماعة يهودية يديرها مجلس قهال يتكون من سبعة أعضاء يتم اختيارهم إما بالتعيين أو بالانتخاب. وكان لابد أن توافق الحكومة البولندية على الأعضاء المنتخبين قبل أن يصبح انتخابهم نهائيا. ولا شك في أن نظام انتخاب القهال كان متأثراً بكون بولندا جمهورية/ ملكية. ولكن كلمة «انتخاب» هنا فضفاضة جدا، فرغم أن أي يهودي كان من حقه أن يشارك في العملية الانتخابية (من الناحية النظرية على الأقل) إلا أن قلة قليلة من الناحية العملية هي التي كانت تشترك في الانتخابات. ففي كراكوف مثلاً، كان الانتخاب يتم بأن يجتمع مجلس إدارة القهال بمستشاريه فيلقي كل واحدٍ منهم بقائمة من تسعة أسماء وتُختار إحدى القوائم بالقرعة، وكان يُطلَق على هؤلاء اسم «الناخبين المرحلين» (حرفيا «ما قبل الناخبين»)، ذلك لأنهم كانوا يقومون باختيار خمسة ناخبين هم الذين يقومون باختيار كل أعضاء القهال. وفي عام ١٦٤٠، أصبح من حق كبار دافعي الضرائب أن يتقدموا بقوائمهم لاختيار الناخبين المرحلين، كما كانت توجد قهالات من حق الأسر الثرية أن ترسل إليها مرشحيها مباشرة ليشغلوا وظائفهم في مجالس القهال دون انتخاب أو قرعة.

وقد أدَّى ذلك في نهاية الأمر إلى سيطرة أقلية من المموِّلين

والحاخامات على مجالس القهال والتحكم فيها، شأنهم في هذا شأن معظم المؤسسات السياسية في العصور الوسطى في الغرب، حتى تحولوا في نهاية الأمر إلى طبقة مسيطرة احتفظت بالسلطة في يدها. وبذلت هذه الطبقة جهداً منظماً، وناجحاً في معظم الوقت، في استبعاد العناصر المشاغبة والعوام والغوغاء من العملية التي كان يُقال لها «انتخابية». وقد تم استبعاد معظم أرباب البيوت في المدن الكبرى وكل سكان المدن الصغيرة وكل سكان الريف رغم أنهم كانوا من دافعي الضرائب. كما استُبعدت كل الطبقات الفقيرة مثل الحرفيين الذين كانوا يمثلون واحداً من أكبر القطاعات المعارضة للقهال. وفي نهاية الأمر، لم يكن يزيد عدد اليهود الذين لهم حق التصويت على ٥٪، أو حتى ١٪ في بعض الأحيان، من أعضاء كل جماعة أو تَجمُّع.

وكانت مجالس القهال، في بداية الأمر، تتبع الملك مباشرة دون أن تكون بينهم سلطة وسيطة. ومع ضعف الملكية والحكومة المركزية في بولندا، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدأ يسيطر على مجالس القهال كبار النبلاء كما بدأوا يتدخلون في تعيين أو انتخاب الممثلين في المدن التابعة لهم أو حتى في المدن الملكية، ويفرضون عملاءهم ويسيطرون على الجماعة اليهودية.

والقهال تعبير عن كون اليهود يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف معيَّنة (التجارة وجمع الضرائب والربا) يستخدمها الحاكم في استغلال جماعات الفلاحين وفي تحطيم القوى التجارية الصاعدة التي كانت تحقق أرباحاً لصالحها. وكانت مجالس القهال مستقلةً الواحدة عن الأخرى في بداية الأمر، فكان لكل قهال قوانينه ومصالحه وامتيازاته التي يدافع عنها ضد القهالات الأخرى. ثم تم ضمها كلها في إطار واحد هو مجلس البلاد الأربعة. وكانت مجالس القهال تقوم بتنظيم جميع جوانب الحياة اليهودية من الداخل، أي في علاقة اليهود بعضهم ببعض (كالإشراف على الزواج والطلاق والختان والطعام والتعليم وتعيين الحاخامات والقضاة وجباة الضرائب والذابحين الشرعيين). وكان شيوخ الجماعة، مع الحاخامات، يُكوِّنون محكمة شرعية يحكمون فيها بين اليهود بمقتضى القانون التلمودي، وكان لهذه المحاكم حق طرد اليهود من حظيرة الدين أو من الجماعة. وكانت مؤسسة القهال تنظم حياة اليهود كجماعة اقتصادية/ دينية وسيطة في علاقتها بالعالم الخارجي. ولكن مهمتها الأساسية ظلت جمع الضرائب من المحكومين لصالح الحاكم.

وكان لكل قهال قواعده الخاصة وامتيازاته وحقوقه التي يدافع عنها ضد يهود المدن المجاورة، خصوصاً حق حظر استيطان الأجانب (اليهود وغير اليهود) بينهم. ويمكن القول بأن القهال، بانقسامه واستقلاله، هو المؤسسة الإشكنازية التي تلائم النظام الإقطاعي الغربي غير المركزي، واستقلاله يشبه في تركيبه المقاطعة الخاضعة لسلطة حاكم أو قاض في المدن الألمانية في العصور الوسطى في الغرب. ولعل هذا التشابه يعود إلى أن يهود بولندا تعود أصولهم إلى المدن الألمانية، كما أن المدن البولندية قد تم تطبيق القانون الألماني عليها.

وكانت تتبع القهال مجموعة من الموظفين يتقاضون أجراً من أهمهم الحاخام. ورغم أن القانون البولندي منحه سلطات ضخمة، فقد كان المسئول (نظريا) عن تنفيذ قرارات القهال وضمان سلامة الانتخابات، كما كان يترأس القضاة في اجتماعاتهم ويمنح الألقاب المختلفة مثل «حابير» و«مورينو»، وهو أيضاً الذي يقرر متى ينبغي طرد شخص من حظيرة الدين، فإنه كان من الناحية الفعلية خاضعاً تماماً لرئيس القهال ومجلس إدارته. وكان يُوجَد، إلى جانب الحاخام، رئيس المدرسة التلمودية العليا، وواعظ الجماعة والقاضي، وكثيراً ما كان يضطلع شخص واحد بكل هذه الوظائف.

وهناك أيضاً كاتب المدينة الذي كان يدير شئون القهال اليومية ويعمل بالتعاون مع كاتب اليهود وهو مسيحي بولندي كان يقوم بترجمة رسائل القهال للمدينة. وكان الكاتب هو أيضاً الوسيط بين الجماعة والمدينة، وقد تطورت وظيفته فيما بعد وأصبحت من أهم الوظائف. وهؤلاء كانوا يضمون الممرضات وحرس البوابة وجامعي الضرائب وخادم (شماس) المعبد.

وكانت مصاريف القهال تتكون أساساً من المرتبات التي يدفعها لموظفيه. كما كان عليه أن يقدم الهدايا لكبار موظفي الحكومة البولندية حتى يمكن تسيير أمور الجماعة. فكانت الجماعة اليهودية في كراكوف على سبيل المثال تدفع هدية سنوية للحاكم الملكي، ولقاضي اليهود المسيحي المعيَّن من قبَل المدينة للحكم في المنازعات بين اليهود والمسيحيين، ولكاتب اليهود، ولرئيس شرطة المدينة. وكان عليهم أيضاً أن يطعموا الحيوانات في حديقة الملك. كما كان على بعض القهالات أن تدفع مبالغ من المال من قبيل المساعدة للكنيسة والطلبة وأن تزودهما أحياناً بالمؤن. وكان على القهال كذلك دفع ضريبة مقابل عدم قيام اليهود بالخدمة العسكرية أو تزويد الجنود بالمأوى. وكان على القهال أن يؤدي الضريبة المفروضة على الجماعة من قبَل الحكومة. ولذا، كان عليه أن يفرض ضرائب مباشرة على كل شخص (ضريبة الملكية وضريبة الرأس وضريبة القهال). ومع تَدهوُر

الوضع الاقتصادي للقهال، أخذت هذه الضرائب في التزايد حتى أصبحت تُفرَض على ضروريات الحياة (ويُطلَق عليها «ضرائب السلة»)، وكان يُمنَح امتياز جمعها من خلال مزاد عام الأمر الذي كان يعني تَزايُد الضرائب دائماً.

وقد بدأ تداعي القهال، كمؤسسة إدارة ذاتية، في أوائل القرن الثامن عشر بعد انتفاضة شميلنكي ضد الإقطاع الاستيطاني في أوكرانيا، والتي اكتسحت الجماعة اليهودية ومؤسساتها فيما اكتسحت من مؤسسات. وظهرت التوترات الاجتماعية داخله بسبب الأزمة الاقتصادية والسياسية الشاملة في بولندا، إذ إن أعضاء الأقلية المسيطرة على القهال كانوا، كما هو متوقع، يؤثرون مصالحهم على مصالح الجماهير، ويحاولون أن يهربوا من استغلال الحاكم عن طريق تحميل معظم العبء على من هم دونهم في السلم الطبقي والاجتماعي. وقد أصبح القهال، بعد قليل، وسيلة قهر فقراء الجماعة اليهودية بدلاً من كونه مؤسسة تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وسادت المصالح الشخصية وسيطرت الشخصيات الطموحة الجشعة ذات النفوذ. وكثيراً ما كانت تباع وظيفة الحاخام ووظيفة القاضي. لذا، كان من المتوقع أن يتقبل القاضي الرشاوي. وأُهملت الإدارة تماماً، الأمر الذي أثر في موارد القهال المالية. وحتى منتصف القرن السابع عشر، كان بوسع مجالس القهال المختلفة أن تفي بالتزاماتها المالية، ولكن وضعها تدهور بتدهور بولندا مالياً، إذ كان على القهال أن يدفع الرشاوي العديدة ويقدم الهدايا لكبار الموظفين لضمان أمنه. وزادت ديون الجماعات اليهودية زيادة رهيبة في القرن الثامن عشر حتى أن بعض الجماعات فشلت في سد أصل الدين واكتفت بدفع الفوائد عليه وحسب. ومن هنا، ضعفت سلطة القهال وبالتالي سلطة مجلس البلاد الأربعة. وفي عام ١٧٦٤، قرر البرلمان البولندي أن ضريبة الرؤوس المفروضة على اليهود لن تُجمَع من خلال مجلس البلاد الأربعة وإنما من خلال مجالس القهال الفردية، وهو ما كان يعني أن الإطار التنظيمي للقهالات قد انفرط تماماً وأن مجلس البلاد الأربعة أُلغي تماماً. ومع صدور مرسوم عام ١٨٢٢، تم حل القهال تماماً وحلت محله مجالس التجمعات الدينية (الأبرشيات) لإدارة الأمور الدينية والخيرية. وكان كل مجلس مكوناً من الحاخام ومساعده أو ممثل عنه وثلاثة مديرين منتخبين. واستمر هذا الإطار حتى عام ١٩١٦ وتولت الدولة كل مهام القهال الأخرى.

وفي عام ١٩١٩، أُسست مجالس القهال مرة أخرى، ولكن أُعيد تعريفها كجماعة مستقلة يكون الانتماء إليها اختياريا ويترأسها مجلس مركزي. ولم يكن للقهال أية سلطة من السلطات القديمة، وإنما كان تنظيماً ينسق بين كل الجماعات اليهودية في بولندا، شأنه شأن التنظيمات المماثلة في الدولة القومية الحديثة.

وقد سقط القهال، مثلما سقط الجيتو ومنطقة الاستيطان اليهودي والشتتل، وذلك بسبب التحولات الاجتماعية والسياسية العميقة التي كانت تخوضها مجتمعات شرق أوربا، وبسبب ظهور حركيات اقتصادية جديدة تنحو نحو توحيد السوق القومية والاستغناء عن الجماعات الوظيفية الوسيطة. وكان سقوط القهال مرتبطاً أيضاً بالحركيات الخاصة بالمجتمع البولندي وأزمته السياسية والاقتصادية العامة، والتي تفاقمت ابتداءً من مستهل القرن السابع عشر، الأمر الذي أدَّى إلى تصفية كل الجيوب الإثنية والدينية التي كانت تتمتع بحق الإدارة الذاتية التي خلَّفها النظام الإقطاعي. ولكن المؤرخين الصهاينة يشيرون إلى القهال، والمؤسسات الإقطاعية الأخرى، باعتبار أن ذلك أكبر دليل على الاستقلال القومي لليهود عبْر تاريخهم، وهو استقلال عبَّر عن نفسه في أشكال مختلفة مثل السنهدرين والجيتو. ولكن تنظيم القهال لا يختلف كثيراً عن العديد من التنظيمات الحرفية والطبقية في العصور الوسطى، ذلك لأن المجتمع الزراعي يتسم بالجمود والهرمية الحادة في تنظيمه الاجتماعي والحضاري.

وقد أسس النازيون، بعد غزوهم بولندا، نظاماً يشبه في كثير من الوجوه مؤسسة القهال مثل جيتو وارسو (أو غيره من الجيتوات) التي كانت تتمتع بقسط وفير من الإدارة الذاتية والاستقلال الاقتصادي والثقافي. ولا شك في أن المفكرين الصهاينة، وقد جاء عدد كبير منهم من بولندا وروسيا، كانوا متأثرين بتجربتهم في الشتتل والقهال وهم يرسمون ملامح المجتمع الصهيوني.

مجلس البلاد الأربعة

«مجلس البلاد الأربعة»، ويُسمَّى بالعبرية «فاعد أربعا أراتسوت»، هو الإطار الإداري ليهود بولندا الذي كان يضم كل مجالس القهال المحلية، وهو في الواقع أعلى أشكال الإدارة الذاتية التي تمتع بها اليهود في أوربا. وقد تم تأسيسه نحو عام ١٥٨٠. والبلاد الأربعة هي أقاليم بولندا الأربعة: بولندا الكبرى (بوزنان)، وبولندا الصغرى (كراكوف)، وأوكرانيا (فولينيا)، وروسيا الحمراء (جاليشيا).

ومن المعروف أن تركيب الجماعات اليهودية في الغرب يشبه

المجتمع الغربي الذي لم يعرف السلطة المركزية أو الدولة القومية منذ عصوره الوسطى. ولذا، كانت كل جماعة يهودية متمركزة حول المعبد داخل الجيتو الخاص بها. ولكن، مع نهاية القرن السادس عشر، حدثت بعض التطورات الاقتصادية، إذ إن النظام المالي الغربي كان قد بدأ يتوسع ويصل بأطرافه إلى العالم بأسره. ولم يكن هناك نظام مالي عالمي، كما أن بولندا كانت من أهم الدول المصدرة للأغذية إلى أوربا في ذلك الوقت، فنشأت شبكة مالية عالمية من النخب المالية اليهودية المختلفة كان يهود الأرندا واحدة من أهم حلقاتها. كما أن الفترة نفسها شهدت تَراجُع سلطة الملك في بولندا والذي توقَّف عن التدخل في عملية تعيين حاخام ليهود بولندا عام ١٥٥١. ثم توقَّف الملك عام ١٥٦٩ عن تعيين رؤساء الجماعات اليهودية في لفوف، وأعطى اليهود حق انتخاب المجالس التي تحكمهم. ثم صدر مرسوم يمنع حكام المدن البولندية من إصدار أحكام أو فرض عقوبات على أعضاء الجماعات اليهودية. وتزايدت إلى جانب هذا أعداد أعضاء الجماعات اليهودية في بولندا. وقد أدَّت كل هذه العوامل إلى تأسيس المجلس عام ١٥٨١. وكان المجلس (فاعد) ينعقد بشكل غير رسمي وغير ثابت في بداية الأمر. ولكن اجتماعاته اتخذت صيغة ثابتة مع نهاية القرن السادس عشر. وانضمت إليه فيما بعد قهالات ليتوانيا التي استقلت بعد ذلك (عام ١٦٢٣) وانتظمها مجلس مستقل. ولم تكن العلاقة حميمة بين المجلسين دائماً، إذ ظهر بينهما الكثير من التوترات. فعلى سبيل المثال، كان مجلس بولندا يرى أن مجلس ليتوانيا لا يساهم بالقدر الكافي في الأعباء المالية. كما اختلف المجلسان حول المدن الصغيرة الموجودة على الحدود، وحول أحقية كل منهما في تمثيلها، وكذلك بشأن الحقوق التجارية لكل منهما. وأخيراً اختلفا حول قضية أساسية هي قضية الأرندا، فقد قرر مجلس البلاد الأربعة أن يمنع اليهود من شراء حق جمع ضرائب الجمرك واستغلال مناجم الملح، ذلك لأن النبلاء البولنديين أنفسهم كانوا يطمعون في تحصيل هذا الريع وإن حاول التجار اليهود منافستهم فإنهم قد يلحقون الأذى بالجماعة ككل. ولكن هذه التوصية لم تنفذ على الإطلاق. كما أن منطقة بولندا الكبرى، الممثلة في مجلس البلاد الأربعة، كان لها رأي مخالف. أما مجلس ليتوانيا، فقد أصر على ضرورة أن يظل جمع ضرائب الجمارك في أيد يهودية (ويبدو أن أعضاء المجلس قد تقاضوا مبلغاً من النقود من بعض المقاولين الذين كانوا يقومون بالحصول على امتياز جمع ضرائب الجمارك).

والتنظيم الإداري للمجلس هرمي، توجد في قاعدته مختلف مجالس القهال في كل تجمُّع يهودي. وكانت كل مجموعة من القهالات تتبع مجالس المدن التي تتبع بدورها مجالس الأقاليم. وقد أصبحت هذه الأقاليم ثمانية ثم أصبحت اثنى عشر إقليماً فيما بعد، ومع هذا احتفظ المجلس باسمه. ولم يكن المجلس يضم مندوبي الأقاليم وحسب، وإنما كان يضم كذلك مندوبي بعض المدن المستقلة. وكان عدد المندوبين عشرين مندوباً في القرن السابع عشر وأربعين في القرن الثامن عشر. وكانت مجالس الأقاليم (مفرده بالعبرية: فاعد هاجليل) تشبه مجالس البرلمان (سييم) الإقليمية التي تُسمَّى «سييميك»، وهي في علاقتها بمجلس البلاد الأربعة تشبه علاقة هذا الأخير بمجلس السييم أو البرلمان. وكان مجلس البلاد الأربعة يضم جهازين أو مجلسين: مجلس رؤوس المدن، وهو مجلس شيوخ المناطق، ومجلس قضاة البلاد ويضم حاخامات الجماعات الأساسية. وكان المجلسان يجتمعان أحياناً معاً.

وكانت وظيفة المجلس الأساسية الإشراف على التجارة اليهودية، وتحديد نسبة الفوائد للمرابين اليهود، وتحديد السياسات المالية والاقتصادية لأعضاء الجماعة. وكان من أهم أنشطته في هذا المضمار محاولة تقليل حجم التنافس بين يهود الأرندا في محاولة الحصول على امتياز استئجار الضياع. فكان المجلس يؤيد حق أي يهودي استأجر ضيعة لمدة ثلاث سنوات في أن يجدد عقد استئجاره دون منافسة، بل وكان المجلس يؤيد حق الأبناء في أن يرثوا العقد. وكان المجلس يقوم بجمع الضرائب من المناطق كافة باعتبار أن الجماعة اليهودية تشكل وحدة مالية مستقلة داخل الدولة البولندية، كما كان يسوي النزاعات بين اليهود. أما النزاعات بين اليهود وغير اليهود، فكانت تنظر فيها السلطات البولندية. وكان المجلس في منزلة محكمة استئناف وهيئة تشريعية وإدارية. كما كان المجلس يشرف على التعليم اليهودي والأمور الدينية، وكذلك على تعيين الحاخامات والقضاة وجباة الضرائب والمدرسين والذابحين الشرعيين.

وخلال القرن الثامن عشر بدأ هذا النظام في الضعف بتآكل النظام السياسي والاجتماعي في بولندا، وانهياره التام في نهاية الأمر. وبظهور طبقات جديدة من يهود بولندا، لم تَعُد هذه الطبقات تأخذ بالإطار القديم. وبازدياد الجماهير اليهودية فقراً، أصبح من الصعب جمع الضرائب منها. كما أن الأمراء البولنديين الإقطاعيين كانوا دائمي التدخل في شئون المجلس للدفاع عن محاسيبهم من اليهود. وقد تحوَّل مجلس القهالات إلى مؤسسة لابتزاز اليهود عن طريق اليهود أنفسهم، فكان أثرياء اليهود المتحكمون في هذه المؤسسة

أداة طيعة في يد الحاكم البولندي، كما أن الجماعات اليهودية الكبيرة المهيمنة على المجلس كانت تحاول فرض نصيب أكبر من الضرائب على الجماعات الصغيرة. ولذا، فقد رفضت مجموعة من الجماعات في ليتوانيا عام ١٧٢١ دفع الضرائب التي فرضها المجلس بل واشتكت إلى الحكومة. وفي عام ١٧٦٤، قررت الحكومة البولندية جمع الضرائب مباشرةً من كل جماعة يهودية حسب حجمها، وبالتالي سقط مجلس البلاد الأربعة وما تسميه الكيانات الصهيونية «الحكم الذاتي»، والذي يمكن أن نسميه إطار الإدارة الذاتية للجماعة اليهودية في بولندا الإقطاعية. وقد استمرت مجالس القهال في نشاطها لبعض الوقت بدون إطار تنظيمي واحد إلى أن حُلَّت هي الأخرى عام ١٨٢٢.

سافاناه اليهود في سورينام

«سورينام» جمهورية مستقلة، كانت تدعى في الماضي «جيانا الهولندية» حيث كانت تابعة لهولندا. وهي تقع، في أمريكا الجنوبية، بين جيانا البريطانية والبرازيل وجيانا الفرنسية، ويحدها من الشمال المحيط الأطلنطي.

وقد وصل إليها الأوربيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كما وصل إليها بعض أعضاء الجماعات اليهودية من البرازيل وهولندا عام ١٦٣٩. ثم وصلت جماعة أخرى من اليهود من إنجلترا عام ١٦٥٢ تحت رعاية أحد اللوردات الإنجليز، ووصلت مجموعة ثالثة تحت قيادة جوزيف نونيز دي فونسيكا. ويشكل الاستيطان اليهودي في سورينام أول هجرة يهودية إلى العالم الجديد. وكان معظم هؤلاء من اليهود المارانو (السفارد). وقد أسسوا مزارع السكر التي تعتمد أساساً على العبيد السود المخطوفين من أفريقيا في سياق ما كان يُسمَّى «المثلث اللعين» إذ كانت السفن الأوربية تحمل البضائع، كالأسلحة والبارود والمشروبات الروحية الرخيصة والحلي، من أوربا إلى الساحل الأفريقي فتفرغها، ثم تحمل العبيد الذين كانوا يُنقلون إلى مزارع السكر في الولايات المتحدة وجزر الكاريبي ويباعون هناك، وكانت السفن الفارغة تحمل المنتوجات الاستوائية كالسكر والنيلة والصمغ والقهوة إلى أوربا، وهكذا. وكان يوجد مثلث آخر لم يكتسب الأهمية إلا في منتصف القرن الثامن عشر. فكان تجار نيو إنجلند يرسلون شراب الروم الكحولي إلى أفريقيا ويبادلونه بالعبيد ويبحرون إلى جزر الهند الغربية حيث كانوا يبيعون العبيد ويشترون عسل قصب السكر اللازم لصناعة الروم ثم يتجهون لبلادهم. وقد كانت مزارع السكر ذات أهمية كبرى بالنسبة لاقتصاد المستعمرة واقتصاد إنجلترا. ولذا، تم تشجيع اليهود على الاستيطان وكُفلت لهم حرية العبادة عام ١٦٦٥، ثم مُنح كل المستوطنين اليهود في سورينام الجنسية الإنجليزية. ولكن الهولنديين قاموا بضم سورينام، عام ١٦٦٧، بمقتضى معاهدة بريدا، مقابل تنازلهم عن حقوقهم في نيو أمستردام (نيويورك) لإنجلترا. ومع هذا، استمر المستوطنون اليهود في حياتهم، وفي امتلاك المزارع والعبيد. وحينما حاول بعضهم مغادرة سورينام، عام ١٦٧٤، أرغمهم الهولنديون على البقاء بسبب نفعهم وأهميتهم الاقتصادية.

وكان من أهم مراكز اليهود في سورينام مستوطنة يودين سافانا، ومعناها «سافاناه اليهود»، التي تأسَّست عام ١٦٧٠ والتي كانت تقع على بعد عشرة أميال من باراماريبو أكبر مدن سورينام في بريزدنتس أيلاند (جزيرة بريزيدنت أو الرئيس) في وسط الغابات.

وكانت الجماعة الاستيطانية اليهودية في هذه الجزيرة شبه مستقلة. وقد استخدموا العبيد السود في شق الطرق وإزالة الغابات والأعشاب وفي العمل في المزارع، كما أسسوا مدينة محاطة بالطرق الجديدة. وقد بلغ عدد سكانها أقل من عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩، تسعة آلاف من العبيد المجلوبين من أفريقيا، و٥٢٠ يهوديا (نصفهم من أصل ألماني أشكنازي والنصف الآخر من أصل برتغالي سفاردي). ولكن أعداداً كبيرة من العبيد كانت تهرب من المستوطنين إلى الغابات وتتحد مع السكان الأصليين من الهنود الذين اقتُلعوا من أرضهم، ثم تقوم بغارات على المزارع. وكان أصحاب المزارع يستجلبون المزيد من العبيد ليحلوا محل الهاربين. ولكن هؤلاء كانوا ينضمون بدورهم إلى الهاربين في الغابات. وقد تزايد عدد الفارين وأصبحوا يشكلون تهديداً حقيقيا للمستوطنين اليهود البيض الذين صمدوا بعض الوقت ضد العبيد الثائرين، فكوَّنوا ميليشيا عسكرية وجددوا الحملات ضد الثوار. ولكن الإرهاق من الحرب ومن الجهد المبذول لإحباط ثورات العبيد ابتداءً من ١٦٩٢، وانتشار مرض الملاريا، أديا في نهاية الأمر إلى انتصار السود عليهم عام ١٧٧٤. ثم شب حريق فيما تبقَّى، فلم يبق من آثار اليهود سوى شواهد قبور عليها كتابات بالعبرية.

ومستوطنة يودين سافاناه مرحلة انتقالية بين الجماعة الوظيفية الاستيطانية (التي تتمتع بحق الإدارة الذاتية) والدولة الوظيفية الاستيطانية (التي تتمتع بالاستقلال السياسي). ومع هذا ثمة نقاط تشابه عديدة بين تجربة سافاناه اليهود والمستوطنين الصهاينة، من بينها أن كلا من المستوطنين الصهاينة وسافاناه اليهود استوطنوا خارج أوربا تحت رعاية أكثر من دولة أوربية واحدة: إنجلترا ثم هولندا في حالة

سورينام، وإنجلترا ثم الولايات المتحدة في حالة فلسطين. كما أن كلتا الجماعتين الاستيطانيتين كانت منقسمة وبحدة إلى سفارد وأشكناز يتصارعون فيما بينهم، وكذلك كانت كلتا الجماعتين مرفوضة من قِبَل أعضاء المجتمع المُستهدَف استغلاله: العبيد السود المُستجلَبين والسكان المحليين في سورينام، والفلسطينيين العرب في فلسطين. وقد انتصر السود على سافاناه اليهود، أما في فلسطين فإن المعركة مازالت دائرة بين الفلسطينيين وجنود الاحتلال الإسرائيلي.

بيروبيجان

«بيروبيجان» مقاطعة سوفيتية ذات حكم ذاتي خُصِّصت لليهود، وتقع في شرق سيبريا خلف نهر «مامو» الذي يفصل بين الاتحاد السوفيتي ومنشوريا، وتبلغ مساحتها ٣٧ ألف كيلو متر مربع، وقد اشتُق اسمها من فرعي النهر «بيرو» (والتي تُنطَق أيضاً «بيرا») و«بيجان». وهي تحوي منطقة سهلية صالحة للزراعة، ومنطقة جبلية تضم غابات كثيفة غير مستغلَة تتوافر فيها أنواع ثمينة من الأخشاب. كما توجد فيها حيوانات ذات فراء. وتضم المنطقة ثروات معدنية أبرزها الفحم والزئبق والنحاس والحديد والذهب والمرمر والأحجار شبه الكريمة. وفي المنطقة كميات وافرة من مياه الري، وفيها نحو مائتي نهر كبير وصغير بالإضافة إلى البحيرات.

وأكبر مدن المنطقة هي العاصمة. وقد كانت المنطقة تُسمَّى «كوخوتكايا» (وربما تعني «المكان الهادئ») وهي تُدعَى الآن «بيروبيجان». وقد كانت عام ١٩٢٨ محطة قطار صغيرة على سكة حديد سيبريا، وأصبحت عام ١٩٣١ قرية، ثم صارت مدينة.

وأقرب المدن الكبيرة (في الشرق الأقصى السوفيتي) إلى بيروبيجان هي خابازروفسك التي تبعد عنها ١٧٣ كيلومتراً، وهي عاصمة الإقليم الذي تتبعه بيروبيجان، أما المسافة بين موسكو وبيروبيجان فهي ٨٣٦١ كيلومتراً.

وقد وقع اختيار الحكومة السوفيتية على بيروبيجان عام ١٩٢٨ لتشجيع التوطن اليهودي في الإقليم بهدف زيادة تكيُّف اليهود مع النظام السوفيتي الجديد. وكذلك كان من بين أهداف السوفييت من المشروع اعتبارات إستراتيجية تتمثل في زيادة الكثافة السكانية في المنطقة المجاورة للحدود مع الصين واليابان، وتعمير كل أرجاء روسيا وخصوصاً الأطراف. لكن توطين السكان في هذه المنطقة إحدى الإشكاليات الأساسية التي تواجهها الحكومة المركزية الروسية سواء أثناء حكم القياصرة أو في حكم البلاشفة. كما كانت هناك اعتبارات سياسية تتمثل في إحباط دعايات العناصر اليهودية المعادية للسوفييت، وكسب تأييد اليهود في العالم، وخصوصاً في الولايات المتحدة في ظل اتجاه سوفيتي عام لتحسين العلاقات مع الغرب في تلك الفترة.

ونظراً لكل هذه الاعتبارات، قررت القيادة السوفيتية أن تمنح اليهود إقليماً خاصاً بهم حيث يكون بمقدورهم أن يطوروا ثقافتهم وتقاليدهم الخاصة في إطار قومي ومحتوى اشتراكي، فيصبح مركزاً للثقافة اليهودية (اليديشية) ومجالاً لتحقيق هوية اليهود باعتبارهم أقلية قومية شرق أوربية، أو قومية يديشية، الأمر الذي يتفق مع صيغة البوند ودبنوف أكثر من اتفاقه مع أطروحات لينين.

وقد تم تشكيل جهازين للإسراع في تنفيذ المشروع، وصدر مرسوم مارس ١٩٢٨ متضمناً تخصيص جميع الأراضي في منطقة بيروبيجان للمستوطنات اليهودية مع منح المنطقة صفة «دائرة قومية يهودية» رغم أنها لم تكن تضم أي يهود آنذاك. كما نص المرسوم صراحة على أن المنطقة ستتحوَّل إلى مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي إذا ما سار التَّوطُّن اليهودي بنجاح فيها فستتحول المنطقة إلى مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي.

وفي القانون السوفيتي، تُعتبَر المقاطعة ذات الحكم الذاتي وحدة إدارية تتمتع بشيء من الكيان الذاتي، والمفروض أنها تمثل كياناً مستقلاً لمنطقة معينة تحوي سكاناً من قومية واحدة لا يكفي عددهم لتأليف جمهورية مستقلة.

وقد شنت الحركة الصهيونية هجوماً مركزاً على المشروع منذ البداية. فأعلنت أن المكان غير مناسب، وأنه لا يحمل أية دلالة تاريخية يهودية، وأنه قد يصلح لمستوطنين ذوي تقاليد زراعية حيث إن اليهود لم يمارسوا الزراعة إلا حديثاً. ومن هنا، طالبت الحركة الصهيونية بالقرم أو أوكرانيا. ولكنها عادت وأكدت أن فلسطين المكان الوحيد المناسب لحل مشاكل اليهود السوفييت، وأن مشروع بيروبيجان محاولة سوفيتية لنسف أو إضعاف الفكرة الصهيونية والدينية لدى اليهود. هذا مع العلم بأن مساحة بيروبيجان تفوق مساحة فلسطين التي تبلغ ٢٦,٠٧٢ كيلو متراً مربعاً.

وقد وصلت أول دفعة من اليهود السوفيت إلى بيروبيجان عام ١٩٢٨. وكان عددهم ٩٥٠ شخصاً عاد منهم ٦٠٠ شخص. وقد بلغ عدد اليهود الذين هاجروا إلى المنطقة خلال خمس سنوات نحو عشرين ألف شخص، عاد منهم نحو اثنى عشر ألفاً، وبقي في المنطقة نحو ثمانية آلاف شخص فقط. ولم تكن هذه الأرقام تشير إلى درجة مشجعة من النجاح، بل كانت تشير إلى احتمال فشل المشروع.

وفي ٧ مايو (آيار) عام ١٩٣٤، أي بعد احتلال اليابان لمنشوريا عام ١٩٣١ - ١٩٣٢، أعلنت السلطات السوفيتية منح منطقة بيروبيجان صفة «مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي» مع أن شروط منح هذه الصفة، وأبرزها وجود أغلبية من سكان قومية معيَّنة، بحسب الدستور السوفيتي، لم تكن متوافرة. وربما كان اتخاذ هذا القرار إحدى الوسائل التي لجأت إليها الحكومة السوفيتية لتشجيع اليهود على الهجرة إلى تلك المنطقة حيث وُضعت خطة جديدة لتوطين اليهود فيها تقوم على أساس اختيار الكفاءات بدل الهجرة الطوعية العشوائية. وكان مقدراً خلال السنوات ١٩٣٤ - ١٩٣٧ أن يبلغ عدد اليهود في بيروبيجان نحو ٦٠ ألف نسمة. ومع ذلك، ومع حلول عام ١٩٣٧، فإن عدد اليهود لم يتجاوز عشرين ألف نسمة كانوا يشكلون ٢٤٪ من سكانها.

وقد تعرَّض تنفيذ مشروع التوطين لحالة من الجمود في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وذلك بسبب حملة التطهير التي قادها ستالين وشملت العديد من القيادات ومن بينها القيادات اليهودية في الحزب والدولة. ثم إن ظروف الحرب (بعد ذلك) فرضت جموداً على تنفيذ المشروع، فلم يَعُد للبروز والنشاط إلا في نهاية الحرب العالمية الثانية وبالذات في النصف الثاني من عام ١٩٤٦. وقد أظهر اليهود في تلك الفترة حماساً أشد للتَّوطُّن في بيروبيجان، وتطوَّع للذهاب إليها فنانون وموسيقيون وأطباء. وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد اليهود، في منتصف سنة ١٩٤٨، بلغ نحو خمسة وثلاثين ألفاً جاء بعضهم ضمن الهجرة المنظمة، وجاء البعض الآخر هرباً من الجيوش النازية الزاحفة نحو موسكو، وجاء البعض الثالث ليفتش عن مكان جديد يبدأ فيه حياته.

وقد تمت تنمية الطابع اليهودي اليديشي للمقاطعة في هذه المرحلة. فأُنشئت مزارع جماعية يهودية ومجالس فرعية، واستُخدمت اليديشية كلغة رسمية، وأُسِّس مسرح يديشي ومكتبة عامة سُمِّيت باسم الكاتب اليديشي شالوم عليخيم، كما أُقيمت مؤسسة طباعة عصرية وصُنعت آلات كاتبة بالحروف التي تُكتَب بها اللغة اليديشية.

ولكن القيادات السوفيتية، بعد هذه الفترة القصيرة من الهجرة، غيَّرت موقفها، وبدأ الفتور يسيطر على الحديث الرسمي عن بيروبيجان، وبرزت اتهامات بعلاقات تجسُّس مع الخارج. وفي عام ١٩٤٨، توقف نشر الأخبار عن بيروبيجان. وإذا كانت حركة التطهير الأولى استهدفت بعض الأفراد، فإن الحملة الجديدة استهدفت المشروع ذاته (ويبدو أن ستالين اتهم زعماء الجماعة في بيروبيجان بالتآمر لفصل الإقليم عن الاتحاد السوفيتي وتسليمه لليابان). وكانت النتيجة أن الهجرة اليهودية إلى الإقليم أخذت في التقلص تدريجياً إلى أن وصل عدد اليهود فيه سنة ١٩٦٨ إلى نحو خمسة وعشرين ألف نسمة. وقد بلغ عدد السكان اليهود في عام ١٩٨٩ نحو ٨,٨٨٧ مقابل ٢١٥ ألف روسي وكوري وصيني وغيرهم، أي ٤٪ من عدد السكان، يقطن معظمهم في العاصمة التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة وثمانين ألفاً. وعدد المتحدثين باليديشية آخذ في التناقص، ووصلت نسبة الزواج المختلط بين اليهود ٨٠٪، وهي بذلك قد تكون أعلى نسبة في العالم. وغالبية اليهود في بيروبيجان ملحدون، كما أن الحاخام الذي يشرف على إقامة الشعائر يؤمن بالمسيح ويستخدم الإنجيل في الصلوات. ومع هذا، لا تزال هناك محاولة لأن تحتفظ بيروبيجان بطابعها اليهودي اليديشي إذ تَصدُر الطوابع باليديشية والروسية ولا تزال أسماء الشوارع تُكتَب باللغتين. وقد تم الاحتفال بعيدها الخمسيني عام ١٩٨٤. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي وظهور الكومنولث الروسي، بدأت الحكومة الروسية في تحويل بيروبيجان إلى منطقة اقتصادية حرة. ويفكر بعض أثرياء إسرائيل في الذهاب إلى بيروبيجان للاستثمار فيها. ويبدو أن زراعة المخدرات قد انتشرت فيها أخيرا.

وتجربة بيروبيجان، برغم أية نتائج انتهت إليها، تثير عدداً من الملاحظات حول الحركة الصهيونية في مجملها، أولاها أن الرفض الصهيوني لبيروبيجان انطلق من تبسيط مخل للحلول الممكنة للمسألة اليهودية يستهدف تبرير حتمية الهجرة إلى فلسطين، وهو ما يثبت أن الصهيونية لم تستهدف حل المشاكل الملحة عند اليهود بقدر ما استهدفت تحقيق أساطير بعضهم. ومن ناحية أخرى، فإن مشروع بيروبيجان كان امتداداً لأفكار البوند، أي التعبير عن الخصائص الذاتية اليهودية في إطار الدولة الاشتراكية. ومع هذا، فقد رفضته الحركة الصهيونية عامة والصهيونية الاشتراكية بصفة خاصة.

ومن جانب ثالث، فإن الحركة الصهيونية قد عارضت المشروع رغم أن السوفييت كانوا يهدفون منه إلى تحويل اليهود من طبقة بورجوازية منعزلة غير منتجة إلى طبقة عاملة مندمجة في المجتمع ومنتجة، وهو ما تحدَّث عنه الصهاينة الاشتراكيون دائماً. وأخيراً، فإن مشروع بيروبيجان قد أثار من جديد الخلاف القديم بين يهود العالم حول ما عُرف بقضية الصهيونية الإقليمية. ولهذا، فقد أيَّدت المشروع بعض الجمعيات اليهودية في الولايات المتحدة وغرب أوربا وأمريكا اللاتينية، وكان من بينها لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة (جوينت)، والمؤسسة الأمريكية اليهودية المشتركة للزراعة

(أجروجوينت)، والجمعية الأمريكية للتوطين اليهودي في الاتحاد السوفيتي (وقد عُرفت باسم «إيكور» أي فلاح بالعبرية). في حين عارضته كل اتجاهات الحركة الصهيونية باعتباره تجسيداً لفكرة قومية الدياسبورا (القومية اليديشية) ولكن في ظل نظام اقتصادي مختلف.

٣ ـ الشرق الأدنى القديم

العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم والمسألة العبرانية

لا يمكن فهم تاريخ العبرانيين (أو العبرانيين اليهود) الذي تمركز بشكل أو بآخر في فلسطين إلا بفهم العلاقات الدولية في الشرق الأدنى القديم. فتاريخ العبرانيين رد فعل لهذه العلاقات الدولية. وثمة مشكلة أساسية كانت تواجه العبرانيين، ومن بعدهم الجماعة اليهودية في فلسطين، منذ ظهورهم حتى تحوُّلهم إلى جماعات منتشرة في أنحاء العالم لا يربطهم بفلسطين إلا رباط ديني. وتتمثل هذه المشكلة في قلة عددهم وصغر حجمهم كتشكيل سياسي، بالقياس إلى التشكيلات الحضارية الضخمة التي كانت موجودة حولهم. وبسبب الاعتبارات السابقة عجز العبرانيون عن تكوين جيش ضخم يدافعون به عن كيانهم السياسي ويضمون إليه أرضاً أخرى. وبسبب تخلفها الاقتصادي لم تستطع الدولة العبرانية ـ رغم قلة سكانها ـ أن تستوعبهم فأصبحت مصدراً للهجرة، وكان كثير من العبرانيين القدامى يعملون عبيداً وجنوداً مرتزقة في الإمبراطوريات المجاورة. وساعد على تفاقم المشكلة أن فلسطين ذات أهمية استراتيجية قصوى لأنها كانت تُعدُّ معبراً بين التشكيلات الحضارية المختلفة، الأمر الذي جعلها دائماً عرضة للغزوات والهجرات.

كان الشرق الأدنى القديم مكوَّناً من تشكيلين حضاريين أساسيين: التشكيل الحضاري المصري، وتشكيل الرافدين. وأحياناً كان ينضم إليهما تشكيل خارجي مثل الحيثيين. وعند ضعف هذه القوى أو تراجعها كانت تظهر قوى محلية مثل الآراميين والأنباط. وقد استمر هذا الوضع حتى غزا الفرس المنطقة وأصبحوا القوة العظمى فيها وجاء بعدهم اليونانيون ثم الرومان. أما اليهود فلم يكونوا في فلسطين بل كانوا منتشرين في بقاع كثيرة، وكانت فلسطين بالنسبة لهم مجرد مركز ديني.

وكان تاريخ الشرق الأدنى القديم بصفة أساسية تاريخ الحضارات التي قامت على ضفاف الأنهار (مصر، العراق)، وحوالي عام ١٥٠٠ ق.م. بدأ نفوذ القوتين ينحسر وظهرت شعوب عديدة أنشأ كل منها دولته (الحوريون ـ الفلستيون ـ الكاشيون ـ الحيثيون). وفي مرحلة تالية ازداد ضعف القوتين العظميين، وهو ما أتاح الفرصة للشعوب الصغيرة لإنشاء دويلات، وفي هذا الإطار تسلل العبرانيون إلى كنعان وأسسوا دولتهم في المناطق الداخلية. وحوالي عام ١١٠٠ ق.م. ظهرت القوة الآشورية الجديدة، وعادت مصر إلى لعب دور كبير في محيطها، ثم ظهرت الدولة الفارسية التي استمرت حتى وصل الإسكندر وبسط نفوذه على معظم الشرق الأدنى القديم وتبعه السلوقيون فالبطالمة ثم الرومان.

ووجد العبرانيون أنفسهم وسط هذه التشكيلات والقوى العظمى فحاولوا التكيُّف بإنشاء إمبراطورية صغيرة تملأ الفراغ الناشئ عن ضعف هذه القوى العظمى في بعض الفترات، أو عن طريق التحالف مع بعض الدويلات الصغرى لمنع الدول الكبرى من التدخل، وأحياناً عن طريق الاعتماد على إحدى القوى العظمى كما هو الحال مع المملكتين الشمالية والجنوبية.

ولأن فلسطين في التاريخ القديم كانت ممرا مهما بين الشرق والغرب، فلم يكن لمشكلة العبرانيين فيها حل سوى أن يغادروها في النهاية، وهو ما حدث بالفعل. وبسبب هذه الأهمية الإستراتيجية كان من الضروري أن تصبح جزءاً من كل، فبقاؤها مستقلة عما حولها كان يجعلها مطمعاً للدول القوية حولها، وبفتح المسلمين لها أصبحت جزءاً من تشكيل حضاري كبير. والمشروع الصهيوني يهدف إلى عكس ذلك، فهو يريدها ممراً تحرسه جماعات سكانية غريبة عن المنطقة وتستمد بقاءها من التحالف مع قوة عظمى تحمي مصالحها مقابل أن توفر لها هذه القوة أسباب البقاء.

مصر

يرتبط تاريخا مصر وفلسطين منذ بداية التاريخ الإنساني، فكثيراً ما قامت مصر بضم فلسطين أو فرض سيطرتها عليها، كما كان فراعنة مصر يلعبون دوراً كبيراً في تحديد سياسة الدولتين العبرانيتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) من خلال جماعات فيهما موالية لمصر. وإلى جانب التجارة والحملات الاستكشافية التي ربطت بينهما، كان كثير من قبائل البدو السامية يستأذن فرعون مصر في الالتجاء إليها فراراً من الجفاف أ و المجاعة ثم تخرج بعد ذلك، ومن هذه القبائل قبائل عبرانية. ولهذا السبب أرسل يعقوب أولاده ثم استقرت الأسرة كلها في مصر. وقد تحولت الهجرة إلى تسلل وتحول التسلل إلى غزو حتى استولى خليط آسيوي من عدة جماعات

بشرية على السلطة في مصر فيما عرف بحكم الهكسوس (١٧٨٦ ـ ١٥٧٠ ق.م).

وفي زمن الهكسوس ازدهر العبرانيون بعض الوقت وبلغ يوسف مكانته المرموقة. ومع ظهور الدولة الحديثة (١٥٧٠ ـ ١٠٨٥ ق.م) ظهر ملك لا يعرف يوسف حسب رواية التوراة، وطرد المصريون الهكسوس وطاردوهم حتى جنوب فلسطين. ويبدو أن المصريين، بعد غزوة الهكسوس، بدأوا يتطلعون لحماية حدود مصر بالتوسع شرقاً وشمالاً، حتى اصطدموا بالإمبراطورية الحورية وكانت فلسطين أرض المعركة.

وواصل أمنحوتب الثاني (١٤٥٠ ـ ١٤٢٥ق.م) عمليات غزو فلسطين وسوريا وهناك نصب تذكاري يذكر أنه أسر عدداً من العبيرو، ولذلك ذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو فرعون الخروج مع أن كلمة «عبيرو» أكثر شمولاً من كلمة «عبراني». ثم عقد أمنحوتب الثالث معاهدة مع مملكة ميثاني الحورية، أصبحت المناطق الآسيوية يحكمها أمراء تابعون لمصر. وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد بدأت تظهر في مصر قبائل البدو الخابيرو تغير على حدود فلسطين. وبعد موت توت عنخ آمون (١٣٦١ ـ ١٣٥٥ق.م) هزم الحيثيون مصر واستقلت فلسطين لبعض الوقت وربما نجح الخابيرو في الاستقرار فيها.

وفي عهد الرعامسة من ملوك الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ـ ١٢٠٠ ق.م) عادت السيطرة المصرية على فلسطين عن طريق الاحتلال المباشر هذه المرة. وخاض رمسيس الثاني حرباً ضد الحيثيين في معركة قادش الشهيرة عام ١٢٨٨ ق.م التي لم يحرز أي من الطرفين نصراً حاسماً فيها، فتم تقسيم الشام إلى قسمين: الشمال للحيثيين، والجنوب وفيه فلسطين للمصريين. وتظهر في هذه المرحلة إشارة إلى فلسطين بوصفها «كنعان». وفي فترة عصر الأسرات المتأخرة تراجع النفوذ المصري واتحدت القبائل العبرانية مكوِّنة المملكة المتحدة، وشهدت العلاقة بين مصر وفلسطين حالات من الشد والجذب.

وكان ملوك العبرانيين يبادلون الخيول المصرية بالجنود العبرانيين، فكانوا ضمن جيش من المرتزقة متعددي الجنسيات كونه بسماتيك الأول (٦٦٤ ـ ٦١٠ ق.م) ونجح في طرد الغزاة الآشوريين. وفي ٦٠٥ ق.م فر عدد من العبرانيين إلى مصر بعد تمرد فاشل في فلسطين فتم تأسيس مستعمرة إلفنتاين لحماية حدود مصر الجنوبية. ومع الغزو اليوناني (٣٣٣ ق.م) هاجرت أعداد كبيرة من اليهود إلى مصر واستقر معظمهم في الإسكندرية. وعندما جاء الفتح العربي الإسلامي كانت النسبة الأكبر منهم قد تنصرت وبقيت نسبة قليلة الأهمية.

الهكسوس

«الهكسوس» جماعة من الآسيويين سامية الأصل تتكون من خليط من العموريين والكنعانيين وبعض عناصر من الحوريين. وكلمة «هكسوس» مصرية معناها «الملوك الرعاة». حكم الهكسوس مصر بعد أن تسللوا خلال فترة طويلة ثم تحوَّل التسلل إلى غزو. وقد تمكَّن أحمس من طردهم من مصر. ويبدو أن وجود الهكسوس في مصر هو الذي سهَّل دخول العبرانيين إليها. وربما كانت هناك صلات عرْقية وثقافية بينهما. وثمة أدلة تاريخية تؤيد هذا الارتباط بين الهكسوس والعبرانيين.

شيشنق (٩٥٠-٩٢٩ق.م)

مؤسس الأسرة الثانية والعشرين (الليبية) في عام ٩٥٠ ق.م. كان شيشنق حاكماً قويا جدد النفوذ المصري في الشام. احتفظ بعلاقات طيبة مع سليمان، وإن كانت هذه الصلة لم تمنعه من أن يمنح حمايته لعبراني من قبيلة إفرايم (يربعام) ثار على سليمان لأنه كان يرى نفسه أحق بالمملكة منه. وبعد موت سليمان حصل يربعام على تأييد عشرة قبائل عبرانية واستقل بها مكوناً «المملكة الشمالية». وبعد مرور خمس سنوات على وفاة سليمان هاجم شيشنق المملكة الجنوبية ونهب كنوز الهيكل. وتقول النقوش أنه أخضع ١٥٦ مدينة في فلسطين.

إلفنتاين (جزيرة الفيلة)

«إلفنتاين» كلمة يونانية، وهي ترجمة لاسم الجزيرة «جزيرة الفيلة». كانت الجزيرة تُستخدم كحصن على النيل لحماية مدخل مصر الجنوبي. وكان في الجزيرة حامية مكونة أساساً من جنود مرتزقة آراميين بينهم جنود عبرانيون يتحدثون الآرامية. ومن المعروف أن العبرانيين كانوا يأتون مصر كمرتزقة في الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ ـ ٥٠٥ ق.م)، وقد شيَّد العبرانيون معبداً ضخماً حطمه كهنة خنوب مع تحرُّر مصر من حكم الفرس عام ٤٠٥ ق.م. وتعد حامية إلفنتاين بداية الدور الوظيفي القتالي للجماعات اليهودية.

الحيثيون

«الحيثيون» شعب قديم برز في آسيا الصغرى في الألف الثاني قبل الميلاد، وهم إحدى القوى التي هيمنت على الشرق الأدنى

القديم. يقسم تاريخ الحيثيين إلى ثلاث مراحل الأولى حين خرجوا عام ١٦٥٠ ق.م من الأناضول واستولوا على شمال سوريا وحلب حتى تغلبوا على أسرة حمورابي في بابل وقضوا عليها عام ١٦٠٠ ق.م. وقد تدهورت المملكة الحيثية بسبب الصراعات الداخلية وزادت قوة الحوريين لكنهم استعادوا شيئاً من قوتهم فأسسوا المملكة الثانية حوالي (١٤٥٠ - ١٤٠٠ ق.م) وبسطوا نفوذهم على معظم آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وأصبحت المنطقة حلبة صراع بين الحيثيين والمصريين على سوريا.

وبعد أن دامت الإمبراطورية الحيثية نحو قرنين ونصف ضعفت منذ ١٢٠٠ ق.م فاستقلت الإمارات الخاضعة لها واحدة بعد الأخرى. وفي تلك المرحلة (الثالثة) ظهرت الممالك الحيثية الجديدة، وأصبح مصطلح «حيثي» يشير إلى تلك الدول التي كانت قرقميش أهمها.

الساميون (الشعوب السامية)

الساميون منسوبون إلى سام أكبر أبناء نوح. ويُطلق المصطلح على مجموعة من الشعوب عاشت في رقعة كبيرة من الأرض تضم شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين، وقد تحدثت هذه الشعوب بمجموعة من اللغات المتقاربة هي اللغات السامية. وتشمل التسمية شعوباً مثل: الآشوريين والبابليين والآراميين والكنعانيين والفينيقين والعموريين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين والعبرانيين، كما تشمل جزءاً كبيراً من سكان إثيوبيا فيما بعد. وفي الوقت الحاضر يمثلهم العرب أساساً. وثمة روابط عديدة بين الساميين أهمها اللغة، كما أن بينهم تشابهاً من الناحية الإثنية. وقد كانت الأنظمة الاجتماعية والأنساق الدينية بين الجماعات السامية البدوية البسيطة متشابهة.

ويتصف الساميون، حتى وهم في أدنى مراحل البداوة، بالقدرة على الامتزاج بالعناصر المحلية في الأماكن التي استوطنوها، كما استوعبوا حضارتها دون أن يتخلوا عن سمات حضارتهم الأولى. وقد طوَّر الساميون التجارة وكانوا دائماً حلقة الوصل بين الممالك الكبرى القديمة في المنطقة، كما برعوا في الملاحة وطوَّروا العديد من الصناعات. ويُعدُّ العرب أكثر الجماعات السامية قرباً مما يمكن تسميته «الخطاب الحضاري السامي الأصلي»، كما أن اللغة العربية أقرب اللغات الحية للغة السامية الأصلية. ومع هذا يقصُر الصهاينة مفهوم «معاداة السامية» على اليهود دون سواهم، محاولين احتكار السامية.

بلاد الرافدين (العراق)

«بلاد الرافدين» عبارة تُستخدم للإشارة إلى البلاد التي تقع بين الشام وبلاد فارس، وفيها يجري نهرا دجلة والفرات. تنقسم بلاد وادي الرافدين إلى قسمين: الشمالي يتكون من وديان عديدة ومرتفعات جبلية، وقد استوطنه الآشوريون. أما الجنوبي فهو مستنقعات غير صالحة للعيش، ومع ترسُّب الطمي من النهرين تكوَّن في الجنوب سهل سومر. وأهم سكان وادي الرافدين: السومريون ثم الأقوام السامية العربية مثل: الأكاديين والعموريين والآشوريين والبابليين. وبعد الفتح الإسلامي أصبح العنصر الغالب هو العرب.

الهلال الخصيب

«الهلال الخصيب» المنطقة الممتدة شمال جزيرة العرب على شكل هلال يتكون من العراق (وادي الرافدين) وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان. ويُعتبر الساميون أقدم من استوطن الهلال الخصيب. ويعني المصطلح أن البلاد العربية الموجودة في هذه المنطقة تتصف بنوعٍ من الوحدة، كما يعني أنها تتميَّز جغرافياً عن مصر وشبه الجزيرة.

الأكاديون

«الأكاديون» قوم ساميون ظهرت دولتهم في الفترة من ٢٣٦٠ إلى ٢١٨٠ ق.م في منطقة أكاد ببلاد الرافدين، في المنطقة الشمالية من الوادي بين دجلة والفرات. ولغة الأكاديين هي الأكادية، وهي أقدم اللغات السامية المعروفة في بلاد الرافدين، وقد ازدهرت الأكادية في الألف الرابع قبل الميلاد وأصبحت لغة الدبلوماسية والتجارة في الشرق الأدنى إلى أن حلت الآرامية محلها في القرن السادس قبل الميلاد.

الآشوريون

«الآشوريون» منسوبون لمدينة «آشور» وهي أول عاصمة لهم وتقع أطلالها على الجانب الأيمن من نهر دجلة. والآشوريون قوم يرجع أصلهم إلى القبائل السامية التي استقرت خلال الألف الثالثة قبل الميلاد شمال وادي الرافدين. وقد نجح الآشوريون في بناء إمبراطورية في غرب آسيا.

البابليون

«البابليون» منسوبون إلى «بابل»، وهي مدينة تقع أنقاضها على بُعد ٥٥ كيلو متراً من بغداد. وكلمة بابل من العبارة الأكادية

«باب إيل» أي «بوابة الإله». وتُعرف بابل في العهد القديم باسم «أرض شعنار» أو «كيديم». وبعض الكتابات الصهيونية تشير إلي منطقة العراق باسم «بابل» حتى يذكِّر هذا الاستخدام بالإشارة إلى فلسطين بوصفها «إرتس يسرائيل». فكلاهما يُشار إليه باسم يؤكد ارتباطه بالتاريخ اليهودي المفترض ليؤكد حق الصهاينة في اغتصاب فلسطين «إرتس يسرائيل».

وفي عهد نبوختنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) الذي هزم المملكة الجنوبية وهجَّر قياداتها إلى بابل، بلغت الإمبراطورية أوج مجدها. وكانت تجارة بابل واسعة النطاق واستخدم البابليون النقود على نطاق واسع، الأمر الذي سهَّل التجارة المحلية والدولية. وقد ترك هذا النشاط التجاري أعمق الأثر في العبرانيين بعد تهجيرهم إلى بابل. ولغة البابليين هي البابلية، وهي إحدى لهجات اللغة الأكادية. ويجب عدم فصل حضارة البابليين عن حضارة الآشوريين، فهما تشكيلان سياسيان متصارعان ينتميان إلى تشكيل حضاري سامي واحد.

الكلدانيون

«الكلدانيون» هم الآراميون الذين كانوا يقيمون في كلدة، وكانت تقع في أقصى جنوب دلتا وادي دجلة والفرات. ويُستخدم الاسم للإشارة إلى الشعب الذي أخذ في الهيمنة على المنطقة بدءاً من القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وقد قام هذا الشعب في القرن السابع قبل الميلاد بإسقاط حكم الآشوريين وتأسيس الإمبراطورية الكلدانية. ومن أهم ملوكها نيو بولاسار (٦٢٥ ق.م) ونبوختنصر (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) الذي أسس إمبراطورية ضخمة تمتد من آشور حتى الحدود المصرية، وقضى على المملكة الجنوبية وهجَّر سكانها إلى بابل.

الآراميون

«الآراميون» شعب سامي استقر في منطقة الهلال الخصيب ثم في بلاد الشام حول حوران. وكان اسم الآراميين مقروناً باسم «الأخلامو» أي الرفاق أو الأحلاف باللغة العمورية القديمة. وتُعدُّ هجرة الخابيرو والآراميين جزءاً من حركة الأخلامو التي أعقبت هجرة العموريين والكنعانيين. وتقرر التوراة أن الآراميين ينتسبون إلى آرام بن سام بن نوح وأن ثمة صلة عميقة بينهم وبين العبرانيين. بدأ الآراميون يستقرون في منطقة الهلال الخصيب في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد وأسسوا عدة ممالك شرق نهر الفرات، كما بسطوا نفوذهم على الشام وسهل البقاع. وقامت إمارة أخرى عند منحنى الفرات وامتدت حتى نهر الخابور الذي يتفرع من الفرات ويتجه للشمال. ولإمارة حران مكانة ممتازة في التراث العبراني، فقد كثر ذكرها في العهد القديم، وذكر كُتَّاب التاريخ العبري أن أجدادهم كانوا من الآراميين وأنهم عاشوا في مدينة حران زمناً طويلاً قبل أن يستقروا في فلسطين. وقد استقر الآراميون في شمال وادي الرافدين وأسسوا سلسلة من الدويلات، وأسس الكلدانيون (وهم قبائل متصلة النسب بالآراميين) دولة بيت يكيني. وفي الغرب نشأت دولة آرامية، وقد دخلت تلك الممالك صراعاً مع الآشوريين والعبرانيين.

وعندما عاد الآشوريون للهجوم استولوا على الدويلات الآرامية فتحولت إلى دويلات آشورية تابعة. وقد استمرت الدويلات الآرامية في الهجوم على آشور ونجحت قبيلة كالدو (الكلدانيون في العهد القديم) في الثورة على الآشوريين ووفقت في الوصول للحكم متحالفة مع الميديين، وأسست الدولة البابلية الجديدة.

سوريا

كلمة «سوريا» مصطلح إقليمي يُستخدم للإشارة إلى منطقة مختلفة ليس لها حدود دقيقة، فأحياناً يُقصد بها كل من الشام ومصر، وأحياناً تشير فقط إلى شمال المنطقة فقط. وأحياناً كان المصطلح يسير إلى المنطقة المحيطة بدمشق وحدها. وقد كان البابليون يهاجمون سوريا دائماً لأنهم كانوا في حاجة إلى منفذ على البحر المتوسط.

وتُعدُّ «آرام دمشق» أهم مملكة آرامية في سوريا بين القرنين العاشر قبل الميلاد والثامن قبل الميلاد. وقد تألق نجمها في السياسة الدولية حيث كانت نداً للعبرانيين والآشوريين وبدأت تغير على أملاك كل منهما. وبحلول سنة ١٠٠٠ ق.م استولت آرام دمشق على إقليم سوريا الداخلي وعلى سوريا الشمالية. وخلال قرنين استمرت آرام دمشق تحارب العبرانيين وقد ورد ذكر ذلك كثيراً في العهد القديم.

أما «آرام نهرايم» فهي دويلة أسسها الآراميون شمال سوريا في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وحسب الرواية التوراتية فإن معظم الآباء اليهود أتوا من هذه المنطقة.

الكنعانيون

«كنعاني» صيغة نسب إلى «كنعان»، وهي كلمة حورية تعني «الصبغ القرمزي»، وهو الصبغ الذي كان الكنعانيون يصنعونه ويتاجرون فيه. والكنعانيون حسب العهد القديم نسل كنعان بن حام بن نوح. وقد وصفهم العهد القديم بأنهم حاميون رغم أنهم ساميون ولغتهم سامية. وربما كان ذلك لتبرير الحروب التي نشبت بينهم وبين العبرانيين.

وقد هاجر الكنعانيون من شبه الجزيرة العربية أو الصحراء السورية في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد في شكل هجرات مكثفة، وهم ثاني جماعة سامية بعد العموريين تلعب دوراً مهمّاً في تاريخ سوريا وأرض كنعان. ويرتبط تاريخ الكنعانيين إلى حدٍّ كبير بالتاريخ المصري، ففي الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٥-١٧٨٦ ق.م) ضمت مصر أرض كنعان فعمها الرخاء عن طريق الاتجار مع وادي النيل. وفي أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد غزا الحوريون أرض كنعان، وجمعوا أعداداً كبيرة من المرتزقة الكنعانيين والعبرانيين، وهذه الجماعة هي التي تسمَّى «الهكسوس» الذين احتلوا مصر إلى أن طردهم أحمس عام ١٥٧٠ ق.م. ومرةً أخرى ضم تحتمس أرض كنعان إلى مصر (١٥٠-١٤٥٠ ق.م). ومع ضعف الدولة المركزية في مصر في عصر إخناتون تمكَّن الخابيرو من التسلل إلى كنعان. ومع قيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠-١٢٠٠ ق.م) عادت إلى ضم كنعان، وفي هذه الفترة بدأ التسلل العبراني في كنعان (١٢٥٠-١٢٠٠ ق.م) فاختلط العبرانيون بسكانها من الكنعانيين واكتسبوا ثقافتهم. ونتيجة هذا اتبعوا الكثير من عاداتهم وتعلموا منهم الزراعة واتخذوا لغتهم لغةً لهم، والموسيقى التي عزفها داود وسليمان كنعانية، والشعر العبري متأثر بالشعر الكنعاني، وكذلك تصميم الهيكل كنعاني الأصل.

ويروج الصهاينة مقولة أن الكنعانيين أُبيدوا تماماً على يد العبرانيين أو ذابو فيهم، ويرفضون الإقرار بأنهم تعلَّموا منهم وتأثَّروا بهم. وفي إسرائيل حركة تسمَّى الحركة الكنعانية تعترف بالتأثير الكنعاني في الثقافة العبرانية وتُرتب على ذلك برنامجاً سياسيا يختلف إلى حدٍّ ما عن الأفكار الصهيونية المعروفة.

الفينيقيون

«فينيقي» كلمة يونانية تعني «الصبغ الأراجواني» أو «كنعان» بالحورية. وحوالي عام ١٢٠ ق.م صارت كلمة «فينيقي» مرادفة لكلمة «كنعاني»، وهو ما يعني أن الفينيقيين ساميون. وينطبق الاسم أساساً على المدن/ الدول التي تركزت شمالاً على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وعند سفوح جبال لبنان للاحتماء بها. وقد سيطر المصريون على فينيقيا عقب طرد الهكسوس (١٥٠ ق.م) حتى عهد رمسيس الثاني، بينما كان الحيثيون يسيطرون على المدن الشمالية، ثم حصل الفينيقيون على الاستقلال الكامل. وقد ارتبط الفينيقيون بعلاقة وثيقة بالعبرانيين وتحالف حيرام ملك صور مع سليمان. وقبل الفتح العربي توالى على المدن الفينيقية: البابليون، والفرس، واليونانيون. وبعد الفتح العربي الإسلامي اكتسبت صبغة ثقافية عربية.

الحوريون

«الحوريون» أقوام جبلية مجهولة الأصل. ظهر الحوريون في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ولعبوا دوراً مهماً في الألف الثاني، هاجروا إلى فلسطين وأسسوا عدداً من الإمارات في أجزاء من سوريا وفلسطين. اصطدم الحوريون بالمصريين عند طرد الهكسوس وشهدت العلاقة بينهما حالة من الشد والجذب. وقد جاء في التوراة أن الحوريين اشتبكوا مع العموريين والكنعانيين وبعد ذلك طردهم الأدوميون. وقد ورد ذكر الحوريين في العهد القديم كشعب من الشعوب التي كانت تقيم في كنعان. وقد اختفى الحوريون في القرن السادس قبل الميلاد.

الفلستيون (شعوب البحر)

«شعوب البحر» تعبير يُطلق على مجموعة من الشعوب من البحارة هاجموا الأناضول وسوريا وفلسطين وقبرص ومصر حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. ويبدو أنهم أتوا من مناطق عديدة: اليونان والأناضول وصقلية وكريت. ويُعدُّ الفلستيون الذين استقروا في فلسطين منذ الألف الثاني قبل الميلاد من هذا الأصل. والفلستيون قبائل استوطنت شاطئ فلسطين الجنوبي الغربي. جاء الفلستيون من بحر إيجة حوالي عام ١١٩٤ ق.م. وتدل آثارهم على أنهم يونانيون. وقد سميت المنطقة التي احتلوها «فلستيا» وكانت تشمل خمسة مدن. اصطدم الفلستيون بالعبرانيين فهزموا القضاة واستولوا على أجزاء من المنطقة التي أصبحت فيما بعد المملكة الجنوبية.

ولم يكن لدى الفلستيين الموارد البشرية الكافية للهيمنة على المنطقة ولذا اضطروا للإبقاء على العبرانيين ليستغلوهم. وفي القرن السابع قبل الميلاد خضع الفلستيون لسلطان آشور ثم لسلطان مصر، ثم الإمبراطورية البابلية الجديدة فاختلطوا بالشعوب السامية المحيطة

بهم. وقد اندثرت كل الآثار الفلستية تماماً. ومن الجدير بالذكر أن المملكة العبرانية المتحدة لم تضم في أي وقت من تاريخها الشريط الساحلي الفلستي، ولكن المشروع الصهيوني يتحدث عن دولة تضم هذا الساحل، وهو ما يؤكد أن المشروع حدوده المطامع الاستعمارية لا الاعتبارات الدينية. وفلسطينيو اليوم لا علاقة لهم بشعوب البحر اليونانية، فهم ينتمون للأمة العربية. وتجتهد الدعاية الصهيونية في تزييف هذه الحقائق وتستخدم الأسطورة في التضليل لتصوُّر الصراع مع الفلسطينيين بوصفه امتداداً للصراع مع الفلستيين. ويستخدم لفظ «فلستين» في الإنجليزية لوصف الإنسان ضيق الأفق الذي يهتم بالاعتبارات التجارية وحسب.

جليات

«جليات» اسم أحد أبطال الفلستيين، وكان من جبابرتهم. بلغ طوله أكثر من تسعة أقدام، وثمة رواية تقول إن داود قتله. وقد نجحت الدعاية الصهيونية في ترسيخ صورة داود رمزاً لإسرائيل الذي يستخدم ذكاءه لهزيمة عدوه، مقابل صورة جليات رمزاً للعربي الذي يتسم بالضخامة ولا يستخدم عقله فيُهزم. لكن الانتفاضة غيَّرت هذه الفكرة، فالمنتفضون يستخدمون الحجارة في مواجهة آلة عسكرية صهيونية ضخمة.

٤ ـ العبرانيون

العبرانيون (تاريخ)

مصطلح «عبراني» أو «عبري» يدل على معان كثيرة. والعبرانيون مجموعة سكانية يعود أصلها إلى جزيرة العرب، استقرت في منطقة الهلال الخصيب وفلسطين. ومن الشعوب التي تناسلت منها القبيلة التي جاء منها إبراهيم ونسله. وقد سُمي أفرادها «العبرانيون». دخل العبرانيون أرض كنعان نتيجة ثلاث هجرات غير محددة. بدأت موجة الهجرة الأولى من بلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكانت معاصرة لانتشار الهكسوس. الهجرة الثانية كانت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهاتان الهجرتان توافقان فترة الآباء (٢١٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م.) وتمتد من هجرة إبراهيم من بلاد الرافدين حتى هجرة يوسف إلى مصر. أما الهجرة الثالثة فكانت من مصر بقيادة موسى ويشوع بن نون في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد كما يقول بعض المؤرخين. وبعد موت موسى حدثت عملية التسلل العبراني إلى أرض كنعان (نحو ١٢٥٠ ق. م.) التي كانت تغص بالقبائل الكنعانية السامية. وبعد صراع مع الكنعانيين استقر العبرانيون في بعض الجيوب غير المتصلة.

وتبع ذلك عصر اتحاد القبائل (عصر الملوك) فظهرت المملكة العبرانية المتحدة في عهد داود وسليمان، وكان اتحاداً مؤقتاً انحلَّ فور موت سليمان (٩٢٨ ق. م.). وانقسمت المملكة إلى مملكة شمالية وأخرى جنوبية. وقد ظلت المملكتان في حالة حرب شبه دائمة حتى تم القضاء عليهما، لينتهي تاريخ العبرانيين. وبسبب افتقار العبرانيين إلى هُوية حضارية محددة، ولوجودهم في موقع إستراتيجي مهم، كانت كل القوى العظمى تطمع في الاستيلاء عليه، وقد تعرضوا لصدمات عديدة أهمها التهجير الآشوري (٧٢١ ق. م.) والتهجير البابلي (٥٨٧ ق. م.)، كما فُرضت عليهم الهيمنة الفارسية واليونانية والرومانية، وبعد التهجير البابلي بدأ انتشار الجماعات اليهودية بعيداً عن كنعان.

الخابيرو وعبيرو

«خابيرو» كلمة أكادية ذات دلالات متعددة وأحياناً متناقضة، تُطلق على قبائل رُحَّل من البدو. ورد أول ذكر للكلمة في النقوش المصرية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد لتعني «العابر» و«المتجول»، و«البدوي». كما تم استخدامها للإشارة إلى القبائل التي كانت قديماً تهاجم بلاد الرافدين وحدود مصر، وكانت تُغير على أرض كنعان من آن لآخر فتشيع فيها الفوضى. ومن دلالات الكلمة أيضاً «الجنديّ المرتزق»، فهي إذن تُطلق على أية جماعة من الرُحل أو الغرباء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش مقابل أجر وبدافع الحصول على الغنائم. والكلمة ذات مدلول عرْقي (الغرباء) ولها في الوقت نفسه مدلول اجتماعي طبقي وظيفي.

وإذا كانت الكلمة غامضة في معناها، فإن الأمر لا يختلف بالنسبة للخابيرو أنفسهم، إذ لا يُعرف الكثير عن أصلهم العرْقي. وكل ما يمكن أن يقال عنهم إنهم ساميون لا يتميزون تميُّزاً واضحاً، ولا يختلفون كثيراً عن غيرهم من الساميين عندما كانوا في مرحلة التجوال. وقد ظهروا ضمن القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية، وإن كان بعض الباحثين يرى أنهم لم يكونوا ساميين بل جماعات مهاجرة عاشت حياتها متجولة لتبيع خدماتها لأية أمة في المنطقة، وأنهم تزاوجوا واختلطوا بغيرهم من الأجناس. وبعض

الباحثين يقرن بين الخابيرو والعبرانيين اعتماداً على التشابه الصوتي بين الكلمتين، ويبرهنون على ذلك بالإشارة إلى عادات وتقاليد وردت في أسفار موسى الخمسة لا علاقة لها بالحضارة السامية.

أما كلمة «عبيرو» فترد في المدوَّنات المصرية القديمة في الفترة بين منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ومعناها «عبد». وتشير الكلمة إلى العمال الذين استخدموا في السخرة. وفي نصب تذكاري أقامه أمنحوتب الثاني يشير إلى أنه أسر ثلاثة آلاف وستمائة من الـ«عبيرو» أثناء غزوة قام بها في كنعان. ويقرن بعض المؤرخين هذه الكلمة بكلمة «خابيرو» التي توجد في المدونات الأكادية، وهي بدورها تُقرن بالعبرانيين لأن الأكادية تخلط بين العين والخاء، وفي بعض الفترات كانت تخلو من حرف العين. لكن هذا غير مؤكد، كما أن المجال الدلالي لكلمتي «عبيرو» و«خابيرو» أوسع بكثير من المجال الدلالي لكلمة «عبراني».

جبل سيناء

«سيناء» جبل يقع في شبه جزيرة سيناء، ويسمَّى في العهد القديم «حوريب». وجاء في سفر الخروج أن اليهود ضربوا خيامهم عند سفحه بعد خروجهم من مصر، بينما صعد موسى إلى قمته وتسلَّم الوصايا العشر. ولا يُعرف أي الجبال في سيناء هو الجبل المقصود. ويُعد جبل سيناء وجبل صهيون الجبلين المقدسين اللذين يرتكز عليهما العالم روحيا في الرؤية الدينية اليهودية. وشبه جزيرة سيناء تقع شمال شرقي مصر، واسمها مشتق من اسم إله القمر «سين» معبود أهل شبه جزيرة العرب. وسيناء هي البرية التي عبرها إبراهيم ويعقوب عندما نزلا إلى مصر، وعبرها العبرانيون عند خروجهم أو هجرتهم من مصر ودخولهم كنعان. وحينما ترد كلمة «سيناء» في العهد القديم لا تشير إلى شبه الجزيرة كلها وإنما إلى جزء منها، كما ترد الإشارة إلى «برية سيناء» وهي الجزء المحيط بجبل سيناء.

فلسطين وأرض كنعان

«فلسطين» هو الاسم الذي يُطلق في الوقت الحاضر على المنطقة الواقعة غربي نهر الأردن الممتدة حتى لبنان وسوريا شمالاً والبحر المتوسط وسيناء غرباً. وقد سُميت المنطقة بأسماء عديدة منها: «البلاد الأجنبية» ثم «حور» ثم «كنعان». وأول ذكر لاسم «كنعان» في القرن الخامس عشر قبل الميلاد كما ظهر في تل العمارنة. وكان المصريون القدماء يشيرون أيضاً إلى «بالاستو» أي «فلستيا» التي اشتق اسمها من أحد شعوب البحر وهم الفلستيون. وأول مرة يرد فيها ذكر فلسطين في الوثائق المصرية كان عام ٧٥ ق.م. وبدءاً من ١٣٨ ميلادية استخدم الرومان كلمة «بالستينا» للإشارة إلى هذه المنطقة بشكل رسمي. وفي الكتابات الدينية اليهودية وفي اللغة العبرية يشار إلى فلسطين بأسماء «إرتس يسرائيل» و«صهيون» و«أرض الميعاد»، أما في الكتابات غير الدينية فيشار إليها باسم فلسطين. وقد كان يشار للمنطقة المذكورة باسم فلسطين. وفي عام ١٩٤٨، مع قيام الدولة الصهيونية تغيَّر اسم المنطقة إلى «إسرائيل» كما يحدث عادةً مع الدول الاستيطانية.

أما «أرض كنعان» فتعني «الأرض المنخفضة»، وهي مشتقة من «قنَع» أو «خنَع» لاختلافها عن مرتفعات لبنان، و«القنع» في العربية أرض سهلة بين رمال تُنبت الشجر، وهذا الاشتقاق أصبح مشكوكاً فيه. والأقرب إلى الصواب أن «كنعان» مشتق من الأصل الحوري «كناجي» بمعنى الصبغ الأرجواني الذي أصبح «كنعان» بالعبرية أي بلاد الأرجوان. وبعد عام ٢٠٠ أصبحت كلمة «فينيقي» وهي كلمة يونانية تعني أيضاً «الأحمر الأرجواني»، مرادفة لكلمة «كنعاني». وقد استُخدم اسم كنعان في أول الأمر للدلالة على غربي فلسطين ثم أصبح علماً على ما هو متعارف عليه باسم فلسطين وعلى قسم كبير من سوريا.

وأرض كنعان هي التي وعد الرب بها نسل إبراهيم، حسبما جاء في سفر التكوين. وقد تسلَّل العبرانيون إلى أرض كنعان بعد خروجهم أو هجرتهم من مصر. ويرتبط تاريخ كنعان بالتاريخ المصري إلى حدٍّ كبير، فقد ضمتها إليها عدة مرات في التاريخ القديم. وأخذ الوجود العبراني فيها شكل جيوب وحسب، إذ أن وجود الشعوب الأخرى فيها ظل مستمراً على المستويين: الحضاري والثقافي. وتُطلق الأدبيات اليهودية على كنعان اسم «إرتس يسرائيل»، وهي أيضاً في هذه الأدبيات «صهيون».

يهودا (مقاطعة)

تستخدم كلمة «يهودا» للإشارة إلى نصيب قبيلة يهودا من الأرض، ويمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الميت، وكانت القدس خارج أرض يهودا. كما تستخدم كلمة «يهودا» للإشارة إلى المملكة الجنوبية. وقد أطلقت الكلمتان «يهود» الفارسية، ثم «يوديا» الرومانية على المملكة الجنوبية. ومنذ عام ١٣٥م اختفى الاسم بصيغتيه العبرية والرومانية، وأصبح يُطلق على المنطقة بأقسامها كافة اسم «بالستينا».

وإبان الحكم الروماني كان يُطلق على القسم الجنوبي من فلسطين اسم «جوديا» وتمتد حدودها الشمالية من يافا على ساحل البحر المتوسط إلى نقطة الأردن التي تبعُد عشرة أميال إلى الشمال من البحر الميت. وتمتد حدودها الجنوبية من وادي غزة على بُعد سبعة أميال إلى الجنوب الغربي من غزة إلى بئر سبع ثم إلى القسم الجنوبي من البحر الميت. وكان طولها من الشرق إلى الغرب نحو ٥٥ ميلاً تقريباً ومن الشمال إلى الجنوب نحو ٥٥ ميلاً. وقد استخدم مصطلح «يهود» الفارسي للمرة الأولى في سفر عزرا (٥/٨) للإشارة إلى تلك الرقعة الصغيرة المحيطة بالقدس، وكانت ولاية تابعة لها ثم للبطالمة والسلوقيين.

وتجب ملاحظة أن المصطلح كان يستخدم أحياناً بالمعنى السياسي لا الجغرافي، ليشير إلى بقعة أكثر اتساعاً. ولمواجهة فوضى المصطلحات نستخدم كلمة «يهودا» ونقرنها باسم الإمبراطورية الحاكمة، فنقول «يهودا السلوقية» أو «يهودا الرومانية» ما لم تكن النسبة واضحة من السياق نفسه. ونحن بهذا نفرِّق بين يهودا وفلسطين فيهودا ليست سوى جزء من فلسطين.

السامرة

«السامرة» عاصمة المملكة الشمالية، تقع على بُعد ثلاثين ميلاً شمال القدس. وأحياناً تُطلق كلمة «السامرة» على المملكة كلها. أُسست المدينة عام ٨٨٠ ق.م. وبسبب موقعها الحصين وإطلالها على طريقين رئيسيين للتجارة أصبحت عاصمة المملكة الشمالية. ويُطلق الصهاينة الآن مصطلح «يهودا والسامرة» على الضفة الغربية لتبرير احتلالها.

القدس

«القدس» تقابلها في العبرية كلمة «يروشالايم»، وقد وردت الكلمة بهذه الصيغة في العهد القديم أكثر من ستمائة وثمانين مرة. وفي كتابات مصرية يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد وردت الكلمة بشكل «روشاليموم». ووردت في مراسلات تل العمارنة بشكل «أوروسالم»، وأشير إليها في الكتابات الآشورية بشكل «أوروسليمو»، أما في الكتابات اليونانية في القرن الرابع فسميِّت «هيروسوليما». والاسم اللاتيني «جروسالم» جاء مشتقاً بشكل واضح من الاسم الكنعاني للمدينة. وذكر ياقوت المدينة باسم «أورشلين» و«أوريسلم» و«أورسلم». وشار إليها أيضاً باسم «يبوس» نسبة إلى سكانها اليبوسيين العرب. وقد بنى فيها اليبوسيون قلعة سميِّت «قلعة يبوس» ثم أُطلق عليها فيما بعد «حصن صهيون».

وتطلق التوراة على المدينة أسماء عديدة إلى جانب «يروشالايم» منها: «شاليم» و«مدينة الإله» و«مدينة العدل» و«مدينة السلام» و«مدينة الحق» وغيرها. وعندما استولى داود على المدينة حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م. لم يجد اسماً خاصاً يطلق عليها فسماها «مدينة داود»، ولكنها عادت بعد ذلك إلى الاسم القديم. وفي عام ١٣٥ دمر الإمبراطور الروماني هادريانوس المدينة وغيَّر اسمها إلى «إيليا كابيتولينا»، وفي القرن الرابع أعاد إليها الإمبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية اسمها القديم «أورشليم». ويبدو أن اسم «إيليا» ظل متداولاً بدليل وروده في عهد الأمان الذي منحه عمر بن الخطاب لسكان المدينة عام ٦٣٨. وفي العصور التالية سميِّت المدينة «بيت المقدس» و«القدس الشريف».

ويسبق وجود مدينة القدس الوجود العبراني في فلسطين بعشرات القرون، واستمرت بعدها بعشرات القرون الأخرى. فقد كانت مركزاً للحضارة الكنعانية، حيث كان اليبوسيون أول من أقام فيها مُلكاً، واتخذوا فيها هياكل لآلهتهم، واعتبروها مدينة مقدَّسة حيث أُقيمت فيها العبادات عند الصخرة المقدَّسة في عصور سحيقة في القدم. فالمدينة إذن كانت مقدَّسة من قَبْل إبراهيم الذي يعود زمنه الافتراضي إلى نحو ١٩٠٠ ق.م. وقد كتب حاكمها اليبوسي عام ١٥٥٠ ق.م يستنجد بفرعون مصر من غارات الخابيرو. وأصبحت المدينة خاضعة لنفوذ مصر في عهد تحتمس الثالث عام ١٤٧٩ ق.م، ولم يستول عليها داود (الذي حَوَّلها إلى عاصمة المملكة اليهودية المتحدة) إلا عام ١٠٤٩ ق.م، أي بعد مرور مدة طويلة من سكنى العبرانيين في كنعان. وبعد وفاة سليمان، أصبحت أورشليم عاصمة المملكة الجنوبية وحسب. أما المملكة الشمالية، فكانت عاصمتها شكيم (نابلس).

وقد هاجمها ملوك المملكة الشمالية عدة مرات، ودكَّ الملك يوآش حوائطها عام ٧٨٥ ق.م. واستولى فرعون مصر (الليبي) شيشاق (شيشنق) عليها بين عامي ٩٢٠ و٩٣٥ ق.م، وخَرَّب المدينة وحَمَل كنوز الهيكل والقصر غنائم حرب. وسقطت القدس في يد الآشوريين عام ٧٢٠ ثم عام ٦٧٨ ق.م، ودكَّ نبوختنصر أسوارها عام ٥٨٦ ق.م، ثم استولى الفرس عليها عام ٥٣٨ ق.م، واحتلها الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م حيث تأرجحت السيطرة على أورشليم في عهد خلفائه من البطالمة والسلوقيين. وقد حاول الكاهن الأعظم ياسون أن يُغيِّر طابعها ويؤغرقها تماماً ويحوِّلها إلى مدينة

يونانية تُسمَّى «أنطاكية» فأسس فيها جيمانزيوم. واندلع التمرد الحشموني في القدس، فاستولى الحشمونيون عليها عام ١٣٥ ق. م. ودخل القائد الروماني بومبي القدس عام ٦٣ ق. م. وبعد اندلاع التمرد اليهودي الأول ضد الرومان، استولى تيتوس على القدس وهدم الهيكل عام ٧٠م. وبعد التمرد الثاني (١٣٢-١٣٥)، دمَّرها الرومان وأُسِّست مكانها مستعمرة رومانية سُمِّيت «إيليا كابيتولينا» حُرِّم على اليهود دخولها.

وبعد اعتناق قسطنطين المسيحية، أصبحت القدس مدينة مسيحية، وظلت كذلك حتى عام ٦٣٧ (باستثناء الفترة بين عامي ٦١٤ و٦٢٨ حين سقطت في يد الفرس)، حين فتحها العرب حيث سُمِّيت باسمها الحالي «القدس» أو «بيت المقدس».

ونظراً لارتباطها في وجدان المسلمين برحلة إسراء النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، وعروجه منه إلى حيث سدرة المنتهى، حرص عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين على فتح المدينة، وقد وافق رجال الدين المسيحي على تسليم مفاتيح المدينة للمسلمين شريطة أن يتسلمها الخليفة بنفسه. فسافر عمر بنفسه وتسلَّم المفاتيح وكانت المدينة الوحيدة التي تسلَّم مفاتيحها بنفسه.

ومنذ الفتح الإسلامي، أصبحت القدس حاضرة إسلامية تعاقبت عليها دول الخلافة. فكانت بيعة خلفاء الأمويين تتم ببيت المقْدس، وهم الذين شجعوا حركة العلم والإعمار بها، وخلفهم في ذلك العباسيون، وكان للفاطميين والسلاجقة في المدينة أيد وعلامات كثيرة. وقد ظلت المدينة إسلامية الطابع حتى عام ١٠٩٩ حين حاصرها الفرنجة وسقطت في أيديهم. ولما فتح صلاح الدين المدينة عام ١١٨٧، ازداد عدد أعضاء الجماعة اليهودية سريعاً. لكن أحد علماء اليهود كتب يقول إنه لم يجد فيها، بعد خمسين عاماً من ذلك التاريخ، إلا عدداً صغيراً من اليهود، وذلك لأن سكان القدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين. وبعد الأيوبيين تحمَّل المماليك عبء استكمال إنهاء غارات الفرنجة والتتار عليها ثم استلامها وإعمارها وترميم آثارها العظيمة ومنها بيت المقْدس الذي كاد أن يتهدم لولا تدخُّل الظاهر بيبرس. وقد أصبحت القدس تابعة للدولة العثمانية عام ١٥١٦م، وفي عهد سليمان القانوني أُعيد تأسيس أسوار المدينة (عام ١٥٣٨-١٥٣٩). وهكذا يتضح أن القدس، في أصلها وفي معظم تاريخها، لم تكن مدينة يهودية. بل إن عدد أعضاء الجماعة اليهودية الإسكندرية، في القرن الأول قبل الميلاد، كان يفوق عدد سكان القدس، وذلك قبل سقوط الهيكل.

وفي العصر الحديث وقعت المدينة (وكل فلسطين عام ١٩١٧) في قبضة الاستعمار الإنجليزي، وبدأ الاستيطان الصهيوني تحت مظلة هذا الاستعمار إلى أن قامت دولة إسرائيل، فتم تقسيم القدس عام ١٩٤٨ إلى القسم الغربي (التابع لإسرائيل) الذي فُرِّغ من معظم سكانه (حوالي ٣٠ ألفاً) والقسم الشرقي (التابع للأردن) وأعلنت إسرائيل القدس (الغربية) عاصمةً لها في ٢٣ يناير ١٩٥٠. وفي يونيه ١٩٦٧ احتلت إسرائيل القدس الشرقية فيما يُسمَّى في المصطلح الإسرائيلي «تحرير» القدس و«توحيدها» وأعلن أن القدس ستبقى موحَّدة إلى الأبد وتحت السيادة الإسرائيلية.

وللقدس أهميتها في الوجدان الديني عند المسلمين والمسيحيين واليهود، وهو ما يجعلها من أهم المراكز الروحية. وقد بقي للقدس مكانة في الوجدان المسيحي، إذ كانت فلسطين تُعدُّ الوطن المقدس الذي ورَّثه المسيح لأبنائه المسيحيين. وكانت القدس تُوصف بأنها «مدينة العهد الجديد المقدَّسة»، ولم تتضاءل أهميتها كمدينة مقدسة إلا بعد عام ٥٩٠ حين أصبح لروما الحظوة على القدس، وأصبح أسقف القدس يحل في المرتبة الخامسة في السلسلة الهرمية للكهنوت الكاثوليكي. وقد بقيت الرحلة للأرض المقدَّسة مطمح كل مسيحي في العصور الوسطى. ولا تزال للقدس مكانتها الخاصة في الوجدان المسيحي رغم تراجع أهمية الحج بالنسبة للمسيحيين الغربيين. وأهم الآثار المسيحية في القدس كنيسة القيامة والكنائس المقامة على طريق الآلام.

أما بالنسبة للمسلمين فيرجع الاهتمام بالقدس إلى كونها غاية مسرى النبي صلى الله عليه وسلم وأرض المعراج، ولكونها مقدسة بنص سورة الإسراء، وبها أولى القبلتين وثالث الحرمين. وهناك أحاديث شريفة كثيرة تبين أهمية القدس عند المسلمين. وقد اهتم بها الحكام والخلفاء المسلمون وأنشئت فيها المساجد والمقابر والزوايا والتكايا والمدارس والأسبلة. ومن أهم الآثار الإسلامية في المدينة الحرم القدسي الذي يضم مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

وتشغل القدس («أورشليم» في المصطلح الديني) مكاناً مركزيا في الوجدان اليهودي. فبعد أن استولى عليها داود نُقل إليها تابوت العهد ثم بنى سليمان فيها الهيكل. وفي الموروث الديني يُطلق على المدينة اسم «صهيون»، أما الشعب فهو «بنت صهيون». وتضم المدينة جبل صهيون وقبر داود وحائط المبكى. وقد أحاط التشريع اليهودي والتراث الأجادي مدينة القدس بكثير من القوانين والأساطير. وتحرِّم اليهودية الحاخامية العودة إلى فلسطين (إرتس يسرائيل) ومن ثَمَّ القدس، إلا في آخر الأيام. وفي العصر الحديث أحجم أحد كبار الحاخامات عن زيارة القدس وقطع رحلته وهو في الطريق إليها،

خوفاً من أن يستغل الصهاينة رحلته وتصبح قبولاً لمبدأ العودة بالمفهوم الصهيوني.

وللقدس مكانة مهمة جغرافيا، فهي تقع على تقاطع الطرق التي تربط العالم القديم بقاراته الثلاث، وهو ما جعلها شأنها شأن فلسطين كلها هدفاً لجميع القوى الدولية على مر العصور.

وقد تعرضت القدس منذ احتلالها عام ١٩٦٧ لعملية تهويد، و«التهويد» هو نزع الطابع الإسلامي والمسيحي عن القدس وفرض الطابع الذي يسمَّى «يهودياً» عليها. وتهويد القدس جزء من عملية تهويد فلسطين ككل، بدءاً من تغيير اسمها إلى «إرتس يسرائيل»، مروراً بتزييف تاريخها، وانتهاءً بهدم القرى العربية وإقامة المستوطنات. وقد بدأت عملية التهويد منذ عام ١٩٤٨ وزادت حدتها واتسع نطاقها منذ يونيو ١٩٦٧. وقد ارتكزت السياسة الإسرائيلية على محاولة تغيير طابع المدينة السكاني والمعماري بشكل بنيوي، فاستولت السلطات الإسرائيلية على معظم الأبنية الكبيرة في المدينة، واتبعت أسلوب نسف المنشآت وإزالتها لتحل محلها أخرى يهودية، كما قامت بالاستيلاء على الأراضي التي يملكها عرب وطردتهم ووطنت صهاينة بدلاً منهم.

وقد أعلن بن جوريون في مجلس الشعب المؤقت (الكنيست فيما بعد) يوم ٢٤ يونيو ١٩٤٨ أن مسألة إلحاق القدس بإسرائيل ليست موضع نقاش وفي ٢٣ يناير ١٩٥٠ أعلنت القدس عاصمة لإسرائيل. وقد قامت السلطات الإسرائيلية بنقل وزاراتها إلى القدس (الغربية) وأنفقت موازنات كبيرة على تطويرها. وبعد أن كان الصهاينة لا يملكون سوى ١٨٪ فقط من الأرض قبل عام ١٩٤٨، أصبح الوجود العربي في هذا الجزء لا يُذكر وبخاصة مع طرد ٣٠ ألف فلسطيني من القدس الغربية نفسها و٤٠ ألفاً آخرين من القرى المجاورة. وعندما نشبت حرب ١٩٦٧ اجتاحت القوات الإسرائيلية المدينة بأكملها، وفي يونيو ١٩٦٧ صدر قانون يسري بموجبه قانون الدولة على القدس، وبصدور قرار ضم القدس في ٣٠ يوليو ١٩٨٠ تكرست السيطرة القانونية الإسرائيلية، وهو قانون أساسي يعتبر القدس الكاملة الموحدة عاصمة لإسرائيل.

وقد امتد التهويد إلى القضاء النظامي والشرعي والتعليم والأوضاع التجارية ثم تم تغيير أسماء الشوارع والطرق والساحات إلى أسماء صهيونية. وقد قامت السلطات الإسرائيلية بالعمل بشكل منظم من خلال مخطط ضخم لتهويد المدينة، فتم تشريد حوالي ٦٠ ألف فلسطيني وأصبحت ممتلكاتهم وأراضيهم، وفقاً لقانون أملاك الغائبين، عرضة لعمليات استيلاء متواصلة.

واستولت السلطات الإسرائيلية على أراضي تُقدَّر في مجموعها بحوالي ٤٠٪ من مساحة القدس المحتلة في عام ١٩٦٧ وأقامت عليها مختلف أنواع المنشآت، فأصبح عدد اليهود فيها في نهاية السبعينات ١٩ ألف يهودي. واستمر مسلسل الاستيلاء على الأراضي فكان الفلسطينيون يملكون عام ١٩٩٥ حوالي٢١٪ من أراضي القدس، وهي نسبة إذا حذفت منها الأراضي الوعرة غير الصالحة للاستغلال يصبح ما يملكونه بالفعل ٤٪ فقط من مساحة القدس. وحسب إحصاء عام ١٩٩٣ يبلغ عدد سكان القدس ٥٥٥ ألف نسمة منهم ٥٥ ألف فلسطيني مقابل ٤٠٠ ألف إسرائيلي، وهم يحصلون على ٥٪ فقط من موازنة بلدية القدس.

ولم تسلم آثار المدينة من عملية التهويد من خلال محاولة التخلص من الآثار الإسلامية بالهدم أو بالتهويد من خلال نسبتها لما يسمَّى «التاريخ اليهودي». ومن أهم الآثار التي تستهدفها عملية التدمير المسجد الأقصى، حيث يبقى وجوده تعبيراً عن عقيدة وهوية وتاريخ. وقد استطاعت إسرائيل في اتفاقها مع منظمة التحرير الفلسطينية في إعلان المبادئ الإسرائيلي الفلسطيني الصادر في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ تأجيل بحث موضوع القدس إلى ما بعد عامين من الحكم الذاتي الفلسطيني.

٥ ـ عصر الآباء والقضاة

عصر الآباء (المرحلة البطريركية) (٢١٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م)

يُشار للآباء أحياناً بأنهم «البطارقة» وهي من الكلمة الإنجليزية «باتريارك»، وهي من اليونانية «باترياركا» («باتر» بمعنى «أب»، و«باتريا» بمعنى «عائلة»، و«أركين» بمعنى «يحكم»). وتشير كلمة «الآباء» في الكتب اليهودية إلى آباء اليهود: إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم الذين تلقوا وعوداً إلهية بأن تكون أرض فلسطين من نصيبهم، كما تشمل الكلمة أحياناً موسى وهارون بل آدم ونوحاً. وهؤلاء، رغم تلقِّيهم هذه الوعود، ولا يُعدُّون أنبياء في التراث اليهودي. ولقب «آباء» يعني أنهم كانوا بمنزلة رؤساء وشيوخ قبائلهم يرتبطون معها برباط الدم والنسب والعِرْق.

تبدأ فترة الآباء مع ظهور أول شَخص يوصف بأنه عبراني، أي إبراهيم. ويمكن تحديد بعض السمات الأساسية لهذه الفترة، إذ يبدو أن العبرانيين كانوا أساساً شعباً رعوياً متجولاً يقيم خيامه على حواف المدن الكنعانية، وثمة نظرية أخرى تقول إنهم لم يكونوا رعاة وإنما

كانوا يعيشون من الأرباح التي يحققونها من التجارة، وأنهم كانوا يوجدون على طرق القوافل، وأنهم باعتبارهم شعباً متجولاً لم يكونوا منعزلين إثنياً. والخلفية الحضارية لفترة الآباء خلفية سامية سديمية، فمن أور الكلدانية أو حران انتقل إبراهيم إلى كنعان لشراء مقبرة، ثم استقر في مصر بعض الوقت، ثم خرج منها. وكذا خرج يعقوب إلى مصر واستقر فيها هو وأبناؤه، ثم خرجوا مرةً أخرى إلى كنعان واستقروا مع القبائل العبرانية التي لم تكن قد غادرتها. وثمة روابط كثيرة تربط الآباء بالآراميين والمصريين.

وبعد موسى تصل فترة الآباء نهايتها، ومع وصول التغلغل العبراني في أرض كنعان نهايته، استقر العبرانيون على شكل جيوب غير متصلة جغرافياً تحيط بها الشعوب الأصلية، فعلى سبيل المثال ظلت القدس يبوسية حتى عهد داود وتزامن استيطان العبرانيين في فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد مع حركات استيطانية أخرى، إذ استوطن العموريون في شرق الأردن، والآراميون في سوريا، وشعوب البحر على ساحل فلسطين الجنوبي. ورغم انفتاح العبرانيين النسبي في فترة الآباء واستفادتهم من الشعوب الأخرى، يُلاحظ أن ثمة موضوعين أساسيين يؤكدهما محررو الأسفار بإلحاح: أن هذا الشعب المنحدر من هؤلاء الآباء سيصبح شعباً عظيماً (الشعب المختار)، وأن أرض كنعان (فلسطين-إرتس يسرائيل) هي أرضه (الأرض المقدسة). ويمكن تصوُّر أن هذه المفاهيم الدينية قد تطورت في فترة لاحقة، ولكن محرري التوراة نسبوها إلى الآباء لفرض نوع من الوحدة الفكرية على العهد القديم، وحتى يصبح التاريخ وحدة متكاملة يرعاه إله يسرائيل.

إبراهيم

«إبراهيم» أول الآباء، أبو إسماعيل وإسحق، وهو أيضاً- حسب الرواية التوراتية-أبو الشعب اليهودي. ويُستدل من قصص التوراة ومن بعض الوثائق التاريخية، على أن إبراهيم ظهر نحو عام ١٨٥٠ ق.م ويرى بعض المؤرخين أنه عاش بعد ذلك التاريخ ودخل مصر في عصر الهكسوس. ومن ناحية أخرى يقال إنه نشأ في حران الحورية، وفي روايات أخرى نشأ في أور الكلدانية، ويقال كذلك إنه وُلد في أور ثم انتقل إلى حران. وحسب الرواية التوراتية تلقَّى إبراهيم في حران أول وعد إلهي بأن يخرج من صلبه شعب قوي، وأن يورِّث هذا الشعب أرض كنعان. ورحل إبراهيم مع زوجته وأبيه وابن أخيه لوط من أور إلى كنعان (فلسطين) حيث تلقَّى الوعد الإلهي للمرة الثانية حسب الرواية التوراتية. وبعد ذلك انتقل إبراهيم إلى مصر ثم عاد إلى كنعان حيث تأكد الوعد للمرة الثالثة. ثم تحوَّل إبراهيم إلى قائد عسكري فأنقذ لوطاً وهزم أربعة ملوك، وعند عودته باركه الملك الكاهن ملكي صادق ملك القدس.

ولبعض الفلاسفة رؤيتهم الخاصة لإبراهيم، ففي رأي موسى بن ميمون أن إبراهيم وصل أعلى درجات النبوة، مع استثناء موسى، وهو أول من توصَّل إلى الإيمان بالإله من خلال التأمل. أما يهودا اللاوي فيرى أن إبراهيم علامة على أن أعضاء جماعة يسرائيل لهم قوة إلهية تمكنهم من الدخول في حوار مع الرب، وقد انتقلت هذه القوة إلى موسى والأنبياء ومنهم للشعب اليهودي.

إسماعيل

«إسماعيل» أكبر أبناء إبراهيم من هاجر المصرية جارية سارة، سُمي بهذا الاسم بأمر من الإله، وتم تختينه وعمره ثلاثة عشر عاماً. وعد الإله إبراهيم بأن يجعل من نسل إسماعيل أمة كبيرة من اثنى عشر أميراً. ورغم أن إسماعيل كان الابن البكر لإبراهيم فإن سارة اضطهدت هاجر، حسب الرواية التوراتية، فهربت الأم وابنها إلى بئر سبع وكانا على وشك الهلاك من الظمأ حين أراها الإله بئر ماء ووعدها بأن ابنها إسماعيل سيصير أباً لأمة كبيرة. ويركز العهد القديم على أن دم إسماعيل ليس نقياً، فهو أولاً من أم مصرية، ثم إنه هو نفسه تزوج مصرية واندمج نسله مع المدينيين والمؤابيين الأمر الذي جعلهم خصوماً للعبرانيين على الدوام. وقد تم استبعاد إسماعيل من الميثاق الذي عُقد بين الخالق وإبراهيم والذي بموجبه ورث نسل إبراهيم أرض كنعان. ويُعتبر إسماعيل أبا العرب وكان يشار إليهم في الكتب الدينية اليهودية في العصور الوسطى باسم «الإسماعيليين». وصورة إسماعيل كرجل وحشي مُستبعد من الميثاق هي الصورة الكامنة وراء كثير من الادعاءات العنصرية الصهيونية تجاه العرب، والكامنة أيضاً وراء الموقف الصهيوني منهم.

إسحق

«إسحق» ابن إبراهيم، ثاني الأنبياء. والتسمية من كلمة «صحق» العبرية بمعنى «ضحك». وقد جاء في العهد القديم أن إبراهيم وسارة ضحكا حين أخبرهما ملاك الرب بأنهما سيُرزقان في شيخوختهما. وحسب الموروث الديني اليهودي ورث إسحق (وليس شقيقه البكر إسماعيل) العهد الإلهي. وكانت محنته الكبرى حين أمر الإله إبراهيم بأن يضحي به (وليس بإسماعيل). وأرسل إبراهيم خادمه ليأتي لإسحق بزوجة من أهله وعشيرته حتى لا يتزوج

كنعانية، وولدت له بعد عشرين عاماً توأمين هما عيسو ويعقوب. وقد ظهر له الإله في بئر سبع ووعده بأن يباركه. وليس لإسحق أهمية كبيرة في التراث الديني اليهودي على عكس أبيه إبراهيم وابنه يعقوب، ويرى بعض دارسي العهد القديم أن أهميته كانت أكثر بروزاً في نسخ العهد القديم التي فُقدت.

عيسو

«عيسو» الابن الأكبر لإسحق، توأم يعقوب. كان عيسو صياداً ماهراً وقد عاد ذات يوم من الصيد جائعاً ووجد أخاه يعقوب يطبخ عدساً، فباعه يعقوب صحن العدس ببكورته (أي حق الإرث باعتباره البكر). ولما شاخ إسحق، أراد أن يبارك عيسو ابنه المفضَّل، لكن زوجة إسحق ساعدت يعقوب على خداع أبيه، حيث استغلا عاهة الرجل العجوز، ونال يعقوب البركة. وقد تزوج عيسو امرأتين حيثيتين ثم تزوج ابنة إسماعيل. وسفر التكوين يركز على هذه الوقائع التي تدل على أن نسل عيسو فقد نقاءه العرْقي. استوطن عيسو سعير التي سُميت «بلاد أدوم»، ويُعدُّ عيسوَ أبا الأدوميين، وهو شعب كان العبرانيون يخافونه ويحتقرونه في آن واحد.

يعقوب

«يعقوب» ثالث آباء اليهود، ابن إسحق وجد اليهود الأعلى وتوأم عيسو الأصغر. و«عقب» بالعبرية تعني أمسك بكعب قدمه، ومن هنا كان اسمه. وتوجد قصتان أساسيتان في حياة يعقوب، أولاهما أنه عندما عاد عيسو من الصيد جائعاً متعباً وجد أخاه يعقوب قد أعد شيئاً من الطعام فسأله مما أعد فانتهز يعقوب الفرصة وباعه طعاماً نظير بكورته (أي أسبقيته في الولادة)، وبحكم الشريعة كان الابن الأكبر هو الذي يرث الزعامة بعد الأب. أما القصة الثانية فهي قصة البركة التي اغتصبها يعقوب، إذ كان إسحق في شيخوخته قد ضعف بصره، فاتفق يعقوب مع أمه رفقة على مغافلة الأب ليدعو له بدلاً من أخيه بأن يكون الأنبياء من ذريته. ورغم أخطائه وخداعه، فقد أراه الإله رؤيا مجيدة ووعده بأن يعطيه الأرض التي كان متغرباً فيها. وعندما استيقظ يعقوب سمى المكان «بيت إيل». ارتحل يعقوب نحو كنعان وفي الطريق صارعه شخص حتى طلوع الفجر وانخلعت فخذه، وقبل أن يطلقه باركه وقال له: "لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يسرائيل" وسمَّى يعقوب المكان فينئيل أي «وجه الإله» لأنه قال: "إني نظرت الإله وجهاً لوجه"، والقصة تشبه قصصاً مماثلة في الحضارات الوثنية مثل الحضارة اليونانية. ثم ظهر الإله مرة أخرى ليعقوب مؤكداً تغيير اسمه إلى يسرائيل ومجدداً العهد الذي أقامه مع إبراهيم. وقد وُلد ليعقوب اثنا عشر ولداً في آرام أصبحوا القبائل الاثنتى عشرة، وبذلك يكون يعقوب أبا اليهود الحقيقي الذي يتسمون باسمه.

وعندما حلت المجاعة بأرض كنعان، خرج يعقوب إلى مصر، هو وأولاده حسب إحدى الروايات، حيث كان يوسف قد هاجر من قبل، وعندما تحضر يعقوب الوفاة في مصر يستأذن يوسف فرعون ليدفن في مدينة حبرون (الخليل) في كنعان. وقد مجَّد الحاخامات يعقوب ووضعوه في مكانة تفوق حتى مكانة إبراهيم وإسحق، فكلاهما أنجب أشراراً (إسماعيل وعيسو).

يوسف

«يوسف» ابن يعقوب من راحيل وأحبُّ أولاده إليه. وردت قصته في سفر التكوين (٣٧/ ٥٠)، ويُطلق اسمه على إحدى القبائل العبرانية. حسده إخوته بسبب رؤيا بشرته بسيادته عليهم، فتآمروا عليه وألقوه في جُب، وحمله بعض أهل مدين إلى مصر وباعوه بيع الرقيق. اشتراه رئيس شرطة فرعون ووكَّله على بيته، واتهمته زوجته ظلماً فأُلقي في السجن سنوات. في السجن اكتسب ثقة السجان فولاه على جميع المسجونين. ذاعت شهرة يوسف مفسراً للأحلام واستوزره فرعون مصر بعد أن فسَّر له حلماً رآه عن سبع سنين من الشبع وسبع سنين من الجوع، واقترح عليه تخزين الحبوب في سني الشبع لتحاشي المجاعة، فعينه رئيساً لمخازنه، وهو منصب يماثل في عصرنا الحاضر منصب وزير التموين. تزوج يوسف ابنة كاهن أون «عين شمس» فأنجب منها منسَّى وإفرايم. ثم حضر أبوه وإخوته من فلسطين هرباً من المجاعة فأكرم وفادتهم وذلك في أثناء حكم الهكسوس. وبذلك تكونت الجماعة العبرانية التي قادها موسى فيما بعد عبر سيناء إلى أرض كنعان.

هجرة العبرانيين من مصر (الخروج)

يُشار إلى هجرة العبرانيين في المصطلح الديني بكلمة «الخروج». ومن هنا، فإن هجرة العبرانيين من مصر تسمَّى «خروج» العبرانيين من مصر "بعد أن ظهر ملك جديد لا يعرف يوسف" (خروج ١/ ٨). ومن العسير تحديد تاريخ محدَّد لغياب أية وثائق تشير إلى هذا الحدث باستثناء العهد القديم. وثمة آراء عديدة كل منها يحدِّد الفترة التي خرجوا فيها على نحو يختلف عن الآخرين. والخروج عملية هجرة من مصر إلى أرض كنعان (فلسطين).

وبالتالي يمكن النظر إليها في إطار آليات الهجرة باعتبارها حركة طرد من مصر، وحركة جذب إلي كنعان، شأن أية هجرة أخرى. ويجب أن نأخذ في اعتبارنا أن التفسيرات التي نوردها تتأثر بطبيعة المرحلة التي تمت فيها هذه الهجرة وهي مرحلة سديمية يغلب على تاريخها قلة المعلومات والوثائق.

ويمكن القول بأن طرد الهكسوس من مصر ترافق معه طرد حلفائهم العبرانيين، أما من بقوا منهم فاعتبروا أجانب وتحولوا إلى أرقاء وتم تسخيرهم في أعمال البناء التي كان الفراعنة يقومون بها، ومن هنا أصبحت مصر بالنسبة لهم أرض العبودية. وربما كان لاكتشاف الحديد أثر في الهجرة، فمصر كانت أحد أهم مراكز صناعة النحاس وباكتشاف الحديد تدهورت أحوال مصر عامة وتدهورت معها أحوال العبرانيين. وتعود حركة الجذب إلى كنعان إلى جملة أسباب أولها أنها كانت دائماً عرضة للغزو الخارجي وأنها في الوقت نفسه كانت خارج حدود الإمبراطوريتين الكبريين آنذاك: بلاد الرافدين، ووادي النيل، وهو ما منح سكانها قدراً من الاستقلال النسبي. كما أنها كانت قد بلغت مرحلة متقدمة في الصناعة والتجارة والرفاهية الاقتصادية، وكان هذا يشكل عامل جذب قوي بالنسبة للعبرانيين. ويختلف العلماء في تحديد الطريق الذي سلكه العبرانيون في خروجهم من مصر. ونحن نستخدم كلمة «الخروج» للإشارة إلى هجرة العبرانين (جماعة يسرائيل) من مصر وسيرهم في سيناء من الناحية الدينية. ونستخدم كلمة «هجرة» للإشارة إلى الواقعة التاريخية نفسها، أما عبارة «التسلُّل العبراني في أرض كنعان»، فنستخدمها للإشارة إلى دخول العبرانيين أرض كنعان.

الخروج (مفهوم ديني)

«الخروج» هو خروج جماعة يسرائيل من مصر بعد أن ظهر ملك جديد لا يعرف يوسف (الخروج ١/٨). وهي واقعة تحتل مكانة مركزية في الوجدان الديني اليهودي ثم الصهيوني. وتذهب المصادر الدينية إلى أنه يرجع إلى اضطهاد فرعون مصر لأعضاء جماعة يسرائيل، وإلى أنهم سئموا حياة الترف والدعة في مصر، ويشار إليها بعبارة «قدور لحم مصر». وقد أصبح أعضاء جماعة يسرائيل، حسب الرواية التوراتية، شعباً وأمة مقدسة بعد خروجهم من مصر «أرض العبودية». وتعتبر هذه الواقعة النقطة التي يبدأ فيها تاريخ اليهود المستقل، ويظهر الشعب اليهودي للوجود. فقبل ذلك التاريخ كانت الإشارات دائماً إلى أفراد أو أسر دون هوية إثنية محددة.

ويرمز الخروج في الوجدان الديني اليهودي إلى التدخل الإلهي في التاريخ لصالح الشعب المختار، وتحوُّل إله العالم إلى إله الشعب المختار. وخروج جماعة يسرائيل من مصر علامة على اختيارهم حسب التراث الديني اليهودي. وتركز هذه المناسبة على مصر باعتبارها أرض العبودية، تماماً كما أصبحت بابل رمز السبي والنفي. وهذا التاريخ المقدَّس ليس له علاقة كبيرة بالتاريخ الحقيقي، فلم يأت لها ذكر في الآثار الفرعونية.

موسى

«موسى» مؤسِّس الديانة اليهودية، وبخروجه أو هجرته من مصر يبدأ تاريخ العبرانيين. شبَّ موسى، حسب الرواية التوراتية، في بيت فرعون بعد أن ألقته أمه رضيعاً في النهر لأن فرعون كان قد شدَّد الأمر بقتل صبيان العبرانيين. وقد عرف موسى هويته الحقيقية وتدخَّل في شجار وقع بين مصري وعبراني فصرع الأول، واضطر إلى الخروج من مصر إلى أرض مَدْيَن في شبه جزيرة سيناء وشمال الجزيرة العربية. عمل موسى خادماً لدى كاهن الإله المديني «يهوه» الذي علمه الديانة الجديدة وزوَّجه ابنته. وأثناء رعيه أغنام الكاهن حدثت له معجزة الشجرة المشتعلة، فلما نظر نودي من وسطها وظهر له رب إبراهيم وإسحق ويعقوب الذي أصبح اسمه «يهوه»، وموسى ـ حسب الرواية التوراتية ـ النبي الوحيد الذي رأى الإله وجهاً لوجه. وطلب إليه يهوه أن يعود إلى مصر ليكون قائداً لشعبه ويخرجه من هناك، فأخذ معه أخاه هارون لأنه كان يتلعثم في الكلام. ورفض فرعون مصر ما طلبه موسى واستمر في استعباد جماعة يسرائيل، فحلت بمصر الأوبئة العشرة حتى اضطر فرعون لإطلاق سراحهم. لكنه غيَّر رأيه ولحق بهم أثناء عبورهم البحر الأحمر، فغرق هو وجيشه. وعند جبل سيناء ظهر يهوه مرةً أخرى لموسى وجدَّد الميثاق بينه وبين جماعة يسرائيل، وأعطى موسى الوصايا العشر والتوراة. وبدأ موسى سنَّ التشريعات، وبنى خيمة الاجتماع.

وقد تسبَّب اليهود في كثير من العناء لموسى أثناء عبور الصحراء، إذ عبدوا العجل الذهبي في غيابه. وتذكر التوراة أن الرب غضب من موسى وأخيه هارون لأنهما خاناه، وكان عقاب موسى أن يُحرم من دخول الأرض المقدَّسة وأن ينظر إليها من على جبل نبو.

ونظراً لأهمية موسى في الوجدان اليهودي، فإن اليهود والصهاينة يخلعون لقب «موسى الثاني» على كل قائد يهودي. وقد اكتسب هذا اللقب موسى بن ميمون وموشيه ديان. وقد جاء في

الأجداده أن السماء والأرض خلقتا من أجل موسى. وقد فُسِّر تردُّده في قبول الرسالة الإلهية بأسباب منها أنه كان غاضباً من الإله لأنه هجر جماعة يسرائيل أكثر من مائتي عام، وسمح بأن يذبح المصريون كثيراً من أتقيائهم.

هارون

«هارون» شقيق موسى، من أحفاد لاوي. اعتُبر منذ شبابه قائداً لجماعته وكاهن بيته وسمي باسم «اللاوي». يُعدُّ هارون شخصية أساسية في أحداث الخروج من مصر، فهو الذي تحدَّث باسم موسى أمام فرعون، وهو ما يجعله نبيا. اشترك هارون مع موسى في قيادة جماعة يسرائيل إلى خارج مصر. ومع هذا، فحين تأخر موسى وهو على الجبل مع الرب، ضج جماعة يسرائيل وارتدوا عن طاعة إله موسى وطلبوا إلى هارون أن يصنع لهم تماثيل آلهة ليعبدوها، فصنع هارون العجل الذهبي وبنى له مذبحاً. غير أن الإله غفر له وأصبح هارون أول رئيس للكهنة. وهناك رأي يذهب إلى أن ثمة اختلافا بين الهارونيين (ذرية هارون) واللاويين، وأن ذرية هارون تشكل نخبة خاصة داخل قبيلة لاوي، ولذا فقد كان منهم كبير الكهنة، بينما كان صغار الكهنة من قبيلة لاوي. ويرى بعض العلماء أن قبيلة هارون كانت عشيرة كهنوتية موجودة في مصر قبل عصر موسى اعتنقت عقيدة موسى قبل اللاويين، وأنها هي التي نشرت الدين الجديد بسبب مكانتها، وأن العشيرة الهارونية اندمجت في قبيلة اللاويين.

التسلل أو الغزو العبراني لكنعان

يُعدُّ خروج العبرانيين من مصر حركة هجرة تمكن رؤيتها في إطار عوامل طرد من مصر وعوامل جذب في كنعان. وتشير بعض المصادر، استناداً إلى الرواية التوراتية، إلى هذه الهجرة باعتبارها حركة «غزو» عسكرية، ونحن نفضِّل استخدام اصطلاح «تسلُّل» لوصف هذه العملية التاريخية الطويلة التي لم تتم عن طريق معركة أو معارك حاسمة، وإنما عن طريق التسلُّل والتجسُّس والتزاوج والاندماج وأحياناً الغزو. وقد كان العبرانيون قبائل بدوية بدائية حينما خرجوا من مصر وعبروا سيناء ووصلوا مشارف أرض كنعان. ولم يكن في مقدورهم غزو هذه الأرض، ومن ثَمَّ لم يكن أمامهم سوى التسلُّل. وقد كانت عملية طويلة استمرت بين ١٢٥٠ ق.م و١٢٠٠ ق.م. وتضافرت عوامل عديدة لإنجاح هذا التسلُّل في مقدمتها غياب الإمبراطوريات العظمى في تلك المرحلة بشكل مؤقت، أما في كنعان نفسها فكانت المدن / الدول قد أحرزت تقدُّماً حضاريا ملحوظا. والأرجح أن العبرانيين أخذوا لغة الكنعانيين وديانتهم لأن العبرانيين كانوا جماعة بدائية تفتقر إلى أدنى المقومات الحضارية.

ويبدو أن الوضع الإثني في كنعان كان يتسم بغياب التجانس، فالعهد القديم يذكر دائماً الأقوام السبعة، وأحياناً العشرة، التي تسكن المكان. ومع هذا، لم يحرز العبرانيون نصراً عسكريا، فلم يحتلوا سوى بعض المناطق الجبلية، أما في السهول فقد ظلت الهيمنة للكنعانيين. ومن يقرأ سفر القضاة ويشوع يعرف أن الغزو العبراني كان مجرد استيطان في عدة جيوب غير مترابطة، رغم كل التهويل الوارد فيهما. بل يمكن القول بأن العبرانيين ظلوا مشردين لاجئين على قمم التلال ومن تجرأ منهم ونزل إلى السهول أصبح عبداً، وظل الوضع فترة طويلة جدا. وما يرد في التوراة من حديث عن إبادة الألوف على يد العبرانيين أمر مبالغ فيه، ومع هذا يظل هناك جزء من الحقيقة. وهذه الإبادة تعبير عن تخلُّف العبرانيين الذين لم يكونوا في حاجة للأسرى لاستغلالهم اقتصاديا، وهو وضع استمر بعد إنشاء الدولة العبرانية المتحدة. فقد كانت تسد حاجتها للعبيد عن طريق استعباد المذنبين والأفراد الذين يعجزون عن أداء ديونهم.

يشوع بن نون

«يشوع بن نون» خليفة موسى وخادمه من سبط إفرايم. وُلد في مصر، ويصوِّره العهد القديم نبيا وقائداً عسكريا قاد القبائل العبرانية إلى أرض كنعان واقتحمها حسب الرواية التوراتية بعد معارك ضارية. استمر يشوع بن نون يحكم العبرانيين مدة ثمانية وعشرين عاماً. فقسَّم الأرض التي احتلوها بالقرعة بين القبائل العبرانية واستثنى اللاويين الذين قاموا بالأعمال الكهنوتية. ويروي سفر يشوع أخباره. ويشوع هو الذي أمر العبرانيين بالطواف حول أسوار أريحا سبع مرات وأمامهم سبعة كهنة ينفخون في الأبواق، فسقط السور وسقطت المدينة في أيديهم. وقد أجرى العالِم هـ. تامارين استفتاء في عدد من مدارس تل أبيب ومدن ومستعمرات إسرائيلية أخرى حول الأساليب الهمجية التي انتهجها يشوع. وقد جاء في نتائج الاستفتاء أن ٦٦-٩٥٪ يؤيدون أساليبه، وأن ٣٠٪ من التلاميذ يؤيدون بصورة قطعية إبادة السكان العرب تماماً في المناطق المحتلة. وثمة إشارات عديدة في أدبيات جوش إيمونيم وجماعة كاخ إلى أن أسلوب يشوع الإبادي هو الأسلوب الأمثل.

الأسباط

«الأسباط» صيغة جمع مفردها «سبط»، وهي كلمة عربية تعني «ولد الابن أو الابنة»، وتستخدم في النصوص الدينية للإشارة إلى القبائل العبرانية. ونحن لا نستخدم هذا المصطلح في هذه الموسوعة ونفضل استخدام «قبيلة»، ونفرّق بين السياق الديني والسياق التاريخي فنقول «قبائل يسرائيل» أو «القبائل العبرانية».

ويُطلق تعبير «أسباط» أو «قبائل» على أولاد يعقوب، وكذلك على كل من إفرايم، ومنسَّى ابني يوسف، تسمَّت بأسماء أبناء يعقوب: رؤوبين، شمعون، يهودا، يساكر، زبولون، بنيامين، دان، نفتالي، جاد، أشير، إفرايم ومنسَّى، ويضاف إليهم قبيلة لاوي. وسمِّيت هذه القبائل معاً «يسرائيل»، فهي من صلب يعقوب (يسرائيل). وقد ظل النظام القَبلي النظام الاجتماعي القائم في فترة القضاة (١٢٥٠ـ١٠٢٠ ق.م)، كما استمر إبان نظام الملكية بعد قيام داود وسليمان بتوحيد القبائل. ورغم الحديث عن الوحدة في ظل الدولة العبرانية، فإن المعارك نشبت بين القبائل العبرانية نفسها. وقد حدث أثناء حكم القضاة أن نشب صراع بين سكان منطقة جلعاد (قبيلة رؤوبين وجاد ونصف قبيلة منسَّى) من ناحية وقبيلة إفرايم من ناحية أخرى. وقد هُزمت قبيلة إفرايم وقُتل كثير من أفرادها بعد أسرهم. ويبدو أن المحرِّض الأساسي على كل الصراعات كان قبيلة إفرايم، وقد استقلت بعد موت سليمان متزعمة عشر قبائل وكوَّنت المملكة الشمالية.

اللاويون

«لاوي» ثالث أبناء يعقوب، ويُطلق اسمه على إحدى القبائل العبرانية الاثنتى عشرة. نصَّبهم موسى ليخدموا في خيمة الاجتماع مكافأةً لهم على رفضهم الاشتراك في عبادة العجل الذهبي. وقد أُوكلت لكل عائلة من قبيلة لاوي مهام وواجبات محددة تتصل بنقل أجزاء خيمة الاجتماع إلى البرية، وتعليم أفراد الشعب الشريعة. واختصت عائلة هارون بالخدمة داخل الخباء نفسه، وهو الهيكل فيما بعد. أما اللاويون فكانوا متوسطين بين الشعب والكهنة.

وبعد تسلُّل القبائل العبرانية في أرض كنعان قام يشوع بن نون بتقسيم الأرض بين القبائل دون اللاويين، إذ أعطاهم ثماني وأربعين مدينة صغيرة هي المدن التي كان القتلة يلجأون إليها حتى تحين محاكمتهم. وكان نظام الكهنة اللاويين يقوم على النظام الذي اتبعه الكهنة المصريون. وكانت العلاقة بين اللاويين والكهنة غير مستقرة، وقد تم الفصل بينهما. ويُلاحظ أن اللاويين في عهد داود كانوا ينقسمون إلى أربعة أقسام:

١ ـ مساعدو الكهنة.

٢ ـ القضاة ومندوبوهم والكتبة.

٣ ـ البوابون.

٤ ـ الموسيقيون.

وقد أصبح اللاويون في مرحلة من المراحل الطبقة الحاكمة وأدواتها التنفيذية وجهازها الإداري. وبعد العودة من بابل، تحسَّن وضع اللاويين إذ أصبح الكهنة واللاويون يعودون لأصل واحد.

يهودا (قبيلة)

«يهودا» اسم عبري مأخوذ من اسم رابع أبناء يعقوب، وكان يهودا هو الذي اقترح على إخوته ألا يذبحوا يوسف وأن يكتفوا ببيعه، كما كان قائد رحلة أسرة يعقوب إلى مصر. تزوج يهودا امرأة كنعانية وإليه تنتسب أكبر قبائل العبرانيين وأهمها. وهي قبيلة داود التي سيأتي منها الماشيَّح وشعارها الأسد، لهذا يقال «أسد يهودا». وقد سُمي كل العبرانيين «اليهود» نسبة إلى هذه القبيلة بعد شيوع اسمها جغرافيا في المنطقة الجنوبية، وقد ارتبط الاسم بمفهوم بيت يهودا بالمعنى الديني السياسي. والصيغتان «يهودا» و«يهوذا» متداولتان في العربية، لكننا في هذه الموسوعة سنقتصر على استخدام كلمة «يهودا» للإشارة إلى كل من الشخصية التوراتية التي تحمل هذا الاسم، والقبيلة أو الدولة التي كانت تُسمَّى كذلك.

القضاة (١٢٥٠ـ١٠٢٠ ق.م)

تُستخدم كلمة «قاضي» في المؤلفات الدينية اليهودية لتشير إلى معنيين، عام وخاص: المعنى العام هو القاضي الذي يحكم بين الناس، وبهذا المعنى يكون موسى أول القضاة، ثم خلفه في القضاء رؤساء العشائر وشيوخ المدينة. وكان الملك في التاريخ العبراني القديم يُعدُّ من القضاة أيضاً، يحكم معه مجموعة من القضاة يكوِّنون مجلساً، وعليهم استشارة الأنبياء والكهنة، وقد استمر هذا الوضع حتى التهجير البابلي.

ولكلمة «قاض» معنى آخر في تاريخ العبرانيين القدامى، فهي تشير إلى ما يمكن تسميتهم «شيوخ القبائل». وهم أشخاص من الكهنة المحاربين جمعوا بين السلطتين الدينية والدنيوية، وسيطروا على أمور القبائل العبرانية بعد وفاة يشوع بن نون حتى قيام حكم

شاؤول أول ملوك القبائل العبرانية، وهي فترة تمتد، حسب سفر القضاة، نحو أربعة قرون.

والقبائل العبرانية حينما تسلَّلت إلى أرض كنعان لم تكن هناك وحدة قومية متماسكة، وإنما كان هناك مجموعة من القبائل المتناحرة، ولم يكن هناك سلطة مركزية إذ كان الحكم أبويا أسريا. كان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس الكبراء كلما دعت الحاجة لذلك. وكان هذا المجلس الحكَم الفصل في شئون القبيلة، فإذا فشل القاضي أمام هؤلاء الزعماء لجأ المتقاضون إلى القاضي الرئيس. ولم يكن طابع المجتمع رعويا محضاً، فقد ظهر حكم القضاة مع بداية استقرار العبرانيين واشتغالهم بالزراعة. ولم يستطع العبرانيون السيطرة على كل أرض كنعان في تلك الفترة، وظل وجودهم متقطعاً جغرافيا ومحاطاً بأقوام معادية مثل الكنعانيين والفلستيين استمرت في مقاومة العبرانيين قروناً عديدة.

وكانت دبورة من أولئك القضاة، وكذلك كان جدعون، وشمشون وصموئيل النبي وشاؤول أول الملوك. وبعد ذلك التاريخ لم يعد القضاة هم القادة، إذ بدأ حكم الملوك مع بقاء أشخاص يصدرون الأحكام الدينية والدنيوية. ويوجد في العهد القديم سفر يسمَّى «سفر القضاة» يتناول تاريخ العبرانيين من الفترة السابقة على موت يشوع بقليل إلى آخر أيام شمشون. وحالياً يسمَّى قاضي المحكمة الحاخامية الشرعية «ديان».

راعوث

«راعوث» أو «روث» اسم امرأة مؤابية تزوجت عبرانيا من قبيلة يهودا، ثم تزوجت بعده عوبيد جد داود. ويسمى سفر من أسفار التوراة باسمها، ويُقرأ سفر راعوث في عيد الأسابيع. ويبدو أن كاتب هذا السفر لم يكن يؤيد حظر الزواج المختلط فحاول أن يبين أن بطل العبرانيين وملكهم تجري في عروقه دماء أجنبية.

دبورة (القرن الثاني عشر قبل الميلاد)

«دبورة» اسم امرأة تعتبر من قضاة العبرانيين وأنبيائهم وقادتهم العسكريين. كانت تقيم تحت نخلة سميت باسمها لتقضي بين العبرانيين. تُوصف دبورة بأنها أم إسرائيل، ويشار إليها كنبية رغم أنها لا تُنسب لها نبوءات ولا أقوال تتعلق بالنبوة. يُعدُّ نشيد دبورة الذي يُنسب لها (القضاة ٥) من أقدم نماذج الشعر العبري، لاحتوائه عناصر لغوية ومجازية قديمة.

جدعون (١١٥٠ق.م)

«جدعون» اسم أحد قضاة العبرانيين من قبيلة منسَّى ويقال إنه جاء بعد دبورة (١١٥٠ ق.م). دعاه الرب، حسبما جاء في العهد القديم، إلى أن يدافع عن العبرانيين فقام بتحطيم تمثال بعل الذي كان يعبده أبوه، وجمع رجالات قبائل منسَّى وآشر وزبولون ونفتالي، واختار منهم نخبة مقاتلة قوامها ٣٠٠ مقاتل فقط، وهزم المدينيين عن طريق الهجمات الليلية ونصْب الكمائن والهجمات الخاطفة. حاول العبرانيون تنصيبه ملكاً عليهم فرفض، وهو ما يعني أن العبرانيين تحولوا من الرعي إلى حياة المدن الدويلات التي لم تكن قد اكتملت بعد.

وبعد انتصاره على المدينيين أخذ جدعون أقراط الذهب التي غنمها منهم وصنع صنماً وعبده أعضاء جماعة يسرائيل كافة. وهذه الحادثة التي تشبه حادثة العجل الذهبي تدل على أن التوحيد لم يكن قد استقر بين العبرانيين بعد. ويقول أوردوينجت الضابط البريطاني الصهيوني الذي مارس الإرهاب ضد العرب في ثلاثينيات القرن العشرين إنه استخلص الكثير من حيله العسكرية من جدعون.

شمشون

«شمشون» اسم لشخص يشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة. كان شمشون قاضياً من قبيلة دان مدة عشرين سنة، ولكن الكتب تشير إلى صموئيل أيضاً بوصفه آخر القضاة. وتحمل قصة شمشون منذ البداية عناصر عجائبية كثيرة، وتدور حول مغامرات مع ثلاث نساء فلستيات من غزة. فشمشون الذي اشتهر بقوته الجسدية الخارقة وقع في غرام دليلة الفلستية التي عرفت أن سر قوته يكمن في شعره فأتى الفلستيون عليه وهو نائم وجزوا شعره وأوثقوه بالسلاسل وسملوا عينيه وسجنوه، فلما أخرجوه من السجن ليسخروا منه في المعبد هدم المعبد ومات هو وأعداؤه.

وتفسِّر الكتابات الصهيونية قصة شمشون كما تفسر قصة ماساداه وتجعلها نموذجاً للتحذير من الاندماج مع الأغيار الذين تمثلهم النساء الفلستيات، وتشجيعاً لفكرة التمركز حول الانتحار. والقصة جزء من موروث شعبي يهدف لتعويض النفوس وإرضائها، فالنهاية التي انتهى بها هو وأعداؤه تعبير عن أحلام المسحوقين، أي أن الانفجار الأخير قد يقضي على الذات، لكنه يقضي على الآخر أيضاً.

٦ ـ عبادة يسرائيل والهيكل

عبادة يسرائيل والعبادة القربانية المركزية

«عبادة يسرائيل» و«العبادة القربانية المركزية» مصطلح يُستخدم للإشارة إلى ديانة العبرانيين (جماعة يسرائيل) منذ ظهورهم على مسرح التاريخ حتى التهجير البابلي. وتعود عبادة يسرائيل إلى الديانات السامية القديمة، وهي ديانة حلولية تؤمن بأن العناصر الطبيعية، مثل الأحجار والمياه والجبال، لها حياة مستقلة وتؤثر في حياة الأفراد. وتصل بعض هذه الكائنات إلى درجة أن الآلهة تحل فيها فينبغي على الإنسان أن يعبدها ويتقرب إليها. وتعتبر الطوطمية، وهي الاعتقاد بأن حيواناً ما يحمي القبيلة وربما جدها الأكبر، من مصادر عبادة يسرائيل. والآلهة في عبادة الساميين تتصف بصفات إنسانية، فتتناحر وتنقسم إلى ذكور وإناث. ويبدو أن عبادة الأسلاف كانت هي الأخرى أحد المكونات الأساسية لعبادة يسرائيل. كما أن ثمة إشارات عديدة للترافيم (الأصنام). ورغم أن إبراهيم أول من رفض الشرك حسب التصور التوراتي، فإن العهد القديم يقرر أن التوحيد الحق جاء بعد خروج العبرانيين (أو جماعة يسرائيل) من مصر. وقد خطى التوحيد خطوات واسعة بين العبرانيين، لكن العبادة لم تكن توحيدية خالصة. كما أن أعضاء جماعة يسرائيل كانوا دائمي العودة إلى طرق الشرك القديمة، فقد عبدوا العجل الذهبي وهم بعد في سيناء.

ويمكن أن نقسِّم عبادة يسرائيل إلى مرحلتين: تنتهي الأولى عام ١٠٠٠ ق. م مع التسلُّل إلى كنعان، وبعد تأسيس المملكة العبرانية المتحدة وتحويل أورشليم (القدس) إلى عاصمة لهذه العبادة، وبناء الهيكل الذي أصبح مركز العبادة القربانية. ثم تبدأ المرحلة الثانية وهي مرحلة العبادة القربانية المركزية. وكان الكهنة العمود الفقري في عبادة يسرائيل، والقائمين على العبادة القربانية، وقد تزايد نفوذهم بعد العودة من بابل. ومن أهم سمات عبادة يسرائيل، تقديم القرابين (وقد كان ذلك يتم في الهيكل، ومن هنا جاءت التسمية). وقد انتهت عبادة يسرائيل بهدم الهيكل (٧٠م). ومع هذا دوَّن الحاخامات قواعد تقديم القرابين بكل تفاصيلها، لإيمانهم بأن الهيكل سيُعاد بناؤه في المستقبل. وفي نهاية الأمر حلَّت الشعائر التي يمكن إقامتها بالمنزل محل العبادة القربانية التي تتم في الهيكل.

ورغم أن العبادة القربانية تطورت بعيداً عن العبادة اليسرائيلية، فإن هذا التطور استغرق مرحلة زمنية طويلة، ولم يستقر كثير من العقائد الدينية الأساسية في اليهودية، مثل الإيمان بالثواب والعقاب والبعث إلا في مراحل متأخرة، بل إن بعضها لم يستقر حتى الآن، وهو ما يفسر غياب التجانس عن النسق الديني اليهودي (الخاصية الجيولوجية). وتركت عبادة يسرائيل (العبادة القربانية) أثراً عميقاً في التطور اللاحق الذي طرأ على اليهودية، وتمثَّل في التركيز الشديد على الشعائر دون الاهتمام بالروح والمعنى.

ويمكن القول بأن الصهيونية هي علمنة للعبادة القربانية الحلولية، فقد جعلت الدولة شيئاً يشبه الهيكل القديم حلّ فيها الإله، وهي محط اهتمامهم أينما وجدوا، ولا يهم إن كانوا يعبدون الإله أم لا إنما المهم تقديم القرابين إلى هذا الوثن الجديد. وتأخذ القرابين الآن شكل شيك يُدفع للمنظمة الصهيونية العالمية. ويعود نجاح هذه العبادة إلى قدرتها على التعايش مع الرؤية العلمانية الشاملة، وكلاهما يرى القداسة شيئاً كامناً في المادة. وقد بدأت خطوات جادة في إسرائيل نحو إعادة العبادة القربانية والهيكل.

الكهنة والكهانة

«الكاهن» في العبرية «كوهين»، هو سبيل الكهانة، أي الأداة المقدسة المختارة للوساطة بين الإنسان والخالق. ويرتبط تاريخ الكهانة بين العبرانيين بظهورهم في التاريخ، إذ يبدو أن كل رب أسرة عبرانية، وأول الذكور فيها، كانا يقومان بدور الكاهن. وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى زمن الخروج من مصر أو الهجرة منها، حين انحصرت الكهانة في قبيلة اللاويين. وكانت أسرة هارون تشغل مركزاً متميزاً داخل قبيلة لاوي، وفي معظم الأحيان كان يتم اختيار كبير الكهنة منهم. ويبدو أن هذا النظام مقتبس من النظام المصري القديم للكهانة، حيث كانت أسرة معينة تختص بالقيام بأعمال الكهانة والجوانب السرية في العلاقة بين الإله وأتباعه.

كانت الكهانة باعتبارها السلطة الدينية متداخلة تماماً مع السلطة الدنيوية، كما هو الحال في عصر القضاة (حوالي ١٢٥٠ ـ ١٠٢٠ ق. م). ومع حكم الملوك أصبح رئيس الدولة الكاهن الأعظم، ولكن نظراً لانشغاله كان يُعيِّن مندوبين عنه للقيام بهذه المهمة، فبدأ يظهر الانفصال بين السلطتين. وبعد العودة من بابل زاد تداخل السلطتين الدنيوية والدينية، إذ اضطلع كبير الكهنة

بوظائف دنيوية باعتباره ممثلاً محلياً للقوة الإمبراطورية الحاكمة. واستمر الوضع كذلك في عهد الفرس واليونان. وحينما قامت الأسرة الحشمونية (١٦٤ ق. م) أصبح رئيس الدولة قائد القوات والكاهن الأعظم في آن واحد، وتُعدُّ هذه الفترة قمة ازدهار المؤسسة الكهنوتية. وأثناء حكم الحشمونيين ظهرت فرق يهودية مختلفة من أهمها الصدوقيون الذين كانوا أساساً من كبار الكهنة، وفي المقابل ظهر فريق الفريسيين الذين أكدوا الجانب الروحي في اليهودية على حساب الجانب القرباني، وكانوا يضمون في صفوفهم بعض الكهنة من متوسطي الحال. وقد ازداد الفريسيون شعبية، وازداد الكهنة عزلة، وبخاصة أنهم تحولوا إلى ألعوبة في يد الحكام. كما أن اليهود خارج فلسطين أصبحوا أكثر عدداً من اليهود داخلها ففقدت العبادة القربانية كثيراً من مقومات وجودها.

وقد انعكس الاستقطاب الطبقي الذي شهده المجتمع العبراني على الكهنة، فكانت الأرستقراطية الكهنوتية المتأغرقة في القدس تختلف عن فقراء الكهنة الذين كانوا يعيشون في الريف (السامي الآرامي) على الصدقات. وأثناء التمرد اليهودي الأول (٦٦ ـ ٧٠م) حينما سيطر الغيورون على القدس طردوا الكهنة وذبحوا بعضهم، واختاروا كاهناً أكبر من فقراء الكهنة. وعندما هدم تيتوس الهيكل عام ٧٠م كانت الأوضاع الداخلية مواتية تماماً لاختفائهم وظهور الحاخام كشخصية أساسية بين اليهود. كما أن تدوين الشريعة كان من أسباب اختفاء الكهنة، حيث أصبح الكتاب المقدَّس مركز العبادة بدلاً من العبادة القربانية.

وقد لعب الكهنة دوراً مهما في تطوير اليهودية، إذ جعلوا أنفسهم وسطاء بين الإله والناس. والكهانة في اليهودية تُورَّث، ولذا أصبح الكهنة طبقة مغلقة لا يستطيع أحد من خارجها أن ينتمي إليها. ولعل انغلاقهم هذا هو الذي أدى إلى تماسُكهم ودفاعهم عن العزلة الدينية اليهودية. ولم يكن من حق الكهنة أن يرثوا مالاً أو يمتلكوا أرضاً، ولكنهم كانوا يُعفون من كل أنواع الضرائب، ويأخذون العشور على نتاج الضأن، وأول ما يُحصد من الأرض، وينتفعون بما يتبقى في الهيكل من القرابين. ورغم أن مؤسسة الكهانة قد اختفت في اليهودية تماماً مع هدم الهيكل على يد تيتوس، ومع اختفاء العبادة القربانية، ومع أن اليهودية لا تقبل الوساطة بين الخالق والمخلوق، فإن مؤسسة الكهانة استمرت بعد أن أخذت شكلاً جديداً هو الحاخامية، فالحاخام، مع أنه لم يكن كاهناً، كان القائد الديني الفعلي للجماعة اليهودية وكان يضطلع بالعديد من المهام الدينية والاجتماعية.

وقد بدأت الدولة الصهيونية في العودة إلى شيء يشبه العبادة القربانية التي تدور حول الهيكل، ومن ثم عاد الاهتمام بالكهنة. وتوجد مدرستان تلموديتان بالقرب من حائط المبكى يدرس فيهما نحو مائتي طالب شعائر العبادة القربانية للقيام بها عند إعادة تشييد الهيكل. كما عُقد مؤتمر عام ١٩٩٠ في إسرائيل لليهود الذين يعتقدون أنهم من أصل كهنوتي.

الكاهن الأعظم

«الكاهن الأعظم» كبير موظفي الهيكل، وقد كانت الوظيفة مقصورة على أسرة صادوق من ذرية هارون، وهو رئيس السنهدرين. ورغم أن وظيفته كانت دينية، فقد كانت لها أبعاد دنيوية، فالكاهن الأعظم كان جزءاً من الأرستقراطية الحاكمة. وكان الملك أحياناً يضطلع بوظيفة كبير الكهنة كما فعل داود (١٠٠٤ ـ ٩٦٥ ق. م). وقد جاء وصف الكاهن الأعظم وردائه في سفر اللاويين. وحيث إن الهيكل لم تكن تتبعه أية أراض زراعية، فقد كان اليهود يرسلون إليه التبرعات (نصف شيكل) وهو ما كان يدر عليه مالاً وفيراً.

وبدءاً من القرن السادس قبل الميلاد، دخل العبرانيون في إطار الإمبراطوريات الكبرى (البابلية، الفارسية، اليونانية والرومانية)، وكانت هذه الإمبراطوريات تحتفظ لنفسها بسلطة القرار في الشئون العسكرية والخارجية وتترك للشعوب المحكومة شيئاً من الاستقلال الذاتي في إدارة شئونها الدينية والداخلية، فبدأت وظيفة الكاهن الأعظم تكتسب أهمية متزايدة، وخصوصاً أن الفُرس كانوا يفضلون التعاون مع طبقة كهنوتية مأمونة الجانب على التعاون مع أرستقراطية عسكرية أو مع أسرة داود المالكة. وبالفعل تم تقسيم السلطة في فلسطين، فكان مندوب الإمبراطورية يمسك بالسلطة الدنيوية ويترك الشئون الداخلية في يد كبير الكهنة. وتحوَّل اليهود إلى جماعة يرأسها الكاهن الأعظم، وهو في موقعه يرأس نخبة حاكمة تضم اللاويين والكهنة وأثرياء اليهود. وقد اعترف البطالمة بهذا المنصب وبالمجمع الكبير واعتبروهما ممثلين للشعب اليهودي، واعترفوا بحرية اليهود في ممارسة شعائر دينهم.

ورغم قوة مركز الكاهن الأعظم، ظهرت مراكز قوة أخرى تعاون معها السلوقيون، وهي طبقة أثرياء اليهود وملتزمي

الضرائب والتجار، فكان تعيين الكاهن الأعظم يتم عن طريق الرشوة، كما أنه لم يعد مقصوراً على أسرة صادوق. وكانت الأسرة الحشمونية أسرة من الملوك الكهنة إذ كان الملك نفسه كبير الكهنة. وفي هذه الفترة ظهرت فرقة الصدوقيين وهم من كبار الكهنة الذين التفوا حول النخبة الحاكمة وتحالفوا معها. وفي المقابل ظهر الفريسيون وكانوا يضمون كثيراً من الكتبة شراح الشريعة الذين دافعوا عن الشريعة الشفوية. وكان الفريسيون يضمون فقراء الكهنة. وقد عارضوا أن يحمل ملوك الحشمونيين لقب كبير الكهنة، وانفصلت الوظيفتان بالفعل عام ٦٣ ق. م. ومع احتدام الصراع الطبقي داخل المجتمع اليهودي احتدم الصراع حول منصب كبير الكهنة. وعندما أصبحت فلسطين مقاطعة رومانية، أصبح الكاهن الأعظم مجرد موظف روماني، وأصبح محط سخرية اليهود.

وعندما نشب التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦ - ٧٠م) قام الغيورون بطرد الأرستقراطية الكهنوتية التي كانت تقيم في القدس، وذبحوا بعض أعضائها، واختاروا كبير الكهنة بالقرعة من بين الفقراء. وهؤلاء الكهنة كانوا آخر من شغل المنصب، فبدخول تيتوس القدس (٧٠م) حطم الهيكل واختفت العبادة القربانية تماماً واختفى الصدوقيون وظهر الحاخامات كقوة ذات طابع ديني واضح وطابع دنيوي خافت.

بَعْل

«بَعْل» كلمة فينيقية تعني «السيد» أو «المولى» أو «الزوج» أو «المالك» أو «الرب». ورغم أن مجمع الآلهة الكنعاني كان يرأسه «إيل»، فإن ابنه بعل إله الخصب كان يلعب الدور الأساسي في المجمع. وقد أصبحت كلمة «بعل» مرادفة لكلمة «إله»، فأصبح هناك «بعل شاميم» أي «إله السماء» و«بَعْل هارعد» أي «إله الرعد» وهكذا. وفي الألف الأخير قبل الميلاد، أصبح «بعل شاميم» الرب السامي الأسمى. وقد كان لكل بلد إله يبدأ اسمه بكلمة «بعل». ولم يكن البعليم (جمع بعل) آلهة حرب مثل يهوه، بل كانت آلهة مسالمة تمثل الخصب، وهي تنقسم إلى ذكور وإناث وتتزاوج فيما بينها، فكانت زوجة بعل تسمَّى «عشتارت» أو «عنات». وكان الكنعانيون يختارون الأماكن المرتفعة كالجبال ويبنون عليها مذابح للإله.

ومنذ دخولهم فلسطين، أخذ العبرانيون عن الكنعانيين الكثير، وضمن ذلك عبادة بعل. وكانوا يعبدونهما معاً. كان عامتهم يرون أن يهوه هو الإله القومي (إله التاريخ) وأن بعلاً مانح الخصوبة (إله الطبيعة)، فكانوا يلجأون إلى يهوه في المناسبات القومية، وإلى بعل في حياتهم اليومية. وقد حاول الأنبياء في القرن التاسع قبل الميلاد إقناع الشعب بأن يهوه هو الإله القومي واليومي، إله الطبيعة والتاريخ معاً. وتركت عبادة بَعْل أثرها العميق في عبادة يهوه. واستنكار عبادة بعل في اليهودية ليس دينيا وحسب، بل هو قومي أيضاً. وفي الأدبيات الصهيونية يُقارَن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يندمجون في مجتمعاتهم بعبدة بعل.

العجل الذهبي

«العجل الذهبي» تمثال من الذهب عبده أعضاء جماعة يسرائيل عند قاعدة جبل سيناء، عندما كان موسى يتعبد فوق الجبل. وعبادة العجل الذهبي تعبير عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي. وقد جمع هارون الحُلي الذهبية منهم بعد إلحاح شديد منهم، وصهرها وصبها على هيئة تمثال كان يُعدُّ تجسيداً للإله. وقد عاد موسى فغضب وحطم لوحي الشهادة ثم أحرق العجل وقتل نحو ثلاثة آلاف رجل. ولم تكن عبادة العجول الذهبية أمراً غريباً في الديانة الكنعانية القديمة إذ كان الثور رمزاً للخصب. ووجدت صور الثور وتماثيله طريقها إلى عبادات العبرانيين. وقد بُعثت عبادة العجول الذهبية من جديد على يد الملك يربعام.

وفي الدراسات اليهودية الحديثة يكتسب العجل الذهبي دلالات مختلفة، فالصهاينة يستخدمونه رمزاً لليهود الذين يعيشون خارج الأرض المقدسة، ويرفضون العودة إليها بسبب المستوى المادي المرتفع الذي حققوه في المنفى. أما أعداء الصهيونية فيستخدمونه للإشارة إلى النزعة الحلولية الوثنية التي بعثتها الصهيونية بين اليهود، ويقصدون بالعجل الذهبي الجديد الدولة الصهيونية.

الترافيم (أصنام)

«ترافيم» كلمة تشير إلى أصنام صغيرة، ففي التوراة أن راحيل خبأتها تحت حداجة الجمل وجلست عليها حين حاولت أن تسرقها من أبيها (تكوين ٣١/ ٣٥). وحسب القانون البابلي كان يحق لمن عنده آلهة الأسرة أن يرث نصيب الابن البكر. ويبدو أن بعض الترافيم كبير الحجم، حيث وضعتها ميكال في مكان داود فظن رسل شاؤول أنه نائم في فراشه (صموئيل أول ١٩/ ١٣). ويبدو أن عبادة يسرائيل كانت تحرِّم اقتناء أصنام الترافيم. وقد وُجد بين اليهود من سأل عن الترافيم بعد العودة من بابل. وهذا الموقف المتأرجح تعبير عن الخاصية الجيولوجية في اليهودية.

الإفود (أصنام)

«إفود» كلمة تستخدم في العهد القديم للإشارة إلى صورة أو صنم يشبه الترافيم، كانت توضع في الهيكل. وقد استمر استخدام الإفود حتى عصر الملوك، وكانت تستخدم في معرفة المستقبل والتنبوء به. وتشير الكلمة أيضاً إلى رداء كان يرتديه الكاهن الأعظم. والإفود بمعناه الأول، واستمرار وجوده وارتباط جماعة يسرائيل به، يدل على أن عبادة يسرائيل القربانية كانت تتضمن عناصر كثيرة غير توحيدية.

خيمة الاجتماع (خيمة الشهادة)

«خيمة الاجتماع» أو «خيمة الشهادة»، خيمة أو خباء كان العبرانيون القدامى (جماعة يسرائيل) يحملونها في تجوالهم. وكانت تُقام خارج المضارب ليسكن الإله فيها بين شعبه (حسب التصور العبراني)، كما سميت أيضاً «بيت الإله». وعبارة «خيمة الاجتماع» تعبير عن الطبقة الحلولية في اليهودية، قبل اكتمال الثالوث الحلولي (الإله ـ الشعب ـ الأرض)، إذ يوجد العنصران الأول والثاني وحسب. ويعكس الجزء الكهنوتي من أسفار موسى الخمسة الفكر الديني لكهنة هيكل القدس، وهو فكر يعلق أهمية كبرى على أن يسكن الإله وسط شعبه. ومن هنا نَقْل مقر الخيمة من خارج المضارب إلى وسطها، وتحيط بها خيام الكهنة واللاويين ثم خيام بقية القبائل في أربعة أقسام. وقد استقرت الخيمة في الجلجال التي كان فيها أول معسكر لجماعة يسرائيل بعد عبور نهر الأردن ودخول أرض كنعان، ثم نُقلت إلى شيلوه حيث بقيت ثلاثمائة أو أربعمائة سنة، ومنها انتقلت إلى جبعون ثم إلى الهيكل الذي تشبه بنيته بنية خيمة الاجتماع. ويُلاحظ تأثير هندسة المعبد المصري في خيمة الاجتماع بتقسيمها إلى المقدس وقدس الأقداس.

تابوت العهد (تابوت الشهادة ـ سفينة العهد)

«تابوت العهد» أو «تابوت الشهادة» من أكثر الأشياء المقدسة تعبيراً عن النزعة الحلولية في اليهودية، فكان أعضاء جماعة يسرائيل يتصورون أن روح يهوه تحل فيه، وكان الكهنة يحملونه في المعارك على أعمدة طويلة كرمز واضح لوجود يهوه وسط الجنود. وحينما يكف العبرانيون عن الترحال، كان تابوت العهد يوضع في قدس الأقداس داخل خيمة الاجتماع حيث لا يراه إلا الكاهن الأعظم يوم الغفران، ولكنهم كانوا يخرجونه في المعارك الحربية، فهو يضمن لحامله النصر. والتابوت الذي جاء وصفه في سفر الخروج صندوق من خشب السنط طوله ذراعان ونصف، وكل من عرضه وارتفاعه ذراع ونصف، وهو مُحلًّى بالذهب من الداخل والخارج، ويقف عليه ملاكان ناشرين أجنحتهما رمزاً للوجود الإلهي بين الشعب المختار. وقد صار التابوت رمزاً للعهد مع الإله.

بقي التابوت مدة بالخيمة في الجلجال ثم نُقل إلى شيلوه حين وقع في أيدي الفلستيين، وحسب الرواية التوراتية، فإن الفلستيين اضطروا إلى إرجاعه بسبب الكوارث التي لحقت بهم. ونُقل التابوت إلى القدس (بعد ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة) أثناء حكم داود وحفظ سليمان التابوت في قدس الأقداس بالهيكل وسط العالم تماماً وأمامه حجر الأساس الذي هو مركز الدنيا (حسب التصور اليهودي).

ولم يأت ذكر التابوت ضمن الغنائم التي حملها البابليون معهم وأُعيدت فيما بعد، ولا يُعرف على وجه الدقة مصير هذا التابوت، فعند بناء الهيكل الثاني لم يأت ذكره. ورغم اختفاء تابوت العهد فإنه ترك أثراً في الديانة اليهودية، وتابوت لفائف الشريعة امتداد لفكرة تابوت العهد، ويعتقد الإثيوبيون أن تابوت العهد الأصلي موجود في إثيوبيا.

الهيكل والعبادات القربانية المركزية

«الهيكل» كلمة يقابلها في العبرية «بيت همقداش» أي «بيت المقدس» أو «هيخال» وتعني «البيت الكبير» في كثير من اللغات السامية. والبيت الكبير أو العظيم التعبير الذي كان يُشار به إلى مسكن الإله. وقد ظهرت الطبقة الحلولية اليهودية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي في شكل تقديس الأرض، وتمثَّل في عبادة يسرائيل والعبادة القربانية المركزية المرتبطة بالدولة العبرانية المتحدة (١٠٢٠ ق.م) وهي عبادة قام الكهنة بالإشراف على إقامة شعائرها، والهيكل مركز هذه العبادة القربانية. ومن أهم أسماء الهيكل «بيت يهوه»، لأنه أساساً مسكن للإله وليس مكاناً للعبادة، وهو أهم مبنى للعبادة اليسرائيلية ومركز العبادة القربانية. وبعد هدمه عام ٧٠م لم يحل محله مبنى مركزي مماثل. وقد كان اليهود يحجون إليه في أعياد الحج الثلاثة: الفصح، والأسابيع، والمظال، وبعد العودة من بابل كان السنهدرين يجتمع في قاعة ملحقة به.

ومع استقرار العبرانيين في كنعان كان العبرانيون يقدمون الضحايا والقرابين للآلهة في هيكل محلي يعبِّر عن استقلالية كل قبيلة. ومع هذا ظل تابوت العهد مركز العبادة اليسرائيلية. وبعد تدمير شيلوه (٢٠٥٠ ق.م) واستيلاء الفلستيين عليه أحضره داود وبنى له خيمة في القدس. وقد ظهرت مراكز العبادة اليسرائيلية في

أماكن مختلفة، لكن أيا منها لم يفلح في أن يصبح مركزاً دينياً لكل القبائل العبرانية المتناثرة. ولذا، فمع تركُّز السلطة في يد الملوك تركزت العبادة القربانية في مكان واحد هو الهيكل في القدس التي كانت تقع على الحدود بين عديد من القبائل، كما أنها لم تكن تابعة لأيٍّ منها. لكل هذا أصبحت القدس مركزاً دينيا للقبائل العبرانية، ومن ثم لعبادة يسرائيل القربانية. وتاريخ بناء الهيكل هو أيضاً تاريخ تحوُّل عبادة يسرائيل (البدوية المتجولة) إلى العبادة القربانية المركزية (المستقرة).

الهيكل: مكانته في الوجدان اليهودي

يشغل الهيكل مكانة خاصة في الوجدان اليهودي، كما يعبِّر عن التيار الحلولي، وهو يسمَّى «لبنان» لأنه يطهر يسرائيل من خطاياها ويجعلها بيضاء كاللبن. كان التصور أن الهيكل يقع في مركز العالم، فقد بُني في وسط القدس التي تقع في وسط الدنيا، فقدس الأقداس الذي يقع وسط الهيكل هو بمنزلة سُرة العالم. والهيكل كنز الإله مثل جماعة يسرائيل، وهو عنده أثمن من السماوات والأرض. بل إن الإله قرَّر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه.

ويشكل هدم الهيكل صورة أساسية في الوجدان الديني اليهودي، فهو يُذكر عند الميلاد والموت، وعند الزواج يُحطَّم أمام العروسين كوب فارغ ليذكرهما بهدم الهيكل. ويرى الصهاينة أن ظهور الصهيونية يعود إلى اللحظة التي هُدم فيها الهيكل وفُرض الشتات على اليهود. ويقوم الصهاينة بالتأريخ لوقائع تاريخ العبرانيين وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين بمصطلحات مثل «الهيكل الأول» و«الهيكل الثاني»، ويشير بن جوريون وكثير من الإسرائيليين إلى دولة إسرائيل باعتبارها «الهيكل الثالث».

هيكل سليمان

اشترى داود أرضاً ليبني فيها هيكلاً مركزيا، ولم يبدأ هو نفسه في البناء، فقام بالمهمة ابنه سليمان وأنجزها بين ٩٦٠ و٩٥٣ ق.م، ولذا يسمَّى «هيكل سليمان» أو «الهيكل الأول». وحسب التصور اليهودي، قام سليمان ببناء الهيكل فوق جبل بيت المقدس أو هضبة الحرم التي يوجد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ومن الصعب الوصول إلى وصف دقيق لهيكل سليمان، فالمصدران الأساسيان لمثل هذا الوصف هما كتاب الملوك الأول (٦/٨) والأخبار الثاني (٢/٤) في العهد القديم، وهما يقدمان صورتين تختلفان في كثير من التفاصيل. كما أن المصادر الأخرى تعطي تفاصيل أخرى تتناقض مع المصدرين الأساسيين.

وهيكل سليمان ليس بناءً واحداً إذ يضم قصر الملك ومباني أخرى (بناء للصنَّاع - قاعة اجتماعات - العرش - بهو المملكة العليا - بناء الحريم - بيت زوجة سليمان). وكان ملحقاً بهذا المركب المعماري المذبح الصغير الذي يضم تابوت العهد. وكان يحيط بهذه المباني جميعاً فناء واسع. وقد أقيم هيكل سليمان مكان المذبح الصغير يحيط به فناء مقصور عليه يفصله عن المركب المعماري الأكبر. كان للهيكل عدة بوابات، وتبلغ أبعاده ٩٠ قدماً طولاً و٣٠ قدماً عرضاً و٤٥ قدماً ارتفاعاً. وهو لا يختلف كثيراً في تقسيم الثلاثي (المدخل - البهو المقدس - قدس الأقداس) عن الهياكل الكنعانية. ونظراً لحياتهم البدوية، كان العبرانيون يجهلون فنون العمارة والهندسة على خلاف الحال في البلاد المجاورة، ولذا فإن سليمان جلب البنائين والمهندسين من صور وصيدا، كما تم استيراد القسم الأعظم من مواد البناء من فينيقيا. وقد كرَّس سليمان جزءاً كبيراً من ثروة الدولة والأيدي العاملة فيها لبناء الهيكل، ولذا فإن ثورات وانقسامات عديدة حدثت بعد إتمام بنائه، وانتهت هذه الثورات بانقسام الدولة العبرانية المتحدة وتساقط العبادة القربانية المركزية.

وعند انقسام مملكة سليمان فَقَدَ الهيكل كثيراً من أهميته إذ شيَّد ملوك المملكة الشمالية مراكز مستقلة للعبادة. وقد هجم فرعون مصر شيشنق على مملكة يهودا ونهب نفائس الهيكل، كما هاجمه يوآش ملك المملكة الشمالية هو الآخر ونهبه، وفي عام ٥٨٦ ق.م هدم نبوختنصر البابلي هيكل سليمان وحمل كل أوانيه المقدسة إلى بابل.

هيكل زروبابل

مع هدم هيكل سليمان قام زروبابل (أحد كبار الكهنة الذي سمح له الإمبراطور الفارسي بالعودة إلى فلسطين) بإعادة بناء الهيكل (٥٢٠-٥١٥ ق.م). ويذكر العهد القديم أن الهيكل الثاني بُني بأمر من إله يسرائيل وبأمر من أباطرة الفرس، ولذا كانت تقدَّم فيه يوميا قرابين لصالح الحاكم الوثني حامي صهيون. وكانت خريطة عاصمة الإمبراطورية الفارسية مرسومة على مداخله. ولا توجد إشارات كثيرة إلى معمار هيكل زروبابل ولا تقسيمه. ويميل معظم الباحثين إلى أن نبوختنصر لم يهدم الهيكل الأول بل أحرقه ونهبه، فاستخدم العائدون من بابل بناءه دون تغيير. وفيما يتصل بالمحتويات، فإن قدس الأقداس كان فارغاً لأن سفينة العهد اختفت. وقد لعب هذا

الهيكل دوراً أساسيا في إسباغ شرعية على فئة الكهنة التي صارت الفئة الإدارية الأساسية في مقاطعة يهود (أو يهودا) الفارسية. وقد تعرَّض هذا الهيكل للنهب عدة مرات.

هيكل هيرود (الهيكل الثاني)

«هيكل هيرود» هو الهيكل الذي بناه الملك هيرود (٢٧ ق. م-٤م) الذي عيَّنه الرومان حاكماً رومانيا يحمل لقب «ملك». ويشار إليه بأنه «الهيكل الثاني». وأحياناً يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى الهيكل الذي أسسه زروبابل، وبهذا يكون هيكل هيرود الهيكل الثالث، وإن كان مصطلح الهيكل الثالث يستخدم للإشارة عادةً إلى الهيكل الذي سيُشيَّد في آخر الأيام مع بداية العصر المشيحاني. وحينما اعتلى هيرود العرش وجد هيكل زروبابل متواضعاً فقرر بناء هيكل آخر لإرضاء اليهود، ولكنه قرر في الوقت نفسه بناء هيكل لآلهة روما لإرضاء الإمبراطور الروماني، ويبدو أن الهيكل الروماني لم يختلف عن الهيكل اليهودي في معماره. بدأ هيرود البناء عام ٢٠-١٩ ق. م فهدم الهيكل القديم واستمر العمل في البناء وقتاً طويلاً، ومات دون إتمامه. استمر البناء حتى عهد أجريبا الثاني (٦٤م)، بل كانت تنقصه بعض اللمسات عندما هدمه تيتوس عام ٧٠م.

بُني الهيكل على الطراز اليوناني الروماني السائد، وقد وسَّع هيرود نطاقه ليضم مساحة واسعة وكانت له عدة بوابات وأربعة جسور.

الهيكل الثالث

«الهيكل الثالث» مصطلح ديني يهودي يشير إلى عودة اليهود بقيادة الماشيَّح إلى صهيون لإعادة بناء الهيكل في نهاية الأيام. والهيكل الأول هيكل سليمان الذي هدمه نبوختنصر والثاني هيكل هيرود. والهيكل الثالث مرتبط بالرؤى الأخروية لا بالتاريخ الإنساني، ومع هذا فقد صبغ الصهاينة هذه الرؤية بصبغة علمانية وجعلوا الاستيطان الصهيوني هو العودة المشيحانية، وبالتالي فإن الدولة الصهيونية هي الهيكل الثالث.

مراسم العبادة في الهيكل

كانت مراسم العبادة في الهيكل تختلف من فترة لأخرى، لكن ملامحها الأساسية ظلت ثابتة. ففي كل صباح كان أحد الكهنة ينظِّف ضريح القرابين من الرماد ثم يذكي النار. وبعد ذلك تُقدَّم القرابين الجديدة المكونة من حَمَل وخبز ومشروبات. وكان الكاهن الأعظم يدخل البهو المقدَّس ويُنظِّف الشمعدانات ويحرق البخور ويُقدِّم قربان خبز الوجه. وعند الغروب كانت معظم الشعائر تُعاد من جديد. وفي يوم الغفران كان الكاهن الأعظم يدخل قدس الأقداس وينطق باسم يهوه، وهو ما كان يُعدُّ ذروة العبادة. ولحظة النطق باسم يهوه تشكل نقطة التماس بين الإله والشعب والأرض، ففيها يتجسد الحلول الكامل.

والعبادة القربانية المركزية تدور في إطار حلولي، ولذا يُلاحظ أن القداسة تتغلغل تماماً في المؤسسات القومية السياسية. وكان المعبد المركزي والعبادة القربانية المركزية التعبير المتعين عن تداخل المطلق والنسبي، والمقدس والزمني، وكانت الشرعية السياسية متداخلة مع الشرعية الدينية. ويُلاحظ أن تأسيس الأسر المالكة في الشرق الأدنى القديم كان يصاحبه تأسيس معبد مركزي، ولم يكن العبرانيون القدامى استثناء من القاعدة. وقد كان الهيكل يعطي الدولة الجديدة هيبة أمام الزوار الأجانب ويؤكد لهم شرعية النظام الجديد.

قدس الأقداس

«قدس الأقداس» أقدس الأماكن في هيكل القدس، وهو مكعب حجري مصمت بلا نوافذ أقيم على مستوى أعلى من الجزء المسمَّى «الهيكل» في هيكل سليمان. كان قدس الأقداس يضم تابوت العهد. ولما كان قدس الأقداس أكثر الأماكن قداسة لدى اليهود ولا يحق لهم أن تطأه أقدامهم، فقد كان يُحرَّم عليهم أن يذهبوا إلى جبل موريا (جبل بيت المقدس) أو هضبة الحرم التي يوجد فيها المسجد الأقصى حتى لا يدوسوا على الموضع القديم لقدس الأقداس عن طريق الخطأ. ويزعم الحاخام شلومو جوريون أن أبحاثه حدَّدت مكان قدس الأقداس بدقة، ومن ثَمَّ يحق لليهود دخول منطقة المسجد الأقصى.

الحج

يتعيَّن على كل يهودي أن يحج ثلاث مرات في العام إلى القدس: عيد الفصح، وعيد الأسابيع، وعيد المظال، ولذا تسمَّى هذه الأعياد «أعياد الحج». وكان اليهود يقدمون في حجهم قرباناً مشوياً للهيكل «الشواء» حيث كان يُحرق تماماً فلا يبقى منه شيء للكهنة. كان اليهود يحجون إلى مكان غير القدس يسمَّى «شيلوه»، وحين دخل داود القدس أصبحت مكان العبادة اليسرائيلية والمكان الذي يحج إليه أعضاء جماعة يسرائيل. وقد أسس ملوك المملكة

الشمالية هيكلاً حتى لا يحج أحد منها إلى القدس في المملكة الجنوبية. وبعد هدم الهيكل توقَّف الحج وبخاصة في عيد المظال. وقد بُعثت فكرة الحج في القرون الوسطى تحت تأثير القرابين. أما الآن فلا يؤدي فريضة الحج سوى المغالين في التقوى.

هدم الهيكل

تشير عبارة «هدم الهيكل» عادةً إلى عملية هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠م، وإن كان من المعروف أن نبوختنصر هدمه من قبل عام ٥٨٦ ق.م. كما أن هيرود هدمه عام ٢٠-١٩ ق.م ليعيد بناءه مرة أخرى. وحسب الكتابات الفقهية اليهودية هُدم الهيكل في ٧ أو ١٠ آب (أغسطس). وتذهب الكتابات الصهيونية إلى أن هدم الهيكل سبب تشتُّت اليهود في المنفى على هيئة أقليات، رغم أن انتشارهم في بقاع الأرض كافة بدأ قبل ذلك بزمن طويل ودون قسر. وتجب ملاحظة الفرق بين عمليتي هدم الهيكل ونهبه، إذ نُهب عدة مرات قبل هدمه. ويرى بعض حاخامات اليهود أن هدم الهيكل كان عقاباً لليهود على ما اقترفوه من ذنوب، وهذا الرأي يأخذ به المسيحيون حيث يرون أن ذنب اليهود الأكبر هو إنكار أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح. وفي الكتابات العبرية يشار إلى هدم الهيكل بكلمة «حوربان» التي تستخدم للإشارة إلى أي دمار يلحق اليهود، ومن ذلك الإبادة النازية ليهود أوربا.

نهب الهيكل

كان الهيكل يعتبر المصرف القومي للدولة العبرية يرسل إليه العبرانيون القرابين والنقود، ويودع الأثرياء فيه نقودهم، كما كانت تُحفَظ فيه رموز الدولة. ولذا كانت القوات الغازية تحاول أثناء الحروب نهب الهيكل كنوع من الحرب الاقتصادية، ونوع من ضرب الشرعية السياسية. وإلى جانب النهب كان ملوك المملكة الجنوبية أحياناً يضطرون لأخذ بعض كنوزه لدفع الجزية المفروضة عليهم من الإمبراطوريات المهيمنة. وقد تعرَّض الهيكل لعمليات نهب كثيرة.

إعادة بناء الهيكل

تستخدم عبارة «إعادة بناء الهيكل» بمعنيين:

الأول: إعادة بناء الهيكل بعد عودة اليهود من بابل، ومن ثَمَّ يسمَّى «الهيكل الثاني» تمييزاً له عن الهيكل الذي هدمه نبوختنصر. واستخدام العبارة بهذا المعنى نادر.

الثاني: هو الاستخدام الأكثر شيوعاً باعتبار أن الهيكل الثاني هو الذي بناه هيرود وهدمه تيتوس.

ويذهب الفقه اليهودي إلى أن الهيكل لابد أن يُعاد بناؤه وتُقام فيه شعائر العبادة القربانية مرةً أخرى. ولهذا تم تدوين الشعائر في التلمود مع وصف دقيق للهيكل. وتتضارب الآراء، مع هذا، حول موعد بناء الهيكل وكيفية بنائه. والرأي الغالب فقهيا هو أن اليهود يجب عليهم أن ينتظروا حلول العصر المشيحاني بمشيئة الإله، وعندئذ يمكنهم بناؤه. والتعجيل بالبناء نوع من الهرطقة. وهناك رأي فقهي يرى أن على اليهود إقامة بناء مؤقت قبل العصر المشيحاني، وهو رأي الأقلية، ولكنه ظل موجوداً بسبب طبيعة اليهودية كتركيب جيولوجي.

وقد استفاد الصهاينة من هذا التناقض فوصفوا الرؤية الأرثوذكسية بالسلبية وقرروا أخذ زمام الأمور في أيديهم. وينقسم اليهود في العصر الحديث إزاء مسألة بناء الهيكل إلى فريقين: صهاينة، وغير صهاينة. أما غير الصهاينة فيعارضون العودة الفعلية ومن ثَمَّ يعارضون إعادة بناء الهيكل. فالإصلاحيون يرون أن الهيكل لا يمكن إعادة بنائه أبداً. أما الأرثوذكس فيرون أن إعادة بناء الهيكل مرتبطة بعودة الماشيَّح. ويرى المحافظون أنها مجاز. أما الصهاينة فينقسمون في موقفهم من إعادة بناء الهيكل إلى دينيين ولادينيين. اللادينيون لا يهتمون كثيراً بالعبادة القربانية وإعادة بناء الهيكل، ويرون محاولات الصهاينة المتدينين إعادة بناء الهيكل مسألة هوس ديني يهدد المستوطَن الصهيوني بالخطر دون فائدة مادية ملموسة. ويرى الصهاينة المتدينون (المتطرفون) المسألة من منظور أن إعادة بناء الهيكل ذات أهمية مركزية لهم، وهم يركزون جل اهتمامهم عليها. وقد حدثت عدة محاولات من جانب الجماعات الصهيونية تستهدف تفجير الأماكن المقدَّسة. وهناك منظمة يهودية تسمَّى «أمناء جبل الهيكل» تجعل بناء الهيكل الثالث هدفها الأساسي. ورغم هذا الانقسام بشأن إعادة بناء الهيكل فإن بعض الأطروحات التي كانت تصنَّف في الماضي بوصفها دينية مهووسة صارت مقبولة بل أصبحت جزءاً أساسيا من الخطاب السياسي الصهيوني، أو ضمن برامج الأحزاب المعتدلة. وعادةً ما توظف المؤسسة الصهيونية الحاكمة الصهاينة الدينيين في تحقيق أهدافها، ولهذا يسمحون لهم بإقامة احتفالاتهم السنوية بوضع حجر أساس الهيكل حتى يظل القدس والحرم الشريف، بل الحق العربي ككل، موضع تساؤل وخاضع للتفاوض. ويرى المسيحيون الأصوليون أن إعادة بناء الهيكل الشرط الأساسي للعودة الثانية للمسيح. وقد عُقد عام ١٩٩٠ مؤتمر في إسرائيل لمناقشة القضية.

حائط المبكى

«حائط المبكى» هو «الحائط الغربي»، ويسميه المسلمون «حائط البراق». يقال إنه جزء من السور الخارجي الذي بناه هيرود ليحيط بالهيكل والمباني الملحقة به، ويعتبر من أقدس الأماكن عند اليهود في الوقت الحاضر. يبلغ طوله مائة وستين قدماً وارتفاعه ستون قدماً. سُمي باسم حائط المبكى لأن الصلوات حوله تأخذ شكل عويل ونواح. وجاء في الأساطير اليهودية أن الحائط نفسه يذرف الدمع في التاسع من آب (أغسطس) يوم هدم الهيكل على يد تيتوس. والتاريخ الذي بدأت تقام فيه الصلوات بالقرب من الحائط غير معروف. وحتى القرن السادس عشر نجد أن المصادر التي تتحدث عن يهود القدس تشير إلى ارتباطهم بموقع الهيكل وحسب. ويبدو أنه أصبح محل قداسة بدءاً من ١٥٢٠م بعد الفتح العثماني وهجرة يهود المارانو حَمَلَة لواء النزعة الحلولية المتطرفة في اليهودية، فالنزعة الحلولية تظهر دائماً في شكل تقديس الأماكن والأشياء. كما أن وجودهم داخل التشكيل الحضاري الإسلامي ترك أثره العميق فيهم، فشعيرة الحج إلى مكة والطواف حول الكعبة وجدت صداها في تقديس حائط المبكى.

٧ـ تواريخ الممالك العبرانية

الملوك والملكية

بعد أن تسلَّل العبرانيون في كنعان بسنوات بدأ الطابع الاقتصادي والاجتماعي يتغير تأثراً بالبيئة الكنعانية. وحسب القصة التوراتية، فإن الشعب طلب إلى صموئيل أن يجعل لهم ملكاً مثل الشعوب الأخرى المحيطة بهم، فتُوِّج عليهم شاؤول، ثم داود (١٠٠٤ـ٩٦٥ ق.م.) فوحَّد القبائل العبرانية فيما يسمى «المملكة العبرانية المتحدة». وخلفه ابنه سليمان، ثم انقسمت المملكة إلى مملكتين. وقد ساهمت الملكية في إضعاف النظام القَبَلي بظهور سلطة مركزية قسَّمت الأرض إلى مناطق إدارية لا تتفق بالضرورة مع التقسيمات القَبَلية السابقة. ولذا أصبحت القيادات القَبَلية مجرد رموز شكلية ليس لها وظيفة محددة. وقد ساد الحكم الملكي بين العبرانيين في المملكة المتحدة ثم في المملكتين الشمالية والجنوبية، ومع هجوم الآشوريين ثم البابليين أُسر آخر ملوك العبرانيين.

شاؤول (١٠٢٠ـ١٠٠٤ ق.م.)

«شاؤول» أول ملوك العبرانيين من قبيلة بنيامين. توَّجه صموئيل بعد أن طلب منه الشعب ذلك. كان شاؤول يسكن خيمة ويعيش حياة شيخ قبيلة بدوي، وكان أقرب إلى القائد العسكري منه إلى الملك. لم تمتد حدود مملكة شاؤول أبعد من منطقة قبيلة بنيامين. قام بحملات تأديبية ضد القبائل المعادية، وألحق به الفلستيون هزيمة نكراء وقتلوا ثلاثة من أبنائه، وأصابوه هو نفسه بجراح خطيرة فانتحر. تم تتويج أحد أبنائه ملكاً على جزء من فلسطين لبعض الوقت، لكن صموئيل توَّج داود محله.

يوناثان

«يوناثان» ابن شاؤول البكر، كان قائد قوات العبرانيين في عهد أبيه. وعندما شعر شاؤول بأن داود يغار منه غيرة مجنونة قام بحمايته، ولم يشعر يوناثان نحو داود بالحقد حين عرف أنه سيتولى العرش. قُتل يوناثان في المعركة الأخيرة مع الفلستيين ورثاه داود.

المملكة العبرانية المتحدة: ظهورها وانقسامها

المملكة المتحدة هي، في واقع الأمر، اتحاد القبائل العبرانية، وسُميت «مملكة يسرائيل». ولكن الفضل الحقيقي في تأسيس المملكة يعود إلى داود. وقد تمكَّن العبرانيون من تأسيس مملكتهم حوالي ١٠٢٠ ق.م. بسبب حالة القوى المجاورة لفلسطين وانشغالها بصراعات أخرى أو ضعفها. وبعد موت سليمان، انقسمت المملكة العبرانية المتحدة إلى دولتين: المملكة الشمالية (يسرائيل ـ إفرايم) والمملكة الجنوبية (يهودا). وخلال فترة اتحاد القبائل في عصر داود وسليمان، حيث تعتبر أكثر عهود العبرانيين رفاهية واستقراراً، ظل الاقتصاد معتمداً على المعاملات المالية والضرائب. أما الصناعة فكانت متخلفة جدا عما كانت عليه في الدول المجاورة، وحتى قبل عهد سليمان بزمن قصير لم تكن هناك صناعات إلا صناعة الخزف، وصناعة الحديد، بشكل بدائي. وقد كانت العلاقة بين المملكتين علاقة عداء طوال تاريخهما، وكانتا تدخلان في تحالفات مع الدول المجاورة في صراعهما الواحدة ضد الأخرى. ويشكك زئيف هرتزوج، المؤرخ الإسرائيلي، في وجود المملكة العبرانية أصلاً، مؤكداً أننا لا نعرف لها اسماً إذ لم يرد ذكرها أساساً في أيٍّ من المدونات التاريخية.

داود (١٠٠٤-٩٦٥ق.م.)

«داود» ثاني ملوك العبرانيين، يرجع نسبه إلى إسحق بن إبراهيم. تولى العرش عام ١٠٠٤ ق. م. حتى وفاته عام ٩٦٥ ق. م. وداود حسب العقيدة الإسلامية نبي ملك، ولكن حسب العقيدة اليهودية ملك وحسب، ويحيطه التراث اليهودي بحكايات تجعله يتصف بصفات غير محمودة. عمل داود حامل دروع عند شاؤول، وأظهر شجاعة غير عادية في قتال الفلستيين. تزوج ابنة الملك شاؤول لكن شعبية داود أثارت الملك ضده فهرب واحتمى بأعدائه. بعد هزيمة شاؤول على يد الفلستيين وانتحاره، عاد داود إلى الخليل (حبرون)، وتوَّجه صموئيل ملكاً على يهودا. أسس داود المملكة المتحدة، وخلال سنوات من حكمه فتح القدس وجعلها عاصمة لمملكته وبنى فيها معبداً، وأودع فيه تابوت العهد.

ويتم تصوير داود كشاعر ومحارب وعاشق يرتكب الذنوب بسرعة غريبة ثم يندم عليها بالسرعة نفسها، وقصته التي ترويها التوراة أقرب ما تكون إلى قصة حياة زعيم همجي منها إلى قصة حياة رئيس جماعة يدعو إلى ديانة متطورة أخلاقياً. فقد نسبت إليه التوراة أنه اغتصب بتشبع زوجة أوريا الحيثي أحد رجاله العسكريين، فقد رآها عارية وهي تستحم فدفع زوجها للجبهة حتى يموت في الحرب وينفرد بامرأته. لكن الإله برغم كل معاصي داود كان يصطفيه ويغفر له.

سليمان (٩٦٥-٩٢٨ق.م.)

«سليمان» ثالث ملوك العبرانيين، ويعتبر عند اليهود ملكاً وليس نبياً. تحولت القدس في عهده إلى مدينة تجارية وبنى أسطولاً لنقل البضائع في البحر الأحمر. قام سليمان ببناء الهيكل في القدس. وفي عهده نعمت المملكة بالسلام بسبب تحالفات عقدها هو وأبوه من قبله، ورغم ذلك كان اقتصادها محدوداً وكانت الصناعة فيها بدائية جدا. في أواخر حكم سليمان بدأت تظهر مشاكل داخلية وخارجية حادة، وسخطت قبائل الشمال بسبب الضرائب التي فرضها لتنفيذ أعمال البناء التي قام بها. وبعد وفاته انقسمت المملكة إلى مملكتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب. وحسب الكتابات الماسونية، يُعد سليمان مؤسِّس أول محفل ماسوني في العالم باعتباره باني الهيكل.

المملكة الجنوبية (يهودا)

بعد موت سليمان عام ٩٢٨ ق. م. وانقسام اتحاد القبائل العبرانية (المملكة العبرانية المتحدة) إلى مملكتين، سُميت المملكة الجنوبية «يهودا»، وسُميت المملكة الشمالية «مملكة يسرائيل» أو «المملكة الشمالية». كانت القدس عاصمة مملكة يهودا التي تقع على البحر الميت، ولم يكن لها ساحل على البحر الأبيض. وكانت المملكة الجنوبية أكثر استقراراً من المملكة الشمالية بسبب صغر حجمها، إذ بلغ ثُلث المملكة الشمالية، وكذلك لقلة أهميتها وبُعدها عن طرق الجيوش الغازية. وقد شغل عرش يهودا تسعة عشر ملكاً، ودامت نحو قرن وثُلث بعد زوال المملكة الشمالية. وبعد زوال المملكة الشمالية أصبحت المملكة الجنوبية معرضة بشكل مباشر لنفوذ جيرانها الأقوياء وبخاصة النفوذ الآشوري.

المملكة الشمالية (يسرائيل-إفرايم)

بعد موت سليمان عام ٩٢٨ ق. م. وانقسام اتحاد القبائل العبرانية (المملكة العبرانية المتحدة)، أُطلق اسم «يسرائيل» أو «إفرايم» على المملكة الشمالية، وأحياناً كانت تُسمَّى «السامرة» نسبة إلى عاصمتها. كانت المملكة الشمالية تضم نهر الأردن والضفة الغربية ونابلس والجليل وأجزاء من الضفة الشرقية. وكان لهذه المملكة شريط ساحلي، وكانت مساحتها ٣ أضعاف مساحة المملكة الجنوبية. وقد سقطت المملكة الشمالية بعد صراع داخلي تدخلت فيه آشور واستولت عليها وحولتها إلى مقاطعة آشورية.

التهجير الآشوري والبابلي

يشار إلى تهجير العبرانيين على يد الآشوريين والبابليين بأنه «السبي» أو «النفي» الآشوري أو البابلي. وهي ترجمة شائعة للمصطلح التوراتي وجدت طريقها إلى الكتابات التاريخية التي تتناول تاريخ العبرانيين وتاريخ الشرق الأدنى القديم. لكن هذا المصطلح لا يستخدم إلا للإشارة إلى العبرانيين وحدهم دون الأقوام والجماعات الأخرى التي تم سبيها أو تهجيرها في الحقبة نفسها، وتحت الظروف نفسها، وعلى يد القوى نفسها. وكمحاولة لتحييد المصطلح، نعبر عن هذا المفهوم بكلمة «تهجير»، فكلمة «نفي» أو «سبي» تعني أن المهجرين كانوا يرفضون الاستقرار في بابل، وأنهم مكثوا فيها لأنهم كانوا مكرهين، والتاريخ يكذب ذلك، فعندما صدر مرسوم قورش رفض كثير منهم العودة.

وكان التهجير القسري للحاكم والحرفيين وبعض العناصر ذات الأهمية الخاصة أمراً شائعاً في العصور القديمة. لكن كنعان بسبب موقعها الجغرافي كانت عرضة لذلك أكثر من غيرها.

ويبدو أن بعض الإمبراطوريات القديمة في الشرق الأدنى القديم كانت تلجأ للتهجير بدلاً من الاحتلال لافتقارها للفائض البشري الذي يسمح بظهور جيش نظامي دائم وقوة احتلال مستمرة وجهاز إداري يدير الأراضي المفتوحة. فكانت الإمبراطورية تلجأ إلى تهجير النخبة وتفرض الجزية على المهزومين وتترك لهم إدارة شئون حياتهم عن طريق نخبة محلية موالية للإمبراطور وتقوم بدور الجماعة الوظيفية. وقد بدأ أول تهجير من المملكة الشمالية بعد أن قاد ملك آرام دمشق تمرداً ضد آشور فجرَّد تيجلات بلاسر الثالث حملة ضد سوريا وهجَّر رؤساء القبائل القاطنين شرق الأردن. وعندما سقطت المملكة الشمالية في يد الآشوريين تماماً تم تهجير رؤساء القبائل والعشائر العبرانيين وبعض الفلاحين والحرفيين.

وبعد سقوط المملكة الجنوبية في يد البابليين هجَّروا زعماءها، وقد استمرت فترة التهجير البابلي خمسين عاماً. وهنا يجدر إبراز عدة أمور:

أولاً: أن التهجير شمل عناصر بشرية أخرى غير العبرانيين.

ثانياً: أن التهجير الآشوري والبابلي كليهما لم يترك أرض فلسطين خراباً، فقد بقي سكان يعدون بمئات الألوف.

ثالثاً: هذا التهجير أو السبي لم يكن رهيباً على نحو ما تصوِّره بعض الكتابات اليهودية، حتى بالقياس إلى ظروف تلك الأيام.

وقد انقسمت الجماعات العبرية المهجَّرة إلى طبقات: أثرياء امتلكوا مزارع كبيرة، وفقراء هاجروا للمدينة واشتغلوا بالتجارة. كما هاجرت بيوت تجارية يهودية كبيرة. وقد رفض كثير من اليهود، وبخاصة الأثرياء، العودة إلى فلسطين بعد مرسوم قورش، واكتفوا بدفع مساعدات مالية لمن عادوا. ويقال إن نسبة كبيرة من العائدين كانوا من أحفاد الأسر الأرستقراطية والكهنوتية ذات الوضع المتميز المرتبط بالهيكل والعبادة القربانية. وكانوا يعرفون أنهم بعودتهم سيكونون نخبة حاكمة أو جماعة وظيفية مرتبطة بالفرس. ولم يعد من بابل سوى أقلية بسبب معدلات الاندماج العالية التي حققها المهاجرون. وقد انفصل المهجَّرون إلى بابل بالتدريج عن فلسطين، ووجدوا فيها الرعاية كما كانوا بعيدين عن اضطهاد الرومان، كما وجدوا الرعاية من المسلمين بعد ذلك. وأصبحت العراق مركز الحياة اليهودية والعالم اليهودي حتى القرن العاشر الميلادي. ويرى كثير من المفكرين أن اليهودية بدأت كدين، بالمعنى الكامل للكلمة، في المهجر البابلي.

السبي الآشوري والبابلي (مفهوم ديني)

«السبي الآشوري البابلي» مصطلح ديني يهودي مرادف لمصطلح «النفي البابلي»، وهو يصف عملية تهجير النخبة الحاكمة العبرانية من أبناء المملكتين الشمالية والجنوبية. وكان بعض الأنبياء يرى أن النفي أو السبي تعبير عن غضب الإله على الشعب بسبب انحرافه وعصيانه. وقد أثارت قصة السبي مشكلة عدالة الإله وكيف تخلَّى عن شعبه. ويتواتر في الكتب الدينية الحديث عن العودة والحنين إلى صهيون والبكاء من أجلها. ومع هذا فإن إرميا طالب المنفيين بأن يبنوا بيوتهم ويستقروا في الوطن الجديد. وبعد أن هزم قورش الأخميني بابل سمح لليهود بالعودة (٥٣٨ ق.م.) ولذا تحوَّل قورش في الوجدان الديني اليهودي إلى المخلص بل الماشيَّح. وبشَّر كل من أشعياء الثاني وحجاي بالعودة، وقد عاد الاثنان بالفعل واشتركا في عملية إعادة تشييد الهيكل.

وقد أصبح السبي أو النفي إلى بابل ثم الخروج منها والعودة إلى فلسطين، مثل العبودية في مصر ثم الخروج منها والتسلل إلى كنعان، نمطاً متكرراً يعيد نفسه عبر التاريخ المقدس. ويحاول الصهاينة أن يطبقوا ذلك على التاريخ غير الديني. وقد أصبحت كلمة «بابل» تشير إلى تفضيل الحياة في المهجر، فكثير من المنفيين رفضوا العودة، والأدبيات الصهيونية تشير للولايات المتحدة باعتبارها «بابل».

يهوديت

«يهوديت» اسم عبري يعني «يهودية»، وتشبه قصة صاحبته قصة أستير من وجوه عديدة، كما أن لها صلة بقصة شمشون. وقد جاء فيها أن نبوختنصر هاجم العبرانيين واستولى على المنابع التي تمدهم بالماء وأوشك أن يقضي عليهم، فاتصلت يهوديت بقائد نبوختنصر وفتنته بجمالها، وفي إحدى الليالي قطعت رأسه بعد أن ثمل وأنقذت العبرانيين. والواقعة ليس لها أي سند تاريخي. ويبدو أن سفر يهوديت كُتب أثناء التمرد الحشموني لبث روح الشجاعة في قلوب اليهود. وقد كُتب أساساً بالعبرية ولم يبق إلا ترجمته اليونانية، وهو من الكتب الخفية (الأبوكريفا).

قبائل يسرائيل العشر المفقودة

هناك بعض الأساطير المتصلة بمصير القبائل العشر من سكان المملكة الشمالية. ومن المعروف أنه بانقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين، انقسمت القبائل العبرانية الاثنتا عشرة إلى قسمين: عشر قبائل في المملكة الشمالية، وقبيلتا يهودا وبنيامين في المملكة

الجنوبية. وحينما هجَّر الآشوريون أعداداً من القيادات الشمالية وغيرهم من العناصر البشرية المهمة إلى آشور انصهروا من خلال الاندماج في المجتمع والانخراط في سلك الديانات الوثنية العديدة، وقد تمت هذه العملية بسرعة غير عادية. وقد انصهر العبرانيون الذين بقوا، على الأرجح، عن طريق التنصر، وامتزج بعضهم في المستوطنين الجدد وكونوا فرقة يهودية جديدة تعرف بالسامريين.

ولكن كثيراً من اليهود لم يتقبلوا اختفاء القبائل العشر باعتباره حقيقة نهائية، بل اعتبروهم مفقودين، ويزخر التراث اليهودي بتصورات عن محل إقامتهم المحتمل، ونبوءات عن عودتهم إلى وطنهم. وقد أصبح البحث فعليا عن القبائل العشر الضائعة محل اهتمام كثير من الرحالة الأوربيين المسيحيين واليهود المتأثرين بهذه الكتابات.

وفي الوقت الحاضر حينما تظهر أية جماعة يهودية كانت منعزلة عن العالم وعن اليهودية الحاخامية، عادةً ما يُشار إليها بأنها أحد أسباط إسرائيل العشرة المفقودة.

٨ـ الفرس واليونان والرومان

الفرس (الميديون والأخمينيون والفرثيون والساسانيون)

يرجح أن الفرس قبائل آرية، ومن هنا تسمية فارس فيما بعد «إيران» أي «أرض الآريين». وقد كان منهم الميديون والأخمينيون والفرثيون والساسانيون وغيرهم. أما الميديون فهم يُنسبون إلى إقليم في إيران هو إقليم «ميديا» موطنهم. وهم قبائل قدمت إلى إيران في الألف الأول قبل الميلاد ونزلت كل قبيلة في مكان فأصبح يسمَّى باسمها. فنزل الميديون في الغرب ونزل الفرس في الجنوب الغربي ونزل الفرثيون في الشرق.

والميديون من أقوى القبائل الفارسية، ولذا كان لهم استقلال نسبي عن القبائل الأخرى. ويبدو أن اليهود المهجرين من المملكة الشمالية نقلوا إلى المنطقة التي كان يسكنها الميديون. وقد وصلت إمبراطورية الميديين ذروتها في القرن السابع قبل الميلاد فلعبوا دوراً أساسيا في إسقاط الإمبراطورية الآشورية، ولكن قورش وضع نهاية لهذا عندما ضم ميديا للإمبراطورية الفارسية عام ٥٤٩ ق. م. وجعلها أحد المراكز الإدارية للدولة. وقد احتلها الإسكندر عام ٣٣٠ ق. م. فأصبحت من نصيب السلوقيين. وفي نهاية الأمر اندمج الميديون مع الفرس.

أما الأخمينيون فيشكلون بطناً من قبيلة فارسية استقرت في منطقة عيلام، ومنهم قورش الأخميني. وقد هاجرت القبائل التي ينتمي إليها الأخمينيون من بحر قزوين خلال الألف الأول قبل الميلاد، وخضعت هذه القبائل لحكم العيلاميين ثم لحكم الآشوريين. وفي القرن السابع قبل الميلاد استقرت هذه القبائل في جنوب غرب إيران وسمي باسمها. وقد ظلت القبائل الفارسية تعيش حتى تمكَّن قورش (الثاني) الأكبر من تأسيس مملكة مترامية الأطراف امتدت من فارس إلى مصر. وبعد فترة من الثورات والفوضى نجح دارا الأول في تنظيمها إلى عشرين مقاطعة بينها مقاطعة "عبر النهر" التي كانت تضم يهودا، وكانت تمتد من الفرات لحوض البحر المتوسط. وعندما ضم قورش فلسطين إلى الإمبراطورية الفارسية سمح للعبرانيين بالعودة إلى فلسطين، لكن أثرياء اليهود الذين حققوا مكاسب اقتصادية وكذلك الفقراء لم يتحمسوا لها، أما بقايا الكهنة والأسرة الحاكمة العبرانية فكانوا من أكبر المتحمسين لها، لأن ارتباطهم بالعبادة القربانية المركزية كان يعني أن يصبحوا نخبة جديدة. ويلاحظ أن العائدين كانوا قد نسوا لغتهم العبرية وأصبحوا يتحدثون الآرامية. كما أن العبادة اليسرائيلية بدأت تتحول إلى العقيدة اليهودية. وقد تحولت النخبة إلى جماعة وظيفية تخدم المصالح الفارسية. وتحوَّلت العودة إلى مقاطعة يهودا الفارسية في الوجدان اليهودي إلى خروج ثان.

ورغم انتشار اليهود على هيئة جماعات في أطراف الإمبراطورية الفارسية، فإنها ظلت كلها، ومنها فلسطين داخل الدولة الأخمينية الفارسية. وقد أدى قيام الإسكندر بغزو الإمبراطورية الفارسية وضم فلسطين وأجزاء كبيرة من الإمبراطورية الفارسية إلى القضاء على وحدة اليهود التي كانت مرتبطة بوحدة الإمبراطورية الفارسية، وبعد غزو الإسكندر لابد أن نتحدث عن تواريخ يهودية.

قورش الأكبر (٥٤٦ـ ٥٣٠ق.م)

«قورش الأكبر» مؤسس الإمبراطورية الفارسية (الأسرة الأخمينية). كان حاكماً لدويلة تابعة للميديين لكنه تخلَّص من هيمنتهم، ثم أسَّس إمبراطورية مترامية الأطراف. فتح بابل ووجد جماعة يهودية يعود أصلها إلى سبي نبوختنصر، ويبدو أنها ساعدت على احتلال المدينة. وقد اختط قورش سياسة جديدة تختلف عن سياسة الإمبراطوريات السائدة حتى ذلك الوقت، ففصل القصر عن المعبد وتقبَّل التعددية الدينية، وقد طبق ذلك على اليهود فسمح لهم

بالعودة إلى القدس ليعيدو بناء الهيكل. وقورش غير اليهودي الوحيد الذي أشير إليه في العهد القديم بأنه الماشيَّح.

وخطة قورش خطة صهيونية كاملة هي أن يعود اليهود ليصبحوا قاعدة لدولة إمبراطورية صهيونية استيطانية، وتكون عودتهم جزءاً من سياستها الإستراتيجية العامة. أما بقية اليهود فيقومون بتمويل عملية العودة. ويمكن أن نشير إلى عقدة قورش، أي عقدة الزعيم غير اليهودي الذي يسعى لإعادة اليهود إلى وطنهم، ويحرز بذلك مكاناً بارزاً لدى الجماعات اليهودية.

دارا (داريوس) الأول (٥٢٢-٥١٥ ق.م.)

«دارا» أو «داريوس الأول» أحد أباطرة الفرس. اتسمت سنوات حكمه الأولى بالحرب المستمرة لإخماد الثورات ضده في أنحاء الإمبراطورية. ويبدو أن ضعف الدولة بعث الآمال في قلوب اليهود لأن تستعيد المملكة اليهودية استقلالها، وقد قضى دارا على هذه الآمال، ورغم ذلك سمح لهم بالاستمرار في بناء الهيكل لتهدئة اليهود.

الفرثيون

«الفرثيون» سكان إقليم فرثيا أو بارثيا (خراسان) الذي كان يقطن فيه أحد الشعوب الإيرانية (الآرية). حصل هذا الإقليم على الاستقلال في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد أيام سلوقس الثاني، واتسعت الدولة بما استولت عليه من أقاليم الدولة السلوقية حتى ضمت إيران والعراق ومعظم بلاد الأفغان وقسماً من تركيا وأقاليم كانت تابعة للاتحاد السوفيتي (سابقاً). ومع القرن الثاني قبل الميلاد استولى الفرثيون على سورية ولم ينجحوا في ضم فلسطين. كان عدد اليهود في بابل التي كانت تابعة للدولة الفرثية كبيراً جدا يقدَّر بحوالي ٨٠٠ ألف إلى ١,٢ مليوناً.

كانت الدولة الفرثية لا مركزية وانعكس هذا على وضع اليهود فتمتعوا بقدر كبير من الاستقلال وظهرت طبقة يهودية أرستقراطية مندمجة في محيطها الحضاري. وقد ظهرت وظيفة رأس الجالوت (المنفى) وتم تأسيس حلقة سورا التلمودية التي كانت مركز الحياة الفكرية والدينية لليهود لمئات السنين. وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من وجودهم في الإمبراطوريتين الرومانية والفرثية بتكوين شبكة تجارية عالمية. وقد كان من إمارات الدولة الفرثية إمارة حدياب التي تهودت أسرتها المالكة، ولم تكترث الجماهير لذلك، أما النبلاء فقاوموا التهود. وقد سقطت الأسرة الفرثية حوالي عام ٢٢٤م وورثتها الإمبراطورية الساسانية.

الساسانيون

تمكَّن الفرس الساسانيون بقيادة أردشير الأول (٢٢٦-٢٤٠م) من إسقاط الدولة الفرثية وتأسيس مملكة فارسية باسم الدولة الساسانية. وسَّع أردشير الأول إمبراطوريته حتى شملت مصر واليمن، وكانت أكثر مركزية من الإمبراطورية الأخمينية. وقد تبنى الساسانيون الزرادشتية ديانة رسمية للدولة، وهو ما جعلها تنتهج سياسة أقل تسامحاً إزاء اتباع الأديان الأخرى، لكن المسيحيين كانوا المستهدفين الحقيقيين من هذه السياسة بسبب تعاطفهم مع روما التي جعلت المسيحية ديانتها الرسمية. وقد شهدت هذه الفترة هجرة كثير من يهود فلسطين هرباً من الاضطهاد المسيحي. ومع هذا شهد القرن الخامس الميلادي، حملة ضد اليهود وغيرهم من الأقليات في محاولة لتشجيع الديانة القومية التي كانت تهددها منافسة المسيحية والمانوية.

وفي أواخر القرن الخامس الميلادي انتشر مذهب مزدك (الشيوعي الإباحي) الذي تبناه قمباز الأول ثم تراجع عنه تحت ضغط النبلاء والكهنة، وهذه الفترة المضطربة ألحقت بعض الأذى بأعضاء الجماعة اليهودية. وقد شهدت فترة حكم قمباز الأول تمرد رأس الجالوت (المنفى) مار زوطرا الثاني (٥١٣)، فأسَّس كياناً سياسيا استمر سبع سنوات تمتع فيها باستقلال ذاتي. وعندما ضم الساسانيون فلسطين عام ٦١٤م رحب بهم اليهود، إذ رأوا فيهم خلاصاً من الاضطهاد المسيحي، وحينما استعاد البيزنطيون فلسطين مرة أخرى عام ٦٢٩م نكلوا بيهود فلسطين، وهي الفترة التي انتهت بالفتح الإسلامي (٦٣٠-٦٤٠م).

ويمكن القول بأن الفترة الفارسية قبل الإسلام كانت فترة مهمة في تاريخ اليهود في الشرق الأدنى القديم، فتأثرت العقيدة اليهودية نفسها بأفكار دينية إيرانية. وقد بدأت اليهودية تأخذ في هذه الفترة الشكل الذي استقرت عليه حتى بداية القرن التاسع عشر، وازدهرت الحلقات التلمودية في سورا ونهاردعة وبوميديثا، وفيها وضعت تفسيرات التوراة التي جُمعت لتشكل التلمود البابلي الذي أصبح أهم الكتب الدينية عند اليهود.

إستير

يَغلُب الظن أن اسم «إستير» ذو أصل هندي انتقل إلى الفارسية، وإستير اسمها بالعبرية «هاداساه» أي «شجرة الآس».

نشأت إستير في العاصمة الفارسية ودخلت البلاط الفارسي دون أن يعرف أحد هويتها وأصبحت خليلة مقربة من الملك. وقد سمِّي أحد أسفار العهد القديم باسم إستير، ويتحدث عن مؤامرة دبرها هامان وزير الملك أحشويرش ضد اليهود، إذ حصل على موافقة الملك على التخلص منهم. وقد اكتشف مردخاي ابن عم إستير المؤامرة ولم يكن أحد يعرف أنها قريبته، فدبرا معاً مؤامرة للإيقاع بهامان. ونجحت إستير بتأثير جمالها وفتنتها أن تكسب الملك إلى صفها، ولم يكن بالإمكان أن يتراجع الملك عن أمر أصدره فأمر بتسليح اليهود الذين ذبحوا أعداءهم.

وسفر إستير ربما يعود إلى النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، ومع هذا لا يوجد أي سند تاريخي للقصة. وقد سميت باسم إستير أكبر منظمة صهيونية في العالم (مظمة النساء الصهيونيات).

نحميا (٤٤٤-٤٣٢ ق.م.)

«نحميا» اسم ليهودي كان يعمل حامل كؤوس في البلاط الملكي الفارسي عند أرتحشتا. عيَّنه الفرس حاكماً لمقاطعة يهودا الفارسية، فحكم بين عامي ٤٤٤، ٤٣٢ ق.م. أعاد نحميا بناء سور الهيكل رغم معارضة جيرانه، وقد أمر العمال بحمل الأسلحة خوفاً من أي عدوان يتعرضون له أثناء العمل. اتخذ نحميا بتشجيع من الكاهن عزرا، إجراءات مشددة ضد الزواج المختلط لضمان النقاء العرقي، يتخذ بعض الصهاينة أعمال نحميا وعزرا تبريراً دينيا للعنصرية والتفرقة. وقد تبنَّى الزعماء النازيون المنطق نفسه فيما ذكروه أثناء محاكمتهم في نورمبرج. وسفر نحميا السادس عشر في أسفار العهد القديم.

عزرا (منتصف القرن الخامس الميلادي)

«عزرا» اسم كاتب الشريعة الموسوية، كاهن من أسرة صادوق، رئيس الجماعة اليهودية العائدة من بابل. وقد جاء في سفر عزرا (٧/١) أنه سمع عن تدهور اليهود واليهودية في فلسطين بعد عودة زروبابل، فاستأذن الإمبراطور في العودة إلى القدس ليصلح الشعب فأذن له الملك بذلك. كان الفرس يرون العنصر اليهودي موالياً لهم يمكن استخدامه كجماعة وظيفية. وكانوا يرون الطبقة الكهنوتية قيادة قادرة على إنجاز هذا الدور. ومن هنا كانت حماسة القيادة الفارسية لعودة عزرا وترسيخ دعائم الشريعة اليهودية وربطها بشريعة الملك. وقد أعفى الملك كل المرتبطين بالعبادة القربانية من الجزية والخراج. ولتنفيذ هذا البرنامج بدأ عزرا في تنقية اليهودية من العناصر الدخيلة للحفاظ على نقاء اليهود عرْقيا. فقام بعد عودته للقدس بقراءة ناموس موسى أمام اليهود وتفسيره لهم، ولذا فهو أول كاتب، بهذا المعنى. أعاد عزرا شعائر السبت وفرض ضريبة الهيكل وعارض الزواج المختلط. ويقول الدارسون إن الانعزالية التي فرضها عزرا أصبحت سمة أساسية ليهودية ما بعد المنفى. وقد تبنَّى الصهاينة موقف عزرا لتبرير برنامجهم العنصري، ودافع عنه النازيون كمبرر لاضطهاد اليهود. وتعد قيادة عزرا لليهود بداية الحكم الكهنوتي الذي استمر حتى ظهور اليهودية الفريسية. وقد دفن عزرا حسب المرويات اليهودية في بابل.

اليونانيون (البطالمة والسلوقيون)

كانت هناك وحدة أساسية في تاريخ العبرانيين اليهود، ومن قبيل التبسيط سنشير لهم بـ «اليهود» أو «الجماعات اليهودية»، وهم يستمدون هذه الوحدة من وجودهم داخل إمبراطورية شرقية واحدة: المصرية أو الآشورية البابلية أو الفارسية. ولكن اليهود فقدوا هذه الوحدة الحضارية والتاريخية مع غزو الإسكندر لفلسطين (٣٣٤ ق.م) إذ أصبح لهم مركزان ثقافيان أساسيان هما بابل وفلسطين، وكل منهما يضم جماعة يهودية تتفاعل مع مؤثرات حضارية مختلفة شرقية وغربية. وقد أبقى الإسكندر على أوضاع الإدارة السائدة قبله كما هي في فلسطين وعيَّن الكاهن الأعظم مسئولاً عن اليهود وممثلاً لهم أمام الإمبراطورية ولم يعين حاكماً يونانيا يحكم فلسطين مباشرةً. وبعد موت الإسكندر تم تقسيم الإمبراطورية بين خلفائه ووقعت فلسطين تحت حكم البطالمة حوالي عام ٣٠١ ق.م. حيث استمر حكمهم حتى استولى عليها السلوقيون عام ١٩٨ ق.م. وكانت الممالك اليونانية قائمة على أساس الولاء الشخصي للملك وليس على الإحساس القومي، ولذا فإنهم كانوا يخطبون ود أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين وخارجها، باعتبار أنهم عنصر بشري مهم يمكن أن يقوم بدور الجماعة الوظيفية.

و«البطالمة» اسم الأسرة التي حكمت مصر بين ٣٢٣ و٣٠ ق.م. ويبدو أن البطالمة غزوا فلسطين لارتباط أمن مصر بمنطقة الشام وفلسطين. وكان داخل فلسطين حزبان أحدهما موال للبطالمة والآخر موال للسلوقيين. وكان حكم البطالمة أطول الفترات منذ سقوط فارس حتى ظهور روما، والأنماط الإدارية التي ظهرت إبان حكمهم استمرت في فلسطين حتى الفترة الرومانية. ولم تكن فلسطين مستقلة بل كانت جزءاً من المنطقة المعروفة باسم سوريا وفينيقيا. وقد تغيَّر التركيب الإثني لسكان فلسطين إذ استوطنها يونانيون في

مستعمرات عسكرية ومدن يونانية جديدة، وتغيَّر طابع المدن العبرانية والآرامية واصطبغت بصبغة إغريقية في معظمها. وكان البطالمة يهتمون بجمع الضرائب، فاعتمدوا على الطبقة الثرية التي عمل أفرادها ملتزمين، وكانوا يزيدون الضرائب ليزيدوا أرباحهم من جمعها، ومن هنا ظهرت جماعة وظيفية محلية يهودية تدين بالولاء للبطالمة وتحيط بها كراهية السكان اليهود. وكانت هذه الجماعة تضم أسراً كهنوتية وغير كهنوتية. أما الجماهير اليهودية فلم تتأثر كثيراً بالحضارة الهيلينية إذ كانت ثقافتهم آرامية، وظل الريف في فلسطين محتفظاً بطابعه السامي الآرامي. ولذا كان الريف يمثل دائماً القاعدة الجماهيرية للتمردات اليهودية. وقد نتج عن الانقسام بين اليهود ظهور حزبين سياسيين الصدوقيين (حزب الأثرياء والكهنة)، والفريسيين (ممثلي الحزب الشعبي الذي تفرَّع منه الأسينيون والغيورون وعصبة الخناجر).

واعتبر اليونان اليهود في فلسطين قوماً مركزهم القدس وقائدهم الكاهن الأعظم ومجلس الشيوخ. وكانوا ينظرون للجماعات اليهودية خارج فلسطين كجماعات وظيفية استيطانية يعتمد أمنهم على أمن الطبقة الحاكمة. ولذا كانوا يشجعون اليهود على الاستيطان في مصر، وقد تركزوا أساساً في الإسكندرية حيث كان لهم اثنان من أحيائها الخمسة. ويقال إن عددهم بلغ مليوناً بين سبعة ملايين ونصف المليون، وهو ما يفوق عدد اليهود في فلسطين، لكن الهيكل ظل رغم ذلك المركز الديني الأساسي. وقد اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في المحيط الهيليني وفقدوا لغتهم الأصلية وبدأوا يتحدثون اليونانية، فكان العهد القديم يُقرأ في المعابد اليهودية بالعبرية ثم باليونانية. ولم يحصل اليهود في مصر على حق المواطنة كجماعة (أي أن يكونوا بوليتيا) بل مُنحوا حق أن يكونوا (بوليتيوما) أي غرباء لهم حق السكنى، ولهم بموجب ذلك كيان مدني مستقل. والبوليتيوما شكل من أشكال التنظيم الإداري لم يقتصر على اليهود. وقد ظل أعضاء الجماعات اليهودية عنصراً موالياً للبطالمة، وبوصفهم جماعة وظيفية كانوا محط كراهية الجماهير المصرية واليونانية معاً، وهو ما زاد التوتر بين اليهود واليونانيين. وقد ساهمت المساعدة التي قدَّمها اليهود للقوات الرومانية الغازية عامي ٥٥، ٤٨ ق. م. في تعميق كره اليونانيين لهم. وقد شهدت هذه الفترة بداية ظهور كتب العداء لليهود، وهو ما خلق أرضاً خصبة للثورات اليونانية ضد اليهود بعد ضم الإسكندرية إلى الإمبراطورية الرومانية.

أما "السلوقيون" فهم أسرة يونانية حاكمة تركزت في سوريا وحكمت آسيا الصغرى (٣١٢-٦٤ ق. م.). وقد عادت يهودا البطلمية إلى حكم السلوقيين عام ١٩٨ ق. م. في عهد أنطيوخوس الثالث الذي أبقى الوضع الإداري السائد وأعطى اليهود مزايا جديدة. وباعتلاء أنطيوخوس الرابع العرش تغيَّر الموقف واحتاجت الدولة بشدة إلى الأموال لدفع تعويض للرومان فلجأ ملوك السلوقيين إلى نهب الهياكل الدينية، ومنها الهيكل اليهودي. وبسبب تركُّز نشاط أنطيوخوس الرابع على حدود مملكته مع مصر ازدادت أهمية يهودا السلوقية كمنطقة حدودية دمجها حضارياً في مملكته لاعتبارات أمنية. وتعاون لتنفيذ ذلك مع أثرياء المجتمع اليهودي. وقد قام بخلع الكاهن الأعظم أونياس الثالث الذي فر إلى مصر وأسس فيها هيكلاً بقي حوالي قرنين، وعيَّن أخاه ياسون الذي أدخل تغييرات عميقة على القدس في مقدمتها إنشاء الجمنازيوم لتدريب اليهود على أن يكونوا مواطنين يونانيين. وقد حل الجمنازيوم محل الهيكل كمركز لحياة اليهود وانضم إليه كثير من الكهنة، وبعد ٣ سنوات من تعيينه قامت جماعة يهودية أكثر تطرفاً في الإغراق في الثقافة الإغريقية وطالبت بتعيين منيلايوس كاهناً أعظم، وتم تعيينه بالفعل. وفي عام ١٦٩ ق. م قام أنطيوخوس الرابع بنهب الهيكل. وقد أدى كل هذا إلى اندلاع التمرد الحشموني (١٦٤ ق. م) ضد الإمبراطور وكاهنه الأعظم وأثرياء اليهود. وكانت قاعدة التمرد في الريف وسانده الفريسيون.

وقد غزا اليونان أيضاً بلاد الرافدين التي كانت تضم واحدة من أهم الجماعات اليهودية، وقد غزاها الإسكندر عام ٣٣١ ق. م ومات عام ٣٢٣ ق. م، وبعد وفاته قسمت الإمبراطورية بين قادته فكانت بلاد الرافدين من نصيب السلوقيين الذين حكموها قرنين. أسس اليونان مدناً يونانية وطَّنوا فيها حاميات يونانية ومقدونية، ووافق الإسكندر على الإبقاء على المزايا التي منحها الفرس لليهود، فانضم اليهود إلى الجيوش اليونانية كمرتزقة. ولم يؤيد يهود بابل التمرد الحشموني، وهو ما يدل على أن ما كان يحدد موقفهم ليس الولاء اليهودي العام وإنما المصالح المحلية. وقد هزم الفرثيون السلوقيين واستولوا على بلاد الرافدين.

الهيلينية

«الهيلينية» مصطلح يستخدمه المؤرخون للإشارة إلى التقاليد الحضارية السائدة في المقاطعات التي كانت تتحدث اليونانية في الإمبراطوريات السلوقية والبطلمية والرومانية. وقد أثرت الحضارة اليونانية في روما وقرطاجة والهند، وثمة مناطق احتفظت بثقافتها الأصلية وبخاصة في الريف، وتغلغلت الحضارة اليونانية في المدن.

وقد بدأ تغلغل الحضارة الهيلينية بين أعضاء الجماعات اليهودية في مصر وبرقة وسوريا وآسيا الصغرى وفلسطين بعد غزو الإسكندر واستمر طيلة العصر الروماني وكان دعاة الهيلينية بين أعضاء الجماعات اليهودية من النخبة الحاكمة المتمثلة في الكهنة والأثرياء، وقد اكتسبت بعد فترة أبعاداً دينية وحضارية عميقة.

الإسكندر المقدوني (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)

ملك مقدونيا، مؤسس الإمبراطورية اليونانية التي ضمت فلسطين كما ضمت بابل بجماعتها اليهودية الكبيرة. ويحكي التلمود عن زيارته القدس ومقابلته الكاهن الأعظم. ولكن من المعروف أنه لم يزر القدس لأنها غير مهمة وكذلك من يسكنون حولها. ومن المعروف أنه تقدَّم بجيوشه عام ٣٣٣ ق.م بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ولكنه قمع ثورة بين السامريين وحرق هيكلهم في جبل جريزيم، وأعلن يهود فلسطين ولاءهم له.

الحشمونيون

يُسمَّون أيضاً «المكابيون». يُنسب إليها التمرد الحشموني، وهو تمرد قام به فقراء اليهود وغيرهم بدأه الكاهن الحشموني ماثياس عام ١٦٨ ق.م واستمر أولاده في قيادته، وقد كان التمرد ضد الإمبراطورية السلوقية والعناصر العبرانية اليهودية المتأغرقة. نجح الحشمونيون في تحقيق الاستقلال وإقامة الدولة الحشمونية، لكنهم بعد ذلك تأغرقوا تماماً إلى أن استوعبت روما الدولة ونخبتها الحاكمة. والمكابيون هم أنفسهم الحشمونيون، وكلمة «مقبي» معناها «المطرقة». ويرى الصهاينة أن المكابيين بعثوا الروح العسكرية في الشعب اليهودي وحولوه من شعب مستسلم إلى شعب من الغزاة المقاتلين.

والأسرة الحشمونية أسرة من الكهنة الملوك حكمت اليهود العبرانيين في فلسطين، بعد أن حقق التمرد الحشموني قدراً من الاستقلال السياسي لليهود (العبرانيين). كانت دولتهم التي كانت تسمى «يهوداً» تتسم بطابع هليني واضح، فكانت دويلة هلينية تضم اليهود أكثر مما كانت دولة يهودية. أول ملوك الحشمونيين يوحنا هيركانوس (١٣٥-١٠٤ ق.م) ألحقت به الجيوش السلوقية هزيمة تحت قيادة أنطيوخوس السابع، وحولت يهودا إلى مقاطعة سلوقية مرة أخرى. فرض أنطيوخوس على هيركانوس أن يشارك في حملة ضد الفرثيين على رأس فرقة يهودية، لكن الجيش السلوقي سُحق وأُسر هيركانوس وفرقته ثم أطلق سراحه فعاد إلى فلسطين عام ١٢٩ ق.م واستقل بحكمها. وبذلك أصبح الحشمونيون أسرة حاكمة كهنوتية عسكرية شبه هلينية. وبعد موت يوحنا اعتلى شقيقه ألكسند يانايوس (١٠٣-٧٦ ق.م) العرش وكان طاغية، وكان بلاطه الملكي هلينياً، وفي عهده وصلت الدولة الحشمونية أقصى اتساع لها. بعده تولت زوجته سالومي العرش (٧٦-٦٧ ق.م) وبوفاتها بدأت أسرة الحشمونيين في الانحدار السريع وانتهت عام ٦٣ ق.م.

الرومان

«الرومان» قوم ظهروا في مدينة روما التي أُسِّست في القرن الثاني قبل الميلاد وأسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف ضمت معظم بلاد البحر الأبيض المتوسط ومنها فلسطين ومصر وأحياناً أجزاء من بلاد الرافدين، كما ضمت أغلبية اليهود في ذلك الوقت في معظم أماكن تجمُّعهم في فلسطين ومصر وبرقة (ليبيا) وقبرص وآسيا الصغرى. ولم يكن هناك تجمُّع يهودي كبير خارج هيمنتهم سوى تجمُّع بابل. وقد بدأ احتكاك اليهود بالرومان عندما اتصل بهم يهودا الحشموني أثناء التمرد الحشموني ليحصل على تأييدهم، وبالفعل وقِّعت معاهدة بين الطرفين عام ١٦١ ق.م اعترفت روما بمقتضاها بالقوة الحشمونية. وحينما وصل بومبي إلى سوريا عام ٦٥ ق.م تولى حسم النزاع بين اثنين من أبناء الأسرة الحشمونية فدخل القدس عام ٦٣ ق.م.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الرومان القوة الأساسية في منطقة الشرق الأدنى القديم، وأصبحت مقاطعة يهودا وحدة سياسية ذات استقلال محدود تابعة لحاكم سوريا الروماني وأصبحت تدعى «يوديا». ولم يكن الساحل تابعاً لهذه المقاطعة وفُصلت عنها أجزاء من أدوم والسامرة. وقد خضعت فلسطين للحكم المباشر لنائب قنصل يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاشتراك في الحرب. وكان البناء الطبقي في المجتمع الفلسطيني لا يختلف عما كان عليه أيام البطالمة والسلوقيين، فكان ينقسم أساساً إلى جماعة وظيفية محلية تضم الأثرياء المحليين وكبار الكهنة، وكانت متأغرقة تماماً. وطبقات شعبية ذات طابع سامي آرامي تأغرقت بشكل سطحي ضمنها المعدمون والفلاحون وصغار الكهنة. وقد ازداد الاستقطاب في المجتمع اليهودي بشكل أدى إلى تصاعد الصراع بين الصدوقيين والفريسيين الذين أصبحوا أغلبية داخل السنهدرين.

وبازدياد حدة الاستقطاب ظهرت جماعات الغيورين وعصبة الخناجر المتطرفة، ثم نشب التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦-٧٠م)، وقد أخمد تيتوس هذا التمرد فحاصر القدس ثم هدم الهيكل عام ٧٠م. وبعد فترة من الهدوء تجددت التمردات في بابل

وبرقة وقبرص (١١٤ ـ ١١٧) فأخمدها تراجان وقضى على بضعة آلاف من اليهود وعلى التجمعات اليهودية التي شاركت في التمرد. وظل السخط مستمرا فتجدد التمرد مرةً أخرى عام ١٣٢م بقيادة بركوخبا وقضت عليه القوات الرومانية بعد أقل من ٣ سنوات، وأصدر هادريان أمراً بهدم القدس وحرَّم اليهودية في مقاطعة يهودا، وإن سمح باستمرار السنهدرين. وهذه الحروب لم تستهدف اليهود كقوم ولم تستهدف تحطيمهم بل استهدفت قمع التمرد وحسب.

أما يهود الإسكندرية فتحوَّلوا عن ولائهم للبطالمة وساعدوا الغزاة الرومان، وهو ما جعلهم موضع غضب الجماهير اليونانية التي فَقَدت مكانتها، واستفاد اليهود من الوضع الجديد فتمتعوا بمزيد من الحقوق، غير أن الرومان رغم هذا قرروا الاعتماد على اليونانيين كجماعة وسيطة، فتدهور وضع اليهود. وفي إطار البناء الطبقي الذي كان سائداً في مصر كان اليونان والرومان طبقة عليا، تليها طبقة وسطى من سكان المدن في المناطق الإدارية. أما الجماعة اليهودية فتمت مساواتهم بالمصريين باستثناء أثريائهم الذين أصبحوا مواطنين يونانيين. وبدأت تظهر في هذه الفترة أدبيات الدفاع عن حقوق اليهود. وقد أدى تخلخل وضع الجماعتين اليونانية واليهودية إلى بدء المشاحنات بينهما وكانت تصل إلى تبادل تدبير المذابح.

وفي عام ٦٦م تمرَّد يهود الإسكندرية وقضى الحاكم الروماني (وهو من أصل يهودي) على التمرد بلا رحمة وحطَّم هيكل أونياس وفرض على اليهود الضريبة اليهودية. وبسبب التحول إلى المسيحية انكمش الوجود اليهودي في الإسكندرية وغيرها. وكانت الجماعة اليهودية في روما أهم التجمعات اليهودية في الإمبراطورية، وكان القانون الروماني يحرِّم على الشيوخ وأبنائهم استثمار أموالهم في التجارة أو الصناعة. وهو جزء من إجراءات أخرى مماثلة تشير إلى أهمية دور الجماعة اليهودية في الحياة الاقتصادية، إذ كانت جماعة وسطية تتمتع باتصالات واسعة.

وقد واجهت الوثنية الرومانية أزمة عميقة في القرن السابق على ميلاد المسيح فبدأ كثير من الرومان يتجهون لليهودية بوصفها ديناً أكثر رقياً، وقام اليهود بنشاط تبشيري اجتذب بعضاً من عناصر الأرستقراطية الرومانية، وأثار ذلك مخاوف السلطة لأن العبادة الوثنية كانت الإطار العقائدي للدولة. واتخذت إجراءات تستهدف الحد من نشاط اليهود ثم تم طردهم عام ١٩م وسمح بعودتهم عام ٣١م. وبشكل عام تدهورت أحوال الجماعات اليهودية في الإمبراطورية.

كبير الموظفين (ألبارخ)

«كبير الموظفين» الترجمة العربية للكلمة اليونانية «ألبارخ» التي تشير إلى كبار الموظفين في الدولة اليونانية والرومانية والبيزنطية الذين كانت توكل إليهم الوظائف المالية. وكان الألبارخ مسئولاً عن تحصيل الضرائب من السفن التجارية التي تأتي من الضفة الشرقية من النيل إلى الإسكندرية. ويذكر يوسفوس أن اليهود عُيِّنوا "حراساً للنهر" في أيام البطالمة، ويبدو أن العبارة تحمل معنىً تجاريا أكثر من كونه عسكرياً. وكان من أهم من شغل منصب كبير الموظفين ليسمياخوس شقيق فيلون السكندري، وأبو تايبريوس يوليوس ألكسندر الذي اعتنق الديانة الوثنية الرومانية وسحق التمرد اليهودي في الإسكندرية فعُيِّن حاكماً رومانيا لمقاطعة يهودا الرومانية.

القوم (إثنوس)

«القوم» الترجمة العربية لكلمة «إثنوس» اليونانية. استخدمها اليونان ثم الرومان للإشارة إلى الأقوام المختلفة التي كانوا يحكمونها، وكان اليهود يعدون «إثنوس» أي قوماً لهم قوانينهم التقليدية وديانتهم المستقلة المعترف بها من قبل الدولة، وهو ما كان يعني تمتُّعهم بحقوق ومزايا معينة، وكان يعني أيضاً فقدانهم حقوق المواطن الذي كان عليه أن يؤمن بالعبادة الوثنية اليونانية أو الرومانية، وكان يترأس القوم (إثنوس) «إثنارخ» أي «رئيس القوم».

الضريبة اليهودية (فيسكوس جودايكوس)

«الضريبة اليهودية» هي الترجمة العربية لعبارة «فيسكوس جودايكوس» اللاتينية. وهي ضريبة رأس فرضها الرومان على يهود الإمبراطورية الرومانية بعد هدم الهيكل. كان يتم إرسال المبالغ المحصلة إلى معبد جوبيتر كابيتولينوس في روما. وكانت الضريبة تشكل إهانة عميقة لمشاعر أعضاء الجماعات اليهودية، فكانوا يحاولون التهرب منها. ويبدو أن جمعها كانت تصاحبه سلوكيات إدارية تهدف لإذلال اليهود. وبعد فترة أصبح يتم جمعها دون إساءة. ومن غير المعروف ما إذا كانت الضريبة قد ألغيت أم لا، لكنها على أية حال أعيد فرضها مرة أخرى في الغرب في القرون الوسطى (١٣٤٢م). فقد وجدت في ألمانيا تحت اسم «مليم القربان» رمزاً لواقع أن أوربا المسيحية ورثت اليهود ضمن ما ورثت من روما الوثنية.

هيرود (٣٧ ق.م ـ ٤م)

ملك اليهود، ابن انيباترا الأدومي من زوجته النبطية، مؤسس الأسرة اليهودية. كان حاكماً تابعاً للجليل في شبابه وأظهر عزماً في القضاء على العناصر اليهودية المشاغبة، وقضى على محاولة أنيتجونوس السيطرة على الجليل. وعندما نصَّب الفرثيون أنتيجونوس على العرش عام ٤٠م فرَّ هيرود إلى روما فنصَّبه الرومان ملكاً رومانيا على مقاطعة يهودا الرومانية. خاض عدة معارك فتم تثبيته على مملكته وأعطى حق التصرف في الشئون الداخلية. وكان على هيرود الموازنة بين ثلاث قوى: الرومان، وسكان فلسطين اليهود، وسكان فلسطين غير اليهود، وقد نجح إلى حدٍّ كبير في الموازنة بينهم. وقد أوصى هيرود عند وفاته بمعظم مملكته لابنه أرخيلاوس، أما شقيقه هيرو اندتباس فأوصى له بمنطقة الجليل وحسب. وقد خلع الرومان أرخيلاوس بعد مدة وجعلوا فلسطين تحت الحكم الروماني المباشر.

التمردات اليهودية ضد السلوقيين والرومان

من الافتراضات الأساسية في كتب التاريخ التي تستخدم النموذج الصهيوني في التحليل والتأريخ أن الشعب اليهودي قام بثورات عديدة تبعتها حروب ضد السلوقيين ثم الرومان للذود عن هويته القومية. ونحن نسمي هذه الثورات «تمردات» لأسباب سنوردها فيما بعد. كما أننا لا نستخدم كلمة «حروب» لأنها تعني وجود صراع بين قوتين مستقلتين بينهما شيء من التكافؤ في القوة، وهو أمر تنفيه المعلومات التاريخية، فلم يكن هناك أبداً احتمال لأن ينتصر المتمردون اليهود بسبب ضآلة عددهم وتخلفهم التكنولوجي وجهلهم بالقوة العسكرية الرومانية.

وأهم التمردات اليهودية: التمرد الحشموني ضد أنطيوخوس الرابع (١٦٨ ق.م)، ثم التمرد اليهودي الأول (٦٦ـ٧٠م)، والتمرد اليهودي الثاني بزعامة بروكوخبا (١٣٢ـ١٣٥م) ضد الرومان. ولفهم هذه التمردات يجب وضعها في سياقين: أحدهما روماني (دولي)، والآخر يهودي أو عبراني (محلي). وقد كانت الإمبراطوريات القديمة تواجه دائماً مشكلة أساسية هي أنها مترامية الأطراف، ولم تكن لديها قوات احتلال كافية لضمان الأمن وتدفق الأموال إلى خزينتها. ومن هنا لجأ اليونان إلى إنشاء المدن الاستيطانية التي استفاد بها الرومان بعدهم في تسيير أمور الإمبراطورية. وكانت هذه الإمبراطوريات تضم شعوباً وقبائل ومناطق جغرافية متعدِّدة ينتظمها إطار إداري واحد، ويحكمها أسلوب في الإدارة من خلال إطارين: أحدهما روماني عالمي يتمثل في الحاكم الروماني والقوة العسكرية التي تسانده، والآخر محلي يتمثل في الملوك المحليين ورؤساء الأقوام والأثرياء المحليين والكهنة وغير ذلك من المؤسسات المحلية، وكان هؤلاء يؤدون دور الجماعة الوظيفية الوسيطة.

في هذا الإطار يمكن فهم علاقة الإمبراطورية الرومانية بالشعوب والأقوام التي كانت تقع داخل حدودها، وهو الإطار الذي يمكن من خلاله فهم علاقة روما بالجماعات اليهودية. وكانت مهمة الحاكم الروماني فرض الضرائب، أما جمعها فكان يقوم به ملتزمون محليون، وكان الحاكم الروماني يحكم فلسطين بمساعدة شخصية يهودية محلية مثل الملك أجريبا الأول وغيره. وكان لليهود مجالسهم الإدارية المحلية، وكان الهدوء يظل سائداً طالما أن العلاقات متوازنة. لكن الحفاظ على هذا التوازن كان أمراً صعباً، لذا كانت تنشب تمردات بين اليهود وغيرهم من الأقوام، وهي تمردات تسميها التواريخ الصهيونية «قومية»، والأدق وصفها بأنها انفجارات اجتماعية ذات طابع طبقي واضح.

فالأقلية اليهودية الثرية المتأغرقة كانت تؤيد دمج فلسطين حضارياً في الإمبراطورية لأسباب أمنية وتجارية. ومن أهم هذه المحاولات قيام أنطيوخوس الرابع بإيقاف العمل بالشريعة ومنع الختان وشعائر السبت، وبينما أيد الأثرياء ذلك عارضه فقراء اليهود في الريف الذين احتفظوا بهويتهم وثقافتهم السامية الآرامية وارتباطهم بالعقيدة اليهودية. وإلى جانب الانقسام الطبقي كان هناك انقسامات إثنية عميقة، فبين يهود فلسطين كان هناك كثير من المتهودين، كما كان هناك يهود بابل الواقعون خارج نطاق السيطرة الهلينية، وتجمع يهودي كبير في سوريا، وكل هؤلاء أُطلق عليهم مصطلح «اليهود». والتمردات لم تكن قومية، وإنما كان هناك دائماً تمرد ضد فسادِ بعض الموظفين أو تطرف بعض الحكام، وكثيراً ما كان التمرد يأخذ شكلاً دينيا. ولم تكن التمردات اليهودية ظاهرة فريدة بل كان هناك تمردات أخرى عديدة في صقلية ومصر وبريطانيا وغيرها.

وقد فشل السلوقيون في القضاء على التمرد اليهودي ضدهم وتأسَّست الدولة الحشمونية، لكن الرومان نجحوا في القضاء على التمرد الأول والثاني وحطموا الهيكل وهدموا القدس، لكنهم لم يحاولوا القضاء على اليهود كقوم (إثنوس)، وكل ما كان يهمهم عودة الهدوء واستمرار وجود فلسطين ضمن الإمبراطورية. والتمردات اليهودية المختلفة ثورة شعبية ذات رؤية مشيحانية، وهذه الرؤية كانت تفصل الجماهير اليهودية عن واقعها ولم تفهم

قياداتها الموازنات والقوى الدولية، فكانت تنتهي بسحق اليهود وازدياد تدنِّي أوضاعهم.

التمرد الحشموني (١٦٨-١٤٢ق.م)

«التمرد الحشموني» تمرد قام به فقراء اليهود من الفلاحين والحرفيين وصغار الكهنة ضد أنطيوخوس الرابع والسلوقيين وأثرياء اليهود المرتبطون بالهيكل وضد الجماهير غير اليهودية في شرق الأردن والجليل والشريط الساحلي الفلسطيني والمنطقة الأدومية، فلم تكن فلسطين مقصورة على اليهود. وسبب الثورة المباشر القرارات التي اتخذها أنطيوخوس الرابع ضد يهود فلسطين ومحاولته فرض العبادة اليونانية الوثنية، إلى جانب انتشار النزعة الهيلينية بين أثرياء اليهود وتعاونهم مع السلوقيين. وقد أخذ التمرد شكل حرب عصابات فتجنب الحشمونيون المعارك النظامية واستخدموا أسلوب الكمائن والهجمات الليلية، وكان مركزهم في الريف. وأثناء الثورة ذبح الحشمونيون أعداداً كبيرة من اليهود دعاة الهيلينية وأعداداً كبيرة من السكان غير اليهود.

قاد التمرد عام ١٦٨ ق.م الكاهن ماتياس الحشموني وأبناؤه الخمسة، لكن القوات السلوقية هزمته وقُتل فتولى ابن يهودا المكابي القيادة بعده وسيطر على كل مقاطعة يهودا السلوقية ثم استولى على القدس عام ١٦٤ ق.م وطهَّر الهيكل. إلا أن يهودا هُزم عام ١٦٣ ق.م في المعركة التي قُتل فيها أخوه إليعازر. ونجح الحشمونيون في توقيع معاهدة سلام مع السلوقيين ضمنت لهم شيئاً من الحرية الدينية. ولكن يهودا وجماعته طمعوا في الحرية السياسية، ولذا استمروا في الحرب. وتحرك يهودا على الصعيد الدولي فحصل على تأييد البطالمة والأنباط وبعث رسالة إلى روما، وبالفعل اعترفت روما بدويلته عام ١٦١ ق.م.

وفي العام نفسه (١٦١ق.م) قُتل يهودا كما قُتل الأخ الثالث يوحنا فحل محله يوناثان الذي كان آنذاك موظفاً تابعاً للسلوقيين، وقد نجح في الحصول على منصب الكاهن الأعظم وحاكم مقاطعة يهودا السلوقية من الإمبراطور السلوقي. ونجح أخوه شمعون من بعده في الحصول على إعفاء من الجزية عام ١٤٧ ق.م، كما عيَّنه المجلس الأكبر كاهناً أعظم بالوراثة وقائداً للشعب وقائداً عسكرياً عام ١٤٠ ق.م. وبذلك ظهرت مرةً أخرى الدولة الكهنوتية التي تتمركز حول الهيكل وترتبط فيها السلطتان الروحية والدنيوية. وفي عام ١٣٣ ق.م اعترف الحشمونيون بسلطة السلوقيين، لكنهم استقلوا بحكم فلسطين منذ عام ١٢٩ ق.م إلى وصول الرومان عام ٦٧ ق.م، ويرجع نجاح الحشمونيين للسبب نفسه الذي ترجع إليه نشأة المملكة العبرانية المتحدة، الفراغ النسبي المؤقت في منطقة الشرق الأدنى القديم.

التمرد اليهودي الأول ضد الرومان (٦٦-٧٠م)

قام يهود فلسطين بهذا التمرد بقيادة الغيورين، وهم طائفة متطرفة من الفريسيين. وثمة أسباب عديدة أدت إلى نشوب التمرد، فمن المعروف أن سياسة الرومان كانت عدم التدخل في الشئون الداخلية للأقوام التي يحكمونها وانصب اهتمامهم على الضرائب التي كان يحددها الحاكم الروماني ويجمعها ملتزمون محليون. ونظراً لبُعد فلسطين عن روما كان الحاكم الروماني يتمتع بقسط كبير من الحرية. ودأب الحكام الرومان المتعاقبون على ابتزاز الجماهير بزيادة الضرائب. ومن أهم الأسباب غير المباشرة للتمرد، الاستقطاب الذي حدث في المجتمع اليهودي وظهر في الصراع بين الصدوقيين والفريسيين ثم بينهم وبين الغيورين. وكان يوازي هذا الانقسام الطبقي انقسام حضاري إذ كان الأثرياء يتشبهون بغير اليهود، أما الفقراء فلم يتأثروا بالثقافة الهيلينية، وزاد التوتر وجود عناصر سكانية غير يهودية كانت ساخطة على اليهود.

والسبب المباشر للتمرد حدوث نزاع حول حقوق اليهود وحقوق غير اليهود في قيصرية (المركز الإداري الروماني لفلسطين). وقد انحاز الحاكم الروماني ضد اليهود بتشجيع من أثرياء اليهود، فحدثت قلاقل ودخلت قوات الحاكم الروماني القدس ونهبتها وصلبت بعض اليهود البارزين. وبدأ التمرد بعد خروج القوات الرومانية واتسع نطاقه فاستولى المتمردون على القدس والهيكل وأعدموا الكاهن الأعظم، واختاروا كاهناً أعظم من صفوف الشعب بالقرعة. وطلب أثرياء اليهود العون من روما فجاءت القوات الرومانية وهُزمت.

وكانت قيادة التمرد في البداية في يد العناصر المعتدلة ولكنها بالتدريج وقعت في يد العناصر المتطرفة، ولأن الجناح المتطرف لم تكن لديه أية خبرة سياسية أو عسكرية أوكل أهم منصب عسكري، منصب قائد الجليل، على الإطلاق إلى يوسفوس فلافيوس المشكوك في ولائه. وعندما هجمت القوات الرومانية بقيادة فسبسيان استسلمت قوات الجليل دون مقاومة واستسلم يوسفوس فلافيوس، واضطر فسبسيان للعودة لروما فترك قيادة الحملة لابنه تيتوس. وفي هذا التوقيت قضى الغيورون على حكومة فلافيوس الفريسي وأنفردوا بقيادة التمرد.

وكان الرومان يعرفون أن القيادة المتطرفة منقسمة على نفسها فقرروا أن يتركوهم ليقضي بعضهم على بعض. ثم بدأ الهجوم الروماني بقيادة تيتوس وبمساعدة أجريبا الثاني فسقطت القدس وهدم تيتوس المعبد وحمل كنوزه ثم استمر الرومان في تطهير بقية مقاطعة يهودا، وقد استسلمت كل القلاع عدا ماساداه التي انتحر اليهود فيها خشية الإعدام على يد الرومان. وبعد انتهاء الحرب سمح الرومان للحاخام الفريسي يوحنان بن زكاي بتأسيس الحلقة التلمودية في يفنة التي وضعت الأسس الفكرية لليهودية المعيارية أو الحاخامية.

ماسادا

«ماسادا» كلمة آرامية تعني «القلعة»، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية. تقع ماسادا على ارتفاع صخري بارز بالقرب من البحر الميت شرقي فلسطين، وترتفع عن سطح البحر الأبيض المتوسط بتسعة وأربعين متراً وعن سطح البحر الميت بأكثر من أربعمائة متر. وقد احتلت القلعة مجموعة من اليهود الغيورين أثناء التمرد عام ٦٦ ق. م وذبحوا كل أعضاء الحامية الرومانية بعد أن وعدوهم بالأمان، وهو ما يفسر خشيتهم من الاستسلام بعد ذلك. واقتصر نشاط اليهود الذين احتلوا القلعة على ابتزاز القرى اليهودية والإغارة عليها. وقد ترك الرومان قلعة ماسادا إلى أن فرغوا من إخماد التمرد اليهودي نظراً لقلة أهميتها قياساً إلى موقع أخرى. وعندما حاصر الرومان القلعة انتحر المحاصرون، حسب رواية يوسفوس، بعد أن أقنعهم قائدهم بذلك. ويدَّعي يوسفوس أن امرأتين وخمسة أطفال اختبأوا في كهف أثناء عملية الانتحار هم الذين قصوا ما حدث.

وقد أثارت القصة شكوكاً كثيرة حتى عند بعض علماء الآثار اليهود الذين يؤكدون أنها خرافة ملفقة. والمصدر الوحيد للقصة هو يوسفوس فلافيوس، وهو كاتب لا يعتد به كمؤرخ. وربما كانت القصة كلها من نسيج خياله كنوع من التعويض عن أنه لم يستطع إحراز بطولة في الواقع. وبافتراض أن ماسادا حدثت فإن كتب التاريخ تفرض عليها معنى صهيونياً، ولا تذكر شيئاً عن القلاع الأخرى مثل ماكايروس وهيروديام.

أما ماكايروس فهي قلعة أسَّسها الملك الحشموني السكندر يانايوس (١٠٣ - ٧٦ ق. م) شرقي الأردن وقد استولى عليها الغيورون أثناء التمرد الأول (٦٦ - ٧٠م) وظلوا مقيمين فيها حتى بعد سقوط القدس. وقد قاوم المحاصرون بعض الوقت، ثم استسلموا في نهاية الأمر، وهي واقعة مناقضة لقصة ماسادا. أما قلعة هيروديام التي بناها الملك هيرود (٣٧ ق. م - ٤م) على بُعد سبعة أميال من القدس، وتقع على تل وتحميها أبراج دائرية فحدث أن احتمى بها بعض الغيورين، وعندما هاجمها الرومان استسلموا على الفور دون مقاومة على عكس ما حدث في ماسادا. والهدف الأساسي من الضجة حول ماسادا محاولة صهينة الشباب من جيل الصابرا، وربطهم بالتاريخ اليهودي القديم.

التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان (١٣٢ - ١٣٥)

اندلع التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان في مقاطعة يهودا الرومانية لأسباب غير معروفة، وقد قرر الإمبراطور هادريان فرض مزيد من الصبغة الهيلينية على مقاطعة يهودا واعتزم هدم القدس وبناء مستعمرة رومانية مكانها وبناء معبد روماني مكان الهيكل. كما أنه أصدر قراراً بمنع الختان ويبدو أن فقراء اليهود قاوموا قراره هذا. واندلع التمرد بين الفقراء بقيادة بركوخبا وكان مرشده الروحي عمه الكاهن إليعازر. وقد اعترف الحاخام هقيبا بن يوسف ببركوخبا بوصفه الماشيَّح المخلص. والتفت جماعات من فقراء الريف حول بركوخبا واشتبكت مع القوات الرومانية وسقط خمسون قرية ومدينة. وبعد ذلك استولى المتمردون على القدس. ولم ينضم أثرياء اليهود للتمرد وكذلك يهود الجليل لم ينضموا. ولم يدم التمرد طويلاً إذ أرسلت روما الإمدادات العسكرية وبدأ الهجوم الروماني عام ١٣٣م بقيادة هادريان وتم الاستيلاء على مناطق عديدة من مقاطعة يهودا وضمنها القدس خلال عام واحد. وفي عام ١٣٤م حاصر الرومان قلعة بيتار التي سقطت عام ١٣٥م ولقي بركوخبا وزملاؤه مصرعهم أثناء المعركة. وإثر فشل الثورة أُعدم مؤيدوها وأصبحت القدس مدينة محرمة على اليهود وبنى مكانها إيليا كابيتولينا.

بركوخبا (؟ -١٣٥م)

«بركوخبا» عبارة آرامية تعني «ابن النجم» وهو ذو دلالة مشيحانية واضحة. ويبدو أنه الاسم الذي أطلقه الحاخام عقيبا بن يوسف على سيمون، زعيم التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان، باعتباره الماشيَّح. قاد بركوخبا التمرد الثاني الذي استمر ثلاثة أعوام، وقد سحق الرومان التمرد وهدموا القدس. وبركوخبا اسم يتكرر في الكتابات الصهيونية كنموذج للبطل الذي يدافع عن الهوية اليهودية ويتمرد على حكم الأغيار، ولكن تمرده نوع من الانتحار، فلم يكن

هناك أي احتمال للانتصار على الرومان، وهو ما يربطه بأساطير مماثلة مثل شمشون وماسادا. ويرى يهوشافاط هركابي رئيس المخابرات الإسرائيلية السابق أن استجابة المستوطنين للانتفاضة تعبير عن هذه الأعراض التي يسميها «أعراض بركوخبا».

٩ـ الشرق الأدنى القديم قبل انتشار الإسلام وبعده

الشرق العربي قبل انتشار الإسلام وبعده

لا يعرف المؤرخون على وجه الدقة متى استقر اليهود في شبه الجزيرة العربية. ويُقال إن بعض جماعات من اليهود لجأت إلى شمال شبه الجزيرة، عندما هزمت آشور وبابل المملكتين اليهوديتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية). وأخذت الهجرة اليهودية شكل دفعات متوالية استوطنت تيماء وخيبر ووادي القرى ويثرب. كما كان هناك يهود في اليمن. وعن طريق التجارة والتبشير ازدادت أعداد يهود شبه الجزيرة العربية واليمن، نتيجة تهوُّد بعض القبائل. وقد اندمج يهود شبه الجزيرة العربية واليمن مع السكان العرب وتزاوجوا معهم، وأصبح طابعهم عربياً صرفاً، فانتظموا في قبائل وبطون وأفخاذ. وكان أكبر التجمعات اليهودية في يثرب، وكانت يثرب واحة خضراء، ومحطة مهمة على طريق التجارة الرئيس آنذاك، وكان يربط مكة والشام. وبعد انهيار سد مأرب في اليمن (٤٤٧ـ٤٥٠) وفد إلى يثرب قبائل الأوس والخزرج، فجاوروا القبائل اليهودية. ومع تزايد أعداد الأوس والخزرج راحوا ينافسون اليهود في تملُّك الأراضي الزراعية، في الوقت الذي دبَّ فيه العداء بين الجماعات اليهودية الكبرى. وكان التجمع اليهودي في يثرب يضم قبائل: بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع.

وكان يوجد تجمُّع يهودي في خيبر، وهي واحة على الطريق بين المدينة والشام. ويبدو أن سكان خيبر، أو معظمهم، كانوا من اليهود. ولا تتوفر معلومات دقيقة عن تركيبهم القبلي، ويبدو أنهم كانت تربطهم علاقة وثيقة بقبائل يثرب. أما بقية المناطق التي سكن فيها اليهود، مثل فدك وتيماء ووادي القرى، فقد كانت واحات صغيرة تقطنها مجاميع يهودية محدودة العدد. وكانت هناك قبائل يهودية أخرى تسكن اليمن ونجران في جنوب الجزيرة العربية.

ولا يرد ذكر يهود الجزيرة العربية في المراجع اليهودية أو غير اليهودية قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم نظراً لانقطاع علاقتهم ببقية يهود العالم. وعندما جاء الإسلام نظر باحترام إلى تعاليم التوراة الأصلية، ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم عقد معهم اتفاقاً ينظم الشئون المشتركة في المدينة ويوجب على كل طرف مساندة الآخر في مواجهة الخطر الخارجي، فإنهم سرعان ما اتخذوا موقفاً تدرَّج من السلبية إلى المقاومة وتحريض أعداء الإسلام.

ومع تصاعُد الصراع بين المسلمين ويهود المدينة، حرضت بنوقينقاع أهل مكة على الثأر من المسلمين لقتلاهم في بدر فأجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن المدنية. وفي أُحُد رفض اليهود الاشتراك مع المسلمين كما يقضي بذلك العهد بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد أن حاول أحدهم قتل الرسول أمرهم الرسول بالرحيل عن المدينة فتحصنوا، وبعد حصار استسلموا وسمح لهم بالرحيل خارج المدينة. وقام يهود بني قريظة بتحريض المشركين على المسلمين فكانت غزوة الخندق، ونجح المسلمون في زرع الشكوك بين الأحلاف وفشلت الحملة. وعندئذ هاجم الرسول بني قريظة، فلما استسلموا حكَّم فيهم سعد بن معاذ. وكانت خيبر في أعلى الحجاز مركزاً للتآمر على المسلمين. وحين عقد الرسول صلى الله عليه وسلم صُلح الحديبية، اتجه إلى خيبر، وبعد حصار استسلم يهود خيبر على أن يزرعوا أراضيهم، ويكون للمسلمين نصف المحصول. وتبع ذلك خضوع بقية القرى اليهودية للمسلمين بالشروط نفسها. وقد قام عمر بن الخطاب بإجلاء اليهود عن الجزيرة العربية، وهي حادثة الطرد أو التهجير الوحيدة في تاريخ العالم الإسلامي، باعتبار أن ما حدث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان جزءاً من عمليات عسكرية. وقد اشترى عمر بن الخطاب منهم أرضهم ويسَّر لهم الاستقرار في أماكن مختلفة من الدولة الإسلامية.

العالم الإسلامي منذ انتشار الإسلام حتى سقوط بغداد على يد المغول

منذ نشأتها، قبلت الحضارة الإسلامية التنوع، وفي المقابل كان لدى اليهود قدرة على التكيف مع الفتح الإسلامي، وكانت لديهم القدرة على العيش كأقلية في مجتمع تحكمه أغلبية تدين بدين مختلف. وعند الفتح الإسلامي لم يكن اليهود عنصراً واحداً متجانساً فكان هناك منهم من يتحدث اليونانية (الرومانيوت) ومن يتحدث الآرامية (يهود فارس) ويهود مستعربة طُردت من الجزيرة العربية ووُطِّنت خارجها. وبشكل عام كان معظم أعضاء الجماعات اليهودية يعملون في الدرجات الدنيا والوسطى، ولم يصل إلى المراتب العليا إلا نسبة صغيرة. وكان تركُّز اليهود في المهن التي

تتطلب التعامل مع غير المسلمين مثل التجارة الدولية والجاسوسية والدبلوماسية والترجمة. وحسب وثائق تعود إلى القرن الحادي عشر عمل يهود مصر في ٤٥٠ مهنة وحرفة، منها ٢٥٠ حرفة يدوية.

ومع حلول القرن العاشر كان عمل اليهود بالتجارة المحلية والدولية والربا والصيرفة، وكانت المؤسسات المصرفية اليهودية تقوم بإقراض الدولة في القاهرة وبغداد. وقد تدهور وضع اليهود في العالم الإسلامي نتيجة انقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات وإمارات، الأمر الذي أدى إلى انقسام اليهود أنفسهم. وبسبب الحروب الصليبية ازداد تراجع العالم الإسلامي، وفي عام ١٢٥٨ جاء الغزو المغولي لبغداد، فتحسنت أحوال الجماعات اليهودية لأنهم تعاونوا مع أهل الذمة. واستمر التدهور حتى الفتح العثماني، ولأول مرة، في القرن الثالث عشر، كانت أغلبية اليهود تعيش في أوربا، وليس في الشرق الأدنى.

إسبانيا الإسلامية (الأندلس)

عندما وصل طارق بن زياد إلى إسبانيا الكاثوليكية عام ٧١١ كانت حالة أعضاء الجماعة اليهودية فيها متردية، بل يقال إن كثيراً منهم تحوَّلوا إلى يهود متخفين. ويبدو أنهم مع وصول أنباء الفتح العربي بدأوا يتحسسون إمكان تحسُّن أوضاعهم فتعاونوا مع الفاتحين المسلمين. وحاول المسلمون الاستفادة من اليهود فكانوا بعد فتح أية مدينة يوطنونهم فيها لحراستها حتى يتفرغوا للفتح. وقد ثار السكان المسيحيون وفتكوا بأعضاء الجماعة اليهودية في عدة مدن لكن المسلمين استعادوها مرةً أخرى. ولعب أعضاء الجماعات اليهودية الدور نفسه بعد أن استعاد المسيحيون إسبانيا. وقد استفاد أعضاء الجماعة اليهودية من الفتح واستولوا على بعض بيوت النبلاء المسيحيين الذين فروا وتركوا ثرواتهم. ومع هذا يجب ألا نبالغ في تقدير دور الجماعة اليهودية فقد كانوا أقلية صغيرة لا يعتد بها، وأهم دور لعبوه أنهم كانوا مصدراً للمعلومات.

وقد نشب تمرد في عهد الحكم الأول (٧٩٦ ـ ٨٢٢) في مقاطعة الأندلس عام ٨١٨ وتمرداً آخر في طليطلة عام ٨٢٨ بالاشتراك مع المسيحيين المستعربين وقضي على هذه التمردات. وشهد القرنان الحادي عشر والثاني عشر تشرُّب اليهود الحضارة العربية الإسلامية وتحسُّن أحوالهم المعنوية والمادية، كما وصلوا إلى مكانة عالية في وظائف الإدارة وفي النشاط التجاري المحلي والدولي. ولإجادتهم لغات غير العربية كانوا حلقة الوصل بين العالمين الإسلامي والمسيحي. وتركَّز اليهود في المدن ووصل بعضهم لأرقى الوظائف الحكومية. وقد أصبحت الأندلس أهم مراكز اليهودية في العالم فنشأت فيها حلقات دراسية دينية مستقلة عن العراق بتشجيع من الطبقات الثرية اليهودية في الأندلس، إذ كانت في حاجة إلى حلقات تصدر فتاوي تتفق مع أوضاعها وتنازع العراق (المركز التقليدي للحلقات).

واندمجت النخبة اليهودية في محيطها العربي تماماً واستوعبت أعداد كبيرة منها الفلسفات التي كانت سائدة في الأندلس، ويذهب كثيرون إلى أن هذا أدى إلى أن تفقد الجماعة اليهودية أية هوية دينية واضحة. ولذا فإن المسيحيين عندما استردوا إسبانيا كان ما بقي من اليهودية قشرة رقيقة، وكان من السهل أن تتنصر أعداد كبيرة من اليهود. وقد ظهرت المارانية في هذا المناخ. ومع تفكُّك الخلافة الأموية انقسمت إسبانيا إلى دويلات (حكم الطوائف) فاستخدم الأمراء كثيراً من اليهود في وظائف مرموقة. ومع وصول المرابطين للحكم عام ١٠٨٦ طهروا جهاز الدولة من اليهود فتدهورت أحوالهم لفترة ثم عادت إلى ما كانت عليه. ومع وصول الموحدين للحكم ١١٤٦ فَقَدَ اليهود وضعهم الممتاز ومُنعت اليهودية في الأندلس، وبدأ الحكم الإسلامي ينحسر تدريجياً.

ويبدو أن الجماعات اليهودية في الأندلس لم يكن يربطها تنظيم واحد كما في بغداد أو الآستانة. ولذا تستخدم عبارة العصر الذهبي لليهود للإشارة إلى الوجود اليهودي في الأندلس، وبخاصة خلال القرنين العاشر والحادي عشر، وهي فترة حقق خلالها أعضاء الجماعات اليهودية إنجازات هائلة. وازدهر فيها الفكر اليهودي الديني والفلسفي على السواء واكتسبت العبرية أبعاداً جديدة من خلال علاقتها بالعربية.

الدولة العثمانية بعد انتشار الإسلام

العثمانيون مجموعة من القبائل التركية قامت بزعامة عثمان الأول (١٢٩٣ ـ ١٣٢٦) بتأسيس الدولة العثمانية. ومع منتصف القرن الخامس عشر الميلادي كانت الدولة العثمانية قد استولت على مناطق كبيرة من البلقان واليونان ثم سوريا وفلسطين ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية ومعظم شمال أفريقيا وكثير من جزر البحر الأبيض المتوسط. وقد بدأ المد العثماني ينحسر عام ١٦٨٣ عندما فشلوا للمرة الثالثة في الاستيلاء على فيينا، وبالتدريج بدأ التدهور إلى أن سقطت الخلافة العثمانية على يد ثورة تركيا الفتاة. وتاريخ يهود العالم الإسلامي ابتداءً من القرن الخامس عشر هو تقريباً تاريخهم داخل الدولة العثمانية. وقد ضمت الإمبراطورية العثمانية جماعات يهودية عديدة تتحدث لغات مختلفة ولها انتماءات إثنية متنوعة.

١ ـ الرومانيوت في آسيا الصغرى والبلقان وكانوا يتحدثون اليونانية ويطلق عليهم أيضاً «الجريجوس».
٢ ـ الإشكناز وهاجروا إلى الإمبراطورية العثمانية من ألمانيا وفرنسا.
٣ ـ السفارد وهاجروا من شبه جزيرة أيبريا وكانوا يتحدثون اللادينو، وقد أصبحوا أهم الجماعات اليهودية وطبعوا بقية الجماعات اليهودية بطابعهم، حتى إن اللادينو أصبحت لغتهم الأساسية.
٤ ـ اليهود المستعربة وهم اليهود العرب الذين ينتمون للأمة العربية ثقافياً.
٥ ـ اليهود الأكراد في العراق وكانوا يتحدثون الكردية، كما كان بينهم من يتحدث الآرامية والعربية.
٦ ـ اليهود القرّاؤن وكان بينهم من يتحدثون العربية (في مصر) ومن يتحدثون التركية (في شبه جزيرة القرم).
٧ ـ اليهود السامريون في فلسطين.
٨ ـ جماعات يهودية متناثرة تتحدث المجرية والرومانية وغيرها من اللغات الأوربية في المقاطعات التي ضمها العثمانيون.

كان يُطلق على كل تجمُّع يهودي لفظة «جماعة» («قهال» بالعبرية) وكان في استنبول ثلاثون جماعة يهودية لكل منها حاخامها ومعبدها ومحاكمها الخاصة. ولم تكن العلاقة بين هذه الجماعات ودية بل كانت تتصارع فيما بينها، فالجماعات الكبيرة تضطهد الصغيرة، والجماعات ذات الأصل الواحد المتناثرة في مدن مختلفة تتعاون فيما بينها ضد الجماعات الأخرى. ولم تكن هناك سلطة يهودية أو حاخام أكبر، وهو ما يجعل تجربة يهود الدولة العثمانية تشبه تجربة يهود الولايات المتحدة من بعض الوجوه. وقد نشأت بينها وحدة بدأت فيدرالية ضعيفة ثم بدأت الأجيال الجديدة من اليهود لا تهتم بالبلد الأصلي وتتحرك داخل تجربتها العثمانية. ومما ساعد على ذلك صدور الشولحان عاروخ الذي قبلته الجماعات اليهودية كافة مرجعاً أساسياً للشريعة.

ومع مطلع القرن الثاني عشر الميلادي كانت أغلبية الجماعات اليهودية تعتبر نفسها سفاردية وتتحدث اللادينو، وكانت هناك أقلية صغيرة إشكنازية يتحدث بعض أعضائها اليديشية، وأخرى قرّائية، بخلاف أقليات هامشية كالسامريين والأكراد. وبسبب اتساع الدولة العثمانية أخذ يهودها يتزايدون، وكذلك عن طريق الهجرة إليها. ويتميَّز يهود الدولة العثمانية بانتمائهم لها إذ كانوا يتعاونون مع حركة الفتوحات العثمانية، ولم تضم الدولة العثمانية عبر تاريخها غير أقلية من يهود العالم، فعندما بلغ عددهم ثلثمائة ألف كان عدد اليهود في العالم الغربي يتجاوز عشرة ملايين. ومما شجع اليهود على الهجرة إلى الدولة العثمانية أنها منحتهم الحقوق كافة، مثل امتلاك العقارات والاشتغال بكل الحرف والوصول لأرفع المناصب.

وقد اتسمت العلاقة بين أعضاء الجماعات اليهودية والنخبة الحاكمة بكثير من الانسجام والتفاهم لأن العنصر اليهودي كان مكملاً لنشاطها لا متناقضاً معه. وكما هو متوقع كان مصير يهود الدولة العثمانية مرتبطاً بحركيات هذه الدولة وما تواجهه من مشاكل وأزمات. وقد كان هناك ارتباط بين الممولين اليهود والإنكشارية، وعند القضاء عليها لتحديث المؤسسة العسكرية تحالف الممولون اليهود مع الإنكشارية ومولوا تمردهم، وبعد حل الإنكشارية قبض على رؤساء عائلات الممولين وتم إعدامهم، وهو ما ألحق ضرراً شديداً بالشبكة الاقتصادية اليهودية المرتبطة بهم.

ويمكن القول بأن التدخل الغربي هو الحقيقة الأساسية في تاريخ الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وكان لزيادة النفوذ الغربي آثار متضاربة على الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية، إذ أدى في البداية إلى زيادة نفوذ المسيحيين على حسابهم، فبرز العنصر اليوناني والعنصر الأرمني، وأدى هذا إلى تناقص نصيب أعضاء الجماعات اليهودية من التجارة الدولية بدءاً من القرن الثامن عشر. وتزامن هذا مع تناقص نفوذ الأرندا في بولندا وتناقص نفوذ يهود البلاط في وسط أوربا. وإذا كان نفوذ يهود الدولة العثمانية قد تناقص بسبب التدخل الغربي، فإن الصهاينة وضعوا أنفسهم تحت حماية بريطانيا واستفادوا من ذلك استفادة عظيمة. كما أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية حصلوا على جنسيات دول أوربية حتى يكونوا تحت حمايتها، وكان العثمانيون لا يمانعون في أن يعيش اليهود في فلسطين إذا كانوا مواطنين عثمانيين وحاولت أن تمنع اليهود غير العثمانيين من حق الاستيطان فيها.

وقد استفاد اليهود من حركة الإصلاحات في الإمبراطورية التي بدأت في عهد محمد الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) وقد ضمنت الإصلاحات حقوق كل سكان الإمبراطورية من أعضاء الأقليات، وضمنها اليهود، فكانت بمنزلة اعتراف سياسي لليهود. وحاول الصهاينة الاستفادة من أزمة الإمبراطورية العثمانية في آخر أيامها، وفشلوا فشلاً ذريعاً في الحصول على موافقة السلطان العثماني على المشروع الصهيوني. وثمة رأي يذهب إلى أن الدونمه لعبوا دوراً مهما وخطيراً في الثورة ضد الخلافة العثمانية، بينما يذهب رأي آخر إلى أن دورهم كان هامشيا. ومع استمرار عمليات التحديث في تركيا ألغيت أشكال الإدارة الذاتية كافة، وظهرت برجوازية تركية حلّت

محل الجماعات الوظيفية المختلفة التي كانت تتكون من الأرمن والشوام واليهود. وقد هاجرت أعداد كبيرة من اليهود للمغرب فتناقصت أعدادهم، وتبنَّى من تبقى منهم لغة الأتراك وعاداتهم. وقد بلغ عدد اليهود في تركيا ١٩,٥٠٠ عام ١٩٩٢.

المسألة الشرقية ورجل أوربا المريض

«المسألة الشرقية» مصطلح غربي إمبريالي يجسد وجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمانية التي كان يشار إليها بتعبير «رجل أوربا المريض». ومن منظور تطور الصهيونية ما يهمنا في المسألة الشرقية مصير فلسطين، ولذا يعد عام ١٨٤١ تاريخاً حاسماً إذ تم فيه القضاء على محمد علي. وقد كان ظهور محمد علي يعني احتمال ملء الفراغ الناجم عن ضعف الدولة العثمانية، واحتمالية أن يحكم أبناء المنطقة أنفسهم بأنفسهم، وهو ما لم تكن أوربا تريده. وقد اكتشف البريطانيون إمكان توظيف المسألة الشرقية لحل المسألة اليهودية من خلال نقل المادة البشرية اليهودية إلى فلسطين. وكانت الدولة العثمانية ترحِّب بهجرة اليهود إليها منذ طردهم من إسبانيا، ومع تزايد التدخل الأجنبي حاولت الدولة العثمانية أن تمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وسمحت بها لمن يحمل الجنسية العثمانية. وتحت ضغوط الدول الغربية اضطرت الدولة العثمانية إلى إصدار قرار عام ١٨٨٤ يمنح الأجانب حق التملُّك في فلسطين. وقد انتهت المسألة الشرقية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية.

الامتيازات الأجنبية

«الامتيازات الأجنبية» اصطلاح يشير إلى المعاملة القضائية والقانونية الخاصة التي تقررت للأجانب الموجودين في أقاليم الإمبراطورية العثمانية بمقتضى مجموعة من المعاهدات. وقد نشأت نتيجة معاهدات الامتيازات الأجنبية عدة مراكز أو مستعمرات تجارية تركزت فيها التجارة الدولية في عدة مناطق من الدولة العثمانية. وكان من أوائل التجار اليهود الذين تمتعوا بالحماية الأجنبية تجار حلب اليهود وكانوا جزءاً من الشبكة التجارية اليهودية الدولية الممتدة من بولندا إلى وسط أوربا وغربها، وقد غطت الدولة العثمانية وأجزاء من أفريقيا والعالم الجديد. وابتداءً من القرن التاسع عشر ازداد النهم الاستعماري الأوربي فبدأ قناصل الدول الأوربية يضعون الأقليات تحت حمايتهم لأسباب عديدة. واتسع نطاق نظام الامتيازات الأجنبية بين يهود العالم العربي حتى كانت غالبيتهم العظمى تتمتع بحماية الدول الأجنبية. ولعب نظام الامتيازات دوراً أساسيا في تسهيل عملية الاستيطان الصهيوني التسللي، فيهود فلسطين كانوا في الأساس من السفارد المندمجين في محيطهم الحضاري الإسلامي، وحاولت عناصر من الإشكناز الاستفادة من نظام الامتيازات فقاوم السفارد هذه المحاولة (١٨٢٢ - ١٨٢٣)، وفي عام ١٨٤٠ كلِّلت هذه المحاولات بالنجاح. وكان المستوطنون الصهاينة الإشكناز يتسلَّلون إلى داخل فلسطين بأن يحصلوا على تأشيرة دخول كمواطنين أجانب يتمتعون بحقوق خاصة ثم يستوطنون فيها. ونظام الامتيازات الأجنبية هو المسئول عن تحويل يهود الدولة العثمانية والعالم الإسلامي ككل إلى جماعات وظيفية. وقد ألغي نظام الامتيازات الأجنبية عام ١٩٣٧.

حماية اليهود (والأقليات الأخرى)

من أنجح الأساليب التي تتبعها الدول الاستعمارية الكبرى في تنفيذ مخططاتهم ما يسمَّى «حماية الأقليات». إذ تقوم إحدى الدول الكبرى التي لها أطماع في دولة ما بإعلان مسئوليتها عن أقلية تعيش داخل حدود هذه الدولة فتضعها تحت "حمايتها"، فتتدخل في شئون الدولة التي تعيش فيها هذه الأقلية بحجة الدفاع عن مصالح هذه الأقلية. وتهدف فكرة الحماية إلى إقناع أعضاء أقلية ما بأن مصالحها تختلف عن مصالح محيطها وأن أفضل وسيلة لحماية هذه المصالح التحالف مع الغرب. ومفهوم حماية اليهود مفهوم راسخ في الحضارة الغربية، وقد بُعث هذا المفهوم من جديد مع ظهور الصهيونية. وحماية اليهود إحدى الآليات التي تم من خلالها تحويل يهود العالم العربي إلى مادة استيطانية، وهي عملية لم تكن مقصورة على اليهود وحدهم ولا على فلسطين بل كانت تضم أعضاء الأقليات الأخرى وكل الوطن العربي، ولفهم صراع الدول الغربية حول الأقليات لابد أن ندرس البعد الديني في العملية الاستعمارية الغربية، فالإمبريالية الغربية وظَّفت النصوص الدينية لتجنيد الجماهير.

وقد كانت القوة البروتستانتية أنشط القوى الاستعمارية (البروسية والإنجليزية) وحيث إنه لم يكن هناك عرب بروتستانت كان من الضروري القيام بنشاط تبشيري فقام نشاط تبشيري بروتستانتي بين العرب المسيحيين (وليس بين المسلمين)، كما أن أعضاء الجماعات اليهودية أصبحوا مرشحين للعب دور الأقلية القابلة للحماية والرعاية. وقد نشأ تنافس عميق بين الدول الاستعمارية لحماية الأقليات، ومن ثَمَّ زاد عدد اليهود الذين يتمتعون

بالحماية الأجنبية حتى أصبح نصفهم تحت الحماية الأجنبية. واستمرت حماية الأقليات اليهودية حتى بداية الحرب العالمية الأولى وتوِّجت بصدور وعد بلفور ثم قرار إنشاء الدولة.

الجماعات اليهودية في العالم العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر: تعداد

يلاحظ أنه مع بداية العصور الوسطى في الغرب كان يهود العالم الإسلامي يشكلون أكثر من نصف تعداد يهود العالم، إلا أن عددهم أخذ في التناقص حتى أصبحوا أقلية لا تتجاوز ١٠٪. وحسب الإحصاءات فإن عدد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي عام ١٩٥٠ كان يتراوح بين ٦٥٠ ألفاً و٨٠٠ ألف، ويجب أن نستبعد من هذا الرقم يهود الجزائر ومصر الذين كانوا يحملون جنسيات أجنبية وبذلك يكون العدد حوالي ٦٠٠ ألف. وكان أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون في المدن بسبب تركزهم في قطاعات معينة، فيهود العراق الذين بلغ عددهم ١١٨ ألفاً تركَّز منهم في بغداد ٧٧ ألفاً. وبلغ عدد اليهود في مصر عام ١٩٣٧ حوالي ٦٣ ألفاً، كان ٥٩ ألفاً منهم يعيشون في القاهرة والإسكندرية، وكانت بقيتهم في مدن صغيرة، وفي عام ١٩٤٧ كان ٩٦٪ من يهود مصر يعيشون في القاهرة والإسكندرية. أما في المغرب فيعيش ٨٠٪ من اليهود في المدن.

وبعد عام ١٩٥٠ أخذت الجماعات اليهودية تختفي من العالم العربي، فلم يبق إلا عدة مئات في بلاد مثل مصر والعراق وعدة آلاف في المغرب. وحسب إحصاء عام ١٩٨٦ وصل عدد يهود البلاد العربية إلى ٢٦,٩٠٠، أما في عام ١٩٩٢ فوصل إلى ١٣,٢٠٠ موزعين على النحو التالي: المغرب ٧٥٠٠ - سوريا ١٢٠٠ - تونس ٢٠٠٠ - اليمن ١٢٠٠ - الجزائر ٣٠٠ - لبنان ٢٠٠ - مصر ٢٠٠ - العراق ٢٠٠.

والانخفاض السريع الذي وصل إلى النصف خلال ستة أعوام يعني أنه لن يوجد يهود في العالم العربي في القرن القادم. والظاهرة ليست مقصورة على العالم العربي حيث يتوقع الدارسون لأسباب مختلفة اختفاء أعضاء الجماعات اليهودية فيما يسمَّى «موت الشعب اليهودي».

الجماعات اليهودية في العالم العربي: نمط الهجرة

تدخل هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي في إطار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث، وهي هجرة من البلاد الأقل تقدماً من الناحية الاقتصادية إلى البلاد الأكثر تقدماً، ومن البلاد التي تلعب فيها الدولة دوراً أساسيا في الاقتصاد إلى دول الاقتصاد الحر. وتتجه هجرة يهود البلاد العربية أساساً إلى فرنسا وأحياناً أمريكا اللاتينية، لكن العدد الأكبر اتجه إلى إسرائيل. وقد هاجر يهود الجزائر كلهم إلى فرنسا، كما هاجر إليها كثير من يهود تونس ومصر والمغرب. ويرى البعض أن أكبر دليل على انتماء يهود البلاد العربية لبلادهم ضآلة حجم هجرتهم إلى إسرائيل، فمن بين ٤٦٠ ألفاً دخلوا فلسطين بين عامي ١٩١٩ و١٩٤٨ لم يأت من البلاد العربية والإسلامية سوى ٤٢ ألفاً شكلوا ٩٪ من الهجرة وكان أكثرهم من الإشكناز.

ومن المفارقات التي لها أعمق دلالة أن يهود البلاد العربية كانوا يشكلون أقلية صغيرة جدا لا أهمية لها بالنسبة ليهود العالم وأصبحوا الآن يشكلون أغلبية سكان إسرائيل. وأكبر المجموعات التي هاجرت إلى الدولة الصهيونية يهود المغرب، ويوجد في الدولة الصهيونية ٤٨٠ ألفاً من يهود المغرب أو من أصل مغربي، و١٢٥ ألفاً من يهود تونس والجزائر، و٧٣ ألفاً من ليبيا. أي أن هناك ٦٨٢ ألفاً من المغرب العربي يشكلون ٢٠٪ من يهود المستوطن الصهيوني. أما اليهود ذوو الأصل العراقي فيبلغ عددهم ١٢٩ ألفاً، إلى جانب ٢٤٥ ألف يهودي يمني و١٦١ ألفاً ولدوا لآباء يمنيين و٣٥ ألفاً كانوا في فلسطين قبل عام ١٩٤٨. وإلى جانب ذلك يوجد عدة آلاف من سوريا و١٣٠ ألفاً من إيران و١٠٠ ألف يهودي كردي. وقد سمح كل من المغرب والعراق لليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل بالعودة، ورغم أن الأعداد التي عادت رمزية إلا أن القرار يشكل ضربة في الصميم لأسطورة الشرعية الصهيونية.

الجماعات اليهودية في العالم العربي: الانقسامات الدينية والعِرْقية

مع منتصف القرن التاسع عشر وبداية تفكُّك الدولة العثمانية لم يكن أعضاء الجماعة اليهودية في العالم العربي يشكلون وحدة دينية أو ثقافية أو لغوية، ويمكن تقسيمهم على النحو التالي:

١ - اليهود المستعربة الذين يتحدثون العربية وينتمون للتشكيل الحضاري العربي الإسلامي، ويمكن أن نصنف يهود اليمن ضمن هؤلاء، رغم خصوصيتهم التي تميزهم عن بقية اليهود المستعربة.

٢ - يهود السفارد الذين يتحدثون اللادينو.

٣ - يهود الإشكناز الذين يتحدثون اليديشية.

٤ ـ يهود الغرب الذين يتحدثون لغات بلادهم المختلفة: الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية.

٥ ـ يهود البربر في جبال الأطلسي ويتحدثون اللغات البربرية المختلفة..

٦ ـ يهود كردستان في العراق ويتحدثون الكردية والآرامية، وبعضهم كان يتحدث العربية.

وغياب التجانس عبَّر عن نفسه في شكل صراع بين الجماعات اليهودية المختلفة. فكانت كل جماعة تشير إلى الأخرى إشارات قدحية سلبية. وقد انعكس هذا كله في غياب إطار تنظيمي مركزي إلا إذا قامت الدولة بفرضه، كما حدث في مصر.

وقد ترك وصول يهود الغرب (الإشكناز والسفارد) آثاراً متنوعة من منطقة لأخرى، ففي المغرب اندمج يهود المدن الساحلية مع السفارد واصطبغوا بالصبغة السفاردية، أما في المدن الداخلية فاحتفظ اليهود بصبغتهم العربية أو البربرية. أما في الجزائر فحدث العكس إذ تم استيعاب السفارد ضمن السكان الأصليين وأصبح الجميع يهوداً مستعربة. ومن الناحية الدينية ينقسم اليهود إلى:

١ ـ يهود حاخاميين يؤمنون بالتوراة والتلمود، وهؤلاء كانوا الأغلبية، كان معظمهم يتبع النهج السفاردي.

٢ ـ يهود قرَّائين، وكانوا يوجدون أساساً في مصر حيث بلغ عددهم عام ١٩٤٧ حوالي ٣ آلاف مقابل ٦٢ ألف يهودي حاخامي.

٣ ـ يهود سامريين.

٤ ـ يهود لادينيين وعلمانيين.

ويبدو أن التيارات الجديدة، وهي تيارات إشكنازية أساساً، لم تجد طريقها إلى العالم العربي. وقد كان اليهود يختلفون في درجة تمسُّكهم بتعاليم دينهم حسب معدلات العلمنة الموجودة في مجتمعاتهم. وقد ضمنت دساتير العراق ومصر والمغرب وغيرها من الدول العربية لليهود المساواة في الحقوق كافة. ويلاحظ أن ظاهرة الجيتو الغربية ليس لها نظير في العالم العربي، إلا في المغرب حيث كان اليهود يعيشون في حي خاص بهم. أما حارة اليهود فلم تكن جيتو بأي معنى.

الجماعات اليهودية في العالم العربي: تحوُّلها إلى عنصر استيطاني

بعد أن نجحت الدول الغربية في القضاء على تجربة محمد علي في النهضة القومية في مصر والعالم العربي وإصلاح الدولة العثمانية ككل، تعاظم النفوذ الغربي في العالم العربي وتراجعت الدولة العثمانية وأخذت تتنازل للقوى الغربية بالتدريج. وانتهى الأمر إلى القضاء على الدولة العثمانية واقتسام معظم أجزاء العالم العربي بين الدول الغربية. وحاول الاستعمار الغربي أن يوسع رقعة نفوذه بين السكان عن طريق فرض الحماية على أعضاء الأقليات ومنحهم مزايا لا يتمتع بها أعضاء الأغلبية لتتحول الأقليات إلى جماعات وظيفية مرتبطة بمصالحه، وكانت هذه العملية تسمى «حماية» الأقليات. وهذا هو النمط الذي يسم علاقة إسرائيل بالعالم الغربي، ويسم موقف الحضارة الغربية من اليهود عبر تاريخها ولعبت المؤسسات اليهودية الغربية دوراً أساسيا في ذلك.

ومما عمَّق هذا الاتجاه وجود عناصر يهودية وافدة من الغرب كان عددها أحياناً يفوق عدد اليهود المحليين، فعدد يهود مصر، على سبيل المثال، كان في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بين ٦ آلاف و٧ آلاف، وفي عام ١٨٩٧ بلغ عددهم ٢٥ ألفاً نصفهم من الأجانب الوافدين. وفي عام ١٩٤٧ كانت نسبة المصريين بين أعضاء الجماعة اليهودية لا تتجاوز ٢٠٪. وكان العنصر الوافد يشكل عامل جذب لأنه كان يتمتع بكفاءات تؤهله للتعامل مع الاقتصاد الحديث، ولذا سرعان ما اكتسب العنصر المحلي الصبغة الغربية حتى أصبح من الصعب في كثير من الأحوال التمييز بين اليهود المستعربة والوافدين، وكان يهود العراق استثناء من هذه القاعدة إذ احتفظوا بهويتهم العربية.

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن عملية إعتاق يهود العالم وتحديثهم تمت خارج نطاق المجتمع وبمعدلات تختلف عن معدلات تحديث المجتمع ومن خلال القوى الغازية، ولذا فإنها أدت في الغرب إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم بينما أدت إلى نتيجة عكسية تماماً في المجتمع العربي. ولكل هذا نجد أن مصير أعضاء الجماعات اليهودية ارتبط بمصير الاستعمار في المنطقة فتزايدت هامشيتهم وتحسنت أحوالهم المادية مع تزايد الهيمنة الاستعمارية. ومع تزايد نشاط الحركة الصهيونية ازدادت عملية التهميش. غير أن هذا لا يعني أن كل أعضاء الجماعات اليهودية كانوا ممالئين للاستعمار الغربي وتحولوا إلى وسطاء له ذلك أن أعداداً كبيرة من يهود سوريا انضمت لحركة التحرر الوطني ودعمت المطالب القومية. كما أن كثيراً من أثرياء اليهود كانوا جزءاً من «الرأسمالية الوطنية» وارتبطت مصالحهم بالوطن الذي عاشوا فيه. والصورة العامة للجماعات اليهودية في العالم العربي هي أن الاستعمار الغربي نجح في عزلها ثقافياً عن الثقافة العربية الإسلامية

وربطها بمصالحه الاقتصادية ورؤيته الثقافية، وبعد تأسيس إسرائيل اختفى يهود البلاد العربية تقريباً.

الجماعات اليهودية في العالم العربي: الانقسام الطبقي والتمايز الوظيفي

لم تكن الجماعات اليهودية داخل كل بلد عربي تتسم بالتماسك والوحدة فقد كانت خاضعة للصراعات الطبقية والثقافية التي تسم أي مجتمع إنساني. ففي مصر مثلاً كانت الجماعة اليهودية تشمل ٣ طبقات، في أعلى السلم الطبقي نجد عدداً من العائلات الأرستقراطية الغنية المعروفة بثرائها وعلاقتها القوية بالنخبة الحاكمة. تلي هذه الطبقة أخرى متوسطة شملت رجال الاستيراد والتصدير وأصحاب المحال التجارية والمهن الحرة في القاهرة والمدن الصغيرة، كما تضم عدداً من الموظفين اليهود. وهاتان الطبقتان كان أعضاؤهما متفرنسين تماماً لغةً وثقافة. وكانت أعداد كبيرة منها من أصل أجنبي. ثم يأتي فقراء اليهود من الباعة الجائلين وصغار الحرفيين ومعظمهم من اليهود المستعربة، ومعظمهم كان في حارة اليهود بالقاهرة، وكانوا يشكلون حوالي ٢٥٪ من تعداد الجماعة. ولم يكن اليهود المتفرنسون يتزاوجون مع اليهود المستعربين فلكل منهما عالمه الخاص. وكان هذا التقسيم الثلاثي نمطاً سائداً في المغرب والعراق أيضاً.

أما الوضع الوظيفي أو المهني أو الاقتصادي فكان مركباً. ففي المغرب واليمن والمناطق ذات الكثافة الكردية من العراق عمل اليهود رعاة ومزارعين. لكن بشكل عام كانوا بعيدين عن قاعدة الهرم الإنتاجي. وكانت أعداد كبيرة منهم في مهن الطبقة الوسطى كالطب والصيدلة والصحافة، وكان منهم أساتذة بالجامعات. وفي العراق ومصر والمغرب وصل بعضهم إلى مناصب الوزراء وعضوية البرلمان. وبحكم تركيبه كان المجتمع يضع قيوداً على أعضاء الأقليات مقارنةً بالأغلبية، كما أنه يتيح أمامهم فرصاً ليست متاحة لأعضاء الأغلبية. ومن هنا تركّز اليهود بنسبة تفوق عددهم بالنسبة للسكان في الأعمال التجارية والمالية، فكان منهم صغار التجار والباعة الجائلون والمرابون وكبار التجار وتجار الجملة. كما تركزوا في الصناعات القريبة من المستهلك كالصناعات الزراعية، ولم يكونوا جزءاً من قاعدة الهرم الإنتاجي. ولعبت مدارس الأليانس دوراً أساسياً في تزويد أعضاء الجماعة اليهودية بالكفاءة اللازمة للتعامل مع الاقتصاد الاستعماري الجديد.

١٠ ـ الإقطاع الغربي وجذور المسألة اليهودية

جذور المسألة اليهودية

«المسألة اليهودية» تضرب بجذورها في المسألة العبرانية، فالتجمع العبراني في فلسطين كان تجمعاً صغيراً فقيراً ضعيفاً من الناحية البشرية والمادية، يوجد في منطقة إستراتيجية مهمة، ولذا لم يستطع أن يدافع عن استقلاله ضد هجمات القوى الكبرى المحيطة به، وكان دائماً عرضة للغزو والتهجير. ولذا تحولّت أعداد كبيرة من العبرانيين إلى جماعات وظيفية مرتزقة واستيطانية ومالية وتحولت الدويلتان العبرانيتان إلى دويلتين تابعتين. وقد حدث انقطاع في العالم بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وظهور المسيحية في الغرب والإسلام في الشرق. ففي داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي المسيحي في العصور الوسطى تحدَّد وضع اليهود بشكل معيَّن (شعب شاهد ـ أقنان بلاط ـ جماعة وظيفية). وهذا الوضع هو الذي أدى إلى ظهور المسألة اليهودية فيما بعد حين بدأت عمليات التحديث والعلمنة وظهرت الدولة القومية. ولكي نفهم طبيعة المسألة اليهودية وأبعادها الحقيقية لابد من الوصول إلى جذورها من خلال دراسة العصور الوسطى في الغرب وما تبعها من فترات اهتز فيها وضع الجماعات اليهودية.

كان الإقطاع الغربي النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد في أوربا في العصور الوسطى، وكان قائماً على ملكية الأرض الزراعية. كان الأمير الإقطاعي يمنح تابعيه من النبلاء قطعة من الأرض ليزرعوها ويزودهم بالحماية نظير أن يدينوا له بالولاء ويزودوه بعدد من المحاربين. وكان النبلاء بدورهم يقسمون أرضهم على أتباعهم وهكذا حتى نصل إلى قاعدة الهرم حيث يوجد الأقنان الذين يقومون بزراعة الأرض ويحصلون على ما يعيشون به على حد الكفاف. والمجتمع الإقطاعي مقسَّم طبقيا تقسيماً صارماً يعرف كل شخص فيه مكانته ومكانه حيث يصل إليهما عادةً عن طريق الميراث والنسب، وليس عن طريق الجد والعمل. وكل طبقة يعرف أعضاؤها حقوقهم وواجباتهم. وقد بلغ النظام الإقطاعي ذروته في القرن الثاني عشر ثم أخذ في الضعف ابتداءً من القرن الثالث عشر، ويقال إنه اختفى كنظام اقتصادي مع نهاية القرن الرابع عشر. وبدأت الثورة التجارية تقوِّض دعائم الطبقات الإقطاعية الزراعية الحاكمة والصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث تلقت المؤسسات الإقطاعية الضربة القاضية.

كان لأعضاء الجماعات اليهودية وضع خاص في المجتمع

الإقطاعي الغربي، إذ حصلوا على مواثيق تضمن لهم الحماية وتحقق لهم المزايا، وتحولوا إلى أقنان بلاط وأداة في يد الطبقة الحاكمة. وكان وضعهم داخل الإقطاع الغربي متميِّزاً وممتازاً بشكل عام حتى حروب الفرنجة ثم تدهور بعد ذلك، كانوا يعملون بالتجارة المحلية والدولية. لكن نفوذهم التجاري تراجع بظهور الجماعات التجارية المحلية. ولم يكن وضع اليهود داخل هذا النظام متجانساً بل اختلف من شرق أوربا إلى وسطها إلى غربها، وكان اليهود ممنوعين من دخول روسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر.

والعصور الوسطى فترة تمتد من القرن الخامس الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي ووصلت ذروتها في الفترة بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر. وقد بدأ بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية التي كانت تعامل اليهود باعتبارهم «كوليجوم» أي «رابطة»، وهي جماعة يحق لأعضائها أن يجتمعوا للقيام بشعائرهم الدينية. وبانهيار الإمبراطورية الرومانية تردت الأحوال، وشهدت العصور الوسطى محاولات للنهوض من التردي وتأثرت الجماعة اليهودية بكل ذلك. ومن أهم ما تأثَّرت به الجماعة اليهودية أن الإمبراطورية الرومانية تبنت المسيحية ديناً رسمياً فأصبح اليهود للمرة الأولى أقلية في محيط غير وثني، وهو أمر جديد عليها تماماً إذ كانت دائماً في محيط وثني تكتسب هويتها من صراعها معه. وازدادت العلاقات سوءاً عندما أعلن السنهدرين أن المسيح ليس الماشيَّح الحقيقي بل المسيح الدجال، وآمن المسيحيون بأن هدم الهيكل تحقيق لنبوءة المسيح. وتوقَّف النشاط التبشيري اليهودي وانطوى اليهود على أنفسهم، وانصرف علماؤهم لجمع التلمود وتدوينه بما يحويه من كره عميق للمسيحية وشخص المسيح. وتحدَّد وضع الجماعات اليهودية في المجتمع الغربي في العصور الوسطى على أساس عاملين: ديني ودنيوي، فقد أصدر قسطنطين (٣١٢-٣٣٧) تشريعات أصبحت اليهودية بمقتضاها ديناً غير مشروع وحرَّم على اليهود العمل بمهن معينة وحرموا حق اقتناء العبيد. وكان موقف الكنيسة منهم ينبع من فكرتين أساسيتين، أولاً: أنهم قتلة المسيح الذين أنكروه ولابد من عقابهم على ذلك. ثانياً: أنهم الشعب الشاهد الذي عاصر أعضاؤه ظهور المسيحية وبداية الكنيسة، وهم بتدنِّي وضعهم يقفون شاهداً حياً على صدق الكتاب المقدَّس وعظمة الكنيسة. ومن هنا كان الإيمان بضرورة الحفاظ على هذا الشعب الذي سيؤمن في نهاية الأمر بالمسيحية، مع وضعهم في مكانة أدنى.

وشهدت العصور الوسطى غياب التجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب أكثر فأكثر، فبعد أن أسَس الإسكندر إمبراطوريته بدأ اليهود يتحركون داخل فلك حضارتين: الفارسية واليونانية (ثم الرومانية). وانتشروا من إسبانيا إلى آسيا الصغرى، وكان معظمهم مع بداية العصور الوسطى في الإمبراطورية البيزنطية. وابتداءً من القرن التاسع انتقل مركز اليهودية من بيزنطة إلى داخل أوربا. ومع تمزُّق إمبراطورية شارلمان وزيادة نفوذ الأمراء الإقطاعيين أصبحت الجماعة اليهودية تتسم بتنوع لغاتها وطقوسها الدينية. وبظهور الملكيات القوية فيما بعد ازداد تفتُّت الجماعات اليهودية في الغرب. وكان المجتمع الغربي مقسماً إلى طبقات بشكل صارم لم يكن لليهود فيه مكان فتم تصنيفهم بوصفهم «غرباء»، والغريب في العُرف الألماني كان تابعاً للإمبراطور مباشرةً، فكان يفرض عليهم ضرائب ويبيع لهم مزايا ومواثيق ويحقق من ذلك أرباحاً. وبوضعهم تحت حماية الإمبراطور مباشرةً أصبح اليهود جماعة وظيفية تابعة للطبقة الحاكمة، وكانوا يتمتعون بحقوق تفوق في كثير من الأحيان حقوق عامة الشعب. والمزية الكبرى التي حصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية هي حرية الحركة إذ أصبحوا العنصر البشري الوحيد المتحرك في المجتمع. ثم بدأوا يتمركزون في أماكن معينة فكان المركز الأساسي للتجار الدوليين اليهود جنوب فرنسا وعُرفوا باسم «الراذانية»، وكان شمال فرنسا يضم أهم تجمُّع يهودي فيها، كما كان مركزاً للدراسات التلمودية حيث كان راشي يعمل بتجارة الخمور ويكتب تعليقاته على التلمود. وكان هناك تجمعات أخرى في إيطاليا وإنجلترا وإسبانيا، حتى أن كلمة يهودي بعد أن كانت تشير في الدولة الرومانية إلى "عضو في قوم (إثنوس)" أصبحت تشير إلى "التاجر".

وهذه السمات مجتمعة: ارتباطهم بالنخبة الحاكمة، واشتغالهم بالتجارة والربا، وحصولهم على حقوق ومزايا، حدَدت علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالمجتمع (الأثرياء - الكنيسة - سكان المدن والفلاحين) ويمكن أن نشبِّه أعضاء الجماعة اليهودية في العصور الوسطى في الغرب بالمماليك، وهم جماعة وظيفية أخرى تعمل بالقتال.

وفي الفترة من القرن الحادي عشر الميلادي حتى عصر النهضة تدهورت أحوال اليهود، ويمكن اعتبار حروب الفرنجة التي تُعرف باسم «الحروب الصليبية» نقطة حاسمة في تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية، لا لأنها تضمنت الهجوم عليهم، بل لأنها تزامنت مع تحوُّل اقتصادي عميق في المجتمعات الغربية. إذ ظهرت القوى الاقتصادية المسيحية التي حلَّت محل اليهود في التجارة الدولية، الأمر الذي دفع اليهود للعمل في الربا والتجارة البدائية وهو ما جعل

كلمة «يهودي» تصبح مرادفة لكلمة «مرابي»، وهو تيار استمر حتى القرن الخامس عشر الميلادي. وشهد هذا القرن أيضاً ظهور الملكيات المطلقة المستقلة عن الكنيسة، وقد أصبح لها مشروعاتها الاقتصادية المستقلة فاحتاجت اليهود لفترة ثم استغنت عنهم. وأدى ظهور حركات الهرطقة في جنوب فرنسا في الفترة من القرن الحادي عشر للرابع عشر إلى تنشيط محاكم التفتيش وهو ما أضر باليهود.

وكان التركيب الاجتماعي لأعضاء الجماعات اليهودية في أوائل العصور الوسطى هرمياً، فقد شغل أعضاء سبع أسر من مينز وورمز كل المناصب المهمة في فرنسا وألمانيا، فكان منهم قادة الجماعة ورؤساء المدارس التلمودية. وظل الانتماء الأسري لليهودي أمراً مهماً جداً في تحديد مكانته الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية. لكن مع حلول القرن الثالث عشر ازداد نفوذ أثرياء اليهود وأصبح بالإمكان إحراز المكانة خارج نطاق الوراثة. ومع حلول القرن الثالث عشر أصبح أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب جماعة وظيفية وسيطة تشكل جسماً غريباً بمعنى الكلمة وتعيش على هامش المجتمع أو في مسامه وتؤمن بدين معاد للديانة الرسمية. ويبدو أن استبعاد اليهود إلى هذا الحد هو الذي أدّى في نهاية الأمر إلى ظهور المسألة اليهودية في أوربا. ومن الصعب تحديد عدد اليهود في أوربا والعالم في ذلك الوقت، وتشير التخمينات إلى أن عدد يهود العالم كان يبلغ مليوناً معظمهم في العالم الإسلامي. ولم يكن حجم أية جماعة يهودية في أية مدينة يزيد على ألفين، وكانت الجماعة المكونة من عدة مئات تعتبر جماعة مهمة.

الشعب الشاهد

«الشعب الشاهد» أحد المفاهيم الأساسية التي ساهمت في تحديد وضع الجماعات اليهودية في الغرب كجماعات دينية إثنية داخل التشكيل الحضاري الغربي. وللمفهوم جانبان: الأول رؤية الكنيسة بوصفهم الشعب الذي أنكر المسيح المخلص فصلبوه بدلاً من الإيمان به. ورأى آباء الكنيسة أن الهيكل هُدم وأن اليهود تشتتوا عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب. على الجانب الآخر يذهب الكثير من آباء الكنيسة وعلى رأسهم بولس إلى أنَّ رَفْض اليهود قبول المسيح سر من الأسرار فهم يحملون الكتاب الذي يتنبأ بمقدمه ورغم ذلك ينكرونه، وتنبأ بولس أيضاً بأن قسوة إسرائيل ستزداد إلى أن يتنصر الأغيار جميعاً ثم يأتي خلاص اليهود كشعب بالمعنى الديني. وضْعة اليهود وتمسكهم بشعائر دينهم يجعلهم شعباً شاهداً على صدق الكتاب المقدَّس وعظمة الكنيسة. وقد ساهم العنصران معاً في صياغة السياسة الكاثوليكية إزاء الجماعات اليهودية، فكانت ترى ضرورة الإبقاء على اليهود واليهودية مع وضعهم في وضع أدنى. ومن أهم آثار فكرة الشعب الشاهد أنها وضعت اليهود على هامش التشكيل الحضاري الغربي، وهي المقابل الديني لمفهوم أقنان البلاط الطبقي، أي أنهم أصبحوا أقنان بلاط، ولكن من منظور ديني. وقد تمت علمنة الفكرة فيما بعد فيما يسمَّى «الشعب العضوي المنبوذ»، وهو المفهوم الذي يشكل إطار التصور الغربي للجماعات اليهودية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وهو الأساس الفكري للصهيونية ومعاداة اليهودية.

المواثيق والمزايا والحماية

«المواثيق» نصوص كانت تصدرها جهة رسمية تتعهد فيها بتزويد فرد أو مجموعة من الأفراد بحماية خاصة، وتمنحهم المزايا، وتحدِّد حقوقهم وواجباتهم. وكان الأمراء والملوك يمنحون أعضاء الجماعات اليهودية مثل هذه المواثيق التي تحدد وضعهم كجماعة وظيفية مالية داخل المجتمع الإقطاعي في العصر الوسيط. وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية أصبح اليهودي الغريب الأساسي لأنه لم يكن يعمل بالقتال أو الزراعة وهما المهنتان الأساسيتان في المجتمع الغربي، وقد وُضعوا بسبب هذا تحت حماية الملوك الذين كانوا يصدرون مواثيق تحدد وضعهم وتمنحهم المزايا. وكان الميثاق يعطي أصحابه مزايا عديدة ولذا أصر التجار غير اليهود على الحصول على مواثيق شبيهة.

وفي العصور الوسطى كان الوضع القانوني لأعضاء الجماعات اليهودية يعد مزية كبرى فلم تكن تحد حركته القوانين المحلية، ووفَّرت المواثيق لهم الجو المستقر اللازم للقيام بالأعمال المالية والتجارية وحمتهم من هجمات الغوغاء ومحاكم التفتيش والتنصير القسري. ولكن تميُّزهم حوَّلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة ممتازة وأداة إنتاج راقية، فاليهودي في نهاية الأمر ملكية خاصة للملك. وكلما ازدادت الحقوق والمزايا التي كان اليهودي يشتريها كانت أرباح مالكه تزداد عن طريق الضرائب والرسوم. وكان من يتنصر من اليهود يفقد كل المزايا التي أعطيت له بموجب الميثاق بل يفقد كل أملاكه. كذلك لم يكن من حقه أن يغادر البلد إلا بأمر من الإمبراطور، ومن يُضبط من اليهود متلبساً بمحاولة الهرب كان يعتبر لصا يسرق أملاك الملك.

وحتى القرن التاسع عشر عرفت أوربا المواثيق التي كانت تشكل عنصراً أساسياً في الحضارة الغربية وبخاصة في وسط أوربا

وشرقها. وقد يكون هذا الإطار المرجعي لوعد بلفور قبل صدوره، إذ كان يشار إليه في الأدبيات الصهيونية بلفظ «تشارتر» أي ميثاق، فهو وثيقة تضع اليهود تحت حماية الإمبراطورية الإنجليزية وتمنحهم مزايا شريطة أن يستوطنوا فلسطين ويقوموا على خدمة الإمبراطورية.

الموت الأسود

«الموت الأسود» وباء قضى على نحو خمسة وعشرين مليوناً من سكان أوربا، وهو عدد يشكل ما بين نصف وثلث السكان بين عامي ١٣٤٧ و١٣٥٠. وقد شُخِّص بأنه نوع من الطاعون. لم يكن هناك تفسير علمي للظاهرة في العصور الوسطى فأصابت الناس بالذهول، وفسرته الجماهير بأنه غضب الرب بسبب فساد الناس. كما اتجهت الشكوك نحو أعضاء الجماعة اليهودية لأن معدلات الإصابة بينهم كانت أقل من المعدلات العامة. ولعل هذا كان يعود إلى عزلة اليهود في الجيتوات ووضعهم الطبقي المتميِّز وقوانين الطعام الخاصة بهم. وقد قامت الجماهير بالهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية في أنحاء متفرقة في أوربا، وكانت التهمة الموجهة إليهم هي تسميم الآبار للقضاء على المسيحيين. وباستثناء حروب الفرنجة، تعد هذه الهجمات الأشد وطأة على الجماعات اليهودية، فقد طُرد اليهود من عدة مدن. ولم تقتصر التهمة على اليهود بل أحياناً اتُهم بها شحاذون ونبلاء ورهبان. وقد قامت الكنيسة بدور مهم في حماية اليهود فأصدر البابا كليمنت السادس مرسوماً للدفاع عنهم، كما حاولت الطبقات الحاكمة من الملوك والأمراء الدفاع عن اليهود. لكن هذه الجهود كانت دون جدوى، لأنها كانت ثورات شعبية لم يكن بإمكان السلطة الحاكمة التصدي لها.

الجيتو: تاريخ

«الجيتو» الحي المقصور على إحدى الأقليات الدينية أو القومية، ولكن التسمية أصبحت ترتبط أساساً بأحياء اليهود في أوربا. وللكلمة معنيان: الأول يُقصد به أي مكان يعيش فيه فقراء اليهود دون قسر من الدولة. أما المعنى الثاني فهو الذي أصبح شائعاً ويُقصد به المكان الذي يُفرض على اليهود أن يعيشوا فيه. وأصل الكلمة غير معروف على وجه الدقة. في العصور الحديثة اكتسبت كلمة «جيتو» في اللغات الأوربية معنىً سلبياً، ولفهم تطور معناها، لابد أن نضع الظاهرة في إطارها التاريخي والإنساني.

كان المجتمع الإقطاعي عامة، وبخاصة في الغرب، مغلقاً، لكل فرد فيه مكانته سواء كان من الفلاحين أو النبلاء. وكان مبنيا على الفصل بين الطبقات. وفي إطار هذا الفصل لم يكن يُسمح للغرباء بالبقاء في أية مدينة لأية مدة، حيث كان يتعيَّن عليهم دفع ضريبة كبيرة. وداخل المدينة نفسها كان أعضاء كل حرفة يعيشون في حيٍّ مقصور عليهم، علماً بأن معظم المهن والحرف كانت تورَّث في العائلة نفسها.

واليهودي، علاوة على هذا، لم يكن وضعه محدداً داخل المجتمع الإقطاعي، إذ كان غريباً بالفعل، لا يعمل بالزراعة أو القتال، وهما الحرفتان الأساسيتان في مجتمعات العصور الوسطى في الغرب. وكان المجتمع الإقطاعي يستند إلى الشرعية المسيحية، وبالتالي كان اليهودي بلا مشروعية. ومما أكد الحاجة إلى الجيتو الشعائر اليهودية الخاصة مثل: قوانين الطعام، وتحريم الزواج المختلط، وعدم شرب خمر صنعه واحد من الأغيار.

بنية الجيتو

«الجيتو» مكان داخل المدينة أو خارجها مُحاط بسور عال له بوابة (أو أكثر) تُغلق عادةً في المساء. وكان الجيتو يتمتعَ بدرجة كبيرة من الإدارة الذاتية، إذ كانت تديره هيئة يصل عدد أفرادها إلى إثنى عشر شخصاً. وكان أعضاء المجلس يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن سكان الجيتو، بسبب صغر حجمه وقلة عددهم. وكان يتبع المجلس مجموعة موظفين أهمهم البرناس وهو رئيس الجماعة، ويُعد قائد الجماعة اليهودية على المستويين الديني والدنيوي. ومع بداية الثورة العلمانية في الغرب، بدأ المنصب يتحوَّل إلى منصب دنيوي، وأصبحت مسئولية الحاخامات مقصورة على الأمور الدينية وحدها.

وبدءاً من القرن الحادي عشر حدثت تحولات اقتصادية إذ بدأ ظهور الرأسمالية التجارية المحلية التي اضطلعت بالتجارة الدولية، ومن ثم بدأ اليهود يفقدون دورهم الاقتصادي. وتسبَّب الانهيار الاقتصادي للجيتو في انهيار تدريجي معنوي وأخلاقي. وفي جيتوات شرق أوربا ووسطها نشأت الصهيونية.

حظر الاستيطان

«حظر الاستيطان» مفهوم قانوني كان ينظم العلاقة بين الجماعات اليهودية المختلفة في الغرب، فهو يعطي أعضاء كل جماعة في مدينة (أو إمارة) حق منع اليهود الآخرين من الإقامة

معهم، باعتبار أن هذا الحق مقصور على أعضاء الجماعة وحدها. وكان على كل وافد جديد أن يحصل على "حق الاستيطان" من أعضاء الجماعة اليهودية. وكان الهدف من هذا الحق حماية التجارة اليهودية. ولم يكن مصرحاً لليهودي الغريب بالبقاء في المدينة أكثر من ثلاثة أيام، ولم يكن من حقه أن يستأجر منزلاً أو أن يستصدر وثيقة زواج خشية أن يعطيه هذا حق البقاء.

وعندما هاجر يهود اليديشية الفقراء، في القرن التاسع عشر إلى الغرب، كان يهود الغرب الأثرياء ينظرون إليهم باعتبارهم غرباء لا يملكون "حق الاستيطان"، فأرادوا من خلال الحل الصهيوني، حرمانهم من الاستيطان في الغرب وترحيلهم إلى فلسطين.

علامة اليهود المميزة

كان أعضاء الجماعات اليهودية وغيرهم من الجماعات يرتدون زياً خاصاً لتمييزهم عن بقية السكان، فكان على كل جماعة أن ترتدي زياً خاصاً بها. كما كان رداء الفرسان مختلفاً عن رداء القساوسة، وكان لكل حرفة علامة مميزة. ومع ظهور الدولة القومية حاولت أن توحِّد مظهر مواطنيها في ملابسهم وطريقة قص شعورهم، واستجاب أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب لذلك بسرعة. وقد أعاد النازيون العمل بالعلامة المميَّزة.

الشتتل

«شتتل» كلمة يديشية تعني «مدينة». والشتتل تجمُّع سكاني يهودي يبلغ عدد سكانه ما بين ألف وعشرين ألفاً، استوطن فيه اليهود ممثلين للإقطاع البولندي في أوكرانيا، ووكلاء النبلاء البولنديين (شلاختا) وجامعي ضرائب، أي أنهم كانوا يشكِّلون جماعة وظيفية وسيطة تقوم باستغلال الفلاحين لصالح النبلاء الغائبين الذين كان كل همهم زيادة دخلهم. ورغم أن الشتتل أحد الأشكال القريبة من الجيتو إلا أنه يختلف عنه. فهو نوع من المستوطنات ارتبط بالإقطاع البولندي في أوكرانيا، فبسبب زيادة المدن التابعة للنبلاء، كانوا يستعينون بأعضاء الجماعات اليهودية لحماية مصالحهم والقيام بوظائف محدَّدة نيابةً عنهم.

وتدور الحياة في الشتتل حول المعبد اليهودي والمنزل اليهودي والسوق، وبسبب وجود أغلبية يهودية فيه، حقق الشتتل قدراً من الاستقلال الثقافي عن البيئة المحيطة به.

١١ ـ فرنسا والإمبراطورية البيزنطية المسيحية

فرنسا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة

يبدو أن اليهود قد استوطنوا في فرنسا (بلاد الغال) مع القوات الرومانية وأصبحوا مواطنين رومانيين عام ٢١٢ ميلادية. وقد تأثر وضعهم حينما تبنَّت الإمبراطورية الرومانية المسيحية ديناً رسميا عام ٣٤٠ ميلادية. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يعملون في جميع الوظائف والحرف والمهن، مثل الزراعة والتجارة والحرف اليدوية، ولكنهم بدأوا يتحولون إلى جماعة وظيفية وسيطة (يهود بلاط) للحكام والأساقفة في الإمبراطورية الفرانكية. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون كذلك بتجارة الرقيق التي كانت تشكل نقطة احتكاك بينهم وبين الكنيسة التي منعت التجارة اليهودية للعبيد في باريس عام ٦١٤، بل ومُنع أعضاء الجماعة اليهودية من الاحتفاظ بالعبيد المسيحيين. ومُنح أعضاء الجماعة اليهودية مواثيق تنص على حماية أملاكهم وعلى إعفائهم من المكوس، وتمنحهم المزايا كأن يعيشوا حسب قوانينهم ويستأجروا المسيحيين، ويشتروا العبيد غير المسيحيين. لكن تنصير مثل هؤلاء العبيد تم حظره لأن هذا من قبيل مصادرتهم. وكان أعضاء الجماعة يمتلكون الأراضي ويعملون بالزراعة، خصوصاً زراعة الكروم. ولذا، احتكروا تجارة الخمور (وضمن ذلك الخمور التي كانت تستعملها الكنيسة في القدّاس). وعمل أعضاء الجماعة اليهودية كذلك أطباء وجامعي ضرائب وسفراء. وكان من يُلحق باليهود أي أذى يُنزَل به أشد العقاب. وطُرد أعضاء الجماعة اليهودية من الحرف المختلفة في ذلك التاريخ وبدأوا في احتراف الربا، وتعرضوا لعمليات اعتصار من قبَل النخبة الحاكمة التي كانت تحميهم في تلك الفترة، خصوصاً من هجمات الصليبيين (الفرنجة في المصطلح العربي)، فكانت تفرض عليهم الضرائب والإتاوات. كما كانت تُلغي ديون من يتطوع للاشتراك في حملات الصليبيين كطريقة للتعبئة.

وشهدت هذه الفترة ازدهار الدراسات التلمودية، حيث كتب راشي تعليقه الشهير على التلمود. وانتشرت أفكار موسى بن ميمون بين بعض المفكرين الدينيين من أعضاء الجماعات اليهودية، الأمر الذي جعل قادة الجماعة اليهودية يشون بهم إلى محاكم التفتيش التي قامت بإحرق كتب بن ميمون.

وظلت فرنسا خالية تقريباً من اليهود حتى أواخر القرن السادس عشر حيث بدأت جماعات المارانو في الاستيطان بمقاطعتي بوردو وبايون. وكانت أعداد المستوطنين صغيرة لا تتعدى بضعة آلاف،

وكانت أكبر الجماعات تُوجَد في بوردو حيث تَمتَّع أعضاء الجماعة بمكانة اقتصادية عالية، فكانوا يعملون بالتجارة الدولية والأعمال المالية المتقدمة، كما كانوا يمتلكون رؤوس أموال كبيرة نسبياً وسفناً تجارية. ولذا، اشتركوا في التجارة المثلثة الزوايا: شحن البضائع الأوربية الرخيصة إلى الساحل الأفريقي، وتحميل هذه السفن بالعبيد الذين كانوا يُباعون في المزارع الأمريكية والكاريبية، ثم عودتها من العالم الجديد لأسواق أوربا حاملة المنتوجات الاستوائية كالسكر والنيلة والتبغ وغيرها من السلع. و في القرن الثامن عشر، تم الاعتراف بيهود المارانو المتخفين كيهود، وذلك بعد أن كان القانون يعتبرهم مسيحيين رغم علم السلطات بأنهم يهود. وطُرحت قضية إصلاح اليهود، وبُذلت عدة محاولات لتطبيعهم، وأعلنت أكاديمية متز عن مسابقة لكتابة دراسة عن السبل الممكنة لإصلاح اليهود عام ١٧٨٥. وتم تشكيل لجنة لإصلاح يهود الألزاس، كان من بين أعضائها قيادات الجماعة السفاردية في جنوب فرنسا.

فرنسا منذ الثورة

حينما اندلعت الثورة الفرنسية، لم تجر إثارة أي جدل بشأن اليهود السفارد الذين كانوا يشكلون جزءاً عضوياً من المجتمع الفرنسي والذين كانوا يتحدثون إما اللغة الفرنسية أو اللادينو وهي رطانة إسبانية قريبة الشبه بالفرنسية، وكانوا يعملون في التجارة الدولية بل وفي الصناعة ويتمتعون بمعظم حقوق المواطنين الفرنسيين ويعيشون في المناطق الساحلية. أما اليهود الإشكناز، في الألزاس واللورين وغيرهما من المناطق، فكانوا محور المناقشة بسبب تَميُّزهم الوظيفي والثقافي، كما كانوا محط احتقار إخوانهم من السفارد.

ومَنحت الثورة أعضاء الجماعات اليهودية كل حقوق المواطنين، وحاولت دمجهم في المجتمع عن طريق فتح المدارس لأبنائهم، وتشجيعهم على التخلي عن تميزهم الوظيفي. وجاء في أحد قرارات الثورة "إن الحقوق هي حقوق تمنح للأفراد من أتباع العقيدة اليهودية، وليست للأقلية اليهودية باعتبارها جماعة متماسكة"، وهو ما عبَّر عنه شعار "لليهود أفراداً كل شيء، ولليهود جماعة لا شيء". وحاول الإشكناز من جانبهم الإبقاء على عزلتهم المتمثلة في القهال وفي رفض المؤسسات الحديثة التي أنشأتها الثورة.

وقد كان لدى نابليون بعض الخبرة بشأن أبعاد المسألة اليهودية بسبب احتكاكه ببولندا، بعد أن أعاد تنظيم مركز بولندا في شكل دوقية وارسو. وكان قد انتهى لتوه من تنظيم علاقة الدولة بالكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية.

فأصدر نابليون بعد ذلك قراراته الخاصة بتنظيم علاقة اليهودية بالدولة الفرنسية. ففي عام ١٨٠٨، أصدر مرسومين تم بمقتضى الأول إقامة نظام من المجالس الكنسية (بالفرنسية: كونسيستوار Consistoire)، وهي لجان من الحاخامات والرجال العاديين للإشراف على الشئون اليهودية تحت إشراف مجلس كنسي مركزي. وكان من مهام هذه المجالس أن ترعى معابد اليهود وغيرها من المؤسسات الدينية، وتنفذ قوانين التجنيد وتشجع اليهود على تغيير المهن التي يشتغلون بها. أما المرسوم الثاني، فقد اعترف باليهودية ديناً كما ألغى (أو أنقص أو أجل) الديون اليهودية المستحقة للمرابين الإشكناز، وأُعفي السفارد من ذلك المرسوم. وأصبح الحاخامات مندوبين للدولة مهمتهم تعليم أعضاء الجماعات اليهودية تعاليم دينهم وتلقينهم الولاء للدولة وأن الخدمة العسكرية واجب مقدَّس. وكان على الحاخامات توجيه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الوظائف النافعة. وقد اعترفت الحكومة الفرنسية باليهود بوصفهم أقلية، وأصبح لهم كيان رسمي داخل الدولة، فحصلوا على حقوقهم ومُنحوا شرف الجندية ولم يعد يُسمح لهم بدفع بدل نقدي، وشُجعوا على الاشتغال بالزراعة. وحرَّم نابليون على اليهود الإشكناز الاشتغال بالتجارة دون الحصول على رخصة بذلك، ولم تكن الرخصة تُجدَّد إلا بعد التأكد من مدى إحساس التاجر اليهودي بالمسئولية الخلقية. كما طُلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية أن يتخذوا أسماء أعلام وأسماء أسر دائمة على الطريقة الغربية. ورغم أن الأدبيات اليهودية والصهيونية تطلق على هذه القرارات اسم «القرار المشين»، فإنه كان قراراً مرحليا يهدف إلى تحديث اليهود (ولذا، فإنه لم يُطبَّق على السفارد). وقد نجح بالفعل في دمجهم بالمجتمع الفرنسي. وبحلول عام ١٨١١، كانت أعداد كبيرة من اليهود تعمل بتجارة الجملة والحرف وكان قد تم تطبيعهم إلى حدٍّ كبير. وبعد مرور الفترة الانتقالية التي حددها القرار، لم تنشأ أية حاجة إلى فترة انتقالية أخرى.

ومما يجدر ذكره أن نابليون تبنَّى، في إطار محاولته تأسيس الدولة الفرنسية الحديثة، سياسة تهدف إلى دمج أعضاء الجماعات اليهودية، كما دعاهم إلى نبذ خصوصيتهم. ولكنه تبنَّى سياسة مغايرة تماماً في إطار سياسته الإمبريالية، إذ دعاهم للعودة إلى فلسطين لإحياء تراثهم العبري القديم مستخدماً ديباجات صهيونية تؤكد أن اليهود ليسوا أقليات دينية تندمج في أوطانها وإنما شعب عضوي يجب أن يُرحَّل إلى فلسطين. وبهذا، فإن نابليون كان يهدف إلى تصفية اليهود بوصفهم جماعة وظيفية تجارية داخل فرنسا ثم

توظيفهم كجماعة استيطانية قتالية خارجها (وهذا هو جوهر الحل الصهيوني للمسألة اليهودية).

شهدت أواخر القرن التاسع عشر تَعاظُم الاتجاه نحو معاداة اليهود، وانفجر ذلك في قضية دريفوس. ويجب التأكيد على أن العداء لدريفوس، الذي جاء من الألزاس، كان جزءاً من عداء عام تجاه الأجانب مثل الإيطاليين، بل والأقليات الفرنسية مثل الأوكستينيان والأوفيرنيان، كما يجب التأكيد على أن الصراع كان يدور لا بين اليهود والأغيار وإنما بين العلمانيين والمتدينين. ولذا، فحينما حُسمت القضية عام ١٩٠٥، اتخذ العلمانيون إجراءات مشددة وتم فصل الدين عن الدولة تماماً.

واستمرت عملية الدمج بعد ذلك التاريخ. وأثناء احتلال الألمان لفرنسا، تعرَّض المجتمع الفرنسي لإرهاب قوات الاحتلال النازية الذي لحق بأعضاء الجماعات اليهودية مثلما لحق بالشيوعيين وأعضاء المقاومة والكنيسة. وتم ترحيل آلاف اليهود الفرنسيين إلى معسكرات الاعتقال ضمن الألوف التي رُحِّلت من أعضاء المقاومة والشيوعيين وغيرهم من العناصر غير المرغوب فيها. وبلغ عدد المرحَّلين من اليهود خمسة وسبعين ألفاً، الأمر الذي يعني أن الشعب الفرنسي حمى ما يزيد على ثلثي يهود فرنسا البالغ عددهم ٢٦٠ ألفاً (عام ١٩٣٦).

فرنسا في الوقت الحاضر

استقرت في فرنسا، بعد الحرب العالمية الثانية، أعداد من المهاجرين اليهود الذين قدموا من التجمعات اليهودية الأخرى التي اقتلعها النازيون. وفي الستينيات، هاجرت أعداد كبيرة من العالم العربي فوصل إلى إسرائيل نحو مائة ألف يهودي من مصر والمغرب وتونس في الفترة ١٩٥٤ - ١٩٦١، كما هاجر يهود الجزائر البالغ عددهم ١١٠ آلاف عام ١٩٦٣. ثم انضم إليهم آخرون حتى أصبحوا يشكلون أغلبية يهود فرنسا البالغين نحو ٥٣٥ ألفاً عام ١٩٦٧. ويُقال إن نسبة السفارد هي ٥٤٪، إن قمنا بضم أعضاء الجيلين الأول والثاني من أبناء المهاجرين. ولكن إن استبعدناهم، فإن غالبية يهود فرنسا وُلدوا فيها، و٩٥٪ من يهود فرنسا ممن هم تحت سن العشرين من مواليدها.

والمستوى التعليمي ليهود فرنسا عال جدا، إذ حصل ٢٥٪ من جملة يهود فرنسا على تعليم عال. وتصل النسبة إلى ٥٠٪ من المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٠، وهذا ينطبق على أولاد المهاجرين المغاربة، وهذا يعني أنهم حققوا حراكاً اجتماعياً سريعاً وبدأوا يتحولون إلى طبقة وسطى شأنهم في هذا شأن بقية يهود فرنسا.

والبناء الوظيفي والمهني لليهود يعني أن الريف الفرنسي لا يزال خالياً تماماً من اليهود وأنهم لا يزالون في العاصمة، وفي مدن مثل مارسيليا وليون وتولوز ونيس وستراسبورج. ويبدو أن أعداداً كبيرة من المهاجرين من العالم العربي آثرت الاستقرار في جنوب فرنسا لأن الجو والطبيعة يذكرانهم بأوطانهم السابقة.

وعدد يهود فرنسا، في الوقت الحاضر (١٩٩٢)، هو ٥٣٠ ألفاً، أي ٤٪ من يهود العالم وأقل من ١٪ من سكان فرنسا البالغ عددهم ٥٧,٣٧٩,٠٠٠ (بيَّن مصدر إحصائي آخر أن عددهم عام ١٩٩٥ هو ٦٠٠,٠٠٠). وهذا يعني أنه لا يوجد صوت يهودي، وقد صوَّت يهود فرنسا في انتخابات عام ١٩٨٨ للرئاسة على النحو التالي: ٤٤,٥٪ لميتران، و٤٤,٤٪ لشيراك أو ريمون بار، و٦,١٪ للحزب الشيوعي، و٢٪ لجان ماري لوبان. لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد نفوذ يهودي على الإطلاق، فهو موجود إذ توجد أعداد كبيرة من يهود فرنسا أعضاءً في النخبة الحاكمة يشاركون في صنع القرار، ولكنهم لا يشاركون بوصفهم يهوداً وإنما بوصفهم فرنسيين يهوداً حققوا درجة كاملة من الاندماج، ويتضح هذا الاندماج في أشكال كثيرة من سلوكهم. كما يمارس أعضاء الجماعة نفوذاً قوياً داخل أجهزة الإعلام لا يتناسب مع نسبتهم العددية.

ومنذ عام ١٩٤٨، حجز أقل من ستين ألف يهودي أماكن للسفر من فرنسا إلى الدولة الصهيونية، وعاد منهم خمسة وعشرون ألفاً. فمعظم يهود فرنسا من أتباع الصهيونية التوطينية التي تهدف إلى توطين اليهود الآخرين، حيث يكتفي المؤمن بها بإحداث أصوات تأييد صارمة عالية، وقد يرسل بعض المال ذراً للرماد في العيون. ولكن، حتى على هذا المستوى، أثبت يهود فرنسا انصرافهم عن الصهيونية. ويظهر هذا الانصراف في أن المساعدات التي تتلقاها الدولة الصهيونية من يهود سويسرا، الذين لا يزيد عددهم على ١٩ ألفاً، أكثر من تلك التي يمدها بها يهود فرنسا الذين يقترب عددهم من ستمائة ألف، إن لم يكن قد وصل إلى هذا العدد بالفعل بحسب إحدى الإحصاءات.

الإمبراطورية البيزنطية

«الإمبراطورية البيزنطية» هو الاسم الذي يُطلَق على القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية بعد انقسامها عام ٣٩٥، ثم سقوط الإمبراطورية الغربية عام ٤٧٥. وعبر تاريخها، كانت توجد في الإمبراطورية البيزنطية جماعات يهودية. وقد شجعت

الإمبراطورية سكانها على اعتناق المسيحية باعتبارها دين الدولة، لذا اعتُبر التهوُّد جريمة. وقد تناقص عدد اليهود في فلسطين بشكل حاد نتيجة تنصُّر أعضاء الجماعات اليهودية. فبعد أن كان عددهم عام ١٣٥م حوالي ٧٥٠ ألفاً، وصل في أوائل القرن السابع الميلادي إلى حوالي ١٥٠ ألفاً. ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية أدركت أهمية الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية استيطانية ومالية، فلم تُطبِّق على اليهود النافعين ما طبَّقته على أعضاء الجماعة اليهودية في فلسطين. ومع الفتح الإسلامي للقسطنطينية، سقطت الإمبراطورية البيزنطية في يد المسلمين، ودخلت الجماعات اليهودية فيها الدولة العثمانية.

إسبانيا المسيحية

يعود وجود أعضاء الجماعة اليهودية في إسبانيا إلى القرن الأول الميلادي، وعندما اعتنق سكانها المسيحيون المذهب الكاثوليكي تدهور وضع اليهود تماماً، ولم يتحسن إلا مع الفتح الإسلامي عام ٧١١. وكان هناك جماعة يهودية في جبال البراني (في الشمال) سمح لهم الإمبراطور شارلمان بالإقامة ليكونوا حاجزاً ضد التوسع الإسلامي، أي أنهم كانوا جماعة وظيفية قتالية تعمل بالزراعة. وكان بعض أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون جزءاً من عملية الغزو المسيحي لاستعادة إسبانيا. ولعب أعضاء الجماعة اليهودية دوراً أساسياً في النظام المالي وفي تزويد الحكام الجدد بما يريدون من أموال عن طريق عملهم كمشرفين على جمع الضرائب، كما كانت مملكة قشتالة تحصل عام ١٢٩٤ على ٢٢٪ من دخلها من الضرائب المفروضة على اليهود.

وبعد استقرار الحكم المسيحي في إسبانيا لم تعد هناك حاجة كبيرة للجماعات اليهودية، وبدأت عام ١٣٩١ اضطرابات واسعة النطاق ضدهم، وتنصَّر الألوف من اليهود. وقد أُطلق عليهم اسم «المارانو» أي اليهود المتخفون، ولأن هؤلاء المتنصرين كانوا متهمين بأنهم يهود سراً أُنشئت محاكم التفتيش. وبعد أن تمت السيطرة على شبه جزيرة أيبريا عام ١٤٩٢ صدر قرار بطرد المسلمين واليهود من إسبانيا، وقُدِّر عدد المطرودين من اليهود ما بين ١٥٠ ألفاً وربُع مليون يهودي.

فرديناند (١٤٥٢-١٥١٦) وإيزابيلا (١٤٥١-١٥٠٤)

ملك إسبانيا وملكتها اللذان قاما بتوحيدها، كانا يُسميان «الملكين الكاثوليكيين». في فترة حكمهما أُنشئت محاكم التفتيش، واكتُشفت أمريكا. أما فرديناند فهو ملك أراجون، وكانت إيزابيلا ملكة قشتالة، وقد تزوجا عام ١٤٦٩. نجح فرديناند وإيزابيلا في طرد المسلمين نهائياً من شبه جزيرة أيبريا عام ١٤٩٢. وقد قام يهوديان بتمويل الحرب التي انتهت بطرد المسلمين، ورغم ذلك قام فرديناند وإيزابيلا بطرد الجماعة اليهودية من إسبانيا، بعد سبعة شهور من القضاء على آخر وجود للمسلمين في أيبريا.

محاكم التفتيش

توجد ثلاثة أنواع من محاكم التفتيش:

١ - محاكم أسسها البابا جريجوري التاسع عام ١٢٣٣، وكانت مهمتها التفتيش والبحث في الهرطقات الدينية التي انتشرت بين المسيحيين آنذاك.

٢ - محاكم التفتيش الإسبانية التي أسسها البابا في ١٤٧١ بناءً على طلب الملكين فرديناند وإيزابيلا، للتأكد من إيمان مواطني إسبانيا من المسلمين واليهود الذين اعتنقوا المسيحية.

٣ - محاكم التفتيش الرومانية وأسسها البابا بول الثالث عام ١٥٤٢ ليحارب البروتستانتية واستمرت حتى عام ١٩٠٨.

١٢ - إنجلترا

إنجلترا من العصور الوسطى حتى عصر النهضة

كان اقتصاد إنجلترا عشية الغزو النورماندي عام ١٠٦٦ بسيطاً للغاية، مبنياً على المقايضة وحسب. وكان وليام الأول، أو الفاتح، يود أن يحصل على ريعه من الأرض التي فتحها نقداً، ولذا قرر إدخال عنصر رأسمالي تجاري مالي. ووجد ضالته في أعضاء الجماعات اليهودية بسبب فائدتهم ونفعهم، خصوصاً في تشجيع تداول العملات. ومن ثم شجع اليهود (كجماعة وظيفية استيطانية نافعة) على الاستقرار ليقوموا بدور الوسيط التجاري في هذه المنطقة الجديدة، وبدور محصلين أموال التاج. فاستوطن اليهود في إنجلترا وأسسوا جماعات في لندن وبريستول وكانتربري، ووُضعوا تحت حماية التاج ليعملوا في التجارة والربا، وإن كان قد تم استبعادهم عن نقابات الحرفيين، أي أنهم أصبحوا جماعة وظيفية وسيطة في المجتمع الإقطاعي. ويُلاحَظ أن يهود إنجلترا لم يكونوا إنجليزيين، إذ كانوا جزءاً من الثقافة الألمانية والفرنسية المجاورة، وكانوا يتحدثون الفرنسية فيما بينهم ويتسمون بأسماء فرنسية. وهذه العزلة الإثنية سمة أساسية للجماعة الوظيفية الوسيطة.

ومع بداية القرن الثاني عشر، بدأ وضعهم في التدهور نظراً للهجوم عليهم من قبل الكنيسة والبارونات، ثم أخيراً من قبل العناصر الشعبية في المدينة. وكان أعضاء الجماعة اليهودية محط كراهية خاصة لارتباطهم بالملك كأقنان بلاط، بل وأصبحوا جزءاً أساسياً من الصراع الأساسي في العصور الوسطى في الغرب (أي الصراع بين الملك وبقية الفئات والطبقات في المجتمع). وتم الهجوم عليهم بشكل مخفف أثناء حملتي الفرنجة الأولى والثانية، وتزامن اعتلاء ريتشارد الأول (قلب الأسد) عام ١١٨٩ العرش مع تَصاعُد الحملة ضد الجماعة الوظيفية التجارية الوسيطة اليهودية. وحينما سافر مع حملة الفرنجة الثالثة، انتهزت القوى المعادية الفرصة وهاجمت أعضاء الجماعة اليهودية في أماكن عدة من أهمها يورك، وهو ما كان يمثل خسارة مالية فادحة للملك على وجه الخصوص. كما قامت هذه العناصر بحرق صكوك الديون. وثأر الملك لنفسه، فأرسل إلى يورك أحد الأساقفة، فقام بمصادرة أموال زعماء الهجوم، وأقال حاكم القلعة والشريف. وحينما عاد الملك نفسه عام ١١٩٤، طلب إجراء تحقيق في الموضوع برمته، وقرر تنظيم علاقة العنصر التجاري اليهودي ببقية المجتمع. فتم تأسيس نظام لتسجيل ديون اليهود تم بمقتضاه وضع صناديق في بلديات المدن الإنجليزية الرئيسية، وأُودعت فيها نسخ من كل الوثائق الخاصة بالديون، وعُيِّن أربعة موظفين (مسيحيان ويهوديان) مسئولين عن هذا الصندوق. وأُسِّست سبعة وعشرون صندوقاً في كل إنجلترا، تحت إشراف سلطة مركزية من أربعة موظفين أوصياء أو قضاة اليهود (بالإنجليزية: كاستوديانز أور جستيسز أوف ذا جوز Custodians or Justices of the Jews) تحت رئاسة خازن بيت المال اليهودي (بالإنجليزية: إكستشكر أوف ذا جوز Exchequer of the Jews). وسهَّل هذا الهيكل التنظيمي عملية حوسلة اليهود، لصالح الملك، من خلال الضرائب المفروضة عليهم ومن خلال الضرائب والفوائد التي يجمعونها.

وقد تحالفت عدة عناصر في جعل أعضاء الجماعة اليهودية عنصراً لا نفع له، وصدرت القوانين التي حدَّت من حقوقهم ومن المناطق التي يحق لهم السكنى فيها. ويُلاحَظ أن كره الإنجليز لليهود هو كره تكنه المجتمعات كافة لأعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة لا لليهود وحدهم. فحينما حل الفلمنكيون والإيطاليون والألمان من أعضاء العصبة الهانسية محل يهود إنجلترا، أصبحوا محط كراهية بعض قطاعات المجتمع رغم أنهم مسيحيون.

إنجلترا منذ عصر النهضة

ظلت إنجلترا خالية من اليهود تقريباً حتى نهاية القرن السادس عشر. ومع بداية القرن السابع عشر، ساد إنجلترا (بعد ظهور الحركة البيوريتانية) جو استرجاعي قوي يستند إلى أسطورة عودة المسيح. وظهر فكر مسيحي صهيوني يدعو إلى ضرورة تَواجُد اليهود في كل أنحاء الأرض وضرورة هدايتهم، أي تنصيرهم كشرط أساسي للخلاص. ولا شك في أن هذه الفرق الاسترجاعية المسيحانية (مقابل المشيحانية) تعود في جانب منها إلى تطلعات المجتمع الإنجليزي التجارية الاستعمارية. وقد لعب التجار من يهود المارانو (برتغاليين وإسباناً)، والذين استقرت أعداد كبيرة منهم في لندن، دوراً مهماً في الحرب مع إسبانيا سواء من الناحية المالية أم الناحية الاستخبارية (قام أنطونيو فرنانديز بجمع المعلومات عن القوات الإسبانية وتوصيلها للإنجليز). ومن ثم، بدأ التفكير في الأوساط البيوريتانية في الاستفادة من خبرات اليهود التجارية واتصالاتهم الدولية. وكان كرومويل شخصياً من أكبر المتحمسين لذلك، خصوصاً أنه كان يرى إمكانية استخدام اليهود كجواسيس له. وفي عام ١٦٩٨ تم تقنين ممارسة الديانة اليهودية من خلال تشريع برلماني. وبالتدريج، ازداد يهود إنجلترا أهمية بتزايد أهمية لندن ـ قياساً إلى أمستردام ـ كمركز للتجارة العالمية.

واستقرت أعداد صغيرة من اليهود الإشكناز (ممن أتوا من ألمانيا ووسط أوربا) في إنجلترا، ولكن ظلت الأغلبية العظمى من أعضاء الجماعة اليهودية فيها من السفارد. ولم يُفرَض على أعضاء الجماعة اليهودية السكنى في جيتو خاص بهم، بل وألغيت معظم القيود المفروضة عليهم، كما حصلوا على حقوق المواطنة بالتدريج ابتداءً من عام ١٧١٨ حينما صدر قرار بالسماح لليهود المولودين في إنجلترا، حتى لو كانوا من أبوين أجنبيين، بأن يمتلكوا الأراضي الزراعية. ولم تقم ضد يهود إنجلترا أية حركات شعبية عنيفة.

وساعد كل ذلك على نمو الجماعة اليهودية في إنجلترا وعلى تزايد حجم المهاجرين اليهود القادمين من أمستردام وإسبانيا والبرتغال. كما ازداد هؤلاء ثراءً وأهمية بتزايُد أهمية لندن (قياساً إلى أمستردام) كمركز للتجارة العالمية. وعمل أثرياء اليهود في السمسرة والتجارة الخارجية، وكانوا مُمثَّلين بشكل كبير في مستعمرات الإمبراطورية البريطانية المتنامية، وخصوصاً في نيويورك وبومباي وجزر الهند الغربية. ومن الشخصيات اليهودية البارزة في تلك الفترة سامسون جدعون ويوسف سالفادور اللذان قدما استشارتهما المالية المهمة للوزارات الإنجليزية المتعاقبة.

وظلت الجماعة اليهودية في إنجلترا مُشكَّلة في أغلبها من السفارد وإن بدأت بعض الجماعات الصغيرة من اليهود الإشكناز القادمين من أمستردام وهامبورج ثم ألمانيا وشرق أوربا الاستقرار في إنجلترا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. وكان أغلب اليهود الإشكناز أقل في المرتبة الاجتماعية من السفارد، وعمل قطاع كبير منهم كباعة متجولين في القرى والمناطق الريفية، وبالتالي نمت تجمعات من يهود الإشكناز في كثير من المدن الريفية والموانئ والمراكز الصناعية. وأسَّس الإشكناز المعبد الكبير في لندن عام ١٧٢٢.

فبينما كان يوجد في عام ١٨٥٣ نحو ٢٥ ألف يهودي في إنجلترا، وصل عددهم إلى ٢٤٢ ألفاً عام ١٩١٠، أي بزيادة نحو عشرة أضعاف خلال ستين عاماً في مجتمع متجانس مثل المجتمع الإنجليزي. ورغم صدور تشريعات تَحُد من هجرتهم، فإن عدد يهود إنجلترا وصل عام ١٩١٤، أي عشية وعد بلفور، إلى ما بين ٢٥٠ ألفاً وإلى ٣٠٠ ألف نصفهم من يهود اليديشية، أي أن عدد يهود إنجلترا من يهود اليديشية زاد خمسة عشر ضعفاً فيما يقارب أربعين عاماً. وخلق هذا جواً من القلق في إنجلترا، وسادت شائعات تقول إن عدد المهاجرين بلغ ٧٥٠ ألفاً.

وكان يهود اليديشية تجاراً صغاراً متخلفين يحملون معهم إحساساً جيتوياً عميقاً بعدم الأمن والطمأنينة. وأدَّى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن والجريمة. وفي بداية الأمر انخرط يهود اليديشية في الأعمال اليدوية شبه الماهرة، وخصوصاً في مجال صناعة الملابس الجاهزة. وكان الطلب على الملابس الجاهزة الرخيصة قد بدأ يزداد نسبياً في إنجلترا وغيرها من الدول الصناعية الغربية مع تنامي الطبقات المتوسطة في هذه البلاد. وكان ميراث يهود اليديشية، باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة، يؤهلهم لدخول هذه المجالات الجديدة والهامشية والتي كانت مازالت تتّسم بقدر من المخاطرة وتحتاج إلى خبرات تجارية.

وأدَّى وفود العناصر اليديشية إلى قيام محاولات لوقف سيل الهجرة عن طريق تأليف لجنة ملكية لدراسة القضية. ومما زاد الجو توتراً، بالنسبة إلى الجماعة اليهودية، ظهور إحساس بين العناصر الاشتراكية الراديكالية بأن اليهود يشكلون جزءاً مهماً من السياسة الإمبريالية الإنجليزية، ومن هنا كان أعداء الإمبريالية أعداء لليهود. وكان عدد اليهود بين المستوطنين الإنجليز في جنوب أفريقيا كبيراً، وبعضهم كان على علاقة قوية ببعض كبار الاستعماريين الإنجليز مثل ملنر وردس.

في هذا الجو، شُكلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوربا. وقدمت حكومة بلفور، الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمَّى «قانون الغرباء» الذي ووُفق عليه عام ١٩٠٥. ودافع رئيس الوزراء عن المشروع فأشار إلى أنه لا يمكن تَجاهُل مسألة العرْق بأية حال في أمور الهجرة، كما أشار إلى المشاكل التي حاقت بإنجلترا نتيجة الهجرة اليهودية مؤكداً ضرورة الحد منها.

وفي هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. ثم عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) في لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضي المشروع الصهيوني، توجه هرتزل أساساً إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيوني كرقعة تلتقي فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفي عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول أمام اللجنة الملكية، حيث قدَّم حلاً صهيونياً مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوربا. وانطلاقاً من هذا، عُرض مشروع شرق أفريقيا، ثم صدر وعد بلفور الذي جاء انتصاراً للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا.

وبعد صدور وعد بلفور، تغيَّرت الأوضاع كثيراً، ذلك أن تأييد الصهيونية لم يَعُد تأييداً لحركة قومية غربية وإنما أصبح تأييداً للمصالح الإمبريالية البريطانية. وبذا، اختفت معارضة الصهيونية بين صفوف اليهود الإنجليز، كما أن العناصر اليديشية نفسها بدأت تصطبغ بالصبغة البريطانية، خصوصاً وأنهم لم يجدوا أية عراقيل قانونية تقف في طريقهم نحو الاندماج.

ومع صعود النازية في ألمانيا، هاجر ما بين ٤٠ و٥٠ ألف يهودي من ألمانيا ووسط أوربا إلى إنجلترا. ورغم أن هذه الهجرة كانت أقل في حجمها من هجرة يهود اليديشية إلا أن المهاجرين الألمان كانوا أكثر ثراء، وتشير التقديرات إلى أنه تم تحويل ١٢ مليون جنيه من ألمانيا إلى بريطانيا. كما أعاد المهاجرون تأسيس أعمالهم المالية والتجارية في إنجلترا، خصوصاً في مجالات المنتجات الصيدلية والملابس الثمينة وبعض الصناعات الخفيفة الأخرى، وأصبحت لندن مركز تجارة الفراء بدلاً من ليبزيج.

إنجلترا في الوقت الحاضر

كان يهود إنجلترا آخذين في التناقص بسبب الاندماج والهجرة رغم وصول أعداد كبيرة من يهود ألمانيا إلى إنجلترا في فترة الحرب العالمية الثانية. وبلغ عدد يهود إنجلترا ٤٣٠ ألفاً في أوائل الخمسينيات ولكنه تناقص إلى ٣٢٠ ألفاً عام ١٩٨٩ (من مجموع عدد السكان البالغ ٥٦,٨٦١,٠٠٠)، وكان معظمهم يتركز في لندن (بنسبة ٦٠٪) والبقية في مانشستر وليدز وجلاسجو. وفي عام ١٩٩٢ بلغ عدد يهود إنجلترا ٢٩٨,٠٠٠ يوجد ٢٠٠ ألف منهم في لندن.

ومما يُذكَر أن السفارة الإسرائيلية في بريطانيا أشارت عام ١٩٨٨ إلى أن هناك حوالي ٣٠ ألف إسرائيلي مقيم في إنجلترا، خمسة آلاف منهم مسجلون كاحتياطيّ في الجيش البريطاني، أي أنهم اكتسبوا المواطنة البريطانية. وبهذا المعنى يمكن الحديث عن «دياسبورا إسرائيلية» في إنجلترا، وأن عدد الهاربين من صهيون لا يقل كثيراً عن عدد الهاربين من جحيم النازية.

ويعاني يهود إنجلترا من ظاهرة موت الشعب اليهودي، أي تَناقُص عددهم مع احتمال اختفائهم. وفي حالة إنجلترا، يتبدَّى هذا في تَزايُد متوسط الأعمار بين أعضاء الجماعة اليهودية عنه على المستوى القومي وتَزايُد نسبة الوفيات بينهم عن نسبة الوفيات على المستوى القومي أيضاً.

وقد تغيَّر البناء الوظيفي والمهني ليهود إنجلترا، فتركت أعداد كبيرة منهم الأعمال اليدوية شبه الماهرة، وبدأوا ينخرطون بأعداد متزايدة في الوظائف والمهن التي يصبح اليهودي هو صاحب العمل فيها (مثل أصحاب المحال الصغيرة ومصففي الشعر وسائقي التاكسيات). وبلغت نسبة اليهود العاملين في مثل هذه المهن نحو ١٥٪ من جملة أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا (٦٪ على المستوى القومي). وبطبيعة الحال، زاد عدد اليهود الذين يدخلون المهن والوظائف الإدارية، كما هو الحال مع الجيل الثالث من المهاجرين في كل أنحاء العالم الغربي. وتناقص عدد اليهود في قطاع المال، وزاد عددهم في قطاع الصناعات الاستهلاكية، مثل الخياطة والملابس، بسبب الميراث الاقتصادي الشرق أوربي.

وتناقص عدد اليهود الذين يعلنون ارتباطهم بالعقيدة اليهودية، فقد ذكر ١١٠ آلاف يهودي عام ١٩٧٧ أنهم أعضاء في هذا المعبد اليهودي أو ذاك (أي ثلث أعضاء الجماعة اليهودية مقابل النصف في الولايات المتحدة). وتناقص العدد في التسعينيات بسبب تَزايُد معدلات العلمنة وعناصر أخرى. وينقسم اليهود، من الناحية الدينية، إلى سفارد وإشكناز، وإلى أرثوذكس (معتدلين ومتطرفين) وإصلاحيين.

ولا يمكن الحديث عن صوت يهودي في إنجلترا، فعدد أعضاء الجماعة اليهودية لا يزيد على ٠,٦٪ من عدد السكان، أي أنهم لا يشكِّلون جماعة ضغط من الناحية العددية أو حتى من الناحية الاقتصادية بحيث يمكنهم التأثير في مسار الانتخابات، كما أن أصواتهم موزعة بين عدة دوائر. والدائرة الوحيدة التي يُوجَد فيها تَركُّز يهودي نوعاً ما هي دائرة هندون الشمالية التي لم تنتخب مرشحاً يهودياً وإنما انتخبت مارجريت تاتشر. ويبلغ عدد الأعضاء اليهود في البرلمان الإنجليزي (عام ١٩٧٤) ستة وأربعين عضواً وانخفض إلى ثمانية وعشرين عام ١٩٨٣ من أصل ٦٥٠ عضواً. والنواب اليهود يمثلون دوائر انتخابية لا يُلاحَظ فيها وجود يهودي غير عادي.

وقد يتوهم البعض أن انخفاض عدد النواب اليهود في البرلمان الإنجليزي سيؤدي حتماً إلى ضعف النفوذ الصهيوني أو اليهودي، ولكن هذا مناف للحقيقة. فزيادة أو نقصان عدد النواب اليهود لا يؤثر من قريب أو بعيد على سياسة المملكة المتحدة تجاه الشرق الأوسط. وكما قال أحد المعلقين اليهود البريطانيين، فإن أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا مندمجون في الطبقة الوسطى ويصوتون مثلها، وبالتالي لا يمكن الحديث عن صوت يهودي. ومن ثم، فإننا نجد أن أعداداً متزايدة بين يهود إنجلترا تنضم لحزب المحافظين وتؤيد سياسته، شأنهم في هذا شأن أعضاء الطبقة الوسطى في المجتمع البريطاني. ومن المعروف أن أغلبية يهود إنجلترا الساحقة كانت معادية للصهيونية في بداية القرن، ومع هذا أصدرت وزارة لويد جورج وعد بلفور في عام ١٩١٧. بل إن الحكومة البريطانية نصحت أعضاء الجماعة اليهودية بعدم التهييج ضد الصهيونية التي أصبحت مصالحها من مصالح الدولة الإمبراطورية العليا.

١٣ـ ألمانيا والنمسا وهولندا وإيطاليا

ألمانيا منذ العصور الوسطى حتى عصر النهضة

يعود استقرار بعض أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا إلى الحملات الرومانية، وكوَّنت الجماعات اليهودية الأولى جزءاً من المدن الرومانية العسكرية على نهري الراين والدانوب (وورمز وسبير). وكان

أول وأهم هذه المعسكرات معسكر كولونيا (وهي من كلمة لاتينية تعني مستعمرة، وكلمة «كولونيالية» أي «استعمار» مشتقة من الكلمة نفسها). ثم استوطن يهود آخرون في ألمانيا أثناء حكم شارلمان والإمبراطورية الكارولنجية. ويَرد في القرن العاشر الميلادي ذكر تجمعات يهودية في مدن مثل كولون. كما كانت تُوجَد تجمعات في أوجسبرج وورمز ومينز.

وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية إبان حكم الإمبراطورية الكارولنجية تحت حماية الإمبراطور، يتبعونه ويقدم هو لهم المواثيق والحماية والمزايا. وكانت علاقة الكنيسة بهم، خصوصاً الأساقفة، طيبة على وجه العموم. وكان لليهود رئيسهم الديني الدنيوي الذي كان يُسمَّى «الآرش سينا جوجوس» أو رئيس المعبد، كما كان يُطلَق عليه «أبيسكوبوس جيود ورروم» أو «أسقف اليهود».

وأثناء حملة الفرنجة الأولى قام الأساقفة والملوك بحماية أعضاء الجماعات اليهودية من السخط الشعبي عليهم، فأصدر هنري الرابع عدة مواثيق عام ١٠٩٠ تؤكد الحقوق التي حصلوا عليها في العصر الكارولينجي بشأن حماية ممتلكاتهم وأرواحهم والتي تؤكد أيضاً حرية السفر والعبادة بالنسبة لهم. وكان أعضاء الجماعات اليهودية معفيين من المكوس والضرائب التي تُفرَض على المسافرين، وكان لهم حق التقاضي فيما بينهم وحق الفصل في الأمور اليهودية المختلفة مثل الزواج والطلاق والتعليم، أي كانت لهم إدارتهم الذاتية. وسُمح لهم بالاستمرار في تجارة الرقيق وأن يقيموا في أماكن خاصة بهم كما هو الحال مع الغرباء كافة. وعادةً ما كانت هذه الأماكن في أحسن موقع بالمدن على الشارع الرئيسي أو بجوار الكوبري الذي يؤدي إلى المدينة والذي يمثل عصبها التجاري. وكان أعضاء الجماعات اليهودية يُعَدُّون عنصراً بالغ الفائدة والنفع للحكام والأمراء والأساقفة والأباطرة. ويظهر ذلك عام ١٠٨٤ في واحدة من أولى الوثائق التي ضمنت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم، وهي خطاب الأسقف الأمير حاكم سبير، الذي دعا اليهود إلى الاستيطان في مدينته كجماعة وظيفية استيطانية، حتى يمكنه أن يحولّها من قرية إلى مدينة وأن يخرجها من الاقتصاد الزراعي ويدخلها الاقتصاد التجاري. وأُعطي اليهود الحق في أن يتحصنوا داخل المدينة منعاً لأية هجمات قد تقع عليهم. وحينما اندلعت الاضطرابات ضد أعضاء الجماعة، إبان حملة الفرنجة، أرسلوا إلى هنري الرابع الذي كان في زيارة إلى إيطاليا، فأصدر أمره إلى الأدواق والأساقفة في ألمانيا بحمايتهم. ومع هذا، استمرت الاضطرابات، وذبح المتظاهرون أحد عشر يهوديا في سبتمبر ١٠٩٦، فتدخَّل الأسقف واتخذ إجراءات مضادة. ويُقال إن عدد اليهود الذين ذُبحوا في ألمانيا أساساً، وكذلك في غيرها من بلاد أوربا إبان هذه الحملة، بلغ اثنى عشر ألف يهودي. وهو عدد مُبالَغ فيه. وحينما عاد هنري الرابع من إيطاليا، سُمح لليهود الذين تنصروا عنوة بالعودة إلى دينهم، وأمر بمعاقبة أحد الأساقفة ممن صادروا ممتلكاتهم. كما أصدر قراراً عام ١١٠٣ بأن عقوبة الهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية أو ممتلكاتهم هي الإعدام، وأن هدنة الرب التي أُعلنت في ذلك الوقت تنطبق على اليهود انطباقها على المسيحيين، وأن اليهود يتمتعون بالحماية نفسها التي يتمتع بها القساوسة.

وأصبحت حماية أعضاء الجماعة جزءاً من القانون العام، فنعموا بشيء من السلام تحت حماية الإمبراطور، ومنح فريدريك الأول اليهود ميثاقاً لحماية إحدى الجماعات اليهودية عام ١١٥٧ استُخدم فيه مصطلح «أقنان بلاط» لأول مرة (وإن كان المفهوم قد ظهر قبل ذلك التاريخ). وأدَّى هذا الوضع إلى ازدياد التصاق أعضاء الجماعة بالسلطة الحاكمة. ولكن حمايتهم بشكل كامل لم تكن أمراً ممكناً لأن العداوة ضدهم كانت مسألة متأصلة ذات طابع جماهيري عام، فاليهودي هو الممثل المباشر الواضح للسلطة، كما أن إبهام وضعه جعل منه فريسة سهلة. وهو إلى جانب ذلك يقطن بين الجماهير ويتحرك بينها (على عكس أعضاء الأرستقراطية). ومن ثَمَّ، كان اليهودي أضعف الحلقات في سلسلة القمع. وقد اشتغل اليهود بالربا، وحدد مرسوم الدوق فريدريك الثاني في النمسا عام ١٢٤٤ الفائدة على القروض بنحو ١٧٣,٥٪. وكانت القروض تُمنَح بضمان رهونات يستولي عليها المرابي عند فشل المدين في الدفع، الأمر الذي جعل الجماهير تتهمهم بامتصاص دم الشعب، ومن هنا جاءت تهمة الدم. ولم يكن حق المرابي يسقط في السلعة المرهونة لديه إن ثبت أنها مسروقة، شريطة أن يثبت هو أنه لم يكن يعرف أنها مسروقة، مع أن هذا مناف للقانون الألماني. ومن ثَمَّ، ارتبط أعضاء الجماعة اليهودية باللصوص والتجارة غير الشرعية.

وظهرت في هذه الفترة بيوتات المال الإيطالية والقوى التجارية المحلية التي زاحمت اليهود. فبدأ وضعهم في التدهور، ومع بداية الحملة الثالثة من حملات الفرنجة، بدأ التهييج ضد اليهود. فبذل فريدريك الأول قصارى جهده لوقف الثورة الشعبية، وأعلن أن جريمة قتل اليهودي عقوبتها الإعدام، أما إلحاق الأذى به فعقوبته قطع الذراع.

ألمانيا منذ عصر النهضة

بحلول القرن السادس عشر، كانت السلطة المركزية في ألمانيا قد اختفت تقريباً، فتم عزل أعضاء الجماعات اليهودية داخل الجيتوات، وفرضت عليهم قوانين مهينة وطُردوا من كثير من المدن والإمارات الألمانية. ولكن، مع هذا، لم يتم طردهم تماماً من كل ألمانيا. فكان بوسعهم الانتقال إلى إحدى الإمارات التي تحتاج إلى خدمتهم.

وشهدت هذه الفترة بدايات ظهور الرأسمالية التجارية التي سبَّبت شقاء للجماهير لم يدركوا مصدره. وكان اليهودي هو الرمز الواضح مرة أخرى لهذا الشقاء. كما أن الطبقات التجارية الصاعدة من سكان المدن دخلت في صراع مع الأمراء ورجال الكنيسة. وكان اليهودي هو حلبة الصراع، فحاول كل طرف الاستفادة من اليهود باعتبارهم عنصراً تجاريا. وكانت العناصر التجارية المحلية ترى في اليهودي غريماً لها، خصوصاً وأنه كان أداة في يد النبلاء. وظهر مارتن لوثر في تلك المرحلة، فطرح رؤيته الخاصة بضرورة تنصير اليهود. ومع نهاية القرن السادس عشر، لم يبق سوى بضع جماعات يهودية في فرانكفورت وورمز وفيينا وبراغ.

وتركت حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) أثرها العميق في يهود ألمانيا، فبعد انتهائها، أصبحت ألمانيا مجموعة غير متماسكة من الدويلات المستقلة تحت حكم حكام مطلقين في حاجة إلى السكان والمال، وهي دويلات (إمارات ودوقيات) ذات توَجُّه مركنتالي ترى أن مصلحة الدولة هي المصلحة العليا التي تَجُبّ القيم والمثل الأخرى كافة. وكان اليهود عنصراً أساسياً في عملية إعادة البناء والبعث التجاري ومصدراً أساسيا للضرائب، كما أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من النظام الاقتصادي الجديد.

وشهد القرن السابع عشر كذلك استقرار يهود المارانو في هامبورج حيث أسسوا بنك هامبورج، وبدأت هجرة يهود شرق أوربا من بولندا، بعد هجمات شميلنكي، حيث استوطنت أعداد منهم في هامبورج وغيرها من المدن.

وفي داخل هذا الإطار، ظهر يهود البلاط الذين ساعدوا الدويلات والإمارات التي كانوا يتبعونها على تنظيم أمورها المالية واستثماراتها، ورتبوا لها الاعتمادات اللازمة لمشاريعها وحروبها ولتمويل مظاهر الترف التي كانت تُشكِّل عنصراً أساسيا بالنسبة للحكام المطلقين. وكان يهود البلاط في منزلة وزير الخارجية والمالية ورئيس المخابرات. فكانوا يقومون بجمع المعلومات، كما كانوا أداة مهمة في يد الحكام المطلقين الألمان لابتزاز جماهيرهم وزيادة ريع الدولة. وكان يهودي البلاط (وهو عادةً قائد الجماعة اليهودية) يُعَدُّ عنصراً مواليا للدولة مكروهاً من جماهيرها، وهو ما جعل وضع الجماعة ككل محفوفاً بالمخاطر.

ومع بدايات القرن الثامن عشر، وظهور جهاز الدولة القوي، لم تَعُد هناك حاجة إلى يهود البلاط ولا إلى الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة. وبدأت محاولات ضبط اليهود وتحديثهم، فأصدرت الدويلات الألمانية المطلقة، وبروسيا، نظماً مختلفة للإشراف على اليهود لتنظيم سائر تفاصيل حياتهم ولاستغلالهم. وكانت هذه القوانين تنظم حقوقهم وامتيازاتهم كما تحدد دخولهم، ومدى أحقيتهم في الاستيطان، ومدة بقائهم، وعدد الزيجات التي يمكن أن تتم، وعدد الأطفال المصرح لهم بإنجابهم، ومسائل الوراثة وطرق إدارة الأعمال، وسلوكهم، وضرائبهم، وحتى السلع التي يحق لهم شراؤها.

وتأثر وضع يهود ألمانيا بالثورة الفرنسية التي عَجَّلت بعملية إعتاقهم. وبعد سقوط نابليون، تقهقر وضعهم قليلاً. ولكنهم مُنحوا حقوقهم إبان القرن التاسع عشر، وزاد اندماجهم بدرجة كبيرة. وظهرت بعد ذلك حركة التنوير، واليهودية الإصلاحية، والاتجاهات اليهودية الأخرى. ومع منتصف القرن، كان اليهود قد حصلوا على معظم حقوقهم. وفي الفترة من ١٨٧١ إلى ١٩١٤، كانوا قد حصلوا على حقوقهم كاملة واندمجوا في المحيط الثقافي تماماً، فتنصرت نسبة عالية من مثقفيهم، مثل هايني ووالد كارل ماركس وأولاد مندلسون وغيرهم، واختفت أعداد كبيرة منهم عن طريق الزواج المختلط.

وكان من الممكن أن يتم دمج يهود ألمانيا وتحديثهم على نمط يهود الغرب. فيهود ألمانيا كانوا يعتبرون أنفسهم من يهود الغرب باعتبار أن يهود شرق أوربا هم يهود الشرق، كما أن ارتباط يهود أوربا بالثقافة الألمانية كان أمراً واضحاً. ولكن ثمة ظروفاً خاصة بهم وببنية المجتمع الألماني أدَّت في نهاية الأمر إلى تصفيتهم وتصفية يهود أوربا خارج الاتحاد السوفيتي، وهي الظروف التي أدَّت إلى الإبادة (انظر الباب المعنون «الإبادة النازية والحضارة الغربية»).

النمسا

يعود استقرار أعضاء الجماعة اليهودية في النمسا إلى أيام الغزو الروماني. ومع العصور الوسطى أصبح تاريخ يهود النمسا هو تاريخ يهود فيينا. وقد تحدَّد وَضع اليهود بوصفهم أقنان بلاط وجماعة وظيفية وسيطة. وفي عام ١٥٣٦ تم وضع اليهود تحت حماية الحكام الإمبراطوريين. ورغم طردهم جميعاً عام ١٤٢١ إلا أنهم لم يختفوا تماماً. وفي القرن السابع عشر، ظهر يهود البلاط في النمسا، وظل وضع الجماعة اليهودية كجماعة وظيفية قائماً ولكنه كان قلقاً. وفي عام ١٧٦٠ صدر مرسوم يلزم اليهود بارتداء زي خاص. وفي عهد جوزيف الثاني بدأت إجراءات دمجهم في المجتمع فأصدر عام ١٧٨٢ براءة التسامح، وفي عام ١٨٦٧ مُنحوا حقوقهم الكاملة. وبهجرة أعداد كبيرة من يهود اليديشية إلى النمسا زاد عدد يهود فيينا من حوالي ٣٠٠٠ عام ١٨٤٦ إلى أكثر من ٢٠٠ ألف عام ١٩٢٣، وهو ما ساعد على ظهور الصهيونية التوطينية كحل لهذه المشكلة. وفي فيينا ظهر هرتزل وطرح الحل الصهيوني.

وبعد الحرب العالمية الثانية بلغ عدد يهود النمسا نحو ١٢ ألفاً، وفي الوقت الحاضر يبلغ عددهم ٣٠٠٠. وتضم النمسا عدة تنظيمات ومؤسسات ينتظم فيها أعضاء الجماعات اليهودية بينها عدة منظمات صهيونية.

هولندا

كانت هولندا في العصور الوسطى جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان وضع الجماعة اليهودية فيها يشبه وضعها في مختلف أنحاء أوربا. ويبدأ التاريخ الحقيقي للجماعة اليهودية بوصول يهود المارانو (السفارد) مع نهاية القرن السادس عشر، واستقرت أغلبيتهم في أمستردام. وبعد قليل أُعطوا حقوقهم كاملة، بل كانت الدولة تفضلهم على الكاثوليك. وابتداءً من عام ١٦٢٠ هاجرت أعداد من اليهود الإشكناز وفاقوا السفارد عدداً، وأصبحت الجماعة اليهودية في أمستردام أكبر الجماعات اليهودية في غرب أوربا. ولوجود شبكة علاقات واسعة تربط الجماعة اليهودية بالبرتغال وإسبانيا والدولة العثمانية والمستوطنات في آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا، لعب أعضاء الجماعة اليهودية دوراً اقتصادياً مهماً. وكان نشاطهم الاقتصادي سبباً من أسباب تحوُّل أمستردام إلى مركز تجاري عالمي مهم.

وفي القرن التاسع عشر، لم يكن الوضع الاقتصادي في هولندا مستقراً، فتدهورت أحوال الجماعة اليهودية. وفي عام ١٧٨٠ كان عدد يهود هولندا ثلاثين ألفاً، وصلوا عام ١٩٤١ إلى ١٣٩ ألفاً. وبعد الحرب العالمية الثانية وصل عددهم إلى ٣٠ ألفاً بينهم ٨ آلاف تزوجوا زيجات مختلطة. وفي عام ١٩٩٢ وصل عددهم إلى ١٥ ألفاً.

إيطاليا

يعود تاريخ أعضاء الجماعة اليهودية في إيطاليا إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وعندما تبنت الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية تحوَّل اليهود إلى جماعات وظيفية، واضطلعوا بدور التجار والمرابين. ورغم وجود البابوية في إيطاليا لم يتعرض يهود إيطاليا إلى ما تعرضوا له من اضطهاد في بلدان أوربا الأخرى. واجتذبت إيطاليا مهاجرين يهوداً كثيرين، ووصلت هذه الهجرة إلى قمتها عام ١٤٠٠، وكان يهود إيطاليا جماعة متميِّزة لا يمكن اعتبارهم من الإشكناز أو السفارد أو يهود العالم الإسلامي.

ومع عام ١٥٤٥ دخل اليهود الجيتو في إطار الإصلاح الذي قامت به الكنيسة الكاثوليكية. ومع تأسيس إيطاليا الموحدة (١٨٤٠ ـ ١٨٧٠) تأكدت حقوق اليهود، وتزايدت معدلات اندماجهم في المجتمع. وحسب إحصاء ١٩٩٢ يبلغ عدد يهود إيطاليا ٣١ ألفاً.

١٤ ـ يهود اليديشية: بولندا وأوكرانيا ورومانيا والمجر

يهود اليديشية أو يهود شرق أوربا

«يهود اليديشية» مُصطلَح نستخدمه في معظم الأحيان بدلاً من مُصطلَح «يهود شرق أوربا». وهذا المُصطلَح الأخير هو المُصطلَح الشائع في الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية، وهو مُصطلَح مطاط غير محدَّد ولكنه يشير عادةً إلى الجماعات اليهودية الموجودة شرق ألمانيا، (في بولندا وروسيا). ولذا، فهو لا يتفق بالضرورة مع الحدود السياسية المعروفة بمنطقة شرق أوربا في الوقت الحالي والتي تضم، على سبيل المثال، رومانيا وتشيكوسلوفاكيا. وأصل المُصطلَح ألماني، ويعبِّر عن إحساس يهود ألمانيا بأنهم ينتمون إلى الغرب، أي غرب أوربا، وأنهم يختلفون عن يهود الشرق. وقد انتشر المُصطلَح مع القرن التاسع عشر وبداية حركة القومية السلافية.

ونحن نفضل استخدام مُصطلَح «يهود اليديشية» الذي استخدمه يهود إنجلترا، من السفارد وغيرهم، للإشارة إلى المهاجرين الجدد من روسيا وبولندا. ويهود اليديشية يشكلون أغلبية يهود العالم، وتعود أصولهم إلى القرن الثاني عشر، مع حروب الفرنجة، حين بدأت تهاجر جماعات من اليهود الألمان، مع التجار الألمان، واستوطنت بولندا بدعوة من حكامها لتشجيع حركة التجارة وحملت معها لغتها وثقافتها الألمانية. وقد دخلت على لغتهم الألمانية بعض الكلمات السلافية والعبرية، ثم كتبوها بالحروف العبرية حتى أصبح يُشار إليها باللغة اليديشية، وهي في واقع الأمر لهجة ألمانية وحسب. وأصبحت هذه اللهجة، التي يُقال لها لغة، سمتهم الثقافية الأساسية التي حملوها معهم أينما ذهبوا ومن هنا كانت التسمية. ويذهب آرثر كوستلر إلى أن أصل يهود اليديشية ما يسميه هو «الدياسبورا الخزرية»، أي تشتُّت أو انتشار يهود الخزر واستقرار أعداد منهم في شرق أوربا.

وينقسم يهود اليديشية إلى تقسيمات فرعية مثل يهود البولاك والليتفاك والجاليسيانر، وهي كلمات يديشية تعني «البولندي والليتواني والجاليشي». (كانت جاليشيا وليتوانيا أجزاء من بولندا). وثمة اختلافات دقيقة بين الأنواع الثلاثة لها دلالاتها، ولكن هناك وحدة أساسية وخصوصية يستمدها أعضاء الجماعة اليهودية من وجودهم داخل التشكيل السياسي الحضاري البولندي بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف المال والتجارة وبمهن وحرف معيَّنة. والجماعات الوظيفية عادةً ما تحتفظ بعزلتها وبسماتها الإثنية (التي أحضرتها معها من وطنها الأصلي، وهو ألمانيا) حتى يتسنى لها الاضطلاع بوظيفتها في المجتمع التقليدي التي وفدت إليه. وكان يهود شرق أوربا يتحدثون اليديشية في وسط يتحدث إما البولندية وإما الأوكرانية، ويرتدون أزياء مميَّزة، ويؤمنون باليهودية في وسط يؤمن بالمسيحية. وقد عاشوا في مدن صغيرة تُسمَّى «شتتل» وفرت لهم تربة يهودية يديشية معزولة نسبياً عن عالم الأغيار. ولكن عقيدتهم اليهودية نفسها، بدأت تدخلها عناصر صوفية بتأثير القبَّالاه وبتأثير المسيحية الأرثوذكسية الشعبية والهرطقات الدينية المختلفة التي وجدوها بين الفلاحين السلاف.

ومما يجدر ذكره أن المستوى المعيشي ليهود اليديشية حتى بداية القرن الثامن عشر، كان مرتفعاً قياساً إلى عامة الشعب من الفلاحين والأقنان، بل وإلى أعضاء الطبقات الوسطى الهزيلة في بولندا. وكان لا يفوقهم في مستواهم المعيشي سوى النبلاء البولنديين (شلاختا). بل إن النخبة الثرية بين اليهود كانت تعيش في مستوى اقتصادي يفوق صغار النبلاء. ولكن بعد ذلك التاريخ، ونتيجة لتحولات عديدة، أخذ مستواهم الاقتصادي ينحدر.

وتعرَّض تَماسُك يهود اليديشية لعدة هجمات وضربات من الخارج كانت أولاها هجمات شميلنكي عام ١٦٤٨، التي بدأت تُخلخل وضع الجماعة اليهودية، ثم كانت الضربة الثانية تقسيم بولندا (الأول والثاني والثالث) في الفترة ١٧٧٢ ـ ١٧٩٥ والذي انتهى باختفاء بولندا عام ١٧٩٥ بوصفها وحدة سياسية مستقلة، وبتقسيمها بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية النمساوية وألمانيا (بروسيا). وكانت الأراضي التي ضمتها روسيا تضم أكبر عدد من يهود اليديشية.

وكانت البلاد الثلاثة التي اقتسمت بولندا فيما بينها بلاداً زراعية متخلفة. ومع هذا، بدأت تظهر فيها، بتشجيع من الملكيات المطلقة، اتجاهات نحو التصنيع. ورغم ضعف النظام الإقطاعي، فإن الأرستقراطية الزراعية ظلت ممسكة بزمام السلطة. وشهدت هذه الفترة حركة تحرير الأقنان في روسيا، الأمر الذي أدَّى إلى خلل في الأوضاع الاجتماعية، خصوصاً وأن الرقعة الصالحة للزراعة لم تكن واسعة، وهو ما أدَّى إلى زيادة الصراعات الاجتماعية وإلى ظهور توترات بين النبلاء والفلاحين. وقد ازداد بؤس الفلاحين وزاد تعاطيهم للخمور. ومع تركز أعضاء الجماعة اليهودية في صناعة الخمور، وجدوا أنفسهم في مركز الأزمة الاجتماعية، وأشارت أصابع الاتهام إليهم باعتبارهم مسئولين عن بؤس الفلاحين. وقد كانت حكومات البلاد الثلاثة، التي اقتسمت بولندا وسكانها اليهود فيما بينها، يحكمها حكام مطلقون مستنيرون (فريدريك الثاني في بروسيا، وجوزيف الثاني في النمسا، وكاترين الثانية في روسيا)، فتبنت هذه الحكومات مقياس مدى نفع اليهود وإمكانية إصلاحهم وتقليل عزلتهم. فتم تقسيمهم إلى نافعين وغير نافعين. وكان الهدف هو إصلاح اليهود، وزيادة عدد النافعين بينهم، وطرد الضارين منهم أو منع زيادة عددهم. وارتبطت هذه العملية بعملية إعتاق اليهود، فلم يكن يُعتَق منهم سوى النافعون.

ومن السمات المشتركة الأخرى لهذه البلاد ظهور القوميات العضوية فيها جميعاً التي تدور حول مفهوم الشعب العضوي (فولك)، وهي قوميات تنبذ الأقليات ولا تفتح أمامها فرصة الاندماج، كما حدث في إنجلترا وفرنسا وغرب أوربا بشكل عام. فالقوميات العضوية تنكر إمكانية تحوُّل الإنسان واندماجه إذ أن الشخصية والهوية، حسب تصورها، ليست مكتسبة وإنما موروثة، وتكاد تكون بيولوجية.

وتتميَّز الدول الثلاث بأن الدولة المركزية فيها كانت مطلقة ومستنيرة على عكس البيروقراطيات التابعة لها، التي كانت متخلفة وغير مستنيرة بالمرة ومليئة بالأحقاد ضد الأقليات، خصوصاً في ظروف التحول الاجتماعي. ولذا، فحينما حاولت الدولة إصلاح اليهود بإصدار قرارات كانت البيروقراطية تعوق تنفيذ هذه القرارات.

ولقد تلقَّى يهود اليديشية هذه الضربات من الخارج، في مرحلة كانت اليهودية تمر فيها بأخطر أزماتها الداخلية ابتداءً من القرن الثامن عشر. فقد رجَّت المناظرة الشبتانية الكبرى أرجاء العالم اليهودي، وظهرت الحركة الفرانكية والحسيدية التي تحدت سلطة مؤسسات اليهودية الحاخامية. ونشب صراع حاد بين الحسيديين والمتنجديم، كما كانت التوترات الاجتماعية على أشدها داخل الجماعة.

ومما فاقم الأوضاع السيئة، الانفجار السكاني الذي حدث بين يهود العالم الغربي، خصوصاً يهود اليديشية، إذ زاد عدد يهود العالم، في الفترة ١٨٥٠-١٩٣٥ ستة أضعاف. وحيث لم يكن يهود الغرب يتزايدون، بل كانوا آخذين في التناقص، فإن نسبة الزيادة بين يهود اليديشية كانت في واقع الأمر أكثر من ستة أضعاف.

ولكل ما تقدَّم، بدأت وحدة يهود اليديشية وخصوصيتهم في التداعي ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر. واستغرقت هذه العملية مرحلة زمنية طويلة (امتدت حتى منتصف القرن العشرين) وانتهت باختفاء اللغة والثقافة اليديشية ودمج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم حضارياً واقتصادياً وتَحوُّلهم من جماعة وظيفية وسيطة في المجتمع الروسي والبولندي إلى أعضاء في الطبقات الوسطى وغيرها من الطبقات في المجتمعات التي ينتمون إليها، وهذه المرحلة الزمنية هي في واقع الأمر مرحلة المسألة اليهودية التي كانت مسألة يهود شرق أوربا بالدرجة الأولى.

هاجرت أعداد كبيرة من يهود اليديشية، خصوصاً في الفترة ١٨٨١-١٩١٤، فبلغت نحو ٢,٧٥٠,٠٠٠؛ ذهب منهم ٣٥٠ ألفاً إلى أوربا، خصوصاً ألمانيا وفرنسا، و٢٠٠ ألف إلى إنجلترا، و١١٥ ألفاً إلى الأرجنتين، و١٠٠ ألف إلى كندا و٤٠ ألفاً إلى جنوب أفريقيا، ومليونان (أي حوالي ٨٥٪) إلى الولايات المتحدة. وهم بذلك يكوِّنون الأغلبية الساحقة من يهود تلك البلاد التي كانت تضم جماعات يهودية صغيرة للغاية قبل وفود يهود اليديشية. وأدَّى وفودهم إلى زيادة معدلات معاداة اليهود نظراً لتخلفهم وتميزهم الوظيفي والإثني.

ومن هنا كان رد الفعل العنصري في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، الأمر الذي أدَّى إلى طرح الفكرة الصهيونية في إنجلترا في بداية الأمر، ثم بقية دول غرب أوربا ومنها إلى وسطها فشرقها. قام هرتزل بزيارته الأولى إلى إنجلترا لمناقشة موضوع يهود اليديشية وكيفية التخلص منهم أو حل مسألتهم، وفي هذا المناخ وُلد وعد بلفور. أما في الولايات المتحدة التي هاجر إليها الملايين، فكانت تُوجَد أمام المهاجرين من يهود اليديشية مجالات للعمل، ولذلك لم تحدث توترات اجتماعية. وقد تزايد عددهم حتى أصبحوا العنصر الغالب بين أعضاء الجماعة اليهودية هناك. وكان يهود اليديشية العنصر اليهودي الغالب في الإمبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا. وغني عن القول أن يهود اليديشية كانوا هم أيضاً العنصر الغالب في الاتحاد السوفيتي حيث كانت تُوجَد جماعات يهودية أخرى مثل يهود جورجيا ويهود الجبال.

اختفت اليديشية تقريباً مع نهاية الثلاثينيات من هذا القرن، واختفى يهود اليديشية واختفت المسألة اليهودية معهم. أما أبناؤهم وأحفادهم فتم دمجهم في مجتمعاتهم. ومن هنا يُشار الآن إلى المهاجرين اليهود السوفييت إلى إسرائيل والولايات المتحدة بأنهم «الروس» لأن معظمهم يتحدث الروسية، كما أنهم روس من الناحية الثقافية.

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر أن جميع الحركات الإصلاحية في العقيدة اليهودية، أو بين أعضاء الجماعات اليهودية، كان مصدرها دائماً وسط أوربا داخل صفوف اليهود الذين يتحدثون الألمانية في ألمانيا والنمسا. فحركة التنوير كان زعيمها مندلسون الألماني. وظهرت اليهودية الإصلاحية وكذا علم اليهودية في ألمانيا، كما أن الصهيونية نفسها، في أطروحاتها الأولى التي طرحها كل من موسى هس وماكس نوردو وتيودور هرتزل حمل لواءها ألمان. وكانت اللغة الرسمية للمؤتمرات الصهيونية هي الألمانية. ونظراً لأن الكثافة البشرية اليهودية كانت متركزة في شرق أوربا، فإن هذه الأفكار والحركات الفكرية كانت تظل مجرد أطروحات فكرية إلى أن تصل ليهود اليديشية الذين كانوا يحولونها إلى حركات سياسية وثقافية حقيقية. ويظهر هذا في تاريخ كل من حركتي التنوير والصهيونية. فالقيادات والزعامات كانت في البداية من أصل ألماني، لكن المفكرين والزعماء من يهود اليديشية بدأ يستولون عليهما بالتدريج، وظهرت حركة تنوير يديشية وأدب يديشي وقومية يديشية (إن صح التعبير) دعا إليها دبنوف منطلقاً من مفهوم اصطلاح «قومية الدياسبورا». وفكرة القومية اليديشية تَصدُر عن تجربة يهود اليديشية

في أواخر القرن التاسع عشر، حين أصبح لهم ما يشبه الهوية القومية المستقلة التي استمدوها من وجودهم في وضع معيَّن داخل الحضارتين الروسية والبولندية إبان مرحلة الانتقال من وضعهم المتميِّز كجماعة وسيطة إلى أن تم دمجهم وصهرهم، وهي مرحلة اتسمت بتَعثُّر عملية التحديث في شرق أوربا. وهي تجربة تكاد تكون فريدة في تواريخ الجماعات اليهودية، ويتمثل تفردها في وجود كتلة بشرية يهودية بهذه الضخامة داخل رقعة أرض متصلة (منطقة الاستيطان) تتحدث لغة مختلفة عن لغة البلد الذي تعيش فيه.

وظهر حزب البوند ليعبِّر عن هذا الوضع الطبقي وشبه القومي المتميز. وحينما أسس الاتحاد السوفيتي منطقة بيروبيجان، فإنه كان يتحرك في إطار القومية اليديشية، ولم تنجح التجربة بسبب اختفاء اليديشية وثقافتها، واختفاء أية معالم للخصوصية اليديشية.

أما فيما يتصل بالصهيونية، فقد تولت العناصر اليديشية قيادتها ابتداءً من المؤتمر الحادي عشر عام ١٩١٣. وظل هذا العنصر هو المهيمن حتى إعلان الدولة الصهيونية، وتكوَّن منه عصب النخبة الحاكمة فيها. كما أنه يشكل ما يُسمَّى «الحرس القديم»، ومن صلبه جاء جيل الصابرا. ويبلغ تعداد يهود شرق أوربا في الوقت الحالي (ما عدا كومنولث الدول المستقلة، أي الاتحاد السوفيتي سابقاً) ٨٨,٦٠٠. ولأول مرة في التاريخ الحديث يزيد عدد يهود غرب أوربا (دعاة الصهيونية التوطينية) عن يهود شرقها (المادة البشرية الاستيطانية) فيهود غرب أوربا يبلغ عددهم ١,٠٣٦,٣٠٠ أما يهود شرق أوربا (وضمن ذلك كومنولث الدول المستقلة) فهو ٨٦٨,٤٠٠.

بولندا حتى القرن السادس عشر

كانت حدود بولندا عبر تاريخها غير مستقرة لعدة أسباب من بينها موقعها الجغرافي بين القبائل الألمانية والقبائل الليتوانية والسلاف. ثم إنها واقعة على الحدود بين ثلاث دول عظمى (ألمانيا والنمسا وروسيا)، بل على حدود الدولة العثمانية في نهاية القرن السابع عشر. كما أن غياب أية عوائق طبيعية تحيط بها، وكونها أساساً أرضاً مستوية يجعلها عرضة للغزوات المستمرة. ولم يكن العنصر السكاني في بولندا متجانساً، فالعناصر غير البولندية كانت تشكل نسبة مئوية كبيرة تصل أحياناً إلى أكثر من الثلث. وبولندا، بذلك، فريدة بين دول العالم الغربي التي تتسم بتجانسها السكاني الشديد. ويُلاحَظ أن تاريخ بولندا السياسي العاصف وكذلك موقعها كمعبر وساحة للصراع بين القوى يجعلانها تشبه فلسطين قبل الفتح الإسلامي من بعض الوجوه. ولا يمكن دراسة تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا إلا بأخذ كل هذه العناصر في الاعتبار.

وإذا كانت حدود بولندا غير مستقرة، فإن مُصطلَح يهود بولندا نفسه غير واضح، فهو مُصطلَح فضفاض للغاية له معنيان أساسيان:

١ ـ المعنى الضيق: اليهود الذين يقطنون بولندا الكبرى (بوزنان) والصغرى (كراكوف)، وهي الأجزاء الأساسية في بولندا.

٢ ـ المعنى الواسع: اليهود الذين كانوا يعيشون في المنطقة الشاسعة التي كانت تضمها مملكة بولندا وليتوانيا المتحدة.

وبالتالي، فإن هذا المعنى الأخير يشير إلى اليهود الذين وقعوا تحت الحكم البروسي والروسي والنمسوي بعد تقسيم بولندا، وهذا هو التعريف الذي سنأخذ به. وهو، بهذا المعنى، مرادف تقريباً لُمصطلَح «يهود اليديشية».

ولم يكن يهود بولندا عنصراً واحداً متجانساً بل كان يُشار إلى أقسام ثلاثة أساسية منهم باليديشية «البولاك»، وهم: يهود بولندا، و«الليتفاك» وهم يهود ليتوانيا الذين كانت معظم القيادات الصهيونية منهم، و«الجاليسيانر». وهم يهود جاليشيا.

ويعود تاريخ بولندا إلى القرن العاشر حين قامت أسرة بياست بتوحيدها. ويُعَدُّ عام ٩٦٦ عام تأسيس بولندا إذ اعتنق مايسكو الأول (٩٦٣ ـ ٩٩٢) فيه المسيحية. وخضعت بولندا لنفوذ الكنيسة الكاثوليكية في روما عام ٩٩٠ حتى لا تخضع للكنيسة الألمانية.

وأدَّى الغزو التتري لبولندا في ١٢٤١ـ١٢٤٢ إلى تدميرها تماماً، كما قام الليتوانيون الوثنيون بالغارات عليها. وفقدت بولندا كثيراً من أراضيها، ولكنها استعادت وحدتها، مع بداية القرن الثالث عشر، وبدأت حركة لإعادة بناء الاقتصاد وتشييد المدن. ففي حكم كاسيمير الثالث/ الأعظم (١٣٣٣ ـ ١٣٧٠)، تم بناء سبع وأربعين مدينة جديدة. وأقيمت في المدن مبان حجرية على النمط القوطي، كما شيدت قلاع حجرية للدفاع عن المدن. ولذا، يشار إلى كاسيمير في التاريخ البولندي بأنه "وجد بولندا خشباً وتركها حجراً". وقد عُيِّن كاسيمير حاكماً ملكياً لكل مقاطعة، وظل هذا أهم المناصب الإدارية مدة ٤٧٠ عاماً. وجمع كاسيمير القوانين وصنفها في القانون البولندي) والقانون التيوتوني. وكان الأول يطبق على النبلاء والثاني على سكان المدن. ووسع كاسيمير أطراف مملكته، وأصبحت إمبراطورية تعددية تضم بولنديين كاثوليك وألمان وروثينيان (سكان أوكرانيا، أو روثينيا، الأصليون)، كما ضمت الأرثوذكس والفلمنك واليهود والأرمن والتتر المسلمين واليهود القرائين ممن كانوا من أصل خزري ويتحدثون التركية، أي أن السكان كانوا يتبعون

عدداً كبيراً من الديانات وكانوا يتحدثون اثنتي عشرة لغة. وتأسست أسرة ياجيلون (١٣٨٦ ـ ١٥٧٢) حينما تُوِّجت يادفيجا "ملكاً" لبولندا عام ١٣٨٤ وتزوجت من دوق ليتوانيا الوثني الذي اعتنق المسيحية بعد موتها. وقد ظلت الوحدة أساساً وحدة بين أسرتين مالكتين ولكنها مع ذلك أدَّت إلى تحويل بولندا إلى دولة كبيرة بلغت أربعة أضعاف حجمها الأصلي. وتُعَدُّ إمبراطورية ياجيلون أكثر تعددية من سابقتها إذ ضمت عناصر سكانية جديدة. وأدّى الاتحاد إلى حماية بولندا من هجمات التتار، ولكنه كان يعني أيضاً الاشتباك مع فرسان التيوتون الذين كانوا يهددون ليتوانيا. وقد ضمت بولندا روسيا الحمراء (جاليشيا) وبودوليا، وأكدت سيادتها على دوقية مولدافيا، وامتدت حدودها من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، أو «من البحر إلى البحر». ومع سقوط القسطنطينية في يد القوات العثمانية عام ١٤٥٣، أصبحت بولندا معبراً أساسياً للتجارة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، خصوصاً وأنها كانت تضم كثيراً من الأنهار التي تربط بين أراضيها وموانيها على البلطيق وتسهل انتقال السلع. وبذلك سيطرت بولندا على تجارة أوربا الدولية.

عاش اليهود في بولندا منذ القرن التاسع. لكن مصدرهم غير معروف على وجه الدقة، هل جاءوا من ألمانيا وبوهيميا أم من الإمبراطورية البيزنطية وكيف؟ والأرجح أن بعض يهود الخزر انضموا إليهم، بل ويذهب آرثر كوستلر إلى أن معظم يهود بولندا، في واقع الأمر، من أصل خزري. وكان المستوطنون الأوائل من التجار. وتدل النقوش العبرية التي ظهرت على بعض العملات على مدى أهميتهم في عالم المال.

ويبدأ الوجود اليهودي الحقيقي في بولندا بعد الغزو التتري الذي أفرغ بعض المناطق من سكانها. وفي محاولتهم إعادة تعمير بلدهم قام ملوك بولندا، بتشجيع تجار ألمانيا على الهجرة لتأسيس مدن تتبع قانون ماجدبرج الألماني (الأمر الذي كان يعني استقلالها النسبي) وأُصدرت لهم المواثيق حسب هذا القانون. وكان من بين المهاجرين الألمان تجار يهود هاجروا ومعهم لغتهم الألمانية (التي أصبحت اليديشية فيما بعد) والتلمود والطقوس الأشكنازية في العبادة. ومما شجع اليهود على الهجرة إلى بولندا، تدنِّي وضعهم في أوربا الغربية إبان حروب الفرنجة، وفقدانهم وظيفتهم كتجار، وتَحوُّلهم إلى مرابين وتجار صغار. كما أن بولندا كانت البلد الوحيد تقريباً في أوربا الذي لا يتوقف فيه حق المواطنة على الانتماء إلى الكنيسة، كما كان الحال في بقية أوربا. وقد أصدر بوليسلاف التقي ميثاقاً عام ١٢٦٤ يعرف باسم «ميثاق كاليسكي» لتنظيم الأحوال القانونية لأعضاء الجماعة اليهودية وتحديد إطار التعامل الاقتصادي والثقافي بينهم وبين المسيحيين، وكذلك حمايتهم وحماية أملاكهم. وكان هذا الميثاق نفسه ميثاقاً مهاجراً مثل الجماعة اليهودية، إذ كان على نمط ميثاق فريدريك الثاني دوق النمسا والمواثيق المماثلة التي مُنحت لأعضاء الجماعة في وسط أوربا في بوهيميا والمجر. وضمن لهم الميثاق حرية الإقامة في أي مكان والحرية الدينية وحرية الاتجار وحرية التقاضي، كما حرَّم اتهام اليهود بتهمة الدم دون سند قوي. ثم قام كاسيمير الثالث بتوسيع نطاق هذا الميثاق عام ١٣٣٤ بحيث أصبح يتمتع به يهود روسيا البيضاء وبولندا الصغرى ثم يهود ليتوانيا (١٣٨٨) وسائر يهود المملكة. وأُعفي اليهود من الخدمة العسكرية، ولم يكن عليهم تزويد الجنود بالمؤن في زمن الحرب، ولكن كان يتعين عليهم دفع ضريبة إضافية نظير ذلك، وهو الوضع الذي استمر حتى تقسيم بولندا. وفي حالة التقاضي، لم يكن للبلديات أو الكنيسة سلطة قضائية عليهم، إذ كانوا خاضعين للملك مباشرة من خلال وكيله أي الحاكم الملكي (فويفود). وكان الحاكم الملكي يضطلع بنفسه بوظيفة قاضي اليهود، أو يُعيِّن أحد النبلاء للقيام بهذه المهمة. وكل هذه القوانين تفترض أن اليهود جماعة متماسكة، وطبقة اجتماعية منفصلة عن كل الطبقات الأخرى تتمتع بوصاية التاج مباشرة وتقوم أساساً بالعمليات المالية، خصوصاً جمع الضرائب والإقراض. ومعنى هذا أن أعضاء الجماعة اليهودية أصبحوا أقناناً للبلاط الملكي برغم أن هذا المُصطلَح نفسه لم يكن مستخدماً.

ولعب أعضاء الجماعة اليهودية نتيجةً لذلك دوراً مهماً في اقتصاد بولندا. وتُوجَد إشارات إلى أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة وأنهم امتلكوا الضياع وأداروها. ولكن دورهم الأساسي كان في تطوير الاقتصاد النقدي والتجاري، فكانت معظم التجارة الداخلية والدولية في يدهم، وكانوا يُصدِّرون المحاصيل الزراعية المحلية مثل: الماشية والحبوب والجلود والأخشاب وخيوط القنب، وكانوا يستوردون السلع المصنوعة من الغرب وسلعاً أخرى مثل: التوابل والأصباغ والحرير والمنسوجات القطنية من الشرق. كما احتفظوا بعلاقات تجارية نشطة مع ألمانيا والدولة العثمانية ومدن شبه جزيرة القرم وجنوا والبندقية. وكانوا إما منافسين للنبلاء في التجارة الدولية أو وكلاء لهم، وأصبحوا ملتزمين بجمع الضرائب، كما استأجروا مناجم الملح. وكان الإقراض بالربا من أهم وظائفهم. ومع هذا، لم تكن هذه الوظيفة حكراً عليهم. كما كان يوجد بين اليهود جزارون وخياطون. وقد بلغ ازدهار اليهود في بولندا درجة أن أحد

الحاخامات فسَّر اسمها (من قبيل اللعب بالألفاظ) فقال: إن بولندا بالعبرية هي «بوه لين»، أي «هنا ستستريح».

أدَّى استقلال أعضاء الجماعة اليهودية، وتمتعهم بحماية التاج، وتنظيمهم كجماعة تجارية، إلى تَحوُّلهم إلى طبقة ثالثة لها نشاطها وحيويتها ووجودها الملحوظ في كل المجالات التجارية والمالية. ووجد التجار البولنديون أن من الصعب التنافس مع التجار من أعضاء الجماعة اليهودية، خصوصاً وأنهم كثيراً ما كانوا يجدون ثغرات في القانون يتسللون منها، كما كانت لهم شبكة اتصالات بتجار آخرين خارج بولندا، الأمر الذي يَسَّر لهم عملية التصدير والاستيراد. كما كان التجار اليهود يتسمون بالجسارة التي تقترب من الوقاحة في عملية التسويق، فكانوا لا يتورعون عن الذهاب إلى منازل الزبائن، وكان هذا يُعدُّ أمراً مشيناً حينذاك لا يليق بتاجر يحترم نفسه. كما كانوا يحتكرون بعض المواد الخام التي يحتاج إليها الحرفيون، ويستوردون من الخارج سلعاً أرخص من السلع المنتجة محلياً. وأدَّى هذا الوضع إلى ظهور التوترات بينهم وبين معظم الطبقات الأخرى في المجتمع. فحاول التجار الألمان والبولنديون الحد من نطاق التجارة اليهودية، كما أن البلديات كانت تقف ضد توسيع حدود الجيتو، كما حدَّت من عدد البيوت التي يمكنهم تَملُّكها. كما أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تطالب بعزلهم عن المجتمع المسيحي. وانعكس ذلك الصراع في شكل توجيه اتهامات الدم وتدنيس خبز القربان إلى اليهود. وفي عام ١٤٥٤، تعرَّض التجار في بعض المدن لبعض الهجمات، خصوصاً في الأماكن التي كانوا يمثلون فيها منافسة اقتصادية للتجار المحليين، ثم طُردوا من وارسو عام ١٤٨٣ ومن كراكوف بعد ذلك بفترة وجيزة.

ويُلاحَظ أن هذه الفترة شهدت ظهور طبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) التي قُدِّرت لها السيطرة في مراحل لاحقة على الحياة السياسية في بولندا وارتبط بها أعضاء الجماعة اليهودية ارتباطاً كاملاً. ولكن السلطة المركزية الملكية نجحت في هذه المرحلة في تأكيد نفسها والسيطرة على بولندا والمجتمع البولندي. ولأن اليهود، كجماعة وظيفية وسيطة، يرتبطون دائماً بالطبقة الحاكمة، فإننا نجد أنهم كانوا تابعين للتاج في هذه الفترة وأن علاقتهم بالنبلاء كانت أحياناً كثيرة تتسم بالعداء.

بولندا من القرن السادس عشر حتى انتفاضة القوزاق

كان يوجد في بولندا وليتوانيا في نهاية القرن الخامس عشر نحو ستين جماعة يهودية. وبلغ عدد اليهود الإجمالي فيها ١٦ ألفاً، منهم ١٣ ألفاً في المدن و٣ آلاف في القرى. وقد تحسَّن وضعهم حينما اعتلى الملك ألكسندر (١٥٠١-١٥٠٦) العرش، فبعث ميثاق بوليسلاف الثاني لليهود وجعله جزءاً من قوانين بولندا عام ١٥٠٦. وفي العام الذي سبقه، فرض النبلاء البولنديون (شلاختا) على الملك أن يقبل أن يكون البرلمان (سييم) مصدراً وحيداً للتشريع.

وتحت حكم سيجموند الأول (١٥٠٦-١٥٤٨) ملك بولندا ودوق ليتوانيا، انتشرت البروتستانتية في بولندا الأمر الذي أدَّى إلى خلق جو من التعددية والتسامح. واستمر سيجموند في سياسة تشجيع التجارة، فأصدر مراسيم تؤكد المزايا التي حصل عليها أعضاء الجماعة اليهودية. وأكد سيجموند الثاني (١٥٤٨-١٥٧٢) حقوق أعضاء الجماعة اليهودية، وزادت أهمية الدور الذي كانوا يلعبونه في الأعمال المالية كملتزمي ضرائب وصيارفة يعملون في الأمور المالية، وكان منهم عدد كبير من الأطباء.

وكان أعضاء الجماعة اليهودية حتى ذلك التاريخ يعتمدون اعتماداً كاملاً على الملك، فكانوا يحصلون منه على المزايا والامتيازات ويتبعونه بشكل مباشر، وكان هو يزودهم بالحماية من بطش الطبقات المعادية لهم. وكانت مجالس القهال الإطار التنظيمي الذي مارس اليهود من خلاله الإدارة الذاتية. وازدادت قوة القهال الاقتصادية وتم تنظيمها في إطار مجالس البلاد الأربعة، وهو ما أدَّى إلى زيادة مقدرتها على التنافس مع المدن البولندية. وأدَّى وضع أعضاء الجماعة اليهودية المتميِّز، بقربهم من الملك، إلى زيادة التوتر بينهم وبين الكنيسة وطبقات المجتمع الأخرى سواء طبقة النبلاء (شلاختا) أو سكان المدن أو الكنيسة. وفي منتصف القرن السادس عشر، بعد موت سيجموند الثاني، تحوَّلت بولندا إلى «جمهورية ملكية» يُنتَخب فيها الملك من قبل برلمان يضم كل النبلاء ولا يرث أبناؤه العرش. وكانت معظم القرارات تُتَخذ داخل البرلمان، وانتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار النبلاء. وتزامن هذا التطور مع ظهور الملكيات المطلقة في أوربا التي أسَّست حكومات مركزية قوية تُعَدُّ نواة الدولة القومية الحديثة. وهذه الحكومات اهتمت بالتجارة المحلية والدولية وشجعتها فيما يُعدُّ تعبيراً عن الثورة التجارية التي خرجت من رحمها حركات الاكتشاف والاستعمار من إسبانيا والبرتغال ثم إنجلترا وهولندا وفرنسا، الأمر الذي حوَّل طريق التجارة وجعل الدول الأطلسية مراكز للتجارة العالمية. وقد أدَّى ذلك إلى اضمحلال المدن البولندية في بادئ الأمر ثم إلى اضمحلال بولندا نفسها.

وازدادت الدول المحيطة ببولندا قوة في تلك الحقبة أيضاً، كما

كان هناك السويد والإمبراطورية النمساوية التي كان لها أطماع في الأراضي البولندية. ولكن بزوغ نجم بروسيا من ناحية، وتَعاظُم القوة الروسية من ناحية أخرى، كانا العنصر الحاسم في مسار التاريخ البولندي إذ أن التفكك الذي أصاب بولندا كان يقابله تَزايُد في تماسك الكتل السياسية المحيطة وتَعاظُم قوتها. لذا، لم يكن من الغريب أن يتم تقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن عشر وأن تختفي تماماً ككيان سياسي مستقل خلال القرن التاسع عشر كله.

وقد انتُخب الدوق ستيفن باثوري (١٥٧٦ ـ ١٥٨٦) ملكاً لبولندا، فكان ثاني الملوك المنتخبين. ورغم أنه كان متعصباً دينيا وصديقاً لليسوعيين، فإنه تَبنَّى سياسة التسامح تجاه اليهود وأكد كل المواثيق الممنوحة لهم، وأصدر عام ١٥٧٦ قرارات تُحرِّم تهمة الدم. ورغم استمرار سياسة التسامح هذه، استمر تدهور وضع أعضاء الجماعة اليهودية، وزادت محاولات الحد من نشاطهم التجاري والحرفي، وبدأت المدن تعطي نفسها السلطة القضائية على اليهود فأصدرت قرارات للحد من حرية إقامتهم فيها. وفي عام ١٦٣٣ أُسِّس أول جيتو. ونتيجة ضعف نفوذ الملك، وتَصاعُد نفوذ النبلاء (شلاختا)، أصبح هؤلاء حماة الجماعة اليهودية واقترنت مصالح الأرستقراطية الاقتصادية بأعضاء الجماعة. وأدَّى هذا التقارب بين النبلاء واليهود إلى تغيير وضع يهود بولندا بشكل جوهري، وهو الوضع الذي وسمهم بميسمه. ولا يمكن فهم التطورات اللاحقة التي أدَّت إلى ظهور الصهيونية إلا بفهم طبيعة هذا التحول.

كان النبلاء في بولندا، برغم سطوتهم وقوة نفوذهم، يتبعون قوانين جامدة، فكانوا يتمتعون بمكانتهم (إذا كانوا من صلب إحدى الأسر النبيلة) ماداموا لا يعملون بالتجارة، وكان اشتغالهم بالتجارة يعني فقدانهم مكانتهم ووضعهم. ولذا، كان يوجد نبلاء فقراء (النبلاء الحفاة) معدمون يفضلون الجوع والفاقة على العمل بالتجارة. وأدَّى ذلك إلى التحالف بين قطاعات منهم وبين اليهود كعنصر تجاري نشط يمتلك الخبرات والأموال المطلوبة للأعمال التجارية. وبلغت أهمية أعضاء الجماعة اليهودية درجة كبيرة حتى أنه حينما فكرت أعداد منهم في الهجرة إلى الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، منعهم ملك بولندا بالإقناع والقوة.

ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أية خطورة على النبلاء لأنهم لم يكن بوسعهم، كعنصر غريب أجنبي، المطالبة بنصيب في السلطة السياسية يتناسب مع وزنهم الاقتصادي، وذلك على عكس العناصر البورجوازية المحلية التي عادةً ما تطالب بمزيد من الحقوق كلما تزايدت قوتها الاقتصادية. وشهدت الفترة ١٥٣٩ ـ ١٥٤٩ قيام النبلاء الإقطاعيين بتوزيع السلطة القانونية على أعداد كبيرة من اليهود الذين لم يعودوا تحت الحماية الملكية. وبلغ عدد اليهود الذين يعيشون على أراض يملكها النبلاء الإقطاعيون ما يزيد على نصف أعضاء الجماعة الذين أصبحوا منقسمين إلى نصفين: يهود النبلاء ويهود الملك. وكان لكليهما إطاره القانوني. ولكن عدد يهود النبلاء أخذ في الزيادة، ومع منتصف القرن الثامن عشر، بلغ عددهم ثلاثة أرباع يهود بولندا. فكان إذا طردت إحدى المدن الملكية اليهود منها انتقلوا إلى مدن النبلاء أو إلى جيوب شبه حضرية داخل ضياع النبلاء. وبدأ أعضاء الجماعة اليهودية يستقرون في مدن صغيرة أسسها النبلاء، فكانوا يمنحونهم حق السكنى فيها نظير الدفاع عنها، وهي المدن التي عُرفت باسم «الشتتل». وكان سكان هذه المدن من اليهود أساساً. والواقع أن التطور الأساسي الذي ربط مصير أعضاء الجماعة اليهودية بالنبلاء البولنديين هو إبرام اتحاد برست ليتوفسك (ويُسمَّى أيضاً اتحاد لوبلين) عام ١٥٦٩ بين ليتوانيا وبولندا. وهو الاتفاق الذي حوَّل الوحدة الإسمية (وحدة الأسرتين المالكتين) بين البلدين إلى وحدة حقيقية. وقامت بولندا بضم أوكرانيا نتيجة هذه الوحدة. وكانت أوكرانيا، حتى ذلك الوقت، تُسمَّى «روثينيا». أما كلمة «أوكرانيا» فتعني «منطقة الحدود»، وتمتد من جاليشيا إلى نهر الدون حتى البحر الأسود، وتقع بين روسيا وبولندا والدولة التترية في القرم.

وكانت أوكرانيا النقطة التي التقت فيها عناصر عديدة غير متجانسة أهمها النبلاء البولنديون الإقطاعيون الكاثوليك والفلاحون الأوكرانيون الأرثوذكس والتجار اليهود غير المنتمين لهذا أو ذاك، إلى جانب الغجر والتتار وبعض الأرمن. ثم بدأت عملية استيطان بولندية في أوكرانيا، وكانت تتطلب خبرات ورؤوس أموال كبيرة لاستصلاح الأراضي وتأمين الطرق، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور ما نسميه «نظام الإقطاع الاستيطاني». وكانت حاجة النبلاء الإقطاعيين إلى المال تزداد يوماً بعد يوم، فكانوا يقترضون من اليهود. وأدَّى هذا كله إلى ظهور نظام الأرندا (الاستئجار) كشكل أساسي من أشكال الإقطاع الاستيطاني. فكان النبيل الإقطاعي يستدين من المرابي اليهودي مبالغ طائلة للوفاء باحتياجاته بضمان ضيعته وغلتها وعوائدها. وبالتدريج، اضطلع أعضاء الجماعة اليهودية بعملية استئجار المزرعة وإدارتها نيابةً عن النبيل الإقطاعي الغائب في وارسو، والذي كان يترك زمام الأمور في يد الوكيل. وكانت مدة عقود الإيجار تصل أحياناً إلى عدة سنوات. وأدَّى هذا إلى تَحوُّل الأرندا إلى نظام استثمار تجاري

استغلالي لا تخفف من حدته الروابط الإقطاعية بما تحمل من مسئولية أخلاقية مباشرة من النبيل الإقطاعي تجاه فلاحيه وأقنانه وتراث ثقافي وديني مشترك، فهو إقطاعي في علاقاته الاقتصادية الأساسية بين النبيل والأقنان، ولكنه إقطاع بلا علاقات اجتماعية أو ثقافية إقطاعية، إذ إن الطبيعة الاستيطانية للنظام ووجود عنصر سكاني غريب يكون بمنزلة همزة الوصل بين الإقطاعي وفلاحيه قضيا على احتمال قيام مثل هذه العلاقات المباشرة وقضيا على الرقعة الثقافية والدينية المشتركة. ولا شك في أن النبلاء البولنديين كانوا ينظرون إلى أعضاء الجماعة كعنصر ريادي استيطاني كفء ونافع يساهم في تعمير المناطق غير المأهولة بالسكان وكأداة تُستخدَم لتنشيط الاقتصاد الزراعي الخامل وإدخال بعض النشاطات التجارية فيه حتى يزيد ريع الأراضي الزراعية.

لكل ما تقدَّم، أصبحت السلطة المباشرة شبه المطلقة في يد اليهودي الذي كان يدير الضيعة، فهو الذي يُطبِّق القانون ويقرر العقوبات والغرامات وينفذها بمساعدة الجنود البولنديين. وكان الملتزم أو الأرنداتور اليهودي يحصل على كل الامتيازات الممكنة مثل إدارة الحانات وطواحين الغلال ومعامل الألبان ومعامل التقطير وصناعة الكحول ومناجم الملح وقطع الأخشاب وصنع الغراء ودبغ الجلود وصنع الصابون. كما كانوا يجمعون ضرائب المرور على الكباري والبوابات. بل ولم يكن من الممكن إقامة الصلوات الأرثوذكسية إلا بعد العودة للوكيل اليهودي إذ لم يكن بمقدور القساوسة الحصول على مفتاح الكنيسة أو استعارة ردائهم الكهنوتي لإقامة شعائر الصلاة إلا بعد دفع ضريبة. وكان اليهود يشترون أيضاً المحصولات من الفلاحين. ولأنهم كانوا يمتلكون وسائل النقل النهري، فقد كانوا هم أيضاً الذين يقومون بنقلها. وكان أعضاء الجماعة اليهودية هم أيضاً تجار القرية الذين يبيعون الفلاحين ما يريدونه من السلع الضرورية مثل الملح والسلع الترفية. وأصبح بعض يهود بولندا وروسيا من كبار تجار الأخشاب والحبوب في أوربا. ونشأت علاقة قوية بين يهود البلاط في دول أوربا الوسطى، ويهود الأرندا إبان حرب الثلاثين عاماً، حيث كان يهود البلاط يستوردون الحبوب من بولندا. وكان يهود الأرندا يقومون بتدبير الغلال المطلوبة التي كانت تتزايد حاجة أوربا إليها. وهذا يبين كيف كانت العلاقات بين الجماعات اليهودية تسهل اتصالاتهم وتجعلهم شبكة قوية ووحيدة للتجارة الدولية.

وساهم الوضع الاقتصادي العام في أوربا آنذاك في تحسين وضع بولندا، إذ كان سكان أوربا الغربية آخذين في الزيادة وهو ما اضطر دول هذه المنطقة إلى استيراد كميات كبيرة من الحبوب. واستفادت بولندا من هذا الوضع، فأصبحت في الفترة من ١٥٧٧ إلى ١٦٥٤ بمنزلة المصدر الأساسي للقمح في أوربا. فكان يتم تصدير القمح البولندي إلى فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا، وأحياناً إلى الشرق الأوسط من خلال أمستردام حيث كانت هناك أهم بورصة لبيع الحبوب. وأصبحت جدانسك أهم مدينة تجارية في أوربا بعد أمستردام إذ كانت تُصدِّر مواد عديدة مثل الحبوب والأخشاب والكتان والقنب والبوتاس والماشية.

واحتكر النبلاء البولنديون هذه السلع وطوروا ضياعهم لإنتاجها فشددوا قبضتهم على الأقنان وحولوهم إلى عبيد تقريباً. فكان كبار النبلاء الإقطاعيين يمتلكون الأرض في أوكرانيا ويؤجرونها، والألمان يديرون الموانئ على بحر البلطيق، والهولنديون يمتلكون السفن البحرية لنقل السلع. أما أعضاء الجماعة اليهودية، فقاموا ببقية العملية ومن بينها نقل المحاصيل بوسائل النقل النهري التي كانوا يمتلكونها. وقبل اتحاد ليتوانيا وبولندا عام ١٥٦٩، كان لا يوجد سوى أربعة وعشرين تجمعاً يهوديا في أوكرانيا لا يزيد عدد أعضائها على أربعة آلاف. ولكن، مع حلول عام ١٦٤٨، كان عدد التجمعات ١١٥ تجمعاً يبلغ عدد سكانها ٥١,٣٢٥، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية زاد عددهم ١٣ مرة خلال ثمانين عاماً. ونظراً لأن أعضاء الجماعة اليهودية لم يكونوا مسلحين، فقد كانت تساندهم فرق مسلحة بولندية حتى يمكنهم الاستمرار في استغلال الفلاحين.

وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية بعلاقتهم القوية مع النبلاء والقوى التجارية الدولية محميين من تقلبات المجتمع الإقطاعي ومن غش وخداع البلديات والموظفين الملكيين، ووجدوا المناخ المستقر الذي يحتاج إليه النشاط التجاري والمالي دون ضغوط وتهديد. وتَحسَّن وضعهم ودخلوا دورة اقتصادية جديدة. وربما يُفسِّر سبب بقاء واستمرار الجماعة اليهودية وسبب استمرار أعضائها أهم عنصر في الاقتصاد النقدي رغم عمليات الطرد في أواخر القرن الخامس عشر. وقد ازدهرت الدراسات الدينية بحيث أصبحت بولندا مركز الدراسات التلمودية لا في العالم الغربي فقط وإنما في العالم بأسره. ولكنهم رغم ازدهارهم، بل بسببه، ظلوا في نهاية الأمر عنصراً تجارياً إدارياً غريباً يعيش في بيئة فلاحية، وتحولوا إلى أداة استغلال كاملة مباشرة في يد الأرستقراطية الإقطاعية الغائبة المستفيدة من هذا الاستغلال، ومثَّل هذا وضعاً متفجراً يتسم بعدم الاستقرار.

تسبَّب نظام الأرندا في عزل أعضاء الجماعة اليهودية داخل الشتتلات وإلى تَزايُد غرورهم تجاه الفلاحين، كما تزايد اعتمادهم

على السلطة الحاكمة، وعلى القوة العسكرية البولندية. وكان القانون البولندي، بسبب الوضع المتفجر، يُلزم رب العائلة اليهودية بالاحتفاظ ببنادق بعدد الذكور، وبثلاث خرطوشات وثلاثة أرطال من البارود.

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يبنون معابدهم على هيئة حصون تُوجَد بحوائطها كوات تخرج منها فوهات البنادق وتُنصَب فوقها المدافع ضد الأقنان والعبيد. ومع نهاية القرن السادس عشر، كان عدد كبير من يهود بولندا الموجودين في أوكرانيا يقوم بعملية الاستغلال هذه ويشكل جسماً غريباً يتحدث أعضاؤه اليديشية (في وسط سلافي) ويؤمنون باليهودية ويمثلون النبلاء البولنديين الكاثوليك (في وسط أوكراني أرثوذكسي) ويقومون بأعمال تجارية (في وسط زراعي فلاحي) مستغرقين إما في الدراسات التلمودية التي أصبحت شكلية وخالية من المضمون والروح منفصلة عن الحياة وإما في التأملات القبالية التي تمنح اليهود مركزية في الكون لا أساس لها في الواقع. وتواجد أعضاء الجماعة اليهودية بأعداد كبيرة في مدنهم التجارية الصغيرة (الشتتلات) الأمر الذي كرَّس عزلتهم بشكل يكاد يكون كاملاً. ويُلاحَظ مدى تَداخُل الانتماء الإثني والديني والطبقي في أوكرانيا وبولندا. ولعل هذا الوضع يشكل الأساس المادي لمقولة أبراهام ليون الخاصة بالشعب/ الطبقة، ولبعض المقولات الصهيونية كقولهم "من الطبقة إلى الأمة"، ولحديث بوروخوف عن الهرم الإنتاجي المقلوب عند اليهود. ولكننا نفضل استخدام مفهوم الجماعة الوظيفية (المالية/ الاستيطانية) في هذه الحالة.

ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن يهود الشتتل كانوا بمنأى عن الثقافة اليهودية الرفيعة (مقابل الثقافة الشعبية) التي كانت توجد مراكزها في المدن حيث كانت توجد المدارس التلمودية العليا. وقد بدأوا يتفاعلون مع محيطهم الثقافي واستوعبوا كثيراً من العادات والمعتقدات الفلاحية الشعبية المسيحية السلافية. وكان لهذا أعمق الأثر في التطور اللاحق لليهودية إذ أن الدراسات التلمودية الجافة لم تَعُد تلائم هذا الجو المشبع بالأساطير والخرافات.

وقد أخذ عدد أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا في التزايد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر زيادة كبيرة، فكان عددهم عام ١٥٠٠ يتراوح بين ٢٥ و٣٠ ألفاً من مجموع خمسة ملايين بولندي. وفي عام ١٥٧٥، زاد عدد سكان بولندا إلى سبعة ملايين نسمة. ولكن عدد أعضاء الجماعة اليهودية زاد إلى ١٥٠ ألفاً. ومع منتصف القرن السابع عشر، بلغ عددهم ٣٥٠ ألفاً (ويُقال ٥٠٠ ألف) يشكِّلون ٥٪ من مجموع سكان بولندا. وحتى عام ١٥٥٠، لم يكن هناك يهود يعيشون بشكل قانوني في إنجلترا أو فرنسا أو هولندا أو إسبانيا أو البرتغال أو الدول الإسكندنافية أو إمارة موسكوفي. وكان يهود أوربا كافة مركزين أساساً في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا أو إيطاليا بحيث كان يوجد، في القرن السابع عشر، مركزان أساسيان في العالم لليهود: أحدهما في الإمبراطورية العثمانية وهو الذي استوعب العديد من اليهود الذين طردوا من أوربا الغربية وشبه جزيرة أيبريا، وثانيهما في بولندا وليتوانيا. واستمر يهود بولندا في الزيادة، حتى أن أغلبية يهود العالم في بداية القرن العشرين كانت من نسل يهود بولندا.

النبلاء البولنديون (شلاختا)

«شلاختا» كلمة بولندية معناها «نبلاء». والشلاختا تركيب طبقي فريد يستمد تفرده من طبيعة التشكيل السياسي الحضاري البولندي. وظهرت بولندا بوصفها وحدة سياسية بعد أن قام ملوك أسرة بياست (٩٦٦ـ١٣٨٦) بتوحيد أقاليمها. وحافظت أسرة ياجيلون (١٣٨٦ـ١٥٧٢) على هذه الوحدة من خلال حكومة ملكية تتمتع بشيء من المركزية، وتفرض سلطتها على كل أطراف المملكة، وتتبع سياسة موحَّدة تجاه تطوير المجتمع وتعمير البلاد في الداخل وعمليات صد الغزاة وتوسيع رقعة البلاد في الخارج. وشهدت هذه الفترة توسيع رقعة بولندا حتى أصبحت أكبر دول أوربا وأقواها، تمتد من البحر إلى البحر، من بحر البلطيق إلى البحر الأسود. وفي محاولة تطوير البلاد، قام ملوك بولندا بتشجيع عناصر أجنبية (الألمان واليهود والأرمن) على الاستيطان وتشييد مدن تُحكَم بالقانون الألماني (قانون ماجدبرج). واستقرت في هذه المدن أيضاً عناصر بولندية محلية صبغت هذه المدن بالصبغة البولندية. وكانت هذه المدن تتبع الملك مباشرة (ولذا سُمِّيت «مدن التاج») وكانت ذات شخصية اعتبارية مستقلة ولمجالسها البلدية صلاحيات كثيرة. وإلى جانب سكان المدن، كان يوجد الفلاحون الذين يعيشون داخل نظام الإقطاع البولندي كأقنان عليهم أن يعملوا في مزارع النبيل الإقطاعي. كما كان يُوجَد عدد كبير من الفلاحين الأحرار الذين يستأجرون الأرض من النبيل الإقطاعي. ولم تكن سلطة النبلاء (على الأقنان أو الفلاحين) مطلقة في بداية الأمر إذ كانت لهم أيضاً مجالسهم المستقلة ومحاكمهم، وكانت بعض القرى قد نجحت في الحصول على الحقوق والمزايا التي منحها القانون الألماني للمدن. بل إن بعض الفلاحين الأحرار كانوا ضمن العناصر الأجنبية التي استقرت خلال محاولة تعمير بولندا.

أما أهم الطبقات، من منظور التطور السياسي اللاحق لبولندا، ومن منظور تبلور المسألة اليهودية في شرق أوربا وظهور الصهيونية، فهي طبقة النبلاء. وهي طبقة لم تكن قط تابعة للملك وإن كان قد نجح بعض الوقت في فرض سلطته عليها. وإذا كان التطور اللاحق في معظم أرجاء أوربا هو تَعاظُم سلطة الملك داخل النظام الإقطاعي وتقليم أظافر النبلاء الإقطاعيين وتأسيس الدولة المطلقة تحت حكم الملوك المطلقين، فإن العكس هو الذي حدث في بولندا إذ تعاظم نفوذ النبلاء حتى أصبحوا الحكام الحقيقيين وأصحاب القرار في الدولة البولندية. وظهر أول اتحاد لهم في منتصف القرن الرابع عشر، وكونوا مجلس شورى للملك (١٣٨٥ ـ ١٤٩٣)، ثم نجحوا في الفترة ١٤٢٢ ـ ١٤٣٣ في تدعيم امتيازاتهم، كالإعفاء من الضرائب وعدم سجن أي منهم إلا بعد المحاكمة. وتحوَّل مجلس شورى الملك عام ١٤٩٣ إلى مجلس تشريعي يُسمَّى السيم أو البرلمان. وفي عام ١٥٠٥، ساد العرف القائل "نيهيل نوفي nihil novi" (وهي عبارة لاتينية تعني «لا تجديد»)، الأمر الذي يعني تأكيد حق برلمان النبلاء وحده في إصدار القوانين والتشريعات. ومن خلال البرلمان (سييم)، تَمكَّن النبلاء من تقويض دعائم النظام الملكي المركزي تماماً حتى تحولت بولندا من مملكة يحكمها ملك إلى مملكة تحكمها طبقة اجتماعية هي طبقة النبلاء.

ولعل تَزايُد نفوذ النبلاء يعود إلى سمة فريدة في بولندا بين الدول الغربية، وهي تعددية الإمبراطورية البولندية الإثنية والجغرافية والدينية، وهي تعددية زادت بعد توحيد ليتوانيا وبولندا عام ١٣٨٦ باتحاد الأسرتين الملكيتين في البلدين. وكانت بولندا تضم بولنديين كاثوليك يتحدثون الألمانية، وليتوانيين يتحدثون لغتهم، ويهود يتحدثون اليديشية، وألمان يتحدثون الألمانية، وأرمن مسيحيين يتحدثون الأرمنية، وتتراً مسلمين يتحدثون لغتهم، وغير هؤلاء كثيرون، حيث بلغ عدد اللغات اثنتي عشرة لغة. كما وُجدت في بولندا الديانات التوحيدية الثلاث، وكذلك معظم الشيع المسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية والأرمنية والبروتستانتية، ومثل هذه التعددية تتطلب إطاراً إدارياً فضفاضاً.

وانتهى حكم أسرة ياجيلون بتوقيع اتحاد لوبلين (برست ليتوفسك) عام ١٥٦٩، والذي حوَّل الوحدة بين بولندا وليتوانيا من وحدة ملكية (من خلال الأسرة المالكة) إلى وحدة حقيقية بين البلدين. ولكن كان يُوجَد في كل من البلدين طبقتان من النبلاء، لكلتيهما مصالحها وظروفها التي لا تنوي التنازل عنها. ولإنجاز الاتحاد، كان لابد أن تتنازل السلطة المركزية الملكية عن كثير من سلطاتها الأمر الذي أدَّى إلى تَزايُد ضعف السلطة المركزية وتَزايُد نفوذ النبلاء. وبعد أن اتحدت مملكة بولندا ودوقية ليتوانيا، احتفظت كل واحدة منهما بقوانينها وإدارتها، ولكن أصبح لها حكومة واحدة تحت حكم ملك واحد ينتخبه البرلمان (سييم). وقد سموا هذا الكيان «ريس بوبلكا res publica» وهي كلمة لاتينية معناها «الجمهورية»، وأُطلق عليها «جمهورية بولندا وليتوانيا المتحدة»، أي أن المملكة الجديدة تحوَّلت من ملكية تتحكم فيها طبقة اجتماعية إلى جمهورية ملكية أي جمهورية يحكمها ملك منتخب، وهو أمر فريد في العالم الغربي وربما في العالم بأسره. وكان الملك يُنتخَب انتخاباً مباشراً من قبَل النبلاء. ولم يكن يتم تتويج الملك إلا بعد أن يُقسم على أنه سيلتزم بميثاق يحوي العديد من البنود، مثل: قبوله بأن يُختار الملك بالانتخاب وأن عليه دعوة البرلمان للاجتماع والموافقة على أن يقوم ستة عشر سناتوراً بالرقابة على السياسة الملكية وأن يحافظ على امتيازات النبلاء وحقهم في الموافقة على فرض الضرائب وإعلان الحروب وتوقيع المعاهدات. ومن ثم كانت السيادة الكاملة للنبلاء، وأصبح الملك مثل المدير الذي يتم التعاقد معه لتنفيذ خطة محددة موضوعة له. وكانت سلطة ملك بولندا أقل كثيراً من سلطة ملك إنجلترا الذي كان يملك ولا يحكم، فهذا كان لا يملك ولا يحكم. ووصل نظام الجمهورية الملكية إلى قمة سخفه في نظام الليبروم فيتو librum veto (وهي عبارة لاتينية تعني «الفيتو الحر») وهو نظام يعطي لأي عضو في البرلمان حق الفيتو وهو ما كان يعني ضرورة أن تَصدُر القرارات بالإجماع. وقد أصاب هذا النظام البرلمان بالشلل وزاد تفكك بولندا وتحوُّلها إلى أقسام يحكم كلاً منها نبيل أو ربما يتحكم فيه.

وتزامنت عملية تقنين سلطة النبلاء مع عدة عمليات تاريخية داخلية وخارجية:

١ ـ شهدت سبعينيات القرن السادس عشر ازدهار بولندا التجاري نتيجة تحوُّلها إلى معبر للتجارة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، فهي بلد يقع في قلب أوربا ويمتد من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، أي من السويد وروسيا وألمانيا وبمحاذاة العديد من بلاد أوربا ووسطها ليصل إلى حدود الدولة العثمانية. وبدأت بولندا في تصدير العديد من السلع الغذائية. واستفاد النبلاء من هذا الوضع إذ احتكروا الاتجار في هذه السلع وراكموا الثروات.

٢ ـ شهدت الفترتان من ١٤٩٦ إلى ١٥٠٨ ومن ١٥٢٠ إلى ١٥٣٢ صدور عدة قوانين شددت قبضة النبلاء على الفلاحين وسلبتهم حريتهم وحولتهم إلى أقنان بحيث أصبحوا ملكية خاصة للنبلاء وأصبحوا مجرد مصدر للعمالة الرخيصة في مزارع البلاد.

٣ ـ نجم عن الوحدة بين ليتوانيا وبولندا أن أُتيحت فرصة للاستثمار أمام النبلاء البولنديين في أوكرانيا (١٥٦٩ ـ ١٦٤٨). وانحصر اهتمام النبلاء في ريع ضياعهم في أوكرانيا دون أيّ إحساس بالمسئولية الإقطاعية تجاه فلاحيهم ودون أية مشاركة في ثقافتهم. وأدّى هذا إلى تزايُد استغلال النبلاء للفلاحين في أوكرانيا وخارجها، وتحوَّل نظام الأقنان إلى نظام عبودي إذ لم تكن هناك قوة تقف في وجه النبلاء وتضع حدوداً لاستغلالهم. وقد أصر النبلاء على حقهم المطلق في إقرار الحياة والموت بالنسبة إلى الأقنان. وظل رجال الكنيسة وسكان المدن اليهود (أي الجماعات التي كان يتقرر وضعها بموجب مواثيق ملكية) خارج نطاق تحكُّم النبلاء. واستمر استقلالهم، ولكنهم لم يشتركوا في البرلمان أو في انتخاب الملك باستثناء بعض كبار رجال الكنيسة.

وكانت ثقافة الشلاختا تدعو للمساواة التامة بين مختلف النبلاء دون تفرقة على أساس الثروة أو النفوذ. ولم يكن هناك تمييز بين كبار النبلاء والشريحة المتوسطة منهم أو ما كان يُسمَّى «النبلاء الحفاة» أو «سابلة النبلاء» وهو عدد هائل من النبلاء الذين كانوا لا يملكون أرضاً ولا ثروة، ومع هذا كانوا أعضاء في طبقة الشلاختا.

ويُلاحَظ أن طبقة النبلاء، في مختلف بلاد أوربا، كانت لا تزيد على ١ ـ ٢٪ من مجموع السكان. أما الشلاختا، فكانت تصل إلى ما بين ٨٪ و١٢٪. ولذا، كانت تُعَدُّ أكبر طبقة لها حق الانتخاب في أوربا في ذلك الوقت.

ورغم مجموعة القيم الديمقراطية التي تَمسَّك بها أعضاء الشلاختا، أو ربما بسببها، فإنهم كانوا مسئولين إلى حدٍّ كبير عن ضعف بولندا واختفائها في نهاية الأمر. فقد اهتم النبلاء كل بمصلحته الخاصة وهو أمر لم يكن ليَخفَى على الدول المجاورة (ذات الأطماع في بولندا) التي أخذت تتدخل في السياسات الداخلية لبولندا من خلال النبلاء وتتحكم فيها، وهو ما أدّى إلى تزايُد النفوذ الأجنبي. وتزامنت هذه المرحلة مع ظهور الملكيات المطلقة ذات السلطة المركزية في بقية أوربا وظهور ألمانيا وروسيا والنمسا كإمبراطوريتين لهما أطماع في بولندا.

وحدث تَطوُّر مُتوقَّع داخل طبقة النبلاء ذاتها إذ أخذت شريحة كبار النبلاء (التي كانت تضم حوالي ثلاثمائة أسرة) في التبلور كأقلية تتحكم في طبقة النبلاء نفسها، وفي الوظائف الأساسية في الدولة ومن ثم في بولندا بأسرها. وكانت ثروات كبار النبلاء أكبر من ثروات الملك، كما كانت ضياعهم دولة داخل دولة فعلاً، ويعيش فيها مئات الألوف من الأقنان/ العبيد. وكان حجم بعضها أكبر من حجم بعض الدوقيات الألمانية، كما كانت تتبع كل نبيل قوة مسلحة خاصة به لضمان الأمن الداخلي. وتحوَّل صغار النبلاء إلى موال لهم يمتثلون لأوامرهم. وقد أسس النبلاء مدناً خاصة بهم تتنافس مع المدن الملكية وتفوقها في الثروة والنفوذ، وساهموا في إضعاف الطبقة الوسطى إذ استوعبوا ثروات بولندا وركزوها في أيديهم. ومع اكتشاف أمريكا، وصلت إلى أيديهم كميات كبيرة من الذهب تم استيرادها من العالم الجديد. ولكن الثروات التي راكموها لم يُعَد استثمارها في الاقتصاد، بل بُدِّدت في مظاهر الترف، الأمر الذي أدّى إلى التضخم وعدم الازدهار الاقتصادي.

وقد أدّى كل هذا إلى استقطاب شديد في المجتمع البولندي بحيث كانت تُوجَد من ناحية طبقة الشلاختا التي على رأسها شريحة كبار النبلاء تتحكم في المجتمع بأسره (دون ضوابط) بمساندة القوى الأجنبية أحياناً، وكانت تُوجَد من ناحية أخرى طبقة عريضة من الفلاحين الذين تحولوا بالتدريج إلى أقنان/ عبيد، كما كانت تُوجَد طبقة وسطى هزيلة غير قادرة على النمو بسبب سيطرة كبار النبلاء. ومع تَصاعُد نفوذ النبلاء وضعف نفوذ السلطة المركزية الملكية، تزايد اعتماد اليهود على النبلاء ابتداءً من القرن السابع عشر وانتقل مركز الجاذبية بالنسبة إليهم من غرب ووسط بولندا إلى المناطق الشرقية في أوكرانيا وغيرها. ومن منتصف القرن السابع عشر، أصبحوا الطبقة الثالثة، أو الجماعة الوظيفية الوسيطة بين النبلاء والأقنان. وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية أداة النبلاء في ممارسة سلطتهم الجائرة غير المستنيرة. فقام اليهود بمهمة إدارة مزارع النبلاء الكبيرة في أوكرانيا وغيرها تساندهم القوة العسكرية البولندية فيما عُرف بنظام الأرندا، وذلك داخل إطار الإقطاع الاستيطاني في مدنهم الصغيرة (شتتل) التي بناها لهم النبلاء. وكذلك أصبح أعضاء الجماعة أداة النبلاء في كبح جماح الطبقة الوسطى، أو سكان المدن البولندية. فالنبلاء كانوا يفضلون التجار اليهود على غيرهم لأنهم كانوا يحققون لهم عائداً أكبر من العائد الذي يحققه التجار البولنديون أو الألمان. وحتى في المدن البولندية، التي كان محظوراً على اليهود السكنى أو الاتجار فيها، كانت منازل النبلاء تقع خارج نطاق قوانين المدينة، ولذا كان بوسع اليهود أن يقيموا فيها كي يقوموا بنشاطهم التجاري لصالحهم ولصالح النبلاء أيضاً. ومما دعم العلاقة بين اليهود والنبلاء أن النبيل الإقطاعي كان محرماً عليه الاشتغال بالتجارة، كما كان يفقد مكانته ووضعه الطبقي إن فعل، ولذا كان لابد أن يستخدم وسيطاً تجاريا ليضطلع بهذه الوظيفة نيابة عنه.

وازدهرت الجماعة اليهودية بسبب ارتباطها بالنبلاء الذين كانوا يجدون فيها أداة طيعة لا تمثل أية خطورة عليهم بسبب عزلتها عن السكان ولأنها ليست لها مطالب سياسية على عكس الوسطاء المحليين. ويُقال إن بولندا، في هذه المرحلة، كانت السماء بالنسبة لليهود والجنة بالنسبة للنبلاء، ولكنها كانت تمثل جهنم بالنسبة للأقنان، ويمكن أن نضيف وللتجار البولنديين.

ويمكن أن نرى هنا الجذور الحقيقية للمسألة اليهودية إذ أن تحوَّل اليهود إلى أداة استغلال، أو إلى جماعة وظيفية وسيطة، يعني أنهم كانوا يقفون ضد أغلبية طبقات المجتمع لا يرتبط مصيرهم بمصيره، خصوصاً وأن الطبقة التي ارتبطوا بها لم تكن طبقة وطنية بل طبقة مرتبطة بالنفوذ الأجنبي. ولذا، فحينما ظهرت طبقة بورجوازية وطنية في بولندا، لم يكن بإمكان اليهود أن ينخرطوا في سلكها فظلوا خارجها. كما ارتبطوا بطبقة كانت عملياً مسئولة عن ضعف بولندا وتَحوُّلها من دولة عظمى إلى دويلة صغيرة ثم عن اختفائها نهائياً مع بداية القرن التاسع عشر. واختفت طبقة النبلاء مع تقسيم بولندا وتَحوَّل كثير من النبلاء إلى مهنيين.

ونحن نرى أن علاقة كبار النبلاء باليهود كجماعة وظيفية وسيطة وعميلة، تُستخدَم أداة لامتصاص خيرات البلد وفائض القيمة من جماهيره داخل إطار الإقطاع الاستيطاني والأطر الأخرى، تشبه علاقة الولايات المتحدة بالمستوطنين الصهيونيين داخل إطار الاستعمار الاستيطاني الإحلالي.

بولندا من انتفاضة القوزاق إلى التقسيم

بدأت الفترة التي تُعرَف باسم «الطوفان» في تاريخ بولندا في منتصف القرن السابع عشر، وهي فترة استمرت نحو ثلاثين عاماً. وشهدت المرحلة السابقة الضعف المتزايد لسلطة الدولة المركزية، وضعف الملكية تحت حكم ملوك الساكسون، وزيادة قوة النبلاء البولنديين (شلاختا) الذين كان يدين بعضهم بالولاء لدول أجنبية. وتزامن ضعف السلطة المركزية مع ظهور دول مجاورة قوية مثل السويد أو روسيا التي بدأت تتحدد معالمها كدولة عظمى. وبدأ الطوفان بثورة القوزاق، وهم جماعة حدودية من الجنود وقطَّاع الطرق كونوا فرقاً شبه عسكرية متجولة، بتشجيع من ملوك بولندا لحماية المنطقة من هجمات التتار. ولكنهم أخذوا يتمردون على الحكم البولندي، واندلعت أول انتفاضة لهم عام ١٦٣٧. وأعقب ذلك فترة جفاف في أوكرانيا سادت عشرة أعوام، وهو ما زاد بؤس الفلاحين وزاد ضغط اليهود عليهم ليفوا بالالتزامات المالية. ثم هبت العاصفة الحقيقية على شكل انتفاضة بوجدان شميلنكي عام ١٦٤٨ التي اكتسحت البولنديين وأعوانهم من اليهود. ورغم توقيع معاهدة مع بولندا اعترفت فيها باستقلال دولة القوزاق بزعامة شميلنكي، فإن الصراع في المنطقة استمر دون هوادة. ولم يتمكن أي من الفريقين من إحراز انتصار حاسم. وكان شميلنكي، منذ بداية الثورة، قد عقد تحالفات مع روسيا والدولة العثمانية والتتار، كما وقع معاهدة عام ١٦٥٤ مع روسيا وُضعت بمقتضاها دولة القوزاق الأوكرانية تحت حماية القيصر، وأصبح القيصر بعدها قيصر روسيا الصغرى (أي أوكرانيا) أيضاً. وهنا دخلت روسيا الحروب مع بولندا التي تحالفت مع التتار. وكانت النتيجة أن أوكرانيا عاشت فترة امتدت ٣٢ عاماً من الغزو الأجنبي والحروب الأهلية والتقلبات الاجتماعية. ودخلت القوات السويدية الحرب عام ١٦٥٥. وشهدت الفترة أيضاً هجمات الهايدماك وهجمات الفلاحين والأقنان تحت قيادة قوزاق من جماعة الزابروجيان من أتباع شميلنكي (مات عام ١٦٥٧)، كما شهدت كذلك تصارعاً بين جماعات القوزاق المختلفة. وانتهى الأمر بتقسيم أوكرانيا بين بولندا وروسيا والدولة العثمانية التي ضمت أجزاء من أوكرانيا، من ضمنها بودوليا، ظلت تحت الحكم العثماني حتى عام ١٦٩٩. ووقعت معاهدة السلام الأزلي بين روسيا وبولندا عام ١٦٨٦، ومع هذا اندلعت الحرب مرة أخرى ولم تنته إلا عام ١٧٠٩ حين انتصرت روسيا على السويد وبولندا.

وتحطَّم الاقتصاد البولندي تماماً في هذه المرحلة إذ توقفت تجارة الحبوب من خلال بحر البلطيق وانخفض مستوى المعيشة (كان مستوى معيشة المواطن البولندي عام ١٧٥٠ أقل منه عام ١٥٥٠)، وتدهورت المدن، وفقدت ثلاثة أرباع سكانها، وشهدت بولندا أسوأ تَضخُّم في تاريخها. وهبط عدد سكان بولندا إلى أربعة ملايين عام ١٦٦٨ وهو يعادل ٤٥٪ من عدد السكان قبل هذا التاريخ، ثم ارتفع العدد إلى أن بلغ ١١,٤٢٠,٠٠٠ في عام ١٧٧٢.

وكانت هذه المنطقة من أوربا تضم نصف يهود العالم تقريباً. وترى الدراسات الحديثة أن التصورات القديمة الخاصة بأن ثورة شميلنكي أبادت عشرات الألوف من اليهود واجتثت مئات الجماعات هي تصورات مبالغ فيها إذ أن أعداداً كبيرة من اليهود هربت ثم عادت بعد استقرار الأمور بعض الشيء. ومع هذا، ثمة اتفاق على أن هذه الهجمات، ثم الصراعات العسكرية والاجتماعية التي تلتها، أدَّت إلى ضعضعة الوجود اليهودي في بولندا وخلقت جواً من الذعر وعدم الطمأنينة.

ورغم أن أعضاء الجماعة اليهودية قاموا بمحاولة إعادة البناء بمساعدة الملك جون كاسيمير (١٦٤٨ ـ ١٦٦٨)، إلا أن نفوذه كان ضعيفاً، كما أن رأس المال اليهودي كان قد تبدَّد إلى حدٍّ كبير. وكذلك كان عدم الاستقرار سائداً. ولذا، لم تنجح التجربة هذه المرة، وازدادت الأعباء المالية الملقاة على كاهلهم وعلى كاهل مجالس القهال، وبدأ نمط الهجرة الحديثة بين أعضاء الجماعات، الهجرة من البلاد المتخلفة في شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة في غربها والهجرة الاستيطانية إلى العالم الجديد.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، كان البناء الطبقي والوظيفي لأعضاء الجماعة اليهودية على النحو التالي:

٢ ـ ٣٪ من كبار التجار.

٤٠٪ من صغار التجار وضمن ذلك مستأجرو الحانات ويهود الأرندا.

٣٣٪ من الحرفيين.

١٠٪ من الحرف المرتبطة بنشاطات الجماعة اليهودية.

١٥٪ من الفقراء والعاطلين والمتسولين.

وكان معظم الجماهير اليهودية في تلك المرحلة قد ابتعد عن مراكز الدراسات التلمودية والتقاليد الثقافية الحاخامية التي كانت قد بدأت تفقد صلتها بالواقع، وأصبحت غير قادرة على الاستجابة للحاجة الروحية لدى الجماهير اليهودية، الأمر الذي أدَّى إلى انتشار القبَّالاه. ورغم أن اليهود كانوا وسطاء ممثلين للإقطاع البولندي، فإنهم اكتسبوا كثيراً من صفات الفلاحين الأوكرانيين والبولنديين بكل خرافاتهم ونزعاتهم الدينية الغيبية، بل وتأثروا بتقاليدهم الدينية المسيحية، خصوصاً بجماعات المنشقين الدينيين الروس وبالخليستي على وجه التحديد. وتزامن ظهور الحركة مع التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي إذ طُرد كثير من يهود الأرندا وأصحاب الحانات من القرى والمدن الصغيرة. وتسبَّب كل ذلك في ازدياد تغلغُل الرؤى القبَّالية، الأمر الذي جعل أعضاء الجماعة اليهودية تربة خصبة للنزعات المشيحانية. ولذلك، ترك شبتاي تسفي أعمق الأثر في بعض قطاعاتهم، وأصبحت بولندا، خصوصاً بودوليا، مركزاً للحركات الشبتانية والفرانكية على وجه الخصوص.

وفي نهاية الأمر، ظهرت الحسيدية في المناطق الزراعية في بولندا التي ضُمَّت فيما بعد إلى روسيا وهي أوكرانيا وروسيا البيضاء. وكانت القيادة الاجتماعية للحركة الحسيدية هي الطبقة الوسطى الصغيرة من بقايا يهود الأرندا ومستأجري الحانات وأصحاب المحال الصغيرة والباعة المتجولين. والحسيدية حركة دينية حلولية تنادي بالتواصل مع الخالق مباشرة، بل والالتصاق به، متجاوزة بذلك المؤسسات الدينية التقليدية، كما أنها تؤكد أهمية التجربة الصوفية والإحساس بالنشوة بشكل يجعلها معادية للنزوع العقلي أو الذهني المجرد للمؤسسات التلمودية. ولكن هذه النزعات نفسها ساهمت في تخفيف البؤس على الجماهير. وأحلَّت الحسيدية التساديك محل الحاخام، والتساديك شكل من أشكال القيادة الكاريزمية في وقت كانت القيادات الحاخامية قد تخلَّت فيه عن مسئوليتها. والتساديك على عكس الحاخام ملتصق بمريديه، يعرف مشاكلهم وبوسعه أن يُدخل على قلوبهم الطمأنينة.

ازداد الصراع بين أعضاء الجماعة والبورجوازية البولندية، فصدرت عام ١٧٢٠ تشريعات حدَّت من النشاط التجاري لليهود. وهذا الصراع إحدى السمات الأساسية للوجود اليهودي في بولندا، فنتيجةً للتاريخ الاقتصادي المنفصل لأعضاء الجماعة، أي لكونهم جماعة وظيفية وسيطة وأعواناً للأرستقراطية وعملاء لها في إطار الإقطاع الاستيطاني ونظام الأرندا، ونتيجة عزلتهم الحضارية وكونهم عنصراً غريباً مستقلاً، كان من الصعب إنشاء تحالف بينهم وبين البورجوازية البولندية، الأمر الذي كان يعني أن يظل اليهود منذ البداية خارج نطاق النضال الثوري. وقد أُلغي مجلس البلاد الأربعة عام ١٧٦٤. وبلغ عدد يهود بولندا في ذلك العام ٧٤٩,٩٦٨ يهودياً (منهم ٥٤٨,٧٧٧ في بولندا و٢٠١,١٩١ في ليتوانيا) يعيش معظمهم في المدن. وإذا عرفنا أن نصف مليون بولندي فقط كانوا يعيشون في المدن لتبيَّن لنا أن سكان المدن، خصوصاً المدن الصغيرة، كانوا أساساً من اليهود.

ووقع التقسيم الأول لبولندا عام ١٧٧٢ والثاني عام ١٧٩٣. وحدثت محاولة لإصلاح اليهود كما نُشرت دراسات ومشاريع تهدف إلى تحديث اليهود ودمجهم في الأمة البولندية، وتمت مناقشة المسألة اليهودية في البرلمان البولندي (١٧٨٨ ـ ١٧٩٢)، ولكن قامت معارضة شعبية لعملية الدمج هذه. وشُكِّلت لجنة عام ١٧٩٠ لبحث المسألة اليهودية قررت وجوب إلغاء ديون القهال أولاً ثم إخضاع أعضاء الجماعة لعملية التنوير.

وأدَّى تقسيم بولندا إلى تقسيم أعضاء الجماعة فيها، فتم ضم عدد من يهود بوزنان إلى بروسيا، وأصبحت جاليشيا تابعة للإمبراطورية النمساوية، وتم ضم يهود المقاطعات الشرقية إلى روسيا.

وحينما اندلعت ثورة كوشتشوكو القومية، اشترك فيها اليهود إلى جانب البولنديين. وكانت مثل هذه اللحظات النادرة من الكفاح

الوطني المشترك بوتقة الصهر التي كان يتم من خلالها وإبانها دمج الجيوب الإثنية والدينية المختلفة في التشكيلات القومية، ولكن لم يُقدَّر لهذه اللحظات أن تتكرر في حالة يهود بولندا. ولم يُقدَّر للاتجاه الاندماجي الاستمرار لعدة أسباب:

١ ـ كان الاندماجيون بين اليهود شريحة اجتماعية صغيرة للغاية، تَوجُّهها الثقافي بولندي ويتركز معظم أعضائها في وارسو أو في غيرها من كبريات المدن. أما الجماهير اليهودية العريضة، فكانت جماهير فقيرة تتحدث اليديشية ولم تتأثر بالقيم التحديثية والقومية الجديدة، كما كانت تعيش داخل مدنها الصغيرة (الشتتل) بمعزل عن الحضارة القومية. وكانت أعداد الجماعة اليهودية في بولندا من الضخامة بحيث أن اليهودي كان يُولَد ويكبُر ويموت دون أن يضطر إلى الاحتكاك بشكل دائم ويومي مع الحضارة الأم. وأصبحت الجماهير اليهودية ذات ثقافة فلاحية طابعها مسيحي. وحينما نقول ثقافة فلاحية في بولندا، فنحن نقصد أنها ثقافة متخلفة إلى حدٍّ ما، ومنعزلة عن الثقافة العالية وضمن ذلك الثقافة التلمودية نفسها. فانتشرت بين اليهود المعتقدات الشعبية والخرافات، وهو ما جعلهم أقل تَقَبُّلاً لمحاولات التحديث والتنوير. ومما ساهم في زيادة الوضع سوءاً الانفجار السكاني بين أعضاء الجماعة اليهودية.

٢ ـ ومن أهم العناصر التي أفشلت محاولات الاندماج ميراث الجماعة اليهودية التاريخي والاقتصادي والذي جعلها بمعزل عن التطور القومي البولندي، بل ووضعها في مجابهته وجعل يهود بولندا أعداءً لكل الطبقات الأخرى باستثناء بعض قطاعات من طبقة النبلاء. ومعنى هذا أنه كان هناك أساس ثقافي واقتصادي قوي للمواجهة بين البورجوازية البولندية وأعضاء الجماعة اليهودية يحتاج إلى فترة طويلة من الكفاح القومي المشترك حتى يتسنى التوصل إلى أساس مشترك للكفاح والاندماج.

كان أعضاء الجماعة مركزين في مناطق حدودية تتصارع عليها دول ذات ثقافات مختلفة بل ومتصارعة، فكان هناك أولاً بولندا نفسها، ثم روسيا التي كانت تشجع الثقافة الروسية وعمليات الترويس. ومن الناحية الأخرى، كان هناك ألمانيا والنمسا ذات الثقافة الألمانية. وكان اليهود أنفسهم يتحدثون اليديشية وهي رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات سلافية. وبعد كل تقسيم، كان يتعيَّن على اليهود، كنوع من الدواعي الأمنية، إعادة صياغة أنفسهم بما يتفق مع ثقافة الدولة المهيمنة. وقد نشأ، على سبيل المثال، صراع داخل شريحة المثقفين اليهود في جاليشيا بين كل من دعاة العبرية والألمانية والبولندية واليديشية.

ومثل هذا الجو، الذي لا يتسم بالتحدد الثقافي، لا يساعد كثيراً على تحديد شخصية اليهود الثقافية ولا على الولاء أو الانتماء القومي.

القوزاق

«قوزاق»، من كلمة «كازاك»، وهي كلمة تركية مشتقة من كلمة «خزر»، وكلمة «خزر» مترادفة في لغات شرق أوربا مع «تتري» و«تركي» و«مغولي» و«الساراسين» أي المسلم. ولكنها، مع القرن السادس عشر الميلادي، كانت تشير إلى جماعات من الأقنان السلاف المسيحيين الذين فروا من ضياع النبلاء البولنديين في أوكرانيا واستقروا في أراضي الإستبس على ضفاف نهري الدنيبر والونيستر وفي شبه جزيرة القرم. ويبدو أنهم كانوا من أصل روسي تجري في عروقهم دماء مغولية وتترية، وكانوا يؤمنون بالأرثوذكسية التابعة لبابا روما.

وينقسم القوزاق إلى قسمين: القوزاق الأوكرانيون أو قوزاق المدن، وهؤلاء كانوا يعيشون إلى جوار المدن كما كانوا أكثر تحضراً، أما القسم الآخر فكان هو القوزاق الزابروجيان. وهؤلاء كانوا مستقلين تماماً ويعيشون خلف نهر الدنيبر (كلمة «زابروج» تعني «عبر النهر»)، وكان تنظيمهم الاجتماعي زراعياً عسكرياً، كما كانوا يعيشون في مراكز محصنة تُسمَّى «السيخ»، وكانت بمنزلة معسكر وسوق ومركز إداري. وكان السيخ مستقراً نسبياً ويقام في جزر في نهر الدنيبر. وقد كان كل من قوزاق المدن وقوزاق الزابروجيان على علاقة وطيدة.

ومن الإشكاليات الأساسية، التي كانت تواجهها ثورات الفلاحين في دول أوربا، عدم وجود أرض عذراء تمكن زراعتها. ولذا، كانت هذه الثورات تبوء بالفشل. ولكن بالنسبة إلى هؤلاء الفلاحين القوزاق المتمردين، فإن مساحات الإستبس الشاسعة كانت تشكل مجالاً حيوياً لهم. ومكَّنهم ذلك من الإفلات من مصير معظم ثورات الفلاحين، ومن ثم فإنهم نجحوا في تأسيس جمهورية حرة (جمهورية القوزاق الزابروجيان) تخضع للتنظيم العسكري حيث كان كل مواطن جنديا وكان يقود الجيش والجماعة قائد يُسمَّى «أتمان». ولا ندري أيمكن أن يكون هؤلاء الفلاحون قد أطلقوا على أنفسهم اسم «قوزاق» باعتبار أنهم أحرار مثل التتار، ومن أعضاء القطيع الذهبي مثل المغول، أم أن النبلاء البولنديين سموهم بذلك الاسم احتقاراً لهم. وقد تزايدت صفوفهم بانضمام عناصر من سائر الأنواع والأجناس؛ من فقراء ونبلاء وتتر بل ويهود.

استفادت بولندا، في بداية الأمر، من جماعة قوزاق المدن في حماية حدودها ضد هجمات التتار والمغول. ولكن القوة الروسية الصاعدة تبنت قضيتهم وشجعتهم باعتبارهم وسيلة لفصل أوكرانيا عن بولندا التي كانت تستغلها عن طريق الإقطاع الاستيطاني ويهود الأرندا. وتحالف قوزاق المدن وقوزاق الزابروجيان تحت قيادة شميلنكي (أهم قادة القوزاق) الذي قاد الانتفاضة ضد الحكم البولندي ونجح في طرد البولنديين والاستقلال بأوكرانيا التي انضمت إلى روسيا القيصرية. واستخدم القياصرة جيوش القوزاق فيما بعد في غزواتهم وفي عمليات القمع الداخلي. وتُعدُّ جماعات الهايدماك أيضاً من جماعات القوزاق.

الهايدماك

«هايدماك» من الكلمة التركية «هايدا» بمعنى «ينتقل». والهايدماك جماعات شبه عسكرية من القوزاق والفلاحين قامت بالهجوم على التجار من سكان المدن في أوكرانيا البولندية في القرن الثامن عشر، وهي منطقة كانت تضم تجمعات يهودية كبيرة. وكانت صفوفهم تضم الأقنان الهاربين من نير الإقطاع البولندي إلى مناطق الإستبس، كما كانت تضم فقراء المدن وأبناء النبلاء الفقراء ورجال الدين وبعض أعضاء الفرق الدينية المهرطقة الهاربين من روسيا وبعض التتر المسلمين بل بعض اليهود أحياناً. والهايدماك نتاج التفاعلات الاجتماعية في أوكرانيا والتي بدأت في نهاية القرن السادس عشر ووصلت إلى قمتها مع الانتفاضة الشعبية التي قادها شميلنكي، والذي كان الهايدماك يعتبرون أنفسهم ورثته، ومن هنا كان عداؤهم للاستغلال ولأهل المدن واليهود. وابتداءً من عام ١٧٢٠، لم يمر عام دون أن تظهر جماعة منهم.

وفي عامي ١٧٣٩ و١٧٥٠، نجح الهايدماك في الاستيلاء على عدة مدن بولندية صغيرة في المنطقة الشرقية، وقتلوا عدداً من اليهود البولنديين. ولكن أسوأ المذابح وقعت عام ١٧٦٨ في مدينة أومان حين قُتل عشرون ألف بولندي من بينهم بضعة آلاف من اليهود، ولكن لا يمكن التحقق من دقة هذه الأعداد بسبب التهويل الذي يميل إليه الراصدون المعاصرون لتلك الأحداث.

وقامت الحكومتان البولندية والروسية بمقاومة الهايدماك حتى نجحتا في إخماد نشاطهم في نهاية الأمر. وأدَّت هجمات الهايدماك إلى تحطيم معنويات أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وإلى إفقا وتجذير الإحساس لديهم بعدم الطمأنينة وغياب الاستقرار.

المعبد/القلعة

«المعبد/ القلعة» هو معبد يهودي كان يُستخدَم للعبادة والقتال. والمعبد/ القلعة ظاهرة فريدة في تاريخ الطرز المعمارية لأماكن العبادة، إذ من المحتمل ألا يكون له أي نظير. وقد ظهر في بولندا، بخاصة في المناطق الحدودية التي تفصل بينها وبين روسيا. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون بالعبادة والدراسة في مثل هذه المعابد، التي كانت مصممة بطريقة يمكن استخدامها كحصون وقلاع عسكرية في آن واحد.

ونشأت الحاجة لمثل هذا الطراز من المعابد في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا. فقد وظَّف النبلاء البولنديون (شلاختا) بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عملية اعتصار أكبر قدر ممكن من الأرباح من الفلاحين الأوكرانيين. فأصبحت الجماعة اليهودية جماعة وظيفية من الوكلاء الماليين (أرنداتور) يعيشون في مدن خاصة بهم (شتتلات) منعزلين لغويا ودينيا واجتماعيا وثقافيا عن جماهير الفلاحين. وكانت الجماعة اليهودية محل سخط الجماهير وغضبها (كما هو الحال مع أعضاء الجماعات الوظيفية، خصوصاً العميلة) ولذا كانت القوات العسكرية البولندية تقوم بحمايتها من الجماهير ومن الانتفاضات الشعبية المحتملة. ومع هذا كان أعضاء الجماعة اليهودية يتدربون على السلاح، وكان عليهم الاحتفاظ بأسلحة بعدد الذكور القادرين على حملها، وبكمية معيَّنة من البارود (حسبما كانت تنص العقود المبرمة بين النبلاء البولنديين ووكلائهم اليهود).

وكانت هذه المعابد/ القلاع مصممة بطريقة تجعل بالإمكان استخدامها كمكان للعبادة والدراسة وكحصون وقلاع عسكرية. فكانت تُزوَّد بحوائط سميكة للغاية، كما أن المتاريس (حاجز السقف أو الشرفة) مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق، أثناء الاشتباك مع الجماهير. ومن أشهر المعابد/ القلاع معبد لتسك الذي بُني عام ١٦٢٦ لخدمة الأغراض العسكرية بالدرجة الأولى. وصدر قرار ملكي ببنائه كان ينص على ضرورة أن يلتزم اليهود بتزويد معبدهم هذا بكوات من الجهات الأربع وبالسلاح الكافي (على نفقتهم)، كما يجب أن يكون المعبد/ القلعة مزوداً بعدد من الرجال يكفي لصد الهجمات عليه. وصدر أمر لمعبد ريسيسوف بأن يزود نفسه بالبنادق والرصاص والبارود. وكانت المعابد/ القلاع تزود عادةً ببرج مراقبة ضخم (كان يُستخدَم في زمن السلم كسجن يُودَع فيه المجرمون من أعضاء اليهودية).

ونقاط التشابه بين المعبد/ القلعة والدولة الصهيونية أمر مثير للغاية، يستحق التأمل لدلالته وطرافته. لكل هذا فنحن نرى أن

المعبد/ القلعة خير رمز للدولة/ القلعة، بل ويمكن القول بأن النموذج كان كامناً وحسب في حالة المعبد/ القلعة، فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يحملون أساساً رأسمالهم (الربوي) وخبرتهم الإدارية معهم، وكانت عملية القتال موكلة للقوات العسكرية البولندية، وكان الهدف من حمل السلاح دفاعي ومؤقت لحين وصول هذه القوات. أما في حالة الدولة/ القلعة فقد اكتملت الأمور تماماً، وأصبح العنصر البشري العميل يحمل السلاح بالدرجة الأولى (فوظيفته المالية ثانوية بالنسبة لوظيفة الإستراتيجية القتالية) وظهرت الطبيعة العسكرية للدولة المعبد/ القلعة. ومع هذا لوحظ أثناء حرب ١٩٧٣ أن القوات الإسرائيلية كانت تشبه تماماً الجماعات اليهودية في أوكرانيا، إذ استمرت في القتال بشكل دفاعي ومؤقت لحين تشغيل الجسر الجوي ووصول الأسلحة المتقدمة من الولايات المتحدة.

تقسيم بولندا

من أهم الأحداث التاريخية التي تقع خارج نطاق ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي»، والتي أثرت في الجماعة اليهودية في شرق أوربا (يهود اليديشية) تأثيراً عميقاً، تقسيم مملكة بولندا في الفترة ١٧٧٢ - ١٧٩٥. كان التقسيم الأول عام ١٧٧٢ والثاني عام ١٧٩٣ والثالث عام ١٧٩٥. واستغرقت العملية خمسة وعشرين عاماً ثم مرت خمسة وعشرون عاماً أخرى حتى تم تثبيت الحدود.

التقسيم الأول (١٧٧٢):

ضمت روسيا المنطقة التي تعرف باسم روسيا البيضاء (بيلوروسيا) في شمال شرق بولندا. أما الأجزاء الجنوبية الغربية المعروفة باسم جاليشيا (أو روسيا الحمراء)، فضُمَّت إلى النمسا. كما ضمت بروسيا أجزاء من غرب بولندا، ففقدت بولندا بذلك ثُلث أراضيها وخُمس سكانها. وكان هذا يعني أن ثُلث يهود بولندا أصبحوا تحت حكم كل من النمسا وروسيا وبروسيا، وكانت أغلبيتهم في جاليشيا (التابعة للنمسا).

التقسيم الثاني (١٧٩٣):

زادت كل من روسيا وبروسيا ممتلكاتهما، فقسمتا نصف بولندا تقريباً فيما بينهما.

التقسيم الثالث (١٧٩٥):

تم تقسيم البقية الباقية من بولندا بين روسيا وبروسيا والنمسا. وأدَّى التقسيمان الثاني والثالث إلى توزيع ٨٠٠,٠٠٠ يهودي بين النمسا وبروسيا وروسيا.

التقسيم الرابع (١٨١٥):

ظهر نابليون عام ١٨٠٦ وأسس دوقية وارسو التي اقتطعها من الجزء الذي كان قد ضُمَّ إلى بروسيا عام ١٧٩٣، ثم ضم إليها أجزاء من المنطقة التي كانت النمسا قد ضمتها. ولكن، في مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥، رُسمت الخريطة السياسية فيما يعتبر التقسيم الرابع، فأبقت النمسا على جاليشيا، وضمت بروسيا ثورن والمناطق المجاورة التي اتحدت مع بقية المناطق البولندية التي ضمتها بروسيا وسميت دوقية بوزنان، وظهرت دولة كراكوف الحرة واستمرت حتى عام ١٨٤٦ حيث ضمتها النمسا إلى جاليشيا. أما روسيا، فاحتفظت بغنائمها التي حصلت عليها في التقسيمين الأول والثاني وضمت المقاطعات الجنوبية والغربية. أما الجزء الأوسط من بولندا، أي مقاطعة وارسو، فأصبح مملكة بولندا، وهي كيان سياسي شبه مستقل كان يتبع روسيا إلى أن أصبح مقاطعة روسية بعد عام ١٨٣١.

التقسيم الخامس (١٩٣٩):

بعد الحرب العالمية الأولى، والحرب الروسية ـ البولندية (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) ثم معاهدة ريجا بين روسيا وبولندا (مارس ١٩٢١)، تقررت حدود بولندا وأصبحت مضمونة بموجب معاهدة عدم الاعتداء السوفيتية البولندية (١٩٣٢) التي تم تجديدها سنة ١٩٣٤ لعشرة أعوام. ويرى بعض المؤرخين أن تقسيم بولندا بين ألمانيا وروسيا هو التقسيم الخامس، وهو التقسيم الذي تقرر بناءً على البنود السرية للاتفاق الألماني السوفيتي المؤرخ في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩. وفي أعقاب هذا الاتفاق، غزت القوات الألمانية الأراضي البولندية في الأول من سبتمبر ١٩٣٩، وغزت القوات السوفيتية شرق بولندا خارقة بذلك معاهدة عدم الاعتداء المجددة عام ١٩٣٤.

بولندا بعد التقسيم حتى الحرب العالمية الثانية

بعد تقسيم بولندا (١٧٧٢ـ١٧٩٥)، تم ضم أغلبية يهود بولندا إلى بلاد أوربية أخرى هي: النمسا وبروسيا وأساساً روسيا. وبحلول عام ١٨٢٨ كان ثلثا يهود بولندا يعيشون في مدن صغيرة (شتتلات) ويشكلون ٥٠٪ من سكانها، يعملون تجاراً صغاراً ويمارسون بعض الحرف مثل تقطير الخمور والصناعات المنزلية، خصوصاً النسيج، دون تَدخُّل كبير من الحكومة المركزية الضعيفة.

وبدأت عملية دمج أعضاء الجماعة اليهودية أو تحديثهم مع دخول نابليون بولندا عام ١٨٠٧ والذي منحهم حقوقهم المدنية وطبق عليهم القرارات نفسها التي طُبِّقت عليهم في فرنسا وهي أن الحقوق تمنح لليهود بمقدار استعدادهم للاندماج، ولذا حُجبت الحقوق

السياسية عنهم لمدة عشرة أعوام تُعَد فترة انتقالية كان عليهم أن يتخلصوا خلالها من سماتهم الخاصة وأن يندمجوا في بيئتهم. ثم عُقد، عام ١٨١٥، مؤتمر ڤيينا الذي حوَّل بولندا إلى مملكة مستقلة تحت حكم القيصر. وكان دستورها يتضمن بنوداً تحمي حقوق اليهود وتزيدها بمقدار اندماجهم في المجتمع. وكتب أحد الأساقفة البولنديين إلى المفكر الألماني اليهودي المستنير ديفيد فرايدلندر يسأله عن أفضل السبل لإصلاح (أي تحديث) يهود بولندا، فاقترح ضرورة تدريب اليهود على الحياة المتحضرة قبل إعطائهم حقوقهم المدنية، أي أنه اقترح عليه عملية التحديث الأوتوقراطي (من أعلى) والتي طُبِّقت في روسيا. بعد ذلك، كوَّن بعض اليهود الأثرياء (من التجار المندمجين وأعضاء المهن الحرة) لجنة المؤمنين بالعهد القديم عام ١٨٢٥ لتطوير التعليم اليهودي، وبالفعل تأسست مدرسة حاخامية حديثة.

وعلى مستوى التحديث الاقتصادي، أُلغي القهال عام ١٨٢٢، كما فُرضت ضريبة على تجار الخمور اليهود (وهذه من بقايا نظام الأرندا) حتى يتركوا هذه الوظيفة التي كانت تسبب سخط الجماهير ضدهم، ولتشجيعهم على الاشتغال بالزراعة. وقد ظهرت طبقة من المثقفين البولنديين اليهود، في وارسو أساساً، انتماؤهم القومي لبولندا أكثر تحدداً ووضوحاً. ومع هذا، لم يحرز أعضاء الجماعة اليهودية نجاحاً كبيراً في مجال محاولة الاندماج بسبب عدم اكتراث البورجوازية البولندية بهم وعدم ثقتها فيهم. كما يُلاحَظ أن اليهود خارج وارسو لم يُظهروا ميلاً كبيراً لعملية الدمج والتحديث. وصدر مرسوم روسي عام ١٨٦٢ أعطى اليهود حرية بيع وشراء الأرض والمنازل والسكنى أينما شاءوا، وأُبطل القَسَم اليهودي، كما مُنع استخدام العبرية واليديشية لتعميق دمجهم واندماجهم. وحينما اندلع تمرد عام ١٨٦٣، لم تشترك فيه أعداد كبيرة من اليهود، كما أن يهود ليتوانيا وقفوا ضده. وحينما بدأ الروس في التنكيل بالثوار، لم ينل اليهود منهم أي أذى، الأمر الذي أبعدهم عن الحركة القومية البولندية.

وفي عام ١٨٧٠، بدأت الحركة القومية البولندية تأخذ طابعاً معادياً لليهود (باعتبارهم جماعة وظيفية مالية)، فطالبت بصبغ التجارة والصناعة بالطابع البولندي، واتهمت رأس المال اليهودي بأنه غريب وبأن الجماهير اليهودية معادية للحضارة الحديثة جاهلة بها. وتم تأسيس أحزاب قومية شعبية بولندية جعلت الحرب ضد دمج اليهود هدفاً أساسياً لها، كما بدأت تظهر بين أعضاء الجماعة اليهودية الاتجاهات الصهيونية. وتجدر الإشارة إلى أنه، رغم تدني أحوال اليهود بشكل عام، كانت تُوجَد طبقة ثرية تشغل مراكز مهمة في التجارة الخارجية وفي تجارة الأخشاب والغلال وفي المهن الحرة.

ومع الحرب العالمية الأولى، كان وضع يهود روسيا وبولندا متشابهاً في كثير من النواحي، من أهمها الانفجار السكاني. ويُلاحَظ أنه، مع عام ١٧٧٢، كان في بولندا ٧٠٪ من يهود العالم وأكثر من ٨٠٪ من الأشكناز (وهو القطاع الذي أفرز الصهيونية ومعظم الحركات اليهودية الأخرى). وإذا وضعنا في الاعتبار أن اليهود الأصليين، في معظم دول أوربا، اندمجوا في السكان وكانوا لا يشكِّلون كثافة سكانية حقيقية، وأن أعدادهم تزايدت بسبب هجرة أعداد من يهود اليديشية، فيمكن القول بأن كل الجماعات اليهودية التي ظهرت في الغرب في القرنين الأخيرين هي من فروع يهود بولندا، وهو ما يجعل قول هتلر والأدبيات النازية حقيقياً حيث أعلن أن الجيب اليهودي في بولندا ومنطقة الاستيطان هو "المستودع البولندي الذي يُصدِّر الفائض البشري اليهودي وأنه يشكل البنية التحتية البيولوجية لليهودية العالمية".

وتذكر الموسوعة اليهودية أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يشكلون ٨,٦٪ من مجموع سكان بولندا عام ١٨١٦، ثم قفز العدد إلى ١٣٪ عام ١٨٩٧، أي أن كل مائة بولندي كان يُوجَد بينهم ثلاثة عشر يهودياً رغم هجرة أعداد كبيرة منهم إلى خارج بولندا. وتُعدُّ هذه من أعلى النسب التي حققها أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث. ورغم صعوبة تحديد الأعداد بدقة، باعتبار أن بولندا كانت مُقسَّمة، فيمكن بالاعتماد على عدة مصادر أن تُقرَّب إلى:

الدولــــة	سنة ١٨٢٥	سنة ١٩٠٠
روسيا قبل الحرب	١,٦٠٠,٠٠٠	٥,١٧٥,٠٠٠
بولندا	٤٠٠,٠٠٠	١,٣٢٥,٠٠٠
أوكرانيا، روسيا الجديدة، بيسارابيا	٦٢٥,٠٠٠	٢,٢٠٠,٠٠٠
يتوانيا وروسيا البيضاء	٣٥٠,٠٠٠	١,٤٥٠,٠٠٠
جاليشيا	٢٧٥,٠٠٠	٨١١,٠٠٠

وقد زاد عدد يهود أوربا ككل في تلك الفترة من ٢,٧٣٠,٠٠٠ إلى ٨,٦٩٠,٥٠٠، وبلغ عدد يهود بولندا عام ١٩٣٩ نحو ٣,٥١٠,٠٠٠.

ويمكن فهم عزلة يهود بولندا من الإحصاءات التالية:

في منتصف القرن التاسع عشر (حوالي عام ١٨٥٧)، كانت هناك ١٨١ مدينة بولندية منها ٨٨ (أي نحو نصفها أو ٤٨,٦٪ منها)

تضم أغلبية يهودية مطلقة. كما كان هناك ١٢٠ مدينة ٤٠٪ من سكانها يهود، أي أن ٦٦,٢٪ من مدن بولندا كانت ذات طابع يهودي فاقع. وكان ٩١,٥٪ من مجموع يهود بولندا يعيشون في المدن ويشكلون ٣٣٪ من سكانها مقابل ١٦,٤٪ من المواطنين. وكل هذا يعني استقطاباً كاملاً وعزلة تشبه من بعض الوجوه عزلة يهود الأرندا. لكن الصورة لم تتغير كثيراً مع نهاية القرن التاسع عشر. وفي بوزنان، قفز عدد أعضاء الجماعة اليهودية من ٢,٧٧٥ عام ١٨٦٥ (أي ١٢,٢٪ من مجموع سكان المدينة) إلى ١٦٦,٦٢٨ عام ١٩١٠ (أي ٤٠,٧٪ من سكانها). وفي عام ١٨٩٧، كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أكثر من ٥٠٪ من السكان في ٥٧ مدينة بولندية من واقع ١١٠ مدن. أما المدن التي كان يشكل اليهود أكثر من ٤٠٪ من سكانها، فكانت ٨١ مدينة. وحتى عام ١٩٢١، كان اليهود يشكلون ٤٠٪ من عدد السكان في ٩٩ مدينة (من واقع ١٩٦ مدينة). وتزايدت معدلات الهجرة بسبب الضغوط التي مارستها الحكومة على أعضاء الجماعة اليهودية ليتركوا الريف، وبسبب جاذبية المراكز الصناعية.

لكن تَركُّز يهود بولندا في المدن يعني أيضاً تركزهم في التجارة وعالم المال. ففي المدن البولندية، كان اليهود يشكلون ٩٠٪ وأحياناً ١٠٠٪ من التجار والحرفيين. وفي نهاية القرن التاسع عشر، كان ١٨ مصرفاً (من ٢٦ مصرفاً أساسياً في وارسو) في أيدي اليهود أو المسيحيين من أصل يهودي. وظهرت طبقة ثرية يهودية تستثمر في الصناعة، ولكن أغلبية يهود بولندا العظمى كانوا من صغار التجار الفقراء.

ورغم تَشوُّه البناء الطبقي لدى يهود بولندا فإنه، مع منتصف القرن، كان الاندماج الاقتصادي لأعضاء الجماعة يتزايد كما يتضح في الوظائف والمهن التي كانوا يشغلونها. ففي عام ١٨٥٧، كان ٤٤,٧٪ من جملة اليهود يعملون بالتجارة، مقابل ٢٥٪ فقط في الحرف اليدوية والصناعات. واختلفت النسبة قليلاً عام ١٨٩٧ إذ انخفض عدد العاملين بالتجارة إلى ٤٢,٦٪. ولكن الأهم من هذا أن عدد العاملين في الحرف والصناعات زاد إلى ٣٤,٣٪، كما زاد عدد التجار غير اليهود من ٢٧,٩٪ من مجموع التجار عام ١٨٦٢ إلى ٣٧,٩٪ عام ١٨٩٧.

وظهرت طبقة من المهنيين اليهود، خصوصاً في وارسو، حققت شيئاً من الحراك الاجتماعي. ولكن، مع تعثُّر التحديث في شرق أوربا، وبعد تطبيق بعض قوانين مايو ١٨٨٨ الروسية (عام ١٨٩١) في بولندا، تم طرد أعضاء الجماعة اليهودية من القرى وحُدِّد النصاب المسموح لهم به. ونتج عن ذلك إغلاق أبواب الحراك الاجتماعي أمام هؤلاء المهنيين اليهود. وقد جاءت من صفوفهم معظم الزعامات الصهيونية واليهودية الأخرى. ويُلاحَظ تَحوُّل أعداد كبيرة من يهود روسيا إلى طبقة عاملة صناعية داخل منطقة الاستيطان، وهي ظاهرة ظل يهود بولندا بمنأى عنها، فقد ظلوا تجاراً صغاراً وكباراً وحرفيين تشكل الطبقة العاملة بينهم نسبة صغيرة إن لم تكن ضئيلة.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان أعضاء الجماعة اليهودية محط شك القوات الروسية باعتبارهم متعاطفين مع الألمان. وبالفعل، حينما احتل الألمان بولندا عام ١٩١٧، تَحسَّن وضع اليهود قليلاً. واتجه الألمان نحو صبغ يهود بولندا بصبغة ألمانية بسبب زيادة العنصر الألماني في المناطق البولندية التي ضمتها ألمانيا. وصدر مرسوم عام ١٩١٦ يتضمن الاعتراف باليهود كطائفة دينية لا كطائفة عرْقية. وعارض الصهاينة هذا المرسوم. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، وجد اليهود أنفسهم في مفترق الطرق بين البولنديين والليتوانيين (في فلنا)، وبين البولنديين والأوكرانيين (في لفوف)، ثم بين البولنديين والبولشفيك خلال حرب عام ١٩٢٠. ولكن، مع استقلال بولندا (١٩١٨ ـ ١٩٣٩)، تم توحيد العناصر البولندية اليهودية، التي كانت تعيش تحت حكم ألمانيا وروسيا منذ التقسيم، مع بقية بولندا. وبذا، أصبحت بولندا تضم أكبر تَجمُّع يهودي في أوربا، حيث كان ٢,٨٤٥,٠٠٠ عام ١٩٢١ وزاد، نتيجة ضم بعض أراضي بولندا، إلى ٣,١٣٧,٠٠٠ (أي ٩,٨٪ من السكان عام ١٩٣١)، ثم وصل إلى ٣,٣٠٠,٠٠٠ مع نهاية هذه الفترة.

وعشية عام ١٩٢١، كانت نسبة تركُّز أعضاء الجماعة اليهودية في القطاعات الاقتصادية واضطلاعهم بمهن ووظائف معيَّنة يختلف بشكل جوهري عن النسبة على المستوى القومي، كما هو موضح في الجدول التالي:

المهنـــة	يهود	غير يهود
الزراعة	٩,٨٪	٨٠,٧٪
الصناعة والحرف اليدوية	٣٢,٢٪	٧,٧٪
التجارة والتأمين	٣٥,١٪	١,٥٪
النقل	٢,٧٪	١,٧٪
المهن الحرة	٤,٤٪	٢,٣٪

ويُلاحَظ أن ٣,٦٧٪ من يهود بولندا تركزوا في التجارة والتأمين والصناعة والحرف اليدوية مقابل ٢,٩٪ من البولنديين. وكان عدد التجار اليهود لا يزال ٢٠ ضعفاً مقارناً بعدد التجار غير اليهود. وتَملَّك اليهود ٧٤ ألف محل مقابل ١٢٣ ألف محل للبولنديين كافة. وكان ٧٦٪ من اليهود يعيشون في المدن ويشكلون ٣٠٪ من جملة سكان وارسو و٥,٣٥٪ من سكان لودز و٥,٣١٪ من سكان لفوف.

وضمنت معاهدة الأقليات في يونية ١٩١٩، التي وقعها الحلفاء المنتصرون ومعهم بولندا، حقوق الأقليات الدينية واللغوية ونصت على مساواتهم ببقية المواطنين، كما أعطت اليهود الحق في إدارة مدارسهم. وتم ضم هذه المعاهدة إلى الدستور البولندي الصادر عام ١٩٢١. كما نص دستور عام ١٩٣٥ على تساوي المواطنين كافة أمام القانون. ولكن الحقوق السياسية تختلف في كثير من الأحيان عن الوضع المتعين، فقد ازداد الوضع الاقتصادي لليهود تدنياً وبدأت الفلسفات الشمولية تسيطر على نظم الحكم في أوربا بأسرها، وخصوصاً في ألمانيا. واستولى جوزيف بيلسودسكي على الحكم في بولندا عام ١٩٢٦ عن طريق انقلاب. ولم يكن هذا الانقلاب معادياً بالضرورة لليهود، فقد نص دستور عام ١٩٣٥ على تَساوي المواطنين كافة أمام القانون. ولكن الجو العام، والبنية الثقافية والاقتصادية للمجتمع، كانا يلفظان اليهود، فظهر حزب بولندي متطرف ذو توجهات نازية طالب بمصادرة أموال اليهود وطردهم، وأصبح البرلمان البولندي نفسه منبراً لترديد الدعاية المعادية لليهود كعنصر غريب فائض يجب اجتثاثه من المجتمع البولندي. وزاد النشاط الاقتصادي للطبقة الوسطى البولندية في الثلاثينيات، وحاولت أن تحصل على نصيب متزايد من التجارة والمهن، وقامت بحركات مقاطعة للأعمال التجارية التي يمتلكها يهود بولندا وقفت وراءها الدولة. ولأن عملية التنمية في بولندا كانت تتم من خلال الدولة، أكبر ممول رأسمالي آنذاك، فإن عملية تضييق الخناق على أعضاء الجماعة اليهودية اكتسبت أبعاداً ضخمة، فقامت محاولة لاستبعاد أعضاء الجماعة من سلك الحكومة وبنوك الدولة والاحتكارات التي تمتلكها الدولة، مثل صناعة الطباق، واستبعادهم كذلك من سلك التجارة الخارجية (الذي كان مركزاً في أيديهم). وقامت حركات مقاطعة أيضاً في المهن الحرة والحرف اليدوية. وبسبب توجهها القومي الواضح، ألقت الكنيسة الكاثوليكية في بولندا بثقلها وراء الحركات الشعبية المناهضة لليهود. وكانت كل هذه الحركات تهدف إلى طرد أعضاء الجماعة اليهودية من قطاعات اقتصادية معيَّنة، وهو أمر ممكن من الناحية النظرية، ولكن لم يقابله اتجاه مماثل نحو خلق فرص اقتصادية جديدة في مجالات أخرى. والواقع أن الهدف كان طرد اليهود ونقلهم لا دمجهم في المجتمع. ومن هنا كان تأييد الحكومة البولندية للحركة الصهيونية ولجهودها الرامية إلى تهجير اليهود إلى فلسطين. وقد بلغ عدد العاطلين عن العمل بين اليهود ٣٠٠ ألف عام ١٩٣٨. ولذا، شهدت هذه المرحلة استمرار الهجرة من بولندا، حيث بلغ عدد الذين هاجروا في الفترة ١٩٢١ - ١٩٣٧ نحو ٢٣٥,٣٩٥ هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فلسطين. ومع هذا بلغ عدد اليهود ٢٠٠,٣ مليون عام ١٩٣٩ عشية الغزو النازي.

ورغم تردِّي وضع اليهود، فإن العناصر الليبرالية وقفت إلى جانب أعضاء الجماعة، وكان ثمة أحزاب سياسية تنادي بالمساواة أمام القانون انخرطت في سلكها عناصر يهودية. كما يبدو أن معاداة اليهود لم تجد طريقها إلى صفوف الطبقة العاملة البولندية، خصوصاً العناصر الثورية. ونظم حزب البوند عدة إضرابات من أجل حقوق اليهود أيَّدتها عناصر بولندية مسيحية. ولكن، مع هذا، كان تأييد اليهود الليبراليين والثوريين تأييد أقلية لأقلية. وكما نوهنا من قبل، كان وضع اليهود داخل التشكيل القومي البولندي وضعاً قلقاً يستند إلى تراث تاريخي معاد للجماهير ومصالحها.

وقد اتجه المجتمع البولندي، شأنه شأن معظم المجتمعات الأوربية في تلك الفترة، نحو مزيد من التطرف والاستقطاب. ففي مقابل التطرف القومي البولندي، بدأ أعضاء الجماعة اليهودية يتجهون نحو مزيد من الانفصال فكان لهم ما يُسمَّى بالنادي البرلماني اليهودي (وهو جماعة ضغط تضم كل الممثلين اليهود داخل البرلمان البولندي). وهذه الجماعة كان لها ثقلها ووزنها العددي، ولذا كانت الحكومات البولندية تحاول خطب ودها لضمان تأييدها. وقد سيطر أتباع الصهيونية العامة على هذا النادي، فكانوا يشكلون عام ١٩٢٢ نحو ٥٠٪ من جملة النواب اليهود. وازداد الوضع تطرفاً، فمع الثلاثينيات يُلاحَظ أن الصهاينة العماليين والتصحيحيين هم الذين استولوا على القيادة في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣)، وهم عناصر متطرفة من منظور الاندماج في المجتمع البولندي، رافضون له تماماً ولا يرون حلا للمسألة اليهودية إلا بتهجير اليهود من بولندا بل إخلاء أوربا من فائضها اليهودي، أي أنهم كانوا يشكلون فرقة تطالب بحل نهائي وجذري للمسألة اليهودية. ويُلاحَظ أن الأحزاب الصهيونية في بولندا كانت أقوى الأحزاب الصهيونية في العالم. وإلى جانب الأحزاب الصهيونية، كان يُوجَد حزب البوند الذي أصبح من أهم الأحزاب اليهودية في بولندا إن لم يكن أهمها على

الإطلاق، بل إنه كان أكثر قوة من الصهاينة. ولكن يبدو أنه كان يعبِّر عن قوته السياسية من خلال تحالفات مع الأحزاب السياسية (غير اليهودية) الأخرى. وإلى جانب هاتين القوتين، كانت هناك أحزاب دينية تقليدية تحاول الانسحاب من المجال السياسي أو تكتفي بتأييد الوضع القائم.

ولم يكن عدم التجانس مقصوراً على المجال السياسي، وإنما شمل المجال الثقافي كما يتضح من النظم التعليمية اليهودية المنفردة في منتصف الثلاثينيات. وقد كان للحركة الصهيونية شبكة من المدارس تضم مدرسة زراعية للتدريب على الاستيطان ومدارس حضانة وابتدائية وثانوية. كانت لغة التدريس فيها العبرية كما كان عدد الطلبة فيها ٤٤,٧٨٠ طالباً. وكانت هناك شبكة أخرى تشرف عليها مؤسسة زيشو (الاختصار البولندي لمصطلح: المنظمة المركزية للمدارس اليديشية) وهي شبكة مشبعة بالروح الاشتراكية والثقافية اليديشية، وكانت لغة الدراسة فيها هي اليديشية، وكان عدد الطلبة في هذه الشبكة ١٥,٤٨٦ ألفاً. كما كان يوجد عدد من المدارس التجارية لغة الدراسة فيها هي اليديشية. وكان هناك شبكتان من المدارس الدينية يشرف على الأولى منظمة المزراحي (الدينية الصهيونية) تضمان عدة مدارس دينية ابتدائية وثانوية وكليات دراسات دينية عليا، وكانت لغة التدريس في هذه المدارس العبرية والبولندية. وأخيراً، كانت هناك شبكة دينية تتبع المؤسسة الدينية الأرثوذكسية لغة التدريس فيها اليديشية.

وإلى جانب ذلك، كان هناك اليهود الذين التحقوا بالنظام التعليمي الحكومي. وقد تلقَّى هؤلاء الدروس بالبولندية. ففي إحصاء عام ١٩٣١، قرَّر ٣٨١,٣٠٠ يهودي أن لغتهم الأصلية البولندية، كما كان هناك أولئك الذين سافروا إلى غرب أوربا للدراسة.

بولندا من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

انحسرت موجة معاداة اليهود بعد الهجوم النازي على براغ عام ١٩٣٩، وانخرط اليهود في سلك الجيش البولندي للدفاع عن الوطن، وقامت السلطات البولندية بالقبض على زعماء الجماعات المعادية لليهود. وفي العام نفسه، تم تقسيم بولندا إذ ضم الاتحاد السوفيتي رقعة من بولندا تضم ثُلث سكانها وعدداً كبيراً من اليهود يبلغ ١,٣٠٩,٠٠٠. أما بقية بولندا، فخضعت للنفوذ الألماني. وضمت ألمانيا الجزء الغربي متضمناً مدينة لودز الصناعية. أما باقي بولندا، فكانت تحكمه حكومة بولندية تابعة لألمانيا تُسمَّى «الحكومة العامة». وكانت المنطقة الأولى تضم ٦٣٢,٠٠٠ يهودي، أما منطقة الحكومة العامة فكانت تضم ١,٢٦٩,٠٠٠ زاد إلى ١,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤١ (أي ١٢,١٪ من السكان). وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد اليهود الخاضعين لحكم النازي كان يبلغ ٢,٠٤٢,٠٠٠.

وقد حول النازيون التمييز العنصري إلى عملية منهجية منظمة من خلال مجموعة من القوانين تم إصدارها لهذا الغرض. وكان كثير من هذه القوانين تهدف إلى تسخير قطاعات الشعب البولندي كافة لخدمة النظام النازي، ولكننا سنقتصر هنا على الإشارة إلى تلك القوانين التي تخص أعضاء الجماعة اليهودية. وقد صدر مرسوم عام ١٩٣٩ فرض أعمال السخرة على اليهود وتم بمقتضاه تكوين فرق عمالة يهودية. وكان على اليهود الذين يزيد عمرهم على عشرة أعوام أن يعلقوا نجمة داود. كما صودرت أموال عديد من اليهود.

ولكن أهم أعمال النازيين في هذا المضمار تأسيس جيتو وارسو، وكان مؤسسة من مؤسسات الحكم الذاتي ينطلق من الإيمان الصهيوني بأن اليهود شعب عضوي وأن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (تعريف قوانين وورمبرج وقانون العودة) وكانت علاقة الدولة النازية بجيتو (دويلة) وارسو علاقة استغلال استعمارية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمصر أو علاقة الدولة الصهيونية بالضفة الغربية.

وقامت حركة مقاومة بولندية قوية ضد النازيين اشترك فيها أعداد من اليهود، ونظمت انتفاضة جيتو وارسو في أبريل عام ١٩٤٣. ولكن، يبدو أن الصهاينة لم يشتركوا في هذه الانتفاضة بصورة كافية بدعوى أن حل مشكلة اليهود لا يتم داخل إطار الوطن الأم وإنما عن طريق الهجرة إلى فلسطين.

ومع نهاية الحرب، بلغ عدد يهود بولندا ٢٥٠,٠٠٠ (وفي إحصاء آخر أنهم كانوا أقل من ذلك بكثير)، وحلت الأحزاب الصهيونية البولندية والبوند عام ١٩٤٩، سُمح للصهاينة بالهجرة، وبدأت نقط التجمع السكانية اليهودية في الاختفاء. ورغم إعادة توطين ٢٥ ألف يهودي بولندي من الذين فروا من بولندا إلى الاتحاد السوفيتي إبان الحرب، إلا أن أبواب الهجرة إلى إسرائيل فُتحت، فهاجر ١٤٠ ألفاً بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٨ (ويتضمن هذا الرقم اليهود ممن أُعيد توطينهم في بولندا بعد فرارهم إلى الاتحاد السوفيتي إبان الحرب). وتمت تصفية الجماعة اليهودية نهائياً بين عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ حين هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى إسرائيل والولايات المتحدة، بحيث لم يبق في بولندا سوى ستة آلاف يهودي.

ويبلغ عدد يهود إسرائيل من أصل بولندي نحو ٤٧٠ ألفاً؛

منهم ١٧٠ ألفاً هم من هاجروا قبل عام ١٩٤٨ (ونسلهم)، والباقون (٣٠٠ ألف) هم من هاجروا بعد ذلك التاريخ. ومعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة في إسرائيل من أصل بولندي، أي من يهود اليديشية، فمنهم بن جوريون وبيجين وشامير وبيريس. وإذا أضفنا إلى هؤلاء أعضاء النخبة من أصل روسي، وهم أيضاً من يهود اليديشية، فيمكن القول بأن نخبة من يهود اليديشية تحكم إسرائيل.

وقد استفادت البقية الباقية من أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا من جو الانفتاح السياسي والاقتصادي في شرق أوربا، ومن الدعم الغربي لنقابة التضامن. ولكن جو الانفتاح أدَّى أيضاً إلى تَصاعُد القومية البولندية وثيقة الصلة بالكاثوليكية وهو ما أدَّى إلى الصدام مع الجماعة اليهودية داخل وخارج بولندا، خصوصاً بشأن قضية الإبادة، إذ تحاول المؤسسة الصهيونية احتكار رموز الإبادة وفرض مضمون صهيوني عليها، الأمر الذي يرفضه البولنديون الذين ذاقوا الأمرَّين من النازي، ربما بدرجة تفوق ما لحق بأعضاء الجماعات اليهودية.

أوكرانيا

تُعد أوكرانيا من أهم المناطق المرتبطة بتجربة الجماعات اليهودية في شرق أوربا. وكان يهود أوكرانيا يشكلون واحدة من أكبر الجماعات اليهودية في أوربا حتى منتصف القرن العشرين. يعود استقرار اليهود فيها إلى القرن التاسع مع توسُّع إمبراطورية الخزر، لكن توسُّع الاستيطان يعود إلى منتصف القرن السادس عشر، مع بدايات الاستيطان الإقطاعي البولندي فيها. فالنبلاء البولنديون قاموا بتوطين عناصر يهودية تجارية في المنطقة لتطويرها. وفي نهاية القرن السادس عشر بلغ عدد اليهود في أوكرانيا ٤٥ ألفاً من مجموع ١٠٠ ألف يهودي في بولندا، وقبل هجمات شميلنكي وصل العدد إلى ١٥٠ ألفاً. ويهود أوكرانيا من أهم قطاعات يهود اليديشية، وهم يتسمون بالتميز الوظيفي، حيث كان ٩٠٪ ممن يعملون في تقطير الخمور عام ١٨٧٢ من اليهود. وفي عام ١٨٩٧ كان البناء الوظيفي ليهود أوكرانيا على النحو التالي:

٢,٤٣٪ في التجارة.

٢,٣٢٪ في الحرف والصناعات (الخفيفة أساساً).

وأوكرانيا هي المنطقة التي ولدت فيها جمعية أحباء صهيون وكثير من المؤسسات الصهيونية الأخرى. وقد بلغ عدد يهود أوكرانيا عام ١٩٢٦ نحو مليون ونصف وظلوا يتناقصون حتى وصلوا إلى ٢٧٦ ألفاً عام ١٩٩٥. وقد أباد النازيون عدة آلاف من أعضاء الجماعة اليهودية. ورغم أن أوكرانيا كانت من أهم مراكز الثقافة اليدشية فلم يعد هناك متحدثون باليديشية إلا من كبار السن، وبسبب ارتفاع مستوى التعليم فيها يفضل اليهود الهجرة منها للولايات المتحدة على الهجرة لإسرائيل.

ليتوانيا

يعود وجود اليهود في ليتوانيا إلى القرن الرابع عشر حين كان معظمهم من القرائين وهو ما يشير إلى أصولهم الخزرية، وقد بلغ عدد اليهود في فلنا وجرودنو وكوفنو عشرة آلاف عام ١٤٩٥ وكان معظمهم من الإشكناز الذين استوطنوا في بلد متخلف. ووصل عددهم عام ١٧٦٦ حوالي ١٥٧ ألفاً. وقد منحوا ميثاقاً لحمايتهم وضمان حريتهم عام ١٣٨٨، وسرعان ما احتكروا التجارة الدولية وجَمْع الضرائب، ومع هذا تم طردهم بين ١٤٩٥ ـ ١٥٠٢، وتم السماح لهم بالعودة عام ١٥٠٣ وأعيدت إليهم حقوقهم. وكان يهود ليتوانيا ممثَّلين في مجلس البلاد الأربعة وشكلوا مجلسهم الخاص عام ١٦٢٣. وكان يهود ليتوانيا بعيدين عن هجمات شميلنكي وهو ما ضمن لهم الاستمرار. ومنذ عام ١٧٩٥ حتى عام ١٩١٨ كانت ليتوانيا جزءاً من روسيا وكانت حينذاك مركزاً مهماً لليهود الإشكناز. وبعد عام ١٩٢٤ تقلَّص حق الإدارة الذاتية لليهود واقتصر على الشئون الدينية وحسب. وقد بلغ عدد يهود ليتوانيا عام ١٩٦٠ حوالي ٢٥ ألفاً، وبلغ عددهم عام ١٩٩٢ حوالي ٦٥٠٠ يهودياً. وكثير من القيادات الصهيونية كانوا من يهود ليتوانيا، وتوجد داخل إسرائيل الآن قطاعات من المؤسسة الدينية يطلق عليهم «الليتوانيون».

جاليشيا

«جاليشيا» عاصمة منطقة جنوب بولندا وشمال غربي أوكرانيا. حينما احتلت القوات النمساوية جاليشيا عام ١٧٧٢ كان عدد اليهود بها حوالي ١٥٠ ألفاً، وطبقت النمسا قوانين تهدف لإنقاص عدد اليهود من خلال تقليص نشاطهم الاقتصادي. وتغيَّر هذا الاتجاه حينما بدأ جوزيف الثاني حكمه بمحاولة تحديث أعضاء الجماعات اليهودية فصدرت قوانين تحظر عليهم الاشتغال بمهن معينة كبيع الخمور وجمع الضرائب. وفُتحت المدارس العلمانية الحكومية للأطفال اليهود وتم تشجيعهم على العمل بالزراعة وأصبح لهم حقوق مساوية لحقوق المواطنين. وبعد ثورة ١٧٤٨ بدأت أحوال أعضاء الجماعات اليهودية تتحسن بشكل أفضل فمُنحوا الحقوق

السياسية والمدنية كافة عام ١٨٤٩ وشاركوا في الحياة السياسية. وتحسنت أحوالهم الاقتصادية فاستثمر أثرياؤهم في مجالات عديدة والتحقوا بالوظائف الحكومية. ولم ينجح هذا الاتجاه بسبب ظهور جيوب يهودية اقتصادية مغلقة، وخلق هذا موقفاً صراعيا واستُبعد أعضاء الجماعات اليهودية من الأعمال التجارية رغم أنهم بالأساس عنصر تجاري. ومما زاد الأمور تعقيداً تزايُد أعضاء الجماعات اليهودية إذ وصلوا عام ١٨٩٠ إلى ٧٦٨ ألفاً، ثم إلى ٨٧١ ألفاً عام ١٩١٠. ولم تكن عمليات التحديث تتم برضا الجماهير بل رغماً عنهم وأدى فشلها إلى انصراف أعضاء الجماعات اليهودية عن المدارس الحكومية العلمانية. وانتشرت الحسيدية في جاليشيا في منتصف القرن التاسع عشر وانضموا إلى الأرثوذكس في الحرب ضد دعاة التنوير. ولعبت الضائقة الاقتصادية دوراً في الانفجار السكاني، وأدت هذه الأسباب مجتمعة إلى ضعف القيم وتيسير ظهور الدعارة، وكانت جاليشيا مصدراً مهماً للبغايا. وقد أسَّست أحباء صهيون فرعاً لها في جاليشيا وبدأت تظهر التكوينات الصهيونية الأخرى.

رومانيا

جمهورية أوربية ذات أهمية خاصة في دراسة تاريخ الجماعات اليهودية في أوربا، لا بسبب حجم الجماعة اليهودية، الذي كان كبيراً بالقياس إلى حجمها في دول أخرى، إنما بسبب تاريخ رومانيا نفسه، ونتيجة انتقالها الفجائي من اقتصاد العصور الوسطى التقليدي إلى اقتصاد صناعي ودولة مركزية. وهذه الفجائية توضح للدارس العملية التاريخية التي حولت الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية إلى طبقة وسطى.

بلغ أعضاء الجماعات اليهودية في رومانيا نحو ١١٢ ألفاً عام ١٨٠٣ ثم وصل إلى ٢٦٦ ألفاً عام ١٨٨٠، وفي بعض المدن كانت نسبة اليهود تصل إلى ٦٠٪. ولم يكن يهود رومانيا عنصراً واحداً متجانساً إذ كان فيها يهود من أصل بولندي أوكراني ويهود نزحوا إليها من البلقان إلى جانب أقلية سفاردية، كما ضمت مناطق أخرى كانت تضم جماعات يهودية أخرى.

كان معظم يهود رومانيا يتركزون في المدن وكانوا الجماعة الوظيفية التي شغلت الفراغ الناجم عن وجود طبقة وسطى محلية فكانوا يتركزون في التجارة وبعض الحرف، كما كان لهم وجود ملحوظ في القطاع الصناعي. ورغم غياب أعضاء الجماعة اليهودية عن الريف فقد لعبوا دوراً ملحوظاً في اقتصادياته حيث احتكروا صناعة تقطير الخمر وتجارته كما عملوا في إقراض الفلاحين بالربا. وقد اجتاحت التغييرات رومانيا وإن كانت وصلتها في وقت متأخر، وأدت التغييرات إلى خلخلة وضع الجماعات اليهودية بشكل حاد، وقد أخذ التغيير شكل وضع كثير منهم تحت حماية الدول العظمى فأصبح معظم يهود أوربا أجانب شكلاً وموضوعاً وارتفعت بينهم معدلات العلمنة.

وبعد فترة من الثورات والقلاقل ظهرت حركة قومية رومانية وبدايات طبقة وسطى وظهرت معاداة اليهود ونشبت عام ١٩٠٧ ثورة الفلاحين التي راح ضحيتها اليهود عملاء النبلاء الرومانيين. ومع الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات لجأت الحكومة لمنع اليهود من العمل في قطاعات الإعلام والفن للتعبير عن الهوية القومية الرومانية، وفي ١٩٣٨ صدر قانون حرم ثلث اليهود من حق المواطنة. وخلال الفترة من ١٩٤٨-١٩٦٠ استقر ٢٠٠ ألف يهودي روماني في إسرائيل، ويبلغ عددهم الآن ٣٢٠ ألفاً يشكِّلون ثاني أكبر مجموعة سكانية بعد يهود المغرب.

المجر

يعود وجود اليهود في المجر للقرن التاسع ويُرجَّح أنهم كانوا جماعة وظيفية قتالية. ومع تأسيس مملكة المجر ازداد اجتذاب المجر لليهود الذين عملوا بالزراعة والتجارة، وقد تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وظهرت تشريعات لتقنين هذا الوضع. وعندما كان يحدث صراع بين الكنيسة والملك أو بين الملك والنبلاء كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون ساحة الصراع. فعندما كانت الكنيسة تريد تشديد قبضتها كانت تستبعد اليهود، وعندما كان الملوك يريدون الحفاظ على استقلالهم كانوا يستخدمون اليهود. واستمر اليهود في التمتع بما تمنحهم المواثيق الملكية من مزايا حتى أصبحوا من كبار الملاك. وقد استمر وضع أعضاء الجماعة اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة تحت حكم الأسر الأجنبية المختلفة التي حكمت المجر بين عامي ١٣٠١-١٥٢٦. وعندما ضمت الدولة العثمانية أجزاء من المجر عام ١٥٢٦ هجَّر السلطان العثماني ألفي يهودي إلى تركيا، وأما الأجزاء الأخرى من المجر فقُسِّمت بين عدة دول، وكان الازدهار الحقيقي من نصيب هؤلاء اليهود الذين وقعوا تحت الحكم العثماني، إذ وُضعوا تحت حماية السلطان العثماني نفسه.

وعندما حاول الملك رودلف (١٥٦٧-١٦١٢) استعادة أراضي المجر من العثمانيين حارب اليهود إلى جانب العثمانيين، وهو ما زاد درجة السخط عليهم. وفي عام ١٦٤٧ منع فرديناند الثالث اليهود

من جمع الضرائب، وبعد التخلص من العثمانيين عوقبت الجماعة اليهودية لموقفها من العثمانيين. وحاول الملك ليبوت الأول (١٦٥٧ - ١٧٠٥) تأسيس دولة كاثوليكية خالصة فطرد أعضاء الجماعة اليهودية من المدن الملكية فقام النبلاء بحمايتهم وسمحوا لهم بالإقامة في المدن التابعة لهم.

وتزايد أعضاء الجماعة اليهودية في المجر خلال القرن الثامن عشر فوصل عددهم عام ١٧٣٥ إلى ١١ ألفاً. وعندما استولت أسرة الهابسبورج النمساوية على المجر خضع يهود المجر لعمليات تحديث فتم إعتاقهم سياسيا بدرجات متفاوتة من النجاح والفشل من مكان لآخر. وفي عام ١٨٤٠ بلغ عددهم ٢٠٠ ألف يهودي. وظهرت عام ١٨٣٠ حركة استنارة مجرية تستهدف صبغ اليهود بالصبغة المجرية، وحينما اندلعت الثورة المجرية ضد حكم الهابسبورج انضم اليهود إليها، وعندما استسلم الجيش المجري وقعت القوات النمساوية عقوبات على يهود المجر. وقد تحقّق الإعتاق السياسي الكامل ليهود المجر عام ١٨٦٧ وأقبلوا على التعليم العلماني إقبالاً شديداً، وتزايدت معدلات التنصُّر والاندماج بينهم. وفي بودابست وُلد هرتزل وماكس نوردو وتكوَّنت شخصيتهما فيها. وقد بلغ عدد يهود المجر عام ١٩٩٢ حوالي ٥٦ ألفاً.

١٥ - روسيا القيصرية

روسيا من القرن التاسع حتى التقسيم الأول لبولندا

يعود وجود الجماعات اليهودية في روسيا إلى القرن التاسع الميلادي حين توسعت مملكة الخزر اليهودية في وادي الفولجا ومناطق اخرى من روسيا. وقد اشترك يهود الخزر، حسبما ورد في الموروثات الشعبية الروسية، في المناظرة الدينية التي عقدت بين ممثلي الديانات التوحيدية الثلاث عام ٩٨٦ أمام أمير كييف وقد اعتنق بعدها المسيحية وأصبحت الأرثوذكسية هي الدين الرسمي لروسيا. وبعد أن استقر اليهود في المدينة باعتبارها مركزاً تجاريا يربط بين منطقة البحر الأسود وآسيا وغرب أوربا وأصبح لهم جيتو خاص بهم، قوبلوا بعداوة شديدة من بلد اعتنق المسيحية لتوه ويضم طبقة تجار بدائية جداً.

وبعد غزو التتار لروسيا في القرن الثالث عشر وتدهور إمارة كييف، زاد النشاط التجاري لأعضاء الجماعة لأن الإمبراطورية التترية جمعت الجماعات اليهودية كافة داخل إطار سياسي واحد سهَّل عملية انتقالهم. كما يبدو أن التتار كانوا يعتبرون اليهود من ذوي القربى باعتبار أن الجميع من أصل تركي.

وفي القرن الخامس عشر، ظهرت فرقة متهودة بين الروس في مدينة نوفجورود. ورغم أنه تم القضاء عليها، فإنها عمقت مخاوف المؤسسة الدينية الأرثوذكسية من اليهود. و استمرت الحركة التجارية لأعضاء الجماعة اليهودية، مع هذا، من وإلى روسيا.

وكان إيفان الرهيب (١٥٣٣-١٥٨٤) أول حاكم روسي يقرر طرد أعضاء الجماعة اليهودية من روسيا، ويعود هذا إلى رغبته في استبعاد أية عناصر تجارية أجنبية. وبعد الفترة التي تُعرف باسم «زمن المتاعب» في التاريخ الروسي (١٥٩٨-١٦١٣) والتي شهدت اعتلاء أمير بولندي العرش الروسي، ونشوب حرب أهلية، زاد عمق الرفض الروسي لليهود حيث إن مغتصبي العرش من البولنديين أحضروا معهم كثيراً من صنائعهم اليهود. لكل هذا، مُنع أعضاء الجماعات اليهودية من دخول روسيا إلا لأسباب خاصة مثل حضور سوق تجاري أو غيره من الأسباب. وظل هذا الحظر أحد ثوابت السياسة الروسية حتى تقسيم بولندا في أواخر القرن الثامن عشر.

ولعل خوف روسيا القيصرية من أعضاء الجماعات اليهودية هو خوف العناصر الزراعية التقليدية من عنصر غريب له علاقات دولية واسعة في دولة جديدة لم تكن سلطتها قد تدعمت بعد (ولم تتدعم لمدة طويلة نظراً لترامي أطراف البلاد ونظراً لأنه عنصر تجاري له مصالحه المالية الخاصة التي لا تتفق بالضرورة مع مصالح الدولة). كما أن هناك قوى اجتماعية داخل روسيا لم يكن في صالحها البتة السماح لليهود بالاستقرار، من أهمها التجار الروس الذين كانوا يرزحون تحت عبء الضرائب والذين كان عليهم أن يدخلوا منافسة غير متكافئة مع بعض أعضاء طبقة النبلاء الذين اشتغلوا بالتجارة والذين كانوا يتمتعون بمزايا عديدة وبمساندة البيروقراطية الحكومية. بل كان هؤلاء التجار يجدون أنفسهم (أحياناً) في منافسة مع الفلاحين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة والصناعات المنزلية، كل هذا داخل سوق محدود مكبل بالقوانين الإقطاعية الاستبدادية التي لا حصر لها. وإذا أضفنا إلى هذا كله أن الحجم المالي للتجار الروس كان صغيراً في معظم الأحوال، لأدركنا سبب وقوف التجار الروس ضد دخول العنصر اليهودي التجاري النشيط الذي لا تكبله القيم المسيحية أو القوانين الطبقية والذي يتحكم في رأسمال سائل لا بأس به. ووجد هذا الموقف صدى لدى حكومة كانت تكتسب شيئاً من شرعيتها باعتناقها الأرثوذكسية. ورغم أن الفكر المركنتالي وجد طريقه إلى روسيا في مرحلة لاحقة، إلا أن التجار استمروا في

معارضة نشاط اليهود التجاري وفي المطالبة بالحد منه حتى اندلاع الثورة البلشفية.

ومن الثوابت الأخرى التي كانت عنصراً قويا ومحدداً في السياسة الروسية القيصرية أن اليهود كانوا يشكلون عنصراً متحركاً غير مستقر على رقعة أرض مقصورة عليهم، كما هو الحال مع الشعوب والأقوام والأقليات والطوائف الأخرى داخل الإمبراطورية، الأمر الذي خلق لهم وضعاً خاصا ومشاكل معينة.

وقد ضمت روسيا مقاطعة روسيا البيضاء في أول تقسيم لبولندا عام ١٧٧٢، وضمت في التقسيم الثاني منطقة منسك في الشمال وفولينيا (في مقاطعة كييف) ومنطقة بودوليا في الجنوب، أي أنها ضمت بذلك أوكرانيا كلها. ثم ضمت في التقسيم الثالث ليتوانيا. وقد ضمت كل هذه المقاطعات (وضمن ذلك كورلاند وبيالستوك التي حصلت عليهما روسيا فيما بعد) إلى روسيا نفسها، بينما أصبحت بولندا المركزية (التي كانت تضم نحو ثلاثة أرباع دوقية وارسو النابليونية) تكوِّن ما يُسمَّى «بولندا المؤتمر» أو «بولندا الروسية» (وكان اسمها الرسمي «مملكة بولندا» حتى عام ١٨٣٠ كما كان لها دستورها الخاص). وكانت هذه المقاطعات تضم أغلبية يهود شرق أوربا (يهود اليديشية) الذين انطلقوا من هذه المناطق بعد ضمها، واستوطنوا المناطق الجنوبية من روسيا وساحل البحر الأسود ومقاطعة بيساربيا، وهي مناطق كانت تابعة للدولة العثمانية، وقامت روسيا بضمها باسم «روسيا الجديدة» (كانت توجد جماعات يهودية أخرى فيها ولكنها كانت جماعات صغيرة للغاية ولم يكن لها مسألة يهودية فقد كانت مندمجة تماماً في محيطها الحضاري). ولذا فرغم وجود جماعات يهودية إلا أننا نتحدث في معظم الوقت عن «الجماعة اليهودية» وحسب، وتعني «يهود اليديشية» لأنهم كانوا الأغلبية الساحقة وكذلك كانوا أصحاب «المسألة اليهودية». كما تسللت مجموعات صغيرة من اليهود إلى وسط روسيا نفسها.

وكان وضع أعضاء الجماعة اليهودية في المناطق البولندية متميِّزاً تماماً من الناحية الثقافية والاجتماعية والوظيفية. إذ كانت أعداد كبيرة منهم تعمل بنظام الأرندا (استئجار عوائد القرى وضمنها الضرائب والمطاحن والغابات والحانات من النبلاء البولنديين الغائبين) كما كان بين اليهود تجار وأصحاب حوانيت وباعة جائلون. وكان الباقون حرفيين يعملون للنبيل الإقطاعي والفلاح. وحسب التقديرات، كان التركيب الوظيفي لليهود على النحو التالي: ١٪ فقط كانوا يعملون في الزراعة، و٣٪ في الأعمال الدينية، و٣٠٪ يعملون في نظام الأرندا، و٣٠٪ يعملون في التجارة والرهونات، و١٥٪ في الحرف المختلفة.

وكان من أهم الوظائف التي يضطلع بها اليهود، والتي أصبحت جزءاً أساسيا من مشكلتهم، تقطير الخمور وبيعها في الحانات التي استأجروها من النبلاء في إطار نظام الأرندا. كما يُلاحَظ أن التجارة اليهودية كانت تجارة طفيلية، وكان التجار اليهود يشتغلون بتهريب البضائع ويتهربون من الضرائب نظراً لوجودهم في المنطقة الحدودية وبسبب استخدامهم اليديشية وسيلة للتفاهم، الأمر الذي يسَّر لهم عمليات التهريب والتهرب والتلاعب بالأسعار. ومع هذا، ظلت نسبة كبيرة من أعضاء الجماعة تعاني من الفاقة، فكان هناك ٢١٪ منهم بدون وظيفة محدَّدة.

ولكن لم يكن التميز وظيفيا أو طبقيا وحسب وإنما كان ثقافيا ولغويا. وأعضاء الجماعة اليهودية كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة يدين أعضاؤها باليهودية ويتحدثون اليديشية ويمثلون المصالح المالية للنبيل البولندي الذي يتحدث البولندية ويدين بالكاثوليكية بين الفلاحين والأقنان الأوكرانيين الذين يتحدثون الأوكرانية ويدينون بالمسيحية الأرثوذكسية. وأعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية هم عنصر ألماني يعيش في وسط سلافي، ويظهر تميزهم حتى في الطريقة التي كانوا يحلقون بها رؤوسهم (واللحية والسوالف) وفي أزيائهم المتميِّزة («كفتان» من كلمة «قفطان») وفي أسمائهم. كما تظهر عزلتهم في نظامهم التعليمي المقصور عليهم، وفي الشتتلات التي أسسها لهم النبلاء الإقطاعيون البولنديون (وهي مدن صغيرة تضم التجار والوكلاء والحرفيين اليهود). وكان اليهود يكوِّنون أغلبية السكان في هذه المدن الصغيرة، وهو ما كان يعني عدم احتكاكهم بالسكان. كما كانت تعيش أعداد كبيرة منهم في بعض القرى. كانت هذه الكتلة البشرية اليديشية اليهودية على وشك الزيادة الهائلة إثر انفجار سكاني لم تعرف الجماعات اليهودية مثيلاً له في التاريخ.

وهي برغم عزلتها، لم تكن متماسكة، إذ كانت الصراعات الاجتماعية قد بدأت تترك أثرها في مؤسسة القهال، وهي منازعات أخذت شكل الصراع بين الحسيديين ومعارضيهم من أعضاء المؤسسة الحاخامية الذين أُطلق عليهم المتنجديم. وكانت المنطقة التي ضمتها روسيا تضم أهم مناطق تركز الحسيديين وأهم المدارس التلمودية العليا (يشيفا) الخاصة بالمتنجديم في ليتوانيا. وضمت روسيا، كما تقدَّم، بودوليا التي كانت مركز الحركة الفرانكية والحسيدية. وحينما دخلتها القوات الروسية، أُطلقت سراح فرانك، وكانت اليهودية الحاخامية قد دخلت أزمتها الكبرى. وفجأة، وجدت هذه الكتلة

البشرية نفسها تابعة لتشكيل اقتصادي سياسي حضاري جديد (روسيا القيصرية)، تشكيل كان يرى دائماً ضرورة نبذهم والتخلص منهم، تسيِّره حكومة استبدادية متخلفة لا تسمح بالتعددية الدينية أو الفكرية أو المهنية، سياستها في جوهرها هي سياسة الملوك المطلقين المستبدين المستنيرين على نحو ما كان في وسط أوربا والنمسا وألمانيا (أي التحديث بالقوة ومن فوق). ولم تكن لدى هذه الحكومة أية خبرة باليهود أو مشاكلهم، كما أن روسيا نفسها كانت على عتبات انفجارات اجتماعية ضخمة نتيجة عملية التحديث والعلمنة التي كانت تخوضها (وهي انفجارات أدَّت في نهاية الأمر إلى قيام الثورة البلشفية). وتاريخ المسألة اليهودية في روسيا هو تاريخ الاحتكاك بين الكتلة البشرية اليهودية المنعزلة، بكل تَخلُّفها ومشاكلها وتَميُّزها من جهة، والبيروقراطية القيصرية المتخلفة بكل وحشيتها وتَعصُّبها وانعدام كفاءتها من الجهة الأخرى.

وظلت المشكلة قائمة دون حل. وكلما احتدمت الأزمة، كانت الحكومة الروسية تشكل لجنة لدراسة الموقف لترفع بدورها توصياتها للحكومة. وكانت هذه التوصيات تستند في معظم الأحيان إلى فلسفات شمولية مطلقة، وتنبع من جهل عميق بآليات الظواهر الاجتماعية ويتولى تنفيذها جهاز تنفيذي متعصب جاهل فاسد يتسم بعدم الكفاءة. وظل التناقض الأساسي في سياسة الحكومة القيصرية بين رغبتها في التحديث والتنمية الاقتصادية من جهة والشكل الاستبدادي السياسي الذي يُفشل كل المحاولات التي تستهدف حل المسألة اليهودية من جهة أخرى. وقد تعثَّر تماماً تحديث اليهود بل وتحديث المجتمع ككل، في أواخر القرن التاسع عشر، واحتدم التناقض بين الحقيقة الاجتماعية والشكل المتكلس، الأمر الذي نجمت عنه مجموعة من الاضطرابات والثورات انتهت بالثورة البلشفية التي حلت المسألة اليهودية والمسائل القومية الأخرى بطريقة نوعية مختلفة.

روسيا من تقسيم بولندا حتى عام ١٨٥٥

أدَّى تقسيم بولندا إلى ضم أجزاء كبيرة منها إلى روسيا، وبذلك ضمت روسيا أجزاء كبيرة من الكتلة البشرية اليهودية اليديشية. ولأن النبلاء البولنديين كان محرماً عليهم التجارة (حيث تفرغوا لأعمال السياسة والحرب)، وكان الأقنان ملتصقين بالأرض، كما كانت طبقة التجار ضعيفة للغاية، اضطلع اليهود بوظيفة طبقة التجار والحرفيين وأصبحوا جماعة وظيفية وسيطة. هذا على عكس روسيا إذ لم تكن التجارة هناك مهنة وضيعة، وكانت هناك طبقة من الحرفيين تزداد قوة. كما كانت الحكومة نفسها تقوم بالتجارة ويضطلع بعض النبلاء بالوظيفة نفسها.

وكانت روسيا، من الناحية الاقتصادية، مستعمرة إنجليزية أو منطقة نفوذ للاقتصاد الإنجليزي. وبعد الحصار الذي فرضه نابليون على إنجلترا على نطاق القارة كلها، حدث تَقدُّم صناعي وتجاري نظراً لاضطرار روسيا إلى الاعتماد على نفسها. وعلى سبيل المثال، كانت روسيا تملك عام ١٨٠٤ نحو ١٩٩ مصنع قطن زاد إلى ٤٢٣ عام ١٨١٤، وزادت واردات القطن من الولايات المتحدة من ٢٠٤ أطنان عام ١٨٠٩ إلى ٣٧٨٧ طناً عام ١٨١١.

ومن كل هذه الحقائق، يمكن القول بأن الاقتصاد الروسي لم يكن في حاجة إلى أعضاء الجماعة اليهودية. ومع هذا، تم ضمهم نتيجة توسُّع الدولة القيصرية. ولم تكن المسألة اليهودية المسألة الوحيدة التي جابهتها الحكومة القيصرية، فقد كان هناك مسألة إسلامية ومسألة تترية ومسألة بولندية ومسألة أوكرانية، إذ كانت الإمبراطورية القيصرية مترامية الأطراف تضم مئات الأقليات والتشكيلات الحضارية المختلفة التي كانت تحاول أن تفرض عليها ضرباً من الوحدة حتى تتمكن الحكومة المركزية من التعامل معها. وقسَّمت الحكومة القيصرية هذه الأقليات إلى قسمين أساسيين: الأقليات السلافية (أوكرانيا وبولندا وغيرهما)، والأقليات غير السلافية. وكان يُطلَق على الأقليات غير السلافية مصطلح «الإينورودتسي». وهذه كلمة روسية كانت تشير في بادئ الأمر إلى قبائل السكان الأصليين التي تقطن سيبيريا، ثم اتسع نطاق الكلمة الدلالي فأصبحت تشير إلى كل الشعوب غير السلافية. وكانت السياسة العامة تهدف إلى ترويسهم. وغني عن البيان أن إجراءات الترويس، بالنسبة للأقليات غير السلافية، كانت أكثر راديكالية وعنفاً، خصوصاً إذا كانت تلك الأقليات لا تدين بالمسيحية (ومع هذا ينبغي الإشارة إلى أن اللون أو العرْق بدأ يكتسب دلالة محورية مع تصاعد معدلات العلمنة في الإمبراطورية الروسية وتعمُّق الرؤية العرْقية. وحيث إن يهود اليديشية كانوا من البيض، ومع تَزايُد معدلات ترويسهم، أُعيد تصنيفهم بحيث أصبحوا «روس» ووُطنوا على هذا الأساس في روسيا الجديدة وفي الخانات التركية التي ضمتها روسيا وذلك باعتبارهم عنصراً روسياً استيطانيا). ومهما كان الأمر، فإن الإمبراطورية القيصرية كانت «سجناً للشعوب».

وقد بدأت الحكومة القيصرية علاقتها بأعضاء الجماعات اليهودية بالاعتراف بالقهال وبصلاحياته الدينية والقضائية، كما تم الاعتراف بالجماعة اليهودية (اليديشية) بوصفها جماعة مستقلة في

المدن والقرى. وفي عام ١٧٨٣، صُنِّف اليهود ضمن سكان المدن وأصبحت لهم حقوق غير اليهود نفسها (مثلاً: انتخاب مجالس المدن والبلديات وحق التمثيل فيها).

واستقر بعض التجار اليهود في موسكو وسمولنسك، فدخلوا في منافسة مع التجار المسيحيين بطرق شرعية وغير شرعية. وحينما اشتكى تجار موسكو من هذا الوضع، صدر فرمان عام ١٧٩١ يحظر على اليهود الاتجار خارج روسيا البيضاء. ويُعَدُّ هذا الفرمان الأساس القانوني لمنطقة الاستيطان، وقد سُمح لمجالس القهال بأن تستمر في عملها بكل صلاحياتها.

وشهدت هذه المرحلة قيام روسيا بضم بعض الإمارات الإسلامية التابعة لتركيا على ساحل البحر الأسود، وسُمِّيت هي ومناطق أخرى باسم «روسيا الجديدة». ولما كان أعضاء الجماعات اليهودية يُنظَر إليهم، في التشكيل الحضاري الغربي، باعتبارهم عنصراً ريادياً حركياً وجماعة وظيفية استيطانية يمكن استخدامها في مثل هذه العملية، كما فعل شارلمان من قبل وكما فعلت القوات المسيحية في إسبانيا والنبلاء البولنديون في أوكرانيا والاستعمار الغربي في فلسطين فيما بعد، قامت الحكومة القيصرية بتشجيعهم على الاستيطان في المناطق الجديدة، باللجوء إلى طريقة الطرد والجذب، فضوعفت الضريبة المفروضة على التجار اليهود في الإمبراطورية، بينما أُعفي المستوطنون في روسيا الجديدة من الضرائب كافة. واستثنى هذا المرسوم اليهود القرائين، وكان هذا أيضاً أحد ثوابت السياسة القيصرية تجاه اليهود. وفي الوقت نفسه، تفاقمت مشكلة السُكْر بين الفلاحين، وساعدت المجاعة التي وقعت عام ١٧٩٧ على تعميق المشكلة. ورغم أن اليهود كانوا السبب الواضح والمباشر أمام الجميع (إذ أن أغلبية صانعي الخمر وبائعيها كانوا من اليهود، كما أنهم هم الذين كانوا يديرون معظم الحانات)، إلا أنهم لم يكونوا في واقع الأمر السبب الحقيقي لإدمان الفلاحين الروسيين للمشروبات الكحولية. وشُكِّلت لجنة لبحث المسألة اليهودية في روسيا برئاسة الشاعر الروسي السناتور جافريل ديرجافين (١٧٤٣-١٨١٦) الذي رأى أن اليهود يستغلون الفلاحين الروس وأن عزلتهم الطبقية والحضارية هي سبب العداء ضدهم. وبناء على ذلك، طالب ديرجافين بضرورة ترويسهم بالقوة وتغيير بنائهم الاقتصادي والوظيفي حتى يتسنى استيعابهم كيهود نافعين في المجتمع الروسي. ووضع بذلك الإطار الأساسي لجميع المحاولات التي بذلتها الحكومة القيصرية لحل المسألة اليهودية.

وبعد أن اعتلى ألكسندر الأول العرش (١٨٠١-١٨٢٥)، شُكِّلت لجنة تدعى مجلس الشئون اليهودية التي أصدرت قراراتها عام ١٨٠٤، والتي سميت «قانون اليهود الأساسي» أو «دستور اليهود». وجاء ضمن هذه القرارات أن اليهود يجب نقلهم خارج المناطق الزراعية بين عامي ١٨٠٧ و ١٨٠٨، كما أوصت القرارات بضرورة إبعادهم عن استئجار الحانات أو استئجار الأراضي الزراعية بهدف الربح (حتى يمكن تحويلهم إلى عنصر اقتصادي منتج). ولتنفيذ هذا المخطط، وُضع تحت تصرفهم بعض أراضي القيصر، وأُعفي المزارعون اليهود من الضرائب لمدة تتراوح بين خمسة وعشرة أعوام، كما أنهم لم يُصنَّفوا كأقنان مرتبطين بالأرض، بل احتفظوا بحقوقهم في حرية الحركة والسكنى. ووعدت الحكومة كذلك بتقديم العون للمصانع التي تقوم باستئجار العمال والحرفيين من أعضاء الجماعة اليهودية. وسُمح للعاملين بالصناعة من أعضاء الجماعة اليهودية أن يستقروا داخل روسيا، وضمن ذلك موسكو وسانت بطرسبرج. كما حدَّ القانون الأساسي من سلطة القهال، وأصبح تنظيم الأمور الدينية والعبادات من اختصاص الحاخامات الذين كان يتم اختيارهم دون الرجوع إلى القهال. ولم تتجاوز صلاحيات القهال، في القانون الأساسي، تحديد الضرائب وجمعها وإحصاء عدد السكان اليهود. وتقرر ألا يوجد سوى قهال واحد في كل مدينة، كما سُمح لكل فرقة دينية بأن يكون لها معبدها اليهودي وحاخامها الخاص (الأمر الذي أدَّى إلى تحسين وضع الحسيديين) وفُتحت أبواب المدارس الحكومية العلمانية أمام أعضاء الجماعة اليهودية. وتقرر أنه ما لم يرسل اليهود أولادهم فإنه سيتم فتح مدارس يهودية علمانية خاصة على حساب أعضاء الجماعة اليهودية. وأصبح من شروط شغل وظيفة حاخام، أو عضوية مجلس إدارة القهال أو البلدية، معرفة الألمانية أو الروسية أو البولندية. كما تقرر أن يكتب أعضاء الجماعة جميع وثائقهم وأوراقهم التجارية بإحدى اللغات الثلاث دون العبرية أو اليديشية. وأكد القانون حق اشتراك اليهود في الانتخابات الخاصة بالحكومات المحلية ومُنع ارتداء الأزياء اليهودية التقليدية وقص الشعر على الطريقة اليهودية وترك السوالف، وأصبح توجيه تهمة الدم جريمة يعاقب عليها القانون (١٨١٨). وكانت استجابة الجماعات اليهودية سلبية إلى أقصى درجة، وصاموا حداداً على صدور هذه القرارات بل واقترحت بعض القهالات تأجيل الإصلاحات إلى فترة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين عاماً.

ولم تنجح الحكومة القيصرية في تنفيذ توصيات اللجنة بسبب ضعف البيروقراطية وفساد النظام الإداري (فكثيراً ما كان الموظفون

يتقاضون الرشاوى ويتغاضون عن تعليمات الحكومة)، وبسبب عدم الثقة المتبادل بين الحكومة وأعضاء الجماعة اليهودية. كما أن القرارات الخاصة بنقل أعضاء الجماعة اليهودية من القرى لم تكن واقعية إذ أن وجودهم فيها لم يكن أمراً من اختيارهم وإنما كان واقعاً اجتماعياً فرضته عليهم ظروفهم والظروف الاقتصادية المحيطة بهم، فقد كان أعضاء الجماعة يقومون في واقع الأمر بوظيفة مهمة بالنسبة للريف الروسي حتى ولو كانت لهذا جوانب سلبية من الناحية الاجتماعية. وعلى كل حال، لم تُتَّخذ خطوات تنفيذية لطرد اليهود من القرى إلا عام ١٨٢٢، خصوصاً في مقاطعة بيلوروسيا أي روسيا البيضاء. ولكن كثيراً ما كان يتم طرد اليهود دون تأمين الأرض الزراعية لهم، الأمر الذي كان يعني فشل محاولة تغيير وضع اليهود الوظيفي فشلاً مؤكداً. بل كان يتم أحياناً تأمين الأرض ثم يصل المستوطنون ليكتشفوا أنه لا توجد تسهيلات للسكنى أو الري أو الصرف.

وتوقف كثير من الإصلاحات أثناء الحرب الروسية الفرنسية حين قام نابليون بغزو روسيا. وقد وقف أعضاء الجماعة اليهودية أثناء هذه الحرب، إلى جانب الحكومة الروسية، لأن المؤسسة الحاخامية كانت تعتبر نابليون عدو اليهودية اللدود، بل قام اليهود بالتجسس لحساب الحكومة القيصرية على القوات الفرنسية (وإن كان هذا لم يمنع وجود بعض حالات متفرقة قام فيها اليهود الروس بالتجسس على روسيا لحساب الفرنسيين).

وفي أواخر حكم ألكسندر الأول، كانت هناك محاولة لتنصير اليهود عن طريق الوعد بإعتاقهم وإعطائهم حقوقهم السياسية. وكان العقل المدبر وراء هذه الفكرة هو لويس واي، رئيس جمعية الكتاب المقدَّس في إنجلترا الذي أسَّس جمعية المسيحيين الإسرائيليين عام ١٨١٧ تحت رعاية الإمبراطور. ثم صدر قرار بمنع اليهود من استئجار خدم مسيحيين ومن السكنى في منطقة طولها خمسين فرسخاً (نحو ٣٣ ميلاً) على الحدود، ولم يستثن من ذلك سوى ملاك الأراضي.

وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الجماعة اليهودية باعتلاء نيقولا الثاني العرش (١٨٢٥-١٨٥٥)، وهذا بعد إخماد الثورة المعروفة باسم «ثورة الديسمبريين»، وهم مجموعة من النبلاء المتأثرين بالأفكار الغربية، وكان من بينهم صاحب الأفكار اليعقوبية بول بستل، وهو صاحب مشروع صهيوني لحل المسألة اليهودية. وقد صعَّد نيقولا سياسة الترويس والدمج القسرية، فصدر مرسوم عام ١٨٢٧ بفرض الخدمة العسكرية على يهود روسيا، وكانوا قبل ذلك يدفعون ما يشبه البدل النقدي، وكانت فترة الخدمة في الجيش الروسي تستمر خمسة وعشرين عاماً، وأوكل للجماعة اليهودية نفسها أن تقوم باختيار الفتيان الذين يتم تجنيدهم، وكانت كل جماعة يهودية تعين خطافين ليمسكوا الفتيان (من أبناء الفقراء في العادة) لتسليمهم إلى الحكومة، وهو ما زاد حدة الصراعات الاجتماعية. ويُلاحَظ أن هذا القانون لم يُطبَّق على يهود بولندا وحسب وإنما كان يُطبَّق على الروس كافة من مسيحيين وغيرهم. وكان الاختلاف الوحيد في عدد المجندين، فبينما كانت النسبة ٧ من ألف بين المسيحيين، كانت ١٠ من ألف بين غير المسيحيين. وأُعفي المثقفون والتجار والحرفيون من الخدمة العسكرية نظير ألف روبل، كما أعفي العاملون في القطاع الزراعي في مرحلة لاحقة. وكان الهدف من الخدمة العسكرية هو مزيد من الدمج والترويس القسريين. ومع هذا، كان نظام التجنيد قاسياً بل غير إنساني، وذلك لصغر سن المجندين على وجه الخصوص. ولكن لم يُجنَّد في نهاية الأمر سوى عدد صغير من أعضاء الجماعة اليهودية يتراوح بين ٢٦ و٦٠ ألفاً في فترة ٢٨ سنة. فإذا أخذنا بالمتوسط وهو ٤٥ ألفاً، فإن هذا يعني أن عدد المجندين لا يزيد على ألف وخمسمائة مجند في السنة من مجموع يهود روسيا البالغ عددهم آنذاك ثلاثة ملايين.

ثم صدر قرار عام ١٨٣٥ لم يكن مختلفاً في جوهره عن قرار عام ١٨٠٤، فأُعيد بمقتضاه تحديد منطقة الاستيطان. وحرَّم القانون استئجار الخدم المسيحيين، وحظر على أعضاء الجماعة اليهودية الزواج المبكر، وحدَّد الحد الأدنى لسن الزواج بثماني عشرة سنة للذكور وست عشرة سنة للإناث، كما حظر استخدام اليديشية أو العبرية في الأعمال التجارية وغيرها من النشاطات. وحُدِّدت المهن التي يُسمح لأعضاء الجماعة اليهودية أن يعملوا فيها، كما حُرِّم عليهم (عام ١٨٢٥) دخول القرى.

وأبقى القانون على القهال ليقوم بجمع الضرائب وتطبيق القوانين الروسية، وليصبح مسئولاً عن الأمور الدينية والخيرية، وصرح ببناء المعابد شريطة أن تكون على مسافة معقولة من الكنائس، واعتُبر الحاخامات موظفين حكوميين لا تقتصر مهمتهم على الجوانب الدينية فأصبح من واجبهم الرقابة على الجوانب الأخلاقية العامة وعلى أداء أعضاء الجماعة اليهودية لواجباتهم المدنية للدولة والمجتمع. وفُتحت أمام أعضاء الجماعة اليهودية أبواب المدارس العامة، وفُرضت الرقابة على كتبهم (عام ١٨٣٦).

ويبدو أن الحكومة القيصرية بدأت تشعر في هذه المرحلة بأن ما سمته الروح التلمودية (وليس اليهودية نفسها) هو سبب عزلة

اليهود. ولذا، قامت الحكومة باستشارة أثرياء اليهود الروس باعتبارهم خبراء في الشئون اليهودية، كما طلبت العون من المفكرين اليهود دعاة التنوير ومن يهود الغرب الذين تم تحديثهم. وكانت نتيجة المشاورات والمداولات مؤيدة لموقف الحكومة. وكان أهم داعية لهذه السياسة وزير التعليم أوفاروف وكان كثير من دعاة التنوير اليهود يتفقون معه، من بينهم إسحق بير ليفينسون في كتابه التعليم في إسرائيل (عام ١٨٢٨). وأغلق كثير من المطابع العبرية بهدف الحرب ضد الخرافات الحسيدية والتعصب الناجم عن دراسة التلمود. ويُلاحَظ أن موقف الحكومة القيصرية من القرائين كان متسامحاً جداً لأنهم لا يؤمنون بالتلمود.

واتجهت الحكومة الروسية أيضاً نحو علمنة التعليم اليهودي، وحاولت تطبيق المشروع الذي طرحه ليفينسون في كتابه. ولتحقيق هذا الهدف، استدعت التربوي الألماني اليهودي ماكس ليلينتال (١٨١٥ ـ ١٨٨٢) حتى يمكنه أن يقرب فكرة التعليم العلماني ليهود روسيا وليؤكد لهم حسن نية الحكومة. وكان ليلينتال يعمل مدرساً في إحدى المدارس التي أسسها دعاة التنوير اليهود في ريجا. فقام برحلة استطلاعية، ولكنه قوبل بعداوة شديدة من الجماهير اليهودية التي سمته «الحليق»، أي الذي حلق لحيته وسوالفه. وكان كثير من دعاة التنوير اليهود يرون أن تحديث الجماهير اليهودية لا يمكن أن يتم بالطرق الديموقراطية، وأنه لابد من استخدام نوع من القسر والإرهاب، وأيَّدهم في ذلك أعضاء البيروقراطية الروسية. وأوصى ليلينتال بإغلاق المدارس الدينية التقليدية ومنع المدرسين التقليديين من التدريس واستجلاب مدرسين من الخارج. وتم بالفعل تأسيس مدارس علمانية يهودية مُوِّلت من ضريبة الشموع (شموع السبت)، وقام بالتدريس في هذه المدارس مسيحيون ويهود من دعاة التنوير، وأُسِّست مجموعة من المدارس لتدريب حاخامات ومدرسين يهود، وكانت هذه المدارس الإطار الذي تم فيه تدريب وتعليم أعداد كبيرة من دعاة التنوير المتحدثين بالروسية والذين لعبوا دوراً مهماً في الحركات الاندماجية والثورية والعدمية.

وتبع ذلك إلغاء القهال (عام ١٨٤٤) مع الإبقاء على إطار تنظيمي إداري عامّ. واستمر المسئولون عن التجنيد وكذلك جامعو الضرائب في أداء عملهم. وابتداءً من عام ١٨٥١، بدأت الحكومة الروسية تنهج النهج الألماني في تقسيم أعضاء الجماعات اليهودية إلى يهود نافعين ويهود غير نافعين. وكان الفريق الأول يضم كبار التجار والحرفيين والمزارعين الذين كانوا يتمتعون بمعظم حقوق المواطن الروسي. أما الفريق الثاني الذي كان يضم بقية اليهود من صغار التجار وأعضاء الطبقات الفقيرة، فكان الأمر بالنسبة إليهم مختلفاً إذ كان عليهم أداء الخدمة العسكرية حيث كان بوسعهم أن يتعلموا بعض المهن النافعة، فإن تعلموها صُنِّفوا ضمن النافعين وأُعفوا من الخدمة العسكرية. ونجحت السياسة بشكل محدد إذ أُقيمت أربع عشرة مستوطنة زراعية في خرسون، وعدد مساو في إيكاترينوسلاف، وخمس وأربعون مستوطنة في كييف، كما أُقيمت عدة مستوطنات في بيسارابيا بلغ عدد سكانها خمسة وستين ألف يهودي. وقام سير موسى مونتفيوري بزيارة روسيا في هذه الفترة في إطار محاولة الحكومة القيصرية أن تُوسِّط يهود الغرب المندمجين في إقناع يهود روسيا بتقبُّل عمليات الدمج والتحديث والترويس. ويمكن القول بأن هذه العمليات لم تحقق كثيراً من النجاح.

منطقة الاستيطان اليهودية في روسيا

«منطقة الاستيطان» ترجمة للعبارة الروسية «كرتا أوسدلوستي Cherta Osedlosti» حيث تُترجم كلمة «كرتا» إلى «نطاق» أو «حدود» أو ربما «حظيرة» وهي الترجمة الدقيقة. ولأن هذا النطاق كان يتسع ويضيق، فتضم إليه مناطق وتستبعد أخرى، فإننا نفضل استخدام كلمة «منطقة».

ومنطقة الاستيطان هي منطقة داخل حدود روسيا القيصرية لم يكن يُسمَح لمعظم أعضاء الجماعة اليهودية بالسكنى أو الاستقرار خارج المدن الواقعة فيها. وكانت الحكومة القيصرية تقوم بفرض مثل هذه القيود وهو أمر كان يُعَد جزءاً أساسيا من سياستها العامة ومن موقفها من حرية الأفراد في التنقل، وهي سياسة لم تكن تُطبَّق على أعضاء الجماعة اليهودية وحسب وإنما كانت تُطبَّق على معظم سكان روسيا سواء أكانوا من الأقنان أم كانوا سكان مدن أو تجاراً. فكان على هذه القطاعات، التي تشكل أغلبية السكان، البقاء في مواطن استيطانها لا تغادرها إلا لسبب محدد وبإذن خاص. ويبدو أن هذه القوانين صدرت بسبب طبيعة روسيا كإمبراطورية مترامية الأطراف تُوجَد بها مناطق شاسعة غير مأهولة بالسكان، الأمر الذي جعل بوسع أي مواطن أن يترك محل إقامته ليستوطن إحدى المناطق غير المأهولة بعيداً عن سلطة الحكومة. ولما كانت الحكومة المركزية ضعيفة نظراً لرغبتها في تدعيم أسس الإمبراطورية وضمان شيء من الثبات، ظهرت فكرة ربط المجموعات البشرية بمواطن محددة كما حدث مع الفلاحين حينما تم تحويلهم إلى أقنان، ثم مع أعضاء الجماعة اليهودية حين تم ضم أعداد كبيرة منهم إلى الإمبراطورية بعد تقسيم بولندا.

ولكن، إلى جوار هذه الأسباب العامة المتعلقة بسياسة روسيا

القيصرية تجاه رعاياها، هناك أسباب خاصة بيهود روسيا من أهمها الصراع الاجتماعي الناشب بين التجار اليهود الذين كانوا يشتغلون بتقطير الخمور وبيعها وبأعمال الرهونات والالتزام من جهة والفلاحين السلاف الذين كانوا يتعاطون الخمر بشراهة (ربما بسبب تزايد بؤسهم) وضعف النظام الإقطاعي من جهة أخرى. وكانت البيروقراطية الروسية متخلفة غير مدركة لأبعاد المشكلة الاجتماعية في الريف الروسي أو البولندي. ولذا، أُلقي باللوم على أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم مسئولين عن سُكْر الفلاحين وإفقارهم. كما كان تجار روسيا يجأرون بالشكوى دائماً من العناصر اليهودية التجارية التي تلجأ إلي الغش والتهريب لتحقيق الربح. لكل هذا، حُظِّر على أعضاء الجماعة اليهودية أن يتحركوا خارج تلك المناطق التي ضُمَّت من بولندا، ولكنهم مُنحوا حق الاستيطان في المناطق التي ضُمَّت من تركيا في أواخر القرن الثامن عشر باعتبارهم عنصراً استيطانياً نافعاً، وهي التي كانت تقع أساساً حول البحر الأسود وسُمِّيت «روسيا الجديدة». وقد ضمَّت منطقة الاستيطان منطقة كبيرة امتدت من ليتوانيا وبحر البلطيق في الشمال إلى البحر الأسود في الجنوب، ومن بولندا وبيساربيا في الغرب إلى روسيا البيضاء وأوكرانيا في الشرق، وتضم خمساً وعشرين مقاطعة تشكل مساحة قدرها مليون كيلو متر مربع (٣٨٦ ألف ميل مربع) أي ما يساوي مساحة فرنسا تقريباً. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون نحو ٦ ,١١٪ من سكان منطقة الاستيطان عام ١٨٩٧، وبلغ عددهم ٤,٨٩٩,٤٢٧ من مجموع يهود روسيا البالغ عددهم ٥,٠٥٤,٣٠٠، ويُلاحَظ أنه كان يوجد ١٦١,٥٠٠ فقط من يهود الجبال وجورجيا، وهم ليسوا من يهود اليديشية، أي أن منطقة الاستيطان كانت تضم أغلبية يهود روسيا الذين كان معظمهم يتحدث اليديشية.

واستقرت حدود المنطقة عام ١٨٣٥. وكانت منطقة الاستيطان تضم رسميا كل المناطق التي ضمت من بولندا ما عدا مقاطعات وسط بولندا والتي ظلت رسميا خارج النطاق وداخله من الناحية الفعلية.

وكانت منطقة الاستيطان تضم أوكرانيين وبولنديين وروسيين وليتوانيين ومولدافيين وألماناً. وكان لكل جماعة قاعدتها الإقليمية أو أرضها المتركزة فيها ما عدا أعضاء الجماعة اليهودية والألمان. ومن هنا ظهرت إحدى السمات الخاصة للمسألة اليهودية في روسيا. وقد قررت الحكومة القيصرية (عام ١٨٤٣)، لاعتبارات أمنية، عدم السماح لأعضاء الجماعة اليهودية بالسكنى على مسافة ٥٠ فرسخاً (نحو ٣٣ ميلاً) من الحدود. وحسب القانون الصادر لتنظيم منطقة الاستيطان، لم يُسمَح لليهود بالانتقال خارجها ولم يُسمح لهم بالدخول إلى وسط روسيا إلا مدة ستة أسابيع للقيام بأعمال محدَّدة على أن يرتدوا الأزياء الروسية. وكان متاحاً لتجار الدرجة الأولى أن يمكثوا ستة أشهر، كما كان مسموحاً لتجار الدرجة الثانية أن يمكثوا ثلاثة أشهر. ومع حكم ألكسندر الثاني، بدأت الحكومة القيصرية في تخفيف القيود عن بعض العناصر اليهودية النافعة والمندمجة، وذلك بهدف تحويل اليهود إلى قطاع منتج مندمج في المجتمع. فسُمح لتجار الفئة الأولى (عام ١٨٥٩) بأن يستوطنوا خارج منطقة الاستيطان، وكذلك لخريجي الجامعات عام ١٨٦١ وللحرفيين عام ١٨٦٥، كما سُمح للمشتغلين بالطب عام ١٨٧٩ وللجنود المُسرَّحين بهذه الميزة. ولم يزد العدد المسموح لهم بها بحسب تعداد ١٨٩٧ على مائتي ألف يهودي.

وكان من بين الفئات المسموح لها بمغادرة منطقة الاستيطان الفتيات اليهوديات اللائي كن يعملن بالبغاء، فكان بوسع الفتاة أن تنتقل إلى موسكو أو أية مدينة أخرى لتمارس هذه الوظيفة وتحقق قدراً من الحراك الاجتماعي والجغرافي دون أن يكون في إمكان أسرتها اللحاق بها. وقد حوَّل هذا منطقة الاستيطان إلى أهم مصدر للبغايا في العالم حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى وربما حتى الثلاثينيات من هذا القرن. وتم توسيع منطقة الاستيطان عام ١٨٧٩ بضم مملكة بولندا إليها رسمياً، وأُبطل العمل على الحدود بقانون الخمسين فرسخاً.

وكان ٦ ,١١٪ من سكان منطقة الاستيطان من أعضاء الجماعة اليهودية موزعين في القرى والمدن. وكان عددهم ٤,٩٠٠,٠٠٠ (يشكّلون حوالي ٩٤٪ من كل يهود روسيا). وبعد عمليات الطرد من القرى، أصبح أعضاء الجماعة اليهودية مركزين أساساً في المدن. فمع بداية القرن التاسع عشر، كان ١٠ ـ ١٥٪ من سكان المدن داخل منطقة الاستيطان يهوداً، وكان أكبر تجمُّع يهودي يضم عشرة آلاف. ولكن، مع نهاية القرن، كان مليون ونصف المليون يهودي (أي ثلث اليهود في منطقة الاستيطان) من سكان المدن، وكانوا يشكلون ٣٠٪ من مجموع السكان فيها وكانوا يشكِّلون ٥٠٪ من مجموع سكان كثير من المدن. وكانت حوالي ٤١ جماعة يهودية تتكون كل منها من عشرة آلاف نسمة. وفي إحصاء عام ١٨٩٧، بلغت نسبة أعضاء الجماعة اليهودية من ساكني المدن ٧٨٪ (حوالي ٣,٨٠٠,٠٠٠). وأدَّى الانفجار السكاني إلى ازدياد الازدحام داخل منطقة الاستيطان. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كان ٩٤٪ من مجموع يهود روسيا يعيشون في منطقة الاستيطان.

وتختلف نسبة عدد السكان اليهود إلى مجموع السكان، كما تختلف درجة تَركُّزهم في المناطق الحضرية، ومعدلات التصنيع والتحديث، من منطقة إلى أخرى. فكثير من الصناعات داخل منطقة الاستيطان كان يملكها يهود، كان نصفها تقريباً في صناعة النسيج ثم في صناعة الأخشاب والتبغ والجلود أي في صناعات خفيفة. وكان الصراع الطبقي محتدماً، كما كانت العلاقة بين صاحب العمل والعامل اليهوديين تحكمها علاقات السوق الرأسمالي وليس التضامن الديني أو الإثني. ولذا، فكثيراً ما كان صاحب العمل اليهودي يفضل عمالاً غير يهود لأنهم عمالة رخيصة ولا يمثلون أية ضغوط اجتماعية عليه ليعاملهم بطريقة خاصة ويعطيهم إجازات في الأعياد اليهودية. ولكن الرأسماليين من يهود روسيا كانوا مضطرين على وجه العموم إلى استئجار عمال يهود بسبب وجودهم بأعداد كبيرة في المدن. وكانت نسبة اليهود العاملين في التجارة هي ٦,٣٨٪ من مجموع اليهود. أما نسبة العاملين في الحرف (أساساً في الخياطة وصناعة الأحذية) فكانت ٤,٣٥٪، وكان ٨,٧٢٪ من جملة التجار في منطقة الاستيطان من أعضاء الجماعة اليهودية وكذلك ٤,٣١٪ من الحرفيين.

وكانت الحركة الحسيدية منتشرة في صفوف يهود روسيا، وكذلك الحركات الثورية العدمية، كما ظهرت طبقة وسطى يهودية اكتسبت الثقافة الروسية. وكان نظام التعليم اليهودي التقليدي لا يزال قائماً إلى جانب المدارس العلمانية المختلفة. ومع أن الأغلبية كانت تتحدث اليديشية، فإن تعلُّم اللغة الروسية بشكل جدي بدأ يقطع أشواطاً كبيرة، كما فُتحت مدارس لتعليم العبرية بتأثير الحركة الصهيونية.

وقد صدرت عام ١٨٨١ قوانين مايو التي منعت إنشاء أية مستوطنات خارج مدن منطقة الاستيطان، وتقرر أن اليهود الذين يعيشون في بعض قرى منطقة الاستيطان يحق لهم السكنى في هذه القرى دون غيرها. وأُعطي الفلاحون حق طرد أعضاء الجماعة اليهودية الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وأحياناً كان يُحظر على اليهود الإقامة في بعض المدن، مثل روستوف ويالطا، كما طُرد آلاف الحرفيين اليهود من موسكو إلى منطقة الاستيطان. وكانت هذه القرارات تعبيراً عن تَعثُّر التحديث في روسيا. وقد بُدئ في تخفيف حدة هذه القيود ابتداءً من عام ١٩٠٣ بسبب الضغوط على الحكومة الروسية، فصُرِّح لأعضاء الجماعة اليهودية بالاستيطان في بعض القرى التي اكتسبت شكلاً حضرياً، وصدرت تعليمات عام ١٩٠٤ تصرِّح لهم بالاستيطان خارج مناطق الاستيطان، وأيضاً بالاستقرار في المناطق الزراعية الواقعة في نطاق هذه المناطق.

وقدَّمت العناصر الديموقراطية في الدوما (البرلمان) الروسي عام ١٩١٠ مشروع قرار لإلغاء منطقة الاستيطان، ولكن العناصر الرجعية وقفت ضده، وأُلغيت المنطقة نهائياً بعد الثورة البلشفية.

ومع قيام الثورة البلشفية، وإلغائها منطقة الاستيطان، وفتحها كل روسيا أمام اليهود للاستقرار فيها، وإتاحتها فرص الحراك الاجتماعي والتنوع الوظيفي والاقتصادي، هاجر الألوف من اليهود إلى داخل روسيا. وبالتالي، نجح الاتحاد السوفيتي في القضاء على الأساس السكاني والحضاري للهوية اليهودية اليديشية وهو ما أدَّى إلى اختفاء هذه اللغة بحيث يمكننا أن نقول إنها تكابد الآن سكرات الموت.

أوديسا

مدينة بناها القياصرة على البحر الأسود مكان مدينة تركية صغيرة كانت تُسمَّى «خاتجيبي» استولت عليها القوات الروسية عام ١٧٨٩ ولم يكن بها حينذاك سوى ستة من اليهود. وفي محاولة لتطوير المدينة، شجعت الحكومة القيصرية كل العناصر البشرية على الاستيطان فيها، فأصبح الأقنان الذين استقروا فيها مستأجرين أحراراً. وأصبحت أوديسا المركز التجاري الصناعي لجنوب روسيا أو روسيا الجديدة. وكانت أهم السلع التي تصدَّر منها الحبوب. فزاد حجم الصادرات خمس مرات. وأُسِّست فيها جامعة، عام ١٨٦٥، وعدد من المسارح بل ودار للأوبرا.

واجتذبت أوديسا أعداداً كبيرة من الأجانب حتى أنهم كانوا يشكلون ثلاثة أرباع السكان حتى عام ١٨١٩. وفي عام ١٨٥٠، كان مجموع السكان ٩٠ ألفاً منهم عشرة آلاف أجنبي. وقد تخصَّص كل عنصر بشري في نشاط اقتصادي ما، فكان اليونانيون والإيطاليون والألمان من تجار الجملة، وكان الفرنسيون يشتغلون بتجارة الخمور وتجارة التجزئة، كما كان اليهود القراءون يشتغلون في تجارة التبغ والسلع الشرقية، أما اليهود الحاخاميون فاضطلعوا بعدة وظائف تجارية ومالية تتداخل مع الوظائف الاقتصادية للأقليات الأخرى. وكان الجو الأممي (كوزموبوليتاني) في المدينة متطرفاً بمعنى الكلمة حتى أن أسعار تحويل العملات كانت تُكتَب باليونانية وكانت لغة الحديث بين الناس الفرنسية، وكانت علامات الطرق تُكتَب بالإيطالية والروسية، وكانت الفرق المسرحية تُقدِّم المسرحية الواحدة بخمس لغات مختلفة (وهي تشبه إلى حدٍّ ما في هذا الإسكندرية قبل

قيام ثورة ١٩٥٢). وقد ساد الفكر المركنتالي سيادة تامة في أوديسا حتى بين صفوف البيروقراطية الروسية. فالهدف الذي حددته الحكومة لهم هو تحويل المدينة إلى ميناء تُصدِّر منه روسيا صادراتها الزراعية، خصوصاً القمح. ولذا، حكَّمت البيروقراطية مفاهيم المنفعة وقيمها وهو ما أدَّى إلى تَناقُص تعصبها ضد أعضاء الجماعة اليهودية والأجانب بسبب نفعهم. لكل هذا، كانت أوديسا نقطة جذب لأعداد كبيرة من يهود روسيا من جميع الطبقات الذين كانوا يرفضون الجيتو واليهودية الحاخامية والذين كانوا يشعرون بالرغبة في الهرب من منطقة الاستيطان. بل استقر في أوديسا مهاجرون يهود من جاليشيا وألمانيا، ليتمتعوا بالحريات التي مُنحت لأعضاء الجماعة اليهودية فيها وبالجو الأممي. ولذا، تزايد عدد اليهود من ١٠٪ من كل السكان عام ١٧٩٥ إلى ٢٠٪ (١٢ ألف يهودي) عام ١٨٤٠ ثم إلى ٣٤,٤٪ (١٦٥ ألفا) عشية الحرب العالمية الأولى.

وأصبحت أوديسا مركزاً لثاني أكبر تجمُّع يهودي في الإمبراطورية الروسية بعد وارسو عاصمة بولندا التابعة لروسيا آنذاك. وكان أعضاء الجماعة اليهودية جزءاً عضويا من اقتصاد المدينة الجديدة، فساهموا في نموها الاقتصادي حتى بلغت نسبة أعضاء الجماعات اليهودية ٥٦٪ من أصحاب الحوانيت الصغيرة و٦٣٪ ممن يعملون في الحرف اليدوية وتصدير الحبوب والصيرفة والصناعة الخفيفة. وكان يوجد عدد كبير منهم في المهن الحرة. وفي عام ١٩١٠، كان ٨٠٪ من تجارة تصدير الحبوب يمتلكها أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يمتلكون ٥٠٪ من تجارة الجملة بشكل عام. كما كان يوجد عدد كبير من العمال اليهود (يشكلون ثلث عدد اليهود) انتشرت بينهم الحركات الثورية. وساد الاندماج واكتساب الصبغة الروسية، وظهرت طبقة من المثقفين اليهود الذين تبنوا مُثُل الحضارة الروسية والذين كان بوسعهم تحقيق درجة كبيرة من الحراك الاجتماعي في جو ثقافي منفتح. وتَدعَّم هذا الاتجاه نحو الانفتاح حينما صدرت قوانين ألكسندر الثاني عام ١٨٦٠ التي حُرِّر بمقتضاها الأقنان وسُمح لأعضاء الجماعة اليهودية بدخول الجامعات.

وتعاظم نفوذ العناصر الليبرالية الداعية إلى التنوير حتى أصبحت أوديسا أول مدينة يتولى قيادة الجماعة اليهودية فيها دعاة التنوير الذين تعاونوا مع السلطات لضرب المؤسسة الدينية اليهودية وللقيام بعمليتي الترويس والدمج. ففُتح العديد من المدارس اليهودية وكانت لغة التدريس فيها الروسية، كما كانت الموضوعات التي تُدرَّس فيها موضوعات علمانية عامة، ولم تشغل الموضوعات اليهودية سوى مرتبة ثانوية. ودخل العديد من الأطفال اليهود المدارس الحكومية الروسية. وإلى جانب هذا، أُسِّست في أوديسا أول مدرسة عبرية على النمط الغربي، وهذا يعكس التناقض الأساسي الكامن في حركة التنوير في روسيا التي كانت تدعو إلى الاندماج في المجتمع ولكنها كانت تدافع في الوقت نفسه عن الأشكال اليهودية التقليدية. وقد بلغ عدد الطلبة اليهود في مدارس أوديسا ثلاثة أضعاف النسبة داخل منطقة الاستيطان. وأُسِّست فيها جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا والتي كانت تهدف إلى ترويس أعضاء الجماعة.

واشتهرت أوديسا بتراخي أهلها عن إقامة الطقوس والشعائر وتخليهم عن القيم الدينية اليهودية (بل وعدم الاكتراث بها في كثير من الأحيان) حتى كان يُضرَب بها المثل: "إن نار جهنم تشتعل حول أوديسا على مسافة عشرة فراسخ".

وكان مصير أوديسا مثل مصير حركة التنوير في روسيا، فمع تعثُّر التحديث حدث هجوم (بوجروم) على اليهود عام ١٨١٧ بسبب صراعهم مع جماعة وظيفية أخرى وهي الجماعة اليونانية. ولم يُحسَم التناقض داخل حركة التنوير في روسيا لصالح الاندماج كما حدث في إنجلترا وفرنسا وألمانيا، ولذا نجد أن بعض شرائح دعاة التنوير من مثقفي الطبقة الوسطى يتبنون الحل الصهيوني، فصدرت في أوديسا نداءات ليلينبلوم وبنسكر بعد أن شهدت نشاطاتهم الاندماجية من قبل. وأصبحت المدينة مركزاً لجماعة أحباء صهيون وجمعية بني موسى التي أنشأها آحاد هعام، وارتبطت بأسماء كثير من الزعامات الصهيونية مثل أوسيشكين وديزنجوف وبياليك وجابوتنسكي. كما صدر فيها عدد كبير من المجلات الأدبية العبرية، فأصبحت المدينة مركزاً للثقافة العبرية ولنشرها. وكانت تُنشر فيها مجلة آحاد هعام هاشيلواح.

وبعد الثورة البلشفية، استمر عدد اليهود في الزيادة إذ بلغ ١٨٠ ألفاً عام ١٩٣١، ولكن نسبتهم إلى عدد السكان أخذت في الانخفاض فأصبحوا يشكلون ٢٩,٨٪. ولا يزال يوجد بعض أعضاء الجماعة اليهودية في أوديسا، ولكن أعدادهم آخذة في التناقص.

وهذا يتفق، في واقع الأمر، مع النمط العام لتطور الجماعة اليهودية، فمع تَزايُد التصنيع زاد انتشار أعضاء الجماعة وانتقلت أعداد كبيرة منهم من المناطق السكنية القديمة إلى المناطق الصناعية الجديدة.

الترويس

«الترويس» مُصطلَح قمنا بنحته من لفظة «روسيا»، وهو على صيغة المصدر من الفعل المنحوت «روَّس». ويشير هذا

المصطلح إلى صبغ الأقليات الدينية والعرْقية والإثنية في الإمبراطورية القيصرية بالصبغة الروسية، وهو جزء من عملية التحديث والتوحيد التي قامت بها الإمبراطورية الروسية وحاولت من خلالها فرض سلطة الحكومة المركزية على كل جوانب الحياة الخاصة والعامة للمواطنين بحيث يصبح انتماؤهم لها كاملاً وولاؤهم نحوها غير منقوص. وقد كانت الجماعة اليهودية إحدى هذه الأقليات، فحاولت الحكومة القيصرية أن تشجعهم أو ترغمهم على أن يغيِّروا لغتهم اليديشية ويتحدثوا الروسية أو البولندية أو الألمانية، وأن يستبدلوا بأزيائهم أزياء غربية حديثة ويرسلوا أولادهم إلى مدارس روسية علمانية أو مدارس روسية يهودية مختلطة. وعملية الترويس، في جوهرها، عملية تحديث وعلمنة، وهي تتداخل مع عمليات أخرى مثل «التطبيع» و«تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج». وقد نشأت جمعيات مثل جمعية نشر الثقافة الروسية بين اليهود الروس في أوديسا لتشجيع هذا الاتجاه. كما أن تجنيد الشباب اليهودي في الجيش الروسي في سن مبكرة كان من أنجع الوسائل.

ومع هذا، فإن كل هذه المحاولات باءت بالفشل إلى حدٍّ كبير لأن عملية الترويس كانت في جوهرها عملية إعلامية سطحية لم تواكبها تحولات بنيوية في المجتمع تفتح السبل أمام أعضاء الجماعة اليهودية ممن يرغبون في اكتساب الهوية الروسية المطروحة أمامهم. ولكن، بعد الثورة البلشفية، حدثت هذه التحولات البنيوية ومن ثم تصاعدت عملية الترويس. ويُلاحَظ أن هذه العملية، التي بدأت كجزء من مخطَّط فُرض بشكل فوقي، أصبحت حركية تلقائية نابعة من داخل الجماهير اليهودية في روسيا وغير مفروضة عليهم. فانصرافهم عن اللغة اليديشية تعبير عن الرغبة الإنسانية العامة في الحراك الاجتماعي حتى لو كان على حساب الهوية. وقد استمرت هذه العملية إلى أن اختفت اليديشية تقريباً وتروَّس يهود اليديشية، ومن ثَمَّ يُشار الآن إلى المهاجرين السوفييت إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، بأنهم «الروس» وحسب. وعملية الترويس، في مراحلها التلقائية (أي حينما لا تحتاج إلى أي قسر خارجي) لا تختلف عن أمركة أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة أو أيٍّ من مختلف عمليات الدمج الحضاري التي يمر بها أعضاء الأقليات الإثنية والدينية المختلفة.

١٦ ـ الاتحاد السوفيتي

الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٧ حتى الحرب العالمية الثانية

أخذت حدود الاتحاد السوفيتي شكلها النهائي عام ١٩٢٠. وكان هذا يعني أن عدداً كبيراً من اليهود الذين كانوا يعيشون داخل مناطق تابعة لدول حصلت على استقلالها (بولندا وليتوانيا ولاتفيا وإستونيا وبيساربيا التي ضُمت إلى رومانيا) أصبحوا تابعين لهذه الدول. ولم يبق سوى ٢,٦٨٠,٠٠٠ يهودي داخل الاتحاد السوفيتي (مقابل ما يزيد على خمسة ملايين قبل الحرب)، ٨٠٪ منهم كانوا يعيشون في أوكرانيا وروسيا البيضاء. كانت أوكرانيا تضم ١,٥٧٤,٤٢٨ (٥,٤٪ من مجموع سكانها)، وكانت روسيا البيضاء تضم ٤٠٧,٤٢٨ (٨,٢٪ من مجموع سكانها). كما كانت الجمهوريات الآسيوية تضم ١٠٩,٨٥١ (٠,٤٠٪ من مجموع سكانها). وزاد عدد اليهود إلى ما يزيد على ثلاثة ملايين عشية الحرب العالمية الثانية. وتركَّز ٨٧٪ من جملة اليهود في المدن، وتركَّز ٤٠٪ منهم في ست مدن على وجه التحديد، وكان أعضاء الجماعة يعملون أساساً بالتجارة.

وكانت أولى الخطوات التي اتخذتها الحكومة البلشفية هي إعتاق اليهود وإعطاؤهم حقوقهم السياسية كافة. فأصبحت معاداة اليهود جريمة تصل عقوبتها إلى الإعدام، وحُدِّد الانتماء العرْقي على أساس اختيار المواطن ووفق ما يدلي به كل فرد باختياره المحض، كما تم الاستناد في تحديد الانتماء القومي إلى اللغة التي يحدد العضو أنها لغته القومية. ولكن الحكومة البلشفية أهملت، مع هذا، الجوانب الخاصة للمسألة اليهودية في روسيا، وقللت من شأن سماتها المحددة ربما بسبب رؤيتها الثورية الأممية. فلينين ومن بعده ستالين، تأثرا بتجربة ماركس الألمانية وبطرحه العالمي أو الأممي للمسألة اليهودية الذي يرى أن ثمة ظاهرة يهودية عالمية واحدة وأن ثمة حلاً واحداً هو الثورة الاجتماعية ودمج اليهود. ففي ألمانيا التي كان يعرفها ماركس، لم تكن هناك كتلة بشرية يهودية ضخمة ذات سمات ثقافية محددة تضم الطبقات كافة، وإنما كانت هناك أقلية صغيرة معظم أعضائها من البورجوازية موزعون داخل دولة تسودها أغلبية متجانسة عرْقياً. ولذا، كان الاندماج هو الحل الأمثل بالنسبة إليها، على أن تَعقُب ذلك أو تتزامن معه ثورة اجتماعية. هذا هو الحل الذي طرحه ماركس وكاوتسكي وباور. وكان الحل الذي تبناه لينين والبلاشفة، مع بعض التعديلات، ليطبقوه على وضع مختلف تماماً. فنادى بأن لا أساس لوجود أمة يهودية مستقلة وأن شعار الثقافة اليهودية " هو

شعار الحاخامات والبورجوازية، شعار أعدائنا". وأن القضية هي ببساطة قضية انعزال واندماج وثورة اجتماعية. وطرح ستالين تعريفه الشهير للأمة وقال "إن اليهود أمة على ورق". ويُلاحَظ أن لينين وستالين يستخدمان مصطلح «أمة» بالمعنى العام للكلمة تماماً مثلما فعل ماركس. ولكن حيث إن التشكيل السياسي الروسي مختلف تماماً عن التشكيل السياسي الألماني، وحيث إن وضع الجماعات اليهودية داخله كان متميِّزاً، فإن تاريخ السياسة السوفيتية تجاه المسألة اليهودية في روسيا هو تاريخ التناقض بين الرؤية الماركسية الأممية (الألمانية) والواقع الروسي الخاص. ولعل أولى القضايا التي أفلتت من يد البلاشفة أن لفظ «يهودي»، في الاتحاد السوفيتي، كان يشير إلى عدة مجموعات حضارية ودينية واجتماعية علاقتها بعضها بالبعض واهية، فكانت لفظ «يهودي» يشير إلى:

١ - يهود روسيا الذين يتحدثون اليديشية في المقام الأول، أي يهود اليديشية، وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عمال وتجار صغار ورأسماليين كبار وفلاحين. ويُلاحَظ أن عمر الثقافة اليديشية كان قصيراً جدا، فلم يظهر الأدب اليديشي إلا في أواخر القرن التاسع عشر. ولذا، لم تثبت اليديشية كثيراً أمام تيارات التحديث وبدأت تظهر عليها أعراض الشيخوخة.

٢ - قطاعات من يهود روسيا تتحدث اليديشية ولكنها تكتب مؤلفاتها بالعبرية باعتبارها لغة العبادة في الماضي واللغة القومية في المستقبل، وهؤلاء كانوا أساساً من الصهاينة الذين بدأوا يؤسسون أدباً مكتوباً بالعبرية.

٣ - اليهود الذين تم علمنتهم ودمجهم في المجتمع الروسي ولا يتحدثون سوى الروسية.

٤ - اليهود ذوي الأصل الألماني ويتحدثون الألمانية.

٥ - اليهود القرائين الذين لا يؤمنون بالتلمود وكانت أعداد كبيرة منهم تتحدث التركية والتترية.

٦ - يهود جورجيا الذين يتحدثون الجورجية.

٧ - يهود الجبال الذين يتحدثون لغة التات، ويتبعون تشكيلات اجتماعية قبلية.

٨ - يهود بخارى ويتحدثون الطاجيكية وهي لهجة فارسية.

٩ - مجموعات قبلية يهودية صغيرة أخرى ذات تراث ثقافي متميِّز مثل الكرمشاكي.

١٠ - كما كانت لفظ «يهودي» يشير، بطبيعة الحال، إلى كل يهود العالم، خصوصاً يهود ألمانيا وفرنسا وإنجلترا.

وكان من الصعب، بطبيعة الحال، إطلاق لفظ «قومية» على كل هذه الجماعات اليهودية التي تتحدث بعدة لغات وتعيش داخل مناطق مختلفة وليست لها أرض مقصورة عليها (ربما باستثناء يهود الجبال والمجموعات القَبَلية الصغيرة الأخرى). ومن الناحية المنطقية المجردة، فإنهم ليسوا أمة على الإطلاق لأنهم لا يشكلون جميعاً قومية واحدة. ومع هذا، فمن الممكن اعتبارهم جماعات يهودية مختلفة، بعضها دون هوية إثنية خاصة مثل يهود إنجلترا وألمانيا، والبعض الآخر يتمتع بمثل هذه الهوية بدرجات متفاوتة من الاستقلال. وبدلاً من التفكير في إطار القومية العالمية، أو الجماعة الواحدة، كان من الممكن التفكير في إطار الجماعات القومية وغير القومية داخل التشكيل السياسي الروسي، وكان من الممكن طرح سياسات متعددة تختلف باختلاف الأوضاع الثقافية للجماعات اليهودية المختلفة. وهو ما لم يفعله السوفييت في بادئ الأمر، وإن كان الواقع فرض عليهم تعددية الحلول بعد أن ظلوا يتحركون داخل أطر "علمية" أحادية بسيطة.

شهدت الشهور الأولى للثورة اندلاع الحرب الأهلية في عدة مناطق من أهمها منطقة أوكرانيا الحدودية التي كانت تحارب فيها عدة جيوش من بينها الجيش الأوكراني القومي تحت قيادة بتليورا وعصابات الفلاحين التابعين له، والجيش الأحمر الذي كان يضم وحدات أوكرانية وجيوش صغيرة وقوات أخرى. ولجأت القوات السوفيتية إلى استخدام العنف ضد الفلاحين، خصوصاً وأن سياسة مصادرة الحبوب أدَّت إلى تمرُّد العناصر الفلاحية الأوكرانية التي رأت في أعضاء الجماعة اليهودية عناصر مقترنة بالنظام السوفيتي الجديد وبالسلطة الحاكمة، فهاجمتهم كما هاجمتهم قوات بتليورا. وأدَّى كل هذا إلى التفاف اليهود حول الثورة (وقد حلت كثير من التنظيمات اليهودية الاشتراكية نفسها وانضمت إلى الثورة، في حين تعاون الزعيم الصهيوني جابوتنسكي مع بتليورا وقواته). وانضم الشباب اليهودي في أوكرانيا وغيرها من المناطق إلى الجيش الأحمر الذي أسسه ليون تروتسكي وكان من قادته البارزين زينوفييف وسفردلوف. وفي عام ١٩٢٦، كان عدد الضباط اليهود ٤,٤٪ من مجموع ضباط الجيش الأحمر. ولعب أعضاء الجماعة اليهودية دوراً مهماً في إعادة بناء الهيكل الإداري للدولة الجديدة بعد أن هاجرت أعداد كبيرة من المثقفين والموظفين الروس البيض إلى الخارج.

ولكن، ورغم انعتاق اليهود سياسياً، فإن السياسة الاقتصادية للنظام السوفيتي تسبَّبت موضوعيا في اقتلاع اليهود وتغيير نمط حياتهم. فالثورة البلشفية (كما كانت تُطلق على نفسها) ثورة عمال وفلاحين، ولم تكن غالبية يهود روسيا عمالاً أو فلاحين. وحتى

أعضاء الطبقة العاملة من اليهود، كانت نسبتهم صغيرة. ولم يكونوا مرتبطين بالطبقة العاملة الروسية ارتباطاً حضاريا أو حتى اقتصاديا، إذ تركزوا في المصانع الصغيرة والحرف اليدوية وقطاعات معيَّنة من الصناعات الاستهلاكية. كما أن الظروف فرضت عليهم الارتباط إلى حدٍّ كبير بالرأسماليين اليهود الصغار. أما بقية اليهود من أعضاء البورجوازية الصغيرة والكبيرة، فكانوا إما يمتلكون صناعات استهلاكية، وإما يضطلعون بدور الوسيط التجاري في المدن الصغيرة.

وأدَّت الممارسات الاقتصادية البلشفية إلى اكتساح الأساس الاقتصادي لوجود الكتلة البشرية اليهودية وتركزها في مناطق معينة. فانفرط عقدها، وبدأت عملية ذوبانها التدريجي، وهي عملية استمرت حتى قُضي على معظم التجمعات السكانية اليهودية داخل منطقة الاستيطان.

وشهدت مرحلة شيوعية الحرب (١٩١٨ـ١٩٢١) عديداً من القرارات الاقتصادية ذات الطابع الثوري، مثل تحويل أجور المستخدمين إلى أجور عينية، وإجبار المزارعين على تسليم منتجاتهم من المواد الغذائية. كما اتُخذت قرارات أخرى كان لها تأثير مباشر على اليهود، مثل تأميم الصناعة والتجارة وفرض العمل الإجباري على البورجوازية.

ثم عدلت الحكومة الروسية مؤقتاً عن سياسة شيوعية الحرب وتبنت «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي عُرفت باسم «النيب» N.E.P (١٩٢١ـ١٩٢٧)، التي سمحت بأشكال من الاستثمار الخاص والنشاط التجاري والمصانع الصغيرة. واستفاد أعضاء الجماعة اليهودية أكبر استفادة من هذه السياسة الجديدة. وكان التوزيع الوظيفي ليهود روسيا عام ١٩٢٦ كما يلي: ١ ,١٩٪ في التجارة (كان ثُلث محلات موسكو عام ١٩٢٤ يملكها يهود)، وكان ٣ ,٣٤٪ في الصناعة والحرف، و٢ ,٩٪ في الزراعة، و٢ ,١٠٪ في وظائف إدارية ومهنية. ورغم أن عدد العاملين بالزراعة قد وصل إلى ٢ ,٩٪ مقارنة بنحو ٦ ,٢٪ حسب إحصاء عام ١٨٩٧، فإن نسبة المشتغلين بالتجارة كانت مرتفعة، كما يُلاحَظ أن نحو ٢٧٪ من العاملين اليهود كانوا غير مصنفين وظيفياً، ويُرجَّح أن أغلبيتهم كانت يمارسون التجارة والمضاربات سراً وتحت ستار أعمال أخرى (وكان هذا جزءاً من موروثهم الاقتصادي).

أدَّى كل ذلك إلى ظهور طبقة رجال النيب في المدينة والكولاك في القرية، الأمر الذي كان يهدد الأساس الاقتصادي للنظام الجديد. ورغم أن التجارة كانت مهنة مشروعة، فإن الدولة البلشفية الجديدة لم تكن سعيدة بهذا التطور إذ كانت تنظر بعين الشك إلى القطاعات الاقتصادية المستفيدة.

ثم تم التراجع عن هذه السياسة، وبدأت الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٧ـ١٩٣٢) التي تشكل بداية عملية التذويب الحقيقية لأعضاء الجماعة. فحسب إحصاءات العشرينيات، كان ثُلث اليهود ينتمون إلى طبقات اقتصادية، مثل طبقة صغار التجار، محكوم عليها بالاختفاء نتيجة إعادة صياغة الاقتصاد السوفيتي. ويُقال إن نحو ٠٠٠ ,١٢٠ ,١ يهودي اضطروا إلى إغلاق تجاراتهم الصغيرة فزاد عدد العاطلين عن العمل على مليون، واتجهت أعداد منهم إلى التعامل في السوق السوداء.

وقرر الاتحاد السوفيتي حل مسألته اليهودية عن طريق عمليتين مختلفتين متناقضتين وإن كانتا قد أدَّتا، كل واحدة منهما على طريقتها، إلى دمج أعضاء الجماعة اليهودية. أما الأولى، فهي سياسة توجيه اليهود نحو الزراعة والاستيطان الزراعي، وهي استمرار لمحاولات الحكومة القيصرية التي استهدفت تحويل اليهود إلى عنصر منتج. فأُسِّست لجنة الاستيطان الزراعي اليهودي (كوزمت). وطُبِّقت التجربة في أوكرانيا بقدر معقول من النجاح، ولكن كان التركيز على بعض مراكز الاستيطان الزراعي السابقة مثل جنوب روسيا أو روسيا الجديدة التي كانت تضم أربعين ألف فلاح يهودي. ووقع الاختيار أيضاً على شبه جزيرة القرم حيث كانت توجد مناطق صالحة للاستيطان الزراعي. وساهمت منظمات التوطين الغربية، مثل جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) التي أسسها المليونير الألماني اليهودي هيرش، ولجنة التوزيع المشتركة في هذه العملية. وزاد عدد المزارعين اليهود زيادة هائلة، وزادت الرقعة الزراعية التي يشغلونها أربعة أضعاف. وبلغ عدد المزارع التعاونية اليهودية خمسمائة مزرعة حتى أواسط الثلاثينيات، وهي الفترة التي وصلت فيها التجربة إلى قمة ازدهارها. وبلغ عدد اليهود العاملين بالزراعة ١٥٥ ألف مزارع يهودي عام ١٩٢٦، أي ٦٪ من العاملين اليهود، ثم زاد إلى ٢٢٠ ألفاً عام ١٩٢٨، أي ٥ ,٨٪، ثم إلى نحو ٣٠٠ ألف في أوائل الثلاثينيات، أي ١ ,١٠٪. ويُلاحَظ أن اضطلاع اليهود بالعمل في الزراعة لا يعني بالضرورة العمل اليدوي، وإنما يعني في الواقع قطاع الزراعة ككل بما في ذلك الأعمال الكتابية والإدارية التي كان يتركز فيها أعضاء الجماعة اليهودية. ولكن، بعد فترة، توصل المسئولون السوفييت إلى أن شبه جزيرة القرم لا توجد فيها أرض زراعية كافية، كما أن التوطين الزراعي يؤدى إلى زيادة التماسك العائلي وهو ما يدعم عملية الانفصال اليهودي. وإلى

جانب هذا، عارض بعض السكان المحليين عملية توطين اليهود بينهم. ويُقال أيضاً إن القيادة السوفيتية وجدت أن شبه جزيرة القرم منطقة مهمة من الناحية الإستراتيجية تقع على مقربة من غرب أوربا، وقد يؤدي تركيز عنصر يهودي فيها إلى خلق مشاكل ذات طابع أمني في المستقبل. وشهدت الثلاثينيات بداية عملية الزراعة الجماعية والتي كانت أيضاً عملية تذويب إذ تم ضم عناصر غير يهودية في الكولخوزات اليهودية. وأدَّت العناصر السابقة جميعاً إلى القضاء على تجربة الزراعة اليهودية.

وفي عام ١٩٢٨، تقرَّر أن تكون بيروبيجان منطقة الاستيطان الزراعي اليهودية وإحدى وسائل دمج اليهود في المجتمع السوفيتي على المستويين الاقتصادي والثقافي. ولكن لم يُقدَّر لهذه التجربة أي نجاح، وأدَّى الغزو النازي إلى تدمير جميع المستوطنات الزراعية في أوكرانيا والقرم ولكن لم يجر تشييدها بعد الحرب.

فشلت تجربة بيروبيجان، كما فشلت محاولة توجيه اليهود من المدن والتجارة إلى قطاع الزراعة، لا بسبب طبيعة اليهود التجارية وانعزاليتهم (كما ادعى خروتشوف) وإنما بسبب التحول العميق في الاقتصاد السوفيتي من الزراعة إلى الصناعة. وهذه إحدى ثمرات مشروع السنوات الخمس الأولى (١٩٢٩ـ١٩٣٤)، وهي عملية متناقضة مع عملية التوطين الزراعي، ولكنها مع هذا أدَّت إلى دمج اليهود وتذويبهم ربما بمعدلات أكثر من تلك التي خطَّط لها السوفييت. وقد أكد مشروع السنوات الخمس أهمية التنمية الصناعية وخُصِّصت لها الاعتمادات الضخمة، الأمر الذي زاد الطلب على الأيدي العاملة وأتاح الفرص أمام أعضاء الجماعات اليهودية لأن يتحولوا إلى عنصر منتج من خلال الصناعة. وقامت المنظمات اليهودية التوطينية، مثل جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) ومنظمة إعادة التأهيل والتدريب (أورت) ولجنة التوزيع المشتركة، بفتح مدارس لتدريب اليهود على الحرف. كما قامت حكومات أوكرانيا وروسيا البيضاء بوضع خطط لتدريب الشباب اليهودي على الصناعة. ونجحت هذه الخطط في توفير أعمال في القطاع الصناعي والحكومي لآلاف اليهود خارج منطقة الاستيطان. ولم تكن هناك أية بطالة بين اليهود بحلول عام ١٩٣٠، بل نشأت من صفوف اليهود فئات جديدة من موظفي الحكومة والعاملين في المشاريع الصناعية. ونتيجة هذه التحولات، تزايدت هجرة اليهود إلى داخل روسيا وإلى المدن. وكانت هذه أكبر هجرة يهودية منذ التدفق اليهودي اليديشي إلى أمريكا في نهاية القرن السابق. وأدَّت هذه الهجرة، مثل الهجرة إلى الولايات المتحدة، إلى دمج اليهود واستيعابهم وحل المسألة اليهودية. وتظهر مدى راديكالية هذه العملية في الزيادة الملحوظة في عدد اليهود في أكبر مدينتين روسيتين، موسكو ولينينجراد، حيث كانتا تضمان ٢٦,٠٢٤ يهودي فقط عام ١٨٩٧. وأصبح عدد اليهود فيهما، بعد ما يقرب من أربعين عاماً، نحو ٥٧٥ ألفاً. وكل هذا يعني، في واقع الأمر، زيادة تَحلُّل المراكز السكانية اليهودية الضخمة، وتَوزُّع سكانها. وقد كانت أوكرانيا وحدها تضم عام ١٩٢٦ نحو ٧٦٪ من يهود روسيا، وانخفضت النسبة إلى ٦٢٪ عام ١٩٣٩، وهو اتجاه استمر حتى العصر الحديث. وتغيَّر وضع يهود روسيا الوظيفي إذ أصبح عدد العمال اليهود عام ١٩٣٩ نحو ٣٠,٦٪ (من كل العاملين اليهود) وعدد الحرفيين ١٠,١٪ وعدد الفلاحين في الكولخوز ٥,٨٪ (أي أن أكثر من نصف اليهود أصبحوا من العمال والفلاحين) و٤٠,٦٪ في أعمال كتابية، و٢,٩٪ في وظائف أخرى. ويُلاحَظ أن الوظائف الكتابية حلت محل التجارة باعتبارها أهم وظيفة يضطلع بها اليهود. وتضم الوظائف الكتابية في الاتحاد السوفيتي المؤلفين والعلماء والمثقفين والموظفين الحكوميين. وكان عدد اليهود العاملين في تلك الوظائف ٣٦٤,٠٠٠ منهم ١٢٥ ألف محاسب.

أما من الناحية الثقافية، فقد كان الاتجاه العام يسير نحو الدمج الثقافي أو تأكيد الثقافة اليديشية العلمانية اللادينية التي لا علاقة لها بالثقافة الدينية التقليدية. وقد أنشأت الحكومة السوفيتية عام ١٩١٨ قسماً خاصاً للشئون اليهودية يُسمَّى «يفيسكتسيا» أي «القسم اليهودي» (تم حله عام ١٩٣٠). ولما كان أعضاء الحزب اليهود من دعاة الاندماج، فإن هدف القسم اليهودي كان "نشر ديكتاتورية البروليتاريا بين الجماهير اليهودية". وقد انضمت إليهم قطاعات من البوند وعمال صهيون وحزب العمال اليهودي، حيث طالبوا بتشجيع اليديشية وسيلة للتعبير عن ثقافة يهودية علمانية معادية للدين اليهودي وللعبرية والتوراة. وقد قام القسم اليهودي بتصفية الأطر التعليمية التقليدية المتبقية بين اليهود، كالمدارس وما شابهها، ومنع تدريس العبرية، كما قام بتجريم النشاط الصهيوني، واعترف باليديشية لغةً رسمية حتى أصبحت إحدى اللغات المعترف بها في المحاكم وأصبحت تدار بها الجلسات. وكذلك شجع الأدب اليديشي، خصوصاً المسرح اليديشي، فشهدت الفترة ككل ازدهاراً حقيقياً لهذا الأدب. وأُسِّست كلية لدراسة الثقافة اليهودية، كما أُسِّست شبكة من المدارس الابتدائية والثانوية لغة التدريس فيها اليديشية، بالإضافة إلى كليات تربوية لإعداد مدرسين لليديشية. ووصل عدد اليهود الذين التحقوا بهذه المدارس إلى ٥١٪ من مجموع

الطلاب اليهود عام ١٩٢٦ . ولكن العدد بدأ في الانخفاض التدريجي، وهو ما يبين أن الانصراف عن اليديشية وتَقَبُّل الترويس (وهي العملية التي بدأت في حكم القياصرة) أصبحت عملية تلقائية تنبع من الحركيات الداخلية لأعضاء الجماعة الذين كانوا يفضلون إرسال أطفالهم إلى المدارس الحكومية الروسية لأن ذلك كان يعني زيادة فرص الحراك أمامهم. ولذا، نجد أن أعداد الطلبة اليهود في مدارس أوكرانيا وروسيا البيضاء أخذت في التزايد، وأخذت الثقافة اليديشية في الاختفاء التدريجي، خصوصاً مع تغيير الوضع الوظيفي ليهود روسيا وهجرتهم من مراكز التجمع التقليدية إلى المدن وابتعادهم عن مراكز الثقافة اليديشية التقليدية.

وهكذا انصرف كثير من اليهود عن التحدث باليديشية أو دراستها، وانصرف كثير من الكُتّاب اليهود الروس عن الكتابة باليديشية وبدأوا يكتبون بالروسية. وتناقص عدد الطلبة اليهود الذين يدرسون في المدارس اليديشية إلى ٣٣٪ عام ١٩٣١ ثم إلى ٢٠٪ عام ١٩٣٩ ، وأُغلقت عدة مدارس يديشية أبوابها لعدم وجود طلبة. كما أن الاندماج تبدَّى بكل وضوح في زيادة نسبة الزواج المُختلَط في الثلاثينيات إلى ٢٥٪ من مجموع الزيجات اليهودية. ويُلاحَظ أن معدلات الاندماج بين الشباب كانت أعلى بكثير من مثيلتها بين المتقدمين في السن. ويمكن القول بأن العقيدة اليهودية لم تَعُد أحد أشكال التضامن بين أعضاء الجماعة الذين بدأت عملية علمنتهم في منتصف القرن الماضي، ثم تصاعدت هذه العملية مع نهاية القرن، ثم أخذت شكلاً عقائدياً واعياً وحاداً مع ظهور الدولة السوفيتية.

وقد بلغ عدد أعضاء الجماعات اليهودية عام ١٩٣٢ نحو ٢,٨٧٠,٠٠٠ بزيادة قليلة نسبياً عنه عام ١٩٢٦ ، وذلك نتيجة تسارع تدفُّق اليهود نحو المدن وعدم توافر الزمن الكافي للاستقرار والزواج، إضافة إلى ما تحمله الحياة في المدينة من تعقيدات في الحياة اليومية تقلِّل الرغبة في الإنجاب. وقد بلغت الزيادة الطبيعية بين اليهود ١٪ في مدن روسيا، بينما وصلت ٢,٥٪ في الجمهوريات الآسيوية. وحسب إحصاء عام ١٩٣٩ ، بلغ عدد اليهود نحو ٣,٠٤٠,٠٠٠ ، أي بزيادة مقدارها ثلاثمائة ألف. وقد لاحظ المؤرخ الروسي سيمون دبنوف عام ١٩٣٥ ، عشية الحرب العالمية الثانية، أن أعضاء الجماعة اليهودية انفصلوا إلى حدٍّ كبير عن تاريخهم. وتنبأ بأن المليون ونصف المليون يهودي سيصبحون مواطنين سوفييت لا يهوداً، أي أن السمات اليهودية المقصورة على اليهود والتي تميزهم كيهود ستأخذ في الضمور والتحلل إلى أن تختفي تماماً ويصبح اليهود السوفييت مجرد مواطنين سوفييت لا يختلفون عن بقية المواطنين في شيء، وقد أثبتت التطورات التاريخية اللاحقة صدق نبوءته اللاحقة. أما حملة التطهير التي شنها ستالين بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩ ضد كوادر الحزب الشيوعي وقياداته، والتي شملت العديد من أعضاء الجماعة اليهودية، مثل زينوفييف وكامينيف وراديك وغيرهم، فلم تترك أثراً ملحوظاً في أغلبية اليهود الذين كانوا ينظرون إلى ما يجري باعتباره صراعاً بين ستالين ومعارضيه أو بين الستالينية والتروتسكية.

الاتحاد السوفيتي من الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر

ضمت روسيا في الفترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ أراض تضم أعداداً كبيرةً من اليهود (جاليشيا الشرقية وليتوانيا وبيسارابيا وبوكوفينا وغيرها). وقد رحبت الجماهير اليهودية بالضم السوفيتي إذ وجدت فيه حماية لها من الغزو النازي الوشيك. ولكن، مع عام ١٩٤١ ، قامت القوات النازية بطرد الاتحاد السوفيتي نفسه وضم سائر المناطق التي كان قد ضمها من قبل، فهرب ما يزيد على مليون يهودي منها. وبذلت الحكومة السوفيتية جهداً غير عادي لنقل اليهود، وأعطت الأولوية لهذه العملية. وساهم ذلك بدوره في عملية اقتلاع اليهود من مناطق تجمُّعهم التقليدية. أما بقية أعضاء الجماعة، فسقطوا في يد النازيين حيث تمت إبادتهم باعتبارهم أوست يودين (يهود شرق أوربا)، كما تمت إبادة أعضاء بعض الجماعات والأقليات الأخرى. وشهدت السنوات التي تلت الحرب مباشرة فترة الإرهاب الستاليني الذي يُقال إنه كان ذا نبرة عنصرية واضحة ومعادية لليهود.

ومع هذا، فإن عملية الدمج والترويس أصبحت حركياتها داخلية تنبع من داخل الجماعة نفسها وليست مفروضة عليها من الخارج من قبل الحكومة. وقد تزايدت بحيث أصبح الدمج اندماجاً. ولا يزال أعضاء الجماعة مركَّزين أساساً في المدن العظمى. ويُلاحَظ أن عدد اليهود المشتغلين بالزراعة قد تناقص، وحتى أولئك الذين يعملون في الريف معظمهم يقوم بأعمال كتابية. ويلعب أعضاء الجماعة دوراً متميزاً في المؤسسات التجارية السوفيتية. كما يُلاحَظ أيضاً أن عدد اليهود العاملين في التجارة الحرة، في أواخر الخمسينيات، بلغ نحو نصف مليون فرد من مجموع عدد العاملين في التجارة من عموم المواطنين السوفييت البالغ عددهم نحو خمسة ملايين. وهكذا شكَّل التجار اليهود نسبة ٢٠٪ من مجموع العاملين بين أعضاء الجماعة ونسبة ١٩٪ من مجموع التجار، بينما لم تزد نسبة اليهود إلى عدد السكان على ١٪. وقد قامت الحكومة السوفيتية

في أوائل الستينيات بحملة ضد النشاطات الاقتصادية غير المشروعة، وسنت قانوناً بمعاقبة مرتكبي الجرائم الاقتصادية بالإعدام، وتم تنفيذ العقوبة في عدد من المتهمين بلغ عددهم حوالي ١١٢ تاجراً من تجار السوق السوداء كان نصفهم من اليهود.

وشهدت أواسط الخمسينيات، والسنوات التي تلتها، ارتفاعاً بالغاً في عدد الطلاب اليهود بالمعاهد العليا والجامعات وهو ما نتج عنه زيادة عدد المشتغلين (من اليهود) بالمهن الحرة.

وبصفه عامة، يتمتع يهود الاتحاد السوفيتي بأعلى مستوى تعليمي بالمقارنة بسائر القوميات السوفيتية. ففي جمهورية روسيا الاتحادية تلقى ٣٤٤ يهوديا تعليماً عالياً من بين كل ألف (مقابل ٤٣ فقط بين الروس). وإذا استبعدنا العجزة حيث تكون نسبة التعليم العالي بينهم منخفضة، وإذا استبعدنا المرحلة العمرية ١١-٢٢، حيث لم يكمل أعضاؤها دراستهم بعد، يصبح عدد المتعلمين تعليماً عالياً بين اليهود ستمائة لكل ألف. وتشير إحصاءات تعداد عام ١٩٥٩ إلى أن نسبة اليهود الحاصلين على ٧ سنوات من التعليم أو أكثر هي ٦١٣ لكل ألف وهي نسبة فاقت مثيلتها بين القوميات الأخرى. كما نجد أن نسبة اليهود الحاصلين على تعليم عال كانت نحو ١٧٩ عام ١٩٥٩ لكل ألف شخص فوق ١٠ سنوات، زادت إلى ٢٢٩ عام ١٩٧٠ بالمقارنة بنحو ٦٢ لكل ألف على مستوى إجمالي السكان السوفييت.

وقد شكل اليهود عام ١٩٥٦-١٩٥٧ نحو ٢,٤٪ من طلبة الجامعات والمعاهد العليا، إلا أن هذه النسبة انخفضت إلى ٢,١٪ عام ١٩٧٨ حيث شهدت فترة ١٩٦٥-١٩٧٨ انخفاضاً كبيراً في أعداد الطلاب اليهود (بنسبة ٤٦,٧٪) نتيجة الهجرة إلى الخارج وارتفاع متوسط أعمار السكان اليهود وما ترتب عليه من تقلُّص حجم من هم في السن الجامعي.

ولا يوجد اليهود كعمال، سواء في الصناعة أو الأعمال الزراعية، إلا بشكل هامشي يكاد لا يُذكَر، حتى أن الإحصاءات في العقدين الأخيرين لا تورد أية إحصاءات عن عدد اليهود في المعامل والمصانع الثقيلة أو الزراعية.

وقد كانت هناك نسبة عالية من اليهود في القيادة العليا للجيش السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن خلال أعوام ١٩٤٨ - ١٩٥٣ أُحيل ٣٣٣ من القيادات العليا من اليهود للتقاعد، ولم يتبق يهودي واحد عام ١٩٥٣ بين صفوف كبار الضباط. ويبدو أن بعض المهن مثل الجيش والأجهزة الأمنية والخارجية وغيرها مغلقة تقريباً أمامهم. ويُلاحَظ أن ٧٥٪ من العاملين اليهود حاصلون على تعليم عال ويتجهون إلى التمركز في المهن العلمية والحرة مثل الهندسة والطب والعلوم، ففي عام ١٩٦٤ شكل اليهود ١٤,٧٪ من إجمالي الأطباء في الاتحاد السوفيتي، و٨,٥٪ من إجمالي الكُتَّاب والصحفيين، و١٩٪ من الموسيقيين، و١١٪ من العاملين في مجالات البحث العلمي. وتدل هذه النسب على أن أعضاء الجماعات اليهودية أصبحوا يتمتعون بأوضاع اقتصادية متميزة عن بقية شعوب الاتحاد السوفيتي وبشكل أدَّى إلى منح أبناء الفئة التجارية بشكل خاص فرص دخول الجامعات والمعاهد العليا بدلاً من أن تضطرهم الحاجة الاقتصادية إلى التوجه نحو العمل في المعامل والمصانع. كما تدل من جهة ثانية على تمتعهم بالمساواة التامة في الحقوق، وعلى عدم فرض أية قيود للحد من ارتفاع نسبتهم في الجامعات والمعاهد العليا.

أما في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، فقد انخفضت هذه النسبة حيث شكل اليهود ٥,٤٪ من مجموع العاملين في مجال البحث العلمي، و٦٪ من مجموع العاملين في مجال الفن والثقافة والأدب والصحافة، و٣,٤٪ في الطب، و٦٪ في القانون، و٧,٦٪ من إجمالي العلماء الحاصلين على درجات علمية عليا. ويُلاحَظ أن ما ينخفض هو نسبة المهنيين اليهود إلى نسبة المهنيين على المستوى القومي. أما عدد اليهود المهنيين نفسه فهو آخذ في الارتفاع، فقد زاد عددهم من ٢٦٠,٩٠٠ إلى ٣٨٩,٠٠٠ في الفترة من ١٩٥٧ حتى ١٩٧٧، ولكن نسبتهم إلى مجموع المهنيين الروس في الفترة نفسها انخفضت من ٩,٣٪ إلى ٣,٧٪. وانخفضت كذلك نسبة العاملين في مجال البحث العلمي من ١٨٪ عام ١٩٤٧ إلى ٥,٣٪ عام ١٩٧٧ وإلى ٤,٥٪ عام ١٩٨٢. والواقع أن أسباب هذا الانخفاض هو ارتفاع متوسط أعمار اليهود العاملين مقارنة بمتوسط أعمار العاملين من السكان السوفييت، واقتراب الكثيرين منهم من سن التقاعد، وانخفاض أعداد طلبة الجامعة من اليهود الذين يشكلون المصدر الأساسي لهذه الاختصاصات. وبالتالي، يلعب اليهود دوراً أقل في مجال العلوم والبحوث وتتركز غالبيتهم في المراكز ذات المكانة المتوسطة والدنيا في هذا القطاع. ويُلاحَظ أن دخل اليهودي السوفيتي أعلى من دخل المواطن السوفيتي، وهذا أمر مفهوم إذ أن عدداً كبيراً من يهود الاتحاد السوفيتي من المهنيين وهم الفئة المتميِّزة في المجتمع السوفيتي.

أما نسبة اليهود في الحزب الشيوعي، فقد شكلت في أوائل الستينيات واحدة من أعلى النسب القومية المختلفة داخل

الحزب. إذ قُدرت هذه النسبة بنحو ٣,٥٪ عام ١٩٦١، بينما كانت نسبتهم إلى عدد السكان أقل من ذلك بكثير. كما بلغت نسبتهم عام ١٩٨٢ نحو ١,٥٪ (استناداً إلى تقدير أن عدد الأعضاء اليهود في الحزب نحو ٢٦٠ ألفاً) وذلك من مجموع أعضاء الحزب البالغ في ذلك الحين نحو ١٤ مليون عضو. ولذلك، فإنهم يُعتبَرون سادس جماعة قومية مُمثَّلة في الحزب (عام ١٩٧٦).

ويُلاحَظ أن العدد الكلي ليهود الاتحاد السوفيتي كان آخذاً في التناقص. ولعل تركُّزهم في المدن وفي المهن الحرة يفسر سرّ تناقصهم وذوبانهم (كما هو الحال في الولايات المتحدة، حيث تؤدي السمات نفسها إلى النتائج نفسها). ويُعتبَر اليهود القومية الوحيدة في الاتحاد السوفيتي التي تناقص عددها. فقد قُدر عدد اليهود السوفييت بثلاثة ملايين بعد الحرب العالمية الأولى، ولكن عددهم نقص إلى ٢,٢٦٨,٠٠٠ عام ١٩٥٩. وقد أصبح يهود الاتحاد السوفيتي أقلية حضرية إذ يوجد ٢,١٦١,٧٠٢ من اليهود في المدن، ولا يوجد سوى مائة ألف يهودي تقريباً في الريف (بعضهم مندوبون للحزب ويعملون بالوظائف الكتابية الحسابية). وقد تناقص عدد أعضاء الجماعة عام ١٩٧٠ إلى ٢,١٥١,٠٠٠، أي أنه أصبح أقل من الإحصاء السابق بنحو مائة ألف نسمة، فإذا أضفنا إلى ذلك مجمل نسبة زيادة اليهود الطبيعية وهي ٢٥٠ ألفاً لاتضح أن نحو ٤٠٠ ألف يهودي قد ذابوا في المجتمع خلال فترة الستينيات. وحسب إحصاء عام ١٩٧٩، بلغ عدد يهود الاتحاد السوفيتي ١,٨١٠,٨٧٦، وهو ما يعني أن عددهم تناقص إلى ٣٤٠ ألفاً: ١٧٧ ألفاً (وفي إحصاءات أخرى ٢٠٠ـ ٣٠٠ ألف) من خلال الهجرة، أما الباقون (نحو ١٦٣ ألفاً) بسبب العوامل السكانية والاندماج. ويمكن أن تُضَم نسبة الزيادة الطبيعية المحتملة والتي يمكن أن نقدرها بنحو ١٥٠ ألفاً إلى النقص السابق في العدد (أي ١٦٣ ألفاً)، وذلك يعني أن نسبة الذوبان في نحو تسعة أعوام بلغت نحو ٣١٣ ألفاً.

وقد بلغ عدد يهود روسيا ٤١٥,٠٠٠ في عام ١٩٩٢، ويبلغ عددهم في روسيا البيضاء ٤٦,٠٠٠ (يذكر مصدر إحصائي آخر لعام ١٩٩٥ أن يهود روسيا هو ٦٠٠,٠٠٠ أما عدد يهود روسيا البيضاء فهو حسب هذا المصدر ٣٤,٠٠٠). ويُلاحَظ أن أكثر من نصف مليون يهودي سوفيتي يتحدثون الروسية يوجدون الآن في إسرائيل فإذا أضفنا لهذا العدد المهاجرين اليهود الروس إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول، فيمكن القول بأن يهود روسيا يوجدون الآن أساساً خارجها! ومن المعروف أن كثيراً من أعضاء النخبة من يهود اليديشية من أصل روسي، مثل: حاييم وايزمان وإسحق بن تسفي وزلمان شازار وجولدا مائير وموشيه شاريت وجابوتنسكي. فإذا أضفنا إلى هذه المجموعة أسماء النخبة من أصل بولندي (من يهود اليديشية أيضاً)، فيمكن القول بأن نخبة من يهود اليديشية هي التي تحكم الدولة الصهيونية.

وتشير المصادر إلى أن ظاهرة الزواج المختلط لا تزال منتشرة بين اليهود وإلى أن معظم هذه الزيجات تمثلت في زواج الذكور اليهود من إناث غير يهوديات. ويدعم هذه النظرية عدد الزيجات المختلطة بين المهاجرين السوفييت إلى إسرائيل. وقد تم الاستدلال، من إحصاء عام ١٩٥٩، على أن واحداً من بين كل سبعة يهود كان متزوجاً من غير يهودي. وقد تزايدت النسبة أخيراً، ففي إحصاءات عام ١٩٨٨ ظهر أن حوالي ٤٠ـ٥٠٪ من الزيجات اليهودية مختلطة (٥٨,٣٪ للذكور و٤٧,٦٪ للإناث). وتصل النسبة في بعض المناطق إلى ٨٠٪ (في روسيا الاتحادية تصل النسبة إلى ٧٣,٢٪ للذكور و٦٢,٨٪ للإناث). والأهم من هذا أن ٩٠٪ من أولاد المتزوجين زواجاً مختلطاً يُعرِّفون أنفسهم بأنهم غير يهود.

أما فيما يتصل بالوضع الديني، فإن القانون يسمح للمواطنين السوفييت بالتعبد، وكل ٢٠ متعبداً يمكن أن يكونوا جماعة دينية تُسمَّى «دفاتساتكا»، وهي جماعة خاضعة لإشراف لجنة السوفييت المحلية ومجلس شئون العبادات الدينية، ومخولة بتعيين وطرد أعضاء مجلس المعبد اليهودي. وكثيراً ما تغلق السلطات السوفيتية المعابد لأن عدد المتعبدين يقل عن عشرين. ولذا، تنتشر جماعات المنيان (النصاب اللازم لإقامة الصلاة اليهودية)، وهؤلاء يحق لهم التعبد بدون تسجيل، شريطة أن تتلقى السلطات إعلاماً بذلك قبل إقامة الصلاة. ويوجد حوالي ٦١ معبداً يهودياً وعدد صغير من الحاخامات، ولا يوجد حاخام أكبر، ولا توجد المواد اللازمة لإقامة بعض الشعائر. وعدد اليهود المتدينين ٦١ ألفاً حسب إحصاء ١٩٨٣ـ ١٩٨٥ أي ٣٪ من جملة اليهود. وتؤيد الإحصاءات الخاصة بالمهاجرين السوفييت هذا العدد إذ أن ٣٪ فقط منهم أرسل أبنائه إلى مدارس دينية.

وحتى تكتمل الصورة، لابد أن نشير إلى ظاهرة اليهود المتخفين، وهم المواطنون السوفييت من أصل يهودي الذين كانوا يخفون ذلك. وهؤلاء استفادوا من القانون السوفيتي الذي يعطي

المواطن الحق في اختيار جنسيته، فكثيرون اختاروا تسجيل أنفسهم على أنهم غير يهود. كما أن ٩٠٪ من أولاد الزيجات المختلطة كانوا، كما أسلفنا، يسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود. ويذهب جريجوري روزنشتاين (الديموغرافي الإسرائيلي) إلى وجود ٣,٥ مليون مواطن سوفيتي من سلالة يهودية لم يُصنَّفوا على أنهم يهود. ويسميهم لاست أهارون «اليهود المجهولون» (وهي تسمية خاطئة في تصورنا) ويقدر عددهم بما يتراوح بين ١,٣ مليون و١,٥ مليون، ولا يتأثر عدد هؤلاء بالهجرة، كما أنهم يتمتعون بمستوى تعليمي عال. ويذهب كثير من الدارسين إلى أن هؤلاء سيعرِّفون أنفسهم كيهود "حينما لا يؤدي ذلك إلى الإضرار بمكانتهم". ومن ثَمَّ، إذا استمرت إسرائيل مركز جذب بالنسبة إليهم، فإنهم سيعيدون تسجيل أنفسهم كيهود حتى يتسنى لهم الهجرة إليها.

ويبدو أن الصورة العامة تتجه نحو مزيد من الاندماج، وكان المنشقون لا يشكلون سوى جماعة صغيرة وضئيلة ليست لها قيمة تُذكَر، وغير قادرة على أن توقف عملية الاندماج التلقائية السريعة وتآكُل ثقافة يهود اليديشية وهويتهم الإثنية بعد أن ضعف انتماؤهم الديني، وهو الأمر الذي أوضحه المنشق الصهيوني شارانسكي بعد خروجه من الاتحاد السوفيتي.

وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من جو الانفتاح الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفيتي إذ بدأوا يحققون بروزاً لم يكونوا يتمتعون به من قبل. ولكن، بالمقابل، ظهرت بعض الجماعات الروسية القومية ذات التوجه الديني الأرثوذكسي (من أهمها جماعة باميات) والتي كانت تعادي أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم ممثلين للقوى المعادية للمسيحية والروح الروسية الأصيلة. وقد سمح الاتحاد السوفيتي لليهود بالهجرة، وأغلقت الولايات المتحدة الأبواب في وجههم، وبدأت المؤسسة الصهيونية في اعتماد الملايين لتوطينهم في الضفة الغربية على أمل أن تحل مشكلتها الاستيطانية.

وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه إلى «كومنولث الدول المستقلة»، ستظهر حركيات متنوعة يخضع لها أعضاء الجماعات اليهودية في هذه الدول، فيهود جورجيا قد يصبحون جزءاً من تشكيل حضاري مستقل سياسياً عن أوكرانيا، ولذا فإن الصورة في المستقبل ستكون مختلفة بشكل جوهري عن الصورة في الماضي. ومع هذا، يمكن القول بأن هناك بعض الثوابت مثل الميل للهجرة والاتجاه نحو السكنى في المدينة وعدم الإنجاب... إلخ.

١٧ ـ أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا وكندا وأستراليا

تعداد الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية ومعالمها الأساسية

لا تُعَدُّ الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية مهمة في ذاتها فعدد اليهود فيها صغير من البداية. كما أنهم لم يلعبوا دوراً كبيراً في النظم السياسية فيها ولم يقدموا أية إسهامات كبرى في تاريخها. لكن دراسة هذه الجماعات توضح كثيراً من الأبعاد المتصلة بالجماعات اليهودية في العالم كله. من أهم القضايا غياب التجانس والاندماج والانعزال وغيرها من القضايا. يبدأ تاريخ الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر بعد استقلال دولها وإلغائها محاكم التفتيش وإعلانها سياسة تضمن المساواة بين المواطنين. ويُعد عام ١٨٦٥ بداية تاريخ الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى كان عدد اليهود في أمريكا اللاتينية لا يزيد عن ١٥٠ ألفاً معظمهم في الأرجنتين، ٨٠٪ منهم من الإشكناز و٢٠٪ من السفارد ويهود البلاد العربية. وقد ظل الوضع الإحصائي كما هو دون تغيرات كبيرة، ففي عام ١٩٨٩ كان عدد يهود البرازيل ١٥٠ ألفاً وعدد يهود الأرجنتين ٢٣٠ ألفاً إلى جانب جماعات أقل عدداً في أورجواي والمكسيك وشيلي وفنزويلا. وبشكلٍ عام يتناقص عدد اليهود في أمريكا اللاتينية.

ويُلاحظ بشكلٍ عام أن نسبة أعضاء الجماعات اليهودية إلى شعوب أمريكا اللاتينيّة ضئيلة جداً لا تتجاوز ١,٠٪، وتتفاوت من دولة لأخرى. وقد اتجه المهاجرون أساساً إلى الأرجنتين بالدرجة الأولى ثم إلى بلاد أخرى مثل شيلي والبرازيل وأورجواي، وتتسم الدول التي اتجه إليها اليهود بعدة سمات في مقدمتها أن النسبة الأكبر من سكانها من البيض، وأن مستوى التعليم فيها مرتفع، وأنها دول متقدمة اقتصادياً ومستوى الدخل فيها مرتفع، بالإضافة إلى أنها دول ذات اقتصاد رأسمالي حر.

ويُلاحظ تركُّز الجماعات اليهودية في المدن الكبيرة، فالغالبية الساحقة من يهود الأرجنتين في العاصمة بيونس أيرس، بل إن يهودها يشكلون نصف يهود أمريكا اللاتينية، والنمط نفسه سائد في البرازيل وشيلي وأورجواي بنسب متفاوتة. وينطبق على يهود أمريكا اللاتينية مقولة «موت الشعب اليهودي» فهم آخذون في التناقص بوتيرة ملحوظة.

من القضايا المهمة التي تثيرها دراسة أوضاع الجماعات

اليهودية في أمريكا اللاتينية قضية الهوية، وهوية أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تشبه التركيب الجيولوجي التراكمي بسبب اختلاف العناصر الإثنية التي حملتها كل مجموعة يهودية من البلد الذي هاجرت منه، فهناك اليهود الإشكناز من شرق أوربا (اليديشية)، ويهود بوزنان في سلفادور وجواتيما، ويهود بيساريا والمجر في نيكاراجوا، ويهود بولندا في كوستاريكا وغيرها. وقد ساهم تنوُّع اليهود وتفرُّقهم في إضعاف هويتهم، فهذا التفرق منع وجود تنظيم واحد يضمهم جميعاً، فهناك تنظيمات على أسس دينية (أرثوذكس مقابل محافظين وإصلاحيين) أو على أسس إثنية (إشكناز مقابل سفارد) كما توجد داخل كل جماعة إثنية عشرات الجماعات. ومما يساهم في إضعاف الانتماء الديني أن الحاخامات الأرثوذكس هم المسيطرون على المؤسسات الدينية، وهم يرفضون إدخال أية تجديدات ويرفضون عقد زواج مختلط رغم تزايُد عدد الزيجات المختلطة. وبطبيعة الحال، يتزايد الانصراف عن الدين في صفوف الشباب، فقد أعلن ٥٥٪ من الطلبة اليهود الجامعيين في الأرجنتين أنهم لا يؤمنون بالإله، ولا يحضر الصلاة سوى ٤٪ من الشباب.

أما بالنسبة للوضع الطبقي لأعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية فتدخلت في صياغته عوامل في مقدمتها أنهم هاجروا بعد أن تشكَّل المجتمع وتم شغل المهن الإنتاجية كالزراعة والتعدين، ولذا ارتبط المهاجرون بأعمال الوساطة وارتبطوا بالتجارة والصناعة، وهما قطاعان كانا مهملين بسبب سيطرة القيم التقليدية الكاثوليكية التي ترتبط بالحسب والنسب وملكية الأراضي ولا تهتم بقيم النفعية والعقلانية. وقد لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً ريادياً مهماً بسبب تحرُّرهم النسبي وما لديهم من خبرات تجارية ومالية. ومن المهن التي عمل بها أعضاء الجماعات اليهودية مهنة البغاء التي تعد شكلاً من أشكال التجارة المتجولة. وقد تطورت مجتمعات أمريكا اللاتينية وتزايدت معدلات التصنيع والتحديث فأتيحت أمام اليهود فرص جديدة، وقد حققوا حراكاً اجتماعياً في الأرجنتين والبرازيل وشيلي. ففي الأرجنتين في السبعينيات كان ٣٧٪ من أعضاء الجماعات اليهودية يعملون في قطاع التجارة، و٢٢٪ في الصناعة، و١٠٪ مديرون، وفي الثمانينيات بلغت نسبة من يعملون في قطاع التجارة ٥٠٪. ويمكن وصف هذه العملية بتحول الجماعات اليهودية من جماعة مالية وسيطة إلى طبقة وسطى.

الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة: منظور مقارن

لا توجد أهمية خاصة للجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية من منظور الصراع العربي الصهيوني، فهي جماعات ضئيلة العدد لا تشكل "لوبي" داخل المجتمع اللاتيني. لكن لها أهمية قصوى من زاوية أخرى هي منظور دراسة الجماعات اليهودية في العالم ومحاولة تحديد سماتها وبنيتها، وعند مقارنتها بيهود الولايات المتحدة تزداد أهميتها.

ويمكن رؤية مصادر الاختلاف بين الجماعتين على النحو التالي:

١ - أهم نقاط الاختلاف أن الولايات المتحدة كيان سياسي ضخم موحَّد تحكمه دولة قومية واحدة، على عكس أمريكا اللاتينية التي انقسمت إلى عدة دول ودويلات. وقد شجعت عوامل طبيعية في جغرافية القارتين على وحدة إحداهما وتقسيم الأخرى، كما لعبت العوامل الثقافية دورها، فالتراث البروتستانتي شجع قيام دولة في الولايات المتحدة لأن البروتستانتية لا تدين بولاء لكنيسة عالمية، على عكس التراث الكاثوليكي ذي النزعة العالمية التي تعبِّر عن نفسها خارج حدود القومية.

٢ - النظام السياسي الأمريكي يستند إلى مُثُل عصر الاستنارة والإعتاق ومُثُل العقل والتجريب، ومن هنا فإنه رفض الماضي والتراث وركَّز على المستقبل، بينما مجتمعات أمريكا اللاتينية لم تقبل مُثُل عصر التنوير بل تم تأسيسها على أسس إقطاعية أو شبه إقطاعية وملكية وكاثوليكية، كما أن دول أمريكا اللاتينية ترى نفسها استمراراً للماضي الأوربي الكاثوليكي.

٣ - اختلاف نوعية المادة البشرية المهاجرة التي أسَّست المجتمعين، فالمهاجرون إلى أمريكا الشمالية هاجروا إليها بعد أن كانت الحروب الدينية أضعفت هيبة الكنيسة تماماً، كما أنهم كانوا من العناصر البروتستانتية المتطرفة التي رفضت مجتمعاتها وجاءت لتأسيس مجتمع جديد. على النقيض من هذا بدأت تجربة الاستيطان في أمريكا اللاتينية داخل إطار كاثوليكي، وانتقل إلى المجتمع هرم القيم السائد في إسبانيا والبرتغال، وكان هذا يعني استبعاد اليهود.

٤ - الولايات المتحدة مجتمع يتباهى بالتعددية والتنوع والانفتاح، وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى طمس الهويات المختلفة ودمجها في هوية علمانية ديمقراطية واحدة. وقد تقبَّل اليهود هذه الصيغة وما تلاها من صيغ الاندماج فأصبحوا أمريكيين يهوداً، وهم الذين نطلق عليهم مصطلح «اليهود الجدد» نظراً لاختلافهم الجوهري عن بقية

يهود العالم. على طرف النقيض كان الوضع في أمريكا اللاتينية، فالمجتمعات ما زالت قومية كاثوليكية تستعبد اليهود، ولذا لم تظهر هوية يهودية لاتينية بل تشبثت كل جماعة بثقافة البلد الذي جاءت منه وازدادت الانقسامات داخل الجماعات اليهودية.

٥ ـ مجتمع الولايات المتحدة أسَّسته عناصر بروتستانتية تجارية ترى التجارة أهم النشاطات الإنسانية، وأن قيم التنافس ومراكمة الثروة قيم إيجابية. وفي مرحلة لاحقة تمت علمنة النشاط التجاري تماماً ثم انسحب الترشيد على المجال الصناعي ليصبح بوتقة صهر حقيقية للبشر. وهذان العنصران ساهما في دمج المهاجرين اليهود في المجتمع الأمريكي، فكان الانخراط في التجارة والصناعة أسهل وسائل الأمركة. كل هذا مختلف عما حدث في أمريكا اللاتينية، فالنشاط التجاري ظل موضع ازدراء في حضارة لا تزال قيمها الأساسية أرستقراطية إقطاعية كما ظلت المنافسة ومراكمة الثروة تحملان إيحاءات سلبية.

للأسباب السابقة مجتمعة ظهرت الاختلافات بين الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة والجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية، فيهود الولايات المتحدة بغض النظر عن أصولهم الإثنية والعرْقية والدينية أصبحوا جماعة واحدة، أما يهود أمريكا اللاتينية فلَم تكن أمامهم أسطورة قومية علمانية تمكِّنهم من المشاركة فيها إذ كانت الفكرة السائدة تستبعدهم فاستمروا ينتمون إلى هوياتهم القديمة.

جنوب أفريقيا

تعد الحلقة الأساسية بالنسبة لأعضاء الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا أن المجتمع الذي ينتسبون إليه مجتمع استيطاني مبني على الفصل بين الأعراق والقوميات. وتعود أصول الجماعات اليهودية في جنوب أفريقيا إلى النشاطات الاستيطانية الغربية الأولى، إذ كان أثرياء اليهود السفارد في هولندا من المساهمين في شركة الهند الهولندية التي أسَّست المستوطَن الأبيض عام ١٦٥٢. ولم يبدأ استيطان اليهودي إلا بعد عام ١٨٠٣ تحت حكم الجمهورية التي أسسها نابليون في هولندا. وقد جاء اليهود في بداية الأمر من إنجلترا وألمانيا وكونوا جماعة يهودية صغيرة مندمجة في محيطها الحضاري يتحدث أعضاؤها الإنجليزية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تزايدت معدلات النمو الصناعي في جنوب أفريقيا وتزامنت مع فترة تعثُّر التحديث في شرق أوربا، فبدأت أعداد كبيرة من يهود اليديشية من ليتوانيا وبولندا تفد إلى جنوب أفريقيا بعد عام ١٨٩٠.

شكَّل المهاجرون الجدد الأغلبية العظمى التي بلغت ٧٠٪ بعد وقت قصير، وكان معدل الهجرة يتفاوت، ومع استيلاء النازيين على الحكم في ألمانيا انخفض عدد المهاجرين بسبب القوانين التي تحد من عدد المها ـرين التي أصدرتها جنوب أفريقيا شأنها شأن الدول الغربية. وفي عام ١٨٨٠ كان عدد اليهود أربعة آلاف، ووصل عام ١٩٠٤ إلى ٣٨ ألفاً، ثم وصل إلى ٩٠ ألفاً عام ١٩٣٦ بنسبة ٤,٥٪ من السكان، وهي أعلى نسبة بلغها أعضاء الجماعات اليهودية. وقد أخذت نسبتهم في التناقص حتى وصلت إلى ٢٥,٠٪ من السكان عام ١٩٩٢، إذ بلغ عددهم حوالي ١٠٠ ألف. ويلاحظ تزايد نزوح اليهود عن جنوب أفريقيا ابتداءً من ستينيات القرن العشرين، إذ هاجر منهم حتى الثمانينيات حوالي ٢٠ ألفاً، ثم هاجر حوالي ٦٤ ألفاً بين عامي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦، ذهب منهم إلى إسرائيل ٤٠٠ فقط. والعناصر المهاجرة هي من الشباب من ذوي الكفاءات العالية، وهو ما يعني أن الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا تفقد قيادتها وعناصر تماسكها الداخلي، ويشكل من تجاوزوا الستين ٢٠٪ من أعضاء الجماعة.

ويُلاحظ أيضاً أن معدلات الاندماج والعلمنة عالية بين أعضاء الجماعة اليهودية، فالزواج المختلط وصلت نسبته إلى ١٦٪، وهو معدل مرتفع بمقاييس جنوب أفريقيا. وقد توزَّع أعضاء الجماعة اليهودية بين الهويتين الهولندية والإنجليزية، وهو ما سيساعد على انصهار من بقي منهم. وكل العوامل السابقة تجعل الجماعة اليهودية في جنوب أفريقيا حالة من حالات ما يسمَّى «موت الشعب اليهودي». ويتركز أعضاء الجماعة اليهودية في قطاعات بعينها فيعمل ٤٩٪ منهم في قطاع التجارة، و٢٥٪ في قطاع الخدمات، مع تواجد ضئيل في قطاعي الزراعة والمناجم. وأغلبية يهود جنوب أفريقيا من الأرثوذكس وتبلغ نسبتهم ٨٠٪، ويرجع هذا إلى أن جنوب أفريقيا مجتمع محافظ دينياً، وهو ما انعكس على السلوك الديني لليهود وعلى اليهودية.

كندا

دولة في أمريكا الشمالية بدأت كتجمُّع استيطاني للمهاجرين من أوربا. ورغم أن بضعة أفراد يهود استوطنوا كندا أثناء الاستيطان الفرنسي، فإن استيطان اليهود بدأ مع سقوط كندا في قبضة البريطانيين عام ١٧٥٩، وقد بلغ عددهم ٢٣٩٣ عام ١٨٨١. ومع مرحلة تعثُّر التحديث في روسيا بدأت أفواج من المهاجرين من يهود اليديشية تصل إلى أمريكا الشمالية وتوجهت

أعداد منهم إلى كندا. ووصل عدد اليهود في كندا إلى ١٦ ألفاً عام ١٩٠١ وتزايد حتى وصل إلى ١٦٧ ألفاً عام ١٩٤٠. اندمج المهاجرون اليهود في الحياة الثقافية والاقتصادية في كندا بسبب النظام التعليمي العلماني والبنية القانونية والاقتصادية القائمة على المساواة، ولم يلعب اليهود دوراً فريداً في الحياة الاقتصادية الكندية. ومن الواضح أن معدلات الاندماج والعلمنة آخذة في التزايد بين يهود كندا، ويرجع هذا إلى صغر حجم الجماعة وتزايد معدلات العلمنة في المجتمع نفسه.

ويبلغ عدد اليهود الإثنيين الذين لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية ويؤمنون بالإثنية اليهودية ٥٠٪ من أعضاء الجماعة اليهودية في كندا. وقد بلغ عدد يهود كندا ٣٥٦ ألفاً عام ١٩٩٢ تتركز غالبيتهم في مدينتي تورنتو ومونتريال، ويعاني يهود كندا ظاهرة موت الشعب اليهودي، إذ تتزايد بينهم الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن نسبة المسنين بينهما تصل إلى ١٧,٥٪ مقابل ١٠,٨٪ على مستوى المجتمع الكندي.

أستراليا ونيوزيلندا

كان اليهود ضمن أوائل المستوطنين في أستراليا، إذ كان ضمن المجرمين الذين أُبعدوا إليها حوالي عشرة يهود. وقد أدى اكتشاف الذهب في منتصف القرن التاسع عشر إلى زيادة هجرة اليهود. تركَّز أعضاء الجماعة اليهودية في المهن التجارية والحرفية وصناعة الملابس. ومع بداية القرن العشرين تغيَّر هذا النمط وأصبحوا متركزين في الوظائف الإدارية والمكتبية والأعمال الحرة. جاء ٧٠٪ من المهاجرين اليهود بين عامي ١٨٥١ و١٨٨٠ من ألمانيا، وجاء ٢٠٪ من أوربا. وبين عامي ١٨٨٠ و١٩٢١ جاء ٦٠٪ من شرق أوربا و٣٠٪ من ألمانيا. واستوطن يهود أستراليا في مجتمع لا يعرف معاداة اليهود ولا يكترث بأية قيم مطلقة. وكانت عملية اندماجهم في المجتمع سهلة بسبب ضآلة عددهم. وقد كان عدد اليهود عام ١٨٨١ حوالي تسعة آلاف ووصل عام ١٩٣٣ إلى ٢٣ ألفاً ثم وصل عام ١٩٦٠ إلى ٧٠ ألفاً، وفي عام ١٩٩١ وصل إلى ٩٠ ألفاً يوجد معظمهم في ملبورن. ومن الواضح أن يهود أستراليا مندمجون تماماً في مجتمعهم، فنسبة الزواج المختلط بينهم شديدة الارتفاع منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهم صهاينة توطينيون يؤيدون الدولة الصهيونية بحماس شديد ولكن لا تهاجر إليها إلا أعداد ضئيلة منهم. ويعاني يهود أستراليا ظاهرة «موت الشعب اليهودي» وتتزايد بينهم أعداد المسنين.

أما الجماعة اليهودية في نيوزيلندا فهي صغيرة الحجم ولا أهمية لها، وقد بلغ عدد اليهود فيها ٤٥٠٠ عام ١٩٩٢، وهم مندمجون تماماً في المجتمع، كما أن أعدادهم تتناقص بسبب الزواج المختلط.

١٨ ـ الولايات المتحدة الأمريكية

الولايات المتحدة (مقدمة عامة)

يمكن القول إن تاريخ الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة، التي صارت جماعة واحدة فيما بعد، جزء لا يتجزأ من التاريخ الغربي بشكل عام والتاريخ الأمريكي بشكل خاص، ذلك أن أصولها تعود إلى هجرة الشعوب الأوربية إلى العالم الجديد. وتعكس تجربة أعضاء الجماعة في الولايات المتحدة كل الإيجابيات والسلبيات التي تسم تجربة الإنسان الأمريكي.

ويُعدُّ وصول الإنسان الغربي إلى الأمريكتين (فيما يُسمَّى «اكتشاف العالم الجديد») من أهم الأحداث التي أثرت في تاريخ الإنسان في العصر الحديث إذ فتح مجالات جديدة للاستثمار أمام الإنسان الغربي وزاد ثروته بشكل مذهل بعد أن كان الغرب من أفقر مناطق العالم. ومن هنا، اتجه الفائض السكاني الغربي (كما كان يشار إلى الأفراد الذين لم يحققوا شيئاً من الحراك الاجتماعي ولم يتمكنوا من تحقيق هوياتهم الدينية والثقافية) إلى العالم الجديد ليحقق أعضاؤه من خلال التشكيلات الاستعمارية الغربية ما فشلوا في تحقيقه داخل التشكيلات القومية الغربية.

ويلاحَظ أن المجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني علماني تماماً. وهيمنت عليه الرؤية البرجماتية المادية النفعية. والمجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني، ولابد أن هذا خلق تعاطفاً كامناً مع المهاجرين اليهود وجعل الولايات المتحدة ذات جاذبية خاصة لهم، والمجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني بناؤه الطبقي في حالة سيولة وانفتاح شديدين ولا يضع أية عقبات أمام المهاجر اليهودي.

لكل هذا أصبحت الولايات المتحدة «الجولدن مدينا» بحق أي «البلد الذهبي» وملجأ الغالبية الساحقة من يهود العالم ووطنهم.

المرحلة الكولونيالية (الاستعمارية)

أ) الفترة الهولندية: السفارد (١٦٥٤ ـ ١٦٦٤):

يعود تاريخ استقرار أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات

المتحدة إلى عام ١٦٥٤ حين استقر في مدينة نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) مجموعة من اليهود السفارد (المارانو) يبلغ عددهم ثلاثة وعشرين يهودياً هاربين من محاكم التفتيش البرتغالية في البرازيل. وكان هؤلاء يعملون بالتجارة، فاستمروا في مهنتهم دون أية عوائق. وقد ساد آنذاك في الأوساط الهولندية فكر تجاري يغلب المصلحة المادية على الانتماءات الدينية، الأمر الذي هيأ الجو لأن يحصل اليهود على حقوقهم، كعناصر نافعة، ويمارسوا نشاطهم التجاري دون قيود. ولكن الجماعة اليهودية اختفت بعد قليل نظراً لظهور فرص أعظم في أجزاء أخرى من الأطلنطي، خصوصاً في جزر الهند الغربية.

ب) الفترة الإنجليزية: بداية وصول الإشكناز الألمان (١٦٦٤ - ١٧٧٦):

بعد أن استولى الإنجليز على نيو أمستردام وأصبحت تُسمَّى نيويورك (عام ١٦٦٤)، وبعد تصفيتهم للجيب الهولندي في شمال أمريكا، ازداد النشاط التجاري في هذا الجزء من العالم وبدأ اليهود يتجهون نحوه بشكل متزايد. ولم يحل عام ١٧٠٠ إلا وكان هناك ما بين مائتي وثلاثمائة يهودي، ثم بلغ عددهم ٢٥٠٠ عام ١٧٧٦. وكان معظم المستوطنين من الأثرياء.

وقد تم تأسيس أول جماعة دينية في نيويورك عام ١٦٥٨ (الأبرشية اليهودية) وتبعتها جماعات دينية أخرى. ويُلاحَظ أن الأشخاص العاديين، الذين لم يتلقوا أيَّ تعليم حاخامي تلمودي كانوا هم المتحكمين في المعبد اليهودي، على عكس الوضع في أوربا حيث نجد أن الحاخام هو الشخصية الأساسية.

وقد حصل اليهود على جميع الحقوق التي حصل عليها غيرهم من المستوطنين، فكانوا يقومون بالخدمة في الميليشيا ويتمتعون بحق الملكية والسفر والسكنى في أي مكان. ففي هذا المجتمع التجاري الجديد، لم تكن للقيم التقليدية الدينية فعالية كبيرة إذ سادت القيم النفعية والعملية.

وقد أدَّى هذا المناخ الجديد إلى اندماج اليهود سريعاً، بل وإلى انصهارهم. وعلى سبيل المثال، تزوج كل وجهاء اليهود في ولاية كونتيكت من غير اليهود، وكان الزواج المُختلَط أمراً مألوفاً في المدن الكبيرة بكل ما ينتج عنه من انصهار كامل. ويمكن القول بأن الملامح الأساسية للجماعة اليهودية، وكذلك ثوابت تاريخها، تحدَّدت في تلك المرحلة بحيث وسمت تطورها اللاحق بميسمها. ولم تشهد مراحل التطور اللاحقة سوى تعديل بعض السمات وتعميق البعض الآخر.

المرحلة الألمانية الأولى (١٧٧٦-١٨٢٠)

عند إعلان استقلال الولايات المتحدة، لم يكن عدد اليهود يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف، ولكن عددهم وصل إلى أربعة آلاف عام ١٨٢٠. وقد تحدَّدت مواقفهم حسب مواقف الجماعات غير اليهودية التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها أو الطبقة التي كانوا ينتمون إليها. ولما كانت أغلبيتهم من التجار الذين لا تربطهم علاقة كبيرة بالوطن الأم (إنجلترا)، فقد كانوا من مؤيدي إعلان الاستقلال.

وأدَّى التوسع في زراعة القطن إلى أن بعض أعضاء الجماعة أصبحوا من أصحاب الأراضي وكبار التجار. كما اتجه بعضهم إلى الاشتغال في مجال النشاطات المالية والعقارية، فأنشأوا شركات تأمين، وعملوا في أسواق الأسهم والسندات وفي قطاع الصناعة، وفتحوا المصارف. كذلك دخل بعض أعضاء الجماعة (عام ١٨٢٠) مهناً جديدة، مثل: القانون والطب والهندسة والتربية والصحافة. وكان اليهود موزعين على معظم مدن الولايات المتحدة.

لقد كان اليهود بشكل عام مندمجين في مجتمعهم الأمريكي، ولم تكن لهم ثقافة مستقلة. وكان انتماؤهم إلى ثقافتهم اليهودية (الدينية أو الإثنية) مسألة شكلية وحسب. وفي هذه الفترة، أصبح العنصر الإشكنازي الألماني العنصر الغالب تماماً.

المرحلة الألمانية الثانية (١٨٢٠-١٨٨٠)

لا شك في أن التطور الأساسي الذي طرأ على أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة هو ازدياد عددهم وتحوُّل الجماعة من أقلية صغيرة إلى واحدة من أكبر الجماعات اليهودية خارج شرق أوربا.

وقد استقر أكبر عدد من اليهود في نيويورك، فبلغوا أربعين ألفاً عام ١٨٦٠، وتجيء بعدها مدن أخرى مثل فيلادلفيا وبالتيمور. كما تمركزوا في المراكز التجارية بالداخل، على الأنهار وعلى ضفاف البحيرات الكبيرة، واتجهوا نحو الغرب في سيراكيوز وبفالو وكليفلاند وشيكاغو وديترويت، وفي سينسناتي ومينيابوليس وسانت لويس ونيو أورليانز. وتدافعت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة إلى كاليفورنيا في الأعوام ١٨٤٩ - ١٨٥٢ مع حُمَّى الاندفاع نحو الذهب، إذ بلغ عدد اليهود الذين استوطنوا سان فرانسيسكو وحدها عشرة آلاف.

وقد عمل اليهود موردين لحاجات الباحثين عن الذهب في كاليفورنيا، ولم يعمل منهم في الزراعة سوى قلة نادرة. وكانت نسبة العاملين في مهن مثل الطب والقانون صغيرة، إذ كانت

الأغلبية العظمى تعمل بالتجارة. ورغم أن كثيراً من المهاجرين عملوا حرفيين في أوربا، فإنهم فضلوا أن يعملوا تجاراً متجولين بسبب ارتفاع الأرباح التي كان بوسعهم تحقيقها. وقد حقق أعضاء الجماعة اليهودية معدلاً عالياً من الاندماج في معظم مناطق الولايات المتحدة، ولكن يُلاحَظ أن اندماجهم في مجتمع الجنوب كان أعلى بكثير منه في الشمال. ويعود هذا إلى أن معيار التضامن في الجنوب كان اللون وحسب. ومن هذا المنظور، كان اليهود يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الجماعة البيضاء المهيمنة. وذلك على عكس الشمال حيث كان الدين واللون هما الأساس، ومن ثَمَّ كانت النخبة من المسيحيين البروتستانت البيض من أصل أنجلو ساكسوني (الذين يقال لهم الواسب).

بداية المرحلة اليديشية في الولايات المتحدة (١٨٨٠-١٩٢٢)

أ) الفترة الأولى: الهجرة الكبرى (١٨٨٠-١٩٢٩):

شهدت هذه الفترة (بعد عام ١٩١٨) تحوُّل الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة إلى أهم تجمُّع يهودي في العالم على الإطلاق وثاني أكبر تجمُّع، بعد التجمُّع اليهودي في شرق أوربا. وقد زاد عدد اليهود من ٢٨٠ ألفاً من مجموع سكان تعداده ٥٠,١٥٥,٠٠٠ عام ١٨٨٠ إلى ٤,٥٠٠,٠٠٠ من مجموع سكان تعداده ١١٥,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٩٢٥.

وشهدت هذه الفترة تحوُّل بعض أعضاء الأرستقراطية الألمانية اليهودية من التجارة إلى المهن، فاشتغلوا بالقضاء والسياسة والأعمال المصرفية والمالية وبالنشر والطب والوظائف المتصلة بالبحوث العلمية وبالأدب والمهن الأكاديمية. وكان هذا التحول يعني تحرر اليهود تدريجياً من ميراثهم الاقتصادي الأوربي وتَزايُد اندماجهم في المجتمع الأمريكي. وظهر بينهم رعاة للفنون مثل أسرة جوجينهايم. ويُلاحَظ أنه لم يكن يوجد سوى عدد قليل من اليهود في الشركات الكبرى التي سيطرت على الصناعات الثقيلة إذ تركَّز اليهود في صناعات استهلاكية هامشية مثل صناعة السينما التي سيطر عليها وليام فوكس ولويس ماير والإخوة وارنر.

وفيما يتصل بالمهاجرين من شرق أوربا، وهم الذين نطلق عليهم «يهود اليديشية»، فقد انضموا إلى صفوف الطبقة العاملة، خصوصاً في مصانع الملابس الصغيرة التي كانت تُسمَّى «ورش العرق»، والتي كانت تُقام في مكان ضيق قذر توضع فيه بعض ماكينات الخياطة البدائية ويقطن فيه صاحب المصنع وزوجته. وكان المموِّلون الألمان يمتلكون أيضاً ورش العرق، خصوصاً بعد أن حققوا ثروات ضخمة من الحرب الأهلية. وقد ظلوا أغلبية الملاك حتى عام ١٩١٤ حين زاد عدد صغار المموِّلين من شرق أوربا على عددهم من الألمان. وبلغ عدد العاملين في هذه الصناعة عام ١٩١٣ ثلاثمائة ألف يهودي.

وكان تَوجُّه الجيب اليديشي معادياً للصهيونية، كما أن ولاءه كان للثقافة اليديشية وليس للدين اليهودي أو اللغة العبرية. وكان هذا الجيب يضم ملحدين وثوريين ومفكرين وفوضويين، كما كان يضم بعض المتدينين. ويُلاحَظ أن العلاقات بين القيادة الألمانية الأرستقراطية والجماهير اليديشية لم تكن حميمة، كما أن العمال اليهود ذوي الأصل الأمريكي، المتركزون في صناعات معيَّنة مثل صناعة السيجار، وكذلك الخياطين المهرة، كانوا يبدون عداءً واضحاً للمهاجرين، نظراً لما كانوا يعتبرونه انعزالية وتخلُّفاً وثورية.

وأخذت اليهودية الإصلاحية في الانتشار بين اليهود الألمان، فأُسِّس المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين عام ١٨٨٩. أما المهاجرون من شرق أوربا، فقد أحضروا اليهودية الأرثوذكسية معهم رغم عدم اهتمامهم بالدين. وكانت الأرثوذكسية منتشرة بين الحرفيين اليهود، خصوصاً الخياطين.

وقد تم تأسيس أهم المؤسسات اليهودية المحافظة التعليمية في هذه الفترة أيضاً، من بينها الكلية اللاهوتية اليهودية عام ١٨٨٦، وجمعية الحاخامات الأمريكيين عام ١٩٠٠، ومعبد أمريكا الموحَّد عام ١٩١٣ (وهو يضم الأبرشيات المحافظة). وتبدَّى الصراع الإثني بين الألمان ويهود شرق أوربا في شكل صراع ديني بين الأرثوذكسية من جهة واليهودية الإصلاحية ثم المحافظة من جهة أخرى.

وفي السنين الأخيرة من هذه الفترة، بدأت تظهر علامات الكساد الاقتصادي، فألقت جماهير العاطلين باللوم على القوى الخارجية، وسادت النظريات والمواقف العرْقية تجاه السود، والمهاجرين الآسيويين واليهود بدرجة أقل.

ولكن، يُلاحَظ أن نمط حياة المهاجرين كان يخضع لتطورات عميقة إذ أن أسلوب حياة أبنائهم كان يختلف بشكل جوهري عن حياتهم هم أنفسهم، لأنهم حققوا معدلات عالية من الاندماج الاقتصادي والثقافي بسبب تزايد فرص التعليم أمامهم في المدارس الأمريكية العامة.

وظل إسهام يهود أمريكا الثقافي والفكري ضعيفاً في بداية هذه الفترة. ولكن، مع نهايتها، ومع تزايد معدلات الاندماج والأمركة، بدأ يظهر أدباء أمريكيون أحرزوا شهرة محلية وعالمية، مثل جرترود شتاين، وناشرون مثل نويف، وكثير من المخرجين السينمائيين.

ولم تكن الجماعة اليهودية متجانسة حضاريا أو دينيا أو سياسياً. لذا، كانت تتنازعها عدة أيديولوجيات وانتماءات. وقد أشرنا من قبل إلى الصراع الديني بين الأرثوذكس وغيرهم، ثم كان هناك الصراع بين الألمان ويهود اليديشية، والصراع بين الأقلية الصهيونية والأغلبية المعادية للصهيونية أو غير المكترثة بها، والصراع بين دعاة الاندماج والذوبان ودعاة قومية الدياسبورا (أي الاستقلال الثقافي للجماعات اليهودية)، والصراع بين الاشتراكيين من بقايا البوند والشيوعيين والفوضويين من جهة ودعاة الفلسفات السياسية الليبرالية المحافظة من جهة أخرى. هذا غير عشرات الصراعات الجانبية الأخرى.

نهاية المرحلة اليديشية (١٩٢٩-١٩٤٥) وظهور اليهود الأمريكيين

تغيَّر الهيكل الوظيفي لليهود في هذه الدولة بشكل واضح، فلم يَعُد هناك أي يهود تقريباً يعملون في الزراعة أو الحرف اليدوية، ولم تكن تُوجَد سوى أعداد قليلة من اليهود في الصناعات الثقيلة سواء بين أصحاب العمل أو العمال. وتركَّز أثرياء اليهود أساساً كسماسرة في البورصة والسينما، وفي أشكال الترفيه الأخرى، وفي بيع العقارات وتجارة التجزئة. أما الطبقة الوسطى اليهودية، فازداد تركُّزها في المهن والأعمال التجارية الصغيرة ووظائف الياقات البيضاء. ويذهب بعض الدارسين إلى أن هذا يعني أن الجماعة اليهودية بدأت تلعب مرة أخرى دور الجماعة الوظيفية الوسيطة، وإن كان السياق قد اختلف، وإلى أن اختلاف الشكل مجرد تعبير عن اختلاف السياق.

تزايد عدد الشباب من أعضاء الجماعة اليهودية الذي يذهب إلى الجامعات الحكومية أو الخاصة. وبدأ اليهود في هذه المرحلة يفقدون كثيراً من تنوعهم، ويكتسبون شيئاً من التجانس، إذ أصبح أعضاء الجماعة اليهودية مواطنين أمريكيين اكتسبوا هوية أمريكية واضحة يتحدث معظمهم الإنجليزية ويذهب أولادهم إلى معاهد تعليم أمريكية يستوعبون فيها القيم الأمريكية. بل ويبدو أن الجماعة اليهودية المهاجرة كانت أسرع الجماعات المهاجرة تخلياً عن تراثها الثقافي ومنه اللغة، وفي التأمرك، وفي تبنِّي لغة المجتمع الجديد.

ويُلاحَظ أيضاً أن عدداً كبيراً من أعضاء الجماعة اليهودية كان يوجد في صفوف الأحزاب الثورية. وكما قيل، فإن ٥٠٪ من أعضاء الحزب الشيوعي كانوا من اليهود، كما أن كثيراً من أعضاء المؤسسة الثقافية اليسارية كانوا، في فترة الثلاثينيات، من اليهود. وهذه سمة استمرت أيضاً لصيقة باليهود حتى الستينيات، وأخذت بعدها في الاختفاء.

ومع تزايد معدلات الاندماج، زاد ابتعاد أعضاء الجماعة عن العقيدة اليهودية ومؤسساتها، فتناقص عدد اليهود الذين يذهبون إلى المعبد. وتزايد نفوذ اليهودية الإصلاحية والمحافظة، وتراجع نفوذ الأرثوذكس مع ضعف مؤسسات المهاجرين وانخراطهم في صفوف المجتمع الأمريكي. وشهدت هذه المرحلة ظهوراً متزايداً للمنظمات التي تقوم بجمع التبرعات من اليهود بشكل منتظم لصالح الجماعة اليهودية ثم لصالح إسرائيل.

اليهود الجدد أو الأمريكيون اليهود (بعد الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٧٠)

تحوَّلت الجماعة اليهودية إلى جماعة أمريكية تماماً، المولودون فيها أكثر من المهاجرين إليها، وأصبحوا أساساً أعضاء في الطبقة الوسطى الأمريكية التي تسكن الضواحي، وذابت كل علامات التميز الحضاري. ارتفع عدد أعضاء الجماعة اليهودية إلى ٥,٢٠٠,٠٠٠ عام ١٩٥٧، ووصل إلى ٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٩٧٠، وهذا يعني أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية كان آخذاً في التناقص بالنسبة لعدد السكان.

وتوجد معظم الجماعات اليهودية في المدن الكبرى، وفي المدن التسع الكبرى (لوس أنجلوس - شيكاغو - فيلادلفيا - بوسطن - ميامي - واشنطن - كليفلاند - بلتيمور - ديترويت) نحو ٧٥٪ من كل أعضاء الجماعة اليهودية.

وإن كانوا لا يسكنون المدن نفسها وإنما يقطنون خارجها في الضواحي، وهذا من علامات الثراء المتوسط إذ لا يسكن المدن الكبرى سوى الفقراء (من السود والبورتوريكيين) أو كبار الأثرياء من المليونيرات. ولا توجد ضواح مقصورة على اليهود فما يحدد موقع السكنى في الوقت الحاضر مقياسان ماديان أحدهما الدخل والآخر لون الجلد، ولم يَعُد الانتماء الديني أساساً للتصنيف. والواقع أن أعضاء الجماعة اليهودية يُصنَّفون ضمن الأقليات البيضاء في الولايات المتحدة، وتنتمي أغلبيتهم إلى شريحة عليا من الطبقة الوسطى.

وفيما يخص الهيكل الوظيفي والمهني لأعضاء الجماعة، فقد شهدت الفترة بعد عام ١٩٤٥ تَعمُّق الاتجاهات التي شاهدنا ظهورها في المرحلة السابقة، إذ زاد عدد اليهود المشتغلين بالمهن في الطب والتدريس بالجامعات وداخل البيروقراطية الحكومية في جهاز الموظفين وتناقص عدد العمال المهرة وغير المهرة بنسبة كبيرة بحيث لا يكاد يوجد

أي يهود بين عمال النقل وعمال المناجم. كما لا يوجد يهود في صناعة الأخشاب والتعدين والنقل كما كان الحال في الماضي، وتناقص عدد الفلاحين اليهود بحيث كاد ينعدم، كما تناقص عددهم في صناعة الملابس، أي أن ميراثهم الاقتصادي الأوربي اختفى تماماً. ويمكن القول بأن ظهور المهني اليهودي هو السمة الأساسية لهذه الفترة. ويظهر هذا في بروز شخصيات يهودية في مجالات التربية والعلوم والقضاء والمحاسبة، وفي زيادة عددهم في مجالات الترفيه والإعلام والنشر. وزاد عدد اليهود كوسطاء في مجالات تجارة القطاعي والبناء والعقارات في المدن الكبرى والترفيه وعالم المال والأسهم والسندات والصناعة وقطاع الإعلام والسينما والمسرح (نشر ـ معاهد موسيقية ـ مراكز ثقافية). وبينهم عدد من كبار أصحاب المزارع والمصانع في قطاع الصناعة الزراعية. ويُلاحَظ تركُّز الرأسماليين من أعضاء الجماعة اليهودية في الخدمات الاستهلاكية وفي الصناعات الخفيفة وصناعات القطاع الوسط (صناعة الملابس وصناعة الفراء والمجوهرات والمشروبات الروحية وصناعة السينما).

ولكن أعضاء الجماعة اليهودية بغض النظر عن مدى فقرهم أو ثرائهم أو تميُّزهم الوظيفي أو مدى صهيونيتهم أو عدمها، أصبحوا جزءاً عضوياً من الاقتصاد الأمريكي. فالرأسماليون الأمريكيون اليهود لا يشكلون رأسمالية يهودية لها حركية مستقلة، وهم ليسوا رأسماليين يهوداً وإنما هم رأسماليون أمريكيون يهود (أو رأسماليون أمريكيون من أعضاء الجماعة اليهودية) ويشكلون جزءاً من الاقتصاد الأمريكي وينحصر ولاؤهم في رأس المال، وهذا الولاء هو الذي يحدد سلوكهم. وما يحدِّد حركية رأس المال الذي يملكه اليهود ليس تطلعاتهم الدينية أو الصهيونية وإنما الحركية العامة للاقتصاد الرأسمالي الأمريكي والمنظومة القيمية المادية النفعية.

وكذلك أيضاً المهني اليهودي، فمما لا شك فيه، كما بيَّنا، أن زيادة عدد المهنيين من اليهود يعني في واقع الأمر ازدياد أعضاء الجماعة اليهودية اقتراباً من السلطة وصانع القرار وتأثيراً فيها. ولكن، مع هذا، يظل اليهود أقلية عددية صغيرة، وهو ما يعني أن هيمنتهم تظل محدودة.

وصهيونية الأمريكيين اليهود صهيونية توطينية تترجم نفسها إلى دعم مالي وسياسي للمُستوطَن الصهيوني، وتكتفي بممارسة الضغط السياسي على الحكومة الأمريكية لصالح دولة إسرائيل (وإن كانت المسألة لا تستدعي ضغطاً كبيراً). وقد سارعت الحكومة الأمريكية إلى تأييد قرار التقسيم ثم الاعتراف بالدولة، وهي تراها الآن حليفاً إستراتيجياً وتدفع معونات ضخمة لها. ولا تترجم هذه الصهيونية نفسها إلى هجرة أو استيطان إلا في القليل النادر، فهي تترجم نفسها إلى رموز إثنية تشبه من بعض الوجوه الرموز الإثنية لأعضاء الأقليات الأخرى.

وقد تزايد اندماج أعضاء الجماعة اليهودية، ومن دلائل ذلك اختفاء العبرية كأداة للتعبير الأدبي، وكذلك اتجاه اليديشية نحو الاختفاء الكامل. ويمكن اعتبار تزايد الزواج المختلط (بمعدلاته المرتفعة التي تصل في بعض الولايات إلى ما يزيد على ٦٠٪) مؤشراً آخر. ويظهر الاندماج أيضاً في غربة الأجيال اليهودية الجديدة عن أسرها البورجوازية، فقد انخرطت أعداد كبيرة منهم في صفوف حركة الحقوق المدنية وحركة اليسار الجديد في الستينيات. ولكن يمكن القول بأن أعضاء الجماعة اليهودية، باعتبارهم أقلية مهاجرة في المدينة تدين بالولاء للحزب الديموقراطي، كان لهم دائماً اتجاه ليبرالي وكانوا يطالبون بقدر من التدخل من جانب الحكومة ضد الاحتكارات ومن أجل الرفاه الاجتماعي.

تعداد الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة والمعالم السكانية الأساسية

بلغ عدد يهود الولايات المتحدة عام ١٩٩٢ نحو ٥,٦٢٠,٠٠٠، ويذهب مصدر إحصائي آخر أن عددهم عام ١٩٩٥ هو ٥,٨٠٠,٠٠٠، الأمر الذي جعلهم أكبر جماعة يهودية في العالم (حوالي ٤٣,٥٪). وهم يشكلون ٢,٢٪ من الشعب الأمريكي البالغ عدده ٢٥٧,٥٩٥,٠٠٠ نسمة. وقد أصبحت الإحصاءات الخاصّة بأعضاء الجماعة اليهودية مسألة خلافية بشكل حاد، وخاضعة للأهواء الأيديولوجية. فحسب إحدى الإحصاءات، بلغ العدد ٨,٢٠٠,٠٠٠، ولكن الدراسة أضافت أن من بينهم ٢,٧٠٠,٠٠٠ من " أصول يهودية " ولكنهم لا يعتبرون أنفسهم يهوداً.

وهناك رأي يذهب إلى أنه مع تراجُع نسبة الخصوبة بين أعضاء الجماعة اليهودية وتزايُد معدلات الاندماج، فإنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوي الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أي أقل من مليون).

ومن القضايا الأساسية والخطيرة التي يواجهها الأمريكيون اليهود، والتي تساعد على تناقص عدد اليهود، قضية الزواج المختلط. وقد ورد في إحدى الإحصاءات أن ٩,٢٪ من جملة اليهود المتزوجين عام ١٩٥٠ كانوا مقترنين بطرف غير يهودي. وفي الفترة التي امتدَّت حتى عام ١٩٦٥، كانت نسبة اليهود المتزوجين من يهود حوالي ٩٥٪. ولكن النسبة انخفضت إلى النصف في الفترة ١٩٦٥ـ

١٩٧٤ إذ انخفضت إلى ٧٤٪ ثم انخفضت في الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٥ إلى ٥٤٪، ثم انخفضت بعد عام ١٩٨٥ إلى ٤٧ ـ ٤٨٪. وهذه هي النسبة العامة على المستوى القومي، وهو ما يعني أنها تصل في بعض الأماكن (مثل أيوا، حيث لا توجد جماعة يهودية كبيرة) إلى ما يقرب من ٨٠ ـ ٩٠٪. ويدل المنحنى الإحصائي على أنها لم تصل بعد إلى نقطة الذروة.

وفي محاولة وقف تناقص أعداد اليهود، اتخذت اليهودية الإصلاحية سياسة تشجيع التبشير باليهودية كما اعترفت بأبناء الذكور اليهود (المتزوجين من إناث غير يهوديات) يهوداً.

ولا يزال الهرم الوظيفي بالنسبة للأمريكيين اليهود مختلفاً عن الهرم على المستوى القومي الأمريكي، ذلك أن نحو ٧٠٪ من جملة الأمريكيين اليهود يعملون في أعمال الياقات البيضاء مقابل المعدل القومي البالغ ٤٠٪. كما أن نسبة من يعملون بأعمال غير يدوية قد تصل إلى ٩٠٪ مقابل المعدل القومي الذي يصل إلى ٣٨٪. ومع هذا، لا يؤثر ذلك في وضعهم بتاتاً باعتبار أن المجتمع الأمريكي مجتمع منفتح يوجد فيه قطاع خدمات ضخم تتزايد فيه أعمال الياقات البيضاء. ويتركز اليهود في مهن مثل: الطب والهندسة والقانون والتدريس في الجامعات.

يُلاحَظ أن معدلات العلمنة آخذة في التزايد بين الأمريكيين اليهود في هذه الفترة حيث يتجلَّى ذلك في إقبال الشباب اليهودي على مختلف العبادات الجديدة مثل الماسونية والبهائية والانخراط فيها. وقد ورد في إحدى الإحصاءات أن ٥٣٪ من اليهود لا ينتمون إلى أبرشية دينية، أي لا يذهبون إلى المعبد. ومن النسبة الباقية، ذكر ٥٠٪ أنهم محافظون، وذكر ٣٠٪ أنهم إصلاحيون. وهناك نسبة ضئيلة في حركة اليهودية التجديدية ولكن هذه الحركة آخذة في الانتشار والاندماج مع اليهودية المحافظة. وهذه الفرق اليهودية هي صيغ مخفَّفة معلمَنة من اليهودية الحاخامية. أما الأرثوذكس، فلا تزيد نسبتهم عن ٢٠٪ من مجموع اليهود المرتبطين بأبرشية ما، أي أن الأرثوذكس أقل من ١٠٪ من يهود الولايات المتحدة. وفي إحصاء لعام ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣، ورد أن النسبة انخفضت إلى ٦٪ وحسب.

أدَّى التلاقي شبه الكامل بين المصالح الأمريكية والمصالح الإسرائيلية إلى صهينة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بشكل شبه كامل إذ لم تَعُد هناك شبهة ازدواج ولاء أو تعارض في المصالح.. إلخ. وقد تزامن هذا مع تطور آخر لا يقل عنه دلالة وهو الاندماج الكامل لأعضاء الجماعة في المجتمع الأمريكي بشكل تام.

ومما تجدر ملاحظته أن مصطلحات، مثل: «يهودي» و«صهيوني» و«يهودية»، قد اكتسبت دلالات جديدة تماماً في السياق الأمريكي. فقد أصبحت العقيدة اليهودية في الولايات المتحدة مرتبطة عضوياً بل وتكاد تكون متداخلة مع الصهيونية. ولكن كلاًّ من العقيدة اليهودية والصهيونية أُعيد تعريفه حتى يمكن تحقيق الترادف، فاليهودية ورموزها تمت علمنتها بحيث تحولت إلى ما يشبه عبادة دولة إسرائيل (العجل الذهبي الجديد)، وقد نجحت الصهيونية في أن تُرسِّخ في ذهن الجميع أن بقاء الدولة الصهيونية شرط أساسي لبقاء اليهودية، وأنها الحصن الوحيد ضد انحلال اليهودية، بل إن بقاء اليهودية نفسها مرهون ببقائها. وكما قال الحاخام ألكسندر شندلر، فإن معظم يهود الولايات المتحدة يتصورون الآن أن الدولة الصهيونية كنيسهم وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر. ومن ثم، أصبحت اليهودية انتماءً إثنيا وعرْقيا. وأصبح التعبير عن الهوية اليهودية يأخذ شكل الانخراط في التنظيمات اليهودية ذات التوجه الصهيوني، وفي المظاهرات من أجل تأييد إسرائيل، وكذلك شكل الاعتزاز بالهوية القومية.

وإذا كانت الصهيونية قد حوَّرت اليهودية الأمريكية وأعادت تعريفها ووظفتها لصالحها، فإن يهود الولايات المتحدة أنجزوا شيئاً مماثلاً بالنسبة للصهيونية، ذلك لأن صهيونيتهم صهيونية توطينية، ومن هنا الحديث عن «يهودية دفتر الشيكات» حين يعبِّر اليهودي عن يهوديته عن طريق إجزال العطاء للمُستوطَن الصهيوني، دون أن يفكر قط في الهجرة. بل إنهم طوروا الأسطورة الصهيونية، فلم تَعُد صهيون أرض الميعاد، البلد الذي يحنون ويهاجرون إليه، وإنما أصبحت «مسقط الرأس» تماماً مثل أيرلندا بالنسبة للأمريكيين الأيرلنديين وإيطاليا للأمريكيين الإيطاليين. والوطن الأصلي هو المكان الذي يهاجر منه الإنسان لا إليه، أي أن يهود الولايات المتحدة قد قلبوا الأسطورة الصهيونية رأساً على عقب وفرغوها من مضمونها القومي الاستيطاني وأعطوها مضموناً غير صهيوني، بل ومعادياً للصهيونية، تماماً مثلما فرغ الصهاينة اليهودية من مضمونها الديني وأعطوها مضموناً قوميا! فكأن الأمر يتعلق بدين دون محتوى ديني، وقومية دون محتوى قومي.

ومع هذا، تنشأ أحياناً توترات عميقة بين الأمريكيين اليهود والقيادة الصهيونية، إذ يجد هؤلاء أنه ليس من صالحهم أن يتحالفوا مع الأغلبية الصامتة والجماعات الأصولية التي تطالب بعدم فصل الدين عن الدولة، وهو أمر يتنافى مع الموقف التقليدي لليهود الذي يطالب بمزيد من العلمنة ضماناً للحريات والانعتاق. وفي الآونة الأخيرة، توترت العلاقات بين أعضاء الجماعة والدولة الصهيونية

لأن هذه الدولة تشوه صورتهم في مجتمعاتهم بسبب حركة الاستيطان في الضفة الغربية وترفع شعارات دينية متعصبة تتناقض مع القيم التي يعيشون على أساسها.

وفي أواخر الستينيات، بدأ يظهر التوتر بين أعضاء الجماعة وبين قيادات حركة السود الشابة، مثل اليهود السود والمسلمين السود والقوة السوداء، وأخذت الأمور في التدهور بحيث يمكن القول بأن العلاقة بين المؤسسة السوداء والمؤسسة اليهودية علاقة لا يمكن وصفها بأنها ودية. وثمة أسباب عديدة بنيوية لهذا التوتر وهذا العداء:

١ ـ من المعروف أن كلاً من الأمريكيين السود وأعضاء الجماعة اليهودية يتركزون في المدن الكبرى (الساحلية) جنباً إلى جنب، وهو ما يعني قدراً كبيراً من الاحتكاك ومن ثم التوتر.

٢ ـ وحينما حقق أعضاء الجماعة اليهودية الحراك الاجتماعي، تركوا حياً مثل هارلم، فشغله الأمريكيون السود، حتى أصبح السكان من السود بينما ظل أصحاب العقارات وصغار الملاك وأصحاب محلات الرهونات في الأحياء السوداء من أعضاء الجماعة اليهودية، أي أن اليهودي أصبح الممثِّل الأساسي للمؤسسة البيضاء في أحياء السود، وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى درجة كبيرة غير عادية من الاحتكاك يلعب فيها اليهود دور المستغل المباشر وهو ما يُولِّد الكثير من التوتر.

٣ ـ ظهرت جماعات المسلمين السود والقوة السوداء ممن يرون أن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون قطاعاً مهماً في المؤسسة الحاكمة المستغلة. بل إنهم يذهبون إلى أن اليهود يشكلون جسماً استغلالياً غريباً أبيض يقوم بامتصاص دم الجيتو الأسود وتصدير فائض القيمة خارجه، ومن ثَمَّ يعوقون ظهور رأسمالية أمريكية سوداء. والواقع أن رؤية هذه الجماعات السوداء لليهود لا تختلف كثيراً عن رؤية العرب لإسرائيل.

٤ ـ في أعقاب أحداث لوس أنجلوس، أشار بنيامين هوكس، مدير الجمعية الوطنية للارتقاء بالملونين، إلى التحول الذي طرأ على النظام الرأسمالي الذي انتقل في تصوُّره من التركيز على الصناعة والإنتاج إلى رأسمالية المضاربات بما تؤدي إليه من بطالة. وقال: مهما كان الرأسماليون قساة في الماضي، فإنهم كانوا على الأقل يشيدون السكك الحديدية ويصنعون البواخر ويقطعون الغابات ويصنعون شيئاً.. أما الآن فليس لدينا سوى حفنة من فناني النصب في وول ستريت ممن يتاجرون بالنقود جيئة وذهاباً ويكسبون بلايين الدولارات على حساب صغار الناس.

وقد يبدو هذا الحديث وكأنه حديث عام عن تحوُّل الرأسمالية الأمريكية، من رأسمالية صناعية إلى رأسمالية مالية، وهو بالفعل كذلك، ولكن يجب فك شفرة هذا الخطاب من داخل النسق الأمريكي نفسه. فرأسمالية المضاربات هذه يتركز فيها أعضاء الجماعات اليهودية بشكل واضح. ولعل بنيامين هوكس قد أحجم عن ذكر ذلك مباشرةً حتى لا يُتّهم بمعاداة اليهود، السيف المصلت، ولكن كل من يقرأ هذه الكلمات ويدرك المعاني بين السطور يعرف تماماً معناها الحقيقي.

٥ ـ وبدأت الأقلية السوداء في الولايات المتحدة ترى هويتها في سياق أفريقي ينحاز إلى العالم الثالث. ولذا، أصبح منظورها السياسي مختلفاً تماماً عن المنظور الصهيوني الذي يتبناه أعضاء الجماعة اليهودية، وخصوصاً أن الدولة الصهيونية من أكثر الدول تعاوناً مع جنوب أفريقيا. كما أن تزايُد التعاطف في صفوف الأمريكيين السود مع الفلسطينيين، خصوصاً بعد الانتفاضة، يزيد حدة التوتر. وقد تَفجَّر هذا التوتر حين صرح الزعيم الأفريقي مانديلا بأنه يساند حق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة.

٦ ـ تزايد نفوذ الأقلية السوداء، حيث أصبحت تطالب بنصيب في السلطة يتناسب مع قوتها العددية، الأمر الذي يهدد مكانة أعضاء الجماعة اليهودية.

وليس من المتوقع أن يزول الصراع بين الجماعتين، فقد تخف حدته، وقد تُعقَد اجتماعات تنتهي بإصدار بيانات ودية، ولكن لا يمكن إزالة أسباب هذا الصراع فهو يشكل جزءاً من بنية المجتمع الأمريكي. وقد وقعت عدة حوادث في المدن الأمريكية التي تضم أعداداً كبيرة من الأمريكيين اليهود والسود تبيَّن أن الاتجاه العام يميل إلى تَصاعُد التوتر بل الصدام.

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٢٢٦٤
الترقيم الدولى [illegible]


Bibliotheca Alexandrina
0631097


6 221102 013000